بسم الله الرحمن الرحيم (١)

اللهم صل على محمد وآله وسلم .

قال الفقيه القاضى الإمام الحافظ أبو الفضل عِيَاضُ بن موسى بن عِيَاض اليَحْصُبِي (٢) رضى الله عنه: الحمدُ لله المُتفرِّدِ (٣) باسْمِه الأسْمَى (٤)، المختصّ بالمُلْكِ الأعزّ الأحْمى (٥)، الذى ليس دُونَه مُنْتهى، ولا وراءه مَرْمى (٦)، الظاهر لا تخيُّلًا ووَهْمًا (٧)،

---

(١) فى ب : زيادة : وبه نستعين .

(٢) هو مؤلف الكتاب . وفوق كلمة « اليحصبى» فى ا : « معا » ، وضبطت بالحركات الثلاث . وقال القارى : اليحصبي بتثليث الصاد ، والفتح أخف، وهو نسبة إلى يحصب بن مالك: قبيلة من حمير باليمن . وقال : لاشك أن هذا الإدخال من المقال صدر من بعض أرباب الكمال من تلاميذ المصنف ، أو من بعده .

(٣) فى ب : المنفرد . وهما بمعنى المتوحد الممتاز عن المشاركة .

(٤) الأسمى : الأعلى ؛ من السمو ؛ وهو العلو ، والارتفاع ؛ أى الممتاز عن المشاركة فى اسمه الأعلى .

(٥) الأعز : من العز والمنعة . والعز : حالة مانعة للإنسان عن أن يهان أو يقهر ويغلب . والأحمى: من حميته ، إذا صنته؛ أى هو فى غاية المنعة ، ونهاية الحماية بحيث لايقربه أحد أولا وآخرا .

(٦) أى ليس بعد الله لطالب مطلب ؛ لأن العقول وقفت ثمة ، فليس وراء الله ، ولاوراء معرفته، والإيمان به ـ غاية تقصد . وأصل المرمى: الغرض الذى يرمى إليه ، وإليه ينتهى سهم الرامى ، وبه يحوز السبق ، كما أنه إلى الله تنتهى العقول ، وتقف ؛ فليس وراء معرفته والإيمان به ملتمس ولا غاية يرمى إليها .

(٧) يعنى أن ظهوره تعالى ـ والظاهر الذى علم بالبصيرة ، أو الغالب ـ محقق مكشوف للعقول ، ويقين صادق عند من له بصيرة لقيام الأدلة القاطعة والبراهين البينة الدالة على وجوده ووحدانيته ، لا بحسب التخيل والوهم والظن . وفى ب : ولا وهما .

الباطنِ تَقَدُّسا لا عُدْماً[١] ، وسِعَ كلَّ شيء رحمةً وعِلْماً[٢] ، وأسبغَ على أوليائه نِعَماً عُمَّا[٣] ، وبعث فيهم رسولا من أنفُسِهِم ، أنفَسَهم عُرْبا وعُجْما[٤] ، وأزْكاهم مَحتِداً ومَنْمى[٥] ، وأرجَحَهُم عقلا وحِلْما[٦] ، وأوفرهم عِلْما وفَهْما[٧] ، وأقواهم يقينا وعَزْما ، وأشدَّهم بهم رأفةً ورُحمى[٨] ، وزَكّاه رُوحا وجسما[٩] ،

---

(١) الباطن : الذى لايدرك بالأبصار إدراك إحاطة ؛ والمراد أنه ظاهر بكثرة الأدلة وقوتها وبنعوت ذاته وأفعاله التى لاتخفى . باطن خفى عن إدراك كنه ذاته وحقيقة صفاته. والتقدس: الطهارة والتنزه . أى لتنزهه عن أن يحيط أحد بكنهه ، هذا إن أريد بالباطن الخفى عن البصر فى الدنيا . والعدم : الفقد .

(٢) وسع كل شيء رحمة وعلما: أى أحاط بكل شيء رحمته وعلمه ؛ فإن كل شيء لايستغنى عن رحمته إيجادا وإمدادا ، وعلمه شامل للجزئيات والكليات .

(٣) وأسبغ : أتم وأكمل . والأولياء : جمع ولى . عما : جمع عميمة ، أى عامة ، شاملة تامة .

(٤) أنفسهم ــ بضم الفاء : جمع نفس . والمراد أنه من جنس البشر ؛ وإنما امتاز عنهم بالرسالة والخصائص المودعة التى أهله الله تعالى بها لأن يكون أهلا لأمانته . وأنفسهم ــ بفتح الفاء : من النفاسة ، ونفس ــ بضم الفاء : صار مرغوبا فيه ؛فهو نفيس عظيم فى النفوس يحرص عليه . وقيل الأنفس الأعلى والأشرف ، والأفضل .

(٥) أزكاهم : أكثرهم وأطهرهم . والمحتد : الأصل . منمى : نسبا أو نموا وزيادة ، وارتقاء. والمراد أنه صلى الله عليه وسلم أشرف العرب والعجم، وأعظمهم نسبا ،وحسبه ونسبه الذى انتمى إليه أزكى وأشرف من جميع الأنساب .

(٦) أرجحهم : رجحان العقل : زيادته . والحلم : قوة توجب الصبر على الأذى ، وضبط النفس عن هيجان الغضب .

(٧) وأوفرهم : أكثرهم وأتمهم .

(٨) فى ا ، ب : ورحمى ــ مقصور . والرحم ، والرحمى : الرحمة ، والعطف ، والشفقة وهو تعميم بعد تخصيص .

(٩) زكاه : التزكية : التطهير ، والزيادة ؛ أى خلقه الله زائدا على من سواه ، منزها عن دنس البشرية ، وجعله فى أكمل تقويم وأحسن صورة .

وحاشَاهُ عَيْباً ووَصْما(١) ؛ وآتاه حِكْمةً وحُكْماً(٢) ، وفتح به أعينا عُمياً ، وقلوبا غُلْفاً(٣) ، وآذانا صُمًّا ؛ فآمن به وعزَّره(٤) ، ونصره مَنْ جعل اللهُ له فى مَغْنَم السعادة قِسْما(٥) ، وكذَّب به وصدَفَ عن آياته مَنْ كتب اللهُ عليه الشَّقَاءَ حَتْماً(٦) ، ومَنْ كان فى هذه أعْمَى فهو فى الآخرة أعمى(٧) . صلى الله عليه وسلم صلاةً تَنْمُو وتَنْمَى(٨) ، وعلى آله وسلّم تسليما [كثيرا](٩) .

أما بَعْـدُ أشرقَ اللهُ قَلْبِي وقَلْبَك بأنوارِ اليقين ، ولطفَ لى ولكَ بما لطف لأوليائه المتَّقين ، الذين شرَّفهم اللهُ بِنُزُلِ قُدْسِه(١٠) ، وأوحشَهم من الخليقة بأُنْسه(١١) ،

---

(١) حاشاه : جنبه ، ونزهه ، وبرأه . والوصم : كل عيب ، وعار .

(٢) آتاه : أعطاه . والحكمة : العدل ، والنبوة ، والكلام الحق . وحكما : قضاء وفصلا للأمور على الحق .

(٣) غلفا: جمع أغلف ؛ أى مغطى . ومعناه أن قلوبهم كانت محجوبة عن الهداية، فأزال النبي صلى الله عليه وسلم حجابها ، وكشف غطاءها حتى اهتدت .

(٤) عزره : وقره ، وعظمه ، وأعانه .

(٥) مغنم : بمعنى الغنم والغنيمة ، وهى مايغتنم من كل شيء . قسما : حظا ونصيبا .

(٦) صدف عن آياته : أعرض عن تدبر علامات نبوته .

(٧) فى هذه : فى الدنيا . قال القارى : والمعنى : من كان فى الدنيا لايبصر طريق هدايته لايرى فى العقبى سبيل عنايته .

(٨) تنمو : تزيد : وتنمى : ترفع . وفى ب . وتنمى ــ بالبناء للمجهول ، من الإنماء ؛ أى ويزيدها الله ، أو يزيد ثوابها أبدا ، والمعنى تزيد فى نفسها أو يزاد فيها .

(٩) من ب . قال القارى (٨) : وهو مخل بالسجع المرعى فى الفواصل .

(١٠) النزل ــ بضمتين ، ويسكن الثانى فيهما (وهما بالسكون فى ا، ب): الفضل والكرامة. والقدس : من أسماء الله تعالى، بمعنى المنزه عما لايليق به . والمنزل والنزل : ما يهيأ للضيف من الكرامة،والمبارك . وقدس الله : الجنة ؛ أى شرفهم بإكرامه لهم فى جنته ؛ أى بإسكانه إياهم فيها؛ وخصهم بتشريفه ، وعلو منازلهم ، وتطهيره لهم عن النقائص .

(١١) أوحشهم:جعلهم فى وحشة ونفرة عما لا يلائم. والخليقة : الخلق. والأنس : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة . يعنى أن أنسهم بالله واستغراقهم فى مشاهدته تبعدهم عمن سواه .

وخصّهم من معرفته ومشاهدة [٢] عجائب مَلَكُوته وآثار قُدْرتِهِ بما ملأ قلوبَهم حَبْرة ، وولّه عقولَهم[١] فى عَظَمَته[٢] حَيْرَة ؛ فجعلوا همَّهم به واحداً[٣] ، ولم يروا فى الدارَيْن غَيْرَه [مشاهدا][٤] ؛ فهم بمشاهدة جَمَالِه وجلالِه[٥] يتنعّمونَ ، وبين آثار قُدْرتِهِ وعجائب عظَمته يتردَّدُون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعزَّزُون[٦] ، لَهِجِينَ[٧] بصادقِ قوله[٨] : ﴿ قُلِ اللهُ ، ثم ذَرْهُمْ فى خَوْضِهم يَلْعبونَ ﴾[٩] .

فإنكَ[١٠] كرّرت علىَّ السؤالَ فى مجموعٍ[١١] يتضمّن التعريفَ بقَدْر المصطفى عليه [الصلاة][١٢] والسلام ، وما يجبُ له من توقير[١٣] وإكرام ، وما حُكم مَنْ لم يُوَفِّ

---

(١) حبرة : مسرة . والوله : الحزن أو ذهاب العقل ؛ أى جعلها والهة متحيرة بتدبرها وتفكرها فى عظمته . (٢) فى ب : من عظمته .

(٣) الهم : العزيمة ، والإرادة ، والقصد ، وكل مطلوب يهمك ويعنيك . والمراد أنهم لما شاهدوا باهر قدرته تحيرت عقولهم فى كبرياء عظمته ، وعلموا أن ماسواه كلا شىء ، فوجهوا جميع وجوه الإرادة والعزيمة إليه ، وجعلوا قبلتهم واحدة ؛ فلا مراد لهم سواه ، لاشتغالهم به عما عداه .

(٤) ليس فى ا . قال القارى : لعل بعض أرباب النسخ استنكر لفظ « مشاهدا » فأسقطه مع أنه لايتم بدونه التسجيع .

(٥) فى ب : كماله . والجلال : العظمة ؛ يعنى أنهم يشاهدون جمال ربهم ، وأنوار ذاته بعيون البصائر فى الآخرة ، فيكونون بذلك فى نعيم .

(٦) يتعززون : التعزز : تفعل من العز ، ضد الذل ، ويكون بمعنى القوة . قال القارى : وفيه إشارة لطيفة إلى أنهم إلى غيره لا يتذللون ، لأنهم بما آتاهم الله تعالى يرضون ويقنعون . (٧) لهجين : ملازمين مداومين ، مولعين ، متمسكين .

(٨) سورة الأنعام ، آية ٩١

(٩) يعنى أن هؤلاء الخاصين لله المختصين به الذين شغلوا ظاهرهم وباطنهم بمحبته ، وردهم دائما ذكر الله والإعراض عما سواه ، متمثلين بهذه الآية .

(١٠) فإنك جواب « أما » فى: « أما بعد » التى سبقت .

(١١) مجموع : كتاب يجمع فيه صنف من الشمائل النبوية ، ومؤلف اجتمع فيه نوع من الفضائل المصطفوية . (١٢) ليس فى ب . (١٣) توقير : تعظيم ، واحترام .

واجبَ[١] عظيمِ ذلك القَدْر ، أو قصَّر فى حق مَنْصِبه الجليل قُلامةَ ظُفُر[٢] ؛ وأن أَجمعَ لكَ ما لأسلافنا وأئمتنا فى ذلك من مقَالٍ ، وأُبيِّنَهُ بتنزيل[٣] صُوَر وأمثال .

فاعلم - أكرمكَ الله - أنك حمَّلتنى من ذلك أمراً إمْراً[٤] ، وأرهقتنى فيما ندبْتنِي إليه عُسْراً[٥] ، وأرقيتنى بما كلفتنى مُرْتَقًى صَعْباً ، ملأ قلبى رُعبا[٦] ؛ فإنّ الكلامَ فى ذلك يستَدْعى تقرير أصولٍ وتحرير فصول ، والكشفَ عن غوامِضَ ودقائقَ من عِلْم الحقائق[٧] ، مما يجبُ للنبىّ صلى الله عليه وسلم ويضافُ إليه ، أو يمتنعُ أو يجوز عليه ، ومعرفة النبيِّ والرسول ، والرِّسالة والنبوّة ، والمحبَّةِ والخُلّة[٨] ، وخصائص هذه الدرجة العليّة، وها هنا مَهَامِهُ فِيحٌ تَحارُ فيها القَطَا،وتَقْصُر بها الخُطا[٩] ؛

(١) فى ب : يوف - بتخفيف الفاء . ويوف : يتمم ويكمل .

(٢) قلامة ظفر : تقصيرا قليلا بقدار قلامة الظفر . والظفر للإنسان معروف . والقلامة : ماقطع منه . وقلامة الظفر كناية عن القلة والحقارة .

(٣) بتنزيل صور : بتصوير صور وأمثال ، وتقرير محامل يزول به الإشكال ، إيضاحا للمعنى ، وإيصالا إلى الذهن فى المبنى .

(٤) إمرا : عظيما ، أو عجيبا ، أو شاقا ؛ أى كلفتنى أمرا عظيما ؛ أو عجيبا طلبه منى ؛ لأنى لست بأهل له ؛ وفيه تواضع وهضم لنفسه .

(٥) الإرهاق : تكليف ما لا يطاق . ندبتنى إليه : طلبته منى ودعوتنى إليه . عسرا : أمرا عسيرا . (٦) رعبا : خوفا وفزعا .

(٧) فى ب : والكشف عن دقائق غوامض من علم الحقائق .

(٨) الخلة : الصداقة (القاموس) .

(٩) مهامه : جمع مهمه ؛ وهو القفر والمفازة البعيدة . فيح : جمع أفيح أو فيحاء ، وهى الأرض الواسعة . والقطا : جمع قطاة ، طائر ؛ وتوصف بسرعة الطيران والاهتداء فى الظلمات والتبكير . ويضرب بها المثل فيقال : أهدى من القطا . والمعنى أن هذه المهامه مع سعتها وكونها لايعلمها سالكها، أو لكونها وعرة ذات شوك وصخور تمنع الماشى فيها من مد الخطا. والمراد صعوبة ما كلف به . وفى ا : وتقصر - بالبناء للمجهول .

ومَجَاهِلُ تَضِلّ فيها الأحلام[1] إن لم تهتدِ بعلَم علمٍ ونظَرٍ سديد؛ ومَدَاحِضُ تزلّ [٣] بها الأقدام[2] إن لم تعتمدْ على توفيق من الله وتأييد.

لكنى لما رجَوته لى ولكَ فى هذا السوءالِ والجوابِ من نوَالٍ وثوابٍ[3]، بتعريف قَدْره الجسيم، وخُلُقِه العظيم، وبيان خصائصه التى لم تجتمع قبلُ فى مخلوق، وما يُدَانُ اللهُ تعالى[4] به من حقّه الذى هو أرفعُ الحقوقِ، ليستَيْقِنَ[5] الذين أوتُوا الكتاب، ويَزْدَادَ الذين آمنُوا إيمانا، ولما أخذَ اللهُ تعالى على[6] الذين أوتُوا الكتاب ليُبَيِّنُنّه للناس ولا يكتمونه؛ ولما حدثنا به أبو[7] الوَليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتى عليه؛ قال: حدثنا الحُسَين بن محمد، حدثنا أبو عُمر النَّمَرِى[8]، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن[9]، حدثنا أبو بكر محمد[10] بن بكر، حدثنا سليمان

---

(١) تضل بها الأحلام: تضل: لاتهتدى. والأحلام: العقول.

(٢) مداحض: مزالق. تزل: تزلق.

(٣) النوال: العطاء. والثواب: الجزاء.

(٤) يدان الله: يعبد ويطاع.

(٥) استيقن: علم علما محققا لاشبهة فيه. أى يتيقن أهل الكتاب حقيقة رسالته، ويزداد إيمان المؤمنين من أمته بتحقق ماله صلى الله عليه وسلم من المحامد. والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى. والكتاب: التوراة والإنجيل. وغيرهما من الكتب السماوية.

(٦) كانت مكتوبة فى ا: ولما أخذ الله تعالى ميثاق الذين ... وكتب أمامها فى الهامش: على الذين، وعليها علامة الصحة.

(٧) هو الإمام القرطبى الزاهد المحدث المعروف بابن العواد، أحد شيوخ المصنف، وتوفى بقرطبة سنة تسع وخمسمائة. وفى شرح القارى: وهو هشام بن أحمد بن هشام، يعرف بابن بقوة؛ وهو إمام حافظ، وشيخ من شيوخه الذين اعتمد على النقل عنهم فى هذا الكتاب وغيره.

(٨) هو ابن عبدالبر صاحب الاستيعاب وغيره من الكتب الجليلة. وهو يوسف بن عبدالله ابن محمد بن عبد البر بن عامر النمرى القرطبى الأندلسى. توفى سنة ٤٦٣ هـ.

(٩) من شيوخ ابن عبد البر. وفى ب: أخبرنا ــ بدل حدثنا. واسمه: عبد الله بن محمد ابن عبد المؤمن. وله ترجمة فى الميزان (٢ ــ ٤٩٨).

(١٠) هو ابن داسة، من مشايخ الحديث المشهورين. وهو أحد رواة سنن أبى داود عنه.

ابن الأشعث[١] ، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمّاد[٢] ، حدثنا عليّ بن الحكم، عن عطاء[٣] ، عن أبي هُرَيْرَة رضيَ اللهُ عنه ؛ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ سُئِل عن عِلْمٍ فكَتَمه[٤] أَلجمه اللهُ بلجام من نارٍ يَوْمَ القِيَامة[٥] .

فَبادَرْت إلى نُكَتٍ مُسْفِرَة عن وَجْهِ الغَرَضِ ، مُؤَدِّيا مِنْ ذلك الحقّ المُفْتَرَضَ[٦] ، اختَلَسْتُها على استعجال[٧] ، لما المرء بصَدَدِه من شُغْل البَدَن والبَال ، بما[٨] طُوِّقَه مِنْ مَقَاليد المِحْنة التى ابتُلِى بها ، فكادت تَشْغَل عن كلّ فَرْضٍ ونَفْلٍ ، وتَرُد بعد حُسْنِ التقويم إلى أسفَلِ سُفْلٍ[٩] ؛ ولو أَراد اللهُ بالإنسان خيراً لجعلَ شُغْلَه وهَمَّه كلَّه فيما يُحْمَد غداً أو يُذَمّ مَحِلّه[١٠] ؛ فليس ثَمَّ سِوَى حَضْرة النَّعيم[١١] ، أو عذابِ

(١) فى ب : ابن أشعث . وهو صاحب سنن أبي داود . مات سنة ٢٧٥ هـ .

(٢) هو حماد بن سلمة بن دينار ، أحد الأعلام ، توفى سنة ١٦٧ هـ . وله ترجمة فى الميزان : (١ — ٥٩٠) .

(٣) هو عطاء بن أبي رباح ، أو ابن يسار .

(٤) فى ب : وكتمه . وفى الترمذى : ثم كتمه .

(٥) المراد بالعلم المتوعد على كتمه ما يلزم تعليمه ويتعين ؛ كتعليم حديث عهد بإسلام مايتعلق بالصلاة ، ومستفت فى الحلال والحرام . والحديث فى سنن الترمذى : ٥ — ٢٩ . وسنن أبي داود : ٢ — ٨٢ .

(٦) نكت : جمع نكتة ، وهى المعنى الدقيق النادر ، والكلام القليل الحسن . مسفرة : مضيئة وكاشفة . وفى ب : مسفرة ، وأمامها فى الهامش : سافرة ، وعليها علامة الصحة . والمفترض : اللازم .

(٧) الاختلاس : اختطاف الشىء بسرعة .

(٨) فى ب: مما ، والمراد ما كلفه ولزمه من الأمور الشاغلة ، ومنه تقليد الأعمال السلطانية، من الأمور الدنيوية .

(٩) أى تعدل بى عن الطريق المستقيم المستبين إلى أسفل سافلين .

(١٠) شغله : ما يشغل به نفسه من أفعاله وأقواله . وهمه : ما يهتم به ويعتنى به . محله : مكانه . والحاء تفتح وتكسر فيها .

(١١) النعيم : الجنة . وحضرته ، حضوره .

الجحيم، ولكان عليه خُوَيْصّته، واستِنقَاذِ مُهْجَته[١] وعَملٍ صالحٍ يستزيدُه، وعِلْمٍ نافع يُفيده أو يستفيدُه.

جَبَر اللهُ صَدع قلوبنا[٢]، وغَفَرَ عظيمَ ذنُوبنا، وجعل جميع [٣] استعدادنا لِمَعَادِنا، وتوفُّرَ دَواعِينا فيما يُنْجِينا ويقرِّبُنا إليه زُلْفَى[٣]، ويُحْظِينا بمنّه [وكرمِهِ][٤] ورحمته.

ولما نويتُ تَقْرِيبه[٥]، ودرَّجتُ تبْوِيبه[٦]، ومهّدت تَأْصِيله[٧]، وخلَّصت[٨] تفصيله، وانتحيتُ حَصْره وتحصيله، ترجَمْتُه[٩] بـ«الشِّفَا بتعريف حقُوقِ المصطفى»؛ وحصرتُ الكلام فيه في أقسام أربعة:

القسم الأول ـ في تعظيم العليّ الأعلى لقَدْرِ هذا النبيّ قولا وفِعْلا، وتوجَّه الكلامُ فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في ثنائه تعالى عليه، وإظهارِهِ عظيمَ قَدْرِه[١٠] لديه؛ وفيه عشرةُ فصول.

---

(١) خويصته: نفسه. والمهجة: الروح.

(٢) الجبر: إصلاح ما انكسر. والصدع: الشق.

(٣) زلفى: قربا، أو تقريبا، كاملا. (٤) من ب.

(٥) تحت «نويت تقريبه» في ب: أي للأفهام.

(٦) تحت كلمة: «درجت تبويبه» أدنيت. والمراد أنه جعل تبويبه مرتبا ومدرجا، درجة درجة في التأليف.

(٧) ومهدت تأصيله: التأصيل: ذكر القواعد والأصول. يعني أنه ذكر فيه قواعد وأدلة تنبني عليها مشاكل أبوابه. وتحت كلمة «تأصيله»؛ أي ذكرت أصوله.

(٨) في ب: ولخصت.

(٩) المراد سميته.

(١٠) الثناء: الوصف بالجميل. وقدر الشيء: مقداره وشرف رتبته.

الباب الثانى : فى تكميله تعالى لَهُ المحاسِنَ خَلْقاوخُلُقا، وقِرَانِه جميعَ الفضائل الدينية والدّنيوية فيه نَسَقاً [١] ؛ وفيه سبعةٌ وعشرون فصلا .

الباب الثالث : فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها [٤] بعظيم قَدْرِه عند ربه ومَنْزِلته ، وماخَصَّه به فى الدارين مِنْ كَرَامته [٢] ؛ وفيه اثنا عشَر فَصْلا [٣] .

الباب الرابع : فيما أظهره اللهُ تعالى على يديه من الآيات والْمُعجزات [٤] ، وشرّفه به من الخصائص والكرامات ؛ وفيه ثلاثون فَصْلا [٥] .

القسم الثانى ـ فيما يجب على الأنام [٦] من حقوقه عليه السلام ، ويترتّبُ القولُ فيه فى أربعة أبواب :

الباب الأول : فى فَرْضِ الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سُنَّته ؛ وفيه خمسة [٧] فصول .

الباب الثانى : فى لزوم محبته ومُنَاصحته [٨] ؛ وفيه ستة فصول [٩] .

الباب الثالث : فى تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره ؛ وفيه سبعة [١٠] فصول .

---

(١) قرانه : جمعه . نسقا : المراد أنه جمعها على وجه متناسب يأخذ بعضه بحجز بعض .

(٢) من كرامته : أى مما فيه تكريم وتبجيل له .

(٣) فى هذا الباب خمسة عشر فصلا ، كما سيأتى . وقال القارى : (١ — ٢٢) هكذا فى كل النسخ التى عليها الرواية والتصحيح والمقابلة، والذى فى هذا الباب من الفصول خمسة عشر، ولعله أراد بالاثنى عشر فصولا مهمة وبزيادة الثلاثة مكملة ومتممة .

(٤) الآيات : جمع آية ، وهى العلامة الدالة على نبوته ؛ والآية والمعجزة يشتركان فى الدلالة على صدقه ، غير أن المعجزة تخص بالتحدى .

(٥) هى تسعة وعشرون فصلا ، كما يأتى .

(٦) الأنام : الخلق ، أو الإنس والجن .

(٧) هى أربعة ، كما سيأتى .

(٨) المناصحة : إرادة الخير للغير ، وإرشاده له .

(٩) هى خمسة كما سيأتى . (١٠) هى ستة كما سيأتى .

الباب الرابع: فى حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته؛ وفيه عشرة فصول[١].

القسم الثالث ـ فيما يستحيل[٢] فى حقه، وما يجوزُ عليه شرعا، وما يمتنعُ ويصِحُّ من الأمور البَشَرّية أَنْ يضاف[٣] إليه.

وهذا القسم ـ أكرمك الله ـ هو سِرُّ الكِتَاب، ولُبَابُ ثمرةِ[٤] هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نُورِده فيه من النّكَت البيِّنات، وهو الحاكم على ما بعده، والمُنْجزُ مِنْ غَرض هذا التأليف وَعْدَه، وعند التقصّى لموعدته، والتفصِّى عن عهدته[٥]، يَشْرَقُ صَدْرُ العدوِّ اللّعينِ[٦]، ويُشْرِقُ قلبُ المؤمنِ باليَقِين، وتملأُ أنوارُه جوانح[٧] صَدره ويَقْدُر العاقلُ النبيَّ حقَّ قدره[٨].

ويتحرّر الكلامُ فيه فى بابين [ه]:

الباب الأول: فيما يختصُّ بالأمور الدينية، ويتشبَّثُ به القولُ فى العصمةِ[٩]؛ وفيه ستة عشَر فَصْلا.

---

(١) هى تسعة كما سيأتى. (٢) يستحيل: يمتنع امتناعا قويا حتى يلحق بالمحال عقلا.

(٣) يضاف إليه: ينسب إليه. (٤) لباب كل شىء: خالصه.

(٥) التقصى: الاستقصاء؛ وهو بلوغ أقصى الشىء وغايته. وقال الشهاب: أو هى التقضى ـ بالضاد المعجمة، من تقضى الأمر: إذا تم. والتفصى: الخروج والتخلص.

(٦) يشرق: أصل معناه وقوف الشراب ونحوه فى الحلق، والمراد يتألم ويغتاظ. والمراد بالعدو اللعين: إبليس، أو جنس العدو.

(٧) جوانح صدره: الجوانح: جمع جانحة، وهى الضلوع التى تلى الصدر تحت الترائب.

(٨) يقدره: يعرف مقداره، ويتصور عظيم مقامه.

(٩) ويتشبث: يتعلق. والعصمة: منع الله عبده عن جميع ما لا يرضاه من الذنوب بمجرد حفظ الله له، أو بخلق الله له صفة نفسانية تمنعه من ارتكابها. والعصمة أيضا تكون بمعنى صونه عن أذية أعدائه بحيث لايقدرون عليها.

الباب الثانى : فى أحواله الدنيويَّة، وما يجوز طرُوءه عليه من الأعراض البشريَّة[١]؛ وفيه تسعةُ فصول[٢] .

القسم الرابع ـ فى تصرُّف وُجوهِ الأحكام على مَنْ تنقصَّهُ أو سبَّهُ[٣] صلّى الله عليه وسلم ، وينقسم الكلام فيه فى بابين :

الباب الأول : فى بيان ما هو فى حقّه سَبٌّ ونَقْص ؛ من تعريض ، أو نَصٍّ ؛ وفيه[٤] عشرةُ فصول .

الباب الثانى : فى حكم شانئه ومُؤْذِيه ومُتَنَقِّصه وعقوبتِه[٥] ، وذِكْرِ استِتابَته، والصلاة عليه ، ووِراثتِه ؛ وفيه عشرةُ فصول .

وختمناهُ ببابٍ ثالث جعلناه تكملةً لهذه المسألة [٥] ، ووُصْلةً للبابين اللذينِ قَبْله فى حُكم مَنْ سَبَّ اللهَ تعالى ورُسلَه وملائكتَه وكُتبه ؛ وآل النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه .

واختُصر الكلام فيه فى خمسة[٦] فصول، وبتمامها يَنْتَجز[٧] الكتاب ، وتتمُّ الأقسام والأبواب ، وتلُوحُ فى غُرّةِ الإيمان لُمعةٌ منيرة[٨] ، وفى تاج التراجم دُرة

---

(١) طروءه : عروضه وحدوثه . الأعراض: جمع عرض ؛ وهو مايعرض له من الأمور البشرية .

(٢) هى ثمانية ، لاتسعة ، كما سيأتى .

(٣) تنقصه : نسب النقص إليه . والسب : الشتم . (٤) هى تسعة كما سيأتى .

(٥) الشانئ : المبغض . وتنقصه : أتى بما فيه نقص لكمال قدره من قول أو فعل .

(٦) سيأتى أنها عشرة . (٧) ينتجز : يتم ويكمل .

(٨) يلوح : يظهر . والغرة فى الأصل : بياض فى جبهة الفرس ، واللمعة : من لمع الشىء: أضاء . والمراد أنه إذا تم ما فى كتابه وانتقش فى صحائف الأذهان ازداد نور الإيمان ؛ لأن الإيمان بالله ورسله عليهم الصلاة والسلام إذا قرن بتعظيم هذا النبي الكريم ومحبته والعلم بما تؤدى إليه مخالفته من النكال أوصل صاحبه لأعلى عليين .

خَطيرة ، تُزِيح كل لَبْس(١) ، وتوضحُ كل تخمين وحَدْس(٢) ، وتَشفِي صُدورَ قومٍ مؤمنين ، وتَصْدعُ بالحق(٣) ، وتُعرض عن الجاهلين ؛ وبالله تعالى - لا إله سِوَاه - أستَعِين .

القِسم الأول

فى تعظيم العلىّ الأعلى لقَدْرِ هذا(٤) النبىّ قولا وفعلا

قال [الفقيه](٥) القاضى الإمام أبو الفَضل رَضِىَ الله عنه :

لا خفاء على مَنْ مارس شَيْئاً من العِلْم(٦) ، أَو خُصَّ بأدْنَى لمحة مِنْ فَهْم(٧) ، بتعظيم الله تعالى قَدْرَ نبينا عليه [الصلاة و](٨) السلام ، وخصوصِه(٩) إياه بفضائل

---

(١) تزيح : تزيل . واللبس : الخلط ، والاشتباه .

(٢) التخمين والحدس : التخمين : قول من غير تحقيق . والحدس : قول صادر عن ظن ووهم .

(٣) تصدع بالحق : تجهر بما يدل على الحق .

(٤) فى ب : لقدر النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا . والمثبت فى ا .

قال الخفاجى: فى هذا الفصل ثناء الله ومدحه لنبيه صلى الله عليه وسلم بكونه أنفس الناس ذاتا وحسبا ونسبا ، وكونه خيرا ورحمة عامة فى حياته ومماته ، وكونه نورا محضا للعالم ، وكونه ذا صدر واسع منشرح ، ورفعة قدره واسمه بمقارنته لاسم ربه وذكره ، وأنه الصراط المستقيم.

(٥) من ب. وقال فى نسيم الرياض : ماوقع فى النسخ من مثل هذا وما شابهه ، من قوله: الإمام - من تلامذته النساخ ؛ لأنه لايمدح نفسه . وقال القارى :فيه إشعار بأنه من كلام غيره.

(٦) مارس : عالج ، ولازم ، وزاول .

(٧) لمحة من فهم : شىء قليل من الفهم . (٨) من ب .

(٩) وخصوصه إياه : وتخصيصه .

ومحاسن ومناقبَ لا تنضبط لزمام(١) ، وتنويهه(٢) مِنْ عظيم(٣) قَدْرِه بما تكلُّ عنه الأَلسِنةُ والأقلام :

فمنها ما صَرّح به تعالى فى كتابه ، ونَبَّه به على جَلِيلِ نِصابه(٤) ، وأثنى عليه من أَخلاقه وآدابه ، وحضَّ العبادَ على التزامِه(٥) ، وتقلّدِ إِجابه ؛ فكانَ جلَّ جلالُه هو الذى تفضّل وأَوْلى(٦) ، ثم طَهّر وزَكّى ، ثم مدَحَ بذلك وأَثنى ، ثم أَثاب عليه الجزاءَ الأوفى(٧) ، فله الفَضْلُ بَدْءا [٦] وعَوْداً(٨) ، والحمد أُولَى وأُخْرَى(٩) .

ومنها ما أَبْرَزه(١٠) للعِيان من خَلقه على أتم وجوه الكمال والجلال ، وتخصيصُه بالمحاسن الجميلة، والأَخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة(١١) ، والفضائل العديدة؛ وتأييدُه

---

(١) لزمام : لضابط يريد ضبطها ، ويقصد ربطها ، ويجتهد فى إحصائها .

(٢) يقال : نوهت باسمه ؛ إذا رفعت ذكره وأشعت تعظيمه .

(٣) فى ب : بعظيم قدره .

(٤) النصاب والمنصب : العلو والرفعة والشرف ؛ أى إن الله جل وعلا بذكره له صلى الله عليه وسلم فى كتابه المنزل نبه على جليل قدره ورفعته وشرفه .

(٥) الحض : الحث والطلب الشديد السريع .

(٦) أولى : أعطى . أو أنعم عليه بما علم المولى بأنه الأولى .

(٧) الأوفى : التام الكامل .

(٨) بدءا وعودا ؛ البدء : الابتداء . والعود : الرجوع ؛ أى أولا وآخرا .

(٩) أولى وأخرى : أى هو مستحق للحمد فى أول الأمر وآخره. أو فى الدنيا والآخرة.

(١٠) ما أبرزه : ما أظهره ظهورا تاما . والعيان ـ بكسر العين : المعاينة . وفى ب: كتب تحتها بكسر العين .

(١١) المذاهب : جمع مذهب ، وهو الطريق ، ويطلق على ما اختير من الأفعال وغيرها، كما يقال مذهب الفقهاء . والمراد مسالكه صلى الله عليه وسلم فى أحواله مع أمته أو فى نفسه .

بالمعجزات الباهرة[١] ، والبراهين الواضحة ، والكرامات البيِّنة[٢] التى شاهَدَها مَنْ عاصَره ، ورآها من أدْركه ، وعَلِمهاَ عِلْمَ يَقِين من جاء بعده ، حتى انتهى عِلمُ حقيقة ذلك إلينا ، وفاضتْ أنواره علينا ، صلى الله عليه وسلَّم كثيرا .

حدثنا القاضى الشهيد أبو على الحُسين بن محمد الحافظ ، رحمه الله ، قراءةً منّى عليه[٣] ؛ قال : أبو الحسين المبارك بن عبد الجبّار ، وأبو الفَضْل أحمد بن خَيْرُون ؛ قالا : حدّثنا أبو يَعْلى البغدادى ؛ قال : حدثنا أبو على السِّنْجِى ؛ قال : حدثنا محمد ابن أحمد بن محبوب ، قال: حدثنا أبو عِيسى بن سَوْرة الحافظ[٤] ؛ قال : حـــدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا عبد الرزّاق ، أنبأنا مَعْمَر ، عن قتادة ، عن أَنَس ـ أن[٥] النبي صلى الله عليه وسلم أُتى بالبُرَاق[٦] ليلة أُسْرِى به مُلَجماً مُسْرَجاً[٧] ، فاستَصْعَبَ عليه[٨] ؛ فقال له جبريل : أَبِمُحَمَّد تَفعلُ هذا ؟ فما رَكِبكَ أحدٌ أكرم على اللهِ منه . قال : فارْفَضَّ عرَقًا[٩] .

---

(١) الباهرة : العجيبة ، أو الظاهرة ظهورا لايمكن ستره ، أو الفائقة الغالبة القاهرة .

(٢) الكرامات : جمع كرامة ، وهى أمر أكرم الله به من اصطفاه من عباده المتقين بدون تحد ودعوى نبوة ؛ فيكون للنبي وللولى ، وأعم من المعجزة لاشتراط مقارنة النبوة والتحدى فيها . والبينة : الظاهرة .

(٣) هو شيخ المصنف قرأ عليه بالأندلس . وهو المعروف بابن سكرة ، استشهد بثغر الأندلس سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان من أهل الحديث .

(٤) هو الترمذى ، صاحب الجامع الصحيح .

(٥) فى نسيم الرياض: وهذا حديث حسن مسند فى الترمذى وغيره (سنن الترمذى : ٥ ـ ٣٠١)

(٦) البراق : دابة فوق الحمار ودون البغل ، سمى به لشدة سرعته .

(٧) ملجما مسرجا : مهيأ للركوب بسرجه ولجامه . وفى ب ضبطت الجيم والراء بالكسرة .

(٨) فاستصعب عليه ؛ صعب ، أى إنه صلى الله عليه وسلم لما أراد ركوبه لم يقر حتى يركبه ، أى امتنع وأبى أن يركب بسهولة .

(٩) فارفض عرقا : سال وتصبب عرقه .

الباب الأول

فى ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عظيم قَدْرِه لديه

اعلم أن فى كتاب الله العزيز آياتٍ كثيرةً مفصحة[١] بجميل ذكر المصطفى ، وعدِّ محاسنه ، وتعظيم أمره ، وتنويه قَدْره[٢] ، اعتمدنا منها على ماظهر معناه ، وبانَ فَحْواه ، وجمعنا ذلك فى عشرة فصول :

الفصل الأول

فيما جاء من ذلك مَجىءَ المدح والثناء وتَعداد المحاسن ؛ كقوله تعالى[٣] : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفُسِكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾.

قال السَّمَرْقَنْدِى[٤] [٦] : وقرأ بعضهم : من أَنْفَسِكم ـ بفتح الفاء . وقراءةُ الجمهور بالضم .

قال[٥] القاضى الإمام أبو الفضل ـ [وفّقه الله][٦] : أعلَمَ اللهُ تعالى المؤمنين ، أو العرب ، أو أهل مكة ، أو جميع الناس ، على اختلاف المفسرين : مَن المواجَهُ بهذا

---

(١) مفصحة : دالة كاشفة ، مبينة .

(٢) وتنويه قدره : أى رفعة شأنه بإشاعته على وجه التعظيم والتكريم .

(٣) سورة التوبة ، آية ١٢٨ . رسول من أنفسكم : من جنسكم البشرى ، ومن قبيلكم العربى . عزيز عليه ما عنتم : شديد شاق عليه عنتكم وتعبكم ووقوعكم فى العذاب . حريص عليكم أن تؤمنوا .

(٤) السمرقندى : نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندى الفقيه المحدث المفسر . وسيأتى فى مواضع من كتاب الشفاء حيث يروى عنه القاضى بواسطة واحدة .

(٥) هو المؤلف . وانظرها مش رقم ٢ صفحة ٢ .

(٦) ليس فى ب .

الخطاب[١] أنه بعث فيهم رسولا من أنفُسهم يعرفونه[٢] ، ويتحقّقون مكانه[٣] ، ويعلمون صدقَه وأمانته ؛ فلا يتهمونه بالكذب وترْك النصيحة لهم ، لكونه منهم ، وأنه لم تكن فى العرب قَبيلةٌ إلّا ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة أو قَرَابة[٤]،[وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى[٥]: ﴿إلّا المودّةَ فى القُربَى﴾][٦]: وكَوْنِهِ من أَشرَفهم ، وأَرفَعِهم ، وأفْضلهم، على قراءة الفتح[٧]؛ وهذه نهاية المدح ؛ ثم وصفه بعدُ بأَوصاف حَمِيدة، وأثنى عليه بمَحَامد[٨] كثيرة ؛ من حِرْصه على هدايتهم ورُشدهم وإسلامهم[٩] ، وشدة ما يُعنِّتهم[١٠] ويضُرّ بهم فى دُنياهم وأُخْراهم ، وعزّتِه ورأفته ورحمته بمؤمنهم .

قال بعضهم : أَعطاهُ اسْمَيْنِ من أسمائه : رءوف ، رَحيم .

ومثلُه فى الآية الأخرى : قوله تعالى[١١] : ﴿لقد مَنَّ اللهُ على المُؤْمِنين إذ بَعَثَ فيهمْ رسولًا من أنفُسِهم يَتْلُو عليهم آياتِهِ ويُزكّيهم ، ويُعَلِّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مُبين﴾ .

---

(١) الخطاب فى الآية السابقة : لقد جاءكم . . .

(٢) يعرفونه : أى يعرفون ذاته وصفاته وأحواله ، وذكره فى الكتب القديمة .

(٣) مكانه : قدره ورتبته ومنزلته .

(٤) ولادة أو قرابة : يعنى أن كل قبيلة من العرب فيها للنبى صلى الله عليه وسلم أب أو جد أو أم . أو قرابة له . أو المراد بالولادة : القرابة القريبة ، وبالقرابة : القرابة البعيدة .

(٥) سورة الشورى ، آية ٢٣ .

(٦) ما بين القوسين فى هامش ا ، وكتب فيها بعد العبارة : من الأم العتيقة ، وليس من الرواية . وليس ما بين القوسين فى ب مما يدل على زيادتها. (٧) فى كلمة: أنفسهم — بفتح الفاء .

(٨) حميدة : محمودة . والمحامد : جمع محمدة ، وهى المحمودة أيضا .

(٩) رشدهم : إرشادهم . وإسلامهم؛ أى انقيادهم واستسلامهم.

(١٠) ما يعنتهم : ما يشق عليهم . وفى ب : ما يعنتهم — بضم الياء وسكون العين .

(١١) سورة آل عمران ، آية ١٦٤ .

وفى الآية الأخرى[١] : ﴿ هو الذى بعث فى الأُمِّيِّين رسولا منهم يتلو عليهم آياتِه ويُزَكِّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكْمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مُبين ﴾ .

وقوله تعالى[٢] : ﴿ كما أَرسلْنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليْكُم آياتنا ويُزَكِّيكُم ويعلِّمكم الكتابَ والحكمة ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ .

ورُوِى عن علىّ بن أبى طالب ، عنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى[٣] : من أنفَسِكم[٤] — قال : نَسباً وصِهراً وحَسَبا[٥] ؛ ليس فى آبائى من لَدُن آدم سِفَاح ، كُلّنا[٦] نِكاح .

[قال ابنُ الكلبى[٧] : كتبتُ للنبى صلى الله عليه وسلم خَمْسَمائة أُمّ ، فما وجَدْتُ فيهن سِفَاحاولا شيئاً مما كان عليه الجاهلية .

---

(١) سورة الجمعة ، آية ٢ . قال القارى : فى الأميين ؛ أى العرب الذى غالبهم ماقرأ ولا كتب .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٥١ (٣) سورة آل عمران ، آية ١٦٤

(٤) فى نسيم الرياض : قال ابن المنير : من أنفسهم : من جنسهم يعرفون حاله ، وأنه ماقرأ ولا درس ، وقد جاءه العلم فقص سير الأولين والآخرين على ماهم عليه حرفا بحرف؛ فيعلم العاقل أنه أمر خارق من عند الخالق ، كل ذلك إبلاغ فى ظهور حجته ووضوح معجزته .

(٥) النسب : القرابة مطلقا ، أو من جهة الآباء . والصهر : واحد الأصهار : أهل بيت المرأة . وقيل : كل أصهار : من كان من قبل الزوج ، ومن كان من قبل المرأة . والحسب : مايعد من المآثر ، والشرف .

(٦) أى ليس فى آبائى من حيث أبوتهم ، ولا فى أمهاتى سفاح؛ والسفاح : الزنا والفجور . والنكاح هنا عقد النكاح والزواج . وفوق كلمة سفاح فى ب : أى الزنا .

فقد صانه الله وأسلافه عما يشين، وطهر أرحامهم عن دنس السفاح ، فلم يزل الرسول ينقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطيبة مصفى مهذبا .

(٧) ابن الكلبى : هو محمد بن السائب ، المفسر النسابة الأخبارى (ميزان الاعتدال : ٣ — ٥٥٦) .

وعن ابن عبَّاس رضى الله عنه ـ فى قوله تعالى[١] : ﴿ وتقلُّبك فى الساجِدين ﴾ ـ قال[٢] : مِنْ نَبيّ إلى نَبيّ ، حتى أخرجَكَ نبيًّا][٣] .

وقال جَعْفر بن محمد : عَلِم اللهُ عجزَ خَلْقِه عن طاعتِهِ ، فعرَّفهم ذلك ؛ لكى يَعلَمُوا أنهم لا ينالون الصفو[٤] من خدمته ؛ فأقام بينهم وبينه مخلوقا من جنسهم فى الصُّورة ، وألبسه من نَعته[٥] [٧] الرأفةَ والرحمة ، وأخرجَهُ إلى الخَلْقِ سفيراً[٦] صادقا ، وجعل طاعتَه طاعتَهُ ، وموافقته[٧] موافقَتَه ؛ فقال تعالى[٨] : ﴿ مَنْ يُطع الرَّسول فقد أطاع اللهَ ﴾ . وقال اللهُ تعالى[٩] : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

قال أبو بكر بن طاهر : زَيَّن الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة ؛ فكان كونُه[١٠] رحمة ، وجميعُ شمائله وصفاتِه رحمةً على الخَلْقِ ؛ فمن أصابه شىء من رحمته فهو الناجى فى الدَّارَيْنِ من كلّ مكروه ، والواصلُ فيهما إلى كل محبوب ؛

(١) سورة الشعراء ، آية ٢١٩

(٢) قال السيوطى : هذا الحديث أخرجه ابن سعد ، والبزار ، وأبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح عن ابن عباس ، رضى الله عنها (١ ـ ٦٧) . وفى تفسير ابن كثير (٣ ـ ٣٥٢) : وروى البزار ، وابن أبى حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى حتى أخرجه نبيا .

(٣) مابين القوسين فى هامش ا ، وكتب بعده : من الأم ، وليست من الرواية . وليس فى ب ، ولا فى هامشه .

(٤) الصفو : الصافى الخالص . وخدمته : عبادته وطاعته .

(٥) نعته : صفته .

(٦) سفيرا : السفير : الرسول .

(٧) بين السطور فى ب : بنزع الخافض ، وقال القارى (١ ـ ٣٥) : هو تشبيه بليغ مفيد للمبالغة ؛ وهو أن طاعته عين طاعته . وكذلك قوله: وموافقته موافقته .

(٨) سورة النساء ، آية ٨٠

(٩) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧ (١٠) كان كونه : كان وجوده .

أَلَا ترى أَنّ الله يقول(١) : ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً للعالَمِينَ ﴾ ؛ فكانت حياتُه رحمةً ، ومماتُه رحمة ؛ كما قال عليه السلام(٢) : حياتى خير لكم وموتى خير لكم . وكما(٣) قال عليه الصلاة والسلام(٤) : إذا أَراد اللهُ رحمةً بأُمّةٍ قبض نبيَّها قَبْلها ؛ فجعله لها فَرَطًا وسَلَفا(٥) . وقال السَّمَرْقَنْدِى : رحمةً للعالمين : يعنى للجن والإِنْس .

وقيل : لجميع الخَلْق ؛ للمؤمن رحمة بالهداية ، ورحمةً للمنافق(٦) بالأَمانِ من القَتْلِ ، ورحمةً للكافر بتأخير العذاب .

قال ابنُ عباس رضىَ الله عنهما : هو رحمةٌ للمؤمنين وللكافرين ؛ إذ عُوفُوا مما أَصاب غَيْرهم من الأُمم المكذّبة(٧) .

وحُكى(٨) أَنّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : هل أصابكَ من

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧

(٢) هذا الحديث رواه ابن مسعود رضى الله عنه بسند صحيح ، ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بسند صحيح . (نسيم الرياض) . وفى شرح القارى : رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده ، والبزار بإسناد صحيح . ورحمته لهم فى حياته لأنه هداهم لسبيل الخير ، ورحمته لهم فى مماته لتقدمه فرطا لهم .

(٣) فى ب : كما — من غير واو .

(٤) هذا الحديث صحيح متنا وسندا ، رواه مسلم (صحيح مسلم : ١٧٩٢) وفيه : إذا أراد الله رحمة أمة . وبقية الحديث كما فى مسلم : وإذا أراد الله هلكة أمة عذبها ونبيها حى فأهلكها وهو ينظر ، فأقر الله عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره .

(٥) فرطا وسلفا : أى متقدما وسابقا .

(٦) المنافق : من يخفى الكفر ويظهر الإيمان .

(٧) أى المكذبة للأنبياء ؛ فإن الله عاقب من كفر منهم بالاستئصال والخسف والمسخ ، وما نزل عليهم من السماء .

قال فى نسيم الرياض : وقول ابن عباس هذا مسند إليه فى الطبرانى ، ودلائل البيهقى ، وفى تفسير ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وكذلك قال القارى فى شرحه (١ — ٣٧) .

(٨) قال فى نسيم الرياض : لم يوجد هذا فى شىء من كتب الحديث .

هذه الرحمة شيء ؟ قال : نعم ؛ كنتُ أَخْشَى العاقبة[١] فأَمِنْتُ لِثَناء[٢] الله عز وجل عليَّ بقوله[٣] : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِند ذِي العَرْشِ مَكِينٍ[٤] . مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ .

ورُوى عن جَعْفر بن محمد الصادق ـ في قوله تعالى[٥] : ﴿فَسَلَامٌ لكَ من أَصحابِ اليمينِ﴾ : أي بكَ[٦] ؛ إنما وَقعَتْ سلامتُهم مِنْ أَجـل كرامةِ محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الله تعالى[٧] : ﴿اللهُ نورُ السمٰواتِ والأرض مَثَلُ نوره كمِشكَاةٍ فيها مصباحٌ . المصباحُ في زُجَاجة ، الزجاجة كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ يوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيّةٍ يكادُ زيتُها يُضيء ولو لم تمسسهُ نارٌ ، نورٌ على نورٍ ، يهدى اللهُ لنورهِ من يشاء ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناس واللهُ بكل شيء عليمٌ﴾ .

قال كعب[٨] ، وابن جُبَيْر : المراد بالنور الثاني هنا محمد عليه السلام [٧] .

وقوله تعالى : مَثَل نورِهِ ؛ أي نور محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سَهْل بن عبد الله[٩] : المعنى: اللهُ هادى أهل السمٰوات والأرض؛ ثم قال :

---

(١) أخشى العاقبة : أي سوء العاقبة .

(٢) إذ ثناء العظيم يقتضي رضاه وقبوله، وهو لا يرضى ويقبل إلا من كان مرحوما مقربا ، فلما علم ذلك من القرآن الذي هو رحمة نازلة بمحمد صلى الله عليه وسلم اطمأن خاطره وأمن سوء الخاتمة .

(٣) سورة التكوير ، آية ٢٠ ، ٢١

(٤) مكين : متمكن ذي قدر ومنزلة ، أو صاحب مكانة .

(٥) سورة الواقعة ، آية ٩١

(٦) أي بك : أي بسبب وجودك ، أو بسبب كرمك وجودك .

(٧) سورة النور ، آية ٣٥

(٨) في ب :قال كعب الأحبار . . .

(٩) هو التسترى ، وقد توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

مَثَل نورِ محمد إذ كان مستودعا فى الأصلاب(١) كَمِشْكَاة(٢) صفتها كذا ؛ وأراد بالمصباح قلبَه ، وبالزجاجة صدره ؛ أى كأنه كوكبٌ دُرِّى(٣) لما فيه من الإيمان والحكمة ، تَوَقَّد(٤) من شجرةٍ مباركةٍ ؛ أى من نور إبراهيم . وضرب(٥) المَثَل بالشجرة المباركة .

وقوله : يكاد زيتها يضىء؛ أى تكاد نبوّة محمد صلى اللهُ عليه وسلم تَبَينُ للناس قَبْل كلامه(٦) كهذا الزيت .

وقيل فى هذه الآية غيرُ هذا . والله أعلم .

وقد سماه اللهُ تعالى فى القرآن فى غير هذا الموضع نورا وسراجا منيرا ؛ فقال تعالى(٧) : ﴿ قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ ﴾ :

وقال تعالى(٨) : ﴿ إنا أرسلناكَ شاهدا ومبشِّرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ .

ومن هذا قولُه تعالى(٩) : ﴿ألَمْ نَشرح لك صدرك . ووضَعْنا عنكَ وِزركَ . الذى أنقضَ ظهركَ . ورفعنا لك ذِكْرَك . فإن مع العسر يسرا. إن مع العُسر يُسرا . فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغَبْ ﴾ .

---

(١) الأصلاب : جمع صلب : الظهر ؛ والمراد أصلاب الآباء .

(٢) المشكاة : كوة غيرنا فذة ؛ أى صفة نور محمد كصفة نور مشكاة . . . .

(٣) كأنه : كأن صدره . والدرى ؛ الكوكب المضىء .

(٤) فى ب : توقد — بالبناء للمجهول .

(٥) وضرب المثل : أى شبه ظهور نبوة محمد المتصلة بأبيه إبراهيم ، بمصباح أضاء بزيت من شجرة مباركة . « وضرب » — فى ا : بالبناء للمجهول . وفى ب : بالبناء للمعلوم .

(٦) قبل كلامه : قبل دعواه النبوة وتحديه .

(٧) سورة المائدة ، آية ١٥ (٨) سورة الأحزاب ، آية ٤٥ ، ٤٦

(٩) سورة الشرح .

شرح: وسّع . والمراد بالصَّدْرِ هنا: القَلْب . قال ابنُ عباس: شرحه بالإسلام[١] .
وقال سَهْل : بنورِ الرسالة .
وقال الحسن[٢] : مَلأَه حُكْما[٣] وعِلْما .
وقيل : معناه ألم نُطَهر قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس[٤] . ووضَعْنَا عنك وِزرك الذى أنقض ظهركَ :
قيل : ماسلف من ذَنْبِك - يعنى قبل النبوّة .
وقيل : أراد ثِقَل أيام الجاهلية[٥] .
وقيل : أراد ما أثقل ظَهْرَه من الرسالة[٦] حتى بلَّغها . حكاه الماوَرْدِي والسُّلَمِي[٧] .

(١) فى ب : شرحه بنور الإسلام .
(٢) هو الحسن البصرى . مات بالبصرة سنة عشر ومائة .
(٣) حكما - بضم الحاء وسكون الكاف : الحكمة . أو حكما - بكسر الحاء وفتح الكاف: جمع حكمة . والحكمة : العلم بالحقائق النافعة والشرعية .
(٤) الوسواس : الشيطان ، أو الوسوسة . وقال القارى (٢ - ٤٣) : أى لا يشوش عليك الموسوسون من الإنس والشياطين .
(٥) ثقل أيام الجاهلية : الثقل ضد الخفة . وثقلها : عدم رضاه بما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأصنام والمحاربة والمقاتلة ، وغير ذلك مما استقبحه النبي بسلامة فطرته .
(٦) من أعبائها ، أى لما قاساه من المشقة فى تلقيه الوحى ؛ من هيبة الملك ، وحفظ مايلقى إليه ، وتكذيب قومه ، وغيرهم ، لما عرض نفسه على القبائل ، وشدة أذيتهم له عليه السلام ولأصحابه ، ووضع ذلك عنه بما فيه من قوة الصبر ، وتسهيل الله ذلك عليه .
(٧) الماوردى : هو أبو الحسن على بن حبيب ، صنف فى الفقه والتفسير والأصول . توفى سنة خمسين وأربعمائة .
والسلمى : هو أبو عبد الرحمن السلمى النيسابورى ، واسمه محمد بن الحسين بن موسى ، النيسابورى ، شيخ الصوفية، وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم . مولده سنة ثلاثين وثلاثمائة، وتوفى فى شعبان سنة اثنتى عشرة وأربعمائة . (ميزان الاعتدال : ٣ - ٥٢٤، وشرح القارى: ١ - ٤٤)

وقيل : عَصَمْنَاكَ ، ولولا ذلكَ لأثقلتِ الذنوبُ ظهركَ[١] ؛ حكاه السَّمَرْقَنْدِى .
ورفَعْنا لكَ ذِكْرَك : قال يحيى بن آدم[٢] : بالنُّبوة . وقيل : إذا ذُكرتُ ذُكِرتَ معى قَوْلَ[٣] : لا إله إلّا الله ، محمد رسول الله . وقيل : فى الأَذَان [٨] .

قال القاضى أبو الفَضْل[٤] : هذا تقريرٌ[٥] مِنَ الله جلَّ اسْمُه لنبيِّه صلّى الله عليه وسلّم على عَظِيم نِعَمه لَدَيْه ، وشَرِيف مَنْزِلَته عِنْدَه ، وكرامَتِه عليه ؛ بأَنْ شرحَ قَلْبه للإيمان والهداية ، ووسَّعه لِوَعْى[٦] العِلْمِ ، وحَمْلِ الحِكْمة ، ورَفَع عنه ثِقَل أُمورِ الجاهلية عليه ، وبغَّضَهُ لِسِيَرِها[٧] ، وما كانَتْ عليه بظهور[٨] دِينِه على الدِّين كُلِّه ، وحَطَّ عنه عُهدةَ أَعباءِ[٩] الرسالة والنبوّة لتبليغه للناس ما نُزِّل إليهم ، وتَنوِيهه بعظيم مَكانه ، وجَلِيل رُتْبَته ، ورفعه ذِكْرَه ، وقِرَانِه مع اسمِه [اسْمَه][١٠] .

---

(١) قال القارى : وهذا معنى بديع .

(٢) هو يحيى بن آدم بن سليمان الأموى ، مولاهم بالكوفة ، أحد الأعلام ، أخرج له أصحاب الكتب الستة ، توفى سنة ثلاث ومائتين .

(٣) قال القارى (١ — ٤٤) : الأظهر أن يقال : فى قوله : لا إله . . .

(٤) هو المؤلف .

(٥) التقرير : تثبيت وتمهيد . والإشارة لما وقع فى سورة ألم نشرح . وهو بيان لحاصلها .

(٦) الوعى : الحفظ .

(٧) لسيرها : السير : جمع سيرة ، والمراد بالسيرة : الحالة والطريقة ، والضمير للجاهلية . وكلمة « بغضه » جاءت بصيغة المصدر فى ا ، والضبط المثبت فى ب .

(٨) ظهور دينه : الظهور بمعنى الغلبة .

(٩) الأعباء : الأحمال والأثقال ، والمعنى هنا أن الله حمله أحمال الرسالة ، وألزمه بإجراء أحكامها وتبليغها ؛ فكان فى أول الأمر فى حرج ومشقة من خوف التقصير ، فلما يسر الله له ذلك انشرح صدره ، واستراح من ثقلها ، وبرئت ذمته من عهدتها لما بلغ الأمة ، وأدى الرسالة ؛ فامتن الله عليه بما يتضمن الثناء العظيم من أنه أقدره على التحمل والصبر (الشهاب) .

(١٠) أى كان ذكرك عين ذكرى ، لعدم انفكاكه عنه غالبا . « واسمه » الثانية ليست فى ب .

قال قَتَادة : رفَع اللهُ ذِكْرَهُ في الدُّنيــا والآخِرة فليس خطيبٌ ولا متشهِّد ولا صاحبُ صلاةٍ إلَّا يقولُ : أَشهدُ أَنْ لا إله إلّا الله وأن محمداً رسولُ اللهِ .

ورَوَى أبو سَعِيد الخُدْرِيّ أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلم قال: أتاني جبريلُ عليه السلام، فقال: إن رَبِّي وربَّك يقول: تَدْرِي كيف رفعتُ ذِكْرك؟ قلتُ : الله ورسوله أعْلَم . قال : إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي .

قال ابنُ عَطَاء[١] : جعلتُ تمامَ الإيمانِ بذِكْرِي معك .

وقال أيضا : جعلتُك ذِكْراً من ذِكْرِي ، فمَنْ ذَكَرك ذكَرني .

وقال جَعْفَر بن محمد الصادق : لا يذكرك أحد بالرسالة إلّا ذكرني بالربوبيّة[٢] .

وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفَاعة .

ومِنْ ذِكْرِه معه تعالى أن قَرَن طاعتَه بطاعته واسْمَه باسْمِه ؛ فقال تعالى[٣] : ﴿ أطيعوا اللهَ والرسولَ ﴾ . و﴿ آمِنُوا[٤] باللهِ ورسولِه ﴾ ؛ فجمع بينهما بواو العطف المُشَرِّكة .

ولا يجوز جَمعُ هذا الكلام في غير حقِّه عليه السلام .

حدثنا الشيخ أبو على الحُسين بن محمد الجيّاني[٥] الحافظ فيما أجازَنِيه [٨] ،

---

(١) ابن عطاء : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء ، الزاهد البغدادي ، أحد مشايخ الصوفية بالعراق ، مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة (القاري : ١ – ٤٦)

(٢) معنى كلام جعفر أنه لا يعترف أحد برسالتك إلا بعد أن يعترف بوحدانية الله وربوبيته ، لأنه يجب معرفة الله عقلا قبل ذلك .

(٣) سورة آل عمران ، آية ٣٢ وغيرها .

(٤) سورة النساء ، آية ١٣٦ ، وغيرها .

(٥) الجياني : نسبة إلى بلدة بالأندلس ، مات سنة ثمان وتسعين وأربعمائة (القاري : ١–٤٦) . وقال : « الحافظ » في اصطلاح المحدثين : من أحاط علمه بمائة ألف حديث .

وقرأته على الثّقة عنه ؛ قال [١] : حدثنا أبو عُمَر النَّمَري [٢] ؛ قال : حدثنا أبو محمد ابن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر بن دَاسَةَ ؛ حدثنا أبو داود السِّجْزِي ، حدثنا أبو الوليد الطَّيالِسِي [٣] ، حدثنا شُعبة ،عن منصور، عن عبد الله بن يَسار،عن حُذَيْفَة رضِيَ الله عنه ، عن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ قال [٤] : لا يَقُولَنَّ أحدُكم ماشاءالله وشاءَ فُلَان ، ولكن ماشاءَ اللهُ ثم شاءَ فلان [٥] .

قال الخطّابيّ [٦] : أرشدهم صلَّى اللهُ عليه وسلم إلى الأدب فى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة مَنْ سِوَاه ، واختارها بِثُمَّ التى هى للنَّسَق والتراخِى ، بخلاف الواو التى هى للاشتراك .

ومثله [٧] الحديثُ الآخر [٨] : إِنّ خطيباً [٩] خطب عند النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم؛ فقال: مَنْ يُطِع اللهَ ورَسُولَه فقد رَشِد ، ومَنْ يَعْصِهما [١٠] .

---

(١) فى ب : فقال .
(٢) هو ابن عبد البر ، صاحب الاستيعاب وغيره .
(٣) مات سنة سبع وعشرين ومائتين .
(٤) فى نسيم الرياض : هذا الحديث روى من طرق كثيرة ، وهو حديث صحيح . (ابن ماجه : ٦٨٤) .
(٥) فى نسيم الرياض : هذا النهى تنزيهى لرعاية الأدب بترك العطف بالواو الموهمة للتساوى ، بخلاف ثم الدالة على البعد رتبة وزمانا .
(٦) الخطابى : هو أبو سليمان البستى ، كان إماما كبيرا تفقه على القفال وغيره . توفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة (القارى : ١-٤٧) .
(٧) ومثله : أى مثله فى التنزيه عما يوهم .
(٨) وهو حديث صحيح فى صحيح مسلم ، وسنن أبى داود مسندا . (صحيح مسلم : ٥٩٤)
(٩) هذا الخطيب هو عدى بن حاتم ، أو ثابت بن قيس .
(١٠) رشد : الرشد : الصلاح ، وهو خلاف الضلال . وأمام هذه العبارة فى ب : « فقد غوى » ، وعليها علامة الصحة . وغوى : ضل عن طريق الهدى .

فقال له النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : بِئْسَ خطيبُ القوم أَنتَ ! قُمْ . أو قال : اذهَبْ . قال أبو سليمان[1] : كَرِهَ منه الجمْعَ بين الاسمين بحرفِ الكناية[2] لما فيه من التسويةِ .

وذهب غَيْرُه إلى أنه إنما كَرِهَ له الوقوفَ على « يَعْصِهما » .

وقولُ أَبى سليمان[1] أَصَحُّ ؛ لما رُوِى فى الحديث الصحيح أنه قال: ومَنْ يَعْصِهما فقد غوَى ، ولم يذكر الوقوفَ على يَعْصِهما[3] .

وقد اختلف المفسِّرون وأصحابُ المعانى فى قوله تعالى[4] : ﴿ إِنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلون على النبى ﴾ ؛ هل « يُصلون » [5] راجعة على الله تعالى والملائكةِ أم لا ؟

فأَجازهُ بعضُهم ، ومَنَعَهُ آخَرُون ، لعلَّة التشريك[6] ، وخَصُّوا الضمير بالملائكة؛ وقَدَّرُوا الآية : إنّ اللهَ يصلِّى ، وملائكته يُصلون[7] .

---

(١) هو الخطابى السابق .

(٢) أى كره أن يعبر عنهما بضمير واحد هو ضمير التثنية ، إذ قال : ومن يعصهما .

(٣) فى نسيم الرياض : قال النووى : الصواب أن سبب النهى أن الخطبة شأنها الإيضاح واجتناب الرمز ؛ ولهذا كان النبىصلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم ، لا كراهة الجمع بين الاسمين بالكناية ؛ لأنه ورد فىمواضع ، منها قولهصلى الله عليه وسلم : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٥٦ .

(٥) هل يصلون : أى الضمير ، وهو الواو . . .

(٦) لعلة التشريك ؛ أى للزوم التشريك بين الله والملائكة والتسوية بينهمافى عبارة واحدة فى ضمير الواو .

(٧) أى من ذهب إلى أن العلةالتشريك ، ولم يجوزه مطلقا ــ خص الضمير بالملائكة ، وقدر فى الأول ضميرا . وفى ب : والملائكة ــ بدل : وملائكته .

وقد رُوِى عن عُمَر رضِىَ الله عنه أنه قال(١) : مِنْ فَضيلتك عنْد الله أَنْ جعل طاعتَك طاعته ؛ فقال تعالى(٢) : ﴿ مَنْ يُطِـع الرسولَ فقد أَطاعَ اللهَ ﴾ .

وقد قال [٩] تعالى(٣) : ﴿ قُلْ إنْ كنتم تُحِبُّون اللهَ فاتَّبِعونى يُحْبِبْكم اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذنوبَكم واللهُ غفور رحيم . قل أطيعوا اللهَ والرسولَ فإنْ تَوَلَّوْا فإنّ اللهَ لايحبُّ الكافرين ﴾ .

رُوى أنه لما نزلت هذه الآيةُ قالوا(٤) : إنّ محمداً يريد أن نتّخِذَه حنانا(٥) كما اتخذت النصارى عيسى ؛ فأنزل اللهُ تعالى(٦) : ﴿ قل أَطيعوا اللهَ والرسولَ ﴾ ؛ فقَرَنَ طاعتَه بطاعته رَغْماً لهم(٧) .

وقد اختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى فى أمّ(٨) الكتاب(٩) : ﴿ اهْدِنَا الصراط المستقيم صراط الَّذينَ أَنْعمتَ عليهم ﴾ ؛ فقال أبو العالية ، والحسن البَصْرِى : الصراط المستقيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وخِيار أهل بيته وأصحابه ؛ حكاه(١٠)

---

(١) فى نسيم الرياض : هذا الحديث قال المخرجون : إنهم لم يجدوه فى شىء من كتب الحديث ، وإن ورد ما هو بمعناه فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه : من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى . (سنن النسائى : ٧ ــ ١٣٨) ، (صحيح مسلم ١٤٦٦) .

(٢) سورة النساء ، آية ٨٠ (٣) سورة آل عمران ، آية ٣١ ، ٣٢

(٤) الذين قالوا : هم بعض الكفار ، والمنافقون .

(٥) حنانا : رحمة وعطفا ، والرزق والبركة . والمراد أن محمدا يريد أن يجعلنا ممن نتبرك به ، ونخضع له خضوعا يؤدى لعبادته كما عبدت النصارى عيسى بن مريم . وفى هامش ا : الحنان : الرحمة والعطف والبركة ، ومر ورقة بن نوفل ببلال ، وهو يعذب فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا ؛ أى لأتمسحن به . (٦) سورة آل عمران ، آية ٣٢

(٧) رغما لهم : الرغم : الغيظ ، والتذليل ، والقهر ، والإكراه ؛ أى إرادة ذلك بهم وتحصيله.

(٨) أم الكتاب : الفاتحة . (٩) سورة الفاتحة ، آية : ٦ ، ٧

(١٠) هذا الأثر رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس ، وصححه (الشهاب الخفاجى : ١ ــ ١٧٦ ، والقارى : ١ ــ ٥٠) .

عنهما أبو الحسن الماوردى، وحكى مكّى عنهما [نحوه][1] ؛ وقال : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

وحكى أبو اللّيث السَّمَرْقَندى مثلَه ، عن أبى العالية ، فى قوله تعالى[2] : ﴿ صِراطَ الذِين أنعمتَ عليهم ﴾ ؛ قال : فبلغَ ذلكَ الحسنَ ؛ فقال : صدقَ واللهِ ونَصَح .

وحكى الماوَرْدِى ذلكَ فى تفسير[2] : ﴿ صِرَاطَ الَّذِين أنعمتَ عليهم ﴾ ، عن عبد الرحمن بن زَيْد .

وحكى أبو عَبْد الرحمن السُّلَمىّ ، عن بعضهم ، فى تفسير قوله تعالى[3] : ﴿ فقد استَمْسَكَ بالعُرْوةِ الوُثْقَى لا انفِصامَ لها[4] ، واللهُ سميعٌ عليم ﴾ ـ أنه محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الإسلام . وقيل : شهادة التوحيد[5] .

وقال سَهْل فى قوله تعالى[6] : ﴿ وإنْ تعدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحصُوها ﴾ ـ قال : نعمتُه بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى[7] : ﴿ والذى جاء بالصِّدْق وصدَّق به أولئك هم المتقون. لهم ما يَشَاءون عِندَ رَبِّهم ذلك جَزَاء المُحْسِنين ﴾ .

أكثرُ المفسرين على أن الذى جاء بالصِّدْق هو محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ليس فى ب .

(٢) سورة الفاتحة ، آية ٧

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٥٦

(٤) استمسك: تمسك . والعروة فى الأصل: النبات الثابت فى الأرض . ويقال لما يعقد فى الحبل ليدخل فيه اليد للتمسك . ومنه عروة القميص والكوز ، واستعمل هنا لما يستعصم به ويلتجأ إليه . والوثقى : المحكمة . والمراد أن من صدق وآمن به سلم من كل سوء فى الدنيا والآخرة .

(٥) شهادة التوحيد : قول لا إله إلا الله .

(٦) سورة إبراهيم ، آية ٣٤ ، وسورة النحل ، آية ١٨

(٧) سورة الزمر ، آية ٣٣ ، ٣٤

وقال بعضُهم : وهو الذى صدّق به .

وقرئ : صَدَق[1] ـ بالتخفيف .

وقال غيرهم : الذى صدّق[2] به المؤمنون [٩] . وقيل أبو بكر . وقيل علىّ . وقيل غير هذا من الأقوال .

وعن مجاهد ـ فى قوله تعالى:[3] ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوبُ ﴾ ـ قال : بمحمد صلى اللهُ عليه وسلم وأصحابه .

الفصل الثانى

فى وصْفِهِ تعالى له بالشهادةِ[4] وما يتعلق بها من الثناء والكرامة[5]

قال الله تعالى[6] : ﴿ يأَيُّها النبيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً ومُبَشِّرا ونَذِيراً . وداعياً إلى اللهِ بإِذْنهِ وسِرَاجاً مُنِيرا ﴾[7] : جمع الله تعالى فى هذه الآيةِ ضُروبا[8] من رُتَب

---

(١) فوق كلمة « صدق » فى ا : « خف » .

(٢) بالتخفيف أيضا فى ب . (٣) سورة الرعد ، آية ٢٨

(٤) أى بأنه صلى الله عليه وسلم شاهد على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم لهم .

(٥) الكرامة : الإكرام له؛ يعنى أن المقصود فى الأول ثناء الله ومدحه لنبيه صلى الله عليه وسلم بكونه أنفس الناس ذاتا وحسبا ونسبا ، وكونه خيرا ورحمة عامة فى حياته ومماته ، وكونه نورا محضا منورا للعالم ، وكونه ذا صدر واسع منشرح ؛ ورفعة قدره واسمه بمقارنته لاسم ربه وذكره وأنه الصراط المستقيم . قال الخفاجى : وسيذكر فى هذا الفصل أن الله جعله شاهدا على أمته وسائر الأمم وأنبيائهم ؛ وما ذكر فيه من الثناء والإكرام مذكور بالتبعية للشهادة استطرادا لمناسبته له . وبهذا تتبين مغايرة ما عقد له الفصلان (الشهاب الخفاجى : ١ ـ ١٨٣) . (٦) سورة الأحزاب ، آية ٤٥ ، ٤٦

(٧) ذكر المؤلف هذه الآية قبل ذلك صفحة ٢١ لتأييد كونه نورا ، ثم ذكرها هنا لكونه شاهدا على التبليغ . (٨) ضروبا : أنواعا .

الأُثْرَة (١) ، وجُمْلَةَ أوصافٍ من المِدْحة (٢) ؛ فجعله شاهِداً على أمَّته لنفْسِه بإبلاغهم الرّسالةَ ؛ وهى (٣) من خصائصه صلَّى الله عليه وسلم؛ومُبَشِّراً لأَهْلِ طاعتِه ؛ ونَذِيرا لأهل معصيته ، وداعِياً إلى توحيده وعبادته ؛ وسِرَاجاً مُنِيرا يُهْتَدى به لِلْحقّ .

حدثنا الشيخ أبو محمد (٤) بن عتّاب رحمه الله ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن القابِسىُّ ، حدثنا أبو زَيد المَرْوَزِىّ ، حدثنا أبو عَبْدِ الله محمد ابن يوسف ، حدثنا البخارى ، حدثنا محمد بن سِنَان ، حدثنا فُلَيْح ، حدثنا هلال ، عن عطاء بن يَسار ؛ قال (٥) : لَقِيتُ عَبْدَ الله بن عمرو بن العاص ، قلتُ : أَخْبِرْنى عن صِفَةِ رسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم . قال : أَجَل (٦) ، واللهِ ، إنه لموصوفٌ فى التَّوْرَاة ببعض صفتِه فى القرآن (٧) : ﴿ يأيُّها النبىُّ إنا أرسلْنَاكَ شاَهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً ﴾ (٧) ، وحِرْزاً للأُمِّيِّين (٨) ، أَنتَ عَبْدِى ورسولى ، سَمَّيتُك المتوكِّلَ ،

---

(١) الرتب : جمع رتبة ، وهى للرتبة والمنزلة . والأثرة ـ بضم الهمزة وسكون الثاء : المكرمة . وبفتح الهمزة والثاء : الانفراد بالشىء . والمراد أن فى الآية أمورا مخصوصة انفرد بها النبي صلى الله عليه وسلم . ويرجح الشهاب المعنى الأول . ويرجح النووى المعنى الثانى. وقد جاء الضبط الأول فى ا ، والضبط الثانى فى ب . (٢) المدحة : الثناء ، والذكر الحسن .

(٣) وهى : أي شهادته عليهم لنفسه بدون بينة .

(٤) قال الشهاب (١ ـ ١٨٦) : هو عبد الرحمن بن عتاب شيخ المصنف ، سمع منه فى رحلته للأندلس. وهو من علماء الحديث . توفى سنة عشرين وخمسمائة (والقارى : ١-٥٣).

(٥) هذا الحديث تفرد به البخارى (البخارى : ٣ ـ ٨٣) . وقريب من معناه حديث فى الترمذى : ٤ ـ ٣٦٩، وفى هامش ا : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص . والمثبت على كل كلمة فيه علامة صح فى ا .

(٦) أجل : نعم .

(٧) قال القارى (١ ـ ٥٥) : وهذا مذكور فى القرآن، ولعل معناه مذكور فى التوراة..

(٨) الحرز : أصل معناه : الحفظ ، ثم أطلق على المكان الذى يحفظ به ، فيقال : حرز حريز . والمراد بالأميين العرب : لغلبة الأمية فيهم ، أو لأنهم لا كتاب لهم .

ليس بفَظّ ولا غليظ ولا صَخّاب فى الأسواق (١) ، ولا يدفَعُ بالسيئةِ السيئةَ ، ولكن يَعفُو ويَغفِر (٢) ، ولن يَقبِضَهُ اللهُ حتى يُقيمَ بِهِ المِلّةَ العَوْجاء (٣) ، بأَنْ يقولوا : لا إلهَ إلّا الله (٤) ، ويَفتَحَ به أَعيُنا عُميا ، وآذانا صُمّا ، وقلوبا غُلْفًا (٥) .

وذُكِر مثلُه عن عبد الله بن سَلَام [١٠] وكَعْب الأَحبار ؛ وفى بعض طرُقه ، عن ابن إسحاق (٦) : ولا صَخِب فى الأَسواق ، ولا مُتزَيّن بالفُحْش (٧) ، ولا قوّالٍ للخَنَا (٨) ؛ أُسدِّدُه لكل جميـــل (٩) ، وأَهَبُ له كلَّ خلق كريم (١٠) ، وأجعلُ

---

(١) الفظ : الرجل الشديد الغليظ القلب ؛ أى ليست له قسوة قلب ، ولا تشديد على الناس ؛ لأن ماته سمحاء . وليس بغليظ : ليس بعنيف ، والمراد أنه ليس بسيء الخلق . والصخاب : من الصخب ، وهو ارتفاع الصوت وشدته . والمراد نفى الصخب عنه مطلقا ؛لأنه إذا انتفى فى المحل المعتاد فيه انتفى فىغيره بالطريق الأولى . والصخاب بالسين فى ا ،والبخارى ، وبالصاد فى ب ، وهما بمعنى واحد .

(٢) لا يسيء لمن أساء إليه ، ويدفع بالتى هى أحسن ؛ وذلك لأن خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن ، وقد قال الله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله .

(٣) يقبضه : يتوفاه . الملة : الدين . العوجاء : غير المستقيمة. والمراد بالملة هنا ملة إبراهيم عليه السلام التى عوجتها العرب بتغييرها ؛ لأنهم ذرية إسماعيل بن إبراهيم ، وكانوايزعمون أنهم على ملته الحنيفية .

(٤) اقتصر على هذا من الدين القيم ؛ لأن العوج الواقع فيها يؤدى إلى الشرك وعبادة الأصنام .

(٥) قلوبا غلفا : لا تعى ماجئت به .

(٦) فى ب : عن إسحاق ، ونراه تحريفا .

(٧) الفحش : القبيح ، وكل شيء جاوز الحد فهو فاحش . والمراد كل قبيح قولا كان أو فعلا ؛ أى لايتلبس بأمر قبيح ، أو يتجمل ويباهى به .

(٨) الخنا : قبيح الكلام ؛ أى لايصدر عنه شيء من ذلك .

(٩) أسدده : أوفقه للسداد ، وهو الصواب من القول والعمل .

(١٠) أهب له : أعطيه .

السكينةَ لباسَه، والبرّ شِعَاره[١]، والتَّقْوَى ضميره[٢]، والحكمةَ مَعْقولَهُ[٣]، والصدقَ والوفاءَ طبيعته[٤]، والعفوَ والمعروفَ خُلُقَه، والعَدْلَ سيرتَه، والحقّ شريعته، والهدَى إمامَهُ[٥]، والإسلامَ مِلَّته، وأحْمَد اسْمَه، أهدِي به بعد الضلالةِ، وأُعَلِّم به بعد الجهالة، وأرفعُ به بعد الخمالة[٦]، وأُسَمِّي به بعد النُّكْرة[٧]، وأُكَثِّرُ به بعد القِلَّة، وأُغْنِي به بعد العَيلةِ[٨]، وأجمعُ به بعد الفُرْقَة، وأُؤَلِّف به بينَ قُلوبٍ مختلفة، وأهواءٍ متشتّتةٍ، وأممٍ مُتَفَرِّقة، وأَجعلُ أُمَّته خَيْر أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس[٩].

وفى حديث آخر: أخبرنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن صِفته فى التَّوْراة[١٠]:

(١) السكينة: الوقار والطمأنينة. والشعار: اللباس الذى يلى الجسد.

(٢) التقوى: مايقى من العذاب فى الآخرة. والضمير: مايضمر فى القلب وينوى فى خاطره بحيث لاينساه.

(٣) الحكمة: كل كلام جامع لما يرشد إلى الحق. معقوله: المراد أن الحكمة بعقله وإدراكه. أو المراد مايعقله كله حكم ومواعظ وعلوم؛ لأنه لاينطق عن الهوى.

(٤) أى لاينطق بغير ماوافق الواقع، وإذا عاقد أحدا؛ أووعد وعدا لايخلفه؛ وهذا أمر طبيعى له جعله الله فيه.

(٥) إمامه: قد تكون بكسر الهمزة؛ أى قدوته؛ أو بفتح الهمزة، ويكون المعنى أن الهدى أمامه وقدامه، فهو ملاحظ له دائما.

(٦) الخامل: الساقط الذى لانباهة له. والخمالة: الخمول؛ أى بعد أن لم يكن لهم ذكر وقدر وشأن فى الظاهر وإن كانوا فى علم الله خير أمة.

(٧) النكرة: خلاف المعرفة، ويطلق بمعنى المجهول. والمراد: إنى أرسله فى زمان جهالة، وضلالة، وفترة، فيؤمن به أول مساكين الناس وضعفاؤهم وهى على عادة الرسل عليهم السلام؛ فيصيرون به بعد خمولهم وكونهم مجهولين أعز الناس وأكرمهم.

(٨) العيلة: الفقر.

(٩) أخرجت: أوجدت وخلقت وأخرجت من العدم.

(١٠) رواه الطبرانى، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود (الدلائل: ١ — ٨٢). والدارمى عن كعب موقوفا، ورواه بإسناد ضعيف. (الشهاب: ١ — ٢٠٣، والقارى: ١ — ٥٩).

عَبْدِى أَحمد المختار ، مَوْلِدُه بمكةَ ، ومُهاجَرُه[١] بالمدينة ، أو قال : طَيْبة[٢] ، أُمّتُه الحَمّادون[٣] لله على كلّ حال .

وقال تعالى[٤] : ﴿ الذين يتّبعون الرّسُولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذى يجدُونهُ مكتُوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يَأْمرهم بالمعروف ويَنْهاهم عن المُنْكَر ويُحلُّ لهم الطيباتِ ويُحرِّمُ عليهم الخبائثَ ويضعُ عنهم إصْرَهم والأغْلالَ التى كانَتْ عليهم ، فالذين آمنُوا به وعَزَّرُوه ونصرُوه واتّبعُوا النورَ الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون . قل يا أيُّها الناسُ إنى رسولُ اللهِ إليكم جميعا الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ لا إلَه إلّا هو يُحيِي ويُميت ، فآمِنُوا باللهِ ورسولهِ النبيِّ الأُمِّى الذى يُؤمِنُ باللهِ وكلماتهِ واتّبعوه لعلكم تَهْتَدون ﴾ .

وقد قال تعالى[٥] : ﴿ فبِما رَحْمةٍ من اللهِ لِنْتَ لهم ، ولو كُنْتَ فظًّا غَليظَ القَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلك ، فاعْفُ عنهم واستَغْفِرْ لهم وشاوِرْهُم فى الأمرِ ، فإذا عزَمْتَ فتوكّلْ على اللهِ إنَّ اللهُ يحِبُّ المتوكِّلين ﴾ .

قال السمرْقَنْدِى : ذَكَّرهم اللهُ مِنّتَه[٦] أنه جعل رسولَه رحيما بالمؤمنين ، رءوفا

---

(١) مهاجره : محل هجرته التى هاجر إليها .

(٢) طيبة : اسم من أسماء المدينة .

(٣) الحمادون : الكثيرو الحمد .

(٤) سورة الأعراف ، آية ١٥٧ ، ١٥٨

(٥) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ ، وذكر المؤلف هذه الآية لتعلقها بما تقدم فى التوراة؛ من قوله : ليس بفظ ولا غليظ .

(٦) منته : إنعامه وامتنانه عليهم . وفى هامش : ا : كتبت ذكرهم ، وعليها علامة الصحة . وفى ا : مننه . والمثبت فى ب .

لِيِّنَ الجانبِ ، ولو كان فَظًّا خَشِنا فى القول لتفرّقُوا من حوله ، ولكن [١] جعله الله تعالى سَمْحا سَهْلا ، طَلْقا بَرًّا لطيفا [٢] .

هكذا قاله الضحاك .

وقال تعالى [٣] : ﴿ وكذلكَ جعلناكُم أمةً وسَطا لتكونُوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا ﴾ .

قال أبو الحسَن القابسى : أبانَ اللهُ تعالى فَضْلَ نبينا صلى الله عليه وسلم ، وفَضْلَ أُمتِه بهذه الآية،وفى قوله فى الآية [١٠] الأخرى [٤] : ﴿ وفى هذا لِيكونَ الرسولُ شهيدا عليكم وتكونُوا شُهَداءَ على الناس ﴾ . وكذلك قوله تعالى [٥] : ﴿ فكيف إذا جِئْنا من كلِّ أُمَّةٍ [٦] بشَهِيدٍ وجِئْنَا بكَ على هؤلاء شَهِيدا ﴾ .

قوله تعالى : وسطا : أى عدلا خيارا .

ومعنى هذه الآية : وكما هدَيْنَاكُم فكذلكَ خصَصْنَاكم وفضَّلْنا كم بأَنْ جعلناكم أمةً خِيَارا عدولا ؛ لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أُمَمِهم ،ويشهدَ لكم الرسولُ بالصِّدْق .

---

(١) فى ب : لكن .

(٢) سمحا : سهلا جوادا كريما . طلقا : غير عبوس ، فيه بشاشة وسرور . والبار : من فيه خير وشفقة ورفق وإحسان ورحمة . واللطيف : الشفيق .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٤٣

(٤) سورة الحج ، آية ٧٨

(٥) سورة النساء ، آية ٤١

(٦) الأمة : الجماعة . والشهيد : هو النبى الذى يشهد على ماعملوه . وجئنابك على هؤلاء شهيدا : أى جئنا بك يامحمد على هؤلاء الشهداء شهيدا على صدقهم ؛ أو على الأمم ، أو على التبليغ .

وقيل : إنّ اللهَ جلّ جلالُه إذا سأل الأنبياء : هل بلّغتم (١) . فيقولون : نعَمْ . فتقول أُمَمُهم : ماجاءنا مِنْ بشيرٍ ولا نذيرٍ ؛ فتشهد أُمّةُ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم للأنبياء؛ ويزكّيهم النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم (٢) .

وقيل : معنى الآية : إنكم حُجّةٌ على كلّ مَنْ خالفكم ، والرسولُ حجّةٌ عليكم (٣) . حكاه السمرْقندى .

وقال اللهُ تعالى (٤) ﴿ وَبشّرِ الذين آمنُوا أنّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربّهم ﴾ .

قال قَتادة ، والحسَن ، وزَيْد بن أسلم : « قَدَم صدق » : هو محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، يشفَعُ لهم (٥) .

وعن الحسَن أيضا : هى مصيبتُهم بنبيّهم (٦) .

وعن أبى سَعِيد الخدْرى رضىَ الله عنه : هى شفاعةُ نبيّهم محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ هو (٧) شفيعُ صِدْقٍ عندَ ربهم .

---

(١) هل بلغتم : سؤال الله ليظهر حال الأمم وفضل هذه الأمة ، وإلا فالله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى .

(٢) هذا حديث مرفوع أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى . (صحيح البخارى : ٩ - ١٣٢) .

(٣) أى إجماعهم حجة ، وشهادتهم مقبولة معتبرة ، والنبي صلى الله عليه وسلم حجة على الجميع .

(٤) سورة يونس ، آية ٢

(٥) قدم صدق : تقدم ورتبة رفيعة عند الله . ويراد بقدم الصدق : تزكيته المقرونة بتصديقه ، وفيه مناسبة تامة لما نحن فيه . وفى تفسير القرطبي (٨ - ٣٠٦) - عن الحسن وقتادة : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه شفيع مطاع يتقدمهم ، كما قال : أنا فرطكم (أى متقدمكم) على الحوض . وارجع إلى القرطبي ففيه أقوال أخرى كثيرة فى معنى « قدم صدق » - إن أردت .

(٦) أى وفاته صلى الله عليه وسلم قبلهم . وهذا المعنى منقول فى القرطبي (٨ - ٣٠٦) عن الحسن .

(٧) فى ب : وهو .

وقال سَهْل بن عبد الله التُّسْتَرِي : هى سابقةُ رَحمةٍ أودعها اللهُ فى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال محمد بن على التِّرْمِذِي[١] : هو[٢] إمامُ الصادقين والصدِّيقين ، الشفيعُ المُطَاع ، والسائلُ المُجابُ محمد صلى اللهُ عليه وسلم ، حكاه عنه السُّلَمى .

الفصل الثالث

فيما ورد من خطابه إياه مَوْرِدَ الملاطفةِ والمَبَرَّة[٣]

من ذلك قوله تعالى[٤] : ﴿ عفا اللهُ عنك ، لِمَ أذِنْتَ لهم ﴾ .

قال أبو محمد مَكّىّ : قيل هذا افتتاحُ كلامٍ بمنزلة : أصلحكَ الله ، وأعزّكَ الله.

وقال عَوْن[٥] بن عبد الله : أخبره بالعَفْو قبل أنْ يُخْبِره بالذَّنْبِ[٦] .

وحكى السَّمَرْقَنْدى عن بعضهم أنَّ معناه: عافاكَ اللهُ ياسليمَ القلبِ : لِمَ أذِنْتَ لهم؟ قال : ولو بدأ النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله ، لِمَ أَذِنْتَ لهم لخيفَ عليه أنْ يَنْشقَّ قلبُه من هيبةِ هذا الكلامِ[٧] ، لكنّ الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى

---

(١) هو الحكيم الترمذى، وهو غير صاحب السنن .

(٢) فى ب : هى — أى القدم . وفى تفسير القرطبى (٨ — ٣٠٦) : وقال الترمذى الحكيم: قدمه صلى الله عليه وسلم فى المقام المحمود .

(٣) أى خطاب الله تعالى لنبيه الكريم . والملاطفة : المعاملة بلطف وشفقة . والمبرة : من البر ، وهو الإحسان والخير .

(٤) سورة التوبة ، آية ٤٣

(٥) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الكوفى الزاهد الفقيه ، توفى فى حدود سنة ستين ومائة .

(٦) الذنب هنا : خلاف الأولى والأليق ؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

(٧) لأنه حينئذ يشعر بأنه وقع فى الآثام .

سكن قَلْبُه ، ثم قال له : لِمَ أَذِنْتَ لهم بالتخلف (١) حتى يتبيَّنَ لك الصادقُ فى عُذْرِه من الـكاذب .

وفى هذا من عَظِيم منزلته عند اللهِ مالا يَخْفَى على ذى لُبّ (٢) .

ومن إكرامه إياه وبِرِّه به ماينقطِـعُ دون معرفةِ غايته نِيَاطُ القَلْب (٣) . قال نِفْطَوَيْه (٤) : ذهب ناسٌ إلى أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مُعاتَبٌ بهذه الآية ، وحاشاهُ (٥) من ذلك ، بل كان مُخَيَّرا (٦) فلما أذِنَ لهم أعلمه اللهُ تعالى أنه لو لم يَأْذَنْ لهم لقعَدُوا لنِفَاقِهم ، وأنه لا حَرَجَ عليه فى الإذْنِ [لهم] (٧) .

قال القاضى (٨) أبو الفضل : يجِبُ على المسلم المجاهدِ نَفْسَه (٩) ، الرائضِ بزِمام الشريعةِ خُلُقَه (١٠) أن يتأدَّبَ بأَدَبِ القرآن فى قوله وفِعْله ، ومُعاطاته (١١) ومُحاوراته ،

---

(١) كان هذا التخلف عن غزوة تبوك . (٢) اللب : العقل .

(٣) نياط القلب : نياط : عرق غليظ يعلق به القلب من الوتين . وقيل : هو الوتين نفسه ؛ فإذا انقطع مات صاحبه ؛ فلذا كنى به عن الموت .

(٤) نفطويه : هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى النحوى ،توفى سنة ثلاث وثلاثمائة ببغداد ودفن بباب الكوفة .

(٥) وحاشاه من ذلك : أى والنبى صلى الله عليه وسلم منزه عن أن يفعل مايستحق العتاب عليه . قال فى نسيم الرياض : لاعتاب فى هذه الآية ، بل فيها إعزاز له وإكرام بالدعاء له ، وتصويب لفعله .

(٦) بل كان مخيرا : بين الإذن وعدمه؛ لقوله تعالى : ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾ . وفى ب : مخيرا ــ بكسر الياء .

(٧) ليس فى ب . (٨) هو المؤلف ، كما سبق .

(٩) المجاهد نفسه : بتهذيب الأخلاق ، والصبر ، وكسر شهوتها ؛ فإنه الجهاد الأكبر . وفى ب : بنفسه .

(١٠) راض: من رضت الدابة أروضها ؛ إذا ذللتها لتنقاد لما تريد وتلين شكيمتها. والزمام: مايقودها كاللجام . (١١) معاطاته : المراد بالمعاطاة هنا الأفعال الواقعة منه .

فهو عُنْصُرُ المعارف الحقيقية ،وروضةُ الآداب الدينية والدُّنيَوية (١) ، ولْيتأَمَّلْ هذه الملاطفةَ (٢) العجيبةَ فى السؤال من رَبِّ الأربابِ ، المُنْعِم على الكلّ ، المستَغْنِي عن الجميع ، و يَسْتَثِرْ ما فيها من الفوائد(٣) ،وكيف ابتدأ بالإكرامِ قبل العَتْبِ ،وأَنَّس(٤) بالعفو قبل ذِكْرِ الذنب إنْ كان ثَمَّ ذَنب .

وقال تعالى(٥) : ﴿ ولولا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قَلِيلا ﴾(٦) .

قال بعضُ المتكلمين : عاتَبَ اللهُ تعالى الأنبياء عليهم السلام بعد [١١] الزَّلَّاتِ(٧) ، وعاتب نبيَّنا عليه السلام قبل وُقُوعِه ، ليكونَ بذلك أشدَّ انتهاء ومحافظةً لشرائطِ المحبَّةِ ، وهذه غايةُ العِنايَة .

ثم انظُرْ كيف بدأ بثَباتِهِ(٨) وسلامتِهِ قبل ذِكْرِ ما عَتَبه(٩) عليه وخِيف أنْ

---

(١) فهو : الضمير للنبى ، أوللقرآن . والعنصر : الأصل . والروضة : أرض ذات مياه وأشجار وأزهار طيبة .

(٢) وليتأمل : وليتدبر ؛ أى المسلم .

(٣) يستثر : يبرز ويحرك ، أى يظهره لنفسه ولغيره . وفى ب : يتبين ويستثير . وقال القارى :يستثير : من ثار الشيء إذا ارتفع وانتشر، والمراد يظهر وينتشر ويبحث ويستخرج . ما فيها : أى الملاطفة والآداب القرآنية .

(٤) فى ب : وآنس .

(٥) سورة الإسراء ، آية ٧٤

(٦) أى لولا أن ثبتناك على الحق والصواب والسداد قاربت الميل إلى مرادهم ميلا ما قليلا ؛ ففى هذه الآية تصريح بأن الله عصمه عن الميل إلى خلاف الصواب ، فضلا عن الوقوع فيه.وفيه دليل ظاهر على ماقدمه من أنه لاذنب له رأسا .

(٧) الزلات : جمع زلة ، من الزلل ، وأصله دحوض القدم ، ثم عبر به عن الوقوع فيما لايرضى من غير قصد ؛ ولذا فسر بالخطأ ؛ فإن الزلة ما صدر من سالك الطريق من غير قصد المخالفة .

(٨) أى لم يقل : لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا لولا أن ثبتناك ، فبدأ بثباته على الموافقة، وسلامته من المخالفة .

(٩) فى ب : ما عاتبه عليه .

يَرْكنَ إليه ، ففي أثناء عَتْبه براءته ، وفي طيّ تخويفه تأمينه وكرامته .

ومثله قولُه تعالى[١] : ﴿ قد نَعلَمُ إنّه ليحزُنُكَ الذى يقولون، فإنهم لا يُكذّبونكَ ولكنّ الظالمين بآياتِ اللهِ يجحَدُون ﴾[٢] .

قال عليّ رضيَ الله عنه[٣] : قال أبو جهل للنبي صلّى اللهُ عليه وسلم : إنّا لا نُكذّبكَ ولكن نُكذّبُ ما[٤] جئتَ به، فأنزل اللهُ تعالى : ﴿ فإنّهم لا يكذّبونكَ ولكنّ الظالمينَ بآياتِ اللهِ يجحَدُون ﴾ .

ورُوِي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم[٥] لما كذّبه قومُه حَزِن ، فجاءه جبريلُ عليه السلام فقال : ما يُحزِنُك[٦] ؟ قال: كذّبني قومي ! فقال : إنهم يَعلمون أنكَ صادِق ، فأنزل اللهُ تعالى الآية .

ففي هذه الآيةِ مَنْزَعٌ[٧] لطيف المأخَذ ، مِنْ تَسْليتِهِ[٨] تعالى له عليه السلام ، وإلطافه به في القَوْلِ ، بأَنْ قَرَّرَ[٩] عنده أنه صادقٌ عندهم ، وأنّهم غَيْرُ مكذّبين له ، مُعْتَرِفون بصِدْقه قولًا واعتقادا ، وقد كانوا يُسمُّونه ـ قَبْلَ النبوّة ـ الأمينَ ،

(١) سورة الأنعام ، آية ٣٣ (٢) يجحدون : ينكرون .

(٣) في تفسير القرطبي (٦ – ٤١٦) :قال أبو ميسرة:إن رسول الله مر بأبي جهل وأصحابه فقالوا : يامحمد ، والله ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ماجئت به ، فنزلت هذه الآية . (٤) في ب : بما .

(٥) قال السيوطي في تخريجه هذا الحديث : لم أجده . وقال القاري : حديث جبريل هذا أورده بصيغة روى ، ولم أعرف من رواه .

(٦) في ب . ما يحزنك ـ بفتح الياء .

(٧) منزع لطيف : المراد به شيء يرجع إليه . لطيف المأخذ:حسن دقيق أخذه واستنباطه منها .

(٨) التسلية : تطييب القلب بما يذهب حزنه ويفرج كربه .

(٩) قرر : بين وأثبت .

فدفع بهذا التقرير ارْتِماضَ نَفْسِه بِسِمَةِ الكذب [١] ، ثم جعل الذّم لهم بتسميتهم جاحدِينَ ظالمين ، فقال تعالى : ﴿ ولـكنّ الظالمين بآياتِ اللهِ يَجْحَدون ﴾ .

فحاشاه من الوَصْمِ [٢] ، وطوّقَهُم [٣] بالمعاندة بتـكذيب الآياتِ حقيقةَ الظُّلْم ، إذ الجَحْدُ إنما يكون ممّنْ علِمَ الشيء ثم أنـكره ، كقوله تعالى [٤] : ﴿ وجَحَدُوا بها واستَيْقَنَتْها أنفُسهم ظُلْما وعُلُوًّا ﴾ .

ثم عزّاه وآنَسه [٥] بما ذكره عمّنْ قَبْله ، ووعده النصْرَ بقوله تعالى [٦] : ﴿ ولقد كُذِّبَتْ رسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتى أَتاهم نَصْرُنا ولامُبَدِّلَ لـكلماتِ اللهِ ولقد جاءكَ مِنْ نَبَأ المُرْسَلين ﴾ [٧] .

فمَنْ قرأ [٨] « لا يُكْذِبُونَكَ » بالتخفيف ، فمعناه: لا يَجِدونكَ كاذبا. وقال [٩] الفرّاء ، والكسائي : لا يقولونَ إنكَ كاذب .

وقيل : لا يَحْتَجّون على كَذِبك ، ولا يُثْبِتُونه .

ومن قرأ بالتشديد [١٠] فمعناه : لا يَنْسُبُونَكَ إلى الـكذب . وقيل : لا يعتقدون كذبَكَ .

---

(١) الارتماض : أصل الارتماض من الرمضاء ، وهى شدة الحرارة ، شبه بها مااشتد عليه وأقلقه من ألم قلبه . والسمة : العلامة .

(٢) حاشاه من الوصم :أى نزه الله النبي وبرأه من الوصم ؛ وهو النقص والعيب . والمراد به الـكذب المذكور فى الآية .

(٣) وطوقهم : وألزمهم . (٤) سورة النمل ، آية ١٤

(٥) التعزية : تسلية للمصاب بما يخفف حزنه . وآنسه : أذهب وحشته وقلقه مما لقيه منهم .

(٦) سورة الأنعام ، آية ٣٤

(٧) لـكلمات الله : أى مواعيده بنصر أنبيائه وأوليائه بقوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون﴾ . وقوله تعالى : ﴿إنا لننصر رسلنا ﴾.

(٨) وهو نافع ، والـكسائي . (٩) فى ب : قال . (١٠) وهم الباقون .

ومما ذُكِر من خصائصه (١) وبرِّ اللهِ تعالى به أن الله تعالى خاطبَ جميعَ الأنبياء بأسمائهم ، فقال تعالى : يا آدم ، يا نوح ، [يا موسى] (٢) ، ياداود ، يا عيسى ، يا زكريا ، يا يحيى . ولم يخاطَبْ هو إلّا : يأيّها الرسولُ ، يأيها النبيُّ ، يأيها المُزَّمِلُ ، يأيها المُدَّثِّر .

الفصل الرابع

فى قَسَمِه تعالى بعظيم قَدْرِه

قال الله تعالى (٣) : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ (٤) يَعْمَهُونَ ﴾ .

اتّفقَ أهلُ التفسير فى هذا أنه قَسَمٌ من الله جلَّ جلالُه بمُدَّةِ حياةِ محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصْلُه ضَمُّ العين ؛ مِن العُمْرِ ، ولكنها فُتحت لكثرة (٥) الاستعمالِ .

ومعناه : وبقائكَ يا محمد . وقيل : وعَيْشِكَ . وقيل : وحيَاتِكَ .

وهذه نِهَايةُ التعظيم ، وغايةُ البِرِّ والتشريف . قال ابنُ عباس رضى الله عنهما : ما خلقَ اللهُ تعالى ، وما ذَرَأ (٦) ، وما برَأ نفساً ـ أكرمَ عليه مِنْ محمد (٧) صلّى اللهُ عليه وسلم ، وما سمعتُ اللهَ تعالى أقسم بحياةِ أحدٍ غَيْرِه (٨) .

وقال أبو الجَوْزَاء (٩) : ما أَقْسَمَ اللهُ تعالى بحياةِ أحَدٍ غَيْرِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أَكْرَمُ (١٠) البريّةِ عنده .

---

(١) خصائص : جمع خصيصة . وهى ما خص به دون غيره تمييزا له وتفضيلا له على غيره .

(٢) ليس فى ا .   (٣) سورة الحجر ، آية ٧٢

(٤) سكرتهم : غفلتهم . يعمهون : يتحيرون ويترددون .

(٥) فى ب : بكثرة .   (٦) ذرأ : خلق . وبرأ : خلق .

(٧) فى ب : غير محمد صلى الله عليه وسلم .

(٨) قول ابن عباس هذا رواه البيهقى فى دلائله، وأبو نعيم، وأبو يعلى .

(٩) أبو الجوزاء : أوس بن عبد الله الرابعى البصرى ، يروى عن عائشة وغيرها ، وعنه قتادة وعدة ، وهو ثقة ، كما قال الحاكم . وتوفى سنة ثلاث وثمانين . وفى ب : أبو الحبر .

(١٠) البرية : الخليقة .

وقال تعالى[١] : ﴿ يس . والقرآن الحكيم . . . ﴾ الآيات .

اختلف المُفَسِّرون فى معنى « يس » على أقوال ؛ فحكى أبو محمد مَكِّىّ [أنه][٢] رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لى عند رَبِّى عشرةُ أسماء ، ذكر منها : طه ويس – اسمانِ له[٣] .

وحكى أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ ، عن جَعْفر الصادق – أنه أراد : ياسيّدُ ، مخاطبةً لنبيه صلى اللهُ [١٢] عليه وسلم .

وعن ابن عباس : يس – يا إنْسَان[٤] ، أرادَ محمدا صلى اللهُ عليه وسلم ، وقال : هو قَسَمٌ ، وهو من أسماء الله تعالى[٥] .

وقال الزجَّاجُ[٦] : قيلَ معناه : يامحمد . وقيل : يارَجُل . وقيل : يا إنسان .

وعن ابْنِ الحنَفِيّة : يس : يا محمد .

وعن كَعْب : يس : قَسَمٌ أقسم اللهُ تعالى به قَبْلَ أنْ يخلُقَ السماءَ والأرضَ بألْفَىْ عام : يا محمّدُ إنكَ لَمِنَ المُرْسَلين . ثم قال : والقُرآنِ الحكيمِ إنكَ لَمِنَ المُرْسَلين .

---

(١) سورة يس ، آية ١ ، ٢ (٢) ليس فى ا .

(٣) اسمـــان له : أى هما اسمان له صلى الله عليه وسلم . وقال القارى (١ – ٧٤) : ومع هذا ليس الحديث المذكور بصحيح ، وقد ضعفه القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الشهاب . (١ – ٢٤٠) : فى سنده مقال .

(٤) رواه ابن أبى حاتم . وعن مقاتل إنها لغة حبشية ، يسمون الإنسان « يس » . وعن ابن عباس إنها لغة طيء .

(٥) قال السيوطى : أخرجه ابن جرير .

(٦) الزجاج : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد شيخ العربية ، الإمام فى الأدب . توفى سنة ست أو إحدى عشرة وثلاثمائة (الشهاب : ١ – ٢٤٣) . وقال القارى (١ – ٧٥) : توفى سنة عشر وثلاثمائة ببغداد .

فإنْ قُرِّر أنه بين أسمائه صلى الله عليه وسلم، وصَحَّ فيه [١]. أنه قسَمٌ كان فيه من التعظيم ما تقدَّم [٢]. ويؤكِّدُ فيه القَسَمَ عطفُ القَسَمِ الآخَرِ عليه، وإنْ كان بمعنى النداء فقد جاء قَسَمٌ آخَر بعْدَه لتحقيقِ رِسالته، والشهادةِ بهدايته: أقسم اللهُ تعالى باسْمِه [٣] وكتابِه إنه لَمِنَ المُرْسَلين بوَحْيه إلى عِبادِه، وعلى صراطٍ مستقيم من إيمانِه، أى طريقٌ لا اعْوِجاجَ فيه، ولا عُدولَ عن الحق.

قال النقّاشُ [٤]: لم يُقسِم اللهُ تعالى لأحَدٍ من أنبيائه بالرسالةِ فى كتاب إلّا له، وفيه مِنْ تعظيمه وتَمْجيدِه ـ على تأويل مَنْ قال: إنه ياسيد ـ ما فيه؛ وقد قال عليه السلامُ: أنا سيِّدُ وَلَدِ آدمَ، [ولا فَخْرَ] [٥].

وقال تعالى [٦]: ﴿لا أُقْسِمُ بهذَا الْبَلَدِ، وأَنْتَ حِلٌّ بهذا الْبَلَدِ﴾.

قيل: لا أُقْسِمُ به إذا لم تَكُنْ فيه بعد خُروجِكَ منه، حكاه مَكّىّ [٧].

وقيل: «لا» زائدة؛ أى أُقسم به وأنْتَ به يا محمد حَلالٌ [٨]. أو حِلٌّ لكَ ما فَعلْتَ فيه على التفسيرين.

---

(١) أنه: الضمير لـ «يس». (٢) ماتقدم: أى من القسم بقوله: لعمرك.

(٣) باسمه: وهو يس: العلم الدال على ذاته.

(٤) النقاش: أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلى البغدادى المفسر المقرئ توفى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

(٥) ما بين القوسين ليس فى ب. والفخر: ادعاء العظمة والشرف والإعلان بذكره؛ أى لا أقول ذلك تبجحا ولا افتخارا بل تحديثا بنعم الله وشكرا له. والحديث فى مسلم (١٧٨٢)، وابن ماجه (١٤٤٠). (٦) سورة البلد، آية ١، ٢

(٧) أى «لا» نافية، والبلد: مكة. وفى شرح القارى (١ ـ ٧٧): هذا الذى حكاه مكى لايستقيم تنزيله على الآية، لأنه عكس مقتضاها، ألا ترى أن الواو من قوله تعالى: وأنت حل. واو الحال، وإذا كانت كذلك فيكون معنى الآية: لا أقسم بهذا البلد إذا كنت فيه، وهو ضد ما قال مكى.

(٨) حلال: مقيم.

والمرادُ بالبلد عند هؤلاء مَكَّة .

وقال الوَاسِطِيُّ : أى نَحْلِف لك بهذا البلدِ الذى شَرَّفْتَه بمكانك فيه حيًّا ، وببركتك مَيِّتا ـ يَعْنِي المدينة .

والأولُ أصحُّ ؛ لأنّ السورةَ مكية ، وما بعده يُصَحِّحُه : قوله تعالى : ﴿ وأَنْتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ .

ونَحْوُه قولُ ابن عطاء فى تفسير قولِه تعالى[1] : ﴿وهذا البَلَدِ الأمين﴾ قال : أَمَّنها اللهُ تعالى بمُقامِه فيها وكَوْنِهِ بها ، فإنَّ كَوْنَه[2] أَمَانٌ حيثُ كان .

ثم قال[3] : « وَوَالدٍ وما وَلَد » : ومَنْ قال : أراد آدم فهو عامّ[4] ؛ ومَنْ قال : هو إبراهيم وما وَلد ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ إشارةٌ إلى محمد صلى اللهُ عليه وسلم ، فتتضمّنُ السورةُ القَسَم به صلى الله عليه وسلم فى موضعين[5] .

وقال تعالى[6] : ﴿ الٓمٓ . ذلكَ الكتَابُ لا رَيْبَ فيه ﴾ :

قال ابنُ عباس : هذه الحروفُ أقسام[7] أقسم اللهُ تعالى بها . وعنه وعن غَيْرِه فيها غَيْرُ ذلك .

وقال سَهْل بن عَبْد الله التُّسْتَرى[8] : الألف هو الله تعالى . واللام جبريل . والميم محمد صلى اللهُ عليه وسلم .

---

(١) سورة التين ، آية ٣
(٢) فإن كونه ، أى وجوده. أمان : موجب للأمانة. حيث كان: حيث وجد بذاته الشريفة.
(٣) سورة البلد ، آية ٣
(٤) فالقسم على هذا بنوع الإنسان ، لأنه أشرف مخلوقاته .
(٥) أحدهما فى البلد الذى هو محله ، والثانى فى قوله : ومولود ـ على هذا التفسير .
(٦) سورة البقرة ، آية ١ ، ٢
(٧) الأقسام : جمع قسم ، بمعنى المقسم به .
(٨) رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وحكى هذا القولَ السمرْقَنْديُّ ، ولم ينسبه إلى سَهْل ، وجعل معناه : اللهُ أنزل جبريل على محمد بهذا القرآنِ لا رَيْبَ فيه .

وعلى الوَجْه الأول [١] يحتمـلُ القسَمُ أنَّ هذا الكتابَ حقٌّ لا رَيْبَ فيه ، ثُمَّ فيه مِنْ فَضِيلة قِرَان اسْمِه باسمه نحو ما تَقَدَّم .

وقال ابنُ عطاء ـ فى قـوله تعالى [٢] : ﴿ قٓ والقرآنِ المجيد ﴾ ـ أقسم بقُوَّةِ قَلْب [٣] حبيبه [محمد] [٤] صلى اللهُ عليه وسلم حيث حَمَل [٥] الخِطَابَ والمشاهدةَ ولم يؤثر ذلك فيه لعُلوِّ حاله [٦] .

وقيل : هو اسمٌ للقرآن . وقيل : هو [٧] اسمٌ لله تعالى [٨] . وقيل : جَبَلٌ مُحِيط بالأرض . وقيل غير هذا .

وقال جَعْفَر بن محمد ـ فى تَفْسِير [٩] : ﴿ والنَّجْمِ إذَا هَوَى ﴾ : إنه محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، وقال [١٠] : النجم قَلْبُ محمد صلّى اللهُ عليه وسلم : انشرح من الأنوار .

---

(١) الوجه الأول الذى رواه عن ابن عباس ، وهو القسم بالحروف .

(٢) سورة ق ، آية ١

(٣) فالقاف بمعنى القوة على طريق الاكتفاء كما فى قوله : قات لها قفى قالت قاف .

(٤) ليس فى ب .

(٥) حمل : تحمل ، وأطاق خطاب الله ليلة الإسراء ومشاهدة الملكوت ومهابته .

(٦) أى إن له صلى الله عليه وسلم حالا فى ثبات جنانه ورفعة شأنه ، لما أودع فى قلبه من اليقين .

(٧) هو : أى ق .

(٨) على نحو ما مر من إطلاق حرف من الاسم على مسماه ، فهو على هذا بمعنى قيوم ، أو قدير ، ونحوه .

(٩) سورة النجم ، آية ١

(١٠) وقال : أى جعفر ، فله فيه تفسيران ، أو عنه فيه روايتان .

وقال : انقطعَ[١] عن غَيْرِ الله .

وقال ابنُ عطَاء ـ فى قوله تعالى[٢] : ﴿ والفجْرِ وليَالٍ عَشْر ﴾ ـ الفَجْر : محمد صلَّى اللهُ عليه وسلم ، لأنّ منه تفجرَ الإيمانُ[٣] .

الفصل الخامس

فى قَسَمِهِ تعالى [١٣] جَدُّهُ ، له ، ليُحقِّقَ مكانتَه عنده[٤]

قال جلّ اسْمُه : ﴿ والضُّحَى . والليلِ إذَا سجَى . ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى . وَللآخِرَةُ خَيْرٌ لكَ مِنَ الأُولَى ، ولسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَترْضَى ، أَلَمْ يجِدْكَ يَتيماً فآوَى . ووَجدكَ ضالًّا فهَدَى . ووَجدكَ عائلاً فأَغْنَى ، فأَمَّا اليتيم فلا تَقْهَر . وأما السائلَ فلا تنْهَرْ . وأما بنعمةِ رَبِّكَ فحدِّثْ ﴾ .

اختلف فى سبب نزول هذه السورة[٥] ؛ فقيل : كان ترْكُ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قيامَ الليل لعُذْرٍ نزل به ، فتكلمت امرأةٌ[٦] فى ذلك بكلام . وقيل : بل تكلَّمَ

(١) هذا تفسير آخر لقوله : هوى . وهذا المعنى الأخير أظهر ، لأنه من هوى النجم . إذا سقط من بين النجوم ، وهو إذا انقطع إلى ربه فارق الناس .

(٢) سورة الفجر ، آية ١

(٣) قال فى نسيم الرياض : من فسر الفجر بمحمد صلى الله عليه وسلم يفسر الليالى العشر بعشر رمضان . ثم قال : والذى عليه المحققون من المفسرين أنه على حقيقته ، أو هو بتقدير مضاف : أى وصلاة الفجر . والليالى العشر : عشر ذى الحجة .

(٤) تعالى جده : عظمته . له : متعلق بالقسم . والضمير للنبى صلى الله عليه وسلم .

(٥) سبب النزول : أمر حادث فى زمن النبوة ينزل القرآن فى حقه ، ويجوز تعدده .

(٦) روى أن هذه المرأة هى أم جميل بنت حرب ، امرأة أبى لهب .

به المشركون عند فَتْرَة[١] الوحى ، فنزلت السورةُ .

قال القاضى الإمام أبو الفضل : تضمَّنتْ هذه السورةُ من كرامةِ اللهِ تعالى له ، وتَنْويهِه[٢] به وتعظيمه إياه ستَّةَ وجوه :

الأول: القَسَمُ له عما أخبره به مِنْ حاله بقوله تعالى: «والضحى. والليل إذا سجى»[٣] ، أى وربِّ الضحى ، وهذا مِنْ أعظم درجات المَبَرَّة[٤] .

الثانى ـ بيَانُ مكانتِه عنده وحُظْوته لدَيْهِ بقوله تعالى[٥] : ﴿ما وَدّعك ربُّكَ وما قَلَى﴾ ؛ أى ما ترككَ وما أبغضك . وقيل : ما أهملَك بعد أن اصْطَفاك[٦] .

الثالث ـ قوله تعالى[٧] : ﴿وللآخِرَةُ خَيْرٌ لكَ من الأُولى﴾ ؛ قال ابن إسحاق : أى مالكَ فى مَرْجِعِكَ عند الله أعظَمُ مِمّا أعطاكَ من كرامةِ الدُّنيا .

وقال سَهْل : أى ما ما ذَخَرْتُ لكَ من الشفاعة والمَقَام المحمود[٨] خيرٌ لكَ مما أعطيتُكَ فى الدنيا .

الرابع ـ قوله تعالى[٩] : ﴿ولسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترْضَى﴾ .

---

(١) أصل الفترة : مدة قليلة بين الشيئين ، والسكون . والمراد انقطاع الوحى عنه مدة . وكان الوحى قد تأخر عن النبى صلى الله عليه وسلم بضعة عشر يوما . وقيل: كانت المدة سنتين ونصفا . والأول أصح . فقالت قريش ، إن محمدا ودعه ربه وقلاه .

(٢) كرامة الله : إكرامه ، أى توقيره . وتنويهه به ، أى رفعة قدره ، وإشاعة فضله .

(٣) الضحا : جمع ضحوة ـ كقرية : وهى أول النهار . سجى : دخل وأظلم . أو سكن .

(٤) المبرة : بمعنى البر ، وهو الإحسان ، وكل أمر مرضى .

(٥) سورة الضحى ، آية ٣

(٦) اصطفاك : اختارك وقربك .

(٧) سورة الضحى ، آية ٤

(٨) المقام المحمود : مقام الشفاعة العظمى الذى يحمده فيه الأولون والآخرون .

(٩) سورة الضحى ، آية ٥

وهذه آيةٌ جامعةٌ لوجوهِ الكرامة، وأنواعِ السعادة، وشتَاتِ الإنْعَام في الدّارَين. والزيادةِ[١].

قال ابن إسحاق: يُرْضِيه بالفَلَج[٢] في الدنيا، والثوابِ في الآخرة.

وقيل: يُعْطيه الحوْضَ والشفاعة.

ورُوِى عن بعض آلِ النبيّ[٣] صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس آيةٌ في القرآن أَرْجَى منها[٤]، ولا يَرْضَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أَنْ يدخلَ أحدٌ من أمته النار.

الخامس ـ ماعدَّدهُ تعالى عليه من نِعَمه، وقرّره من آلائه[٥] قِبَلَه في بقية السورة؛ من هدايته إلى ما هدَاهُ له، أو هدايَةِ الناسِ به على اختلاف التفاسير، ولا مالَ له؛ فأغناه بما آتاه، أو بما جعَلَه في قَلْبِه من القناعة والغنى، ويتيما فَحَدِبَ عليه عمُّه وآواه[٦] إليه.

---

(١) شتات الإنعام: متفرقاته، والزيادة: أي والزيادة على ذلك بما خصه به. أو الزيادة على النعم المعروفة بلقائه ورضوانه.

(٢) في أ: بالفاج ـ بضم الفاء، وسكون اللام. وفي هامش ب: الفَلْج: النصر. والفلج: الفوز والظفر بالأعداء، فالمراد أنه يفوز في الدنيا وينصره الله ويحميه.

(٣) هو علي رضي الله عنه. أو الحسن بن محمد ابن الحنفية، أو غيرهما: قال في النسيم: وطرقه متعددة فهي تعضده، وهو في تفسير القرطبي: ٢٠ ـ ٩٦، وانظر أيضا صحيح مسلم: ٢١٣٦

(٤) منها: أي من قوله تعالى: ولسوف يعطيك ربك فترضى. وارجع إلى القاري (١-٨٦)، ففيه حديث طويل عن أرجى آية في القرآن ـ إن أردت.

(٥) آلائه: نعمه.

(٦) حدب. المراد العطف والشفقة. وعمه: هو عمه أبو طالب. وآواه: ضمه إليه لتربيته وحمايته. وفي هامش ب: حَدُب عليه ـ بالجيم وضم الدال؛ أي رق عليه. ولم أقف عليه.

وقيل : آواه إلى الله[١] . وقيل : يتيما : لا مِثَالَ لك ، فآواك إليه .

وقيل : المعنى : ألم يجدكَ فهدَى بكَ ضالّا ، وأغنى بكَ عائلا ، وآوَى بك يتيما[٢] ـ ذَكّرَهُ بهذه المِنَن[٣] ، وأنه على المعلوم من التفسير لم يُهْمِلْه في حال صغره وعَيْلَتِه[٤] ويُتْمه وقَبْلَ معرفته به ، ولا ودَّعه ولا قَلَاه[٥] ، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه !

السادس : أَمْرُه بإظهار نعمته عليه وشُكْرِ ما شرّفَه بنَشْرِه وإشادةِ[٦] ذِكْرِه بقوله تعالى : « وأمَّا بنعمة ربِّكَ فحدِّثْ » ؛ فإنّ مِنْ شُكْرِ النعمة الحديثَ بهــا ؛ وهذا خاصٌّ له ، عامٌّ لأمته .

وقال تعالى[٧] : ﴿ والنَّجْمِ إذا هوَى . ماضَلَّ صاحِبُكم وما غوَى . وما يَنْطِقُ عن الهوَى . إنْ هوَ إلّا وَحْيٌ يُوحَى . علّمه شديدُ القُوَى . ذو مِرّةٍ فاستوى . وهو بالأُفُقِ الأعْلَى . ثم دَنَا فتدَلَّى . فكان قابَ قوسَيْن أو أدْنَى . فأوْحَى إلى عَبْدِه ما أوْحَى . ما كذَبَ الفُؤادُ مارَأى . أفتُمارُونَه على مايَرَى . ولقد رآهُ نَزْلَةً أُخْرى . عند سِدْرَةِ المُنْتَهَى . عندها جنّةُ المَأْوَى . إذ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى . ما زاغَ البَصَرُ وما طَغَى . لقد رأى مِنْ آياتِ رَبِّه الكُبْرَى ﴾ .

---

(١) أى قيل فى تفسير هذه الآية : إن معناها آواه الله ، أى ضمه إلى نفسه ، ولم يحوجه لحماية أحد وإيوائه .

(٢) فى نسيم الرياض : حكاه بـ « قيل » إشارة إلى ضعفه ، لأن هذا القول لايساعده إعراب ، ولا يصحبه صواب ، فالأولى تركه .

(٣) المنن : جمع منة ، وهى الإحسان .

(٤) لم يهمله : لم يتركه . والعيلة : الاحتياج والفقر .

(٥) ماودعه ولا قلاه : ماتركه ولا أبغضه ، وقد تقدم .

(٦) بنشره : بإذاعته ، وإظهاره للناس . وأصل معنى الإشادة : رفع الصوت ، والمراد : إعلام الثقلين .

(٧) سورة النجم ، آية ١ ، وما بعدها .

اختلف المفسرون فى قوله تعالى : « والنجم » بأقاويلَ معروفة ، منها النَّجْم على ظاهِره ، ومنها القرآن[١] .

وعن جعفر بن محمد أنه محمدٌ عليه السلام ؛ وقال : هو قَلْبُ محمد[٢] .

وقد قيل فى قوله تعالى[٣] : ﴿ والسماء والطَّارِق . وما أدْراكَ ما الطَّارقُ . النَّجْمُ الثاقب ﴾[٤] ـ إن النجم هنا أيضا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ حكاه السُّلَمِىّ .

تضمَّنت هذه الآياتُ من فَضْله وشرفِه العِدّ ما يقف دونه العَدُّ[٥] ، وأقسم جلَّ اسْمُه على هدايةِ المصطفى ، وتَنْزيهه عن الهوى[٦] ، وصِدْقِه فيما تَلَا ، وأنَّه وَحْى يُوحَى أَوْصَلَه إليه ـ عن الله ـ جبريل ، وهو الشديدُ القُوَى .

ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء[٧] ، وانتهائه إلى سِدْرَةِ[٨] المُنْتَهى ،

---

(١) لأنه نزل نجوما متفرقة بحسب المصالح .

(٢) قال الخفاجى : إطلاق النجم على قلب النبى لإشراقه بالأنوار الإلهية ، وهو منبعها ومنبع الهداية ، وفيه خفاء. وقال القارى (١ ـ ٩٠) : ولعل المراد بهواه على هذا : ميله إلى ربه وغيبته عن غيره ، واستغراقه فى حبه . وقد تقدم هذا القول لجعفر بن محمد .

(٣) سورة الطارق ، آية : ١ ـ ٣

(٤) الطارق : أصل معناه : الذى يأتى ليلا ، لأنه يطرق الباب المغلق ليلا . أو يطرق الأرض برجله ، ثم غلب على النجم لظهوره ليلا . والثاقب: المضىء ؛ وكأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه .

(٥) العد ـ بكسر العين: الكثير. العد ـ بفتح العين : الإحصاء . وفى هامش ب : العد ـ بكسر العين : الذى يقف دونه الحصر ، والماء الكثير الذى له مادة لا تنقطع ، والله أعلم . والعد ـ بفتح العين : العدد .

(٦) هذا مادل عليه قوله تعالى : ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى .

(٧) قال الشهاب (١ ـ ٢٧٢) الإسراء : إسراؤه من مكة لبيت المقدس . والمعراج : عروجه إلى الملأ الأعلى ، وإن كان كل منها يطلق على الآخر . وابتداء القصة من قوله : « فاستوى . . . » إلى قوله : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى . . . » فى المعراج . وقال القارى : بقصة الإسراء ، أى بقصة المعراج المبتدأ بعد الإسراء إلى المسجد الأقصى ، كما أشار إليه بقوله : وانتهائه إلى سدرة المنتهى .

(٨) سدرة المنتهى : شجرة .

وتصديق بَصَرِه فيما رَأى[١] ، وأنه رأى من آيات رَبِّه الـكبرى . [١٤] . وقد نَبَّه على مثل هذا فى أول سورة الإسراء .

ولما كان ما كاشفَهُ به عليه السلام من ذلك الجَبَرُوتِ[٢] ، وشاهَدَهُ من عجائب المَلَـكُوت لا تُحِيطُ به العبارات ، ولا تستقِلُّ بحَمْل سَمَاع أدناه[٣] العقولُ ـ رمَزَ عنه تعالى بالإيماءة والـكناية الدالّة على التعظيم[٤] ؛ فقال تعالى[٥] : ﴿ فأَوْحَى إلى عَبْدِه ما أَوْحى ﴾ .

وهذا النوعُ من الـكلام يُسمِّيه أهلُ النقد والبلاغة بالوَحْى والإشارة ، وهو عندهم أبْلَغُ أبوابِ الإيجاز .

وقال تعالى : ﴿ لقد رأَى من آياتِ رَبِّه الـكُبْرى ﴾ ـ انحسرت الأفهامُ عن تفصيل ما أَوحى ، وتاهَت[٦] الأحلامُ فى تعيين تلكَ الآياتِ الـكبرى .

قال القاضى أبو الفضل[٧] :اشتملت هذه الآياتُ على إعلامِ الله تعالى بتَزْكِيَةِ[٨] جُمْلته عليه السلام ، وعِصْمَتِها من الآفاتِ فى هذا المَسْرَى[٩] ، فزَكّى فؤادَه ولسانه

---

(١) أى تصديق الله له فى رؤيته فى قوله تعالى : « ما زاغ البصر . . . » ؛ أى ما رآه واعتقده بسبب رؤيته حق مطابق للواقع .

(٢) كاشفه : عاينه . أى عاين الجبروت واطلع عليه . والجبروت: بمعنى العظمة والجلالة .

(٣) لا تستقل : لاتنفرد ولا تقوى . وأدنى : أقل .

(٤) رمز : أشار . والـكناية : مايراد به لازم معناه الحقيقى مع جواز إرادته. والـكناية: ما يقابل الصريح ، وهو المراد هنا .

(٥) سورة النجم ، آية ١٠

(٦) انحسرت : أعيت وكلت . وتاهت : ضلت وتحيرت . والأحلام : العقول .

(٧) هو المصنف .

(٨) التزكية : تطهيره عن النقائص البشرية . والمراد بتزكية جملته : تطهير ذاته ، وتنمية صفاته .

(٩) وعصمتها : حفظها . والآفات : جمع آفة ، مايعرض من المفاسد . والمسرى : مكان السرى .

وجَوَارِحَه : [فزكّى][1] قلبَه بقوله : ﴿ما كذَبَ الفُؤاد ما رأى﴾ . ولسانه بقوله: ﴿وما ينْطِقُ عن الهوَى﴾ . وبَصَره بقوله : ﴿ ما زَاغَ الْبَصَرُ وما طَغَى ﴾[2] .

وقال تعالى[3] : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الـكُنَّسِ[4].واللّيْلِ إذا عَسْعَس. والصُّبْحِ إذا تَنَفَّس[5]. إنه لَقَوْلُ رسولٍ كَرِيمٍ . ذى قُوَّةٍ عند ذىالعَرْشِ مَكِين[6]. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين. وما صاحِبُكم بمجنون . ولقد رَآهُ بالأُفُقِالمبِين. وما هُوَ على الغَيْبِ بِضَنِين . وما هُوَ بِقَوْلِ شيطانٍ رَجِيم ﴾.

« لاأقسم » : أى أقسم . «إنه لقول[7] رسُولٍ كَرِيم » ؛ أى كريم عندمرسله. « ذِى قُوَّةٍ » على تبليغ ماحمله من الوَحْى ، « مكين » : أى متمكِّنُ المنزلة من ربّه ، رَفِيع المَحَلِّ عنده ؛ « مُطَاعٍ ثَمّ » : أى فى السماء . « أمين » على الوَحْى .

قال على بن عيسى[8] وغيره : الرسولُ الـكريمُ هنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ؛ لجميعُ الأوصافِ بَعْدُ على هذا له .

---

(١) من ب .

(٢) أى ما مال بصره يمينا ولا شمالا ، ولا تجاوز حده فى نظره لما هو أمامه . وفى هذا بيان لثبات جنانه ، أو كمال أدبه ، وهو فى رؤيته لربه فى معراجه .

(٣) سورة التكوير : الآيات من ١٥ — ٢٥

(٤) الخنس الجوار الـكنس : الـكواكب التى تخنس بالنهار : أى ترجع . (مفردات القرآن) . والـكنس : التى تغيب فى منارها .

(٥) عسعس : أقبل وأدبر ، وذلك فى مبدأ الليل ومنتهاه . فالعسعسة : رقة الظلام، وذلك فى طرفى النهار ، وسيأتى ذلك .

(٦) ذى قوة : هو جبريل — وقيل : هو النبى .

(٧) إنه ، أى القرآن .

(٨) هو على بن عيسى الرمانى النحوى ، وهو من أصحاب ابن دريد ، وصاحب كتاب النـكت فى إعجاز القرآن ، إمام مشهور فى سائر العلوم ، توفى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (القارى : ١ — ٩٤) .

وقال غيره[١] : هو جبريل ، فترجع الأوصافُ إليه .

ولقد رآه ـ يعني محمّدا . قيل : رأى ربّه . وقيل : رأى جبريل فى صورته .

« وما هو على الغيب بظنين » ، أى : بمتهم . ومن قرأها بالضاد فمعناه : ما هو ببخيل بالدعاء به ، والتذكير بحِكَمِه[٢] وبعلمه ، وهذه لمحمد عليه السلام باتفاق .

وقال تعالى[٣] : ﴿ نٓ . والقَلَمِ وما يَسْطُرونَ . ما أَنْتَ بنعمةِ رَبِّكَ بمَجْنُون . وإنَّ لكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُون . وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم . فستُبْصِرُ ويُبْصِرُون . بأَيِّكُم المَفْتُون . إنَّ ربَّكَ هو أعلمُ بمَنْ ضَلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمُهْتَدِين . فلا تُطِعِ المكذِّبين . ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون . ولا تُطِعْ كُلَّ حلَّافٍ مهين . هَمَّازٍ مَشَّاء بنَمِيم . مَنَّاعٍ للخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيم . عُتُلٍّ بعد ذلكَ زَنِيم . أَنْ كان ذا مالٍ وبَنِين . إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال أساطِيرُ الأوّلين . سنَسِمُهُ على الخُرْطوم ﴾ .

أقسم اللهُ تعالى بما أقسم به مِنْ عظيمِ قَسَمِه على تنزيه المصطفى بما غَمَصَتْه[٤] ، الكفَرَةُ به ، وتكذيبهم له ، وأنَّسه[٥] ، وبسط أَمَلَهُ[٦] بقوله ـ محسنا خطابه : « ما أنتَ بنعمة ربِّكَ بمجنون » .

وهذه نهايةُ المَبرَّةِ فى المخاطبة ، وأعلى درجاتِ الآداب فى المُحاورة ؛ ثم أَعْلَمَهُ بماله عنده مِن نعيمٍ دائم ، وثوابٍ غَيْرِ منقطع ، لايأخذه عَدٌّ[٧] ، ولا يُمْتَنُّ به عليه ؛ فقال تعالى: ﴿ وإنَّ لك لأَجراً غير مَمْنُون ﴾[٨] .

---

(١) وهم الأكثرون من العلماء ، وهو قول جمهور المفسرين .
(٢) الدعاء : بمعنى الدعوة . والتذكير : التنبيه أو الوعظ .
(٣) سورة القلم ، الآيات من : ١ - ١٦   (٤) غمصته : عابته وحقرته .
(٥) هذا الضبط فى أ ، ب . والمراد أنه جعله ذا أنس بقربه ، ومستأنسا بحبه .
(٦) وبسط أمله : الأمل : الرجاء ؛ وبسطه : توسيعه .
(٧) لايأخذه عد : أى لايحصى ولا يعد .
(٨) غير ممنون : غير منقطع ، أو غير ممنون عليك به من غيرك ، لأنه موهبة إلهية .

ثم أثنى عليه بما منحه من هِبَاته ، وهدَاهُ إليه ، وأَكّد ذلك تتميما للتمجيد[١] ، بحرْفَى التأكيد[٢] ؛ فقال تعالى: ﴿ وإنكَ لَعلَى خُلُقٍ عظيم ﴾ . قيل: القرآن . وقيل: الإسلام . وقيل : الطَّبْعُ الكريم . وقيل : ليس لك هِمَّةٌ[٣] إلا الله .

قال الواسطى : أَثْنَى عليه بحُسْنِ قبوله لما أَسْدَاهُ[٤] إليه من نِعَمه ، وفضَّلَه بذلك على غيره ؛ لأنه جَبَلَهُ[٥] على ذلك الُخلق ؛ فسبحان اللطيفِ الكريم ، المحسنِ الجواد ، الحميد الذى يَسَّر للخير[٦] وهدَى إليه ، ثم أثنى على فاعله ؛ وجازاه عليه سُبْحانه ، ماأَغْمَرَ نَوَالَهُ[٧] ، وأَوْسع إفضَالَه[٨] ؛ ثم سلَّاه عن قولهم بعد هذا بما وَعده به من عُقْبَاهُم[٩] ، وتوعَّدهم بقوله : ﴿ فستُبْصِر ويُبْصِرون.بأَيِّكم المَفْتون . إنّ ربَّكَ هو أعلم بمن ضَلَّ عن سبيله وهو أَعْلَمُ بالمُهْتَدين ﴾ .

ثم عطف[١٠] بعد مَدْحِه على ذَمِّ عَدُوِّه[١١] ، وذِكْرِ سوء خُلقه ، وعَدِّ معايِبه ، متولِّيا ذلك بفَضْله ، ومُنْتَصِرا لنبيه ؛ فذكر بضْعَ عشرةَ خصلةً من خصالِ الذمّ فيه

---

(١) التمجيد : التعظيم . (٢) حرفا التأكيد هما : إن ، واللام .

(٣) ليس لك همة : الهمة : العزم والقصد . وفى أ : همه ـ بالهاء .

(٤) أسداه : أسدى : أعطى .

(٥) جبله : خلقه مطبوعا .

(٦) يشير إلى قوله تعالى : « أعطى كل شى خلقه ثم هدى » . وتيسير الخير : تسهيله بتهيئة أسبابه ، كما قال تعالى : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ .

(٧) ما أغمر نواله : ما أكثر عطاءه .

(٨) وأوسع إفضاله : الإفضال : الإنعام .

(٩) فى ب : عقابهم . وفى هامشه : خ : فى عقباهم ، يشير إلى ما فى نسخة أخرى . وعقباهم : سوء عاقبتهم .

(١٠) عطف : التفت وعاد .

(١١) قيل : هو الأخنس بن شريق . وقيل: الوليد بن المغيرة ، أو أبو جهل : أو المراد به جنس العدو .

بقوله(١) : ﴿ فلا تُطِعِ المُكَذِّبِين . وَدُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنُون (٢) . ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِين(٣) . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيم(٤) . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيم(٥) . عُتُلٍّ(٦) بعد ذلك زَنِيم . أَنْ كان ذا مالٍ وبنين . إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال أساطِيرُ الأوَّلين ﴾(٧) .

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بَوارِه(٨) بقوله : ﴿ سَنَسِمُهُ على الخُرْطُوم ﴾(٩) ؛ فكانت نُصْرةُ اللهِ [١٥] له أتمّ من نصرته لنفسه ، وردُّه تعالى على عدوه أبلغ من ردِّه ، وأثبت فى دِيوان مَجْدِه(١٠) .

---

(١) سورة القلم ، آية ٨ — ١٥

(٢) ودوا لو تدهن فيدهنون : أى لو تلين فتدع نهيهم عن الشرك فيميلون إليك فى بعض ما تدعوهم إليه .

(٣) حلاف : كثير الحلف حقا وباطلا . مهين : ذو مهانة وحقارة .

(٤) هماز : عياب فى أعراض الناس . مشاءبنميم : نقال للحديث على وجه السعاية للفساد .

(٥) مناع للخير : كثير المنع منه . أثيم : كثير الإثم .

(٦) عتل : جاف غليظ . زنيم : دعى ، كالوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده .

(٧) أساطير : جمع أسطورة ، أو إسطار ، والمراد : الأباطيل المنسوبة إلى المتقدمين .

(٨) البوار : الهلاك والدمار .

(٩) سنسمه على الخرطوم : الوسم : العلامة والكى . والخرطوم : الأنف هنا . والمراد: التشهير بالقبائح فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما .

(١٠) وأثبت فى ديوان مجده : أى أعظم وأقوى ثباتا وأبقى فى صحف الدهر من أن يثبته هو لنفسه .

الفصل السادس

فيما ورد من قوله تعالى فى جهته عليه السلام موردَ الشفقة والإكرام[١]

قال تعالى[٢] : ﴿ طٰه . ما أنْزَلْنا عليكَ القرآنَ لِتَشْقَى ﴾ .

قيل : طه : اسم من أسمائه[٣] عليه السلام . وقيل : هو اسمٌ الله ، وقيل : معناه يارَجُل . وقيل : يا إنسان . وقيل : هى حروفٌ مقطّعة لِمَعَان .

وقال الواسطىُّ : أراد يا طاهر ، يا هادى[٤] . وقيل : هو أمرٌ من الوطء . والهاء كناية عن الأرض ؛ أى اعتمد على الأرض بقدميك ، ولا تُتعِبْ نَفْسك بالاعتماد على قدم واحدة ، وهو قولُه تعالى : « ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتَشْقَى » .

نزلت الآية فيما كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يتكلَّفُه من السَّهَر والتعب وقيام الليل .

أخبرنا القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن[٥] ، وغَيْرُ واحد ، عن القاضى أبى الوليد الباجى إجازة ، ومن أصْله نقلتُ ؛ قال : حدثنا أبو ذَرّ الحافظ ، حدثنا أبو محمد الحَمُّوِىّ[٦] ، حدثنا إبراهيم بن خُزَيم[٧] الشاشى ، حدثنا عَبْدُ بن حُمَيد ، حدثنا هاشم بن القاسم ، عن أبى جعفر ، عن الربيع بن أنس ؛ قال : كان النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم إذا صلَّى قام على رِجْل ورفَع الأخرى ؛ فأنزل اللهُ تعالى : طه —

(١) يعنى ما جاء فى القرآن من الآيات الدالة على إكرام الله له والشفقة به ، والرحمة له .

(٢) سورة طة : ١ ، ٢

(٣) من أسمائه : أى من أسماء النبى .

(٤) فالطاء فى « طه » من طاهر ، والهاء فيها من هادى وفى أ : ياهاد . والمثبت فى ب .

(٥) أحد العلماء الصالحين ، من رجال الأندلس . مات سنة ثلاث وخمسمائة بإشبيلية .

(٦) هذا الضبط فى الخفاجى والقارى مؤكدا بالعبارة .

(٧) عليها علامة الصحة بهامش أ ، وفى هامش ب : بالزاى .

يعنى طَأ الأرضَ يا محمد ، «ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لِتَشْقَى. إلَّا تَذْكِرةً لِمَنْ يَخْشَى. تنزيلا مِمَّنْ خلقَ الأرضَ والسموات العُلَى » .

ولا خفاءَ بما فى هذا كلِّه من الإكرام وحُسْنِ المعاملة .

وإن جعلنا « طه » من أسمائه عليه السلام كما قِيل ، أو جُعِلت قسما لَحِقَ الفَصْلُ بما قبله[1] .

ومثلُ هذا من نَمَطِ[2] الشفقةِ والمَبَرَّة قولُه تعالى[3] : ﴿ فلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ على آثارهم إنْ لم يؤمِنوا بهذا الحديثِ أَسَفا ﴾؛ أى قاتل نفْسَكَ لذلك غَضَبا أو غيظا ، أو جزَعا .

ومِثْلُه قولُه تعالى أيضا[4] : ﴿ لعلك باخِعٌ نَفْسَكَ ألَّا يَكُونوا مؤمنين ﴾ ؛ ثم قال[5] : ﴿ إنْ نَشَأْ نُنَزِّل عليهم من السماء آيَةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضِعين ﴾[6] .

ومِنْ هذا الباب قولُه تعالى[7] : ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عن المشركين . إنَّا كَفَيْناكَ المستهزئين . الذين يَجْعَلُونَ مع الله إلهاً آخرَ فسوف يَعلمون . ولقد نَعْلَمُ أنكَ يَضِيقُ صَدْرُك بما يقولون ﴾ .

وقوله[8] : ﴿ ولقد استُهْزِئَ برسُلٍ من قَبْلِكَ فحاقَ[9] بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

---

(١) أى التحقت هذه الآية المذكورة فى هذا الفصل بالفصل الذى قبله، لإتيانه بما أقسم به تعالى، تحقيقا لمكانته عنده، وبما أفاده من نهاية المبرة فى مخاطبته، وأعلى درجات الأدب فى محاورته.

(٢) النمط : الطريق ، وهو هنا النوع .

(٣) سورة الكهف ، آية ٦

(٤) سورة الشعراء ، آية ٣

(٥) سورة الشعراء ، آية ٤

(٦) الخضوع : التذلل والانقياد .

(٧) سورة الحجر ، الآيات : من ٩٤ — ٩٧

(٨) سورة الأنعام آية ١٠ ، وسورة الأنبياء ، آية ٤١ . قال فى نسيم الرياض : ويحتمل أن تكون آية الرعد (٣٢) وتمامها: ﴿فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾، أى أمهلتهم برهة من الزمان فى دعة وأمن ، ثم أخذتهم فكيف كان عقابى إياهم ؟

(٩) حاق : أحاط بهم حيث أهلكوا .

قال مَكّىّ : سلّاه بما ذَكر ، وهوّنَ عليه ما يَلْقَى من المشركين ، وأعلمه أنَّ مَنْ تَمَادَى[١] على ذلك يحُلُّ به ما حلَّ بمَنْ قبله .

ومثالُ هذه التسلية قولُه تعالى[٢] : ﴿ وإنْ يُكَذِّبُوكَ فقد كُذِّبت رسلٌ مِنْ قَبْلك ﴾ .

ومِنْ هذا قولُه تعالى[٣] : ﴿ كذلكَ ما أتى الذين مِنْ قَبْلهم مِنْ رسولٍ إلا قالوا ساحِرٌ أو مَجْنُون ﴾ .

عزّاه اللهُ تعالى بما أَخْبَر به عن الأمَمِ السالفة[٤] ومقالِها لأنبيائهم قَبْله ، ومِحْنَتهم بهم ؛ وسلّاه بذلك من مِحنَته[٥] بمثله من كفَّار مكة ، وأنه ليس أوّلَ مَنْ لقى ذاك ، ثم طيّبَ نفسه ، وأَبَان عُذْرَه بقوله تعالى[٦] : « فتولَّ عنهم » ؛ أى أَعْرِض عنهم ؛ « فما أنْتَ بمَلُوم » ؛ أى فى أداءِ ما بلَّغْتَ وإبلاغ ما حُمِّلْتَ .

ومثلُه قوله تعالى[٧] : ﴿ واصْبِرْ لحُكْمِ ربِّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنا ﴾ ؛ أى اصبِرْ على أذاهم فإنكَ بحيث نراكَ ونحفظك[٨] .

سلّاه الله تعالى بهذا فى آيٍ كثيرة من هذا المعنى .

---

(١) تمادى : تطاول ، وأصر ، واستمر .

(٢) سورة فاطر ، آية ٤

(٣) سورة الذاريات ، آية ٥٢

(٤) السالفة : المتقدمة .

(٥) المحنة : الاختبار والابتلاء .

(٦) سورة الذاريات ، آية ٥٤

(٧) سورة الطور ، آية ٤٨

(٨) أى دم على الصبر فى تنفيذ ما حكم الله تعالى به ، ولا تحزن ، ولا تخف من الأعداء؛ فإنك محفوظ محروس ، لا يصلون إليك .

الفصل السابع

فيما أخبر اللهُ تعالى[1] به في كتابه العزيز من عظيم قَدْرِه وشَرِيف منزلته على الأنبياء وحظوة رُتْبَته

قوله تعالى[2]: ﴿وإذْ أَخذَ اللهُ ميثاقَ النَّبِيّين[3] لَمَا آتيتُكم من كتابٍ وحِكْمة، ثم جاءكم رسولٌ مُصدِّقٌ لِمَا معَكُمْ لتؤْمِنُنَّ به ولتنصرُنّه، قال: أأقررتُم وأخذتُم على ذلِكُمْ إصْرِي[4]؟ قالوا: أقْرَرْنا. قال: فاشْهَدُوا وأَنا معَكم مِنَ الشاهدين﴾.

قال أبو الحسن القابِسيّ: استخصّ[5] اللهُ تعالى [١٦] محمدا صلى الله عليه وسلم بفَضْلٍ لم يُؤْتِه غيره، أبانَهُ به[6]، وهو ما ذكره في هذه الآية؛ قال المفسرون: أَخذَ اللهُ الميثاقَ بالوَحْي[7]، فلم يَبْعَث نبيا إلا ذكر له محمدا ونَعْتَه[8]، وأخذَ عليه ميثاقَه إنْ أدْركه ليؤمِنَنّ به.

وقيل: أنْ يُبَيِّنَه لقومه، ويأخذَ ميثاقَهم أن يُبيِّنوه لمَنْ بعدهم.

وقوله: «ثم جاءكم»: الخطابُ لأهـــل الكتاب المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) في ب: فيما أخبر به تعالى . . .

(٢) سورة آل عمران، آية ٨١

(٣) وإذ أخذ الله ميثاق النبيين: يحتمل أن يراد: أخذ الله الميثاق على النبيين، أو أخذ الله على الأمم الميثاق الذي شرع النبيون تعظيمه، فأضيف إليهم. أو هو بتقدير مضاف؛ أي ميثاق أمم النبيين.

(٤) إصري: عهدي وميثاقي.

(٥) استخص: خص، واختص.

(٦) أبانه به: أي أظهر ذلك الفضل له. أو فضله وميزه به عن غيره.

(٧) بالوحي: أي إلى الأنبياء.

(٨) ونعته: النعت: الصفة. وهذا رواه ابن جرير، وابن كثير، بإسناد صحيح.

قال عليّ بن أبي طالب رضى اللهُ عنه : لم يبعث اللهُ نبينا من آدمَ فمَنْ بَعْدَه إلا أَخذَ عليه العَهْدَ فى محمد صلى اللهُ عليه وسلم: لئن بُعِثَ وهو حيٌّ ليؤمِنَنَّ به ولينصُرنّه ، ويأخذَ العَهْدَ بذلك على قومه .

ونحوه عن السُّدِّى وقَتَادة فى آيٍ[١] تضمنت فَضْلَه من غير وَجْه واحد .

قال اللهُ تعالى[٢]: ﴿وإذْ أَخَذْنا من النبيِّين ميثاقَهم[٣] ومنْكَ ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخَذْنَا منهم ميثاقا غَليظا﴾[٤].

وقال تعالى[٥]: ﴿ إنّا أَوْحَينا إليكَ كما أَوْحينا إلى نوحٍ والنبيّين مِنْ بَعْدِه وأَوْحَيْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ ، وإسحاقَ ، ويعقوبَ والأسباطِ ، وعيسى وأيوبَ ويونُسَ وهارونَ وسليمانَ ، وآتينا داود زَبُوراً . ورسُلًا قد قَصَصْناهم عليكَ من قَبْلُ ورسُلا لم نَقْصُصْهُمْ عليكَ وكلّمَ اللهُ موسى تكليما. رُسُلا مبشِّرين ومُنْذِرين لئلا يكونَ للناس عَلَى اللهِ حجةٌ بعد الرسل وكان اللهُ عزيزا حَكِيما . لكنِ اللهُ يشهَدُ بما أَنْزَلَ إليك أَنزلَهُ بعِلْمِه والملائكةُ يشهدون وكفى بالله شَهِيدا ﴾ .

رُوِى عن عمر[٦] بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال فى كلام زَكَّى[٧] به

---

(١) فى آى : جمع آية . أى هذا المذكور مروى فى جملة آيات . وهذه الرواية عنهما أثبتها ابن جرير . (٢) سورة الأحزاب ، آية ٧

(٣) قيل : أخذ عليهم الميثاق بتبليغ الرسالة ، وتصديق بعضهم بعضا ، وقيل : بأن يعلنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلن محمد بأنه لا نبى بعده، ففيها تفضيل له صلى الله عليه وسلم .

(٤) ميثاقا غليظا : عظيما شأنه . (٥) سورة النساء آية : ١٦٣ – ١٦٦

(٦) قال السيوطى : لم أجده فى شىء من كتب الأثر . وقال فى نسيم الرياض : لكن صاحب اقتباس الأنوار وابن الحاج فى مدخله ، ذكراه فى ضمن حديث طويل ، وكفى بذلك سندا لمثله ، فإنه ليس مما يتعلق بالأحكام . وهذا الكلام مما قيل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قاله عمر بعد تحققه – من أبى بكر رضى الله عنه – موت النبى صلى الله عليه وسلم.

(٧) فى ب : بكى : أى رثاه بعد موته .

النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم،فقال[١] بأَبِي أنتَ وأُمي يارسولَ الله ! لقدبلغ من فَضِيلتك عند الله أَنْ بعثك آخِرَ الأنبياء ، وذَكَرك فى أولهم ، فقال : ﴿ وإِذْ أَخَذْنَا من النبيّين ميثاقَهم ومنكَ ومن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابنِ مريم وأَخَذنا منهم ميثاقا غَلِيظا ﴾ .

بأبى أَنْتَ [٢] وأمّى يارسولَ الله ! لقد بلغ من فضيلتك عنده أنَّ أهلَ النـار يودُّون أن يكونوا أطاعُوكَ وهم بين[٣]أَطْباقها يعذَّبون يقولون[٤] : ﴿ ياليْتَنا أَطَعْنا اللهَ وأَطَعْنا الرسولَا ﴾ .

قال قَتَادة : إنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : كنْتُ أَوّل الأنبياء فى الخلْق ، وآخرهم فى البَعْث ، فلذلك وقع ذِكْرُه مقدما هنا قبل نوح وغيره .

قال السَّمَرْقَنْدِي : فى هذا تفضيلُ نبينا صلى اللهُ عليه وسلم ، لتخصيصه بالذِّكْر قَبْلَهم ، وهو آخِرُهم .

المعنى : أخذ اللهُ تعالى عليهم الميثاقَ ، إذ أخرجهم من ظَهْرِ آدم كالذَّرّ [٥] .

---

(١) أول هذا الكلام : بأبى أنت وأمى يارسول الله ! لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم ، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن. فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم . بأبى أنت وأمى يارسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته ، فقال الله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله . . .

(٢) بأبى أنت وأمى : هذا مما تقوله العرب لمن تريد تكريمه وإظهار محبته ، أى لو نزل بك أمر يقبل فيه الفداء بأحد من البشر بذلت فى فدائك أبوى فضلا عن المال وغيره .

(٣) أطباقها : طبقات النار .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٦٦

(٥) الذر : جمع ذرة ، وهى النملة الصغيرة البيضاء أو الحمراء ، أو جزء من مائة وأربعة وعشرين جزءا من شعيرة ، وقيل : جزء من ألف وسبعة وعشرين جزءا منها . وقيل : أصغر شىء لايعلمه إلا الله .

وقال تعالى[(١)] : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بعضَهم على بَعْض ، منهم مَنْ كَلَّمَ اللهُ ورفع بعضَهم درَجاتٍ ، وآتينـــا عيسى ابْنَ مَريم البيِّنَات وأيَّدناه برُوح القُدُس ولوشاء اللهُ ماقتتل الذين مِنْ بعدهم مِنْ بعد ما جاءَتْهُم البينات ولـكن اختلفوا ﴾.

قال أهلُ التفسير : أراد بقوله : ﴿ورفَع بعضَهم درَجاتٍ﴾ ـ محمدا صلى اللهُ عليه وسلم ؛ لأنه بُعِث إلى الأحمر[(٢)] والأسود ، وأُحِلّت له الغنائمُ[(٣)] ، وظهرت على يديه المعجزاتُ ، وليس أحدٌ من الأنبياء أُعطى فضيلةً أو كرامةً إلا وقد أُعْطِي محمدٌ صلى الله عليه وسلم مِثْلَها[(٤)] .

قال بعضهم : ومن فضله أنَّ اللهَ تعالى خاطب الأنبياءَ بأسمائهم، وخاطبه بالنبوّة والرسالةِ في كتابه ، فقال : ﴿ يأيها النبي ﴾ ، و﴿ يأَيُّها الرسول ﴾ .

وحكى السَّمَرْقَنْدِيّ عن الـكَلْبي ـ فيقوله تعالى[(٥)] : ﴿وإنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإبراهيم﴾ـ أن الهاءَ عائدةٌ على محمد ؛ أى إنّ من شِيعَةِ[(٦)] محمد لَإبراهيم؛ أى على دِينه ومِنْهَاجِه[(٧)] . وأجازه الفرّاء ، وحكاه عنه مَكّيّ[(٨)] . وقيل : المرادُ نوح عليه السلام[(٩)] .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥٣

(٢) الأحمر والأسود : أى جميع الناس . أو العرب والعجم . أو العرب وغيرهم .

(٣) الغنائم : جمع غنيمة ، وهي ما يؤخذ من مال الكفار قهرا ، ولم تـكن الغنيمة تحل للأمم السالفة كما تحل لهذه الأمة.

(٤) مثلها ، أى ما هو من جنسها ونوعها ، وما هو مشابه لها بحسب الظاهر وإن كان أعظم منها في الحقيقة .

(٥) سورة الصافات ، آية ٨٣ (٦) الشيعة : الأتباع ، والمعروف في كلام العرب إطلاقه على المتأخر زمانا ، وقد يطلق على المتقدم ، كقول الـكميت :

وما لى إلا آل أحمـــد شيعة وما لى إلا مذهب الحق مذهب

(٧) منهاجه : طريقه الواضح . (٨) أشار بهذا إلى أنه قول صحيح منقول عن المفسرين ؛ لأن منهم من ضعفه وادعى أنه بعيد .

(٩) قال في نسيم الرياض : هو القول الصحيح . والمراد بكونه من شيعته أنه من نسله وعلى منهاجه في الدين والتوحيد .

الفصل الثامن

فى إعلامِ اللهِ تعالى خَلْقَه بصلواته[١] عليه وولايتِه له ورَفْعِه العذابَ بسببه

قال اللهُ تعالى[٢] : ﴿وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهم وأنتَ فيهم﴾ ؛ أى ما كُنْتَ بمكة ، فلما خرج النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم من مكة ، وبَقِيَ فيها مَنْ بقى من المؤمنين نزل[٢] : ﴿وما كان اللهُ مُعَذِّبَهم وهُمْ يستغفرون﴾ .

وهذا مِثْلُ قوله[٣] : ﴿لو تَزَيَّلُوا[٤] لَعَذَّبْنَا الذين كفرُوا منهم عذابا أليما﴾ .

وقوله تعالى[٥] : ﴿ولولا رِجَالٌ مؤمنون ونساءٌ مُؤْمناتٌ لم تَعْلَمُوهم أَنْ تَطَئُوهم فَتُصِيبَكم منهم مَعَرَّةٌ بغير عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فى رحمته مَنْ يشاء﴾ : فلما هاجر المؤمنون نزلت[٦] : ﴿وما لهم أَلّا يُعَذِّبَهم اللهُ﴾ .

وهذا من أَبْيَنِ ما يُظْهِرُ مكانتَه صلّى اللهُ عليه وسلم ، وَدَرأَ[٧] به العذابَ عن أهل مكة بسبب كَوْنه[٨] ، ثم كَوْنِ أصحابه بعده [١٧] بين أظْهُرِهم[٩] ، فلما خلَتْ مكةُ منهم عذَّبهم [اللهُ][١٠] بتسليطِ المؤمنين عليهم ، وغَلَبتِهم إياهم ، وحَكَّم فيهم سيوفَهم ، وأورثهم أَرْضَهم ودِيَارهم وأموالَهم .

---

(١) فى ب : بصلاته .

(٢) سورة الأنفال ، آية ٣٣

(٣) سورة الفتح ، آية ٢٥

(٤) تزيلوا : تفرقوا . (المفردات) .

(٥) سورة الفتح ، آية ٢٥

(٦) سورة الأنفال ، آية ٣٤

(٧) درأ به : دفع به . وفى ب : درأته ــ بكسر الدال المهملة وسكون الراء وهمز وتاء ؛ وفسره القارى (١ ــ ١١٣) فقال : أى ومن أبين ما يظهرها دفعه سبحانه العذاب .

(٨) بسبب كونه : بسبب وجوده .

(٩) بين أظهرهم ، أى يقيمون معهم .

(١٠) ليس فى ب .

وفى الآية أيضا [١] تأويلٌ آخر :

حدثنا القاضى الشهيد أبو على رحمه اللهُ بقراءتى عليه ، قال : حدثنا أبو الفضل ابن خَيْرون ، وأبو الُحسين الصَّيْرفى ،قالا : حدثنا أبو يَعْلى ابن زَوْج الُحرَّة ، حدثنا أبو على السِّنْجِى ، حدثنا محمد بن محبوب المَرْوَزى ، حدثنا أبو عيسى [٢] الحافظ ، حدثنا سفيان بن وَكيع ، حدثنا ابن نُمَير [٣] ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مُهاجر ، عن عبّاد بن يوسف ، عن أبى بُرْدة بن أبى موسى ، عن أبيه ؛ قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم: أنزلَ اللهُ علىَّ أمانَين لأُمتى [٤]: ﴿وما كان اللهُ لِيُعَذِّبَهم وأَنْتَ فيهم وما كان اللهُ مُعَذِّبَهم وهم يَسْتَغْفِرُون﴾ [٥] فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفارَ [٦].

ونحوٌ منه قولُه تعالى [٧] : ﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إلّا رَحْمَةً للعالَمِينَ﴾ .

وقال عليه السلام [٨] : أَنا أمانٌ لأصحابى . قيل : من البِدَع . وقيل : من الاختلاف والفِتَن .

---

(١) الآية هى : وما كان الله ليعذبهم . . . وقد سبقت .

(٢) هو الإمام الترمذى ، صاحب السنن .

(٣) ضبطت « نمير » ـ ضبط قلم ـ بفتح النون وكسر الميم فى ا ، والضبط المثبت فى الخفاجى والقارى .

(٤) سورة الأنفال ، آية ٣٣

(٥) أى أوحى الله بقرآن يدل على شيئين فيهما ما يدل على أن الله أمن أمتى من العذاب بهما . والحديث فى سنن الترمذى : ٥ ـ ٢٧٠ ، وقال : هذا حديث غريب ، وإسماعيل بن مهاجر يضعف فى الحديث .

(٦) فإذا مضيت : ارتحلت إلى الآخرة ؛ أى إذا مت بقى فيكم الأمان الآخر ، وهو الاستغفار . والاستغفار : هو الدعاء بالمغفرة . وقيل المراد به الصلاة . وقيل الإسلام .

(٧) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧

(٨) قال القارى (١ ـ ١١٥) : أنا أمان لأصحابى ، وفى لفظ : أنا أمنة لأصحابى ، وهو حديث صحيح رواه مسلم (مسلم : ١٩٦١) .

قال بعضُهم : الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم هو الأمانُ الأعظم ماعاشَ ، ومادامت سنَّتُه(١) باقيةً فهو باقٍ ، فإذا أُميتت سنَّتُه فانتظِر البلاءَ والفِتَن(٢) .

وقال الله تعالى(٣) : ﴿ إنّ اللهَ وملائكتَه يصلُّونَ على النبيّ ، يأيُّهَا الذين آمَنُوا صَلُّوا عليه وسلِّمُوا تَسْليما ﴾ .

أبانَ اللهُ تعالى فَضْلَ نبيِّه صلى الله عليه وسلم بصلواته عليه ، ثم بصلاةِ ملائكتِه ، وأَمَرَ عبادَه بالصلاة والتسليم عليه .

[وقد حكى أبو بكر بن فُورَك أن بعضَ العلماء تأوَّل قولَه عليه السلام : وجُعِلَت قُرَّةُ عَيْنِي في الصلاة على هذا ؛ أي في صلاةِ الله تعالى عليّ وملائكتِه وأَمْرِه الأُمةَ بذلك إلى يوم القيامه](٤) . والصلاةُ من الملائكة [استغفَار](٥) ، ومنّا له دعاء ، ومن الله عزّ وجلّ رحمة .

وقيل : يُصَلُّون : يُبَارِكون(٦) .

وقد فرّقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ــ حين علَّم الصلاةَ عليه بين لفظِ الصلاة والبركة .

وسنذكر حكم الصلاة عليه .

وذكر بعضُ المتكلمين(٧) في تفسير حروف « كهيعص » ــ أن الكافَ من

(١) سنته : طريقته التي شرعها .
(٢) أميتت : تركت ولم يعمل بها ، ولم يحرص الناس على تعلمها . والبلاء : المصائب ، كالطاعون ، والظلم . والفتن : محاربة الناس بعضهم بعضا .
(٣) سورة الأحزاب ، آية ٥٦ (٤) ما بين القوسين كتب أمامه في هامش ا : من الأم بخطه رضى الله عنه ، وليس من الرواية . (٥) ليس في ب .
(٦) يباركون : يعطيه الله البركة ، والملائكة يطلبونها له . والبركة : النمو والخير الكثير .
(٧) بعض المتكلمين : يريد المفسرين .

« كافٍ » [١] ، أى كفاية الله تعالى لنبيه ، قال تعالى [٢] : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ . والهاء هدايتُه له ، قال [٣] : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ . والياء تأييده ، قال [٤] : ﴿ هو الذى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ . والعين عِصْمَتُه له ، قال [٥] : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ من الناس ﴾ . والصاد : صلواته عليه ؛ قال [٦] : ﴿ إِنَّ اللهَ وملائكته يصلُّونَ على النبى ﴾ .

وقال تعالى [٧] : ﴿ وإنْ تَظَاهَرَا [٨] عليه فإنّ اللهَ هو مولاه [٩] وجبريلُ وصالحُ المؤمنين ، والملائكةُ بعد ذلكَ ظَهِير [١٠] ﴾ ؛ مولاه أى وليّه . وصالحُ المؤمنين : قيل : الأنبياء [١١] . وقيل [١٢] : الملائكة . وقيل [١٣] : أبو بكر ، وعُمر . وقيل [١٣] : علىّ . وقيل : المؤمنون على ظاهره [١٤] .

---

(١) أى الكاف حرف من « كاف » الذى هو اسم لله تعالى : الكافى .

(٢) سورة الزمر ، آية ٣٦

(٣) سورة الفتح ، آية ٢

(٤) سورة الأنفال ، آية ٦٢

(٥) سورة المائدة ، آية ٦٧

(٦) سورة الأحزاب ، آية ٥٦ ، وفى هذه الحروف أقوال أخر ؛ أحدها أنه من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله . وقيل : إنها أسماء للسور . . .

(٧) سورة التحريم ، آية ٤

(٨) تظاهرا عليه : تعاونا وتناصرا .

(٩) الولى ، والولى : المعين والناصر .

(١٠) ظهير : نصير ومعين . قال فى نسيم الرياض : وأفرد كلمة « ظهير » — لأنه جمل من ذكروا لاتفاقهم على ذلك — كالواحد ؛ أو لأن فعيلا قد يقع للواحد وغيره .

(١١) هذا التفسير مروى عن قتادة .

(١٢) رواه القرطبى عن أبى زيد .

(١٣) رواه القرطبى والثعلبى عن عكرمة وابن جبير مرفوعا للنبى صلى الله عليه وسلم .

(١٤) واختاره الإمام الرازى .

قال فى نسيم الرياض : والآية دالة على ولاية الله له بنصره وتسخير القلوب له ، الذى هو من مقاصد هذا الفصل .

الفصل التاسع

فيما تضمنته سورة « الفتح » من كراماته صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى[١] : ﴿ إنّا فتحنا لكَ فتحاً مُبينا[٢] . لِيَغفِرَ لكَ اللهُ ما تقدَّمَ من ذَنبِكَ وما تأخَّرَ ويُتِمَّ نِعمَتَه عليكَ ويَهدِيَكَ صِراطا مستقيما . ويَنصُرَكَ اللهُ نصرا عزيزا . هو الذى أنزل السكينةَ فى قلوبِ المؤمنينَ ليزدَادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان اللهُ عليما حكيما . لِيُدخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ تجرِى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ويُكَفِّرَ عنهم سيئاتِهم ، وكان ذلكَ عند الله فَوْزاً عظيما . ويعذِّبَ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمشركاتِ الظانِّينَ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عليهم دائرةُ السَّوءِ ، وغَضِبَ اللهُ عليهم ولَعَنَهم وأعدَّ لهم جهنَّمَ وساءت مَصِيرا . ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان اللهُ عزيزا حكيما. إنّا أرسلناكَ شاهدا ومُبَشِّرا ونَذِيرا . لِتُؤمِنُوا بالله ورسولِهِ وتُعَزِّروه وتُوَقِّروه وتُسَبِّحوه بُكْرَةً وأصيلا . إنَّ الذين يُبَايعونكَ إنما يُبايعونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوقَ أيديهم ﴾ .

تضمّنت هذه الآياتُ من فضله والثناء عليه وكريمِ منزلته عند الله تعالى، ونِعمته لديه ـ ما يَقصُر الوصفُ عن الانتهاء[٣] إليه ؛ فابتدأ جَلّ جلاله ـ بإعلامه بما قَضاهُ له من القضاء البَيِّن[٤] بظهوره ، وغلبته على عدوّه، وعُلوّ كلمته وشريعته ، وأنه مغفورٌ له، غيرُ مُؤاخَذٍ بما كان وما يكون[٥] .

---

(١) سورة الفتح، الآيات : ١ ـ ١٠

(٢) من فسره بفتح مكة اقتصر على المقصود ، والمراد فتح مكة وما كان وسيلة له كقصة الحديبية . ومن فسره بالحديبية سماه فتحا لأنه وسيلة لما بعده من الفتوح فاندرج غيره فيه بطريق الإشارة .

(٣) الانتهاء إليه : أى بلوغه والوصول إلى نهايته .

(٤) القضاء البين : أى المقضى الظاهر الذى لايشتبه .

(٥) أى إعلامه بأنه مغفور له بقوله : ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر .

قال بعضُهم : أراد غُفْرَان ما وقع وما لم يَقَع[١] ، أى إنك مغفور لك .
وقال مَـكّى : جعل اللهُ المِنّةَ سببا للمغفرة ، وكلٌّ[٢] مِنْ عنده ، لا إله غيره ،
مِنّةً بعد مِنة ، وفضلا بعد فَضْل . [١٨]

ثم قال : « ويُتِمّ نعمتَه عليكَ » : قيل : بخضوع مَنْ تـكبّر عليك[٣] .

وقيل : بفَتْح مكةَ والطائف . وقيل: يرْفَع ذِكْرك فى الدنيا وينصرك ويغفرلك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متـكبّرى عدوِّه له ، وفَتْح[٤] أمِّ البلاد عليه وأحبها له[٥] ، ورَفْع ذكرِه، وهدايتِه الصراطَ المستقيم المبلِّغَ الجنةَ والسعادةَ ، ونَصْرِه النصرَ العزيز[٦]، ومِنّتِه على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التى جعلها فى قلوبهم، وبِشَارَتِهم بمالهم بَعْدُ[٧]، وفَوْزِهم العظيم[٨]، والعَفْوِ عنهم، والسترِ[٩] لذنوبهم، وهلاكِ عدوِّه[١٠] فى الدنيا والآخرةِ ، ولَعْنِهم وبُعْدِهم من رحمته ، وسوء مُنْقَلَبهم[١١] .

---

(١) أى مما يصح أن يعاتب عليه ، كما فى قوله تعالى : « لعلك باخع نفسك على آثارهم » . و « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

(٢) وكل : أى المنة والمغفرة حاصل من عنده تعالى . والمراد بالمنة الامتنان أو النعمة التى هى الفتح ، أو قضاؤه ، ولما كان الفتح ناشئا عن جهده وسعيه مع ما يترتب عليه من الأمور العظيمة صار سببا للمغفرة .

(٣) الخضوع: الانقياد . وفى ا : لك ، وعليها علامة الصحة .

(٤) فى ب : بفتح . (٥) وهى مكة .

(٦) النصر العزيز : المعز لصاحبه ، أو العزيز : قليل النظير .

(٧) بعد : أى بعد ذلك ، أو بعد الحياة الدنيا من النعيم الخالد فى الجنة .

(٨) الفوز : النجاة والظفر بالخير . وذلك فى قوله تعالى : « وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » . (٩) فى قوله تعالى : « ويكفر عنهم سيئاتهم » .

(١٠) بقوله تعالى : « ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء » .

(١١) بقوله تعالى : « وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا » .

ثم قال: ﴿ إنا أرسلناكَ شاهدا ومُبَشّرا ونَذيرا ودَاعِيا إلى اللهِ بإذْنِه وسِرَاجاً مُنِيراً . لتُؤمِنُوا باللهِ ورسولهِ وتُعَزِّرُوه وتُوَقِّرُوه وتُسَبِّحُوه بُكْرَةً وأَصِيلا ﴾ .

فَعَدّ محاسنَه وخصائصه[١] ؛ من شهادتِه على أمته لنفسه ، بتَبْليغه الرسالةَ لهم .

وقيل : شاهِداً لهم بالتوحيد ، ومُبَشِّرا لأُمته بالثواب . وقيل : بالمغفرة . ومُنْذِرا عدوَّه بالعذاب .

وقيل : مُحَذِّرا من الضلالات ليُؤمِنِ بالله ، ثم به صلى اللهُ عليـــه وسلم مَنْ سبقت له من الله الحُسْنَى .

ويُعَزِّرُوه ؛ أى يُجِلُّو نه . وقيل : ينصرونه . وقيل : يبالغون فى تَعْظيمه .

ويُوَقِّرُوه ؛ أى يعظموه .

وقرأهُ بعضُهم : تُعَزِّزُوه ـ بزاءين : من العِزّ ، والأكثر والأظهرُ[٢] أنّ هذا فى حقّ محمدصلى اللهُ عليه وسلم ؛ ثم قال : « وتُسَبِّحوهُ » ؛ فهذا راجعٌ إلى الله تعالى.

قال ابنُ عطاء : جُمِـع للنبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة نِعَمٌ مختلفةٌ ؛ من الفَتْحِ المُبين ، وهو من أعلام[٣] الإجابة . والمَغْفِرةُ[٤] ، وهى من أعـلام المحبّة ، وتمامُ النعمة ، وهى من أعلام[٥] الاختصاصِ. والهدايةُ ، وهى من أعلام الولاية[٦] ، فالمغفرةُ تبرئةٌ من العيوب ، وتمامُ النعمةِ إبلاغُ الدرجةِ الكاملة ، والهدايةُ وهى الدعوةُ إلى المشاهدة .

---

(١) خصائصه : فضائله .

(٢) يعنى أنهم اختلفوا فى هذه الضمائر : هل كلها لله ، أو للرسول ، أو بعضها لله وبعضها للرسول . واختار المؤلف أن يكون الضمير فى « يعزروه » ، و « يوقروه » ـ للرسول .

(٣) أعلام: جمع علم ؛ وهو الأمارة والدليل. الإجابة: أى إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم.

(٤) ضبط هذه الكلمة وما بعدها مما عطف عليها فى ا ، ب .

(٥) أى دليل على أنه تعالى جعله من خواص أنبيائه لإنعامه عليه بما لم ينله غيره .

(٦) أى إن الله تعالى تولى أموره ؛ إذ هداه إلى الطريق الموصل إلى قربه .

وقال جعفر بن محمد : من تمام نعمته عليه أنّ جعله حَبِيبَه[١] ، وأقسم بحياته[٢] ، ونَسخَ به شرائعَ غيره ، وعرَجَ[٣] به إلى المَحلّ الأعلى ، وحفِظَه فى المعراج حتى مازاغَ البَصَرُ وما طَغَى ، وبعثه إلى الأحمر والأسود[٤] ، وأحلّ له ولأمته الغنائم ، وجعله شَفِيعاً مُشفَّعاً ، وسيِّدَ وَلدِ آدم ، وقرَنَ ذِكْرَه بذكره[٥] ، ورِضاه برضاه[٦] ، وجعله أحدَ رُكْنى التوحيد .

ثم قال[٧] : ﴿إِنَّ الذينَ يُبَايِعُونَكَ إنّما يُبايِعُون اللهَ﴾ - يعنى بيعةَ الرضوان[٨] ؛ أى إنما يبايعونَ اللهَ بِبَيْعَتِهِم إياكَ .

﴿يَدُ اللهِ فوْقَ أيديهم﴾ : يريد عند البَيْعَة . قيل : قوة الله[٩] ، وقيل : ثوَابه[١٠] . وقيل[١١] : مِنَّته . وقيل[١٢] : عَقْده ، وهذه استعارةٌ ، وتجنيس[١٣] فى الكلام ، وتأكيد لعَقْد بَيْعتهم إياه . وعِظَم شأنِ المُبايَع صلى اللهُ عليه وسلم .

---

(١) أى اصطفاه . وخصه وأكرمه إكرام المحب لحبيبه حتى لقب بالحبيب ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم : أنا حبيب الله ولا فخر . (سنن الترمذى : ٥ - ٥٨٨) .

(٢) وأقسم بحياته فى قوله تعالى : «لعمرك» - على أحد الأقوال .

(٣) عرج : صعد . (٤) الأحمر والأسود : جميع الخلق .

(٥) قرن ذكره بذكره : فى التشهد والأذان ، وفى مواضع فى القرآن .

(٦) فى مثل قوله تعالى : «والله ورسوله أحق أن يرضوه» . (٧) سورة الفتح ، آية ١٠

(٨) بيعة الرضوان كانت بالحديبية ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » . والمبايعة كانت على ألا يفروا ؛ أو على الموت ؛ أو على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . . (٩) أى قوة الله وقدرته فى نصر رسوله فوق قواهم .

(١٠) أى ثواب الله لرسوله فوق ثوابهم فى مبايعتهم والوفاء بعهدهم .

(١١) منته : أى نعمته عليهم ببيعتهم مما منحوه من العز فى الدنيا والثواب فى الآخرة فوق منتهم عليك ، بمبايعتهم وبذل أنفسهم وأموالهم .

(١٢) يعنى أن الله تعالى أوجد هذه البيعة وتممها .

(١٣) تجنيس فى الكلام : تفنن فى العبارات الإيمائية .

وقد يكونُ مِنْ(١) هذا قولُه تعالى(٢) : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلوهم ولكنَّ اللهَ قتلهم ، وما رَمَيْتَ إذْ رمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رمَى ﴾(٣) ؛ وإنْ كان الأول فى باب المجاز(٤) ، وهذا(٥) فى باب الحقيقة ، لأنَّ القاتل والرامى بالحقيقة هو الله، وهوخالقُ فِعْله وَرمْيه، وقُدْرتِه عليه ومسبِّبه(٦) ، ولأنه ليس فى قدرة البشَر توصيلُ تلك الرَّميةِ حيثُ وصلَتْ ، حتى لم يبْقَ منهم مَنْ لم تملأ عَيْنَيه(٧) ، وكذلك قَتْلُ الملائكةِ لهم حقيقة(٨).

وقد قيل فى هذه الآية الأخرى إنها على المجاز العربىّ(٩) ، ومقابلةِ اللفظ ومناسبتِه ؛ أى ما قتلتموهم ، وما رمَيْتَهم أنتَ إذ رميت وجوهَهم بالحَصْباء والتراب، ولكنّ الله رمَى قلوبَهم بالجزَع(١٠) ، أى إنّ [١٩] منفعةَ الرَّمْى كانت من فِعْل الله ؛ فهو القاتلُ والرامى بالمعنى وأنتَ بالاسم .

---

(١) من هذا ؛ أى من قبيل جعل فعل العبد عين فعل الله .

(٢) سورة الأنفال ، آية ١٧

(٣) أى لم تقتلوا قريشا إذ سلطكم الله عليهم ونصركم ، ولكن الله قتلهم ؛ إذ هو الخالق لهذا الفعل فيكم وإن كنتم مباشرين له .

وهذه الآية نزلت فى بدر ، أو فى حنين (الشهاب : ١ – ٣٥٤) .

(٤) الأول : يد الله فوق أيديهم .

(٥) وهذا : أى القتل والرمى .

(٦) ضبطت الباء فى ب بشدة مفتوحة .

(٧) أى من لم تملأ الرمية عينيه من التراب .

(٨) وكذلك قتل الملائكة : أى هو مثل إسناد القتل إلى الأفراد البشرية ، فقدرة الملائكة مثل القوى البشرية فى الاحتياج إلى القوة الإلهية ، والمخلوقات بأسرها متساوية فى رتبة العبودية .

(٩) المجاز العربى : يريد المجاز اللغوى فى الاصطلاح العربى ، وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة بين المعنى المجازى والحقيقى . والعلاقة هنا السببية (القارى : ١–١٢٩).

(١٠) الجزع : الرعب والفزع .

الفصل العاشر

فيما أظهره اللهُ تعالى فى كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده، وما خصّه اللهُ به من ذلك سِوَى ما انتظم[1] فيما ذكرناه قبل

من ذلك ما قصّه تعالى فى قصة الإسراء فى سورة: سبحان، والنجم؛ وما انطوت عليه القصةُ من عظيم منزلته وقُرْبه ومشاهدته ما شاهدَ من العجائب.

ومن ذلك عِصْمَتُه من الناس بقوله تعالى[2]: ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ من الناس ﴾.

وقوله تعالى[3]: ﴿ وإذْ يَمْكُرُ بكَ الذين كفروا ليُثْبِتُوكَ أو يقتلوك أو يُخْرِجُوك ويَمْكُرون ويَمْكُر اللهُ، واللهُ خَيْرُ الماكِرِين ﴾.

وقوله[4]: ﴿ إلَّا تنصروه فقد نصره اللهُ إذْ أخرجه الذين كفروا ثانىَ اثنين إذْ هما فى الغار إذْ يقولُ لصاحبه لا تحزَنْ إنَّ اللهَ معنا فأنزل الله سكينتَه عليه وأيَّده بجنودٍ لم تَرَوْها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفْلَى وكلمةُ اللهِ هى العليا واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾. وما رفع اللهُ به عنه فى هذه القصة من أذاهم بعد تحزُّبهم[5] لهُلْكه وخلوصِهم نَجِيًّا فى أمره[6]، والأخذِ على أبصارهم[7] عند خروجه عليهم، وذهولِهم

---

(١) أى غير مادخل فيما قبله من الفصول. (٢) سورة المائدة، آية ٦٧

(٣) سورة الأنفال، آية ٣٠

(٤) سورة التوبة، آية ٤٠، وقوله: إلا تنصروه؛ أى إن لم تنصروه وتخرجوا معه إلى غزوة تبوك فسينصره من نصره عند قلة أوليائه وكثرة أعدائه، إذ أخرجه الذين كفروا وليس معه إلا أبو بكر، وهذا كان لما بايع الأنصار النبى بالعقبة، وأمر أصحابه بالذهاب إلى المدينة، وأشفقت قريش من ظهور النبى، فاجتمعوا بدار الندوة للمشاورة فى أمره .... ثم هجرته إلى المدينة ونجاته من مكرهم. (٥) تحزبهم: تجمعهم فى مشاورتهم مع أحزابهم.

(٦) وخلوصهم؛ أى بعد إخلاصهم فى أذيته منفردين فى دار الندوة للمشاورة فى أمره متناجين فى ذلك.

(٧) أخذ الله على أبصارهم: منعها من رؤية النبى مع ترقبهم له لما خرج من داره مارا عليهم.

عن طلبه فى الغار ، وما ظهر فى ذلك من الآيات[١] ، ونزولِ السكينة عليه ، وقصةِ سُرَاقة بن[٢] مالك حسبَ ما ذكره أهلُ الحديث والسِّيَر فى قصة الغار ، وحديثِ الهجرة .

ومنه قوله تعالى[٣] : ﴿ إنّا أعطيناكَ الكَوْثَر . فصَلِّ لربكَ وانحَر . إنّ شانِئَكَ هو الأبْتَر ﴾ .

أعلمه اللهُ تعالى بما أعطاه . والكوثَرُ حَوْضُه . وقيل : نهر فى الجنة[٤] . وقيل: الخير الكثير. وقيل: الشفاعة. وقيل: المعجزات الكثيرة . وقيل: النبوة . وقيل: المعرفة.

ثم أجاب عنه عدوَّه ، وردّ عليه قوله[٥] ، فقال تعالى: ﴿إنّ شانئكَ هو الأبْتَر﴾ ؛ أى عدوك ومُبْغِضك . والأبتر : الحقير الذليل ، أو المفرد الوحيد، أو الذى لا خير فيه.

وقال تعالى[٦] : ﴿ ولقد آتيناكَ سبعاً من المَثَانِى[٧] والقرآنَ العظيم ﴾ .

قيل : السبع المَثَانِى السُّوَر الطوال الأُوَل . والقرآن العظيم : أم القرآن[٨] . وقيل[٩] : السبع المثانى : أمُّ القرآن[١٠] . والقرآنُ العظيم : سائره[١١] . وقيل : السبع

---

(١) من الآيات الدالة على نبوته كنسج العنكبوت وتمشيش الحمام وبيضه . . .

(٢) كان سراقة يتبع النبي بعد خروجه ، لينال مكافأة جعلتها قريش لمن يأتى به .

(٣) سورة الكوثر . والأبتر : مقطوع الخير والبركة .

(٤) فى نسيم الرياض : وهو الصحيح .

(٥) رد عليه قول عدوه : إنه منقطع العقب والذكر بوجه يتضمن شتمه وتنقيصه . . .

(٦) سورة الحجر : آية ٨٧

(٧) المثانى : جمع مثنى . وقال القارى : السبع المثانى : السور الطوال . وهو منقول عن ابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود .

(٨) أم القرآن : هى الفاتحة . وهذا التفسير مروى عن ابن عباس .

(٩) فى نسيم الرياض : وعليه أكثر الصحابة والتابعين ؛ وهو قول جمهور المفسرين .

(١٠) فى القارى (١ — ١٣٦) : وهو ما يقتضيه حديث البخارى : أم القرآن هى السبع المثانى (صحيح البخارى : ٦ — ١٠٢) .

(١١) سائره : باقيه بعد الفاتحة .

المثانى : مافى القرآن ، من أَمْر ، ونهى ، وبُشْرى ، وإنذار ، وضَرْب مثَل ، وإعداد نِعَم[١] ، وآتيناكَ نبأ القرآن العظيم[٢] .

وقيل : سميت أُمّ القرآن مَثَانى لأنها تُثنَّى فى كل ركعة . وقيل : بل اللهُ تعالى استثناها لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذخَرها له دون الأنبياء[٣] .

وسُمّى القرآنُ مثانى ؛ لأن القصص تثنَّى فيه[٤] .

وقيل: السبع المثانى : أكرمناك بِسَبْع كرامات[٥] : الهدى، والنبوة ، والرحمة، والشفاعة ، والولاية ، والتعظيم ، والسكينة .

وقال[٦] :﴿ وأنزَلْنا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّنَ للناس مانُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾.

وقال[٧] : ﴿ وما أَرْسلناكَ إلا كافَّةً للناس بشيرا ونذيرا[٨] ﴾ .

وقال تعالى[٩] . ﴿ قُلْ يأيها الناسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعا الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ لا إلهَ إلّا هو يُحيي ويُميت ، فآمِنُوا بالله ورسولِهِ النبىِّ الأُمّىِّ الذى يُؤْمِنِ بالله وكلماتِهِ واتَّبِعُوه لعلكم تَهتدون ﴾ .

قال القاضى[١٠] : فهذه[١١] من خصائصه .

---

(١) وإعداد نعم : تعداد نعم كثيرة .

(٢) أى أعطيناك علم مااشتمل عليه من قصص ومواعظ .

(٣) فالمثانى من الاستثناء المعروف ، واستثناها : ميزها وخصها من بين الآيات . والمراد أنه اختارها ، أو حفظها ، ولم يبذلها لغيره من الرسل ، ولم يدخرها ويعطها غيره لتميزه من بينهم .

(٤) تثنى : تكرر .

(٥) وهذا مروى عن الإمام جعفر الصادق .

(٦) سورة النحل ، آية ٤٤

(٧) سورة سبأ ، آية ٢٨

(٨) كافة : جميعا .

(٩) سورة الأعراف ، آية ١٥٨

(١٠) هو المؤلف .

(١١) فهذه : أى البعثة العامة لم يشاركه فيها غيره من الرسل .

وقال تعالى [(١)] : ﴿ وما أرسلنا مِنْ رَسول إلا بلسان [(٢)] قَومِهِ ليبيِّنَ لهم ﴾ ؛ فخصَّهم بقومهم ، وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الخلْق كافّة ، كما قال عليه السلام: بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود [(٣)] .

وقال تعالى [(٤)] : ﴿ النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أَنْفُسِهم [(٥)] وأزواجُه أُمهاتُهم ﴾ . قال أهلُ التفسير : أولى بالمؤمنين من أنفسهم: أى ما أنفذه فيهم من أمر فهوماضٍ عليهم كما يَمْضِي حُكْم السيد على عبده .

وقيل [(٦)] : اتباعُ أمره أَوْلَى من اتباع رَأْى النَّفْس .

وأزواجُه أمهاتُهم ؛ أى هنّ فى [(٧)] الحُرْمة كالأمهات ؛ حرّمَ نِكاحهنّ عليهم بعده ؛ تَكْرِمةً [(٨)] له وخُصوصية ، ولأنهن له أزواجٌ فى الآخرة .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٤ (٢) بلسان قومه : بلغة من بعث إليهم .

(٣) أى إلى العرب وغيرهم ، أوالإنس والجن ـ كما تقدم.والحديثفى صحيح مسلم:٣٧١

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٦

(٥) يعنى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقدم عند كل أحد على نفسه .

(٦) وهذا التفسير مروى عن ابن عباس ؛ فالأولى هنا بمعنى أولية اتباعه . وقيل: أولية محبته . وقيل : معناه أرأف وأعطف . قال فى نسيم الرياض (١ ـ ٣٧٢) : والأحسن ما فى الكشاف من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولى بهم فى جميع أمور الدين والدنيا من غيره ؛ فإنه سبب حياتهم الأبدية . وفى البخارى أنه ـ صلى الله عليه وسلم قال : ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ؛ اقرءوا إن شئتم : النبى أولى بالمؤمنين . . . فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضَياعا فليأتنى وأنا مولاه (صحيح البخارى : ٦ ـ ١٤٥) .

قال القرطبي : هذا تفسير الولاية .

(٧) فى ب : من .

(٨) هذا فى ب . وفى هامشه : مكرمة . وفى ا : كتب فوقها «معا» ؛ أى هى تكرمة، ومكرمة .

وقد قرئ[١] : وهو أبٌ لهم . ولا يُقْرأ[١] به الآن [٢٠] لمخالفته المصحف .

وقال الله تعالى[٢] : ﴿ وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحِكْمة[٣] ، وعلَّمك ما لم تكُنْ تعلم ، وكان فَضْلُ اللهِ عليكَ عظيما ﴾ .

قيل : فَضْلُه العظيم بالنبوة[٤] . وقيل : بما سبق له في الأَزَل[٥] . وأشار الواسطيّ إلى أنها إشارةٌ إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى ، صلى الله عليهما[٦] .

---

(١) فهي قراءة شاذة .

(٢) سورة النساء ، آية ١١٣

(٣) الكتاب : القرآن . والحكمة : الشريعة والسنة .

(٤) فضله العظيم : أي في هذه الآية بالنبوة ؛ فإنها أعظم النعم .

(٥) الأزل : القدم ، والوجود الذي لا أول له .

(٦) هذا في ا ، ب .

الباب الثانى

فى تكميل الله تعالى له المحاسنَ خَلقا وخُلقا ، وقِرانه [1] جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسَقاً [2]

اعلم أيها المحِبُّ لهذا النبىّ الكريم صلّى اللهُ عليه وسلم،الباحثُ عن تفاصيل جُمَل قَدْرِه العظيم ـ أنَّ خصالَ الجلال والكمال [3] فى البشر نوعان : ضَرُورِى دُنْيوى [4] اقتضَتْهُ الجِبِلَّة [5] وضرورةُ الحياةِ الدنيا ؛ ومكْتَسَب دِينى ؛ وهو ما يُحْمَد فاعلُه ، ويقرِّب إلى الله تعالى زُلْفى .

ثم هى على فَنَّيْن [6] أيضا : منها ما يتخلَّصُ لأحد الوصفين [7] . ومنها ما يتمازَجُ ويتداخل .

فأما الضرورىّ المَحْض [8] فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب ، مِثْلُ ما كان فى جِبِلّته من كمال خِلْقَته ، وجمالِ صورته،وقوةِ عقله ، وصحّةِ فهمه ، وفصاحةلسانه، وقوةِ حواسّه وأعضائه،واعتدالِ حركاته ، وشَرَفِ نسبه [9] ،وعِزّةِ قومه، وكَرَمِ [10] أرضه ؛ ويلحَقُ به [11] ما تدعوه ضرورةُ حياتِه إليه ، من غذائه ونومه ، وملبسه ومسكنه ، ومَنْكَحِه ، ومالِه وجاهِه .

---

(١) قرانه : جمعه . (٢) نسقا : أى جميع الفضائل فيه متناسبة منتظمة .

(٣) الجلال : العظمة . والكمال : التمام .

(٤) دنيوى : لايتعلق به ثواب ؛ أو مما لابد منه فيها .

(٥) اقتضته الجبلة : دعت إليه . والجبلة : ماجبله الله عليه وخلقه . وفى هامش ب : جبلة ـ بالتشديد والتخفيف . (٦) ثم هى : أى خصال الجلال والكمال على ضربين .

(٧) لأحد الوصفين : أى الضرورة والمكتسب المفهومين من التقسيم السابق .

(٨) المحض : الخالص . (٩) شرف نسبه : أى شرفه الحاصل له بسبب نسبه .

(١٠) وكرم أرضه : التى هى موطنه ومولده : مكة .

(١١) يلحق به ؛ أى بالضرورى .

وقد تلحَقُ هذه الخِصَالُ الآخرة[١] بالأُخْرَوِيّة إذا قصد بها التقوى ومَعُونة البدن على سلوك طريقِها[٢] ، وكانت على حدودِ[٣] الضرورةِ وقوانين الشريعة[٤] .

وأما المكْتَسبة الأخروية فسائرُ الأخلاقِ العَلِيّة[٥] ، والآدابِ الشرعية : من الدِّين والعلم[٦] ، والحلم، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والزُّهد ، والتواضع ، والعَفْو ، والعِفّة ، والجُود ، والشجاعة ، والحياء ، والمروءة ، والصمت ، والتُّؤَدة[٧] ، والوَقَار والرحمة ، وحُسْن الأدب والمعاشرة[٨] ، وأخواتها ، وهى التى جِمَاعُها[٩] حسن الخُلُق.

وقد يكونُ من هذه الأخلاقِ ما هو فى الغَرِيزة[١٠] وأَصْلِ الجِبِلّة لبعض الناس . وبعضُهم لا تكون فيه ، فيكتَسِبها ، ولكنه لابدّ أَن يكونَ فيه من أصولها فى أصل الجِبِلّة شعبة[١١] كما سنبَيِّنُه إن شاء الله .

---

(١) فى ب : الأخيرة . (٢) سلوك طريقها ؛ أى طريق الآخرة .

(٣) معنى كونها على حدودها أن يأخذ منها بمقدار حاجته من غير زيادة وإسراف ونقص وتفريط .

(٤) المعنى أن يكون ما يفعله من هذه الأمور على وفق الشريعة المطهرة ؛ فإنه إن لم يكن كذلك لاتنفعه نية التقرب إلى الله تعالى ؛ وذلك كمن يأكل حراما ويلبس مغصوبا ، ليتعبد به ، أو يتصدق بمال حرام . (٥) العلية : الشريفة المحمودة .

(٦) والعلم : أى العلم بماله وما عليه ، مما به نظام معاشه ومعاده .

(٧) والصمت : المراد ترك الكلام فيما لاينبغى وترك الفضول . والتؤدة : التأنى وترك العجلة .

(٨) والمعاشرة : أى حس المعاشرة والاختلاط مع الناس ، وترك التحجب وهجر الإخوان بغير داع .

(٩) التى جماعها : التى يشملها ويجمعها .

(١٠) الغريزة : الطبيعة ، والجبلة . والمراد تكون فى بعض الناس من غير تعلم من أحد.

(١١) شعبة : حصة . وأصل معناه الفرقة والقطعة .

وتكون هذه الأخلاقُ دُنيوية إذا لم يُرَدْ بها وجهُ اللهِ والدارُ الآخرة؛ ولكنها كلّها محاسنُ وفضائلُ باتّفاق أصحابِ العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب[1] حُسْنِها وتفضيلها.

فصل

إذا[2] كانت خصالُ الكمال والجمال ما ذكرناه، ووجدنا الواحدَ منا يَشرُف بواحدة منها أو باثنتين إن اتفقت[3] له ـ في كلِّ عصر، إمّا من نَسَبٍ أو جمال، أو قوة، أو عِلْمٍ، أو حِلْمٍ، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظُمَ قَدْره، ويُضْرَب باسمه الأمثال، ويتقرّر له بالوصف بذلك في القلوب أُثْرَةٌ[4] وعظمة، وهو منذ عصورٍ خَوَالٍ رِمَمٌ بَوَال[5]، فما ظنُّك بعظيمِ قَدْرِ من اجتمعت فيه كلُّ هذه الخصال إلى مالا يأخذه[6] عَدٌّ، ولا يعبِّرُ عنه مَقَال، ولا يُنال بكَسْب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال[7]، مِنْ فضيلةِ[8] النبوة والرسالة، والخُلَّة[9] والمحبة، والاصطفاء[10]

(١) موجب: سبب. وقد ضبطت في ا بفتح الجيم. وفي ب بكسرها. وقال الشهاب: بكسر الجيم لا بفتحها، وكذلك قال القاري.

(٢) هذا الفصل معقود لخصال محمودة مخصوصة به صلى الله عليه وسلم، مقتبسة من الكتاب والسنة.

(٣) اتفقت له: حصلت له على وجه يشرف به بغير كسب.

(٤) أثرة ـ بضم الهمزة وفتحها وكسرها، وسكون الثاثة وبفتحها؛ والمأثرة والمكرمة من تلك الخصال التي وصف وانفرد واستأثر بها عن غيره.

(٥) رمم بوال: الرمم جمع رمة، أو رميم؛ وهي العظام وأجزاء البدن البالية. بوال: جمع بالية.

(٦) مالا يأخذه عد: لا يحيط به. والمراد: لا يعد لكثرته.

(٧) أي ينال بأن يخص الله به من يشاء.

(٨) هذا بيان لقوله: مالا يأخذه عد.

(٩) الخلة: المخاللة والصداقة.

(١٠) إشارة إلى ما ورد في الحديث: إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم وإسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. والحديث في صحيح مسلم: ١٧٨٢

والإسراء ، والرؤية [١] ، والقُرْب والدنوّ ، والوحى ، والشفاعة والوسيلةِ ، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام [٢] المحمود،والبُرَاق والمعراج،والبعث إلى الأحمر والأسود [٣]، والصلاة بالأنبياء [٤] ، والشهادةِ بين الأنبياء والأمم ، وسيادةِ ولدِ آدم [٢١] ، ولواء الحَمْد ، والبشارة ، والنِّذَارة [٥] والمكانة عند ذى العَرْش والطاعة ثَمَّ [٦] ، والأمانة والهداية ورحمة للعالمين . وإعطاء الرضا والسُّؤْل [٧] ، والكَوْثَر ، وسماع القول [٨] ، وإتمام النعمة والعفو عما تقدّم وتأخر ، وشَرْح الصَّدْرِ ، ووضع الوِزْر ، ورَفْع الذكر وعزَّة النصر ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحِكْمة والسَّبْع المثانى والقرآن العظيم ، وتَزْكية [٩] الأمة والدعاء إلى الله ، وصلاة الله تعالى والملائكة ، والحُكم بين الناس بما أَرَاهُ اللهُ ، ووَضْع [١٠] الإصْرِ والأغلال عنهم ، والقَسَم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجَمادات والعُجْم [١١]، وإحياء الموتى، وإسماع الصُّمّ ، ونَبْع الماء من بين أصابعه ، وتكثير القليل ، وانشقاق القمر ، وردّ

(١) الرؤية : رؤية ربه . أو رؤية آياته الكبرى . أو رؤيته جبريل فى صورته الأصلية .
(٢) والمقام المحمود : هو مقام يقوم فيه النبي للشفاعة العظمى ، فيحمده فيه الأولون والآخرون . (٣) أى عموم رسالته .
(٤) إمامته لهم حين اجتمع بهم فى المسجد الأقصى حين أسرى به .
(٥) أى كونه بشيرا ونذيرا . (٦) ثم : هناك . (٧) السول : كل مسئول .
(٨) سماع القول : أى سماع الله لقوله صلى الله عليه وسلم وقبوله الوارد فى حديث الشفاعة الطويل ، بقوله : قل يسمع لك . وسل تعط . وحديث الشفاعة سيأتى فى بابها .
(٩) إشارة إلى الآية الكريمة : يتلو عليهم آياته ويزكيهم . . .
(١٠) وضع الإصر : أى ثقل التكاليف التى كانت فى الأمم السابقة .
(١١) تكليم الجمادات كما ورد فى الحديث :إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على(صحيح مسلم : ١٧٨٢) : قيل : هو الحجر الأسود . وقيل غيره . والعجم : المراد به الحيوان الذى ليس من شأنه النطق .

الشمس ، وقلْب الأعيان[١] ، والنصر بالرعب[٢] ، والاطلاع على الغيب ، وظل الغَمام[٣] ، وتسبيح الحَصا ، وإبراء الآلام[٤] ، والعِصْمة من الناس ، إلى ما لا يَحْويه مُحْتفِل[٥] ، ولا يحيط بعلمه إلا مانِحُهُ ذلك ومفضِّلُه به[٦] ، لا إله غيره ، إلى ما أَعَدّ له فى الدار الآخرة من منازل الكرامة ، ودرجات القُدْس[٧] ، ومراتب السعادة والحُسْنى والزيادة التى تَقِفُ دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم[٨] .

فصل

إنْ قلت ـ أكرمكَ الله : لا خفاء على القَطْع بالجُمْلة[٩] أنه صلى الله عليه وسلم أعلى الناسِ قَدْراً ، وأعظَمُهم محَلّا ، وأكملهم محاسِنَ وفضلا ، وقد ذهبتَ فى تفاصيل خِصَالِ الكمال مذهبا جميلا شَوّقنى إلى أنْ أقِفَ عليها من أوصافه صلى الله عليه وسلم تفصيلا . . . فاعلم ـ نوّرَ اللهُ قلبى وقلبَك ، وضاعفَ فى هذا النبيّ الكريم حُبِّى وحبَّكَ ـ أنكَ إذا نظرتَ إلى خصَال الكمالِ التى هى غَيْر مُكْتَسبة وفى جِبِلّة الخِلْقة

(١) الأعيان : جمع عين ، وهى ذات الشيء نفسه . (٢) الرعب : الخوف .

(٣) ظل الغمام : تظليلها له عليه السلام لئلا يؤذيه حر الشمس .

(٤) الآلام : جمع ألم ؛ وهو الوجع . والمراد ما يعم الأمراض والأوجاع .

(٥) يحويه : يشمله ويجمعه فيحتوى عليه . والمعنى أن من اهتم بجمع هذه الصفات وأمثالها لا يمكنه الإحاطة بها .

(٦) وهو الله تعالى .

(٧) القدس : أصل معناه الطهر . وقد ضبط فى ا ، ب بالسكون . وقال القارى (١ـ١٤٩) : القدس ـ بضم وبضمتين ؛ أى المنزهة عن النقصان والزوال فى الجنة .

(٨) الأدانى : جمع أدنى ، بمعنى أسفل ، أو أقرب ، أو أنزل ؛ أى لا يدرك العقل سافلها فضلا عن عاليها ، ولا يصل لما يقرب منها فضلا عما يبعد عنها . وفى هامش ب : خ : الفهم .

(٩) على القطع : على سبيل القطع . والجملة بمعنى الإجمال ، ضد التفصيل . والمراد أن هذا المجمل قطعى .

وجَدْته حائزا لجميعها ، مُحيطا بشَتَاتِ(١) محاسنها دونَ خلافٍ بين نَقَلَةِ الأخبار لذلك؛ بل قد بلغ بعضُها مَبْلَغ القَطْع(٢) .

أما الصورةُ وجمالُها ، وتناسُبُ أعضائه فى حُسْنِها ، فقد جاءت الآثارُ الصحيحةُ والمشهورةُ الكثيرةُ بذلك ، من حديثِ علىّ ، وأَنسٍ بن مالك ، وأبى هُريرة ، والبَرَاء بن عازب ، وعائشة أم المؤمنين ، وابن أبى هَالَة ، وأبى جُحَيْفَة ، وجابر ابن سَمُرَة ، وأمّ مَعْبَد ، وابن عباس ، ومُعَرِّض بن مُعَيْقِيب(٣) ، وأبى الطُّفَيْل ، والعدَّاء بن خالد ، وخُرَيْم(٤) بن فاتك ، وحَكِيم بن حِزَام ، وغيرهم ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان أَزْهَرَ اللون(٥) ، أَدْعَج ، أَنْجَل ، أَشْكَل(٦) ، أَهْدَب الأَشْفار(٧) ، أَبْلَج ، أَزَجّ ، أَقْنَى(٨) ، أَفْلَج(٩) ، مُدَوَّر الوجه ، واسع الجَبِين ،

(١) شتات محاسنها : المتفرق من محاسنها .

(٢) مبلغ القطع : القطع : الجزم ؛ وذلك لتواتره وكثرة رواته المؤدية إلى الجزم .

(٣) فى ب : ومعرض ـ وضبطه بكسر الميم وسكون العين وبفتح الراء ـ وفى هامشه: خ: ومعرض ـ وضبطه كما أثبتنا . وفى ا : ومعرض ـ وضبطه بفتح الميم وسكون العين وفتح الراء ، وتحتها « من الأم » .وفى الهامش : ومعرض ـ وضبطه كما أثبتناه وعليها صح . وقال القارى : وقال الغسانى : معرض ـ بكسر الميم وفتح الراء ، وهو مخالف للأصول المصححة، وللحواشى المصرحة .

(٤) فى ا ، ب : خريم ، وفى هامش ا ، ب : صح بالراء .

(٥) أزهر اللون : قيل نير . وقيل حسن . وقيل أبيض . أو أبيض مشرب بحمرة . وفى الصحيح: عن أنس، لم يكن بالأبيض الأمهق ؛ أى الخالص البياض كاون الجير فإنه غير محمود. وفى الشمائل للترمذى: فسر الأزهر بالأبيض المنير المشرق . وفى نسيم الرياض (١ ـ ٤٠٧) : والحق أنه كان أبيض مشربا بحمرة ، وهو أحسن الألوان .

(٦) أدعج : الدعج : شدة سواد العين مع سعتها . وقيل سواد السواد وبياض البياض . أنجل أشكل : النجلة : سعة شق العين مع حسنها . والشكلة : حمرة يسيرة فى بياض العين.

(٧) أهدب الأشفار : الأهدب : الطويل الشعر النابت على الجفن. والأشفار :جمع شفر : طرف الجفن .

(٨) أبلج : البلج : نقاء مابين الحاجبين من الشعر . أزج : مقوس الحاجب مع طول امتداد . والأقنى : طول أنفه ودقة أرنبته مع حدب فى وسطه .

(٩) أفلج : الفلج : تباعد ما بين الثنايا ، أو مابين الأسنان .

كَثُّ اللحيةِ[١] تملأ صدْرَه ، سَوَاءَ البطْنِ والصدْرِ[٢] ، واسعَ الصَّدْر ، عظيمَ المَنْكِبين[٣] ، ضَخْمَ العِظَام ، عَبْلَ العَضُدَيْن والذراعين والأسافِل[٤] ، رَحْبَ الكفين والقَدَمين[٥] ، سائلَ الأطراف[٦] ، أنْوَرَ المُتَجَرَّد[٧] ، دَقِيقَ المَسْرُبة[٨] ، رَبْعَةَ القَدِّ[٩] ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردِّدِ[١٠] ، ومع ذلك فلم يكن يُمَاشِيه أحَدٌ يُنْسَبُ إلى الطول إلا طَالَه[١١] صلى الله عليه وسلم ، رَجِلَ الشَّعْر[١٢] ، إذا افْتَرَّ ضاحكا[١٣] افْتَرَّ عن مِثْلِ سنَا البَرْقِ ، وعن مِثْلِ حَبِّ الغَمام[١٤] ،

---

(١) كث اللحية : لحيته كثيفة غير خفيفة .

(٢) سواء : مستويهما . وفى هذا إشارة إلى اعتدال خلقهما وعدم خروجها أو أحدها عن الاعتدال ؛ فإن البطن إذا كان بارزا أو مضمرا لم يكن من الصفات الحسنة ، وكذلك إذا برز الصدر أو تطامن .

(٣) المنكب : مجمع عظم العضد والكتف . أى إنه ضخمهما .

(٤) عبل : ضخم قوى . والعضدين : مثنى عضد ، وهو ما بين المرفق والكتف . والأسافل : جمع أسفل ؛ يريد رجليه ، أو الفخذين والساقين .

(٥) رحب : واسع .

(٦) سائل الأطراف : أى ممتدها امتدادا معتدلا بغير إفراط ولا تفريط . والمراد بالأطراف الأصابع .

(٧) أنور : نير . والمتجرد : الجسد الذى من شأنه أن يتجرد من الثياب .

(٨) دقيق المسربة : المراد ليس بعريض ولا متكاثف الشعر . والمسربة : شعر مستطيل من الصدر للسرة ؛ فهو خط من الشعر بينهما .

(٩) ربعة القد : القد بمعنى القامة . وربعة : معتدل ، أى مربوع القامة .

(١٠) ليس بالطويل البائن . البائن : الظاهر ؛ أى لم يكن مفرط الطول . والمتردد : المتناهى فى القصر .

(١١) ينسب إلى الطول : يوصف به . طاله : غلبه فى الطول وزاد عليه .

(١٢) رجل الشعر : يقال شعر رجل : فيه تثن قليل . فشعره بين الجمودة والسبوطة .

(١٣) إذا افتر ضاحكا : كشف عن أسنانه متبسما وضاحكا . والسنا : اللمعان ؛ أى إذا كشف النبى عن أسنانه فى حال ضحكه ظهر فمه وبياض أسنانه كلمعان البرق .

(١٤) عن مثل حب الغمام : حب الغمام هو البرد ؛ أى مثله فى بياضه ونقائه وصفائه .

إذا تـكلَّم رُئى كالنور يخرجُ من ثنَايَاه ، أَحسن الناسِ عُنُقا ، ليس بمُطَهَّم ولا مُـكَلْثَم (١) ، مُتماسِك البَدَن ، ضَرْب اللَّحْم (٢) .

قال البَرَاء [بن عازب](٣) : ما رأيتُ من ذِى لِمَّة (٤) فى حُلَّة حمراءَ أحسنَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) .

وقال أبو هُريرة رضى الله عنه : ما رأيْتُ شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢٢] ، كأنَّ الشمسَ تجرى فى وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ فى الجُدُرِ (٦) .

وقال جابر بن سَمُرة ـ وقال له رجُل: كان وجْهُهُ (٧) ـ صلى الله عليه وسلم ـ مِثْلَ السَّيْف (٨) ؟ فقال : لا ، بل مثل الشمس والقمَر . وكان مستديرا .

وقالت أمُّ مَعْبد (٩) ـ فى بعض ما وصفَتْه به : أَجملُ الناسِ من بعيد ، وأَحْلَاه وأحسنُه من قريب [صلى الله عليه وسلّم تسليما كُلَّما ذَكَره الذاكرون ، وغَفَل عن ذِكْرِه الغافلون](١٠) .

---

(١) المطهم : السمين الفاحش السمن ، والنحيف الجسم الدقيقه ، فهو من الأضداد . والمـكلثم : البادن كثير اللحم .

(٢) ضرب اللحم : أي قليل لحم البدن خفيفه لا إلى حد الهزال .

(٣) فى هامش ب ، وعليها علامة صح .

(٤) اللمة ـ بكسر اللام وتشديد الميم : ما طال من شعر الرأس فى أحد جانبيه .

(٥) في نسيم الرياض (٤١٧) : هذا الحديث رواه الترمذى وصححه . وهو فى سنن الترمذى (٥ ـ ٥٩٩) .

(٦) التلألؤ : اللمعان والإضاءة . جدر : جمع جدار ، والناس تستعمله بمعنى الأساس . أى نور وجهه الشريف يشرق إشراقا يصل إلى الجدران المقابلة له .

(٧) فى ب : كان وجه رسول الله . (٨) وتشبيهه بالسيف هنا فى البريق واللمعان .

(٩) هى عاتـكة بنت خالد الصحابية التى كانت نازلة بخباء فى طريق المدينة ، وقد نزل عليها النبى فى هجرته لما خرج من غار ثور ، وكان زوجها غائبا ، فلما أتاها أخبرته به ، فاستوصفها إياه ، فنعتته له فى كلام بليغ . (١٠) من ب .

وفى حديث ابْنِ أبى هَالَة : يتلألأ[1] وجهُه تَلألُؤ القمر ليلة البَدْرِ .

وقال علىّ رضى الله عنه فى آخر وصْفِه له[2] : مَنْ رآه بدِيهَةً هابَهُ[3] ، ومَنْ خالطه معرفةً[4] أحبَّه ، يقول ناعِتُه[5] : لم أرَ قبله ولا بعده مِثْلَه صلى الله عليه وسلم.

والأحاديثُ فى بَسْطِ صفَتِه مشهورةٌ كثيرة ، فلا نطوِّل بسَرْدِها .

وقد اختصرنا فى وصْفِهِ نُكَتَ[6] ما جاءَ فيها ، وجُمْلةً مما فيه الكفايةُ فى القَصْد إلى المطلوب ، وختمنا هذه الفصولَ بحديثٍ جامع لذلك تَقِفُ عليه هناك إن شاء الله .

فصل

وأما نظافةُ جسمه ، وطِيبُ رِيحِه وعَرَقِه ، ونَزاهَتِه[7] عن الأقذار وعَوْرَاتِ[8] الجسد ـ فكان قد خصَّه اللهُ فى ذلك بخصائصَ لم توجَدْ فى غيره، ثم تمَّمَها بنظافة الشَّرْعِ[9]

---

(١) يتلألأ : يضىء ويشرق .

(٢) فى نسيم الرياض :رواه الترمذى والبيهقى عن محمد بن الحنفية فى حديث مرسل ضعيف. (الترمذى : ٥ ـ ٥٩٩) ، وبعده قال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، ليس إسناده بمتصل .

(٣) بديهة : فجأة . هابه : خافه ، وعظمه ، ووقره .

(٤) خالطه : صاحبه وعرفه .

(٥) ناعته : واصفه .

(٦) النكت : اللطائف والدقائق الخفية .

(٧) نزاهته : بعده ، وخلوه منها ، وتنزهه عنها .

(٨) عورات : جمع عورة ؛ وهى كل مايوجب خللا فيه ، أو يُستر ويستحيي منه ، مما يشين وينقص .

(٩) أى تمم ما فطر عليه من ذلك ، وما خصه به ـ بما شرعه له من النظافة الدينية كالوضوء؛ فاتصف بالنظافة الكاملة .

وخِصَال الفِطْرَة العَشْرِ(١) ، وقال(٢) : بُنِيَ الدِّينُ على النظافة .

حدثنا سُفْيان بن العاصي وغيرُ واحد ، قالوا : حدثنا أحمد بن عُمر . حدثنا أبو العباس الرازيّ ، حدثنا أبو أحمد الجُلُودِي(٣) ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا مسلم ، [قال](٤) : حدثنا قُتَيبة ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس ، قال(٥) : ما شمِمْتُ عَنْبَراً قطُّ ، ولا مِسْكا ، ولا شيئا أطْيبَ من رِيح(٦) رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وعن جابر بن سَمُرَة أنه(٧) صلى اللهُ عليه وسلم مسح خدَّه ؛ قال : فوجدتُ لِيَدِه بَرْداً ورِيحا ، كأنما أخرجها مِنْ جُونَةِ(٨) عَطَّار .

---

(١) الفطرة : الطبيعة والجبلة التي خلق عليها، وكونها عشرا، رواه مسلم في حديث مرفوع: عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ،واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء .

قال مصعب : نسيت العاشرة ، إلا أن تكون المضمضة ـ قال القاضي : المنسى الختان . (صحيح مسلم : ٢٢٣) .

والبراجم : عقد الأصابع من ظهر الكف . وغسل البراجم : إزالة وسخها . وانتقاص الماء : هو الاستنجاء .

(٢) وقال : أي النبي .

(٣) في هامش ا ، ب : الجلودى ـ بضم الجيم هو الصحيح .

(٤) من ب . (٥) صحيح مسلم : ١٨١٤ (٦) ريح : رائحة .

(٧) قال الخفاجي : هذا الحديث أخرجه مسلم . وأول الحديث : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج وأنا معه ، فاستقبله ولدان ، فجعل يمسح خدى أحدهم واحدا واحدا ، وأما أنا فمسح خدى ، فوجدت ليده بردا أو ريحا .

واقتصر المؤلف على بعض هذا الحديث لمناسبته للفصل .

والحديث في مسلم: ١٨١٤ ، قال في نسيم الرياض : وكان من عادة النبي مسح وجوه الأطفال تأنيسا لهم ، وتطييبا لقلوب والديهم ، وشفقه عليهم.

(٨) الجونة : شبه صندوق صغير مغشى بأدم يضع فيه العطار عطره .

قال غيره [١] : مسَّها بطِيب أو لم يمسَّها [٢] ، يُصافِحُ المُصافَحَ فيظلُّ يومَه يجدُ رِيحَها ؛ ويضَعُ يدَه على رأس الصبيّ فيُعْرَف من بين الصبيان برِيحها [٣] .

ونام [٤] رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى دار أنس فعرِق، فجاءت أمُّه بقارُورة [٥] تجمَعُ فيها عرَقَه ، فسألها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقالت : نجعلُه فى طِيبنا ، وهو مِنْ أطيبِ الطيب .

وذكر البخارى فى تاريخه الكبير ، عن جابر : لم يكن النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يمرُّ فى طريقٍ فيَتْبَعه أحد إلا عُرِف أنه سلكه من طِيبه [٦] .

وذكر إسحاقُ بن رَاهَوَيه أنّ تلك [٧] كانت رائحته بلا طيب ، صلّى اللهُ عليه وسلم .

[وروى المُزَنى [٨] ، عن جابر : أَرْدَفنى [٩] النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم خَلْفَه ، فالتقَمْتُ [١٠] خاتَم النبوة بفَمِى ، فكان يَنِمُّ [١١] على مِسْكًا] [١٢] .

---

(١) قال الخفاجى : هذا الحديث رواه البيهقى ، وأبو نعيم ، بسند فيه ضعف .

(٢) فى هذا إشارة إلى أن طيبه صلى الله عليه وسلم ذاتى .

(٣) أى برائحتها الطيبة طيبا خلقيا خصه الله به تكرمة له .

(٤) هذا بعض من حديث رواه مسلم ، واقتصر المؤلف منه على ما يناسب المقام اختصارا ، والحديث فى صحيح مسلم : ١٨١٥

(٥) القارورة : إناء من زجاج يوضع فيه الطيب ونحوه .

(٦) أى من أجل طيب الطريق برائحته الطيبة المخصوصة به ، الباقية فيه .

(٧) أى تلك الرائحة التى كانت تشم منه وتبقى فى الطريق .

(٨) فى ب : المرى . وفى هامشه : هكذا وقع المرى . والمثبت فى ا .

(٩) أردفنى : أركبنى خلفه .

(١٠) الالتقام : أخذ الشىء وجعله فى فيه ، سواء ابتلعه أم لا .

(١١) نم المسك : سطع .

(١٢) فى هامش ب : مابين القوسين كتب أمامه : هذا المعلم من الأم ، وليس من الرواية.

وقد حكَى بعضُ المُعْتَنِين[١] بأخباره وشمائله صلى اللهُ عليـــه وسلم أنه كان إذا أراد أنْ يتغوَّطَ [٢] انشقّت الأرضُ فابتلعت غائطَه وبَوْلَه ، وفاحت لذلك رائحةٌ طيبة . صلى اللهُ عليه وسلم .

[وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدى فى هذا خبرا عن عائشة رضِىَ اللهُ عنها أنها قالت للنبي صلى اللهُ عليه وسلم : إنكَ تأتى الخلَاءَ [٣] فلا نرى منكَ شيئا من الأذَى! فقال : يا عائشة ، أو ما علمتِ أنَّ الأرضَ تبتلعُ ما يخرج من الأنبياء ، فلا يُرَى منه شيء][٤] .

وهذا الخبَرُ وإنْ لم يكن مشهورا[٥] فقد قال قومٌ من أهلِ العلم بطهارة الحدَثَيْنِ منه صلى اللهُ عليه وسلم. وهو قولُ بعضِ أصحابِ الشافعية ، [حكاه الإمام أبو نصر ابن الصبّاغ فى شامِلِهِ][٦] .

وقد حكى القولين عن العلماء فى ذلك أبو بكر بن سابق المالكى فى كتابه البديع فى فروع المالكية ، وتخريج ما لم يقَعْ لهم منها على مذهبهم من تفَارِيع الشافعية .

وشاهدُ هذا[٧] أنه صلى اللهُ عليه وسلم لم يكن منه شيء يُكْرَه ، ولا غَيْرُ طيب .

---

(١) هو البيهقى — عن عائشة ، كما فى نسيم الرياض الذى قال : إنه موضوع .

(٢) يتغوط : يأتى الغائط ، وهو المكان المنخفض ، على عادتهم فى البراز ؛ لأنه أستر .

(٣) الخلاء : المكان الخالى البعيد عن البيوت ، لأنهم كانوا قبل وضع المراحيض يأتونه لقضاء الحاجة ، ثم عبر به بعد ذلك عن محل التغوط مطلقا ، ثم صار عرفا اسما للبناء المعد لذلك.

(٤) فى هامش ا ، ب : ليس من الأصل .

(٥) قال ابن دحية : سنده ثابت ، وهو أقوى ما فى الباب ، فلهذا نفى المصنف عنه الشهرة دون الصحة .

(٦) فى هامش ا ، ب : ليس من الرواية . والشامل : اسم كتاب له .

(٧) وشاهد هذا : أى دليل القول بالطهارة .

ومنه حديث[١] على رضى الله عنه[٢]: غسلْتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فذهبتُ أنظُرُ مايكونُ من الميت فلم أجِدْ شيئا؛ فقلت : طِبْتَ حيّا وميتا،[قال : وسطعت[٣] منه ريحٌ طيِّبة لم نَجِدْ مثلَها قطّ][٤] .

ومثلُه[٥] قال أبو بكر رضى الله عنه حين قبَّلَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم بعد موته .

ومنه شُرْبُ مالك[٦] بن سنان دمَه يوم أُحُد ، ومَصُّه إياه [٢٣] ، وتسويغُه[٧] صلى الله عليه وسلم ذلك له ، وقوله : لن تُصِيبه النار .

ومثلُه شُرْبُ عَبْدِ الله بن الزّبير دمَ حِجَامته ؛ فقال له عليه السلام : وَيْلٌ لك[٨] من الناس ، ووَيْلٌ لهم منك . ولم ينكره عليه[٩] .

---

(١) ومنه : أى من الشاهد على أنه لم يكن منه — صلى الله عليه وسلم — شىء يكره ولا غير طيب.

(٢) قال الشهاب : رواه ابن ماجه ، وأبو داود ، فى مراسيله : (ابن ماجه : ٤٧١) .

(٣) سطعت : ظهرت وارتفعت . (٤) فى هامش ا ، ب : من الأم، وليست من الرواية.

(٥) ومثله : أى قول على : طبت حيا وميتا . (٦) فى ب : ملك .

(٧) وتسويغه : أى تجويزه له من غير إنكار . (٨) ويل : للتحسر والتألم .

(٩) هذا محط الدليل ؛ فإن عدم إنكاره صلى الله عليه وسلم دليل على جوازه وطهارته . وفى نسيم الرياض : (١ — ٤٤٨) قال السخاوى : سئل شيخنا العلامة ابن حجر عن حديث ابن الزبير ، ومالك بن سنان ، وقوله للأول : ويل لك ، وقوله لمالك : لاتمسك النار — ما الحكمة فى تنوع القول مع اتحاد السبب ؟

فأجاب بأن ابن الزبير شرب دم الحجامة وهو قدر كثير ، فعلم صلى الله عليه وسلم أنه يسرى فى جميع جسده فتكتسب جميع أعضائه منه قوى من قوى النبى، فتورد به غاية قوة البدن والقلب، وتكسبه نهاية الشهامة والشجاعة، فلاينقاد لمن هو دونه بعد ضعف العدل وقلة ناصره، وتمكن الظلمة وكثرة أعوانهم؛ فيحصل له ما أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم من تلك الحروب الهائلة التى تنتهك بها حرمته؛ أى الناشئة من حرمته صلى الله عليه وسلم وحرمة البيت العتيق ، فقيل : ويل له لقتله وانتهاك حرمته ، وويل لهم لظلمهم وتعديهم عليه وتسفيهم .

وأما مالك فازدرد ما مصه من الجرح الذى فى وجه النبى ، وهو أقل من دم الحجامة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم علم أنه يستشهد فى ذلك اليوم ، فلم يبق له من أحوال الدنيا مايخبر به، فأعلمه بالأهم بما يتلقاه من أنواع مسرات الجنان .

وقد رُوى نحوٌ من هذا عنه فى امرأة شربَتْ بَوْلَه ؛ فقال لها : لن تشتكى وَجَع بَطْنِك أبدا . ولم يأمر واحدا منهم[١] بغَسْلِ فَمٍ ، ولانَهاه عن عَوْدةٍ[٢] .

وحديثُ هذه المرأةِ التىشربت بَوْلَه[٣] صحيح ألزم الدارَقُطنى مسلما والبخارى إخراجَه فى الصحيح ، واسم هذى المرأة بَرَكَة . واختلفت فى نسبها .

وقيل : هى أمّ أيمن[٤] : وكانت تخدُم النبىَّ صلى الله عليه وسلم ؛ قالت : وكان لرسول اللهِ صلى الله عليه وسلم قَدَحٌ من عَيْدَان[٥] يوضَع تحت سريره يَبُولُ فيه من الليل ، فبال فيه ليلةً ، ثم افتقده[٦] ، فلم يجد فيه شيئا . فسأل بَرَكَةَ عنه ؛ فقالت : قمْتُ وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم .

روَى حديثها ابن جُرَيج وغيره .

وكان صلى الله عليه وسلم قد وُلِدَ مَختُونا مقطوعَ[٧] السُّرَّة .

[ورُوى عن أمّهِ آمنة أنها قالت : قد ولدتُه نظيفا ما به[٨] قَذَر][٩] .

---

(١) واحدا منهم : أى ممن شرب دمه ، ومن مصه ، ومن شرب بوله .

(٢) ولو كان نجسا لأمر به ، ونهاه أن يعود لمثله .

(٣) فى نسيم الرياض : هو فى أعلى درجات الصحة .والحديث فى سنن النسائى : ١ — ٣١

(٤) مولاته وحاضنته ومرضعته .

(٥) القدح : هو الإناء الذى يشرب منه . عيدان : نخلة طويلة .

وفى هامش ب : العيدان : شجر كبار ، تكون باليمن ، صغارها تسمى الرتم ، ومنه قول الشاعر :

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم

(٦) افتقده : طلبه وبحث عنه .

(٧) فى نسيم الرياض (١ — ٤٥٢) : سند هذا الحديث ضعيف جدا ، والذى صححه المحدثون — كما فى التمهيد لابن عبد البر — أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه ، وجعل له مأدبة وسماه محمدا .

(٨) ما به قذر ؛ أى ولدته نقيا من الوسخ .

(٩) فى هامش ا ، ب : من الأم ، من غير الرواية .

وعن عائشة رضى اللهُ عنها : ما رأيتُ فَرْجَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قط .

وعن عليّ رضى اللهُ عنه[١] : أوصانى النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يغسله[٢] غيرى؛ فإنه لا يَرى أحدٌ عَوْرتى إلا طُمِسَتْ عيناه[٣] .

وفى حديث عِكْرمة ، عن ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما ـ أنه صلى اللهُ عليه وسلم نامَ حتى سُمِعَ له غَطِيط[٤] ، فقام فصلّى ولم يتوضأ[٥] ـ قال عِكْرِمة : لأنه صلى اللهُ عليه وسلم كان محفوظا[٦] .

فصل

وأما وفُورُ عقْله[٧] ، وذكاء لُبِّه[٨] ، وقوةُ حواسّه ، وفصاحةُ لسانه ، واعتدالُ حركاته ، وحُسْن شمائله ـ فلا مِرْيَةَ[٩] أنه كان أعْقلَ الناسِ وأذكاهم .

ومَنْ تأمّل تدبيره أمْرَ بواطنِ الخلْقِ وظواهرهم ، وسياسةَ العامة والخاصة[١٠] ، مع عجيب شمائله ، وبديع سِيَرِه ، فَضْلا عما أفاضَه[١١] من العلم ، وقرّرَه من الشرع دونَ

(١) قال الشهاب : هذا الحديث رواه البزار والبيهقى .

(٢) فى ا : ضبطت السين مشددة وغير مشددة . وفوقها « معا » .

(٣) طمس العين : إزالة ضوئها .

(٤) الغطيط : صوت النائم إذا ارتفع نفسه .

(٥) فى نسيم الرياض : والأحاديث الدالة على أن نومه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينقض، وأنه تنام عينه ، ولا ينام قلبه ـ كثيرة صحيحة .

(٦) حاصله أن النوم ليس ناقضا بنفسه ؛ وإنما نقض ، لأنه مظنة الحدث ، والله تعالى حفظه عن أن ينام قلبه .

(٧) وفور عقله : تمامه ، وزيادته على عقل غيره .

(٨) لبه : عقله .

(٩) لا مرية : لاشك ، ولا شبهة ، ولا جدال .

(١٠) سياسة العامة والخاصة : تدبير أمورهم والتصرف فيها .

(١١) أفاضه : أذاعه .

تعلُّمٍ سبق، ولا مُمارسة[١] تقدمت، ولا مُطالعةٍ للكتب منه، لم يَمْتَرِ[٢] في رُجْحان عقله، وثُقُوبِ[٣] فهمه لأول بَدِيهة[٤]؛ وهذا ما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه[٥].

وقد قال وَهْب بن مُنَبِّه: قرأتُ في أحد وسبعين كتابا، فوجدتُ في جميعها أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أرجحُ الناسِ عقلا، وأفضلُهم رأيا.

وفي رواية أخرى[٦]: فوجدتُ في جميعها أنّ اللهَ تعالى لم يُعْطِ جميعَ الناس من بَدْء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جَنْبِ عقله صلى اللهُ عليه وسلم إلا كحَبَّةِ رَمْل من [بَين][٧] رمال الدنيا.

وقال مجاهد[٨]: كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا قام في الصلاة يَرَى مَنْ[٩] خَلْفه كما يرى مَنْ بَيْنَ يديه، وبه فُسِّرَ قولُه تعالى[١٠]: ﴿ وتَقَلُّبَكَ في الساجدين ﴾.

وفي الموطّأ عنه عليه السلام[١١]: إني لأراكم من وَراء ظَهْري.

---

(١) الممارسة: معالجة الأمر ومزاولته؛ أي لم يتعلم من غيره، ولم يحاوله حتى يعلمه من نفسه باجتهاد في استخراجه بعقله.

(٢) لم يمتر: لم يشك.

(٣) ثقوب فهمه: نفوذه وظهوره.

(٤) لأول بديهة: لأول نظرة نظرها.

(٥) لتحقيقه: بالمشاهدة في عصره، والتواتر بعد ذلك، بحيث لا يشك فيه مسلم وعاقل. وفي ب: لتحققه، وعليها علامة الصحة.

(٦) عن وهب أيضا.

(٧) من ب.

(٨) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة. ورواه مالك، وأحمد، وغيرهما. وفي لفظه اختلاف. والمعنى متفق. والحديث في مسلم: ٣١٩

(٩) في ب ضبطت الميم بالفتحة والكسرة، وعليها « معا ».

(١٠) سورة الشعراء، آية ٢١٩

والمعنى: نرى تقلب بصرك في المصلين خلفك لتراهم وتعلم ما يفعلون. وسياق الحديث للاستدلال به على قوة حواسه — صلى الله عليه وسلم؛ فيناسب التفسير بأنه يراهم بعينه حقيقة.

(١١) في الموطأ: ١ — ١٦٦، وصحيح مسلم: ٣١٩

ونحوه ـ عن أنس فى الصحيحين[١] ، وعن عائشة مثله ؛ قالت : زيادةٌ زاده اللهُ إياها فى حُجَّته[٢] .

وفى بعض الروايات[٣] : إنى لأنظُرُ من [٤] ورائى كما أنظر إلى مَنْ بين يدى .

وفى أخرى[٥] : إنى لأُبْصِرُ مِنْ قَفَاى كما أُبصر من بين يدى .

وحكى بَقِيّ بن مَخْلَد ، عن عائشة ؛ [قالت] [٦] : كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يرى فى الظُّلْمة كما يَرَى فى الضوء[٧] .

والأخبارُ كثيرة صحيحة فى رؤيته صلى اللهُ عليه وسلم للملائكة والشياطين[٨] .

ورُفِع[٩] النجاشىُّ له حتى صلّى عليه[١٠] ، وبيتُ [٢٤] المقدسِ حين وصفَه لقُريش ، والكعبةُ حين بنى مسجده[١١] .

---

(١) صحيح مسلم : ٣٢٠ ، وفيه : من بعد ظهرى .

(٢) فى حجته : المراد بحجته الدلائل الدالة على نبوته وصدقه . وقيل : فى حجته على الكفار ؛ لأن هذه معجزة من معجزاته خارقة للعادة .

(٣) لعبد الرزاق ، والحاكم .

(٤) فى ب : ضبطت الميم بالفتحة والكسرة وكتب فوقها « معا » .

(٥) لمسلم ، فيه ـ صفحة ٣١٩ : من ورائى ومن بعدى ، و « من بعد ظهرى » بدل « من قفاى » صفحة ٣٢٠

(٦) ليس فى ب .

(٧) فى نسيم الرياض : رواه الثقات كابن مخلد ؛ فلا وجه لإنكاره . وقد أخرجه البيهقى عن عائشة أيضا . ونقل ابن دحية فى كتابه الآيات البينات ـ عن ابن بشكوال ـ أنه ضعفه لأن فى سنده ضعيفا .

(٨) فى نسيم الرياض : وهذا مالا شبهة فيه .

(٩) يعنى أن الله تعالى رفع بيت النجاشى وجنازته ـ وهو ببلاد الحبشة ـ فرآه النبى من المدينة وصلى على جنازته .

(١٠) قال السيوطى : إنه لم يجده فى كتب الحديث .

(١١) أى رفعت له الكعبة وهو بالمدينة حين بنى مسجده بها . قال السيوطى : رفع الكعبة له حين بنى مسجده رواه الزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، عن ابن شهاب ونافع بن جبير بن مطعم ، مرسلا . وقال فى نسيم الرياض : والمعروف أن جبريل عليه السلام أعلمه بحقيقة القبلة ، وأراه سمتها ؛ لا أنه رفع له الكعبة حتى رآها . وبهذا جاءت الآثار .

وقد حُكى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يرى فى الثريا أحدَ عشر نجْما [١] .

وهذه كلُّها محمولةٌ على رؤية العين ، وهو قولُ أحمد بن حنبل وغيره .

وذهب بعضُهم إلى ردِّها [٢] إلى العِلْم ، والظواهرُ تخالِفُه [٣] ، ولا إحالَةَ [٤] فى ذلك ، وهى [٥] من خواصّ الأنبياء وخِصالِهم ، كما أخبرنا أبو محمد عبدُ الله بن أحمد العدْل من كتابه؛ حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرْغانى، حدثتنا أمُّ القاسم بنت أبى بكر [٦] عن أبيها، حدثنا الشريف أبو الحسن على بن محمد الحَسَنىّ، حدثنا محمد بن محمد بن سَعيد، حدثنا محمد بن أحمد بن سُليمان، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق ، حدثنا همّام [٧] ، قال: حدثنا الحسَن ، عن قَتادة ، عن يحيى بن وَثّاب ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ قال : لما تجَلى [٨] اللهُ لموسى عليه السلام كان يبْصِرُ النملَةَ على الصَّفَا [٩] فى الليلة الظلماء مَسِيرة عشرة فراسخ [١٠] : ولا يبعدُ على هذا أنْ يختصّ نبيُّنا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظْوَة [١١] بما رأى من آيات ربِّه الكبرى .

---

(١) قال السيوطى : هذا لم يوجد فى شىء من كتب الحديث .

(٢) إلى ردها : أى إلى تأويل الرؤية بالعلم وصرفها عن ظاهرها .

(٣) والظواهر تخالفه : أى ظاهر العبارة يخالفه ، ولا مقتضى لصرفها عن الظاهر .

(٤) ولا إحالة فى ذلك: أى ليس فى حملها على الرؤية البصرية أمر محال يقتضى العدول لأجله.

(٥) وهى : أى قوة البصر والحواس . (٦) هو أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى .

(٧) فى ب : هانئ ، وعليها علامة الصحة . وفى هامشه : كانت فى الأصل همام كما كتبت. وهو هانئ بن يحيى . وقال الشهاب (١ — ٤٧٢) : ولفظ همام وقع فى كثير من النسخ . والصواب هانئ كما أصلح .

(٨) التجلى هنا : الظهور بلا كيف . (٩) الصفا : الحجر الصلد الأملس .

(١٠) فى نسيم الرياض (١ — ٤٧٣) : تحقيقه أن الله تعالى لما قربه حتى سمع كلامه حصل له قوة روحانية ، واتصل به نور إلهى أثر فى روحه الحيوانية، وزاد فى نورها الذى بانتشاره فى البدن يحصل الإدراك ؛ فأدرك بذلك إدراكا خارقا للعادة .

(١١) الحظوة : زيادة القرب مع المحبة .

وقد جاءت الأخبار[١] بأنه صَرَع رُكَانة أشدَّ أهلِ وقته، وكان دعاه إلى الإسلام، وصارعَ أبا رُكانة فى الجاهلية، وكان شديدا، وعاوَده ثلاثَ مرات، كل ذلك يصرعُه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو هريرة: ما رأيتُ أحدا أسرعَ مِنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مَشْيه، كأنما الأرضُ تُطْوَى له، إنا لنَجْهَدُ أنفسنا وهو غيرُ مُكْتَرِث[٢].

وفى صفته أنَّ ضَحِكه كان تبسُّما، إذا التفتَ الْتفت معا[٣]، وإذا مشى مشَى تَقَلُّعا[٤] كأنما ينحَطُّ من صَبَبٍ[٥].

فصـــل

وأما فصاحةُ اللسانِ، وبلاغةُ القول، فقد كان صلى اللهُ عليه وسلم من ذلك بالمحلِّ الأفضل والموضع الذى لا يُجْهَل، سلاسةَ طَبْع، وبَراعةَ مَنْزَع[٦]،

(١) هذا إثبات لتفوقه على غيره فى قوته البدنية بعدما أثبت قوة إدراكه صلى الله عليه وسلم. والخبر فى سنن الترمذى: ٤ — ٢٧٤

(٢) مكترث: الاكتراث: المبالاة والاعتناء بالأمر؛ أى إننا نتعب أنفسنا فى مساواة مشيه، وهو — صلى الله عليه وسلم — مستريح لا يرى به مشقة. أو إنا نبذل وسعنا وطاقتنا، وهو غير مبال بمشيه.

(٣) التفت معا: أى يقبل جميعا ويدبر جميعا. ومعنى «معا» بجميعه.

(٤) تقلعا: المراد أنه — صلى الله عليه وسلم — يرفع رجليه من الأرض رفعا قويا من غير مقاربة للخطى؛ فإنه مشى النساء والمختالين.

(٥) ينحط من صبب: ينحدر من موضع مرتفع. والحديث فى سنن الترمذى: ٥ — ٥٩٨

(٦) السلاسة: السهولة؛ أى كانت سليقته صلى الله عليه وسلم فى البلاغة تنقاد له بسهولة من غير تكلف.

والبراعة: من برع الرجل؛ إذا فاق غيره، وكثيرا ما تستعمل بمعنى الفصاحة. والمنزع — بفتح الميم والزاى: المأخذ، وما يرجع إليه الرجل من رأيه وأمره. والمراد أصله ومقره، يعنى إنه صلى الله عليه وسلم مع بلاغته الجبلية من قوم هم أفصح الناس.

وإيجازَ مَقْطَع [١] ، ونَصاعَةَ لَفْظ ، وجزالَةَ قول [٢] ، وصحَّةَ معَانٍ ، وقلّةَ تكلُّف ، أُوتِيَ جوامعَ الكَلِم ، وخُصّ ببدائع الحِكَم [٣] ، وعلْمِ ألسنةِ العرب [٤] ، يخاطِبُ كلَّ أُمة منها بلسانها ، ويُحاوِرُها بلُغتها ، ويباريها في مَنْزَع بلاغتها [٥] ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موْطِن [٦] عن شَرْح كلامِه وتفسير قوله .

ومَنْ تأمل حديثَه وسِيَرَه عَلِم ذلك وتحقَّقه ؛ وليس كلامُه مع قريش والأنصارِ ، وأهلِ الحجاز ونَجْد ككلامِه مع ذى المِشْعَار الهَمْدَانى [٧] ، وطِهْفَةَ النَّهْدى [٨] ، وقَطَن بن حارثة العُلَيْمى [٩] ، والأشعث بن قيس [١٠] ، ووائل بن حُجْر

---

(١) الإيجاز : التعبير عن معان كثيرة بلفظ قليل . مقطع : أى موجز فى محل القطع والفصل للأمور . أى ومقطعا موجزا ، من أوجز : أتى بكلام قلت مبانيه وكثرت معانيه .

(٢) النصاعة : الخلوص والوضوح ؛ أى إن لفظه خالص من كل بشاعة ، وواضح لكل أحد لمخاطبته كل واحد على قدر عقله وبلغته . والجزالة : القوة والإتقان .

(٣) أوتى جوامع الكلم : آتاه الله قوة ناطقة بحيث ينطق بالكلمات الجامعة للمعانى . وقيل المراد القرآن والحديث .

وخص ببدائع الحكم : أى خص النبى بنطقه بكل حكمة بديعة لم يسبق إليها .

(٤) ألسنة العرب : لغاتهم . (٥) يباريها : يعارضها ويجاريها .

(٦) فى غير موطن : أى فى مواطن كثيرة . وفى أعلى كلمة « أصحابه » علامة الصحة ، وكتب أمامها فى الهامش : الصحابة : وعليها صح .

(٧) ذو المشعار وفد على النبى مرجعه من تبوك ، وكتب له النبى كتابا سيأتى بعد قليل . وفى ا : المشعار — بالعين المهملة والغين المعجمة وكتب فوقها « معا » .

(٨) طهفة النهدى : هو خطيب نهد ووافدها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع لما قدمت عليه وفود العرب .

(٩) هو صحابى قدم على النبى وافدا لقومه ، فكتب له كتابا . والكتاب فى نسيم الرياض : ١ — ٤٨٢

(١٠) الأشعث بن قيس وفد على رسول الله سنة عشر فى ستين راكبا ، فأسلموا ورجعوا إلى اليمن وله قصة مع أبى بكر فى نسيم الرياض : ١ — ٤٨٣

الـكِنْدِى[١] ، وغيرِهم من أَقْيَال[٢] حَضْرَمَوْت وملوكِ اليمن .

وانظر كتابَه إلى هَمْدان[٣] : إن لـكم فِرَاعَها ووِهَاطَها وعَزازَها[٤] ، تأكلون عِلَافَها[٥] وتَرْعَوْن عَفَاءَها[٦] ، لنا من دِفْئِهم وصِرَامِهم ماسلَّموا بالميثاق والأمانة[٧] ، ولهم من الصَّدَقة الثِّلْبُ والنابُ والفَصِيل[٨] ، والفارض والدَّاجِن[٩] ،

---

(١) وائل بن حجر : من أقيال حضرموت ، وأبوه ملك من ملوكهم . وفد على رسول الله مسلما . وقد بشر الرسول أصحابه قبل قدومه بثلاثة أيام . وقد كتب له رسول الله كتابا ـ وهو فى ١ ـ ٤٨٤ من نسيم الرياض .

(٢) الأقيال : جمع قيل ؛ وهو الملك من ملوك حمير واليمن .

(٣) كتبه النبي لما وفد عليه ذو المشعار الهمدانى ، وارجع إليه فى الفائق : ٣ ـ ٩٤ ، إن شئت .

(٤) فراعها : ما ارتفع من الأرض من مرتفعات البقاع أو أعالى الجبال ـ يعنى أن النبي أقطعهم ذلك . ووهاطها: ماسفل وانخفض من الأرض . وعزازها: ماشتد وصلب من الأرض مما لا ملك لأحد عليه .

(٥) علافها : جمع عاف ، وهو ماتأكله الماشية .

(٦) عفاءها : ماليس لأحد فيه ملك ولا أثر .

(٧) الدفء : المراد الإبل والغنم . والصرام : جمع صرمة ؛ وهى القطعة من النخل ، ويجوز أن يكون التمر نفسه ، لأنه يصرم من النخل ؛ أى يجذ ويقطع . ماسلموا : ما داموا يعطون من الزكاة المفروضة .

(٨) المراد بالصدقة : الزكاة . والثلب : الجمل المسن الهرم الذى سقطت أسنانه . والناب : مثل الثلب إلا أنه مخصوص بالنوق الإناث . والفصيل : ولد الناقة الصغير الذى فصل عن رضاع أمه .

(٩) الفارض والداجن . الفارض : البقرة المسنة . والداجن : الذى يربض حول المنازل من شدة الهرم فلا يسرح للمرعى ولا يصلح للعمل والحمل . والمعنى أن ما ذكر يترك لهم ولا يؤخذ منهم .

والـكَبْشُ الحوَرِى(١) وعليهم فيها الصالغ والقارح(٢) .

وقوله لنَهْد(٣) : اللهم بارِكْ لهم فى مَحْضِها ومَخْضِها ومَذْقِها(٤) ، وابعَثْ راعِيَها فى الدَّثْر(٥) ، وافجرْ له الثَّمَد(٦) ، وبارِكْ له فى المال والولد ، مَنْ أقامَ الصلاةَ كان مُسْلما ، ومَنْ آتى الزكاةَ كان مُحْسنا ، ومن شَهِد أن لا إلهَ إلا الله كان مُخْلصا(٧) ، لـكم يا بنى نَهْد ودائعُ الشِّرْك ، ووَضَائع المِلْك(٨) ، لا تُلْطِطْ فى الزكاة(٩) ،

(١) الـكبش : الذكر الـكبير من الغنم الذى يقودها غالبا . والحورى : المراد الـكبيرمن الغنم؛ وهو لايؤخذ فى الصدقة لـكونه أنفسها، ولأنه مما يحتاج إليه للضراب،وفى ا: الحوارى– بضم الحاء وتشديد الواو . والحوارى : الأبيض .

(٢) الصالغ : هو من البقر والغنم : ما كمل وانتهى سنه فى السنة السادسة. والقارح: الفرس الذى دخل فى الخامسة .

(٣) هذا إشارة إلى ما قاله النبى لطهفة النهدى السابق ذكره حين وفد على النبى وشكا له ما أصاب قومه من القحط .

(٤) المحض : الخالص . والمخض : أصـله تحريك السقاء الذى فيه اللبن حتى يتميز زبده فيؤخذ منه . والمذق : أصل معناه الخلط والمزج ، ثم استعمل فى اللبن المخلوط بالماء . يدعو لهم الرسول بأن يبارك الله لهم فى ألبانهم بأقسامها : ما كان خالصا لم يتميز زبده ، وما ميز منه زبده ، وما مزج بالماء . وذلك كله كناية عن خصب أرضهم وسعتها ؛ فإن الألبان إنما تـكثر بنبات المرعى ، وهو إنما يكون بالمطر ؛ فـكأنه قال : اللهم اسق بلادهم ،واجعلها مخصبةملبنة.

(٥) ابعث راعيها فى الدثر : ابعث : أرسل . والدثر : الإبل الـكثيرة . وقيل : الدثر : الخصب وكثرة النبات .

(٦) وافجر له الثمد : افجر : من تفجير الماء ، وهو جعله جاريا . والثمـد : الماء القليل . فالمراد كثر ما قل من مائه .

(٧) كان مخلصا : أى كان مخلصا فى إيمانه .

(٨) ودائع الشرك : المراد بها العهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين من جاورهم من الـكفار فى المهادنة. وقيل: يجوز أن يكون المراد أن ما استودعوه من أموال الـكفار حلال لهم.

ووضائع الملك : الوضائع : جمع وضيمة – بمعنى موضوعة . والملك – بكسر الميم؛ أى ما كان يوضع على الأملاك من الزكاة والصدقة ثابت لـكم كسائر المسلمين ؛ يلزمكم ما يلزمهم من الوظائف من غير زيادة ولا نقص .

(٩) لا تلطط فى الزكاة : لاتمنعها .

ولا تُلْحِد(١) فى الحياة ، ولا تتثاقَلْ عن الصلاة .

وكتب لهم : فى الوَظِيفةِ الفَرِيضة(٢) : ولكم الفارِضُ والفَرِيش(٣) ، وذُو العِنَان الرَّكُوب(٤) ، والفَلُوّ(٥) الضَّبِيس [٢٥] ، لا يُمْنَع سَرْحُكم ، ولا يُعْضَد طَلْحُكم ، ولا يُحْبَسُ دَرُّكم(٦) ما لم تُضْمِروا الرِّمَاقَ ، وتأكلوا الرِّبَاق(٧) ، مَنْ أقرّ فله الوفاء بالعهد والذِّمَّة ، ومَنْ أبى فعليه الرِّبْوَة(٨) .

ومن كتابه لوائل بن حُجْر(٩) :

---

(١) ولا تلحد : ألحد إلحادا : جار وعدل عن الحق .

(٢) لهم : لبنى نهد . والوظيفة : المعين فى كل يوم ، أو فى زمان معين ، من الطعام وغيره من الرزق . ويطلق على العهد والشرط ، والمراد الأخير ؛ أى كتب لهم فى العهد وما شرط عليهم فى الزكاة لهم فيما يؤخذ منهم من الوظائف المرتبة عليهم . والفريضة : مافرض عليهم .

(٣) الفريش : الحديث العهد بالنتاج . وقيل : ما لا يطيق حمل الأثقال من الإبل لصغره .

(٤) الركوب : المركوب الذلول . يعنى : لاتؤخذ الزكاة من الفرس المعد لركوب صاحبه ، وكذا الصغير .

(٥) الفلو : المهر الصغير من الخيل ، لا يؤخذ فى الزكاة . والضبيس : المهر العسر الركوب الصعب ، وكأنه كنى به عن صغره .

(٦) سرحكم : السرح : الماشية التى تسرح بالغداة للمرعى . والمراد أن مطلق الماشية لاتمنع عن مرعاها . يعضد : يقطع . والطلح : شجر عظام يقال له العضاه . دركم : الدر : اللبن ، والمراد به هنا الأنعام ذوات الدر لا تحبس عن المرعى فى مكان تجتمع فيه لتحشر إلى المصدق. وفى ب : سرجكم — بالجيم .

(٧) تضمروا : تخفوا وتكتموا . الرماق : النفاق . والرباق : المراد العهود . والمعنى : إن هذا أمر مقرر عليكم منا مالم تنقضوا العهد وترجعوا عن الإسلام ، فإذا كان كذلك فعليكم ما على غيركم من الكفرة ؛ فالمراد مالم تضمروا النفاق ، ثم تظهروا نقض العهد . وفى ب : الإرماق . وفى الفائق : وروى : الرماق ، والمراد النفاق .

(٨) هذا فى ا ، ب . أى يؤخذ منه زيادة على فريضة الزكاة عقوبة له .

(٩) ارجع إليه — إن شئت — فى الفائق : ١ — ٤

إلى الأَقْيال العَبَاهِلَة ، والأَرْوَاع المَشَابِيب(١) .

وفيه(٢) : فى التِّيمَة شاة ، لا مُقْوَرَّة الأَلْياطِ ، ولا ضِنَاكَ(٣) ،وأَنْطُوا الثَّبَجَة(٤) ، وفى السُّيُوبِ الخُمْس(٥) . ومن زَنَى مِم(٦) بِكْر فاصْقَعُوه مائةً(٧) ، واستَوْفِضوه عاما(٨) ، ومَنْ زنى مِم(٦) ثَيِّب فضَرِّجُوه بالأَضَامِيم(٩) ، ولا تَوْصِيمَ فى الدِّين(١٠) ، ولا غُمَّـــةَ فى فرائض الله(١١) ، وكلُّ مُسْكِر حرام . ووائلُ بن حُجْر يترَفَّلُ على الأقيال(١٢) .

---

(١) الأقيال : الملوك . العباهلة : المقرون على ملكهم ، فلم يزالوا عنه . والأرواع :السادة الزهر الألوان الحسان الوجوه . وقيل : هم الذين يروعون الناس ؛ أى يعجبونهم لمنظرهم وجمالهم وهيئاتهم . والمشابيب : جمع مشبوب ، وهو الحسن الأزهر اللون .

(٢) وفيه : فى هذا الكتاب .

(٣) التيمة: الأربعون من الغنم، وقيل:الخمس من الإبل . وقيل: هى أدنى ماتجب فيه الصدقة من الغنم والإبل . مقورة الألياط : مقورة : مسترخية الجلد من الهزال ؛فلا تؤخذ فى الصدقة لرداءتها . والمقورة: السمينة أيضا ؛ وهذه لاتؤخذ أيضا لأنها أعلى ؛ والمأمور بأخذه الوسط. والألياط : جمع ليط ــ بكسر اللام ؛ وهو قشر العود ، والمراد الجلد . ولا ضناك : الضناك : الكثيرة اللحم السمينة فلا تؤخذ لجودتها .

(٤) أنطوا : أعطوا ــ لغة لأهل اليمن ، أو لبنى سعد . الثبجة : الوسط .

(٥) السيوب : جمع سيب ؛ وهو الركاز ، وهو المال المدفون الجاهلى .

(٦) مم : من . (٧) فاصقعوه : فاضربوه . (٨) واستوفضوه : انفوه .

(٩) فضرجوه بالأضاميم : أى ارجموه حتى يسيل دمه ويقتل . والأضاميم : الحجارة ، واحدها إضمامة ، أو أضموم .

(١٠) ولا توصيم : التوصيم : من الوصم ؛ وهو العار والعيب ؛ أى لا كبر ، ولا عيب ، ولا عار ، ولا كسل فى إقامة حدود الله ؛ فلا تحابوا فيها .

(١١) ولا غمة فى فرائض الله : أى لا تخفى ولا تستر فرائضه تعالى ؛ بل تظهر ويجهر بها.

(١٢) يترفل على الأقيال: أصل الترفل : تطويل الرداء والثوب ، وهو كناية عن جعله رئيسا عليهم محكما فيهم وفى أخذ صدقاتهم ؛ أى جعله النبى واليا على أمورهم وقبض صدقاتهم .

أينَ هذا من كتابه لأنس فى الصدقة[١] المشهور . لمّا كان كلامُ هؤلاء على هذا الحدّ ، وبلاغتُهم على هذا النّمط[٢] ، وأكثرُ استعمالِهم هذه الألفاظ استعملها معهم ، لِيُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم ، وليحدّثَ الناس بما يعلمون .

وكقوله فى حديث عطِيّة السَّعْدِى[٣] : فإن اليدَ العليا هى المُنْطِيَة[٤] واليَدَ السُّفْلَى هى المُنْطَاة .

قال[٥] : فكلَّمنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بلُغتِنا .

وقوله فى حديث العامرىّ[٦] حين سأله ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : سَلْ عنك . أى سَلْ عمّ شئْتَ ، وهى لغةُ بنى عامر .

وأما كلامُه المعتاد ، وفصاحتُه المعلومة ، وجوامِعُ كَلِمِه ، وحِكَمُه المأثورة — فقد ألَّفَ الناسُ فيها الدواوين وجُمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب، وفيها ما لا يُوَازَى[٧] فصاحةً ، ولا يُبَارَى بلاغةً[٨] ؛ كقوله : المسلمون تَتكافأُ دِمَاؤهم[٩] ، ويَسْعَى بذِمَّتِهم أَدْناهم[١٠] ، وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم[١١] .

---

(١) انظر هذا الكتاب فى شرح الخفاجى : ١ — ٥٠٢ إن شئت . (٢) النمط : الطريقة.

(٣) قدم على رسول الله فى ناس من بنى سعد ، وهو أصغرهم ، فخلفوه فى رحالهم، فأمرهم الرسول أن يبعثوا إليه، فأتاه ، فلما رآه قال: ما أغناك الله فلا تسأل الناس شيئا، فإن اليد ... وارجع إلى هذا القول فى الفائق : ٣ — ١٠٣ ، وقال : هذه لغة سعد .

(٤) المنطية : المعطية . والمنطاة : المعطاة . (٥) قال : أى عطية السعدى .

(٦) هذا الحديث رواه أبو نعيم فى الدلائل . (٧) يوازى : يماثل ، ويقابل .

(٨) لايبارى : لا يعارض فيؤتى بمثله .

(٩) تتكافأ دماؤهم : التكافؤ : التماثل ؛ أى هم متساوون فى القصاص والدية ؛ فشريفهم ومشروفهم ، وصغيرهم وكبيرهم ، وفقيرهم وغنيهم ، وأميرهم وسوقتهم سواء .

(١٠) يسعى بذمتهم أدناهم : المراد بالذمة العهد والأمان ؛ وأدناهم : أقلهم مقدارا : أى إذا أمن أحد من المسلمين واحدا من الكفار كان ذلك جاريا على جميع المسلمين ، لايجوز نقضه لأحد منهم . (١١) وهم يد على من سواهم : معناه أنهم مجتمعون على أعدائهم، يعاون بعضهم بعضا ؛ أى هم مستولون قاهرون لغيرهم .

وقوله : الناسُ كأسنان المُشْط (١) . والمَرْء مع مَنْ أحبّ (٢) . ولا خير فى صُحْبة مَنْ لا يرى لكَ ماترى له (٣) . والناسُ مَعَادن (٤) . وما هلك امرؤٌ عرف قَدْرَه (٥) . والمستشار مُؤْتَمن ، وهو بالخيــارِ ما لم يتـكلّم (٦) . ورحِمَ اللهُ عبدا قال خيرا فغَنِم أو سكت فسَلِم .

وقوله : أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجرَكَ مرّتين (٧) . وإنّ أَحبّكم إلى

---

(١) هذا مثل فى تساويهم فى الأحكام الشرعية . أو المراد تساويهم فى الأنساب ، فإنهم كلهم أولاد آدم . والميم من كلمة «المشط» ضبطت فى ب بالـكسرة والضمة ، وعليها « معا » .

(٢) وهو حديث صحيح رواه الشيخان عن أنس . والمرء مع من أحب ، والمراد أنه معه في الحشر ومنازل الآخرة ، فيرتق من منزلته لمنزلتهم بسبب خلوص المحبة . والحديث فى مسلم : ٢٠٣٤ ، وسنن الترمذى : ٤ — ٥٩٥

(٣) حديث رواه ابن عدى فى الـكامل بسند ضعيف ، كما قال السيوطى فى تخريجه .

(٤) رواه الشيخان عن أبى هريرة . والمعادن : جمع معدن: منبت الذهب والفضة ونحوه، ويطلق على مكان كل شىء فيه أصله ، وعلى كل أصل ، وعلى بيوت العرب. والحديث فى مسلم: ١٩٥٨ . ويعنى صلى الله عليه وسلم بذلك أن بنى آدم يختلفون باختلاف أصلهم ، فمن كان أصله شريفا أعقب مثله ، وسرى طيب عرقه لفرعه ؛ ومن كان دون ذلك كان عقبه مثله ، ومن كان خبيثا كان فرعه خبيثا .

(٥) قال السيوطى : قال السمعانى : إنه حديث روى مسندا عن على . وفى سنده من لا يعرف حاله .

(٦) وهو بالخيار مالم يتـكلم : معناه أنه مخير إن شاء أشار عليه بما شاوره فيه ، وإن شاء سكت ولم يتـكلم . فإذا تـكلم لزمه بيان رأيه ونصحه ، وذكر الصواب عنده . وهذا الحديث أخرجه أحمد عن ابن مسعود .

(٧) من حديث رواه الشيخان فى كتابه الذى كتبه صلى الله عليه وسلم لهرقل ملك الروم. والـكتاب فى نسيم الرياض : ١ — ٥١١ . وفى صحيح مسلم : ١٣٩٤ ، والبخارى : ٤ — ٥٧

وأقربِكم منى مجالسَ يوم القيامة ، أحاسِنكُمْ أخلاقا الموطَّئون أكنافاً (١) الذين يَألَفُون ويُؤلَفون (٢) .

وقوله : لعله (٣) كان يتكلمُ بما لا يَعْنِيه ، ويبخَلُ بما لا يُغْنيه .

وقوله (٤) : ذو الوَجْهَيْن لايكون عند الله وَجِيها .

ونَهْيه (٥) عن قِيل وقال ، وكثرةِ السؤال، وإضاعةِ المال ، ومَنْعٍ وهاتِ، وعقوق الأمهات (٦) ، ووَأْد البنات (٧) .

---

(١) هذا الحديث رواه الترمذى عن ابن مسعود : سنن الترمذى : ٤-٣٧٥، والموطئون: الموطأ : من فيه لين ورفق وسهولة . والأكناف : جمع كنف ، وهو الجانب والناحية ؛أى من يلين جانبه لغيره .

(٢) أى الذين يألفهم الناس ويألفونهم . (٣) هذا حديث صحيح روى من طرق . والضمير فى «لعله» راجع لرجل مذكور فى أول الحديث: إن رجلا من الصحابة استشهد بأحد، فقالت أمه : يا بنى ، ليهنئك الشهادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها : ما يدريك لعله . . . ويعنيه : يهمه وينفعه .

(٤) هذا حديث رواه أبو داود عن عمار . وانظر سنن أبى داود: ٢ - ١٩٣. والوجيه : الذى له قدر ومنزلة .

(٥) هذا حديث صحيح رواه الشيخان ، عن مغيرة بن سهم . والحديث فى مسلم : ١٣٤٠، ١٣٤١، وقيل وقال : مصدران بمعنى القول ، أو فعلان أحدهما مبنى للمجهول والآخر غير مجهول . ومعناه : النهى عن كثرة الكلام لما يؤول إليه من الخطأ . وكثرة السؤال : أى سؤال الناس مابأيديهم استعطاء . أو السؤال عن أخبار الناس وأحوالهم . ومنع : المراد منع بذل ما يجب أو يستحسن . وهات : أى طلب ما عند غيره وسؤاله . والضبط الثبت فى ا . وفى ب : قيل وقال ـ بفتح لامها .

(٦) العقوق: مخالفة الوالدين وإيذاؤهم، وخص الأمهات مع أن عقوق الوالدين من الكبائر؛ لأنهن أكثر حقا ، وأشد شفقة على الولد . . والضبط الثبت فى ب . وفى ا : ومنع وهات ـ بكسرة واحدة فيهما .

(٧) الوأد : دفن البنات فى حياتهن .

وقوله : اتّقِ اللهَ حيثُما كُنت ، وأتبِـع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها ، وخالِقِ الناسَ بخُلق حَسَن(١) .

[وقوله](٢) : وخَيْرُ الأمورِ أوساطها(٣) .

وقوله : أحْبِبْ حبيبَكَ هَوْناً ما عسى أنْ يَـكُونَ بَغِيضَك يوما(٤) ما .

وقوله : الظّلْمُ ظُلماتٌ يوم القيامة(٥) .

وقوله في بعض دُعائه:اللهم إنّى أسألك رحمةً من عندكَ تَهْدِى بها قَلْبى،وتجمَعُ بها أمْرى ، وتلُمُّ بها شَعَثى(٦) ، وتُصلِـحُ بها غائبى ، وتَرْفع بها شاهدِى(٧)،وتزكّى بها عَمَلى ، وتُلهِمنى بها رُشْدى(٨)، وتردُّ بها ألْفَتِى(٩) ، وتَعْصِمنى بها من كلّ سوء.

---

(١) خالق الناس : عاشرهم ، وخالطهم وعاملهم .
وهذا الحديث رواه أحمد ، والترمذى، والحاكم عن أبى ذر (سنن الترمذى: ٤-٣٥٥).

(٢) من ب .

(٣) هذا الحديث أخرجه السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد عن على كرم الله وجهه عنه صلى الله عليه وسلم . وابن جرير فى تفسيره ، عن مطرف بن عبد الله ، وكذا أخرجه البيهقى بلا سند ، وذكره الديلمى بلا سند عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٤) الهون : من هان عليه الشىء : خف وسهل . أرشد النبى المتحابين إلى الاقتصاد فى المحبة وعدم المبالغة فيها ، وأن يكونوا فى ذلك على قدر متوسط ، فإن خير الأمور الوسط .
وهذا الحديث أخرجه البخارى فى الأدب . والترمذى عن أبى هريرة وقال الترمذى: الأصح أنه موقوف على على . (سنن الترمذى : ٤ - ٣٦٠) .

(٥) هذا الحديث أخرجه البخارى : ٣ - ١٦٠ ، والترمذى : ٤ - ٣٧٧

(٦) الشعث : انتشار الأمر . أى تجمع ما تشعث وتفرق من أمرى .

(٧) غائبى : باطنى ، أو ماخفى من أمورى ، أو قلبى . شاهدى: ظاهرى . ومعنى ترفع : أى تجعلها عالية رفيعة بالأعمال الصالحة ، والصفات الحسنة .

(٨) الرشد : السداد والاستقامة .

(٩) ترد بها ألفتى : ترد وتعيد وترجع ألفتى إلى ما كانت عليه . والمراد عشيرته وأقرباؤه وأهل جلدته ، فدعا الله أن يؤلفهم ويهديهم إلى الإسلام .

اللهم إنى أسألُك الفَوْزَ فى القضاء [١] ، ونُزُلَ الشهداء [٢] ، وعَيْش السُّعداء ، والنَّصْرَ على الأعداء [٣] .

إلى ما رَوَتْه الكافَّةُ عن الكافة من مَقاماته [٤] ، ومُحاضراته ، وخُطَبه ، وأدْعِيته ، ومخاطباته وعهودِه ، مِمّا لا خلافَ أنه نزل من ذلك مَرْتَبةً [٥] لا يُقاس بها غَيْرُه ، وحاز فيها سَبْقاً لا يُقْدَر قَدْرُه [٦] .

وقد جمعْتُ من كلماته التى لم يُسْبَق إليها ، ولا قَدَر أحدٌ أن يُفْرِغ فى قالبه [٧] [٢٦] عليها ؛ كقوله : حَمِيَ الوَطِيس [٨] . ومات حَتْفَ أنْفه [٩] . ولا يُلْدَغ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين [١٠] . والسعيد مَنْ وُعِظَ بغيره . . . فى أخواتها مما يُدْرِك الناظرَ

---

(١) الفوز : النجاة : سأل الله النجاة من كل سوء ؛ أى مما قضيته وقدرته على من البلاء .

(٢) ونزل الشهداء: النزل : اسم لما يعد للضيف إذا نزل، من القرى والكرامة .وضبطت الزاى فى ا بالسكون ، وفى ب : بالسكون والضم .

(٣) تمام هذا الدعاء فى نسيم الرياض : ١ — ٥٢٢

(٤) المقامات : جمع مقامة : اسم لمكان القيام ، وتوسعوا فيه فاستعملوه لمطلق المكان ، وزادوا فى التوسع حتى سموا به الكلام الصادر فيه « مقامة » . فالمراد به الكلام الصادر منه فى مجالسه ، وخطاب أمته فى حال حكمه ، وحروبه .

(٥) فى ب : مرقبة — بالقاف . وفى هامشه : كذا وقع بالقاف ؛ وصوابه بالتاء . وقال : المرقبة : الموضع المشرف العالى . (٦) قدره : مقداره . أى سبق كثير لايلحقه فيه أحد .

(٧) القالب : مايصب فيه ما يذاب من الجواهر ليصاغ، والمراد بالقالب هنا الألفاظ،لأنها قوالب المعانى . عليها : على هيئاتها .

(٨) حمى : اتقد . الوطيس : التنور ، أو شىء يشبهه .

(٩) مات حتف أنفه : الحتف : الهلاك . والمعنى أنه مات من غير ضرب ولا قتل ولا حرق ولا غرق ونحوه — على فراشه ، كأنه سقط على أنفه فمات . وهذا بعض حديث رواه عبد الله بن عتيك .

(١٠) هذا حديث صحيح رواه أبو هريرة ، يعنى أن المؤمن الفطن لاينخدع مرة بعد مرة (سنن ابن ماجه : ١٣١٨) .

العجَبُ فى مُضمَّنِها(١) ، ويذهبُ به الفِكْرُ فى أدانى (٢) حِكَمِها .

وقد قال له أصحابُه : ما رأينا الذى هو أفصحُ (٣) منك . فقال : وما يَمْنَعُنى ؟ وإنما أُنْزِلَ القرآنُ بلسانى ، لسانٍ عربىٍّ مُبين .

وقال مرة أخرى(٤) : بَيْدَ أنى (٥) من قريش ، ونشأْتُ فى بنى سَعْد ؛ فجُمِع له بذلك ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ قوةُ عارِضَةِ البادية وجَزَالتها (٦) ، ونَصَاعةُ ألفاظِ الحاضرة وَرَوْنَقُ كلامها ، إلى التأييد الإلهىّ (٧) الذى مَدَدُه الوَحْىُ الذى لا يُحيط بعلمه بَشَرِى (٨) .

وقالت أمُّ مَعْبد (٩) فى وصْفِها له :

---

(١) مضمنها : ما تضمنته من المعانى والتراكيب البديعة . وفى ا : ضبطت الميم بشدة مكسورة .

(٢) فى أدانى : فى أقل ماتضمنته من الحكم .

(٣) هذا الحديث رواه البيهق فى شعب الإيمان مسندا .

(٤) قال السيوطى : هذا الحديث أورده أصحاب الغريب ، ولا يعرف له إسناد .

(٥) بيد : غير .

(٦) العارضة : التجلد والقدرة على الكلام . والجزالة: يقال كلام جزل ؛ أى قوى شديد؛ أى حلاوة كلام أهل البادية .

(٧) النصاعة : الخلوص . والمراد خلوصها من التعقيد والغرابة والوحشية . والرونق : البهاء والحسن . وفى هامش ا أمامها : وفصاحة ألفاظ .

فكلام أهل البادية قوى متين لعدم تصنعهم ، وكلام أهل الحاضرة رقيق لطيف ؛ فجمع كلامه صلى الله عليه وسلم بين هاتين الصفتين مضموما ذلك إلى التأييد الإلهى .

(٨) بشرى : أى إنسان ؛ منسوب إلى البشر ، وهم بنو آدم .

(٩) أم معبد : كانت تنزل بين مكة وجبالها، فنزل عليها النبى صلى الله عليها وسلم وأبو بكر رضى الله عنه لما هاجرا فقدمت لهما القرى، فلما جاء زوجها أخبرته بذلك ووصفته له. وحديث أم معبد فى الفائق : ١ — ٧٦

حُلْوُ المنطق ، فَصْلٌ لا نَزْر ولا هَذَر (١) ، كأنَّ منطقَه خرَزاتُ نُظِمْنَ (٢) . وكان جَهِيرَ الصوت ، حسن النَّغْمة صلى اللهُ عليه وسلم (٣) .

فصـــل

وأما شرَفُ نسبه وكرَمُ بلده ومَنْشَئه فممّا لا يحتــاجُ إلى إقامة دليل عليه ، ولا بيَانِ مُشْكل ولا خَفِيّ منه ؛ فإنه نُخْبَة بني هاشم ، وسُلالة قريش وصَمِيمُها (٤) ، وأشْرف العرب (٥) ، وأعزهم نفَرا من قبل أبيه وأمه (٦) ، ومن أهل مكةَ مِنْ أكرم بلادِ (٧) اللهِ على الله وعلى عباده .

حدثنا قاضِي القُضاة حُسَيْن بن محمد الصَّدَفي رحمه الله ، قال : حدثنا القاضي أبو الوليد سُليمان بن خلف ، حدثنا أبو ذَرّ عَبْدُ بن أحمـــد ، حدثنا أبو محمد السَّرْخَسي ، وابن إسحاق ، وأبو الهيثم : [قالوا] (٨) : حدثنا محمد بن يوسف ، [قال] (٨) : حدثنا محمد بن إسماعيل ، [قال] (٨) : حدثنا قُتَيبة بن سَعِيد ؛ [قال] (٨) : حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عَمْرو ، عن سَعِيد المَقْبُري ، عن أبي هريرة ــ أن رسولَ

---

(١) فصل : أى فاصل بين الحق والباطل . نزر : قليل لا يفهم . والهذر : الهذيان ، وضبطت الذال في ا ، ب بالفتح .

والهذر ــ بالسكون : مقابل للنذر ، أى ولا كثير فيمل . وهو الضبط في الفائق .

(٢) منطقه : ماينطق به . خرزات نظمن : أى متناسبة ، لها رونق كالعقد المنظوم .

(٣) جهير الصوت : عالى الصوت ، ليس فيه خفاء ولا تكسر .

(٤) النخبة : المختار . والصميم : الخالص .

(٥) في ب : وأفضل العرب . وفي ا : وأشرف ، وعليها علامة الصحة . وفي هامشه أمامها : وأفضل .

(٦) نفرا : قوما . وفي ب : وأعزها .

(٧) هذا في ا . وفي ب : أكرم . . . وفي هامشه : خ : من .

(٨) من ب .

الله صلى الله عليه وسلم قال : بُعِثْتُ من خير قُرونِ بنى آدم قَرْناً فقَرْناً ، حتى كُنْتُ من القَرْن الذى كُنْتُ منه[١] .

وعن[٢] العباس ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّ اللهَ خلق الخلْق فجعلنى مِنْ خيرهم ، مِنْ خير قَرْنِهم ، ثم تخيَّرَ[٣] القبائلَ فجعلنى من خير قبيلة ، ثم تخيَّر البيوتَ فجعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خَيْرُهم[٤] نَفْساً ، وخيرهم بيتاً[٥] .

وعن واثلة بن الأسقع ، قال[٦] : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله اصطفى من وَلد إبراهيم إسماعيل، واصْطَفَى من وَلَدِ إسماعيل بنى كِنَانة ، واصطفى من بنى كِنَانة قُرَيشاً ، واصطفى من قُريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم .

قال الترمذى[٦] : وهذا حديث صحيح .

وفى حديث عن ابن عُمر ، رواه الطبرى ـ أنه صلى الله عليه وسلم قال : إنَّ اللهَ اختار خَلْقَه[٧] ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العربَ ، ثم اختار العربَ فاختار [منهم قريشا ، ثم اختار قريشا فاختار منهم][٨] بنى هاشم ، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى منهم ، فلم أَزَلْ خِيَاراً من خِيَار ، أَلَا مَنْ أحبَّ العربَ فبِحُبِّى أحبهم ، ومن أبغض العرب فبِبُغْضِى أبغضهم .

---

(١) هذا حديث صحيح انفرد البخارى بإخراجه (صحيح البخارى : ٥-٣، ٤-٢٢٩). والقرن : مقدار من الزمان ، ويطلق على أهله . أراد تقلبه فى أصلاب آبائه من إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى عبد الله بن عبد المطلب .

(٢) هذا الحديث رواه البيهقى مسندا فى دلائله . والترمذى وحسنه. (سنن الترمذى: ٥-٥٨٤).

(٣) تخير : اختار . (٤) نفسا : روحا وذاتا .

(٥) وخيرهم بيتا : أي حسبا وشرفا وأصلا .

(٦) صحيح مسلم : ١٧٨٢ ، وسنن الترمذى : ٥ ـ ٥٨٣، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٧) إن الله اختار خلقه ؛ أى أراد أن يخلق خلقه ويوجدهم ، فلما أوجدهم تخيرهم .

(٨) ما بين القوسين ليس فى ا .

وعن ابن عباس [١] : إنّ قُرَيشا كانت نورا بين يدى الله تعالى قبل أنْ يَخلق آدَم بألفى عام ، يُسبِّح ذلك النورُ ، وتسبح الملائـكةُ بتسبيحه [٢] ، فلما خلق اللهُ آدمَ ألقَى ذلك النورَ فى صُلْبه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأهبطنى الله إلى الأرضِ فى صُلْب آدم ، وجعلنى فى صُلْب نوح ، وقذف بى فى صُلْب إبراهيم ؛ ثم لم يَزَلْ الله تعالى يَنْقُلنى من الأصلاب [٣] الـكريمةِ والأرحام الطاهرة [٤] ، حتى أخرجنى من بين أبوَىّ [٥] لم يلتقيا على سِفَاح قَطّ [٦] .

ويشهدُ لصحةِ [٧] هذا الخبر شِعْرُ العباس فى مَدْح النبى صلى الله عليه وسلم المشهور [٨] .

فصـــل

[٢٧] وأما ما تَدْعُو ضرورةُ الحياةِ إليه مما فصلناه فعلى ثلاثة ضروب [٩] : ضَرْبٌ الفضْلُ فى قِلَّته ، وضَرْبٌ الفضلُ فى كَثْرته ، وضَرْبٌ تختلف الأحوالُ فيه .

فأما ما التمدُّحُ والـكمالُ بقلَّته اتفاقا ، وعلى كل حال ، عادةً وشريعةً ، كالغذاء والنوم ، ولم تَزَلِ العربُ والحـكماء تتمادح [١٠] بقِلَّتهما ، وتَذُمُّ بكثرتهما ؛ لأنَّ كثرةَ

(١) قال السيوطى : هذا الحديث رواه ابن أبى عمرو العدنى فى مسنده .

(٢) بتسبيحه : بتقديسه وتنزيهه .

(٣) الأصلاب : يعنى أصلاب أجداده .

(٤) فى ب : إلى الأرحام . وفى هامشه : خ : والأرحام .

(٥) إخراجه من بين أبويه : تولده منهما ، وخلقه من نطفتهما .

(٦) السفاح : الزنا ؛ أى أبوا النبى ــ من ولد آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة .

(٧) فى ب : بصحة . (٨) أول هذا الشعر :

من قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يخصف الورق

وسيأتى بعد فى كلام القاضى .

(٩) ضروب : جمع ضرب : قسم ، ونوع . (١٠) تتمادح : تمدح بكثرة . أو تتفاخر .

الأكل والشرب دليلٌ على النَّهَم[١] والحِرْص والشَّرَه[٢]، وغَلبةُ الشهوةِ مسبِّبٌ لِمضَارِّ الدنيا والآخرة، جالب لأَدْوَاء[٣] الجسد وخَثَارةِ النفس[٤]، وامتلاء الدِّماغ؛ وقِلَّتُه دليل على القناعةِ، ومِلْك النفس؛ وقَمْعُ الشهوة[٥] مسبِّبٌ للصحة، وصفاء الخاطر، وحدَّةِ الذِّهْن[٦]، كما أنَّ كثرةَ النوم دليلٌ على الفُسُولَة[٧] والضعف؛ وعدمُ الذكاء والفِطْنة، مسبِّبٌ للكَسل، وعادةِ العجز، وتضييع العُمْر في غير نَفْعٍ، وقساوةِ القلب وغَفْلته ومَوْته.

والشاهدُ على هذا ما يُعلم ضرورةً، ويوجد مشاهدةً، ويُنْقَل متواتِراً[٨] من كلام الأُمم المتقدمة، والحكماء السابقين، وأَشعار العربِ وأخبارِها، وصحيحِ الحديثِ، وآثارِ مَنْ سلف وخلَف، مما لا يُحْتاج إلى الاستشهاد عليه اختصارا واقتصارا على اشتهار العِلْمِ به[٩].

---

(١) النهم: الإفراط في شهوة الطعام. (٢) الشره: الحرص على الأكل والشرب.

(٣) أدواء: جمع داء، وهو المرض.

(٤) خثارة النفس: ثقلها وعدم نشاطها. وقد ضبطت الخاء في ا، ب: بالفتح. وفي هامش ب، خثرت نفسه ـ بالفتح: اختلطت.

(٥) قمع الشهوة: القمع: القهر؛ أي قهر شهوته، وغلبتها حتى لا تخالفه.

(٦) حدة الذهن: سرعة الفهم.

(٧) الفسولة: عدم الهمة في أمور الدنيا والآخرة. وفي هامش ب: الفسل من الرجال، وقد فسل فسلا وفسولة.

(٨) أي نقلا متواترا متتابعا، مرة بعد مرة.

(٩) كقول الحارث بن كلدة ـ حكيم العرب: أفضل الدواء الإزام؛ أي قلة الأكل. وقول داود: إياك وكثرة النوم فإنه يفقرك إذا احتاج الناس إلى أعمالهم. وقول قيصر لقس بن ساعدة: ما أفضل الأكل؟ قال: ترك الإكثار.

ومن الشعر:

قارب فديتك إن أكلـ ... ـت وإن شربت وإن عشيتا
وأنا الكفيل لك الحيا ... ة وأن تعافى ماحييتا

وكان النبى صلى اللهُ عليه وسلم قد أخذ من هذين الفنَّيْنِ بالأقلّ(١) .

هذا مالا يُدْفَعُ من(٢) سيرته ، وهو الذى أمر به، وحَضَّ عليه ، لاسيما بارتباط أحدِهما بالآخر .

حدثنا أبو على الصَّدَفى الحافظ بقراءتى عليه ، حدثنا أبو الفَضْل الأصبهانى ، حدثنا أبو نُعيم الحافظ ، حدثنا سُليمان بن أحمد ، حدثنا أبو بكر بن سَهْل ، حدثنا عَبْدُ الله بن صالح ، حدثنى معاويةُ بن صالح ـ أَنَّ يحيى بن جابر حدَّثَه عن المِقْدَام ابن معَدِيكرب ـ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال(٣) : ما مَلَأَ ابْنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنه(٤) ، حَسْب ابنِ آدمَ أُكُلات(٥) يُقِمْنَ صُلْبَه(٦) ، فإنْ كان لا محالةَ(٧) فثُلُث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه(٨) .

ولأنَّ كثرةَ النوم مِنْ كثرة الأكل والشرب .

قال سفيان الثَّوْرى : بِقِلَّة الطعام يُمْلَكُ سهرَ الليل .

---

(١) أخذ من هذين الفنين ؛ أى النوعين ، وهما الأكل والشرب .

(٢) مالا يدفع : مالا ينازع فيه .

(٣) هذا الحديث رواه الترمذى، وابن حبان والحديث صحيح (سنن الترمذى: ٤ـ٥٩٠).

(٤) فى ب : من بطنه ؛ كما أثبتناه . وفى هامشه : من بطن ، وعليها علامة الصحة . وفى الترمذى (٤ ـ ٥٩٠) : من بطن أيضا .

(٥) الكاف من « أكلات » ضبطت بالفتحة والضمة وعليها « معا » فى ا ، وفى هامشه: قال الحافظ المزى : الأكلة ـ بفتح الهمزة : المرة من الأكل، وبضم الهمزة مع سكون الكاف: ما يجعل فى الفم ، وجمعه أكلات ـ بفتح الكاف وضمها مع ضم الهمزة . وقد ضبطت الكاف فى الترمذى بالفتح .

(٦) حسب : كفى . يقمن : يقوين . صلبه : عظام سلسلة ظهره .

(٧) لا محالة : لابد ، ولا حيلة .

(٨) بعد الحديث فى الترمذى : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال بعضُ السَّلَف : لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا ، فترقُدوا كثيرا ، [فتخسَروا كثيرا][١] .

وقد رُوى عنه صلى اللهُ عليه وسلم أنه كان أحبّ الطعام إليه ما كان على ضَفَفٍ؛ أى كثرة الأَيْدى[٢] .

وعن عائشة رضِىَ الله عنها : لم يمتلِئْ جوفُ النبىّ صلى الله عليه وسلم شِبَعاً قطّ ، وأنه كان فى أهله لا يسألُهم طعاما ولا يَتَشهّاه ، إنْ أطعموه أكل ، وما أطعموه قَبِلَ ، وما سقَوْه شرِب[٣] .

ولا يُعْتَرضُ على هذا بحديث بَرِيرة[٤] ، وقوله : ألَمْ أرَ البُرْمةَ فيها لَحْم؛ إذ لعلّ سببَ سؤالِه ظَنَّه صلى الله عليه وسلم اعتقادَهم أنه لا يحِلُّ له ؛ فأراد بيانَ سُنَّتِه[٥] ، إذْ رآهم لم يُقدِّموه إليه ، مع عِلْمِه أنهم لا يستأْثِرُون عليه[٦] به ، فصدّق عليهم ظَنَّه[٧] ، وبيَّنَ لهم ماجَهِلوه من أمْرِه بقوله : هو لها صدَقةٌ ولنا هدّية .

---

(١) ليس فى ا .

(٢) قال السيوطى: هذا الحديث رواه أبويعلى عن أنس وجابر رضى الله عنهما بسند جيد .

(٣) قال فى نسيم الرياض (١ — ٥٥٠): وهذا كان غالب حاله ، فلا ينافى ما وقع له نادرا على خلاف مقتضى طبعه .

(٤) مولاة عائشة . وحديثها هذا أخرجه مالك فى الموطأ ، ورواه الشيخان ، وفيه : ودخل رسول الله على أهل بيته والبرمة تفور باللحم ، فقربوا له خبزا وإداما من إدام البيت ، فقال : ألم أر البرمة فيها لحم ؟ فقالوا : بلى ، يارسول الله ، ولكن هو لحم تصدق به على بريرة ، وأنت لاتأكل هذا اللحم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لها صدقة ولنا هدية . والبرمة : قدر ينحت من الحجارة . وقيل أعم من ذلك فيشمل النحاس والحديد وغيرهما . وارجع إلى صحيح مسلم: (١١٤٤ ، والموطأ : ٥٦٢ ، والبخارى : ٧ — ٦١) .

(٥) سنته : أى طريقته المشروعة له ، وهى جواز أكل الهدية ، وإن كانت صدقة .

(٦) لايستأثرون عليه به: لا يخصون أنفسهم ويقدمونها على النبى فى شىء من الطعام وغيره .

(٧) أى صدق فى ظنه أنهم يجهلون ذلك .

وفى حِكْمةِ لُقمان : يا بنى ، إذا امتلأَت المَعِدَة نامت الفِكْرةُ ، وخَرِست الحكمةُ ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال سُحْنُون[١] : لا يَصْلُح العِلْمُ لمَنْ يأكلُ حتى يَشْبَع .

وفى صحيح الحديث[٢] قولُه صلى الله عليه وسلم : أَما أنا فلا آكلُ مُتَّكِئاً .

والاتِّكاء : هو التمكّن للأكل ، والتَّقَعْدُدُ[٣] فى الجلوس له كالمتربّع ، وشِبْهه مِنْ تمكُّن الجلسات التى يعتمدُ فيها الجالسُ على ما تَحْتَه [٢٨] ؛ والجالسُ على هذه الهيئة يستدعى الأكلَ ويستكثِرُ منه .

والنبيُّ صلى الله عليه وسلم إنما كان جلوسُه للأكل جلوسَ المُسْتَوْفِز مُقْعِياً[٤] ، ويقول : [إنما][٥] أنا عبْدٌ آكُلُ كما يأكل العَبْد ، وأَجلس كما يجلسُ العبد[٦] .

وليس معنى الحديث فى الاتِّكاء الميلُ على شِقّ عند المحققين .

---

(١) سحنون : فقيه مالكى . وهذا لقبه ، واسمه عبد السلام بن سعيد التنوخى . انتهت إليه الرياسة فى العلم بالمغرب ، وأدرك مالكا ، ولم يقرأ عليه، وصنف كتاب المدونة فى مذهب مالك . توفى سنة أربعين ومائتين . وقيل : سنة خمس وأربعين ومائتين .

(٢) سنن ابن ماجه : ١٠٨٦ ، والبخارى : ٧ — ٩٣ ، وسنن الترمذى : ٤ — ٢٧٣

(٣) التقعدد : التثبت والتمكن من القعود .

(٤) المستوفز: الذى لا يكون مطمئنا، بل مستعجلا للقيام . والإقعاء: معناه أن يلصق إليته بالأرض، وينصب ساقيه وفخذيه ويلصقهما بصدره ، وربما يكون مع وضع يده على الأرض ، يشبه جلوس البدوى المصطلى، أو أن ينصب قدميه واضعا على عقبيه إليته ضاما ساقية وفخذيه واضعا ركبتيه على الأرض . وإقعاء النبى للأكل كان بإلصاق مقعده بالأرض ناصبا ساقيه .

(٥) ليس فى ا .

(٦) المعنى أنى لست مخلوقا للدنيا وترفها ، فنظرى إنما هو لعبادة الله وتبليغ أوامره ، فلا ألتفت إليها ؛ وإنما أتناول منها بسرعة مقدارا يسيرا لدفع الجوع ، كالعبد الموكل بخدمة سيده .

وكذلك نَوْمُه صلى الله عليه وسلم كان قليلا ، شَهِدت بذلك الآثارُ الصحيحةُ ، ومع ذلك فقد قال[١] : إنّ عينىّ تنامان ولا ينامُ قَلْبي .

وكان نومُه على جانبه الأيمن استظهاراً[٢] على قلّةِ النوم ؛ لأنه[٣] على الجانب الأيسر أهْنأ[٤] ، لهُدُوّ القلبِ وما يتعلَّقُ به من الأعضاء الباطنة حينئـذٍ ، لمَيْلها إلى الجانب الأيسر ؛ فيستدعى[٥] ذلكَ الاستثقالَ فيه والطُّول[٦] .

وإذا نام النائمُ على الأيمن تعلَّقَ القلب وقَلِقَ ، فأسرع الإفاقةَ[٧] ولم يَغمُره الاستغراق .

فصل

والضَّربُ الثانى ما يتّفِقُ المدحُ[٨] بكثرته ، والفَخْر بوفوره[٩] ، كالنكاح والجاهِ[١٠] : أما النـكاحُ فمتّفَق فيه[١١] شَرْعاً وعادةً ؛ فإنه دليلُ الـكمال ، وصحةِ الذُّكورية[١٢] ،ولم يَزَل التفاخرُ بكثرته عادةً معروفة ، والتّمادحُ به سيرة ماضيةً .

وأما فى الشَّرع فسُنّةٌ مأثورة ؛ وقد قال ابنُ عباس[١٣] : أفضلُ هـذه الأمةِ أكثَرُها نساء ـ يشير إليه صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) سنن أبى داود : ١ ـ ٢٠ ، ومسلم : ٥٢٨

(٢) استظهارا : استعانة . (٣) لأنه ؛ أى النوم .

(٤) أهنأ : أسهل وألذ . وفى ب : أهدأ . (٥) فيستدعى ذلك : فيقتضى ذلك .

(٦) الاستثقال فيه : ثقل بدنه فى نومه ، وغلبة النوم حتى يستغرق فيه . والطول؛ أى طول نومه . (٧) الإفاقة : التيقظ .

(٨) الضرب الثانى مما تدعو ضرورة الحياة إليه . وفى ب : التمدح . (٩) بوفوره : بزيادته .

(١٠) الجاه : علو القدر عند الناس ، والمهابة ، ونفوذ الـكلمة ، والاشتهار بذلك .

(١١) فيه : فى مدحه وثنائه .

(١٢) صحة الذكورية : قوتها ، وسلامتها من الضعف والآفة .

(١٣) حديث صحيح رواه البخارى (صحيح البخارى : ٧ ـ ٤)

وقد قال عليه السلام : تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا ، فإنى مُباهٍ[١] بكم الأُمم يوم القيامة .

ونَهَى عن التَّبَتُّلِ[٢] مع ما فيه من قَمْع الشَّهْوة ، وغَضِّ البصر اللَّذَيْن نبَّهَ عليهما صلى الله عليه وسلم بقوله: مَنْ كان ذا طَوْل[٣] فليتزوج ؛ فإنه أَغَضُّ للبصر ، وأَحْصَنُ للفرج ، حتى لم يرَهُ العلماء مما يَقْدَحُ[٤] فى الزهد .

قال سَهْل بن عبد الله : قد حُبِّبْنَ[٥] إلى سيد المرسلين ، فكيف يُزْهَد فيهن ؟ ونحوُه لابن عُيينة .

وقد كان زُهَّادُ الصحابة كثيرى الزوجات والسَّرارِى[٦] ، كثيرى النكاح .

وحُكى فى ذلك عن علىّ ، والحسن[٧] ، وابن عُمر ، وغيرهم غَيْرُ شىء .

وقد كرِه غير واحد أَنْ يَلْقَى الله عزَبا[٨] .

فإن قُلْتَ : كيف يكون النكاحُ وكثرتُه من الفضائل ، وهذا يَحْيَى بن زكريا عليه السلام قد أَثنى اللهُ تعالى عليه أنه كان حَصُوراً[٩] ؛ فكيف يُثْنِى اللهُ بالعَجْز عما تَعُدُّه فضيلةً ؟

---

(١) تناكحوا : التناكح : التزوج . والمباهاة : المفاخرة .
وهذا الحديث أخرجه ابن مردويه فى تفسيره بسند ضعيف . ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث سهل بن حنيف .

(٢) الحديث صحيح ، رواه الشيخان : مسلم : ١٠٢٠ ، والبخارى : ٧ ـ ٥ ، وسنن النسائى: ٦ ـ ٤٨ . والتبتل : الانقطاع عن النكاح . وقمع الشهوة : قهرها .

(٣) ذا طول : الطول : سعة الرزق والمال بحيث تكون له قدرة على نفقة زوجته وأهله. وارجع إلى البخارى : ٧ ـ ٣

(٤) القدح : الطعن ؛ أى ليس مما ينقص الزهد حتى يعيبه الناس .

(٥) حبِبن : أى النساء . (٦) السرارى : جمع سرية ، والسرية : هى الأمة المنكوحة .

(٧) الحسن بن على . (٨) عزبا : ليست له امرأة .

(٩) فى قوله تعالى : « وسيدا وحصورا » ـ سورة آل عمران ، آية ٣٩

وهذا عيسى عليه السلام تبتّل(١) عن النساء ، ولو كان كما قررْتَه انـكح(٢) ؟

فاعلم أنّ ثناء اللهِ تعالى على يحيى بأنه حَصُورٌ ليس كما قال بعضُهم :

إنه كان هَيُوبا(٣) ، أولا ذَ كَر له(٤) ؛ بل قد أنـكر هذا حُذّاقُ المفسرين ونقّادُ العلماء ، وقالوا : هذه نَقِيصَةٌ وعَيْب ، ولا تَلِيقُ بالأنبياء .

وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها ، كأنه حُصِر عنها(٥) .

وقيل : مانعا نفسه من الشّهَوات .

وقيل : ليستْ له شهوةٌ فى النساء .

فقد بانَ لكَ من هذا أنّ عدمَ القدرة على النكاح نَقْص ، وإنما الفَضْلُ فى كونها موجودة ، ثم قَمْعُها(٦) ؛ إمّا بمجاهدةٍ ، كعيسى عليه السلام، أو بِكِفَايةٍ من الله تعالى ، كيحيي عليه السلام ــ فضيلةٌ زائدةٌ لكونها شاغِلةً(٧) فى كثير من الأوقات حاطّةً إلى الدنيا(٨) .

ثُمّ هى(٩) فى حقّ مَنْ أُقْدِر عليها ومُلِّـكَها وقام بالواجب فيها(١٠) ، ولم تَشْغَلْه عن ربِّه ــ درجةٌ عُلْيا ، وهى درجةُ نبينا صلى الله عليه وسلم الذى لم تَشْغَلْه كثرتُهنّ عن عبادة ربّه ؛ بل زادَهُ ذلك عبادةً ، لِتَحْصِينِهِنّ(١١) ، وقيامِه بحقوقهنّ ، واكتِسابِه لهُنّ ، وهدايته إياهنّ ؛ بل صرّحَ أنها ليست من حظُوظِ [٢٩] دُنْياه هو ، وإن

---

(١) تبتل عن النساء : انقطع عنهن بالـكلية ولم يتزوج .

(٢) لنـكح : لتزوج .

(٣) هيوبا : جبانا عن النـكاح .

(٤) فى ب : معه .

(٥) حصر عنها : منع .

(٦) قمعها : منعها .

(٧) في ب : مشغلة . وفى هامشه أمامها : شاغلة .

(٨) أى تنزل الإنسان إلى شهوات الدنيا الدنية .

(٩) هى : أى الشهوة فى الجماع .

(١٠) أى من ملك شهوته ، ولم تمنعه من القيام بما يجب عليه من مهمات دينه ودنياه .

(١١) لتحصينهن : أى جعلهن محصنات بنـكاحه صلى الله عليه وسلم لهن .

كانَتْ من حظوظِ دُنْيا غيره ؛ فقال[1] : حُبِّبَ[2] إلىّ مِنْ دُنيا كم . . فدلّ على أنّ حُبّه لِمَا ذَكَر من النساء والطِّيب اللَّذَين هما من أُمور دُنيا غيره ، واستعماله لذلك ليس لدُنْيــاهُ ، بل لآخِرَته ؛ للفوائد الذى ذكرناها فى التزويج ، وللقاء الملائكة فى الطِّيب ؛ ولأنه[3] أيضا مما يَحُضُّ على الجمَاع ، ويُعِين عليه ، ويحرّكُ أسبابَه .

وكان حبُّه لهاتين الخصْلتين[4] لأجْل غيره ، وقَمْع شَهْوتِهِ ؛ وكان حبُّه الحقيقىُّ المختصّ بذاته فى مشاهدة جَبَرُوت مَوْلاه ومناجاته[5] ؛ ولذلك ميَّزَ بَيْنَ الحُبَّيْن[6] ، وفَصَل بين الحالَيْن ؛ فقال : وجُعِلت قُرَّةُ عَيْنِى[7] فى الصلاة ؛ فقدساوى يحيى وعِيسى فى كفايةِ فتنتهنّ[8] ، وزادَ فضيلةً بالقيام بهنّ[9] .

---

(١) فى ب : وقال .

(٢) الحديث : حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة . قال السيوطى ، هذا الحديث رواه الحاكم ، والنسائى ، عن أنس . ورواه أحمد عن عائشة . (سنن النسائى : ٦ — ٤٤) .

(٣) ولأنه : أى الطيب .

(٤) الخصلتان : هما الجماع والطيب .

(٥) الجبروت : المراد عظمة الله تعالى سيده ومولاه . والمناجاة : المسارة بتلقى وحيه ، وقراءة القرآن .

(٦) ميز : فرق وفصل . بين الحبين : أى حب ما هو من أمور الدنيا ظاهرا ، وبين ما هو حقيقه لله .

(٧) قرة العين : ما يسر من ينظره .

(٨) يعنى أن يحيى وعيسى تبتلا وتركا التزوج مع القوة والقدرة خوفا من فتنة النساء ، وهى تمكن حبهن فى القلب والاشتغال بهن عن العبادة ؛ وهن لم يشغلن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يمنعنه عنها فى حال من الأحوال ؛ فساواهما فى عدم الاشتغال ، حتى كان الوحى ينزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو فى فراش زوجاته ؛ وأعانته خديجة رضى الله عنها فى أول أمره .

(٩) بالقيام بهن : أى له — صلى الله عليه وسلم — فضيلة زائدة على ما ذكر بقيامه على زوجاته ، وكسبه لهن ، وهدايته لهن ، مع عدم غفلته — صلى الله عليه وسلم — طرفة عين عن الله تعالى .

وكان صلى الله عليه وسلم ممن أُقْدِرَ على القوة فى هذا ، وأُعْطِيَ الكثيرَ منه ؛ ولهذا أُبيح له من عددِ الحرائر ما لم يُبَحْ لغيرِه[١] .

وقد رَوَيْنَا عن أنس أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يَدُورُ على نسائه فى الساعة[٢] من الليل والنهار ، وهنّ إحدى عشرة[٣] .

[وعن طاوُس : أُعْطِيَ عليه السلام قوةَ أربعين رجلا فى الجِمَاع .

ومثله عن صَفْوَان بن سُلَيم .

وقالت سَلْمى مولاتُه : طاف النبيّ[٤] صلى الله عليه وسلم ليلةً على نسائه التسع ، وتطَهَّرَ من كل واحدة قبل أن يَأْتِي الأُخْرى ؛ وقال : هذا أَطيب وأَطْهر][٥] .

قال أنس : وكُنّا نتحدَّثُ أنه أُعْطِي قوةَ ثلاثين رجلا. خرّجه النسائى ، ورُوى نحوه عن أبى رافع .

وقد قال سليمان ـ عليه السلام[٦] : لأطوفنّ الليلةَ على مائة امرأة أو تسع وتسعين، وأنه فَعَل ذلك .

قال ابنُ عباس : كان فى ظَهْر سُليمان ماء مائةِ رجل أو تسع وتسعين ، وكانت له ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سُرِّيَّة[٧] .

---

(١) هذا من خصائصه بالنسبة لأمته ؛ فأبيح له أن ينكح من النساء ماشاء فى أول أمره، ثم حرم الله عليه بعد ذلك أن يزيد على ما فى عصمته من أزواجه ، فقال: « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك » .

(٢) فى الساعة : أى مقدار ساعة . والحديث فى البخارى : ١ ـ ٧٣ ، ٧ ـ ٤٤

(٣) قال ابن حبان : كانت زوجاته تسعا ، وكانت عنده جاريتان (نسيم الرياض ١-٥٧١)

(٤) سنن ابن ماجه : ١٩٤ ، والبخارى : ٧ ـ ٤

(٥) مابين القوسين عليه علامة الصحة فى ا . وفى ب : من الأم من غير الرواية .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم : ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، وروايته : على سبعين . . . مرة ، وعلى تسعين . . . مرة أخرى .

(٧) السرية : الأمة التى بوأتها بيتا (القاموس) .

وحكى النقّاش وغيْرُه سبعمائة امرأةٍ وثلاثمائة سُرِّيَّة .

وقد كان لداود عليه السلام على زُهْده وأَكْلِه من عَمَلِ [١] يده تِسع وتسعون امرأةً ، وتَمّت بزوج أُورِيَا [٢] مائة .

وقد نبَّهَ على ذلك فى الكتاب العزيز بقوله تعالى [٣] : ﴿ إنَّ هذَا أَخِي له تِسْعٌ وتسعون نَعْجةً ﴾ .

وفى حديث أنس عنه ، عليه السلام : [٤] فُضِّلْتُ على الناس بأربع : بالسخاء ، والشجاعةِ ، وكثرةِ الجماعِ ، وقُوّةِ البَطْش .

وأما الجاهُ [٥] فمحمودٌ عند العقلاء عادةً وبقَدْرِ جاهِهِ عِظَمُهُ فى القلوب [٦] .

وقد قال الله تعالى فى صفة عيسى عليه السلام [٧] : ﴿ وَجِيهاً [٨] فى الدُّنيا والآخِرَة ﴾ ؛ لكن آفاتُه كثيرة [٩] ؛ فهو مضِرٌّ لبعض الناس لعُقْبَى الآخرة [١٠] ، فلذلكَ ذمَّه مَنْ ذمَّه ، ومدح ضِدَّه [١١] .

---

(١) ألان الله له الحديد ، فكان يصنع منه الدروع ويبيعها ويأكل هو وأهله من ثمنها مع ما آتاه الله من الملك .

(٢) الضبط فى ب . وأورياء : اسم رجل ـ يمد ويقصر ، وزوجته هى المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة . . . » . (٣) سورة ص ، آية ٢٣

(٤) قال السيوطى : رواه الدارقطنى فى الأوسط بسند جيد .

(٥) الجاه : كونه وجيها عند الناس ، بتسخير القلوب وطاعتها ومحبتها وانقيادها له ، بحيث يقدر على استعمال أربابها فى مقاصده ؛ وهى لاتنقاد إلا باعتقاد الكمال التام عندها .

(٦) أى يعظم الإنسان ذو الجاه فى القلوب بمقدار عظمة جاهه .

(٧) سورة آل عمران ؛ آية ٤٥

(٨) وجيها : أى عظيما ذا جاه عند الله فى الدارين .

(٩) أى يعرض له ـ أى الجاه ـ مايفسده ويجعله مذموما كثيرا .

(١٠) أى لما يعقبه ويترتب عليه فى الآخرة .

(١١) ضده : هو الخمول وعدم الشهرة بين الناس .

ووردَ فى الشَّرْعِ مدحُ الخمول (١) ، وذَمُّ العلُوّ فى الأرض .

وكان صلى الله عليه وسلم قد رُزِقَ من الحِشْمَة (٢) ، والمكانةِ فى القلوب ، والعظمةِ قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها ، وهم يكذِّبُونه ويُؤْذون أصحابَه ، ويَقْصِدون أذاه فى نفسه خُفْيَةً حتى إذا واجَهَهُم أعْظَموا أمْرَه ، وقضَوْا حاجتَه (٣) .

وأخباره فى ذلك معروفة سيأتى بعضها .

وقد كان يُبْهَتُ (٤) ويَفْرَقُ لرؤيته (٥) مَنْ لم تره ، كما رُوِى عن قَيْلَة (٦) أنها لما رأته أُرْعِدَت من الفَرَق ؛ فقال : يامِسْكينة ، عليك السكينة (٧) .

وفى حديث أبى مسعود (٨) أنَّ رجلا قام بين يديه فأُرْعِد ؛ فقال : هَوِّنْ عليكَ فإنى لستُ بمَلِك . . . الحديث (٩) .

---

(١) كما ورد فى حديث : رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . وفى حديث : إن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا .

(٢) يريد بالحشمة : المهابة والعظمة فى أعين الناس .

(٣) أى لأنهم لمهابته صلى الله عليه وسلم ، وعظمته فى قلوبهم ، لايواجهونه بالأذى . وضبطت الخاء فى كلمة « خفية » فى ا بالضم والكسر ، وعليها « معا » .

(٤) يبهت : يتحير ويدهش . ويفرق : يخاف ويفزع .

(٥) فى ب : من رؤيته .

(٦) هى قيلة بنت مخرمة . وحديثها مذكور فى شمائل الترمذى ، وفى سنن أبى داود ، وأخرجه ابن سعد بتمامه . وهو أنها رأته صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وهو قاعد القرفصاء ؛ قالت : فلما رأيته متخشعا فى الجلسة أرعدت من الفرق . . .

(٧) أرعدت : أى لحقتها رعدة من الخوف . والسكينة : الطمأنينة ، وعدم الخوف .

(٨) هذا الحديث رواه البيهقى من طريق قيس عنه موصولا . وعن قيس مرسلا . وأخرجه الحاكم مثله وصححه .

(٩) وتمامه : وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد .

وهون عليك : لا تخف .

فأما عِظَمُ قَدْرِه بالنبوة، وشريفُ منزلته بالرسالة، وإنافةُ رُتْبته [1] بالاصطفاء والكرامةِ فى الدنيا فأمرٌ هو مبلَغُ النهاية [2]، ثمّ هو فى الآخرة سَيّدُ وَلَدِ آدم [3].

وعلى معنى هذا الفصل نظمنا هذا القسم [4] بأسره.

فصــــل

وأما الضَّرْبُ الثالث، فهو ما تختلفُ الحالاتُ فى التمدُّح به والتفاخرُ بسببه، والتفضيل [٣٠] لأجْله، ككَثْرَةِ المال - فصاحبُه [5] على الجملة مُعَظَّم عند العامة، لاعتقادِها توصُّلَه به إلى حاجاته، وتمكنَ أغراضه بسببه، وإلّا فليس فَضِيلةً فى نفسه، فمتى كان المالُ بهذه الصورةِ، وصاحبُه مُنْفِقاً له فى مُهمات من اعـــتراه [6] وأمَّله [7]؛ وتصريفُه فى مواضعه مُشْتريا به المَعَالى والثناءَ الحسن [8]، والمنزلةَ فى القلوب [9] - كان فضيلةً [10] فى صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرّفه فى وجوهِ البر، وأنفقه فى سبيل الخير، وقصد بذلك اللهَ والدّارَ الآخرة، كان فضيلةً عند الكلّ بكل حال [11]، ومتى كان صاحبُه مُمْسِكا له غير موجِّهه وجوهَه [12]، حريصا على جَمْعه،

(١) إنافة : علو، وارتفاع.

(٢) فأمر هو مبلغ النهاية : أى هو نهاية النهاية ليس فوقه مرتبة أخرى.

(٣) هذا بعض من حديث فى سنن ابن ماجه (١٤٤٠)؛ وهو: أنا سيد ولد آدم ولا فخر.

(٤) هذا القسم؛ أى القسم الأول من الكتاب؛ أى جعلناه موضوعا لبيانه. بأسره : جميعه.

(٥) فصاحبه : صاحب المال.

(٦) من اعتراه : من ورد عليه، وقصده من الضيوف والإخوان وأرباب الحاجات.

(٧) وأمله : ورجاه، ورجا إحسانه وإكرامه.

(٨) الثناء الحسن : الذكر الجميل.

(٩) فى ب : من القلوب.

(١٠) كان فضيلة : أى أمرا فاضلا محمودا.

(١١) عند كل الناس من أهل الدنيا وغيرهم، من العامة والخاصة. بكل حال : أى سواء اكتسب به المعالى والثناء أم لا.

(١٢) غير موجهه وجوهه : غير صارف له فى مصارفه من مهماته ووجوه الخير.

عاد كُثْرُه كالعَدَم(١)، وكان مَنْقَصة فى صاحبه(٢)، ولم يقِفْ به على جَدَد(٣) السلامة؛ بل أوقعه فى هُوَّةِ(٤) رذيلةِ البُخْل، ومذَمَّةِ النّذَالة(٥)؛ فإذا التمدُّح بالمال وفضيلتُه عند مُفَضِّله ليست لنفسه، وإنما هو(٦) للتوصُّل به إلى غيره، وتصريفِه فى مُتَصَرّفاته(٧)، فجامعُه إذا لم يضَعْه مواضِعَه، ولا وجَّهَهُ وجوهَه غَيْرُ مَلِيء(٨) بالحقيقة ولا غَنىّ بالمعنى، ولا مُمْتَدَحٍ عند أحدٍ من العقلاء؛ بل هو فقير أبدا غَيْرُ واصلٍ إلى غَرَض من أغراضه؛ إذ ما بيَدِه من المال الموصِّل لها(١٠) لم يسلَّطْ عليه(١١)، فأشْبه خازنَ مالِ غيره، ولا مالَ له؛ فكأنه ليس فى يده منه شىء.

والمنفِق مَلِىءٌ(١٢) وغنىّ بتحصيله فوائدَ المال، وإنْ لم يبْقَ فى يده من المال شىء.

فانظُرْ سيرةَ نبينا صلى الله عليه وسلم وخُلُقَه فى المالِ تجدْه قد أُوتى خزائنَ الأرض،

---

(١) كثره: كثيره. كالعدم: إنما كان كالعدم؛ لأنه لم ينتفع به؛ فإنه خازن لغيره، حارس لنعمته، يستعجل الفقر الذى هرب منه، ويفوته الغنى الذى طلبه؛ فيعيش عيش الفقراء، ويحاسب عليه حساب الأغنياء.

(٢) وكان منقصة: وذلك لذم الناس له، ووصفه بالبخل.

(٣) الجدد: الأرض الصلبة، والمراد الطريق المسلوكة؛ أى لم يحصل ما يسلم به من النقص والوبال والذم.

(٤) أصل الهوة: الحفرة العميقة.

(٥) النذالة: الدناءة والخسة. (٦) وإنما هو: أى المال.

(٧) قال فى نسيم الرياض: وفى الحديث (سنن الترمذى: ٤ — ٥٧٢): يقول ابن آدم مالى؛ وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت. فمن لم يتوصل بماله إلى ما ذكر ولم ينتفع به يكون كمن لا مال له.

(٨) غير مليء: غير غنى. وفى ب: غير ملى؛ أى غير ثقة.

(٩) فى ب: ولا متمدح.

(١٠) لها: أى لأغراضه.

(١١) لم يسلط عليه: لم يقدره الله على الإنفاق منه فى أغراضه.

(١٢) فى ب: ملى.

ومفاتيحَ البلاد[١]، وأُحلَّت له الغنائم[٢]، ولم تحِلّ لنبيّ قبله، وفُتح عليه فى حياته صلى اللهُ عليه وسلم بلادُ الحجاز واليمن، وجميعُ جزيرة العرب، وما دَانَى ذلك[٣] من الشام والعراق، وجُلِبَتْ إليه من أخماسها وجِزْيَتها[٤] وصدقاتها ما لا يُجْبَى[٥] للملوك إلا بعضُه، وهادَته[٦] جماعةٌ من ملوك الأقاليم[٧] فما استأثر بشىء منه[٨]، ولا أمسكَ منه درهماً؛ بل صرّفه مصارِفَه، وأغنى به غَيْرَه، وقوّى به المسلمين؛ وقال: مايسرُّنى أنَّ لى أُحُدا[٩] ذهبا يبيتُ عندى منه دِينار، إلا دينارا أَرْصُده[١٠] لدَيْن.

[وأتته دنانير مرةً فقسمها، وبقيَتْ منه سِتّة[١١]؛ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: الآن استرحت][١٢].

---

(١) خزائن الأرض: دفائنها ومعادنها.
(٢) الغنيمة: مايؤخذ من الكفار بقتال.
(٣) ما دانى ذلك: ماقرب منه.
(٤) من أخماسها: من غنائمها؛ لأن الغنائم تجعل خمسة أجزاء، خمس للإمام، وأربعة أخماس للجند. والجزية: مايؤخذ من الكفار من الخراج على الرءوس.
(٥) يجبى: يجمع.
(٦) هادته: أهدت إليه. والهدية: ما يبعث بلا عوض للمهدى إليه إكراما.
(٧) أراد بالأقاليم: النواحى والبلدان.
(٨) فما استأثر: ما اختص نفسه بشىء منها دون أصحابه.
(٩) أحد: جبل قريب من المدينة، كانت فيه غزوة أحد المعروفة.
(١٠) أرصده: أجعله معدا لسداد دين.
وهذا الحديث فى الصحيحين وشروحهما. (صحيح مسلم: ٦٨٧).
(١١) فى ب: وبقى منها بقية.
(١٢) ما بين القوسين كتب عليه فى ا، ب: ليس من الرواية.

ومات ودرعُه مرهونةٌ فى نَفَقَةِ عِيَالِه (١) .

واقتصر من نَفَقَتِه ومَلْبَسه ومسكنه على ماتدْعُو ضرورَتُه إليه .

وزَهِد فيما سِوَاه (٢) ، فكان يَلْبس ما وجده ؛ فيَلْبَس فى الغالب الشَّمْلَةَ (٣) ، والكساء الخَشِن ، والبُرْدَ (٤) الغليظ ، ويَقْسِم على مَنْ حضره أَقْبِيَةَ الديباج المُخَوَّصة (٥) بالذهب ، ويرفَعُ لِمَنْ لم يحضره (٦) ؛ إذ المُبَاهاة (٧) فى الملابس والتزيُّنُ بها ليست من خصال الشرف والجَلَالة ، وهى من سِمَات (٨) النساء .

والمحمودُ منها نَقَاوَة (٩) الثوبِ ، والتوسُّط فى جِنْسه (١٠) ، وكونُه لِبْسَ مِثْلِه (١١) ،

---

(١) عياله : من تلزمه مؤونته والإنفاق عليه . وحديث رهن الدرع مذكور فى صحيح البخارى (٤ — ٤٩) ، وهو : عن عائشة قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير .

(٢) أى فيما سوى مقدار الضرورة .

(٣) الشملة : كساء يشتمل به .

(٤) البرد : ثوب فيه خطوط .

(٥) الأقبية : جمع قباء ، وهو المخيط من اللباس . والديباج : نوع من أقبية الحرير . والمخوصة : المنسوجة بأعلام من ذهب كالخوص .

(٦) ويرفع لمن لم يحضره : أى يرفعها من مجلسه حتى يعطيها لمن لم يحضر القسمة . وهو إشارة لقصة مخرمة التى رواها الشيخان عن مسور بن مخرمة ؛ (صحيح مسلم : ٧٣١، ٧٣٢ ، وصحيح البخارى : ٨ — ٣٨) ؛ قال : قال لى أبى : يا مسور ، بلغنى أنه صلى الله عليه وسلم جاءته أقبية ، فاذهب بنا إليه ، فذهبنا فوجدناه فى منزله ، فقال : ادعه لى . فأعظمت ذلك ؛ فقال : يابنى ، إنه ليس بجبار . فدعوته صلى الله عليه وسلم ، فخرج ومعه قباء من ديباج مزرور بالذهب ؛ فقال : يامخرمة ، خبأت لك هذا ؛ فجعل رسول الله يريه محاسنه، ثم أعطاه له . فنظر إليه وقد رضى . وفى ب : لم يحضر .

(٧) المباهاة : إظهار الفخر .

(٨) سمات النساء : خصال النسوة ، وعلامتهن .

(٩) منها : من الملابس . ونقاوة الثوب : كونه نقيا من الوسخ والنجاسة .

(١٠) أى لا يكون نفيسا جدا ولا خسيسا .

(١١) أى كونه مما يلبسه أمثاله من جنسه . قال فى نسيم الرياض (١ — ٥٩٠) : واللازم أن يلبس كل أحد على قدر حاله ؛ فلا يلبس الغنى ماهو دون حاله ، ولا الفقير ماهو فوق حاله.

غير مُسْقِط لمروءة جِنْسِه(١) مما لا يُؤَدِّي إلى الشُّهْرَة في الطَّرَفَيْن(٢) .

وقد ذمَّ الشرعُ ذلك(٣) ؛ وغايةُ الفَخْر فيه في العادة عند الناس إنما يعودُ إلى الفخر بكثرةِ الموجود ، ووُفُور الحال(٤) .

وكذلك التَّباهِي بجَوْدة المسكن ، وسعَةِ المنزل ، وتكثير(٥) آلاته وخَدَمه ومركوباته .

ومَنْ ملك الأرضَ ، وجُبِيَ(٦) إليه ما فيها ، فترك ذلك زُهْداً وتنزُّهاً(٧) ، فهو حائز لفضيلة المالِ ، ومالكٌ للفخر بهذه الخَصْلة إن كانت فضيلةً زائد عليها في الفخر ، ومُعْرِق(٨) في المدح بإضْرَابِه عنها ، وزُهْدِه في فانيها ، وبَذْلِها في(٩) مظانِّها .

فصــــل

وأما الخصالُ المكتسبة من الأخلاقِ الحميــدة [٣١] والآدابِ الشريفة التي اتَّفق جميعُ العقلاء على تفضيل صاحبِها ، وتعظيم المتَّصِف بالخُلُق الواحدِ منها ،

---

(١) في ب : لمروءة حسبه .

(٢) في الطرفين : غاية التعظيم ، وغاية الخسة ؛ فيكون بين بين ،وخير الأمور أوسطها. والشهرة : اسم من الاشتهار ؛ وهو الظهور بين الناس. وقال النووي : كانوا يكرهون الشهرتين: الثياب الجدد ، والثياب الرذلة ؛ إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا .

(٣) ذلك : إشارة إلى المباهاة في الملابس والتزين بها .

(٤) الغاية : النهاية . وكثرة الموجود : المراد به كثرة ما عنده من المال والملبس ونحوه . ووفور الحال : المراد به قوة حاله وقدرته على مالا يقدر عليه غيره .

(٥) وتكثير آلاته : المراد بالآلات هنا : الفراش والأواني .

(٦) جبي : جمع .

(٧) الزهد: الرغبة عن الدنيا مع القدرة ، رغبة في الآخرة . وهذا في ا . وفي ب: زاهدا بالنصب والرفع وعليها « مما » .

(٨) معرق : أصل في الحسب وأكرم .

(٩) بذلها : إعطاؤها . مظانها : جمع مظنة : الموضع الذي يظن كونها فيه . والمراد أنه صلى الله عليه وسلم يبذلها في محلها الذي يرجى فيه ؛ كمحال البر والصدقة .

فَضْلًا عما فوقه[١] وأَثنى الشرعُ على جميعها، وأَمَر بها، ووعَد السعادةَ الدائمة للمُتخلِّق[٢] بها ، ووصف بعْضَها بأنه من أجزاء النبوة[٣] ، وهى المُسمَّاة بحُسْن الخُلق ؛ وهو الاعتدالُ فى قُوَى النفس وأوصافها ، والتوسُّطُ فيها دون المَيْل إلى مُنْحَرِف[٤] أطرافها ؛ فجَمِيعُها قد كانت خُلُقَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على الانتهاء فى كمالها، والاعتدالِ إلى غايتِها ، حتى أَثْنَى اللهُ بذلك عليه ، فقال تعالى[٥] : ﴿ وإنّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيم ﴾ .

قالت عائشةُ ـ رضِيَ الله عنها : كان خلقُه القرآن ، يَرْضَى برِضَاه ، وَيَسْخَط بسَخَطِه[٦] .

وقال صلى الله عليه وسلم : بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق[٧] .

قال أنس[٨] : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناسِ خُلقا .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه مِثْلُه .

---

(١) عما فوقه : أى عما زاد على الواحد منه .

(٢) المتخلق بها : الذى اتخذها خلقا ، واتصف بها .

(٣) كما ورد فى الحديث : السمت الحسن ، والتؤدة ، والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة (الموطأ : ٩٥٤) . والمراد أن هذه الخصال من شمائل الأنبياء وفضائلهم .

(٤) المنحرف : المائل . أى إلى أطرافها المنحرفة .

(٥) سورة القلم ، آية ٤

(٦) الحديث فى صحيح مسلم: ٥١٣ ؛ أى كان صلى الله عليه وسلم متمسكا بأوامر القرآن ونواهيه وما يشتمل عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب لا يتعداها ؛ فيرضى بكل ما يرضى الله ويسخط كل ما لا يرضاه، كل ذلك لله، لا لحظ نفسه. وفى هامش ب: يعنى التأدب بأدبه ، والتخلق بمحاسنه ، والالتزام لأوامره وزواجره .

(٧) الحديث فى الموطأ : ٩٠٤ ، قال ابن عبد البر : هو حديث مدنى صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره . ومكارم الأخلاق كانت موجودة قبله ـ لاسيما فى العرب ـ فتممها صلى الله عليه وسلم بشريعته السمحة ، وزاد فيها مالم يسبق إليه ، وجمع ما تفرق منها فيه وفى أمته .

(٨) الحديث فى مسلم : ١٨٠٥

وكان[١] فيما ذكره المحقِّقون مَجْبُولا[٢] عليها فى أَصْل خِلْقَته وأَوّل[٣] فِطْرته، لم تحصُلْ له باكتسابٍ ولا رِياضة إلا بجُودٍ إلهىّ، وخصوصيةٍ ربّانية.

وهكذا لسائر[٤] الأنبياء، ومَنْ طالعَ سِيَرَهم منذُ صِباهم إلى مَبْعَثهم حقَّق[٥] ذلك، كما عُرِف من حال عيسى وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم عليهم السلام.

بل غُرِزَتْ فيهم هذه الأخلاقُ فى الجِبِلَّة، وأُودِعُوا العِلْمَ والحِكْمة فى الفِطْرة، قال الله تعالى[٦]: ﴿وآتَيْناهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

قال المفسِّرون: أُعْطِىَ يحيى العِلْمَ بكتاب الله تعالى فى حال صِباه.

وقال مُعمَّر: كان [يحيى][٧] ابنَ سنتين أو ثلاث، فقال له الصِّبْيان: لِمَ لا تلعبُ؟ فقال: أَلِلَّعبِ خُلِقْتُ[٨]!

وقيلَ فى قوله تعالى[٩]: ﴿مُصَدِّقاً بكلمةٍ مِنَ الله﴾: صَدّق يحيى بعيسى؛ وهو ابنُ ثلاث سنين، فشَهِدَ له أنه كَلِمةُ اللهُ ورُوحه.

وقيل: صدَّقه وهو فى بَطْنِ أمه؛ فكانت أُمُّ يحيى تقولُ لمريم: إنّى أجد ما فى بطنى يسجُدُ لما فى بطنك؛ تحيّةً له.

---

(١) وكان: أى النبى.

(٢) مجبولا: مخلوقا مطبوعا.

(٣) أى من غير تكلف ولا تعلم.

(٤) فى ب: وسائر. وسائر: باقى.

(٥) حقق ذلك: عرف أن مكارم الأخلاق فيهم جبلية طبيعية.

(٦) سورة مريم، آية ١٢

(٧) من ب، وعليها علامة الصحة. وكلمة «معمر» ضبطت فى ب بضم الميم الأولى وتشديد الميم الثانية المفتوحة. وفى التبصير (١٣٠٣): بفتح الميمين وسكون العين.

(٨) قال السيوطى: رواه الديلمى عن معاذ بن جبل ولم يسنده. والحاكم فى التاريخ، عن ابن عباس مرفوعا، وسنده واه. وأخرجه أحمد فى الزهد، وابن أبى حاتم فى تفسيره عن معمر.

(٩) سورة آل عمران، آية ٣٩

وقد نصَّ اللهُ تعالى على كلامِ عيسى لأمه عند ولَادتها إياه بقوله لها(١) : « أَلَّا تَحْزَنِي » ـ على قراءة « من قرأ » مَنْ تحتها ، وعلى قول مَنْ قال: إن المنادِيَ عيسى .

ونَصَّ على كلامه فى مَهْدِه (٢)، فقال(٣): ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانيَ الكتابَ وجعلني نبياً ﴾ .

وقال(٤) : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سليمانَ وكُلًّا آتينا حُكْماً وعِلْماً ﴾ .

وقد ذُكِر من حِكَم سليمانَ وهو صبي يلعَبُ فى قصة المَرْجُومة(٥) ، وفى قصة

(١) سورة مريم ، آية ٢٤

(٢) المهد كالمهاد بمعنى الفراش الممهد للنوم ، ثم خص بما ينام فيه الطفل ويقر فيه .

(٣) سورة مريم ، آية ٣٠

(٤) سورة الأنبياء ، آية ٧٩ . آتيناه حكما :أى معرفة بموجب الحكومة .وعلما:بسائر القضايا الشرعية. قال فى نسيم الرياض: فهذا وأشباهه مما يدل على أنها أمور جبلية غير كسبية.

(٥) قال فى نسيم الرياض (١ ـ ٦٠٢): قصة المرجومة كما حكاها التلمسالى أن امرأة كانت بارعة الجمال ـ وهى من أهل الدين ، ولها حق ، فرفعت أمرها لأحد قضاة بنى إسرائيل ، فلما رآها افتتن بها وراودها عن نفسها فامتنعت ؛ ثم ذهبت لثان وثالث ورابع فكل راودها عن نفسها ؛ فأتت نبى الله دواد فحجبت عنه ، فأجمع الأربعة أن يقولوا لداود : إن لها كلبا تمكنه من نفسها ويزنى بها ، ففعلوا فأمر برجمها فرجمت .

فبينما داود عليه السلام يوما فى علية له مشرفا على صبيان يلعبون مع سليمان ، وفيهم صبى جميل ، فجعلوا سليمان قاضيا ، والصبي كامرأة ذات حق وأربعة منهم قضاة ، وفعلوا مثل تلك القصة بعينها من المراودة والتهمة ؛ وذلك بمرأى من داود عليه السلام ـ كما فى قصة المرجومة ـ ففرقهم سليمان ، وقال لأحدهم : مالونه ؟ فذكر لونا ، ودعا كلا بانفراده فذكر كل منهم لونا مخالفا للآخر ؛ فأمر الصبيان فضربوهم .

فقال داود : لعل القضية هكذا ، فبعث للقضاة وسألهم عن لون الكلب على الانفراد ، فاختلفوا كالصبيان فأمر بهم فقتلوا . (وانظر أيضا القصة فى شرح القارى : ١ ـ ٢٢٦).

الصبي(١) ما اقتدى به داودُ أبوه .

وحكى الطبري أنَّ عمره كان حِينَ أُوتى المُلْكَ اثنى عشر عاما .

وكذلك قصةُ موسى مع فرعون وأَخْذُه بِلِحْيَته وهو طِفْل .

وقال المفسرون ـ فى قوله تعالى(٢) : ﴿ ولقد آتَيْنَا إبراهيمَ رُشْدَه(٣) من قَبْلُ ﴾ ؛ أى هدَيْناه صغيرا(٤) ؛ قاله مُجاهد وغيره .

وقال ابنُ عطاء : اصطفاه قبل إبداءِ خَلْقه .

وقال بعضهم : لمّا وُلِد إبراهيم عليه السلام بعثَ اللهُ تعالى إليه مَلَكا يأمره عن الله أَنْ يَعْرِفَه بِقَلْبه ، ويَذْكُره بلسانه ؛ فقال : قد فعلْتُ ، ولم يَقُلْ أفعل ؛ فذلك رُشْده(٥) .

---

(١) فى نسيم الرياض (١ ـ ٦٠٢) : وقصة الصبى رواها البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ قال: كانت امرأتان معهما ابنان لهما ، فأخذ ذئب أحدهما ، فتحاكما إلى داود عليه السلام ، فقضى به للكبرى . فدعاهما سليمان ، وقال : هاتوا سكينا أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها لا تشقه ، فقضى به لها لشفقتها عليه، ورضيت الأخرى بشقه لتتشاركا فى المصيبة. ونص الحديث فى :(صحيح مسلم:١٣٤٤ ،والبخارى : ٨ـ١٩٥). ثم قال الخفاجي : وهذا مما لاشبهة فى صحته . وأما الحديث الأول (قصة المرجومة) فالله أعلم بصحته ، وقد ورد فى الإسرئيليات على غير رواية ابن عساكر .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٥١

(٣) الرشد : الاهتداء لوجوه الصلاح .

(٤) هذا أحد التفاسير لقوله تعالى : من قبل . وقيل : قبل موسى وهارون . وقيل : قبل محمد عليه السلام .

(٥) يعنى عبر بالماضى الدال على وقوعه قبل أمره ؛ فيكون المعنى آتيناه رشده قبل أمره ، فيدل ذلك على أن الإيمان واشتغاله بذكر ربه أمر مجبول عليه ؛ وقيل : إنه بالغ فى الامتثال حتى عبر بالماضى عن الحال .

وقيل : إن إلقاءَ إبراهيم عليه السلام فى النارِ ومحنته[١] كانت وهو ابنُ ستّ عشر سنةً ، وإنَّ ابتلاء إسحاق[٢] بالذَّبح كان وهو ابنُ سبع سنين ؛ وإن استدلالَ إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابنُ خمسةَ عشر شهرا[٣] .

وقيل : أُوحِىَ إلى يوسف وهو صبىٌّ[٤] عندما همَّ إخوتُه بإلقائه فى الجُبِّ ، يقول اللهُ تعالى[٥] : ﴿ وأَوْحَيْنَا إليه لَتُنَبِّئَنَّهم[٦] بأمرهم هذا وهم لا يَشْعُرون ﴾ .

[٣٢] إلى غير ذلك مما ذَكَرْنَا من أخبارهم[٧] .

وقد حكى أهلُ السير أنّ[٨] آمنةَ بنتَ وَهْب أخبرت أنّ نبيَّنا محمدا صلى الله عليه وسلم وُلد حين وُلد باسطاً يديه إلى الأرض ، رافعا رأسَه[٩] إلى السماء .

وقال فى حديثه ــ صلى اللهُ عليه وسلم[١٠] : لمَّا نشأْتُ بُغِّضَتْ إلىَّ الأوثانُ ، وبُغِّضَ إلىَّ الشِّعْر ، ولم أَهُمّ بشىء مما كانت الجاهليةُ تفعلُه إلا مرتين[١١] ؛ فعصمنى اللهُ منهما ، ثم لم أَعُدْ .

---

(١) ومحنته : التى وقعت له مع نمرود .

(٢) قال فى نسيم الرياض : وهذا بناء على أن الذبيح إسحاق ، كما عليه أهل الكتاب وكثير من المفسرين والمحدثين . والمشهور ــ وهو مذهب الجمهور ــ أن الذبيح إسماعيل؛ وهو قول أكثر الصحابة ، كابن عباس ، وابن عمر ، ومعاوية ، وهو الظاهر .

(٣) فى ب : سنة ، وفى هامشه : الصواب شهرا .

(٤) وعن الحسن : وله سبع عشرة سنة .

(٥) سورة يوسف ، آية ١٥ (٦) لتنبئنهم : لتخبرن إخوتك .

(٧) من أخبارهم : أى أخبار الأنبياء الدالة على أنهم مجبولون على الكمال من ابتداء أمرهم فى صغرهم . (٨) مما يدل على هذه الصفة فى الأنبياء .

وهذا رواه ابن الجوزى فى الوفا ، عن أبى الحسين مرسلا .

(٩) فى ب : رافعا يديه ينظر إلى السماء .

(١٠) هذا الحديث رواه أبو نعيم فى الدلائل عن شداد بن أوس (الدلائل لأبى نعيم: ٢٣٦)

(١١) فى نسيم الرياض: (١ ــ ٦٠٩):وهذا إشارة إلى حديث صحيح رواه البزار مسندا عن على كرم الله وجهه ، ولفظه : ماهممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين =

ثم يتمكَّنُ الأمْرُ لهـــم ، وتَترادَفُ نفحاتُ اللهِ عليهم[١] ، وتُشْرِقُ أنوارُ المعارفِ فى قلوبهم، حتى يَصِلوا الغايةَ،ويَبْلُغوا ـ باصطفاء اللهِ تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل هذه الخِصالِ الشريفة ـ النهايةَ دُونَ مُمارسة ولا رِياضة[٢] ؛ قال الله تعالى[٣]: ﴿ولما بلغَ أشُدَّه آتيناهُ حُـكْماً وعِلْماً[٤] ﴾ .

وقد نجدُ غيرهم يُطْبَع على بعض هذه الأخلاق دونَ جميعها ، ويُولَدُ عليها ، فيسهلُ عليه اكتسابُ تمامِها عنايةً من الله تعالى ، كما نشاهِدُ من خِلْقةِ بعضِ الصبيان على حُسْنِ السَّمْت، أو الشهامة[٥] ، أو صِدْق اللسان، أو السَّماحة ؛ وكما نَجِدُ بعضهم على ضِدِّها ؛ فبالاكتساب يكمُلُ ناقِصُها ، وبالرياضة والمجاهدة يُستَجْلَبُ[٦] معدومُها،

= كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد؛ ثم ماهممت بعدهما بشىء حتى أكرمنى الله تعالى برسالته.

ورواه الحاكم فى المستدرك بلفظ آخر : قلت ليلة لفتى من قريش كان بأعلى مكة يرعى غنما لأهله : أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الصبيان ، فجئت أدنى دار من دور مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، فقلت : ماهذا ؟ فقيل :فلان يتزوج فلانة . فلهوت بذلك الغناء وذلك الصوت حتى غلبتنى عينى ، فما أيقظنى إلا حر الشمس. ثم رجعت إلى صاحبى، فقال لى : مافعلت ؟ فأخبرته .

ثم فعلت الليلة الأخرى كذلك . والله ماهممت بغيرهما مما تفعله الجـاهلية . قال فى نسيم الرياض : وروى أن الله ألقى عليه النوم فى المرتين صيانة له ، وليس فى هذا ارتـكابه لمحرم. وكذلك جاء فى شرح القارى : ١ ــ ٢٢٩

(١) لهم : أى للأنبياء . ويتمكن : يقر ويثبت . والمراد بالأمر ماأودع فيهم من الـكمال. وتترادف : المراد تتوالى . والنفحات : جمع نفحة ، وهى بمعنى الهبة والعطية .

(٢) دون ممارسة : أى من غير تـكرار عمل ومزاولته . والرياضة : التمرين فى العمل .

(٣) سورة يوسف ، آية ٢٢ (٤) حكما : نبوة . وعلما: معرفة بالدين وسياسة الأمة .

(٥) السمت : الطريقة ، وهيئة أهل الخير . يقال : ما أحسن سمته . أى هديه وسيرته . والشهامة : حدة الفؤاد والذكاء والجلادة والنفاذ فى الأمور . يقال :رجل شهم إذا كان سيدا نجيبا نشيطا فى اكتساب المعالى ، وعدم الالتفات للملاحاة والخصومة .

(٦) يستجلب : يكتسب ويحصل لمن لم يطبع على شىء منها وطبع على ضدها .

ويعتدلُ مُنْحَرِفُها ، وباختلاف[١] هذين الحالين يتفاوتُ الناسُ فيها[٢] . وكلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له[٣] . ولهذا ما [قد][٤] اختلف السلفُ[٥] فيها : هل هذا الخُلق جِبِلَّة أو مُكْتَسبة[٦] ؟

فحكى الطبريّ عن بعض السَّلف أنَّ الخلُقَ الحسن جِبِلَّةٌ وغريزة في العَبْد، وحكاه عن عَبْدِ الله بن مسعود ، والحَسَن ، وبه قال هو .

والصواب ما أصَّلْناه[٧] .

وقد رَوى سعدٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : كلُّ الخِلَال[٨] يُطْبَع عليها المؤمن إلا الخيانةَ والكذب[٩] .

وقال عُمر بن الخطاب رضيَ الله عنه في حديثه : والجُرْأة ، والجُبْن[١٠] غرائز يضَعُها اللهُ حيث يشاء .

وهذه الأخلاقُ المحمودة والخِصَال الجميلة[١١] كثيرةٌ ، ولكنا نذكر أصولها ، ونُشير إلى جميعها ، ونحقِّقُ وَصْفَه صلى الله عليه وسلم بها إن شاء الله تعالى .

---

(١) هذين الحالين : أي الجبلي والكسبي . (٢) فيها : أي في الصفات الحميدة .

(٣) هذا بعض من حديث صحيح : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . . . وهو في صحيح مسلم: ٢٠٤١، وميسر: معد مهيأ . (٤) ليس في ب . (٥) السلف : من تقدم من العلماء .

(٦) الخلق: أي الحسن الذي يحمد به الناس. وهذا في ب . وفي ا : جبله أو مكتسبه... ـ بالهاء .

(٧) ما أصلناه : قدمناه وجعلناه أصلا وقاعدة ؛ من أن منها ماهو جبلة غير مكتسبة ، ومنها ماهو مكتسب بالعلم والرياضة . (٨) الخلال : الخصال والصفات .

(٩) في نسيم الرياض (١ – ٦١٣) :هو حديث صحيح رواه أحمد في مسنده، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن أبي شيبة في المصنف. والخيانة : ضد الأمانة . يعني أن هذين لا يكون كل منها طبيعة مخلوقة في المؤمن مطلقا ؛ لأن المؤمن جبلته وفطرته سليمة ، وهاتان الخصلتان في غاية القبح . (١٠) الجبن : عدم الإقدام للخوف .

(١١) عليها علامة الصحة في ا ، وأمامها في هامشه : الشريفة .

فصـــل

[في بيان أصول هذه الأخلاق وتحقق وصف النبي بها[١]]

أمّا أَصلُ فروعها[٢] ، وعُنْصُر ينابيعها[٣] ، ونُقْطة دائرتها ـ فالعقلُ الذى منه ينبعثُ[٤] العِلْمُ والمعرفةُ ، ويتفرّع عن هذا ثقُوبُ[٥] الرأى ، وجَوْدةُ الفِطْنة[٦] ، والإصابةُ ، وصِدْقُ الظنّ ، والنظرُ للعواقب ومصالح النفس ، ومجاهدةُ الشهوة[٧] ، وحسنُ السياسةِ والتدبير ، واقتناء الفضائل[٨] ، وتجنُّب الرذائل .

وقد أشرنا إلى مكانه[٩] منه عليه السلام ، وبلوغِهِ منه ومن العِلم الغايةَ التى لم يبلغها بَشَرٌ سواه ، وإذ جَلالةُ محلّه من ذلك ، ومما تفرّع منه[١٠] ـ متحقّقٌ[١١] عند من تتبّع مجارِىَ أحواله[١٢] ، واطِّرادَ سِيَره ، وطالعَ جوامع كلامِه[١٣] . وحُسْنَ شمائله ، وبدائعَ سِيره ، وحِـكَم حديثِهِ ، وعِلْمَه بما فى التوراة والإنجيل والـكتبِ المنزّلة ، وحِـكَمِ الحكماء ، وسِيَرِ الأمم الخالية[١٤] ، وأيامها[١٥] وضَرْبِ الأمثال ،

(١) هذا الفصل معقود لبيان أصول الأخلاق صريحا،والإشارة إلى جميعها تلويحا،لتحقق وصفه صلى الله عليه وسلم بها توضيحا .

(٢) فروعها : أى الأخلاق . (٣) عنصر : أصل . (٤) ينبعث : ينشأ ويخرج .

(٥) ثقوب الرأى : نفاذ الرأى فيما يفـكر فيه ويدرك به عواقب الأمور .

(٦) الفطنة : الحذق ، وحسن الفهم .

(٧) مجاهدة الشهوة : مدافعتها وممانعتها عما تريده ؛ فإنه جهاد أكبر .

(٨) اقتناء الفضائل : اكتسابها والتحلى بها .

(٩) إلى مكانه منه : إلى مكان النبي ومحله من كمال العقل .

(١٠) ما تتفرع منه من الأخلاق الشريفة وثمراتها . (١١) هذا فى ا ، ب .

(١٢) مجارى أحواله : المراد ماجرت به عادته فى أحواله .

(١٣) جوامع كلامه : الـكتب الجامعة للحديث الشريف . أو كلماته الجامعة للحـكم التى تتحير فيها عقول البلغاء والحـكماء .

(١٤) الخالية : الماضية . (١٥) وأيامها : أى وقائعها فى حروبها ومجادلاتها .

وسياسات الأنام[١] ، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب[٢] النفيسة،والشِّيَم الحميدة[٣] إلى فنون العلوم التى اتخذ أهلُها كلامَه عليه السلام فيها قدوةً ، وإشاراتِه حجّةً ؛ كالعبارة[٤]، والطبّ ، والحسابِ ، والفرائض ، والنَّسَب[٥] ، وغير ذلك مما سنُبيِّنُه فى معجزاته إن شاء الله ، دون تعليم ولا مُدَارسة[٦] ، ولا مطالعة كتُب مَنْ تقدّم ، ولا الجلوس إلى علمائهم؛ بل نَبىٌّ أمىٌّ[٧] لم يُعْرَف بشىء [٣٣] من ذلك، حتى شرح اللهُ صدْرَه، وأبَانَ أمْرَه ، وعلَّمه ، وأقْرأه[٨] ، يُعلَمُ ذلك[٩] بالمطالعة والبحث عن حاله ضَرورةً، وبالبرهان القاطع على نبوته نظراً ؛ فلا نُطَوِّلُ بسَرْدِ[١٠] الأقاصيص ، وآحادِ القضايا ؛ إذ مجموعُها مالا يأخذه حَصْر ، ولا يُحيط به حِفْظُ جامع ، وبحَسَبِ عَقْله كانت معارفُه صلى اللهُ عليه وسلم إلى سائر ما علّمه اللهُ تعالى ، وأطلعه عليه مِنْ عِلْمِ ما يكون وما كان ، وعجائِب قدرتِه ، وعظيم ملَكُوتِه[١١] ، قال تعالى[١٢] : ﴿ وعلَّمكَ ما لم

---

(١) الأنام : الخلق .

(٢) وتأصيل :وتأسيس؛أى بيان أصول الآداب التى تتأدب بها الناس فى مجالسهم ومحاوراتهم.

(٣) والشيم الحميدة : الشيم : جمع شيمة ؛ وهى العادة ، والخلق .

(٤) العبارة : المراد تعبير الرؤيا . وفى ا : العبادة ــ بالدال .

(٥) الفرائض : علم يعرف به أحوال المواريث . والنسب : معرفة أنساب الناس .

(٦) ولا مدارسة : أى لم يعرفه بأخذه من الأفواه وحفظه لشىء من العلوم عن غيره .

(٧) الأمى : منسوب إلى الأم ؛ لأنه كيوم ولدته أمه : من غير قراءة وكتابة ؛ أو إلى أم القرى . أو أمة العرب ؛ لأن القراءة والكتابة كانت عزيزة فيهم . والأمى : الذى لا يكتب ولا يقرأ الكتب .

(٨) أقرأه : أقدره على القراءة بما أوحاه إليه بواسطة الملك؛ إذ قال الله له: اقرأ وربك الأكرم...

(٩) يعلم ذلك : أى ما بلغه صلى الله عليه وسلم من العقل والعلم من غير تعلم .

(١٠) السرد : تعداد أمور من القصص ونحوها متتابعة متوالية .

(١١) المراد ما أطلعه الله عليه فى الإسراء من خلق الملائكة والسموات وإقداره على ذلك فى برهة من الزمن .

(١٢) سورة النساء ، آية ١١٣

تـكُنْ تَعلَمُ ، وكان فَضْلُ اللهِ عليكَ عظيماً[١] ﴾ .

حارت العقولُ فى تقدير[٢] فَضْله عليه ، وخَرِسَت الألسن دونَ وصْفٍ يحيط بذلك أو ينتهى إليه .

فصل

وأما الحِلْمُ[٣] والاحتمالُ ، والعفْوُ مع القدرة ، والصبْرُ على ما يُـكْرَه ؛ وَبَيْنَ هذه الألقابِ فرقٌ ، فإنّ الحلْمَ حالةُ توقُّر[٤] وثَباتٍ عند الأسباب المحرِّكات[٥] .
والاحتمالُ[٦] : حبْسُ النفسِ[٧] عند الآلام والمؤذيات . ومِثْلُها الصبر ، ومعانيها متقاربةٌ .

وأما العفْوُ فهو تَرْكُ المؤاخذة[٨] .

وهذا كلُّه مما أدّب اللهُ تعالى به نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، فقال[٩] : ﴿ خُـــذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عن الجاهلين[١٠] ﴾ .

رُوِىَ[١١] أنّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هذه الآيةُ سأل جبريل عليه السلام عن تَأْوِيلها[١٢] ، فقال له : حتى أَسْأَل العالِمَ[١٣] .

---

(١) أى علمك ما لم يكن من شأنك ومما لم يكن فى قدرتك علمه .
(٢) فضله عليه المذكور فى الآية السابقة .
(٣) الحـلم : ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب وعدم إظهاره .
(٤) توقر : إظهار الوقار ، وهو السكون .   (٥) الأسباب المحركات ، كالغضب مثلا .
(٦) ضبطت اللام في ب بالفتحة والضمة وعليها « معا » .
(٧) المراد بحبس النفس ضبطها حتى تخضع لسلطان العقل وتطمئن لما يأمرها به .
(٨) المؤاخذة : الجزاء على مافعل غيره .   (٩) سورة الأعراف ، آية ١٩٩
(١٠) العفو: المساهلة والمسامحة . والعرف: المعروف. وأعرض عن الجاهلين : بترك المقابلة.
(١١) هذا الحديث ـ كما قال السيوطى ـ رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ، فى تفاسيرهم.
(١٢) عن تأويلها : عن تفسيرها .   (١٣) يعنى الله عز وجل .

ثم ذهب فأتاه[(١)]، فقال : يا محمدُ ، إنّ اللهَ يأمرك أن تَصِلَ مَنْ قطعكَ ، وتُعْطِيَ مَنْ حرمك ، وتعْفوَ عمّنْ ظلمك .

وقال له[(٢)] : ﴿ واصْبِرْ على ما أصابكَ ، إنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ .

وقال تعالى[(٣)] : ﴿ فاصْبِرْ كما صبَرَ أُولو العَزْم من الرُّسل ﴾ .

وقال[(٤)] : ﴿ ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّون أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم ﴾ .

وقال[(٥)] : ﴿ ولمَنْ صبَر وغفَر إنّ ذلكَ لمِنْ عَزْمِ الأُمور[(٦)] ﴾ .

ولا خفاءَ بما يُؤْثَر[(٧)] من حِلْمِه واحتماله ، وأنّ كلّ حليم قد عُرِفَتْ منه زَلّة[(٨)] ، وحُفِظَتْ عنه هَفْوة[(٩)] ، وهو صلى الله عليه وسلم لا يزيدُ مع كَثْرة الأَذى إلا صَبْرا ، وعلى إسراف الجاهِل[(١٠)] إلا حِلْما .

حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن على التّغْلبى[(١١)] وغيره ، قالوا : حدثنا محمد ابن عتّاب ، حدثنا أبو بكر بن وافد[(١٢)] القاضى وغيره ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا

---

(١) فى ب : ثم أتاه .

(٢) سورة لقمان ، آية ١٧ . من عزم الأمور ؛ أى مفروضاتها وواجباتها التى لا رخصة فى إهمالها لأرباب كمالها .

(٣) سورة الأحقاف ، آية ٣٥ ، وأولو العزم : أصحاب الثبات والحزم من الرسل .

(٤) سورة النور ، آية ٢٢ (٥) سورة الشورى ، آية ٤٣

(٦) لمن عزم الأمور : من أهم الأمور التى ينبغى التصميم والعزم عليها .

(٧) يؤثر : ينقل ويروى من حلمه وتحمله للأذى ، فإنه شائع غير خفى على أحد .

(٨) الزلة : السقطة والخطيئة . (٩) هفوه : سقطة .

(١٠) المراد بالجاهل هنا السيئ الخلق المجازف فى أموره ، فهو خلاف الحلم . والإسراف : الزيادة ومجاوزة الحد .

(١١) فى ا : الثعلبى . والتغلبى فى ب ، عليها علامة الصحة . وقال القارى (١ — ٢٣٦) : وقع فى بعض النسخ بالثاء المثلثة والعين المهملة ؛ وهو تصحيف فى المبنى وتحريف .

(١٢) بالفاء ، وعليها علامة الصحة فى ا ، ب .

عُبيد الله ، قال : حدثنا يحيى بن يحيى ،حدثنا مالك ، عن ابن شهاب ، عن عُرْوَة ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت [١] : ما خُيِّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قطُّ إلا اختار أيْسَرهما [٢] ما لم يكن إثْما ، فإن كان إثْما [٣] كان أبعدَ الناسِ منه ، وما انتقم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لنفسه [٤] إلا أن تُنْتَهَكَ حُرْمةُ ٱللهِ تعالى ، فينتقم للهِ [٥] بها .

ورُوى أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لما كُسِرتَ رَبَاعِيَتُهُ [٦] وشُجَّ وَجْهُهُ [٧] يوم أُحُد شَقَّ ذلك على أصحابه شديدا ، وقالوا : لو دعَوْتَ عليهم ! فقال : إنى لم أُبْعَث لَعَّاناً [٨] ، ولكنى بُعِثْت داعيا ورحمة [٩] . اللهُمَّ اهْدِ قومى فإنهم لا يَعْلَمُون .

ورُوى عن عُمر رضى [١٠] الله عنه أنه قال فى بعض [١١] كلامِه : بأَبِى أنْتَ وأُمّى يارسولَ الله [١٢] ! لقد دعا نوحٌ على قومه ، فقال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ على الأَرْضِ من

(١) الحديث فى الموطأ : ٩٠٣ ، والبخارى : ٤ — ٢٣٠ ، ومسلم : ١٨١٣

(٢) فى هذا الحديث الأخذ بالأسهل والأرفق . ما لم يكن حراما أو مكروها .

(٣) أى موجب إثم من حرام أو مكروه .

(٤) أى لايعاقب أحدا بتقصير وقع منه فى حقه هو .

(٥) حرمة الله : ماحرمه وجعله محرما ممنوعا . وانتهاكه : التعدى والتجاوز فيه . والحديث فى صحيح مسلم : ١٨١٣ ، ١٨١٤

(٦) رباعيته : سن بين الثنية والناب . والرباعيات أربع . وقد كسرها عتبة بن أبى وقاص .

(٧) شج وجهه : الشجة : جراحة فى الوجه أو الرأس . وقد شجه عبد الله بن شهاب الزهرى . وارجع فى تفصيل ذلك إلى سيرة ابن هشام : ٣ — ٢٧ ، ٢٨ إن أردت .

(٨) لعانا : داعيا على الناس بالطرد والبعد عن رحمه الله .

(٩) داعيا ورحمة : أى داعيا للناس إلى الله ، ورحمة للناس أجمعين ، بإخراجهم من الكفر للإيمان ، وبتأخير العذاب عمن كفر ؛ لالطردهم عن رحمة الله ، وإبعادهم عنه . والحديث فى صحيح مسلم : ٢٠٠٦ ، وصحيح البخارى : ٨ — ١٥

(١٠) قال السيوطى : إن هذا لا يعرف عن عمر فى شىء من كتب الحديث .

(١١) أى حين رأى ما أصابه صلى الله عليه وسلم من كسر رباعيته وشجه فى غزوة أحد .

(١٢) معناه : إنى أجعل أبوى فداء دونك وأبذلهما فى حمايتك .

الـكافرين دَيّاراً[١] ﴾ . ولو دعوتَ علينا مثلَها لهلَـكْنا من عند آخِرنا[٢] ، فلقد وُطِئَ ظهرُكَ ، وأُدْمِيَ وجْهُك[٣] ، وكُسرت رَبَاعِيتُك ، فأبيتَ أَنْ تقولَ إلا خيراً ، فقلْتَ : اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لا يعلمون .

قال القاضى أبو الفضل[٤] وفقه الله : انظُرْ فى هذا القول من جِمَاع[٥] الفضل ، ودرجاتِ الإحسان ، وحُسْنِ الخلق ، وكرَمِ النفس ، وغايةِ الصبر [٣٤] والحِلْم ، إذْ لم يقتصِرْ صلى اللهُ عليه وسلم على السكوت عنهم حتى عَفَا عنهم ، ثم أَشْفَقَ[٦] عليهم ورَحِمهم ، ودعا وشفَع لهم ، فقال : اغْفِرْ ، أو اهْدِ ، ثم أظهر سبَبَ الشفقةِ والرحمة بقوله : لِقَوْمى[٧] ، ثم اعتذر عنهم بجَهْلِهم ، فقال : فإنهم لا يَعْلَمون .

ولما قال له الرجل[٨] : اعْدِلْ ، فإنّ هذه قِسْمةٌ ما أُرِيد بها وَجْهُ الله ــ لم يزِدْهُ فى جوابه أن بَيّنَ له ما جَهِلَه .

ووعظ نَفْسَه ، وذكّرها[٩] بما قال له ، فقال : وَيْحكَ[١٠] فمن يَعْدِلُ إنْ لم أعدل ! خِبْتُ وخَسِرْتُ[١١] إن لم أعدل ! ونهى مَنْ أراد من أصحابه[١٢] قتْلَه .

---

(١) لاتذر : لاتترك . ديارا : أحدا . (سورة نوح ، آية ٢٦) .

(٢) لهلـكنا من عند آخرنا : المراد لهلـكنا من أولنا إلى آخرنا ؛ أى جميعنا .

(٣) أدمى وجهك : جرح وجهك وسال منه الدم . (٤) هو المؤلف .

(٥) جماع الفضل : مايجمع كل فضل . (٦) أشفق عليهم : أبدى شفقته ورحمته لهم .

(٧) فإن الطبع البشرى يقتضى العطف والحنو على الأهل والأقارب بأى حال كانوا .

(٨) هو ذو الخويصرة التميمى ، وهو حرقوص بن زهير . وفى صحيح البخارى : هو عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى . قال فى نسيم الرياض : الصواب أن والده هو القائل .

وهو حديث صحيح رواه مسلم : ٧٣٩ ، وأبو داود : ٢ ـ ١٨٥ ، والبخارى : ٨-٤٧ وأخرجه البيهقى أيضا . (٩) أي عدل عن وعظ القائل إلى وعظ نفسه ؛ وهو نهاية الحلم .

(١٠) ويح : كلمة ترحم وتوجع لمن وقع فيما لا يرضى . أو كلمة مدح وتعجب . فترحمه لما خالف رضاء الله تعالى عليه ، أو تعجب من صدور مثله من مسلم .

(١١) ضبطت التاء فى « خبت » ، و « خسرت » ـ بالضم والفتح ، فى ا ، ب ، وعلى كل منها فى النسختين « معا » . وفى هامش ا : الصواب بالفتح .

(١٢) عمر بن الخطاب هو الذى أراد قتله وقيل : خالد بن الوليد .

ولمّا تصدّى(١) له غَوْرَث بن الحارث ليَفْتِكَ به(٢) ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُنْتَبِذٌ(٣) تحت شجرةٍ وحْدَه قائلا ، والناسُ قائلون(٤) ، فى غَزَاةٍ ، فلم يَنْتَبِهْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم والسيف صَلْتاً(٥) فى يده ، فقال : مَنْ يَمْنَعُكَ منى ؟ فقال : الله . فسقَط السيفُ مِنْ يده ، فأخذه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال: من يَمْنَعُكَ منى ؟ قال : كُنْ خَيْرَ آخذٍ(٦) ، فتركه وعفا عنه . فجاء إلى قومه فقال : جئتُكم مِنْ عند خَيْرِ(٧) الناسِ .

ومِنْ عظيم خَبَرِه فى العَفْوِ عَفْوُه عن اليهودية(٨) التى سَمَّتْه فى الشاة بعد اعترافها ـ على الصحيح من الرواية. وأنه لم يؤاخِذْ لَبيد بن الأعْصَم(٩) إذ سحره ، وقد أُعلم به وأُوحى إليه بشَرْح أمره ، ولا عتَب عليه فضلا عن معاقبته .

وكذلك لم يؤاخِذْ عبدَ الله بن(١٠) أبىّ وأشباهَه من المنافقين بعظيم ما نُقل عنهم فى جهته قولا وفعلا ؛ بل قال لمن أشار بقتل(١١) بعضهم : لا يُتحدَّثُ أن محمدا يقتل أصحابه .

---

(١) تصدى : تعرض .

(٢) هذه القصة كانت فى غزوة ذات الرقاع فى السنة الرابعة من الهجرة .

(٣) منتبذ : جالس فى ناحية منفرد .

(٤) قائلا : أى مستريحا فى وقت القيلولة ، وهى وسط النهار إذا اشتد الحر .
والناس قائلون : أى كل منهم فى قيلولة منفردا عن أصحابه .

(٥) صلتا : مسلولا مجردا من غمده .

(٦) غير آخذ : أى خير رجل أخذ خصمه وتمكن منه فتكرم عليه ، أى متصفا بالحلم والعفو والكرم .

(٧) صحيح مسلم : ١٧٨٦، والبخارى : ٥ ـ ١٤٧ ، ٤ ـ ٤٨

(٨) هى زينب بنت الحارث بن سلام ، وحديثها فى « أبو داود » : ٢ ـ ١٥٩

(٩) هو رجل من بنى زريق، وهم بطن من الأنصار وحديث هذا السحر فى البخارى: ٧-١٧٦

(١٠) كان رأس المنافقين .

(١١) هو عمر بن الخطاب .

وعن أنس رضِيَ الله عنه[١] : كنتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرْدٌ[٢] غليظ الحاشيةِ ، فجَبَذَه الأعرابى[٣] بردائه جَبْذَةً شديدة حتى أثَّرت حاشيةُ البُرْدِ فى صفحة عاتِقِه[٤] ، ثم قال : يا محمد ، احْمِلْ لى على بعيرىّ هذين مِنْ مالِ آللهِ الذى عندك ، فإنك[٥] لا تَحمِلُ لى من مالكَ ومالِ أبيك .

فسكت النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : المالُ مالُ الله ، وأنا عَبْدُه[٦] ، ثم قال : ويُقَادُ[٧] منكَ يا أعرابىّ ما فعلتَ بى . قال : لا . قال : لِمَ ؟ قال : لأنكَ لا تُكافِئ بالسيئة السيئةَ .

فضحك النبىّ صلى اللهُ عليه وسلّم ؛ ثم أمر أن يُحْمَل له على بعير شعيرٌ ، وعلى الآخر تمرٌ .

قالت عائشةُ رضى الله عنها : مارأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منتصرا[٨] من مَظْلَمَة ظُلِمها قطُّ مالم تكن حُرْمةً من محارم الله . وما ضرب بيده شيئا قطُّ إلا أن يُجاهِدَ فى سبيل الله وما ضرب خادما قطُّ ولا امرأةً .

---

(١) قال السيوطى : هذا الحديث رواه الشيخان إلى قوله الآتى: من مال الله الذى عندك. قال : فضحك وأمر له بعطاء . وأخرجه بلفظ المصنف البيهقى فى الأدب من حديث أبى هريرة. وارجع إلى الحديث أيضا فى سنن النسائى : ٨ — ٣٠ ، وأبو داود : ٢ — ١٨٥

(٢) برد : كساء كانت العرب تلتحف به . والحاشية : جانب الثوب .

(٣) جبذه : جذبه . وفى ب : أعرابى .

(٤) صفحة عاتقه : الصفحة : الجانب . والعاتق : ما بين العنق والكتف .

(٥) لاتحمل لى : لا تعطينى .

(٦) وأنا عبده : أتصرف فى ماله بإذنه ،وأعطى من يأمرنى بإعطائه . وهذا ألطف رد.

(٧) يقاد منك : ويقتص منك ؛ والمراد تجازى على ترك أدبك .

(٨) منتصرا : منتقما وناصرا لنفسه على غيره .

وجيء إليه برجل[(١)]، فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لن تُرَاعَ، لن تُرَاعَ[(٢)]، ولو أردتَ ذلك لم تسلَّطْ عليّ[(٣)].

وجاءه زيد بن سَعْنَة[(٤)] قبل إسلامه يتقاضاه دَينا عليه، فجَبَذَ ثوبَه عن مَنْكِبِه، وأخذ بمجامع ثيابِه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم، يا بنى عبد المطلب، مُطْل[(٥)]، فانتهره[(٦)] عُمر، وشدَّد له فى القول، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يتبسم.

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أنا وهُوَ كُنَّا إلى غير[(٧)] هذا أحْوج منك يا عمر، تأْمرنى بحُسْنِ القضاء، وتأمره بحُسْن التقاضى[(٨)].

ثم قال: لقد بقِيَ من أجَله ثلاثٌ، وأمر عُمر يَقْضِيه[(٩)] مالَه ويزيده عشرين صاعا لما رَوَّعَه[(١٠)]؛ فكان سببَ إسلامه.

---

(١) قال السيوطى: هذا الحديث أخرجه أحمد، والطبرانى بسند صحيح؛ ولم يسميا الرجل.

(٢) لن تراع: أى لا تخف منى ولا من غيرى، وكرره ليطمئن قلبه. والروع: الخوف والفزع.

(٣) لم تسلط على: لأن الله عصمنى، فلن ينالنى ما أردته أنت ولا غيرك.

(٤) هو حبر من أحبار اليهود. وفى ب: سمنة، وسعية، وعليها « معا ». وفى ا: سعنة، وفوقها « معا » أيضا. وفى هامشه: سمنة ـ بالنون، وكان من أحبار يهود، وبنو سعية ـ بالياء باثنتين: من أهل الكتاب أيضا.

وأسيد بن سعية منهم، رويت عنه المغازى، وهو من أسلم، وعنه يروى ابن إسحاق. ويقال فى زيد بن سعية ـ بالياء أيضا، والدارقطنى ذكره بالنون.

(٥) مطل: جمع ماطل، ومطول. والمطل: التطويل فى تأخير الحق، أو خلف الوعد فيه مرارا، والتسويف فى العدة والدين.

(٦) انتهره: زجره، والانتهار: الإغلاظ فى القول مع صياح.

(٧) إلى غير هذا: أى غير هذا المقال.

(٨) بحسن التقاضى: الطلب بلطف.

(٩) فى ب: يقضيه ـ بكسر الضاد، وبتشديده.

(١٠) لما روعه: أى لأجل ترويع عمر وتخويفه له.

وذلك أنه كان يقول(١) : ما بَقِيَ من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفْتُها في(٢) محمد إلا اثنتين لم أخبُرْهما(٣) : يسبقُ حِلْمُه جهله [٣٥] ، ولا تزيده شدّةُ الجهل إلا حِلْما . فاختبره(٤) بهذا ، فوجده كما وُصِف .

والحديثُ عن حِلْمه عليه السلام وصَبْرِه وعَفْوِه عند القدرة(٥) أكثرُ من أن نأتيَ عليه ، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح والمصنَّفات الثابتة إلى ما بلغ متواترًا مبْلَغَ اليقين : مِنْ صبره على مُقَاساة(٦) قريش ، وأذى الجاهلية(٧) ، ومُصابرته الشدائدَ الصعبةَ معهم إلى أن أظفره(٨) اللهُ عليهم، وحكّمه فيهم، وهم لا يشكُّون في استئصال شأفتهم(٩) ، وإبادة خَضْرائهم(١٠) ؛ فما زاد على أنْ عفا وصفح، وقال: ما تقولون(١١) أنّي فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خَيْراً ؛ أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم ، فقال : أقولُ كما قال أخي يوسف :﴿ لا تثْرِيبَ(١٢) عليكُمُ اليومَ يَغفِرُ اللهُ لكم وهو أرْحمُ الرَّاحِمين ﴾ ، اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء(١٣) .

---

(١) كان يقول: الذى كان يقول هو زيد بن سعنة اليهودى المتقدم . (٢) فى ب : من .

(٣) لم أخبرهما : لم أعرفها . (٤) فى ب : فاختبرته بهذا فوجدته كما وصف .

(٥) فى ب : القدرة . (٦) مقاساة قريش : المقاساة : معالجة أمور صعبة شاقة بحيث لا يتحمل مثلها ، وهذا فى أول بعثه .

(٧) وأذى الجاهلية : أى أذى أهل الجاهلية ، وهم الكفار . (٨) فى ب : أظهره .

(٩) استئصال شأفتهم : الاستئصال : قطع الشىء من أصله وإزالته بالكلية . والشأفة : قرحة تخرج فى أصل القدم فتكوى فتذهب . والمراد : إهلاكهم أجمعين .

(١٠) وإبادة خضرائهم : الإبادة : الإهلاك . والخضرة كالسواد تطلق على الناس والقوم . والمراد هلاكهم جميعا، وتفريق جمعهم . والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم ظفر بهم فى حال تيقنوا هلاكهم بأسرهم بحيث لا يبقى منهم أحد . (١١) ما تقولون : ماتظنون .

(١٢) سورة يوسف ، آية ٩٢ . والتثريب : التعيير والتوبيخ ؛ أى لا أوبخكم وأعيركم بما يخجلكم . أو لاعتب عليكم .

(١٣) الطلقاء : جمع طليق، وهو الأسير يطلق ويخلى سبيله . وقد قال النبى هذا القول لما فتح مكة . وارجع ـ فى ذلك ـ إلى سيرة ابن هشام : ٤ ـ ٣٢ إن أردت .

وقال أنس : هبط ثمانون رجلا من التَّنْعِيم (١) صلاةَ الصبح لِيَقْتلوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأُخِذوا ، فأعتقهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل اللهُ تعالى (٢) : ﴿ وهو الذى كَفَّ أيْدِيَهُمْ عنكم وأيْدِيَكُم عنهم ببطْنِ مكّةَ مِنْ بعدِ أنْ أظْفَرَكم عليهم (٣) ، وكان اللهُ بما تعملونَ بَصِيرا ﴾ .

وقال لأبى سُفيان ـ وقد سِيقَ إليه بعد أن جلَب إليه الأحزابَ (٤) ، وقتل عمّه وأصحابَه ومَثَّلَ بهم (٥) ؛ فعفا عنه ، ولاطَفَه فى القــول : ويحَكَ يا أبا سفيان ! ألَمْ يَأْنِ (٦) لك أنْ تعلمَ أنْ لا إله إلا الله : فقال : بأَبِى أنتَ وأُمّى ! ما أحْلَمَكَ وأوْصلاك وأكرمكَ ؟

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبعدَ الناسِ (٧) غضَبا ، وأسْرعهم (٨) رِضاً ، صلى الله وسلّم .

---

(١) التنعيم : موضع على أربعة أميال من مكة ، وهو طرف الحرم من جهة المدينة .

(٢) سورة الفتح ، آية ٢٤

(٣) بطن مكة : الحديبية . أظفركم عليهم : أظهركم ونصركم عليهم .

قال السيوطى : وحديث أنس هذا رواه مسلم والترمذى وأبو داود .

(٤) جلب : ساق وجمع . الأحزاب : جمع حزب : الناس المجتمعة من قبائل شتى للحرب ، وذلك فى غزوة الخندق .

(٥) مثل بهم : شوه خلقتهم بقطع الأطراف وشق البطن وإخراج القلب ونحوه . وكان قتل عمه فى أحد .

وقاتل حمزة هو وحشى بن حرب ، والتى مثلت به زوجة أبى سفيان هند ؛ ونسب هذا وذاك لأبى سفيان ؛ لأنه الباعث عليه والسبب لذلك القتال والمهيج له .

(٦) ألم يأن لك : ألم يدن وقت علمك ؟

(٧) أى غضبه بعيد لايكون منه إلا بعد أمور كثيرة ، بخلاف رضاه فإنه يرضى بأقل شىء .

(٨) فى ا : وأسرعه ، وعليها علامة الصحة . وفى الهامش أمامها : وأسرعهم ، وعليها علامة الصحة أيضا .

فصل

وأما الجودُ والكرمُ ، والسخاء والسَّماحةُ - فمعانيها متقاربة . وقد فرّق بعضهم بينها بفروق ؛ فجعلوا الكَرَم الإنفاقَ بطيبِ النفس فيما يعظُم خَطَره[1] ونَفْعُه ، وسمَّوْه أيضا حُرِّية[2] ، وهو ضدُّ النَّذَالَة[3] .

والسماحةُ : التَّجَافى[4] عما يستحقُّه المرء عند غيره بطيب نَفْس ، وهو ضدُّ الشَّكَاسَة[5] .

والسخاء : سهولةُ الإنفاق ، وتجنُّبُ اكتسابِ ما لا يُحْمَد ، وهو الجود ، وهو ضدُّ التَّقْتِير[6] .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يُوَازَى فى هذه الأخلاقِ الكريمةِ ، ولا يُبَارَى[7] ، بهذا وصفَه كلُّ مَنْ عرفه .

حدثنا القاضى الشهيد أبو على الصَّدَفى رحمه الله ، حدثنا القاضى أبو الوليدِ الباجِىُّ ، حدثنا أبو ذَرّ الهرَوِى ، حدثنا أبو الهيثم الكُشْمَيْهَنِى[8] ، وأبو محمد السَّرْخَسِى ،

---

(١) يعظم خطره : خطره : قدره ووقعه .

(٢) فى نسيم الرياض (٢ - ٣٩) : أما تسمية الكرم حرية فلأن الحر خلاف العبد ؛ فالحرية الخلاص من منن الناس ، فإذا طوقهم مننه خلصت له الحرية ، لأن الإنسان عبد الإحسان .

(٣) النذالة : الخسة والحقارة ، وهى من لوازم البخل المقابل للكرم .

(٤) التجافى : التباعد والترفع .

(٥) الشكاسة : سوء الخلق . وقيل : البخل . وفى هامش ب : أى صعب الخلق .

(٦) التقتير : التضييق فى الإنفاق . قال الشهاب (٢ - ٤٠) : واعلم أن كلام المصنف هنا غير موافق للغة ولا للعرف ، ولا أدرى من أين أخذه ؛ فالمعروف فى اللغة أن الجود ضد البخل . والتقتير : التضييق فى الإنفاق ، وهو ضد الإسراف والتبذير .

(٧) لايوازى : لايساوى ولا يقابل . ولا يبارى : لايعارض . والمعارضة : أن تفعل مثل ما يفعل .

(٨) هذا الضبط فى ا ، ب . وضبطه اللباب ، والشهاب (٢ - ٤٠) بكسر الميم .

وأبو إسحاق البَلْخِي ؛ قالوا : حدثنا أبو عبد الله الفِرَبْرِي ؛ قال : حدثنا البُخَارى، قال : حدثنا محمد بن كَثِير ، حدثنا سفيان ، عن ابن المُنْكدر، سمعتُ جابر بن عبد الله يقول : ما سُئل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن شيء[١] فقال : لا[٢] .

وعن أنس ، وسَهْل بن سعد مثلُه .

وقال ابنُ عباس : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس بالخير[٣] ، وأجود ما كان[٤] فى شَهْرِ رمضان ، وكان إذا لَقِيَه جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخير من الرِّيحِ[٥] المُرْسَلة .

وعن أنس أنَّ رجلا[٦] سأله فأعطاه غَنَما بين جَبَلَيْن[٧] ، فرجع إلى بلده[٨] ، وقال : أَسْلِموا ؛ فإنَّ محمدا يُعْطِى عطاء مَنْ لا يَخْشَى فاقَةً[٩] . وأعطى غَيْرَ واحد[١٠]

---

(١) عليها علامة الصحة فى ا ، وفى هامشه : شيئا وعليها « صح » ، و « معا » . وفى هامش ب : قال المزى : المعروف شيئا .

(٢) صحيح مسلم : ١٨٠٥ ، وفيه : شيئا .

(٣) بالخير : أى بما فيه نفع للناس .

(٤) فى ب : ما يكون . وفى هامشه : ما كان . وفى هامش ب : أجود بالرفع ، بل يتعين، وليس للنصب وجه مستقيم ، ذكره ابن الحاجب رحمه الله .

(٥) إرسال الرياح : إطلاقها بإذن الله . والحديث فى صحيح مسلم : ١٨٠٣ ، قال : المراد كالريح فى إسراعها وعمومها .

(٦) هو صفوان بن أمية الجمحى .

(٧) بين جبلين : مالئة واديا بين جبلين . والمراد أنها كثيرة ، كأنها تملأ ما بين جبلين ، والحديث فى صحيح مسلم : ١٨٠٦

(٨) إلى بلده : مكة .

(٩) فاقة : فقرا .

(١٠) ممن أعطاهم النبي مائة ناس كثير، منهم أبو سفيان ، وابنه معاوية، والحارث بن هشام، وقيل : إنهم يبلغون ستين من المؤلفة قلوبهم .

مائةً من الإبل. وأعطى صفوانَ مائةً ثم مائةً ثم مائةً. وهذه كانت حالُه(١) صلى الله عليه وسلم قبل أَنْ يُبْعث.

وقد قال له وَرَقَةُ بن نَوْفل(٢): إنك تحملُ الكَلَّ وتَكْسِبُ المعدومَ.

وردَّ على هَوازن سَبَاياها، وكانوا ستة آلاف.

وأعطى العباسَ من الذهب ما لم يُطِقْ حَمْلَه.

وحُمِلَ إليه تسعون ألفَ درهم، فوُضعت على حَصير، ثم قام إليها يَقْسِمُها، فما ردَّ سائلا حتى فرغَ منها.

وجاءه رجلٌ، فسأله، فقال: ماعندى شيء، ولكن ابْتَعْ(٣) علىَّ، فإذا [٣٦] جاءنا شيء قَضَيْناه...

فقال له عُمر: ما كلّفكَ اللهُ ما لا تَقْدر عليه.

فكرِهَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك. فقال رجل من الأنصار: يارسولَ الله؛ أَنفِقْ ولا تَخَفْ من ذِى العرش إقْلالا(٤):

فتبسَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وعُرِف البِشْرُ فى وجهه، وقال: بهذا(٥) أُمرت، ذكره الترمذى(٦).

وذُكِرَ عن مُعَوّذ ابن(٧) عَفْراء، قال: أَتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقِنَاع

---

(١) فى ب: خلقه، وعليها علامة الصحة.

(٢) هذا بعض من حديث فى صحيح مسلم: ١٤١. والكل: الإعياء والثقل.

(٣) ابتع: اشتر، واستلف مقدار ما تختاره حوالة على. والمراد اشتر بثمن يكون ذلك الثمن علىّ وفى ذمتى.

(٤) الإقلال: الفقر. وذو العرش: هو الله تعالى.

(٥) بهذا أمرت: أى بالإنفاق من غير مخافة فقر.

(٦) ذكره الترمذى فى شمائله.

(٧) فى هامش ب: صوابه الربيع بنت... وفى نسيم الرياض (٢ – ٤٨): قال السيوطى: ذكر هذا الحديث الترمذى فى الشمائل، والطبرانى، عن الربيع بنت معوذ، وسنده حسن.

من رُطب ـ يريد طَبَقا ، وأَجْرٍ زُغْب [١] ـ يريد قِثّاء ، فأعطانى مِلْءَ كفه حَلْياً وذَهبا .

وقال أنس [٢] : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم لايدَّخِرُ شيئا لغَدٍ .

والخبرُ بجوده صلى الله عليه وسلم وكرمِه كثير .

وعن أبى هُرَيرة : أتى رجلٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يسألُه ، فاستَسْلَفَ [٣] له رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم نِصْفَ وَسْقٍ [٤] ، فجاء الرجلُ يتقاضاه ، فأعطاه وَسْقاً ، وقال [٥] : نِصْفُه قَضَاءٌ ونِصْفُه نائل [٦] .

فصــــل

وأما الشجاعةُ والنجــدةُ فالشجاعةُ فَضيلةُ قوةِ [٧] الغضبِ وانقيادِها للعَقْل ،

---

(١) وأجر : قثاء صغار . والزغب : جمع أزغب ؛ أى ذوات زغب ، أى صغار الريش والشعر ؛ فشبه به ما يكون على الفاكهة ونحوها .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد: ٤ــ٥٨٠، وقال:قال أبوعيسى:هذا حديث غريب. وقد روى هذا الحديث عن جعفر بن سليمان عن ثابت ، عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا .

(٣) السلف والقرض بمعنى .

(٤) الوسق : ستون صاعا .

(٥) القائل هو الرسول .

(٦) نائل : عطاء .

(٧) فى نسيم الرياض (٢ ــ ٥٠) : هذا معنى ما قاله الحكماء فى علم الأخلاق : إن الله تعالى ركب فى الإنسان قوة هى مبدأ الإقدام على الأهوال والمهالك لتصوره أن من خاطر بالنفس ربما يهلك النفس ، وأنه لايغنى حذر من قدر ، وهى القوة الغضبية الشنيعة . والشجاعة : انقياد هذه القوة لسلطان العقل والنفس الناطقة ؛ ليكون إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب حتى يكون فعلها جميلا محمودا ؛ وإفراطها التهور وهو الإقدام حيث لاينبغى؛ وتفريطها الجبن. وبهذا عرفت معنى الشجاعة .

والجراءة أعم منها . وفسرها ابن القوطية بالإقدام ؛ وهو تفسير لفظى بالأعم .

والنَّجْدَةُ[(١)] : ثقةُ النفسِ عند استرسالها[(٢)] إلى الموتِ حيثُ يُحْمَدُ فعلُها دونَ خوف .

وكان صلى اللهُ عليه وسلم منهما [(٣)] بالمكان الذى لا يُجْهَلُ ؛ قد حضر المواقفَ الصعبةَ[(٤)] ، وفرَّ الكُماةُ[(٥)] والأبطالُ عنه غَيْرَ مرّة ، وهو ثابتٌ لا يَبْرَح ، ومُقْبِل لا يُدْبِر ولا يتزحزح[(٦)] . وما شجاعٌ إلّا وقد أُحْصِيت له فَرّةٌ ، وحُفِظَت عنه جَوْلة[(٧)] ، سِوَاه .

حدثنا أبو على الجَيَّانى[(٨)] فيما كتب لى[(٩)] ؛ قال : حدثنا القاضى سِراج ، حدثنا أبو محمد الأَصيلى ، قال : حدثنا أبو زَيْد الفقيه ، حدثنا محمدُ بن يوسف ، حدثنا محمدُ ابن إسماعيل ، حدثنا ابن بشّار ، حدثنا غُنْدَر ، حدثنا شُعْبة ، عن أبى إسحاق: سَمِعَ البَرَاءَ وسأله رجلٌ[(١٠)] : أفررْتُم يوم حُنَين عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لكِنْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لم يَفِرّ .

---

(١) النجدة : شدة البأس .

(٢) استرسالها : انطلاقها ؛ أى إن الشجاعة جراءة وإقدام يخوض به المهالك، والنجدة : ثباته على ذلك مطمئنا من غير خوف من أن يقع على الموت أو يقع الموت عليه، حتى يقضى الله له بإحدى الحسنيين : الظفر ، أو الشهادة ؛ فيحيا سعيدا أو يموت شهيدا .

(٣) منهما : أى من الشجاعة والنجدة . (٤) المواقف الصعبة : مواضع القتال الشديدة .

(٥) الكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع . (٦) لا يتزحزح : لا يزول عن مقره .

(٧) الجولة : المرة من الجولان فى المكان ، وقيل الانكشاف والزوال عن الموقف .

(٨) هذا الضبط فى نسيم الرياض (٢ — ٥٢) . وقال : هو الإمام الحافظ أبو على الغسانى الجيانى — بفتح الجيم وتشديد التحتيانية ثم ألف ونون وياء : نسبة لبلدة جيان .

وقال القارى فى شرحه (١ — ٢٥٤) : حدثنا أبو على الحيانى — بفتح الحاء المهملة وتشديد التحتية وفى آخره نون ثم ياء النسبة ، وهو الحافظ الغسانى . وقيل بكسر الجيم ؛ والظاهر أنه تصحيف . (٩) فى ب : فيما كتب إلى .

(١٠) هذا الحديث فى صحيح البخارى (٤— ٣٩) ، ورواه مسلم فى المغازى (١٤٠١) ، والترمذى فى سننه : ١٩٩

ثم قال : لقد رأيتُه على بَغْلته البيضاء وأبو سفيان [١] آخِذٌ بلجامها ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول : أنا النبيُّ لا كَذِبْ ، وزاد غيره : أنا ابْنُ عبدالمطلبْ [٢] .

قيل : فما رُئى يومئذ أحدٌ كان أشدَّ منه .

وقال غَيْرُه [٣] : نزل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بغلته .

وذكر مسلم — عن العباس ، قال [٤] : فلما الْتَقَى المسلمون والكفّار وَلَّى المسلمون مُدْبِرين ، فطفِقَ [٥] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يركضُ بَغْلَته [٦] نحو الكفار ، وأنا آخِذٌ بلجامها أَكُفُّها [٧] إرادةَ أَلّا تُسْرِع ، وأبو سفيان آخِذٌ بركابه ، ثم نادي : يا لَلمُسْلِمين [٨] . . . . . الحديث .

---

(١) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم النبي ، وأخوه من الرضاع .

(٢) هذا الضبط فى ب ، ومسلم ، والترمذى . وفى ا — بكسر الباء . قال القارى (١—٢٥٦) : هو بسكون الباء ، مع أنها فى أصل الإعراب بالجر . ومن قرأه بالكسر أراد إخراجه من وزن الشعر .

(٣) أى غير البخارى ، ففى رواية مسلم رواه سلمة بن الأكوع رضى الله عنه ؛ قال : لما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل بها وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق أحد منهم حتى امتلأت عيناه من تلك القبضة ترابا ، وهزمهم الله .

ولا شك أن النزول فى وقت المحاربة فيه من الشجاعة ما لا يخفى .

(٤) صحيح مسلم : ١٣٩٨

(٥) طفق : جعل ، وشرع .

(٦) يركض بغلته : يسوقها ويسرع بها ، ويضربها برجله لتسرع . وفى صحيح مسلم : قبل الكفار .

(٧) أكفها : أمنعها من السرعة .

(٨) قال فى نسيم الرياض (٢ — ٥٧) : وهذا الحديث نقله المصنف عن مسلم بالمعنى .

وقيل : وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا غضِب ـ ولا يَغْضَبُ إلا لله ـ لم يَقُمْ لغضَبِه شيء[١] .

وقال ابنُ عمر : ما رأيتُ أَشْجع ، ولا أَنْجَد ، ولا أَجْود ، ولا أَرْضى[٢] ، [ولا أفضَل][٣] مِن رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم .

وقال عليّ رضى الله عنه : إنّا كنّا إذا حَمِي البَأْس[٤] ـ ويروى : اشتدّ البأس ـ واحمرَّت الحدَقُ[٥] اتَّقينا برسول اللهِ[٦] ؛ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه ، ولقد رأيتُنى يوم بَدْرٍ ونحن نَلُوذُ[٧] بالنبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وهو أقرَبُنَا إلى العدو ، وكان من أشدّ الناسِ يومئذ بأسا .

وقيل : كان الشجاعُ[٨] هُو الذى يَقْرُبُ منه صلى الله عليه وسلم إذا دَنا العدوُّ ، لِقُرْبه منه[٩] .

---

(١) فى هذا إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتريه الغضب والحدة أحيانا ،ولكن ذلك كان غيرة على حدود الله لا لنفسه .

ومناسبة هذا لما نحن بصدده من ذكر الشجاعة أن الغضب مقتض للبطش والإقدام ، وهو من نمطها .

وهذا بعض من حديث صحيح فى شمائل الترمذى .

(٢) ولا أرضى : ولا أكثر رضا منه . (٣) من ب .

(٤) حمى البأس : المراد اشتد القتال . وفى صحيح مسلم : ١٤٠١ : احمر البأس .

(٥) الحدق: جمع حدقة ، وهى ما تحت الأجفان .واحمرارها يكون عند الغضب .والمراد: اشتد القتال ودام مدة .

(٦) اتقينا برسول الله : جعلناه وقاية لنا من العدو ، بأن يتقدم علينا ، فيدفع العدو ونحن خلفه .

(٧) نلوذ : نستتر ونلتجىء إليه .

(٨) هذا الضبط فى ب . وفى ا ضبطت العين بالفتحة .

(٩) أى لقرب النبى من العدو .

وعن أنس(١) : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناسِ ، وأجودَ الناسِ ، وأشجعَ الناسِ ؛ لقد فزِعَ أهلُ المدينة ليلةً ، فانطلق ناسٌ قِبَل(٢) الصوت ، فتلقّاهم رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلَّم راجعاً ، قد سبقهم إلى الصوتِ ، واستبرأ الخبَرَ(٣) على فَرَسٍ لأبى طَلْحة عُرْىٍ(٤) ، والسيفُ [٣٧] فى عُنقه ، وهو يقول : لن تُرَاعُوا(٥) .

وقال عِمْران بن حُصين : ما لَقِىَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كَتِيبةً(٦) إلّا كان أوّلَ من يَضْرِب .

ولما رآه أُبَىُّ بن خَلَف يوم أحُد وهو يقول : أين محمد ، لا نَجَوْتُ إن نَجَا(٧) .

وقد كان يقول(٨) للنبيّ صلى الله عليه وسلم ـ حين افْتَدى(٩) يومَ بَدْر : عندى فرسٌ أعلِفُها كلَّ يوم فَرَقاً من(١٠) ذُرَةٍ أَقتُلكَ عليها .

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلكَ إن شاء الله .

فلما رآه يوم أحُد شدَّ(١١) أُبىّ على فرسه على رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فاعترضه رجالٌ من المسلمين ، فقال النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم : هكذا(١٢) ، أى خَلُّوا

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى : ٨ ـ ١٦ ، وسنن ابن ماجه : ٩٢٦

(٢) قبل الصوت : جهته ونحوه . (٣) استبرأ الخبر : وقف على حقيقته .

(٤) عرى : ليس على ظهره شىء ، من سرج أو غيره .

(٥) لن تراعوا : الروع : الخوف ؛ أى ليس هناك شىء تخافونه .

(٦) كتيبة : جماعة عظيمة من الجيش .

(٧) دعاء على نفسه بالهلاك إن نجا النبى .

وارجع فى هذه الحادثة إلى المغازى للواقدى : ٢٥١ ، وسيرة ابن هشام : ٣ ـ ٣٢

(٨) القائل هو أبى بن خلف .

(٩) افتدى : أى افتدى أسيرا له ، وهو ابنه عبد الله . والافتداء : إعطاء الفدية لافتكاك الأسير . (١٠) الفرق : مكيال يسع ستة عشر رطلا (النهاية) .

(١١) شد : عدا وأسرع . (١٢) هكذا : اتركوا سبيله .

طريقَه ؛ وتناول الحَرْبةَ من الحارث بن الصِّمَّة ، فانتفض بها انتفاضةً تطايَرُوا عنه تطايُرَ الشَّعْرَاء عن ظَهْر البعير إذا انتفض[(١)] ، ثم استقبله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فطعنه في عُنقه طعنةً تَدَأْدَأ منها[(٢)] عن فَرَسِه مِرَاراً .

وقيل : بل كسر ضِلَعًا من أضلاعه ، فرجع إلى قريش يقول : قتلنى محمد ، وهم يقولون : لا بَأْسَ بِكَ . فقال : لو كان[(٣)] ما بى بجميع الناس لقتلهم ، أليس قد قال : أنا أقتلُكَ ، واللهِ لو بصَقَ علىّ لقتلنى . فمات بسَرِف فى قفولهم إلى مكّة[(٤)] .

فصـــل

وأما الحَياء والإغْضاء : فالحياء[(٥)] رِقّةٌ تَعْتَرِى وجْهَ الإنسان عنـــد فِعْل ما يُتَوقَّعُ كراهتُه[(٦)] ، أو ما يكونُ تَرْكُه خيرا من فِعْله .

والإغضاء : التغافُل[(٧)] عما يَكْرَه الإنسانُ بطبيعته .

وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم أشدَّ الناسِ حيـــاء ، وأكثرهم عن العَوْرَاتِ إغضاء[(٨)] ؛ قال اللهُ سبحانه[(٩)] : ﴿ إنَّ ذلِكُمْ كان يُؤْذِى النبىَّ فيَسْتَحْيِي منكم ، واللهُ لا يَسْتَحْيِي من الحقّ . . . ﴾ الآية .

---

(١) انتفض بها انتفاضة : قام بها قومة سريعة . تطايروا : تفرقوا فارين مسرعين . والشعراء : ذبابة لها إبرة (هامش ا ، ب) . وفى المغازى : تطاير الشماريز ، والشعاريز : جمع الشعراء . قال ابن هشام : الشعراء : ذباب صغير له لدغ . وفى النهاية : فى الحديث : تطاير الشعر — بضم الشين وسكون العين ، وهو جمع الشعراء . وروى : الشماريز ، وقياس واحده شعرور .

(٢) تدأدأ : تدحرج ، وسقط ، ومال . وقال ابن هشام : تدأدأ : يقول تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج . (٣) فى المغازى : لوكان الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون .

(٤) سرف : اسم جبل قريب من مكة . قفولهم : رجوع الكفار إلى مكة .

(٥) فى ا : والحياء . (٦) مايتوقع كراهته : المراد ما من شأنه أن يكره .

(٧) التغافل : المراد التجاوز .

(٨) العورات : كل ما يقبح إظهاره ، وهو جمع عورة . إغضاء : سكوتا وتجاوزا .

(٩) سورة الأحزاب ، آية ٥٣

حدثنا أبو محمد بن عتّاب ، بقراءتى عليه ؛ قال: حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسَن القابسيُّ ، حدثنا أبو زَيْد المَرْوَزى ، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عَبْدان ، حدثنا عَبْدُ الله [مولى أنس][١]، حدثنا شُعبة ، عن قتَادة ، سمعتُ عَبْد الله مولى أنس ، يحدِّثُ عن أبى سعيد الخُدْرى رضِيَ الله عنه : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياء من العَذْراء فى خِدْرِها[٢] . وكان إذا كَرِه شيئا عرَفْناهُ فى وَجْهِه .

وكان صلى الله عليه وسلم لطيفَ البَشَرة[٣] ، رقيقَ الظاهر[٤] ، لا يشافِهُ[٥] أحداً بما يكرهُه حياءً وكَرم نَفْس .

وعن عائشةَ رضى الله عنهما : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أَحَدٍ ما يكرهُه لم يقُلْ : ما بالُ[٦] فلان يقول كذا ؟ ولكن يقول: ما بالُ أقوام يصنعون، أو يقولون[٧] كذا ! يَنْهَى عنه ، ولا يُسمّى فاعِلَه[٨] .

ورَوَى أَنَس أنه دخل عليه رجُلٌ به أثَر صُفْرة[٩] ، فلم يقُلْ له شيئــا ـ وكان

---

(١) من ب .

(٢) الخدر : البيت أو الستر فى جانب البيت ، أو قبة تضرب لها . والحديث فى ابن ماجه :١٣٩٩ ، وصحيح مسلم : ١٨٠٩ ، والبخارى : ٨ ـ ٣٥

(٣) البشرة : ظاهر جلد الوجه والجسد كله .

(٤) الظاهر : مايظهر من بدنه رقيق ، يظهر فيه بسرعه آثار الانفعالات النفسية .

(٥) لايشافه أحدا : لايكلم أحدا ولا يواجهه .

(٦) البال : هو الحال والشأن .

(٧) إشارة وكناية عما يكره ، فلا يعين الصانع أو القائل .

(٨) ولا يسمى فاعله: أى بصريح اسمه، بل يكنى عنه. ونهيه عما أنكره مأخوذ من الاستفهام الإنكارى ، وسياق الكلام فى قوله : مابال فلان . والحديث في سنن أبى داود : ٢ ـ ١٨٦

(٩) المراد بالصفرة لون الورس والزعفران ،يعنى أنه كان خضب بذلك فبقى عليه بقية منها.

لا يواجِهُ أحدا بما يكره ـ فلما خرج قال : لو قلتم له : يغسِلُ هذا[١] ـ ويُروى : يَنْزَعُها[٢] .

قالت عائشة فى الصحيح[٣] : لم يكن النبىُّ صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا مُتفَحِّشا[٤] ، ولا سَخَّابا بالأسواق[٥] ، ولا يَجْزِى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفحُ .

وقد حُكِيَ مثلُ هذا الكلام[٦] عن التوراة ، ومن رواية [عبدالله][٧] بن سَلَام ، وعبد الله بن عَمْرو بن العاص .

ورُوِى عنه أنه كان من حَيَائه لا يُثْبِتُ بصرَه فى وَجْهِ أحد ، وأنه كان يَكْنِى عما اضطره الكلامُ إليه مما يُكْرَه .

وعن عائشة : ما رأيتُ فَرْج رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قط .

فصـــــل

وأما حُسْنُ عشرتِه وأدبُه وبَسْطُ خلُقِه[٨] صلى الله عليه وسلم مع أصناف الخَلْقِ فبحيثُ انتشرت[٩] به الأخبارُ الصحيحة .

---

(١) هذا : أى أثر الصفرة والخضاب .

(٢) ينزعها : يزيلها . والشك من الراوى . والحديث فى سنن أبى داود : ٢ ـ ١٨٦

(٣) فى الحديث الصحيح المروى عنها، كما أخرجه البخارى : ٨ ـ ١٥، والترمذى: ٤ـ ٣٤٩

(٤) الفحش : كل أمر قبيح ، أو شديد القبح قولا وفعلا ، والفاحش : من يصدر ذلك عنه . والمتفحش : من يتعمده ويبالغ فيه ؛ والظاهر أن المراد به بذاءة اللسان هنا .

(٥) صخاب : من الصخب ، وهو رفع الصوت بمبالغة فيه ؛ وخص الأسواق ، لأنه فيها أقبح ، ولأنها محله ، وأما فى المنزل ونحوه فلا حاجة إليه . وهو بالسين ، والصاد .

(٦) مثل هذا : الذى قالته عائشة . (٧) من ب .

(٨) بسط خلقه: المراد سعة خلقه. وقد ضبطت الطاء بالضمة والكسرة وعليها «معا» فى ا .

(٩) انتشرت : كثرت واشتهرت .

قال عليّ رضى الله عنه [٣٨] فى وَصْفِهِ عليه الصلاة والسلام : كان أوسعَ الناسِ صَدْرا ، وأصدقَ الناسِ لَهْجَةً ، وأَلْيَنَهم عَرِيكةً ، وأكرمهم عِشْرة[١] .

حدثنا أبو الحَسن على بن مُشَرِّق[٢] الأنماطى فيما أجازَنيه ، وقرأته على غيره ، قال : حدثنا أبو إسحاق الحبَّال ، حدثنا أبو محمد بن النحاس ، حدثنا ابنُ الأعرابى، حدثنا أبو دَاود ، حدثنا هشام أبو مَرْوَان ، ومحمد بن المثنَّى : قالا : حدثنا الوليد ابن مسلم ، حدثنا الأوزَاعى ، سمعت يحيى بن أبى كثير يقول : حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن أَسْعد بن زُرَارَة ، عن قَيْس بن سعد ، قال : زارَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ـ وذكر قصةً فى آخرها[٣] : فلما أراد الانصرافَ قرَّبَ له سعدٌ حماراً، وَطَّأَ عليه[٤] بقَطِيفة ، فركب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال سَعْد : يا قيس ؛ اصحَبْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

قال قيس : فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : اركَبْ ، فأَبَيْتُ . فقال : إمّا أَنْ تركبَ وإما أَنْ تنصرفَ . فانصرفتُ .

---

(١) المراد بسعة صدره تحمله صلى الله عليه وسلم مشاق الناس وكثرة تكاليفهم. واللهجة: المراد الكلام . أصل العريكة : السنام ، والمراد أنه أسهل الناس طبعا ، وأنه سلس مطاوع منقاد قليل المخالفة لاتهور فيه . وفى ا : أجود ، وعليها علامة الصحة . وفى هامشه : أوسع ، وعليها «صح» أيضا . (٢) هذا الضبط فى ا ، ب . وهو بالفاء فى ميزان الاعتدال: ٣-١٥٦

(٣) هى ما وقع له مع عبدالله بن أبى بن سلول؛ إذ مر به وهو جالس مع أخلاط المسلمين وغيرهم ، فغشى المجلس غبار دابته صلى الله عليه وسلم ، فخمر ابن سلول أنفه بردائه ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتغبروا علينا ، ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك منا فاقصص عليه ؛ فاستب المسلمون مع المشركين حتى هموا أن يتواثبوا ، فمنعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ركب دابته حتى دخل على سعد رضى الله عنه ، وذكر ذلك له ، فقال له : يارسول الله؛ اعف عنه واصفح ، فلقد اتفق أهل هذه البحيرة على أن يعصبوه ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى جئت به شرق بذلك ، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ... (نسيم الرياض : ٢ ـ ٧١)

(٤) وطأ عليه بقطيفة : القطيفة : كساء له وبر وخمل وضعه على ظهر الحمار ليركب عليه.

[وفى رواية أخرى : اركَبْ أمامى ، فصاحبُ الدابّةِ أولى بمُقَدَّمِها][١] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤلِّفُهم ، ولا يُنَفِّرُهم[٢] ، ويُكرِم كريمَ كلِّ قوم ويُولِّيه عليهم ، ويُحذِّر[٣] الناسَ ، ويحترِسُ منهم من غير أن يطْوِيَ عن أحدٍ منهم بِشْرَه[٤] ولا خُلُقَه ؛ يتفقَّدُ أصحابَه[٥] ، ويعطى كلَّ جلسائه نَصِيبَه ، لا يَحْسِبُ جليسُه أنَّ أحدا أكرمُ عليه منه . مَنْ جالسه أو قاربَه لحاجةٍ صابَرَه[٦] حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومَنْ سأله حاجةً لم يَرُدّه إلا بها ، أو بِمَيْسورٍ[٧] من القول ؛ قد وسِعَ الناسَ بَسْطُه[٨] وخُلُقه ، فصار لهم أَبًا ، وصاروا عنده فى الحقّ سواء .

بهذا وصفَه ابنُ أبى هَالَة ؛ قال : وكان دائمَ البِشْر[٩] ، سَهْلَ الخُلُق ، ليِّنَ الجانب ، ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظٍ[١٠] ، ولا سَخَّاب ، ولا فَحّاش[١١] ولا عَيَّابٍ ، ولا مدّاح ، يتغافَلُ عمّا لا يشتهى ولا يُؤْيِسُ منه[١٢] .

---

(١) ما بين القوسين كتب عليه فى ا ، ب : من غير الرواية .

(٢) يؤلفهم : يؤلف المسلمين بإيناسهم ومداراتهم ليزداد إيمان من كان قريب عهد بالإسلام، وليحس من كان مخلصا بجبره خاطره والتودد إليه .

ولا ينفرهم : أى لايتلقاهم بما يصير سببا لنفورهم .

(٣) فى ا : ويحذر — بتشديد الذال . وفى ا : يحذر — بفتح الياء والذال .

(٤) بشره : بشاشته .

(٥) يتفقد أصحابه : أى من فقده من أصحابه يسأل عنه أو يزوره ، أو يرسل إليه من يتعهده . (٦) صابره : أى صبر على سؤاله وعلى ذكر حوائجه .

(٧) بميسور من القول: كوعده ، أو تسليته. (٨) بسطه: سرور ظاهره ، وطيب باطنه .

(٩) البشر : طلاقة الوجه وبشاشته ، لا يعبس فى وجه أحد . وابن أبى هالة : هو هند ربيبه من خديجة . (١٠) الفظ : الكريه الخلق . والغلظ : ضد الرقة .

(١١) صخاب — بالصاد والسين : كثير الصياح . فحاش : ذا فحش فى قوله أو فعله .

(١٢) لا يؤيس منه : لا ييأس أحد من فيض جوده وأثر كرمه .

وقال الله تعالى[١] : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كُنْتَ فَظًّا غليظَ القَلْبِ لانفَضُّوا[٢] من حَوْلِكَ ﴾ .

وقال تعالى[٣] : ﴿ ادْفَعْ بالتى هى أَحسنُ السيئةَ ، نحن أعلم بما يَصِفُونَ ﴾ .

وكان يُجيب مَنْ دَعاه ، ويقبلُ الهديّة ولو كانت كُرَاعا[٤] ويُكافِىءعليها[٥] .

قال أنس : خدمْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عَشْر سنين ، فما قال لى أُفّ قَطُّ[٦] ، وما قال لشىء صنعْتُه : لم صنعْتَه ؟ ولا لشىء تركْتُه : لم تركْتَه[٧] ؟

وعن عائشة رضى الله عنها : ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا أهلِ بيته إلّا قال : لَبَّيْك[٨] .

وقال جَرِير بن عبد الله : ما حجبنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منذُ أسلمتُ، ولا رآنى إلّا تبسّم .

وكان يمازِحُ أصحابَه ، ويُخَالِطهم ويحادثهم ، ويُداعِبُ[٩] صِبْيانهم ، ويُجْلِسهم فى حِجْرِه[١٠] ،ويجيب دعوةَ الحرِّ والعبدِ والأَمةِ والمسكين،ويعودُ المرضى فى أقصى[١١] المدينة ، ويقبلُ عُذْرَ المعتذر .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٥٩

(٢) انفضوا : تفرقوا ولم يجتمعوا عليك ، ولكنك بلين جانبك لهم وشفقتك عليهم تؤلف قلوبهم وتزيد محبتهم . (٣) سورة المؤمنون ، آية ٩٦

(٤) كراعا : الكراع : ماتحت الركبة إلى الخف والحافر والظلف . وفى هامش ب : الكراع ــ من الدواب : مادون الكعب . والمراد أنه يقبل الهدية ولو كانت حقيرة .

(٥) ويكافىء عليها : يجازى على الهدية بشىء مثلها أو أكثر .

(٦) أف : كلمة تقال لما يكره ويتضجر منه . وفى مسلم : أفا .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم (١٨٠٤) ، وأبو داود : ٢ ــ ١٨٥

(٨) لبيك : كلمة يجاب بها المنادى . والحديث رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة بسند واه .

(٩) المداعبة: الممازحة مع لعب. (١٠) هذا فى ب . وفى ا : حجزه ــ بضم الحاء، والزاى. وحجر الإنسان ــ بالفتح والكسر : حضنه وثوبه (اللسان ــ حجر). والحجز: الناحية.

(١١) فى أقصى المدينة : فى أبعد مكان منها .

قال أنس : ما الْتَقَمَ أحدٌ (١) أُذُنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فينَحِّى رأْسَه حتى يكون الرجلُ هو الذى يُنَحِّى (٢) رأْسَه ، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسِل (٣) يده حتى يُرْسِلَها الآخر (٤) ؛ ولم يُرَ مُقَدِّما رُكْبتيه بين يدَىْ جَلِيسٍ (٥) له .

وكان يبدأ مَنْ لَقِيَه بالسلام ، ويبدأ أصحابَه بالمُصافحة ، ولم يُرَ قطُّ مادًّا رجليه بين أصحابه حتى يُضَيِّقَ بهما على أحد . يكرم من يدخلُ عليه ، وربما بسطَ له ثوْبَه ، ويُؤْثِرُه (٦) بالوِسادة التى تحته ، ويَعزِمُ عليه فى الجلوس عليها إنْ أَبَى ، ويُكَنِّى أصحابَه (٧) ، ويدعوهم بأَحَبِّ أسمائهم تكرمةً لهم ، ولا يقطَعُ على أحد حديثَه حتى يتجوَّز (٨) فيقطعه بنَهْيٍ أو قيام - ويروى : بانتهاء أو قيام .

ويروى أنه كان [٣٩] لا يجلسُ إليه أحدٌ وهو يصلِّى إلّا خففَ صلاتَه ، وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته .

وكان أَكْثَرَ النـــاسِ تبسُّما ، وأطيبَهم نَفْسا ، ما لم ينزل عليه قرآنٌ أو يَعِظْ أو يخطبْ (٩) .

---

(١) ما التقم أحد أذن رسول الله : ما جعل أحد أذنه محاذية لفمه فتحاذيه ، والمراد ما حدثه أحد عند أذنه . والحديث فى سنن أبى داود : ١٨٧

(٢) ينحى رأسه : أى يبعدها ويجعلها فى ناحية منه .

(٣) فيرسل يده : أى يطلقها ويفكها من يده .

(٤) عليها علامة الصحة فى ا ، ب . وفى هامشها : الآخذ .

(٥) ولم ير مقدما ركبتيه : المراد أنه يخفض ركبتيه تعظما لجلسائه . وقيل المراد بالركبتين الرجلين؛أى كان لا يمد رجليه بين أصحابه ؛ يعنى أنه صلى الله عليه وسلم كان يساوى جليسه ، ولا يتقدم عليه بركبتيه حتى كان الغريب يجىء فلا يعرفه ويسأل عنه .

(٦) ويؤثره ، الإيثار : تقديم غيره على نفسه فى بعض الأمور ؛ أى يفضل غيره .

(٧) يكنى أصحابه : يضع لهم كنية ، كأبى فلان ، أو يدعوهم بالكنية تكريما لهم .

(٨) حتى يتجوز : حتى يكثر فيتجاوز الحد . أو يخرج إلى ما لا يليق .

(٩) هذا الضبط فى ا . وفى ب ضبطت الظاء فى « يعظ » والباء فى « يخطب » بالضم .

قال عبدُ الله بن الحارث : ما رأيتُ أحداً أكثر تبسّماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أنس[١] : كان خَدَمُ المدينةِ يأتون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إذا صلّى الغَدَاة[٢] بآنيَتهم فيها الماء ، فما يُؤتَى بآنية إلّا غمس يدَه فيها ، وربما كان ذلك في الغَدَاة[٣] الباردة ـ يريدون به التَّبرُّكَ[٤] .

فصـــل

وأما الشفقةُ والرأفةُ والرحمةُ لجميع الخلْق[٥] فقد قال الله تعالى فيه[٦] : ﴿ عَزِيزٌ عليه ماعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رَحِيم ﴾[٧] .

وقال تعالى[٨] : ﴿ وما أرْسَلْنَاكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ .

قال بعضُهم : من فَضْلِهِ عليه السلام أنَّ الله تعالى أعطاه اسْمَيْنِ من أسمائه ، فقال : « بالمؤمنين رَءوفٌ رَحِيم » .

وحكَى[٩] نحوه الإمام أبو بكر بن فُورَك . حدثنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد الخُشَنِي بقراءتى عليه ، حدثنا إمام الحرَمَيْنِ[١٠] أبو على الطَّبَرى ، حدثنا عبدُ الغافر

---

(١) صحيح مسلم : ١٨١٢ (٢) الغداة : صلاة الصبح .

(٣) الغداة : أول النهار .

(٤) بعده فى ب : صلى الله عليه وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

(٥) قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٨٣) : الفرق بين هذه الثلاثة أن الشفقة رحمة ورقة قلب وخوف من نزول مكروه بمن يشفق عليه . والرأفة : التلطف بمن يريد إكرامه بالبشر والإيناس ، وليست أشد من الرحمة كما توهمه بعضهم .

(٦) سورة التوبة ، آية ١٢٨

(٧) ما عنتم : العنت : المشقة ؛ أى يصعب عليه مشقتكم وما يؤلمكم لرأفته ورحمته .

(٨) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧

(٩) فى ب : قال : حدثنا نحوه . . .

(١٠) فى ب : إمام الحرمين حدثنا أبو على الطبرى .

الفارسى ، حدثنا أبو أحمد الْجُلُودِى ، حدثنا إبراهيم بن سفيان ، حدثنا مسلم ابن الحجاج ، حدثنا أبو الطاهر ، أنبأنا يونس ، عن ابن شهاب ، قال : غزا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غزوةً ، وذكر حُنَيْنًا (١) ، قال : فأعطى رسولُ الله صلى الله وسلم صفوان بن أمية مائةً من النَّعَم (٢) ؛ ثم مائة ، ثم مائة .

قال ابنُ شهاب ، حدثنا سعيد بن المُسَيَّب أنّ صفوان قال : والله لقد أعطانى ما أعطانى وإنه لأبغضُ الخلقِ إلىّ ، فما زال يُعْطِينى حتى إنه لأَحَبُّ الخلقِ إلىّ (٣) .

ورُوِى أنّ أعرابيا جاءهُ يطلبُ منه شيئا ، فأعطاه ؛ ثم قال : أحسنْتُ إليكَ ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أَجْمَلْتَ (٤) .

فغضِبَ المسلمون وقاموا إليه (٥) ، فأشار إليهم أنْ كُفُّوا ، ثم قام ودخل منزلَه ، وأرسل إليه ، وزادَه (٦) شيئا ، ثم قال : أحسنْتُ إليك ؟ قال : نعم ، فجزاكَ اللهُ من أهلٍ (٧) وعشيرةٍ خيرا .

---

(١) من غزوات الرسول . وحنين : واد بين مكة والطائف . وكانت هذه الغزوة فى شوال سنة ثمان (شرح القارى : ١ ــ ٢٧٥) . والحديث فى صحيح مسلم : ١٨٠٦

(٢) النعم : اسم جامع للإبل ، لا واحد له من لفظه ، وجمعه أنعام : وقال العزيزى : هو الإبل والبقر والغنم .

(٣) كان أشد الناس عداوة له لقتل أبيه يوم بدر ، ولما شهد وهو كافر حنينا ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة ؛ فبينما هو يسير فى الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان ــ جعل صفوان ينظر إلى شعب ملىء نعما وشاء ــ وأدام النظر إليها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرمقه . فقال له : أبا وهب ؛ يعجبك هذا الشعب ؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : ما طابت بهذا إلا نفس نبى ! أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وارجع إلى الإصابة (٣ ــ ٤٣٣) .

(٤) أجملت : فعلت فعلا جميلا محمودا .

(٥) وقاموا إليه ليضربوه ويجازوه بما يستحقه .

(٦) زاده شيئا : أى على ما أعطاه أولا .

(٧) من أهل وعشيرة خيرا : المراد بدلا من أهلى وعشيرتى الذين لم يحسنوا إلى .

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : إنكَ قلتَ ما قُلْتَ وفى أنفُس أصحابى من ذلكَ شيء ، فإن أحْبَبْتَ فقـــلْ بين أيديهم ما قلْتَ بين يدىّ حتى يذهب ما فى صدورهم عليك .

قال : نعم . فلما كان الغَدُ أو العَشِىّ (١) جاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنّ هذا الأعرابىّ قال ما قال ، فزِدْناهُ فزعم أنه رَضِىَ ، أكذلكَ ؟ قال : نعم ، فجزاكَ اللهُ من أهلٍ وعشيرةٍ خيرا .

فقال صلى الله عليه وسلم : مَثَلِى ومَثَل هذا مَثَلُ رجلٍ له ناقةٌ شَرَدَتْ (٢) عليه ، فاتّبَعَها الناسُ فلم يزيدوها إلّا نُفورا ، فناداهم صاحبها : خَلُّوا بينى وبين (٣) ناقتى ، فإنى أرْفَقُ بها منكم وأعلم (٤) ، فتوجَّه لها بين يديها (٥) ، فأخذَ لها من قُمَامِ الأرض (٦) ، فردَّها حتى جاءت واستناخت (٧) ، وشَدَّ عليها رَحْلها (٨) ، واستوى (٩) عليها ، وإنّى لو تركتُكم حيثُ قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النارَ (١٠) .

---

(١) فلما كان الغد أو العشى: المراد بالغد صبيحة اليوم الذى بعد اليوم الذى كلمه فيه النبي. والغداة من طلوع الفجر إلى الزوال . والعشى : ما بعد الزوال إلى الغروب . والشك هنا من الراوى .

(٢) شردت ناقته : نفرت منه وذهبت فى الأرض .

(٣) خلوا بينى وبين ناقتى : لاتتبعوها واتركونى أحتال فى إمساكها .

(٤) أى أنا أشفق عليها وأعلم بحالها منكم .

(٥) أى جاءها من أمامها .

(٦) قمام الأرض : القمام : جمع قمامة : كناسة . والمراد بها النبات الذى ترعاه الدواب .

(٧) استناخت : بركت ومكثت عنده .

(٨) رحلها : الرحل للإبل كالسرج للفرس .

(٩) واستوى عليها : ركبها .

(١٠) دخل النار عقوبة له بإساءته إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال فى نسيم الرياض : وهذا الحديث رواه البزار ، وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن الجوزى فى الوفا .

ورُوِى عنه[١] أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا يُبْلِغَنِّي[٢] أحدٌ منكم عن أحدٍ من أصحابي شيئا ، فإني أُحِبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدر[٣] .

ومن شفقته على أمته عليه السلام تَخْفِيفُهُ وتسهيله عليهم ، وكراهتُهُ أشياءَ مخافةَ أَنْ تُفْرَضَ عليهم ، كقوله : لولا أَنْ أَشُقَّ على أمتي[٤] لأَمَرْتُهُم بالسواكِ مع كل وضوء[٥] .

وخَبَرُ صلاةِ الليل[٦] ، ونَهْيِهم عن الوِصَال[٧] ، وكراهَتِهِ دخولَ الكعبة لئلا يُعَنِّتَ[٨] أمتَه ، ورغبتِهِ لربه أَنْ يجعلَ سبَّه ولَعْنَهَ لهم رحمةً بهم ، وأنه كان يسمعُ بكاءَ الصبي فيتجوَّز[٩] في صلاته .

ومن شفقته صلى الله عليه وسلم [٤٠] أَنْ دَعَا ربَّه وعاهده ، فقال : أَيُّمَا رجُلٍ

---

(١) الزاوى له أبو داود والترمذى عن ابن مسعود (سنن أبي داود : ٢ ـ ١٩٢) .
(٢) ضبطت الباء بالسكون وبالفتحة ، وكتب عليها « معا » في ب .
(٣) سلامة الصدر كناية عن كونه ليس في قلبه بغض ولا غضب على أحد .
(٤) لولا أن أشق على أمتي : لولا مخافة المشقة عليهم .
(٥) هذا الحديث رواه أصحاب الكتب الستة . (صحيح مسلم : ٢٢٠)
(٦) قال لهم النبي : خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها .
(٧) الوصال في الصوم : هو أن يصوم يومين أو أكثر من غير أكل وشرب بينهما ،ونهيه عن الوصال ثابت في الصحيحين (صحيح مسلم : ٧٧٤)
(٨) يعنت : من العنت ؛ وهو المشقة والإثم . وفي ب ضبطت : يعنت كما أثبتنا ، وضبطت أيضا بسكون العين وكسر النون ، وكتب عليها « معا ». وفي هامشه :خ : يتعب . وفي : يعنت كما أثبتنا ، وعليها علامة الصحة .

وحديث كراهته دخول الكعبة في حديث رواه أبو داود والترمذى عن عائشةرضى الله عنها وصححاه ، وكذا رواه ابن خزيمة ، والحاكم عنها أيضا مصححا مسندا . (سنن أبي داود : ١ ـ ٢٠١)
(٩) المراد هنا أنه يخففها ويسرع فيها .

سَبَبْتُه أو لعنتُه [١] فاجعَلْ ذلك له زكاةً ورحمةً [٢]، وصلاةً وطَهُورا، وقُرْبةً تقرِّبُه بها إليك يوم القيامة [٣].

ولما كذَّبه [٤] قومُه أتاه جبريل عليه [٥] السلام، فقال له: إنّ الله تعالى قد سمع قولَ قومِك لكَ، وما ردُّوا عليكَ، وقد أمر مَلَكَ الجبال لتأمُرَه بما شئْتَ فيهم، فناداه مَلَكُ الجبالِ وسلّم عليه، وقال: مُرْنى بما شئْتَ، وإن شئْت أنْ أُطْبِق عليهم الأَخْشَبَيْنِ [٦].

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: بل أَرجو أنْ يخرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبدُ الله وحده ولا يشركُ به شيئا.

ورَوَى ابنُ المُنْكَدِرِ أنّ جبريلَ عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنّ اللهَ تعالى أمر السماءَ والأرضَ والجبالَ أنْ تُطيعك. فقال: أُؤَخِّر عن أمتى لعل الله أَنْ يتوبَ عليهم [٧].

قالت عائشة: ما خُيِّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيْسرهما [٨].

---

(١) اللعن: أصل معناه الطرد والإبعاد، ثم خص بالبعد من رحمة الله.

(٢) زكاة: تطهيرا له مما ارتكبه. (٣) صحيح مسلم: ٢٠٠٧

(٤) وهذا من عظيم شفقته أيضا. وهذا الحديث فى البخارى: ٤ — ١٤٠

(٥) في ب: عليهما.

(٦) الأخشبان: مثنى أخشب: جبلان يضافان تارة لمكة وتارة لمنى، فيقال: أخشبا مكة، وأخشبا منى، وهما أبو قبيس وقعيقعان. وفى هامش ا: الأخاشب: جبال مكة، وقد يقال لكل جبل أخشب. وأنشد أبو عبيد: كأن فوق منكبيه أخشبا.

(٧) أى يرجعوا عن المعاصى، ويقبل الله منهم ذلك.

(٨) أيسرهما: أسهلهما وأهونهما على الأمة شفقة ورحمة منه عليهم. وبقية الحديث: مالم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه. والحديث فى صحيح مسلم: ١٨١٣، وصحيح البخارى: ٤ — ٢٣٠

وقال ابنُ مسعود رضى الله عنه : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّلُنا[١] بالموعظة مخافةَ السآمةِ علينا .

وعن عائشة أنها ركبَتْ بعيرا وفيه صعوبةٌ ، فجعلت تردِّدُه[٢] ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : عليكِ بالرِّفْقِ[٣] .

فصــــل

وأما خُلُقه صلى الله عليه وسلم فى الوفاء ، وحُسْنِ العَهْد ، وصِلَة الرحم[٤] ـ فحدثنا القاضى أبو عامر محمد بن إسماعيل بقراءتى عليه ؛ قال : حدثنا أبو بكر محمد بن محمد ، حدثنا أبو إسحاق الحَبَّال ، حدثنا أبو محمد بن النحاس ، حدثنا ابن الأعرابى ، قال: حدثنا أبو داود ؛ قال : حدثنا محمد بن يحيى ؛ قال : حدثنا محمد بن سِنَان ؛ قال : حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان ، عن بُدَيل ، عن عبد الكريم بن عبد الله بن شَقِيق ، عن ابنه ، عن عبد الله بن أبى الحَمْساء[٥] ، قال : بايعْتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم بِبَيْع[٦] قبل أنْ يُبْعث ، وبقِيَتْ له بقية ، فوعدتُه أنْ آتيَه بها فى مكانه ، فنَسِيت[٧] ، ثم ذكَرْتُ

---

(١) يتخولنا : يتعهدنا . والحديث فى صحيح مسلم : ٢١٧٢

(٢) ترdده : تمشى به وترجع ؛ وإنما فعلت ذلك لتروضه حتى ينقاد لها .

(٣) فهذا دليل على شفقته . وهذا الحديث فى صحيح مسلم : ٢٠٠٤

(٤) الوفاء : ضد الغدر ونقض العهد . وحسن العهد : أى ماعاهد عليه والتزمه . وصلة الرحم : الإحسان إلى الأقارب والأصهار والرفق بهم والعفو عن زلاتهم ، ونصحهم والتودد لهم .

(٥) فى هامش ب : قال الحافظ المزى : بعضهم يرويه أبى الحسماء ـ بتقديم السين على الميم . والأول أصح . والله أعلم . وقال القارى (١ ـ ٢٨١) : وهو بتقديم السين تصحيف .

(٦) أى باع مبيعا للنبى صلى الله عليه وسلم .

(٧) فنسيت : أى الوعد الذى جرى بيننا .

بعد ثلاث ، فجئتُ فإذا هو فى مكانه[١] ، فقال: يافتى ، لقد شققْتَ علىّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظِرُكَ[٢] .

وعن أنس: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أُتِى بهدية قال : اذهبوا بها إلى بَيْتِ فُلانة ؛ فإنها كانت صديقةً لخديجة ، إنها كانت تحبُّ خديجة[٣] .

وعن عائشة قالت : ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة ، لِمَا كنْتُ أسمعه يَذْكُرها ، وإن كان لَيَذْبحُ الشاةَ فيُهديها إلى خَلَائلها[٤] .

واستأذنَتْ عليه أختُها[٥] فارتاحَ إليها .

ودخلت عليه امرأةٌ ، فهَشَّ[٦] لها ، وأحسنَ السؤالَ عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيامَ خديجة ، وإنّ حُسْنَ العَهْدِ من الإيمان[٧] .

ووصفه بعضهم، فقال: كان يَصِلُ ذَوِى رَحِمه من غير أنْ يُؤْثِرهم[٨] على مَنْ هو أفضلُ منهم .

---

(١) فإذا هو فى مكانه : فإذا النبى فى مكانه لم يفارقه .

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود (٢ — ٢٠٣) ، وهو من أفراده ، قال السيوطى : وأخرجه ابن مندة فى المعرفة ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق .

(٣) هذا الحديث رواه البخارى فى الأدب .

(٤) خلائلها : جمع خليلة ، بمعنى الصاحبة والصديقة .

والحديث فى البخارى : ٥ — ٤٨ ، وفيه : وإن كان ليذبح الشاة فيهدى إلى خلائلها منها ما يسعهن .

وخلائلها : جمع خليلة ، أى صديقاتها .

(٥) أختها : أخت خديجة ، وهى هالة بن خويلد .

(٦) هش لها : فرح وأظهر المسرة بدخولها .

(٧) حسن العهد : أى رعاية العهود القديمة، ورعاية من يحبك أو يحب من يحبك . من الإيمان : من مقتضيات الإيمان .

(٨) يؤثرهم : يخصهم ويقدمهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن آلَ أبى فلان ليسوا لى بأولياء غير أنَّ لهم رَحِماً سأَبُلُّها بِبِلَالِها[١] .

وقد صلَّى عليه السلام بأُمَامة ابنةِ ابنته يَحْمِلُها على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملَها[٢] .

وعن أبى قَتادة : وفَدَ وَفْدٌ للنجاشى ، فقام النبىُّ صلى الله عليه وسلم يخْدُمهم ، فقال له أصحابُه : نَكْفيك[٣] . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مُكْرِمين[٤] ، وإنى أُحِبُّ أنْ أُكافئهم[٥] .

ولما جِئ بأُخْتِه من الرضاعة الشَّيْمَاء فى سبَايا[٦] هَوَازن ، وتعرَّفَتْ له بسط لها رِدَاءه ، وقال لها : إنْ أحببْتِ أقمْتِ عندى مُكرَّمةً مُحَبَّة ، أو متَّعْتُكِ[٧] ورجعتِ إلى قومك ؛ فاختارَتْ قومَها فمتَّعها .

وقال أبو الطفيل[٤١] : رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم وأنا غلام إذ أقبلت

---

(١) الآل : الأهل والأتباع . والمراد هنا أبو العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان منافقا فى أول أمره ، ثم حسن إسلامه . والأولياء : جمع ولى ، وهو القريب ومن يتولى أمره ؛ أى لا أتولاهم ولا أحسبهم من أوليائى لما علمت منهم .

أن لهم رحما : أى قرابة سأبلها : سأصلها بصلتها اللائقة بها . والبلال: الرطوبة والنداوة وكل مايبل الحلق من المائعات . والمراد الصلة والإحسان . والحديث فى صحيح مسلم : ١٩٢ ، وصحيح البخارى : ٨ ــ ٧ ، وقال فى البخارى : أبلها ببلالها ؛ يعنى أصلها بصلتها .

(٢) عاتقه : كتفه . وهذا الحديث رواه البخارى فى صحيحه (١ ــ ١٣٠)

(٣) نكفيك : أى نحن نخدمهم ونكفيك من تعاطى خدمتهم .

(٤) لأصحابنا الذين هاجروا لأرض الحبشة .

(٥) قال السيوطى : هذا الحديث رواه البيهقى فى دلائله مسندا .

(٦) هى بنت حليمة السعدية التى أرضعت النبى صلى الله عليه وسلم . والسبايا : جمع سبية ، أى مأسورة .

(٧) متعتك : أى يحسن إليها ويعطيها . وهذا منه صلة رحم .

امرأةٌ حتى دنَتْ[١] منه، فبسط لها رداءَهُ، فجلست عليه، فقُلْتُ: مَنْ هذه؟ قالوا: أُمُّه التي أرضعته.

وعن عُمر بن السائب[٢] ـ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما، فأقبل أبوه[٣] من الرَّضَاعة، فوضع له بعْضَ ثوبه، فقعد عليه؛ ثم أقبلت أمُّه فوضع لها شِقَّ[٤] ثوبه من جانبه الآخر فجلستْ عليه، ثم أقبل أَخوه من الرضاعة، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه.

[وكان يبعثُ إلى ثُوَيْبَةَ[٥] مولاةِ أبى لَهَب مرضعته بِصِلَة وكسوة، فلما ماتت سأل: مَنْ بقى من قرابتها. فقيل: لا أحد][٦].

وفى حديث خديجة رضى الله عنها أنها قالت له صلى الله عليه وسلم[٧]: أبْشِرْ، فوالله لا يُخْزِيكَ اللهُ أبدا، إنك لتَصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ[٨] المعدوم، وتَقْرِى الضيفَ، وتُعِين على نوائبِ الحقّ.

---

(١) دنت منه: قربت من مكانه الجالس فيه.

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود (٢ ـ ٢١٧)

(٣) هو الحارث بن عبد العزى.

(٤) شق ثوبه: جانبا من ثوبه.

(٥) ثويبة: أول من أرضعته مع ابنها مسروح أياما قبل حليمة. والخبر فى الإصابة (٧ـ٥٤٩).

(٦) فى هامش ا ما بين القوسين من غير الرواية.

(٧) تقدم هذا وشرحه صفحة ١٤٦ والحديث فى صحيح مسلم: ١٤١

(٨) ضبطت التاء فى ا بالضمة والفتحة، وعليها « معا ». وفى هامشه: تكسب ـ بالفتح التاء ـ أحسن. يقال، فلان يكسب المعدوم، إذا كان مجدودا ينال مايحرمه غيره. ويقال: هو آكلكم للمأدوم، وأكسبكم للمعدوم، وأعطاكم للمحروم.
وفى هامش ب: تكسب ـ بفتح التاء ـ أحسن أيضا.

فصـــل

وأما تواضعُه[١] صلى الله عليه وسلم ، على علوّ مَنْصِبه[٢] ورفعة رُتَبِهِ ـ فكان أَشَدَّ الناس تواضُعا ، وأقلّهم[٣] كِبْرا.

وَحسْبُك[٤] أنه خُيِّر بين أن يكون نبيا مَلِكا أو نبيا عَبْدا ، فاختار أن يكون نبيًّا عَبْداً ، فقال له إسرافيل عند[٥] ذلك : فإنَّ الله قد أعطاكَ بما تواضعْتَ[٦] له أنك سيِّدُ ولدِ آدم يوم القيامة ، وأولُ مَنْ تنشقُّ الأرضُ عنه ، وأول شافع[٧] .

حدثنا أبو الوليد بن العَوّاد الفقيه ـ رحمه الله ـ بقراءتى عليه فى منزله بقُرْطبة سنةَ سبع وخَمْسمائة ، حدثنا أبو على الحافظ ، حدثنا أبو عُمَرَ ، حدثنا ابن عبدالمؤمن ، حدثنا ابنُ دَاسَة ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عبدُ الله ابن نُمَـيْر ، عن مِسْعَر ، عن أبى العَنْبَس ، عن أبى العَدَبَّسِ ، عن أبى مرزوق ، عن أبى غالب ، عن أبى أُمامة ، قال : خرج علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم متوكِّئا على عصا ، فقمنا له . فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجمُ[٨] ، يعظِّمُ بعضُها بعضا .

وقال : إنما أنا عَبْدٌ[٩] آكُلُ كما يأكلُ العبد ، وأَجْلسُ كما يجلسُ العبد .

---

(١) التواضع : إظهار أنه وضيع ، وهو أشرف الناس (الشهاب الخفاجى) .

(٢) المنصب : الأصل والحسب .

(٣) فى ب : وأعدمهم كبرا ، وعليها علامة الصحة . وقال القارى (٢ — ٢٨٧) : ذكر الحجازى أنه رواية . والمعنى أفقدهم كبرا .

(٤) حسبك : يكفيك فى إثبات ما ذكر .

(٥) عند ذلك : عند اختياره العبودية .

(٦) بما تواضعت له : أى بسبب تواضعك له .

(٧) فى صحيح مسلم (١٨٨) : أنا أول شفيع فى الجنة .

(٨) الأعاجم : من عدا العرب ، وقد يختص بفارس .

(٩) أى لست بسلطان .

وكان يركبُ الحمار ، ويُرْدِفُ[١] خلفه ، ويعُودُ المساكينَ ، ويُجالس الفقراء ، ويُجيبُ دَعْوةَ العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلسُ جلس .

وفى حديث عُمر عنه: لاتُطْرُونى[٢] كما أطْرَت النصارى ابنَ مريم ، إنما أنا عبدٌ فقولوا : عَبْدُ الله ورسوله .

وعن أنس[٣] أن امرأةً كان فى عَقْلِها شىء[٤] جاءته ، فقالت : إنَّ لى إليك حاجةً[٥] . قال : اجلسى يا أمَّ فلان فى أىِّ طُرقِ المدينة شِئْتِ أجلس إليك حتى أقْضِيَ حاجَتَكِ .

قال : فجلست ، فجلس النبىُّ صلى الله عليه وسلم إليها حتى فرغَتْ من حاجتها .

قال أنس : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يركَبُ الحمار ، ويُجيب دعوةَ العبد ؛ وكان يوم بنى قُرَيْظَة[٦] على حِمَار مخطوم[٧] بحَبْلٍ من ليف عليه إكَاف[٨] .

قال : وكان يُدْعَى إلى خُبْزِ الشعير ، والإهَالَة السَّنِخَة فيُجيب[٩] .

قال : وحجَّ صلى الله عليه وسلم على رَحْل رَثّ[١٠] ، وعليه قَطِيفة[١١] ما تساوى

---

(١) يردف : يجعله رديفا له ؛ أى راكبا خلفه على دابته التى ركبها .

(٢) أطراه : بالغ فى مدحه وجاوز الحد ؛ أى لا تمدحونى .

(٣) الحديث فى سنن أبى داود : ٢ – ١٨٩ (٤) كان فى عقلها شىء : أى من جنون .

(٥) أى لى إليك حاجة أريد أن أنهيها إليك وأعلمك بها .

(٦) يوم بنى قريظة : اليوم هنا بمعنى الوقعة والغزوة . وبنو قريظة :قوم من اليهود بقرب المدينة غزاهم النبى قبل غزوة الخندق . (٧) مخطوم : الخطام : ما يقاد به الدابة .

(٨) إكاف : رحل يوضع على ظهر الحمار للركوب عليه ، أو البردعة .

(٩) الإهالة : كل ما يؤتدم به من الدهن . أو الدسم الجامد . أو ما يذاب من الإلية ، والسنخة : متغيرة الرائحة .

(١٠) الرحل للجمل كالسرج للفرس ، ورث : بال خلق .

(١١) قطيفة : كساء من صوف له خمل .

أربعةَ دراهم؛ فقال: اللهم اجعله حَجًّا لا رِياءَ فيه ولا سُمْعَة(١).

هذا، وقد فُتِحت عليه الأرضُ، وأَهْدَى في حجّه ذلك مائةَ بَدَنة(٢).

ولما فُتِحت عليه مكّةُ ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رَحْلِه(٣) رَأْسه حتى كاد يَمَسُّ قادِمتَه تواضُعاً لله تعالى(٤).

ومِنْ تواضُعه صلى الله عليه وسلم قَوْله(٥): لا تفضّلوني على يونُسَ بن متى، ولا تُفَضِّلوا بَيْنَ الأنبياء، ولا تُخَيِّروني على موسى، ونحنُ أحقُّ بالشكّ من إبراهيم، ولو لبِثْتُ ما لَبِثَ يوسف [٤٢] في السجن لأجبْتُ الدّاعي(٦).

وقال للذي قال له: يا خَيْرَ البَرِيّة: ذاك(٧) إبراهيم.

وسيأتي الكلامُ على هذه الأحاديث بعد هذا إنْ شاء الله.

وعن عائشة، والحسن، وأبي سعيد، وغيرهم ـ في صِفَته، وبعضُهم يزيدُ على

---

(١) الرياء: ما يفعل من عبادة ونحوها لأجل أن يراه الناس فيمدحوا صاحبه به. والسمعة: ما يفعل ليشيع ويسمع الناس به.

(٢) أهدى: بعث الهدى؛ وهو ما يرسل للبيت الحرام لينحر فيه ويتصدق به من الإبل والبقر، وكذا البدنة تطلق على الجمل والناقة والبقرة، وأكثر ما تطلق على الإبل؛ وسميت بدنة لكبر بدنها.

(٣) في هامش ا: راحلته. وفي ب: راحلته، وفي هامشه: رحله.

(٤) الرحل له مقدم ومؤخر مرتفع عن محل الراكب. وقادمة الرحل: مقدمه.

(٥) قال في نسيم الرياض: قال السيوطي: لم أقف عليه بهذا اللفظ؛ والذي في البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى. وفي سنن أبي داود: ما ينبغي لنبي أن يقول: أنا أفضل من يونس بن متى.

(٦) لبث في السجن بضع سنين. والمراد بإجابة الداعي: رسول الملك الذي دعاه للخروج.

(٧) خص إبراهيم؛ لأن الله أمره باتباع ملة إبراهيم.

بعض : كان فى بيته فى مِهْنَة(١) أهلِه يُفَلِّى ثَوْبَه(٢) ، ويَحْلُب شاتَه ، ويَرْقَع ثَوْبَه ، ويَخْصِفُ نَعْلَه(٣) ، ويخدمُ نفسَه ، ويَقُمُّ البيتَ(٤) ، ويَعْقِلُ البعير ، ويَعْلِفُ نَاضِحَه(٥) ، ويأكلُ مع الخادم ، ويَعْجِنُ معها ، ويحملُ بضاعتَه من السوق .

وعن أنس : إنْ كانت الأَمَةُ من إماء أهلِ المدينة لتأخذُ بيَدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت حتى يَقْضِيَ حاجتَها .

ودخل عليه رجلٌ فأصابته من هَيْبَتِه رِعْدَةٌ(٦) ، فقال له : هَوِّن عليكَ ، فإنى لستُ بملك ، إنما أنا ابْنُ امرأةٍ من قريش تأكلُ القَدِيدَ(٧) .

وعن أبى هُرَيرة : دخلتُ السوقَ مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فاشترى سَرَاوِيل(٨) وقال للوزّان: زِنْ وَأَرْجِحْ(٩) ـ وذكر القصةَ ـ قال: فوثب(١٠) إلى

(١) مهنة أهله : المهنة : الخدمة . وكلمة «مهنة» ضبطت ميمه بالفتحة والكسرة، وكتب فوقها « معا » فى ا ، ب . وفى هامش ب : بفتح الميم ، وخفضها خطأ ؛ قاله شمر عن مشايخه . وقال غيره : بالكسر وأنكر الفتح. قال الحافظ المزى : كسر الميم أحسن، لأن مهنة على وزن خدمة ومعناه. وفى البخارى (٨ – ١٧) : . . . سألت عائشة : ما كان النبى يصنع فى أهله ؟ قالت : كان فى مهنة أهله ، وإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة .

(٢) قيل : المراد بفليه : تفتيشه لخرق فيه ، أو تعلق شىء به من شوك ونحوه ، وكل ذلك للتشريع وإظهار التواضع .

(٣) يخصف نعله : يخرزها .

(٤) يقم البيت : يكنسه ويزيل قمامته .

(٥) ويعلف ناضحه : الناضح : البعير الذى يستقى عليه .

(٦) رعدة : الرعدة : أن يرجف الإنسان ويضطرب .

(٧) القديد : هو اللحم الذى يقطع ويجعل فى الشمس حتى ييبس .

(٨) قال السيوطى : قد رأيت الذى ذكره المصنف فى معجم الطبرانى الأوسط ، ومسند أبى يعلى ؛ وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لبسها . والسراويل تذكر وتؤنث .

(٩) للوزان : أى الذى يزن الدراهم وينقدها وهو الصيرفى . وأرجح : أى زد له حتى يترجح الميزان بزيادة الكفة التى فيها الدراهم ، فالرجحان : نزول كفة الميزان لزيادة ما فيها .

(١٠) الذى وثب هو الوزان كما فى القارى (١ – ٢٩٤) .

يَدِ النبي صلى الله عليه وسلم يُقبِّلها، فجذب يده، وقال: هذا تفعله[١] الأعاجمُ بملوكها، ولستُ بملك، إنما أنا رجل منكم. ثم أخذ السراويلَ، فذهبت لأحمِلَه، فقال: صاحِبُ الشيء أحقُّ بشيئِه أنْ يحمِلَه.

فصل

وأما عَدْلُه صلى الله عليه وسلم وأمانتُه وعفَّتُه وصِدْقُ لَهْجَته[٢] – فكان صلى الله عليه وسلم آمَنَ الناس، وأعدلَ الناس، وأعفَّ الناس، وأصدقَهم لَهْجَةً منذ كان، اعترف له بذلك مُحادُّوه[٣] وعِداهُ.

وكان يُسَمَّى قبل نبوّته الأَمِين.

قال ابن إسحاق[٤]: كان يسمَّى الأمينَ بما جمَعَ اللهُ فيه من الأخلاق الصالحة.

وقال تعالى[٥]: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين﴾: أكثَرُ المفسرين[٦] على أنه محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما اختلفت قريشٌ وتحازبت[٧] عند بناء الكعبة فيمَنْ يضَعُ الحَجَرَ حكَّموا[٨] أولَ داخلٍ عليهم، فإذا بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم داخل – وذلك قَبْلَ نبوته؛ فقالوا: هذا محمد الأمين قد رَضِينا به.

---

(١) هذا: أى التقبيل.
(٢) اللهجة: اللسان والكلام.
(٣) محادوه: جمع محاد – بتشديد الدال المهملة؛ وهو المعادى والمخالف له؛ وهو المحارب أيضا. وعداه: أعداؤه ومعادوه.
(٤) قال السيوطى: هذا حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده، والحاكم، والطبرانى عن على كرم الله وجهه.
(٥) سورة التكوير، آية ٢١. مطاع: مكرم. ثم: عند الملأ الأعلى. أمين: موصوف بالأمانة.
(٦) وكثير منهم على أنه جبريل.
(٧) تحازبت: صارت أحزابا وفرقا لاختلاف آرائهم. وفى ا: تحاربت – بالراء. والمثبت فى ب.
(٨) حكموا: ارتضوا بأن يكون الحاكم فى ذلك أول داخل.

وعن الربيع بن خُثَيْم : كان يُتَحاكَمُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية قبل الإسلام .

وقال صلى الله عليه وسلم : وآللهِ إنى لأَمِين فى السماء أَمِينَ فى الأرض [١] .

حدثنا أبو على الصَّدَفِى الحافظ بقراءتى عليه ، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون ، حدثنا أبو يَعْلى ابن زَوْج الُحرّة ، حدثنا أبو على السِّنْجِىّ ، حدثنا محمد بن محبوب المَرْوَزِى ، حدثنا أبو عيسى [٢] الحافظ ، حدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن ناجِيةَ بن كعب ، عن علىٍّ - أَن [٣] أبا جَهْل قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم: إنا لا نُكَذِّبُكَ ، ولكن نكَذِّبُ بما جئْتَ به ، فأنزل الله تعالى [٤] : ﴿ فإنَّهُم لا يُكَذِّبُونكَ ولكنَّ الظالمين بآياتِ آللهِ يَجْحَدُون ﴾ [٥] .

ورَوى غيره : لا نُكَذِّبُكَ ولا أنْتَ فينا بمُكَذَّب .

وقيل : إنّ الأخْنَس بن شَرِيق لقِيَ أبا جهل يوم بَدْر ، فقال له : يا أَبا الحَكَم ، ليس هنا غيرى وغَيْرُك يسمَعُ كلامنا ، تُخْبِرنى عن محمد ؛ صادِق [هو] [٦] أم كاذب؟ فقال أبو جهل : واللهِ إنّ محمدا لصادق ، وما كذَب محمدٌ قَطُّ .

وسأل هِرَقْل [٧] عنه أبا سفيان ، فقال : هل كنتم تتّهِمونه بالكذب قبل أَنْ يقولَ ما قال ؟ قال : لا .

---

(١) يعنى أنه مشهور بذلك بين الملأ الأعلى وبين أهل الأرض ؛ لأنه لم يتهم قط بكذب وجور فى أحكامه . وهذا الحديث رواه ابن أبى شيبة فى مسنده عن أبى رافع .

(٢) هو الترمذى . (٣) سنن الترمذى : ٤ - ٢٦١ (٤) سورة الأنعام ، آية ٣٣

(٥) المراد : لا يكذبونك : لا يحكمون عليك بأن سجيتك الكذب ، لأنك موصوف بالصدق عندهم فى جميع شئونك ما عدا قولك الذى جئت به من عند الله - وهو الآيات - فإنهم يجحدونه . (٦) من ب .

(٧) قصة أبى سفيان مع هرقل مروية فى الصحيحين مفصلة . وارجع إليها فى صحيح البخارى : ١ - ٧ إن أردت .

وقال النَّضْر بن الحارث[١] لقُرَيش : قد كان محمد فيكم غلاما حدَثا[٢] ، أَرْضاكُمْ فيكم ، وأَصْدقكم حديثا ، وأَعْظَمكم أمانةً حتى [٤٣] إذا رأيتم فى صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ[٣] ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحِر . لا ، واللهِ ، ما هو بساحر.

وفى الحديث عنه : مالمَسَتْ يَدُه يدَ امرأةٍ قط لا يملكُ رِقَّها[٤] .

وفى حديث علىّ ـ فى وصفه صلى الله عليه وسلم : أصدقُ الناسِ لَهْجَةً .

وقال فى الصحيح : وَيْحَكَ ! فمَنْ يعــدلُ إنْ لم أَعْدِلْ ، خِبْتَ وخَسِرْتَ إنْ لم أعدل[٥] .

قالت عائشة[٦] : ما خُيِّرَ رسولُ الله صلى الله عليـــه وسلم فى أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثْماً ، فإنْ كان إثما كان أَبعَدَ الناسِ منه .

قال أبو العباس المبرِّد : قَسَمَ[٧] كِسْرى أيامَه؛فقال : يصلحُ يَوْمُ الريحِ للنَّوم[٨] ، ويومُ الغَيْمِ للصيد[٩] ، ويومُ المطر للشُّرْبِ واللَّهْو[١٠] ، ويومُ الشمس للحوائج[١١] .

---

(١) فى حديث رواه ابن إسحاق ، والبيهقى ، عن ابن عباس . وكان النضر شديد الأذية للمسلمين . (٢) حدثا : شابا .

(٣) كنى بذلك عن أنه تمت رجوليته ، وكمل عقله بمجاوزته سن الشباب .

(٤) وهذا من عفته. وهذا الحديث رواه الشيخان عن عائشة: صحيح البخارى: ٩ـ٩٩

(٥) قد تقدم ذكر هذا الحديث،وشرح غريبه صفحة ١٣٨ ، وقد ضبطت التاء فى الكلمتين هنا أيضا بالضمة والفتحة وعليها « معا » فى ا ، ب .

(٦) تقدم أن هذا الحديث فى صحيح مسلم صفحة ١٨١٣

(٧) ضبطت السين فى ا بالفتحة ، وشددت فى ب .

(٨) للنوم والتغطية حتى يسلم من مس الريح الشديد .

(٩) لعدم أذية الشمس وحرها .

(١٠) لقلة المصالح فيه ، والسلامة من البلل ، والنظافة من الوحول . والمراد باللهو : سماع الغناء ومنادمة الندماء .

(١١) المراد بالحوائج : مصالح الناس ، وإنما اختير ذلك اليوم للحوائج لعدم المانع فيه .

قال ابنُ خالَوَيْه : ما كان أعرفَهم بسياسة دُنْياهم، يعلمون ظاهرا من الحياةِ الدنيا وهم عن الآخرةِ غافلون ، ولكن نبيّنا صلى الله عليه وسلم جزّأ نهارَه ثلاثة أجزاء ، جزءًا لله[١]، وجُزْءًا لأهله[٢]، وجزءًا لنفسه ، ثم جزّء جُزْأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة ، ويقول : أَبْلِغُوا[٣] حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغى ؛ فإنه مَنْ أَبْلغَ حاجةَ مَنْ لا يستطيع [إبلاغَها][٤] آمنَهُ اللهُ يوم الفزَعِ الأكبر[٥].

وعن الحسَن كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لا يأخُذُ أحدا بقَرْفِ أحد[٦]، ولا يُصَدِّقُ أحداً على أحد .

وذكر أبو جعفر الطَّبَرى[٧] عن علىّ عنه صلى اللهُ عليه وسلم : ماهَمَمْتُ بشىء مما كان أَهْلُ الجاهلية يعملون به غير مرّتين ، كلُّ ذلك يحولُ اللهُ بينى وبين ما أُرِيدُ من ذلك ، ثم ما هَمَمْتُ بسوء حتى أكرمنى اللهُ برسالته ؛ قلت ليلةً لغلام كان يَرْعَى معى : لو أبصرتَ لى غَنَمِى حتى أدخُلَ مكةَ فأَسْمُرَ بها كما يَسْمُرُ[٨] الشباب .

فخرجتُ كذلكَ حتى جئتُ أولَ دارٍ من مكة سمعتُ عَزْفاً بالدُّفوف والمَزَامِير لعُرْسِ بعضهم . فجلستُ أنظرُ ، فضُرِب على أُذُنِى[٩] فنِمْتُ ، فما أيقظنى إلّا مَسُّ

---

(١) جزءا لله : أى لعبادة الله وتلقى وحيه . (٢) وجزءا لأهله : لمصالح أهل بيته .

(٣) فى ا : أبلغونى . (٤) من ب .

(٥) يوم الفزع الأكبر: هو يوم البعث والحشر، وحيث يكون الناس كلهم فى فزع وخوف من العذاب . وسيأتى هذا الحديث بعد . وهو فى شمائل الترمذى ، وغيره ، كما سيأتى .

(٦) قال السيوطى هذا الحديث رواه أبوداود فى مراسيله. والأخذ : المراد به هنا العقوبة. والقرف : التهمة . والذنب ، والكسب . وهذا من عدله . وفى هامش ا ، ب : قرفت الرجل بسوء : ظننته به ، أو رميته به . وقرفه بالأمر ، إذا أضافه إليه .

(٧) قد تقدم هذا الحديث صفحة ١٣٠ ؛ وإنما أعاده المصنف هنا لبيان عفته صلى الله عليه وسلم عن اللهو، وأن الله عصمه عن ذلك من أول أمره. وهو هنا فيه زيادة (دلائل النبوة للبيهقى : ١ — ٣٨٠) . (٨) السمر : التحدث بالليل . (٩) ضرب على أذنى : نمت .

الشمس (١) ، فرجعت ولم أقْضِ شيئا . ثم عَرَانى (٢) مرةً أخرى مثلُ ذلك ، ثم لم أهُمّ بعد ذلك بسوء .

فصـــل

وأما وقَارُه (٣) صلى الله عليه وسلم وصَمْتُه وتُؤَدَتُه ومروءته وحسْنُ هَدْيه (٤) فحدثنا أبو على الجيّانى الحافظ إجازةً ، وعارضْتُ بكِتابه (٥)؛ قال : حدثنا أبو العباس الدّلائى ، أنبأنا أبو ذَر الهَرَوى ، أخبرنا أبو عبد الله الورّاق ، حدثنا اللؤلؤىُّ ، حدثنا أبو داود ، حدثنا عبدُ الرحمن بن سلّام، حدثنا حجاج بن محمد ، عن عبدالرحمن ابن أَبِى الزِّنَاد عن عُمر بن عبد العزيز بن وُهَيب (٦) : سمعتُ خارجةَ بن زَيْد يقول : كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم أوْقَرَ الناسِ فى مجلسه (٧) ، لا يكادُ يُخْرِجُ شيئا من أطرافه (٨) .

ورَوَى أبو سَعِيد الخُدْرى : كان (٩) رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المجلس احْتَبَى بيديه ، وكذلك كان أكثَرُ جلوسِه صلى الله عليه وسلم مُحْتَبِيا (١٠) .

---

(١) مس الشمس : مس حرها . (٢) عرانى : طرأ على ، وعرض لى .
(٣) وقاره : سكونه وطمأنينته ورزانته .
(٤) حسن هديه : سيرته وطريقته .
(٥) وعارضت بكتابه : قابلت نسختى بنسخته حال القراءة . فالمعنى أنه حدثه به قراءة منه ، وهو مقابل له ، وفى يده كتابه .
(٦) عليها علامة الصحة فى ا ، وفى هامشه : أهيب .
(٧) أى أعظمهم وقارا إذا برز للناس وجلس معهم ، بخلاف ما إذا خلا مع أهله أو مع خاصته فإنه ينبسط معهم ويلاطفهم .
(٨) من أطرافه : أى أطراف بدنه كرجليه . (٩) سنن أبى داود : ٢ — ١٩٠
(١٠) الاحتباء: أن يجمع ظهره وساقيه بيديه أو عمامته ونحوه . وفى هامش ب: الحبوة: ضم الساق إلى البطن بثوب . وفى ب : احتبى بثوبه .

وعن جابر بن سَمُرة أنه تَربَّع (١) ، وربما جلس القُرْفُصاء (٢) ، وهو فى حديث قَيْلَة (٣) ؛ وكان كثير السكوتِ لايتكلم فى غير حاجةٍ ؛ يُعْرِضُ عمن تكلَّم بغير جميل، وكان ضَحِكُه تبسُّما ، وكلامُه فَصْلا (٤) ، لافُضُولَ ولاتقصير (٥) ، وكان ضحكُ أصحابه عنده التبسُّم ؛ توقيرا له ، واقتداء به . مجلِسُه مجلسُ حِلْم وحَيَاء [٤٤] ، وخَيْرٍ وأمانةٍ (٦) ، لا تُرْفَعُ فيه الأصواتُ ، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَم (٧) ، إذا تكلَّم أَطْرَق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطَّيْر (٨) .

وفى صفته : يَخْطو تَكَفُّأً (٩) ، ويَمْشِى هَوْنا ، كأنما يَنْحَطُّ مِنْ صَبَب (١٠) .

وفى الحديث الآخر : إذا مشى مَشَى مجتمعا (١١) ، يُعْرَف فى مِشْيته أنه غَيْرُ غَرِض ولا وَكِل (١٢) ؛ أى غير ضَجِر ولا كَسْلان .

---

(١) تربع : جلس متربعا ، وهو أن يعقد الرجل على وركيه ، ويمد ركبته اليمنى إلى جانب يمينه ؛ وقدمه اليمنى إلى جانب يساره ، وركبته اليسرى إلى جانب يساره، وقدمه اليسرى إلى جانب يمينه ، وهذا فى خارج الصلاة .

(٢) جلس على أليته كجلوس المحتبي بيديه من غير احتباء . وفى هامش ب : القرفصاء : جلسة المحتبي بيديه ، يقال : قرفص اللص : إذا شد يديه تحت رجليه .

(٣) أى ورد فى حديثها ، وانظر سنن أبى داود : ٢ — ١٩١

(٤) فصلا : فاصلا بين الحق والباطل . أو مفصلا لتمهله فيه .

(٥) لا فضول : لازيادة . ولا تقصير ولا نقصان فيه عن قدر الحاجة ؛ فيخل بفهم السامع .

(٦) وأمانة : يأمن المتكلمون فيه على أسرارهم .

(٧) تؤبن : أبنه : عابه ورماه بقبيح . والحرم : جمع حرمة ؛ وهى كل ما يحرم هتكه .

(٨) وصفهم بالسكون وعدم الخفة والطيش . (٩) تكفأ : مال إلى قدام . أو مال يمينا وشمالا كمشى المختال . (١٠) الصبب : هو الموضع المنحدر .

(١١) مجتمعا : ينقل أعضاءه كلها دفعة واحدة من غير تحريك لرأسه ويديه .

(١٢) غرض : من الغرض، وهو الضجر والملل، وسيأتى للمؤلف . وفى ا ضبطت الكاف فى « وكل » بالفتحة والكسرة وعليها « معا » . وفى ب ضبطت الكاف بالفتحة فقط. وفى هامشه : الوكل — بالفتح : الرجل الذى يتكل على غيره .

وقال عبد الله بن مسعود : إنَّ أحسَن الهدْى هَدْىُ (١) محمد صلى الله عليه وسلم.

وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما : كان فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْتيلٌ أو تَرْسِيل (٢) .

قال ابنُ أبى هَالَة : كان سكوتُه على أربع : على الحِلْم ، والحَذَر ، والتقدير ، والتفكّر (٣) .

قالت عائشة : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثا لوعَدّهُ العادُّ أحصاه (٤) .

وكان صلى الله عليه وسلم يحِبُّ الطِّيبَ والرائحةَ الحسنة ، ويستعملها (٥) كثيرا ، ويحضُّ عليهما (٦) ، ويقول (٧) : حُبِّبَ إلىّ من دُنياكم النساء ، وجُعِلت قُرّة عينى فى الصلاة .

ومن مروءته صلى الله عليه وسلم نَهْيُه عن النَّفْخ فى الطعام والشَّراب (٨) ، والأمرُ

---

(١) الهدى : السمت والسيرة والطريقة والحالة التى يكون عليها .

(٢) ترتيل أو ترسيل: يبين الكلام من غير عجلة ولا غموض حتى يسبق فهم السامع إليه . وقيل الترتيل : التبيين . والترسيل : التؤدة .

(٣) أى يقع على أربع خصال فيه : على الحلم : أى يسكت تارة لحلمه ، أو الاحتراس من كلام ربما أدى لأمر يخشى منه ، أو ليقدر النبى فى نفسه وسكوته مايليق به وبغيره ، أو للتفكر فى مصنوعات الله .

(٤) وذلك لقلته ؛ ولتثبته ، وعدم سرعته فيه .

(٥) هذا فى ا ، ب . وفى هامش ب : ويستعملهما .

(٦) فى ب : ويحض عليها .

(٧) قد تقدم هذا الحديث ، وتخريجه : صفحة ١١٧

(٨) مروءته : إنسانيته ، ومعناها التلبس بما يليق بالرجال ، وترك ما يخل به ؛ فارتكاب مايكرهه الصاحب مخل بالمروءة . والنفخ فى الطعام والشراب قد يخرج منه ريق فيكره تناوله

بالأَكْلِ مِمَّا يَلِي ، والأمرُ بالسواكِ [١] ، وإنقَاءِ البَرَاجِمِ والرَّوَاجِب [٢] ، واستعمال خِصَالِ الفِطْرَةِ [٣] .

فصــــل

وأما زُهْدُه [٤] فى الدنيا فقدتقدَّم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفى . وحَسْبُك [٥] من تَقَلُّلِه منها ، وإعراضِه عن زَهْرَتِها [٦] ؛ وقد سِيقَتْ إليه بحَذَافِيرِها [٧] ، وترادَفَتْ [٨] ،

(١) الأمر بالسواك : أمر ندب . وعده من المروءة لما فيه من النظافة وطيب رائحة الفم.

(٢) إنقاء : أنقاه : إذا نظفه . البراجم: مفاصل الأصابع التى بينها، والسلاميات من ظهر الكف : التى ترتفع إذا قبض الإنسان كفه ، فهى المفاصل الظاهرة ، والبراجم : الباطنة . والرواجب : هى المفاصل التى تلى الأنامل . ونقل عن أبى عبيد أن البراجم والرواجب جميعا: مفاصل الأصابع كلها . قال فى نسيم الرياض : وهو اللائق بكلام المصنف .

وفى هامش ا : البراجم : رءوس السلاميات من ظاهر الكف ؛ إذا قبض القابض كفيه نشزت ، واحدتها برجمة .

والرواجب : بطون السلاميات ، واحدتها راجبة. والسلاميات : واحدتها سلامى ،وهى العظام التى بين كل مفصلين من مفاصل الأصابع .

(٣) الفطرة : الخلقة، والمراد السنة التى أمر بها النبى صلى الله عليه وسلم .وخصال الفطرة ـ فيما رواه الشيخان : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط : (صحيح مسلم : ٢٢١) .

(٤) قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ١٣٨) : الزهد : معناه ترك الدنيا رغبة فيما عند الله ؛ وهو ثلاثة أقسام : ترك الحرام وهو زهد العوام ،وترك فضول الحلال وهو زهد الخواص ، وترك كل ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين .

(٥) حسبك : يكفيك .

(٦) عن زهرتها :أى تركه صلى الله عليه وسلم ما يرغب فيه الناس من زخرف الحياة الدنيا.

(٧) بحذافيرها : بجملتها وكليتها من جميع نواحيها ، وجوانبها .

(٨) ترادفت : تتابعت وتوالت ؛ فأتته الدنيا راغمة بما يسر الله له من الغنائم والأموال والأرزاق الواسعة الطيبة ، بحيث لو أراد توسع فيها وأنفق واقتطف زهرتها ، ولكنه لم يرضها ، واكتفى بأقل قليل منها .

عليه فتوحُها إلى أن تُوفِّي صلى الله عليه وسلم ودِرْعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ في نفقةِ عِيَاله[1] ، وهو يدعو ويقول : اللهم اجعلْ رِزْقَ آلِ محمدٍ قُوتاً[2] .

حدثنا سفيانُ بن العاصي ، والُحسين بن محمد الحافظ ، والقاضي أبو عَبْد الله التميمي ؛ قالوا : حدثنا أحمد بن عُمر ، قال : حدثنا أبو العباس الرازي ، قال : حدثنا أبو أحمد الُجلُودي ، حدثنا ابن سفيان، حدثنا أبو الحسين [مسلم][3] بن الحجاج ؛ حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ[4] ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة[5] ؛ قالت : ما شَبِع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تِباعا[6] من خُبْزٍ حتى مضَى لسبيله[7] .

وفي روايةٍ أخرى : من خُبْزِ شعير يومين مُتَواليين ، ولو شاء اللهُ لأعطاه مالا يَخْطُر ببَال[8] .

وفي روايةٍ أخرى : ماشَبِع آلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من خُبْزِ بُرٍّ حتى لقِيَ اللهَ تعالى .

وقالت عائشة: ما ترك[9] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دِينارا ولادِرْهما ولا شاةً ولا بَعيرا .

(١) العيال : أهل البيت ومن تلزمه نفقته .وهذا الحديث في صحيح البخاري : ٤-٤٩، وفي هامش ب : اليهودي اسمه أبو النجم .

(٢) القوت : كل مايتقوت به الإنسان من الطعام ؛ أي اجعله بما يسد الرمق من غير زيادة . والحديث في سنن الترمذي : ٤ ـ ٥٨٠ ، وصحيح البخاري : ٨ ـ ـ ١٢٢

(٣) من ب . (٤) في هامش ب : ابن أبي شيبة صاحب المصنف .

(٥) الحديث في صحيح مسلم : ٢٢٨٤ ، والبخاري :٨ ـ١٢١،وسنن الترمذي:٤-٥٧٩

(٦) تباعا : متتابعة متوالية . (٧) مضى لسبيله : توفي .

(٨) البال : القلب والعقل والفكر . وخطر : ذكر وتصور ؛ أي يعطيه منها كل نفيس لم يتصوره أحد من الناس لجلالته وعظمته . (٩) ماترك : ماخلف تركة .

وفى حديث عَمْرو بن الحارث[١] : ماترك إلّا سلاحَه وبَغْلَته وأرضاً جعلها صَدَقة.

قالت عائشة : ولقد مات وما فى بيتى شىء يأكلهُ ذُو كَبِدٍ[٢] إلا شَطْرُ شَعِير[٣] فى رَفّ لى[٤] .

وقال لى : إنى عُرِضَ علىّ أن تَجْعَلَ لى بَطْحاء مكة[٥] ذهبا . فقلتُ : لا،يارب، أجوعُ يوما وأَشْبع يوما ، فأمّا اليــومُ الذى أجوعُ فيه فأتضرّع إليك وأدعوك ، وأما اليومُ الذى أشْبَع فيه فأَحْمَدك وأُثنى عليك .

وفى حديث[٦] آخر إنّ جبريلَ نزل عليه ، فقال له : إنّ ٱللهَ تعــالى يُقرئك السلامَ، ويقول لك :أتُحِب أنْ أجعلَ هذه الجبالَ ذهبا، وتـكونُ معك حيثما كنْتَ، فأطرق[٧] ساعةً ، ثم قال : ياجِبريلُ ، إنّ الدنيا دارُ مَنْ لا دَارَ له[٨] ، ومالُ مَنْ

---

(١) الحديث فى البخارى : ٨ — ١١٩ (٢) ذو كبد : ذو حياة .

(٣) أراد به نصف مكوك ، أو نصف وسق . والمكوك : المد ، وقيل : الصاع . وضبطت الراء فى شطر بالفتحة والضمة وعليها « معا » فى ب .

(٤) فى رف لى : الرف : شبه الطاق فى الحائط . ويطلق على خشبة عريضة ترفع عــن الأرض تعد لوضع مايراد حفظه .

(٥) البطحاء والأبطح : واد تجرى فيه السيول . أو بطن واد فيه رمل وحصى . والمراد بجعله ذهبا أن يملأه به ، أو أن يقلب حصاه ورماله ذهبا .

(٦) فى نسيم الرياض (٢ — ١٤٣) : قال السيوطى : لم أجده هكذا . ولـكن البيهقى أخرجه فى الزهد من طريق عطاء ، عن ابن عباس — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوما : ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق ، فأتاه إسرافيل عليه السلام ، فقال : إن الله سمع ماذكرت ، فبعثنى إليك بمفاتح الأرض ، وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة ياقوتا وذهبا وفضة ، فقلت . . .

قال : فما ذكره المصنف رحمه الله رواية بالمعنى من عدة أحاديث .

(٧) أطرق ساعة : طأطأ رأسه يفـكر فيما يجيبه به صلى الله عليه وسلم .

(٨) دار من لا دار له : لأنها فانية لايقيم فيها أحد .

لا مالَ[١] له ، قد يجمَعُها مَنْ لا عَقْلَ له .

فقال له جبريل : ثبّتَكَ اللهُ يا محمدُ بالقول الثابت[٢] .

وعن عائشة[٣] قالت : إنْ كنّا آلَ محمد لَنَمْكُثُ شهرا ما نستوْقِدُ[٤] نارا ؛ إنْ هو إلا التّمْرُ والماء .

وعن عبدالرحمن بن عوف[٥] : هلك رسولُ اللهصلى الله عليه وسلم[٤٥]، ولم يشْبَعْ هو وأهلُ بيته من خُبْزِ الشّعِير .

وعن عائشة وأبى أُمامة[٦] ، وابن عباس نحوه .

قال ابنُ عباس : كان صلّى اللهُ عليه وسلم يَبِيتُ هو وأهلُه الليالىَ المتتابعةَ طاوِياً[٧] لا يجدون عَشاء .

وعن أَنس[٨] : ما أكلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على خِوَانٍ ولا فى سُكُرُّجَةٍ[٩] ، ولا خُبِزَ له مُرَقّق[١٠] ، ولا رَأى شاةً سَمِيطا قطّ[١١] .

---

(١) ومال من لا مال له: أى إن ما يملكه المرء فيها سيسلب منه ، فهو عارية أو وديعة ، فصاحبه لا ملك له حقيقة ، فكل غنى فيها فقير. (٢) بالقول الثابت: الحق ؛ لأنه دائم لا يزول.

(٣) فى حديث صحيح فى البخارى : ٨ — ١٢١

(٤) هذا كناية عن أنهم ليس عندهم مايطبخ .

(٥) هذا الحديث رواه الترمذى فى سننه : ٤ — ٥٨٠

(٦) حديث أبى أمامة فى سنن الترمذى : ٤ — ٥٨٠ ، وحديث ابن عباس هو الآتى بعد ، وهو فى سنن الترمذى أيضا : ٤ — ٥٨٠

(٧) طاويا : جائعا . (٨) فى حديث رواه البخارى : ٨ — ١٢١

(٩) خوان : مائدة . والسكرجة : قصعة صغيرة يوضع فيها الكوامخ .

(١٠) المرقق: رقيق الخبز. كالرقاق . وفى ب: مرقق — بالرفع والنصب، وعليها كلمة «معا».

(١١) فى نسيم الرياض (٢—١٤٧): أى لم يطبخ له صلى الله عليه وسلم شاة بتمامها بعد سمطها — أى غليها فى الماء الحار حتى يذهب شعرها، ثم تشوى. وظاهر كلامهم أنها لم تسلخ، وأن ماذكر فى الحملان الصغيرة . وقال القارى (١ — ٣١٠) : سميطا ؛ أى مسموطا ، يعنى مشويا بجلده .

وعن عائشة [١] : إنما كان فِرَاشُه الذى ينامُ عليه أَدَماً [٢] حَشْوُهُ لِيف .

وعن حَفْصة [٣] قالت : كان فِرَاشُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فى بيته [٤] مِسْحاً [٥] نَثْنيه ثِنْيتَيْنِ [٦] ، فينام عليه ، فثنيناه له ليلةً بأربع ، فلما أصبح قال : ما فَرَشْتُمُ [٧] لى الليلة ؟ فذكَرْنَا ذلكَ له ، فقال : رُدُّوه بحاله ، فإنّ وَطْأَتَه [٨] منعتنى الليلةَ صلاتى .

وكان صلى الله عليه وسلم ينامُ أحيانا على سَرِيرٍ مَرْمُولٍ [٩] بِشَرِيط حتى يؤثِّرَ فى جَنْبِه [١٠] .

وعن عائشة قالت: لم يمتلئْ جَوْفُ النبيّ صلى الله عليه وسلم شِبَعاً قطُّ، ولم يَبُثّ [١١] شكوى إلى أحَدٍ ، وكانت الفاقةُ [١٢] أحبّ إليه من الغِنَى ، وإن كان ليظلُّ جائعا

---

(١) الحديث فى البخارى : ٨ - ١٢١ (٢) أدم : جلد مدبوغ لين .

(٣) حديث حفصة رواه الترمذى فى الشمائل منقطعا . قال فى نسيم الرياض : وحديثها لا ينافى حديث عائشة المتقدم ، لجواز أن كلا منهما ذكرت فراشه الذى كان عندها .

(٤) فى ب : فى بيتى . وفى هامشه : فى بيته .

(٥) مسحا : المسح : ثوب للفراش شبه الكساء . وقيل : من شعر أسود . قال الشهاب (٢ - ١٤٧) : وهو على كل حال شىء غليظ يتنزه عن مثله أهل الترفه .

(٦) ضبطت التاء فى ا بالكسرة . وفى ب : ثنيين . وضبطت التاء بالفتحة والكسرة ، وكتب فوقها « معا » .

(٧) فى ا ، ب : ما فرشتمونى . وفى هامش ب : ما فرشتمو لى .

(٨) وطاءته : لينه تحت جنبى . وضبطت الواو فى ب بالكسرة . وفى ا : وطأته - بفتح الواو وسكون الطاء .

(٩) مرمول ، ومرمل ، ورمال : ينسج فى وجهه بالسعف وغيره ويشد بشريط ونحوه .

(١٠) كان يؤثر فى جنبه لسكونه بغير فراش يحول بينه وبينه . وهذا الحديث فى صحيح مسلم : ١٩٤٤ ، والترمذى : ٤ - ٥٨٨، وابن ماجه : ١٣٩٠

(١١) لم يبث : لم يذكر ويظهر . (١٢) الفاقة : الحاجة والفقر .

يَلتَوِي طولَ ليلته من الجوع فلا يَمنَعهُ صيامَ يومه ، ولو شاء سأل ربه جميعَ كنوزِ الأرضِ وثمارِها ورَغَدِ عيشها ، ولقد كنتُ أبكى له رحمةً مما أرَى به ، وأمسحُ بيدى على بطنه مما به من الجوع ، وأقولُ : نَفسِى لك الفِداء ؛ لو تبلَّغتَ من الدنيا بما يَقُوتُكَ(١) ! فيقول : ياعائشةُ ؛ مالى وللدُّنيا ، إخوانى من أولى العَزْم من الرُّسُل صَبرُوا على ماهو أشدُّ مِنْ هذا، فمضَوْا على حالِهم(٢) ، فقدِمُوا على رَبِّهم ، فأَكْرَمَ مآبَهُم(٣) ، وأجْزَل ثوابَهم(٤) ؛ فأجِدُنى أستَحْيِى إنْ ترفَّهتُ(٥) فى معيشتى أنْ يُقَصَّر بى غدا دونَهم (٦) ، وما مِنْ شىء هو أحبُّ إلىّ من اللُّحُوق بإخوانى وأخِلَّائى (٧).

قالت : فما أقام بعدُ إلا شهرا حتى تُوفّى صلى الله عليه وسلم .

فصــــل

وأما خَوْفُه ربَّه ، وطاعتُه له ؛ وشدةُ عبادته ، فعلى قَدْرِ عِلْمِه بربه (٨) ، ولذلك قال فيما حدثناه أبومحمد بن عتّاب قراءةً منى عليه.قال:حدثنا أبو القاسم الطَّرَابُلسِىّ،

---

(١) التبلغ : من البلاغ ، وهو مقدار الكفاية. والمراد : لو اكتفيت من الدنيا بالكفاف من القوت من غير ضرورة ومخمصة .

(٢) مضوا على حالهم : استمروا عليه راضين بقضاء الله لهم إلى أن ماتوا .

(٣) مآبهم : مرجعهم إليه .

(٤) أجزل ثوابهم : أكثر لهم العطاء والجزاء فى دار المقام .

(٥) إن ترفهت : تنعمت وتوسعت فى العيش .

(٦) فيكون مقامى دون مقامهم ، وتنزل مرتبتى عن مرتبتهم .

(٧) المراد بالإخوان والأخلاء : الأنبياء عليهم السلام .

(٨) فى نسيم الرياض (٢ — ١٥٣) : قال القشيرى : من عرفه صدق فى معاملاته ،وتنقى من ردىء أخلاقه وآفاته ؛ ومن أمارات المعرفة حصول الخوف مع الإجلال .

وإلى ذلك أشار المصنف ؛ فإن من قدر الله حق قدره اشتد خوفه منه ، وأطاعه وعبده على قدر طاقته ؛ وإنما يعصى الله من جهل ربه ونفسه ؛ فإن الإيمان محبة الله ، ومن أحبه أطاعه .

حدثنا أبو الحسن القابِسىّ ، حدثنا أبو زيد المَرْوَزِى ، حدثنا أبو عَبْد الله الفِرَبْرِى، حدثنا محمدُ بن إسماعيل،حدثنا يحيى بن بُكَيْر،عن الليث،عن عُقَيل،عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيَّب ـ أنّ أبا هريرة كان يقول(١) : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: لو تعلمون ما أَعْلَمُ لضَحِكْتُم قليلا ، ولبَكَيْتُمْ كثيرا .

زاد فى روايتنا ، عن أبى عِيسى التّرمذى (٢) ـ رفعَه إلى أبى ذَرّ : إنّى أَرَى ما لا تَرَوْنَ، وأسمعُ مالا تسمعون ، أَطَّتِ السماء وحُقّ لها أنّ تئِطّ(٣)،مافيهاموضِعُ أربع أصابعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكْتُم قليلا ولَبَكَيْتُم كثيرا ، وما تلذَّذْتُم بالنساء على الفُرش ، ولَخرَجْتُم إلى الصُّعُدَاتِ تجأَرُون إلى الله (٤) ، لوَدِدْتُ أنى شجرةٌ تُعْضَدُ (٥) .

رُوِى هذا الكلامُ : ودِدْتُ أنى شجرة تُعْضَد ـ من قول أبى ذَرّ نَفْسِه (٦) ، وهو أصحُّ .

وفى حديث المغيرة(٧):صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قَدَماه(٨)

---

(١) هذا الحديث فى سنن الترمذى : ٤ ـ ٥٥٧ (٢) سنن الترمذى : ٤ ـ ٥٥٦

(٣) أطت السماء : أصل معنى الأطيط : صوت الإبل إذا حنت ، والقتب إذا ضغطه ثقل ما عليه ، ونحو ذلك ؛ أى إن السماء لكثرة ما عليها من الملائكة إذا تحركوا يسمع لها صوت سمعه النبي صلى الله عليه وسلم . وحق لها أن تئط : أى تصوت ، ويسمع لها صرير لثقل ما عليها . وهذا إيذان بكثرة ما فى السماء من الملائكة . والمراد تقرير عظمة الله .

(٤) الصعدات : الطرقات . تجأرون : تضجون وتصيحون ، وتستغيثون الله ، وتتركون أهلكم ومساكنكم . وفى هامش ا : تجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء .

(٥) تعضد : تقطع من أصلها . والمراد تمنيه أن يكون غير ذى روح فلا يبعث ولا يسأل.

(٦) أى هذه العبارة من قول أبى ذر لا من الحديث وكلام النبى .

(٧) صحيح مسلم : ٢١٧١

(٨) انتفخت قدماه : ورمت من طول القيام .

وفى رواية[١]: كان يصلّى حتى تَرِمَ قَدَماهُ ؛ فقيل له: أتَكَلَّفُ[٢] هذا وقد غُفِر لكَ ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخَّر ! قال : أفلا أكونُ عَبْداً شَكُورا[٣] .

ونحوه عن أبى سَلَمة ، وأبى هُريرة .

وقالت عائشة[٤] : كان عَمَلُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم دِيمَةً[٥] ، وأيُّكم يُطِيق [٤٦] ما كان يُطِيق !

وقالت : كان يَصُومُ حتى نقولَ : لا يُفْطِر . ويُفطِر حتى نقول : لا يَصُوم .

ونحْوُه عن ابن عباس ، وأم سَلَمة ، وأنس[٦] .

وقالت[٧] : كنْتَ لا تشاء أنْ تَرَاهُ من الليل مُصَلِّيا إلا رأيته مُصليا، ولا نائما إلا رأيتَه نائما .

وقال عَوْف بن مالك : كنْتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً فاستَاكَ ثم توضأ ، ثم قام يُصَلِّى ، فقُمْتُ معه ، فبدأ فاستفتح[٨] البقرةَ ، فلا يَمُرُّ بآيةِ رَحْمةٍ إلا وقف فسأل[٩] ، ولا يَمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلّا وقف فتعوّذَ ، ثم ركع ، فمكث بقَدْرِ قِيامِه ، يقول : سبحانَ ذِى الجَبَرُوت[١٠] والملكوت والعظمةِ ، ثم سجَد وقال مِثْلَ ذلك ؛ ثم قرأ آلَ عمران ، ثم سورةً سورةً ، يفعلُ مِثْلَ ذلكَ[١١] .

---

(١) صحيح مسلم : ٢١٧٢ (٢) أتكلف : أتتكلف ؛ أى تتحمل مشقته وكلفته .
(٣) أى أأترك الصلاة لمغفرته ، وهى سبب موجب للعبادة لا لتركها .
(٤) صحيح مسلم : ٥٤١ (٥) ديمة : دائما متصلا .
(٦) قال فى نسيم الرياض : والأحاديث التى رواها هؤلاء بمعنى ما تقدم مع اختلاف فى بعض ألفاظها ، وكلها صحيحة مروية فى الصحيحين وابن حبان .
(٧) فى ا : وقال ؛ أى قال كل منهم. وفى ب : وقالت ؛ أى عائشة فيما روياه عنها أيضا .
(٨) استفتح البقرة : شرع فى قراءتها . (٩) فسأل : سأل الله الرحمة .
(١٠) الجبروت والملكوت: الجبروت:مبالغة فى الجبر، وهوالقهر. والملكوت: الملك العظيم.
(١١) سنن أبى داود : ١ – ٨٨

وعن حُذَيفَة مثله ، وقال : سجد نحواً من قيامه ، وجلس بين السجدتين نحوا منه ، وقال : حتى قرأ البَقَرَة ، وآل عِمْران ، والنساء ، والمائدة[١] .

وعن عائشة : قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بآيةٍ من[٢] القرآن ليلةً .

وعن عَبْد الله بن الشِّخِّير : أتيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو يصلِّى ، ولجوْفِهِ أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل[٣] .

وقال ابنُ أبِى هالَة : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُتواصِلَ الأحزان ، دائِمَ الفِكْرَة[٤] ، ليست له راحةٌ .

وقال عليه السلام : إنى لأستَغفِرُ اللهَ فى اليوم مائةَ مرة ـ ورُوِى سبعين مرة .

وعن علىّ رضِىَ اللهُ عنه، قال : سألْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن سُنَّتِه[٥] ، فقال : المعرفةُ رأْسُ مالِى[٦] ، والعَقْلُ أصلُ دينى[٧] ، والحبُّ أساسى[٨] ، والشوقُ

---

(١) أى قرأ فى كل ركعة بسورة من هذه السور : سنن أبى داود : ١ ـ ٨٨

(٢) الآية التى رددها طول ليله هى من سورة المائدة : إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . . (شرح القارى : ١ ـ ٣١٧) .

(٣) جوف كل شىء : باطنه ، والمراد به ما تحت صدره وأضلاعه ، والأزيز : صوت الغليان إذا اشتد . والمرجل : القدر . والمراد أنه صلى الله عليه وسلم ـ لشدة خوفه وخشيته من الله ـ يسمع حركة قلبه .

(٤) دائم الفكرة : يفكر دائما فى أمره وأمر أمته ، وفى عاقبة الأمر .

(٥) سننه : طريقته التى هو عليها .

قال فى نسيم الرياض : وهذا الحديث ذكره فى الإحياء . وقال الحافظ العراقى : إنه لا أصل له . وقال السيوطى : إنه موضوع ، وآثار الوضع لائحة عليه ، وهو يشبه كلام الصوفية (نسيم الرياض : ٢ ـ ١٦١) .

(٦) المعرفة : المراد بها معرفة الله وصفاته والوقوف على غوامض الأمور مما لم يكن يعلمه .

(٧) أى دينه وشرعه ، أى ما تعبد به وتدين قبل البعثة مبنى على ما أودعه الله تعالى فيه من كمال عقله الذى هداه إلى النظر فى مصنوعات الله الدالة على وحدانيته وعظمته .

(٨) والحب : محبة الله أساس ما يبنى عليه أموره فى اتباع أوامر الله ونواهيه .

مَرْ كَبى[١]، وذِكْرُ ٱللهِ أنيسى[٢]، والثقةُ كَنزِى، والْحزنُ رَفِيقى، والعِلْمُ سِلَاحى، والصَّبْرُ رِدَائى، والرضا غَنِيمتى، والعَجْزُ فَخْرِى، والزُّهْدُ حِرْفَتى[٣]، واليقينُ قُوَّتى، والصِّدْقُ شَفِيعى، والطاعةُ حَسْبِى، والجِهادُ خُلُقى، وقُرَّةُ عينى[٤] فى الصلاة.

وفى حديث آخر: وثمرةُ فؤادى فى ذِكْرِه، وغَمّى لأجْلِ أُمتى، وشوقى إلى ربّى.

فصـــل

اعلم وفّقنا ٱللهُ وإيّاكَ أنّ صفات جميع الأنبياء والرسل صلواتُ الله عليهم؛ من كمال الخلْقِ، وحُسْنِ الصُّورة، وشَرفِ النسب، وحسن الْخلُق، وجميع المحاسنِ، هى هذه الصفة؛ لأنها صفاتُ الـكمالِ[٥]، والـكمالُ والتمامُ البَشَرِىّ والفَضْلُ[٦] الجميعُ لهم صلواتُ الله عليهم؛ إذ رُتْبَتُهم أشرفُ الرتَب، ودرجاتُهم أرفعُ الدرجات، ولـكِنْ فَضّلَ ٱللهُ بعضَهم على بعض؛ قال ٱللهُ تعالى[٧]: ﴿ تلكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بعضَهم على بَعْض ﴾. وقال[٨]: ﴿ ولقد اخْتَرْناهم على عِلْمٍ على العالَمين ﴾.

وقدقال عليه السلام[٩]: إنّ أولَ زُمْرَةٍ[١٠] يدخلون الجنةعلى صُورةالقمر ليلةالبدْرِ[١١]؛

(١) والشوق مركبى: أى شوقى إلى المطالب العالية، وإلى لقاء الله تعالى - هو الذى حركنى حتى وصلت لمرادى.

(٢) وذكر الله أنيسى: يعنى أنه يأنس فى خلوته وجلوته بذكر الله؛ لأنه إذا أكثر من ذكره صار نصب عينيه حتى كأنه معه، ومن كان الله معه أنس به، واستوحش مما عداه.

(٣) الحرفة: الصناعة التى يرتزق منها الإنسان.

(٤) قرة عينى: مسرتها وفرحتها فى الصلاة.

(٥) المعنى أن كمال الخلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحسن الخلق - صفات جامعة لجميع المحاسن، وهى صفة الرسل عليهم السلام، وهى على الوجه الأتم الأكمل لاتجتمع فى غيرهم.

(٦) والفضل الجميع: أى الفضل جميعه.

(٧) سورة البقرة، آية ٢٥٣

(٨) سورة الدخان، آية ٣٢

(٩) فى حديث رواه مسلم: ٢١٧٨، ٢١٧٩

(١٠) زمرة: طائفة؛ وجماعة. والمراد بهذه الزمرة: الأنبياء، أو الانبياء والاولياء.

(١١) على صورة القمر: أى وجوههم مشرقة مضيئة. والقمر ليلة البدر يكون أضوأ مايكون.

ثم قال آخِرَ الحديث : على خَلْقِ رجلٍ واحد ، على صُورةأبيهم آدم ، طولُه ستون ذِراعا فى السماء .

وفى حديث أبى هُريرة[١] : رأيتُ موسى فإذا هو رجُلٌ ضَرْبٌ، رَجِل، أقْنَى كأنه مِنْ رجال شَنُوءَةَ[٢] ورأيتُ عيسى فإذا هو رجلٌ رَبْعَة ، كثيرُ خِيْلَانِ الوجه ، أحمرُ كأنما خَرج مِنْ دِيْماس[٣] .

وفى حديث آخر : مُبَطَّن مِثْلُ السيف[٤] ؛ قال : وأنا أشْبَهُ وَلدِ إبراهيم به .

وقال فى حديثٍ آخر فى صفِةِ موسى : كأَحسن ما أنْتَ راءٍ منأُدْمِ[٥] الرِّجال.

وفى حديث أبى هُريرة ، عنه صلى الله عليه وسلم : ما بعث اللهُ تعالى من بَعْدِ لوطٍ نبيا إلا فى ذرْوَة من قومه[٦] .

---

(١) فى صحيح مسلم : ١٥٣

(٢) ضرب : جسمه بين الهزال والسمن ، رجل : شعره متكسر قليلا . ليس بسبط . أقنى : طويل الأنف دقيق أرنبته . شنوءة : اسم قبيلة .

(٣) ربعة : بين الطول والقصر ، معتدل القامة . والخيلان : جمع خال ، وهو الشامة السوداء المعروفة . الديماس : الحمام . والمراد صفاء لونه مع حمرة فيه . وكلمة « ديماس » ضبطت الدال فيها بالفتحة والكسرة ، وعليها « معا » فى ا .

وفى هامش ا ، عن الغريبين للهروى: الديماس : السكن؛ أى كأنه مخدر لم ير شمسا . وقال بعضهم : الديماس : السرب . ومنه يقال : دمسته ؛ إذا قبرته . ويقال : الديماس : الحمام .

وانظر أيضا : النهاية : ٢ ـ ٣٢ ، والفائق : ١ ـ ٤١١

(٤) مبطن : ضامر البطن ، مثل السيف : فى استوائه ودقته .

وفى هامش ا : والمبطان ضده . والمبطون : الذى يشتكى بطنه .

(٥) أدم الرجال : من الأدمة ، وهى سمرة اللون . وجمع آدم : أدم .

(٦) الذروة : أعلى شىء ؛ أى بين قوم له ، ذوى جدة وسعة وشرف ، لا غرباء ، ولا من قوم ليسوا كذلك . وأشار بهذا الحديث إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم شاركوا نبينا صلى الله عليه وسلم فى علو النسب ، وشرف القوم .

ويروى [٤٧] : في ثَرْوَةٍ ؛ أي كَثْرةٍ وَمنَعَةٍ[١] .

وحكى الترمذى[٢] ، عن قتادة ، ورواه الدّارَقُطْنى من حديث قَتادة عن أنس : ما بعث اللهُ نبيا إلا حسنَ الوَجْهِ ، حسنَ الصوتِ ، وكان[٣] نبيُّكم أحسنَهم وَجْها ، وأحسنهم صَوْتا .

وفى حديث هِرَقْل[٤] : وسألتُكَ عن نَسَبِهِ ، فذكَرتَ أنه فيكم ذو نَسَبٍ[٥] ، وكذلك الرسلُ تُبْعَثُ فى أنساب[٦] قومها .

وقال تعالى فى أيّوب[٧] : ﴿ إنّا وَجدْناهُ صابرا نِعْمَ العَبْدُ إنه أوَّابٌ ﴾[٨] .

وقال تعالى[٩] : ﴿ يا يَحْيَى ، خُذِ الكتابَ بِقُوّةٍ[١٠] وآتيناه الحُكْم صَبِيًّا . وحَنانًا من لَدُنّا وزكاةً[١١] وكان تَقِيًّا . وبَرًّا بوالديه ولم يَكُنْ جبّاراً عَصِيًّا . وسلامٌ عليه يوم وُلِدَ ويوم يَمُوتُ ويوم يُبْعَثُ حيًّا ﴾ .

---

(١) ومنعة : أى قوم يمنعونه ويحمونه .

(٢) الحديث المذكور فى الشمائل وغيرها مرسلا .

(٣) فى ب : فكان .

(٤) هذا الحديث رواه البخارى : ١ – ٧ ، وكان هذا حين أرسل هرقل إلى أبى سفيان وهو بالشام للتجارة فى ركب من قريش فى مدة محادة رسول الله لكفار قريش ، فأتوه بإيليا ، فدعاهم وحوله عظماء الروم ، فسألهم عن أحوال النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكان أول ما سأله عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقال : هو فينا ذو نسب .

(٥) ذو نسب : ذو نسب عظيم .

(٦) أى كل نبى له نسب عال فى قومه . (٧) سورة ص ، آية ٤٤

(٨) أواب : كثير الرجوع لربه بمراجعة دعائه ، وامتثال أوامره ونواهيه .

(٩) سورة مريم ، الآيات من ١٢ – ١٥

(١٠) بقوة : أى بقوة فهم ، وعزيمة على العمل بما فيه .

(١١) حنانا : فى طبعه الرحمة . وزكاة : مطهرا من النقائص .

وقال[١] : ﴿ أَنَّ اللهَ يبشِّرُكَ بيحْيَى مصدِّقاً بكلمةٍ من اللهِ وسيِّداً وحَصُوراً[٢] ونبيًّا مِنَ الصالحين ﴾ .

وقال[٣] : ﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدمَ ونُوحا وآلَ إبراهيم وآلَ عِمْرانَ على العالمين. ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ .

وقال ـ في نوح[٤] : ﴿ إنه كان عَبْداً شَكُوراً ﴾ .

وقال [٥] : ﴿ إن اللهَ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسْمُه المسيحُ عيسى بن مريم وَجِيهاً في الدُّنيا والآخرةِ[٦] ومن المُقرَّبين . ويُكَلِّمُ الناسَ في المَهْد وَكَهْلا ومِنَ الصالحين ﴾.

وقال [٧] : ﴿ إنِّى عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكتابَ وجعلنى نَبِيًّا . وجعلنى مُبارَكاً أيما كُنْتُ وأوصانى بالصلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حيًّا ﴾ .

وقال تعالى[٨] : ﴿ يأَيُّها الذين آمَنُوا لا تكونوا كالَّذِين آذَوْا موسى فبَرَّأَهُ[٩] اللهُ مما قالوا وكان عندَ اللهِ وَجِيها ﴾ .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: كان موسى رجُلا حَيِيًّا سِتِّيراً[١٠] ما يُرَى من جَسده شيء استحياءً . . . الحديث[١١] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٩

(٢) وحصورا : الحصور الذى لا يأتى النساء ، إما من العنة وإما من العفة والاجتهاد فى إزالة الشهوة ، والثانى أظهر فى الآية لأنه بذلك يستحق المحمدة (المفردات ١٢٠) .

(٣) سورة آل عمران ، آية ٣٣ ، ٣٤ (٤) سورة الإسراء ، آية ٣

(٥) سورة آل عمران ، آية ٤٥ ، ٤٦ ، وهذه الآية فى عيسى .

(٦) وجيها : شريفا قدره فى الدارين . (٧) سورة مريم ، آية ٣٠

(٨) سورة الأحزاب ، آية ٦٩

(٩) عابوه ـ لشدة تستره حياء من الله ، بأن فى بدنه برصا أو به أدرة ، فبرأه الله من ذلك وبين أنه كامل الخلق والخلق .

(١٠) حيبا : كثير الحياء . ستيرا : شديد الستر لبدنه .

(١١) الحديث رواه الترمذى فى صحيحه: ٥ـ٣٥٩ ، وتتمته أنه كان يكثر التستر ويغتسل =

وقال تعالى ـ عنه[1] : ﴿ فوهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً[2] وجعلني مِنَ المُرْسَلين ﴾ .

وقال في وصْفِ جماعةٍ منهم[3] : ﴿ إنِّي لكم رسُولٌ أَمِين ﴾ .

وقال[4] : ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمين ﴾ .

وقال[5] : ﴿ فاصْبِرْ كما صَبر أُولو العَزْمِ من الرُّسُل ﴾ .

وقال[6] : ﴿ ووهَبْنَا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلًّا هدَيْنا ونوحا هدَيْنا من قَبْلُ ومِنْ ذُرِّيَّتِه داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ وكذلك نَجْزِي المُحْسِنين . وزَكريّا ويَحْيَى وعيسى وإلْيَاسَ كلٌّ من الصالحين. وإسماعيلَ والْيَسَعَ ويونسَ ولوطا وكُلًّا فضَّلْنا على العالَمين . ومِنْ آبائِهم وذُرِّيّاتِهم وإخوانِهم واجْتَبَيْنَاهُمْ وهدَيْنَاهُمْ إلى صراطٍ مُسْتَقيم . ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي به مَنْ يشاء مِنْ عبادِه ولو أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يَعْمَلُونَ . أولئكَ الذين آتيناهم الكتابَ والحُكْمَ والنبوّةَ فإنْ يَكْفُر بها هؤلاء فقد وكَّلْنا بها قوما لَيْسُوا بها بكافِرين. أولئكَ الذين هدَى اللهُ فبِهُدَاهُمْ اقْتَدِه . . . ﴾

فوصفَهم بأوصافٍ جَمَّةٍ من الصَّلاح والهُدَى والاجتباء والحُكْم والنبوّة[7] .

= وحده؛ قالوا: إنه إنما يفعل هذا لبرص أو أدرة، فذهب مرة ليغتسل ووضع ثوبه على حجر، فلما أراد أن يلبسه فر الحجر ، وجرى خلفه يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى مر على بني إسرائيل، فرأوه أكمل الناس وأصحهم بدنا ، فبرئ مما سموه وآذوه به .

(١) سورة الشعراء ، آية ٢١ (٢) حكما : علما ونبوة .

(٣) سورة الشعراء، آية ١٠٧ ، وغيرها .

(٤) القائل هو موسى لشعيب . سورة القصص ، آية ٢٦

(٥) سورة الأحقاف ، آية ٣٥

(٦) سورة الأنعام ، الآيات من ٨٤ ــ ٩٠

(٧) جمة : كثيرة . والصلاح : صفة جامعة لكل خير . والاجتباء : الاصطفاء والاختيار للرسالة . والحكم : الحكمة ، أو فصل الأمر على مقتضى الحق .

وقال[١] : فبشَّرْناه بغُلام حَلِيم . وعَلِيم .

وقال[٢] : ﴿ ولقد فتنّا[٣] قبلهم قومَ فِرْعون وجاءهم رسولٌ كَرِيم. أَنْ أَدُّوا إلىَّ عبادَ آللهِ إنّى لكم رسولٌ أَمِين ﴾ .

وقال[٤] : ﴿ ستجِدُنى إنْ شاءَ آللهُ منَ الصَّابِرين ﴾[٥] .

وقال[٦] ـ فى إسماعيل : ﴿ إنه كان صادِقَ الوَعْدِ وكان رسولا نَبِيًّا . وكان يأْمُر أهلَه بالصلاةِ والزكاةِ وكان عند رَبِّه مَرْضِيًّا ﴾ .

وفى موسى[٧] : ﴿ إنَّه كان مُخْلَصاً ﴾[٨] .

وفى سليمان[٩] : ﴿ نِعمَ الْعَبْدُ إنه أَوَّابٌ ﴾ .

وقال[١٠] : ﴿ واذْكُرْ عبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أُولى الأَيْدِى والأَبْصَار[١١] . إنّا أَخْلَصْنَاهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار[١٢] وإنَّهم عندنا لِمنَ الْمُصْطَفَيْن الأَخْيَارِ ﴾[١٣] .

---

(١) سورة الصافات ، آية ١٠١ . وفى الذاريات ، آية ٢٨ : وبشروه بغلام عليم . والمبشر : هو إسحاق .

(٢) سورة الدخان ، آية ١٧ ، ١٨ (٣) فتنا : المراد بالفتنة الاختبار والامتحان .

(٤) سورة الصافات ، آية ١٠٢ ، والقائل هو إسماعيل لوالده إبراهيم .

(٥) من الصابرين على الذبح مسلما لله ، ولذلك سلمه الله وفداه .

(٦) سورة مريم ، آية ٥٤ ، ٥٥ (٧) سورة مريم ، آية ٥١

(٨) ضبطت اللام فى « مخلصا » بالكسرة فى ا ، قال القارى (١ ـ ٧٢٣) : وفى قراءة للسبعة بفتح اللام ؛ أى أخلصه الله واختاره ، واصطفاه .

(٩) سورة ص ، آية ٣٠ ، ٤٤ . والأواب : كثير الرجوع إلى ربه .

(١٠) سورة ص ، آية : ٤٥ ـ ٤٧

(١١) الأيدى : جمع يد ، بمعنى القوة . والأبصار : جمع بصر ، بمعنى بصيرة .

(١٢) جعلناهم خالصين بسبب أنهم لا يذكرون إلا الدار الآخرة .

(١٣) الأخيار : جمع خير .

وفى داود[١] : ﴿ إنه أوّاب ﴾ . ثم قال[٢] : ﴿ وشَدَدْنَا مُلْكَه وآتيناه الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخطَاب ﴾[٣] .

وقال ـ عن يوسف[٤] : ﴿ اجْعَلْنى على خَزائِنِ الأرضِ إنّى حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ .

وفى موسى[٥] : ﴿ ستَجِدُنى إنْ شاءَ اللهُ صابِراً ﴾ .

[وقال تعالى[٦] ـ عن شُعَيب : ﴿ سَتَجِدُنى إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصالحين ﴾][٧] .

وقال[٨] : ﴿ وما أُرِيدُ أنْ أُخالِفَكم إلى ما أنْهاكُمْ عنه إنْ أُرِيدُ إلا الإصلاحَ ما استطَعْتُ ﴾ .

وقال[٩] : ﴿ ولوطاً آتيناه حُكْما وعِلْما ﴾ .

وقال[١٠] : ﴿ إنّهُمْ كانوا يُسَارِعُون فى الخَيْرَاتِ ويَدْعُونَنا رَغَباً ورَهَباً وكانوا لنا خَاشِعين ﴾[١١] .

قال سفيان : هو[١٢] الحُزْنُ الدائم.

---

(١) سورة ص ، آية ١٧ ، ١٩ (٢) سورة ص ، آية ٢٠

(٣) شددنا ملكه : قويناه . وفصل الخطاب : الكلام الفاصل بين الحق والباطل .

(٤) سورة يوسف ، آية ٥٥ (٥) سورة الكهف ، آية ٦٩

(٦) سورة القصص ، ، آية ٢٧ ، والمخاطب فى قوله تعالى : « ستجدنى » ـ هو موسى .

(٧) ما بين القوسين ساقط فى ا .

(٨) سورة هود ، آية ٨٨. أخالفكم : من قولهم : خالفت فلانا إلى كذا ، إذا قصدته مع إعراضه عنه . والمعنى : ما أريد أن آتى مانهيتكم عنه لأستبد به لعلمى أنه خطأ ، وفى ارتكابه خطر ، فلو كان صوابا لآثرته ، ولم أتركه فضلا عن أن أنهى غيرى عنه .

(٩) سورة الأنبياء ، آية ٧٤

(١٠) الأنبياء : ٩٠ ، إنهم : أى الأنبياء المذكورون فى سورتهم .

(١١) شأنهم المبادرة إلى فعل أنواع الخير، وسؤال الله تعالى فى الرغبة والرهبة ؛ أى للرغبة فى المثوبة والقربة ، والرهبة عن العقوبة .

(١٢) هو تفسير الخشوع فى قوله تعالى : وكانوا لنا خاشعين .

فى آيٍ كثيرة ، ذكر فيها مِنْ خِصالهم ومَحَاسِن أخلاقهم الدالةِ على كمالهم .

وجاء مِنْ ذلك فى الأحاديث كثير ، كقوله[١] : إنما الكريمُ ابنُ الكريمِ ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، نَبِىّ ابن نَبِى ابن نَبِى ابن نَبِىّ .

وفى حديث أنس[٢] : وكذلك الأنبياء تنامُ أَعْيُنهم ولا تنام قلوبُهم .

وروى أنَّ سليمان[٣] كان مع ماأُعْطِيَ من المُلك لايرفَعُ بصره إلى السماء تخشُّعاً وتواضُعاً لله تعالى . وكان يُطْعِمُ الناسَ لذائذَ الأطعمةِ ويأكل خُبْزَ الشَّعِير .

وأَوْحَى اللهُ إليه : يا رَأْسَ العابدِين[٤] ، وابْنَ مَحَجَّة الزاهدين[٥] .

وكانت العجوزُ تَعْترِضُه[٦] ـ وهو على الرِّيحِ فى جنوده، فيأمر الريحَ فتقِفُ فينظر فى حاجتها ويَمْضِى .

وقيل ليوسف: مالكَ تجُوعُ وأنْتَ على خزائنِ الْأَرْضِ ؟ قال: أخافُ أَنْ أَشْبَع فأنْسَى الجائع [٤٨] .

وروى أبو هريرة عنه[٧] صلى الله عليه وسلم : خُفِّفَ على داوُد القرآن[٨] ، فكان يأمر بدوابِّه ، فتُسْرَج ، فيقرأ القُرآنَ قبل أَنْ تُسْرَج[٩] ، ولا يأكل إلامِنْ عَملِ يدِه .

---

(١) هذا الحديث فى صحيح البخارى بدون: «إنما» (صحيح البخارى : ٤ ـ ٢٢٤).
(٢) فى حديث رواه البخارى : ٤ ـ ٢٣٢
(٣) رواه الطبرانى ، عن أبى هريرة . (٤) رأس العابدين : أعلاهم ورئيسهم .
(٥) محجة الزاهدين : مقصدهم ومقتداهم الذى يأتسون بسنته ومسلكه .
(٦) تعترضه : تجىء له وتقف مقابلته .
(٧) رواه البخارى : ٦ ـ ١٠٧
(٨) المراد قراءة كتابه ، وهو الزبور . والمراد بتخفيفه سرعة قراءته فى زمن يسير .
(٩) قيل هذا من البركة فى الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير .

قال الله تعالى[١] : ﴿ وألَنّا لَهُ الحديدَ . أنِ اعْمَلْ سابِغَاتٍ وقَدِّرْ في السَّرْدِ ﴾[٢] .
وكان[٣] سأل رَبَّه أَنْ يرزقَه عَمَلًا بيده يُغْنِيه عن بَيْتِ المالِ .
وقال عليه السلام[٤] : أَحَبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داود . وأَحبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود : كان ينامُ نِصْفَ الليل ، ويقوم ثُلثه ، وينام سدُسَه ، ويصوم يوما ويفطر يوما . وكان يلْبَسُ الصوفَ ، ويفترشُ الشَّعَرَ ، ويأكل خُبْزَ الشعير بالمِلْح والرماد ، ويَمْزُجُ شرابَه بالدموع[٥] ، ولم يُرَ ضاحكا بَعْدَ الخطيئة[٦] ، ولا شاخِصاً ببصره إلى السماء ، حَيَاءً من رَبّه ، ولم يزل باكيا حياتَه كلَّها .
وقيل : بَكَى حتى نبت العُشْبُ من دموعه[٧] ، وحتى اتخذت الدموعُ في خَدِّه أُخْدُودا[٨] .
وقيل : كان يخرجُ متنكِّراً يتعرَّفُ سيرتَه ، فيستمع الثناء عليه ، فيزداد تواضُعًا .
وقيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذْتَ حِمَارا . قال : أنا أكرمُ على اللهِ مِنْ أن يشغلني بحِمَار .
وكان يلبس الشَّعَر ، ويأكل الشَّجَر ، ولم يكن له بيت أينما أدركه النومُ نام .
وكان أَحَبُّ الأسامِي إليه أنْ يُقال له مِسْكين[٩] .

---

(١) سورة سبأ ، آية ١٠ ، ١١
(٢) سابغات : دروعا طويلة تامة . السرد : سرده : نسجه وعمله . ومعنى تقديره جعل ثقوب طرفي الحلق على قدر المسامير ، وكون المسامير غير رقيقة فتفلق ، ولا غليظة فتكسر الحلق .
(٣) وكان : أي داود . (٤) صحيح مسلم : ٨١٦ (٥) لكثرة بكائه .
(٦) الخطيئة : تزوجه بامرأة أورياء . قال في نسيم الرياض : وليست هذه خطيئة ، ولكن علو مقامه وزهده يقتضي خلاف ذلك ؛ فلذا عوتب عليه .
(٧) هذا رواه ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه مرفوعا ، وعن مجاهد وغيره موقوفا .
(٨) الأخدود : الشق المستطيل في الأرض . والمراد أثرت أثرا في خده .
(٩) رغبة في التواضع لعظمة الله . وقد ضبطت الباء في «أحب» بالضمة وعليها علامة الصحة في ا .

وقيل : إنّ موسى عليه السلام لما وردَ ماء مَدْين كانت تُرَي خُضْرَةُ البَقْلِ [١] في بطنه من الهُزَال .

وقال عليه السلام : لقد كان الأنبياء قبلى يُبْتَلَى أحدُهم بالفقر والقَمْلِ ، وكان ذلك أَحَبَّ إليهم من العطاء إليكم .

وقال عيسى عليه السلام ـ لِخنزِيرٍ لَقِيه : اذهب بسلام . فقيل له في ذلك ، فقال: أَكْرَهُ أنْ أُعوِّدَ لسانى المنطقَ بسُوء .

وقال مجاهد : كانَ طعامُ يحيى العُشْبَ .

وكان يَبْكِي من خشية اللهِ حتى اتخذ الدمعُ [٢] مَجْرى فى خدّه ، وكان يأكلُ من الوَحْشِ لئلا يُخَالِطَ الناسَ .

وحكى الطبريُّ ، عن وَهْب ، أنّ موسى كان يستظلُّ بعَرِيش [٣] ، ويأكل فى نُقْرَةٍ من حَجَر ، ويَكْرَعُ فيها [٤] إذا أراد أن يشرب كما تَكْرَع الدابّةُ ، تواضعا لله عما أكرمه اللهُ به من كلامه .

وأخبارُهم فى هذا كلِّه مسطورةٌ ، وصفاتُهم فى الكمالِ وجميلِ الأخلاقِ ، وحسنِ الصُّوَر والشمائلِ معروفةٌ مشهورةٌ ؛ فلا نُطَوِّلُ بها ، ولا تَلْتَفِتْ إلى ما تجده [٥] فى كتُبِ بعضِ جهلةِ المؤرّخين والمفسرين مما يخالِفُ هذا .

---

(١) البقل : ما ليس بشجر من النبات مما تبقى أرومته وأصوله بعد أخذه .

(٢) فى ب : الدموع .

(٣) العريش : هو ما يستظل به خيمة كانت أو خشبا أو نباتا .

(٤) يكرع فيها : أى يضع مايشرب فى نقرة يكب عليها ويشرب منها بفيه .

(٥) فى هامش ب : نجده ـ بالنون .

فصـــل

قد أتيناكَ ـ أكرمكَ الله ـ من ذِكْرِ الأخلاقِ الحميدة ، والفضائلِ الجيدة ، وخصالِ الكمالِ العديدة ، وأريناك صحّتَها(١) له صلى الله عليه وسلم ، وجلّينا(٢) من الآثار مافيه مَقْنَع ، والأمرُ أوسع؛فمجالُ هذا الباب فى حقّه صلى الله عليه وسلم مُمْتَدٌّ، تنقطِعُ دون نفادِه الأدِلّاء(٣)، وبحْرُ عِلْمِ خصائصِه زاخرٌ لا تُكَدِّرُه الدِّلاء(٤)، لكنا أتينا فيه بالمعروف(٥) مما أكثَره فى الصحيح والمشهورِ من المصنَّفات؛ واقتصرنا فى ذلك بقُلٍّ من كُلٍّ(٦)، وغَيْضٍ من فَيْضٍ(٧)، ورأينا أنْ نَخْتِمَ هذه الفصولَ بذِكْرِ حديثِ الحسن(٨)،عن أبى هالَةَ ، لجمْعِه من شمائله وأوصافِه كثيرا،وإدْماجِه جُمْلةً كافيةً من سِيَره وفضائله ، ونَصِلُه بتنبيه لطيفٍ على غَريبه ومُشْكله .

حدثنا القاضى أبوعلى الُحسَين بن محمد الحافظ ـ رحمه الله ـ بقراءتى عليه سنة ثمانٍ وخمسمائة[٤٩]؛ قال: حدثنا الإمامُ أبوالقاسم عبد الله بن طاهر التميمىّ قراءةً عليه ، أخبركم الفقيهُ الأديبُ أبوبكر محمد بن عبدالله بن الحسن النيسابورى ، والشيخُ الفقيهُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المُحمَّدى،والقاضى أبو على الحسَنُ بن على بن جعفر

---

(١) أى كونها صحيحة فى حقه صلى الله عليه وسلم .

(٢) جلينا : روينا ونقلنا ، وأوردنا وشرحنا .

(٣) الأدلاء : جمع دليل ، وهو من يتقدم الركب ليهديهم إلى الطريق .

(٤) الدلاء : جمع دلو . وهو ما يؤخذ به الماء . وعدم تكديره : عبارة عن عدم بلوغ آخره ؛ لأنه إذا بلغه حرك طينه فيتكدر ماؤه . (٥) المعروف : المشهور الذى يعرفه الناس.

(٦) القل : القليل ، بمعنى القلة ؛ أى ذكرنا أمرا قليلا منه لا كثيرا ، أو دون الجميع ، لأنه لا يمكن الإحاطة به . وكلمة « كل » فوقها علامة الصحة فى ب . وفى هامشه : كثر .

(٧) الغيض : المراد القليل . الفيض : المراد به الكثير .

(٨) رواه الترمذى فى شمائله صفحة ٤ من نسختى المخطوطة . وهو فى دلائل النبوة للبيهقى (١ ـ ٢٣٩) .

الوَحْشِيّ ؛ قالوا: حدثنا أبو القاسم عليّ بن أحمد بن محمد بن الحسن الخُزَاعى ، أخبرنا أبو سعيد الهَيْثم بن كُليب الشاشي، أنبأنا أبو عيسى بن سَوْرَة الحافظ ؛ قال : حدثنا سُفيان بن وَكيع، حدثنا جُمَيْع بن عُمر بن عبد الرحمن العِجْلى إملاء من كتابه ؛ قال: حدثنى رجلٌ من بنى تميم من وُلْدِ أبى هالَة زَوْجِ خديجةَ أمِّ المؤمنين رضى الله عنها، يكنى أبا عبد الله ، عن ابنٍ لأبى [(١)] هالَةَ ، عن الحسن بن على بن أبى طالب رحمه الله ؛ قال : سألتُ خالى هِنْدَ بن أبى هالَةَ .

قال القاضى أبو على رحمه الله [(٢)] : وقرأتُ على الشيخ أبى طاهر أحمد بن الحسن ابن أحمد بن خُذَاداذ [(٣)] الكَرَجِيّ [(٤)] الباقِلّانى ؛ قال : وأجاز لنا الشيخُ الأجلّ أبو الفضل أحمد بنُ الحسين بن خَيْرُون ؛ قالا : حدثنا أبو على الحسَنُ بن أحمد ابن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذَان بن حَرْب بن مِهْرَان الفارسى قراءةً عليه فأقرّ بهِ ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسَن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جَعْفر ابن عبيد الله [(٥)] بن الحُسَين بن على بن [الحسين بن على] [(٦)] بن أبى طالب المعروف بابن أخى طاهر العَلَوى ، قال : حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد

---

(١) قال الذهبى : إن هذا الرجل لا يعرف اسمه ؛ فهذا الحديث منقطع ، لأن فيه راويا مجهولا (نسيم الرياض : ٢ — ١٨٣) .

(٢) فروى هذا الحديث من طريقين . والقاضى هذا هو ابن سكرة .

(٣) فى ب : خذاداد. وفى هامشه : معناه بالفارسية : عطاء الله. وقال الشهاب (٢—١٨٣): إنه خذادادا — بألف مقصورة آخره .

(٤) عليه علامة الصحة فى ب . وقال فى هامشه : كذا وقع الكرجى — بالجيم . وضبطه كذلك الشهاب (٢ — ١٨٣) . وفى ا : الكرخى — بالخاء . وضبطه القارى (١ — ٣٣٥) بسكون الراء ، ورواه بالجيم .

(٥) هذا فى ا ، ب . وفى شرح القارى ، وشرح الخفاجى : عبد الله .

(٦) من ب ، وعليه علامة الصحة .

ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ قال : حدثنى علىّ بن جعفر بن محمد بن على ابن الحُسين ، عن أخيه موسى بن جعفر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه محمد بن على ، عن على بن الحُسين ، قال : قال الحسن بن علىّ ــ واللفظ لهذا السَّنَد[١] : سألتُ خالى هِنْدَ بن أبى هالة عن حِلْيَة[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وكان وصّافاً[٣] ــ وأنا أَرْجُو أَنْ يصفَ لى منها شيئا أتعلّقُ[٤] به ، قال[٥] :

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فَخْماً مُفَخَّماً[٦] ، يتلألأ وجْهُهُ تَلألُأَ القمرِ ليلةَ البَدْرِ[٧] ، أطولَ من المَرْبُوع[٨] ، وأقصر من المشذَّبِ ، عظيم الهامة[٩] ، رَجِلَ الشَّعْرِ ؛ إن انفرقَتْ عَقِيقَتُهُ فَرَق ، وإلّا فلا يجاوزُ شَعره شَحْمَةَ أُذُنه[١٠] ، إذا هو وفَّره ، أَزْهَر اللون ، واسع الجبين ، أَزَجّ الحواجب ، سوابِغَ ، من غير قَرَنٍ ، بينهما عِرْقٌ يُدِرُّه[١١] الغضَب ، أَقْنَى العِرْنِينِ ، له نُورٌ يَعْلُوه ، ويَحْسِبه[١٢] مَنْ لم يتأمَّله

---

(١) وهو الطريق الثانى فى الإسناد، وهو فى شمائل الترمذى صفحة ٤ من مخطوطتى المحققة، وصفحة ١٨ من المواهب ، وسنن الترمذى : ٥ ــ ٥٩٢

(٢) الحلية : ما يتحلى به من الصفات .

(٣) كان وصافا : كان فصيحا له خبرة بوصف الناس لحذقه . أو كان معروفا بذكر صفات النبى صلى الله عليه وسلم .

(٤) أتعلق به : أحفظه وأتمسك به تبركا .

(٥) سيأتى تفسير لغريب هذا الحديث فى الفصل التالى ؛ ولهذا لن نشرح إلا ما تركه المصنف ــ فيما يأتى فى ذلك الفصل .

(٦) الفخم : العظيم ، والمراد أن أعضاءه صلى الله عليه وسلم تامة الخلقة واسعة سعة غير مفرطة . مفخما : المراد أنه معظم فى العيون الناظرة إليه .

(٧) يتلألأ وجهه : يشرق ويضىء .

(٨) المربوع : الذى بين الطول والقصر .

(٩) الهامة : الرأس .

(١٠) شحمة الأذن : مالان منها حيث يعلق القرط .

(١١) سوابغ : طوال كاملة . قرن: اقتران واتصال. يدره الغضب : المراد أنه يظهره لغليان الدم بالغضب بعد ما كان خفيا .

(١٢) يحسبه : يظنه .

أَشَمّ ، كَثّ اللِّحْيــةِ (١) ، أَدْعج ، سَهْل الخدّين (٢) ، ضَليعَ الفم ، أَشْنَب ، مُفَلَّج الأَسْنان ، دَقِيقَ المَسْرُبة ، كأنَّ عنقَه جِيدُ دُمْية فى صفاء الفِضّة (٣) ، معتدلَ الخلْقِ ، بادِناً ، مُتَماسكا ، سواءَ البطْنِ والصّدْرِ ، مُشِيحَ الصّدْر ، بَعِيدَ ما بين المَنْـكِبين ، ضَخْم الـكَرَادِيس ، أَنْوَرَ المُتَجرَّدِ (٤) ، موصول ما بين اللَّبّةِ والسُّرّة بشَعرٍ يجْرِى كالخطّ ، عارِى الثدْيَيْنِ ، ما سِوَى ذلك (٥) ، أَشْعَرَ الذِّرَاعين (٦) والمَنْـكِبين وأعالى الصدر ، طويل الزَّنْدَيْنِ ، رحْبَ الراحةِ ، شَثْنَ الـكَفَّيْن (٧) والقَدَمين ، سائل الأطراف — [أو قال : سائِنَ الأَطراف] (٨) ، سَبْط العَصَب (٩) ، خُمْصَانَ الأَخْمَصَيْن ، مَسِيحَ القَدَمين ، يَنْبُو عنهما الماء ، إذا زال زال تَقَلُّعاً ، ويخطو تـكَفُّأً ، ويمشى هَوْناً ، ذَرِيعَ المِشْيَة ، إذا مشى كأنما يَنْحَطُّ من صَبَب ، وإذا التفت التفت جميعا (١٠) ، خافِضَ الطَّرْفِ (١١) ، نَظَــرُه إلى الأرض أطولُ مِنْ نظرِه إلى السماء ، جُلُّ نظرِه

(١) كث اللحية : لحيته كثيرة الشعر من غير طول ولا دقة شعر .
(٢) سهل الخدين : غير مرتفع الوجنة وكثير اللحم فيهما .
(٣) جيد : عنق . والدمية : الصورة من رخام أو عاج ، والمراد شدة بياضه وطوله .
(٤) أنور المتجرد : يعنى ما خفى من البدن . وأنور : نير ، مشرق .
(٥) ماسوى ذلك : أى ماسوى الشعر الذى بين السرة ، واللبة . واللبة : النحر . وقيل الصدر . وقيل موضع القلادة . وفى ب : مما سوى ذلك .
(٦) أشعر الذراعين : أى كثير شعرهما .
(٧) شثن الـكفين : الشثن : الضخم الممتلئ لحما .
(٨) مابين القوسين كتب أمامه ، فى هامش ا : ليس من الرواية . وفى ب : أو قال : هو سائن .
(٩) سبط العصب : سبط : ممتد ليس به تعقد .
(١٠) التفت جميعا : إذا أراد أن يدور إلى خلفه أو فى جانبه لايلوى عنقه ؛ بل يصرف جميع بدنه فيقبل جميعا ويدبر جميعا .
(١١) خافض الطرف : الطرف : العين .

المَلاحظةْ(١) ، يسوقُ أصحابَه(٢) ، [٥٠] ويبدأ مَنْ لقِيَه(٣) بالسلام .

قلت : صِفْ لى مَنْطِقَه(٤) .

قال: كان رسولُ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم متواصلَ الأحزانِ(٥) ، دائمَ الفِكْرَة ، ليست له راحةٌ ، ولا يتكلّمُ فى غير حاجةٍ ، طويلَ السكوت ، يفتتح الكلامَ ويختِمه بأشْدَاقِهِ ، ويتكلّم بجَوَامع الْكَلِم فَصْلاً(٦) ، لافُضُولَ(٧) فيه ولا تَقْصير ، دَمِثاً ليس بالجافى ولا المَهِين(٨) ، يعظِّم النعمة وإن دقَّتْ(٩) ، لا يذمُّ شيئا ، لم يكن يذُمُّ ذَوَاقا(١٠) ، ولا يَمدَحُه ، ولا يُقَامُ لغضَبه إذا تُعرِّضَ للحق بشىء(١١) حتى ينْتَصِرَ له ، ولا يغضَبُ لنفسه ولا ينَتْصِر لها ، إذا أشار أشار بكفِّه كلِّها ، وإذا تعجَّب قَلَبها(١٢) وإذا تحدَّثَ

---

(١) جل نظره الملاحظة : جل : معظم ، وأكثر . والملاحظة : النظر باللحظ ، وهو طرف العين مما يلى الصدغ .

(٢) يسوق أصحابه : يمشى خلفهم ، ولا يدع أحدا منهم يمشى خلفه ، كما هى عادة المتكبرين .

(٣) فى ب : لقى .   (٤) منطقه : نطقه وكلامه .

(٥) أى لم يكن كلامه بفرح وبطر ، بل بحزن وأسف . وفى نسيم الرياض (٢ – ١٩٢) : قال ابن قيم الجوزية : قول أبى هالة : متواصل الأحزان ـ لم يثبت عنه ، وفى سنده مجهول ؛ كيف وقد صانه الله عن الحزن وأسبابه ، ونهاه عنه بقوله : لاتحزن ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلا خوف عليه ، ولا حزن فى الدنيا والآخرة ؛ فمن أين يأتيه الحزن ؟

(٦) فصلا : كلاما فاصلا للخصومة ، وفارقا بين الحق والباطل .

(٧) لا فضول : لا زيادة .

(٨) دمث : من الدمائة ، وهى سهولة الخلق . والجافى : غليظ الطبع . وقد ضبطت الميم فى كلمة « المهين » فى ب ـ بالضمة . وفى النهاية : بالضم من الإهانة ؛ أى لا يهين أحدا من الناس ، وبالفتح من المهانة ؛ أى الحقارة .

(٩) دقت : صغرت .

(١٠) ذواقا : ما يذاق من مأكول ومشروب .

(١١) أى لايثبت له أحد إذا غضب . إذا تعرض : إذا تعرض أحد للحق بما يبطله .

(١٢) فى ب ضبطت اللام بالتشديد .

اتَّصَل[١] بها، فضرب بإبْهَامه اليُمْنى راحتَه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشَاح[٢] ، وإذا فرح غَضَّ طَرْفَه ، جُلُّ[٣] ضَحِكه التبسُّم ، ويفتَرُّ عن[٤] مِثْلِ حَبِّ الغَمَام .

قال الحسَن : فكتمتها الحُسَين بن على زمانا ، ثم حدَّثته فوجدتُه قد سبقنى إليه[٥] ، فسأل أباه عن مَدْخَل رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومَخْرجه ومَجْلسه وشَكْله[٦] ، فلم يَدَعْ منه شيئا .

قال الحُسين : سألتُ أبى عن دخولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كان دخولُه لنفسه مأذونا له فى ذلك[٧] ، فكان إذا أوَى إلى منزله جَزَّأ دخوله[٨] ثلاثةَ أجزاء : جُزْءا لله ، وجُزْءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزَّأ جُزْأه بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك على العامَّةِ بالخاصة[٩] ، ولا يدَّخِرُ عنهم شيئا ، فكان من سيرته فى جُزْءِ الأُمَّة[١٠] إيثارُ أهـلِ الفَضْلِ بإذْنِه[١١] وقِسْمَتُه على قَدْرِ فَضْلهم

(١) اتصل بها : لا يزال يحركها ، أو وصل إحدى يديه بالأخرى . والمراد أنه كان إذا حدث وصل حديثه بالإشارة بيده توكيدا له .

(٢) أشاح : صرف وجهه ، أو مال وانقبض . (٣) جل : أكثر ، ومعظم .

(٤) يفتر : من قولهم : افتر ضاحكا ، إذا أبدى أسنانه . (٥) إليه : إلى الحديث .

(٦) المراد خروجه صلى الله عليه وسلم للناس ، ودخول بيته ؛ وجلوسه عندهم . وشكله : أى هيئته ، أو هى بكسر الشين بمعنى الهدى والسمت .

(٧) دخوله لنفسه : أى دخوله منزله ليجتمع بأهله لمصالحه وقضاء مآربه وقيلولته . مأذونا له فى ذلك : من الله إذنا عاما بحيث يدخل أى بيت من بيوته فى أى وقت .

(٨) جزأ دخوله : قسم زمن دخوله لبيته .

(٩) العامة : ما عدا الخاصة . ويرد : يوصل ويعطى ، كأنه لما كان لهم حق فى الجملة أخذ منهم ثم رد إليهم . والمراد أن الخاصة كانت تخبر العامة بما سمعته منه صلى الله عليه وسلم إذا لم يكن مما لا ينبغى كتمه عنهم . (١٠) وهو الجزء الذى جعله للناس .

(١١) الإيثار : تقديم ما يؤثره على غيره . والمراد بإذنه أنه يأذن لهم فى الدخول فى خلوته فى بيته .

فى الدِّينِ[١] ؛ منهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجَتَيْنِ ، ومنهم ذو الحَوائج ، فيتشاغل بهم ، ويَشْغَلُهم فيما أصلحهم[٢] ، والأمّة مِنْ مسألته عنهم وإخبارهم بالذى ينبغى لهم؛ ويقول : لِيُبَلِّغ الشاهدُ منكم الغائب، وأَبْلِغُونى حاجة مَنْ لا يستطيعُ إبلاغى حاجته ، فإنه مَنْ أَبْلَغَ سلطانا حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغها ثبّت اللهُ قدميه يوم القيامة[٣] ، لا يُذْكَر عنده إلا ذلك ، ولا يَقْبَلُ مِنْ أحد غيره .

وقال[٤] فى حديث سُفْيان بن وَكِيع : يدخلون رُوَّادا[٥] ، ولا يتفرّقون إلّا عن ذَوَاق[٦] ، ويخرجون أدِلّة ـ يعنى فقهاء[٧] .

قلت[٨] : فأخبرنى عن مَخْرَجه[٩] كيف كان يصنَعُ فيه ؟

قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْزُنُ لسانه إلّا مِمّا يَعْنيهم[١٠] ويُؤَلِّفهم ولا يُفرِّقهم؛ يُكرم كريمَ كلّ قوم، ويُولِّيه عليهم ، ويحذَرُ الناسَ ، ويحترس منهم،

---

(١) أى قسمته جزأه فى حديثه معهم واشتغاله بأحوالهم على قدر تفاوتهم فى الدين ، لأن أكرمهم عند الله أتقاهم .

(٢) أى مافيه صلاحهم .

(٣) على الصراط يوم تزل الأقدام ، والمراد نجاته من أهوال الموقف .

(٤) وقال : أى على رضى الله عنه فى رواية فى حديث سفيان بن وكيع .

(٥) روادا : جمع رائد ، والمراد طالبين محتاجين للإرشاد . أو هى رواد ـ بكسر الراء وتخفيف الواو ؛ أى ملتجئين لائذين به . وفى هامش ا : لواذا . ولواذا : ملتجئين إليه ، ومتخصنين ممتنعين به ، أو متقربين عنده .

(٦) ولا يتفرقون إلا عن ذواق : لايتفرقون من مجلسه إلا عن علم وأدب هو غذاء لأرواحهم . وفى ب : لايفترقون .

(٧) فقهاء : عالمين بأمور الدين ، هداة مرشدين للناس ، يهتدى بهم غيرهم .

(٨) قلت : قائله الحسين لأبيه رضى الله عنه .

(٩) عن مخرجه : عن حاله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من منزله .

(١٠) يخزن لسانه : يصونه . يعنيهم : يهمهم وينفعهم .

مِنْ غير أَنْ يَطْوِىَ عن أحد بِشْرَه[١] وخُلُقه ، ويتفقَّدُ أصحابَه[٢] ، ويسأل الناسَ عما فى الناس ، ويحسِّنُ الحسَنَ ويُصَوِّبه . ويقَبِّحُ القبيحَ ويُوهِّنُه[٣] ، معتدلَ الأمْرِ غير مختلف[٤] ، لا يَغْفُل مخافةَ أَنْ يغفلوا أو يَمَلُّوا ، لكل حالٍ عنده عَتَاد[٥] ، لا يُقَصِّرُ عن الحق ، ولا يجاوِزُه إلى غيره ، الذين يَلُونَه[٦] من الناس خِيارُهم ، وأفضلُهم عنده أعمُّهم[٧] نصيحةً ؛ وأعظمُهم عنده منزلةً أحسنُهم مواساةً ومُوَازرةً[٨] .

فسألتُه عن مَجْلِسه : عَمّا كان يَصْنَعُ فيه .

فقال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقُومُ إلّا على ذِكْر[٩] ، ولا يُوطِنُ الأماكنَ ، ويَنْهَى عن إيطَانِها[١٠] ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيثُ يَنْتَهِى به المجلسُ ، ويَأْمُرُ بذلك ، ويُعْطِى كلَّ جُلَسائه نَصِيبَهُ حتى لا يَحْسَبَ[١١] جَلِيسُه أنّ أحدا أَكْرَمُ عليه فيه ، مَنْ جالسه أو قاوَمَهُ لحاجةٍ صابره حتى [٥١] يكونَ هو المُنْصَرِفَ عنه[١٢] .

---

(١) يطوى : يخفى ويمنع . وبشره : طلاقة وجهه وانبساطه معه تأنيسا له وتأليفا لقلبه وإذهابا لخوف مهابته . (٢) يتفقد أصحابه : يسأل عمن لم يحضر عنده منهم .

(٣) يوهنه : أى يقول هو فعل قبيح وضعيف وساقط تنفيرا وتحذيرا ونصحا .

(٤) غير مختلف : على سنن واحد فى جميع أوقاته .

(٥) العتاد : العدة ، والحاضر المعد لإصلاحه وتداركه إذا وقع .

(٦) الذين يلونه : أى يقربون منه فى مجلسه .

(٧) فى ب : أحسنهم . وفى هامشه : أعمهم .

(٨) المواساة : إعطاء من يريد مايحتاج إليه . والموازرة : إعانة من يلجأ إليه .

(٩) على ذكر لله ، أو إفادة علم ، أو بيان حمد وشكر .

(١٠) المراد أنه لايلازم مكانا مخصوصه فى غير بيته . (١١) لا يحسب : لا يظن .

(١٢) قاومه : قام مع قيامه لمرض حاجته أو لغير ذلك . صابره : صبر عليه، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف هو ؛ كل ذلك لتطييب قلوبهم .

مَنْ سأله حاجةً لم يردّه إلا بها أو بميْسُورٍ من القول[١] . قد وسِع النّاسَ ، بَسْطُه وخُلُقه[٢] ؛ فصار لهم أبًا ، وصاروا عنده فى الحقّ سواء ، متقارِبين متفاضلين فيه بالتقوى .

وفى الرواية الأُخرى : صاروا عنده فى الحقّ سواء ، مَجْلِسُه مجلسُ حِلْمٍ وحَيَاء ، وصَبْرٍ وأمانة ؛ لا تُرْفَعُ فيه الأصواتُ ، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرم[٣] ، ولا تُنْثَى فَلَتاتُه[٤] ، وهذه الكلمةُ[٥] ، من غير الروايتين .

يتعاطَوْنَ فيه بالتقوى متَواصفين[٦] ، يُوَقِّرُونَ فيه[٧] الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويَرْفِدون[٨] ذا الحاجةِ ، ويرحمون[٩] الغريب .

فسألتُه عن سيرته صلى الله عليه وسلم فى جلسائه .

فقال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دائمَ البِشْر[١٠] ، سَهْل الخُلُق ، ليِّنَ

---

(١) بميسور من القول : أى رده بقول لين سهل لاغلظة فيه .

(٢) بسطه : أى بسط يده ، وسماحته ، وطلاقة وجهه ، وإبداء سروره ، وحسن خلقه .

(٣) لاتؤبن فيه الحرم : لاتؤبن : لاتذكر بسوء . والحرم : جمع حرمة ، وهى ما لا يحل ، والمراد النساء .

(٤) لا تنثى : لا تذكر . فلتاته : جمع فلتة ؛ وهى الزلة ، أى القبيح الذى يقع بغتة . والمراد أنه لا قبح فيه حتى يذكر . أو أن الفلتة إذا وقعت لا تذكر ؛ بل تستر .

(٥) وهذه الكلمة: يريد قوله: لاتنثى فلتاته — من غير روايتى الحسن عن خاله ، ورواية الحسين عن أبيه .

(٦) يتعاطون بالتقوى : يعطف بعضهم على بعض ، ويشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله ، لا رياء ولا سمعة ولا خوفا واتقاء شر .

(٧) فيه : أى فى المجلس .

(٨) يرفدون : يعينون ويواسون . وفى ب : يرفدون — بضم الياء ، ويرفدون بفتحها وعليها « معا » .

(٩) فى ب : ويحفظون . وفى هامشه : ويرحمون . ويؤثرون .

(١٠) البشر : طلاقة الوجه وبشاشته ، وإظهار السرور .

الجانب، ليس بِفَظٍّ ولا غَلِيظ[١]، ولا سَخَّاب[٢]، ولا فَحَّاش، ولا عَيَّاب ولا مَدَّاح[٣]، يتغافَلُ عما لا يَشْتَهِي ولا يُؤْيِس منه[٤]، قد ترك نَفْسَه مِنْ ثلاث: الرياء[٥]، والإكثار، ومالا يَعْنيه. وتَرَكَ الناسَ من ثلاث: كان لا يذُمُّ أحدا، ولا يُعيِّره، ولا يطلب عَوْرَته[٦]، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلَّم أطرق جلساؤه كأنما على رُءوسِهم الطَّيْر[٧]، وإذا سكت تكلَّموا، لا يتنازَعُون عنده الحديثَ[٨]. مَنْ تكلَّم عنده أنْصَتُوا له حتى يَفْرُغ، حديثُهم حديثُ أوَّلهم[٩]، يضحكُ ممّا يَضْحكون منه، ويتعجَّبُ مما يتعجّبون[١٠] منه، ويَصْبِرُ للغريب على

---

(١) الفظ: السيء الخلق. والغليظ: الشديد المتوعد.

(٢) ولاسخاب ـ بالسين والصاد: لا يرفع صوته جدا فى خصومة ونحوها.

(٣) ولا فحاش: لا يتكلم بقبيح كالشتم. ولا عياب: ولا يذكر عيوب الناس ونقائصهم. ولا مداح: أى لا يكثر المدح لغيره ويطريه بمبالغة.

(٤) ولا يؤنس منه: يعنى إذا سئل عما لا يليق تغافل عنه ولم يرد السائل حتى ييأس، أو يبين له أنه سأل ما لا يليق فيخجل سائله. وهذا الضبط فى ا. وفى ب: يؤنس ـ وضبطت الهمزة بالفتحة والكسرة، وكتب فوقها «معا». وقال فى هامشه: فى نسخة يؤيس ـ مبنى لما لم يسم فاعله. والصحيح ما فى الأصل.

(٥) ترك نفسه: نزهها، وأبعدها، ومنعها. والرياء: إظهار ما فيه من الصفات الحميدة والأفعال الجميلة للناس حتى يحمد بها ويشيع ذلك عنه.

(٦) لا يطلب عورته: لا يتجسس عن معايب الناس ويبحث عنها.

(٧) كأنما على رءوسهم الطير: بسكون ووقار من غير طيش ولا خفة.

(٨) لا يتنازعون عنده الحديث: إذا كانوا فى مجلسه لا يديرون الحديث بينهم، فيحدث بعضهم بعضا كما هو جار بين الناس إذا اجتمعوا فى ناد.

(٩) حديثهم حديث أولهم؛ أى حديث كل واحد منهم إنما هو حديث من قبله، يعنى أنه لا حديث له معه يقطعه. وفى ب: حديث أوليتهم. وفى هامشه: أولهم.

(١٠) فى ب: يعجب مما يعجبون.

الجَفْوَة[١] فى المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحبَ الحُجَّةِ يطلبها فأرْفِدُوه[٢] ، ولا يطلب الثناء إلّا مِنْ مُكَافِىء ، ولا يقطعُ على أحد حديثَه حتى يتجوَّزَه فيقطعه بانتهاء أو قِيام .

هنا انتهى حديثُ سفيان بن وَكيع .

وزاد الآخر[٣] : قلتُ : كيف كان سكوتُه صلى الله عليه وسلم ؟

قال : كان سكوته على أربع : على الحِلْمِ ، والحذَر ، والتقدير ، والتفكر . فأما تقديرُه ففى تَسْوِيَة النظَرِ والاستماعِ بين النـــاس[٤] ، وأمّا تفكُّره ففيما يَبْقَى و يَفْنَى .

وجُمِعَ له الحِلْمُ صلى الله عليه وسلّم فى الصبر ، فكان لا يُغْضِبُه شىء يستفِزُّه[٥] . وجُمِعَ له فى الحذَر أربعٌ : أَخْذُه بالحسَنِ[٦] ليُقْتَدى به ، وتَرْكُه القَبيحَ ليُنْتَهى عنه ، واجتهادُ الرّأى[٧] بما أصلح أُمّتَه ، والقيامُ[٨] لهم بما جَمَع لهم أمْرَ الدنيا والآخرة .

انتهى الوصف بحَمْدِ اللهِ وعَوْنه .

---

(١) الجفوة : الغلظة والتكلم بما لا يليق ، أو بما يؤلم .

(٢) أرفدوه : أعينوه وأعطوه . وفى ا : فارفدوه ـ بهمزة وصل

(٣) الآخر : صاحب الرواية الأخرى التى هى من رواية أبى على الحافظ ابن سكرة .

(٤) تسوية النظر بين الناس : جعلهم متساوين فى النظر إليهم ، والاستماع إلى حديثهم ؛ وفى ب : من الناس .

(٥) يستفزه : يستخفه ، بحيث يبدو منه خفة وقلق لأمور الدنيا .

(٦) أخذه بالحسن : تمسكه بكل أمر مستحسن مشروع .

(٧) واجتهاد الرأى : أى اجتهاده فيما يراه رأيا يصلح أمته .

(٨) والقيام لهم : القيام : التعهد والالتزام والاجتهاد وبذل ما فى وسعه وطاقته من أجل إصلاحهم . ولا خلاف فى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى أمور الدنيا ويرجع إلى رأى غيره فى ذلك .

فصـــــل

فى تفسير غريب هذا الحديث ومشكله

قوله : المُشَذَّب ، أى البائن(١) الطُّول فى نحافة ، وهو مثْلُ قوله فى الحديث الآخر : ليس بالطويل المُمَّغِط(٢) .

والشَّعَر الرَّجِل : الذى كأنه مُشِط فتـكَسَّر قليلا ؛ ليس بسَبِطٍ ولا جَعْدٍ(٣) .

والعَقِيقة : شعـــر الرأس(٤) ، أراد إن انفرقَتْ مِنْ ذاتِ نفسها(٥) فَرَقها ، وإلَّا تركها مَعْقُوصةً(٦) . ويُرْوَى : عَقِيصَته(٧) .

وأزهر اللَّوْن : نَيِّره . وقيل : أزهر : حَسَن . ومنه زَهْرَة الحياةِ الدنيا ، أى زينتُها .

وهذا كما قال فى الحديث الآخر(٨) : ليس بالأبيض الأَمْهَق ، ولا بالآدَمِ .

والأَمْهَق : هو الناصع البياض . والآدَم : الأسمر اللَّون .

---

(١) البائن : الظاهر . وفى هامش ا : لم يكن بالطويل الممغط ؛ أى لم يكن بالبائن الطول . قال أبو زيد : يقال : امغط النهار ؛ أى امتد ، ومغطت الحبل فانمغط وامغط . وقال أبو تراب فى كتاب الاعتقاب : ممغط ومعمط ــ بالغين والعين (من الغريبين ــ للهروى) .

(٢) الممغط : الذى ليس بفائق الطول .

(٣) السبط : المرسل . والجعد : الذى فيه التواء وتقبض . وهو ضد المسترسل . وفى ب ضبطت الباء فى « سبط » بالسكون والكسرة ، وعليها « معا » .

(٤) أصله شعر المولود ، ثم أطلق على غيره . (٥) فى ب : من ذاتها .

(٦) معقوصة : العقص : ضفر الشعر على الرأس وليه ؛ أى إن لم تنفرق بنفسها والتفت واجتمعت تركها على حالها .

(٧) أى بدل عقيقته ، وهى الشعر المعقوص ، أى المضفور .

(٨) الحديث الآخر عن أنس ، فى صحيح مسلم : ١٨٢٤

ومثلُه فى الحديث الآخر : أَبيض مُشْرَب(١) ؛ أى فيه حُمْرة .

والحاجِبُ الأَزَجّ : المقوَّس الطويل الوافِر الشعر .

والأَقْنَى : السائل الأَنْف ، المرتفع وسَطُه .

والأَشَمُّ : الطويل قَصَبةِ الأنف .

والقَرَن : اتّصالُ شَعر الحاجِبين(٢) . وضدّه البَلَج .

ووقع فى حديث أمّ مَعْبد وصْفُه بالقَرَن .

والأَدْعَجُ : الشديد سَوادِ الحَدَقة .

وفى الحديث الآخر(٣) : [٥٢] أَشْكَل العَيْن ، وأَسْجَر العَيْنِ(٤) ، وهو الذى فى بياضها حُمْرة .

والضَّلِيع : الوَاسِع .

والشَّنَب : رَوْنَقُ الأسنان ، وماؤها(٥) .

وقيل : رِقّتُها وتحزيزٌ(٦) فيها ، كما يُوجَدُ فى أسنانِ الشباب .

والفَلَج : فَرْقٌ بين الثنايا .

ودَقِيقُ المَسْرُبة : خيط الشّعر الذى بين الصّدْرِ والسُّرّة .

---

(١) مشرب : الإشراب : خلط لون بلون ، وأكثر ما يقال فى الحمرة .

(٢) قال فى نسيم الرياض (٢ — ٢٠٨) : المشهور خلافه ، ويؤيده أن العرب تكرهه . وقال القارى (١ — ٣٥٣) : وقد جمع بينهما بأن أم معبد رأته من بعد ، فظنت أنه أقرن ، لقرب طرفيهما التقاء ، فوصفته بالقرن ؛ وعلى كرم الله وجهه حققها من قرب ، فرآهما كادا يلتقيان فوصفه بالبلج .

(٣) صحيح مسلم : ١٨٢٠

(٤) فى هامش ا : عين سجراء — بالجيم : إذا كانت فى بياضها حمرة . وفى صحيح مسلم (١٨٢٠) قال : قلت : ما أشكل العين ؟ قال : طويل شق العين . قال شارحه : هذا وهم من سماك باتفاق وغلط ظاهر ، وصوابه — كما قال القاضى — أن الشكلة حمرة فى بياض العين ، وهو محمود .

(٥) ماؤها : صفاؤها .

(٦) أو المراد بتحزيزها كون أطرافها دقيقة .

بادِن : ذو لَحْمٍ مُتَماسِك ، معتدل الخلْقِ ، يمسِكُ بعضُه بعضا ، مثل قولِه في الحديث الآخر : لم يكن بالمُطَهم ، ولا بالمُـكَلْثَم ؛ أى ليس بمسْتَرْخِى اللحم [١] .

والمُـكَلْثَم : القَصِير الذَّقَن .

وسَوَاء البطن والصَّدْرِ ؛ أى مستويهما .

ومُشِيح الصَّدْرِ ؛ إنْ صحت هذه اللفظةُ فتـكون من الإقبال ، وهو أحد معانى [٢] «أشاح» ؛ أى إنه كان بادِىَ الصَّدْرِ ، ولم يكن في صدره قَعَس ، وهو تَطَامُنٌ فيه [٣] ، وبه يتّضِح [٤] قولُه قبـل : سَوَاء البَطْن والصدر ؛ أى ليس بمُتَقَاعس الصَّدْرِ ، ولا مُفَاضِ البَطْنِ [٥] .

ولعل اللفظة [٦] : مَسِيح ـ بالسين ، وفتح الميم ، بمعنى عَرِيض ، كما وقع في الرواية الأخرى . وحكاهُ ابْنُ دُرَيد .

والـكَرَادِيس : رءوس العِظَام ، وهو مثلُ قوله في الحديث الآخَر : جَلِيل [٧] المُشَاش والـكَتِدِ [٨] .

والمُشَاش : رءوس المناكب . والـكَتَد : مجتمع الـكتفين .

وشَثْنُ الـكَفَّين والقَدمين : لَحِيمهما .

والزَّنْدان : عَظْما الذرَاعين [٩] .

---

(١) المطهم : فاحش السمن منتفخ الوجه .

(٢) ومن هذه المعانى أعرض .

(٣) فيه ؛ أى في الصدر . والتطامن : الانخفاض .

(٤) في ب : وبه يصح . وفي هامشه : وبه يتضح .

(٥) مفاض البطن : ضخم البطن . (٦) في ب : اللفظ . والمثبت في ا .

(٧) جليل : عظيم . والمشاش : رءوس العظام ، كالمرفقين والـكتفين والركبتين .

(٨) ضبطت التاء في كلمة « الـكتد » بالفتح والـكسر ، وعليها « معا » في ب .

(٩) في ب : عظما الذراع . وفي هامشه : الذراعين .

وسائل الأطراف ؛ أى طويل الأصابع .

وذكر ابْنُ الأنبــارى أنه رُوى سائل الأطراف ؛ وقال : سائن ـ بالنون ؛ [قال][١]: وهُمَا بمعنًى ، تُبْدَل اللام من النون ، إنْ صحت الروايةُ بها[٢] .

وأما على الرواية الأُخرى : وسائر الأطراف ـ فإشارة إلى فخامة جَوَارِحه ، كما وقعت مُفَصَّلةً فى الحديث .

ورَحْب الراحة ؛ أى واسِعُها . وقيل : كنى به[٣] عن سعة العَطاء والُجود .

وخُمْصَان[٤] الأَخْمَصَيْن : أى مُتَجافِى أَخْمص القَدَم ؛ وهو الموضعُ الذى لاتناله الأرضُ من وسط القَدَم .

مَسِيح القَدَمين : أى أملسهما ، ولهذا قال : يَنْبُو عنهما الماء .

وفى حديث أبى هُريرة خلافُ هذا ؛ قال فيه : إذا وطِئَ بقدمه وَطِئَ بِـكُلِّها ، ليس له أَخْمَص[٥] .

وهذا يوافِقُ معنى قوله : مَسِيح القَدَمين ، وبه قالوا : سُمِّىَ المسيح [عيسى][٦] ابن مريم ، أى [إنه][٦] لم يكن له أَخْمَص .

وقيل مَسِيح : لالحم عليهما .

---

(١) ليس فى ب . (٢) فى ب : بهما .

(٣) فى ب : كناية . وأثبت فى هامشه الرواية هنا : كنى به .

(٤) ضبطت الخاء فى ب بالفتحة ، وعليها علامة صح . والضبط للثبت فى ا ، والنهاية لابن الأثير ، وشرح القارى ، والقاموس . وقال الخفاجى (٢ ـ ١٩٠) : بضم الخاء وفتحها .

(٥) قال القارى (١ ـ ٣٥٦) : ويمكن الجمع بينهما بأن مراد أبى هريرة أنه وطئ بكلها لا ببعضها كما يفعله بعض أرباب الخيلاء ؛ وأن قوله : ليس له أخمص محمول على نفى المبالغة . أو أنه مدرج من الراوى بحسب ما فهمه من الحديث ؛ وهذا الجمع أولى مما اختاره المصنف حيث قال : وهذا . . . (٦) من ب .

وهذا أيضا يخالفُ قوله : شَثْن القَدَمين (١) .

والتقلع : [هو](٢) رَفع الرِّجْلِ بقُوَّة .

والتَّكفُّؤ : الميل إلى سَنَنِ المَشْى ، وقَصْدِه .

والهُونُ : الرِّفق والوَقار .

والذَّرِيع : الواسع الخطْو ؛ أى إنّ مَشْيَه كان يرفعُ فيه رجليه بسرعة ، ويمدّ خَطْوَه ، خلاف مِشْيَةِ المُخْتال ، ويقصِدُ سَمْتَه ؛ وكل ذلك برِفقٍ وتثبُّت دون عَجَلة، كما قال : كأنما ينْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ (٣) .

وقوله : يَفتَتِح الكلام ويختمه بأشداقه : أى لسعَةِ فَمِه . والعربُ تمادحُ بهذا وتَذُمُّ بصِغَر الفم .

وأشاح : مال وانقبض .

وحبّ الغَمَام : البَرَد .

وقوله : فيردّ ذلك بالخاصة على العامة ؛ أى جعل من جُزْء نفسه ما يُوصِّلُ الخاصةَ إليه فتُوَصِّلُ عنه للعامّة .

وقيل : يجعل منه للخاصة ، ثم يُبْدِلها فى جُزْء آخر بالعامة .

ويدخلون رُوّاداً ؛ أى محتاجين إليه وطالبين لما عنده .

ولا يتفرقون إلا عن ذَوَاق: قيل:عن عِلْمٍ يتعلمونه؛ويُشْبِهُ أن يكونَ على ظاهره، أى فى الغالب والأكثر .

والعَتَاد : العُدَّة ، والشيء الحاضر المُعَدّ .

والمُوازَرة : المعاونة.

(١) فى نسيم الرياض (٢ — ٢١٠) : إذا فسر بلحيمهما . وأما إذا فسر بميلها إلى الغلظ والقصر، أو بغلظ الأصابع فلا .

(٢) من ب .

(٣) صبب : منحدر .

وقوله : لا يُوطِن[1] الأماكن ؛ أي لا يتخذ لمُصَلّاه موضعا معلوما .
وقد [٥٣] وردَ نَهْيُه عن هذا مفسّرا[2] في غير هذا الحديث .
وصابَرَه : أي حبس نَفْسه على ما يريدُ صاحبُه .
ولا تُؤْبَن فيه الحُرَم : أي لا يُذْكَرْنَ[3] فيه بسُوء .
ولا تُنْثَى فَلَتاتُه ؛ أي لا يُتَحدَّثُ بها ؛ أي لم تكن فيه فَلْتة ، وإن كانت من أَحَدٍ سُتِرَتْ .
ويَرْفِدون[4] : يُعينون .
والسخَّاب : الكثير الصِّيَاح .
وقوله : ولا يَقْبَلُ[5] الثناء إلا من مُكَافِئٍ . قيل مقتصد في ثنائه ومَدْحِه .
وقيل : إلّا مِنْ مسلم .
وقيل : إلا من مُكافئ على يَدٍ[6] سبقت من النبي صلى الله عليه وسلم له .
ويستفِزُّه : يستخفُّه .
وفي حديث آخر في وصْفِه[7] : منهوس العَقِب ؛ أي قليلُ لَحْمِها .
وأَهْدَب الأشفار[8] ؛ أي طويل شَعرها[9] .

---

(١) هذا الضبط في ا ، ب . وفي القاري (١ — ٣٥٨) : بتشديد الطاء وتخفيفها .
(٢) مفسرا : مصرحا به ومبينا .
(٣) في ا بالتاء ، وفي ب بالياء .
(٤) يعينون ذا الحاجة . وقد ضبطت الياء في ا بالفتحة ، وفي ب بالضمة .
(٥) في هامش ب : ولا يطاب .
(٦) اليد — هنا : النعمة .
(٧) في صحيح مسلم : ١٨٢٠
(٨) الأشفار : حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر المسمى بالهدب .
(٩) هنا في ب : انتهى التفسير . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين ، وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا .

الباب الثالث

فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قَدْرِه عند ربه[١] ومنزلته، وما خصّه به فى الدارين من كرامته صلى الله عليه وسلم

لاخلافَ أنه أَكْرَمُ البشر، وسيّدُ وَلَدِ آدم، وأفضلُ الناس[٢] منزلةً عندالله، وأعلاهم دَرَجةً، وأقربهم زُلْفَى[٣].

واعلم أنَّ الأحاديثَ الواردة فى ذلك كثيرةٌ جدا، وقد اقتصرنا منها على صَحِيحِها ومُنْتَشِرِها[٤] وحَصَرْنا معانِيَ ما ورد منها فى اثنى عشر فصلا[٥]:

الفصل الأول

فيما ورد من ذِكْرِ مكانتِه عندربِّه، والاصطفاء[٦]، ورِفْعَة الذِّكْرِ، والتفضيل وسيادة وَلَدِ آدم، وما خَصَّه به فى الدنيا من مَزَايا[٧] الرُّتَب وبَرَكَةِ اسْمِه الطيب:

أخبرنا الشيخ أبو محمد عَبْد الله بن أحمـــد العَدْل إذْناً بلفظه؛ قال: حدثنا أبو الحَسَن[٨] الفَرْغانى، حدثتنا أمُّ القاسم بنت أبى بكر بن يعقوب، عن أبيها، قال: حدثنا حاتم ـ هو ابن عَقِيل، عن يحيى ـ هو ابن إسماعيل، عن يحيى الحِمَّانى، قال: حدثنا قيس، عن الأعمش، عن عَبَايَة بن رِبْعِىّ، عن ابن عباس؛ قال[٩]: قال رسولُ

(١) عليها فى ب علامة « صح » . وفى هامشه : الله .
(٢) فى هامش ب : وأفضل الخلق .
(٣) زلفى : قربى . (٤) منتشرها : مشهورها .
(٥) بعد هذا فى ا : والحمد لله وحده .
(٦) والاصطفاء : أى اختياره صلى الله عليه وسلم على غيره وتقديمه .
(٧) مزايا : جمع مزية ، وهى الفضيلة التى تقدمه على غيره .
(٨) هذا فى ب ، والقارى (١ ـ ٣٥٩) . وقال الشهاب (٢ ـ ٢١٤) : أبو الحسين ، ووقع فى بعض النسخ : أبو الحسن . والأصح الأول . (٩) دلائل النبوة للبيهقى : ١ ـ ١١٣

الله صلى الله عليه وسلم : إنّ آللهَ قسم الخلقَ قسمين ، فجعلني مِنْ خيرهم قِسْماً [١] ؛ فذلك قولُه [٢] : ﴿أصحابِ اليمين﴾ ، و﴿أصحابُ الشِّمَال﴾ ؛ فأنا من أصحابِ اليمين ، وأنا خيرُ أصحابِ اليمين .

ثم جعل القسمين أثْلَاثا ؛ فجعلني في خيرها ثُلثا ، وذلك قولُه تعالى [٣] : ﴿فأصحاب الميمنة﴾ . و ﴿ أصحاب المَشْأَمَة ﴾ ، و ﴿ السابقون السابقون ﴾ [٤] ، فأنا مِنَ السابقين ، وأنا خيْرُ السابقين ، ثم جعل الاثلاث قبائلَ ؛ فجعلني من خيرها قَبيلة ، وذلك قوله [٥] : ﴿ وجعلناكُمْ شُعُوباً [٦] وقبائلَ لتعارَفُوا إنَّ أكرمكم عند الله أَتْقَاكُم ﴾ .

فأنا أتقَى وَلدِ آدم ، وأكرمُهم على الله ولا فَخْرَ [٧] .

ثم جعل القبائلَ بيــوتا ، فجعلني من خَيْرِها بَيْتا [٨] ؛ فذلك قولُه تعالى [٩] : ﴿ إنما يُريدُ آللهُ ليُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ [١٠] أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكم تطهيرا ﴾ .

وعن أبي سَلَمَة ، عن أبي هُريرة [١١] ، قال : قالوا : يارسولَ الله ، متى وجبَتْ [١٢] لكَ النبوّة ؟ قال ؛ وآدمُ بين الرُّوح والجسد .

وعن وَاثِلَة بن الأَسْقَع قال [١٣] : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ آللهَ اصطفى [١٤] من وَلد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من ولدِ إسماعيل بني كِنَانَة ، واصطفى

---

(١) من خيرهم قسما : أي من القسم الذي هو خير – يعني أصحاب اليمين .
(٢) سورة الواقعة ، آية ٢٧ ، ٤١ (٣) سورة الواقعة ، آية ٨ ، ٩
(٤) سورة الواقعة ، آية ١٠ (٥) سورة الحجرات ، آية ١٣
(٦) شعوبا : جمع شعب ، وهو أكثر من القبيلة .
(٧) ولا فخر : أي لا أقول هذا تفاخرا ومباهاة .
(٨) في ب : فجعلني خيرها . (٩) سورة الأحزاب ، آية ٣٣
(١٠) الرجس : النجس المستقذر ، والمراد المعاصي . وأهل البيت : الأقرباء .
(١١) سنن الترمذي : ٥ – ٥٨٥ (١٢) وجبت لك النبوة : في أي زمان ثبتت لك .
(١٣) سنن الترمذي : ٥ – ٥٨٣ ، ودلائل النبوة للبيهقي : ١ – ١٠٨
(١٤) اصطفي : اختار .

من بنى كِنَانة قُرَيشا ، واصطفى من قُرَيش بنى هاشم ، واصطفانى مِنْ بنى هاشم .

ومن حديث أَنَس[١] : أنا أَكْرَمُ[٢] ولدِ آدم على رَبِّى ولافَخْر .

وفى حديث ابن عباس[٣] : أنا أَكْرَمُ الأَوَّلين والآخِرين ولا فَخْرَ .

وعن عائشة[٤] ، عنه عليه السلام . أتانى جبريل ، فقال : قلَّبْتُ[٥] مشارِقَ الأرض ومغارِبَها فلم أَرَ رجلا أفضلَ من محمد ، ولم أَرَ بنى أَبٍ أفضلَ من بنى هاشم .

وعن أَنَس[٦] : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أُتِىَ بالبُرَاق[٧] ليلةَ أُسْرِى به ، فاستَصْعَبَ[٨] عليه ، فقال له جبْرِيل : بمُحَمَّدٍ تفعلُ [٥٤] هذا ؟ فما رَكِبَكَ أحدٌ أكرمُ على الله منه ، فارْفَضَّ[٩] عرَقاً .

وعن ابن[١٠] عباس ، عنه عليه السلام : لَمَّا خلق اللهُ آدمَ أهبطنى فى صُلْبِه إلى الأَرْض ، وجعلنى فى صُلْب نوح فى السفينة ، وقذَفَ بى فى النار فى صُلْبِ إبراهيم ، ثم لم يزَلْ يَنقُلُنى فى الأصلابِ الكريمة إلى الأرحام الطاهرةِ حتى أخرجنى بين أبوَىَّ لم يَلْتَقِيا على سِفَاح[١١] قطُّ .

---

(١) سنن الترمذى : ٥ – ٥٨٥

(٢) أكرم ولد آدم : أعزهم وشرفهم .

(٣) سنن الترمذى : ٥ – ٥٨٨

(٤) رواه الطبرانى ، وأبو نعيم ، والبيهقى فى الدلائل مسندا (دلائل النبوة للبيهقى : ١ – ١٢١) .

(٥) قلبت : فتشت . وقد ضبطت اللام مشددة فى ب ، وبالفتح فى ا .

(٦) قد تقدم .

(٧) البراق – كما سبق : على شكل دابة فوق الحمار ودون البغل ؛ سمى به لسرعته كالبرق الخاطف .

(٨) استصعب عليه : لم ينقد له وامتنع منه .

(٩) ارفض عرقا : سال عرقه .

(١٠) رواه ابن الجوزى فى الوفا ، وأبو نعيم فى الدلائل (١ – ٦٦) ، وقال السيوطى : رواه ابن عمرو العدنى فى مسنده . (نسيم الرياض : ٢ – ٢١٩) .

(١١) على سفاح : المراد بالسفاح نكاح بغير عقد (دلائل النبوة لأبى نعيم : ٦٥) .

وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه بقوله[١] :

مِنْ قَبْلِها طِبْتَ فى الظِّلالِ وفى مستَوْدَعٍ حيثُ يخْصَفُ الوَرَقُ[٢]
ثُم هبَطْتَ البِلادَ لا بَشَرٌ أنْتَ ولا مُضْغَةٌ ولا عَلَقُ[٣]
بَلْ نُطْفَةٌ تركَبُ السَّفِينَ وقَدْ أَلْجَمَ نَسْرًا وأهْلَه الغَرَقُ[٤]
تُنْقَلُ مِنْ صالبٍ إلى رَحِمٍ إذا مضَى عالَمٌ بدَا طَبَقُ[٥]

(١) هذا الشعر رواه الطبرانى . وقد أنشد العباس هذا الشعر حين رجع النبى من غزوة تبوك . وهو فى الاستيعاب : ٤٤٧

(٢) من قبلها : من قبل هذه النشأة . طبت : تطهرت من الأدناس البشرية لطيب عنصرك . والظلال : جمع ظل : يعنى فى ظلال الجنة فى صلب آدم قبل أن يهبط إلى الأرض . والمستودع : المحل الذى كان فيه آدم من الجنة . أو المراد به الرحم . وخصف الورق : إلصاق بعضه ببعض . والورق ورق الجنة الذى كان يستتر به آدم .

(٣) هبطت البلاد : هبطت ونزلت فى صلب آدم من الجنة إلى الدنيا . لابشر : أى لم تكن جسدا كأجساد البشر . والمضغة : قطعة لحم غير مخلقة . والعلق : جمع علقة ؛ وهى دم متجمد .

(٤) النطفة : الماء الصافى ، والمنى فى الأصلاب . والسفين : جمع سفينة ، وهى المركب . وألجم : وصل إلى الفم ، وعلا محلا يوضع فيه لجام الفرس . والنسر : الطائر المعروف ، سمى به صنم كان يعبده قوم نوح . والمراد بالغرق : الماء المغرق . وفى الاستيعاب : وأهلها . والمثبت فى اللسان أيضا ـ نسر . وقال : قال ابن الأثير : يريد الصنم الذى كان يعبده قوم نوح .

(٥) صالب : صلب ؛ أى فقار الظهر . والرحم : مقر الولد من المرأة . العالم : المراد به هنا : قرن من القرون . بدا : ظهر ووجد . وطبق : بمعنى قرن أيضا ؛ أى لاتزال تظهر فى عالم بعد عالم .

وفى نسيم الرياض : ويروى هنا بيت هو :

وردت نار الخليل مكتتما تجول فيها ولست تحترق

مكتتما : محفوظا فى كنف ؛ أى تحيط بك نارها ؛ ولست تحترق .

فى بعض النسخ أبيات أُخَر ، وهى قولُه[١] :

حتى احتوى بيْتُك المُهَيْمن مِنْ خِنْدِف عَلْياءَ تحتها النُّطُقُ[٢]
وأنْتَ لمّــا وُلِدْتَ أشرقت الـْ أَرْضُ وضاءَتْ بنُورِكَ الأُفُقُ
فنَحْنُ فى ذلكَ الضياء وفى النّـ ورِ وسُبْلِ الرَّشاد نَخْتَرِقُ[٣]
يا بَرْدَ نارِ الخليلِ ياسَبَباً لعِصْمَة النارِ وهْى تَحْـتَرِقُ[٤]

[النطُق : أوسطُ الجبالِ العالية[٥]] .

ورَوَى[٦] عنه صلى اللهُ عليه وسلم ، أبو ذَرّ ، وابن عُمر ، وابن عباس ، وأبو هُريرة ، وجابر بن عبد الله ـ أنه قال : أُعطِيت خمسا ، وفى بعضها[٧] ستًّا لم يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قبلى : نُصِرْتُ بالرُّعْب مسيرةَ شَهْرٍ[٨] ، وجُعلت لىَ الأرضُ مسجدا وطَهُورًا ،

---

(١) فى ب : تمام الأبيات من غير الرواية . وذكر الأبيات الثلاثة الأولى وحدها فى الهامش . وفى هامشه : ذكر ابن عبد البر هذه الأبيات ، وزاد عليها ثلاثة الأبيات . وفى الاستيعاب ذكرت الأبيات الثلاثة الأولى وحدها .

(٢) احتوى : حاز . والبيت بمعنى الشرف والنسب . والمهيمن : الشاهد على فضلك ، أو الأمين . وخندف : يريد القبيلة . والنطق : جمع نطاق ، وهو مايشد فى الوسط كالمنطقة ، استعارته العرب لجبال واسعة ؛ أى إن شرفك وعلو نسبك وأصلك من خندف اشتمل على عليا دونها الجبال الشاهقة . أو المراد أنه أعلى قومه ، وهم دونه كالنطاق له .

(٣) نخترق : نقطعها ونجاوزها .

(٤) هذا البيت ليس فى ا ، ولا فى الاستيعاب كما تقدم . وفى شرح القارى : وزاد بعضهم بيتا آخر وجد بخط أبى على الغسانى ، وهو : يابرد نار . . .

(٥) من ا .   (٦) صحيح مسلم : ٣٧٠

(٧) أى فى بعض طرق هذا الحديث المعلومة من تعدد روايتها . والحديث فى صحيح مسلم : ٣٧١

(٨) أى نصرنى الله تعالى على أعداء الدين الكفرة بشدة الخوف الذى ألقاه الله فى قلوبهم ، فإذا سمع بى من بينى وبينه مسيرة شهر ارتعد وخاف من غزوى له .

وأيُّما [١] رجلٍ من أُمتى أدركته الصلاةُ فليصلّ [٢] ، وأُحِلَّت لى الغنــائم [٣] ، ولم تُحَلّ لنبىّ قَبْلى ، وبُعِثت إلى الناس كافّةً ، وأُعطيت الشفاعة .

وفى رواية ـ بدل هذه الـكلمة [٤] : وقيل لى : سَلْ تُعْطَه .

وفى رواية أخرى : وعُرِض عَلَىَّ أُمتى فلم يخْف علىّ التابع مِنَ المتبوع [٥] .

وفى رواية [٦] : بعثتُ إلى الأحمر والأسود . قيل : السود : العرب ؛ لأنَّ الغالبَ على ألوانهم الأُدْمَة [٧] ؛ فهم من السُّودِ . والحُمْر : العَجَم .

وقيل : البيضُ والسود من الأُمم .

وقيل : الحُمْر : الإنْس . والسود : الجنّ .

وفى الحديث الآخر [٨] ـ عن أبى هريرة : نُصِرت بالرعب ، وأُوتيت جوامِـعَ الـكلم [٩] ، وبَيْنَا أنا نائم إذ جِيء بمفاتيح خزائن الأرضِ [١٠] فوُضِعت فى يدىّ [١١] .

---

(١) هذا فى ا ، ب . وفى هامش ب : فإنما . وفى صحيح مسلم : فأيما رجل .

(٢) قال القرطبى : هذا مما خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ، وكانت الأنبياء قبله إنما أبيحت لهم الصلاة فى مواضع مخصوصة كالبيع والـكنائس . وقال فى نسيم الرياض (٢-٢٢٢) : الخاص بهذه الأمة مجموع الأمرين لا كل واحد منهما ؛ لأن الأنبياء السالفة وأممهم كانت لهم صلاة مفروضة ، وكانوا يسافرون ، فلو لم تجز لهم الصلاة إلا فى مساجدهم لزمهم إما ترك الصلاة ، أو عدم صحتها ، وهو مخالف للظاهر ، فالخاص بهذه الأمة مجموع الأمرين لا كل واحد منهما .

(٣) الغنائم : جمع غنيمة : مايؤخذ من الـكفار بقتال ونحوه .

(٤) أراد بالـكلمة قوله : وأعطيت الشفاعة .

(٥) التابع من المتبوع : أى الشريف من الوضيع .

(٦) صحيح مسلم : ٣٧١ (٧) الأدمة : السمرة . (٨) صحيح مسلم : ٣٧٢

(٩) جوامع الـكلم : جوامع : جمع جامعة ؛ لجمعها الحـكم والمنافع فى لفظ قليل . وقال الهروى : يعنى به القرآن .

(١٠) المراد ما فى الأرض من الـكنوز والأموال .

(١١) فى صحيح مسلم : بين يدى . وفى رواية أخرى له : فى يدى ـ كما هنا .

وفى رواية[١] ـ عنه : وخُتِم[٢] بى النبيّون .

وعن عُقبةَ بن عامر أنه قال : قال عليه السلام : إنّى فَرَطٌ[٣] لكم ، وأنا شَهيد عليكم . وإنّى والله لأنْظُرُ إلى حَوْضِى الآن[٤] ، وإنى قد أُعطِيت مفاتيح خزائنِ الأرض . وإنى ـ والله ـ ما أخافُ عليكم أنْ تُشرِكُوا بعدى[٥] ، ولكنى أخافُ عليكم أنْ تنافَسُوا فيها[٦] .

وعن[٧] عَبْدِ الله بن عمرو أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : أنا محمد النبيُّ الأُمّيّ[٨] ، لا نَبيَّ بعدى ، أُوتِيت جوامِعَ الكلم وخواتمه ، وعلمتُ خَزَنَةَ[٩] النار وحَمَلَةَ العَرْشِ .

---

(١) فى صحيح مسلم أيضا : ٣٧١

(٢) فى ب : وختم ـ بالبناء للمعلوم ، وبالبناء للمجهول ، وكتب عليها « معا » .

(٣) فرط : الفرط ، والفارط : الذى يتقدم القوم ليهيئ لهم فى منازل أسفارهم الماء والكلأ ونحوه مما يحتاجون إليه . والحديث فى صحيح البخارى : ٤ ـ ٢٤٠ ، وفيه : إنى فرطكم .

(٤) لأنظر إلى حوضى الآن : أى أشاهده الآن .

(٥) بعدى : بعد موتى ؛ لأن من ذاق حلاوة الإيمان لا يرجع عنه .

(٦) فيها : أى فى الدنيا ؛ أى أخاف عليكم من رغبتكم فى نفائس الدنيا وانهماككم فى تحصيلها حتى يؤدى بكم ذلك إلى الهلاك وارتكاب ما يلهيكم عن الله تعالى .

(٧) قال السيوطى: رواه الإمام أحمد بسند حسن (مسند أحمد: ٢ـ١٧٢، ٢١٢، وغيرها).

(٨) هو الذى لا يقرأ ولا يكتب ، نسبة لأمه ؛ كأنه على حاله يوم ولدته أمه ؛ أو إلى أم القرى ؛ لأن الكتابة كانت عزيزة فى أهلها ، أو إلى أمة العرب . قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٢٢٧) : وهذه الصفة فى حقه صلى الله عليه وسلم من أجل النعم عليه ، وأعظمها ؛ إذ أعطاه علم الأولين والآخرين وحفظ هذا الكتاب الذى لم يعادله كتاب ، وهو لا يقرأ ولا يكتب ؛ ولم يدارس ، ولم يلاق أحدا له شغل بذلك .

(٩) خزنة النار : الملائكة الموكلون بها . وضبط كلمة « علمت » بالتخفيف فى ا : وفى هامش ب : قال الحافظ المزى رحمه الله : يجوز « علمت خزنة النار » مخففا، ولكن التضعيف أحسن ، كلفظ القرآن فى قوله تعالى : « وعلمك مالم تكن تعلم » .

وعن ابن عمر : بُعِثْتُ بين يدى الساعة[١] .

ومن رواية ابن وَهْب[٢] ـ أنه عليه السلام قال : قال الله تعالى : سَلْ يامحمد . فقلتُ : ما أسأل يارب ؟ اتخذتَ إبراهيمَ خليلا[٣] ، وكلّمتَ موسى تكليما ، واصطفيْتَ نوحا ، وأعطيْتَ سليمان مُلْكا لا ينبغى لأحدٍ من بعده[٤] ، فقال الله تعالى : ما أعطيتُك خيرٌ من ذلك ؛ أعطيتُكَ الكَوْثَر[٥] ، وجعلتُ اسْمَك مع اسْمِى[٦] ، يُنَادَى به فى جَوْف السماء[٧] ، وجعلتُ الأرضَ طهوراً لكَ ولأُمتك ، وغَفرتُ لك ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبك وما تأخَّر ؛ فأنْتَ تَمْشى فى الناس مغفورا لك ، ولم أَصْنَع ذلك لأحدٍ قبلكَ ، وجعلتُ قلوبَ أمتك مَصاحِفَها[٨] ، وخبأْتُ لكَ شفاعتَك ، ولم أُخْبأها لنبيّ غيرك .

وفى حديث آخَر رواه حُذَيفة[٩] . بَشَّرنى ـ يعنى ربّه : أول من يدخُل الجنةَ

---

(١) قال السيوطى : رواه أحمد بسند حسن . والمراد بكونه صلى الله عليه وسلم بين يدى الساعة أنه قدامها وقريب من وقوعها .

(٢) هذا بعض من حديث الإسراء الطويل الذى رواه البيهقى فى الدلائل وغيره عن أبى هريرة . وسيأتى بعد حديث الإسراء مفصلا .

(٣) اتخذت إبراهيم خليلا : اصطفيته وخصصته بالخلة وكرامتها .

(٤) لا ينبغى لأحد من بعده : لا يتيسر لغيره من الرسل والملوك ؛ لتسخير الجن والإنس والريح . . .

(٥) الكوثر : نهر فى الجنة . وقيل هو القرآن ، وقيل النبوة ، وقيل غير ذلك .

(٦) وجعلت اسمك مع اسمى : مقرونا باسم الله فى التشهد والأذان . وكلمة الشهادة وغير ذلك .

(٧) تنادى الملائكة به فى السماء .

(٨) أى مننت عليك بأن جعلت فى أمتك حفظة لم يكن فى غيرهم من الأمم السالفة ، حتى إن حفظة القرآن والحديث من هذه الأمة لا يحصون فى كل عصر . والمراد أنه جعل قلوبهم كالمصاحف التى تحفظ القرآن .

(٩) قال الخفاجى : هذا الحديث رواه ابن عساكر فى تاريخه . وارجع إلى ابن ماجه : ١٤٣٣

ومعى مِنْ أُمتى [٥٥] سبعون ألفا ، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ؛ وأعطانى ألَّا تجوع أُمتى ولا تُغْلَب ، وأعطانى النصر والعزّةَ والرُّعْبَ يسعى بين يدى أُمتى[١] شهراً ، وطيَّبَ لى ولأُمتى المغانِمَ[٢] ، وأَحلَّ لنا كثيرا مما شدَّدَ على مَنْ قَبْلنا ، ولم يجعل علينا فى الدِّين مِن حَرَج[٣] .

وعن أبى هريرة[٤] ، عنه عليه السلام : ما مِنْ نبىٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعْطِىَ من الآيات ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ[٥] ؛ وإنما كان الذى أُوتيتُ وحْياً أَوْحَى اللهُ إلىّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعا يَوْمَ القيامة[٦] .

معنى هذا عند المحقّقين بقاء معجزتِه ما بَقِيت الدنيا ، وسائرُ معجزاتِ الأنبياء ذهبت لِلْحِين[٧] ، ولم يشاهدها إلا الحاضِرُ لها ، ومعجزةُ القرآنِ يقِفُ عليها قَرْنٌ بعد قَرْن عِيَانا[٨] لا خَبَراً إلى القيامة .

وفيه[٩] كلامٌ يطولُ هذا نُخْبَتُه[١٠] . وقد بسطنا القولَ فيه ، وفيما ذُكِرَ فيه سِوَى هذا آخِرَ باب المعجزات .

---

(١) أى العدو الذى بينه وبينهم مسافة شهر يخافهم خوفا شديدا .

(٢) طيب لى : أحل لى ولأمتى . (٣) من حرج : من ضيق وشدة .

(٤) الحديث فى ابن ماجه : ١٤٣٨ ، وصحيح مسلم : ١٨٨

(٥) أى كل نبى جعل الله له معجزة أظهرها على يديه أطاعه بها الناس ، كعصا موسى ، وإحياء الموتى لعيسى .

(٦) وذلك لأن هذه المعجزة — وهى القرآن — لما كانت باقية إلى يوم القيامة، وهى باهرة ظاهرة يؤمن بها كل من وقف عليها من الناس لزم أكثرية من آمن به واتبعه عليه السلام على من آمن بغيره من الرسل ، وصدق بمعجزته المخصوصة بعصره ، فإذا مات انقطع التحدى بمعجزته . (٧) ذهبت للحين : المراد ذهبت بذهابه ولم تبق بعده .

(٨) عيانا : مشاهدة ؛ أى يطلع عليها جميع القرون والناس الذين حدثوا بعد عصر النبوة بخلاف غيرها .

(٩) وفيه : أى فى هذه الحديث ومعناه . (١٠) نخبته : مختاره وزبدته .

وعن عليّ رضى الله[1] عنه : كل نبي أُعطِيَ سبعةَ نُجباء ، وأُعطى نَبيُّكم صلّى الله عليه وسلم أربعة عشر نَجيبا[2] ، منهم أبو بكر ، وعُمر ، وابن مسعود ، وعمّار .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[3] : إنّ اللهَ قد حبَس عن مكّةَ الفِيل[4] ، وسلّطَ عليها رسولَه والمؤمنين؛ وإنّها لاتَحِلُّ[5] لأحدٍ بَعْدِي ، وإنما أُحِلّتْ لى ساعةً من نَهار[6] .

وعن العِرْباَضِ[7] بن سارِيَة : سمعتُ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: إنى عَبْدُ الله وخاتَمُ النبيين ؛ وإنّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ[8] فى طِينَتهِ ، وعِدَةُ أبى إبراهيم[9] ، وبِشَارَةُ عيسى ابن مريم[10] .

---

(١) فى حديث رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه . (سنن الترمذى : ٥ ــ ٦٦٢) .

(٢) النجيب : الكريم الحسيب ، ويكون بمعنى الرفيق المعين فى المهات والشدائد ؛ وهو المراد هنا . وفى هامش ب كمل عددهم ــ من الاستيعاب ــ فقال : وعلى ، والحسن ، والحسين ، وسلمان ، وحمزة ، وأبو ذر ، وحذيفة ، والمقداد ، وجعفر ، وبلال .

ولفظ الترمذى: قلنا : من هم ؟ قال : أنا وابناى ، وجعفر ، وحمزة ، وأبو بكر ، وعمر ، ومصعب بن عمير ، وبلال ، وسلمان ، وعمار ، وابن مسعود .

ولم يذكر ابن عبد البر : مصعبا . وزاد تكملة لهم : حذيفة ، وأبا ذر ، والمقداد .

وارجع فى ذلك أيضا إلى شرح القارى (١ ــ ٣٧٠) إن أردت .

(٣) حديث رواه مسلم عن أبى شريح ؛ قاله يوم فتح مكة (صحيح مسلم : ٩٨٨) .

(٤) حبس : منع .

(٥) ضبطت كلمة « تحل » فى ب بضم التاء ــ بالبناء للمجهول ، و « تحل » بفتح التاء وكسر الحاء وكتب عليها « معا » . والضبط الأخير فى صحيح مسلم .

(٦) كان حل القتال للنبى فى ساعة من نهار يوم الفتح .

(٧) قال الخفاجى : فى حديث رواه أحمد ، والبيهقى ، والحاكم ، وقال: إنه صحيح الإسناد (مسند أحمد : ٤ ــ ١٢٧) .

(٨) لمنجدل فى طينته : أى مختلط فى تربته ، أو ساقط فيها ، أو مطروح على الجدالة ، وهى الأرض الصلبة ، والمراد بطينته .

(٩) وعدة أبى إبراهيم؛ أى وعده بمقتضى دعائه بقوله: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ...

(١٠) وبشارة عيسى ابن مريم : يعنى فى قوله تعالى ــ حكاية عنه : ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .

وعن ابن عباس[١] ، قال : إنّ اللهَ فضَّلَ محمدا صلى اللهُ عليه وسلم على أهل السماء ، وعلى الأنبياء صَلَوَاتُ اللهِ عليهم ؛ قالوا : فما فَضْلُه على أهل السماء ؟ قال : إن اللهَ تعالى قال لأهل السماء[٢] : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ[٣] مِنْهُم إِنِّى إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فذَلكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِيْنَ ﴾ .

وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم[٤] : ﴿ إِنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ﴾ .

قالوا : فما فَضْلُه على الأنبياء ؟ قال : إنّ اللهَ تعالى قال[٥] : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ .

وقال لمحمد[٦] : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ .

وعن خالد بن مَعْدَان أنّ نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا[٧] : يارسولَ اللهِ ، أخبِرْنا عن نفسك .

وقد رُوِى نحوه عن أبى ذَرّ ، وشدّاد بن أوْس ، وأنس بن مالك ، فقال : نعم ، أنا دَعْوَةُ أَبِى إبراهيم ــ يعنى قوله[٨] : ﴿ رَبَّنَا وابْعَثْ فِيْهِم رَسُولًا مِنْهُم ﴾ .

---

(١) قال الخفاجى والقارى : فى حديث رواه البيهقى ، والدارمى ، وابن أبى حاتم .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٢٩ (٣) منهم : من أهل السماء

(٤) سورة الفتح ، آية ١ ، ٢ . ووجه الفضل أنه جعله مغفورا له غير مؤاخذ عما صدر منه. أو وجه الفضل أنه هددهم على سبيل الفرض بعذاب جهنم ودخولها ولم يهدده بمثله ، وهـذا يدل على علو رتبته فوق رتبتهم .

(٥) سورة إبراهيم ، آية ٤

(٦) سورة سبأ ، آية ٢٨ ، وهذه الآية تدل على عموم رسالته ، والآية التى قبلها تدل على تخصيص رسالة كل رسول بقومه .

(٧) قال الخفاجى : هذا الحديث روى من طرق ، كما أشار إليه المصنف .

(٨) سورة البقرة ، آية ١٢٩

وبُشْرَى[١] عيسى . ورأتْ أمّي حين حملَتْ بِي أنه خرج منها نورٌ أضاء له قصور بُصْرَى من أرض الشام ، واستُرْضِعْتُ في بني سَعْد بن بكر[٢] ، فبينا أنا مع أخٍ لي خَلْفَ بيوتنا نَرْعَى بَهْماً[٣] لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيض .

وفي حديث آخر : ثلاثةُ رجال بِطَسْتٍ من ذهب مملوءة[٤] ثلجاً ، وأخذاني فشقّا بطْني .

قال في غير هذا الحديث : من نَحْرِي إلى مَرَاقِّ بطني[٥] ، ثم استخرجا منه قلبي ، فشقّاه ، فاستخرجا منه علقَةً سَوْدَاء[٦] فطرحاها ، ثم غَسلا قلبي وبطْنِي بذلك الثلج حتى أنْقَيَاه[٧] .

قال في حديث آخر : ثم تناول أحدُهما شيئا فإذا بخاتم في يده من نُورٍ[٨] يحارُ الناظرُ دونه ، فختم به قلبي ، فامتلأ إيمانا وحِكْمة ، ثم أعاده مكانَه ، وأَمَرَّ الآخرُ يدَه على مَفْرِق صَدْرِي فالتأم[٩] .

وفي رواية : إنَّ جبريل قال : قَلْبٌ وَكِيع ؛ أي شديد ، فيه عينان تُبْصِرَان ، وأُذُنان سَمِيعتان ؛ ثم قال أحدُهما [٥١] لصاحبه : زِنْهُ بعشرة من أمتـه ، فوزَنَنِي فرجَحْتُهم[١٠] ، ثم قال : زِنْهُ بمائة من أمته ، فوزنني بهم فوزَنْتُهم ؛ ثم قال : زِنْهُ

---

(١) في هامش ب : خ : وبشر بي . (٢) أرضعته حليمة السعدية .

(٣) بهما : جمع بهمة : اسم لأولاد الضأن .

(٤) هي بالتاء في ا ، ب . قال القاري (١ — ٣٧٣) : لعل التاء للمبالغة أو باعتبار كونه آنية .

(٥) النحر : أعلى الصدر . ومراق البطن : ما رق ولان من البطن . وفي هامش ا : المراق — بتشديد القاف : أسفل البطن وما حوله حين استرق الجلد .

(٦) العلقة : دم متجمد كالعلقة المعروفه في دود الماء . (٧) أنقياه : جعلاه نقيا نظيفا .

(٨) من نور : يتلألأ ويضيء إضاءة زائدة ، حتى كأنه مجسم من نور .

(٩) مفرق صدري : محل الشق والافتراق الذي كان منه . التأم : انضم واجتمع حتى لم تبق فرجة من الشق . وانظر في ذلك أيضا دلائل النبوة لأبي نعيم : ١ — ٢٠٢ .

(١٠) رجحتهم : الرجحان : زيادة ما في الكفتين وثقله ، فينزل الراجح ويعلو مقابله . والمراد بأمته : من اتبعه وآمن به .

بألفٍ من أُمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ؛ ثم قال : دَعْهُ عنــكَ ، فلو وزَنْتَه بأُمته لوزَنَها[١] .

قال في الحديث الآخَرَ : ثم ضمُّوني[٢] إلى صدورهم ، وقَبَّلُوا رأسى ، وما بين عينيَّ ، ثم قالوا : ياحبيبُ ، لم تُرَعْ[٣] ، إنك لو تَدْرِي ما يُرَادُ بكَ من الخير لقرَّتْ عيناكَ[٤] .

وفي بقية هذا الحديث من قولهم[٥] : ما أكرمكَ على الله ! إنَّ اللهَ معكَ وملائكتَه .

قال في حديث أبي ذرّ : فما هو إلّا أنْ وَلَّيَا عنى[٦] ، فكأنما أرى الأمْرَ مُعَاينةً[٧] .

وحكى أبو محمد مكّي ، وأبو الليث السمرْقَندي وغيرهما ـ أنَّ آدمَ عند معْصيته قال : اللهم بحقّ محمدٍ اغفر لى خطيئتى .

ويُرْوَى[٨] : تقبَّلْ توبتى . فقال له اللهُ : مِنْ أين عرفْتَ محمدا ؟ فقال : رأيتُ في كل موضع من الجنة مكتوبا : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ويُرْوَى : محمد عَبْدِي ورسولي ؛ فعلمتُ أنه أكرَمُ خَلْقك عليك ، فتاب اللهُ عليه ، وغفر له .

---

(١) لوزنها : لرجحها وغلبها في الوزن .

(٢) ضموني إلى صدورهم : عانقوني إظهارا لمحبتهم وتكريمهم لى .

(٣) لم ترع : لم تخف وتفزع . أى إنه حصل لك من قوة القلب ما لا يعتريك بعده خوف من شيء . والمراد تطمين قلبه بعد ما وقع من الشق له . وفي هامش ب : لن تراع .

(٤) لقرت عيناك : لسررت سرورا عظيما .

(٥) من قولهم : أى قول الملائكة .

(٦) وليا عنى : رجعا وانصرفا عنى .

(٧) كأنما أرى الأمر معاينة : المراد بالأمر هنا ما أكرمه الله به ، وما سيكرمه به ، من مقدمات النبوة وإرهاصاتها ، وما زاد في فطنته وعلمه .

(٨) هذا الحديث رواه البيهقي والطبراني عن عمر بسند فيه ضعف .

وهذا[١] عند قائله تأويلُ قوله تعـــالى[٢] : ﴿ فتلقَّى آدمُ مِنْ رَبِّه كلماتٍ فتابَ عليه ﴾ .

وفى روايةِ الآجُرّى[٣] [قال][٤] : فقال آدم ، لمّا خلَقْتَنى رفعتُ رأسى إلى عرشك فإذا فيه مكتوب : لا إله الله محمد رسولُ الله ؛ فعلمتُ أنه ليس أحدٌ أعظمَ قدْراً عندك ممن جعلتَ اسمه مع اسمك ، فأوحى اللهُ إليه : وعِزَّتى وجلالى ، إنه لآخِرُ النبيين من ذُرِّيتك ولَوْلاهُ ما خلقتُكَ .

قال : وكان آدمُ يُكْنَى بأبى محمد ، وقيل : بأبى البشر .

ورُوِى عن سُرَيْج بن يونس أنه قال : إنّ للهِ ملائكةً سَيَّاحين[٥] عِيَادتُها[٦] كلّ دارٍ فيها أحمد ، أو محمد ، إكراما منهم لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ورَوَى ابنُ قانع[٧] القاضى ، عن أبى الحَمْرَاء ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : لمّا أُسْرِيَ بى إلى السماء إذا على العرش مكتوب : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أيّدْتُه بعلىّ[٨] .

---

(١) وهذا : أى الحديث المذكور . تأويل : تفسير . (٢) سورة البقرة ، آية ٣٧

(٣) هذا فى ا ، ب . قال القارى : قال الحلبى : الظاهر أنه الإمام القدوة أبو بكر محمد ابن الحسين بن عبد الله البغدادى مصنف كتاب الشريعة فى السنة ، والأربعين ، وغيرها . روى عنه أبو نعيم الحافظ ، وكان عالما عاملا ، سكن مكة ، ومات بها سنة ستين وثلاثمائة .

(٤) من ب .

(٥) سياحين : من السياحة ، وهى السير الطويل ، والمشى فى الأرض ، والسفر من غير مقصد وللنظر فى المصنوعات وغير ذلك .

(٦) عيادتهم : زيارتهم . وفى ب : عبادتها ـ بالباء الموحدة . وفى هامشه : عيادتها . وقال : زيارتها ـ تفسير لقوله : عيادتها . وفى ا : على كل دار .

(٧) ابن قانع : اسمه عبد الباقى بن مرزوق ، صاحب معجم الصحابة ، وكتاب اليوم والليلة ، وتاريخ الوفيات من أول سنة الهجرة ، فروى معجم الصحابة له هذا .

(٨) التأييد : التقوية والنصر .

وفى التفسير ، عن ابن عباس ـ فى قوله تعالى [1] : ﴿ وكان تَحْتَهُ كَنْزٌ لهما ﴾ ـ قال : لَوْحٌ من ذهَب فيه مكتوب : عجباً لمن أيْقَنَ بالقَدَر كيف يَنْصَب [2] ! عجبا لمن أيقَن بالنار كيف يضحك [3] ! عجبا لمَنْ رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها ! أنا الله ، لا إله إلا أنا ، محمد عَبْدِى ورسولى .

وعن ابن عباس [4] : على باب الجنـــة مكتوب : إنى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، محمد رسول الله ، لا أعذِّبُ مَنْ قالها .

وذُكِرَ أنه وجد على الحِجارة القَدِيمة مكتوب: محمد تَقِيٌّ مصلح ، وسيدٌ أمين .

وذكر السَّمِنْطَارِى [5] أنه شاهدَ فى بعض بلاد خُراسان مولودا وُلِد على أحد جَنْبَيْه مكتوب : لا إله إلا الله ، وعلى الآخر : محمد رسول الله .

وذكر الأَخْبَارِيّون [6] أنَّ ببلاد الهند وَرْداً أحمر مكتوباً عليه بالأبيض : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

---

(١) سورة الكهف ، آية ٨٢ . تحته : أى الجدار . كنز لهما : لليتيمين .

(٢) النصب : التعب. أى كيف يتعب نفسه فى تحصيل رزقه ، وما قدر له لايتخلف عنه مقدار ذرة أو لحظة .

(٣) أى من تيقن وجود النار ، وعلم أنه لا يخلو من زلة يعاقب عليها كيف لا يخاف منها ويكون ضاحكا مسرورا ، وهو لايعلم أشقى هو أم سعيد ، والموت أقرب له من حبل الوريد .

(٤) قال القارى (١ ـ ٣٧٧) : قال الدلجى : لا أعلم من رواه عنه .

(٥) هذا الضبط فى ب ، توفى سنة ٤٦٤ هـ وقال الشهاب (٢ ـ ٢٤٧) : قال التلمسانى : إنه من الأجلة ، ومن قال : لم أرله ترجمة ونحن فى غنية عما نقل عنه ـ فقد شهد على نفسه بقلة الاطلاع ، وقد ضبط بفتح السين فى ا .

وكذلك ضبطه ياقوت (٥ ـ ١٣١) ، ضبط قلم ، وقال : سمنطار : قيل : هى قرية فى جزيرة صقلية . وارجع إلى ياقوت إن شئت .

أما ضبط السين بالكسر فهو فى ب ، وأيده القارى (١ ـ ٣٧٨) ، والخفاجى : (٢ ـ ٢٤٦)

(٦) المراد بهم المؤرخون الذين لهم اعتناء بأخبار الأمم السالفة .

ورُوى عن جعفر بن محمد ، عن أبيه : إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ : ألَا لِيَقُمْ من اسْمُه محمد ، فليدخل الجنةَ لكرامةِ اسْمِه عليه السلام .

وروَى ابنُ القاسم(١) في سَماعِه ، وابنُ وَهْب في جامعه ، عن مالك : سمعتُ أهْلَ مكة يقولون : ما مِنْ بيتٍ فيه اسْمُ محمد إلّا قَدْ رُزِقُوا(٢) .

وعنه عليه السلام(٣) : ما ضَرَّ أحدَكم أن يكونَ في بيته محمد ومحمدان وثلاثة(٤) .

وعن عَبْدِ الله بن مسعود : إنَّ اللهَ نظر إلى قلوب العباد ، واختار منها قَلْبَ محمد عليه السلام ، فاصطفاه لنفسه(٥) ، فبعثه برسالته .

وحكى النقَّاشُ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت(٦) : ﴿وما كانَ لكم أنْ(٧) تُؤْذُوا رسولَ الله ولا أنْ تَنْكِحُوا أزواجَه مِنْ بَعْدِه أبدا إنَّ ذلكم كان عندَ الله عظيما﴾ ـ قام خطيبا ، فقال : يا مَعْشَر أهلِ الإيمانِ ، إنَّ الله تعالى فَضَّلني عليكم تفضيلا ، وفضَّلَ نسائي على نسائكم تفضيلا ... الحديث .

---

(١) ابن القاسم اسمه عبد الرحمن ، جمع بين الزهد والعلم ، وصحب مالكا عشرين سنة ، ومات بمصر . أخرج له البخارى ، وأبو داود ، والنسائى .

(٢) فى هامش ا ، ب : وفى نسختين صحيحتين : إلا نما ورزقوا . وفى هامش ب : خ : إلا رزقوا ورزق جيرانهم .

(٣) فى حديث مرفوع مسند ، كما قاله السيوطى ، وذكر سنده .

(٤) ونفى الضرر المراد به وجود النفع .

(٥) اصطفاه لنفسه : جعله صفيا له مقربا عنده .

(٦) سورة الأحزاب ، آية ٥٣

(٧) وما كان لكم : لاينبغى لكم ، ولا يحل ، ولا يجوز .

فصـــــل

فى تفضيله بما تضمنته كرامةُ الإسراء من المناجاة والرؤية[١]، وإمامة الأنبياء، والعرُوج به إلى سِدْرَةِ[٢] المنتهى، وما رأى من آيات رَبِّه الـكُبْرى

ومن خصائصه ـ عليه السلام قصةُ الإسراء وما انطوت عليـــه من درجاتِ الرِّفْعة مما نبَّهَ عليه الـكتابُ العزيزُ، وشرحته صِحَاحُ الأخبار؛ قال الله تعالى[٣]: ﴿سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحرامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الذى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا إنه هو السَّمِيعُ البَصِير﴾.

وقال تعالى[٤]: ﴿والنَّجْمِ إذَا هوَى. ما ضَلَّ صاحِبُـكُمْ وماغَوَى. وماينْطِقُ عن الْهوَى، إنْ هُوَ إلّا وَحْىٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذو مِرَّةٍ فاسْتَوَى. وهو بالأُفُقِ الأعْلَى. ثم دَنَا فتدَلَّى. فـكان قابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى. فأَوْحَى إلى عَبْدِه ما أوْحَى. ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى. أفتُمَارونَهُ عَلَى ما يَرَى. ولَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخرَى عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عندها جَنَّةُ المَأْوَى. إذ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى. مازاغَ البَصَرُ وما طَغَى. لقد رأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الـكُبْرَى﴾.

فلا خِلَاف بين المسلمين فى صحة الإسراء به عليه السلام، إذ هو نَصُّ القرآنِ، وجاءت بتفصيله، وشرح عجائبه، وخَوَاصٍّ نبينا محمد عليه السلام فيه أحاديثُ كثيرة

---

(١) المناجاة: الـكلام سرا. وتختص المناجاة فى العرف بـكلام العبد مع ربه. والرؤية: أى رؤيته صلى الله عليه وسلم لربه. أو رؤية ما فى الملأ الأعلى من العجائب.

(٢) العروج: الصعود فى جهة العلو. وسدرة المنتهى: شجرة فى السماء السابعة، وسميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهى إليها مايهبط من فوقها وما يصدر من تحتها. وقيل: إنه ينتهى إليها علم الخلائق. وقيل: لأن من وصل إليها انتهى لأقصى الـكرامة.

(٣) سورة الإسراء، آية ١، والمسجد الأقصى: بيت المقدس.

(٤) سورة النجم، آية ١ ـ ١٨

منتشرة ـ رأينا أنْ نقدِّمَ أكْمَلَها[١] ، ونُشِيرَ إلى زيادةٍ من غيره[٢] يجبُ ذِكْرُها :

حدثنا القاضي الشهيـــد أبو علي ، والفقيه أبو بَحْر بسماعي عليهما ، والقاضي أبو عَبْد الله التميمي ، وغَيْرُ واحدٍ من شيوخنا ؛ قالوا : حدثنا أبو العباس العُذْري ، [قالوا][٣] : حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجُلُودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنا شَيْبَان بن فرّوخ ، حدثنا حمّاد بن سَلَمَة ، حدثنا ثابت البُنَاني ، عن أنس بن مالك رضي اللهُ عنه ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال[٤] : أُتِيتُ بالبُرَاق ، وهو دابّة[٥] أبيضُ طويل، فوق الحِمَار ، ودون البَغْلِ ، يضَعُ حافِرَهُ عند منتهى طَرْفِه[٦] ـ قال : فركبتُه حتى أتيتُ بيْتَ المقدس ، فربطتُه بالحَلْقةِ التي يَرْبِطُ بها الأنبياء ، ثم دخلتُ المسجدَ فصلّيتُ فيه ركعتين ، ثم خرجتُ ، فجاءني جبريلُ بإناء من خَمْر وإناء من لَبَن ، فاخترتُ اللبنَ ، فقال جبريل : اخترْتَ الفِطْرَةَ[٧] .

(١) أي الحديث الذي هو أكملها وأجمعها لهذه القصة وأصحها . وهذا الحديث رواه مسلم : ١ ـ ١٤٥

(٢) من غيره : من غير هذا الحديث . وقعت روايتها لغير مسلم ، ولكنها مهمة .

(٣) من ب .

(٤) حديث الإسراء هذا في صحيح مسلم : ١٤٥ ، وصحيح البخاري : ٤ ـ ١٣٣ ، ومسند أحمد : ٢٥٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، وسنن الترمذي : ٥ ـ ٣٠٠ وما بعدها ، ٣٠٧ ، وسيرة ابن هشام : ٢ ـ ٣٦ ، وطبقات ابن سعد : ١ ـ ١٤٢ ، وتفسير ابن كثير : ٣ ـ ١٠٨ ، والنويري : ١٦ ـ ٢٨٣ ، والسيرة الحلبية : ١ ـ ٤٧٨ ، وغيرها .

(٥) وهو دابة : على صورتها . والدابة : تذكر وتؤنث .

(٦) منتهى : انتهاء . والطرف : العين ، والمراد به النظر .

(٧) الفطرة : الجبلة والطبيعة التي فطر عليها الناس ، أي ما اخترته هو الموافق للخلقة الإنسانية التي خلق الناس عليها ، وللطبائع المستقيمة ؛ فإن اللبن شراب لذيذ ، وطعام نافع موافق للإنسان . وقيل : المراد بالفطرة هنا الإسلام والاستقامة ، وجعل اللبن علامة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين سليم العاقبة ، بخلاف الخمر .

ثم عَرَجَ[١] بنا إلى السماء ، فاستَفْتَح[٢] جبريلُ ، فقيل : مَنْ أنتَ ؟قال:جبريل. قيل : ومَنْ معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بُعِثَ إليه ؟ قال : قد بُعِثَ إليه ، ففُتِحَ لنا ، فإذا أنا بآدَم صلى الله عليه وسلم ، فرحَّبَ بى ، ودعا لى بخير .

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية ، فاستَفْتَح جبريلُ ، فقيل : مَنْ أنتَ : قال : جبريل . قيل : وَمْن معكَ ؟ قال : محمد . قيل : وقد بُعِثَ إليه ؟ قال : قد بُعِثَ إليه. ففُتِحَ لنا ، فإذا أنا بِابْنَىِ الخالة : عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما؛ فرحَّبَا بى ، ودَعَوَا لى بخير .

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثالثة ، فذكر مِثْل الأول ، ففُتِح لنا ، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم ، وإذا هو قد أُعْطِى شَطْرَ الحُسْنِ[٣] ، فرحَّب بى، ودعا لى بخير.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الرابعة ، وذكر مِثْلَه ، فإذا أنا بإدريس ، فرحَّبَ بى ، ودعا لى بخير ، قال الله تعالى[٤] : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مكاناً عَلِيًّا ﴾ .

ثم عَرَج بنا إلى السماء الخامسة ، فذكر مِثْلَه ، فإذا أنا بهارون ، فرحَّبَ بى ، ودعا لى بخير .

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السادسة ، فذكر مِثْلَه ، فإذا أنا بموسى ، فرحبَ بى ، ودعا لى بخير .

ثم عَرَجَ بنا إلى السماء السابعة ، فذكر مِثْلَه ، فإذا أنا بإبراهيم مُسْنِداً ظهْرَه إلى البيت المعمور[٥] ، وإذا هو يَدْخُلُه كلَّ يوم سبعون ألف ملك، لايعودون[٦] إليه.

---

(١) فى ب : ثم عرج بى . والمثبت فى صحيح مسلم أيضا : وعرج : صعد .

(٢) فاستفتح جبريل : أى طلب فتحها من الملائكة الموكلين بها .

(٣) الشطر : النصف . (٤) سورة مريم ، آية ٥٧

(٥) فى نسيم الرياض (٢ — ٢٦٠) : وهو بيت تطوف به الملائكة وتحج له للعبادة ، وهو محاذ للكعبة . وسمى معمورا لكثرة الملائكة فيه .

(٦) لايعودون إليه : لأن حجه مرة كفرض الحج علينا ، أو لاشتغال غيرهم .

ثم ذهب بي إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى[١] ، وإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلة ، وإذا ثَمَرُها كالقِلَال[٢] ، قال : فلما غَشِيَها من أمر الله ما غَشِيَ تغيرت[٣] ، فما [٥٨] أحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يستطيعُ أنْ يَنْعَتها من حُسْنها ؛ فأوحى اللهُ إليّ ما أَوْحَى ، ففرضَ عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلتُ إلى موسى ، فقال: مافَرَضَ ربُّك على أمتك؟ قلت : خمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربِّكَ فاسأله التخفيفَ ، فإنّ أمتك لا يُطِيقون[٤] ذلك ، فإني قد بَلَوْتُ[٥] بني إسرائيل وخَبَرْتُهم .

قال : فرجعتُ إلى رَبِّي ، فقلتُ : يارب ، خفِّفْ عن أمتي . فحَطَّ عني خمسا ، فرجعتُ إلى موسى ، فقلت : حَطَّ عني خمسا ، قال : إنَّ أمتك لا يُطِيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . قال : فلم أَزَلْ أَرْجِعُ بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال : يا محمد ، إنهنّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يوم وليلةٍ لكل صلاةٍ عَشْرٌ ، فتلك[٦] خمسون صلاةً[٧] ؛ ومن هَمّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبت له حسنةً[٨] ، فإن عملها كُتِبت له عَشْرا . ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تُكْتَبْ شيئاً ، فإنْ عملها كُتِبت سيئةً واحدة .

---

(١) في صحيح مسلم : إلى السدرة المنتهى .

(٢) القلال : جمع قلة ، وهي الجرة الكبيرة .

(٣) غشيها : طرأ عليها وغطاها . من أمر الله : الظاهر أن المراد بأمر الله وحيه ، أو تجليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنها بذلك أشرق عليها نور إلهي ، فزهت به ، وحسنت حسنا لاينعت ، وظهر عليها نور لايمكن أن تقابله الأبصار . تغيرت : أي عن حالها التي كانت عليه .

(٤) لايطيقون ذلك : يشق عليهم فيقصرون فيه .

(٥) بلوت بني إسرائيل : خبرتهم . (٦) في صحيح مسلم : فذلك خمسون صلاة .

(٧) في الثواب والاعتبار ، لأن الحسنة بعشر أمثالها .

(٨) لنيته عملها . والهم : القصد .

قال : فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ، فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : فقلت[١] : قــــد رجعتُ إلى ربى حتى استحييتُ[٢] منه .

قال القاضي - رضى الله عنه : جوَّدَ ثابتٌ رضى اللهُ عنه هذا الحديثَ عن أنس ما شاء ، ولم يَأْتِ أحدٌ عنه بأصوب من هذا .

وقد خلَّطَ فيه غــــيره عن أنس تخليطا[٣] كثيرا ، لا سيَّما من رواية شَرِيك ابن أبى نَمِر ؛ فقد ذكر فى أوله مجىء الملك له ، وشَقَّ بَطْنِهِ ، وغَسْلَه بماء زمزم ؛ وهذا إنما كان وهو صبىّ ، وقَبْل الوحى .

وقد قال شَرِيك فى حديثه : وذلك قبل أن يُوحَى إليه ؛ وذكر قصةَ الإسراء. ولا خلاف أنها كانت بعد الوَحْى .

وقد قال غَيْرُ واحد : إنها كانت قبل الهجرة بسنة ، وقيل : قَبْل هذا .

وقد رَوَى[٤] ثابت عن أنس ، من رواية حمّاد بن سلَمَة أيضا مجىء جبريل إلى النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم وهو يلْعَب مع الغِلْمان عند ظِئْرِه[٥] ، وشقَّه قَلْبَه - تلك القصة مفردةً من حديث الإسراء كما رواه الناسُ ، فجَوَّدَ فى القصتين، وفى أنَّ الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سِـــدْرَةِ المنتهى كان قصةً واحدة ، وأنه وصـــل إلى بيت

---

(١) فى ب : قلت . والمثبت فى ا ، وصحيح مسلم .

(٢) فى ا : استحيت منه . والمثبت فى ب ، وصحيح مسلم ؛ أى استحييت منــه أن أراجعه فى السؤال بعد ذلك .

(٣) المراد أنهم أدخلوا فى حديث الإسراء ماليس منه كشق الصدر ؛ كما يأتى .

(٤) صحيح مسلم : ١٤٧

(٥) عند ظئره : الظئر : المرضعة التى ليست بأم ؛ وهى حليمة السعدية .

المَقْدِس ، ثم عرَج[١] به من هناك ، فأزاح كلّ إشكال أوهَمَهُ غيره[٢] .

وقد رَوَى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس ، قال[٣] : كان أبو ذَرّ يحدِّثُ أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فُرِجَ[٤] سَقْفُ بيتى ، [وأنا بمكة][٥] ، فنزل جبريلُ ، ففرج صَدْرِى ، ثم غَسله مِنْ[٦] ماء زمزم ، ثم جاء بِطَسْتٍ من ذهب ممتلىء حكمةً وإيمانا ؛ فأفرغها فى صَدْرى ، ثم أطْبَقه ، ثم أخذ بيدى فعرَج بنا إلى السماء . . . فذكر القصةَ .

وروى قَتَادة[٧] الحديثَ ، بمثلِهِ ، عن أَنَس ، عن مالك بن صَعْصَعة ، وفيها تقديم وتأخير وزيادةٌ ونَقْصٌ ، وخلافٌ فى ترتيب الأنبياء فى السموات .

وحديثُ ثابت ، عن أنس ـ أتقن وأجْوَدُ .

وقد وقعَتْ فى حديث الإسراء زيادات نَذْكُرُ منها نُكَتًا مفيدة[٨] فى غرضنا :

منها فى حديث ابن شهاب ، وفيه : قولُ كل نبيّ له : مرحبا بالنبى الصالح ، والأخ الصالح ، إلا آدم وإبراهيم فقالا له : والابن الصالح[٩] .

---

(١) فى ب : عرج ـ بالبناء للمجهول .
(٢) أوهمه غيره : أوقعه فى ذهن الناس ووهمهم . غيره : غير ثابت .
(٣) هذا الحديث فى صحيح مسلم : ١٤٨
(٤) فرج : شق ، أو رفع جانب منه حتى صار مكشوفا .
(٥) من صحيح مسلم .
(٦) فى ب : بماء زمزم . والمثبت فى ا ، وصحيح مسلم .
(٧) فى صحيح مسلم : ١٤٩
(٨) النكت : جمع نكتة . والمراد كل معنى دقيق يحصل بالفكر .
(٩) فى صحيح مسلم : ١٤٩

وفيه - من طريق[١] ابن عباس : ثم عَرَجَ بى حتى ظهَرْتُ[٢] بمستوًى أسمعُ فيه صريفَ[٣] الأقلام .

وعن أنس[٤] : ثم انطلق بى حتى أتيتُ سِدْرة المُنْتَهى ، فَغَشِيَها ألوانٌ لا أدرى ماهى ؟ قال : ثم أُدْخِلْتُ الجنةَ .

وفى حديث مالك بن صعصعة : فلما جاوَزْتُهُ[٥] - يعنى [٥٩] موسى - بكى ، فنُودِي : ما يُبْكِيك ؟ قال : رب ، هذا غلامٌ بعثْتَه بَعْدِي يَدْخلُ من أُمته الجنةَ أكثَرُ ممّا يدخلُ من أمتى[٦] !

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه[٧] : وقد رأيْتُنى فى جماعةٍ من الأنبياء ، فحانت[٨] الصلاةُ ، فأَمَمْتُهم[٩] ، فقال قائل : يا محمد ، هذا مالكٌ خازنُ النار ، فسلِّمْ عليه . فالتفتُّ[١٠] فبدأنى بالسلام .

وفى حديث أبى هُريرة : ثم سار حتى[١١] أتى إلى بيت المقدس، فنزل فربط فرسَه إلى صخرةٍ ، فصلّى مع الملائكة ، فلما قُضِيت الصلاةُ قالوا : ياجبريل ؛ مَنْ هذا معك ؟ قال : هذا محمد رسولُ اللهِ خاتَم النبيين . قالوا : وقد أُرْسِل إليه ؟ قال :

---

(١) فى ب : حديث . وهو فى صحيح مسلم : ١٤٩ (٢) ظهرت : علوت وصعدت .

(٣) صريف الأقلام : الصريف : المراد به صوت القلم على الورق ؛ أى انتهى - صلى الله عليه وسلم إلى محل سمع فيه صرير أقلام الملائكة الكتبة . وهى تكتب ما تنقله من اللوح ، أو ما يؤمر بكتابته من الوحى وغيره . صحيح مسلم : ١٤٩

(٤) فيما رواه مسلم : ١٤٩ (٥) جاوزته : فارقته .

(٦) صحيح مسلم : ١٥٠

(٧) فى حديث الإسراء الذى رواه البيهقى وغيره .

(٨) حانت الصلاة : دخل وقتها ، وجاء حينها .

(٩) فأممتهم : صليت بهم جماعة وأنا إمام لهم .

(١٠) فالتفت : أى إلى مالك . (١١) ثم سار : أى جبريل .

نعم . قالوا : حيَّاهُ اللهُ[١] مِنْ أخ وخليفةٍ ، فنِعْمَ الأخُ ونعم الخليفة ! ثم لَقُوا أرواحَ الأنبياءِ فأَثْنَوْا على رَبِّهم ، وذكر كلامَ كل واحدٍ منهم ، وهم إبراهيم ، وموسى وعيسى ، وداود ، وسُليمان .

ثم ذكر كلامَ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: وإنَّ محمدا صلى الله عليه وسلم أثنى على ربِّه عزّ وجل فقال : كلكم أَثْنَى على ربّه ، وأنا أُثْنِي على ربِّي . الحمد لله الذى أرسلنى رحمةً للعالمين ، وكافَّةً للناس بشيرا ونَذِيرا[٢] ، وأنزل عليَّ الفُرْقان فيه تِبْيَانُ كلِّ شيء[٣] . وجعل أُمتى خَيْرَ أُمة ، وجعل أُمتى أُمَّةً وَسَطًا[٤] ، وجعل أمتى هم الأوّلون ، وهم الآخِرون[٥] ، وشرح لى صَدْرى ، ووضَع عنّى وِزْرِى[٦] ، ورفع لى ذِكْرِى[٧] ، وجعلنى فاتحا وخاتما[٨] .

فقال إبراهيم : بهذا فَضَلكم محمد .

---

(١) حياه الله : هى تحية ودعاء بالبقاء والسلامة .

(٢) بشيرا ونذيرا : مبشرا بالخير لمن آمن واتقى ، محذرا من كفر وعصى .

(٣) تبيان كل شيء : مبين لكل شيء .

(٤) أمة وسطا : عدولا أخيارا جامعين بين العلم والعمل ، وسائر الصفات التى بين التفريط والإفراط .

(٥) علق الشيخ محمد حسنين مخلوف هنا ـ فى النسخةب ـ قال: الأولون؛ أى فى دخول الجنة ، والآخرون ؛ أى فى الوجود فى الدنيا . وقال الشهاب الخفاجى : هم الأولون وهم الآخرون : معنى أوليتهم سبقهم الناس فى القيام من القبور وفى دخول الجنة وفصل القضاء . وتأخرهم باعتبار الوجود الخارجى .

(٦) ووضع عنى وزرى: طهر قلبى من حظ الشيطان،وعصمنى فلا أرتكب مالا يرضى الله.

(٧) ورفع ذكرى : جعلنى مذكورا فى الملأ الأعلى ، وجعل اسمى مقرونا مع اسمه على كل لسان ، وعلى المنابر فى كل إقامة وأذان .

(٨) وجعلنى فاتحا وخاتما : للنبوة ؛ إذ خلق روحى قبل الأرواح ، ونبأها قبل كل نبى . وجعلنى خاتم النبيين .

ثم ذكر أنه عَرَج به إلى السماء الدُّنيا ، ومن سماءٍ إلى سماء ، نحو ما تقدم .

وفى حديث ابن مسعود[١] : وانْتُهِيَ بى إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى ، وهى فى السماء السادسة ، إليها يَنْتَهِى ما يُعْرَجُ[٢] به من الأرض فيُقْبَضُ[٣] منها ، وإليها يَنْتَهِى ما يَهْبِطُ من فوقها[٤] فيُقْبَضُ منها ؛ قال[٥] : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى ﴾ ، قال : فَرَاشٌ من ذَهَب[٦] .

وفى رواية[٧] أبى هريرة، من طريق الربيع بن أنَس : فقيل لى : هذه السِّدْرَةُ[٨] المُنْتَهَى يَنْتَهِى إليها كلُّ أحد من أمَّتك خَلَا على سبيلك[٩] ، وهى السِّدْرَةُ المنتهى، يخرجُ من أصلها أنهار من ماء غَيْرِ آسِنٍ[١٠] ، وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه، وأنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لذَّةٍ للشاربين[١١] ، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ، وهى شجرةٌ يسير الراكبُ فى ظلِّها سبعين عاما ، وإنَّ ورَقةً منها مُظِلَّةٌ الخَلْقَ[١٢] ، فغَشِيَها نور ، وغشيتها الملائكةُ .

---

(١) الذى رواه ابن عرفة فى جزأيه ، وأبو نعيم فى الدلائل . وهو فى صحيح مسلم :١٥٧

(٢) ما يعرج به : ماتصعد به الملائكة من أمور الأرض .

(٣) فيقبض منها : تقبضه الكتبة وتكتبه .

(٤) من فوقها : من العرش بواسطة الملائكة المقربين .

(٥) سورة النجم ، آية ١٦

(٦) الفراش : دويبه ذات جناحين تتهافت فى ضوء السراج ، واحدته فراشة .

(٧) فى ب : وفى حديث أبى هريرة . . . (٨) هذا فى ا ، ب .

(٩) خلا : مضى . على سبيلك : على طريقتك وسنتك ؛ أى من مات من أمتك مؤمنا بك عرج بروحه مع الملائكة إليها . وفى ا : خلى ـ بضم الخاء وتشديد اللام المكسورة .

(١٠) غير آسن : لا يتغير طعمه ولونه ورائحته أصلا ، وإن طال مكثه وعدم جريانه .

(١١) لذة للشاربين : أى ليس كخمر الدنيا المستكره شربها .

(١٢) مظلة الخلق : كناية عن سعة ظلها .

قال : فهو قوله[١] : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى ﴾ .

فقال اللهُ تبارك وتعالى له : سَلْ . فقال : إنكَ اتخذْتَ إبراهيمَ خليلا وأعطيته مُلْكا عظيما . وكلَّمْتَ موسى تكليما ، وأعطيت داود مُلْكا عظيما ، وألَنْتَ له الحديدَ ، وسخَّرتَ له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكا عظيما ، وسخَّرت له الجنَّ والإنسَ والشياطين والرِّياح[٢] ، وأعطيته مُلْكا لا ينبغى لأحد مِنْ بَعْدِه ، وعلَّمت عيسى التوراة والإنجيل[٣] ، وجعلتَه يُبْرِىء الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ[٤] ، وأعَذْتَه وأمَّه من الشيطان[٥] الرَّجيم ، فلم يكن له عليهما سبيل .

فقال له ربُّه تعالى : قد اتخذتكَ خليلا[٦] . فهو مكتوبٌ فى التوراة[٧] : محمد حبيب الرحمن ، وأرسلتُك إلى النـــاس كافَّةً ، وجعلتُ أُمَّتكَ هم الأولون ، وهم الآخرون ، وجعلتُ أُمتك لا تجوزُ لهم خُطْبة[٨] حتى يشهدوا[٩] أنكَ عبدى ورسولى ، وجعلتُك أَوَّلَ النبيين خَلْقًا . وآخرهم بَعْثا ، وأعطيتُكَ سبعا من المَثـــانى[١٠] ، ولم أُعْطِها نبيّا قبلكَ ، وأعطيتُكَ خواتيمَ سورةِ البقرة مِنْ كَنْزٍ تحت عرشى لم أُعطِها نبيا قبلكَ [٦٠] ، وجعلتُك فاتحا وخاتما .

---

(١) سورة النجم ، آية ١٦ (٢) فكانت تجرى بأمره كما يشاء .

(٣) قال القارى : علمت موسى التوراه تبعية والإنجيل أصلية .

(٤) الأكمه : الذى ولد أعمى . ويروى : وعلمت موسى التوراة وعيسى الإنجيل .

(٥) وأعذته : حفظته وأجرته .

(٦) هذا فى ا ، وعليها علامة الصحة . وفى هامشه : حبيبا ، وبجانبها « صح » وكلمة « معا » . وفى ب بالعكس . (٧) هذا من كلام الراوى كالشاهد لصحة الزيادة المذكورة .

(٨) خطبة : هى كلام يقال على رءوس الأشهاد للإعلام بأمر مهم .

(٩) حتى يشهدوا . . . : أى لايعتد بخطبهم إلا إذا أتوا فيها بكلمة الشهادة .

(١٠) سبعا من المثانى : أى الفاتحة ، لأنها سبع آيات ، أو هي تثنى وتكرر فى كل ركعة . أو السبع الطوال: البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والتوبة وحدها أو مع الأنفال بناء على أنهما سورة واحدة لعدم البسملة بينهما؛ لتكرير المواعظ والعبر فيها.

وفى الرواية الأُخرى[١] قال : فأُعْطِىَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا : أُعْطِىَ الصلواتِ الخمسَ ، وأُعْطِىَ خَوَاتِيمَ سورةِ البقرة ، وغُفِرَ لمَنْ لا يُشْرِك بالله شيئا من أمته المُقْحِمات[٢] .

وقال[٣] : ﴿ ما كذبَ[٤] الفُؤادُ ما رأَى . أفتُمارُونَه على ما يرى . ﴾ : رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح .

وفى حديث شَرِيك أنه رأى موسى فى السابعة ـ قال : بتفضيل كلام الله[٥] .

قال[٦] : ثم علَا به فوْقَ ذلك بما لا يعلمه إلا الله ؛ فقال موسى : لم أَظُنّ أنْ يُرْفَع علىّ أحد .

وقد رُوِى عن أنس أنه صلى اللهُ عليه وسلم صلّى بالأنبياء ببيت المقدس .

[وعن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : بينما أنا قاعد ذاتَ يوم إذْ دخل جبريل ، فوَكَزَ[٧] بين كتِفَىّ ، فقمْتُ إلى شجرة فيها مِثْلُ وَكْرَى الطائر[٨] ، فقعد فى واحدةٍ وقعدتُ فى الأخرى[٩] ، فنمَتْ حتى سدّت

(١) التى رواها مسلم : ١٥٧

(٢) المقحمات : المراد الكبائر التى تلقى صاحبها فى النار . وبين السطور فوقها فى ب : المهلكات .

(٣) وقال : أى ابن مسعود فى الحديث الذى رواه .

(٤) سورة النجم ، آية ١١ ، ١٢

(٥) بتفضيل كلام الله ؛ أى علو مرتبته عليه الصلاة والسلام ، وصعوده للسابعة إنما هو لفضله على غيره بكونه كليم الله .

(٦) قال : شريك فى الحديث .

(٧) وكز بين كتفى : وكز : ضرب ضربا خفيفا كما يفعل من يوقظ غيره . وقيل : الوكز : الضرب بجمع الكف .

(٨) الوكر للطير كالبيت للإنسان : العش .

(٩) قال فى نسيم الرياض : قيل أنثه لأنه كالعش يذكر ويؤنث ، والغالب على ألسنة أهل مكة تأنيثه . أو لتأويله بالزاوية والطاقة ونحوها .

الخافِقَيْنِ(١). ولو شئتُ لمَسِسْتُ(٢) السماء، وأنا أُقلِّبُ طَرْفى(٣)، ونظرتُ جبريلَ كأنه حِلْسٌ لاطىء(٤)، فعرفتُ فَضْلَ علمه بالله علىّ(٥)، وفُتِحَ لى بابُ السماء، ورأيتُ النورَ(٦) الأعظم، ولُطَّ دونى(٧) الحِجاب، وفُرَجُه الدّرُّ والياقوت(٨).

ثم أوحى اللهُ إلىّ ما شاء أَنْ يُوحِيَ](٩).

وذكر البزّار عن على بن أبى طالب رضى الله عنه(١٠): لما أراد اللهُ تعالى أن يُعلِّمَ رسولَه الأذان جاء جبريل بدابّةٍ يقال لها البُراق، فذهب يركبُها، فاستصعبت عليه، فقال لها جبريل: اسْكُنِى، فواللهِ ما رَكِبكِ عَبْدٌ أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم؛ فركبها حتى أتى إلى الحجاب الذى يَلِى الرحمنَ تعالى، فبينما هو كذلك إذ خرج مَلَكٌ من الحِجاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياجبريل، مَنْ هذا؟

---

(١) فنمت: فزادت الشجرة وارتفعت. والخافقان: المشرق والمغرب.

(٢) لعلوها وقربى منها. (٣) تقليب طرفه: نظره فى جوانبها.

(٤) حلس لاطىء: الحلس: كساء رقيق يوضع تحت القتب والبردعة ويبسط فى البيت. لاطىء: لاصق بالأرض. والمراد أنه لما قرب من السماء غشيته مهابة حتى خضع والتصق بالأرض من الغشى الذى هو فيه، والنبى صلى الله عليه وسلم لم تمسه روعة كما غشى جبريل عليه السلام. وفى ا: لاطئا.

(٥) الملائكة المقربون قد يعرفون من أحوال الملكوت ما لا يعرفه غيرهم.

(٦) النور الأعظم: قيل هو نور العرش، أو الله تعالى.

(٧) لط دونى الحجاب: أرخى (هامش ب) يعنى أنه صلى الله عليه وسلم بعد ماشاهد النور أرخى بينه وبينه حجاب ستره عنه. وفى ا: وإذا دونى...

(٨) وفرجه: جمع فرجة؛ وهى مابين الشيئين من خلاء، أو بين أجزاء شىء مفتوحة؛ أى فرج الحجاب. وطاقاته التى يخرج منها نوره.

(٩) مابين القوسين فى هامش ب تحت كلمة: حاشية. وهو فى ا أصلا.

(١٠) هذا الحديث رواه بسند متصل لعلى رضى الله عنه، قال القارى (١ — ٣٩٩): وفى سنده زياد بن المنذر، وهو كذاب.

قال : والذى بعثكَ بالحق ، إنى لأَقرب الخَلْقِ مكاناً ، وإن هذا الملك ما رأيتُه منذ خُلِقْتُ قبل ساعتى هذه . فقال الملك : الله أكبر . الله أكبر . فقيل له مِنْ وراء الحجاب : صدَق عبدى ، أنا أكبر . أنا أكبر .

ثم قال الملَك: أشهد أن لا إله إلا الله . فقيل له مِنْ وراء الحجاب: صدق عَبْدى، أَنَا اللهُ لا إله إلا أنا .

وذكر(١) مِثْلَ هذا فى بقية الأذَان ، إلا أنه لم يذكر جوابا عن قوله : حىّ على الصلاة . حى على الفلاح .

وقال(١) : ثم أخذ الملَكُ بيد محمد ، فقدَّمه ، فأَمَّ أهـلَ(٢) السماء ، فيهم آدمُ ونوح .

قال أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ، راوِيه(٣) : أكمل اللهُ تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم الشرفَ على أهل السموات والأرْض(٤) .

قال القاضى ـ رضى الله عنه : ما فى هذا الحديث من ذِكْرِ الحجاب فهو فى حقّ المخلوق لا فى حق الخالق ، فهم المحجوبون ، والبارِى جلّ اسْمُه منزّه عما يَحْجُبه ، إذ الحجُب إنما تُحِيطُ بمقَدرٍ محسوس(٥) ، ولكن حُجُبه على أبصار خَلْقه وبصائرهم

(١) وذكر : أى الراوى . (٢) فأم : صار إماما يؤم .

(٣) روايه : أى راوى هذا الحديث الذى رواه عن أبيه ، عن جده .

(٤) قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٢٨٣) : بقى هنا أن ما ذكر يدل على أن الأذان شرع ليلة الإسراء قبل الهجرة مع أنهم جزموا بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة إلى أن هاجر إلى المدينة ، ثم رأى بعض الصحابة من دله على الأذان ، فأمر الرسول بلالا أن يؤذن . وذلك يدل على أن الأذان كان بدؤه فى المدينة ، وهما متعارضان . قال : إلا أن الثانى صحيح ، والأول ضعيف .

(٥) بمقدر محسوس : أى بذى مقدار له طول وعرض فى جهة تحس بتوجه الناظر ؛ فيقتضى الجهة ، وهو ـ تعالى ـ منزه عن ذلك .

وإدرا كاتهم بماشاء[١] وكيف شاء ، ومتى شاء ، كقوله تعالى[٢] : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عن رَبِّهِم يومئذٍ لمَحْجُوبُونَ ﴾ .

فقوله فى هذا الحديث : « الحجاب » ، « وإذْ خرج ملك من الحجاب » ـ يجب أنْ يقال[٣] : إنه حجابٌ حجَبَ به[٤] مَنْ ورَاءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه[٥] من سُلْطانه وعظمته ، وعجائب ملكوته وجَبَروته[٦] .

ويدلُّ[٧] عليه من الحديث قولُ جبريل ـ عن المَلَك الذى خرج من ورائه : إنّ هذا المَلَك ما رأيتُه منذ خُلِقْت قبل ساعتى هذه .

فدلّ على أنّ هذا الحجابَ لم يختصّ بالذات[٨] .

ويدلُّ عليه قولُ كعب فى تفسير : « سِدْرَةِ المُنْتَهَى » ـ قال : إليها ينتهى عِلْمُ الملائكة ، وعندها يجدون أمْرَ الله ، لا يجاوزُها عِلْمُهم .

وأما قولُه : الذى يَلِى الرحمن فيُحْمَلُ على حَذْفِ المضاف ، أى يَلِى عَرْشَ الرحمن ، أو أمْرا مّا من عظيم آياته ، أو مبادِئُ حقائق معارفه[٩] ، مما هو أعلمُ به ، كما قال تعالى[١٠] : ﴿ واسْأَلِ القَرْيَةَ ﴾ ؛ أى أهلها .

---

(١) الحجب : جمع حجاب ، أى منعهم عن رؤيته وإدراك ذاته ، ومعرفة حقيقته ، ليس بحجاب كحجاب البشر ؛ بل بسبب إرادة وكيفية لا يدركها ، فى أى زمان أراده .

(٢) سورة المطففين ، آية ١٥ (٣) أن يقال فى تفسيره . (٤) حجب به الله .

(٥) على مادونه : أى ما خلفه وما وراءه من جانب الغيب وباطنه ، فهو الباطن الظاهر .

(٦) المراد بملكوته عالم غيب الغيب ؛ أى ما غيب عن الملائكة . وبجبروته : عظائم الملكوت وغرائبه مما احتجب عن غيره .

(٧) ويدل عليه : يدل على أن الحجاب لغيره لا لذاته .

(٨) بالذات : أى بذات الله .

(٩) أى أمرا يكون مبدأ لما يتحقق به معرفة الله .

(١٠) سورة يوسف ، آية ٨٢

وقوله : فقيل من وراء الحجاب : صدق [٦١] [عَبْدِى][1] ، أنا أكبر ـ فظاهرُه أنه سمع فى هذا الموطن كلامَ الله ، ولكن مِنْ وراء حجاب ، كما قال[2] : ﴿وما كان لبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحْياً أو مِنْ وراء حجاب﴾؛ أى وهو[3] لايراه، حجَبَ بصرَه عن رُؤْيته .

فإن صَحّ القولُ[4] بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربَّه ـ عزّ وجلّ ـ فيُحْتَمل أنه فى غير هذا المَوْطِنِ بعد هذا أو قَبْــــله ، رُفِعَ الحجابُ عن بصره حتى رآه . والله أعلم .

فصــــل

ثم اختلف السلَفُ[5] والعلماء : هل كان إسراء برُوحه أو جسده ؟ على ثلاث مقالات[6] :

فذهبت طائفةٌ إلى أنه إسراء بالرُّوح ، وأنه رُؤْيا منام ، مع اتفاقهم أنّ رؤيا الأنبياء حقّ ووَحْى ، وإلى هذا ذهب معاوية[7] .

وحُكِى عن الحسن[8] ، والمشهور عنه خلافه[9] ، وإليه أشار محمد بن إسحاق ، وحجتُهم قولُه تعالى[10] : ﴿ وما جَعَلْنا الرُّؤْيا التى أَرَيْناكَ إلّا فِتْنَةً للنّاسِ ﴾ .

---

(١) ليس فى ا . (٢) سورة الشورى ، آية ٥١ (٣) وهو : أى البشر .

(٤) ارجع إلى صحيح مسلم فى ذلك : ١٥٨ ، وما بعدها . وشرح القارى : ١ ـ ٤٠٢

(٥) المراد بالسلف الصحابة ومن عاصرهم ، وبالعلماء من بعدهم . وهذا الفصل تحقيق فى الإسراء . (٦) أى الاختلاف واقع على ثلاثة أقوال للسلف والخلف .

(٧) معاوية بن أبى سفيان، كما رواه عنه ابن جرير، وابن إسحاق. وهو صحابى ابن صحابى.

(٨) الحسن البصرى .

(٩) له قولان : أشهرهما أنه كان يقظة . وحديث الإسراء فى الطبقات الكبرى:١-١٤٢ كما تقدم .

(١٠) سورة الإسراء ، آية ٦٠

وما حَكَوْا[١] عن عائشة رضى الله عنها : ما فقدْتُ[١] جسدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : بينا أنا نائم .

وقول أنس : وهو نائم فى المسجد الحرام ... وذكر القصّة، ثم قال فى آخرها[٢] : فاستيقظتُ وأنا بالمسجد الحرام .

وذهب مُعْظَمُ السَّلَف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة ، وهذا هو الحقّ ، وهو قولُ ابنِ عباس ، وجابر ، وأنس ، وحُذَيفة ، وعُمر ، وأبى هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبى حَبَّة البَدْرى ، وابن مسعود، والضحاك ، وسعيد بن جُبير ، وقَتَادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زَيْد ، والحسن، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعِكْرمة ، وابن جُرَيج ، وهو دليلُ قول عائشة[٣] ، وهو قولُ الطبرى ، وابن حنبل ، وجماعةٍ عظيمة من المسلمين . وقولُ[٤] أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين والمفسرين .

---

(١) وما حكوا : أى ومما احتجوا به أنها رؤيا منام . وستأتى الإشارة إلى هذا بعد . قال فى نسيم الرياض (٢ — ٢٨٨) : وفى نسخة : مافقد — بالبناء للمفعول . وفى رواية : لم يفقد — مجهول أيضا . قال التلمسانى : وهى الأشبه بالصواب ؛ فهو إخبار منها عن غيرها ، لأنها لم تكن حينئذ زوجته ؛ بل لم توجد .

(٢) فى حديث الإسراء الذى رواه البخارى : ٤ — ١٣٣ ، وهو يدل على أنه كان مناما.

(٣) قال فى نسيم الرياض (٢ — ٢٨٩) : قيل : كيف يكون الإسراء يقظة دليل قول عائشة : ما فقدت جسده الشريف الدال على أنه كان مناما لايقظة ؟ فهذا سهو منه بلا ريبة .

وقد يقال : إنه سقط منه شىء ؛ وأصله دليل على عدم صحة قول عائشة ، لأنه لم يثبت نقله عنها .

وقد يقال : مراده أنه دليل على قول عائشة قولا موافقا لما عليه أكثر الصحابة ، وأنها قائلة بأنه يقظة كالجمهور ، كما سيأتى ؛ فالمراد إبطال ما نقلوه عنها .

وهذا الرد الأخير أسهل من تغليط المصنف ؛ وهو الأنسب بقوله بعد : وهو قول الطبرى.

(٤) فى ا : وهذا .

وقالت طائفة (١) : كان الإسراء بالجسد يَقَظةً إلى بيت (٢) المقدس ، وإلى السماء بالرُّوح ، واحتجُّوا بقوله تعالى (٣) : ﴿ سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقْصَى ﴾ ، فجعل « إلى المسجد الأقصى » غايةَ (٤) الإسراء الذى وقع التعجُّبُ فيه بعظيمِ القُدْرة ، والتمدُّح بتشريف النبى محمد صلى الله عليه وسلم به (٥) ، وإظهار الكرامةِ له بالإسراء إليه .

قال هؤلاء (٦) : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائدٍ على المسجد الأقصى لذكَره ؛ فيكون أبلغَ فى المدح .

ثم اختلفت هذه الفرقتان (٧) : هل صلَّى ببيت المقدس أم لا ؟

ففى حديث أنس وغيره ماتقدم مِنْ صلاته فيه . وأنكر ذلك حذيفةُ بن اليمان ، وقال : واللهِ ما زالا (٨) عن ظَهرِ البُرَاقِ حتى رجعا .

---

(١) هذا هو القول الثالث . (٢) فى ب : إلى المسجد الأقصى . وعليها علامة الصحة.

(٣) سورة الإسراء ، آية ١

(٤) أى إنه لما جعل المسجد الأقصى غاية اقتضى أنه لم يجاوزه إلى السماء ببدنه الشريف . قال فى نسيم الرياض (٢ — ٢٩٠) : ولا حجة فيه ، لأن كونه غاية مسيره فى الأرض لاينافى صعوده لما يحاذيه فى جهة العلو .

وقيل : إن الحكمة فى تخصيص المسجد الأقصى أن تسأل قريش على سبيل الامتحان — عن الأعلام التى عرفوها ، والصفات التى شاهدوها فى بيت المقدس ؛ وقد علموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسافر إليها قط ، فيجيبهم بما عاين ، ويوافق مايعلمون ؛ فتقوم الحجة عليهم ؛ وكذلك وقع . ولذا لم يسألوه صلى الله عليه وسلم عما رأى فى السماء ؛ إذ لاعلم لهم بذلك .

(٥) به : بالإسراء .

(٦) قال هؤلاء : أى قال هؤلاء الذاهبون إلى أن الإسراء بجسده إلى المسجد الأقصى ، وهم أصحاب المذهب الثالث .

(٧) الفرقتان الثانية والثالثة . وفى هامش ب أمام هذه : خ : هاتان .

(٨) ما زالا : لم ينفصلا وينزلا . والضمير لجبريل وللنبى .

قال القاضى [١] : والحقُّ من هذا والصحيح إنْ شاء الله ـ أنه إسراء بالجسد والرُّوح فى القصة كلِّها ، وعليه تدلُّ الآيةُ ، وصحيح الأخبار ، والاعتبار [٢] ، ولا يُعْدَلُ عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده وحالِ يقظته استحالة ؛ إذ لو كان مَناما لقال [٣] : بِرُوحِ عَبْدِه ، ولم يَقُلْ : « بِعَبْدِه » . وقوله تعالى [٤] : ﴿ما زاغَ البَصَرُ وما طَغَى﴾ ، ولو كان مناما لما كانت فيه آيةٌ ولا معجزةٌ ، ولما استبعده الكُفَّار ، ولا كذَّبوه فيه ، ولا ارتدَّ به ضُعفاء مَنْ أسلم ، وافْتَتَنُوا به [٥] ؛ إذ مثْلُ هذا من المنامات لا يُنْكَر ؛ بل لم يكن منهم [٦] ذلك [٦٢] إلا وقد علموا أنَّ خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته ، إلى ما ذُكِر فى الحديث من ذِكْر صلاتِه بالأنبياء ببيت المقدس فى روايةِ أنس ـ أو فى السماء على ما رَوَى غَيْرُه ، وذِكْرِ مجىء جبريل له بالبُرَاق ، وخَبَرِ المعراج ، واستفتاح [٧] السماء ؛ فيقال : مَنْ معك ؟ فيقول : محمد ، ولقائه الأنبياء فيها [٨] ، وخَبَرِهم معه ، وتَرْحيبِهم به ، وشأنِه فى فَرْضِ الصلاة ومراجعتِه مع موسى فى ذلك .

---

(١) هو المؤلف .

(٢) والاعتبار : المراد به التتبع لأقوال السلف أو دقيق الفكر والتأمل فى الأحاديث المروية والقصة . يعنى أنه يدل على ذلك العقل والنقل .وفسر القارى الاعتبار بالمقايسة ، وقال (١ ـ ٤٠٥) : يعنى إذا ثبت إسراؤه من الحرم إلى الحرم معجزة بدلالة الآية فيجوز إسراؤه إلى السماء بالمقايسة المقرونة بالأحاديث الثابتة ؛ إذ لا فرق .

(٣) أى فى قوله تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ـ سورة الإسراء ، آية ١

(٤) سورة النجم ، آية ١٧ ؛ إذ ليس للروح بصر . ومعنى الآية : ما مال بصره يمينا ولا شمالا فى مقام أدبه مع ربه ، وما جاوز ما أمره . (القارى : ١ ـ ٤٠٦) .

(٥) افتتنوا به : وقعوا فى فتنة وبلية عظيمة توقعهم فى العذاب ، لردتهم ، وتكذيبهم له ، وإنكارهم لما أخبر به النبى بما هو خارق للعادة ؛ وهو قد أخبر به لأنه معجزة تحداهم بها .

(٦) فى ا : ذلك منهم . (٧) واستفتاح السماء : أى طلب فتحها له .

(٨) فيها : أى فى السماء .

وفى بعض هذه الأخبارِ[١] : فأخذ - يعنى جبريل - بيدى فعرَج بى إلى السماء... إلى قوله : ثم عرَج بى حتى ظهرتُ[٢] بِمُسْتوًى أسمعُ فيه صَريفَ الأقلام ، وأنه وصل إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى ، وأنه دخل الجنةَ ، ورأى فيها ما ذَكره .

قال ابن عباس : هى رُؤْيا عَيْنٍ رآها النبىُّ صلى الله عليه وسلم لا رُؤْيَا مَنام .

وعن الحسن[٣] فيه : بينا أنا نائم فى الحِجْر[٤] جاءنى جبريل فهمزنى بعَقِبه[٥] ، فقمتُ فجلستُ فلم أَرَ شيئًا ، فعُدْت لمَضْجَعى[٦] - ذكر ذلك[٧] ثلاثا ، فقال فى الثالثة : فأخذ بعَضُدِى[٨] فجرّنى إلى بابِ المسجد فإذا بِدَابّة . . . وذكر خبر البُرَاق[٩] .

وعن أمِّ هانئ : ما أُسْرِىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو فى بيتى ، تلكَ الليلة صلى العِشَاء الآخِرة[١٠] ، ونام بيننا ، فلما كان قُبَيل الفَجْرِ أهبَّنا[١١] رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، فلما صلّى الصبح وصلَّينا قال : ياأُمَّ هانئ ، لقد صليتُ معكم

---

(١) فى الحديث الذى رواه الشيخان عن أنس ، وقد تقدم .

(٢) ظهرت : علوت وصعدت .

(٣) رواه ابن إسحاق وابن جرير مرسلا عن الحسن البصرى .

(٤) الحجر : بجنب البيت الشريف كنصف دائرة عليه جدار قصير . وفى ب : جالس ، وفى هامشه : نائم . والعكس فى ا .

(٥) همزنى : مسنى بشدة لينبهنى . والعقب : مؤخر الرجل .

(٦) لمضجعى : أى رجعت لما كنت عليه من هيئة النائم .

(٧) فى ب : فذكر ، والمثبت فى ا . (٨) العضد : ما فوق المرفق .

(٩) وهذا رواه ابن إسحاق، وابن جرير ، والطبرانى. وعلق القارى (١ - ٤٠٧) على هذا بقوله : قال الدلجى : الله أعلم بصحة هذا الحديث لنزاهة جبريل عن أن يفعل ذلك .

(١٠) العشاء الأولى : المغرب . (١١) أهبنا : أيقظنا (هامش ب) .

العِشاءَ الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادى(١)، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصلَّيتُ فيه، ثم صليتُ الغَدَاةَ معكم الآن كما تَرَوْن.

وهذا بَيِّنٌ فى أنه بجسمه.

وعن أبى بكر من رواية شدّاد بن أوْس عنه ـ أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم ليلةَ أُسرى به: طلبتكُ يا رسولَ الله البارحةَ فى مكانك فلم أجِدْك(٢). فأجابه: إن جبريلَ عليه السلام حملنى(٣) إلى المسجد الأقصى.

وعن عُمر رضى الله عنه(٤)، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: صلّيتُ

(١) بهذا الوادى: بمكة، وهى واد لإحاطة الجبال بها وانخفاضها.

قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٢٩٥): قالوا: وهذا مشكل من وجوه؛ لأنها إنما أسلمت عام الفتح، فكيف تكون قد صلت معه العشاء. وأيضا إن الصلاة إنما فرضت فى الإسراء؛ ولهذا أشار المصنف لتضعيف هذا فى الفصل الذى يليه. وأيضا المغرب لا تسمى عشاء لغة وشرعا. ثم قال: أقول الذى يظهر لى فى التوفيق بين الآراء والجواب عما ذكر ـ أن النبى صلى الله وسلم كان ببيت أم هانئ، ثم خرج إلى الحرم للصلاة، فغشيه نوم، ثم استيقظ وعرج به.

وأما قول أم هانئ: «وصلينا» فيدفع إشكاله المذكور أنها بنت أبى طالب، وأبو طالب وآله كانوا محبين له صلى الله عليه وسلم معتقدين صدقه ولم يظهروا ذلك؛ ولذا أسلم على فى صباه، فلما خرج النبى من بيتها تلك الليلة وصلى بالحرم ومعه على فلاشك أنه كان يصلى قبل الإسراء بالغداة والعشى صلاة غير الخمس المفروضة؛ فقولها: «صلينا» كقولهم: بنو فلان قتلوا قتيلا، والقاتل واحد منهم؛ لأن الفعل المرضى لجماعة إذا وقع من أحدهم ينسب للجميع؛ أى صلى معه بعض آلنا، وهو على.

أو يقال: إنها كانت مسلمة سرا، كما نقل عن العباس.

فاندفاع الإيراد الذى ظنوه غير مندفع ظاهر.

(٢) البارحة: الليلة الماضية قبل ليلتك. ومعنى طلبتك: إنى تفقدت جسدك فى مضجعك.

(٣) فى ا: حمله. (٤) كما رواه ابن مردويه من طرق.

ليلةَ أُسرى بى فى مقدَّمِ المسجد[١] ، ثم دخلتُ الصخرة[٢] فإذا بِملَكٍ[٣] قائم معه آنيةٌ ثلاث[٤] ... وذكر الحديث.

وهذه التصريحاتُ ظاهرةٌ[٥] غيرُ مستحيلة ، فتُحْمَلُ على ظاهرها[٦] .

وعن أبى ذرّ[٧] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : فُرِجَ سقْفُ بيتى وأنا بمكةَ ، فنزل جبريلُ ، فشرح صَدْرِى ، ثم غسله بمـاء زَمْزم . . . إلى آخر القصة[٨] ، ثم أخذ بيدى ، فعرَجَ بى .

وعن أَنس : أُتِيتُ فانْطُلِق[٩] بى إلى زمزم ، فشُرِح عن صدرى .

وعن أبى هُريرة رضى اللهُ عنـه : لقد رأيتُنى فى الحِجْرِ ، وقريشٌ تسألنى عن مَسْرَاىَ[١٠] ، فسألتنى عن أشياء لم أُثْبِتْها ، فكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبْتُ مثله قطُّ[١١] ، فرفعه اللهُ لى أنظرُ إليه .

ونحوه عن جابر .

---

(١) المسجد : المسجد الأقصى .

(٢) ثم دخلت الصخرة : أى دخلت للمسجد الذى تحت الصخرة .

(٣) فى ا : فإذا ملك .

(٤) يعنى إناء من خمر، وإناء من لبن ، وإناء من ماء ، وأنه خير فيه فاختار اللبن، وقيل له : اخترت الفطرة ، ولو اخترت الخمر غوت أمتك ـ وقد تقدم .

(٥) ظاهرة : فى أنه كان يقظة .

(٦) أى ولا يعدل إلى التأويل مع عدم الحاجة إليه .

(٧) يؤيد ظهور الرأى بأن الإسراء كان يقظة .

(٨) فرج : كشف من السقف جانب حتى انفتحت منه فرجة ، ولم يبق حائل بينه وبين السماء . وقد تقدمت .

(٩) فى ا : أتانى آت فانطلقوا بى .

(١٠) عن مسراى : أى يسأله كفار قريش عن علاماته بعد ما كذبوه .

(١١) الكرب : الغم والحزن الشديد ، مع القلق والاضطراب .

وقد رَوَى عُمر بن الخطاب رضىَ اللهُ عنه فى حديث الإسراء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثم رجعتُ إلى خديجة وما تحوَّلَتْ عن جانبها [١] .

فصـــل

فى إبطال حُجَج من قال إنها نوم

احتجُّوا بقوله تعالى[٢] : ﴿ وما جعلنا الرُّؤيَا التى أريْنَاكَ إلّا فِتْنةً للناس ﴾ ، فسمّاها رؤيا ؟

قلنا : قولُه سبحانه وتعالى[٣] : ﴿ الذى أسْرَى بعبدِه ﴾ - يردُّه ؛ لأنه لا يُقَال فى النوم : أسْرَى[٤] .

وقوله : ﴿ فِتْنَةً للناسِ ﴾ . يؤيِّدُ أنها رُؤيَا عَيْن ، وإسراء بشَخْص[٥] ؛ إذ ليس فى الحِلْم فِتْنةٌ . ولا يكذِّبُ به أحد ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يرى مثلَ ذلك فى منامه من الكَوْنِ فى ساعةٍ واحدة فى أقطار متباينة [٦٣] .

على أنَّ المفسِّرين قـــد اختلفوا فى هذه الآية ؛ فذهب بعضُهم إلى أنها نزلت فى قَضِيَّةِ الحُدَيْبِيَة ، وما وقع فى نفوسِ الناسِ من ذلك[٦] . وقيل غيرُ هذا .

---

(١) وما تحولت عن جانبها : الذى كانت عليه حين فارقها النبي . وهذا يقتضى أنه كان فى بيت خديجة . وقد تقدم أنه كان فى بيت أم هانىء . وفى رواية إنه كان فى الحجر ، وفى أخرى : فى الحطيم .

قال القارى (١ - ٤٠٩) : وفيه إشعار بتقليل زمن الإسراء . ثم قال : ولعله أول ما رجع دخل على خديجة ، ثم ذهب إلى أم هانىء فى بيتها .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٦٠ (٣) سورة الإسراء ، آية ١

(٤) إذ الإسراء هو السير ليلا ، وهذا إنما يكون يقظة . (٥) فى ا : وإسراء شخص .

(٦) من ذلك : من صلح الحديبية حتى راجعه فى ذلك عمر مرارا . وقضية الحديبية أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه دخل المسجد الحرام ؛ فصده المشركون فى ذلك . ولكن النبي لم يقل : فى هذا العام ، ودخل من قابل المسجد الحرام .

وأما قولُهم : إنه قد سمَّاها فى الحديث مَناما .

وقولُه فى حديث آخر : بين النائم واليَقْظان .

وقوله أيضا : وهو نائم. وقوله: ثم استيقظْتُ ـ فلا حجَّةَ فيه[١] ؛ إذ قد يحتملُ أنَّ أول وصولِ الملَك إليه كان وهو نائم[٢] ، أو أوّل حَمْله والإسراء به وهو نائم ، وليس فى الحديث أنه كان نائما فى القصة كلِّها إلا ما يدلُّ عليه : ثم استيقظْتُ وأنا فى المسجد الحرام ؛ فلعل قوله : استيقظْتُ بمعنى أَصبحتُ[٣] ، أو استيقظ من نَوْمٍ آخر بعد وصوله بيتَه .

ويدل عليه أن مَسْرَاهُ لم يكن طولَ ليله ، وإنما كان فى بعضه .

وقد يكون قوله : استيقظتُ وأنا فى المسجد الحرام لِمَا كان غَمَرَه[٤] من عجائب ما طالَعَ[٥] مِنْ ملكوتِ السموات والأرض ، وخامَرَ باطِنَه[٦] من مُشاهدةِ الملأ الأَعْلى ، وما رأى من آيات رَبِّه الكبرى ، فلم يستَفِقْ[٧] ويرجع إلى حالِ البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام .

ووَجْه ثالث أنْ يكونَ نومُه واستيقاظه حقيقةً على مقتضى لَفْظِه، ولكنه أُسرى بجسده وقلبُه حاضر ، ورُؤْيا الأنبياء حقٌّ ، تنام أَعْينُهم ولا تنام قلوبُهم .

---

(١) فلا حجة فيه بأنها رؤيا منام . (٢) بدليل قوله فى الحديث : فهمزنى بعقبه . . .

(٣) أصبحت : دخلت فى وقت الصباح .

(٤) كان غمره : أى لأجل الذى عرض له مما يدهشه ويستغرق لبه وفكره .

(٥) ما طالع : ما شاهد .

(٦) خامر باطنه : مازجه وخالطه ، والمراد بباطنه : قلبه وحواسه الباطنة .

(٧) فلم يستفق : لم يتنبه ويستيقظ من نومه .

وقد مالَ بعضُ أصحابِ الإشارات[١] إلى نَحْوٍ من هذا . قال : تَغْمِيضُ عينيه لئلا يَشْغَلَه شيءٌ من المحسوسات عن الله تعالى .

ولا يصحُّ هذا أنْ يكون[٢] في وقت صلاته بالأنبياء[٣] ، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالاتٌ[٤] .

ووَجْهٌ رابع ، وهو أنْ يعبَّرَ بالنوم ها هنا عن هيئة النائم من الاضطجاع ؛ ويُقَوِّيه قوله في روايةِ عَبْد بن حُميد ، عن همام : بينا أنا نائم ـ وربما قال : مُضْطَجِع .

وفي رواية هُدْبة ، عنه : بينا أنا نائم في الحَطِيم[٥] ـ وربما قال : في الحِجْر ـ مُضْطَجِع . وقوله في الرواية الأخرى : بَيْنَ النائم واليَقْظَان .

فيكون سُمِّي هيئتَه بالنوم لَمَّا كانت هيئةَ النائم غالبا .

وذهب بعضُهم إلى أنَّ هذه الزيادات : من النوم ، وذِكْرِ شَقِّ البطن ، ودُنُوِّ الرب عزّ وجل الواقعة في هذا الحديث[٦] إنما هي من رواية شَرِيك عن أنس ، فهي مُنْكَرة[٧] من روايته ؛ إذ شَقُّ البَطْنِ في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صِغَره صلى الله عليه وسلم وقبل النبوّة؛ ولأنه قال في الحديث: «قبل أنْ يُبْعَث» ، والإسراء

(١) أصحاب الإشارات : يعني بهم مشايخ الصوفية ؛ والمراد بالإشارة مايأخذونه من الحقائق من النصوص القرآنية وغيرها ، وهم لا يقصدون بتفسيرهم أنه صريح النص .

(٢) من أن الإسراء بجسده صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، ليوفق بين الروايتين . وقال القاري (١ ـ ٤١٢) : هذا ؛ أي تغميض العين . (٣) لأن النائم لايصلي، ولا تصح صلاته .

(٤) فكان في بعضها نائما غاضا لبصره تأدبا ، أو لئلا يرى سوى ربه ، وفي بعضها : مستيقظا ، ووقت صلاته بهم قائما، وفي بعضها بين النائم واليقظان، وبهذا يجمع بين الروايات.

(٥) الحطيم : بين الركن والباب . (٦) في هذا الحديث : أي حديث الإسراء .

(٧) قال في نسيم الرياض (٢ ـ ٣٠٣) : وشريك طعن فيه ابن حبان وغيره ، وقالوا: ليس بثبت .

بإجماعٍ[١] كان بعد المَبْعث ؛ فهذا كُلُّه يُوَهِّن[٢] ما وقع فى رواية أَنس[٣] ، مع أن أَنساً قد بيَّن من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره ، وأنه لم يسمَعْه من النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ـ مرّةً : عن مالك بن صَعْصَعة ، وفى كتاب مسلم[٤] : لعله عن مالك ابن صَعْصَعة ـ على الشكّ . وقال مرةً[٥] : كان أبو ذَرٍّ يحدِّث .

وأما قولُ عائشة : مافُقِدَ جسدُه ؛ فعائشةُ لم تحدِّثْ به عن مشاهدةٍ ؛ لأنها لم تكن حينئذ زَوْجَه[٦] ، ولا فى سِنٍّ من يَضْبِط[٧] ، ولعلها لم تكن وُلِدت بعدُ ، على الخلاف فى الإسراء متى كان ؛ فإنّ الإسراء كان فى أول الإسلام على قول الزُّهْرى ومَنْ وافقه بعد المبعث بعام ونصف[٨] ، وكانت عائشةُ فى الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام[٩] .

وقد قيل : كان الإسراء لخمسٍ قبل الهجرة . وقيل : قبل الهجرة بعام . والأَشْبَهُ[١٠] أنه لخمسٍ .

والحجةُ لذلك تَطُول ، [٦٤] وليست مِنْ غَرضِنا ؛ فإذا لم تشاهِدْ ذلك عائشةُ دَلَّ على أنها حدَّثَتْ بذلك عن غيرها ، فلم يُرَجَّحْ خَبَرُها على خبر غيرها ؛ وغَيْرُها يقول خلافَه مما وقع نصًّا فى حديث أم هانئ وغيره .

---

(١) فى ا : كان بإجماع . (٢) يوهن : يضعف . (٣) وهى التى رواها شريك .

(٤) صحيح مسلم : ١٥٠ (٥) صحيح مسلم : ١٤٨ (٦) فى ا : زوجة .

(٧) أى لم يكن سنها وعمرها حينئذ سن ضبط وإتقان لعدم تمييزها لصغرها ؛ فالرواية عنها ليست مسلمة ؛ أو هى حدثت به عن غيرها .

(٨) قال القارى (١ ـ ٤١٤) : وهذا مخالف لما نقله النووى من أنه بعد المبعث بخمسة أعوام ، وسيأتى .

(٩) فعلى هذا لم تكن ولدت فى زمن الإسراء .

(١٠) الأشبه : أى القول الأصح الأولى والأحسن .

وأيضا فليس حديثُ عائشةَ رضِيَ الله عنها بالثابت ، والأحاديثُ الأُخَر أَثْبَت ، ولَسْنَا[١] نَعْنِي حديثَ أم هانئ ، وما ذُكِرَتْ[٢] فيه خديجة .

وأيضا فقد رُوى فى حديثِ عائشة[٣] : « ما فَقَدْتُ » ، ولم يدخُلْ بها النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلّا بالمدينة .

وكُلُّ هذا يوهِّنُه[٤] ؛ بل الذى يدلُّ عليه صحيحُ قولِها : إنه[٥] بجسده ، لإنكارها أنْ تكون رؤياه اربَّه رُؤْياً عَيْنٍ ، ولو كانت عندها مَنَاماً لم تُنْكِرْه .

فإن قيل : فقد قال تعالى[٦] : ﴿ ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأَى ﴾ ـ فقد جعل ما رآه للقَلْبِ ، وهنا يدلُّ على أنه رُؤْيا نَوْمٍ ووَحْى ، لا مشاهدة عَيْنٍ وحِسّ .

قلنا : يقابلُهُ قولُه تعالى[٧] : ﴿ ما زَاغَ البَصَرُ وما طغَى ﴾ ـ فقد أضاف الأمرَ للبصَرِ .

وقد قال أهلُ التفسير فى قوله تعالى[٦] : ﴿ ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأَى ﴾ ؛ أى لم يُوهِم القلبُ العَيْنَ غير الحقيقة ؛ بل صدق رؤيتها .

وقيل : ما أنكر قلبُه ما رأته عينُه .

---

(١) ضبطت هذه الكلمة فى ا : بفتح اللام وسكون السين ، وفى ب بفتح اللام وضم السين . وفى القاموس : اللسن ـ بكسر اللام وسكون السين : اللغة والكلام .

(٢) أى ولا نعنى حديث عمر الذى ذكرت فيه خديجة لعدم ورودهما فى الصحيح .

(٣) كما روى : مافقد ـ بالبناء للمجهول .
وقد تقدمت هذه الرواية صفحة . . .

(٤) يوهنه : يضعفه : أى يضعف حديث : ما فقدت .

(٥) إنه : أى الإسراء . (٦) سورة النجم ، آية ١١

(٧) سورة النجم ، آية ١٧

فصـــــل

وأما رُؤيته (١) ـ صلى اللهُ عليه وسلم لربّه جلّ وعزّ ـ فاختلف السلفُ فيها ؛ فأنكرته عائشة .

حدثنا أبو الْحُسين سِرَاج بن عبد الملك الحافظُ بقراءتى عليه ؛ قال : حدثنى أبى وأبو عبد الله بن عتّاب الفقيه ؛ قالا : حدثنا القاضى يونس بن مُغِيث ، حدثنا أبو الفضل الصقلِّى ، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت ، عن أبيه وجدّه ؛ قالا : حدثنا عَبْدُ الله بن على ، قال : حدثنا محمود بن آدم ، حدثنا وَكيع ، عن ابن أبى خالد ، عن عامر ، عن مسروق (٢) ـ أنه قال لعائشة رضِىَ الله عنها ـ يا أُمَّ المؤمنين ؛ هل رأى محمدٌ ربّه ؟ فقالت : لقد قَفَّ شَعرِى (٣) مما قُلْتَ . ثلاثٌ مَنْ حدّثك بهنّ فقد كذب : من حدثك أنَّ محمدا رأى ربّه فقد كذب ، ثم قرأت (٤) : ﴿ لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يُدْرِكُ الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير ﴾ (٥) ؛ وذكر الحديث .

وقال جماعة بقول عائشة رضى الله عنها ، وهو المشهور عن ابن مسعود .

ومثلُه عن أبى هريرة أنه [قال] (٦) : إنما رأى جبريلَ . واختُلف عنه (٧) .

---

(١) رؤيته بعينه يقظة فى إسرائه بجسده . (٢) صحيح مسلم : ١٦٠

(٣) قف شعرى : قام وانتصب ؛ واقشعر ، وإنما يكون هذا غالبا عند الفزع والخوف القوى . والمراد إنكار ما قاله واستفظاعه . مما قلت : أى خفت من كلامه أن يهلك الله من قاله واستمعه ؛ لأنه أمر منكر لا يرضاه الله ، ولم يثبت عندها . (٤) ثم قرأت : أى مستدلة لما قالته .

(٥) سورة الأنعام ، آية ١٠٣ (٦) ليس فى ب . وهذه الرواية فى صحيح مسلم : ١٥٨

(٧) قال مسروق : وكنت متكئا فجلست وقلت : يا أم المؤمنين ، أنظرينى ولا تعجلى ، ألم يقل الله تعالى : ولقد رآه بالأفق المبين . ولقد رآه نزلة أخرى . فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام . فقال : إنما هو جبريل ؛ لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين ـ كما رواه مسلم : ١٥٩

وقال بإنكار هذا وامتناعِ رُؤْيته في الدنيا جماعةٌ من المحدِّثين ، والفقهاء والمتكلمين.

وعن ابن عباس رضِيَ الله عنهما أنه رآه بِعينِه[١] .

وروى عطاء عنه ـ أنه رآه بقلبِه .

وعن أبي العالية ، عنه[٢] : رآه بفُؤادِه مرتين .

وذكر ابنُ إسحاق أنَّ ابنَ عمر أرسل إلى ابن عباس رضِيَ الله عنهما يسأله : هل رأى محمدٌ ربَّه ؟ فقال : نعم .

والأشهَرُ عنه أنه رأى ربَّه بعينه ، رُوِي ذلك عنه[٣] من طُرُقٍ ، وقال : إنَّ اللهَ تعالى اختصَّ موسى بالكلام[٤] ، وإبراهيم بالخُلَّة[٥] ، ومحمدا بالرؤية .

وحجّتُه[٦] قولُه تعالى[٧] : ﴿ ما كذَبَ الفُؤادُ ما رَأَى. أفتُمارُونَه[٨] على ما يَرَى. ولقد رآه نَزْلَةً أُخرَى ﴾[٩] .

قال الماوردي : قيل : إنَّ اللهَ تعالى قسم كلامَه ورؤيته بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فرآه محمدٌ مرَّتَيْنِ ، وكلّمه موسى مرَّتَيْن .

وحكى أبو الفتح الرازي ، وأبو الليث السمرقندي الحكايةَ[١٠] عن كعب .

---

(١) في صحيح مسلم (١٥٨) : عن ابن عباس ، قال : رآه بقلبه .

(٢) عنه : عن أبي هريرة ، والذي في صحيح مسلم (١٥٨) : أن هذا عن ابن عباس : قال : ما كذب الفؤاد ما رأى . ولقد رآه نزلة أخرى ؛ قال : رآه بفؤاده مرتين .

(٣) عنه : عن ابن عباس .

(٤) لقوله تعالى : وكلم الله موسى تكليما .

(٥) لقوله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا .

(٦) وحجته : أي دليله على الرؤية .

(٧) سورة النجم ، آية ١١ ، ١٢ ، ١٣

(٨) أفتمارونه : أتجادلون في رؤيته لما رآه .

(٩) نزلة أخرى : مرة أخرى .

(١٠) الحكاية : أي التي ذكرها الماوردي .

ورَوى عَبْدُ الله بن الحارث ، قال : اجتمع ابْنُ عبـــاس وكَعْب ؛ فقال ابنُ عباس : أمّا نحن بنو هاشم فنقول: إنّ محمدا قد رأى ربَّه مرّتين؛فـكَبَّر كَعْب[١] حتى جاوبَتْهُ الجبَال[٢]،وقال : إنّ اللهَ قسمَ رُؤيته وكلامه بين محمد وموسى؛فـكلّمه موسى ، ورآه محمد بقلبه .

وروى شَرِيك [٦٥] عن أبى ذَرّ رضى الله عنه فى تفسير الآية[٣]؛قال : رأى النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ربَّه .

وحكى السَّمَرْقَنْدِي ، عن محمد بن كَعْب القُرَظى ، ورَبيع بن أنَس ـ أنّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم سئل : هل رأيتَ ربَّك ؟ قال : رأيته بفُؤَادِي ، ولم أَرَه بعينى .

وروى مالك بن يُخَامِر ، عن مُعاذ ، عن النبى صلى الله عليه وسلم؛ قال[٤] : رأيتُ رَبِّى . . . وذكر كَلِمةً ، فقال : يا محمد ؛ فيم[٥] يَخْتَصِم المَلأ الأعْلَى . . . الحديث .

وحكى عبد الرزاق أنّ الحسن[٦] كان يحلِفُ بالله لقد رأى محمدٌ ربَّه .

---

(١) فـكبر كعب : لسروره بمقالته الموافقة لما عنده .

(٢) حتى جاوبته الجبال : أى رفع صوته بالتكبير حتى سمع صداه من الجبال .

(٣) الآية : ما كذب الفؤاد مارأى . . .

(٤) فى حديث رواه أحمد بن حنبل وغيره ، وهو حديث صحيح أوله : قال معاذ رضى الله عنه : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغداة ثم أقبل علينا فقال : إنى سأحدثـكم أنى قمت من الليل فصليت ما قدر لى ونمست . . .

الحديث بتمامه فى المسند: ٥ـ٢٤٣ ، ونسيم الرياض: ٢ـ٣١٢، وشرح القارى : ١ـ٤٢١

(٥) أى فيم يسأل الملائـكة بعضهم بعضا عن المراتب المقربة إلى الله ، المـكفرة للخطايا .

(٦) هو الحسن البصرى .

وحكاه أبو عُمر الطَّلَمَنْكِي[١] عن عِكْرمة .

وحكى بعضُ المتكلمين هذا المذهبَ[٢] عن ابن مسعود .

وحكى ابنُ إسحاق أنَّ مروان سأل أبا هُريرة . هل رأى محمد ربَّه ؟ فقال: نعم

وحكى النقّاش ، عن أحمد بن حنبل ـ أنه قال : أنا أقولُ بحديث ابن عباس بعينه رَآه ـ حتى انقطع نَفَسه ـ يعنى نَفَس أحمد .

وقال أبو عُمَر : قال أحمد بن حنبل : رآه بقلبه ، وجَبُنَ عن القول برؤيته فى الدنيا[٣] بالإبصار .

وقال سَعِيد بن جُبَيْر : لا أقول رآه ، ولا لم يَرَهُ[٤] .

وقد اختلف فى تأويل الآية[٥] عن ابن عباس ، وعِكْرِمة ، والحسن ، وابن مسعود ؛ فحكى عن ابن عباس وعِكْرِمة : رآه بقلبه[٦] . وعن الحسن وابن مسعود : رأى جبريل .

وحَكَى عبدُ الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه ، أنه قال : رآه[٧] .

وعن ابن عَطَاء فى قوله تعالى[٨] : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ـ قال : شرح صَدْرَه للرؤية ، وشرح صَدْرَ موسى للكلام .

---

(١) فى هامش ب : قوله : الطلمنكى ـ بفتح الطاء المهملة ، واللام والميم ، وسكون النون وكسر الكاف : الحافظ المقرئ أبو عمر .

روى عنه ابن عبد البر ، وابن حزم ، وغيرهما . وكان رأسا فى علم القراءات ذا عناية تامة بالحديث ، إماما فى السنة ، توفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة (شرح القارى : ١ ـ ٤٢٢) .

(٢) وهو رؤية الله بعينه . (٣) أى لم يجترئ تأدبا .

(٤) أى توقف فى ذلك ، ولم يمل لأحد القولين .

(٥) يعنى قوله تعالى: ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. (٦) صحيح مسلم: ١٥٨

(٧) أى بعينه ؛ لأنه المتبادر . وقد روى عنه التصريح به ، ولا ينافى ذلك ما مر من أنه جبن عن القول بذلك ؛ لأنه قد يخفيه فى بعض المجالس . (٨) سورة الشرح ، آية ١

وقال أبو الحسَن على بن إسماعيل الأَشْعَرى رضِىَ الله عنه وجماعةٌ من أصحابه أنه رأى اللهَ تعالى ببصره وعينى رَأْسِه ، وقال : كلُّ آيةٍ أُوتيها نبىٌّ من الأنبياء عليهم السلام فقد أُوتِى مِثْلَها نبيُّنا ، وخُصَّ من بينهم بتفضيل الرُّؤْيَة [١] .

ووقف [٢] بعضُ مشايخنا فى هذا ، وقال : ليس عليه دليلٌ واضح ؛ ولكنه جائز أن يكون .

قال القاضى أبو الفَضْل [٣] : والحقُّ الذى لا امْتِرَاء [٤] فيه ـ أَنَّ رؤيته تعالى فى الدنيا جائزةٌ عقلا ، وليس فى العقل ما يُحِيلها [٥] .

والدليلُ على جوَازها فى الدنيا سؤالُ موسى عليه السلام لها [٦] . ومحالٌ أَنْ يجهلَ نبىٌّ مايجوز على الله وما لايجوز عليه؛ بل لم يسأل إلا جائزا غَيْرَ مستحيل، ولكن وقوعَه ومشاهدتَه من الغَيْبِ الذى لا يَعْلَمُه إلا مَنْ علَّمه الله ، فقال له اللهُ تعالى [٧] : ﴿ لَنْ تَرَانِى ﴾ ؛ أى لن تُطِيقَ ، ولا تحتملُ رُؤْيَتى [٨] ؛ ثم ضرب له مثلا مِمّا هو أقوى مِنْ بِنْيَةِ مُوسى وأثبت ، وهو الجبل [٩] .

---

(١) بتفضيل الرؤية : أى بتفضيله برؤية ربه عيانا فى الدنيا ، فلم يره غيره فيها .

(٢) ووقف بعض مشايخنا : أى توقف فيه فلم يعتقد ثبوته ولا نفيه .

(٣) هو المؤلف . (٤) لا امتراء فيه : لاشك فيه ولا شبهة .

(٥) ما يحيلها : ما يقتضى أنها مستحيلة .

(٦) سؤال موسى : بقوله : رب أرنى أنظر إليك . وموسى من أولى العزم لايسأل من الله تعالى ما لا يجوز، فلو لم يعتقد صحة ذلك ما سأله ، وإلا كان جهلا منه بأحوال الربوبية ، وهو مبرأ منه . (٧) سورة الأعراف ، آية ١٤٣

(٨) لن ترانى : أى الرؤيا جائزة ، ولكنك لاتصل إليها فى الدنيا .

(٩) فى قوله تعالى : ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ـ فلما لم يثبت الأقوى علم عدم ثباته بالطريق الأولى ؛ ولما كان استقرار الجبل ممكنا كان ما علق به ممكنا أيضا ؛ فعلم منه جواز الرؤية .

وكلُّ هذا ليس فيه ما يُحِيل[1] رؤيتَه فى الدنيا ؛ بل فيه جَوَازُها على الجملة ؛ وليس فى الشرع دليلٌ قاطع على استحالتها ولا امتناعها ؛ إذْ كل موجود فرؤيتُه جائزةٌ غيرُ مستحيلة .

ولا حجةَ لمن استدلّ على مَنْعها بقوله تعالى[2] : ﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ﴾ ، لاختلاف التأويلات فى الآية ، وإذ ليس يقتضى قولُ مَنْ قال فى الدنيا[3] الاستحالةَ .

وقد استدلَّ بعضُهم بهذه الآية[4] نفسِها على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة .

وقد قيل : لا تدركُه أبصارُ الكفّار . وقيل : لا تدرِكُه الأبصارُ : لا تُحيط به ، وهو قولُ ابن عباس . وقد قيل : لا تدركُه الأبصار ، وإنما يدْرِكُه المُبْصِرون .

وكلُّ هذه التأويلات لا تقتضى مَنْعَ الرؤية ولا استحالتَها .

وكذلك لا حجّةَ لهم بقوله تعالى[5] : ﴿لَنْ تَرَانِى﴾. وقوله[5] : ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[6] — لِمَا قدمناه [٦٦] ؛ ولأنّها ليست على العموم[7] ؛ ولأنْ من قال : معناها : لن تَرَانِى فى الدنيا — إنما هو تأويل .

وأيضا فليس فيه نَصُّ الامتناعِ ؛ وإنما جاءت فى حقّ موسى ؛ وحيث تتطرّقُ التأويلاتُ وتتسلَّط الاحتمالاتُ ، فليس للقَطْعِ إليه سبيل .

---

(١) ما يحيل رؤيته : أى يقتضى استحالته فيها .

(٢) سورة الأنعام ، آية ١٠٣

(٣) قول من قال فى الدنيا : أى قول من قال بمنعها فى الدنيا ، بل تخصيص الدنيا يقتضى وقوعه فى الآخرة ، فيدل على الجواز فى الدنيا .

(٤) آية : لاتدركه الأبصار — الأنعام ، آية ١٠٣

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٤٣

(٦) تبت إليك من سؤال الرؤية ، لأنه محال وطلب ما لا يليق ، فهو ذنب .

(٧) ليست على العموم : بل مخصوصة بموسى عليه السلام . والضمير للآية .

وقوله : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أى مِنْ سُؤالى ما لم تُقَدِّرْهُ لى [١] .

وقد قال أبو بكر الهُذَلى ـ فى قوله : ﴿ لَنْ تَرَانى ﴾ ؛ أى ليس لِبَشَرٍ أنْ يُطِيقَ أن ينظرَ إلىّ فى الدنيا ، وإنه مَنْ نظر إلىّ مات .

وقد رأيتُ لبعض السلَف والمتأخرين ما معناه : إن رؤيتَه تعالى فى الدنيا مُمْتَنِعة ، لضَعْفِ تركيب أهلِ الدنيا ، وقُواهم ، وكونِها [٢] متغيرة غَرَضاً [٣] للآفات والفَناء ، فلم تَكُنْ لهم قوةٌ على الرؤية ؛ فإذا كان فى الآخرة ورُكِّبُوا تركيبا آخر ، ورُزِقوا قُوًى ثابتةً [٤] باقيةً ، وأُتِمَّ أنوارُ أبصارِهم [٥] وقلوبِهم قَوُوا بها على الرؤية .

وقد رأيتُ نحوَ هذا لمالك بن أنس رحمه الله ؛ قال : لم يُرَ فى الدنيا ؛ لأنه باقٍ ، ولا يُرَى الباقى بالفانى؛ فإذا كان فى الآخرة ورُزِقوا أبصارا باقيةً رُئى الباقى بالباقى .

وهذا كلامٌ حسنٌ مَلِيح ، وليس فيه دَلِيل على الاستحالة إلّا من حيثُ ضَعْفُ القدرة [٦] ؛ فإذا قوّى اللهُ تعالى مَنْ شاء مِنْ عباده ، وأَقْدَره على حَمْلِ أعباء [٧] الرؤية لم تَمْتَنع فى حقّه .

وقد تقدّم ما ذُكِر فى قوة بصَرِ موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ونفوذِ إدراكهما بقوةٍ إلهيّة مُنِحاها [٨] لإدراك ما أَدْرَكاه ، ورُؤْيةِ ما رأياه . والله أعلم .

---

(١) مالم تقدره لى : فى الدنيا فى ذلك الوقت لحكمة خفية ، لماغشيه من أنوار عظمته حتى صعق .

(٢) وكونها متغيرة : ولكون التراكيب والقوى متغيرة بالازدياد والضعف .

(٣) غرضا : هدفا . وفى ا : عرضا ـ بالعين المهملة . وفى هامش ا : وكونها متعرضة . وعليها علامة الصحة .

(٤) فى ا : ثانية . وفى ب : ثانية ، وثابتة ، وعليها « معا » .

(٥) أى جعلها تامة كاملة مستعدة للبقاء السرمدى .

(٦) ضعف القدرة : أى البشرية فى الدنيا .

(٧) الأعباء : جمع عبء ، وهو الحمل الثقيل .

(٨) منحاها : أعطياها .

وقد ذكر القاضى أبو بكر [(١)] ـ فى أثناء أجوبته عن الآيتين [(٢)] ـ ما معناه : إن موسى عليه السلام رأى الله ؛ فلذلك خرَّ صَعِقاً [(٣)]، وإن الجبلَ رأى ربَّه فصار [(٤)] دَكّاً بإدراكٍ خلَقَهُ الله له . واستنبط [(٥)] ذلك ، والله أعلم ، من قوله [(٦)] : ﴿ ولٰكِن انظُرْ إلى الجَبَلِ فإن استقرَّ مكانَه فسوف تَرَانى ﴾ .

ثم قال [(٦)] : ﴿ فلما تَجَلَّى رَبُّه للجَبَلِ جعله دَكّاً وخَرَّ مُوسى صَعِقا ﴾ .

وتَجَلِّيه للجبل هو ظهورُه له حتى رآه ـ على هذا القول [(٧)] .

وقال جعفر بن محمد : شغلَه بالجَبَلِ حتى تجـلّى [(٨)] ، ولولا ذلك لمات صَعِقًا بلا إفاقة [(٩)] .

وقولُه هذا يدلُّ على أنَّ موسى رآه [(١٠)] .

وقد وقع لبعض المفسِّرين ـ فى الجَبَل ـ أنه رآه ، وبرؤية الجَبَلِ له [(١١)] استدلَّ مَنْ قال برؤية محمدٍ نبيِّنا له [(١١)] ؛ إذ جعله دليلا على الجَوَاز .

---

(١) يعنى الباقلانى ، لأن القاضى أبا بكر بن العربى معاصر للمصنف ؛ إذ مولده سنة ثمان وستين وأربعمائة . ومماته سنة ثلاث وأربعين وخمسائة . ومولد المصنف سنة ست وسبعين وأربعمائة، ومماته سنة أربع وأربعين وخمسائة (هامش ب ، وشرح القارى : ١ ـ ٤٢٧) .

(٢) الآيتان هما : « لاتدركه الأبصار » . و « لن ترانى » .

(٣) صعقا : مغشيا عليه .

(٤) فصار دكا : انهد حتى صار ترابا من هيبة الله .

(٥) واستنبط : استخرج .

(٦) سورة الأعراف ، آية ١٤٣

(٧) على هذا القول : أى قول أبى بكر الباقلانى السابق بأن موسى والجبل رأياه معا .

(٨) تجلى : ظهر ظهورا تاما لموسى عليه السلام .

(٩) بلا إفاقة : من صعقته وغشيه .

(١٠) رآه : كالجبل ، لأنه معنى التجلى ؛ لأنه لايقال تجلى له إلا إذا شاهده .

(١١) له : لله عز وجل . وإنما دكه ليعلم موسى عدم طاقته لمشاهدة نور الأنوار .

ولا مِرْيةَ في الجواز[١] ؛ إذ ليس في الآيات نصٌّ بالمَنْع .

وأما وجوبُه[٢] لنبينا صلى اللهُ عليه وسلم ، والقولُ بأنه رآه بعينه ـ فليس فيه قاطع[٣] أيضا ولا نصّ ؛ إذ المُعوَّلُ فيه على آيتى « النَّجْم »[٤]، والتنازعُ فيهما مأثور[٥]، والاحتمالُ لهما مُمْكن ، ولا أثَر قاطع مُتَوَاتر عن النبى صلى اللهُ عليه وسلم بذلك .

وحديثُ ابن عباس[٦] خبَرٌ عن اعتقادِه لم يُسْنِدْه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فيجِبَ العملُ باعتقادِ مُضَمَّنه[٧] .

ومثله حديثُ أبى ذَرّ فى تفسير الآية[٨] .

وحديثُ معاذ[٩] محتملٌ للتأويل ، وهو مضطرب الإسناد والمَتْنِ .

وحديثُ أبى ذَرّ الآخر مختلف محتَمِلٌ مُشْكِل . فرُوى : نورٌ أنّى[١٠] أرَاه .

---

(١) لامرية : لاشك . فى الجواز : أى جواز الرؤية .

(٢) وأما وجوبه : أى وجوب وقوع رؤيته لربه فى الإسراء بعين رأسه .

قال فى نسيم الرياض (٢ـ ٣٢٢) :الظاهر أن يقال: إن الوجوب هنا بمعناه الاصطلاحى؛ لأنه لو ورد مصرحا به فى نص قطعى من القرآن أو الحديث المتواتر أو المشهور وجب علينا اعتقاده، ولا يسع أحدا من أهل الملة أن يخالف فيه . أو هو الوجوب بمعناه اللغوى ، وهو الوقوع .

(٣) فليس فيه قاطع : أى دليل قطعى .

(٤) آيتى النجم : هما : ما كذاب الفؤاد ما رأى . ولقد رآه نزلة أخرى .

(٥) والتنازع فيهما مأثور :أى النزاع فى المراد منهما منقول عن سلف المفسرين والمتكلمين.

(٦) الذى ذكر فيه أنه رآه بعينه . وقد تقدم .

(٧) مضمنه : أى ما تضمنه ودل عليه لفظه من رؤيته صلى الله عليه وسلم لربه بعينه .

(٨) الآية هى آية سورة النجم . وحديث أبى ذر الغفارى رواه مسلم (١٦١) : قال : سألته صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : رأيت نورا . . .

(٩) حديث معاذ : إنى رأيت ربى فى أحسن صورة .

(١٠) أنى أراه : كيف أراه؛ أى رأيت نورا غشينى فكيف أرى ذات الله ، وقد حال بينى وبينه سبحات النور المانعة من الرؤية فى جاري العادة . وحديثه هذا فى صحيح مسلم:١٦١ هذا ما قاله الخفاجى .وقال القارى (١ ـ ٤٢٨) : أى قوله:رأى النبى صلى الله عليه وسلم ربه.

وحكى بعضُ شيوخِنَا أنه رُوِى : نَوْرَ أَنّى أَراه(١) .

وفى حديثه الآخر: سألتُه ، فقال: رأيتُ نورا. وليس يمكن الاحتجاجُ بواحدٍ(٢) منها على صحةِ الرؤية ؛ فإن كان الصحيحُ رأيتُ نورا فهو قد أخبر أنه لم يَرَ الله ؛ وإنما رأى نوراً منعه وحجَبه عن رُؤْية الله .

وإلى هذا يرجِعُ قولُه: نور أَنّى أَرَاه؛ أى كيف أراه مع حجابِ النُّور المُغَشِّى(٣) للبصر ؛ وهذا مِثْلُ [١٦٧] ما فى الحديث الآخر : حجابُه النُّور(٤) .

وفى الحديث الآخَر : لم أَره بعينى ، ولكن رأيتُه بقلبى مرتين ، وتلا(٥) : ﴿ ثم دَنَا فتــــدَلَّى ﴾ . واللهُ قادرٌ على خَلْقِ الإدراك الذى فى البَصَر فى القلب ، أو كيف شاء ، لا إلَهَ غيره .

فإنْ وَرد حديثٌ نصٌّ بَيِّنٌ فى الباب اعْتُقِد ووجب المَصِيرُ إليه(٦)؛ إذ لا استِحالَةَ فيه ، ولا مانع قطعىّ يردُّه ، والله الموفق(٧) .

---

(١) فى نسيم الرياض : قال المصنف فى شرح مسلم: هذه الرواية لم تثبت . وفى (ب) ضبطت النون بالضمة . (٢) فى ب : منهما . (٣) المغشى للبصر : الساتر والمانع له من الرؤية .

(٤) فى نسيم الرياض (٢ — ٣٢٥) : هذا الحديث رواه مسلم، والطيالسى ، والبخارى ، عن أبى موسى الأشعرى ؛ وهو : إن الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام ، ولكنه يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه أحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه . وهو فى صحيح مسلم : ١٦٢

(٥) سورة النجم ، آية ٩

(٦) ووجب المصير إليه ؛ أى وجب علينا أن نذهب لاعتقاده ولا نعدل عنه .

(٧) قال القارى فى شرحه (١ — ٤٣٠) : أقول ، والله سبحانه وتعالى أعلم : إنه يمكن الجمع بين الأدلة فى هذه المسألة المشكلة بأن ما ورد مما يدل على إثبات الرؤية إنما هو باعتبار تجلى الصفات ، وما جاء مما يشير إلى نفى الرؤية فهو محمول على تجلى الذات ؛ إذ التجلى للشىء إنما يكون بالكشف عن حقيقته ، وهو محال فى حق ذاته تعالى باعتبار إحاطته وحيازته ، كما يدل عليه قوله تعالى : لا تدركه الأبصار . وقوله سبحانه وتعالى : لا يحيطون به علما .

فصـــل

وأما ما وَرد فى هذه القصة[١] مِنْ مُنَاجاته[٢] لله تعالى وكلامِه معه بقوله[٣] : ﴿ فأَوْحَى إلى عَبْدِهِ ما أَوْحَى ﴾ ـ إلى ما تضمَّنَتْه الأحاديثُ ـ فأكثَرُ المفسرين على أَنَّ المُوحِيَ اللهُ عزّ وجلّ إلى جبريل ، وجبريلُ إلى محمـــد صلى الله عليه وسلم إلا شُذوذا[٤] منهم ؛ فذُكِرَ عن جعفر بن محمـــد الصادق ، قال : أَوْحَى إليه بلا واسطة[٥] ، ونحوُه عن الواسطى؛ وإلى هذا ذهب بعضُ المتـكلمين ـ أَنّ محمدا كلَّم ربَّه فى الإسراء .

وحُـكِى عن الأشعرى ، وحكَوْهُ عن ابن مسعود وابن عباس ؛ وأنـكره آخرون[٦] .

وذكر النقَّاش ، عن ابن عباس ـ فى قصةِ الإسراء ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم فى قوله[٧] : ﴿ دَنَا فتدَلَّى ﴾ ـ قال : فارقنى جبريل[٨] ، وانقطعت الأصواتُ عنى ، فسمعتُ كلامَ ربى وهو يقولُ : لِيَهْدَأْ رَوْعُكَ[٩] يا محمد ، ادْنُ ، ادْنُ[١٠] .

---

(١) فى هذه القصة ؛ أى قصة الإسراء .

(٢) من مناجاته لله ؛ أى مخاطبته له ومحادثته . (٣) سورة النجم ، آية ١٠

(٤) إلا شذوذا : إلا جماعة من المفسرين قليلة شاذة خالفوهم فيه فشذوا .

(٥) أوحى إليه بلا واسطة : أى كلم الله محمدا بلا واسطة ملك أو غيره ، فالمراد بالوحى هنا الـكلام . (٦) وأنـكره : أى أنـكر تـكليم الله له بلا واسطة قوم آخرون .

(٧) سورة النجم ، آية ٨

(٨) فارقنى جبريل : أى تخلف عنى فى مقام معين ؛ لأن له مقاما لا يتعداه .

(٩) الروع : الخوف ؛ أى ليذهب خوفك . أوهى بضم الراء . والروع : القلب .والمراد ليقر قلبك ولا يضطرب من الخوف .

(١٠) ادن : أى تقدم ، وادخل إلى حظائر القدس ؛ وإنما قال له ذلك تشريفا له ، وإعلاء لمنزلته ، وتأنيسا لاستيحاشه لما انقطعت عنه الأصوات ، ولذلك أمره باطمئنان قلبه أولا ، وكرر أمره تأكيدا .

وفى حديث أنس فى الإسراء نحوٌ منه .

وقد احتجُّوا فى هذا [١] بقوله تعالى [٢] : ﴿ وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً ، أومِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أويُرْسِلَ رَسُولًا فيُوحِيَ بإذْنِهِ مايَشَاءُ ﴾ ؛ فقالوا [٣] : هى ثلاثةُ أقسام : من وراء حجابٍ [٤] كتَكْليم موسى ؛ وبإرسال الملائكةِ [٥] كحالِ جميع الأنبياء وأكثرِ أحوالِ نبينا صلى الله عليه وسلم . الثالث : قوله : وَحْياً [٦] ، ولم يَبْقَ من تقسيم الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة [٧] .

وقد قيل : الوَحْيُ هنا [٨] : هو ما يُلْقِيه فى قَلْبِ النبى دونَ واسطة .

وقد ذكر أبو بكر البَزّار ، عن علىّ فى حديث الإسراء ماهو أوضَحُ فى سماع النبى صلى الله عليه وسلم لكلامِ اللهِ من الآية : فذكر فيه : فقال المَلَكُ : الله أكبر . الله أكبر ـ فقيل لى مِنْ وراء الحجاب : صدَق عَبْدِى ، أنا أكبر ، أنا أكبر . وقال فى سائر كلمات الأذان مِثْلَ ذلك [٩] .

ويجىء الكلام فى مُشْكل هذين الحديثين فى الفَصْل بعد هذا مع ما يُشْبِهه . وفى أوّل فصلٍ من الباب منه .

---

(١) احتجوا فى هذا : أى استدلوا على أنه تعالى كلمه بلا واسطة .

(٢) سورة الشورى ، آية ٥١

(٣) هى : أى أقسام الكلام المثبتة فى هذه الآية .

(٤) أى يسمع كلامه من غير واسطة ، وهو لا يراه .

(٥) وبإرسال الملائكة إلى رسل البشر ليبلغوهم كلامه تعالى ووحيه الذى أوحاه إليهم . قال القارى (١ ـ ٤٣١) : الأظهر « الملك » ـ بصيغة الإفراد ؛ لأن المشهور أن جبريل هو صاحب الوحى .

(٦) قوله : وحيا ؛ أى إلقاء فى قلبه بإلهام ونحوه .

(٧) مع المشاهدة : أى معاينة المخاطب لمن كلمه من غير واسطة ولا حجاب مانع من الرؤية ؛ فيخص الله بها من شاء من خاص عباده المقربين كنبينا صلى الله عليه وسلم .

(٨) أى فى الآية السابقة.

(٩) قد تقدم : إلا قوله: حى على الصلاة . حى على الفلاح .

وكلامُ اللهِ تعالى لمحمد صلى اللهُ عليه وسلم، ومَن اختصَّه من أنبيائه، جائزٌ غيرُ ممتنع عقلا، ولا ورد فى الشَّرْع قاطعٌ[١] يمنعه، فإنْ صحَّ فى ذلك خبر احتُمِل[٢] عليه، وكلامُه تعالى لموسى كائنٌ حَقٌّ مقطوعٌ به، نصَّ ذلك فى الكتاب[٣]، وأكَّدَه بالمصدر[٤] دلالةً على الحقيقة، ورَفَع مكانه[٥] على ما ورد فى الحديث: فى السماء السابعة[٦] بسبب كلامه[٧]. ورَفَع محمدا فوقَ هذا كلّه حتى بلغ مَستوًى، وسَمِعَ صَرِيف الأقلام[٨]؛ فكيف يستحيل فى حقّ هذا أو يَبْعُدُ سماعُ[٩] الكلام؛ فسبحانَ من خَصَّ مَنْ شاء بما شاء، وجعل بعضَهم فوق بعضٍ درجات!

فصـــل

وأما ما ورد فى حديث الإسراء وظاهرِ الآية: من الدنُوّ والقُرْب من قوله[١٠]: ﴿ دَنَا فَتَدَلَّى[١١]. فَكان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى ﴾[١٢] ـ وأكْثَرُ المفسرين أنّ الدنوَّ

---

(١) قاطع: دليل قطعى يمنعه. (٢) هذا فى ا، ب. وفى هامش ب: خ: اعتمد.

(٣) فى الكتاب: فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: وكلم الله موسى تكليما.

(٤) وأكده بالمصدر: أى أكده الله تعالى. والمصدر: هو «تكليما»، والتأكيد بالمصدر فى قوله تعالى: «وكلم الله موسى تكليما» لدفع الشك.

(٥) رفع مكانه: أى مكان موسى. (٦) على بعض الروايات، وقد سبق أنه فى السماء السادسة.

(٧) بسبب كلامه: أى سبب رفعته عليه السلام على غيره كونه شرفه بكلامه فى الدنيا.

(٨) صريف الأقلام: صوتها عند الكتابة.

(٩) سماع الكلام: من كلام الله تعالى بغير واسطة.

(١٠) سورة النجم، آية ٨، ٩

(١١) الدنو: القرب. والتدلى: الامتداد من علو إلى أسفل، كما يلقى الدلو فى البئر. هذا أصله، ثم استعمل فى القرب من علو حسا، أو معنى.

(١٢) فكان قاب قوسين: القاب: مابين مقبض القوس وموضع ربط الوتر من طرفيه. ولكل قوس قابان. وقيل معناه: قدر. وقيل: هى هنا الذراع؛ لأنه يقاس به؛ فالمعنى قدر ذراعين. وكان قاب قوسين: أى الله تعالى.

والتدلّى مُنْقسِم ما بين محمد وجبريل عليه السلام ، أو مختصٌّ بأحدهما من الآخَر [(١)] ، أو من السِّدْرَةِ المُنْتَهى [(٢)] .

قال الرازى : وقال ابن عباس : هو محمد دنا فتدلّى مِنْ رَبّه .

وقيل : معنى [٦٨] دنا قَرُب ، وتدلَّى زاد فى القُرْب . وقيل : هما بمعنى واحد ، أى قَرُب [(٣)] .

وحكى مَكّى ، والماوردى ـ عن ابن عباس : هو الرَّبُّ دنا محمد ، فتدلّى [(٤)] إليه ؛ أى أمْرُه وحُكْمُه .

وحكى النقاش عن الحسَن ، قال : دنا من عَبْدِه محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فتدلّى ؛ فقَرُبَ منه ، فأراه ماشاء أنْ يُرِيَه من قُدْرَته وعظَمته .

قال : وقال ابنُ عباس : هو مقدّم ومؤخَّر [(٥)] : تدَلَّى الرَّفْرَفُ [(٦)] لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلةَ المِعْرَاج ، فجلس عليه ، ثم رُفِـع فدَنَا من ربِّه .

قال : فارقنى جبريل ، وانقطعت عنى الأصواتُ ، وسمعتُ كلامَ ربى عزّ وجل .

وعن أنس فى الصحيح : عرَج بى جبريلُ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهى ، ودَنَا الجبَّارُ

---

(١) أى مختص بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو بجبريل ؛ والمعنى دنا وتدلى محمد من جبريل ؛ أو دنا وتدلى جبريل من محمد . وفى هامش ب : دون الآخر .

(٢) أى يختص الدنو والتدلى من السدرة ، لا من الآخر .

(٣) ودنوه منه : كناية عن قرب منزلته ومشاهدته من قدسه مالم يتيسر لغيره .

(٤) فتدلى إليه : أى نزل الرب لمحمد صلى الله عليه وسلم . أو نزل إليه صلى الله عليه وسلم كما قال القارى . قال (١ ـ ٤٣٤) : والأنسب فى معناه : قرب الرب منه فتقرب إليه .

(٥) مقدم ومؤخر : أى أصله فتدلى فدنا .

(٦) الرفرف : البساط مطلقا . وقيل : البساط الأخضر . وقيل : ما كان من الديباج والمراد به مركب له صلى الله عليه وسلم كالبراق (نسيم الرياض : ٢ ـ ٣٣٤)

رَبُّ العِزّة ، فتدلَّى حتى كان[1] منه قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى ، فأوحى إليه بما شاء ، وأوحى إليه خمسين صلاة ... وذكر حديث الإسراء .

وعن محمد بن كعب : هو[2] محمد دَنَا من ربِّه ، فكان كقاب قَوْسين .

قال : وقال جعفر بن محمد : أَدْنَاهُ ربُّه منه حتى كان منه كقَاب قَوْسين[3] .

وقال جعفر بن محمد : والدنوُّ من الله لا حدَّ له[4] ، ومن العِبَاد بالحدود[5] .

وقال أيضا : انقطعت الكَيْفِيّة عن الدنو[6] ، أَلَا ترى كيف حَجَبَ جبريل عن دنوّه[7] ، ودَنَا محمد صلى الله عليه وسلم إلى ما أودع[8] قلبُه من المعرفة والإيمان، فتدلَّى بسكونِ قَلْبه إلى ما أَدْنَاه[9] ، وزال عن قلبه الشكُّ والارتياب[10] .

قال القاضي أبو الفضل[11] ـ : اعلم أنَّ ما وقع من إضافةِ الدنو والقُرْبِ هنا من[12] الله ، أو إلى الله ـ فليس بدنوّ مكان، ولا قُرْبِ مَدًى[13]؛ بل كما ذكرناه ـ

---

(١) حتى كان رب العزة .

(٢) فى ا ، ب . هو : أى الموصوف بأنه دنا .

(٣) أى مقدار قاب قوسين فى القرب منه .

(٤) أى الدنو من جانب الله ليس دنوا مكانيا محدودا بحيز كالأجسام ؛ بل دنو معنوى .

(٥) ومن العباد بالحدود المكانية الحاصرة لهم .

(٦) عن الدنو : من جانب الله ؛ أى دنوه من عباده ، ليس له كيفية مخصوصة ، وحالة معروفة ؛ لأنه أمر معنوى غير محسوس .

(٧) عن دنوه : إلى ربه .

(٨) فى ا : ما أودع ـ بفتح الهمزة بالبناء للمعلوم وفى ب بالبناء للمعلوم، وبالبناء للمجهول وعليها « معا » .

(٩) إلى ما أدناه إلى ربه لما اطمأن قلبه .

(١٠) والارتياب فى أنه هل يصل إلى حضرة القرب وينال إنافته بالإكرام والإنعام ويترقى إلى أعلى مقام ، فأنجح الله تعالى أمنيته .

(١١) هو المؤلف . (١٢) هنا : فى هذه الآية . (١٣) مدى : غاية أو نهاية .

عن جعفر الصادق : ليس بدنوٍّ حَدّ، وإنما دنُو النبيّ صلى الله عليه وسلم من ربه وقُرْبه منه إبانةُ [1] عظيمِ مَنْزلتِه، وتشريفُ رُتْبته، وإشراقُ أنوارِ معرفته [2]، ومشاهدةُ أسرار غَيْبِه وقدرته ، ومن اللهِ تعالى له مَبَرَّةٌ [3] وتأنيس [4]، وبَسْطٌ ، وإكرام [5] ؛ ويُتَأَوَّل فيه ما يُتَأَوَّل في قوله : ينزلُ ربُّنا إلى السماء الدنيا [6] — على أحد الوجوه : نزول إفضالٍ وإجمال [7] ، وقبولٍ وإحسان .

قال الواسطي : مَنْ توهَّمَ أنه بنفسه [8] دَنَا جعل ثَمَّ مسافة [9] ، بَلْ كلما دنا [10] بنفسه من الحـــق تدلَّى بُعْداً [11] — يَعْني عن دَرْك حقيقته ؛ إذ لا دنُوَّ للحق ولا بُعْد [12] .

وقوله : « قابَ قَوْسَيْن أو أَدْنَى » — فمَنْ جعل الضمير عائدا إلى الله ، لا إلى جبريل على [13] هذا — كان عبارةً عن نهاية القُرْب ، ولُطْفِ المحـــل [14] ، وإيضاح

---

(١) إبانة : إظهار . (٢) أي إظهار آثار معرفة الله عليه . (٣) مبرة : قبول وإحسان .

(٤) وتأنيس : لطف به يذهب استيحاشه لما انقطعت عنه الأصوات وغاب أليفه وهو جبريل .

(٥) وبسط : توسعة ومسرة . والمراد تأنيسه بما يسره من مخاطبته صلى الله عليه وسلم .

(٦) أي كما أول النزول المسند إلى الله تعالى في حديث أبي هريرة رضى الله عنه المتفق على صحته أنه صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول : من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له بالإقبال عليهم بإنعامه وإجابة دعائهم ، ومغفرة ذنوبهم ، ، وإفاضة مواهبه عليهم .

(٧) وإجمال : أي فعل جميل بهم على عادته .

(٨) بنفسه دنا : دنوا حقيقيا محسوسا بذاته، لادنو لطف وإكرام . (٩) ثم : هناك .

(١٠) دنا أحد من المخلوقات . من الحق : تعالى . وفي ب : كل ما — برفع كل .

(١١) تدلى بعدا : نزل من علو إلى أسفل ، لبعده عما قصده .

(١٢) لا دنو للحق ولا بعد : بالمعنى المكاني ، لاستحالة ذلك عليه تعالى .

(١٣) على هذا التأويل السابق .

(١٤) ولطف المحل : أي هو عبارة عن دنو معنوي ومنزلة معنوية لا تحس بالأبصار .

المعرفة[١] ، والإشراف على الحقيقة عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبارةً عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهارِ التَّحَفِّي [٢] ، وإنافةِ [٣] المنزل والمرتبة من الله له .

ويُتَأَوَّل فيه ما يُتَأَوَّل في قوله [٤] : مَنْ تقرَّبَ مني شِبْراً تقربت منه ذِرَاعا [٥] ، ومَنْ أتانى يَمْشِي أتيته هَرْوَلةً [٦] ؛ قُرْبٌ بالإجابةِ والقَبُول ، وإتيانٌ بالإحسان وتَعْجِيل المأمول [٧] .

فصـــــل

فى ذكر تفضيله فى القيامة [٨] بخصوص الكرامة

حدثنا [القاضى] [٩] ، أبو على ، حدثنا أبو الفضـــل ، وأبو الحُسَين ؛ قالا : حدثنا أبو يَعْلَى السِّنْجِى ، حدثنا ابن محبوب ، حدثنا الترمذى ، حدثنا الحُسين ابن يزيد الكوفى ، حدثنا عبد السلام ابن حرب ، عن لَيْث ، عن الربيع بن أنس ، عن أَنَس رضِيَ اللهُ عنه ؛ قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم [٦٩] : أنا أوّلُ

---

(١) وإيضاح المعرفة الإلهية لمن خصه برفعة المنزلة من خاص عباده . وفى ا : واتضاح المعرفة .

(٢) وإظهار التحفى : التحفى : المبالغة فى البر .

(٣) إنافة : إعلاء ورفع .

(٤) فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى على طريق التمثيل (صحيح مسلم: ٢٠٦١).

(٥) من تقرب منى : من أطاعنى وسعى فى امتثال أوامرى .

(٦) هرولة : هى المشى والجرى بسرعة . والمراد أنى أعجل لجزائى وأوصل إليه إحسانى سريعا .

(٧) هذا بعض من حديث قدسى صحيح رواه أبو هريرة رضى الله عنه . وهو بتمامه فى نسيم الرياض : ٢ — ٣٣٨

(٨) أى بما خصه الله يوم القيامة وفضله به على سائر الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام .

(٩) ليس فى ا .

الناسِ خروجا إذا بُعثوا[١]، وأنا خطيبُهم إذا وَفدوا[٢]، وأنا مبشِّرهم إذا أَيِسُوا[٣]؛ لواء الحَمْدِ بيدى[٤]، وأنا أكرمُ وَلدِ آدَمَ على رَبِّى ولا فَخْر[٥].

وفى رواية ابْنِ زَحْر، عن الربيع[٦] بن أنس - فى لَفْظ هذا الحديث: أنا أولُ الناسِ خروجا إذا بُعِثوا، وأنا قائدُهم إذا وفَدوا، وأنا خطيبُهم إذا أَنْصتوا[٧]، وأنا شفيعُهم إذا حُبِسُوا[٨]، وأنا مُبَشِّرهم إذا أُبْلِسُوا[٩]؛ لواء الكَرَمِ بيدى،

---

(١) إذا بعثوا: إذا خرجوا من قبورهم إلى المحشر.
قال فى نسيم الرياض: وهذا الحديث انفرد به الترمذى، وقال: إنه حسن غريب. سنن الترمذى: ٥ - ٥٨٥

(٢) إذا وفدوا: إذا قدموا على الله، وقاموا بين يديه للحساب. وأصل الوفد: الجماعة تقدم إلى من لهم فيه رجاء وعنده قضاء أمورهم وعطاياهم. ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشفيع المشفع فى المحشر، المأذون له فى التكلم وفصل القضاء كان ثمة كالخطيب فى الجمع على عادتهم؛ إذ لكل وفد خطيب غالبا.

(٣) مبشرهم: بالخلاص من المحشر وطول موقفه. إذا أيسوا: إذا يئسوا من النجاة من شدة ذلك اليوم وهوله إذا أزفت الآزفة، وبلغت القلوب الحناجر.

(٤) أى يوم القيامة، ليعرفه صلى الله عليه وسلم ويتبعه كل من فى الموقف، واللواء معروف: هو لواء حقيقى؛ قال فى نسيم الرياض (٢ - ٣٣٩): سمى لواء الحمد، لأنه حمد الله بمحامد لم يحمده بها غيره. فهو إشارة لتقدمه صلى الله عليه وسلم وعظمته وكثرة حمده. وفى الترمذى: لواء الحمد يومئذ بيدى.

(٥) ولا فخر: أى أنا لا أذكره للفخر؛ بل للتحدث بنعم الله؛ أو لا أفخر بهذا؛ إذ لى عند الله ما هو أعظم وأشرف من هذا.

(٦) فى ب: عن أنس.

(٧) الإنصات: السكوت؛ أى أنا المتكلم بين يدى ربى فى أمرهم والشفاعة لهم وقد سكتوا ولم يطيقوا نطقا لحيرتهم.

(٨) إذا حبسوا فى الموقف، واضطربوا، وفزعوا للأنبياء؛ فقال كل منهم: نفسى، نفسى، فيشفع لهم صلى الله عليه وسلم الشفاعة العظمى فى فصل القضاء.

(٩) مبشرهم إذا أبلسوا: مبشرهم: أى بالخلاص من هول الموقف، والحبس فيه. أبلسوا: انقطعت حجتهم، وتحيروا وسكتوا ليأسهم من النجاة. وفى ا: أبلسوا - بالبناء للمعلوم. وفى النهاية. أبلسوا: تحيروا.

وأَنا أَكرمُ وَلدِ آدمَ على رَبّى ولا فَخْر ؛ ويطـوف علىّ ألفُ خادمٍ[١] كأنهم لؤلؤ مكنون[٢] .

وعن أَبى هريرة رضى الله عنه[٣] : وأُكْسَى حلّةً من حُلَلِ الجنّةِ ، ثم أَقومُ عن يمين العَرْش ليس أَحدٌ من الخلائق[٤] يقومُ ذلكَ المَقام غيرى .

وعن أَبى سعيد[٥] ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : أَنا سيِّدُ وَلدِ آدمَ يوم القيامة ، وبيدى لواء الحمد ولا فَخْر ، وما نبىٌّ[٦] يومئذ، آدَمُ فمَنْ سِوَاه، إلا تحت لوائى ؛ وأَنا أولُ مَنْ تَنْشقُّ[٧] عنه الأَرضُ ولا فَخْر .

وعن أَبى هريرة[٨]، عنه صلى اللهُ عليه وسلم: أَنا سيِّدُ[٩] وَلدِ آدمَ يومَ القيامةِ ، وأول مَنْ ينشقُّ عنه القَبْرُ ، وأول شافعٍ ، وأَول مُشَفَّع[١٠] .

وعن ابن عباس[١١] رضِيَ اللهُ عنهما:أَنا حاملُ لواءِ الحمْد يوم القيامةِ ولافَخْر

(١) أى فى الجنة . قال فى نسيم الرياض : رواه الترمذى وصححه .

(٢) مكنون : محفوظ مستور لم تمسه الأيدى ، فهو كناية عن كونها بكرا ذات بهاء ، لم ير مثلها .

(٣) فى حديث رواه الترمذى وصححه ـ سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٨٥

(٤) الخلائق : جمع خليقة ؛ أى جماعات من المخلوقين .

(٥) فى حديث رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه . سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٨٧

(٦) هذا فى ا ، ب ، والترمذى . وفى هامش ا : وما من نبى . وضطبت كلمة « آدم » بفتح الميم فى ب .

(٧) تنشق عنه الأرض : أى يوم تبعثر القبور وتنشق بقدرة الله تعالى .

(٨) فى صحيح مسلم : ١٧٨٢

(٩) أى أشرفهم وأقربهم عند الله فى يوم لايسود فيه غيرى .

(١٠) أول شافع : يشفع للناس فى الموقف . وأول مشفع : أول من يؤذن له فى الشفاعة ، وتقبل شفاعته .

(١١) فى حديث رواه الترمذى ، والدارمى : سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٨٨ ، وقال : قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

وأنا أوّلُ شافعٍ، وأول مُشَفَّع، ولا فَخْر؛ وأنا أولُ مَنْ يحرِّكُ حلق[1] الجنةِ، فيُفتَح لى فأدخلهـا[2] ومعى فقراء[3] المؤمنين ولا فَخْر؛ وأنا أكرمُ الأوّلين والآخرِين ولا فَخْرَ.

وعن أَنَس: أنا أوّلُ الناسِ يُشفَّع فى الجنة، وأنا أكثرُ الناسِ تَبعاً[4].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عنه[5]؛ قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم: أنا سيِّدُ الناسِ يوم القيامة؛ وتَدْرُون بِمَ ذلك؟ يجمعُ اللهُ الأوَّلين والآخرِين - وذَكَر حديث الشفاعة[6].

وعن أبى هُريرة رضِيَ اللهُ عنه - أنه صلّى اللهُ عليه وسلم قال: أَطْمعُ[7] أكونَ أعظمَ الأنبياء أجْرا يومَ القيامة.

وفى حديثٍ آخر: أما تَرْضَوْن أنْ يكونَ إبراهيم وعيسى فيكم[8] يوم القيامة! ثم قال: إنهما فى أمتى[9] يوم القيامة؛ أمَّا إبراهيم فيقول: أنتَ دعوتى وذرِّيتى[10]،

---

(١) حلق: جمع حلقة.

(٢) هذا فى ب. وفى ا: فيدخلها، وفى هامشه: فأدخلها ومعى، وعليها علامة الصحة. وفى الترمذى: فيدخلنيها.

(٣) المراد بالفقراء: الفقراء الصابرون.

(٤) يعنى أن أمته صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الأمم.

(٥) كما رواه الشيخان: صحيح مسلم: ١٨٤

(٦) قال فى نسيم الرياض (٢ - ٣٤٢): ولم يذكر حديث الشفاعة هنا، لأنه سيأتى فى باب الشفاعة.

(٧) أطمع: أرجو من الله تعالى طمعا ورجاء حققه لى.

(٨) فيكم: محسوبان من جملتكم ومحشوران معكم.

(٩) فى أمتى: أى يعدان فيها.

(١٠) أما دعوته فقوله: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك، وهو صلى الله عليه وسلم من نسل ولده إسماعيل؛ فهو من ذرية إبراهيم.

فاجعلنى من أمتك . وأما عيسى فالأنبياء إخوة[١] بَنُو عَلَّاتٍ ، أمهاتهم شتَّى ؛ وإنَّ عيسى أَخِى ليس بينى وبينه نبىّ[٢] ، وأنا أولى الناسِ به[٣] .

قوله[٤] : أنا سيِّدُ الناسِ[٥] يوم القيامة : هو سيّدهم فى الدنيا، ويوم القيامة . ولـكن أشار[٦] صلى الله عليه وسلم لانفراده فيه بالسُّودَدِ والشفاعة دونَ غـيره ؛ إذ لجأ الناسُ إليه فى ذلك[٧] ، فلم يجدوا سِوَاهُ .

والسيِّدُ : هو الذى يلجأ الناسُ إليه فى حوائجهم[٨] ؛ فـكان حينئذ سيّدا مُنفردا[٩] من بين البشر، لم يُزَاحِمْه أحدٌ فى ذلك، ولا ادَّعاه ؛ كما[١٠] قال تعالى[١١] : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليومَ ؟ للهِ الواحدِ القهار ﴾ .

والمُلْكُ له تعالى فى الدنيا والآخرة ، لـكن فى الآخرةِ انقطَعَتْ دعْوَى المدَّعِى لذَلك فى الدنيا[١٢] .

---

(١) أى كالإخوة . والمراد بالعلات : الزوجات الضرائر . والمراد أن الأنبياء بعثوا متفقين فى أصول التوحيد مختلفين فى فروع الشرائع .

(٢) لأنه لم يبعث فى الفترة التى كانت بينهما أحد من الأنبياء .

(٣) وهذا من حديث رواه البخارى ومسلم ، وهو : أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الأولى والآخرة ، الأنبياء بنو علات ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد ، وليس بيننا نبى . قال فى نسيم الرياض : وهو حديث صحيح : صحيح مسلم : ١٨٣٧

(٤) فى الأحاديث السابقة .

(٥) فى هامش ب : خ : ولد آدم .

(٦) أشار : أى بقوله هذا ــ كما تقدم .

(٧) فى ذلك الوقت ، أو ذلك الأمر .

(٨) أى يعتمدون عليه إذا قصدوه لقضاء مصالحهم .

(٩) حينئذ: أى فى وقت التجائهم إليه. منفردا؛ أى عن جميع الناس حتى الأنبياء بهذه السيادة.

(١٠) أى إن قوله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم اليوم، كقوله تعالى: « لمن الملك اليوم » ؛ ووجه الشبه أنه خص بالملك بذلك اليوم كما خص رسوله بسيادته به .

(١١) سورة غافر ، آية ١٦

(١٢) المراد أن ملوك الدنيا لما تصرفوا فيها تصرف الملاك ظنوا أن لهم ملـكا حقيقة، فلما قهرهم بالموت وكشف الغطاء ظهر أنهم عبيد عاجزون ليس لهم من الأمر شىء؛ فانـكشفت الدعاوى .

وكذلك لجأ إلى محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم جميعُ الناسِ فى الشفاعة ؛ فكان سيِّدَهم فى الأُخْرى[١] دُونَ دَعْوَى .

وعن أَنَس رضِىَ اللهُ عنه[٢] ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : آتى بابَ الجنةِ يومَ القيامةِ ، فأستَفْتِحُ[٣] ، فيقول الخازِنُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فأقول : محمد . فيقول : بِكَ[٤] أُمرتُ ألا أفتحَ لأَحدٍ قَبْلَك .

وعن عَبْد الله بن عَمْرو[٥] ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : حَوْضِى مسيرةُ شَهْرٍ[٦] ، وزَواياه سواءٌ[٧] [٧٠] ، وماؤُهُ أبيضُ من الوَرِقِ[٨] ، وريحُه[٩] أَطيبُ من المسكِ ، وكيزانُه كنجوم السماء[١٠] ؛ مَنْ شَرِب منه لم يَظْمَأْ أبدا .

وعن أبى ذرّ نحوُه ؛ وقال: طوله[١١] ما بين عَمّان إلى أَيْلَةَ ، يَشْخُبُ فيه مِيزابانِ من الجنة[١٢] .

---

(١) الأُخرى : الآخرة . (٢) فى حديث رواه مسلم (صحيح مسلم : ١٨٨) .

(٣) أستفتح : أطلب الفتح بتحريك الحلقة .

(٤) بك أمرت : أى بسببك أمرت بالفتح إذا قرع الباب .

(٥) حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ١٧٩٣

(٦) الحوض : مجمع الماء ، معروف . وهذا الحوض العظيم مخصوص به .

(٧) يعنى أنه مربع . (٨) الورق : الفضة . وفى هامش ا ، ب : من اللبن .

(٩) وريحه : ورائحته .

(١٠) كيزان: الكيزان: جمع كوز؛ وهو إناء صغير يتناول به الماء للشرب . والمراد بقوله: كيزانه كنجوم السماء — أى هى تشبه نجوم السماء فى كثرتها ، وإشراقها ، وإضاءتها .

(١١) صحيح مسلم: ١٨٠١، طوله : طول الحوض كطول ما بين هاتين البلدتين . وقد ضبطت عمان فى ب بضم أوله وفتح الميم . وضبطت فى ا بفتح العين وتشديد الميم . وهما بلدتان مختلفتان كما هو معروف . وأيلة : فى آخر طرف الشام بساحل البحر متوسطة بين المدينة ودمشق ، بينها وبين مصر ثمان مراحل . وفى صحيح مسلم (١٨٠١) ضبطت عمان كما ضبطت فى ا . (١٢) يشخب : ينصب مع صوت . والميزاب : مسيل الماء .

وعن ثَوْبان مثله ؛ وقال : أحدهما[١] من ذَهَب ، والآخَرُ من وَرِقٍ .

وفى روايةِ حارثة بن وَهْب : كما بين المدينة[٢] وصَنْعاء .

وقال أنَس[٣] : أيلةَ وصَنْعاء .

وقال ابن عُمر : كما بين الكوفة والحجَرِ الأَسود .

ورَوى حديثَ الْحَوْض أيضا أَنَسٌ ، وجابر ، وسَمُرة ، وابنُ عُمر ، وعُقْبة[٤] ابن عامر ، وحارثَة بن وهب الخزاعى ، والمستَوْرِدُ ، وأَبو بَرْزَة الأَسلمى ، وحُذَيفة ابن اليمان ، وأبو أُمامة ، وزيد بن أَرْقَم ، وابن مسعود ، وعبدالله بن زَيْد ، وسَهْل ابن سعد ، وسُوَيْد بن جَبَلة ، [وأبو بكر ، وعُمَرُ بن الخطاب ، وابنُ بُريدة][٥] ، وأبو سَعيد الخُدْرِىّ ، وعبد الله الصُّنَابِحى ، وأبو هُريرةَ ، والبراء ، وجُنْدُب ، وعائشة ، وأسماء بنت أبى بكر ، وأبو بَكْرة ، وخَوْلةُ بنت قَيْسٍ ، وغيرهم .

فصـــــل

فى تفضيله بالمحبة والخُلة[٦]

جاءت بذلك الآثارُ الصحيحة ، واختصّ على أَلسنةِ المسلمين بحبيب الله[٧] ؛ أخبرنا[٨] أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره ، عن كريمة بنت أحمد[٩] ،

---

(١) أحدهما : أحد الميزابين .

(٢) صحيح مسلم : ١٨٠١ (٣) صحيح مسلم : ١٨٠٠

(٤) حديث عقبة فى البخارى : ٧-١١٢، وحديث أنس فى صحيح البخارى : ٥ - ٤١

(٥) مابين القوسين أمامه فى هامش ا : من غير الرواية . وقع فى الأم فى الطرة دون تعليم على موضع تخرج منه ، وكان فى الطرة تمريض على اسم سويد بن جبلة .

(٦) أى بكونه حبيب الله وخليله . والخلة : الصداقة .

(٧) أى جرى على الألسنة تخصيصه صلى الله عليه وسلم بذلك دون خليل الله ، لإطلاقه على إبراهيم عليه السلام. (٨) هذا الحديث مسند عن البخارى ـ صحيح البخارى : ٥-٤، ٥

(٩) عليها علامة الصحة فى ا ، وفى هامشه : محمد .

حدثنا أبو الهيثم ، وحدثنا حُسين بن محمد الحافظ سماعاً عليه، حدثنا القاضى أبو الوليد، حدثنا عَبْد بن أحمد ، حدثنا أبو الهيثم ، حدثنا أبو عَبْد الله محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل[١] ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا فُلَيْح ، حدثنا أبو النَّضْر ، عن بُسْرِ بن سَعِيد، عن أبى سَعِيد ، عن النبى صلى اللهُ عليه وسلم ـ أنه قال : لو كنتُ متخِذاً خليلا غَيْرَ رَبّى لاتخذتُ أبا بكر[٢] .

وفى حديثٍ آخر[٣] : وإن صاحِبَكم[٤] خليلُ اللهِ .

ومِنْ طريقِ عبدِ الله بن مسعود : وقد اتخذ اللهُ صاحبَكم خَلِيلا .

وعن ابن عباس[٥] ، قال : جلس ناسٌ من أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ينتظرونه[٦] ؛ قال : فخرج حتى إذا دَنَا منهم سمعَهم يتذاكرون ؛ فسمِعَ حَدِيثَهم ، فقال بعضُهم : عجَباً ! إنَّ اللهَ اتخذَ من خلقه خليلا ، اتخذ إبراهيم خليلا .

وقال آخر : ماذا بأعجَب من كلامِ موسى ؛ كلَّمه اللهُ تكليما[٧] .

وقال آخر : فعِيسى كلمةُ[٨] اللهِ ورُوحُه .

---

(١) هو الإمام البخارى صاحب الصحيح .

(٢) فى نسيم الرياض : هذا حديث صحيح رواه البخارى وغيره من طرق متعددة . والمعنى : لا أصل فى محبة أحد من الخلق إلى مرتبة الخلة ؛ فإنها مختصة بربى ، فلو فرض جعلها لأحد كان أبو بكر أليق بها من جميع الخلق لبذل نفسه وماله ووطنه وأهله فى طاعته ؛ وهذا صريح فى تفضيله على غيره وتقدمه عنده .

(٣) وسنن الترمذى : ٥ ـ ٦٠٦ (٤) يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم .

(٥) فى رواية الدارمى ، والترمذى ـ سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٨٧

(٦) ينتظرونه : أى ينتظرون خروجه من بيته لمجلس أصحابه .

(٧) أى ليس اتخاذ الله إبراهيم خليلا أعجب من كلام موسى حين ناجاه ربه فى الدنيا وكلمه تكليما ، مع أنه تعالى لم يكلم أنبياءه إلا بواسطة ملك الوحى .

(٨) سمى عيسى كلمة الله ؛ لأن الله خلقه من دون أب بمجرد قوله : كن . والمراد : إذا ذكرتم خليل الرحمن ، وكليمه ، وتعجبتم من ذلك، فاذكروا عيسى وكونه كلمة الله وروحه.

وقال آخَرُ : وآدمُ اصطفاهُ اللهُ .

فخرج عليهم فسلَّم ، وقال : قد سمعتُ كلامَكم وعجَبَكم ؛ أَنَّ اللهَ تعالى اتَّخذَ إبراهيم خليلا ، وهو كذلك[1] ؛ وموسى نَجِيُّ[2] الله ، وهو كذلك[3] ؛ وعيسى رُوحُ[4] اللهِ ، وهو كذلك ؛ وآدم اصطفاهُ اللهُ ، وهو كذلك ؛ أَلَا وأنا حَبيبُ[5] اللهِ ولا فخر ؛ وأنا أولُ شافع وأولُ مُشَفَّع ولا فَخْر ، وأنا أولُ مَنْ يحرِّكُ حَلَقَ الجنةِ فيَفْتَحُ اللهُ لى فَيُدْخِلُنِيها ومعى فُقراءُ المؤمنين ولا فَخْر ؛ وأنا أكرمُ الأَوَّلين والآخِرين ولا فَخْر .

وفى حديث أبى هريرة[6] رضى اللهُ عنه من قَوْلِ الله تعالى لنبيّه صلّى اللهُ عليه وسلم : إنى اتّخذْتُكَ خليلا ، فهو مكتوبٌ فى التوراة : أسب[7] حبيبُ الرحمن .

---

(١) وهو كذلك : أى اتخذه خليلا .

(٢) نجى الله : كليمه ، والمناجاة : المكالمة .

وضبطت الياء فى كلمة « نجى » بالضمة والفتحة وعليها « معا » فى ا .

(٣) وهو كذلك : أى هو نجى الله وكليمه .

(٤) فى سنن الترمذى : وعيسى روح الله وكلمته . وقد ضبطت الحاء فى « روح » بالضمة والفتحة وعليها « معا » فى ا .

(٥) قرر أولا ما ذكروه من فضائلهم بقوله : هو كذلك ؛ ثم نبه على أنه أفضل منهم كلهم بقوله : وأنا حبيب الرحمن .

(٦) رواه البيهقى ، وصححه .

(٧) فى نسيم الرياض : هى لفظة عبرانية بمعنى أنت . ثم قال : وقيل : إن بعد السين تاء مثناة فوقية ، ومعناها أنت . وقال القارى (١ ـ ٤٤٨) : اسد : كذا فى نسخة صحيحة من غير ضبط على هذه الصورة وهى ألف بعدها سين مهملة ثم جرة . وفى بعض النسخ مكتوب بإزائها على الطرة : ذكر ابن جبير بخطه فى كتابه أن هذه اللفظة وقعت فى الأم المبيضة بخط المؤلف كما هى هنا مبهمة ، فحكيتها كما وقعت .

وفى ب : انسب محمد . وفى ا : انست حبيب الرحمن ، وقال فى هامش ا : است ـ كذا وقعت هذه اللفظة فى طرة الأم المبيضة بخطه رحمه الله مبهمة غير جلية فحليتها كما وقعت ، قاله ـ

قال القاضى أبو الفضل[1] : اختُلف فى تفسير الخُلّة ، وأصلِ اشتقاقها ؛ فقيل : الخليلُ : المنْقَطِعُ إلى الله[2] الذى ليس فى انقطاعه إليه ومحبّتِه له اختلالٌ[3] .

وقيل : الخليلُ المختصّ[4] ، واختار هذا القولَ غيْرُ واحد .

وقال بعضُهم : أصلُ الخُلَّة الاستصفاء[5] : وسُمّى إبراهيم [٧١] خليلَ الله ؛ لأنه يُوالِى فيه ويُعادِى فيه[6] ؛ وخُـلّةُ اللهِ له نصْرُه ، وجَعْلُه إماما[7] لمَنْ بعده .

وقيل : الخليل : أصلُه الفقير المحتاج المنقطع[8] ، مأخوذ من الخَلّة وهى الحاجة ؛ فسُمّى بها إبراهيم ؛ لأنه قصَر حاجتَه على ربّه[9] ، وانقطع إليه بَهمّه ، ولم يجعـله

= ابن جعفر ـ نقلت من خطه. وفى هامش ب : كذا وقعت هذه اللفظة فى طرة الأم للبيضة فحكيت كما وقعت ، وهى بخط المصنف رحمه الله مبهمة غير جلية. قال القارى (١ ـ ٤٤٨): ولا يبعد أن يكون بالتاء الفوقية فى آخر الكلمة ، وهى للربط فى الجملة بالفارسية. وفى نسخة ضبط بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وضم الموحدة . وقيل : بفتح الهمزة وسكون السين وضم المثناة فوق ؛ أى أنت .

(١) هو المصنف .

(٢) المنقطع إلى الله : الذى قطع رجاءه واعتماده عما عدا الله .

(٣) اختلال : خلل ونقص يحتاج إلى جبر وتكميل .

(٤) أى المختص بمن خالله ، وقال القارى (١ ـ ٤٤٨) : المختص ؛ أى بوصف الخلة ، سواء كان مشتقا من الخلة ـ بضم الخاء ، كما سبق ، أو من الخلة ـ بالفتح ، بمعنى الفقر والحاجة ، من الخلل ؛ إذ كل خليل محتاج إلى أن يسد خلل صديقه .

(٥) الاستصفاء : أى كون محبته ومودته صافية ؛ أى خالصة .

(٦) الموالاة : المحبة : أى لا يحب إلا من أحبه الله من المؤمنين أهل الطاعة ، ولا يبغض إلا أهل المعصية والضلال .

(٧) إماما : مقتدى به ، متبعا لجميع من بعده .

(٨) المنقطع : المنفرد .

(٩) قصر حاجته : أى لم يكن له حاجة إلا إلى ربه ؛ فلا يؤمل نفعا من غيره .

قِبلَ غيره[١] ؛ إذ جاءه جبريلُ وهو فى المَنْجَنِيق[٢] ، ليُرْمَى به فى النار ، فقال : ألكَ حاجة ؟ قال : أمَّا إليكَ فلا .

وقال أبو بكر بن فُورَك : الخُلَّة : صفاء المودّةِ التى توجِب الاختصاصَ بتخلُّل الأسرار[٣] .

وقال بعضهم : أصلُ الخُلّة المحبة ؛ ومعناها الإسعافُ ، والإلطاف ، والترفيع ، والتشفيع[٤] ؛ وقد بيَّن ذلك فى كتابه تعالى بقوله[٥] : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء الله وأَحِبَّاؤه قلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكم بذُنوبكم بل أنتم بَشَرٌ مِمَّن خلق يَغْفِرُ لمَنْ يشاء ويعذِّبُ مَنْ يشاء ، ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وإليه المَصِير ﴾ .

فأوجب للمحبوب ألَّا يُؤَاخَذَ بذنوبه .

قال : هذا ، والخُلَّة أقوى من البنوّة ؛ لأنَّ البنوة قد تكون فيها العداوةُ[٦] ، كما قال تعالى[٧] : ﴿ إنَّ مِنْ أزواجِكم وأولادِكم عدُوًّا لكم فاحذَرُوهم ، وإنْ تَعفُوا وتصفحوا وتَغفِرُوا فإنَّ اللهَ غفُورٌ رحيم ﴾ .

ولا يصح أن تكونَ عداوةٌ مع خلّةٍ[٨] ؛ فإذًا تسميةُ إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما السلام

---

(١) ولم يجعله قبل غيره : لم يطلب شيئا من غيره ، ولم يؤمله .

(٢) المنجنيق – بفتح الميم وكسرها : آلة لرمى العدو ، وهو فارسى معرب .

(٣) تخلل الأسرار : دخولها فى باطنه لاطلاعه عليها وعلمه بها ، فلا يخفى عليه شىء من أحواله .

(٤) الإسعاف : الإعانة والنصرة والإمداد بكل ما أراد . والإلطاف : الإنعام والإحسان . والترفيع : بإعلاء رتبته بالكمالات الظاهرة والباطنة . والتشفيع : بإذنه له فى الشفاعة وقبولها .

(٥) سورة المائدة ، آية ١٨

(٦) ضبطت التاء فى كلمة « العداوة » بالفتحة ، وعليها علامة الصحة فى ا .

(٧) سورة التغابن ، آية ١٤

(٨) لأن الخلة ضد العداوة ، فلا يجتمعان ، بخلاف البنوة فإنها وإن كانت الفطرة تقتضى المحبة لكن قد تتخلف لعارض .

بالخُلَّة إمّا بانقطاعهما[١] إلى الله ووَقْفِ حوائجِهما عليه ، والانقطاع عمّن دونه ، والإضراب[٢] عن الوسائط والأسباب ؛ أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما[٣] ، وخَفِيّ[٤] أَلْطافِهِ عندهما ، وما خالَلَ[٥] بواطنَهما من أسرارِ إلٰهيته ، ومكنونِ غيوبه ومعرفته ، أو لاستِصْفَائه[٦] لهما ، واستِصفاء قُلوبهما عمّن سِوَاه[٧] ، حتى لم يُخالِلْهما[٨] حبٌّ لغيره ؛ ولهذا قال بعضهم : الخليل مَنْ لا يتّسعُ قَلْبه لسوَاه[٩] وهو عندهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم[١٠] : ولو كنتُ متّخِذا خليلا لاتّخَذْتُ أبَا بكر خليلا؛ لكِنْ أُخُوّةُ الإسلام .

واختلف العلماء وأربابُ القلوب[١١] : أَيُّهما أَرفَعُ درجةً : الخُلّة، أودرجة المحبةِ ؟ فجعلهما بعضُهم سواءً ؛ فلا يكون الحبيبُ إلّا خليلا ، ولا الخليل إلا حبيبا ؛ لكنه خَصّ إبراهيمَ بالخُلّة ، ومحمداً بالمحبّة .

وبعضهم قال : درجةُ الخُلّه أَرفَعُ ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم[١٠] : لو كنتُ متّخِذاً خليلا غَيْر ربّى عزّ وجلّ . فلم يتّخِذْه .

---

(١) هذا على أن معنى الخلة : الحاجة .

(٢) الإضراب : الإعراض والترك .

(٣) وهذا على أن معنى الخلة : المحبة .

(٤) فى ا : وحفى ــ بالحاء المهملة . وفى ب : وحفى ، وخفى: أى بالحاء المهملة ، والخاء المعجمة ، وعليها «معا». وخفى ــ بالخاء : مستور . وحفي ــ بالحاء : زيادة مبالغته فى إكرامه.

(٥) خالل : تخلل ودخل ، وخالط .

(٦) استصفائه : اختياره لهما من دون خلقه وجعلهما صفوة له حتى يستحقا وصف الخلة .

(٧) بحيث لا يكون فيها غير معرفته وحبه .   (٨) يخاللها : يدخل فى خلالها .

(٩) لامتلائه بمحبته ومشاهدة جلاله ، بحيث لايبقى فى قلبه سواه ، وسوى مراقبته .

(١٠) فى حديث البخارى ــ كما تقدم . صفحة ٢٨٠

(١١) أرباب القلوب : أصحاب القلوب الكاملة الصافية .

وقد أَطلقَ المحبَّة لفاطمة ، وابْنَيْها[١] ، وأُسامةَ وغيرهم[٢] .

وأكثرُهم جعل المحبَّةَ أرفعَ من الخُلَّة ؛ لأنّ درَجةَ الحبيبِ [نبيِّنا][٣] أرفعُ من درجة الخليل إبراهيم[٤] .

وأَصْلُ المحبةِ الميلُ إلى ما يوافقُ المحِبَّ ؛ ولـكنْ هذا فى حق مَنْ يصِحُّ الميلُ منه والانتفاعُ بالوَفْق[٥] ؛ وهى دَرَجةُ المخلوق ؛ فأَما الخالق ـ جلَّ جلالُه ـ فمنزَّه عن الأغراض ؛ فمحبتُه لعَبْدِه تمـكينُه من سعادته[٦] ، وعِصْمتُه وتوفيقُه وتهيئةُ أسباب القُرْب[٧] ، وإفاضة رحمته[٨] عليه ؛ وقُصْواها[٩] كَشْفُ الحُجبِ عن قَلبه حتى يراهُ بقَلْبه[١٠] ، وينظر إليه ببَصِيرته ؛ فيكون كما قال فى الحديث : فإذا أَحْببته كنتُ سَمْعَه الذى يسمَعُ به ، وبَصَرَه الذى يُبْصر به ، ولسانه الذى ينطق به[١١] .

---

(١) وابنيها : الحسن والحسين .

(٢) فى ا : وغيرها . وفى هامشه : وغيرهم ، وعليها علامة الصحة .

(٣) ليس فى ا .

(٤) فيقتضى أن صفته ـ وهى المحبة ـ أفضل من صفة إبراهيم ، وهى الخلة .

(٥) الوفق : الموافقة . وفى ا ضبطت الواو بالضمة . ولم أقف عليه .

(٦) تمـكينه من سعادته : إقداره على ما يفيده سعادة الدارين بتوفيقه لطاعته وعبادته .

(٧) وعصمته : من ارتـكاب الذنوب . وتوفيقه : فى أموره بجعلها على وفق رضاه . وتهيئة أسباب القرب : ييسر له كل سبب يقربه إلى ربه من صلاة وجهاد ومعرفة .

(٨) إفاضة رحمته عليه : إيصال الخيرات الدنيوية والأخروية اتصالا كثيرا متواليا .

(٩) قصواها : غايتها .

(١٠) يراه بقلبه : يعلمه علما يقينيا كالمشاهدة المحسوسة .

(١١) هذا حديث قدسى رواه البخارى : صحيح البخارى : ٨ ـ ١٣١ ، ومعناه : إذا صفى قلبه ، وشغل نفسه بالله أحبه الله ؛ ومحبة الله : عنايته ولطفه به ، وإفاضة نعمه على ظاهره وباطنه ، فتـكون حواسه وإدراكها ، وأعضاؤه وحركاتها ، كلها متوجهة لله ، ولما فيه رضاه ، من غير تصنع ومشقة ؛ فيقويه على ذلك ؛ حتى كأن أفعالها صادرة عن الله .

ولا ينبغى أَنْ يُفْهم مِنْ هذا سَوى التَّجَرُّدِ للهِ[١]، والانقطاعِ إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القَلْب لله، وإخلاصِ الحركات لله[٢]، كما قالت عائشة رضى الله عنها : كان خُلُقُه[٣] القرآن ؛ بِرضاه يَرْضَى ، وبِسُخْطِهِ يسخَطُ[٤] ؛ ومِن هذا عَبَّر بعضُهم عن الخُلَّة بقوله :

قد تخلَّلتَ مسلكَ الرُّوحِ منى ... وبذا سُمِّيَ الخليلُ خليلا
فإذا ما نطقْتُ كنتَ حديثى ... وإذا ما سكَتُّ كنتَ الغَليلا[٥]

[٧٢] فإذاً مزيَّةُ الخُلَّةِ، وخُصوصيةُ المحبّة حاصلةٌ لنبينا صلّى الله عليه وسلم بما دلّت عليه الآثارُ الصحيحة المنتشرة[٦] ؛ المتلَقَّاة بالقبُول من الأمة ، وكفى بقوله تعالى[٧] : ﴿قُلْ إِنْ كنتُم تحبُّون اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبكم اللهُ ويغْفِرْ لكم ذنوبكم واللهُ غفور رحيم﴾ .

حَكَى أَهْلُ التفسير أَنَّ هذه الآيَةَ لمّا نزلَتْ قال الكفّارُ : إنما يريدُ محمدٌ أَنْ

---

(١) التجرد لله : أى تجريد أفعاله وإحساسه عما يشغله عن الله .

(٢) وإخلاص الحركات لله : بألا يحرك عضوا من أعضائه إلا لعبادته ، أو لما يعين عليها .

(٣) أى كانت أخلاقه كلها على وفق ما أمر به فى القرآن .

(٤) بسخطه يسخط : أى يكره ما ذكر فيه أن الله يكرهه .

(٥) فى نسيم الرياض : وفى رواية : كنت الدخيلا . قال : المراد بالغليل ما كان داخل القلب ، من قولهم : تغلغل المـاء بين النبات ، إذا جرى تحته مستترا . والمراد بالدخيل : ما هو داخل القلب والبدن ، لا الأجنبى .

(٦) المنتشرة : الشائعة المشهورة .

(٧) سورة آل عمران ، آية ٣١

قال فى نسيم الرياض (٢ — ٣٦٤) : ووجه الدلالة فى هذه الآية أنه لما جعل من اتبعه محبوبا لله علم أنه محبوب عند الله محبة ليس فوقها محبة ، ومقرب تقرباً لا يدانيه أحد ؛ فعلم منه خلته وحبه .

نتّخذه حَنانا[١] كما اتخذت النّصارى عيسى بن مريم ؛ فأنزل اللهُ ـ غَيْظا[٢] لهم ، ورَغْما[٣] على مَقَالتِهم هذه الآية[٤] : ﴿ قُلْ أَطِيعوا اللهَ والرسولَ ﴾ ، فزاده شرفا بأَمْرِهم بطاعته ، وقرَنها بطاعته ، ثم توعّدهم على التّولّى[٥] عنه بقوله[٦] : ﴿ فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرين ﴾ .

وقد نقل الإمامُ أبو بكر بن فُورَك عن بعض المتكلمين كلاما فى الفرق بين المحبة والخُلة يطولُ[٧] ، جملةُ إشاراتِه إلى تفضيل مقام المحبة على الخُلّة ؛ ونحن نذكر منه طَرَفاً[٨] يهْدِى إلى ما بعده :

فمن ذلك قولهم : الخليلُ يَصِلُ بالواسطة[٩] ، من قوله تعالى[١٠] : ﴿ وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوت السمواتِ والأرضِ ولِيَكُون من المُوقِنِين ﴾ . والحبيبُ يصِلُ لحبيبه[١١] به ، من قوله[١٢] : ﴿ فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى ﴾ .

---

(١) حنانا : رحمة . والمراد : أن نعطف عليه ونجعله موضع الحنان والرحمة ؛ أى نتبرك به ونتضرع .

(٢) غيظا لهم : أى ليغيظهم ويعلمهم بغضبه عليهم .

(٣) رغما : الرغم : الذل والخزى والإساءة ، والمراد أذلهم بتوبيخهم ورد مقالتهم هذه .

(٤) سورة آل عمران ، آية ٣٢

(٥) التولى عنه : الإعراض عن طاعته .

(٦) سورة آل عمران ، آية ٣٢

(٧) فى هامش ب : ترجع . (٨) طرفا : بعضا قليلا .

(٩) بالواسطة : بتوسط آخر بينه وبين خليله .

(١٠) سورة الأنعام ، آية ٧٥

(١١) أى بذاته من غير واسطة . وفى هامش ا : إليه به . والمثبت فى ا عليه علامة الصحة .

(١٢) سورة النجم ، آية ٩

وقيل : الخليل : الذى تكون مغفِرَته فى حدِّ الطمع[١]، من قوله[٢] : ﴿ والذى أطْمَعُ أنْ يَغفِرَ لى خطيئتى يوم الدِّينِ ﴾ . والحبيبُ الذى مَغْفِرَته فى حدِّ اليقين[٣] ، من قوله[٤] : ﴿ ليغْفِرَ لَكَ اللهُ ماتقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وما تأخَّر ، ويُتِمَّ نعمتَه عليكَ ويَهْدِيَكَ صراطا مستقيما ﴾ .

والخليلُ قال[٥] : ﴿ ولا تُخْزِنى يوم يُبْعثون ﴾ . والحبيب قيل له[٦] : ﴿ يوْمَ لا يُخْزِى اللهُ النبىَّ ﴾ ؛ فابتدىء بالبِشَارة قَبْلَ السؤال[٧] .

والخليلُ قال فى المِحْنَة[٨] : [٩]﴿ حَسْبِىَ اللهُ ﴾ . والحبيبُ قيل له[١٠] : ﴿ يأيُّها النبىُّ حَسْبُكَ اللهُ ﴾ .

والخليل قال[١١] : ﴿ اجْعَلْ لى لِسَانَ صِدْقٍ فى الآخرين ﴾ . والحبيب قيل له[١٢] : ﴿ ورَفَعْنَا لكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، أُعْطِىَ بلا سؤال .

---

(١) مغفرته : أى مغفرة الله له ما قد يصدر عنه محتاجا إلى عفوه عنه ـ واقعة فى حال يطمع صاحبها فى التجاوز عنها ؛ لأن الخليل لا يؤاخذ خليله بزلاته .

(٢) سورة الشعراء ، آية ٨٢ (٣) فى حد اليقين : مستيقنة .

(٤) سورة الفتح ، آية ٢

(٥) سورة الشعراء ، آية ٨٧ ، والخليل : إبراهيم . وسيأتى : والحبيب : محمد .

(٦) سورة التحريم ، آية ٨

(٧) ابتدىء بالبشارة بنفى الخزى عنه برؤية مايكره قبل سؤاله لذلك .

(٨) المحنة : الابتلاء ، والمراد بذلك قصته مع نمرود حين ألقاه فى النار ، فكانت بردا وسلاما .

(٩) سورة الزمر ، آية ٣٨

(١٠) سورة الأنفال ، آية ٦٤

(١١) سورة الشعراء ، آية ٨٤

(١٢) سورة الشرح ، آية ٤

والخليلُ قال[١] : ﴿ واجْنُبْني وَبَنِيَّ أَنْ نعبُدَ الأَصنامَ ﴾ . والحبيبُ قيل له[٢] : ﴿ إنما يريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البيت ﴾ .

وفيما ذكَرْناهُ[٣] تنبيهٌ على مَقْصِدِ أصحاب هذا المقال مِنْ تفضيل المقاماتِ[٤] والأحوال ؛ وكُلٌّ يعملُ على شاكلتِه[٥] ؛ فربُّكم أَعْلَمُ بمن هو أَهْدَى سبيلا .

فصـــل

في تفضيله بالشفاعةِ والمَقَام[٦] المحمود

قال اللهُ تعالى[٧] : ﴿ عسى أنْ يَبْعثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً محمودا ﴾ .

أخبرنا الشيخُ أبو عليّ الغَسّانى الجَيّانى[٨] فيما كتب إليّ بخطِّه ، حدثنا سِرَاجُ ابن عبد الله القاضى ، حدثنا أبو محمد الأَصِيلى ، حدثنا أبو زَيْد ، وأبو أحمد ؛ قالا : حدثنا محمد بن يوسف ؛ قال : حدثنا محمد بن إسماعيل ؛ قال : حدثنا إسماعيل بن أَبَان، حدثنا أبو الأَحوص ، عن آدم بن عليّ ؛ قال : سمعتُ ابْنَ عمر يقول[٩] : إنّ الناسَ

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٥ (٢) سورة الأحزاب ، آية ٣٣

(٣) وفيما ذكرنا : من تفسير المحبة والخلة واشتقاقهما والخلاف فى أيهما أرفع درجة . . .

(٤) المراد بالمقام هنا أمر يكون عليه العارف بالله تعالى من الأنبياء والأولياء يرتفع به من حضيض البشرية فى درجات العبودية حتى يرقى المقام الأعلى .

(٥) كل يعمل على شاكلته : لكل أحد طريقة يختارها .

(٦) المراد بالمقام المحمود : كل مقام يتضمن كرامة محمد .

(٧) سورة الإسراء ، آية ٧٩ (٨) فى ا : حدثنا الجيانى .

(٩) هذا الحديث رواه البخارى موقوفا على ابن عمر : وحديث الشفاعة فى صحيح البخارى: ٩ ـ ١٤٩، وصحيح مسلم: ١٨٠ ، وابن ماجه : ١٤٤٠ ، والترمذى : ٤ ـ ٦٢٨ وأبو داود : ٢ ـ ٢١٦

وانظر هذه الأحاديث وغيرها فى تفسير ابن كثير : ٥ ـ ٩٨ ، وما بعدها .

يصيرون يوم القيامةِ جُثى[١] ، كلُّ أُمةٍ تَتْبَعُ نَبيَّها ، يقولون : يا فلانُ ، اشفَعْ لنا ؛ يا فلانُ اشفَعْ لنا[٢] ، حتى تنتهىالشفاعةُ إلى النبيّ صلىاللهُعليه وسلم فذلكَ يوم يبعثُه اللهُ المقامَ المحمود .

وعن أبى هريرة : سُئل عنها[٣] رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ـ يعنى قوله[٤] : ﴿ عسى أن يبعثَكَ ربُّكَ مَقاماً محمودا ﴾ ، فقال : هى الشفاعة [٥] .

وروى كعبُ بن[٦] مالك ، عنه صلّى اللهُ عليه وسلم : يُحْشَرُ الناسُ يوم القيامةِ فأكون أنا وأمتى على تَلّ ويكسونى رَبِّى حُلَّةً خَضْراء ، ثم يُؤْذَن[٧] لى فأقول ماشاء اللهُ أن أَقول ؛ فذلك المَقَامُ المحمود .

وعن ابن عُمر [٧٣] رضِىَ اللهُ عنه ـ وذكر حديثَ الشفاعةِ ـ قال : فيَمْشِى حتى يأخذَ بِحلْقَةِ الجنّة ، فيومئذ يَبْعَثُه اللهُ المقامَ المحمودَ الذى وَعدَه[٨] .

وعن ابن مسعود عنه صلّى الله عليه وسلم أنه [٩] قِيَامُه عن يمين العَرْشِ مَقَاما لا يقومُه غَيْرُه ، يغبطه[١٠] فيه الأَوّلون والآخِرون .

---

(١) بضم الجيم ـ مقصور منون . وجوز كسر جيمه أيضا : جمع جثوة (مثلث الأول) ، وأصله الكوم المجتمع من تراب ونحوه ؛ والمراد يجتمعون جماعات ، كل أمة جماعة تابعة لنبيها .

(٢) أى تنادى كل أمة نبيها باسمه ، يسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فى الخلاص من هول الموقف .

(٣) عنها : عن الآية المذكورة .

(٤) سورة الإسراء ، آية ٧٩

(٥) هذا الحديث رواه أحمد ، والبيهقى .

(٦) هذا الحديث رواه أحمد بن حنبل مسندا (٣ ـ ٤٥٦) .

(٧) يؤذن لى : يأذن الله لى فى التكلم بين يديه .

(٨) الذى وعده به فى القرآن فى قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

(٩) أنه : أى المقام المحمود . ورواه أحمد .

(١٠) الغبطة : تمنى المرء أن ينال مثل ما رآه عند غيره من النعم ، وكل أمر محمود ، من غير أن يحب زوالها ؛ فإن أحب زوالها فهو الحسد المذموم

ونَحْوُه عن كعب والحسَنِ .

وفى رواية : هو[١] المَقَامُ الذى أَشفَعُ لأُمّتى فيه .

وعن ابن مسعود [٢] ، قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ : إنى لقائم المقامَ المحمودَ . قيل : وما هو ؟ قال : ذلكَ يومٌ يَنْزِلُ اللهُ تبارك وتعالى [على كُرْسيِّه][٣] . . . الحديث .

وعن أبى موسى رضى الله عنه[٤] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : خُيِّرْتُ بين أن يدخُلَ نصفُ أُمتى الجنةَ وبين الشفاعة فاخْتَرتُ الشفاعةَ ؛ لأَنها أَعمّ[٥] ؛ أَتُرَوْنَها[٦] للمتقين ؟ لا ، ولكنها للمذنبين الخطّائين [٧] .

وعن أبى هريرة[٨] رضِىَ اللهُ عنه ؛ قال : قلتُ : يا رسولَ الله ؛ ماذا وَرَدَ [٩] عليكَ فى الشفاعة ؟ فقال : شفاعتى لمَنْ شَهِد أنْ لا إله إلا اللهُ مُخْلصا ، يصدِّق لسانَه قلبُه .

وعن أمّ حَبيبة[١٠] ، قالت : قال رسول اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم : أُرِيتُ[١١] ما تَلْقَى أُمّتى من بَعْدى ، وسَفْكَ[١٢] بعضِهم دماءَ بَعْضٍ ، وسبَق لهم مِنَ اللهِ ماسبَق للأُمم قَبْلَهم ؛ فسألتُ اللهَ أن يؤْتينى شفاعةً يوم القيامةِ فيهم ، ففعل[١٣] .

---

(١) هو : أى المقام المحمود . (٢) فى حديث رواه أحمد فى مسنده .

(٣) ليس فى ب . (٤) هذا الحديث رواه ابن ماجه فى سننه : ١٤٤١

(٥) فى سنن ابن ماجه : لأنها أعم وأكفى .

(٦) أترونها : أتظنون الشفاعة خاصة للمتقين .

(٧) فى ابن ماجه : الخطائين المتلوثين . (٨) فى حديث صحيح رواه الحاكم، والبيهقى .

(٩) ماذا ورد عليك : ورد جاء . أى ما أجابك به الله ، أو الملك ، لما سألته الشفاعة فى أمتك ؟ وفى شرح القارى (١ — ٤٦٠) : ماذا ورد ؛ من الورود ، أي نزل .

(١٠) فى حديث رواه الحاكم ، والبيهقى .

(١١) أريت : أعلمنى الله ، وأخبرنى بواسطة الملك . (١٢) سفك الدم : إراقته وصبه .

(١٣) ففعل : أى أعطاه الله تعالى ما سأله فشفعه فى المذنبين منهم .

وقال حذيفةُ [١] : يجمعُ اللهُ الناسَ فى صعيدٍ واحدٍ [٢] حيث يُسْمِعهم الداعى ، ويُنْفِذهم البصرَ ، حُفَاةً عُرَاةً كما خُلِقوا ،سُكوتا لا تَكلَّمُ نَفسٌ إلّا بإذْنِه،فيُنادَى محمدٌ فيقول : لبَّيْكَ وسَعْدَيك [٣] ، والخيرُ فى يدَيْكَ ، والشرُّ ليس إليكَ ، والمُهْتَدِى مَنْ هَدَيْتَ ، وعَبْدُكَ [٤] بين يديكَ ، ولكَ وإليكَ [٥] ، لا مَلْجأَ ولا مَنْجى منكَ إلا إليكَ ، تبارَكْتَ وتعاليتَ [٦] ، سبحانكَ رَبَّ البيتِ ـ قال : فذلكِ المقامُ المحمود الذى ذَكر الله .

وقال ابنُ عباس رضى الله عنه:إذا دخل أهلُ النارِ النارَ ، وأهلُ الجنّةِ الجنّةَ ، فتبقَى آخِرُ زُمْرَةٍ [٧] من الجنةِ وآخِرُ زُمْرة من النار ؛ فتقول زمرةُ النارِ لزُمْرةِ الجنَّة: ما نَفَعكُم إيمانُكم ، فيَدْعُونَ رَبَّهم ويَضِجُّون [٨] ، فيسمعهم أهلُ الجنةِ فيسألونَ آدمَ وغيره بعدَه فى الشفاعة لهم ؛ فكُلٌّ يعتذِرُ حتى يأْتُوا محمدا صلى اللهُ عليه وسلم ، فيشفع لهم ، فذلك المقامُ المحمود [٩] .

ونحوه عن ابن مسعود أيضا ، ومجاهد .

وذكره علىُّ بن الحسين عن النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى حديث رواه البيهقى ، والنسائى .

(٢) فى صعيد واحد : فى مكان يجتمعون فيه غير متفرقين . وأصل معنى الصعيد :التراب؛ فأريد به هنا أرض المحشر .

(٣) أى أجبتك إجابة بعد إجابة ،وأساعدك بطاعتى لك ،وأنا مقيم على ذلك لا أنصرف عنه.

(٤) وعبدك : يريد نفسه الشريفة .

(٥) ولك وإليك : أى أمره كله لك ، فإنه عبدك ، وأمره موكول إليك .

(٦) تباركت وتعاليت : كثر خيرك وزاد عن كل شىء ، وعلا قدرك فى ذاتك وصفاتك ، وتنزهت عما لا يليق بك .

(٧) الزمرة : الجماعة القليلة .

(٨) ويضجون : ويرفعون أصواتهم فزعا مما لحقهم من تعيير أهل النار لهم .

(٩) هذا الحديث موقوف على ابن عباس .

وقال جابر بن عبد الله ليزيدَ الفقير [١] : سمعتَ بمقام [٢] محمد ـ يعنى الذى يبعثه اللهُ فيه ؟

قلتُ : نعم . قال: فإنه مَقامُ محمدٍ المحمودُ الذى يُخْرِجُ اللهُ به مَنْ يُخْرِجُ ـ يعنى من النار ـ وذكر [٣] حديثَ الشفاعة فى إخراج الجهنَّميين [٤] .

وعن أنس نحوه ، وقال : فهذا المقامُ المحمودُ الذى وُعِدَه .

[وعن سَلْمان : المقامُ المحمودُ هو الشفاعةُ فى أُمته يومَ القيامة .

ومثلُه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقال قَتَادة : كان أهلُ العلمِ يَرونَ المقام المحمودَ هو شفاعته يوم القيامة ؛ وعلى أن المقامَ [٥] المحمودَ مقامُه عليه الصلاة والسلامُ للشفاعةِ مذاهبُ السلَفِ من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين .

وبذلك جاءت الشفاعةُ مفسَّرةً فى صحيح الأخبار عنه عليه الصلاةُ والسلامُ ؛ وجاءت مقالةٌ فى تفسيرها شاذّةً عن بعض السلف [٦] ،يجبُ ألّا تثبتَ ؛ إذا لم يعضدها صحيحُ أثر ، ولا سنَد نظر .

ولو صحّتْ لكان لها تأويلٌ غيرُ مستَنْكَر ؛ لكن ما فسّره النبىُّ صلى الله عليه وسلم فى صحيح الآثار يردُّه ؛ فلا يجبُ أن يُلتَفَتَ إليه ، مع أنه لم يأتِ

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ١٧٩

(٢) سمعت : أى رويت فيه شيئا يفسره . ورواية مسلم : هل سمعت ؟

(٣) وذكر : أى جابر . والحديث بتمامه فى مسلم : ١٧٩

(٤) المنسوبون لجهنم ؛ لأنهم المؤمنون الذين دخلوا النار بمعاصيهم . وهذا بعض الحديث الذى رواه مسلم كما تقدم .

(٥) وعلى أن المقام المحمود : أى وكانوا على أن المقام المحمود . . .

(٦) وهو مجاهد ؛ يقول : إنه يجلسه معه على العرش .

فى كتابٍ ولا سُنّةٍ ، ولا اتّفَقَ على المقالِ أُمّةٌ ؛ وفى إطلاق ظاهره منكَرٌ من القول وشنْعَة](١) .

وفى رواية أنس وأبى هريرة وغيرهما(٢) ، دخل حديثُ بعضِهم فى حديث بعض :

قال صلى اللهُ عليه وسلم: يجمعُ اللهُ الأوّلين والآخِرين يوم القيامة فيهتمّون(٣) — أو قال : فيُلْهَمُون ؛ فيقولون : لو استَشْفَعْنا إلى ربِّنا(٤) .

ومن طريقٍ آخَر ، عنه : ماج(٥) الناسُ بعضُهم فى بعض .

وعن أبى هريرة(٦) : وتَدْنو الشمس(٧) ، فيبلغُ الناسَ من الغَمّ ما لا يُطِيقون ولا يحتملون ؛ فيقولون : ألا تَنْظرون مَنْ يشفَعُ لكم ؛ فيأتون آدمَ فيقولون ؛ زاد بعضُهم : أنتَ آدمُ أبو البَشَر ، خلقك الله بيَدِه(٨) ، ونفخَ فيك مِنْ رُوحِه ، وأسْكَنَكَ جنّته ، وأسْجَدَ لك ملائكته ، وعلّمكَ أسماءَ كلّ شىء ، اشفَع لنا عند ربّكَ حتى يُرِيحَنا مِنْ مكاننا(٩) ؛ ألا تَرَى [٧٤] ما نحن فيه ؟

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ا ، وهو فى هامش ب ، وعليه علامة الصحة ، وقد أثبت هذه الزيادة القارى فى شرحه أيضا : ١ — ٤٦٣

(٢) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : وصحيح البخارى : ٩ — ١٤٩ ، وابن ماجه : ١٤٤٢

(٣) فيهتمون : من الهم والحزن ، أو من العزم والتصميم . ويلهمون : من الإلهام ؛ أى يلهمهم الله سؤال ذلك .

(٤) لو استشفعنا إلى ربنا : لو طلبنا من يشفع لنا عند الله فى أن يخلصنا من هول هذا الموقف وشدته — وهذا ما تمنوه .

(٥) ماج الناس بعضهم فى بعض : دخل بعضهم فى بعض واختلطوا لاضطرابهم .

(٦) فى حديث الشفاعة الذى رواه الشيخان : صحيح البخارى : ٩ — ١٤٩ ، وصحيح مسلم : ١٨٠

(٧) تدنو الشمس : تقرب من رءوس أهل الموقف . وفى ا : فتدنو .

(٨) بيده : أى أوجدك من العدم بقدرته من غير واسطة أم ولا أب .

(٩) من مكاننا : مكانهم هو المحشر .

فيقول : إنَّ رَبِّى غَضِبَ اليومَ غَضباً لم يغضَبْ مثلَه[١] ، ولا يغضب بعده مِثلَه ، ونهانى عن الشَّجَرةِ فعصَيْتُ ؛ نفْسى ، نَفْسى ؛ اذهبُوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نُوح .

فيأتون نوحاً فيقولون : أَنتَ أَولُ الرسُلِ إلى أَهل الأرضِ ، وسمَّاكَ اللهُ[٢] عَبْدًا شَكُورا ، أَلَا تَرَى ما نحن فيه ؛ أَلَا تَرَى ما بلَغَنا[٣] ! أَلَا تَشْفَعَ لنا إلى ربِّك ؟ فيقول : إنّ رَبِّى غَضِبَ اليومَ غضباً لم يغضَبْ قبله مِثْلَه ، ولا يغضبُ بعده مِثْلَه ، نفسى ! نَفْسى !

قال ـ فى رواية أنس : ويذكر خطيئَتَه التى أصاب[٤] : سؤاله ربَّه بغير علم[٥] .

وفى رواية أبى هريرة رضِىَ اللهُ عنه : وقد كانت لى دعوةٌ دعوتُها على قَوْمى ؛ اذهَبُوا إلى غيرى . اذهبوا إلى إبراهيم ؛ فإنه خليلُ اللهِ .

فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أَنتَ نبىُّ اللهِ وخليلُه من أَهل الأرض[٦] ، اشفَع لنا إلى ربِّكَ ، أَلَا تَرى ما نحْنُ فيه ؟

فيقول : إنَّ ربى قَدْ غضِبَ اليومَ غضَبا . . . فذكر مثْلَه ؛ ويذكر ثلاثَ

---

(١) أى أظهر شدة غضبه وسخطه على من عصاه ، مريدا إيقاع العذاب الذى فى الآخرة بإدخالهم النار ؛ وهذا لم يكن قبل يوم القيامة ولا بعده ؛ فلهذا خاف آدم عليه السلام ، وقال : ونهانى . . .

(٢) فى الآية ٣ من سورة الإسراء : « ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبدا شكورا » . على الأصح من أن الضمير راجع إلى نوح .

(٣) ما بلغنا : ما وصل إلينا منه .

(٤) الأنبياء عليهم السلام معصومون ، ولكن لشدة تعظيمهم لله ، وخوفهم منه ، يعدون ما صدر منهم نسيانا وسهوا ذنبا عظيما ، والمراد بخطيئته ما فسره بقوله : سؤاله ربه . . .

(٥) سؤاله هو قوله : « رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق . . . » .

(٦) وخليله من أهل الأرض : أى انفردت من بينهم بالخلة ـ كما تقدم .

كلمات كَذَبَهن(١) . نَفْسِي ، نَفْسِى ، لستُ لها(٢) ، ولكِنْ عليكم بموسى ؛ فإنه كَلِيمُ اللهِ .

وفى روايةٍ : فإنه عَبْدٌ آتاه اللهُ التوراةَ ، وكلَّمَه وقرَّبه نَجِيًّا(٣) .

قال : فيأْتُون موسى ؛ فيقول : لستُ لها ، ويذكر خَطِيئته التى أصاب(٤) ، وقَتْلَه(٥) النفسَ ، نفسى ، نفسى ؛ ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه رُوحُ اللهِ وكلِمَته .

فَيأْتُونَ عيسى ؛ فيقول : لستُ لها ، ولكن عليكم بمحمد ، عَبْدٍ غفر اللهُ له ما تقدمَ من ذَنْبِه وما تأَخَّر(٦) .

فأُوتَى(٧) ، فأقول : أَنَا لَهَا(٨) .

فأَنْطَلِقُ فأستأْذِنُ على ربّى ، فيُؤْذَنُ لى ، فإذا رأيتُه وقعتُ ساجِدًا .

وفى روايةٍ ، فآتِى تحت العَرْشِ ، فأَخِرُّ ساجدا .

---

(١) هى قوله : إنى سقيم — لمادعى إلى الخروج مع قومه . وقوله لزوجته — لما طلبها الملك منه : إنها أختى . ولقوله فى حق الأصنام : لعله كبيرهم . وهذا كله مخالف للواقع ولاعتقاده . وهى فى الصورة كذبات ، فقد أراد بقوله : إنى سقيم : سأسقم ؛ لأن من عاش يسقم أو يهرم ويموت. وقوله أختى : أختى فى الإسلام. وبقوله: فعله كبيرهم : التبكيت ، بدليل قوله: إن كانوا ينطقون .

(٢) لست لها : لست أهلا للشفاعة لغيرى .

(٣) قربه نجيا : أى جعله قريبا منه ، مناجيا له ، ومخاطبا . والقرب ليس مكانيا .

(٤) هى التى وقعت منه وعاتبه الله عليها بقوله : « وما أعجلك عن قومك ياموسى » !

(٥) هو القبطى الذى استغاثه الإسرائيلى عليه فوكزه موسى فمات .

(٦) غفر الله له كل ماصدر منه مما يعاتب عليه، وإن لم يكن معصية ؛ لعصمته من الذنوب. ومن كان كذلك فهو جدير بقبول الشفاعة منه .

(٧) فأوتى : فيأتينى أهل الموقف لسؤال الشفاعة لهم .

(٨) أنا لها : أنا أهل للشفاعة ، مدخر لها .

وفى روايةٍ : فأقوم بين يديه ، فأحمده بمحامِدَ لا أَقدر عليها[١] إلّا أن يُلهِمَنيها الله[٢] .

وفى روايةٍ : فيفتح اللهُ علىّ مِنْ محامِدِهِ ، وحُسْنِ الثناء عليه شيئا لم يفتحْهُ على أحدٍ قَبْلى[٣] .

قال ـ فى رواية أبى هريرة : فيُقال : يامحمّدُ ، ارْفَعْ رأْسَك ، سَلْ[٤] ، تُعْطَه ، واشْفَعْ تشفَّعْ ؛ فأَرفَعُ رَأْسى ، فأقول : يارب ، أُمتى[٥] ؛ يارب ، أمتى . فيقول : أَدْخِلْ من أُمتكِ مَنْ لا حِسابَ عليه[٦] من الباب الأيمن من أبواب الجنة ؛ وهم شركاء الناسِ فيما سِوَى ذلك من الأبواب .

ولم يذكُرْ فى رواية أَنس هذا الفصلَ ، وقال ـ مكانه : ثم أَخِرّ ساجدا؛ فيقال لى : يا محمد ، ارفَعْ رأسك ، وقُلْ يُسْمَع لك، واشفَعْ تشفَّع، وسَلْ تُعْطَه. فأقول: يارِبّ ، أمتى ، أمتى . فيقال : انطلِقْ[٧] ، فمَنْ كان فى قَلْبه مِثْقَالُ حبّةٍ من بُرَّةٍ أو شَعِيرةٍ من إيمان[٨] فأَخرِجْه ، فأَنطلِقُ فأَفعَلُ .

ثم أرجِعُ إلى ربى ، فأَحمَدُه بتلك المحامِدِ[٩] . . . وذكر مِثْلَ الأول ؛ وقال

---

(١) لا أقدر عليها : أى لا أحسنها ، ولا أعرف كيفيتها فى الدنيا .

(٢) إلا أن يلهمنيها الله : أى إلا أن يوقعها الله فى قلبى بإلهام منه .

(٣) المراد أنه لم يتيسر لغيره من الرسل قبله ولا بعده .

(٤) سل : اسأل ما شئت من الشفاعة وغيرها .

(٥) أى ارحم أمتى ، أو أنج أمتى .

(٦) من لا حساب عليه : أى خواص أمتك المتقين الذين لاذنب لهم يحاسبون بسببه .

(٧) انطلق : اذهب من مقام الشفاعة المقرب . . .

(٨) مثقال : موازن ، مواز ، ومقابل ، مقدار؛ أى من كان فى قلبه أقل قليل من الإيمان. والبرة : حبة من البر ، وهو القمح .

(٩) بتلك المحامد التى ألهمتها .

فيه : مثقال حبَّةٍ من خَرْدل[١] . قال : فأفعل ، ثم أرجع ... وذَكَر مِثْلَ ما تقدم ، وقال فيه[٢] : مَنْ كان فى قَلْبه أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى[٣] مِنْ مثقالِ حبّةٍ من خَرْدل ؛ فأَفْعَلُ .

وذَكَر فى المرة الرابعة[٤] : فيُقَال لى : ارْفَع رَأْسَك ، وقُلْ يُسْمَع ، واشْفَعْ تشفَّع ، وسَلْ[٥] تُعْطَه .

فأقـــول : ياربّ ؛ ائْذَنْ لى فيمن قال[٦] : لا إله إلا الله . قال : ليس ذلكَ إليك[٧] .

ولـكن وعِزَّتى وكبريائى وعظَمَتى وجِبْريائى[٨] لأُخْرِجَنّ مِنَ النار مَنْ قال: لا إله إلا الله .

ومِنْ رواية قَتَادة عنه ؛ قال : فأقول : يارَبّ ، ما بَقِىَ فى النار إلا مَنْ حبَسه القرآنُ ، أَى وجب عليه الخلود[٩] .

---

(١) حبة من خردل : حب معروف فى غاية الصغر . وهو كناية عن غاية قلة الإيمان .
(٢) كما رواه مسلم فى صحيحه : ١٨٣
(٣) أدنى : أقل ، وأصغر .
(٤) فى المرة الرابعة : من رجوعه إلى ربه ومراجعته له فى الشفاعة ، فإنه وقع مرارا فى رواية البخارى : صحيح البخارى : ٩ – ١٤٩
(٥) فى ا : واسأل .
(٦) أى من نطق بكلمة التوحيد .
(٧) ليس ذلك إليك : ليس ذلك مفوضا إليك ، بل إلى .
(٨) العزة : الغلبة والقهر . والكبرياء : الترفع عن الانقياد. والعظمة: ظهور ذلك وزيادته، وجبريائى : وجبروتى .
(٩) فى صحيح البخارى (٩ – ١٤٨) : ووجب عليه الخلود ؛ أى لم يبق بعد هؤلاء الخارجين إلا من حكم الله فى القرآن بخلوده فى العذاب ، ولم يؤذن فى الشفاعة لهم .

وعن أبى بكر ، وعُقبة بن عامر ، وأبى سَعِيد[١] ، وحذيفة مثلُه ؛ قال[٢] : فيأتون [٧٥] محمدا فيُؤذَن له ، وتأتى الأَمانةُ والرحِمُ فتقومان جَنْبَتِي[٣] الصراط .

وذكر فى رواية أبى مالِك[٤] ، عن حذيفة : فيأتون محمدا فيَشْفَع ؛ فيُضرَبُ[٥] الصراطُ ، فيمرُّون : أولُهم[٦] كالبَرْقِ ، ثم كالرِّيح ، والطَير ، وشدّ الرِّجَال[٧] ، ونبيُّكم صلَّى اللهُ عليه وسلم على الصراط يقول : اللهمّ سلِّم سلِّمْ ، حتى يَجْتازَ[٨] الناس . وذكر آخِرَهم جَوَازا[٩] . . . الحديث .

وفى رواية أبى هريرة : فأكون أوّل من يُجِيز[١٠] .

وعن ابن عباس، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : يوضَعُ للأَنبياء مَنَابِرُ يجلسون عليها ، ويَبْقَى مِنْبَرِى لا أجلس عليه قائما[١١] ، بين يَدَىْ رَبى مُنْتَصِبا ، فيقول الله تباركَ وتعالى : ما تُرِيدُ أنْ أصنَعَ بأُمّتِكَ ؟ فأقول : يا ربِّ ، عَجِّل حسابَهم ؛ فيُدْعَى بهم ، فيُحَاسَبُون .

---

(١) برواية الترمذى : ٥ ـ ٣٠٨

(٢) قال : أى كل واحد منهم .

(٣) جنبتى: ناحيتى . والأمانة: ضد الخيانة . والرحم: القرابة . يعنى أنهما يمثلان أو يجسمان بقدرة الله ، ليشهدا على الخائن ، وقاطع الرحم .

(٤) فى سنن أبى داود : ٢ ـ ٢١٦

(٥) يضرب الصراط : يوضع على متن جهنم جسرا ممدودا (شرح القارى : ١ ـ ٤٧٠).

(٦) أولهم كالبرق : فى السرعة .

(٧) قال الخفاجى : يروى بالجيم جمع رجل . وبالحاء أى بالرحال : جمع راحلة . والشد : سرعة الجرى . وقال القارى : قد خطىء من رواه بالحاء المهملة .

(٨) يجتاز الناس : يمر الناس .

(٩) وذكر آخرهم جوازا : أى سمى آخر من يمر على الصراط .

(١٠) فهو أول من يجيز أمته من الرسل .

(١١) قائما : أى تاركا جلوسى حال قيامى .

فمنهم مَنْ يدخُلُ الجنةَ برحمته ، ومنهم مَنْ يدخلُ الجنةَ بشفاعتى ، ولا أزال أشفعُ حتى أعطَى صِكاكا[١] برجالٍ قد أُمِرَ بهم إلى النارِ ، حتى إنّ خازِنَ النارِ ليقول : يا محمد ، ما تركْتَ لِغضَب ربِّك فى أمتك من نِقْمَة[٢] .

ومن طريق زِيَاد النُّمَيْرِى ، عن أنس[٣] - أنّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم قال : أنا أولُ مَنْ تنفلِقُ الأرضُ[٤] عن جُمجمته ولا فخْرَ ، وأنا سيّدُ الناس يوم القيامة ولا فَخْر ، ومعى لواء الحَمْد يوم القيامةِ[٥] ، وأنا أولُ مَنْ تُفَتَحُ له الجنةُ ولا فَخْر ، فآتى فآخذ بحلقَةِ الجنةِ ، فيقالُ : مَنْ هذا ؟ فأقول : محمدٌ ؛ فيُفتَحُ لى ، فيستقبلُنى الجبّارُ تعالى ، فأخِرُّ له ساجدا . . . وذكر نحو ما تقدّم .

---

(١) صكاك : جمع صك ، وهو الورقة التى تكتب للمصالح ؛ والمراد : كتبا .

(٢) الغضب : إرادة الانتقام . والنقمة : العذاب ؛ أى لم تدع أحدا ممن استحق العذاب يعذب .

(٣) هذا الحديث رواه البيهقى ، وأبو نعيم فى الحلية .

(٤) تنفلق : تنشق . والفلق : شق الشىء وإبانة بعضه من بعض .

(٥) المراد لواء الرياسة العظمى الذى يحمده ويغبطه به سائر الخلق ، لتفرده - صلى الله عليه وسلم - به ، وهو على حقيقته ، أو كناية عن تقدمه على غيره .

وفى هامش ب : قيل إنما نفى الفخر الذى هو الكبر الواقع فى الناس المنهى عنه .

قال الخطابى - رحمه الله : وما زلت أسأل عن قوله : « لواء الحمد بيدى » حتى وجدته فى حديث روى عن عقبة بن عامر : إن أول من يدخل الجنة الحامدون لله تعالى على كل حال ؛ يعقد لهم لواؤه فيدخلون الجنة .

وقوله - صلى الله عليه وسلم: « ولا فخر » - ساكنة الخاء ؛ يريد أنه لايذكر ذلك على مذهب الفخر الذى هو الكبر ؛ وعامة الناس يفتحون الخاء ، وهو خطأ ، وصوابه سكونها ، والله أعلم .

ومن رواية أنس[١] : سمعتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول : لأشْفَعَن يوم القيامة لأكثر مما فى الأرضِ من حَجَر وشَجَر .

فقد اجتمع من اختلافِ ألفاظِ هذه الآثارِ أنّ شفاعتَه ـ صلى اللهُ عليه وسلم ، ومقامه المحمودَ من أولِ الشفاعات إلى آخرِها[٢] ، من حين يجتمعُ الناسُ للحَشْرِ ، وتَضِيق بهم الحناجِرُ ، ويبلغُ منهم العرَقُ والشمسُ والوقوفُ مَبْلَغَه[٣] ، وذلك قبلَ الحساب ، فيشفَعُ حينئذ لإراحةِ الناس من الموقف ، ثم يُوضَعُ الصِّرَاطُ ، ويحاسَبُ الناسُ ، كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة وحُذيفةَ .

وهذا الحديثُ أتْقَنُ[٤] ؛ فيشفَعُ فى تعجيل مَنْ لا حسابَ عليه من أمتـــه إلى الجنة ـ كما تقدم فى الحديث ـ ثم يشفَعُ فيمن وجب عليه العذَابُ ، ودخل النارَ منهم حَسْبَ[٥] ما تقتضيه الأحاديث الصحيحة ، ثم فيمن قال : لا إله إلا الله . وليس هذا لسِوَاهُ صلّى اللهُ عليه وسلم .

وفى الحديث المُنْتَشر الصحيح[٦] : لـكلّ نبيٍّ دَعوةٌ يدعُو بها ، واختبأتُ دَعْوتى شفاعةً لأُمّتى يوم القيامة .

---

(١) هكذا فى ا ، ب ، وفى هامش ا : أنيس ، وعليها علامة الصحة . وقال القارى : هو الصواب . وفى الاستيعاب (١ ـ ١١٤) : أنيس : رجل من الأنصار ، روى عنه شهر ابن حوشب ، ولم ينسبه ، ولم يرو عنه غيره ـ حديثه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر ـ إسناده ليس بقوى .

(٢) الشفاعات : هى شفاعته العظمى فى الخلاص من كرب الموقف لجميع الناس ؛ وشفاعته لدخول أهل الجنة الجنة ؛ وللمذنبين فى العفو عن ذنوبهم ، ولمن أمر به إلى النار ، ولمن قال : لا إله إلا الله ؛ ولإخراج من دخل النار منها ، ولرفع درجات أهل الجنة ـ كما مر جميع ذلك فى الأحاديث السابقة .

(٣) مبلغه : نهايته .

(٤) أتقن : أكثر إتقانا من غيره .

(٥) حسب : مثل .

(٦) المنتشر : الشائع . وقد رواه الشيخان : صحيح مسلم : ١٨٨

قال أهلُ العلم: معناه(١) دعوةٌ أُعلِمَ أنها تُستجابُ لهم، ويبلغُ فيها مرغوبُهم(٢)، وإلا فكم لكلِّ نبيٍّ منهم من دَعْوةٍ مستجابةٍ، ولنبيِّنا صلّى اللهُ عليه وسلم منها ما لا يُعَدُّ؛ لكن حالهم عند الدعاء بها بَيْنَ الرجاء والخوفِ(٣)، وضُمِنَتْ لهم إجابةُ دعوةٍ فيما شاءوه، يَدْعونَ بها على يقينٍ مِن الإجابةِ.

وقد قال محمد بن زِيَاد، وأبو صالح، عن أبي هُرَيرة في هذا الحديث(٤): لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ دَعَا بها في أُمته(٥)، فاستُجِيب له؛ وأنا أُريدُ أَنْ أَدَّخر(٦)، دَعْوَتي شفاعة لأُمتي يوم القيامة.

وفي رواية أبي صالح(٧): لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجّلَ كلُّ نَبيٍّ دعوتَه.

ونحوه في روايةِ أَبي زُرْعةَ عن أبي هُريرة [٧٦].

وعن أَنس مثْلُ رواية ابن زياد، عن أَبِي هريرة.

فتكون هذه الدعوةُ المذكورةُ مخصوصةً بالأُمة مضمونةَ الإجابةِ؛ وإلّا فقد أَخبر صلى الله عليه وسلم أنه سأَل لأُمته أشياء من أُمور الدين الدنيا وأُعطِي بعضها،

---

(١) معناه: معنى هذا الحديث: المقصود منه.

(٢) مرغوبهم: مطلوبهم.

(٣) بين الرجاء والخوف: بين الرجاء لإصابتها، والخوف من عدم قبولها.

(٤) في هذا الحديث وتفسيره.

(٥) سواء كانت لهم أو عليهم.

(٦) في ا: أؤخر. والمثبت في ب.

(٧) وهذا مما رواه الشيخان عنه: صحيح مسلم: ١٨٩

ومُنِع[(١)] بعضَها ، وادّخر لهم هذه الدعوةَ ليوم الفاقةِ[(٢)] ، وخاتِمةِ المِحَن[(٣)] ، وعظيمِ السؤالِ والرغبة .

جزاهُ الله أحسنَ ما جَزَى نبيًّا عن أمته ، وصلى الله عليه وسلّم كثيرا .

فصـــل

فى تفضيله فى الجنة بالوَسِيلة والدَّرَجةِ الرفيعة والـكوثر والفضيلة[(٤)]

حدثنا القاضى أبو عَبْد الله محمد بن عيسى التميمى ، والفقيه أبو الوليـد هشامُ ابن أحمد ، بقراءتى عليهما[(٥)] ؛ قالا : حدثنا أبو علىّ الغَسّانى ، حدثنا النَّمَرىّ[(٦)] ، حدثنا ابنُ عبد المُؤْمن ، حدثنا أبو بكر التمّار ، حدثنا أبو داود ، حدثنا محمد بن سَلَمة ، حدثنا ابْنُ وَهْب ، عن ابن لَهِيعة ، وحَيْوَةَ ، وسَعِيد بن أبى أيوب ، عن كعب[(٧)] ابن علقمة ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ أنه سمع

---

(١) هذا إشارة إلى ما فى الصحيح من أنه صلى الله عليه وسلم قال : سألت الله عز وجل ثلاث خصال ؛ فأعطانى ثنتين ، ومنعنى واحدة ؛ سألته ألا يهلـكنا بما أهلك به الأمم ، فأعطانيها ؛ وسألته ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا ، فأعطانيها ؛ وسألته ألا يلبسنا شيعا ـ وفى رواية : يذيق بعضنا بأس بعض ، فمنعها .

(٢) الفاقة : شدة الحاجة . والمراد به يوم القيامة .

(٣) المحن : جمع محنة ؛ وهى البلية المحيرة ؛ يعنى هول الموقف ؛ إذ لا بلية بعده إلا النار .

(٤) بالوسيلة : حقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحرى مكارم الشريعة ، والمراد بها منزلة عالية فى الجنة . والدرجة الرفيعة : المنزلة . والفضيلة : من الفضل ضد النقص .

(٥) فى ا : عليه . والمثبت فى ب .

(٦) هو ابن عبد البر .

(٧) فى ب : عن كعب ، عن علقمة : قال القارى (١ ـ ٤٧٤) : والمثبت فى الأصل هو الصواب .

النبيَّ ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ يقول(١) : إذا سمعتُم المؤذِّن فقولوا مثْلَ ما يقول(٢) ، ثم صلّوا عليَّ ؛ فإنه مَنْ صلّى عليّ مرةً صلّى اللهُ عليه عشرا ؛ ثم سَلُوا الله لى الوسيلة(٣) ؛ فإنها منزلةٌ فى الجنةِ لا تَنْبَغى(٤) إلا لعبدٍ مِنْ عبادِ الله ؛ وأرجو أن أكونَ أنا هو . فَمَنْ سألَ الله لى الوسيلَةَ حلَّت(٥) عليه الشفاعةُ .

وفى حديث آخر ـ عن أبى هريرة(٦) : الوَسِيلةُ أعلى درجةٍ فى الجنّةِ .

وعن أنس(٧) : قال رسولُ اللهِ صلّى عليه وسلم : بينا أنا أسِـيرُ(٨) فى الجنّة إذ عَرَض لى نهرٌ حافتاه قِبَابُ(٩) اللؤلؤ .

قلت لجبريل : ما هذا ! قال: هذا الـكَوْثَرُ الذى أعطاكَهُ الله. قال: ثم ضرب بيده إلى طِينهِ ، فاستخرج مِسْكا(١٠) .

---

(١) صحيح مسلم: ٢٨٨ ، وصحيح البخارى ١ ـ ١٥٠ ، وسنن أبى داود : ١ ـ ٥٥ ، وسنن الترمذى : ١ ـ ٤٠٧

(٢) قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٣٩٣): غير الحيملتين (حى على الصلاة، حى على الفلاح)؛ فإنه يقال عند سماعهما : لا حول ولا قوة إلا بالله . ويقول عند قوله : قد قامت الصلاة : أقامها الله وأدامها. وهذا الاستثناء الذى ذكره الخفاجى فى حديث لمسلم: ٢٨٩ ، وصحيح البخارى: ١ ـ ١٥٠

(٣) أى ادعوا الله أن يؤتينيها فقولوا : اللهم آت محمدا الوسيلة . وفى ب : اسألوا .

(٤) لاتنبغى : لايليق إعطاؤها .

(٥) حلت عليه الشفاعة : وجبت . أو نزلت عليه . (٦) رواه الترمذى : ١ ـ ٤٠٧

(٧) فى حديث رواه البخارى : صحيح البخارى : ٦ ـ ٢١٩

(٨) الظاهر أن سيره هذا كان مناما . ويحتمل أن يكون يقظة فى الإسراء (نسيم الرياض : ٢ ـ ٣٩٤) .

(٩) قباب : جمع قبة . وفى صحيح البخارى : حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا .

(١٠) أى أخرج من قعره ـ ليعرفه بفضله ، وأن طينه مسك . وفى ن : طينة ، طينة ، وعليها معاً ، والمثبت فى ا .

وعن عائشة وعبد الله بن عَمْرو مثلُه؛ قال : ومَجْراه[١] على الدرِّ والياقوت ، وماؤه أحلى من العَسل ، وأبيضُ من الثَّلْج .

وفى رواية ـ عنه : فإذا هو يَجْرى ، ولم يَشُقّ شقًّا[٢] ، عليه حَوْض تَرِدُ عليه أُمتى[٣] ... وذكر حديثَ الحَوْضِ .

ونحوه عن ابْنِ عباس[٤] .

وعن ابن عباس أيضا ، قال : الكوثَرُ[٥] الخير الذى أَعطاه اللهُ إياه .

وقال سَعِيد بن جُبَيْر : والنهرُ الذى فى الجنةِ من الخير الذى أعطاهُ اللهُ .

وعن حُذَيفة ـ فيما ذَكَر صلّى اللهُ عليه وسلم عن رَبّه : وأَعطانى الكوثَرَ ، وهو نهر فى الجنة ، يَسيلُ فى حَوْضى[٦] .

وعن ابن عباس ـ فى قوله تعالى[٧] : ﴿ ولسوفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترْضَى ﴾ ؛ قال : ألفُ قصرٍ من لُؤلؤ تُرَابُهنَّ المِسْكُ ، وفيه[٨] مايُصْلحهنّ .

وفى روايةٍ أُخرى : وفيه ماينبغى[٩] له من الأَزْواج والخَدَم .

---

(١) أى إن طينه مسك وحصاه الدر والياقوت .

(٢) أى لا يشق الأرض بشدة جريه ؛ وكذا سائر أنهار الجنة تجرى من غير أن تتخذ أخدودا .

(٣) ترد عليه أمتى : يأتونه للشرب منه .

(٤) سيأتى .

(٥) لعل ابن عباس أراد بيان المعنى اللغوى للكوثر . (نسيم الرياض : ٢ ـ ٣٩٦) . والحديث فى صحيح البخارى : ٦ ـ ٢١٩

(٦) كان يفسره بالحوض ، لأن ماءه منه .

(٧) سورة الضحى ، آية ٥ (٨) وفيه : فى كل قصر .

(٩) ما ينبغى له : ما يناسبه ويليق به .

فصـــــل

[في بيان شبهة ترد على ما تقدم][1]

فإن قُلْتَ : إذا تقرّر مِنْ دليلِ القرآن ، وصحيح الأثر ، وإجماع الأمة ـ كونه أكرمَ[2] البشَر ، وأفضلَ الأنبياء ـ فما معنى الأحاديث الواردةِ بنَهْيِه عن[3] التفضيل؟ كقوله[4] ـ فيما حدثنا الأسَديّ ؛ قال : حدثنا السَّمَرْقَنْديّ ، حدثنا الفارسيّ ، حدثنا الجُلُوديّ ، حدثنا ابْنُ سفيان ، حدثنا مسلم ، حدثنا ابْنُ مثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شُعْبة ، عن قَتَادة : سمعتُ أبَا العالية يقول : حدثني ابنُ عَمِّ نبيِّكم صلّى اللهُ عليه وسلم ـ يعني ابْنَ عباس ، عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ قال : ما ينبغي[5] لعَبْدٍ أن يقولَ : أنا خيرٌ من يونُس بن مَتّى .

وفي غير هـذا الطريق عن أبي هريرة [٧٧] قال ـ يعني رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : ما ينبغي لعبدٍ . . . الحديث .

وفي حديث أبي هريرة[6] ـ في اليهوديّ الذي قال : والذي اصطفى موسى على البَشَر ؛ فلطمه رجلٌ من الأنصار ، وقال : تقولُ ذلك ورسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم بين أَظْهُرنا[7] .

فبلغ ذلك النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، فقال : لا تفضّلوا بين الأنبياء .

---

(١) من نسيم الرياض (٢ ـ ٣٩٧) . (٢) أكرم البشر : أشرف بني آدم .

(٣) عن التفضيل بين الأنبياء ، والناهية عن تفضيله عليهم .

(٤) في حديث رواه الشيخان ، ورواه المصنف من طريق مسلم (صحيح مسلم:١٨٤٦).

(٥) ما ينبغي : ما يصح ، ولا يجوز .

(٦) الذي رواه الشيخان في رجل من الأنصار تنازع مع يهودي بالمدينة (صحيح مسلم:١٨٤٣).

(٧) بين أظهرنا : أي مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم بيننا ، وهو أفضل من موسى وغيره.

وفى رواية [١] : لاتخيِّرونى على موسى ـ فذكر الحديث .

وفيه : ولا أقولُ : إن أحدا أفضَلُ من يونس بن متى .

وعن أبى هريرة [٢] : مَنْ قال : أنا خيرٌ من يونس بن متّى فقد كذب .

وعن ابْنِ مسعود : لا يقولَنَّ أحَدُكم أنا خيرٌ من يونس بن متّى .

وفى حديثه الآخر [٣] : فجاءه صلى الله عليه وسلم رجل ، فقال له: يا خَيْرَ البَرِيّة [٤] ؛ فقال : ذاك إبراهيم . . .

فاعلَمْ [٥] أنَّ للعلماء فى هذه الأحاديثِ تأويلاتٌ :

أحدها ـ أنَّ نَهْيَه عن التفضيل كان قَبْل أَنْ يعلمَ أنه سيّدُ وَلَدِ آدمَ ؛ فنَهى عن التفضيل ؛ إذ يحتاج إلى توقيف [٦] ؛ وأنَّ مَنْ فضَّل بلا عِلْم فقد كَذَبَ .

وكذلك قوله : لا أقولُ إنَّ أحداً أفضلُ منه [٧] ـ لايقتضى تفضيلَه هو ؛ وإنما هو فى الظاهر كفٌّ [٨] عن التفضيل .

الوجه الثانى ـ أنه قاله صلَّى اللهُ عليه وسلم على طريقِ التواضُع ، ونَفْى التكبُّر والعُجْب [٩] ؛ وهذا [١٠] لا يَسْلَم من الاعتراض .

---

(١) وهذه الرواية فى الصحيحين ، وسنن أبى داود ، والنسائى (صحيح مسلم: ١٨٤٤).
(٢) فى حديث رواه البخارى .
(٣) أى حديث ابن مسعود الذى رواه مسلم، وأبوداود، والترمذى (صحيح مسلم: ١٨٣٩).
(٤) البرية : الخلق كلهم .
(٥) فاعلم ـ جواب الشرط فى قوله أول الفصل : فإن قلت . . . وهو شروع من المصنف فى تحقيق المسألة والجمع بين الأحاديث المتعارضة فى التفضيل وعدمه .
(٦) توقيف : إعلام به من الله وسماع وإذن فيه .
(٧) أفضل منه : من يونس .
(٨) كف : امتناع ، أو منع لغيره .
(٩) العجب : أى عجبه وخيلاؤه بنفسه ومدحه لها . والتواضع : لين الجانب ، وخفض جناحه لغيره .
(١٠) وهذا الجواب .

الوجه الثالث : أَلَّا يُفَضَّل بينهم تفضيـــلا يُؤَدِّى إلى تنقُّصِ [١] بعضِهم ، أو الغضّ [٢] معه ، لاسيّما فى جهةِ يونس عليه السلام ؛ إذ أخبر اللهُ عنه بما أخبر [٣] لئلا يقعَ فى نَفسِ مَنْ لا يَعْلَم [٤] منهُ بذلك غَضَاضَة [٥] وانحطاطٌ من رُتْبتِهِ الرفيعة؛ إذ قال تعالى عنه [٦] : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ . ﴿ إِذْ [٧] ذهب مُغَاضِباً فظنّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عليه ﴾ — فربما يُخَيَّل لمَنْ لا عِلْمَ عنده حَطِيطَتَه [٨] ، بذلك .

الوجه الرابع — مَنْعُ التفضيل فى حقّ النبوّة والرسالة [٩] ؛ فإن الأنبياء فيها [١٠] على حدٍّ واحدٍ ؛ إذ هى شىءٌ واحدٌ لا يَتَفاضَل ؛ وإنما التفاضُلُ فى زيادةِ الأحوالِ والخصوص ، والكرامات ، والرُّتَب ، والألطافِ [١١] ؛ وأما النبوةُ فى نفسها فلا تتفاضَلُ ؛ وإنما التفاضلُ بأمورٍ أُخَر زائدة عليها ؛ ولذلكَ منهم رسلٌ ، ومنهم أُولو عَزْمٍ [١٢] من الرسل ؛ ومنهم مَنْ رُفِعَ مكانا عليّـــا ؛ ومنهم مَنْ أُوتِىَ الحُكْم

---

(١) تنقص : وصفهم بما فيه نقص لهم وذم .

(٢) الغض منه : الغض : النقص والعيب .

(٣) أخبر عنه فى قوله تعالى : « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » .

(٤) من لا يعلم منه : من يونس وماقص من قصته .

(٥) غضاضة : نقص وحقارة يتوهمها من لا علم عنده .

(٦) سورة الصافات ، آية ١٤٠ . وأبق إلى الفلك المشحون : خرج إلى سفينة مملوءة بما فيها من الناس والمتاع . والإباق : هروب العبد من سيده ، أطلق على يونس إذ خرج بغير إذن ربه .

(٧) سورة الأنبياء ، آية ٨٧ : مغاضبا لقومه لما لم يجيبوا دعوته. لن نقدر عليه: لن نريد عقوبته.

(٨) حطيطته : نقصه ، ونزول مقامه عن مقام غيره من الرسل .

(٩) فى حق النبوة والرسالة نفسهما لا الأنبياء والرسل .

(١٠) فيها : فى النبوة .

(١١) الأحوال : العوارض الطارئة عليها. والخصوص : أى ماخص به بعضهم دون بعض. والألطاف : المطايا التى أعطاها الله بعضهم .

(١٢) العزم : القوة والشدة والتصميم على تنفيذ مايراه أولى به وبغيره .

صَبِيًّا[١] ؛ وأوتِيَ بعضُهم الزُّبُر ، وبعضُهم البيِّنات ؛ ومنهم مَنْ كلَّمَ اللهُ ؛ ورفع بعضَهم فَوْقَ بعضٍ درجاتٍ ؛ قال اللهُ تعالى[٢] : ﴿ ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيِّين على بعض وآتينا داودَ زَبُورا ﴾ .

وقال[٣] : ﴿ تلكَ الرسلُ فضَّلْنا بعضَهم على بَعْض ﴾ .

قال بعضُ أهلِ العِلْمِ : والتفضيلُ المرادُ لهم هنا فى الدنيا؛ وذلك بثلاثة أحوال: أن تكونَ آياتُه ومعجزاتُه أَبْهَرَ[٤] ، وأشهر ؛ أو تكونَ أمتُهُ أزْكَى[٥] وأكثر ؛ أو يكونَ فى ذاته أفضلَ وأظهر[٦] ، وفضلُه فى ذاته راجعٌ إلى ما خصَّهُ اللهُ به من كرامتِه ، واختصاصِه من كلامٍ أو خُلّةٍ أو رُؤْية أو ما شاء اللهُ من ألطافِه[٧] ، وتُحَفِ ولايته ، واختصاصِه .

وقد رُوِى[٨] أنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلم قال: إنّ للنبوّة أثقالًا[٩]؛ وإنّ يونس تفسَّخ منها تفسُّخَ الرُّبَع[١٠] ؛ فحفِظَ رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وسلم مَوْضِعَ الفِتْنةِ[١١] ،

---

(١) هو يحيى ، أو عيسى . (٢) سورة الإسراء ، آية ٥٥

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٥٣ (٤) أبهر : أقوى وأغلب .

(٥) أزكى : أنقى ، وأطهر . (٦) فى ا : وأظهر .

(٧) ألطافه : الألطاف : المطايا .

(٨) وهذا رواه ابن أبى حاتم، والحاكم فى مستدركه ـ وهو رجوع إلى تنزيه يونس عليه السلام عما ذكر من الأوهام .

(٩) أثقالا : أحمالا ثقيلة ، أى تكاليف مثقلة .

(١٠) تفسخ : أى تقطعت أعضاؤه ، وتفككت ، لعدم طاقته بحملها . أو انسلخ منها وتجرد عنها . والربع : الفصيل ؛ أى ولد الناقة الصغير الذى يولد فى الربيع. والمراد أنه لم يطق مشاقها ، ولم يصبر عليها .

(١١) موضع الفتنة : أى ما يقع الناس بسببه فى فتنة وأمر محذور ؛ من تنقيص الأنبياء عليهم السلام ، فحفظ رسول الله بنهيه عن التفضيل بينهم .

مِنْ أوهام مَنْ يسبقُ إليه بسببها حَرَجٌ فى نُبوّته[١] ، أو قَدْحٌ فى اصْطِفائه[٢] ، وحَطٌّ عن رُتْبته ، ووَهنٌ فى عصمته[٣] ، شفقةً منه صلّى اللهُ عليه وسلم على أُمّته[٤] .

وقد يتوجّهُ على هذا الترتيب[٥] ، وجْهٌ [٧٨] خامس ؛ وهو أن يكون « أنا » راجعا إلى القائل نَفْسِه؛ أى لا يظنُّ أحَدٌ ـ وإن بلغ من الذّكاء والعِصْمَةِ والطهارة[٦] ، ما بلغ ـ أنه خَيْرٌ من يونس ، لأجل ما حَكَى اللهُ عنه[٧] ؛ فإنّ درجــةَ النبوّةِ أفضلُ وأعْلَى ، وإنّ تلك الأقدارَ لم تحطّه[٨] ، عنها حبَّةَ خَرْدَل ولا أدْنَى .

وسنزيد فى القسم الثالث فى هذا بيانا إن شاء اللهُ تعالى .

فقد بان لكَ الغَرَضُ ، وسقط بما حرّرْناهُ شُبْهَةُ المُعْتَرِض ؛ [وبالله التوفيق ، وهو المستعانُ لا إله إلا هو][٩] .

---

(١) أى صانه مما يتوهم من يسبق إليه ـ بسبب الفتنة ، أو بسبب قصة يونس ـ حرج ؛ أى ذكر ما لا يليق بمقام النبوة مما يقتضى عدم العصمة .

(٢) قدح : القدح : ذكر المعايب والنقائص . والاصطفاء : الاختيار ، والتفضيل .

(٣) الحط : تنزيل له من علو مقامه . والوهن: الضعف. أى عد عصمته فيها ضعفا لما توهمه من ظاهر قصته السابقة ؛ فلذا نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيله عليه فضلا عن تنقيصه ؛ لتساويهم فى حقيقة النبوة وإن تفاوتت أحوالهم وصفاتهم .

(٤) خوفا أن يقع منهم مالا يليق بمقام النبوة ، فيكون منهم وزر يستحقون به سوء العاقبة بسخط الله تعالى وعقابه .

(٥) على هذا الترتيب : على ما رتبناه من الاختصاص بأمور أكرمه الله تعالى بها .

(٦) العصمة : الحفظ من الذنوب . والطهارة : البراءة من الأوزار .

(٧) ماحكى الله عنه : ما قصه فى قصته من لومه على تضجره وعدم صبره على قومه ، لتماديهم فى غيهم وعدم إجابتهم دعوته للإيمان .

(٨) الأقدار : جمع قدر ؛ أى ما قدره الله عليهم لحكمة باهرة . لم تحطه : لم تنزل يونس عن درجته .

(٩) ليس فى ا .

فصل

فى أسمائه[١] : صلى الله عليه وسلم ، وما تضمنته من فضيلته

حدثنا أبو عِمْران موسى بن أبى تَلِيد الفقيه ؛ قال: حدثنا أبو عُمَر[٢] الحافظ ، حدثنا سَعيد بن نصر ، حدثنا قاسم بن أَصْبَغ ، حدثنا محمد بن وَضَّاح ، حدثنا يحيى ، حدثنا مالك ، عن ابن شهاب ، عن محمد بن جُبير بن مُطْعِم ، عن أبيه ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : لى خمسةُ[٣] ، أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى، الذى يَمْحُو اللهُ بى الكفر[٤] ، وأنا الحاشِرُ الذى يُحْشَرُ الناسُ على قدمى[٥] ، وأنا العاقِبُ[٦] .

وقد سمّاه اللهُ تعالى فى كتابه محمدًا ، وأحمدَ[٧] .

---

(١) كان الفصل المتقدم فى فضائله ؛ ولما كانت أسماؤه صلى الله عليه وسلم دالة على فضائله أيضا ذكرها عقبه .

(٢) هو ابن عبد البر .

(٣) فى نسيم الرياض (٢ — ٤٠٧) : قال السيوطى فى كتاب الرياض الأنيقة فى أسماء خير الخليقة : إنه قبل أن يطلعه الله تعالى على بقية أسمائه . وقال المصنف فيما يأتى : قيل إنها موجودة فى الكتب القديمة وعن الأمم السالفة .

ورد بأن فيها أكثر ؛ فالحق أن مفهوم العدد غير معتبر ؛ فلا يفيد الحصر . وقيل : المراد خمسة سمانى بها ربى ، وباقيها أوصاف .

(٤) يمحو بى الكفر : يزيله ، وقيل : يمحو به سيئات من تبعه .

(٥) على قدمى : يحشرون على أثرى .

(٦) وأنا العاقب : وأنا الآتى عقب الأنبياء عليهم السلام . وفى صحيح مسلم : العاقب : الذى ليس بعده نبى. وحديث أسمائه فى صحيح مسلم: ١٨٢٨ ، وصحيح البخارى : ٤-٢٢٥

(٧) كتابه : هو القرآن . فقال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ؛ وقال : « يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

فمن خصائصه تعالى له أنْ ضَمَّنَ أسماءه ثناءه ؛ وَطَوَى[١] أثناءَ ذِكْرِه عظيم شُكْره .

فأما اسْمُه أحمد فأفعل مبالغةً مِنْ صفَةِ الحَمْد .

ومحمد : مفعَّلٌ ، مبالغة من كَثْرَة الحَمْد ؛ فهو – صلى اللهُ عليه وسلم – أجلُّ مَنْ حَمِد ، وأفضل مَنْ حُمِد ، وأكْثَرُ الناس حَمْدًا ؛ فهو أَحْمَدُ المحمودين ، وأَحْمَدُ الحامِدِين ، ومعه لِواء الحَمْدِ[٢] يوْمَ القيامة ليَتِمَّ له كمالُ الحمدِ ، ويَتَشَهَّر[٣] فى تلك العَرَصَاتِ[٤] بصفةِ الحمدِ ، ويبعثُه ربُّه هناك[٥] مقاما محمودا كما وعده[٦] ؛ يَحْمَدُهُ فيه الأوّلون والآخرون بشفاعتِه لهم ، ويُفَتح عليه فيه[٧] من المحامد – كما قال

---

(١) طوى : كتم وأخفى . والمراد أخفى داخل ذكر النبي ؛ أى فى أسمائه التى سماه بها شكره العظيم . وفى ب : فطوى .

(٢) اللواء : علم الجيش، وهو أكبر من الراية : أى إنه تحت أمره أو فى قبضته ، وهذا يحتمل أنه على حقيقته ؛ ليعلم أنه صلى الله عليه وسلم نال هذه المرتبة بتفوقه على كل مخلوق فى كونه حامدا محمودا . ومعنى لواء الحمد أنه لواء يتبعه كل حامد ومحمود ؛ ويعلم ذلك بإلهام الله ، أو بنداء الملائكة .

ويحتمل أنه تمثيل لشهرته صلى الله عليه وسلم فى أهل الموقف .

قال فى نسيم الرياض (٢ – ٤١٠) : وعدم التأويل أسلم .

وانظر الهامش السابق .

(٣) هذا الضبط فى ا . وفى ب : ضبط بفتح الياء ، وضمها ، وكتب عليه « معا » .

(٤) العرصات : جمع عرصة ؛ وعرصة الدار : ساحتها . والمراد أرض الموقف والمحشر .

(٥) هناك : فى العرصات .

(٦) كما وعده فى قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

(٧) فيه : فى ذلك المقام .

صلى الله عليه وسلم ـ مالم يُعْطَ غيرهُ ، وسَمَّى أُمَّتَه فى كتُب أنبيائه بالحمّادين[١] ؛ لحقيقٌ أن يسمَّى محمدا وأحمد[٢] .

ثم فى هذين الاسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته ـ فنٌّ[٣] آخر ؛ وهو أنَّ اللهَ جلَّ اسمُه حمى[٤] أن يسمَّى بهما أحَدٌ قبل زمَانه[٥] .

أمّا أحمدُ الذى أتَى فى الكُتب وبَشّرت به الأنبياء فمنع اللهُ تعالى بحكمته أنْ يُسمَّى به أحدٌ غيره ، ولا يُدْعَى[٦] به مَدْعوٌّ قَبْلَه حتى لايدخلَ لَبْسٌ على ضَعِيفِ القَلْب[٧] أو شَكّ .

وكذلك محمد أيضا لم يُسمَّ به أَحدٌ من العرَبِ ولا غيرهم إلى أنْ شاعَ قُبيلَ وجودِه صلى الله عليه وسلم وميلادِه أنْ نَبيًّا يُبْعثُ اسمُه محمد ؛ فسمَّى قومٌ قليلٌ من العرب أبناءَهم بذلك ؛ رجاءَ أن يكونَ أحدَهم هو. واللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رِسالاته؛ وهم : محمد بن أُحَيْحة بن الُجلاح الأَوْسى ، ومحمد بن مَسْلَمَة الأنصارىّ ، ومحمد

---

(١) بالحمادين : البالغين فى الحمد . كما فى حديث الدارمى عن كعب يحكى عن التوراة ؛ قال : نجد مكتوبا فيها : محمد رسول الله ، عبدى المختار ، لا فظ ولا غليظ . . . . . وأمته الحمادون يحمدون الله فى السراء والضراء ، يحمدون الله فى كل منزل ، ويكبرونه على كل شرف ، رعاة للشمس ، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها . . . . (شرح القارى : ١ – ٤٨٧) .

(٢) خليق : جدير ، وذلك لأنه إذا حمد بما لم يحمده غيره ، وحمده الأولون والآخرون ، وكثر حمد أمته كان جديرا بذلك .

(٣) فن آخر : نوع آخر ، غير ما تقدم .

(٤) حمى : منع ، وصان ، وحفظ .

(٥) ليعلم إذا سمى بهما أنه النبى الموعود به .

(٦) يدعى : يسمى .

(٧) لبس : التباس واشتباه ، لعدم تمييزه . وضعيف القلب : من لاعقل له تام ، ورأى صائب ونظر مفرق بين الحق والباطل ؛ فيتردد فى صدق مدعى النبوة بمجرد شىء سبق له .

ابن بَرَاء[١] البكرىّ ، ومحمد بن سُفْيان بن مُجاشع ، ومحمد بن حُمْران الجُعْفى ، ومحمد ابن خُزَاعىّ السُّلَمى ، لا سابعَ [٢] لهم .

ويقال: أول مَنْ تسمَّى بمحمد محمد بن سُفْيان. واليمنُ تقول: بل محمد بن اليَحْمَدِ [٣] من الأزد .

ثم حَمَى اللهُ كلَّ مَنْ تسمَّى به[٤] أنْ يدَّعِيَ النبوّةَ أو يدّعيَها أحدٌ له ، أو يظهر عليه سببٌ يشكِّكُ أحداً فى أمره[٥] حتى تحققت السِّمَتانِ[٦] له صلّى اللهُ عليه وسلم ، ولم ينازَعْ فيهما .

وأمّا قولُه صلى اللهُ عليه وسلم : وأنَا الماحى الذى يَمْحُو اللهُ بى الكُفْرَ ففُسِّر فى الحديث : ويكون مَحْوُ الكُفْرِ إمَّا مِنْ مكّة[٧] وبلادِ العربِ ؛ وما زُوِى [٨] له من الأرضِ ، ووُعِدَ أنه يبلغُه مُلْكُ أمته ؛ أو يكون المَحْوُ عامّا ، بمعنى الظُّهور والغَلَبة ؛ كما [٧٩] قال تعالى[٩] : ﴿ ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كلِّه ﴾ .

[وقد ورد تفسيرُه فى الحديث أنه الذى مُحِيت به سيئاتُ مِنَ اتَّبعه][١٠] .

---

(١) فى شرح القارى (١ — ٤٨٨) : محمد بن بداء — بباء موحدة ، فراء ممدودة . أو هو ابن بداء — بباء موحدة مفتوحة ، وتشديد دال مهملة بعدها ألف ممدودة .

(٢) قال فى نسيم الرياض (٢ — ٤١٤) : وفى سيرة مغلطاى زاد تسعة أو ثمانية . وسيأتى كلام فى هذا العدد بعد قليل .

(٣) ضبطت الميم فى ا بالفتح ، وفى ب : بالضم .

(٤) فى ا : من تسمى بمحمد . . .

(٥) أى شىء فى ذاته يكون سببا موقعا للناس فى شك أنه النبى الموعود .

(٦) السمتان : أى الصفتان اللتان هما المحمدية والأحمدية .

(٧) من مكة : بعد الفتح ؛ إذ أظهره الله تعالى عليهم ، ولم يبق بها منه عين ولا أثر .

(٨) زوى : جمع . (٩) سورة التوبة ، آية ٣٣

(١٠) ما بين القوسين كتب أمامه فى ا ، ب : من الأم ، من غير الرواية .

وروي هذا التفسير الذى ذكره المصنف للماحى — الحاكم فى مستدركه، وأبو نعيم، والبيهقى . =

وقوله : وأنا الحاشِرُ الذى يُحْشَرُ الناسُ علىقَدَمِى ؛ أى على زمَانِى[(١)] وعَهْدِى؛ أى ليس بَعْدِى نبىٌّ ، كما قال : وخاتَم النبيين .

وسُمِّى عاقِباً ؛ لأنه عَقَبَ[(٢)] غَيْرَه من الأنبياء .

[وفى الصحيح : أنا العاقِبُ الذى ليس بعدى نبىٌّ][(٣)] .

وقيل : معنى على قَدَمِى ؛ أى يُحْشَرُ الناسُ بمُشَاهدتى[(٤)] ؛ كما قال تعالى[(٥)] : ﴿ لتكونُوا شُهَدَاء على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا ﴾ .

[وقيل على قَدَمى : على سابِقَتى ؛ قال الله تعالى[(٦)] : ﴿ أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربِّهم ﴾ .

وقيل : على قَدَمى : أى قُدَّامى ، وحَوْلى ؛ أى يجتمعون إلىَّ يوم القيامة .

وقيل : على قدمِى : على سُنَّتِى][(٧)] .

ومعنى قوله : لى خمسةُ أسماء : قيل : إنها موجودةٌ فى الكُتُب المتقدمة ، وعند أُولى العِلْم من الأُمم السالفة ، [والله أعلم][(٨)] .

= وقال ابن حجر فى شرح الشمائل: معناه أن من آمن به صلى الله عليه وسلم يمحى ذنب كفره، وما عمله فيه ؛ قال الله تعالى : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » . وفى الحديث : الإسلام يجب ما قبله ؛ أى يهدم ما قبله . (نسيم الرياض : ٢ – ٤١٦).

(١) قال السيوطى : حشر الناس فى زمان نبوته ؛ لأن ملته باقية ، لاتنسخ ، وليس بعدها شرع آخر .

(٢) عقب غيره من الأنبياء: خلفهم فى الخير. أو العاقب: الآخر، يعنى أنه لانبى بعده. وسيأتى.

(٣) ما بين القوسين ليس فى ا ، وهو فى هامش ب ، وعليه علامة الصحة .

(٤) بمشاهدتى : أى بقربى ، ومعى ، بمرأى منى .

(٥) سورة البقرة ، آية ١٤٣ (٦) سورة يونس ، آية ٢

(٧) مابين القوسين ليس فى ب .

(٨) ليس فى ا .

وقد رُوى عنه صلى اللهُ عليه وسلم[١] : لى عشرةُ أسماء ، وذكَر منها : طه ، ويس ؛ حكاه مكّىّ .

وقد قيل فى بعض تفسير طه : إنه[٢] يا طاهر، يا هادى وفى يس : ياسيِّدُ ؛ حكاه السُّلَمى عن الواسطى ، وجَعْفر بن محمد .

وذكر غَيْرُه : لى عشرةُ أسماء ؛ فذكر الخمسةَ التى فى الحديث الأول ؛ قال[٣] : وأنا رسولُ الرحمةِ ، ورسولُ الراحةِ ، ورسولُ المَلَاحِمِ[٤] ، وأنا المُقْتَفِى ؛ قَفَّيْتُ[٥] النبيين .

وأنا قَيِّم ؛ والقيِّمُ : الجامعُ الكامِلُ[٦] ؛ كذا وجدتُه[٧] ، ولم أرْوِه[٨] .

وأرى أنّ صوابه قُثَم ـ بالثاء[٩] كما ذكرناه بَعْدُ عن الحربىّ ؛ وهو أشْبَه بالتفسير.

---

(١) فى حديث رواه أبو نعيم فى الدلائل (١-٦٨) ، وابن مردويه فى تفسيره ، من طريق أبى يحيى التيمى . قال القارى (١ - ٤٩٠) : وهو وضاع .

(٢) أى الطاء من كلمة « طاهر » ، والهاء من كله : « هادى » .

(٣) وهذا رواه البيهقى مسندا .

(٤) الملاحم : جمع ملحمة ؛ وهى الحرب والقتال ، سميت بذلك لالتحام الناس فيها ؛ أى ازدحامهم فيها ؛ لأنه ـ صلى الله عليه وسلم أرسل بالسيف ، وأمر بالجهاد .

(٥) قفيت : تبعت ، والمراد أنه خاتمهم .

(٦) أى الجامع لمكارم الأخلاق الكامل فيها. أو الجامع لشمل الناس بتأليفه بينهم وجمع شتاتهم ؛ لأن القيم يكون بمعنى السيد ، لقيامه بأمر الناس وأمر الدين .

(٧) كذا وجدته : أى تسميته صلى الله عليه وسلم بالقيم .

(٨) وقد رواه الديلمى فى مسند الفردوس ، وفى النهاية لابن الأثير حديث : أتانى ملك فقال : أنت قيم ، وخلقك قيم ؛ أى حسن مستقيم .

(٩) فى نسيم الرياض (٢ - ٤٢١) : فى اشتقاقه معنيان : أحدهما من القثم ؛ وهو الإعطاء ، فسمى رسول صلى الله عليه وسلم بذلك لجوده وعطائه . والثانى من القثم ؛ وهو الجمع ؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم جامعا للفضائل .

وقد وقع أيضا فى كتب الأنبياء؛ قال داود عليه السلام: اللهم ابْعَثْ لنا محمدا مُقِيمَ السنَّة بعد الفَتْرة[1]؛ فقد يكون القَيِّمُ بمعناه[2].

وروَى النقّاش عنه صلى الله عليه وسلم: لى فى القرآنِ سبعةُ أسماء: محمد، وأحمد، ويس، وطه، والمدثّر، والمزَّمّل، وعَبْد الله.

[وفى حديثٍ – عن جُبَير بن مُطْعِم رضى اللهُ عنه: هى[3] ستٌّ: محمد، وأحمد، وخاتم، وعاقِب، وحاشِر، وماحٍ[4]][5].

وفى حديث أبى موسى الأشعرى[6] – أنه كان صلّى اللهُ عليه وسلم يُسمِّى لنا نَفْسَه أسماء، فيقول: أنا محمد، وأحمد، والمُقَفِّى، ونَبِيّ التوبة، ونبيّ المَلْحَمة، ونبيّ الرحمة[7].

ويروى: المَرْحَمة، والراحة[8].

وكلٌّ صحيح إنْ شاء الله.

ومعنى المقَفّى معنى العاقِب[9].

---

(١) السنة: الطريقه الشرعية، والدين. والفترة: انقطاع الوحى والرسل، أو الفتور فى الطاعة. وضمير «نا» للناس.

(٢) بمعناه: أى بمعنى المقيم للسنة، أو بمعنى القيّم.

(٣) هى: أى أسماؤه.

(٤) سبقت معانيها: صفحة ٣١١، ٣١٥

(٥) ما بين القوسين ليس فى ا، وهو فى هامش ب، وعليه علامة الصحة.

(٦) الحديث فى صحيح مسلم: ١٨٢٨

(٧) فى ا: ونبى المرحمة والرحمة. والمثبت فى صحيح مسلم: ١٨٢٩

(٨) فى ب: ويروى: المرحمة، والراحة، والرحمة.

(٩) قال فى نسيم الرياض (٢– ٤٢٣): الأولى تفسير كل منهما بمعنى؛ هربا من التكرار؛ فمعنى المقفى: التابع لهدى النبيين وسننهم. والعاقب: الخاتم لباب النبوة والرسالة.

وأمّا نبيُّ الرحمة والتوبةِ ، والمَرْحمة والراحة ـ فقال تعالى [١] : ﴿ وما أرْسَلْنَاكَ إلّا رحمةً لِلعالَمِين ﴾ ، وكما وصفه بأنه يُزَكِّيهم [٢] ويُعَلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ . ويَهْدِيهم إلى صراط مستقيم [٣] . و ﴿ بالمؤمنين [٤] رَءوف رَحِيم ﴾ .

وقال فى صفةِ [٥] أمته : إنها أُمةٌ مرحومة [٦] .

وقال اللهُ تعالى فيهم [٧] : ﴿ وتواصَوْا بالصَّبْرِ وتواصَوْا بالمَرْحَمةِ ﴾ ؛ أى يرحمُ بعضُهم بعضا ؛ فبعثه ربُّه تعالى رحمةً لأمته ، ورحمةً للعالَمِين ، ورَحِيما بهم ، ومُتَرَحِّما ومستغفراً لهم ، وجعل أمتَه أُمةً مَرْحومة ، ووصفها بالرحمة .

وأمرها [٨] صلَّى اللهُ عليه وسلم بالتَرَاحُم ، وأثنى عليه ؛ فقال [٩] : إنَّ اللهَ يحبُّ من عباده الرُّحماءَ .

وقال [١٠] : الرَّاحِمُون يرحَمُهم الرحمن . ارحَمُوا مَنْ فى الأرضِ يرحمْكم [١١] مَنْ فى السماء .

وأما رواية نَبِيّ المَلْحَمة فإشارةٌ إلى مابُعِثَ به من القتال والسيفِ ـ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ وهى [١٢] صحيحة .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧

(٢) يزكيهم : يطهرهم من الأخلاق الذميمة والآثام المدنسة . والكتاب: القرآن . الحكمة: العلوم النافعة ، والعقائد الحقة ، وإصابة الحق قولا وفعلا .

(٣) يهديهم : يدلهم . الصراط المستقيم : الطريق الذى لا عوج فيه .

(٤) سورة التوبة ، آية ١٢٨ (٥) القائل هو الرسول .

(٦) مرحومة : فى الدنيا والآخرة ، فى الحياة والممات .

(٧) سورة البلد ، آية ١٧ (٨) وأمرها : أى أمر الأمة .

(٩) فى نسيم الرياض (٢ ـ ٤٢٤) : حديث صحيح مشهور . والحديث فى صحيح مسلم : ٦٣٦ ، وصحيح البخارى : ٢ ـ ٩٦ (١٠) سنن الترمذى : ٤ ـ ٣٢٤

(١١) ضبطت الميم فى « يرحمكم » بالضمة والسكون وكتب فوقها « معا » .

(١٢) أى الرواية .

ورَوَى حُذَيفةُ مِثلَ حديثِ أبى موسى ، وفيه : ونبىُّ الرّحمة ؛ ونبىّ التَّوْبة ، ونبىّ الملاحم .

وروَى [1] الحَرْبى فى حديثه صلّى اللهُ عليه وسلم أنه قال : أتانى مَلَكٌ فقال لى : أنْتَ قُثَم ؛ أى مُجْتَمِع [2] قال : والقُثَم : الجامعُ للخير ؛ وهذا اسمٌ هو فى أهل [3] بيته معلوم .

وقد جاءت من ألقابه - صلى اللهُ عليه وسلم وسِماته [4] فى القرآنِ عدّةٌ كثيرة سِوَى ما ذكرناه ؛ كالنُّور ، والسّرَاج المُنير [5] ، والمُنْذر ، والنّذِير [6] ، والمُبشِّر ، والبَشِير ، والشاهد ، والشهيد [7] ، والحقّ المُبين ، وخاتَم النّبِيين [8] ، والرءوف الرّحِيم ، والأمِين ، وقَدَم الصدق [٨٠] ، ورَحمة للعالمين [9] ، ونعمةِ اللهِ ، والعُروةِ الوثْقَى ، والصِّرَاطِ المستقيم [10] ، والنّجْمِ الثاقب ، والكريم ، والنبىّ الأمّىّ ،

---

(١) رواه أبو نعيم فى الدلائل ، عن يونس بن ميسرة . وفى هامش ب ، ا : وقيل هو مشتق من القثم ، وهو الإعطاء ، وكان عليه السلام أجود بالخير من الريح الهابة (من كشف المشكل لابن الجوزى) .   (٢) مجتمع : أى مجموع فيك كل كمال وخير .

(٣) أى سمى به غيره . وهو قثم بن العباس . وقثم عم النبى صلى الله عليه وسلم .

(٤) سماته : صفاته .

(٥) فى القرآن (المائدة : ١٥) : « قد جاءكم من الله نور » . وفيه (الفرقان : ٦١) : « وسراجا منيرا » .

(٦) قال تعالى : « إنما أنت منذر » . وقال تعالى : « إنى أنا النذير المبين » .

(٧) قال تعالى : « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » . وقال تعالى : « إنا أرسلناك شاهدا » . وقال : « يكون الرسول عليكم شهيدا » .

(٨) فى قوله تعالى : « حتى جاءهم الحق ، ورسول مبين » . وقال : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

(٩) قال تعالى : « مطاع ثم أمين » . وقال : «وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » . « وقال : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

(١٠) قال تعالى : « بدلوا نعمة الله كفرا » . وقال: « فقد استمسك بالعروة الوثقى » . وقال : « اهدنا الصراط المستقيم » .

ودَاعِي اللهِ[١] ـ في أوصافٍ كثيرةٍ ، وسِماتٍ جليلة[٢] .

وجرَى منها في كتُبِ اللهِ المتقدّمةِ ، وكتُبِ أنبيائه ، وأَحاديث رسولِه ، وإطلاقِ الأمة جملةٌ شافيةٌ ؛ كتسميته بالمُصْطَفَى ، والمُجْتَبى[٣] ، وأبى القاسم ، والحَبيب ، ورسولِ رَبِّ العالمين ، والشفيعِ المُشفَّعِ ، والمُتقِي ، والمُصْلِحِ ، والطاهِرِ ، والمُهَيْمِن ، والصادِقِ ، والمَصْدُوق ، والهادى ، وسيّدِ وَلَدِ آدم ، وسيّد المرسلين ، وإمامِ المتقين ، وقائدِ الغُرِّ المحجَّلين[٤] ، وحبيبِ اللهِ ، وخليلِ الرحمن ، وصاحبِ الحَوْضِ[٥] المورود ، والشفاعةِ ، والمقام المحمود ، وصاحب الوسيلةِ[٦] والفضيلة والدّرجةِ الرفيعة ، وصاحب التاجِ[٧] ، والمِعْراج ، واللواء ، والقضيب[٨] ، وراكبِ البُرَاقِ ، والناقةِ ، والنّجيب[٩] ، وصاحبِ الحجّةِ والسلطان ، والخاتَم ، والعلامةِ والبُرْهان ، وصاحبِ الهِرَاوةِ والنّعْلَيْن[١٠] .

---

(١) قال تعالى: « والنجم الثاقب » . وقال: « وبالنجم هم يهتدون» . وقال: « إنه لقول رسول كريم » . وقال: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمى» . وقال: «داعيا إلى الله بإذنه».

(٢) أى ورد ماذكر في القرآن والآثار من صفات أخر كثيرة أطلقت عليه كإطلاق الاسم على مسماه .

(٣) المجتبى : المختار .

(٤) الغر : جمع أغر ، مطلق بياض الوجه . والتحجيل : بياض في القوائم .

(٥) قال السيوطى : حديث الحوض مروى عن أكثر من خمسين صحابيا .

(٦) الوسيلة : السبب الموصل لأمر عظيم ، سمى به ؛ لأنه سبب لكل خير .

(٧) قيل المراد بالتاج هنا العمامة . والعمائم : تيجان العرب ، فكنى به عن أنه من صميم العرب وأشرفهم حسبا ونسبا .

(٨) صاحب اللواء : المراد : لواء الحمد الذى تقدم . أو اللواء الذى كان يعقده صلى الله عليه وسلم للحرب ، فهو كناية عن القتال . والقضيب: السيف ، كناية عن جهاده وكثرة قتاله .

(٩) راكب الناقة في حجة الوداع . والنجيب : الجمل ؛ كناية عن تواضعه . أو لهجرته عليه ، أو كونه من صميم العرب .

(١٠) والعلامة: علامة النبوة ، وهى الخاتم أيضا. الهراوة: العصا. قال ابن الأثير: سمى بذلك لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يمسك بيده القضيب ، ويمشى بالعصا بين يديه، وتغرز له ليصلى إليها.

ومِنْ أسمائه فى الكُتب [١] : المتوكِّلُ ، والمختـــار [٢] ، ومُقيم السنّة [٣] ، والمُقَدَّس [٤] ، [ورُوح القُدُسِ] [٥] ، ورُوح الحق؛ وهو معنى البارَقْلِيط فى الإنجيل .

وقال ثعلب : البارَقْلِيط : الذى يفرِقُ بين الحقّ والباطل [٦] .

ومن أسمائه فى الكتب السالفةِ : ماذْ ماذْ [٧] ؛ ومعنـــاه طَيِّب ، طَيِّب ، وحَمّطايا [٨] ، والخاتم ، والحَاتِم [٩] ؛ حكاه كعب الأحبار .

قال ثعلب : فالخاتِمُ الذى خَتَمَ [الله به] [١٠] الأنبياء . والحاتِم : أَحسنُ الأنبياء خَلْقاً وخُلُقاً .

---

(١) فى الكتب : أى الكتب الإلهية المنزلة على من قبله من الأنبياء .

(٢) سمى بهما فى التوراة . (٣) سمى به فى التوراة والزبور .

(٤) المقدس : المطهر المنقى من دنس الذنوب ، أو المفضل على غيره .

(٥) وروح القدس : الروح المقدسة المطهرة من النقائص . وما بين القوسين ليس فى ا .

(٦) قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٤٣٨) : الذى عليه أصحاب الإنجيل أن معناه المخلص. وهذا الضبط فى ا ، ب . وفى شرح القارى (١ ـ ٤٩٦) : البارقليط ـ بالباء الموحدة وبفتح الراء وتكسر وبسكون القاف ، وقد تسكن الراء وتفتح القاف ، وتكسر اللام ، بعدها ياء مثناة ساكنة فطاء مهملة . وروى بالفاء الفصيحة وبالباء غير صافية .

(٧) فى ب : بالذال المعجمة ، والدال المهملة ، وعليها « معا » .

(٨) فى نسيم الرياض (٢ ـ ٤٣٩) : هذا وما قبله رواه أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس . قال : ومعناه : يمنع من الحرام ، ويحمى الحرم ؛ أى يمنع ما كان فى الجاهلية من الأنكحة وغيرها من المحرمات . وقد ضبطت الحاء فى ا بالكسرة . وضبطت فى ب : بالفتحة . وفى شرح القارى (١ ـ ٤٩٧) تسكن الميم وتشدد .

(٩) قال فى نسيم الرياض : الظاهر أنه من الحتم ؛ وهو الإحكام؛ لإحكام القضاء والأحكام. والحاتم : القاضى ـ كما فى الصحاح .

(١٠) ليس فى ا .

ويسمّى بالسريانية : مُشَفَّح [١] والمُنْحَمِنّا [٢] ؛ واسمُه فى التوراة أُحَيْد [٣] ـ رُوِى ذلك عن ابْنِ سِيرِين .

ومعنى صاحب القضيب ؛ أى السيف ؛ وقع ذلك مفسّرا فى الإنجيل ؛ قال : معه قَضِيب مِنْ حَدِيد يقاتِلُ به ، وأُمّتُه كذلك .

وقد يحمَلُ على أنه القضيب الممشوق [٤] الذى كان يُمْسِكُه صلى اللهُ عليه وسلم ؛ وهو الآن عند الخلفاء [٥] .

وأمّا الهِرَاوة التى وُصِفَ بها فهى فى اللغة العَصَا ؛ وأُراها ـ واللهُ أعلم ـ العصا المذكورة فى حديث الحَوْضِ [٦] : أذودُ الناسَ عنه بعَصَاى ـ لأهل اليمن .

وأمّا التاجُ فالمرادُ به العِمَامةُ ، ولم تكن حينئذٍ إلّا للعرب ؛ والعمائمُ تيجانُ العرب .

وأوصافُه ، وألقــابُه ، وسِمَاتُه فى الكتب كثيرة ؛ وفيما ذكرناهُ منها مَقْنع إن شاء الله .

[وكانت كُنْيَتَه المشهورةُ أبا القاسم .

ورُوى [٧] عن أنَس أنه لمّا وُلِدَ له إبراهيم جاءه جبريلُ فقال له : السلام عليكَ يا أبا إبراهيمَ] [٨] .

---

(١) سمى به فى كتاب شعيا . وقيل معناه محمد . وهذا الضبط فى ب . وفى ا بالقاف .

(٢) قيل معناه : محمد . وقيل : روح القدس . وهذا الضبط فى ب . وفى ا ضبطت الميم بالفتحة .

(٣) هذا الضبط فى ب . وفى ا : بفتح الهمزة وكسر الحاء المهملة .

(٤) ممشوق : طويل دقيق . (٥) عند الخلفاء : يمسكونه تبركا به .

(٦) صحيح مسلم : ١٧٩٩ ، وأذود : أدفع ، وأطرد . لأهل اليمن ؛ أى لأجلهم حتى يتقدموا . (٧) كما روى فى مسند أحمد ، والبيهقى .

(٨) فى هامش ا ، ب : من الأم بخطه ، من غير الرواية .

فصـــل

فى تشريف الله تعالى له بما سمّاه من أسمائه الحسنى ووصفه به من صفاته العُـــلَا

قال القاضى أبو الفضل[١] وفقه الله تعالى: ماأحرى هذا الفصلَ[٢] بفصولِ الباب الأول؛ لانخراطه[٣] فى سِلْك مضمونها، وامتزاجه بعَذْب مَعِينها[٤]؛ لـكن لم يشْرح اللهُ الصَّدْرَ للهداية[٥] إلى استِنْبَاطه، ولا أنارَ الفِـكْرَ لاستخراج جَوْهره والْتِقاطه إلا عند الْخوْضِ فى الفصل الذى قبله؛ فرأينا أن نُضِيفَه إليه، ونَجْمَع به شَمْلَه[٦].

فاعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى خَصَّ كثيرا من الأنبياء بكرامةٍ خَلَعها عليهم[٧] مِنْ أسمائه؛ كتَسْمية إسحاق، وإسماعيل بعليم، وحليم[٨]؛ وإبراهيم بحليم[٩]، ونوحٍ بشَكُور[١٠]، وعيسى ويحيى بِبَرّ[١١] وموسى بكريم، وقوىّ[١٢]؛ ويوسف بحفيظ عَليم[١٣]؛

---

(١) هو المصنف.

(٢) وهو المعقود لثناء الله عليه، وإظهار عظيم قدرته. أحرى: أحق وأولى.

(٣) لانخراطه: أى لدخوله، وانضمامه.

(٤) امتزاجه: اختلاطه. والمعين: الجارى. يريد بحلو مائها.

(٥) أى لم يفتح الله عليه به أولا بإخراجه فى محله.

(٦) نجمع به شمله: أى نضمه إليه.

(٧) بكرامة: بأمر أكرمه وشرفه بها. والأصل فى الخلعة أنها ثوب يلقيه الملك على من يكرمه أو يوليه ولاية، وشاع فى عرف الـكتاب تسمية الخلعة تشريفا. يريد ألقاها عليهم.

(٨) فى قوله تعالى: «وبشروه بغلام عليم» ـ يعنى إسحاق. وقوله تعالى: «فبشرناه بغلام حليم» ـ يعنى إسماعيل. (٩) فى قوله تعالى: «إن إبراهيم لأواه حليم».

(١٠) فى قوله تعالى: «ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبدا شكورا».

(١١) فى قوله تعالى: «وبرا بوالديه». «وبرا بوالدتى».

(١٢) فى قوله تعالى: «وقد جاءهم رسول كريم». وقوله: «إن خير من استأجرت القوى الأمين». (١٣) فى قوله تعالى: «اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم».

وأيوب بصابِرٍ [١] ؛ وإسماعيل بِصادقِ الوَعد [٢] ؛ كما نطق بذلك [٨١] الكتابُ العزيز من مَوَاضِعِ ذِكْرِهم [٣] .

وفَضّل نبيَّنا محمداً صلّى اللهُ عليه وسلم : بأنْ حَلّاهُ منها فى كتابه العزيز ، وعلى ألسنةِ أنبيائه بِعدّةٍ كثيرة اجتمع لنا منها جملةٌ بعد إعمال الفِكْر ، وإحضار [٤] الذِّكْرِ ، إذْ لم نَجِدْ مَنْ جمع منها فوق اسمَيْنِ ، ولا مَنْ تفرّغَ فيها لتأليف فَصْلين .

وحرّرْنا منها فى هذا الفصل نَحْوَ ثلاثين اسماً ؛ ولعلّ اللهَ تعالى ـ كما أَلْهَم [٥] إلى ما عَلَّم منها وحقّقه ـ يُتِمُّ النعمةَ بإبانةِ [٦] ما لم يُظْهِرهُ لنا الآن ، ويَفتَحَ غَلَقَه [٧] .

فمن أسمائه تعالى : الحميد ؛ ومعناه المحمود ؛ لأنه حَمِدَ نفسه ، وحَمِده عبادُه ، ويكون أيضا بمعنى الحامدِ لِنفسه ولِأعمال الطاعات :

وسَمّى اللهُ تعالى النبيَّ صلى الله عليه وسلم محمدا، وأحمد ؛ فمحمّد بمعنى محمود ، وكذا وقع اسْمُه فى زَبُورِ داود .

وأحمد بمعنى أكبر من حَمِد ؛ وأجلّ من حُمِد [٨] ؛ وأشار إلى نحو هذا حسان بقوله [٩] :

---

(١) فى قوله تعالى : « إنا وجدناه صابرا نعم العبد » .

(٢) فى قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد » . وذلك لشهرته بوفاء ما وعد به من صبره على الذبح .

(٣) من مواضع ذكرهم : أى مستفادا من مواضع ذكرهم . وفى ب : فى مواضع . . .

(٤) بعد أن اجتهد فى جمعها ، وبذل فيها جهده وطاقته .

(٥) ألهم : يريد أرشد وهدى .

(٦) إبانة : إظهار . (٧) غلقه : ماينغلق ويقفل به .

(٨) فى ا بتشديد الميم المكسورة . وفى ب بكسر الميم غير المشددة .

(٩) هو حسان بن ثابت ، والبيت من قصيدة له يمدح بها النبى صلى الله عليه وسلم . فى ديوانه : ٧٨

وشقّ له مِنْ إسْمِـــــهِ لِيُجِلَّه ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ[(١)]

ومن أسمائه تعالى : الرءوف الرحيم ؛ وهما بمعنى متقارِب .

وقد سمّاه فى كتابه بذلك ؛ فقال[(٢)] : ﴿ بالمؤمنين رَءوفٌ رَحِيم ﴾ .

ومن أسمائه تعالى الحقّ المُبين . ومعنى الحقّ : الموجود ، والمتحقّق أمْرُه[(٣)] ، وكذلك المُبين ؛ أى البيّن[(٤)] أمره وإلٰهيّته .

بان ، وأبان بمعنى واحد . ويكون بمعنى المُبيّن لعباده أمْرَ دِينِهم ومَعَادهم[(٥)] .

وسَمّى النبيَّ ــ صلّى اللهُ عليه وسلم بذلك فى كتابه ؛ فقال[(٦)] : ﴿ حتى جاءهم الحقّ ورسولٌ مُبِين ﴾ . وقال تعالى[(٧)] : ﴿ وقُل إنّى أنا النّذِيرُ المُبين ﴾ . وقال تعالى[(٨)] : ﴿ قد جاءكم الحقُّ من ربكم ﴾ . وقال[(٩)] : ﴿ فقد كذّبوا بالحقّ لما جاءهُم ﴾ ؛ قيل : محمدٌ . وقيل القرآن . ومعناهُ هنا ضِدُّ الباطلِ ، والمتحقّقُ صِدْقُه وأمْرُه ــ وهو بمعنى الأوّل .

والمُبين : البَيِّنُ أَمْرُهُ ورسالتُه ، أو المُبَيِّن عن الله ما بعثَه به ؛ كما قال تعالى[(١٠)] : ﴿ لِتُبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ﴾ .

---

(١) فى شرح ديوان حسان : هذا البيت ليس من قول حسان ، وإنما هو لأبى طالب ، ضمنه حسان شعره . وفى نسيم الرياض (٢ ـ ٤٤٧) : والبيت المذكور رواه البخارى فى تاريخه ، وعزاه لأبى طالب ؛ وهو منقول عن على بن زيد ؛ لحسان رضى الله تعالى عنه توارد معه ، أو ضمنه ، واستعان به .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٨

(٣) أى المتصف بالوجود الأزلى الأبدى . والمتحقق بمعنى المتيقن وجوده لثبوته بالبراهين القاطعة .

(٤) البين : الظاهر .

(٥) معادهم : فى الآخرة .

(٦) سورة الزخرف ، آية ٢٩

(٧) سورة الحجر ، آية ٨٩

(٨) سورة يونس ، آية ١٠٨

(٩) سورة الأنعام ، آية ٥

(١٠) سورة النحل ، آية ٤٤

ومن أسمائه تعالى : النّور ؛ ومعناه ذو النّور ، أى خالقه ، أو مُنَوِّر السموات والأرض بالأنوار[١] ، ومُنَوِّر قلوبِ المؤمنين بالهداية .

وسمّاه نورا ؛ فقال[٢] : ﴿ قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مُبين ﴾ ؛ قيل محمد . وقيل القرآن .

وقال فيه[٣] : « وسِرَاجاً مُنِيرا » ؛ سُمِّى بذلك لوُضوحِ أمْرِه ، وبيان نبوّته ، وتَنْوِيرِ قلوبِ المؤمنين والعارفين بما جاء به .

ومن أسمائه تعالى : الشّهيد ؛ ومعناه العالِم[٤] . وقيل : الشاهِدُ على عباده يومَ القيامة .

وسمّاه شهيداً وشاهدا ؛ فقال[٥] : ﴿ إنّا أرْسَلْنَاكَ شاهِدا ﴾ . وقال تعالى[٦] : ﴿ ويكونَ الرسولُ عليكم شَهِيدا ﴾ ؛ وهو بمعنى الأوّل[٧] .

ومن أسمائه تعالى : الكريم ؛ ومعناه الكثير الخَيْر . وقيل : المُفْضِل[٨] . وقيل: العَفُوّ[٩] وقيل : العَلِيّ .

وفى الحديث المَرْوِىّ[١٠] فى أسمائه تعالى : الأكرم[١١] .

---

(١) بالأنوار الفائضة عليها بواسطة الكواكب .

(٢) سورة المائدة ، آية ١٥ (٣) سورة الأحزاب ، آية ٤٦

(٤) لأن من شاهد شيئا علمه علما تاما .

(٥) سورة الأحزاب ، آية ٤٥ ، وسورة الفتح ، آية ٨

(٦) سورة البقرة ، آية ١٤٣ (٧) بمعنى الأول : أى الشاهد .

(٨) المفضل : الذى يعطى عفوا بغير وسيلة وسؤال .

(٩) العفو : الذى يعفو عن السيئات ويمحوها .

(١٠) الذى رواه ابن ماجه فى سننه (١٢٧٠) فيه : الكريم . وقد جاء فى القرآن الكريم : « اقرأ وربك الأكرم » .

(١١) الأكرم : الزائد على غيره فى صفة الكرم .

وسمّاه تعالى كريما بقـــوله[(١)] : ﴿ إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ؛ قيل : محمد . وقيل : جبريل .

وقال صلّى اللهُ عليه وسلم : أنا أكرمُ ولدِ آدمَ .

ومعانى الاسْمِ صحيحةٌ[(٢)] فى حقّه صلى اللهُ عليه وسلم .

ومن أسمائه تعالى : العظيمُ ؛ ومعناهُ الجليلُ الشّأنِ ، الذى كلُّ شىء دونَه[(٣)] .

وقال فى النبى صلى اللهُ عليه وسلم[(٤)] : ﴿ وإنكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ووقع فى أَوّل سِفْرٍ[(٥)] من التّوْرَاة ـ عن إسماعيل : وستلِدُ عظيما لأُمةٍ [٨٢] عظيمة؛ فهو عظيمٌ وعلى خُلق عظيم .

ومن أَسمائه تعالى : الجبّار ، ومعناه المُصْلِح ، وقيل القاهر . وقيل العَلِيّ العظيمُ الشّأنِ . وقيل المتـكبّر .

وسُمِّى النبىُّ ـ صلّى اللهُ عليه وسلم فى كتاب داود[(٦)] بجَبّارٍ ؛ فقـــال[(٧)] : تَقَلَّدْ[(٨)] أيُّها الجبّار سَيْفَكَ ؛ فإنّ نَامُوسك[(٩)] وشرائعَك مقرونةٌ بهَيْبَةِ يمينكِ[(١٠)] .

---

(١) سورة الحاقة ، آية ٤٠ ، والتـكوير ، آية ١٩

(٢) صحيحة لاتصافه بغاية الـكرم .

(٣) دونه : قاصر عن بلوغ رتبته إذ لا كمال يدنو من كماله فى ذاته وصفاته .

(٤) سورة القلم ، آية ٤

(٥) سفر : كتاب . عن إسماعيل : أى سفر يصدر عن إسماعيل عليه السلام، أو المراد : فى حق إسماعيل . (٦) كتاب داود : أى الصحف الإلهية المنزلة عليه .

(٧) فقال: أى الله تعالى مخاطبا له صلى الله عليه وسلم لتنزيله منزلة للوجود لتحققه فى علمه.

(٨) تقلد السيف : إذا جعل حمائله على عاتقه وحمله كالقلادة . وفيه إشارة إلى أنه سيؤمر بالقتال .

(٩) ناموسك : الوحى المنزل عليك ؛ أو عظمتك فى قلوب الناس . وأصل معنى الناموس صاحب السر المطلع على باطن أمرك .

(١٠) بهيبة يمينك : أى بالخوف من سيفك .

ومعناه[١] فى حقّ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم : إمّا لإصلاحهِ الأمة بالهداية والتعليم ، أو لِقَهْرِهِ أعداءه ، أو لعلوّ مَنْزِلته على البَشَر ، وعظيمِ خَطَرِه[٢] .

ونفى عنه تعالى ـ فى القرآن ـ جَبْرِيَّةَ التكبُّر التى لا تَلِيقُ به ؛ فقال[٣] : ﴿ وما أنتَ عليهم بجبّار ﴾ .

ومِنْ أسمائه ـ تعالى : الخَبِير ؛ ومعناه المُطّلِع بكُنْهِ الشىء[٤] ، العالِم بحقيقته . وقيل معناه المُخْبِر[٥] .

وقال الله تعالى[٦] : ﴿ الرحمنُ فاسأَلْ به خَبِيرا ﴾ .

قال القاضى بَكْر بن العَلَاء : المأمورُ بالسؤال غَيْرُ النبيّ صلى الله عليه وسلم . والمسئول الخبيرُ هو النبيُّ صلّى الله عليه وسلم .

وقال غيره : بل السائل النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم . والمسئولُ هو اللهُ تعالى ؛ فالنبيُّ خبيرٌ بالوَجْهين المذكورين[٧] ؛ قيل : لأنه عالمٌ على غايةٍ مِنَ العِلْمِ بما أعلمه اللهُ مِن مكنونِ عِلْمه ، وعظيمِ مَعْرِفته ، مُخْبر لأُمّته بما أُذِن له فى إعلامهم به .

ومن أسمائه تعالى : الفتّاح ؛ ومعناه الحاكم بين عِبَادِه ، أو فاتح أبواب[٨]

---

(١) ومعناه : معنى الجبار . (٢) خطره : شرفه وقدره .

(٣) سورة ق ، آية ٤٥

(٤) المطلع بكنه الشىء : الواقف على حقائق الأشياء .

(٥) المخبر أنبياءه ورسله بكلامه المنزل عليهم . أو المخبر عباده يوم القيامة بأعمالهم ؛ فإنه لايعزب عن علمه شىء .

(٦) سورة الفرقان ، آية ٥٩

(٧) أما على الوجه الأول فظاهر لإطلاقه عليه ، ولأنه لو لم يكن خبيرا لم يأمر بسؤاله . وأما على الثانى فلأنّ إذنه له فى السؤال دال على إعلامه به .

(٨) بتيسير أرزاقهم لهم وتهيئة أسبابها وفتح أقفال موانعها . والرحمة : الإنعام ؛ أى المنعم عليهم ، الرازق لهم .

الرِّزقِ والرحمة ، والمُنغَلق من أمورِهم عليهم[1] ؛ أو يَفتَحُ قلوبَهم وبَصائرَهم لمعرفة الحقّ ؛ ويكون أيضا بمعنى الناصر ؛ كقوله تعالى[2] : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فقد جاءكم الفَتْح﴾ ؛ أى إن تَستَنصِروا فقد جاءكم النَّصْر ؛ وقيل : معناه مُبتَدِئ الفَتْح والنَّصْر .

وسَمَّى اللهُ تعالى نبيَّه محمدا صلى اللهُ عليه وسلم بالفاتح فى حديث الإسراء الطويل ـ من رواية الربيع بن أنس ، عن أبى العالية وغيره ، عن أبى هريرة رضى اللهُ عنه ؛ وفيه[3] : من قول الله تعالى : وجعلتُك فاتِحا وخاتِما[4] .

وفيه[3] ـ من قول النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلم فى ثنائه على رَبّه ، وتَعْديد مَرَاتبه[5] : ورَفَع لى[6] ذِكْرِى ، وجعلنى فاتِحا وخاتِماً ؛ فيكونُ الفاتحُ هنــا بمعنى الحاكم ، أو[7] الفاتِح لأبواب الرحمــةِ على أمته ، أو[7] الفاتح لبصائرهم لمعْرفة الحقّ والإيمان بالله ؛ أو الناصِر للحق ، أو المُبْتدِئ بهدايةِ الأُمةِ ، أو المُبدَّأ المُقدَّم فى الأنبياء والخاتِم لهم ؛ كما قال صلى اللهُ عليه وسلم : كنتُ أوَّلَ الأنبياء فى الخَلْق ، وآخِرَهم فى البعْث .

ومن أسمائه تعالى[8] فى الحديث[9] : الشَّكُور ؛ ومعناه[10] المُثيبُ على العَمِل

---

(١) فاتح المنغلق ، أى ميسر كل صعب ومسهله . (٢) سورة الأنفال ، آية ١٩
(٣) وفيه : أى فى حديث الإسراء ـ وقد تقدم هذا الحديث صفحة ٢٤٠
(٤) أى أول الأنبياء وخاتمهم .
(٥) وتعديد مراتبه : أى مقاماته بين يدى ربه .
(٦) رفع لى ذكرى : بجعله قرينا لذكره ـ كما تقدم . (٧) فى ا : والفاتح .
(٨) فى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى وغيره عن أبى هريرة فى تعداد الأسماء الحسنى (سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٣٠ ، وصحيح مسلم : ٥٠٦٢) .
(٩) وذلك فى قوله تعالى : « إن ربنا لغفور شكور » .
(١٠) ومعناه : أى فى حق الله تعالى .

القَلِيل . وقيل المُثْنِي على المُطِيعين[١] ؛ ووصف بذلكَ نبيَّه نوحا عليه السلام فقال[٢] : ﴿ إنه كان عَبْداً شَكُورا ﴾ .

وقد وصف النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم نَفْسَه بذلك ؛ فقال[٣] : أَفَلَا أكونُ عَبْداً شَكُورا ؛ أى مُعْتَرِفا بنَعِيم رَبِّى ، عارفا بقَدْرِ ذلك ، مُثْنِيا عليه ، مُجْهِدا[٤] نَفْسِى فى الزيادة من ذلك ؛ لقوله تعالى[٥] : ﴿ لئن شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكم ﴾ .

ومن أسمائه تعالى : العَلِيم ، والعَلَّام . وعالِمُ الغَيْبِ والشهادةِ[٦] .

ووصف نبيّه صلى اللهُ عليه وسلم بالعِلْم ؛ وخَصَّه بمَزِيَّةٍ[٧] منه ؛ فقال تعالى[٨] : ﴿ وعلّمَكَ مالم تَكُنْ تعلَمُ ، وكان فَضْلُ اللهِ عليك عظيما ﴾ . وقال[٩] : ﴿ وَيُعَلِّمُكم الكتابَ والحِكْمَةَ ويُعَلِّمكم مالم تكونوا تَعْلَمُون ﴾ .

ومن أسمائه تعالى : الأَوّل ، والآخِرُ ؛ ومعناهما السابقُ [٨٣] للأشياء قبل وجودِها ، والباقى بعد فنَائها .

وتحقيقُه أنه ليس له أوّل ولا آخِر[١٠] .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم: كنتُ أولَ الأنبياء فى الخَلْق[١١] ؛ وآخِرَهم فى البَعْث ؛

---

(١) قال فى نسيم الرياض (٢ — ٤٥٦) : وهذا أنسب بمعنى الشكر الحقيقى وأقرب .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٣ (٣) والحديث فى صحيح البخارى : ٦ — ١٦٩

(٤) مجهدا نفسى : باذلا جهدى وطاقتى ومتعبا نفسى . (٥) سورة إبراهيم ، آية ٧

(٦) عالم الغيب والشهادة : أحاط علمه بكل شىء مما غاب وخفى ، وما حضر وظهر ، ودق وجل .

(٧) مزية : فضيلة . (٨) سورة النساء ، آية ١١٣ (٩) سورة البقرة ، آية ١٥١

(١٠) ولا ابتداء ولا انتهاء ؛ فلا سابق عليه ، ولا باقى عنده .

(١١) يعنى فى عالم الذر والأرواح ؛ خلقت روحه ، ونبى قبلهم . والحديث فى ابن كثير : ٦ — ٣٨٣ ، وأخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن الحسن بن سفيان ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، وأبى نعيم فى الدلائل ، والديلمى .

وفُسِّر بهذا قوله تعالى(١) : ﴿ وإذ أَخَذْنا من النبيِّين ميثاقَهم(٢) ومنْكَ ومِنْ نوحٍ ﴾ ؛ فقدّم محمداً صلى اللهُ عليه وسلم(٣) .

وقد أشار إلى نَحْوٍ منه عُمَرُ بن الخطّاب(٤) رضِيَ اللهُ عنه .

ومنه قولُه : نحن الآخِرون السابقون .

وقوله(٥) : أنا أوّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الأرضُ ، وأولُ مَنْ يدخلُ الجنةَ ، وأول شافع ، وأول مُشَفَّع ؛ وهو خاتَم النبيِّين ، وآخِرُ الرُّسل صلّى اللهُ عليه وسلم .

ومن أسمائه تعالى : القَوِيُّ . وذو القُوَّةِ المَتِين(٦) ؛ ومعناه : القادر .

وقد وصفه اللهُ تعالى بذلك ؛ فقال(٧) : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عند ذِي العَرْشِ مَكِين ﴾ ؛ قيل محمد . وقيل جبريل .

ومن أسمائه تعالى : الصادق ، في الحديث المأثور(٨) .

ووردَ في الحديث أيضا اسْمُه صلّى اللهُ عليه وسلم بالصادق المصدوق(٨) .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٧

(٢) الميثاق : هو أن يؤمنوا بالله ويوحدوه .

(٣) قال في نسيم الرياض (٢ – ٤٥٨) : قدم محمدا في الذكر لتقدمه في الخلق ، بل والبعث ؛ وهذا التفسير رواه قتادة عن الحسن ، عن أبي هريرة رضى الله عنه ؛ قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل : وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم . . .
فقال : كنت أولهم في الخلق ، وآخرهم في البعث .

(٤) في قوله – كما تقدم : لما بكى على النبي صلى الله عليه وسلم إذ توفى : بأبي أنت وأمي يارسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك أولهم، فقال : وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح . . .

(٥) سنن الترمذي : ٥ – ٣٠٨ ، ٥٨٧

(٦) سورة الذاريات ، آية ٥٨ (٧) سورة التكوير ، آية ٢٠

(٨) المصدوق : المصدق بما جاء به . في الحديث المأثور المروى بسند صحيح – كما رواه ابن ماجه ١٢٧٠ ، وقد تقدم .

ومن أسمائه تعالى : الوَلِيّ ، والمَوْلَى ؛ ومعناهما الناصِرُ ؛ وقدقال الله تعالى[١] : ﴿ إنَّما وَلِيُّكم اللهُ ورَسُولُه ﴾ .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[٢] : أنا وَلِيُّ كلِّ مُؤْمِن .

وقال الله تعالى[٣] : ﴿ النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفُسِهم[٤] ﴾ .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[٥] : مَنْ كنتُ مَوْلاه فعَلِيٌّ مَوْلاه[٦] .

ومن أسمائه تعالى : العَفُوُّ[٧] ؛ ومعناه الصَّفُوح .

وقد وصف اللهُ تعالى بهذا نَبِيَّه فى القرآنِ ، والتوراة ، وأَمره بالعَفْوِ ؛ فقال تعالى[٨] : ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ .

وقال[٩] : ﴿ فاعْفُ عنهم واصْفَحْ ﴾ .

وقال له جبريلُ — وقد سأله عن قوله[٨] : ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ ؛ قال[١٠] : أَنْ تَعْفُو عمَّن ظلَمَكَ .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٥٥

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة ، ورواه أحمد ، وأبو داود : أنا أولى بكل مؤمن . وفى البخارى أيضا : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلى قضاؤه . والحديث فى صحيح البخارى : ٦ — ١٤٥

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٦

(٤) أى أحق بهم من أنفسهم ؛ فإنه يتولى صلاحهم، وينصرهم، ويقضى ديونهم، ويخلصهم مما يكرهون فى الدنيا والآخرة .

(٥) فى حديث رواه الترمذى وحسنه (سنن الترمذى : ٥ — ٦٣٣) .

(٦) المراد ولاء الإسلام ونصرته .

(٧) العفو : مبالغة فى العفو عن السيئات ، وهو محوها وإزالتها .

(٨) سورة الأعراف ، آية ١٩٩ (٩) سورة المائدة ، آية ١٣

(١٠) هذا التفسير على غير رأى الأكثرين من المفسرين ؛ فهم يرون أن معنى العفو : المال الفاضل عن نفقة العيال .

وقال ـ فى التوراة والإنجيـــل فى الحديث المشهور[١] ، فى صِفَته : ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظ ، ولـكن يَعْفُو ويَصْفَح .

ومن أسمائه تعالى: الهادى ؛ وهو بمعنى توفيقِ اللهِ لمَنْ أراد مِنْ عباده، وبمعنى الدّلالةِ والدُّعاء[٢] . قال اللهُ تعالى[٣] : ﴿ واللهُ يَدْعو إلى دَارِ السَّلامِ ويَهْدِى مَنْ يشاء إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾[٤]. وأصْلِ الجميعِ[٥] مِنَ المَيْل[٦] . وقيل : من التقديم .

وقيل فى تفسير ﴿ طه ﴾ إنه يا طاهر ، يا هادى[٧] ؛ يعنى النبى صلى اللهُ عليه وسلم.

وقال الله تعالى له[٨] : ﴿ وإنكَ لتَهْدِى إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

وقال فيه[٩] : ﴿ وداعِياً إلى اللهِ بإذنه ﴾ .

فاللهُ تعالى مختصٌّ بالمعنى الأول[١٠] ؛ قال تعالى[١١] : ﴿ إنكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ، ولـكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يشاء ﴾ .

وبمعنى الدلالةِ يَنطلِق على غيره تعالى .

ومِنْ أسمائه تعالى : المؤمن المُهَيْمن ؛ قيل : هما بمعنًى واحدٍ ؛ فمعنى المؤمن

---

(١) هذا الحديث تقدم عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٢) الدعاء : الدعوة . (٣) سورة يونس ، آية ٢٥

(٤) أى يرشدهم إلى طريق مستقيم يوصلهم إلى الجنة بما خلقه فيهم من العقل وأرسل من الرسل ، ووفقهم لاتباعهم .

(٥) الجميع من معانى الهداية .

(٦) فمعنى هداه إلى كذا : صرفه إليه ، وأماله عن غيره .

(٧) على طريق الرمز والاكتفاء بحرفين من الاسمين يدلان على الباقى . فهو طاهر من كل دنس ، وهو هداية لخلقه .

(٨) سورة الشورى ، آية ٥٢

(٩) سورة الأحزاب ، آية ٤٦

(١٠) وهو التوفيق بخلق الاهتداء ؛ فإنه لايقدر عليه سواه .

(١١) سورة القصص ، آية ٥٦

فى حقّه تعالى : المُصَدِّقُ وعْدَه عبادَه(١) ، والمُصَدِّقُ قَوْلَه الحقَّ(٢) ، والمُصَدِّق لعباده المؤمنين ورُسُلِه(٣) . وقيل : المُوَحِّد نَفْسَه(٤) . وقيل : المُؤَمِّن عبادَه فى الدنيا من ظُلْمه(٥) ، والمؤمنين فى الآخرةِ من عَذَابه .

وقيل : المُهَيْمِن بمعنى الأَمين ، مصَغَّر منه ، فقُلِبت الهمزةُ هاء .

وقد قيل : إنَّ قولهم فى الدعاء : آمين ــ إنه اسْمٌ من أسماء الله تعالى(٦) ، ومعناه معنى المُؤْمن .

وقيل : المُهَيْمِن بمعنى الشاهد(٧) والحافظ .

والنبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم أَمِين ، ومُهَيْمِن ، ومُؤْمن(٨) ، وقد سمّاه اللهُ تعالى أمِينا ؛ فقال(٩) : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين ﴾ .

وكان ــ صلّى اللهُ عليه وسلم ــ يُعْرَف بالأَمِين، وشُهِرَ به قَبْلَ النبوّة وبعدها؛ وسَمّاهُ العبَّاسُ(١٠) ، فى شعره مُهَيْمِنا فى قوله [٨٤] :

---

(١) أى ما وعد به عباده فى الدنيا من الثواب ، ونعيم الآخرة ، والنصر العزيز فى الدنيا إلى غير ذلك . . .

(٢) أى الذى صدق ما قاله من الحق .

(٣) أى يصدق ما قالوه ، أو جاعلهم صادقين فى قولهم ملتزمين للصدق فى أقوالهم وعهودهم .

(٤) الموحد نفسه بقوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو » . وقوله : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا » ــ فصدق ما نطقت به الكائنات وحكته البراهين من توحيده فى ألوهيته ؛ وهذا كله على أنه من الإيمان بمعنى التصديق .

(٥) من ظلمه : لتنزهه عنه : « وما ربك بظلام للعبيد » .

(٦) قال الحسن . معناه استجب ، أو لا تخيب .

(٧) الشاهد : الحاكم ، والذى يشهد على كل نفس بما كسبت .

(٨) أي يسمى بهذه الأسماء الثلاثة . (٩) سورة التكوير ، آية ٢١

(١٠) هو فى العباس بن عبد المطلب عم النبى ، والبيت فى اللسان ــ نطق . وقد تقدم صفحة ٢١٩

ثم(١) احتوى بَيْتُكَ الْمُهَيْمِن مِنْ خِنْدِف علياء تحتها النُّطُقُ

قيل : المراد : يأيها المُهَيْمِن ، قاله القُتَبِى(٢) ، والإمام أبو القاسم القُشَيْرِى .

وقال تعالى(٣) : ﴿ يُؤْمِنُ بالله ويُؤْمِنُ للمُؤْمنين ﴾ ؛ أى يصدِّق .

وقال صلى الله عليه وسلم : أنا أَمَنَةٌ لأَصحابى(٤) ؛ فهذا بمعنى المؤَمِّن .

ومن أسمائه تعالى : القُدُّوس(٥) ، ومعناه المنزَّهُ عن النقائص المطهَّر من سِمَاتِ الحدَث ؛ وسُمِّىَ بيت المقدس ، لأنه يُتَطَهَّر فيه من الذنوب(٦) ؛ ومنه : الوادى المقدَّس ، ورُوح القدُس(٧) .

---

(١) فى اللسان : حتى احتوى . . . قال : والنطق : جمع نطاق ، وهى أعراض من جبال بعضها فوق بعض ؛ أى نواح وأوساط ، شبهت بالنطق التى يشد بها أوساط الناس ، ضربه مثلا فى ارتفاعه وتوسطه فى عشيرته وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال . وأراد ببيته شرفه . والمهيمن نعته ؛ أى حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أعلى مكان من نسب خندف .

(٢) هذا فى ا ، ب (٣) سورة التوبة ، آية ٦١

(٤) هذا طرف من حديث : النجوم أمنة فى السماء ، فإذا ذهبت أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابى ، فإذا ذهبت أتى أصحابى مايوعدون . وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى مايوعدون . يعنى أن النجوم إذا رفعت قرب وقت فنائها وانشقاقها ؛ ولذا كثر سقوطها عند بعثته ؛ إشارة إلى قرب الساعة ، فهو صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه من وقوع بأسهم بينهم ووقوع الفتن ؛ فإذا توفاه الله ابتدأ وقوع ذلك ؛ كقصة عثمان ، وعلى ، والحسين . وأصحابه صلى الله عليه وسلم أمان للناس من ظهور الفساد فى البر والبحر ؛ فإذا ذهبوا بدأ ظهور ذلك . والحديث فى صحيح مسلم : ١٩٦١ ، والشرح من شرح الشهاب (٢-٤٦٦) . وأمنة : أمان .

(٥) القدوس : من القدس ؛ وهو الطهارة والنزاهة .

(٦) يتطهر فيه من الذنوب : بزيارته والعبادة فيه . روى النسائى بإسناد صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثا : حكما يصادف حكمه . وملكا لا ينبغى لأحد من بعده . وألا يأتى بيت المقدس أحد لا ينهره إلا الصلاة فيه يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فأعطى جميع ذلك (شرح الشهاب : ٢-٤٦٦) ، قال : ولهذا تشد إليه المطى ، كما تشد إلى مكة .

(٧) الوادى المقدس : هو طوى كلم الله فيه موسى . وروح القدس : جبريل .

ووقع فى كتب الأنبياء فى أسمائه صلى الله عليه وسلم : المقدّس ؛ أى المطهَّر من الذنوب ، كما قال تعالى[١] : ﴿ لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وما تأخَّر ﴾ .

أو الذى يُتطهَّر به من الذنوب، ويُتنزَّه باتِّبَاعِه عنها ، كما قال[٢] : «ويُزَكِّيهم» .

وقال تعالى[٣] : ﴿ ويُخرِجُهم من الظُّلُماتِ إلى النُّور ﴾ .

أو يكون مقدّسا بمعنى مطهَّرا[٤] ، من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنيّة .

ومن أسمائه تعالى : العزيز ، ومعناه : المُمتَنِع[٥] الغالب ، أو الذى لا نَظِير له ، أو المُعِزّ لغيره ؛ وقال تعالى[٦] : ﴿ ولله العِزَّةُ ولِرَسُولِه ﴾ ؛ أى الامتناعُ وجَلَالة القَدْر .

وقد وصف اللهُ تعالى نَفْسه بالبِشَارَةِ والنِّذَارة ، فقال[٧] : ﴿ يُبَشِّرهم رَبُّهم برحمةٍ منه ورِضْوَانٍ ﴾ .

وقال[٨] : ﴿ أَنَّ اللهَ يُبَشِّركَ بيحيى ﴾ : و[٩] ﴿ بِكلِمةٍ منه ﴾ .

وسمّاه اللهُ تعالى مُبَشِّرًا ، ونَذِيرا ؛ أىّ مُبَشِّرًا لأهل طاعته ، ونَذِيرا لأهل مَعْصيته .

ومِنْ أسمائه تعالى فيما ذكره بعضُ المفَسِّرين : طه ، ويس . وقد ذكر بعضُهم أيضا أنهما من أسماء محمدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّم وشرَّفَ وكَرَّم .

---

(١) سورة الفتح ، آية ١

(٢) سورة البقرة ، آية ١٢٩ . ومعنى يزكيهم : يطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ، ويعلمهم ما يكفهم عن الآثام .

(٣) سورة المائدة ، آية ١٦ ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور : من الكفر والمعاصى إلى الإيمان وتقوى الله وطاعته بإرشادهم وتوفيق الله لهم ببركته .

(٤) فى ا : مطهر . (٥) الممتنع : الذى لا ينال ولا يدرك .

(٦) سورة « المنافقون » ، آية ٨ (٧) سورة التوبة ، آية ٢١

(٨) سورة آل عمران ، آية ٣٩ (٩) سورة آل عمران ، آية ٤٥

فصل

قال القاضى أبو الفضل[١] : وفقه الله ، وهأنا[٢] أذكرُ نكتةً[٣] أُذيِّلُ بها هذا الفَصْلَ ، وأختِمُ بها هذا القسم ، وأُزيحُ الإشكالَ بها فيما تقدم عن كلِّ ضعيف الوَهْمِ[٤] ، سَقِيمِ الفَهْمِ ، تخلِّصُه من مَهَاوِى التشبيه[٥] ، وتزحزحُه عن شُبَهِ التمويهِ[٦] ؛ وهو أن يعتقدَ أنَّ اللهَ تعالى جلَّ اسْمُه فى عظمتِه وكبريائه ومَلَكُوته ، وحُسْنَى أسمائه ، وعَلِيِّ صِفاته ، لايُشْبِهُ شيئا من مخلوقاته ، ولا يشبَّهُ به[٧] ؛ وأنَّ ما جاء مما أطلقَه الشَّرْعُ على الخالقِ وعلى المخلوق ؛ فلا تشابُهَ بينهما فى المعنى الحقيقى ؛ إذ صفاتُ القَدِيمِ بخلافِ صفات المخلوق ؛ فكما أنَّ ذاتَه لاتُشْبِه الذوات كذلك صفاتُه لا تشبِهُ صفاتِ المخلوقين ؛ إذ صفاتُهم لا تَنْفَكُّ[٨] عن الأَعْراضِ والأَغْراضِ ؛ وهو تعالى ـ مُنَزَّهٌ عن ذلك ؛

(١) هو المؤلف : القاضى عياض . (٢) هذا فى ا ، ب .

(٣) النكتة : الأمر الدقيق المحتاج إلى فكر وتأمل ، سميت بها لأن صاحبها كثيرا ما يبحث فى الأرض بقضيب ونحوه .

(٤) المراد بالوهم هنا : الذهن ، والإدراك (الشهاب : ٢ ـ ٤٦٩) .

(٥) مهاوى : جمع مهواة ؛ وهى كالهاوية : الحفرة العميقة التى من يقع فيها يصعب طلوعه. والتشبيه : المراد به تشبيه الله وصفاته بغيرها ؛ لأن إطلاق بعض الأسماء على الله وعلى غيره قد يوهم ذلك .

(٦) والتمويه : المراد بالتمويه : زخرفة الكلام الذى لا حقيقة له وتحسينه حتى يروج على من لا علم عنده .

(٧) لا يشبه به : لا يمثل به شىء لكمال ذاته وجلال صفاته .

(٨) لاتنفك : لاتفارق الأعراض ، والله ـ تعالى ـ منزه عن الأعراض المحسوسة والكيفيات النفسانية ، لأنها تابعة للمزاج ، المستلزم للتركيب ، المستلزم للحدوث ، المنافى لوجوب الوجود الذاتى . وأفعاله تعالى لاتعلل بالأغراض ، وإن كان لها ثمرات وحكم كثيرة جليلة ، وهى تسمى غرضا ، أيضا ، ولكنه ليس محل خلاف .

بل لم يَزَلْ [١] بصفاتِهِ وأسمائه ، وكفى فى هذا قوله [٢] : ﴿ ليس كمِثْلِهِ شيء ﴾ .

ولِلهِ دَرُّ مَنْ قال من العلماء العارفين [٣] المحققين : التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غيرِ مُشْبِهةٍ [٤] للذوات ولا معطَّلةٍ عن الصفاتِ [٥] .

وزاد هذه النكتةَ [٦] الواسطيُّ - رحمه الله - بيانا ؛ وهى [٧] مقصودُنا ؛ فقال: ليس كذاته ذاتٌ ، ولا كاسْمِهِ اسْمٌ ، ولا كفِعْله فِعْلٌ ، ولا كصِفَتِه صِفةٌ ، إلا مِنْ جهة مُوَافقةِ اللفظِ اللفظَ ؛ وجلَّتِ الذَّاتُ القديمةُ أنْ تكون لها صِفةٌ حديثةٌ ، كما استحال أن تكون للذّاتِ المُحْدَثة صفةٌ قديمةٌ .

وهذا كلُّه مَذْهبُ أهلِ الحقّ والسنَّةِ والجماعةِ رضِيَ اللهُ عنهم .

وقد فسَّرَ الإمامُ أبو القاسمِ القُشَيْرىّ رحمه اللهُ - قوله [٨] [٨٥] هذا ، ليَزِيده بيانا ؛ فقال : هذه الحكايةُ [٩] تشتَمِلُ على جوامِع مسائل التوحيد [١٠] ، وكيف تُشْبِهُ ذاتُه ذاتَ [١١] المحْدَثاتِ ؛ وهى بوجودها [١٢] مستَغْنِية ؛ وكيف يُشْبِهُ فِعلُه فِعلَ

---

(١) لم يزل موجودا أبدا بصفاته وأسمائه الدالة على ذاته وصفاته ؛ فهى قديمة .

(٢) سورة الشورى ، آية ١١

(٣) يقال : لله دره : للثناء عليه والتعجب من محاسنه .

قال فى نسيم الرياض (٢ - ٤٧٢) : أراد بالعارفين مشايخ الصوفية .

(٤) هذا الضبط فى ا ، وفى ب ضبطت بضم الميم وسكون الشين ، وبضم الميم وفتح الشين وتشديد الباء ، وكتب عليها « معا » .

(٥) المراد غير منفي عنها الصفات . (٦) النكتة : يريد معنى التوحيد الذى قاله المشايخ .

(٧) وهى : أى الزيادة . (٨) قوله : أى الواسطى المتقدم .

(٩) هذه الحكاية : أى المحكى المنقول عن الواسطى .

(١٠) وهو اعتقاد أن الله تعالى واحد فى ذاته وصفاته لا مثل له ولا ضد، ولا ند ولا شريك له فى ألوهيته واستحقاقه للعبادة .

(١١) فى ب : ذوات . (١٢) مستغنية : مستقلة غير محتاجة لغيرها .

الخَلق ، وهو لغير جَلْبِ[١] أُنسٍ ، أو دَفْعِ نَقْصٍ حَصَل ، ولا لخواطرَ وأغراضٍ[٢] وُجِد ، ولا بمُباشرةٍ ومُعَالجةٍ ظَهَر ؛ وفِعْلُ الخَلْقِ لا يخرجُ عن هذه الوجوه[٣] .

وقال آخر ـ مِنْ مشايخنا[٤] : ما توَهّمْتمُوه بأوهَامكم ، أو أدْرَكْتمُوه بعقولكم فهو مُحْدَث مِثْلكم .

وقال الإمامُ أبو المعالى الجوَيْنى : مَنِ اطمأَنَّ إلى موجودٍ انتهى إليه فِكْرُه ؛ فهو مُشَبِّهٌ[٥] ، ومَنِ اطمأنَّ إلى النَّفى المحْض فهو معطِّل[٦] وإن قطع بموجودٍ[٧] اعترف بالعَجْزِ عن دَرْك حقيقته فهو مُوَحِّدٌ[٨] .

وما أحسَنَ قولَ ذى النُّونِ المصرى[٩] : حقيقة التوحيد أن تعْلَمَ أنَّ قدرةَ اللهِ تعالى

---

(١) جلب : تحصيل . والأنس : دفع الوحشة .

(٢) أى ليس شىء من أفعاله لدفع نقص حصل له ، أو لخاطر ، أو غرض ، وجد فى نفسه .

(٣) هذه الوجوه هى : جلب النفع ، ودفع الضرر ، والأغراض ، والمباشرة ، والمعالجة .

(٤) أى يخاطب مريديه .

(٥) اطمأن إلى موجود : تيقن أمرا موجودا على وجه معين ارتسم فى ذهنه أنه الله . فهو مشبه : معتقد لتشبيه الله تعالى بغيره مما فى خزانة فكره ؛ وهو خطأ ، لأنه ليس كمثله شىء ، وفكره إنما هو مدركاته المشاهدة ؛ فيأتيه التشبيه منها .

(٦) المحض : الخالص ؛ بأن نفى ذات البارى حقيقة أو حكما . معطل : ناف للصانع .

(٧) قطع : جزم . بموجود : بإله واجب الوجود .

(٨) فهو موحد : لأنه عرف الله ووحده ، واعترف بأنه لا يقدر على معرفته بكنهه وهو التوحيد الصرف .

(٩) هو الزاهد الواعظ ؛ كان أبوه نوبيا ، وصار عالما فصيحا حكيما ، توفى سنة ٢٤٥ هـ .

فى الأشياء بلا عِلَاجٍ[١] ، وصُنْعَهُ لها بِلا مِزَاجٍ[٢] ؛ وعلةُ كلِّ شىء صُنْعُه[٣] ، ولا عِلّةَ لصُنْعِه ، وما تُصوِّر فى وَهْمِك فالله بخلافه[٤] .

وهذا كلامٌ عجيبٌ نَفِيس محقّق ، والفَصْلُ الآخر[٥] ، تفسير لقــوله[٦] : « ليس كمِثْلِه شىء » .

والثانى[٧] ، تفسير لقوله[٨] : « لا يُسأَل عما يَفْعل وهم يُسألون » . والثالث[٩] ، تفسير لقوله[١٠] : « إنما قَوْلُنا لِشىء إذا أردناه أنْ نقولَ له كُنْ فيـكُون » .

ثبّتنا اللهُ وإياكَ على التوحيد والإثباتِ[١١] ، والتّنزِيه ، وجنَّبنا طرَفى الضَّلالةِ والغَوايةِ من التعطيل والتّشبيه بمنّه ورَحْمته .

---

(١) فى الأشياء : أى فى إيجادها وإبداعها . بلا علاج : بلا معالجة ومكابدة واستعمال آلة .

(٢) بلا مزاج : المراد أن إيجاده لها لا يحتاج إلى مادة ومعاونة ؛ بل قدرته تعالى العلية أوجدته ابتداء من العدم بعد أن لم تـكن ، بمجرد قوله : « كن فيكون » .

(٣) صنعه : أى بمجرده ، وبمجرد قدرته . وفى ا : ضبطت التاء فى « علة » بالفتحة والضمة ، وكتب عليها « معا » .

(٤) فإن ذاته لاتشبه الذوات ، وأفعاله لا تشبه أفعال غيره ؛ فهو منزه عن أن تتصوره الأوهام .

(٥) من كلام « ذو النون » وهو قوله : وما تصوره وهمك .

(٦) سورة الشورى ، آية ١١

(٧) والثانى : أى الفصل الثانى ؛ وهو قوله : وعلة كل شىء صنعه .

(٨) سورة الأنبياء ، آية ٢٣

(٩) والثالث هو قوله : حقيقة التوحيد . . .

(١٠) سورة النحل ، آية ٤٠

(١١) والإثبات : أى إثبات مايليق بذاته .

الباب الرابع

فيما أظهره اللهُ تعالى على يديه من المعجزات[١]

وشرّفه به من الخصائص والكرامات

قال القاضي أبو الفضل : حَسْبُ المتأمّلِ أنْ يُحقّق أن كتابَنا هـذا لم نجمَعْه لمُنْكِرِ نبوّةِ نبيّنا صلّى اللهُ عليه وسلم ، ولا لطاعنٍ في معجزاتِه ؛ فنحتاجَ إلى نَصْبِ[٢] البراهينِ عليها ، وتَحْصِين حَوْزَتها[٣] ، حتى لا يَتَوَصّلَ الطاعِنُ إليها[٤] ، ونذكُرَ شروطَ المعجزِ[٥] والتحدّى[٦] وحَدّه ، وفسادَ قولِ مَنْ أبطلَ نَسْخَ الشرائع ، وردّه ؛ بل ألّفْنَاه لأهلِ مِلّتِه[٧] ، المُلَبِّين لدعوَتِه ، المصدِّقين لنبوّته ؛ ليكونَ تأكيدا في محبّتِهم له ، ومَنْماةً لأعمالِهم[٨] ؛ وليزدادُوا إيماناً مع إيمانهم .

ونِيّتُنا أنْ نثبتَ في هذا الباب أمهاتِ[٩] معجزاته ، ومَشَاهير آياته؛ لتدلّ[١٠] ،

---

(١) المعجزات : هي الأمور الخارقة للعادة التي يظهرها الله تعالى على يد أنبيائه لإلزام من كذبهم إذا عجزوا عن الإتيان بالمثل .

(٢) نصب البراهين :أي إقامة البراهين وإيضاحها وإثبات الأدلة القاطمة الملزمة لمن أنكرها أو طعن فيها .

(٣) الحوزة : الناحية والجانب . وتحصينها: جعلهاحصينة محفوظة كأن عليها حصنا يحميها.

(٤) الطاعن: جمع مطعن ،وهو الطعن،والرد بالأباطيل الفاسدة التي تصدر عن أهل الإلحاد. والضمير في « إليها » للحوزة ، أو للمعجزة (شرح الخفاجي : ٢ – ٤٧٦) . وفي ب ، وشرح القاري : الطاعن . (٥) في ب : المعجزة . (٦) حده : تعريفه .

(٧) أي إنما ألفناه لأهل ملة محمد من المؤمنين به .

(٨) منماة : زيادة ؛ أي يزيدهم رغبة في أعمالهم الصالحة ، أو من نميت الحديث إذا بلغته ، ويكون المعنى : يبلغ أعمالهم إلى الله تعالى .

(٩) أمهات معجزاته : كبارها وعظامها .

(١٠) في ب : لندل – بالنون .

على عظيم قَدْره عند ربه . وأتينَا منها بالمحقّق والصحيح الإسنادِ ؛ وأكثرُه مما بلغ القَطْع[(١)] ، أو كاد ؛ وأضَفْنَا إليها بعضَ ما وقع فى مشاهير كتُب الأئمة[(٢)] .

وإذا تأمّلَ المتأمِّلُ المُنْصِف ماقدمناه مِنْ جميل أثَره ، وحَميدِ سِيَره ، وبراعةِ[(٣)] عِلْمه ، ورَجَاحةِ عَقْلِه وحِلْمه ، وجُمْلةِ كَمالِه ، وجميع خِصَالِه ، وشاهِدِ حالِه ، وصوابِ مقالِه ـ لم يَمْتَرِ[(٤)] فى صحة نُبوّته ، وصِدْق دَعْوته .

وقد كفى هذا غيرَ واحدٍ فى إسلامِه والإيمانِ به .

فرَوَيْنا عن التِّرْمذى[(٥)] ، وابن قانع وغيرهما بأسانيدهم ـ أنَّ عبدَ اللهِ بن سَلَام ؛ قال : لما قدِمَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم المدينةَ جِئْتُه لأنْظُرَ إليه ؛ فلما استَبَنْت[(٦)] وجْهَه عرفتُ أنَ وَجْهَه ليس بوَجْه كذّاب .

حدثنا به القاضى الشهيدُ أبو علىّ رَحِمَه اللهُ ؛ قال : حدثنا أبو الحُسين الصَّيْرفى ، وأبو الفضل بن خَيْرون ، عن أبى يَعْلَى البغدادى ، عن أبى على [٨٦] السِّنْجِىّ ، عن ابن محبوب ، عن التِّرْمِذِى ؛ حدثنا محمد بن بشَّار ، حدثنا عبدُ الوهاب الثَّقَفى ، ومحمد بن جعفر ، وابنُ أبى عدىّ ، ويحيى بن سَعيد ، عن عَوْف بن أبى جَمِيلَة الأعرابىّ ، عن زُرَارة بن[(٧)] أوفى ، عن عبد الله بن سلَام . . . الحديث .

---

(١) أى وصل إلى رتبة القطع ، بحيث لايقبل التشكيك .

(٢) الأئمة : يريد أئمة الحديث الذين تلقى الأئمة كتبهم بالقبول ؛ كدلائل النبوة للبيهقى ، والسنن ، وغيرها .

(٣) براعة علمه : علمه الفائق به على غيره .

(٤) لم يمتر : لم يشك ، ويقع له تردد .

(٥) الحديث فى سنن الترمذى : ٤ ـ ٦٥٢ ، قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح .

(٦) استبنت وجهه : رأيت ظاهر وجهه الدال على صدق سريرته وباطنه . وفى الترمذى استثبت .

(٧) هذا فى ا ، ب ، وسنن الترمذى (٤ ـ ٦٥٢) . وفى هامش ب : ابن أبى أوفى .

وعن أبي رِمْثَةَ التَّيْمي : أَتيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، ومعي ابنٌ لي ، فأُرِيتُهُ(١) ؛ فلما رأَيتُه قلتُ : هذا نبيُّ اللهِ(٢) .

ورَوَى مسلم(٣) وغيْرُه أنَّ ضِمَاداً لمّا وفَد عليه ، فقال له النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم : إنَّ الحمْدَ للهِ ، نَحْمَدُهُ ونستعينُه ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ(٣) له ؛ ومَنْ يُضْلل فلا هاديَ له ، وأَشهدُ أَنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وَحْدَه لاشَرِيكَ له ، وأَنَّ محمداً عَبْدُهُ ورسولُه ـ قال له : أَعِدْ عليَّ كلماتِكَ هؤلاء ، فلقد بلَغْنَ قاموسَ البَحْرِ(٤) ، هاتِ يَدَكَ أُبايعك(٥) .

وقال جامع بن شدَّاد(٦) : كان رجلٌ منا يُقالُ له طارِق ، فأَخبر أَنه رأَى النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم بالمدينة ، فقال : هل معكم شيء تَبيعونَه؟ قلنا : هذا البَعير .

---

(١) أرانيه بعض من يعرفه ، وعرفني به غيري .

(٢) أي بمجرد تعلق نظره به اعترف بنبوته لما شاهده من عظمته ونور نبوته ، فأوقع الله في قلبه علما ضروريا بصدقه صلى الله عليه وسلم .

(٣) الحديث في صحيح مسلم : ٥٩٣ ، فلا مضل له : أي لايقدر أحد على إضلاله .

(٤) قاموس البحر : وسطه ، أو لجته ، أو قعره . يريد اشتهرت مقالتك هذه في جميع أقطار الأرض شرقا وغربا . يقال : قال فلان قولا بلغ قاموس البحر ؛ أي سمعه كل ذي روح حتى دواب البحر ، وهو مبالغة في شيوعه . وفي هامش ا ، ب : قاموس البحر : وسطه ومعظمه.
وفي صحيح مسلم (٥٩٣) : ولقد بلغن ناعوس البحر . وفي هامشه : ناعوس البحر : ضبطناه بوجهين : أحدهما ـ ناعوس ، وهذا هو الموجود في أكثر نسخ بلادنا . والثاني ـ قاموس . وهذا الثاني هو المشهور في روايات الحديث في غير مسلم .
وقال القاضي عياض : أكثر نسخ صحيح مسلم وقع فيها قاموس . قال أبو عبيد : قاموس البحر : وسطه . وقال ابن دريد : لجته . وقال صاحب كتاب العين : قعره الأقصى .

(٥) وجه استشهاد المصنف به أنه بمجرد رؤيته وسماع كلامه صلى الله عليه وسلم آمن به من غير تردد ، وليس في كلامه مايدل على صدق مدعاه ، ولكنه لما رأى نور وجهه الشريف وحسن بهجته آمن به .

(٦) في حديث رواه البيهقي .

قال : بكم ؟ قُلْنا : بكذا وكذا وسْقًا[١] من تَمْر ؛ فأخذ بخِطَامِه[٢]، وسار إلى المدينة؛ فقُلْنَا: بِعنْاَ من رجل لا ندْرِى مَنْ هو ؛ ومعنا ظَعِينَةٌ[٣] ، فقالت : أَنا ضامِنَةٌ لِثمَنِ البَعِير ؛ رأَيْتُ وَجْهَ رجلٍ مِثْلَ القمرِ ليلةَ البَدْرِ لا يَخِيس[٤] فيكم .

فأصبَحْنَا ، فجاء رَجلٌ بتَمْرٍ فقال : أَنا رسولُ رسولِ اللهِ إليكم ، يَأْمرُكم أَنْ تأْكُلوا من هذا التَّمْرِ ، وتَكْتالُوا حتى تستَوْفوا[٥] . ففعلْنا .

وفى خَبَرِ الْجلنْدَى مَلكِ عُمَان[٦] ـ لمَّا بلغه أنَّ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ـ قال الْجلَنْدَى[٧] : واللهِ ؛ لقد دَلَّنِى على هذ النبىِّ الأُمِّىِّ أَنه لا يأْمُرُ بخَيْرٍ إلّا كان أَولَ آخِذٍ[٨] به ، ولا يَنْهى عن شىء[٩] إلّا كان أَولَ تاركٍ له ، وأنه يغلِبُ فلَا يَبْطَرُ[١٠] ويُغْلَبُ فلا يَضْجَرُ[١١] ، ويَفِى بالعَهْد ، ويُنْجِزُ[١٢] الموعود ؛ وأشهَدُ أنه نبىٌّ[١٣] .

---

(١) وسقا من تمر : الوسق : ستون صاعا مما يكال .

(٢) الخطام : الزمام الذى يقاد به . (٣) الظعينة : المراد امرأة .

(٤) لا يخيس : لا يغدر ، ويكذب ، فينكس وعده ، ويخلف عهده . فالمراد أن حسن صورته يدل على حسن سيرته ؛ فمثله لا يصدر عنه ماظننتموه .

(٥) وتكتالوا : أى تكيلوا منه ثمن البعير . وتستوفوا : تأخذوا الثمن من التمر الذى جاء به وافيا كاملا غير ما أكلتموه ؛ فإنه هبة منه لكم . وفيه من المكارم وحسن المعاملة ما لا يخفى .

(٦) هذا الضبط فى ب . وفى ا : بضم العين وتشديد الميم . وفى هامش ب : غسان .

(٧) فى حديث رواه ابن إسحاق . (٨) أول آخذ به : أول عامل بما أمر به .

(٩) فى ا : عن شر . (١٠) لا يبطر : لا يطغى ولا يغتر ويظهر الفرح .

(١١) فلا يضجر : فلا يقلق ولا يجزع ؛ بل يصبر ويتحمل ما أصابه فى سبيل الله احتسابا لأجره ورضاه بما قدره الله تعالى . (١٢) ينجز الموعود : يعجل ماوعد به لكرمه .

(١٣) لما تحقق من أخلاقه وكمال صفاته . وهذا شاهد لما عقد له الفصل من أن من تأمل صفاته صلى الله عليه وسلم صدق بنبوته وإن لم يشاهد معجزة .

وقال نِفطَويه ـ فى قوله تعالى[1] : ﴿ يكادُ زَيْتُها يُضِىء ، ولو لم تَمْسَسْهُ نارٌ ﴾ : هذا مثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ يقول : يكادُ مَنْظَرُه يدُلّ على نبوّته وإن لم يَتلُ قُرْآنا[2] كما قال ابن رَوَاحة[3] :

لو لَمْ تكُنْ فيه آياتٌ مُبَيِّنَةٌ لكان مَنظرُه[4] يُنْبِيكَ بالخَبَر

وقد آنَ أنْ نأخذَ فى ذِكْرِ النبوّةِ والوَحى والرسالةِ ، وبعده فى معجزة القرآن ، وما فيه من بُرْهان ودَلالة .

فصـــــل

اعلَمْ أنّ اللهَ جلّ اسْمُه قادرٌ على خَلْق المعرفةِ فى قلوبِ عِبادِه ، والعِلْمِ بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته[5] ابتداء دونَ واسطةٍ لوشاء؛ كما حُكِيَ عن سُنّتِه[6] فى بعض الأنبياء ، وذَكره بعضُ أهلِ التفسير فى قوله[7] : ﴿ وما كان لبَشَرٍ أنْ يكلّمَه اللهُ إلّا وَحْياً ﴾ .

وجائزٌ أنْ يُوصِلَ إليهم جميع ذلك بواسطةٍ تبلّغُهم كلامَه ، وتكونُ تلك[8] الواسطة ؛ إمّا مِنْ غير البَشَرِ ، كالملائكة مع الأنبياء ؛ أو مِنْ جِنْسهم ، كالأنبياء مع الامم ، ولا مانِعَ لهذا مِنْ دَليلِ العَقْل .

(١) سورة النورة ، آية ٣٥
(٢) وإن لم يتل قرآنا : المراد : وإن لم يظهر معجزة . وخص القرآن لأنه أعظم معجزاته.
(٣) البيت فى الإصابة : ٤ ـ ٨٦
(٤) منظره : مرآه وظاهره . ينبيك : ينبئك ويخبرك .
(٥) تكليفاته : التى ألزمهم بها من الأمور الشرعية والعبادات .
(٦) سنته : عادته وطريقته . عن بعض الأنبياء : إذ عرفهم بعض الأمور السابقة بدون واسطة ؛ فأوقع ذلك فى قلوبهم وكشفه لهم ؛ أو ألهمهم ، أو أراهم ذلك فى مناماتهم الصادقة .
(٧) سورة الشورى ، آية ٥١
(٨) فى ا ، ب : ذلك . ونراه تحريفا .

وإذا جاز هذا ولم يَستَحِلْ [١] ، وجاءت الرسلُ بما دَلَّ على صِدْقِهم من مُعْجزاتهم ـ وجب تصديقُهم فى جميع ما أَتَوْا به ؛ لأَنَّ المعجِزَة مع التحدِّى [٢] من النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم قائمٌ مقامَ قولِ الله : صَدَق عَبْدِى فأَطِيعُوه واتَّبِعوه ، وشاهدٌ على صِدْقه فيما يقولُه ؛ وهذا كافٍ .والتطويلُ فيه خارج عن الغَرَضِ [٨٧] ؛ فمَنْ أَرادَ تتبُّعَه وجده مستوفى فى مصنَّفاتِ أَئمتنا رحمهم الله .

فالنبوَّةُ فى لغة مَنْ همز مأخوذة من النَّبأ ، وهو الخبَر ، وقد لا تُهْمَزُ على هذا التأويل تَسْهيلا .

والمعنى أَنَّ اللهَ تعالى أَطْلَعه على غَيْبِه ، وأَعْلَمه أنه نبيُّه ؛ فيكون نبىٌّ [٣] مُنَبَّأً فَعِيل بمعنى مَفْعول ؛ أَويكون مُخْبِراً عمّا بعثه اللهُ تعالى به ، ومُنَبِّئًا بما أطلعه الله عليه فَعِيل بمعنى فاعل ؛ ويكونُ عِنْد مَنْ لم يَهْمِزْهُ من النَّبْوَةِ ؛ وهو ماارتفع من الأرض؛ ومعناهُ أَنَّ له [٤] رُتْبَةً شريفةً ، ومكانةً نبيهةً [٥] عند مولاه [٦] مُنِيفةً [٧] ؛ فالوصفان فى حقِّه مُؤْتَلِفان [٨] .

وأَما الرسولُ فهو المُرْسَل ، ولم يأْتِ فَعُول بمعنى مُفْعَل فى اللغة إلا نادرا . وإرسالُه أَمْرُ اللهِ له بالإبلاغ [٩] إلى مَنْ أَرسلَه إليه ؛ واشتقاقُه من التتابع [١٠] ؛

---

(١) لم يستحل : أى لم يعد محالا عقلا .

(٢) أى إظهار النبى معجزة له وطلبه ممن أنكر نبوته الإتيان بما يماثلها .

(٣) هذا فى ا ، ب . (٤) له : عند الله . (٥) نبيهة : عالية مشهورة .

(٦) عند مولاه : ربه الذى تولى أمره . (٧) منيفة : عاليةِ .

(٨) الوصفان : أى وصفه بمعنى المخبر ، أو بمعنى المرتفع . مؤتلفان : متوافقان بحسب المعنى ؛ لأن من بعثة الله وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره له منزلة عالية . ومن له مقام عال يطلع على ذلك .

(٩) أى تبليغهم شريعته ودينه بنفسه أو بواسطة .

(١٠) التتابع : التوالى والتكرار لتبليغه .

ومنه قولهم : جاء الناسُ أَرْسَالا[١] ، إذا تبِعَ بعضُهم بعضا ؛ فكأنه أُلزِمَ تكريرَ التبليغ ، أو أُلزِمت الأمَّةُ اتِّباعه .

واختلف العلماء: هل النبيُّ والرسولُ بمعنى، أو بمعنيين؟ فقيل: هما سواء، وأصلُه من الإنباء وهو الإعلامُ ؛ واستدلُّوا بقوله تعالى[٢] : ﴿ وما أرسلْنَا مِنْ قَبْلك مِنْ رَسُولٍ ولا نبيّ ﴾ ؛ فقد أثبتَ لهما معا الإرسالَ ، قال : ولا يكون النبيُّ إلا رسولا، ولا الرسولُ إلا نبيّا[٣] .

وقيل : هما مُفْترِقان مِنْ وجْه ؛ إذ قد اجتمعا فى النبوةِ التى هى الاطِّلاعُ على الغَيْب[٤] ، والإعلامُ بخواصِّ النبوّةِ أو الرفعةِ لمعرفةِ[٥] ذلك ، وحَوْزِ[٦] دَرَجتها؛ وافترقا فى زيادةِ الرِّسالة[٧] للرسول، وهو الأمرُ بالإنذار والإعلام كما قُلْنا.

وحجّتُهم من الآية نفسِها التفريقُ بين الاسمين[٨] ، ولو كانا شيئا واحدا لما حسُنَ تكْرَارُهما فى الكلام البليغ ، قالوا : والمعنى : ما أرسلنا من رَسول إلى أمّة أو نبيّ ليس بمُرْسَلٍ إلى أحد .

وقد ذهب بعضُهم إلى أنّ الرسولَ مَنْ جاء بشَرْعٍ مبتدأ[٩]، ومَنْ لم يأتِ به[١٠] نبيٌّ غيْرُ رسولٍ ، وإنْ أُمِرَ بالإبلاغ والإنذار .

والصحيحُ ، والذى عليه الجمّاء الغَفِير[١١] ، أنّ كلّ رسولٍ نبى ، وليس كلُّ نبى رسولا .

---

(١) أرسالا : فرقة بعد فرقة متتابعين ، يتبع بعضهم بعضا .

(٢) سورة الحج ، آية ٥٢ (٣) أى على هذا المعنى .

(٤) أراد به مالم يعلمه من أوامر الله تعالى ، وتشريعه له ما يختص به ، أو به وبغيره .

(٥) فى ب : بمعرفة . (٦) حوز درجتها : حيازتها وتحصيلها .

(٧) الرسالة : الأمر بالتبليغ . (٨) بين الاسمين : النبى ، والرسول .

(٩) أى إن شرعه لم يسبق إليه . (١٠) به : بالشرع المبتدأ الذى لم يسبق إليه .

(١١) الجماء الغفير : الجماعة الكثيرة .

وأولُ الرسلِ آدم ، وآخِرُهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى حديث أبى ذَرٍّ[١] رضى الله عنه : إنَّ الأنبياء مائةُ ألف وأربعةٌ وعشرون ألف نبيّ .

وذَكَر أنَّ الرسلَ[٢] ، منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر[٣] ؛ أولهم آدم عليه السلام .

فقد بانَ لكَ معنى النبوة والرسالة ، وليستا عند المحقِّقين ذاتاً للنبى ، ولا وَصْف[٣] ذاتٍ ، خلافا للكَرّامِيّة[٤] ، فى تطويلٍ لهم ، وتَهْويلٍ[٥] ، ليس عليه تَعْويل .

وأما الوَحْيُ فأصلُه الإسراعُ ، فلما كان النبى يتلَقَّى ما يأتيه من ربه بعَجَل سُمِّيَ وَحْيا[٦] ، وسُمّيت أنواعُ الإلهامات[٦] وَحْياً ، تشبيها بالوَحْى إلى النبى ، وسُمِّيَ الخَطّ وَحْيا ، لسرعةِ حرَكةِ يَدِ كاتبِه ؛ وَوحْى الحاجب واللَّحْظ سرعةُ إشارَتِهما[٧] ومنه قوله تعالى[٨] : ﴿فَأَوْحَى إليهم أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ؛ أى أَوْمأَ وَرمَز[٩] .

وقيل : كتب ؛ ومنه قولهم : الوَحا[١٠] ، الوَحَا ؛ أى السرعة .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (المسند : ٥ — ٢٦٦) ، وابن حبان ، والحاكم فى مستدركه . وقال الحاكم فى مستدركه : إنه طعن فى بعض رواته . وقيل إنه منكر . وقال القرطبى : أنه أصح حديث ورد فى عدد الأنبياء والرسل عليهم السلام . (نسيم الرياض : ٢ — ٤٩١) .

(٢) منهم : من الأنبياء . وفى المسند : ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا .

(٣) ولا وصف ذات : أى ليست صفة قائمة بذاته موجودة فيه — صلى الله عليه وسلم — قبل الوحى إليه .

(٤) فهؤلاء قالوا : إنهما أمران غير الوحى ، وأمر الله له بتبليغ شريعته ؛ فصاحبها متصف بهما وإن لم يوح إليه . والكرامية ينسبون إلى محمد بن كرام .

(٥) وتهويل : أى تخويف وتفزيع لمن عدل عن مذهبهم فى هذا .

(٦) كقوله تعالى : وأوحى ربك إلى النحل . والإلهام : إلقاء أمر فى الروع باعث على الفعل أو الترك .

(٧) أى حركتهما بسرعة للإشارة بهما .

(٨) سورة مريم ، آية ١١

(٩) رمز : أشار بالعين أو بأحد أعضائه .

(١٠) فى ا : الوحاء — ممدودا . وفى ب : الوحا — مقصور . وهو يمد ، ويقصر .

وقيل أصل الوَحْيِ السرُّ والإخفاء، ومنه سُمِّي الإلهامُ وَحْياً، ومنه قوله(١): ﴿ وإنَّ الشياطينَ ليوحُونَ إلى أوْليائهم ﴾، أى يُوَسْوِسُون فى صدورهم ؛ ومنه قوله(٢) : ﴿ وأوْحَيْنَا إلى أمِّ مُوسى ﴾ ؛ أى أُلْقِيَ فى قلبها .

وقد قِيل ذلك فى قوله تعالى(٣) : ﴿ وما كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَه اللهُ إلا وَحْياً ﴾ [٨٨] ؛ أى ما يُلْقيه فى قلبه دونَ وَاسِطَةٍ(٤) .

فصل

اعلم أنّ معنى تَسْمِيَتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة، هو أنَّ الخَلْقَ عجزُوا عن الإتيانِ بمثلها ؛ وهى(٥) على ضَرْبين: ضرب هو مِنْ نوعِ قُدْرةِ البشَر؛ فعجزوا(٦) عنه، فتعجيزُهم عنه فِعْلٌ لله دلّ على صِدْقِ نبيّه ؛ كصَرْفِهم عن تمنِّي الموت(٧) .

(١) سورة الأنعام، آية ١٢١ . إلى أوليائهم : من يوالونهم ويصادقونهم من المشركين . والمراد بالشياطين مردة الجن . وبالأولياء : كفرة قريش .

(٢) سورة القصص، آية ٧ (٣) سورة الشورى، آية ٥١

(٤) قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٤٥٣) : والذى رجحوه فى هذه الآية أن المراد بالوحى فيها المشافهة بكلام الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وكلامه لموسى عليه السلام. وحديث أبى ذر المشار إليه بتمامه فى نسيم الرياض (٢ـ ٤٩٣) ، وشرح القارى (١ـ٥٣٠)

(٥) وهى : أى المعجزة .

(٦) أى مقدورهم الذى يمكنهم الإتيان بما يماثله من نوعه . فعجزوا عنه : أى فطلب منهم فعجزوا عنه .

(٧) أى منع الله اليهود عن تمنى الموت لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ وقالوا: « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » ؛ فكذبهم الله تعالى، وألزمهم بقوله : قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ثم أخبر عنهم بقوله : ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين وقد قال صلى الله عليه وسلم : لو تمنى اليهود الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار . =

وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأى بعضهم[١]، ونحوه .

وضَرْبٌ هو خارجٌ عن قدرتهم ؛ فلم يقدروا على الإتيان بمثله ؛ كإحياء الموتى ، وقَلْبِ العَصَا حيّة[٢] ، وإخراج ناقةٍ من صَخرةٍ[٣] ، وكلام شجرَة ، ونَبْع الماء من الأصابع ، وانشقاق القمر[٤] ، مما لا يُمْكِنُ أنْ يفعلَه أحد ، إلا الله ؛ فَكَوْنُ ذلك على يَدِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ فِعْل اللهِ تعالى[٥] وتحدِّيه مَنْ يُكذِّبُه أنْ يأْتِيَ بمثله تعجيزٌ له .

واعلَمْ أنّ المعجزاتِ التى ظهرَتْ على يدِ نبيّنا صلى اللهُ عليه وسلم دلائلَ نبوّته وبراهينَ صِدْقِه ـ من هذَيْن النوعين[٦] معاً ؛ وهو أكثرُ الرسُلِ معجزةً ، وأبهرهم آيةً[٧] ،

= أى قل لهم يا محمد : إن كنتم أحباب الله تعالى والجنة مختصة بكم فاطلبوا الموت ؛ فإن من أحب الله أحب لقاءه ، ومن كانت داره الجنة يبادر لدخولها ؛ فلم يتمنه أحد منهم ولو بلسانه . لصرف الله لهم عن ذلك .

قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٤٩٥) : وهذا أعظم حجة على صدقه صلى الله عليه وسلم ـ كما قاله المفسرون .

(١) هذا البعض هو القائل بأن إعجازه بالصرفة ؛ أى بصرف العرب الفصحاء عن معارضته مع تحديه لهم وتقريعهم بذلك على رءوس الأشهاد حتى عدلوا عن مجادلة الحروف إلى مجالدة السيوف .

(٢) كإحياء الموتى الذى وقع لإبراهيم ولعيسى عليهما السلام . وقلب العصا حية معجزة لموسى .

(٣) اقترح على صالح جندع بن عمرو سيد قومه أن يخرج لهم من صخرة ناقة عشراء ، فصلى ودعا ربه ، فتمخضت تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء وهم ينظرون ؛ فآمن جندع فى جمع من قومه ، وتمادى غيرهم فى الكفر حتى عقروا الناقة ، فأخذتهم الرجفة ...

(٤) وهذه الثلاثة من معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وستأتى مفصلة .

(٥) من فعل الله تعالى : أظهره على يده بقدرته .

(٦) أى ما هو من نوع قدرة البشر ، وما هو خارج عنها .

(٧) الآية : المعجزة . وأبهر : من بهر ؛ أى ظهر وغلب . والمعنى أن معجزاته صلى الله عليه وسلم أكثر وأظهر وأقوى .

وأظهرهم بُرْهانا ؛ كما سَنُبَيِّنُه ؛ وهى ـ فى كثرتها ـ لا يحيطُ بها ضَبْطٌ[(١)] ؛ فإنّ واحداً منها ـ وهو القرآن، لا يُحصى عددُ معجزاتِه بألفٍ ولا ألفَيْن، ولا أكثر[(٢)]؛ لأنّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم قد تحدّى بسورةٍ منه فعُجِزَ عنها.

قال أهلُ العِلْم : وأقصرُ السُّوَر : إنَّا أعطيناكَ الكَوْثَر . . . فكلُّ آيةٍ أو آيات منه بعَدَدِها[(٣)] وقَدْرِها مُعْجزةٌ ؛ ثم فيها نَفْسِها مُعْجزاتٌ على ما سنفصِّلُه فيما انطوى[(٤)] عليه من المعجزات .

ثم معجزاته صلّى اللهُ عليه وسلم على قسمين : قسمٌ منها عُلِمَ قَطْعا ، ونُقِلَ إلينا متواتِرا كالقرآن ؛ فلا مِرْيةَ[(٥)]، ولا خلافَ؛ بمَجيء النبيِّ به ، وظهورِه من قِبَله[(٦)]؛ واستدلاله بحُجّتِه ؛ وإنْ أنكر هذا مُعانِدٌ جاحِدٌ[(٧)] ، فهو كإنكاره وجودَ محمدٍ صلّى اللهُ عليه وسلم فى الدُّنيا[(٨)] .

وإنما جاء اعتراضُ الجاحدِين فى الحجَّة به[(٩)] ؛ فهو فى نَفْسِه وجميع ما تضمَّنه من مُعْجز معلوم ضرورةً .

ووَجْهُ إعجازِه معلوم ضرورةً ونَظَراً ، كما سنَشْرحُه .

---

(١) لا يحيط بها ضبط : لايحيط بها حصر ، أو عد ، أو حفظ .

(٢) لما فى ألفاظه من البلاغة وفنونها ، كالتوكيد ، والتلميح ، والتشبيه ، والاستعارة ، والإيجاز ، وحسن الفواتح والخواتم ، والفواصل إلى غير ذلك مما لا يحصى .

(٣) بعددها : أى بعدد سورة الكوثر آيات وحروفا وكلمات .

(٤) فيما انطوى : اشتمل القرآن .

(٥) فلا مرية : المرية : الشك ، والتردد ، والشبهة .

(٦) من قبله : من جهته وجانبه . (٧) جاحد : منكر له عنادا مع علمه به .

(٨) فهو إنكار للمحسوسات ؛ وذلك لايصدر من عاقل .

(٩) فى الحجة به : أى الاحتجاج به وأنه كلام الله ؛ كقول المشركين : هذا سحر مبين. وأساطير الأولين .

قال بعضُ أئمتنا (١) : ويَجْرِى هذا المَجْرى (٢) على الجملة أنه قد جَرَى على يَدَيْهِ صلّى اللهُ عليه وسلم آياتٌ وخَوَارِقُ عادَاتٍ إنْ لم يَبْلُغْ واحدٌ منها معيّناً القَطْعَ فيبلغه جميعُها ؛ فلا مِرْيَةَ فى جرَيانِ معانيها على يَدَيْهِ ؛ ولا يختلفُ مؤمنٌ ولا كافر ـ أنه جرَتْ على يديه عجائبُ (٣) ؛ وإنما خلافُ المُعَانِدِ فى كَوْنها مِنْ قِبَلِ الله .

وقد قدمْنَا كونَها مِنْ قِبَلِ اللهِ ، وأنّ ذلك بمَثَابة قوله (٤) : صدَقْتَ .

فقد عُلِمَ وقوعُ مثلِ هذا أيضا مِنْ نبيِّنا ضرورةً لاتفاقِ مَعَانيها (٥) ، كما يُعْلَم ضرورةً جودُ حاتمٍ ، وشجاعةُ عَنْترةَ ، وحِلْمُ أحْنَف ، لاتِّفَاقِ الأخبارِ الواردة عن كل واحدٍ (٦) منهم على كرمِ هذا ، وشجاعةِ هذا ، وحِلْمِ هذا ، وإنْ كان كلُّ خَبَرٍ بنفسه (٧) لا يُوجِبُ العِلْمَ ، ولا يُقْطَعُ بصحّته (٨) .

والقسمُ الثانى (٩) ما لم يَبْلُغ مَبْلَغَ الضرورة والقَطْعِ ؛ وهو على نوعين : نوع مُشْتَهِرٍ مُنْتَشِرٍ ، رواهُ العدَدُ ، وشاعَ الخَبَرُ به عند المحدِّثين والرُّواةِ و نَقَلَةِ السِّيَرِ والأخبارِ ؛ كنَبْعِ الماء من بين الأصابِع ، وتكثيرِ الطعام (١٠) .

---

(١) بعض أئمتنا : أى علماء الحديث والتفسير ، وفى شرح القارى (١ ـ ٥٣٦): بعض أئمتنا : أى أئمة المالكية .

(٢) يجرى هذا المجرى : يقارب ما تقدم ويشبهه ؛ أى مجرى القسم الأول من معجزاته لذى علم قطعا ونقل إلينا تواترا .

(٣) عجائب : أى أمور خارقة للعادة حيرت أبصارهم وألبابهم حتى يتعجب المتعجب منها .

(٤) قوله : قول الله . وقد تقدم صفحة ٣٤٦

(٥) لاتفاق معانيها : لتوفيتها كلها فى معنى واحد .

(٦) حاتم الطائى المعروف بالكرم فى الجاهلية . وعنترة العبسى المشهور بشجاعته فى الجاهلية أيضا . وأحنف بن قيس المشهور بالحلم ـ فى الجاهلية والإسلام .

(٧) بنفسه : أى وحده ، وبانفراده .

(٨) ولا يقطع بصحته لعدم تواتره بانفراده .

(٩) والقسم الثانى من المعجزات . (١٠) الذى رواه أنس وغيره . وسيأتى بعد .

ونوعٌ منه اختصّ به(١) الواحِدُ والاثنان؛ ورَوَاهُ العَدَدُ اليَسِيرُ، ولم يَشْتَهِر اشتهارَ غيره، لـكنه إذا جُمِـعَ إلى مِثْـــلِه اتّفقا(٢) في المعنى، واجتمعا على الإتيان بالمُعْجِز، كما قدّمناهُ(٣).

قال القاضى أبو الفَضْل(٤) [٨٩]: وأنا أقولُ صَدْعا بالحق: إنّ كثيراً من هذه الآياتِ المأثورة عنه صلى اللهُ عليه وسلم معلومةٌ بالقَطْع(٥):

أمّا انشِقَاقُ القَمرِ فالقرآنُ نَصّ بوقوعِهِ، وأخبر عن وجوده(٦)، ولا يُعْدَلُ عن ظاهرٍ إلّا بدليل، وجاء برَفْع(٧) احتماله صحيحُ الأخبار من طرق كثيرة(٨)، ولا يُوهِنُ عَزْمَنا(٩) خلافُ أَخْرَقَ(١٠) مُنْحلّ عُرَى الدِّين(١١)، ولا يُلتَفَت إلى

---

(١) اختص به: أى بروايته.

(٢) اتفقا فى المعنى: فى أصل الإعجاز وثبوته.

(٣) كما قدمناه: أى من جريانها على يديه، وانضمام بعضها إلى بعض المقوى له.

(٤) هو المصنف.

(٥) المأثورة: المروية. معلومة بالقطع: لتواترها.

(٦) فى قوله تعالى: «اقتربت الساعة وانشق القمر»: سورة القمر، آية ١

(٧) برفع احتماله: أى بدفع احتمال خلاف الظاهر.

(٨) فى نسيم الرياض (٢ـ ٥٠١): قال خاتمة الحفاظ ابن حجر: إن ماروى فى الصحيحين يفيد علما نظريا وإن لم يتواتر.

(٩) يوهن: يضعف. عزمنا: ما عزمنا عليه وقصدناه من إثبات هذه المعجزات وحمل النصوص الواردة بها على ظاهرها من غير تأويل.

(١٠) خلاف أخرق: مخالفة أحمق: والمراد: جاهل لادراية له، ولا معرفة بالأحاديث.

(١١) المراد أنه غير متمسك بالدين.

سخافةِ مُبْتَدعٍ يُلْقِي الشكَّ على قلوب ضُعَفاء المؤمنين ؛ بل نُرْغِم بهذا أنفَه (١) ، و نَنْبِذ بالعَرَاء سُخْفَه (٢) .

وكذلك قصة نَبعِ الماء ، وتكثير الطعام ـ رَوَاها الثِّقاتُ والعَدَد الكثير عن الجَمّاء الغَفِير ، عن العدد الكثير من الصحابة (٣) .

ومنها ما رَوَاه الكافّةُ عن الكافّةِ مُتّصلا عمَّن حدَّث بها مِنْ جُملة الصحابة وإخْبارِهم أنَّ ذلكَ كانَ في مَوْطنِ اجتماعِ الكثيرِ منهم في يوم الخَنْدق، وفي غزوة بُوَاط (٤) ،

---

(١) بل نرغم بهذا أنفه : أى نرد ما قاله ، ونظهر جهله وسخافة عقله ، حتى يفتضح ويذل ويخزى . (٢) ننبذ : نطرح ونلقى .

قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٥٠٢) : وحاصله أن انشقاق القمر فى الآية على ظاهره ، لوروده فى الأحاديث الصحيحة من طرق متعددة ، فمن حمله على أن المراد أنه سينشق إذا قامت القيامة يوم تشقق السماء ـ لم يأت بشيء ؛ وإن ارتضاه جمع ؛ لأنه لو وقع شاع وذاع وملأ الأسماع لأنه آية عظيمة . وقيل معناه : ظهر الأمر ؛ لأن العرب تضرب المثل بالقمر لما وضح؛ كما قال الشنفرى فى لامية العرب :

فقد حمت الحاجات والليل مقمر ... وشدت لطيات مطايا وأرحل

وقيل معناه انشقاق الظلم عنه بطلوعه ، كما يقال : انفلق الصبح وانشق ، كما قال النابغة :

فلما أدبروا ولهم دوى ... دعانا عند شق الصبح داعى

والداعى لهم على هذا عدم الوقوف على ماورد فى السنة والفهم لأقوال الحكماء الذاهبين إلى امتناع الخرق والالتئام فى الأجرام الفلكية ونحوه من الخرافات الفلسفية .

(٣) كالشيخين عن أنس ، والبخارى عن ابن مسعود . وستأتى هذه الأحاديث بعد .

(٤) بواط : اسم جبل من جبال جهينة بينه وبين المدينة أربعة برد بقرب رضوى ؛ وهو جبل أيضا .

وأشار بالأول إلى قصة جابر رضى الله عنه لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعناق ذبحها مع صاع من شعير خبزه ، فأتاه صلى الله عليه وسلم ومعه ناس كثير ، وكان دعاه وحده فأكلوا وشبعوا ؛ وفضل ذلك الطعام وكانوا نحو ألف وأشار بالثانى إلى قصة بواط ؛ وهى أنه وضع عنده صلى الله عليه وسلم ماء قليل للوضوء ، فقال لجابر : ادع الناس ، فلما أتوا وضع يده الشريفة فى الماء فنبع من بين أصابعه حتى توضئوا كلهم . وسيأتى كل هذا بعد .

وعُمْــرة الحُدَيبية ، وغَزْوة تبُوكَ[١] ، وأمثالِها مِنْ محافِلِ المسلمين[٢] ومَجْمَع العساكر ، ولم يُؤثَر[٣] عن أحدٍ من الصحابةِ مخالفةٌ للراوى فيما حكاهُ ، ولا إنكارٌ لِماَ ذُكر عنهم أنهم رأوْه كما رآه[٤] ، فسكوتُ الساكتِ منهم كنُطْقِ الناطقِ ؛ إذ هم المنزَّهون عن السكوت على باطل، والمداهنةِ[٥] فى كَذِب، وليس هناك رغبةٌ ولا رهبةٌ تمنعهم[٦] ، ولو كان ما سمعوه مُنْكَرا عندهم وغيْرَ معروف لديهم

(١) الآية التى كانت فى عمرة الحديبية أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج من المدينة معتمرا، فلما وصل إليها صده المشركون عن البيت ، وكان بين يديه ركوة فتوضأ منها ، وماء البئر قليل جدا نزحه الناس ، وشكوا العطش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزع سهما من كنانته وأعطاه لناجية بن عميرة ، فغرزه فى البئر ؛ فجاش ماؤها ، وجاءت جارية من الأنصار معها دلو، فأقبلت به على ناجية ، وهو فى القليب ، وقالت :

يأيها المائح دلوى دونكا إنى رأيت الناس يحمدونكا
يثنون خيرا ويمجدونكا أرجوك للخير كما يرجونكا

أما فى تبوك . اسم موضع بين الشام والمدينة، سميت بعين ماء : فقد أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يمسوا ماءها ، فسبق رجلان بسهمين جعلاهما فيها ليكثر ماؤها فزجرهما رسول الله ، وقال لهما : مازلتما تبوكانها ؛ أى تحفرانها ليخرج ماؤها .

وأشار المصنف إلى آية فيها رواها أبو هريرة ؛ وهى أن الناس أصابتهم مجاعة ، فقال عمر ـ رضى الله عنه : يارسول الله ، ادع بفضل الأزواد ، فدعا بنطع وبسطه ، ودعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجىء بكف من ذرة ، والآخر بكف من تمر ، والآخر بكف من شعير ؛ فجمع ذلك وبرك عليه ، ثم قال : خذوا ؛ فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما فى العسكر وعاء إلا ملئوه ، وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة .

(٢) المحافل : جمع محفل ، من حفل القوم ؛ إذا اجتمعوا وكثروا .

(٣) لم يؤثر : لم ينقل .

(٤) أى لم ينقل إنكار أنهم رأوا من النبى صلى الله عليه وسلم كما رآه منهم الآخر ، بل سكتوا حين سمعوا من بعض الرواة أنه شاهد بعض آياته صلى الله عليه وسلم .

(٥) المداهنة : المطاوعة . (٦) تمنعهم : أى الصحابة .

لأنكَرُوه ، كما أنكر بعضُهم على بعض أشياء روَاها من السُّنن والسِّيَر وحروف القرآن[١] . وخطَّأَ بعضُهم بعضا ، ووهَّمَهُ في ذلك ، مما هو معلوم ؛ فهذا النوعُ[٢] كلُّه يلحَقُ بالقَطْعِي من معجزاته لما بيناه .

وأيضا فإنَّ أمثالَ الأخبارِ التي لا أصلَ لها ، وبُنِيت على باطل ، لابد بعد مرور الأزمانِ وتداوُلِ الناسِ وأهلِ[٣] البَحْثِ من انكشاف ضعفها ، وخمول ذِكْرِها[٤] ، كما يشاهد في كثير من الأخبارِ الكاذبة ، والأَرَاجِيف[٥] الطارئة . وأعلامُ[٦] نبيِّنا هذه الواردةُ من طريق الآحادِ لا تزدادُ مع مرورِ الزمان إلّا ظهورا[٧] ، ومع تداول الفِرَق[٨] ، وكثرةِ طَعْنِ العدو ، وحِرْصِه على توهينها ، وتَضْعِيفِ أصلها ، واجتهاد المُلْحِدِ[٩] على إطفاء نورها إلا قوة وقَبُولا ، وللطاعِنين عليها إلا حسرة وغَلِيلا[١٠] .

وكذلك إخبارُه عن الغيوب ، وإنباؤه بما يكون[١١] وكان[١٢] مَعلوم من آياته على الجملةِ بالضَّرُورة .

---

(١) وحروف القرآن : يريد قراءاته المتعددة .

(٢) هذا النوع كله من المعجزات المروية بطريق الآحاد ، ولم يشتهر اشتهارا يقرب من التواتر .

(٣) وأهل البحث : المراد علماء الحديث الذين يبحثون عن رواه الحديث صحة وضعفا .

(٤) وخمول ذكرها : بأن تنسى ، ولا يشتهر لها ذكر ، لكونها لا أصل لها .

(٥) والأراجيف : الأكاذيب . (٦) أعلام نبينا : المراد معجزاته المعلومة المشهورة .

(٧) ولو كانت غير صحيحة ازدادت خفاء وضعفا .

(٨) تداول الفرق : تكلم الناس بها فرقة بعد فرقة .

(٩) الملحد : الإلحاد : الميل عن الاستقامة ، والعدول عن الحق . وفي ا : وإجهاد .

(١٠) غليلا : حقدا .

(١١) الغيوب : جمع غيب ، وهو ماخفي علمه عن الناس ، كالدجال والمهدى وغير ذلك ، وإنباؤه بما يكون في المستقبل من أشراط الساعة ، ومما يقع بين أمته من الفتن وغيرها .

(١٢) وكان : أي حصل في الماضي .

وهذا حقٌّ لا غِطاءَ عليــه[١] ؛ وقد قال به من أئمتنا القاضى[٢] ، والأستاذ أبو بكر[٣] وغيرهما ، رحِمَهم اللهُ ؛ وما عِنْدى أوجبَ قولَ القائل : إنّ هذه القصصَ المشهورةَ من بابِ خَبَرِ الواحدِ إلّا قلّةُ مطالعته[٤] للأخبار ورواياتِها ، وشُغْلُه بغير ذلك من المعارف؛وإلّا فمن اعتنى بطُرق النّقْل،وطالعَ الأحاديثَ والسِّيَرَ لم يرْتَبْ[٥] فى صحة هذه القِصص المشهورةِ على الوجْهِ الذى ذكرناه .

ولا يَبْعُد أَنْ يحصلَ العِلْمُ بالتواتُر عند واحدٍ ولا يحصلُ عند آخر ؛ فإنّ أكثر الناس يعلمون ـ بالخبَر ـ كونَ بغداد موجودةً ؛ وأنها مدينةٌ عظيمةٌ، ودارُ الإمامةِ والخلافةِ ؛ وآحادٌ من الناس لا يعلمون اسْمَها ؛ فَضْلا عن وصْفِها ؛ وهكذا[٦] يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورةِ وتواتُرِ النقْل عنه ـ أنّ مذْهبَه إيجابُ قراءةِ [٩٠] أُمّ[٧] القرآن فى الصلاةِ للمُنْفَرِدِ والإمامِ ، وإجْزَاء النيّةِ[٨] فى أولِ ليلةٍ من رمضان عمّا سِوَاهُ ؛ وأنّ الشافعىّ يرى تجْديدَ النيّةِ كلّ ليلة ؛ والاقتصارَ فى المَسْح على بَعْض الرأس، وأنّ مَذْهبَهما القِصَاصُ فى القَتْلِ بالمُحدَّدِ[٩] وغيرِه ، وإيجابُ النيةِ فى الوضوء ، واشتراطُ الولىّ فى النّـكاح ؛ وأنّ أبا حنيفةَ يخالِفُهما فى هذه المسائل ؛ وغَيْرُهم مِمّن لم يَشْتغِل بمذاهبهم ولا رَوَى أقوالَهم لا يعرفُ[١٠] هذا مِنْ مَذَاهبهم فَضْلا عمّن[١١] سِوَاه .

وعند ذِكْرِنا آحادَ هذه المعجزات نزيد الـكلامَ فيها بيانا إنْ شاء الله تعالى .

---

(١) لاغطاء عليه : ظاهر ، منـكشف ، من غير لبس وشبهة ، وخفاء .

(٢) هو أبو بكر الباقلانى . (٣) أبو بكر : هو ابن فورك من الشافعية .

(٤) وما عندى : فى اعتقادى وحكمى . وأوجب : اقتضى واستلزم وألجأ ؛ أى لم يلجئه لذلك إلا قلة مطالعته للأخبار النبوية . ومطالعتها : الاطلاع عليها .

(٥) لم يرتب لم يشك . (٦) وهكذا : أى مثل أمر بغداد .

(٧) أم القرآن : الفاتحة . (٨) إجزاء النية : نية صوم رمضان كله .

(٩) بالمحدد : الذى له حد جارح كالسيف ونحوه .

(١٠) فى ا : لا يعلم . (١١) فى ب : عما .

فصـــل

فى إعجاز القرآن

[قال القاضى أبو الفضل رَحِمَه الله] (١) :

اعلم ـ وفقّنا اللهُ وإيّاكَ ـ أن كتاب الله العزيز (٢) مُنْطَوٍ (٣) على وُجوهٍ من الإعجازِ كثيرةٍ ، وتحصيلُها من جهة ضَبْطِ أنواعِها فى أربعة وجوه :

أولها ـ حُسْنُ تأليفه ، والْتِئَامُ كَلِمه (٤) ، وفصاحتُه ، ووجوهُ إيجازه ، وبلاغتُه الخارقة عادةَ العرب ؛ وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن (٥) ، وفُرْسانَ الـكلامِ ؛ قد خُصُّوا من البلاغة والحِـكَمِ (٦) بما لم يُخَص به غيرهم من الأمم ، وأُوتُوا من ذَرَابةِ اللسان (٧) ما لم يُؤْتَ إنسان ، ومِنْ فَصْلِ الخطابِ ما يُقَيِّدُ الألباب (٨) ؛ جعل اللهُ لهم ذلك طَبْعاً وخِلْقة ، وفيهم غريزةً وقوة ، يأتون منه على البَدِيهة بالعَجَب (٩) ،

(١) من ب .

(٢) العزيز : القوى الغالب ، أو الذى لا نظير له .

(٣) منطو : مشتمل ومحتو .

(٤) حسن تأليفه : أى نظم كلماته مؤتلفة متوافقة . والتئام كلمه : كونها متناسبة بحسب الدلالة ومقتضى مقاماتها .

(٥) الشأن : الأمر العظيم ، والمراد به البلاغة ، وجعلهم أربابها ، أى أصحابها المالـكين لها ، الذين بيدهم أزمتها . وفى معترك الأقران : الذين هم فرسان الـكلام وأرباب هذا الشأن .

(٦) أى خصهم الله تعالى من دون الناس ببلاغة كلامهم المخصوصة بلغاتهم وبما تضمنته من الحـكم ؛ أى المعانى المحـكمة المتقنة ، وما يحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات .

(٧) الذرابة : أصل معناها حدة السيف والسنان ، والمراد طلاقة اللسان مع خلوه عن اللـكنة .

(٨) من فصل الخطاب : الخطاب البين الفاصل عند المحاجة الذى لا لبس فيه ولا خفاء . والألباب : جمع لب ، وهو العقل . ويقيد الألباب : يحيرها إذا سمعته ، حتى كأنها قيدت ومنعت عن الإتيان بمثله لدهشتها من حسنه وبراعته .

(٩) البديهة : الفجاءة . والعجب : الأمر الذى يعد عجيبا لحسنه وسمو معناه ، فـكأنه لم يعهد .

ويُدْلُونَ به إلى كل سبب[١]؛ فيخطبون بَدِيهاً فى المقامات[٢]، وشديدِ الخَطْبِ[٣]، ويرتجزون[٤] به بين الطعن والضرب، ويمدحــونَ ويَقْدَحون[٥]، ويتوسَّلُون ويتوصَّلُون، ويرفعون ويَضَعُون[٦]، فيأتون من ذلكَ بالسحْرِ الحلال، ويطوِّقُون من أوصافهم أجملَ مِنْ سِمْطِ اللآل[٧]، فيَخْدَعون الألبابَ، ويذلِّلُون الصعابَ، ويذهبون الإحَنَ[٨]، ويُهيجون الدِّمَن، ويجرِّئُون الجبانَ، ويَبْسطون يَدَ الجعْدِ البنَانِ[٩]، ويُصَيِّرون الناقِصَ كاملا، ويتركونَ النّبيه[١٠] خاملًا.

---

(١) ويدلون به: يتوصلون. سبب: طريق ووسيلة إلى تحصيل مهمات أمورهم؛ كإلزام الخصوم، وجلب محبة القلوب، واستعطاف الملوك والرؤساء.

(٢) بديها: من غير تصنع ولا تكلف. والمقامات: محافل الناس ومجامعهم.

(٣) الخطب: الأمر العظيم الشأن الذي من شأنه أن تقع فيه المخاطبات والمنازعات؛ فكان لكل قوم خطيب يقوم بينهم يحثهم على مهماتهم.

(٤) ويرتجزون به: أى ينشدون رجزا، وهو نوع من الشعر.

(٥) يقدحون: يذمون ويهجون.

(٦) يرفعون من مدحوه بمدائحهم، فيصير نابه الذكر بعد أن كان خاملا، ويضعون مقدار من ذموه بقدحهم حتى يصير سبة بينهم.

(٧) أجمل: أزين وأحسن. وأصل السمط: السلك ما دام فيه الخرز. واللآل: اللآلئ. وقد ضبطت سين كلمة السمط بالفتحة والكسرة وكتب عليها معا فى ب. وفى ا: ضبطت بالفتحة، وكأنها جمع سمط مع أن القاموس قال: جمع سمط سموط. وضبط السين بالكسر.

(٨) الإحن: جمع إحنة، وهى الحقد. ويهيجون: يحركون ويظهرون. والدمن: جمع دمنة؛ وهى فى الأصل ما فى مبارك الإبل من بعرها المتلبد بما عليه من أبوالها، والمراد الحقد المضمر المجتمع فى الباطن.

(٩) يبسطون يد الجعد البنان: يمدون، ويذهبون جمودتها، وهى انقباضها. والمعنى أنهم بفصاحتهم يصيرون البخيل كريما.

(١٠) النبيه: الشريف المشهور.

منهم البَدَوىُّ ذو اللفظِ الجزْلِ [١] ، والقولِ الفَصْلِ [٢] ، والكلامِ الفَخْمِ ، والطَّبْعِ الجوْهرى [٣] ، والمَنْزَعِ القَوِىّ [٤] .

ومنهم الحضَرِىّ ذُوالبلاغةِ البارِعة ، والألفاظ الناصِعَة [٥]،والكلماتِ الجامعة، والطبْعِ السَّهْل ، والتصرُّفِ فى القولِ القليلِ الكُلْفَةِ [٦] ، الكثير الرَّوْنقِ ،الرقيقِ الحاشية [٧] .

وكِلَا البابَيْنِ [٨] لها فى البلاغةِ الحجّةُ البالغة ، والقوةُ الدامغةُ [٩] ، والقِدْحُ الفالج [١٠] ،والمَهْيَعُ الناهج [١١]، لايَشُكُّون أنّالكلامَ طَوْعُ مُرادِهِم، والبلاغةَ مِلْكُ قِيادِهم ، قد حَوَوْا فنونَها ، واستَنْبطوا عُيونَها [١٢] ، ودخلوا مِنْ كلٍّ بابٍ من

(١) اللفظ الجزل : اللفظ المحكم القاطع الفاصل .

(٢) الفصل : الذى يفصل بين الحق والباطل .

(٣) الجوهرى : النفيس .

(٤) والمنزع القوى : أى يأتون بنوع من الكلام يستخرجونه من بين أنواع الكلام بطباعهم السليمة بحيث إذا سمعه السامع شفى غليله .

(٥) الناصعة : الخالصة من الألفاظ الوحشية الغريبة السالمة من الركاكة .

(٦) والتصرف فى القول القليل الكلفة : القليل صفة للتصرف ؛ أى يخرج من نوع إلى نوع من غير تكلف لكونه سجية له . وقد تكون « القليل » صفة للقول : أى لايورد فى كلام مايعسر فهمه على السامع لغرابته أو تعقيده .

(٧) الرونق : الحسن واللطافة . والحاشية : أصل الحاشية : طرف البرد والثوب . ورقة حاشيته عبارة عن رقته وحسن نسجه ، وسهولته وسلاسته .

(٨) وكلا البابين : أى كلام البدوى ، والحضرى .

(٩) الدامغة : الغالبة لغيرها .

(١٠) القدح : واحد قداح الميسر ؛ وهو سهم بغير ريش ، وقداح الميسر: كانوا يقامرون بها فى الجاهلية ، منها ماله نصيب ، ومنها ما لا نصيب له . والفالج : الفائز ؛ أى لهذه اللغة شرف وفوز عند سامعها .

(١١) المهيع : الطريق الواسع . الناهج : البين الواضح المسلوك .

(١٢) استنبطوا عيونها : استخرجوا خيارها ومحاسنها .

أبوابها ، وعَلَوْا صَرْحا لبلوغ أسبابها [١] ؛ فقالوا فى الخطير والمَهين [٢] ، وتفننوا فى الغَثّ والسَّمين [٣] ، وتقاوَلوا فى القُلّ والكُثْر [٤] ، وتساجَلوا فى النظم والنثر [٥] ؛ فما راعَهم [٦] إلا رسولٌ كريمٌ ، بكتاب عَزيز لا يأتيه الباطِلُ مِنْ بَيْن يدَيه ولا مِنْ خَلْفِه ، تنزيلٌ مِنْ حَكيم حَميد ؛ أُحكمتْ آياتُه، وفُصِّلت كلماتُه ، وبَهرتْ [٧] بلاغتُه العقولَ ، وظهرت فصاحتُه على كل مَقُول ، وتظافرَ إيجازُه وإعجازُه ، وتظاهرتْ حقيقتُه ومجازُه ، وتبارَتْ فى الُحسنِ مطالِعُه ومَقاطعُه [٨] [٩١] ، وحوَتْ كُلَّ البيانِ جوامِعُه [٩] وبدائعُه ، واعتدلَ مع إيجازه حُسْنُ نَظْمه ، وانطبق على كثرة فوائده مختارُ لَفْظِه [١٠] ، وهم أفسَحُ ما كانوا فى هذا البابِ مَجالا ، وأشهر

(١) وعلوا صرحا : علوا : صعدوا . والصرح : البيت العالى المزخرف بناؤه ، والبيت المنفرد . لبلوغ أسبابها؛ أى علوا قصر البلاغة ، ليصلوا إلى ما فيه من الأسباب الموصلة لمهماتهم ومطالبهم النفيسة .

(٢) الخطير : : الأمر العظيم الذى له خطر ؛ أى شرف ومزية . والمهين : الحقير .

(٣) تفننوا : أتوا بكل فن من فنون الكلام . والغث : أصله المهزول ، والمراد به القبيح والفاسد . وضده السمين .

(٤) تقاولوا : أداروا الكلام بينهم . القل : القليل . والكثر : الكثير .

(٥) تساجلوا : المراد أنهم تناوبوا أو تفاخروا وتعارضوا فى عد المآثر ، كما هو معروف عندهم .

(٦) فما راعهم : أى بينماهم كذلك جاءهم أمر بغتة لم يكن لهم علم به، ولم يطرق مسامعهم مثله .

(٧) بهرت : غلبت ، وأدهشت .

(٨) تبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه : تشابهت وتساوت أوائله وأواخره . والمعنى أن مطالعه — وهو مبدؤه كفواتح السور ، ومقطعه — وهو منتهاه وغايته كخواتم السور — يجارى كل منهما الآخر ويسابقه ليحوز قصب السبق من الفصاحة وصحة المعانى . والمراد تشابههما .

(٩) جوامعه : أى جوامع كلمه التى جمعت المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة .

(١٠) انطبق : وافق ، واحتوى . كثرة فوائده : معانيها التى تفيدها. مختار لفظه : لفظه المهذب الذى كأنه انتخب ونقى .

فى الخطابة رِجَالا ، وأكثر فى السجع والشعر سِجَالا [١] ، وأوسعُ فى الغريب واللغةِ مَقَالا [٢] ؛ بلُغَتِهم التى بها يتحاوَرُون ، ومَنَازِعِهم التى عنها يتناضلون [٣] ، صارِخاً بهم فى كل حين ، ومُقَرِّعا لهم بِضْعاً [٤] وعشرين عاما على رءوس الملأ أجمعين : ﴿أَمْ يَقُولُونَ [٥] افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بسورةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾ [٦] .

﴿وإنْ كُنْتُمْ [٧] فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنا فَأْتُوا بسورةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءكم مِنْ دُونِ اللهِ إن كُنْتم صادِقين . فإنْ لم تفعَلُوا ولَنْ تَفعَلُوا . . .﴾ .

و ﴿قُلْ [٨] لَئِنِ اجتمعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هــذا القرآنِ لا يأتون بِمِثْلِهِ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهِيرًا﴾ .

و ﴿قُلْ [٩] فأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ . وذلكَ أنَّ المُفْتَرِى أَسْهلُ وَضْعِ الباطلِ والمُخْتَلَقِ على الاختيارِ أقْرَب [١٠] ، واللفظُ إذا تبِعَ المعنى الصحيح كان أَصْعب ؛ ولهذا قيل : فلان يكتبُ كما يقالُ له ، وفلان يكتب كما يُرِيد .

---

(١) سجالا : المراد بالسجال هنا المحاورة . أو المفاخرة . أو سجالا ؛ أى تارة ، تارة ، باعتبار المناوبة والمغالبة . وفى ا : ارتجالا ، وفى هامشه : سجالا . وفى ب : سجالا ، وفى هامشه : ارتجالا .

(٢) مقالا : قولا .

(٣) المناضلة : المفاخرة ، أو المغالبة بالكلام من النظم والنثر .

(٤) ومقرعا لهم : أى معيرا وموبخا لهم . والبضع : من الثلاث إلى التسع من كسور العدد .

(٥) سورة يونس ، آية ٣٨

(٦) وادعوا من استطعتم : ادعوا كل من قدرتم على دعوته ليعينكم على افتراء كلام يضاهيه .

(٧) سورة البقرة ، آية ٢٣ ، ٢٤

(٨) سورة الإسراء ، آية ٨٨

(٩) سورة هود ، آية ١٣ . ومفتريات : محض كذب واختلاق منكم .

(١٠) المراد بالاختيار ضد الإلجاء والاضطرار ؛ فإن الصادق مضطر إلى اتباع الحق ، وقد يضيق عليه نطاق البيان بخلاف الكاذب فإنه يجد مجالا واسعا .

وللأوّلِ[١] على الثانى فَضْل ، وبينهما شأْوٌ بعيد[٢] .

فلم يزَلْ يُقرِّعهم صلى الله عليه وسلم أشدَّ[٣] التقريع ، ويوبِّخهم غايَة التوبيخ ، ويَسفِّهُ أحلامَهم[٤] ، وَيحُطّ أعلامَهم[٥] ، ويشتِّتُ نظامَهم[٦] ، ويذمُّ آلهتَهم وآباءَهم ، ويستبيحُ أرضَهم وديارَهم وأموالَهم ، وهم فى كل هذا ناكِصُونَ[٧] عن معارضتِه ، مُحْجِمون عن مُماثلته[٨] ، يُخادِعُون أنفسهم بالتشْغِيب والتكذيب ، والإغراء بالافتراء[٩] ، وقولهم[١٠] : ﴿ إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر ﴾ ، و ﴿ سِحْرٌ[١١] مستَمِرّ ﴾ ، و ﴿ إفْكٌ[١٢] افْتَرَاهُ ﴾ ، و ﴿ أساطِير[١٣] الأوّلين ﴾ ؛ والمباهتةِ والرضا

---

(١) الأول : الذى يكتب كما يقال له . والثانى : الذى يكتب ما يريد . والمراد بالكتابة هنا : الكلام ، وإن لم يكتب . (٢) شأو : غاية وأمد . والمراد التفاوت الزائد .

(٣) فى ا : غاية . وفى هامشه : أشد ، وعليها علامة الصحة .

(٤) يسفه أحلامهم : السفه : الخفة . والأحلام : العقول ؛ أى يصفهم بالسفه وقلة العقل .

(٥) يحط أعلامهم : ينكس راياتهم ، ويذل سادتهم ، ويزرى بألبابهم . والمراد أنه يحقرهم ، ويقهرهم بطعنه فيهم ، وإظهار ضلالهم وسوء حالهم .

(٦) ويشتت نظامهم : يفرق جمعهم ، ويبطل آراءهم بجداله وجلائه .

(٧) ناكصون : نكص : أحجم وتأخر . والمراد أنهم لم يعارضوه فيما فعله ، وفيما أتى به ، ولم يأتوا بمثله .

(٨) عن مماثلته : عن الإتيان بشىء يماثل أقصر سورة منه لما تحداهم .

(٩) التشغيب : تهييج الشر والفتن . والتكذيب : أى بادعائهم كذب رسول الله فيما جاء به من الحق الذى لامرية فيه . وفى ا : بالتكذيب . وفى هامشه : بالأكاذيب . والإغراء الحث والتحريض . وفى ا : والاغتراء .

(١٠) سورة المدثر ، آية ٢٤ ، يؤثر : ينقل .

(١١) سورة القمر آية ٢ ، وسحر مستمر : دائم باق ، أومحكم متقن .

(١٢) سورة الفرقان ، آية ٤ ، وإفك افتراه : كذب اخترعه واختلقه . والإفك : أسوأ الكذب .

(١٣) سورة الأنعام ، آية ٢٥ وغيرها . وأساطير الأولين : شىء أخذه مما سطره الأولون وزخرفوه . وقائل هذا هو النضر بن الحارث بن كلدة .

بالدَّنِيَّة[١] ؛ كقولهم[٢] : ﴿ قُلُوبُنا غُلْف ﴾ . و ﴿ فِي[٣] أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إليه ، وفى آذَانِنا وَقْر ، ومِنْ بيننا و بَيْنِكَ حِجَاب ﴾ ؛ و ﴿ لا تَسْمَعُوا[٤] لهذا القُرْآنِ والْغَوْا فيه لعلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ .

والادّعاء مع العَجْزِ بقولهم[٥] : ﴿ لو نَشَاء لقُلْنَا مِثْلَ هذا ﴾ .

وقد قال لهم الله : ولَنْ تَفْعَلوا ؛ فما فعلوا ولا قَدَروا . ومَنْ تعاطَى ذلك من سُخَفَائهم[٦] — كمُسَيْلمة — كشفَ عُواره[٧] جميعهم ؛ وسلبهم اللهُ ما أَلِفوه[٨] ،

---

(١) المباهتة : الـكذب الذى يبهت ويدهش سامعه . والدنية : الخصلة الحقيرة الخسيسة المنحطة التى لا يرضى بها من له عقل ومروءة .

(٢) سورة البقرة ، آية ٨٨ ، والنساء ، آية ١٥٥ ، وظاهره الوصف بالحماقة وعدم الفهم؛ وهو أمر مذموم لا يرتضيه العقل . وغلف : جمع أغلف ، أى فى غلاف .

(٣) سورة فصلت ، آية ٥

والأكنة : جمع كنان ؛ أى غطاء ؛ يريد مغطاة ؛ أى لا نفهم ما تقول ، ولا يصل إليها الدعوة . وما يدعوهم إليه القرآن والإيمان . والوقر : الصمم ، وأصل معناه الثقل .

(٤) سورة فصلت ، آية ٢٦

لا تسمعوا لهذا القرآن: لا تصغوا ولا تنصتوا إليه . والغوا فيه : المراد رفع الصوت بأى كلام كان ، حتى يشوس على قارئه ، فيقطع قراءته ، أو يمنع من استماعه . لعلـكم تغلبون قارئه بقطع قراءته ؛ فغلبتهم إنما هى بالجهل والسفه ، كما هو شأن العاجز المعاند .

(٥) سورة الأنفال ، آية ٣١ ، وقائل هذا هو النضر بن الحارث .

قال فى نسيم الرياض (٢ — ٥٢٦) : وهذه وقاحة لفرط عنادهم ومكابرة ؛ ولو استطاعوا مامنعهم أن يشاءوا ، وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشرين سنة ، ثم قارعهم بالسيوف فلم يقدروا مع استنكافهم من أن يغلبوا ، خصوصا فى الفصاحة .

(٦) من سخفائهم : ممن فيه طيش وقلة عقل .

(٧) عواره — بفتح العين وضمها : عيبه وحماقته . وقد ضبطت كذلك فى ب ، وكتب عليها « معا » .

(٨) ما ألفوه : ما اعتادوه بطباعهم .

من فصيح كلامِهم ، وإلّا فلم يَخْفَ على أهـــلِ المَيْزِ منهم أنه ليس من نَمَطِ فصاحتهم[١] ، ولا جِنْس بلاغتهم ؛ بل وَلَّوْا عنه مُدْبِرين ، وأَتَوْا مُذْعِنين مِنْ بين مُهْتَدٍ وبين مَفْتُون[٢] .

ولهذا لما سَمِعُ الوليدُ بنُ المغيرة مِن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنّ[٣] اللهَ يَأْمُر بالعَدْلِ والإحسانِ وإِيتاء ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عن الفَحْشَاء والْمُنكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكم لعلّكُم تَذَكَّرُون ﴾ . قال : واللهِ ، إنّ له لحَلَاوة[٤] ، وإنّ عليه لَطلاوةً ، وإن أَسْفَلَه لَمُغْدِق ، وإنّ أعلاه لَمُثْمِر ، ما يقولُ هذا بَشَر[٥] .

وذكر أبو عُبيد[٦] أنّ أعرابيا سمِعَ رجلا يقرأ[٧] : ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ ، وأَعْرِض عن الْمُشْرِكين ﴾ ـ فسجد ، وقال : سجدْتُ لفصاحته .

وسمع آخرُ رجلا يقرأ[٨] : ﴿ فلما اسْتَيْأَسُوا منه خَلَصُوا نَجِيّا ﴾ ، فقال : أشهد أنّ مخلوقا لا يقدِرُ على مثْلِ هذا الكلامِ .

---

(١) الميز : التمييز والعقل . ونمط فصاحتهم : نوع فصاحتهم ، وطريقتها .

(٢) مذعنين : منقادين . والمفتون : المتحير فى أمره المنكر لإعجازه .

(٣) سورة النحل ، آية ٩٠ (٤) فى ا : حلاوة .

(٥) طلاوة : حسن وقبـــول ورونق . مغدق : من الغدق ، وهو كثرة الماء . لمثمر : له ثمر طيب كثير . والمراد أن كلامه أصله قوى ، ليس من جنس كلام البشر . ومعانيه مفيدة مرشدة لسعادة الدارين وحسن العاقبة . وأراد بأسفله : ماتضمنه من المعانى ، كما يقال : تحت هذا الكلام معان غزيرة . وأراد بأعلاه : ماينتجه من الفوائد والعوائد التى تظهر من فهم معانيه وتيقنها . ما هذا يقول بشر : لايشبه كلام البشر بوجه من الوجوه . وفى هامش ب أمام هذه الجملة : وكذلك قال خالد بن عتبة . (٦) فى هامش ب : خ : أبو عبيدة .

(٧) سورة الحجر ، آية ٩٤ . واصدع بما تؤمر : اجهر بما أمرت بتبليغه ، ولا تبال بما يقولونه .

(٨) سورة يوسف ، آية ٨٠ ، استيأسوا : يئسوا من يوسف . وخلصوا : اعتزلوا وانفردوا . نجيا : متناجين فى تدبير أمره .

وحُـكِيَ أنّ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يوما نائما فى المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهّدُ شهادةَ الحق ؛ واستخبره، فأعلمه أنه مِنْ بَطَارِقةِ(١)، الروم ممن يُحْسِنُ كلامَ العرب وغيرها ، وأنه سمِعَ رجلا من أسْرَى(٢) ، المسلمين [٩٢] يقرأ آيَ من كتابكم فتأمّلتُها ، فإذا [هى](٣) قد جُمِعَ فيها ما أُنْزِل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة ؛ وهى قولُه تعالى(٤) : ﴿ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه ويَخْشَ اللهَ وَيتّقْهِ فأُولئكَ هم الفائزون ﴾ .

وحَـكَى الأصمعىُّ أنه سمِعَ كلامَ جارية ؛ فقال لها : قاتلكِ اللهُ ما أفصحك ! فقالت : أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى(٥) : ﴿ وأوْحينا إلى أمِّ موسى أنْ أرْضِعِيهِ ؛ فإذا خِفْتِ عليه فأَلْقِيهِ فى اليمّ ولا تَخافِي ولا تَحزَنى إنّا رَادُّوهُ إليكِ وجاعِلُوه من المرسلين ﴾ ؛ فجمع فى آيةٍ واحدة بين أمرين ونَهْيَيْنِ ، وخَـــبَرَين ، وبِشَارَتَيْن(٦) .

فهذا(٧) نوعٌ من إعجازِه مُنْفرد بذاته ، غَيْرُ مضافٍ إلى غيره على التحقيق والصحيح من القَوْلَيْن(٨) .

---

(١) البطارقة : جمع بطريق ، ومعناه الرئيس وقائد الجيش ، وجمعه بطارقة .
(٢) فى ب : قوما من أسرى المسلمين يقرءون . (٣) من ب .
(٤) سورة النور ، آية ٥٢ (٥) سورة القصص ، آية ٧
(٦) الأمرين : أرضعيه، وألقيه . والنهيين : لا تخافى، ولا تحزنى . والخبرين : أوحينا، وخفت عليه . والبشارتين : رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . (٧) فهذا الجمع .
(٨) قال فى نسيم الرياض (٢ ـ ٥٣١) : الظاهر أن مراده بالقولين هنا ـ كما قاله بعضهم : القول بأن إعجاز القرآن هل هو بمجموع بلاغته وأسلوب نظمه ؛ أو هو متحقق بكل واحد منهما على حدته وانفراده ، بدون إضافة أحدهما إلى الآخر ؛ فإن كلا منها خارق للعادة ، خارج عن طوق البشر .

وقيل : المراد بالقولين : القول بأن إعجازه ببلاغته التى لا يرتقى أحد إلى مرتبتها ؛ والقول بأنه معجز بغير ذلك كالصرفة ، والإخبار بالمغيبات . والأول هو المتبادر من سياقه .

وكونُ القرآنِ مِنْ قِبَلِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنه أتى به ـ معلوم ضرورة، وكونُه ـ عليه السلام ـ مُتَحدِّياً به معلوم[١] ضرورة، وعَجْزُ العربِ عن الإتيانِ به معلوم ضرورة، وكونُه في فصاحته خارقاً للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوهِ البلاغة؛ وسبيل[٢] مَنْ ليس مِنْ أهلها عَلِمَ[٣] ذلك بعَجْزِ المفكِّرين من أهلها عن مُعَارضته واعترافِ المُفسِّرينَ بإعجاز بلاغَتِه.

وأنتَ إذا تأملت قوله تعالى[٤]: ﴿ولَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. وقوله[٥]: ﴿ولو تَرَى إذ فَزِعُوا فلا فَوْتَ وأُخِذُوا مِنْ مكانٍ قَرِيب﴾. وقوله[٦]: ﴿ادْفَعْ بالتى هى أَحْسَنُ فإذا الذى بينكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنه وَلِيٌّ حَمِيم﴾.

وقوله[٧]: ﴿وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى ماءَكِ، ويا سَماءُ أَقْلِعى وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأَمْرُ واستَوَتْ على الجُودِيّ، وقِيلَ: بُعْدًا للقَوْمِ الظالمين﴾.

وقوله[٨]: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بذَنْبِهِ، فمنهم مَنْ أَرسلنا عليه حاصِباً، ومنهم مَنْ

(١) فى هامش ا: التحدى: التعمد لمنازعة الغلبة.

(٢) سبيل: طريق من ليس من أهل الفصاحة الجبلية الموصلة لمعرفة إعجازه، كالمولدين والعجم.

(٣) فى ب: فعل مبنى للمعلوم، وللمجهول، وكتب عليه معا. وفى ا: علم ـ بكسر العين وسكون اللام.

(٤) سورة البقرة آية ١٧٩

(٥) سورة سبأ، آية ٥١، فزعوا: من حلول الأجل، أو من بعثهم من القبور، أو فى يوم بدر. وأخذوا من مكان قريب: من ظهر الأرض إلى بطنها. أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى قليبها.

(٦) سورة فصلت، آية ٣٤، أى ادفع سيئة من أساء إليك بالحسنة التى هى أحسن من كل شىء حسن، أو بأحسن دفع ممكن.

(٧) سورة هود، آية ٤٤، والإقلاع: الإمساك.

(٨) سورة العنكبوت، آية ٤٠. حاصبا: أى ريحا عاصفة فيها حصباء، وهى الحجارة الصغيرة ـ وهم قوم لوط. ومنهم من أخذته الصيحة: هم قوم ثمود ومدين. ومن خسفنا به الأرض: قارون. ومن أغرقنا: قوم نوح وفرعون.

أخذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، ومنهم مَنْ خَسَفْنَا به الأرضَ ، ومنهم مَنْ أغْرَقْنَا ﴾ .

وأشباهَها مِنَ الآيِ ، بل أكثَر القرآن ـ حقّقْتَ ما بيَّنْتُه من إيجار ألفاظِها؛ وكَثْرَة معانيها ، ودِيباجَةِ[1] عبارتِها، وحُسْنِ تأليفِ حروفِها، وتَلَاؤُم كَلِمِها[2] ، وأنَّ تَحْتَ كلِّ لفظةٍمنها جُمَلًا كثيرة؛ وفُصولا جَمّة[3]، وعلوما زواخِرَ، مُلِئَت[4] الدواوين[5] مِنْ بَعْضِ ما استُفيد منها ، وكَثُرَت المقالاتُ في المستَنْبَطاتِ[6] عنها .

ثم هو[7] في سَرْدِ القِصص الطِّوالِ ، وأخبار القرون السوالف[8] ، التي يضعفُ في عادةِ الفُصحاء عندها الكلامُ ، ويذهبُ ماء البيانِ[9] ـ آيةٌ[10] لمتأمِّلِه ؛ مِنْ رَبْطِ الكلام بعضِه ببعضٍ، والتئام سَرْدِه[11]، وتناصُفِ وجُوهِه[12]؛ كقصّة يوسف على طُولها .

---

(١) المراد حسن عبارتها .

(٢) تلاؤم كلمها : تناسب وموافقة .

(٣) وفصولا جمة : أنواعا كثيرة من محاسن الكلام .

(٤) زواخر : كثيرة ، كالبحار الزواخر ؛ من زخر البحر ؛ إذا كثر ماؤه وارتفعت أمواجه . (٥) الدواوين : الدفاتر ؛ يريد كتب التفسير وغيره من الفنون .

(٦) في المستنبطات عنها : أي في المعاني والأحكام المستخرجة بطريق الإشارة والدلالات .

(٧) هو : أي القرآن .

(٨) المراد بالقرون السوالف : الأمم المتقدمة على عصر النبوة . والقرن : مدة من الزمان مختلف فيها ـ والمراد أهله .

(٩) ماء البيان : رونقه وحسنه .

(١٠) آية : علامة .

(١١) والتئام سرده : أي مناسبة كلماته المسرودة المتتابعة مع فصاحتها ، وحسن تأليفها .

(١٢) وتناصف وجوهه: المراد بالوجوه بلاغته . وتناصف تفاعل ـ من النصفة والإنصاف، يقال أعضاؤه متناصفة حسنا ؛ أي لا ينقص حسن بعضها عن بعض .

ثم إذا(١) ترَدَّدَت قِصَصُه اختلفت العباراتُ عنها على كَثْرةِ تردُّدِها حتى تكادَ كلُّ واحدةٍ تُنَسِّى فى البيانِ صاحبتَها ، وتُناصِفُ فى الحُسْنِ وَجْهَ مُقابِلتِها ؛ ولا نفورَ للنفوسِ مِنْ تَرْديدها ، ولا معاداة لمُعادِها(٢) .

فصل

الوَجْه الثانى من إعجازه صورةُ نَظْمِه العَجِيب ، والأُسلوبُ الغريبُ المخالفُ لأَساليب كلامِ العربِ ومَنَاهِج(٣) نَظْمِها ونَثْرِها الذى جاء عليه ، ووقفَتْ مقاطِعُ آيه ، وانتهت فواصِلُ كلماته إليه(٤) ؛ولم يوجَد قَبْلَه ولا بَعْدَه نظيرٌ له، ولا استطاعَ أحدٌ مُماثلةَ شَىْءٍ منه ؛ بل حارَتْ فيه عقولُهم ، وتدلّهَتْ دونَه أحلامُهم(٥) ، ولم يهتدوا إلى مِثْلِه فى جِنْس كلامهم من نَثْرٍ أو نَظْم ، أو سَجْعٍ أو رَجَزٍ ، أو شِعْر .

ولما سمع كلامَه صلّى الله عليه وسلّم الوليدُ بن المغيرةِ ، وقرأ عليه القرآنَ ـ رَقّ ؛ فجاءه أبو جَهْل مُنْكِراً عليه [٩٣] ـ قال : واللهِ ما منكم أحدٌ أعلمُ بالأشعارِ منى ، واللهِ ما يُشْبِهُ الذى يقولُ شيئا مِنْ هذا .

---

(١) ترددت : تكررت .

(٢) أى لاتكره ، ولا تعادى الطباع المعاد فى القرآن والمكرر من قصصه .

(٣) المناهج : جمع منهج ، وهو الطريق ؛ أى لايشبه كلامهم المنظوم ، وهو الشعر ، ولا المنثور من الخطب وغيرها .

(٤) المقاطع : جمع مقطع ؛ وهو آخر الكلام الذى يقف عليه القارئ . والمراد انتهت ووصلت . والفواصل : جمع فاصلة ؛ وهى الكلمة الأخيرة من الفقرة ونحوها .

(٥) تدلهت : دهشت وتحيرت فى شأنه . والأحلام : جمع حلم ؛ وهو العقل . يعنى أن عقولهم لم تصل إليه ؛ إذ تحيرت فيما هو أقل منه ، فكيف به ! وفى ب : وتولهت .

وفى خبره الآخر ـ حين جمع قُرَيشا عند حضور المَوْسِم [١] ، وقال : إنّ وفُودَ العربِ تَرِدُ [٢] فأَجمِعُوا فيه رَأْيا [٣] ، لايكذِّبُ بعضُكم بعضا؛ فقالوا : نقولُ كاهن. قال : واللهِ ما هُوَ بكَاهِن . ما هُوَ بزَمْزَمَتِه [٤] ولا سَجْعِه .

قالوا [٥] : مجنون . قال : ما هُوَ بمَجْنون ، ولا بخَنَقِهِ [٦] ولا وَسْوَسَتِه .

قالوا : فنقـــول شاعر . قال : ما هو بشاعر . قد عرَفنَا الشِّعْرَ كلَّه ، رَجَزَه ، وهَزَجه ، وقَرِيضَه ، ومَبْسوطَه ومَقْبوضَه ، ماهو [٧] بشاعر .

قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هُوَ بساحِر ، ولا نَفْثِه ولا عَقْدِه [٨] .

قالوا : فما نقولُ : قال : ماأنتم بقائلين مِنْ هذا شيئا، إلا وأنا أعرِفُ أنه باطل، وإنَّ أقربَ القَوْلِ أنه ساحر ؛ فإنه سِحْرٌ يفرِّقُ بين المرء وابنه [٩] ، والمرء وأَخيه ، والمرء وزَوْجِه ، والمرء وعَشِيرته [١٠] .

---

(١) الموسم : المراد موسم الحج . وهذا الخبر فى دلائل أبى نعيم : ١ ـ ٣٠٢

(٢) ترد : أى يقدمون من غير البلاد .

(٣) فأجمعوا فيه : أى فى النبى ؛ أى دبروا وتداركوا . رأيا : أى أمرا يعتقدون أن له فائدة ونتيجة . وفى ا : فاجمعوا ـ بهمزة وصل .

(٤) الزمزمة : صوت خفى لايكاد يفهم ؛ أى ليس كلامه مشبها زمزمة الكاهن ، ولاسجعه.

(٥) فى ا : فقالوا .

(٦) الخنق ـ بفتح النون وكسرها : الجنون . وقال القارى (١ ـ ٥٥٨) : أى ليس ممن أصابه الجن وخنقه ، ولا وسوس له فى صدره .

(٧) الهزج : اسم بحر من بحور الشعر . والقريض : الشعر ، ولعله يريد المقطوعات الشعرية . ومبسوطه : مطولات قصائده . ومقبوضه : المراد به مختصر أوزانه .

(٨) النفث : النفخ مع ريق . والعقد : عقد حبال أو شعر مضفور ونحوه ؛ وكنى به عن أنه ليس له علم بما يعمله السحرة .

(٩) فى ب : وأبيه ، وابنه ، وعليها « معا » . وفى ا : وابنه ، وعليها علامة الصحة .

(١٠) وعشيرته : أى أقاربه الأدنون المعاشرون له .

فتفرّقوا وجلسوا على السُّبُل(١) يحذِّرون الناسَ؛ فأنزل الله تعالى في الوليد(٢): ﴿ ذَرْنِي(٣) ومَنْ خَلَقْتُ وحِيداً . وجعلْتُ له مالًا مَمْدُودًا . وبَنِينَ شُهودا . ومَهَّدْتُ له تمهيدا . ثم يَطْمَعُ أنْ أزِيدَ . كلّا إنه كان لآياتنا عَنِيداً . سأُرْهِقُه صَعُودا . إنه فَكَّرَ وقَدَّرَ . فقُتِلَ كيف قدَّر . ثم قُتِلَ كيف قَدَّرَ . ثم نظر . ثم عَبَس وبَسر . ثم أدْبر واسْتَكْبَر . فقال : إنْ هذَا إلَّا سِحْرٌ يُؤْثَر ﴾(٤) .

وقال عُتْبَةُ بن ربيعة حين سَمِع القرآنَ : يا قومِ ؛ قد علمتُم أني لم أترك شيئا إلَّا وقد علمتُه وقرأتُه وقلتُه ؛ واللهِ لقد سمعتُ قوْلا واللهِ ما سمعتُ مثلَه قطُّ ؛ ماهو بالشِّعْرِ ، ولا بالسِّحْرِ ، ولا بالكَهَانة(٥) .

وقال النّضْر بن الحارث نحوه .

وفي حديث إسلام أبي ذَرّ(٦) ووصفَ أخاهُ أُنيساً ، فقال : واللهِ ماسمعتُ بأشعر من أخِي أُنيس ؛ لقد ناقَضَ(٧) اثني عشر شاعرا في الجاهلية(٨) ، أنا أحدُهم ، وإنه انطلق إلى مكة ، وجاء إلى أبي ذَرّ بخَبَرِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم . قلت : فما يقولُ الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، لقد سمعْتُ قولَ الكَهَنةِ فما هو

(١) السبل : الطرق . (٢) خبر الوليد في الدلائل لأبي نعيم : ١ – ٣٠٣

(٣) سورة المدثر ، من آية ١١ – ٢٤

(٤) ذرني ومن خلقت وحيدا : دعني معه ، فأنا أكفيه من كيد أعدائه وإن كان وحيدا منفردا عن أهله وعترته لتركهم له .

(٥) ضبطت الكاف بالفتحة والكسرة ، وعليها « معا » في ب .

(٦) الغفاري الصحابي ، وهو جندب بن جنادة . وحديث إسلامه في صحيح مسلم: ١٩١٩

(٧) نقائض الشعر في الجاهلية : إذا قال أحدهم شعرا ذكر فيه افتخارا بآبائه وشرفهم على قوم غيره ، أو ذكر فيه هجاء غيره ومثالبه ؛ فيعارضه غيره بشعر يذكر فيه ضد ما قاله ؛ فيسمى ذلك مناقضة . ويقال للقصائد نقائض .

(٨) أي عارضهم في قصائدهم ، فأتى بمثلها ؛ وهذا يدل على فصاحته ومعرفته بالشعر .

بتَوْلم ، ولقد وضعتُه على[1] أقراء الشِّعْر فلم يلتَئم ، وما يَلْتَئم على لسان أحدٍ بعدى أنه شِعْر[2] ؛ وإنه لصادقٌ ، وإنهم لـكاذِبُون .

والأخبارُ فى هذا صحيحةٌ كثيرة .

والإعجازُ بكل واحدٍ من النوعين : الإيجاز والبلاغة بذاتها[3] ؛ أو الأسلوب الغريب بذاته[4] ، كلٌّ واحدٍ منهما نوعُ إعجازٍ على التحقيق ، لم تَقدِر العربُ على الإتيان واحدٍ منهما[5] ؛ إذ كلُّ واحدٍ خارجٌ عن قُدْرَتها ، مُبَايِن[6] لفصاحَتها وكلامها ؛ وإلى هذا ذهب غيرُ واحدٍ من أئمةِ المُحقّقين .

وذهب بعضُ [المحقّقين][7] المقْتَدَى بهم إلى أنّ الإعجازَ فى مجموع البلاغة والأسلوبِ[8] ، وأتى على ذلك بِتَوْلٍ تمجُّه الأسماعُ ، وتَنْفِرُ منه القلوبُ .

والصحيحُ ما قدّمناهُ[9] ، والعلمُ بهذا كلّه ضرورة قطعاً .

ومَنْ تفنّن فى علوم البلاغةِ ، وأرهف[10] خاطِرَه ولسانَه أدَبُ هذه الصناعةِ لم يَخْفَ عليه ما قلناه .

---

(١) وضعته على أقراء الشعر : أقراء الشعر : أنواعه وأنحاؤه وأمثاله ، أو قوافيه التى يختم بها ، أى وضعت قوله ، وقابلته ، وقسته بالشعر .

(٢) فلم يلتئم: فلم يتيسر ويتفق. والمعنى: لايلتئم لأحد غيرى أن يقول إنه شعر ؛ لأنه ليس أحد بأعلم بالشعر وأقدر عليه منى ؛ فلو أمكن لأحد أن ينزله على الشعر ويعارضه به كنت فعلت ، فحيث لم يتيسر لى لايتيسر لغيرى . والمراد إبطال كونه شعرا .

(٣) هذا فى ا ، ب .

(٤) يعنى كونه على نمط لا يشبه نمط كلامهم المنظوم ولا المنثور .

(٥) فى ب : منها . (٦) مباين : مخالف .

(٧) من ب . (٨) أي لا بكل واحد منهما .

(٩) من أن لـكل واحد وجها فى الإعجاز كافيا فيه .

(١٠) أرهف خاطره : أرهف : حدد ، ودقق، وسن .خاطره : فـكره . ولسانه : نطقه.

وقد اختلف أئمة أهلِ السنةِ في وَجْهِ عَجْزهم عنه ؛ فأكثرُهم يقول : إنّه ما جُمِع في قوةِ جَزالته، ونَصاعةِ ألفاظه[١]، وحُسْنِ نَظْمه، وإيجازِه، وبديعِ تأليفِه وأسلوبِه لا يصحُّ أن يكونَ في مَقْدُور البَشَرِ ، وأنه مِنْ باب الخوارقِ الممْتَنِعة عن إقدارِ الخلْق عليها[٢] ؛ كإحياء الموْتَى ، وقَلْبِ العصَا ، وتسبيح الحصَى .

وذهب الشيخُ أبو الحسن[٣] إلى أنه مما يمكنُ أن يدخلَ مِثْلُه تحت مقدور البَشَر، ويُقدرهم اللهُ عليه ؛ ولكنه لم يكُن هذا ولا يكون ؛ فمنعهم اللهُ هذا [٩٤] ، وعجّزَهم عنه .

وقال به جماعةٌ من أصحابه[٤] .

وعلى الطريقين[٥] فعجْزُ العربِ عنه ثابتٌ ، وإقامةُ الحجةِ عليهم بما يصحُّ[٦] أن يكونَ في مقدور البَشر ، وتحدِّيهم بأن يأْتُوا بمثله ـ قاطعٌ[٧] ؛ وهو أبلغُ في التعجيز ، وأحْرَى[٨] بالتقريع ، والاحتجاجُ بمجيء بشَرٍ مِثْلهم بشيء ليس مِنْ قدرة البشَر لازمٌ ؛ وهو أبْهَرُ آية ، وأقْمَعُ دلالة[٩] .

---

(١) الجزالة : الصلابة والقوة . والمراد إحكام نظمه ، وعدم ركاكته . ونصاعة ألفاظه : وضوحها وخلوصها .

(٢) من باب الخوارق : من جنسها ونوعها . الممتنعة عن إقدار الخلق عليها : أى التى لايقدرون عليها ، كأنها امتنعت عليهم ، وأبت مطاوعتهم .

(٣) هو أبو الحسن الأشعرى : إمام أهل السنة .

(٤) قال القارى (١ ـ ٥٦١) : وهذا هو القول بالصرفة ، وهو مرجوح عند أكابر الأئمة .

(٥) الطريقين: إعجازه ببلاغته وأسلوبه ؛ أو بتعجيزه سبحانه وتعالى إياهم عن معارضته .

(٦) أى بتكليفهم بأقل قليل منه ، وهو ما يمكن أن يكون . . .

(٧) قاطع : أى بتعجيزهم . (٨) أحرى : أحق ، وأولى .

(٩) وهو : أى المذكور منعدم قدرتهم . أبهر آية : أظهر . وأقمع :من قمعه؛ إذا قهره، وردعه ، وأذله بعجزه عن معارضته .

وعلى كلٍّ حال فما أَتَوْا فى ذلك بمقال ؛ بل صبَرُوا على الجَلَاء[١] ، والقَتْل ، وتجرَّعُوا كاساتِ الصَّغَار والذُّلّ ؛ وكانوا من شُمُوخِ الآنُفِ ، وإبَايَة الضَّيْم[٢] ، بحيث لا يُؤْثِرُون ذلك اختياراً[٣] ، ولا يرضَوْنه إلا اضطرارا ، وإلّا فالمعارضَةُ لو كانت من قُدَرِهم ، والشُّغْلُ بها أهونُ عليهم ، وأسرعُ بالنُّجْحِ وقَطْعِ العُـذْر وإفحامِ الخَصْمِ لديهم[٤] ، وهم مِمَّنْ لهم قُدْرةٌ[٥] على الـكلام ، وقدوةٌ فى المعرفةِ به لجميع الأنام ؛ وما منهم إلا مَنْ جَهَدَ جَهْدَه[٦] ، واستَنْفد ما عنده فى إخفاءِ ظهوره ، وإطفاءِ نُورِه ، فما جَلَوْا فى ذلك خَبِيئَةً مِنْ بنات شِفاههم[٧] ، ولا أَتَوْا بِنُطْفة مِنْ مَعين مِياههم[٨] ، مع طُولِ الأمَدِ ، وكَثْرَة العَدَد ، وتَظاهُر[٩] الوالد وما وَلَدَ ؛ بل أَبْلَسُوا فما نَبَسُوا[١٠] ، ومُنِعُوا فانْقَطَعُوا[١١] ؛ فهذان نوعان من إعجازه[١٢] .

---

(١) الجلاء : ترك الوطن والمال .

(٢) الآنف : جمع أنف . شموخ الأنف : كناية عن غاية التـكبر . والضيم : الذل والتحقير .

(٣) لايؤثرون : لايرضون ، ولا يختارون .

(٤) النجح : الظفر والفوز بمطلوبهم . وإفحام الخصم : إسكاته .

(٥) فى ا : اقتدار .

(٦) جهد جهده : بذل ما عنده من الجهد ، فلم يقدر على شىء منه .

(٧) جلوا : أظهروا . خبيئة : مخبأة فى ضمائرهم ، مستورة خلف أستار سرائرهم . من بنات شفاههم : أى كلمة يتلفظون بها .

(٨) بنطفة : بقطرة قليلة . والمعين : الماء الجارى ظاهرا ، والمراد من أنهار بلاغتهم وأسرار فصاحتهم ؛ أى لم يقدروا على شىء مما طاب منهم .

(٩) مع طول الأمد : أى اتساع زمن التحدى وطول وقته . تظاهر : تعاون ومساعدة .

(١٠) أبلسوا : يئسوا . نبسوا : نطقوا .

(١١) فانقطعوا عن المعارضة لعجزهم .

(١٢) أراد إعجازه بنص كلامه وخواص تراكيبه ، وبصورة نظمه وأسلوبه . ولم يلتفت إلى الصرفة لضعف القول بها عنده كما تقدم . وقال القارى (١ — ٥٦٣) : نوعان من إعجازه ؛ أى اجتماعا وانفرادا .

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز ما انطوَى[١] عليه من الإخبار بالمغيَّبات، وما لم يكن ولم يَقَعْ؛ فوُجِد؛ كما وردَ، وعلى الوَجْهِ الذى أخْبر به؛ كقوله تعالى[٢]: ﴿ لَتدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاء اللهُ آمِنين ﴾.

وقوله تعالى[٣]: ﴿ وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهم سَيَغْلِبُون ﴾.

وقوله[٤]: ﴿ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كلِّه ولو كَرِهَ المُشْرِكُون ﴾.

وقوله[٥]: ﴿ وعدَ اللهُ الذين آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فى الأرض كما استَخْلَفَ الذين مِنْ قَبْلِهم، ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهم الذى ارْتَضَى لهم، ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهم أمْناً، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بى شيئا، ومَنْ كفَر بعد ذلك فأُولئك هم الفاسِقُون ﴾.

وقوله[٦]: ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ. ورأيتَ الناسَ يدخُلونَ فى دِينِ اللهِ أفواجا. فسبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرهُ إنه كان توّاباً ﴾.

---

(١) ما انطوى عليه: ما اشتمل عليه.

(٢) سورة الفتح، آية ٢٧، رأى النبى وهو بالمدينة قبل عام الحديبية أنه دخل المسجد الحرام مع أصحابه، وأخبرهم بذلك، فظنوا أنه سيقع فى ذلك العام، فلما صدهم المشركون عن الدخول شق عليهم ذلك، فأخبرهم الله بأنه سيقع بعد ذلك، وكان كما أخبر.

(٣) سورة الروم، آية ٣، أخبر الله تعالى أن الروم تغلب فارس بعد مدة، وكان كما أخبر الله فى كتابه.

(٤) سورة التوبة، آية ٣٣، وعد الله بأن دين رسول الله سيظهر وتغلب أمته جميع الأمم، وكان كما قال.

(٥) سورة النور، آية ٥٥، ليستخلفنهم: أى يجعلهم خلفاء فى أرضه، مالكين لها منصورين على أعدائهم وكان كما قال.

(٦) سورة النصر، نزلت مبشرة بفتح مكة؛ وكان الفتح.

فكان جميعُ هذا ، كما قال ؛ فغلبت الرومُ فارسَ فى بِضع سنين، ودخل الناسُ فى الإسلام أفواجا[١] ؛ فما مات صلى اللهُ عليه وسلم وفى بلاد العرب كلِّها موضِعٌ لم يدخله الإسلامُ .

واستخلف [الله][٢] المؤمنين فى الأرضِ ، وَمكّنَ فيها[٣] دينَهم ، وملّكهم إياها من أقصى المشارقِ إلى أقصى المغَارِب[٤] ؛ كما قال عليه السلام[٥] : « زُوِيتَ لى[٦] الأرضُ، فأُرِيت مشارقَها ومغارِبَها، وسيَبْلغُ مُلكُ أمتى ما زُوِىَ لى منها » .

وقوله[٧] : ﴿ إنَّا نحنُ نزّلنَا الذِّكْرَ وإنّا لهُ لحافِظُون[٨] ﴾ ؛ فكانَ كذلك ، لا يكادُ يُعَدُّ مَنْ سَعَى فى تغْييره وتَبْدِيل مُحْكَمِه من المُلْحِدَةِ والمُعَطِّلَة ، لاسيّما القرامطة[٩] ؛ فأجمعوا كَيْدَهم وحَوْلَهم[١٠] وقوّتَهم ، اليومَ نَيِّفاً على[١١] خمسمائة عام ، فما قدَرُوا على إطفاء شىء من نُوره ، ولا تغْيير كلمةٍ مِنْ كلامِه[١٢] ، ولا تَشْكيكِ المسلمين فى حَرْفٍ من حروفه ، والحمدُ لله .

---

(١) أفواجا : جماعات كثيرة ، بعد جماعات كثيرة .

(٢) ليس فى ا .

(٣) فيها : فى الأرض .

(٤) من أقصى المشارق .. أى أبعد مكان من جانب المشرق إلى أبعده من جانب المغرب .

(٥) فى حديث صحيح رواه مسلم: ٢٢١٥

(٦) زويت لى الأرض : جمعت وطويت .

(٧) سورة الحجر ، آية ٩

(٨) أخبر الله تعالى أنه تولى حفظ القرآن من التبديل والتغيير فى سائر الزمان .

(٩) الملحدة : من الإلحاد ، وهو الميل عن الحق، سموا بذلك لعدولهم عن ظواهر الشريعة، وتأويلها بأمور سخيفة ، ويسمون باطنية : (نسيم الرياض : ٢ — ٥٥٣) .

والمعطلة : الذين نفوا الصانع . والقرامطة : طائفة من الملحدين أيضا . قال السمعانى فى الأنساب : القرمطى — بكسر القاف نسبة لطائفة خبيثة ، وهم من أهل هجر والحسا ، وأصلهم رجل من سواد الكوفة يقال له قرمط ، وقيل حمدان بن قرمط .

(١٠) حولهم : حيلهم ، وجهدهم .

(١١) أى مدة تزيد على خمسمائة عام ، أى بالنسبة لتاريخ زمن المصنف .

(١٢) فى ب : من كامه .

ومنه(١) قولُه(٢) : ﴿ سيُهْزَم الجَمْعُ ويُولُّون الدُّبُر ﴾ .

وقوله(٣) : ﴿ قاتِلُوهم يعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكم ويُخْزِهم وينْصُرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قومٍ مُؤْمِنين ﴾ .

وقولُه(٤) : ﴿ هو الذى أرسلَ رسُولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ ليُظْهِرَه على الدِّين كلّه ولو كرِهَ المشركون ﴾ .

وقوله(٥) : ﴿ لن يَضُرُّوكم إلّا أذًى ، وإنْ يُقَاتِلوكم يُوَلُّوكم الأَدْبارَ(٦) ثم لا يُنْصَرون ﴾ . فكان كلُّ ذلكَ .

وما فيه(٧) مِنْ كَشْفِ أسرارِ المُنَافقين واليَهُودِ ، ومَقَالِهم وكَذِبِهِمْ فى حَلِفِهم ، وتَقْرِيعِهم بذلك ؛ كقوله(٨) : ﴿ ويَقُولون فى أنفُسِهم لولا يُعَذِّبُنا اللهُ بما نقول ﴾ .

وقوله(٩) : ﴿ يُخفُونَ فى أنفسهم ما لا يُبْدُونَ لكَ ، يقولون : لو كانَ لنا من الأَمْرِ شَىْءٌ ما قُتِلْنَا هاهنا ، قُلْ لو كنْتُم فى بُيوتِكم لبرزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهم ، ولِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فى صُدوركم ولِيُمَحِّصَ ما فى قلوبكم ، واللهُ عليمٌ بذاتِ الصدور(١٠) ﴾ .

---

(١) ومنه : أى مما أخبر به من المغيبات المعجزة .

(٢) سورة القمر ، آية ٤٥ ، أى سينهزم كفار قريش ، وسيجعلهم المسلمون يولون أدبارهم بالطعن والضرب ؛ فعبر عن شدة انهزامهم بأبلغ عبارة .

(٣) سورة التوبة ، آية ١٤

(٤) سورة التوبة ، آية ٣٣ (٥) سورة آل عمران ، آية ١١١

(٦) لن يضروكم إلا أذى ؛ أى لا يقدرون عليكم إلا بأذية يسيرة ، كالطعن والتهديد . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار : أخبر أنهم كلما قاتلوهم غلبوا ، وكان النصر للمسلمين عليهم .

(٧) وما فيه : ما فى القرآن .

(٨) سورة المجادلة ، آية ٨ (٩) سورة آل عمران ، آية ١٥٤

(١٠) هذا بيان لحال المنافقين ومكرهم ، والذى أخفوه يوم أحد .

وقوله[١] : ﴿ ومِنَ الذين هادُوا سمّاعون للـكذب سَمّاعُونَ لقوم آخَرِين . لَمْ يأتُوكَ يحرِّفونَ الـكَلِمَ من بَعْد مواضِعِه يقولون : إنْ أُوتيتُم هذا فخُذُوه ، وإنْ لم تُؤتَوْهُ فاحذَرُوا ، ومَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَه فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يُرِدِ الله أنْ يُطَهِّرَ قلوبَهم لهم فى الدُّنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرةِ عذابٌ عظيم ﴾ .

وقوله[٢] : ﴿ مِنَ الذين هادُوا يُحَرِّفونَ الْـكَلِمَ عن مواضِعِه [٩٥] ويقولون: سمِعْنَا وعصَيْنا واسمَعْ غيْرَ مُسْمَعٍ ، وراعِنَا ليًّا بألسنتهم وطَعْناً فى الدين[٣] ﴾ .

وقد قال مُبْدِياً[٤] ، ما قدَّرَهُ اللهُ واعتقدَهُ المؤمنـون يوم بَدْر[٥] : ﴿ وإذْ يَعِدُكم اللهُ إحْدَى الطَّائفتَيْنِ أنها لـكُمْ وتَوَدُّونَ أنَّ غيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ[٦] تـكونُ لـكم ﴾ .

ومنه قولُه تعالى[٧] : ﴿ إنّا كفَيْنَاكَ المستهزئين ﴾ .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤١ ، والذين هادوا : اليهود .

(٢) سورة النساء ، آية ٤٦

(٣) راعنا : كانوا يقولون: راعنا ؛ وصفا له صلى الله عليه وسلم بالرعونة ،موهمين التماس نظره ورعايته لهـم ، مـكرا منهم وليا بألسنتهم وكلامهم ، وطعنا فى الدين بالتـكذيب والاستهزاء والسخرية .

(٤) مبديا : مظهرا .   (٥) سورة الأنفال ، آية ٧

(٦) إحدى الطائفتين : العير ، أو النفير . وغير ذات الشوكة :يريد العير ، وكانوا يودون أخذ العير لما فيها من المال ، ولقلة ما عندهم من السلاح والرجال .

(٧) سورة الحجر ، آية ٩٥ ، وهؤلاء المستهزئون كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم أشد الأذى ، ويسخرون منه ؛ وهم : الأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمى ، وعدى بن قيس . وقيل : منهم الحارث بن عيطلة ، وفـكيهة بن عامر الفهرى ، والحارث بن الطلاطلة ، فأخبره الله تعالى بهلاكهم سريعا ، وكفايته أمرهم قبل وقوعه ؛ فـكان كما قال .

ولما نزلَتْ بشَّر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم بذلكَ أصحابَه بأنَّ الله كفاهُ إياهم ؛ وكان المستهزئون نفَرا بمكّةَ ينفِّرونَ الناسَ عنه ويُؤْذُونَه فهلَكُوا .

وقولِه[1] : ﴿ واللهُ يَعْصِمُك من الناس ﴾ ؛ فكان كذلك على كَثْرة مَنْ رامَ ضُره[2] ، وقَصَد قَتْلَه ؛ والأخبارُ بذلك معروفةٌ صحيحة .

فصـــــل

الوَجْه الرابع[3] ما أنبأَ به مِنْ أخبارِ القرون[4] السالفة ، والأمم البائدة[5] ، والشرائع الدّاثِرَة[6] ، مما كان لا يَعْلَمُ منه القصّةَ الواحدة إلا الفَذُّ مِنْ أحْبَار[7] أهْل الكتابِ الذى قطع عُمْره فى تعلُّم ذلك ؛ فيُورِدُه النبيُّ صلّى الله عليه وسلم على وَجْهِه ، ويأتى به على نَصِّه ؛ فيَعْتَرِفُ العالِمُ بذلك بصحّتِه وصِدْقِه ، وأنَّ مِثْلَه[8] لم يَنَلْه بتعليم .

وقد علِمُوا أنه صلّى اللهُ عليه وسلم أُمِّىٌّ لا يَقرأ ولا يكتب، ولا اشتغلَ بمُدارسةِ

---

(١) سورة المائدة ، آية ٦٧ (٢) رام : قصد ضرره .

(٣) من وجوه إعجاز القرآن .

(٤) القرون : جمع قرن ، وهم أهل كل عصر وزمان ؛ أى أخبار الأمم والملل المتقدمة والبلاد البعيدة .

(٥) البائدة : الهالكة (هامش ب) .

(٦) الداثرة : الدارسة ، التى لم يبق لها أثر . فالمراد معرفته بالشرائع القديمة التى نسيت ونسخت أحكامها .

(٧) الفذ : الفرد والشاذ . والأحبار : جمع حبر ،وهو العالم الحافظ الواسع علمه. والعرف يخصه بعلماء أهل الكتاب .

(٨) مثله : مثل النبى ، أو مثل هذا الكلام لم يصل إليه النبى صلى الله عليه وسلم بتعليم من البشر ، بل بوحى من الله تعالى .

ولا مُثَافنةٍ[(١)] ، ولم يَغِبْ عنهم ، ولا جَهِل حالَه أحدٌ منهم .

وقد كان أهلُ الكتابِ كثيراً ما يسألونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عَنْ هذا ، فينزِل عليه من القرآنِ ما يَتْلُو عليهم منه ذِكراً[(٢)] ؛ كقِصَص الأنبياء مع قَوْمِهم، وخَبَرِ موسى والخضِر ، ويوسفَ وإخوته، وأصحابِ الكهف ، وذِي القَرْنين، ولُقْمان وابنه ، وأشباه ذلك من الأنبياء [والقصص][(٣)]، وبَدْءِ الخلْقِ ، وما في التَّوْرَاة ، والإنجيل ، والزَّبُور، وصُحُفِ إبراهيم وموسى؛ مما صَدَّقَهُ فيه العلماء بها، ولم يَقْدِرُوا على تكذيب ما ذكر منها ؛ بل أَذْعَنُوا لذلك[(٤)] ، فمِنْ مُوَفَّقٍ آمَنَ بما سبَق لهُ مِنْ خَيْر ، ومِنْ شَقِيٍّ مُعَانِدٍ حاسدٍ ؛ ومع هذا لم يُحْكَ عن واحدٍ[(٥)] من النصارى واليهود على شدَّةِ عداوتِهم له ، وحِرْصِهم على تَكْذِيبِه ، وطُولِ احتجاجه عليهم بما في كُتُبهم ، وتَقْرِيعِهم[(٦)] بما انطوَتْ عليه مصاحِفُهم[(٧)] ، وكثرةِ سؤالِهم له صلى الله عليه وسلم ، وتَعْنِيتِهم[(٨)] إياه ـ عن أخبارِ أنبيائهم ، وأسرارِ علومِهم ، ومستَوْدَعات سِيَرِهم[(٩)] ، وإعلامِه لهم بمَكْتُوم شرائعِهم ومضمَّنَات كُتبِهم ؛ مِثْلُ

---

(١) بمدارسة : بحفظ وتلق من الأفواه . مثافنة : مداومة طلب ، ومجالسة تحتك فيها الركب بالركب حتى يؤثر فيها الاحتكاك ، وهو عبارة عن كثرة الجلوس مع أهل العلم بالأخبار والشرائع للتعلم عنهم . وفي ب : مثاقبة ؛ قال القارى (١ ـ ٥٦٧) : ولعلها مصحفة ، أو يراد بها المزاحمة في المعرفة ، من ثقوب الذهن ، وهو وصوله إلى الصواب .

(٢) المراد بالذكر القرآن المذكر لهم .

(٣) من ب .

(٤) بل أذعنوا لذلك : أقروا واعترفوا منقادين له .

(٥) في ا : عن أحد .

(٦) وتقريعهم : توبيخهم وتفضيحهم .

(٧) مصاحفهم : يريد كتبهم ، وصحفهم .

(٨) تعنيتهم إياه : أي تكليفهم بما هو شاق .

(٩) مستودعات سيرهم : أي سؤالهم عما أودع في مصاحفهم من سير أنبيائهم .

سؤالهم عن الرُّوح ، وذِى القَرْنَيْنِ ، وأصحابِ الكَهْفِ ، وعيسى ،وحُكْمِ الرَّجْمِ ، وما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه ؛ وما حُرِّمَ عليهم من الأنعام ، ومِنْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لهم فحُرِّمَتْ عليهم ببَغْيِهم[١] .

وقوله[٢] : ﴿ ذلكَ مَثَلُهم فى التوراةِ ومَثَلُهم فى الإنجيل كزَرْعٍ أخرج شَطْأَه ، فآزَرَه فاستَغْلَظَ فاستوى على سُوقِه يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ليَغِيظَ بهم الكفّار ﴾ .

وغيرِ ذلك من أمورهم التى نزل فيها القرآنُ ؛ فأجابهم وعرّفهم بما أُوحى إليه من ذلك[٣] أنه أنكر ذلكَ أو كذبه ؛ بل أكثَرُهم صرّحَ بصحةِ نبوّتِه ، وصِدْقِ مقَالَتِهِ ، واعترف بعِنَادِه وحَسَدِهِم إياه ؛ كأهْلِ نَجْرَانَ ، وابن صُورِيا ، وابنى أَخْطب وغيرهم[٤] .

ومن باهَتَ فى ذلك بعضَ المُبَاهَتة[٥] ، وادَّعَى أنّ فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفةً ـ دُعِيَ إلى إقامةِ حجّتِه ، وكَشْفِ دعوته[٦] ؛ فقيل له[٧] : ﴿ قُلْ فأْتُوا بالتوراةِ فاتْلُوها إنْ كنتم صادِقِين . فمن افْتَرَى على اللهِ الكذِبَ من بَعْدِ ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ .

---

(١) فحرمت عليهم ببغيهم : أى حرمت عليهم عقوبة لهم بسبب ظلمهم .

(٢) سورة الفتح ، آية ٢٩ ، والإشارة إلى قوله فى الآية نفسها : سيماهم فى وجوههم من أثر السجود .

(٣) من ذلك : من السابق ذكره . وفى ب : فما سمع عن أحد منهم أنه أنكر . . .

(٤) هو عبد الله بن صوريا : حبر من أحبار اليهود الذين كانوا بالمدينة . وابنا أخطب : هما حيي ، وأبو ياسر ؛ وهما يهوديان من يهود المدينة .

(٥) بهته وباهته : إذا كذبه ونسبه للبهتان ، أى من لم يقر بأن ما جاء به محمد صدق ، وادعى أنه كذب ؛ مكابرة منه .

(٦) فى ب : وكشف عورته . (٧) سورة آل عمران ، آية ٩٣ ، ٩٤

فقرَّع ووبَّخ ، ودعا إلى إحضارِ مُمكنٍ غيرِ مُمتَنِع[1] ؛ فمِنْ مُعْتَرِفٍ بما جَحَده ، ومُتَواقحٍ[2] يُلْقِي على فَضِيحتهِ مِنْ كتابه يَدَه .

ولم يُؤثَر[3] أنَّ واحداً منهم أظْهَر خلافَ قولِه مِنْ كُتُبه[4] ، ولا أَبْدَى صحيحا ولا سقيما[5] من صُحُفِه ؛ قال اللهُ تعالى[6] : ﴿ يأَهْلَ الكتابِ قد جاءكُمْ رسولُنا يُبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تُخْفُونَ مِنَ الكتابِ ويَعْفُو عن كثير،قد جاءكم مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مُبين . يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَع رِضْوانَه سبُلَ السَّلامِ ويُخرجُهم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِه ويَهْدِيهم إلى صِراط مُسْتَقِيم ﴾ .

فصـــل

هذه الوُجوه الأربعة من إعجازه بَيِّنَةٌ لا نِزَاعَ فيها ولا مِرْيَة[7] .

ومن الوجُوهِ البيِّنَةِ في إعجازِه من غيرهذه الوجوه : آيٌ وردَتْ بتعجيز قوم في قضايا[8] ، وإعلامِهم أنهم لا يَفْعَلُونها فما فَعَلُوا ولا قَدَرُوا على ذلك ؛ كقوله لليهود[9] : ﴿ قُلْ إنْ كانت لكم الدارُ الآخرةُ عِنْدَ اللهِ خالصةً[10] مِنْ دونِ الناسِ

(١) إحضار ممكن غير ممتنع : وهو أمرهم بالإتيان بالتوراة ، وهي حاضرة بين أيديهم .

(٢) جحده : أنكره . ومتواقح : متكلف للوقاحة ؛ وهي قلة الحياء ، وصلابة الوجه ، حتى لايبالي بافتضاحه . والمراد به ابن صوريا الذي وضع يده على آية الرجم فقال له ابن سلام : ارفع يدك يا أعور . . . وذلك يفسر مايأتي بعد في العبارة .

(٣) ولم يؤثر : لم ينقل . (٤) في ا : من كتابه .

(٥) ولاسقيما : محرفا لفظه أو مؤولا معناه .

(٦) سورة المائدة ، آية ١٥ ، ١٦ . ويعفو عن كثير : لحلمه وستره عليهم ، رجاء هدايتهم بتوفيق الله . (٧) مرية : شبهة وشك .

(٨) قضايا : جمع قضية ، وهي الحادثة الواقعة في حكم قضاه الله تعالى وقدره .

(٩) سورة البقرة ، آية ٩٤ ، قال لهم ذلك لما ادعوا دعاوى باطلة ؛ كقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . . . (١٠) خالصة : خاصة بكم .

فتمنّوا الموتَ إنْ كنتُم صادقين[١] . ولَنْ يتمنّوْه أبداً بما قدمَتْ أيديهم . . . ﴾ .

قال أبو إسحاق الزجّاج : فى هذه الآيةِ أعظمُ حجّةٍ وأظهرُ دَلَالةٍ على صحةِ الرسالة ؛ لأنه قال : ﴿ فتمنّوا الموتَ ﴾ ؛ وأعْلمهم أنهم لن يَتَمَنَّوْهُ أبداً ، فلم يتمنه واحدٌ منهم .

وعن النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم : والذى نَفْسِى بيده لا يَقُولُها رَجلٌ منهم إلّا غَصَّ بِرِيقِه[٢] - يعنى يموتُ مَكانَه .

فصرفهم اللهُ عن تمنّيهِ وجزَعهم ؛ ليُظْهِرَ صِدْقَ رسُولِه ، وصحةَ ما أُوحِيَ إليه ، إذ لم يتمنَّه أحدٌ منهم ؛ وكانوا على تكذيبه أحرصَ لو قَدَرُوا ؛ ولكنّ اللهَ يفعلُ ما يريد ؛ فظهرت بذلكَ معجزتُه ، وبانَتْ حُجَّتُه .

قال أبو محمد الأَصِيلىُّ : مِنْ أعجبِ أمْرِهم أنه لا يوجدُ منهم جماعةٌ ، ولا واحد ، من يومَ أمَرَ اللهُ بذلك نبيَّه - يُقْدِمُ عليه[٣] ، ولَا يُجيبُ إليه .

وهذا موجودٌ مشاهدٌ لمَنْ أراد أنْ يمتحنَه منهم .

وكذلك آيةُ المُبَاهلةِ[٤] مِنْ هذا المعنى ، حيث وفَد عليه أساقفَةُ نَجْران وأبَوا الإسلامَ ؛ فأنْزَل اللهُ تعالى عليه آيةَ المُبَاهَلَةِ بقوله[٥] : ﴿ فمَنْ حاجَّكَ فيه من بَعْد ماجاءكَ من العلم فقل تعالَوْا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونِساءكم وأنفسنا وأنفسكم[٦] ؛ ثم نَبْتهل فنَجْعَل لعنةَ اللهِ على الكاذبين ﴾ .

---

(١) إن كنتم صادقين فى قولكم : إنكم من أهل الجنة ، وإنها مخصوصة بكم ؛ لأن من تيقن دخول الجنة اشتاق لها ، وأحب التخلص من هذه الدار الدنيا وأكدارها .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ - ١٨٢ ، الغصة : ما تقف فى الحلق ، فتمنع النفس حتى تهلكه . وغص بريقه : وقع الموت به سريعا .

(٣) يقدم عليه : على تمنى الموت . ولا يجيب إليه : أى إلى تمنيه ، إذا قيل له : تمنه .

(٤) المباهلة : الملاعنة ، أى الدعاء باللعنة على الظالم من الفريقين .

(٥) سورة آل عمران ، آية ٦١

(٦) وأنفسنا وأنفسكم : ليدع بعضنا بعضا ، فالإنسان لا يدعو نفسه .

فامتنعوا منها[١] ، ورَضُوا بأدَاء الجزْية ؛ وذلك أنّ « العاقب » عظِيمَهم قال لهم : قد علمتُمْ أنه نبيٌّ ، وأنه ما لاعَنَ قوماً نبيٌّ قَطّ فبَقِي كبيرهم ولا صغيرُهم .

ومثلُه قوله[٢] : ﴿ وإنْ كُنْتُم فى رَيْبٍ مما نزّلْنا على عَبْدنا فأْتوا بسورةٍ من مثله ، وادعُوا شُهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا . . . ﴾ .

فأخبرهم أنهم لا يَفْعَلُون ؛ كما كان .

وهذه الآية أدخَلُ فى باب الإخبارِ عن الغيبِ ، ولكِنْ فيها من التعجيز ما فى التى قبلها .

فصل

ومنها الرّوْعَةُ[٣] التى تلحقُ قلوبَ سامِعِيه وأسماعَهم عند سَمَاعِهِ ، والهيبةُ التى تَعتَرِيهم[٤] عند تلاوته لقوة[٥] حاله ، وإنافَةِ خَطَرِه[٦] ؛ وهى[٧] على المكذّبين به أعظَمُ ، حتى كانوا يَسْتَثْقِلُون سَمَاعَه ، ويزيدُهم نفوراً ؛ كما قال تعالى[٨] ؛ ويَوَدُّونَ انقِطَاعَه لِكَرَاهتهم له .

---

(١) منها : من المباهلة .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٣ ، ٢٤

(٣) الروعة : المرة من الروع ، وهو الفزع والخوف الذى يطرأ عند سماعه لجلالته وهيبته .

(٤) الهيبة : الخوف . أو الإجلال . تعتريهم : تطرأ عليهم وتغشاهم .

(٥) لقوة حاله : لما فيه من الحالة القوية باعتبار مافيه من المواعظ والإنذار .

(٦) وإنافة خطره : علو مرتبته على غيره من الكلام .

(٧) وهى : أى الروعة والهيبة .

(٨) قال تعالى : « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » ؛ أى ولوا معرضين عنه لعدم ذكر آلهتهم فيه .

ولهذا قال صلى اللهُ عليه وسلم: إنَّ القرآن صَعْبٌ مستَصْعَبٌ[١] على مَنْ كَرِهَه ؛ وهو الحَكَمُ[٢] ، وأمَّا المؤمنُ فلا تزالُ رَوْعتُه به، وهيبتُه إياه ، مع تِلاوته ـ تُولِيه انجذابا[٣] ، وتكسِبُه هَشَاشةً[٤] ، لمَيْلِ قَلْبه إليه ، وتصديقِه به ؛ قال تعالى[٥] : ﴿ تَقْشَعِرُّ منه جُلُودُ الذين يخشَوْنَ ربهم ، ثم تَلِين جلودُهم وقُلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ[٦] ﴾ .

وقال[٧] : ﴿ لو أنزلْنَا هذا القرآنَ على جَبَل لرأيتَه خاشعا مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيةِ اللهِ ، وتلكَ الأمثالُ نضرِبُهَا للناس لعلهم يتفكرونَ ﴾ .

ويدلُّ على أنَّ هذا[٨] شيء خُصَّ[٩] به ـ أنّه يَعْتَرِي[١٠] مَنْ لا يفهم معانيه ، ولا يعلم [٩٦] تفاسيره ، كما رُوِيَ عن نَصْراني ـ أنه مرَّ بقارئ ـ فوقف يبكي ؛ فقيل له : مِمَّ بكيتَ ؟ قال : للشَّجا والنظم[١١] .

---

(١) صعب : أى لايقدر أحد على محاكاته ، أو شديد . مستصعب : يعسر فهمه وتفسيره بالرأى ، ولا يمكن تغييره وتحريفه ، لأنه لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولأنه ليس من جنس كلام البشر .

(٢) وهو الحكم : أى الحاكم الفاصل بين الحق والباطل ، بما تضمنه من الأحكام .

(٣) فى هامش : غ : انجباذا .

(٤) هشاشة: مسرة وخفة ولينا لما فيه من البشارة السارة والمعانى التى تجعل المؤمن فى نشاط.

(٥) سورة الزمر ، آية ٢٣

(٦) أى يعرض لجلود أبدانهم قشعريرة ، أى قيام ، من الخوف من هيبته ؛ فإذا تأملوه وتدبروه لانت قلوبهم وجلودهم لأنسهم وسرورهم به .

(٧) سورة الحشر ، آية ٢١

(٨) هذا : أى مايحدث فى القلوب والأسماع من الروعة والمهابة .

(٩) به : أى القرآن دون غيره من الكلام .

(١٠) يعترى : يطرأ ويصيب .

(١١) الشجا: الطرب، أو الحزن. والنظم: المراد بالنظم رونق انتظامه وحسن انسجامه. فأثر ذلك فى نفسه ، وهو لايفهمه حتى أبكاه .

وهذه الروعةُ قد اعترَتْ جماعةً قبل الإسلام وبعده؛ فمنهم مَنْ أسلم لما لأول وَهْلَة وآمنَ به، ومنهم مَنْ كفر [١].

فحُكِيَ في الصحيح [٢]، عن جُبير بن مُطْعم، قال: سمعتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية [٣]: ﴿أم خُلِقُوا من غير شيء أم هُمُ الخالقون. أم خَلقوا السموات والأرضَ بل لا يُوقنون. أم عندهم خزائنُ ربِّك أمْ هُمُ المُصَيْطِرُون﴾ - كاد قلبي أنْ يَطِيرَ للإسلام.

وفي رواية: وذلك أول ما وَقَرَ [٤] الإيمانُ في قلبي.

وعن عُتْبَة بن ربيعة [٥] أنه كلّم النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلافِ قومه، فتلا عليهم [٦]: ﴿حمٓ. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتاب فُصِّلَتْ آياتُه قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بَشِيراً ونَذِيرا فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ مما تدْعُونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ومِنْ بيننا وبينك حِجَابٌ فاعْمَل إننا عاملون. قل إنما أنا بشَرٌ مثلكم يُوحَى إليّ أنما إلهكُم إلهٌ واحد فاستَقِيموا إليه واستَغْفِروه وويلٌ للمشركين. الذين لا يُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرة هم كافرون. إنّ الذين آمَنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ لهم أجرٌ غيْرُ مَمْنُون. قل أئِنَّكُم لتَكْفُرُونَ بالذي خلق الأرضَ في يومين وتجعلونَ له أندادًا ذلكَ ربُّ العالمين. وجعل فيها رواسِيَ

---

(١) ومنهم من كفر: أي ومنهم من دام واستمر على كفره، لإصراره على عناده.

(٢) رواه الشيخان مسندا.

(٣) سورة الطور، آية ٣٥ - ٣٧. من غير شيء: من غير خالق لهم، أم هم الخالقون لأنفسهم. والمصيطرون: المدبرون للأشياء كما يريدون. والحديث في صحيح مسلم: ٦-١٧٥، وصحيح البخاري: ٦ - ١٧٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم: ١ - ٣٠٨

(٤) وقر: ثبت.

(٥) هذا الحديث رواه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ١ - ٣١٤

(٦) سورة فصلت، من آية ١ إلى ١٣

من فوقها وبارَكَ فيها وقدَّرَ فيها أقواتَها في أربعةِ أيامٍ سواءً للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دُخانٌ فقال لها وللأرضِ ائتيا طَوْعا أو كَرْها قالتا : أتينا طائعين. فقضاهُنَّ سَبْعَ سموات في يومين ، وأوْحَى في كل سماء أمْرَها وزَيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وحِفْظاً ذلك تقْديرُ العزيزِ العليم. فإنْ أعرضُوا فقل أنذرْتُكم صاعِقَةً مِثْلَ صاعقَةِ عادٍ وثَمُود ﴾ .

فأمسكَ عُتْبةُ بيده على فِي النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وناشَـــدَهُ الرَّحِمَ أن يكفّ[١] .

وفي رواية[٢] : فجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقرأ وعُتْبَةُ مُصْغٍ مُلْقٍ يديه خَلْفَ ظَهْره ، مُعْتَمِدٌ عليهما ، حتى انتهى إلى السجدة[٣] ؛ فسجد النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، وقام عُتْبةُ لا يَدْرِي بما يُراجعه[٤] ، ورجع إلى أَهْلِهِ ، ولم يخرجْ إلى قومه حتى أتَوْهُ ؛ فاعتذَرَ لهم، وقال: واللهِ لقَدْ كلّمني بكلامٍ واللهِ ما سمِعَتْ أذناي بمثله قطُّ ؛ فما دَرَيْتُ ما أقولُ له .

وقد حُكِي عن غَيْرِ واحدٍ مِمّن رامَ مُعارَضتَه[٥] أنه اعترَتْه رَوْعَةٌ وهَيْبَةٌ كَفّ بها عن ذلك .

فحُكِي أنَّ ابْنَ المُقفّع طلبَ ذلكَ ورَامَهُ ، وشرع فيه ؛ فمرَّ بِصَبِيٍّ يقرأ[٦] :

---

(١) أن يكف : أي سأله مقسما عليه بالقرابة القريبة المقتضية للرحمة والتعطف عليهم أن يكف عن القراءة ويمتنع عنها .

(٢) وهي لابن إسحاق أيضا في سيرته عن كعب القرظي .

(٣) السجدة في الآية رقم ٣٧من سورة فصلت :«ولاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ».

(٤) بما يراجعه : بأي شيء يكلمه بعد تلاوته ؛ لروعته التي أدهشته بما سمع منه .

(٥) رام : طلب وقصد . معارضته : أن يأتي بكلام يماثله في البلاغة .

(٦) سورة هود ، آية ٤٤

﴿وقِيلَ يأَرضُ ابلَعِي ماءكِ﴾ ـ فرجَع فمحا ما عَمِل؛ وقال: أشهَدُ أنّ هذا لا يُعارَضُ، وما هو مِنْ كلامِ البشر؛ وكان مِنْ أفصحِ أهْلِ وَقْتِه.

وكان يحيى بن حَكَم[١] الغزّال بَليغ الأندلس في زَمَنِه؛ فحُكِي أنه رَامَ شيئا من هذا، فنظر في سُورة الإخلاصِ ليَحذُوَ على مِثَالها[٢]، ويَنْسِجَ ـ بزَعْمِه ـ على مِنْوَالِها ـ قال: فاعتَرَتْني خَشْيَةٌ ورِقَّةٌ حمَلَتْني على التَّوْبَةِ والإنابة[٣].

فصل

ومن وجُوهِ إعجازه المعدودة كونُه آيَةً باقيةً لا تُعْدَمُ ما بَقِيَت الدُّنيا مع تكفُّلِ اللهِ بحِفْظِه؛ فقال[٤]: «إنّا نَحْنُ نزّلْنَا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لحافِظُون».

وقال[٥]: «لا يَأْتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه[٦]، تنزيل من حَكِيم حَمِيد».

وسائرُ مُعْجِزاتِ الأنبياء انقضَتْ بانقضاء أوقاتها، فلم يَبْقَ إلا خَبَرُها؛ والقرآنُ العَزِيزُ، الباهِرَةُ آياتُه، الظاهرةُ معجِزاتُه على ما كان عليه اليوم[٧] ـ مدةَ خمسمائة عامٍ وخمسٍ[٨] وثلاثين سنةً لأولِ[٩] نزولِه إلى وَقْتنا هذا ـ حجّتُه

(١) في الشفيه: ابن حكيم. (٢) ليحذو على مثالها: ليقول مثلها.

(٣) الإنابة: الرجوع عن ذلك. وفي ب: والأوبة.

(٤) سورة الحجر، آية ٩ (٥) سورة فصلت، آية ٤٢

(٦) من بين يديه ولا من خلفه: لا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات يبطله، ولا يكون قبله ولا بعده ما يكذبه أو ينسخه.

(٧) على ما كان عليه اليوم: أي إلى يومنا هذا، والمراد باليوم عصر المؤلف.

(٨) في ب: وسبع. وفي هامشه: والظاهر: وخمس.

(٩) لأول نزوله: أي من ابتداء الوحي ونزول القرآن إلى وقت تأليف المصنف لهذا الكتاب.

قاهرةٌ(١) ، ومعارضَتُه مُمتَنِعَة ، والأعصارُ كلُّها طافحةٌ(٢) بأهْلِ البيانِ ، وحَمَلةِ علمِ اللسان ، وأئمةِ البلاغة ، وفُرْسانِ الكَلام ، وجَهابذةِ(٣) البراعةِ ؛ والمُلْحِدُ(٤) فيهم كثيرٌ ، والمُعادِي للشَّرْع عَتِيد(٥) ؛ فما منهم مَنْ أتى بشيء يُؤْثَر(٦) في مُعارَضَتِه ، ولا ألَّفَ كلمتين في مناقَضَتِه ، ولا قَدَر فيه على مَطْعنٍ صَحِيح ، ولا قَدح المتكلِّفُ مِنْ ذِهْنِه في ذلك إلا بزَنْدٍ شَحِيح(٧) ؛ بل المأثورُ عَنْ كلّ مَنْ رامَ ذلك إلقاؤه في العَجْزِ بيدَيْهِ ، والنكوصُ(٨) على عَقِبَيْه .

فصل

وقد عَدّ جماعةٌ من الأئمةِ ومُقلِّدِي الأمّة في إعجازِه وجوهاً كثيرةً ؛ منها أن قارئه لا يملُّه ، وسامِعَه لا يَمُجُّه(٩) ؛ بل الإكبابُ على [٩٧] تلاوتِه(١٠) يزيدُه حلاوةً ، وتَرْدِيدُه يوجب له محبةً ؛ لا يزال غضًّا طريًّا(١١) ، وغيرُه من الكلام ـ ولو بلغ(١٢) في الحُسنِ والبلاغةِ مَبْلَغه ـ

---

(١) قاهرة : غالبة . وفي ب : ظاهرة .

(٢) والأعصار : جمع عصر . طافحة : تفيض وتتدفق .

(٣) جهابذة : جمع جهبذ ، والجهبذ : العالم النحرير ، والنقاد البصير ، والصانع الماهر الخبير .

(٤) الملحد : المائل عن الحق .

(٥) عتيد : مهيأ حاضر باذل جهده في عداوته .

(٦) يؤثر : يحفظ وينقل .

(٧) الشحيح : البخيل ؛ أي لم يمده قدحه شيئا غير الخيبة .

(٨) النكوص : الرجوع عما قاله بالاعتراف بعجزه .

(٩) لا يمله : لا يسأم من كثرة قراءته ، ولو أعاده مرارا . لا يمجه : لا يكره تكراره على مسامعه .

(١٠) الإكباب على تلاوته : ملازمة قراءته وتكراره .

(١١) لا يزال : كلما كرر . غضا : جديدا . طريا : رطبا ناعما ، فلا تتغير بهجته ونضارته .

(١٢) أي لو فرض ذلك .

يُمَلُّ مع الترديد، ويُعادَى إذا أُعيد؛ وكتابُنا[1] يُستَلَذُّ به فى الخلوات، ويُونَس بتلاوته فى الأزْمات[2]؛ وسِواه مِنَ الكُتب لا يُوجدُ فيها ذلك؛ حتى أحدثَ أصحابُها لُحوناً وطُرُقاً يستَجْلِبُونَ[3] بتلكَ اللُّحُونِ تَنْشيطَهم على قراءتها.

ولهذا وَصفَ رسولُ اللهِ صــلى اللهُ عليه وسلم القرآنَ بأنه لا يَخْلَقُ على كثرةِ الردِّ[4]، ولا تَنقَضِى عِبَرُه[5]، ولا تَفْنَى عجائبُهُ؛ هو الفَصْلُ ليس بالهَزْل[6]، لا يَشْبَعُ[7] منه العلماء، ولا تَزِيغُ[8] به الأهواء، ولا تَلْتَبِسُ به الألْسِنَةَ[9]؛ هو الَّذى لم تَنْتَهِ الجنُّ حين سَمِعَتْه أنْ قالوا[10]: ﴿ إنَّا سمِعْنَا قرآناً عجباً. يَهْدِى إلى الرُّشْدِ ﴾.

ومنها جَمْعُهُ لعلومٍ ومعارفَ لم تَعْهَد[11] العربُ عامّةً ولا محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم قَبْلَ نُبُوّته خاصّة، بمعرفتها، ولا القيام بها؛ ولا يُحيطُ بها أَحَدٌ من علماء الأُمم، ولا يشتملُ عليها كتابٌ مِنْ كتبهم؛ فجُمِع فيه مِنْ بيان عِلْم الشرائع،

---

(١) أى القرآن.　　(٢) الأزمات: جمع أزمة؛ وهى الشدة.

(٣) يستجابون: يطلبون وجودها، أو يجلبونها لهم ولمن يسمعهم.

(٤) لايخلق: لايبلى ولا يتغير حاله بمرور الزمان. والرد: الترديد والتكرار.

(٥) عبره: المراد بها عجائبه، أو مواعظه التى بها يعتبر.

(٦) هو الفصل: الحد الفاصل بين الحق والباطل. ليس بالهزل: أمره جد كله.

(٧) فى ب: ولا يشبع.　　(٨) لاتزيغ: لاتميل وتعدل عن منهجه.

(٩) ولا تلتبس به الألسنة: المعنى أنه لا يشبه غيره من الكلام، فلا يمكن اختلاطه به وإدخاله فيه؛ لأن أسلوبه ونظمه لايشبه غيره؛ فالمراد أنه لا يمكن أن يدس فيه دسيسة.

(١٠) سورة الجن، آية ١، ٢. يهدى إلى الرشد: يدل على الصواب، من الإيمان والتوحيد. والحديث فى صحيح الترمذى، من طريق على بن أبى طالب: ٥ — ١٧٢. وفى هامش ب: وقد خرج هذا الحديث الترمذى من طريق على بن أبى طالب، وفى سنده الحارث الأعور. هذا من غير النسخة المنقول عنها. وهى نسخة معتمدة.

(١١) لم تعهد العرب: أى لم تعرفه فى زمانها وعهدها.

والتنبيهِ على طُرُق الحجج العقليات [١] ، والردِّ على فِرَقِ الأُمم ؛ ببراهينَ قويّةٍ ، وأدِلةٍ بيّنةٍ سَهْلةِ الألفاظِ ، موجَزةِ المقاصدِ ، رامَ المُتحذلِقُون بعدُ ـ أنْ ينصِبُوا [٢] أدلّةً مِثْلَها فلم يَقدِرُوا عليها ؛ كقوله تعالى [٣] : ﴿ أوَ ليْسَ الذى خَلَق السمواتِ والأرضَ بقادِرٍ على أنْ يَخْلُقَ مِثلَهم ﴾ .

و [٤] : ﴿ قل يُحْييها الذى أنشأها أولَ مرة ﴾ .

و [٥] : ﴿ لو كان فيهما آلِهَةٌ إلّا اللهُ لفسَدَتا ﴾ .

إلى ما حَوَاهُ من علومِ السِّيَر ، وأنباء الأُمم ، والمواعظِ ، والحِكَم ، وأخبارِ الدارِ الآخرةِ ، ومحاسِنِ الآدابِ والشِّيَم [٦] .

قال الله ـ جلّ اسمُه [٧] : ﴿ ما فرّطْنا فى الكتاب من شىء ﴾ .

و [٨] : ﴿ ونزّلْنا عليك الكتابَ تِبْيَاناً لكلّ شَىْء ﴾ .

و [٩] ﴿ ولقد ضَرَبْنا للناس فى هذا القرآن من كُلِّ مَثَل ﴾ .

---

(١) والتنبيه على طرق الحجج العقليات : أى تنبيه الناس وإرشادهم إلى نصب الأدلة العقلية وكيفية إلزام الخصم بها . وفى هامش ا : خ : العقلية .

(٢) المتحذلقون : هم أهل الحذق الباحثون عن الأمور (هامش ب) . وقال الشهاب : المتحذلقون : الذين يدعون الحذق ، وهو سرعة الفهم ؛ أى قصد الذين يدعون الذكاء فى العلم وإقامة البراهين أن ينصبوا أدلة ؛ أن يقيموا أدلة .

(٣) سورة يس ، آية ٨١ (٤) سورة يس ، آية ٧٩

(٥) سورة الأنبياء ، آية ٢٢

(٦) الشيم : جمع شيمة ، وهى الطبيعة ، والخلق .

(٧) سورة الأنعام ، آية ٣٨ ، أى لم نترك شيئا يحتاج إليه إلا بيناه فى القرآن ، على أن المراد بالكتاب القرآن لا اللوح المحفوظ .

(٨) سورة النحل ، آية ٨٩ ، تبيان لكل شىء : مبينا لكل شىء يحتاج إليه .

(٩) سورة الروم ، آية ٥٨ ، من كل مثل : أى أتينا لكل أمرهم بمثال يوضحه .

وقال ـ صلى اللهُ عليه وسلم [١] : إنَّ اللهَ أنزلَ هذا القرآنَ آمِراً وزاجراً [٢]، وسنةً خاليةً [٣]، ومَثَلًا مضرُوبا ، فيه نَبؤكم [٤]، وخبَرُ ما كان قبلَكم ، ونبأُ ما بعْدَكم ، وحُكم ما بينكم [٥]، لا يُخلِقُه طُولُ الردِّ ، ولا تَنقضى عجائبُه ؛ هو الحقُّ ليس بالهَزْلِ ؛ مَنْ قال به صدق ، ومَنْ حَكَم به عَدَل،ومَنْ خاصم به فَلَج [٦]، ومَنْ قسَمَ به أقسط [٧]، ومَنْ عمِلَ به أُجِرَ [٨]، ومَنْ تمسَّكَ به هُدِىَ إلى صِراطٍ مُسْتَقيم ؛ ومَنْ طلب الهُدَى مِن غيره أضلَّه اللهُ ؛ ومَنْ حَكم بغيره قَصَمه [٩] اللهُ ؛ هو الذِّكرُ الحكيم ، والنُّورُ المُبِين ، والصِّراطُ المستقيمُ ، وحَبْلُ اللهِ المتين [١٠]، والشِّفاءُ النافعُ ، عِصْمةٌ لِمَنْ تمسَّكَ به ، ونجاةٌ لِمَن اتَّبعه ، لا يَعْوَجُّ فيقوَّم [١١]، ولا يَزِيغُ فَيُستَعتَب [١٢]، ولا تَنقَضِى عجائبُه ، ولا يَخْلَقُ على كثرةِ الردِّ .

---

(١) فى حديث رواه الترمذى : ٥ ـ ١٧٢ ، قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفى الحارث مقال . (٢) وزاجرا : مانعا وناهيا .

(٣) وسنة خالية : طريقة متبعة مستقيمة لمن كان قبلكم من الأمم. (٤) النبأ : الخبر .

(٥) وحكم مابينكم : أى بيان للأحكام فيما يقع ويحدث بينكم معاشر هذه الأمة المحمدية .

(٦) من خاصم به : من خاصم بحجة وأدلة مأخوذة منه . فلج : غلب ، وفاز بالنصر . وفى هامش ب : فلج : انتصر .

(٧) أقسط : عدل . أى من تولى قسمة فقسمها بما فى كتاب الله كقسمة المواريث والغنائم وغيرها عدل . (٨) أجر : نال الأجر والثواب الجزيل .

(٩) قصمه الله : قتله وأهلكه هلاكا شديدا .

(١٠) حبل الله المتين: عهده وأمانه الذى يؤمن به العذاب، وكل مايكره ويشق على النفس، ويتوصل به إلى ماينجى ويوصل إلى المطالب . والمتين : القوى المحكم .

(١١) لا يعوج : ليس فيه خلل لفظا ولا معنى . فيقوم : فيحتاج إلى تقويم يزيل عوجه ؛ فليس كغيره من الكلام المحتاج للإصلاح .

(١٢) لايزيغ : لايميل عن الحق والصواب .فيستعتب:لايستحق العتاب واللوم لعدم خروجه عن الاستقامة .

ونحوُه عن ابن[١] مسعود ؛ وقال فيه : ولا يختلِف ، ولا يُتَشانّ[٢] ، فيه نَبأُ الأولين والآخرين .

وفى الحديث[٣] : قال اللهُ تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : إنّى منزّلٌ عليكَ توراةً[٤] حديثةً ، تفتحُ بها أعينا عُمياً ، وآذانا صُمًّا ، وقُلوباً غُلْفا[٥] ، فيها ينابيعُ العِلْمِ[٦] ، وفَهْمُ الحِكْمة ، ورَبيعُ القلوب[٧] .

وعَنْ كَعْب : عليكم بالقرآنِ ، فإنه فَهْمُ العقولِ[٨] ، ونورُ الحكمةِ .

وقال الله تعالى[٩] : ﴿ إنّ هذا القرآنَ يقُصُّ على بنى إسرائيلَ أكْثَرَ الذى هم فيه يَختَلِفون ﴾ .

وقال[١٠] : ﴿ هذا بيَانٌ للناسِ وهُدًى وموعظةٌ للمُتَّقين ﴾ .

---

(١) قال السيوطى : رواه الحاكم من ابن مسعود .

(٢) لايختلف : لايقع فيه ما يخالف بعضه بعضا مع طوله . وفى ا : لايختلق — بالقاف . يتشاناً : المراد خلوه من تنافر الكلمات وعدم تناسبها ؛ فهو لايكره ولا يمل. وفى هامش ا : صوابه : ولا يتشان — بالتشديد ؛ أى لايخلق على الرد ، مأخوذ من الشن ، وهو الجلد اليابس البالى ؛ أى لا تذهب طلاوته ، ولا تبلى طراوته حين تكثر تلاوته ، لما أودع فيه من بدائع الكمال ، وروائع الجمال .

(٣) قال الشهاب : رواه ابن الضريس فى فضائل القرآن عن كعب الأحبار .وهو حديث قدسى .

(٤) توراة حديثة : أى كتابا سماويا شبيها بالتوراة .

(٥) غلفا : لايصل إليها مايهديها إلى السعادة ، كأنها فى غلاف وغشاء مانع عن وصول الحق إليها .

(٦) فيها ينابيع العلم : فيها : فى التوراة الحديثة — يعنى القرآن . ينابيع . جمع ينبوع ، وهو العين التى ينبع منها الماء الجارى ؟ فشبه العلم بالماء الذى تحيا به النفوس .

(٧) ربيع القلوب : الربيع يكون بمعنى الخصب والمطر ؛ أى فيها ماتحيا به القلوب ، وتنمو وتخصب ، وتمرح وتسرح ، وتفرح .

(٨) فهم العقول : أى مفهم للعقول مايخفى عليها .

(٩) سورة النمل ، آية ٧٦

(١٠) سورة آل عمران آية ١٣٨

فجُمِع [٩٨] فيه مع وَجازةِ ألفاظِه، وجَوامع كَلِمِه(١) أضعافُ ما في الكتبِ قَبْله التى ألفاظُها على الضِّعْفِ منه مراتٍ.

ومنها(٢) جَمْعُه فيه بين الدليل ومَدْلُولِه(٣)؛ وذلك أنه احتجّ بنظم القرآن، وحُسْنِ رصْفِه(٤) وإيجازه وبلاغتِه؛ وأثناء هذه(٥) البلاغة أَمْرُه ونَهْيُه، ووَعْدُه ووعيده؛ فالتـالى(٦) له يفهَمُ موضعَ الحجّة والتكليف معا مِنْ كلامٍ واحدٍ، وسورةٍ منفردة.

ومنها(٧) أنْ جعله فى حَيِّزِ المنظوم الذى لم يُعْهَدْ(٨)، ولم يكن فى حَيِّزِ المنثور؛ لأنّ المنظومَ أسهلُ على النفوس، وأوْعَى للقلوب، وأسْمَحُ(٩) فى الآذان، وأحْلى على الأفهام، فالناسُ إليه أَمْيَلُ، والأهواء إليه أسرع.

ومنها تيسيرُه تعالى حِفْظَه لمُتعلّميه، وتَقْرِيبُه على متحفِّظيه(١٠)؛ قال اللهُ تعالى(١١): ﴿ولقد يَسَّرْنَا القرآنَ للذِّكر﴾.

---

(١) فجمع فيه : فى القرآن . مع وجازة لفظه : اختصارها وقلتها مع كثرة معانيه . وجوامع كلمه : الجامع للمعانى الجمة فى ألفاظ قليلة واضحة .

(٢) ومنها : من وجوه الإعجاز التى ذكروها .

(٣) الدليل : هو الدال المرشد ؛ أى يمكن التوصل بالنظر فيه إلى مطلوب خبرى . والمدلول : هو المطلوب بالدليل هنا .

(٤) حسن رصفه : المراد حسن نظمه وتأليفه .

(٥) وأثناء هذه البلاغة : فى خلالها .

(٦) التالى له : القارىء له بفهم وتدبر لمعانيه .

(٧) ومنها : ومن وجوه إعجازه .

(٨) لم يعهد : لايشابه شيئا من كلامهم المنظوم .

(٩) وأسمح : من السماح ، أى أسهل قبولا ، وأقرب وصولا .

(١٠) على متحفظيه : أى تسهيل حفظه لمن يريد .

(١١) سورة القمر ، آية ١٧

وفى الكشاف (٢ — ٤٢١) : معنى الآية : سهلناه للادكار والاتعاظ ، بأن شحناه بالمواعظ الشافية ، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد . وقيل : سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه .

وسائرُ الأُمم لا يَحفظُ كتبَها الواحدُ منهم، فكيف الجمّاء[1] على مُرور السنين عليهم. والقرآنُ مُيَسَّرٌ حِفظُه للغِلْمان فى أقرب مُدّة.

ومنها مُشاكلةُ بعضِ أجزائه بعضا[2]، وحُسْنُ ائتلافِ أنواعِها، والتئام أقسامها[3]؛ وحُسْنُ التخلُّص من قِصّةٍ إلى أخرى، والخروج من بابٍ إلى غيره على اختلافِ مَعانيه، وانقسام السُّورَة الواحدةِ إلى أمرٍ ونَهْى، وخَبَر واستِخْبار[4]، ووَعْدٍ ووَعيد، وإثبات نُبوّةٍ، وتوحيد وتفريد[5]، وتَرْغيبٍ وتَرْهيب[6]، إلى غير ذلك من فوائده، دونَ خَلَل يتخلّلُ فصُولَه[7].

والكلامُ الفصيحُ إذا اعتَورهُ مِثْلُ هذا ضعفَتْ قُوّتُه، ولانَتْ جزَالتُه، وقلَّ رَوْنَقُه[8]، وتقلقَتْ ألفاظُه.

فتأمّلْ أولّ «ص»، وما جُمِعَ فيها مِنْ أخبار الكفّار وشِقاقِهم وتَقْريعِهم بإهلاكِ القرونِ مِنْ قَبْلِهم، وما ذُكرَ مِنْ تَكْذيبِهم بمحمد صلى اللهُ عليه وسلم، وتعجّبهم مما أتَى به، والخَبَرعن اجْتماعِ مَلَئهم[9] على الكُفْر، وماظهر من الحسَدِ فى كلامهم، وتعجيزِهم وتَوْهينِهم[10]، ووعيدِهم بخِزْىِ الدنيا والآخرة، وتكذيبِ الأُمَمِ قَبْلَهم،

(١) الجماء : الكثير . وفى ب : الجم، وهو بمعناه .

(٢) مشاكلة بعض أجزائه بعضا : مشابهة بعضه لبعض .

(٣) التئام أقسامها : توافقها، وانضمام كل قسم إلى مشاكله .

(٤) استخبار : استفهام . (٥) فى ا : وتقرير .

(٦) ترهيب : تخويف .

(٧) دون خلل : أى أمر يخل به وينقصه يكون فى أثناء كلامه .

(٨) اعتوره : ورد وطرأ عليه . مثل هذا : يريد إذا تضمن أنواعا من المقاصد . جزالته : صلابته وقوته . رونقه : صفاؤه .

(٩) الملأ : جماعة الأشراف والرؤساء .

(١٠) توهينهم : إظهار ضعفهم .

وإهلاكِ اللهِ لهم ، ووَعيدِ هؤلاء مِثلَ مُصابهم (١)، وتَصْبيرِ النبيِّ على أذاهم، وتَسْليتِهِ بكل ما تقدّم ذِكْرُهُ ؛ ثم أخَذَ في ذِكْرِ داود وقِصَص الأنبياء ؛ كلٌّ هذا في أوْجزِ كلامٍ وأحسنِ نظام .

ومنه (٢) الجملةُ الكثيرة (٣) التي انطوَتْ عليها الكلماتُ القليلةُ ؛ وهذا كلّه وكثيرٌ مما ذَكَرْنا أنه ذُكِر في إعجاز القرآنِ ، إلى وجوهٍ كثيرة ذَكرها الأئمةُ لم نَذْكُرْها ؛ إذ أكثَرُها داخلٌ في باب بلاغته ؛ فلا يَجِب (٤) أنْ يُعَدَّ فنّا منفردا في إعجازِه ؛ إلا في باب تفصيل فنون البلاغة ؛ وكذلك كثيرٌ مما قدمنا ذِكْره عنهم يُعَدُّ في خواصّه وفضائله ، لا إعجازِهِ .

وحقيقةُ الإعجاز الوجوهُ الأربعةُ التي ذكَرْنا ؛ فليُعْتَمد عليها ، وما بعدها من خواصّ القرآنِ وعجائبه التي لا تَنْقَضِي . واللهُ وليُّ (٥) التوفيق .

فصل
في انشقاقِ القمَر وحَبْسِ الشَّمْس (٦)

قال الله تعالى (٧) : ﴿ اقتربت الساعةُ وانشقّ القمَرُ . وإنْ يرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا : سِحْرٌ (٨) مستمرٌّ ﴾ .

---

(١) بقوله تعالى : وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق .

(٢) من وجوه إعجازه . (٣) الكثيرة ــ يريد الكثيرة المعانى .

(٤) في ا : فلا نحب . (٥) في ا : وبالله التوفيق .

(٦) هذا الفصل في ذكر معجزته صلى الله عليه وسلم بشق القمر له ، وجعله فلقتين . وفي منع الشمس عن مسيرها للغروب ، كما سيأتي بيانه .

(٧) سورة القمر ، آية ١

اقتربت : صارت قريبة من بعثته صلى الله عليه وسلم ؛ كما في ورد في الحديث : بعثت أنا والساعة كهاتين ــ وأشار بإصبعه الوسطى والسبابة .

(٨) سحر مستمر : دائم ، أو محكم .

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراضِ الكفرةِ عن آياته(١)؛ وأجمع المفسِّرون وأهلُ السنّةِ على وقوعه(٢) :

أخبرنا الحُسَين بن محمد [٩٩] الحافظ من كتابه ، حدثنا القاضى سِراجُ ابن عَبْد الله ، حدثنا الأَصِيلى ، حدثنا المروزىُّ ، حدثنا الفِرَبْرى ، حدثنا البُخَارى ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا يحيى ، عن شُعْبَة ، وسُفْيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبى مَعْمَر ، عن ابن مسعود رضِىَ اللهُ عنه ؛ قال : انشَقَّ القَمَرُ على عَهْدِ(٣) رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم فِرقتيْنِ(٤) : فرقةً فوقَ الجَبَلِ ، وفرقةً دونه(٥) ؛ فقال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلم : اشْهَدُوا(٦) .

وفى رواية مجاهد(٧) : ونحن مع النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم .

وفى بعض طرقِ الأعمش(٨) : ونحنُ بِمِنًى .

---

(١) آياته : المراد معجزاته التى لا يمكن البشر الإتيان بمثلها .

(٢) قال فى نسيم الرياض (٣ – ٣) : قال السبكى : إنه متواتر لا يجوز إنكاره ، وردوا قول الماوردى : إن الجمهور على خلافه ، وتأويل ينشق بمعنى سينشق ، فإنه لو وقع لم يبق أحد إلا رآه .

ولم يعتد المصنف بهذه المقالة ، وهى لا تخرق إجماع السلف من أهل السنة ؛ ومثله ليس من أهل التفسير ، بل من أهل التأويل عنده .

(٣) على عهد رسول الله : فى زمانه وحياته .   (٤) فرقتين : المراد نصفين .

(٥) الجبل : هو حراء ، أو أبو قبيس . ودونه : أى فى مقابلته .

(٦) وذلك بمكة قبل الهجرة — رواه ابن الجوزى فى « الوفا » عن ابن عباس . واشهدوا : أى اشهدوا على معجزتى ونبوتى . ووقوع ما طلبوه ، لأنهم أهل بهتان وجحد .

(٧) سنن الترمذى : ٤ – ٤٧٧

(٨) رويت أحاديث انشقاق القمر فى الصحيحين : صحيح البخارى : ٤ – ٢٥١ ، ٦ – ١٧٨ ، وصحيح مسلم : ٢١٥٨ ، ومسند الإمام أحمد : ٣ – ١٦٥

ورواهُ أيضا ـ عن ابن مسعود ـ الأَسودُ، وقال: حتى رأيتُ الجبلَ بين فُرْجَتى القَمر [١].

ورواه عنه مسروق ـ أنه كان بمكة ـ وزادَ: فقال كفّارُ قُريش: سحَركم ابنُ أبي كَبْشَة [٢]!

فقال رجلٌ منهم: إنّ محمدا إنْ كان سحَرَ القَمر فإنه لا يَبْلُغُ مِنْ سِحْرِه أن يَسْحَر الأرضَ كلّها، فاسْأَلوا [٣] مَنْ يأتيكم من بلدٍ آخَر: هل رأَوْا هذا؟ فأَتَوْا، فسأَلوهم فأخبروهم أنهم رأَوْا مِثْلَ ذلك.

وحكى السَّمَرْقَندى عن الضحاك نَحْوَه، وقال: فقال أبُو جهل: هذا سِحْرٌ؛ فابعثوا إلى أهل الآفاقِ [٤] حتى تنظرُوا: أرَأَوْا ذلك أم لا؟

فأخبر أهلُ الأفاقِ أنهم رَأَوْه مُنْشَقًّا؛ فقالوا ـ يَعْنى الكفّارَ: هذا سِحْرٌ مستمرّ.

ورَوَاه أيضا ـ عن ابن مسعود ـ علقمةُ؛ فهؤلاء أربعةٌ عن عبد الله [٥].

وقد رواهُ غَيْرُ ابنِ مسعود، كما رواه ابنُ مسعود؛ منهم أَنَس، وابنُ عباس، وابنُ عُمر، وحُذَيفةُ، وعليّ، وجُبير بن مُطْعِم؛ فقال عَلِيّ ـ من رواية أبي حُذيفة الأَرْحَبِي [٦]: انشقّ القمرُ ونَحْنُ مع النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم.

---

(١) فرجتى القمر: أى فلقتيه وقطعتيه؛ لبعد ما بينهما.

(٢) ابن أبي كبشة: يعنون النبي صلى الله عليه وسلم. وأبو كبشة: اسم رجل تأله قديما، وفارق دين الجاهلية، وعبد الشعرى، فشبه المشركون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ به. وقيل: بل كانت للنبي صلى الله عليه وسلم أخت من الرضاعة تسمى «كبشة»؛ وكان أبوه من الرضاعة يكنى بها. وقيل: بل كان فى أجداده لأمه من يكنى بذلك (شرح القارى: ١ ـ ٥٨٦)

(٣) فى ا: فسلوا.

(٤) الآفاق: جمع أفق، ومعناه هنا الناحية.

(٥) عن عبد الله بن مسعود. وفى هامش ب: الأربعة.

(٦) فى ب: الأزجى.

وعن أَنَس : سأَل أهلُ مكةَ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلّم أَنْ يُرِيَهم آيةً ، فأراهم انشقاقَ القَمرِ فرقتين [١] حتى رأَوْا حِراء بينهما .

رواه عن أَنَس قتادة .

وفى رواية مَعْمر وغيره، عن قتادة ، عنه : أَراهم القَمرَ مرّتَيْن انشقاقَه، فنزلت: ﴿ اقتربت الساعَة وانشقّ القَمَر ﴾ .

ورواه [٢] عن جُبَير بن مُطْعِم ابنُه محمّد ، وابنُ ابنه جُبَير بن محمد .

ورواه عن ابن عباس عبيدُ الله بن عبد الله [٣] بن عُتْبَة .

ورواه عن ابن عُمر مُجاهد ، ورواهُ عن حُذَيفَة أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ ومسلمُ ابن أبى عمْرَان الأَزْدِى .

وأَكثرُ طُرقِ هذه الأَحاديثِ صحيحةٌ ؛ والآيةُ مُصرِّحَةٌ ، ولا يلتفتُ إلى اعتراضِ مخذول [٤] ، بأنه لو كان هذا لم يخْفَ على أهلِ الأَرض ؛ إذْ هو شىءٌ ظاهرٌ لجميعِهم ؛ إذ لم يُنقَلْ لنا عن أهلِ الأرض أنهم رصَدُوه [٥] تلك الليلةَ فلم يَروْه انشقّ ؛ ولو نُقِل إلينا عمَّنْ لا يجوزُ تمالُؤهم ـ لكَثْرتِهم ـ على الكذب [٦] ، لما كانت

---

(١) فى ا : مرتين .

(٢) فى نسيم الرياض (٣ ـ ٦) : وهذه الروايات كلها فى الكتب الستة وغيرها مخرجة؛ فرواية أنس وابن عباس فى الصحيحين ، ورواية ابن عمر فى صحيح مسلم والترمذى ، ورواية حذيفة بن اليمان فى الدلائل وغيرها ، ورواية ابن مطعم فى مسند أحمد والبيهقى .

(٣) فى ب : بن عبيد الله بن عتبة .

(٤) مخذول : المراد من لم يكن على الحق وطريق الهداية ، ومن أنكر هذا بقصد الطعن فى المعجزة .

(٥) رصدوه : ترقبوه ، ونظروا إلى مطلعه .

(٦) ولو نقل إلينا : أنهم رصدوه فلم يروه انشق . تمالؤهم على الكذب : اجتماعهم على الكذب فى خبرهم .

علينا به حجّةٌ ؛ إذ ليس القمرُ فى حدّ واحدٍ لجميعِ أهلِ الأرضِ ؛ فقد يطلعُ على قومٍ قبل أن يطلعَ على آخرين ؛ وقد يكون مِنْ قومٍ بضِدٍّ ما هو من مُتابليهم من من أقطار الأرضِ ، أو يحُولُ بين قومٍ وبينه سحابٌ أو جبالٌ ؛ ولهذا نجدُ الكسوفاتِ فى بعض البلادِ دونَ بَعْض ، وفى بعضِها جُزْئِيّة ، وفى بعضها كلّيّة ، وفى بعضها لا يعرفها إلا المدعوون لعِلْمها ؛ ذلكَ تقديرُ العزيز العليم .

وآيةُ القمر كانَتْ ليلًا ، والعادةُ من الناس بالليل الهدوُّ والسكونُ وإيجافُ[1] الأبوابِ ، وقَطْعُ التصرّف ، ولا يكاد يَعْرِفُ من أمور [١٠٠] السماء شيئا ، إلّا مَنْ رَصَدَ ذلك ، وَاهْتَبل[2] به .

ولذلك ما يكونُ الكسوفُ القَمرى كثيرا فى البلاد ، وأكثرُهم لا يعلمُ به حتى يُخْبَر ، وكثيرا ما يحدّثُ الثقاتُ بعجائبَ يشاهدونها من أنوارٍ ونجومٍ طوَالع عظَامٍ تظهرُ فى الأحيان بالليل فى السماء ، ولا عِلْمَ عند أحد منها .

وخرّج الطحاوى ـ فى مشكل الحديث[3] ، عن أسماء بنت عُميس من طريقين ـ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُوحَى إليه ، ورأسُه فى حِجْر علىّ ، فلم يصلّ العصر حتى غَرُبت الشمسُ ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أصلّيْتَ ياعلىّ ؟ قال : لا . فقال : اللهم إنه كان فى طاعتكَ وطاعةِ رسولك فارْدُدْ عليه الشّمس[4] .

---

(١) إيجاف الأبواب : إغلاقها . (٢) اهتبل به : بذل جهده واعتنى به غاية الاعتناء .

(٣) مشكل الحديث كتاب للطحاوى . وهذا الحديث ، فى رد الشمس أو حبسها ، رواه الطبرانى بأسانيد مختلفة . والطحاوى : مصرى من أكابر علماء الحنفية ، توفى سنة ٣٢١ ﻫ .

وفى نسيم الرياض (٣ ـ ١١) : قال ابن الجوزى : هذا الحديث موضوع بلا شك ، ورواياته مضطربة ، وفى روايته رجال متهمون بالكذب والوضع . وقال القارى (١ ـ ٥٩٠) : وتبعه ابن القيم ، وشيخه ابن تيمية ، وذكروا تضعيف رجال الطحاوى ونسبوا بعضهم إلى الوضع .

(٤) اردد عليه الشمس : أعدها لمكانها الذى غربت منه ليصلى الصلاة فى وقتها . وفى هامش ب : فاردد عليه الشمس مشرقها . وفى هامش ا : فاردد عليه الشمس شرقها . ومشرقها : فى محل شروقها .

قالت أسماء : فرأيتُها غربت،ثم رأيتُها طلعت بعد ماغربَتْ ، ووقفت على الجبال والأرض ، وذلك بالصَّهْبَاء(١) فى خَيْبَر .

قال : وهذانِ الحديثان ثابتان ورُوَاتُهما ثقات (٢) .

وحكى الطَّحَاوى أنَّ أحمد بن صالح كان يقول: لاينبغى لمن [يكون](٣) سبيله العلم التخلّفُ عن حفْظِ حديثِ أسماء ؛ لأنه من علامات النبوّة (٤) .

ورَوَى يونُس بن بُكير فى زيادةِ المغازىفى روايته عن ابن إسحاق:لمّا أُسْرِى برسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم ، وأَخْبَر قَوْمَه بالرُّفقهِ والعلامةِ التى فى العِير(٥) قالوا : متى تَجِيءُ؟ قال:يوم الأَرْبعاء؛فلما كان ذلكَ اليومُ أشرفتْ قُريش ينظرُون وقد ولّى النهارُ ولم تجِئْ ؛ فدعا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فزِيدَ له فى النهار ساعة ، وحُبِسَتْ عليه الشمسُ(٦) .

(١) الصهباء : قلعة بخيبر . وخيبر : أرض بقرب المدينة ، فيها قلاع وقرى ، كان بهـا مساكن اليهود ، ثم خربت .
(٢) قال فى نسيم الرياض (٣ ـ ١٢) : اعترض عليه بعض الشراح ؛ وقال : إنه حديث موضوع ، ورجاله مطعون فيهم كذابون ووضاعون .
ثم قال: وهذا الحديث صححه المصنف، وأشار إلى أن تعدد طرقه شاهد صدق على صحته. وقد صححه قبله كثير من الأئمة كالطحاوى. وأخرجه ابن شاهين، وابن منده ، وابن مردويه، والطبرانى فى معجمه ؛ وقال: حسن . وحكاه العراقى فى التقريب . وارجع فى هذا الحديث إلى بحث قيم فى نسيم الرياض (٣ ـ ١٢ ، ١٣) إن أردت .
(٣) من ب .
(٤) أى من الآيات الدالة على النبوة . وهذا ـ فى رأيه ـ مؤيد لصحته .
(٥) الرفقة : جمع رفيق ؛ أى أخبرهم بقافلتهم ومن فيها من الجماعة المترافقين ؛ والعلامة : هى قوله صلى الله عليه وسلم إنه يقدمها جمل أورق .
(٦) قال فى نسيم الرياض (٣ ـ ١٤) : الذى ذكر هنا من حبس الشمس ، وأن العـير قدمت بعد العصر قبيل الغروب ينافيه ماورد من أنها قدمت صباحا، وعليه اقتصر المفسرون؛=

فصل

فى نَبْع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته (١)

[قال المؤلف رحمه الله] (٢) :

أمّا الأحاديث فى هذا فكثيرةٌ جدا (٣) .

روَى حديثَ نَبْع الماء من أصابعه صلى اللهُ عليه وسلم جماعةٌ من الصحابة ؛ منهم أنَس ، وجابر ، وابن مسعود :

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتى عليه ، حدثنا القاضى عيسى ابن سَهْل ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو عُمَر (٤) بن الفَخّار ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا يحيى ، حدثنا مالك ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طَلْحَة ، عن أنَس بن مالك رضِىَ الله عنه (٥) : رأيتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهِ عليه وسلم ، وحانَتْ صلاةُ (٦) العصْرِ ؛ فالتمسَ الناسُ الوَضوء (٧) فلم يجدوه ، فأتى رسولُ اللهِ صلى الله

= كالزمخشرى والبيضاوى فى أول سورة الإسراء . وقال القارى (١-٥٩١): وقد قال بعضهم: حديث رد الشمس له صلى الله عليه وسلم ليس بصحيح . وقال ابن تيمية : العجب من القاضى مع جلالة قدره وعلو خطره فى علوم الحديث كيف سكت عنه موهما صحته ، وناقلا ثبوته ، موثقا رجاله .

(١) فى نسيم الرياض (٣ - ١٥) :وقد كان هذا مرات كثيرة ، ورويت بطرق متعددة فى الصحيحين وغيرهما . (٢) من ب . (٣) قال النووى : إنها بلغت مرتبة التواتر .

(٤) قال فى نسيم الرياض (٣ - ١٦) : فى كلام المصنف رحمه الله سهو من وجهين : إذ سماه أبو عمر ، وهو أبو عبد الله . وفى قوله : حدثنا أبو عيسى ، حدثنا يحيى ؛ إذ أسقط راويا بين أبى عيسى ويحيى ، وهو عبيد الله أبو مروان .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى: ٤ - ٢٣٣ ، وصحيح مسلم: ١٧٨٣، وسنن الترمذى: ٥ - ٥٩٦ ، وقال : حديث أنس حديث حسن صحيح .

(٦) حانت : قربت ، أو دخل وقتها .

(٧) التمس الناس : طلبوا . والوضوء - بفتح الواو : الماء الذى يتوضأ به .

عليه وسلم بوَضُوء، فوضع رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في ذلك الإناء[١] يدَه، وأمر الناسَ أن يتوضئوا منه.

قال: فرأيتُ الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضّأ الناسُ حتى توضّئُوا من عند آخرهم[٢].

ورواه أيضا ـ عن أنَس ـ قَتادة[٣]، وقال: بإناء فيه ماء يغمر[٤] أصابِعَه أولا يكاد يَغْمر.

قال: كم كنتُم؟ قال: كنّا زُهاء[٥] ثلاثمائة.

وفي روايةٍ عنه: وهم بالزَّوْرَاء[٦] عند السوق.

ورواهُ أيضا حُمَيد، وثابت، والَحسن، عن أنس.

وفي رواية حُمَيد: قلتُ: كم كانوا؟ قال: ثمانين.

ونحوُه عن ثابت عنه.

وعنه أيضا: وهم نحوٌ من سبعين رجُلا.

وأما ابنُ مسعود ففي الصحيح من رواية عَلْقَمة: بينما نحن مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وليس معنا ماء، فقال لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) في ا: في ذلك يده. والمثبت في صحيح مسلم أيضا، وصحيح البخارى: ٤ ـ ٢٣٣

(٢) من عند آخرهم: جميعهم. قال النووى: «من» هنا بمعنى «إلى»، وهي لغة.

قال في نسيم الرياض: قالوا: إنه يحتمل أن الماء خرج من أصابعه صلى الله عليه وسلم حقيقة، وهو الظاهر. ويحتمل إنه كثر من غير نبع منها؛ وإنما وضع يده فيه سترا عن الناس حتى لايروه فيفتتن بعضهم به، وتأدبا مع الله الذى لايوجد للمعدوم سواه.

(٣) كما في صحيح مسلم: ١٧٨٣، وصحيح البخارى: ٤ ـ ٢٣٣

(٤) يغمر أصابعه: يسترها. (٥) زهاء: مقدار.

(٦) في صحيح مسلم ١٧٦٣، وقال: والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد فيما هناك.

اطلبوا مَنْ معه فَضْلُ[١] ماء؛ فأُتِيَ بماء فَصَبَّهُ في إناء، ثم وضع كفَّه فيه، فجعل الماء [١٠١] ينبعُ مِنْ بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى الصحيح[٢]، عن سالم بن أبى الجعْدِ، عن جابر رضِيَ اللهُ عنه: عَطِشَ الناسُ يومَ الحُدَيْبية ورَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم بين يدَيْه رَكْوَةٌ[٣]، فتوضأ منها، وأقبل الناسُ نَحْوَه؛ وقالوا: ليس عندنا ماءٌ إلّا ما فى رَكْوَتك؛ فوضع النبىُّ صلّى اللهُ عليه وسلم يدَهُ فى الرَّكْوَةِ؛ فجعل الماء يَفُورُ[٤] من بين أصابعه كأمثال العُيُون.

وفيه: فقُلْتُ: كم كنتُم؟ قالوا: لو كنّا مائةَ ألفٍ لكفانا؛ كُنّا خَمْسَ عشرة مائة.

ورُوِى مِثلُه عن أنَس، عن جابر؛ وفيه أنه كان بالحُدَيْبِيَة.

وفى رواية الوَلِيد بن عُبادة بن الصّامِت عنه، فى حديث مُسلم الطّويل فى ذِكْر غَزْوة بُوَاط[٥] قال[٦]:

قال لى رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وسلم: يا جابرُ، نادِ، الوَضوء[٧]... وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجِدْ إلّا قَطْرَةً فى عَزْلَاء شَجْب[٨]؛ فأُتِيَ به النبىّ صلى

---

(١) فضل ماء: بقية من ماء. أو زيادة منه على حاجته.

(٢) فى صحيح البخارى: ٤ — ٢٣٤

(٣) ركوة: إناء للماء من جلد. (٤) فى صحيح البخارى: يثور بين أصابعه.

(٥) هى ثانى غزواته. وبواط: اسم لجبال جهينة على أبراد من المدينة.

(٦) الحديث فى صحيح مسلم: ٢٣٠٣

(٧) ناد، الوضوء؛ ناد الناس وقل لهم: أعطوا، أو ناولوا الوضوء؛ وهو الماء الذى يتوضأ به، وفيه حث لهم عليه. وفى صحيح مسلم: ناد بوضوء.

(٨) قطرة: يسيرا. عزلاء: فم الراوية ومصب الماء منها. شجب — بفتح الشين المعجمة وقيل بكسرها، وسكون الجيم، وباء موحدة: القديم من القرب، أو أعواد تعلق عليها القرب ونحوها.

وفى هامش ا: الشجب: القربة البالية، وسميت بذلك لأنها جلد قد شجب؛ أى عطب.

اللهُ عليه وسلم ، فَغَمزه وتــكلّم بشيء لا أدرى ما هو ، وقال : نادِ بجَفْنَة الرَّكْب ، فأتيتُ بها ، فوضعتُها بين يدَيْه ، وذكَر أنّ النبيَّ صلى الله عليــــه وسلم بسط يدَه فى الجَفْنَةِ (١) ، وفرّق أصابعَه ، وصبّ جابرٌ عليه ، وقال : بسم الله [كما أمره صلى الله عليه وسلمَ] (٢) ؛ قال : فرأيتُ الماءَ يفورُ من بين أصابعه ، ثم فارت الجَفْنَةُ واستدارت (٣) حتى امتلأت ، وأمر الناسَ بالاستقاء ، فاستَقَوْا حتى رَوُوا .

فقلت : هل بَقِيَ أحد له حاجة ؟ فرفع رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم يدَه من الجَفْنَة وهى مَلْأَى .

وعن الشَّعْبِيّ : أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفارِه بإدَاوَةِ (٤) ماء ، وقيل : ما مَعنا يا رسولَ الله ماءٌ غَيْرُها ، فسكبها فى رَكْوَةٍ ، ووضع إصبعه وسطها ، وغَمَسها فى الماء ، وجعل الناسُ يجيئون ويتوضّئُون ثم يقومون .

قال التِّرمذى : وفى الباب ، عن عمران بن حُصَيْن .

ومِثْلُ هذا فى هذه المواطن الحَفِلَة (٥) والجموعِ الكثيرة لا تتطرّقُ التهمةُ إلى المحدِّثِ به ؛ لأنهم كانوا أسرعَ شىء إلى تكذيبه ، لِما جُبِلت عليه النفوسُ من ذلك ؛ ولأنهم كانوا ممن لا يسكتُ على باطل ؛ فهؤلاء قد رَوَوْا هذا ، وأشاعوه ، ونسبوا حضورَ الجَمّاء الغَفِير (٦) له ، ولم يُنْكِرْ أحد من الناس عليهم ما حدّثوا به عنهم أنهم فَعَلُوا (٧) وشاهدوه ، فصار كتصديق جميعِهم له .

---

(١) الجفنة : القصعة التى تشبع عشرة فأكثر . والركب : جمع راكب ، والمراد الناس .

(٢) من ب .

(٣) فى صحيح مسلم : ودارت .

(٤) الإداوة — بكسر الهمزة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء ، ويسمى المطهر . (شرح القارى : ١ — ٥٩٦) .

(٥) الحفلة : الممتلئة المجتمعة الغزيرة . وفى ب : الحفيلة ، وهى بمعنى الحفلة .

(٦) الجماء الغفير : الجمع الكثير .

(٧) فى هامش ب : خ : فعلوه .

فصل

ومما يُشْبِهُ هذا مِنْ معجزاته تفجيرُ الماء بِبَرَكتِه ، وانبعاثُه[١] بمَسِّه ودعْوَتهِ فيما رَوَى[٢] مالك في الموطأ[٣] عن مُعاذ بن جَبَل في قصةِ غَزْوةِ تبُوك ، وأنهم وَرَدُوا العَيْنَ وهي تَبِضُّ بشيء من ماء مِثْلَ الشِّراكِ[٤] ، فغَرَفُوا من العَيْنِ بأيديهم حتى اجتمع في شيء ، ثم غَسَل رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم فيه وَجْهَهُ ويَدَيْه ، وأعادَهُ فيها ؛ فجرَتْ بماء كثيرٍ ، فاسْتَقَى الناسُ[٥] .

قال - في حديث ابن إسحاق : فانخرقَ مِنَ الماء مالَهُ حِسٌّ كحِسِّ الصَّوَاعق .

ثم قال : يُوشِكُ يا مُعَاذ ؛ إنْ طالَتْ بك حياةٌ أَنْ ترى ها هنا قد مُلِئَ جِنانًا[٥] .

وفي حديث البَراء[٦] ، وسَلَمَة بن الأكْوَع - وحديثُه أتَمّ - في قصةِ الحُديبية ، وهم أرْبَع عشرةَ مائة ، وبئرُها لاترْوِى خمسين شاةً ، فنزَحْنَاها فلم نَتْرُكْ فيها قَطْرَةً ، فقعد رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على جَبَاهَا[٧] .

قال البراء : وأُتِيَ بدَلْوٍ منها ، فبصَقَ [١٠٢] فدعا .

وقال سلَمة : فإمّا دعا ، وإمّا بصَقَ فيهـــا ، فجاشَتْ[٨] ؛ فأرْوَوْا أنفُسهم وركَابَهم[٩] .

---

(١) انبعاثه : ثورانه وجريانه . (٢) في ا : مما روى . (٣) الموطأ : ١٤٤

(٤) تبض : تسيل . والشراك : سير النعل ، ومعناه : ماء قليل جدا .

وفي هامش ب : تبض - بالضاد المعجمة ، والصاد المهملة : تقطر .

(٥) الحديث في صحيح مسلم أيضا : ١٧٨٤

(٦) صحيح البخاري : ٤ - ٢٣٤

(٧) جباها : الجبا : ماحول البئر (النهاية) . وفي هامش ب : جبا البئر : جانبها .

(٨) جاشت ؛ أي فارت البئر . (٩) ركابهم : دوابهم .

وفى غير هــــذه (١) الروايتين ـ فى هذه القصة ـ من طريق ابن شهاب [فى الحُدَيْبِيَة](٢) : فأخرج سَهْما من كِنانته ، فوضع فى قَعْرِ قَلِيبٍ ليس فيه ماء؟ فَرَوِى الناسُ حتى ضربوا بِعَطَن (٣) .

وعن أبى قتادة (٤) ـ وذكر أنَ الناسَ شَكَوْا إلى رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم العَطَش فى بعض أسفاره ، فدعا بالمِيضْأة(٥)، فجعلها فى ضِبْنِه (٦) ، ثم الْتَقم فمَها ، فاللهُ أعلمُ ـ نفثَ (٧) فيها أم لا ؛ فشَرِبَ الناسُ حتى رَوُوا وملئوا كلَّ إناء معهم؛ فخُيِّل إلىَّ أنها كما أخذها منى ، وكانوا اثنين وسبعين رجلا .

ورَوَى مِثْلَه عِمْران بن حصُين .

وذكر الطبرى حديثَ أبى قتَادة على غير ما ذَكَره أهلُ الصحيح ـ وأن النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم خرج بهم مُمِدًّا لأهل مُؤْتَة (٨) عند ما بَلَغَهُ قَتْلُ الأمراء (٩) :

وذكر حديثاً طويلا فيــه مُعجِزاتٌ وآياتٌ للنبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ وفيه إعلامُهم أنهم يَفْقِدون الماء فى غَدٍ .

وذكر حديثَ المِيضَأةِ(١٠) ؛ قال : والقومُ زُهاء(١١) ثلاثمائة .

---

(١) هذا فى ا ، ب . (٢) ليس فى ا .

(٣) العطن : منزل الإبل حول المــاء لتبرك فيه إذا شربت لتعاد إلى الشرب مرة أخرى . والمراد : حتى رووا ورويت إبلهم .

(٤) قال القارى (١ ـ ٥٩٨) : رواه البيهقى عنه .

(٥) الميضأة : مطهرة كبيرة يتوضأ منها .

(٦) ضبنه : حضنه بين كشطه وإبطه . (٧) نفث : نفخ .

(٨) ممدا : معينا . ومؤتة : قرية بين تبوك وحوران من الشام .

(٩) الأمراء : هم زيد بن حارثة مولاه ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة .

(١٠) فى هامش ا : الميضأة: مطهرة يتوضأ منها، مفعلة من الوضوء . وقد تقدم تفسيرها .

(١١) ضبطت الهمزة فى «زهاء» بالفتحة فى ب، وبالضمة فى ا . وقال القارى (١ـ٥٩٩): زهاء : قدر ، تخمينا . قال المزى : الوجه نصب « زهاء » ، ولــكن أهل الحديث يرفعونه .

وفى كتاب مسلم[١] أنه قال لأبى قتَادة : احفَظْ علىّ[٢] مِيضَأتك ، فإنه سيكونُ لها نَبأٌ[٣] . . . وذكر نحوه[٤] .

ومن ذلك حديثُ عِمْــران بن حُصَين حين أصابَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم وأصحابَه عَطشٌ فى بعض أسفارهم ؛ فوجَّه رجُلين[٥] من أصحابه ، وأعلمهما أنهما يجِدَان امرأةً بمكانٍ كذا معها بَعِيرٌ عليه مَزَادتان[٦] . . . الحديث ؛ فوجداها وأَتيَا بها إلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فجعل فى إناء من مَزَادَتَيْها[٦] ، وقال فيه ما شاء اللهُ أن يقولَ ؛ ثم أعاد الماء فى المزَادَتَيْنِ ، ثم فتحَتْ عَزَالِيَهِمَا[٧] ؛ وأمر الناسَ فملئوا أسقيَتهم[٨] حتى لم يدَعُوا شيئا إلّا ملئوه .

قال عِمْران : وتَخَيَّل إلىَّ أنهما لم تَزْدَادا إلا امتلاءً ، ثم أمر فجُمِع للمرأةِ من الأزوادِ[٩] حتى ملأ ثَوْبها . وقال : اذهبى ؛ فإنَّا لم نأْخُذْ[١٠] من مائك شيئا ؛ ولكنَّ الله سقانا . . . الحديث بطوله .

وعن سلَمة بن الأَكْوع[١١] : قال نبىُّ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : هل مِنْ وَضوء؟

---

(١) صحيح مسلم : ٤٧٣ (٢) فى صحيح مسلم : احفظ علينا .

(٣) نبأ : خبر عظيم .

(٤) وذكر ، أى الطبرى نحوه ؛ أى نحو ما سبق مما ذكر غيره .

(٥) قال القارى (١ — ٥٩٩) : هما على بن أبى طالب ، وعمران بن حصين .

(٦) المزادة : ظرف من جلد يحمل فيه الماء ، أكبر من القربة .

(٧) فى ب: عزاليها، وعزاليهما — معا — وعزاليها — بفتح العين المهملة والزاى :تثنية عزلاء، وهو فمها الأسفل .

(٨) أسقيتهم : جمع سقاء ، وهو إناء من جلد يتخذ للماء .

(٩) الأزواد : جمع زود ؛ أى من جملتها .

(١٠) فى ا : لم نرزأ ، وفى هامشه : نأخذ .

(١١) صحيح مسلم : ١٣٥٤

فجاء رجلٌ بإدَاوَةٍ فيها نُطْفَةٌ (١) فأفرغَها فى قَدَحٍ ، فتوضَّأنا كُلُّنا نُدَغْفِقُه (٢) دَغْفقَةً أربع عشرةَ مائة . . . [الحديث بطوله] (٣) .

وفى حديث عُمر ـ فى جَيْش العُسْرَةِ (٤) : وذكر ما أصابهم من العَطش ، حتى إنَّ الرجلَ لينْحَرُ بعيرَه ، فيعْصر فَرْثَه (٥) فيشرَبُه ؛ فرغِبَ (٦) أبو بكر إلى النبىِّ صلّى اللهُ عليه وسلم فى الدعاء (٧) ، فرفَع يدَيه فلم يَرْجعهما حتى قالت (٨) السماء فانسكبَتْ ؛ فملئُوا ما معهم من آنيَةٍ ، ولم تجاوِز العسكر (٩) .

وعن عَمْرو بن شُعيْب ـ أنَّ أَبا طالب قال للنبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وهو رَدِيفُه بذى المَجَاز (١٠) : عَطِشْتُ وليس عندى ماء ؛ فنزل النبىُّ صلّى اللهُ عليه وسلم ،

---

(١) نطفة : قليل من الماء .

(٢) فى هامش ا : الدغفقة : الصب الشديد ، ويقال : فلان فى نعيم دغفق ، أى واسع .

(٣) ليس فى ب .

(٤) جيش العسرة ؛ أى الضيق والشدة ، وهى غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة ، وكانت فى نهار حر ، وقلة الثمار . . .

(٥) فرثه : ما فى كرشه . (٦) فرغب أبو بكر : الرغبة : طلب ما يحبه .

(٧) فى الدعاء : فى دعائه صلى الله عليه وسلم ، وتوجهه لربه ليزيل ما بالناس من البأس الذى عله منهم .

(٨) قالت السماء : غيمت وظهر فيها سحاب . وفى هامش ب : العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام ، فتقول : قال بيده ؛ أى أخذ ؛ وقال برجله ؛ أى مشى ، وقال بالماء على يديه ؛ أى قلبه ؛ وقال بثوبه ، أى رفعه ؛ قال الشاعر :

* وقالت العينان سمعا وطاعة *

أى أومأت ، وكل ذلك على المجاز والاتساع . وارجع فى ذلك إلى النهاية لابن الأثير .

(٩) فانسكبت : انسكب ماؤها . ولم تجاوز العسكر : أى لم تجاوز السماء ، أو السحاب أو المطر ـ المعلوم من السياق ـ العسكر .

(١٠) رديفه : راكب خلفه . ذو المجاز : اسم سوق بقرب عرفة ، كانوا يجتمعون فيه فى الجاهلية ، كما كانوا يجتمعون بعكاظ . وهذا الحديث رواه ابن سعد عن إسحاق بن الأزرق .

وضربَ بقَدَمِه الأَرْضَ ، فخرج الماء ، فقال : اشرب .

والحديثُ فى هذا الباب كَثِيرٌ ؛ ومنه الإجابةُ بدعاء الاستسقاء وماجانسَه[١] .

فصــــل

ومن معجزاته تكثيرُ الطعام ببركته ودُعائه :

حدثنا القاضى الشهيدُ أبو علىّ رحمه الله؛ حدثنا العُذْرى ، حدثنا الرازى ، حدثنا الجُلُودى ، حدثنا ابن سفيان ، حدثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنا سَلَمَة بن شَبيب ، حدثنا الحسَن بن أعْيَن ، حدثنا مَعْقِل ، عن أبى الزُّبير ، عن جابر ـ أنَّ رجلًا أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم [١٠٣] يَسْتَطْعِمُهُ[٢] ، فأطعمه[٣] شَطْر وَسْقِ شَعيرٍ[٤] ؛ فما زال يأكل منه وامرأتُه وضَيْفُه حتى كالَه[٥] ، فأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فقال : لو لم تَكِلْهُ لأكلتُم منه ولقام بكم[٦] .

ومن ذلك حديثُ[٧] أبى طَلْحَةَ المشهور ، وإطعامُه صلَّى اللهُ عليه وسلم ثمانين أو سبعين رجلا من أقراصٍ مِنْ شَعِير جاء بها أنَس تحت يدِه ؛ أى إبطِه ؛ فأمر بها ففُتَّتْ ، وقال فيها ماشاء اللهُ أنْ يَقُولَ .

---

(١) وما جانسه : وما شابه الاستسقاء .

(٢) يستطعمه : يطلب منه طعاما له ولأهله ، لشدة احتياجه .

(٣) فأطعمه : أى أعطاه الطعام الذى يطلبه .

(٤) شطر وسق شعير : الشطر : النصف ، أو البعض . والوسق ـ بفتح الواو وكسرها: الحمل ، أو مقدار ستين صاعا .

(٥) حتى كاله : أى استمر أكلهم منه من غير نقص شىء منه إلى أن كاله ، فظهر نقصه بعد الكيل مما يأخذه منه ، فكانت البركة فى ترك كيله حتى لولم يكله لم ينفد .

(٦) لأكلتم منه : لاستمر أكلكم منه إلى غير النهاية . ولقام بكم : لكفاكم مدة حياتكم، وكان فيه قوام لكم من غير نقص . والحديث فى صحيح مسلم : ١٧٨٤

(٧) هذه القصة فى صحيح البخارى : ٤ ـ ٢٣٤

وحديثُ جابر [١] فى إطعامِه صلّى اللهُ عليه وسلم يوم الخندق ألفَ رجُلٍ من صاع شَعِير وعَنَاقٍ [٢] .

وقال جابر : فأُقسِمُ باللهِ لأكلوا حتى تركُوه وانحرفوا [٣] ، وإنَّ بُرْمَتَنا لتَغطُّ كما هى [٤] ، وإنَّ عجِينَنا لَيُخْبَزُ [٥] .

وكان رسولُ صلى الله عليه وسلم بَصقَ فى العَجِين والبُرْمَة ، وباركَ [٦] .

رواهُ [٧] عن جابر سَعِيد بن مِينَاء [٨] ، وأَيْمَنُ .

[وعن ثابت مثلُه ، عن رجل من الأنصار وامرأتِه، ولم يسمّهما ؛ قال : وجِىء بمثْلِ الكف [٩] ، فجعل رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَبْسُطُها فى الإناء ويقولُ ما شاء اللهُ ، فأكل منه مَنْ فى البيت والحُجْرةِ والدَّارِ ؛ وكان [١٠] ذلك قد امتلأ بِمَنْ قَدِم معه صلى الله عليه وسلم لذلك ؛ وبَقِى بعد ماشَبِعُوا مِثْلَ ما كان فى الإناء] [١١] .

(١) فى صحيح البخارى : ٥ ـ ١٣٨ ، وسنن الترمذى : ٥ ـ ٥٩٥

(٢) عناق : العناق : الأنثى من أولاد المعز ، لم يتم لها سنة . وقيل : هى التى قاربت الحمل ولم تحمل. (٣) وانحرفوا : أى أكلوا حتى شبعوا وقاموا وانصرفوا . وفى البخارى: تركوه .

(٤) البرمة ـ بضم الباء للوحدة وسكون الراء : القدر مطلقا ؛ أو من حجارة . وتغط : تغلى غليانا شديدا يسمع لها صوت . وفى ب : تفط : تفور . كما هى : لم ينقص منها شىء مع كثرة من أكل منها .

(٥) وإن عجيننا ليخبز : أى إنهم استمروا على خبز العجين وإيصاله شيئا فشيئا لمن يأكل منه ، ولم ينقص ببركة النبى صلى الله عليه وسلم . وفى ب : بعجينتنا . والمثبت فى صحيح البخارى أيضا .

(٦) وبارك : دعا فيهما بالبركة ، والزيادة والنمو . (٧) رواه : روى هذا الحديث .

(٨) فى ا : ابن مينا ـ مقصور . والمثبت فى تهذيب التهذيب : ٤ ـ ٩١ ، وقال القارى (١ ـ ٦٠٣) : ميناء ـ بكسر الميم ، ممدودا ويقصر . (٩) بمثل الكف من العجينة .

(١٠) وكان ذلك : الإشارة إلى ما ذكر من الثلاثة ، وهى البيت والحجرة والدار .

(١١) ما بين القوسين ساقط فى ا . والحديث فى طبقات ابن سعد : ١ ـ ١١٧

وحديثُ أبى أيّوب [١] أنه صنع لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولأبى بكر من الطعام زُهاء [٢] ما يكْفِيهما ؛ فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : ادْعُ ثلاثين من أشراف الأنصار ؛ فدعاهم فأكلوا حتى تركوا [٣] ؛ ثم قال : ادعُ ستّين ؛ فكان مِثلُ ذلك [٤] ؛ ثم قال : ادْعُ سَبْعين فأكلوا حتى تركوا ، وما خرج منهم أحدٌ حتى أسلم [٥] وبايَع .

قال أبو أيوب : فأكلَ مِنْ طعامى مائةٌ وثمانون رجلا .

وعن سَمُرةَ بن جُنْدُب : أُتِيَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بقَصْعَةٍ فيها لَحْمٌ ، فتعاقَبُوها [٦] من غُدْوة حتى الليل ؛ يقومُ قومٌ ويَقْعُدُ آخرون .

ومن ذلك [٧] حديثُ عبد الرحمن بن أبى بكر : كُنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة ؛ وذكر فى الحديث أنه عُجِن صاعٌ من طعام ، وصُنعت [٨] شاةٌ ، فشُوِى سَوَادُ بَطْنها [٩] ؛ قال : وايْمُ [١٠] اللهِ ؛ مامِن الثلاثين ومائةٍ إلا وقد حَزَّ له حُزَّةً [١١] من سوَادِ بَطْنِها ؛ ثم جعل منها قَصْعَتَيْنِ ، فأكلْنَا [منهما] [١٢] أجمعون ، وفضَل فى القَصْعَتَيْنِ ، فحملته على البَعِير .

---

(١) رواه عنه الطبرانى ، والبيهقى . (٢) زهاء : مقدار .

(٣) حتى تركوا : أى شبعوا وتركوا الطعام ، أو الأكل منه .

(٤) اللام فى « مثل » ضبطت فى ا بالفتحة ، وفى ب بالضمة .

(٥) أسلموا وبايعوا لما رأوا من تلك المعجزة ، ولطفه بهم .

(٦) فتعاقبوها : دخل جماعة من الصحابة بعد جماعة .

(٧) هذا الحديث رواه الشيخان فى صحيحيهما : صحيح مسلم : ١٦٢٧ ، وصحيح البخارى : ٤ — ٢٣٦ (٨) صنعت شاة : طبخت .

(٩) سواد بطنها : المراد به الكبد خاصة ، أو حشوها مطلقا ، والأول أظهر .

(١٠) وايم الله : قسم .

(١١) حز له حزة : الحز : القطع بالسكين . والحزة — بفتح الحاء ، وتضم : القطعة من اللحم . وفى صحيح مسلم : إلا حز له رسول الله حزة . . . (١٢) من صحيح مسلم .

ومِنْ ذلك حديثُ(١) عبد الرحمن بن أبى عَمْرةَ الأنصارى ، عن أبيه ، ومِثْلُه لِسَلَمَة بن الأكوع ، وأبى هُريرة ، وعُمــر بن الخطاب رضِىَ اللهُ عنه ؛ فذكروا مَخْمَصةً(٢) أصابت الناسَ مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض مَغَازِيه ، فدعا ببقيّة الأزوادِ(٣) ، فجاء الرجلُ بالحَثْيَةِ(٤) من الطعام ، وفَوْقَ ذلك ؛ وأعلاهم الذى أتى بالصّاعِ من التمر ؛ فجمعه على نِطْعٍ(٥) .

قال سلمةُ : فحَزَرْتُه كرَبْضَةِ(٦) العَنْزِ ؛ ثم دعا الناسَ بأوعيتهم ، فما بقِىَ فى الجيش وِعاء إلّا ملَئُوه وبقِىَ منه(٧) .

وعن أبى هريرة(٨) : أمرنى النبىُّ صلى الله عليه وسلم أن أدْعُوَ له أهْلَ الصُّفَّة(٩) ، فتَتَبَّعتُهم حتى جمَعْتُهم ، فوضِعَتْ بين أيدينا صحفة(١٠) ، فأكَلْنا ما شِئْنا ، وفرغْنا وهى مِثْلُها حين وُضِعَتْ إلّا أنَّ فيها أثَرَ الأصابع .

---

(١) رواه ابن سعد ، والبيهقى ، وصححاه . طبقات ابن سعد : ١ — ١١٩

(٢) مخمصة : المخمصة : الجوع ، والمجاعة .

(٣) ببقية الأزواد : أى طلب من كل رجل منهم أن يأتى بما بقى عنده من زاده .

(٤) الحثية : ما يملأ اليدين معا .

(٥) على نطع : النطع : بساط من جلد . وقد ضبطت النون فى كلمة « نطع » بالفتحة والكسرة ، وعليها « معا » فى ب .

(٦) فحزرته كربضة العنز : حزرته : قدرته بطريق الحدس والتخمين . كربضة العنز : مقدار جثة عنز باركة على الأرض .

(٧) فى هامش ب : ح : قدر ما جمل وأكثر ، ولو ورده أهل الأرض لكفاهم .

(٨) فى حديث رواه ابن أبى شيبة والطبرانى بسند جيد .

(٩) الصفة : محل مرتفع فى الدار والمسجد وغيره مفرز عن غيره للجلوس فيه ؛ وكان فى مسجده صلى الله عليه وسلم محل لذلك ، فيه المنقطعون عنده صلى الله عليه وسلم من فقراء الصحابة الأعراب وغيرهم ؛ كسلمان ، وأبى ذر .

(١٠) صحفة : إناء بين الصغير والكبير يعد للطعام .

وعن عليّ بن أبي طالب[١] ، رضي الله عنه : جمع رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم بني عبد المطلب ، وكانوا أربعين ، منهم قومٌ يأكلونَ الجَذَعة، ويشربون الفَرْق[٢] ؛ فصنع لهم مُدًّا من طعام ، فأكلوا حتى شَبِعوا ، وبَقِيَ كما هو ؛ ثم دعا بعُسّ[٣] ، فشرِبُوا حتى رَوُوا ، وبقِي كأنه لم يُشْرَبْ منه .

وقال أنس[٤] : إنّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم حين ابْتَنَى بزينب أمَره[٥] أنْ يَدْعُوَ له قوما سمّاهم ، وكلّ من لقيتَ ، حتى امتلأَ البيت والحجرة ، وقدّمَ إليهم تَوْرا[٦] ، فيه قدْرُ [٤١] مُدّ مِن تمْر جُعِل حَيْساً[٧] ، فوضعه قُدّامَه ، وغمس ثلاثَ أصابِعه ، وجعل القومُ يتغدّون ويخرجون ، وبَقِيَ التّوْرُ نحواً مما كان[٨] ، وكان القوم أحدا ، أو اثنين وسبعين .

[وفي رواية أخرى في هذه القِصّةِ أو مِثْلها : إنّ القوم كانوا زُهاء ثلاثمائة[٩] ، وأنهم أكلوا حتى شَبِعُوا . وقال لي : ارفَعْ ، فلا أدْرِي حين وَضَعْتُ كانت أكثر أم حين[١٠] رَفَعْتُ .

---

(١) في حديث رواه أحمد ، والبيهقي بسند جيد .

(٢) الجذعة من البقر والغنم : ماتم له سنة . والفرق ـ بفتح الراء ، وتسكونها : مكيال . وفي هامش ب : الفرق : اثنا عشر مدا . وقال أبو الهيثم : هو إناء يأخذ ستة عشر رطلا ، وتلك ثلاثة آصع .

(٣) ثم دعابعس: العس : قدح من خشب يروى الثلاثةوالأربعة. وفيهامش ب : العس: الإناء الصغير ، والمراد بعس من لبن طلبه من أهله لهم .

(٤) في حديث رواه الشيخان ؛ واللفظ لمسلم ؛ وقريب منه الحديث الآتي عن أنس ، وهو في سنن الترمذي : ٥ ـ ٣٥٧

(٥) ابتنى بزينب : تزوج بها . أمره : أمر أنسا .

(٦) وقدم إليهم تورا : التور : إناء من صفر أو حجارة ، كالإجانة ، أو القدح الذى يشرب منه .

(٧) جعل حيسا : الحيس : تمر خلط بسمن وأقط ودقيق .

(٨) نحوا مما كان : لم ينقص نقصا كثيرا .

(٩) زهاء ثلاثمائة : مقدار .

(١٠) هذا حديث طويل في مسلم اختصره المصنف اقتصارا على محل الشاهد منه .

وفى حديث جَعْفَر بن محمد ، عن أبيه ، عن عليٍّ رضِيَ الله عنه[١] ـ أنَّ فاطمةَ طبخَتْ قِدْرا لغَدَائها ووَجَّهَتْ عَلِيًّا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليتغدَّى معهما ، فأمرها فغَرَفَتْ منها لجميع نِسائه صَفْحة صَفْحةً[٢]، ثم لَهُ صلّى اللهُ عليه وسلم ولعليّ، ثم لها ، ثم رَفَعت القِدْرَ ، وإنها لتَفِيضُ[٣] ؛ قالت : فأكَلْنا منها ما شاء الله][٤] .

وأمرَ[٥] عُمَرَ بن الخطاب أن يُزَوِّدَ أربعمائة راكب من أحْمَس[٦] ؛ فقال : يارسولَ اللهِ ، ما هِيَ إلّا أصْوُع[٧] . قال: اذهَبْ؛ فذهبَ فزوَّدهم منه ، وكان قَدْر الفَصِيلِ الرابضِ[٨]، من التَّمرِ ، وبَقِي بحاله .

مِنْ[٩] ، رواية دُكَيْن الأحْمَسى ، ومن رواية جرير .

ومثلُه[١٠] مِن رِوَاية النعمان بن مُقَرِّن الخبَرَ بعَيْنه، إلا أنَّه قال[١٠]: أربَعَمائة راكب من مُزَينة .

---

(١) رواه ابن سعد (الطبقات : ١ ـ ١٢٤) .

(٢) الصفحة : إناء صغير للطعام .

(٣) وإنها لتفيض : المراد بعد ما غرف من القدر بقيت مملوءة بطعام كثير يسيل من جوانبها ببركته صلى الله عليه وسلم .

(٤) فى هامش ا : من الأم بخطه ، وليس من الرواية . وفى هامش ب : هذا المعلم عليه من الأم بخطه ، وليس من الرواية .

(٥) فى ب : وأمر ـ وضبط بالبناء للمعلوم ، و بالبناء للمجهول ، وكتب عليه « معا » .

(٦) يزودهم : يعطيهم من الزاد ما يكفيهم . أحمس : اسم قوم من العرب ، وهم بطن من ضبيعة يقال لهم بنو أحمس .

(٧) أصوع : جمع صاع : إناء يشرب فيه ، ومكيال . أى قال عمر : ليس التمر الذى عندى يكفى ، فإنه أصوع قليلة .

(٨) وكان قدر الفصيل : وكان التمر قدر ولد الناقة الصغير البارك الرابض على الأرض .

(٩) من رواية : أى هذا الحديث من رواية . . . وقد رواه أبو داود فى الأدب .

(١٠) أخرجه أحمد ، والبيهقى .

ومن ذلك حديثُ جابر(١) فى دَيْن أبيه بعد مَوْتِه، وقد كان بذَلَ لغُرَماء أبيه أَصْلَ مالِه(٢)، فلم يَقْبَلوه، ولم يكن فى تمرِها(٣) سنين كَفَاف(٤) دَيْنِهم؛ فجاءهُ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بعدأنْ أمَرهُ بجدِّها(٥)، وجَعْلِها بيَادِرَ فى أصولها(٦)، فمشى فيها، ودعا، فأَوْفَى منه جابرٌ غُرَماءَ أبيه، وفضلَ مِثْلَ ما كانوا يَجُدُّون(٧) كلَّ سنةٍ.

وفى رواية مِثْلُ ما أعطاهم؛ قال: وكان الغُرماء يهودَ؛ فعجبوا من ذلك.

وقال أبو هريرة(٨) رضى اللهُ عنه: أَصاب الناسَ مَخْمَصةٌ(٩)، فقال لى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم: هل مِنْ شَىْء؟ قلتُ: نعم؛ شىء من التّمر فى المِزْوَد(١٠). قال: فأْتنى به. فأدخل يدَه فأخرج قَبْضةً، فبسطها ودعا بالبَرَكةِ؛ ثم قال: ادْعُ عشرةً. فأكلوا حتى شَبِعوا، ثم عشرةً كذلكَ، حتى أَطعَم الجيشَ كلَّهم وشبِعُوا. قال: خُذْ ما جِئْتَ به، وأَدخلْ يدَكَ، واقبِضْ منه ولا تَكُبّه. فقبضْتُ على أكثر مما جِئْتُ به؛ فأكلتُ منه وأطعمتُ حياةَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، وأبى بكر، وعُمر، إلى أنْ قُتِل عثمان، فانتُهِبَ منى(١١)، فذهب.

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى: صحيح البخارى: ٤ – ٢٣٥، ٥ – ١٢٣

(٢) قال فى نسيم الرياض (٣ – ٤٠): أراد بأصل ماله: بستانا ونخلا له كان يتقوت منه.

(٣) فى تمرها: أى فى تمر النخيل.

(٤) كفاف: مايفى به ويكفيه.

(٥) بجدها: بقطع الثمار وجمعها.

(٦) بيادر: جمع بيدر، وهو الموضع الذى يوضع فيه التمر لينشف، والبر ونحوه ليخلص من تبنه، والكوم من الطعام والحنطة. والبيدر: الجرن. فى أصولها: أى جعلها كوما كوما فى أصول الثمار، وهى النخل، والمراد أنه كومه فى حديقة نخله. وفى ا: جملها – فعل ماض.

(٧) ماكانوا يجدون: ماكانوا يقطعون من ثمارها.

(٨) فى حديث رواه البيهقى مسندا.

(٩) مخمصة: جوع، أو مجاعة.

(١٠) فى المزود: المزود: وعاء الزاد.

(١١) انتهب منى: أى نهبه الناس، وأغاروا عليه فى زمن الفتنة، وسلبوه.

وفى رواية[١]: فقد حملتُ من ذلك التّمْر كذا وكذا مِنْ وَسْقٍ[٢] فى سبيلِ اللهِ. وذكِرَتْ مِثْلُ هـذه الحكايةِ فى غَزْوَةِ تبُوك ، وأنَّ التّمْر كان بِضْعَ عشرَةَ تمرة .

ومنه أيضا حديثُ أبى هريرة[٣] حين أصابه الجوعُ ، فاستَتْبَعَهُ[٤] النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فوجد لبناً فى قَدَحٍ قد أُهدِىَ إليه ، وأمره أن يَدْعُو أهلَ الصُّفَّةِ .

قال : فقلتُ : ما هذا اللبنُ فيهم[٥] ؟ كنتُ أحقَّ أنْ أُصِيبَ منه شَرْبةً أتقوَّى بها . فدعوْتُهم .

وذكر أمْر النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم له أن يسقِيَهم ، فجعلتُ أُعطِى الرجلَ فيشرَبُ حتى يَرْوَى ، ثم يأخذُه الآخر حتى رَوِىَ جميعُهم .

قال : فأخذ النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم القَدَح ، وقال : بقيتُ أنا وأنْتَ ، اقْعُد فاشْرَبْ فشربتُ ، ثم قال : اشْرَبْ ، وما زال يَقُولُها وأشْرَبُ حتى قلتُ : لا ، والذى بعثكَ بالحق ، ما أَجِدُ له[٦] مسْلكاً [١٠٥] ؛ فأخذ القَدحَ فحمِدَ الله وسمّى وشَرِب الفَضْلَةَ .

---

(١) رواها الترمذى فى سننه وحسنها ، عن أبى هريرة : سنن الترمذى ٥ ـ ٦٨٥

(٢) الوسق : حمل بعير . فى سبيل الله : أى فى أسفارى غازيا .

(٣) رواه البخارى صحيح البخارى : ٦ ـ ١٢٠

(٤) فاستتبعه : طلب منه أن يتبعه .

(٥) ما هذا اللبن فيهم : ما مقداره القليل كاف لهم .

(٦) لا أجد له مسلكا : أى لم يبق فى جوفى محلا خاليا يدخله .

وفى ب : ما أجد . وفى هامشه : لا أجد .

وفى حديث[١] خالد بن عبدالعزّى أنه أجْزَرَ[٢] النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم شاةً ، وكان عِيال خالدٍ كثيرا يذبحُ الشاةَ فلا تُبِدُ[٣] عِياله عَظْما عَظْما[٤] ؛ وإنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم أكل من هذه الشاةِ وجعل فَضْلَتَها فى دَلْوِ خالدٍ[٥] ، ودعا له بالبَرَكةِ ، فنثَر ذَلكَ لعِيالِه ، فأكلوا وأفْضَلُوا[٦] ـ ذكر خبَره الدُّولَابيّ .

وفى حديث الآجُرّى فى إنكاحِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم لعليٍّ فاطمةَ ـ أن النبيَّ صلّى اللهُ عليـه وسلّم أمَرَ بِلَالًا بقَصْعةٍ[٧] من أربعة أمدادٍ أو خمسةٍ ، ويَذْبَح جَزُورا[٨] لِوَلِيمَتها[٩] ـ قال : فأتيتهُ بذلك فطعن فى رأسها ، ثم أدخلَ الناسَ رُفقةً رُفقةً[١٠] يأكلونَ منها حتى فَرَغُوا ، وبقِيتْ منها فَضْلةٌ ؛ فبرَّكَ فيها ، وأمر بحَمْلِها إلى أزواجِه ؛ وقال : كُلْنَ وأَطْعِمْنَ مَنْ غَشِيَكُن[١١] .

وفى حديث أنس[١٢] : تزوّج رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم ، فصنعَتْ أُمّى

---

(١) رواه البيهقى مسندا عنه ، ولم يذكره أصحاب الكتب السنة .

(٢) أجزره : أعطاه جزرة ، وهى شاة أو نعجة أو كبش أو عنز ، تعطى لتجزر ؛ أى تذبح .

(٣) لاتبد عياله : يعنى أن الشاة إذا فرقت عليهم لاتكفيهم . وفى هامش ا : أبد الطعام ، إذا أعطى كل واحد نصيبه على حدة .

(٤) عظما عظما : أى إذا فرقت عليهم قطعة قطعة وعظمة بعدعظمة لاتكفيهم لكثرتهم .

(٥) دلو خالد : الدلو : وعاء من أدم يستقى به الماء .

(٦) وأفضلوا : أى أبقوا بقية زادت على كفايتهم .

(٧) بقصعة : أن يأتى بقصعة .

(٨) الجزور : رأس من الإبل ناقة أو جملا .

(٩) الوليمة : الدعوة لطعام يصنع فى النكاح خاصة .

(١٠) رفقة رفقة : جماعة بعد جماعة .

(١١) من غشيكن : أى كل من يأتى إليكن من غير أهل البيت .

(١٢) سنن الترمذى : ٥ ـ ٣٥٧

أُمُّ سُلَيم حَيْسا ، فجعلَتْه فى تَوْرٍ[1] ، فذهبْتُ به إلى رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : ضَعْهُ ، وادْعُ لى فلانا وفلانا ، ومَنْ لقيتَ .

فدعوتُهم ، ولم أَدَعْ أحدا[2] لقِيتهُ إلّا دعوتُه ؛ وذَكَر أنهم كانوا زُهاء[3] ثلاثمائة حتى مَلئُوا الصُّفَّة والُحجْرة[4] ، فقال لهم النبىُّ صلى الله عليه وسلم : تحلَّقُوا عشرة عشرة[5] ، ووضع النبىُّ صلى الله عليه وسلم يدَه على الطعام ، فدعا فيه ، وقال ما شاء اللهُ أن يقول ؛ فأكلوا حتى شَبِعُوا كلُّهم ، فقال لى : ارفَعْ ، فما أدرى حين وُضِعت[6] كانت[7] أكثر أم حين رُفِعَتْ .

وأكثَرُ أحاديث هذه الفصولِ الثلاثة فى الصحيح[8] . وقد اجتمع على معنى حديثِ هذا الفصلِ بضعةَ عشر من الصحابة ، رواه عنهم أضعافُهم من التابعين ، ثم مَنْ لا يَنْعدُّ بعدهم .

وأكثَرُها فى قصص مشهورة ، ومَجَامِـعَ مشهودة ؛ ولا يمـكنُ التحدُّث عنها إلا بالحق ، ولا يسكُت الحاضرُ لها على ما أُنْـكِرَ منها .

---

(١) الحيس : طعام من لبن وأقط وتمر وسمن يحاس ؛ أى يخلط بعضه ببعض .
والتور : إناء من صفر أو حجارة واسع رحراح كالصينية القريبة القعر .

(٢) ولم أدع أحدا : لم أترك أحدا .

(٣) زهاء : مقدار .

(٤) الصفة : موضع مظلل قدام البيت ، أو دكة علية فيه . والحجرة : البيت الصغير المفرز من الدار

(٥) تحلقوا : استديروا حول الطعام كالحلقة ، طائفة بعد طائفة من غير ازدحام . وفى الترمذى : ليتحلق عشرة عشرة .

(٦) هذا الضبط فى ا ، وفى ب ضبط بفتح الواو وضم التاء .

(٧) فى ب : كان .

(٨) الفصول الثلاثة : أى نبع الماء من بين أصابعه ، وانفجاره بدعوته ، وتكثير الطعام ببركته — فى الصحيح : من الأحاديث وكتبها المعتمدة .

فصـــــل

فى كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

حدثنا (١) أحمـــد بن محمد بن غَلْبُون الشيخُ الصالح فيما أجازَنيه عن أبى عُمَر الطَّلَمَنْكِىّ (٢) ، عن أبى بكر بن المُهَنْدس ، عن أبى القاسم البغوى ، حدثنا أحمد ابن عمران الأَخْنَسى ، حدثنا أبو حيان التَّيْمِى - وكان صدوقا - عن مجاهد ، عن ابن عُمر ، قال : كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفَره ، فدنا منه أعرابىٌّ ، فقال : يا أعرابىّ ، أين تريد ؟ قال : إلى أهلى . قال : هل لكَ إلى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : تَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، وأنّ محمداً عبْدُه ورسولُه . قال : مَنْ يشهدُ لكَ على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة السَّمُرة (٣) ، وهى بشاطئ الوادى (٤) ، وادعها فإنها تجيبك (٥) .

فأقبلَتْ تخُدُّ الأرضَ (٦) حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها (٧) ثلاثا ، فشهدَتْ أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها .

وعن بُرَيْدَةَ (٨) : سألَ أعرابىٌّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم آيةً ، فقال له : قل لتلك الشجرةِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُوكِ .

---

(١) رواه البيهقى ، والبزار ، والدارمى مسندا عن ابن عمر .

(٢) هذا الضبط فى شرح الشهاب : ٣ – ٤٧ ، ولب اللباب : ١٦٩ ، قال السيوطى : بفتحات وسكون النون ، نسبة إلى طلمنكة : مدينة بالأندلس . وقال القارى (١ – ٦١٥) : الطلمنكى : بتشديد لام مفتوحة فميم مفتوحة ونون ساكنة .

(٣) السمرة : شجرة عظيمة ذات شوك .

(٤) شاطىء الوادى : جانبه وطرفه . والوادى : الأرض الواسعة المستوية .

(٥) هذا فى ب ؛ وفى ا : فادعها فإنها تجيب .

(٦) تخد الأرض : تشقها .

(٧) استشهدها ثلاثا : طلب منها أن تشهد ثلاث مرات .

(٨) فى حديث رواه البزار مسندا .

قال: فمالت الشجرةُ عن يَمِينهاَ وشِمالِها وبين يَدَيها وخَلْفَها، فتقطَّعَتْ عروقُها، ثم جاءت [١٠٦] تخدُّ الأرضُ تجرُّ عروقَها مُغْبَرَّةً(١) حتى وقفت بين يَدَى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: السلام عليك يا رسولَ الله.

قال الأعرابىُّ: مُرْها فلترجِعْ إلى مَنْبتِها، فرجعت، فدلَّت عروقَها فاستوَتْ(٢).

فقال الأعرابى: ائذَنْ لى أسجدُ لكَ.

قال: لو أمَرْتُ أحدا أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزَوْجِها.

قال: فأْذَن لى أنْ أُقبِّل يَدَيْكَ ورِجْليك؛ فأذِنَ له.

وفى الصحيح ـ فى حديث جابر بن عبد الله الطويل(٣): ذهب رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقْضِى حاجتَه، فلم يَرَ شيئا يستَتِرُ به، فإذا بشجرتين فى شاطئ الوادى، فانطلق رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى إحداهما، فأخَذَ بغُصْنٍ من أغصانها، فقال: انقَادِى علىّ(٤) بإذن الله؛ فانقادَتْ معه كالبعير المَخْشُوشِ(٥) الذى يُصَانِعُ قائدَه(٦).

وذكر أنه فَعَل بالأخرى مِثْلَ ذَلِكَ، حتى إذا كان بالمَنْصَفِ(٧) بينهما قال: الْتَئِمَا علىّ بإذْنِ الله؛ فالتأَمَتا(٨).

---

(١) بتشديد الراء. وفى ب: بتشديد الباء.

(٢) دلت عروقها: أدخلتها فى الأرض. فاستوت: انتصبت قائمة من غير ميل بها.

(٣) هذا الحديث فى صحيح مسلم: ٢٣٠٦ (٤) انقادى على: طاوعينى وميلى على.

(٥) كالبعير المخشوش: المخشوش: الذى يوضع فى أنفه خشاش. والبعير الذى يعسر قوده يخرق أنفه ويوضع فيه شىء يذلل به؛ فإن كان عوداً من خشب فهو خشاش، وإن كان مفتولا من وبر ونحوه فهو خزام، وإن كان من نحاس ونحوه فهو برة.

(٦) يصانع قائده: المراد به الملاينة وسهولة الانقياد.

(٧) بالمنصف: أى فى وسط المكان، أى نصف المسافة. والضبط فى ب، وصحيح مسلم. وضبط فى ا بضم الميم. (٨) التئما: انضما واجتمعا.

وفى روايةٍ أخرى : فقال : يا جابرُ ؛ قُلْ لهذه الشجرةِ : يقول لكِ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : الْحَقِى بصاحبتِك[(١)] حتى أجْلِسَ خَلْفَكما . ففعلتُ ، فرجعَتْ حتى لَحِقَتْ بصاحبتها فجلس خَلْفَهما، فخرجتُ أُحضِرُ[(٢)] ؛ وجلستُ أُحدِّثُ نفسي، فالتفتُّ فإذا برسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم مُقْبِلًا والشجرتان قد افترقتا ، فقامت كلٌّ واحدةٍ منهما على ساقٍ ، فوقفَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَقْفَةً ، فقال برأسه هكذا[(٣)] يميناً وشِمالا .

ورَوَى أُسَامةُ[(٤)] بن زَيْد نحْوَه ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليـــه وسلم فى بعض مَغَازِيه ، هل تَعْنِي[(٥)] مكانا لحاجةِ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ؟ فقلتُ : إن الوادىَ ما فيه موضعٌ بالناس[(٦)] . فقال : هل ترى من نَخْلٍ أو حجارة ؟ قلت : أرى نخلات متقاربات . قال : انطلق وقل لهنّ : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يأمركنّ أنْ تأْتِين لمَخْرَجِ رسولِ الله[(٧)] صلى الله عليـــه وسلم ، وقلْ للحجارة مِثْلَ ذلك .

فقلتُ ذلك لهنّ؛ فوالذى بعثه بالحق،لقد رأيتُ النخلاتِ يتقاربن حتى اجتمعنَ، والحجارةَ يتعاقَدْنَ حتى صِرْنَ رُكاما[(٨)] خَلْفهنّ .

(١) الحقى بصاحبتك : تحركى واذهبى حتى تكونى مع الشجرة الأخرى .
(٢) أحضر : أسرع فى العدو . وفى هامش ب : أحضر : معناه : أسرع فى المشى .
(٣) فقال برأسه : حركه هكذا .
(٤) فى حديث أخرجه البيهقى فى الدلائل، وأبو يعلى بسند حسن . (٥) تعنى: تقصد .
(٦) مافيه موضع بالناس : أى ما فيه موضع خال بسبب نزول الناس ؛ فهو مملوء بهم. وقال القارى : (١ — ٦١٧) : إن الوادى ما فيه موضع بالناس ؛ أى ليس فيه مكان مستقر بهم ؛ بل كله خال عنهم . (٧) لمخرج رسول الله : أى لمكان يخرج إليه الرسول لقضاء حاجته .
(٨) يتعاقدن : ينضم بعضها إلى بعض حتى يصرن كالبنيان للمعقود بعضه ببعض . ركاما : بعضها فوق بعض . خلفهن : خلف النخلات ؛ يعنى أن الحجارة اجتمعت مع النخل .

فلما قضى حاجَتَه قال لى : قل لهنّ يفترقن ، فوالذى نَفْسِى بيـــده لرأيتهنّ والحجارةَ - يفترقن حتى عُدْنَ إلى مواضعهن .

وقال يَعْلَى بن سَيَابة[1] : كنتُ مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مَسِير . . . وذكر نحوا من هذين الحديثين ، وذكر : فأمر وَدِيّتَيْنِ[2] فانضمتا . وفى رواية : أشاءتين[3] .

وعن غَيْلَان بن سلمة الثقفى مثلُه : فى شجرتين .

وعن ابن مسعود ، عن النبى صلى اللهُ عليه وسلم مثله فى غَزاة حُنَين .

وعن يَعْلَى بن مُرّةَ - وهو ابن سَيَابة[1] - أيضا ، وذكر أشياء رآها من رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؛ فذكر أنّ طلحةً أو سَمُرَةً[4] جاءت فأطافتْ[5] به ،

---

(١) فى حديث صحيح رواه أحمد (مسند أحمد : ٤ - ١٧٠) ، والبيهقى ، والطبرانى. وقد ضبطت السين فىسيابة بالفتحة والكسرة فى ا ، وعليها «معا» . وفىالإكمال (٣-٢٩٠): سيابة- بسين مهملة بعدها ياء مفتوحةمعجمة باثنتين من تحتها وبعد الألف باءمعجمة بواحدة. وفىالاستيعاب : ٦٩١ ، والإصابة ٢ -١٠١ ، بكسر أوله والتخفيف ، وبعد الألف موحدة. وفى التبصير (١٣٤) : بمهملة مكسورة . وكذلك ضبطت السين فىالمؤتلفلعبد الغنى بنسعد بالكسر . وضبطه فى القاموس بفتح أوله .

ويعلى بن سيابة أبوه اسمه مرة ، أما سيابة فهو اسم أمه .

(٢) الودية : من صغار النخل التى تخرج من أصول كبارها ، فتنقل وتغرس ، وتسمى فسيلا وفراخا . وفى هامش ا : الودى : صغار النخل ، واحدتها ودية ، وكذلك الأشاء ، واحدتها أشاءة .

(٣) أشاءتين : مثنى أشاءة ؛ وهى من صغار النخل أيضا ، لكنها أكبر من الودية (شرح الشهاب) .

(٤) طلحة ، أو سمرة : نوعان من شجر البرية ذات شوك .

(٥) فأطافت به : دارت حوله ، وألمت به .

ثم رجعَتْ إلى مَنْبِتِها[١] ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إنها استأذَنَتْ أَنْ تسلِّمَ[٢] عليّ .

وفى حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عنه[٣] : آذَنتِ[٤] النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم بالجنّ ليلةَ [١٠٧] استمعوا له ـ شجرةٌ .

وعن مجاهد ، عن ابن مسعود فى هذا الحديث[٥] : إن الجنّ قالوا : مَنْ يشهدُ لك ؟ قال : هذه الشجرةُ . تعالَيْ يا شجرةُ ؛ فجاءت تجرُّ عُروقَها لها قَعَاقِع[٦] . . .

وذكر مِثْلَ الحديثِ الأول أو نحوه .

قال القاضى أبو الفضل[٧] : فهذا ابنُ عُمر ، وبُرَيدةُ ، وجابرٌ ، وابن مسعود ، ويَعْلَى بن مُرّةَ ، وأسامة بن زيد ، وأنسُ بن مالك ، وعليّ بن أبى طالب ، وابنُ عبّاس ، وغيْرُهم ـ قد اتّفقوا على هذه القصّةِ نفسِها أو معناها .

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافُهم ؛ فصارت فى انتشارِها من القوةِ حيثُ هى[٨] .

---

(١) إلى منبتها : موضعها الأول الذى نبتت فيه .

(٢) قال فى نسيم الرياض : المعنى أنها طلبت من الله تعالى أن يعطيها قدرة كقدرة العقلاء من المشى إليه والسلام عليه .

(٣) رواه الشيخان مسندا ـ صحيح مسلم : ٣٣٣

(٤) آذنت : أعلمت ، والفاعل كلمة شجرة الآتية بعد . بالجن : أى بحضورهم عنده صلى الله عليه وسلم ، واستماعهم منه القرآن ، فى الليلة التى استمعوا قراءته .

(٥) رواه الشيخان ـ صحيح مسلم : ٣٣٣

(٦) قعاقع : صوت قوى كصوت الرحا ؛ وهو جمع قعقعة ؛ وهى حكاية صوت الحركة من الأجرام الصلبة .

(٧) هو المصنف . وفي ب : قال المؤلف رحمه الله .

(٨) حيث هى : صارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء .

وذكر ابن فُورَك أنه صلى اللهُ عليه وسلم سار فى غَزْوةِ الطائف (١) ليلا ، وهو وَسِنٌ (٢) ، فاعترضَته سِدْرَةٌ ، فانفرجَتْ له نِصْفَين حتى جاز (٣) بينهما ، وبقيَتْ على ساقين إلى وقتنا [هذا] (٤) ؛ وهى هناكَ معروفة مُعَظَّمة .

ومن ذلك (٥) حديثُ أنس رَضِىَ اللهُ عنه ـ أنَّ جبريلَ عليه السلام قال للنبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ـ ورآه حَزِينًا (٦) : أتُحِبُّ أن أُرِيكَ آية ؟ قال : نعم. فنظر رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم إلى شجرةٍ مِنْ وراء الوادِى ، فقـال : ادْعُ تلك الشجرةَ ، فجاءت (٧) تمشى حتى قامت بين يديه .

قال : مُرْها فلترجِـعْ ، فعادَتْ (٨) إلى مكانها .

وعن علىٍّ نَحْوُ هذا (٩) ؛ ولم يذكُرْ فيها جبريل ؛ قال : اللهمّ أرِنى آيةً لا أُبالى مَنْ كذّبنى بعْدَها ، فدعا شجرة . . . وذكر مِثْلَه .

---

(١) الطائف : اسم بلدة قريبة من مكة كثيرة المياه والأشجار ، وهذه الغزوة كانت فى السنة الثامنة من الهجرة .

(٢) وسن : الوسن : قريب من النعاس .

(٣) جاز : مر ، وسار .

(٤) فى ب عليها علامة الصحة ، وهى ساقطة فى ا .

(٥) ومن ذلك : ومن معجزاته . وحديث أنس رواه الدارمى ، وابن ماجه ، والبيهقى . والحديث فى سنن ابن ماجه : ١٣٣٦

(٦) حزينا : كان حزينا لعدم إطاعة قومه له فى أول البعثة ، إذ عرض نفسه على القبائل . وفي ابن ماجه : وهو جالس حزين قد خضب بالدماء ، قد ضربه بعض أهله مكة ، فقال: مالك؟ قال : فعل بى هؤلاء وفعلوا . قال : أتحب . . .

(٧) فى سنن ابن ماجه : فدعاها فجاءت . . .

(٨) فى سنن ابن ماجه : فقال لها فرجعت .

(٩) فى نسيم الرياض (٣ ـ ٥٨) : قال السيوطي : لم أجده عن على ، وإنما هو عن جابر رضى الله عنه .

وحُزْنُه صلى اللهُ عليه وسلم لتكذيب قومِهِ وطلبِه الآيةَ لهم لا له[١] .

وذكر ابنُ إسحاقَ[٢] أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليـــه وسلم أرى رُكَانةَ مِثْلَ هذه الآية فى شجرةٍ دعاها فأتَتْ حتى وقفَتْ بين يديه ؛ ثم قال : ارجعى ، فرجعتْ .

وعن الحسنِ[٣] أنه صلى الله عليه وسلم شكا إلى ربِّه من قَوْمِهِ وأنهم يخوّفونه[٤] ؛ وسأله آيةً يَعْلَمُ بها ألَّا مخافةَ عليه ؛ فأوْحَى إليه ائتِ وادِى كذا فيه شجرةٌ ، فادْعُ غُصْناً منها يأتِك . ففعل ؛ فجاء يخطُّ الأرضَ خطًّا[٥] حتى انتصب بين يَدَيْهِ[٦] ، فحبسه ما شاء الله ، ثم قال له : ارجِعْ كما جئتَ ، فرجع ؛ فقال : يا ربِّ ؛ علمتُ أن لا مخافةَ علىَّ .

ونحوٌ منه عن عُمَر[٧] ؛ وقال فيه : أرِنى آيةً لا أُبالى مَنْ كذَّبنى بعدها . . . وذكر نحوه .

وعن ابن عباس[٨] رضِىَ اللهُ عنهما أنه صلَّى الله عليـــه وسلم قال لأعْرابىّ : أرأيتَ إنْ دعوت هذا العِذْقَ[٩] مِن هذه النخلةِ أتشهَدُ أنى رسولُ الله ؟ قال: نعم ،

---

(١) لهم : أى لقومه المكذبين . لا له : لأنه على يقين من أمره ، وعلمه بقدرة ربه . وانظر الهامش رقم ٦ فى الصفحة السابقة .

(٢) مما رواه فى السيرة ، ورواه أبو نعيم ، والبيهقى .

(٣) فى حديث رواه البيهقى .

(٤) إنما شكا ذلك لأنه خاف القصور فى تبليغ ما أرسل به . وكان ذلك قبل الهجرة ،وقبل نزول قوله تعالى : « والله يعصمك من الناس » .

(٥) يخط الأرض : يشقها شقا .

(٦) انتصب بين يديه : قام منتصبا عنده .

(٧) رواه البزار ، وأبو يعلى ، والبيهقى بسند حسن . وفى ب :عن عمر . وفى ا:عن عمرو.

(٨) فى حديث رواه البخارى فى تاريخه ، والدارمى ، والبيهقى مسندا .

(٩) العذق : هو العرجون من النخلة وشماريخها .

فدعاه فجعل يَنْقِزُ(١) حتى أتاه . فقال : ارجِعْ ؛ فعادَ إلى مكانه .
وخرّجه الترمذىّ(٢) ، وقال : هذا حديثٌ صحيح .

فصل
فى قِصّة حَنِين الجِذْع

ويَعْضُدُ(٣) هذه الأخبارَ حديثُ أنينِ(٤) الجِذْعِ ، وهو(٥) فى نفسه مشهورٌ مُنْتَشِر ، والخبرُ به متواترٌ ، قد خرّجه أهلُ الصحيح(٦) ، ورَواهُ من الصحابة بضعةَ عشَر ؛ منهم أُبَىُّ بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وعبدُ الله ابن عُمَر ، وعبدُ اللهِ بن عباسٍ ، وسَهْلُ بن سعد ، وأبو سعيد الخُدْرِىّ ، وبُرَيْدَة ، وأمّ سَلَمَة ، والمطَّلِب بن أبى وَدَاعَة ، كلُّهم يُحَدِّث بمعنى هذا الحديث .

قال الترمذىّ : وحديثُ أنَس(٧) صحيح .

قال جابر بنُ عبــد الله [١٠٨] : كان المسجدُ(٨) مسقوفا على جُذوعِ نَخْلٍ ؛ فكان النبىُّ صلّى اللهُ عليه وسلم إذا خطب يقومُ(٩) إلى جذْعٍ منها ؛ فلما صُنِع له المِنْبَرَ سمعنا لذلكَ الجِذْع صوتاً كصوت العِشَار(١٠) .

(١) ينقز : يثب صعدا . وروى هذا الحديث مفصلا البيهقى ؛ وقال : إن هذا الأعرابى من بنى عامر . (٢) فى سنن الترمذى : ٥ — ٥٩٤ (٣) ويعضد : يقوى ويؤيد .

(٤) الأنين : صوت المريض ، والأنين والحنين متقاربان . وقيل : الأنين فيه زيادة امتداد الصوت . (٥) وهو : أى حديث الجذع . والجذع : أصل الشجرة .

(٦) كالبخارى ، ومسلم : صحيح البخارى : ٤—٢٣٧ (٧) سنن الترمذى : ٥—٥٩٤

(٨) كان المسجد : أى مسجد الرسول بالمدينة . والحديث فى ابن ماجه : ٤٥٥ ، وصحيح البخارى : ٤ — ٢٣٧ (٩) يقوم مستندا .

(١٠) كصوت العشار : العشار : الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر ، وزال عنها اسم المخاض ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وبعد وضعها أيضا . والمراد خوارها حين وضعها أو عقبه منزاعا لولدها إذا لم تره .

وفى رواية أنس : حتى ارتجَّ المسجدُ بخُواره [١] .

وفى رواية سَهْل : وكثُرَ بُكاء الناسِ لِمَا رأوْا به .

وفى رواية المطّلب [وأُبيّ] [٢] : حتى تصدَّع وانشقّ ، حتى جاء النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، فوضع يَدَهُ عليه فسكتَ .

زاد غَيْرُه : فقال النبيُّ صلي الله عليه وسلم: إنَّ هذا بكى لِمَا فقَدَ مِنَ الذِّكْرِ [٣] .

وزَادَ غيْرُه : والذى نَفْسى بيده : لو لم أَلْتزِمْه [٤] لم يزَلْ هكذا إلى يوم القيامة؛ تحزُّناً على رسولِ اللهِ [٥] صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فأَمر به صلَّى اللهُ عليه وسلم فدُفِنَ تحْتَ المنبر .

كذا فى حديث المطلب ، وسَهْل بن سَعْد ؛ وإسحاق ؛ عن أنس .

[وفى بعض الروايات عن سهل : فدُفِنَتْ تحت مِنْبَره ، أو جُعِلت فى السقف] [٦] .

وفى حديث أُبَيّ : فكان إذا صلَّى النبيُّ صلي الله عليه وسلم صلّى إليه [٧] ؛ فلما هُدِمَ المسجدُ [٨] أخذه أُبَيٌّ ، فكان عنده إلى أن أكلَتْه الأرضُ ، وعاد رُفاتا [٩] .

وذكر الإِسْفَرايِنيّ [١٠] أنّ النبي صلّى اللهُ عليه وسلم دعاه إلى نَفْسه ، فجاء يخرِقُ الأرضَ [١١] ، فالتزمه [١٢] ، ثم أمره فعادَ إلى مكانه .

---

(١) الخوار فى الأصل يختص بصياح البقر ، ثم توسعوا فيه فى أصوات جميع البهائم .

(٢) ليس فى ا .

(٣) من الذكر : المراد بالذكر ذكر الله ، أو الموعظة، أوالقرآن . وفى ا: لجؤاره، لخواره، وكتب عليها فيهما « معا » . والجؤار : رفع الصوت بالدعاء والتضرع والاستغاثة .

(٤) التزمه : إذا اعتنقه وضمه .

(٥) على رسول الله : على مفارقته .

(٦) كتب أمام هذه العبارة فى هامش ا ، ب : من الأم بخطه من غير الرواية .

(٧) صلى إليه : استقبله ، وجعله كالسترة للمصلى من المارين .

(٨) هدم المسجد : هدمه كان فى زمن عمر رضى الله عنه .

(٩) وعاد رفاتا : عاد : صار . رفاتا : متكسرا متفرقا .

(١٠) واللباب .

(١١) يخرق الأرض : يشقها بمشيه فيها .

(١٢) فالتزمه : اعتنقه وضمه .

وفى حديث بُرَيْدَةَ : فقال - يعنى النبىَّ صلى الله عليه وسلم : إن شئتَ أرُدُّك إلى الحائط[١] الذى كنتَ فيه تنبتُ لك عروقُك ، ويَكْمُل خَلْقُك ، ويُجدَّد لك خوصٌ وثمرة[٢] ؛ وإنْ شئت أغرسك فى الجنّة ، فيأكل أولياء الله من ثمرِك ؛ ثم أصغَى له النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم يسمعُ ما يقول .

فقال : تَغرِسنى فى الجنّة ، فيأكل منى أولياء الله ، وأكونُ فى مكانٍ لا أبْلَى فيه .

فسمعه مَنْ يَلِيه[٣] .

فقال النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم : قد فعلتُ ؛ ثم قال : اختارَ دارَ البقاء على دار الفناء .

فكان الحسَنُ[٤] إذا حدَّثَ بهذا بكى ، وقال : يا عبادَ الله ؛ الخشبَةُ[٥] تحِن إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلّم شوقاً إليه لمكانه؛ فأنتم أحقُّ أنْ تَشْتَاقُوا إلى لقائه.

رواه - عن جابر - حَفْص بن عُبيد الله ، ويقال : عُبيد الله بن حفص ، وأيمن، وأبو نَضْرَة ، وابن المسيّب ، وسَعِيد بن أبى كَرِب ، وكُرَيْب ، وأبو صالح .

ورواه عن أنس بن مالك الحسَنُ ، وثابتٌ ، وإسحاقُ بن أبى طلحة .

ورواهُ عن ابن عُمر : نافع ، وأبو حَيَّةَ ؛ ورواه أبو نَضْرَةَ ، وأبو الودّاكِ ، عن أبى سَعِيد ، وعَمّار بن أبى عَمّار ، عن ابن عباس ، وأبو حازم ، وعباس بن سَهْل ، عن سهل بن سعد ، وكَثِيرُ بن زَيْد عن المطّلب ، وعبدُ الله بن بُرَيْدَة عن أبيه ، والطُّفَيْل بن أُبَىّ عن أبيه .

---

(١) الحائط : البستان الذى فيه الشجر والنخل .

(٢) أى تعود لك خلقتك بتمامها ونضارتها .

(٣) من يليه : من يقرب منه . (٤) الحسن : هو الحسن البصرى .

(٥) الخشبة : يريد هذا الجذع .

قال القاضى أبو الفضل (١) : فهذا حديثٌ كما تراه خرَّجه أهلُ الصحة ، ورواه من الصحابة مَنْ ذكرنا ، وغَيْرُهم من التابعين ضِعْفُهم ، إلى مَنْ لم نذكره ؛ وبمَنْ (٢) دونَ هذا العددِ يقعُ (٣) العِلْمُ لِمَنْ اعتنى بهذا البابِ . واللهُ المثبِّتُ على الصواب .

فصـــل

ومِثْلُ هذا فى سائر الجمادات (٤) :

[١٠٩] حدثنا القاضى أبو عبــد الله محمد بن عيسى التَّمِيمى ، حدثنا القاضى أبو عَبْد الله محمد بن المُرَابط ، حدثنا المهلب ، حدثنا أبو القاسم ، حدثنا أبو الحسَن القابِسِى ، حدثنا المَرْوَزِىّ ، حدثنا الْفِرَبْرِىّ ، حدثنا البُخَارى ، حدثنا محمد بن المُثَنَّى ، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِى ، حدثنا إسرائيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عَنْ عَلْقَمة ، عن ابن مسعود ، قال : لقد كنّا نسمَعُ تسبيحَ الطَّعَام وهو يؤكل (٥) .

وفى غير هذه الرواية عن ابن مسعود (٦) : كُنَّا نأكلُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم الطعامَ ونحن نسمعُ تسبيحَه .

وقال أنس (٧) : أخذ النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم كَفًّا من حصًى ، فسبَّحْنَ فى يدِ رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم حتى سَمِعْنا التسبيحَ ، ثم صبَّهُنَّ فى يدِ أبى بكر رضِىَ اللهُ عنه فسبَّحْنَ ، ثم فى أيدينا فما سبَّحْنَ .

---

(١) هو عياض المصنف . وفى ب : قال المؤلف رحمه الله .

(٢) وفى هامش ا : وبدون .

(٣) يقع العلم : يوجد العلم وتتفق صحته .

(٤) الجماد : ما لا روح فيه .

(٥) وهو يؤكل : أى فى حال أكلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم .

(٦) هى رواية الترمذى (٥ ـ ٥٩٧) . والأولى رواية البخارى .

(٧) فى حديث أخرجه ابن عساكر فى تاريخه .

ورَوى مثلَه(١) أبو ذَرّ ، وذكر أنهنّ سبّحْنَ فى كفّ عُمر وعثمان .

وقال على(٢) كنّا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نخرج إلى بَعضِ نواحيها فما استقْبله شجرةٌ ولا جَبلٌ إلا قال له : السلامُ عليك يا رسولَ الله .

وعن جابر بن سَمُرة(٣) عنه صلّى اللهُ عليه وسلم : إنى لأعْرِفُ حجراً بمكة كان يسلِّمُ علىّ ؛ قيل : إنه الحجرُ الأسود .

وعن عائشة(٤) رضِيَ اللهُ عنها : لما استقبلنى جبريلُ عليه السلام بالرسالة جعلْتُ لا أمرُّ بحَجَرٍ ولا شجَر إلا قال : السلام عليكَ يا رسولَ اللهِ .

وعن جابر بن(٥) عبد اللهِ : لم يكن النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم يمرُّ بحجَرٍ ولا شجَرٍ إلا سجد له .

وفى حديث العباس(٦) ؛ إذ اشتمل(٧) عليه النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم وعلى بَنيه بمُلاءة ، ودعا لهم(٨) بالسِّتْرِ من النار كَسَتْرِه إياهم بمُلاءته ؛ فأمّنَتْ أُسْكُفّةُ الباب(٩) وحوائطُ البيت : آمين آمين .

---

(١) رواه الطبرانى ، والبيهقى ، والبزار .

(٢) فى حديث رواه الدارمى ، والترمذى ، بسند حسن (سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٩٣)

(٣) فى حديث صحيح رواه مسلم ، وهو فى سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٩٣

(٤) فى حديث صحيح رواه البزار فى مسنده . وانظر فى ذلك أيضا : طبقات ابن سعد : ١ ـ ١٠٢

(٥) فى حديث رواه البيهقى . (٦) رواه البيهقى أيضا .

(٧) اشتمل عليه : ضمه . بملاءة : هى الإزار والملحفة . وفى ب : وهى على بنيه . وفى هامش ب : الملاءة : الملحفة .

(٨) قال : يا رب ؛ هذا عمى وصنو أبى ؛ وهؤلاء بنوه ، فاسترهم من النار كسترى إياهم بملاءتى هذه .

(٩) أسكفة الباب : عتبته . وفى هامش ا : الأسكفة ، والأسكوفة : العتبة .

وعن جعفر بن محمد(١)، عن أبيه: مَرِضَ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأتاه جبريلُ بطبَق فيه رُمّانٌ وعِنَبٌ، فأكل منه النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم، فسبّح.

وعن أنَس(٢): صَعِدَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم، وأبو بكر، وعُمر، وعثمان، أُحُدا، فرَجِف(٣) بهم؛ فقال: اثبُتْ أُحُد؛ فإنما عليكَ نبيٌّ وصِدِّيق، وشهيدان.

ومِثْلُه عن أبي هريرة(٤) في حِرَاء(٥)، وزاد معه: عليٌّ وطلحةُ، والزبير؛ وقال: فإنما عليكَ نبيٌّ، أو صِدِّيق، أو شَهيد.

والَخبَرُ في حِرَاء(٥) أيضا عن عثمان؛ قال: ومعه عشر من أَصْحابه أنا فيهم. وزاد عَبْدَ الرحمن وسَعْداً، قال: ونسيتُ الاثنين(٦).

وفي حديث(٧) سَعِيد بن زيد أيضا مِثْلُه؛ وزاد عشرةً؛ وزاد نَفْسَه.

---

(١) في نسيم الرياض (٣ ـ ٧٣): قال السيوطي: لم أجد هذا في كتب الحديث ـ يعني المشهورة، فلا ينافي اطلاع المصنف عليها. وقال القاري (١ ـ ٦٢٩): قال الدلجي: لم أدر من رواه. قلت: يكفي أنه رواه المصنف، وهو من أكابر المحدثين، ولولا أن الحديث له أصل لما ذكره.

(٢) في حديث رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، وابن ماجه. سنن ابن ماجه: ٤٨. وفيه: اثبت حراء. والحديث في مسند الطيالسي: ٢ ـ ١٣٩ أيضا، وسنن الترمذي: ٥ ـ ٦٢٤

(٣) رجف بهم: تحرك حركة شديدة واضطرب.

(٤) رواه مسلم. وهو سنن ابن ماجه: ٤٨، ومسند الطيالسي: ٢ ـ ١٣٩، وسنن الترمذي: ٥ ـ ٦٢٤، ٦٢٥

(٥) حراء: جبل على ثلاثة أميال من مكة.

(٦) رواه الترمذي، والنسائي عن عثمان.

(٧) أي تتمة العشرة؛ وهما: طلحة، والزبير.

(٨) رواه أبو دواد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

وقد رُوِىَ أنه حين طلبَتْه[١] قُرَيش قال له ثَبِير[٢] : اهْبِطْ يا رسولَ الله ؛ فإنى أخافُ أنْ يقتلوكَ على ظَهْرِى فيعذبنى الله[٣] .

فقال حِرَاء : إلىَّ[٤] يا رسولَ الله .

ورَوَى ابنُ عُمر[٥] رضِىَ اللهُ عنهما أنَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم قرأ على المِنْبر : ﴿ وما قدرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه ﴾[٦] ؛ ثم قال : يُمجِّدُ الجبّارُ نَفْسَه[٧] ؛ أنا الجبّار ، أنا الجبّار ، أنا الكبيرُ المتعال ؛ فرجَف[٨] المِنْبَر حتى قُلْنَا : لَيَخِرَّنَّ عنه[٩] .

وعن ابن عباس[١٠] : كان حولَ البيتِ ستونّ وثلاثُمائة صَنَم [١١٠] مُثْبَتَةُ الأرجُلِ بالرّصاص فى الحجارة ؛ فلمادخل رسولُ اللهِ صلى اللهعليه وسلم المسجَد عامَ الفَتْحِ جعل يُشِير بقَضِيبٍ[١١] فى يده إليها ولا يمسُّها ، ويقول : جاء الحقُّ وزهق

---

(١) طلبته قريش لما خرج مهاجرا ، وأرسلوا خلفه من يطلبه منهم .

(٢) ثبير : جبلٌ بالمزدلفة عن يسار الذاهب إلى منى . اهبط : انزل من على ظهرى،واذهب إلى مكان آخر تختفى به عنهم .

(٣) قال فى نسيم الرياض (٣ ـ ٧٥) : إنما خاف العذاب بسبب قتله، لأنه لو لم يذكر له ذلك مع علمه بأنه ليس فيه مكان يستره كان غشا منه يستحق به العذاب ؛ أو لأنه لو قتل على ظهره غضب الله على المكان الذى يقع فيه مثل هذا الأمر العظيم ؛ كما غضب على أرض ثمود .

(٤) إلى : أقبل .

(٥) فى حديث رواه مسلم، والنسائى، وأحمد فى مسنده (مسند أحمد : ٢ ـ ٧٢ ، ٨٨).

(٦) ما قدروا الله حق قدره: ماعظموه حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته .

(٧) يمجد الجبار نفسه : يعظم وينزه ذاته .

(٨) رجف المنبر : اهتز واضطرب من مهابة مقال النبى .

(٩) ليخرن عنه : ليقع النبى صلى الله عليه وسلم من شدة اضطراب المنبر من فوقه ، أو لينهد المنبر .

(١٠) فى حديث أخرجه الشيخان، والبزار، والطبرانى ،وأبو يعلى عن جابر وابن مسعود. والحديث فى مسند الطيالسى : ٢ ـ ١٠٧

(١١) بقضيب : بعصا .

الباطِلُ إنّ الباطلَ كان زهوقا[(١)]؛ فما أشار إلى وَجْه صنمٍ إلّا وَقع لِقفَاهُ، ولا لِقفَاهُ إلّا وقَع لوَجْهِه، حتى ما بَقِيَ منها صَنَم.

ومثلُه فى حديث ابن[(٢)] مسعود؛ وقال: فجعـل يَطْعُنها ويقول: جاء الحقُّ وما يبدئُ الباطل وما يُعيد[(٣)].

ومن ذلك[(٤)] حديثُه مع الراهب فى ابتداء أمْرِه؛ إذ خرج تاجرا مع عمِّه؛ وكان الراهبُ لا يخرجُ لأَحَدٍ؛ فخرج وجعل يتخَلَّلُهم[(٥)]، حتى أخذَ بيدِ رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم؛ فقال: هذا سيِّدُ العالَمين؛ يَبْعثُه اللهُ رحمةً للعالَمين.

فقال له أشياخٌ مِنْ قُريش: ما عِلْمُكَ؟ فقـال: إنه لم يبْقَ شجرٌ ولا حجَرٌ إلّا خرَّ ساجدا له، ولا تسجدُ إلّا لنبىّ... وذكر القِصّةَ، ثم قال: فأَقْبل صلى اللهُ عليه وسلم وعليه غَمَامةٌ تُظِلُّه؛ فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فَىْء[(٦)] الشجرة؛ فلما جلس مال الفَىْءُ إليه.

فصـــل
فى الآيات فى ضروبِ الحيوانات

حدثنا سراجُ بن عبد الملك، [حدثنا][(٧)] أبو الحسين الحافظ، حدثنا أبى، حدثنا القاضى يونس، قال: حدثنا أبو الفضل الصَّقَلِّى، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت،

(١) الحق: التوحيد، والإسلام. والباطل ضده. وزهوقه: زواله واضمحلاله.
(٢) رواه الشيخان؛ صحيح البخارى: ٥ — ١٨٨
(٣) الحق: الدين الحق، أو التوحيد، أو وعد الله بفتح مكة. الإبداء: الإيجاد ابتداء من غير سبق إيجاد آخر. والإعادة: الإيجاد مرة بعد مرة أخرى؛ أى إن الشرك هلك واضمحل.
(٤) من ذلك: مما ذكر من أمر الجمادات. والحديث رواه الترمذي والبيهقى. والراهب هو بحيرا. سنن الترمذى: ٥ — ٥٩٠، وطبقات ابن سعد: ١ — ٩٩
(٥) يتخللهم: يدخل فى خلالهم، ويدور بينهم ينظرهم واحدا واحدا.
(٦) الفىء: الظل. والغمامة: السحابة.
(٧) ليس فى ب.

من أبيه وجدّه ؛ قالا : حدثنا أبو العلاء أحمد بن عِمْران ، حدثنا محمد بن فُضَيْل ، حدثنا يونس بن عمرو ، حدثنا مُجاهد ، عن عائشة رضِىَ الله عنها ؛ قالت : كان عندنا دَاجِنٌ[١] ، فإذا كان عنـدنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم قَرّ[٢] وثبتَ مكانَه ؛ فلم يجئْ ولم يذهَبْ ؛ وإذا خرج رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم جاء وذَهَبَ.

ورُوى عن عُمَر[٣] أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كان فى مَحْفِلٍ[٤] من أصحابِه إذ جاءَ أعرابىٌّ قد صادَ ضَبًّا[٥] ؛ فقال : ما هذا[٦] ؟ قالوا : نبىُّ اللهِ . فقال : واللَّاتِ والعزَّى[٧] ، لا آمَنْتُ بكَ أو يُؤْمِنَ هـذا الضَّبُّ ؛ وطَرَحه بين يدى النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فقال النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم : يا ضَبُّ ؛ فأجابه بلسانٍ مُبِينٍ يَسْمَعُهُ القومُ جميعا : لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ[٨] يا زَيْنَ مَنْ وَافَى القيامة[٩] .

---

(١) داجن : شاة تألف البيوت وتعلف فيها ، وتطلق على غيرها من الحيوانات التى تربى فى البيوت ، كالناقة ، والحمام . وفى هامش ب : دواجن البيوت : ما ألفها من الطير والشاء وغيرها . والمراد بقولها « عندنا » منزلها الذى تسكنه .

(٢) قر وثبت مكانه : وقف ، أو ربض فى مكانه لايتحرك .

(٣) فى حديث رواه الطبرانى ، والبيهقى .

(٤) محفل : مكان يجتمع فيه ناس كثيرون .

(٥) الضب : حيوان برى ، والأعراب تصيده وتأكله .

(٦) هذا فى ا ، ب . وفى هامش ا : من هذا .

(٧) اللات والعزى : صنمان عبدا فى الجاهلية . واللات : كان بنخلة والطائف لقريش وثقيف . والعزى : شجرة من السمر كانت لغطفان .

(٨) لبيك وسعديك : لبيك : إجابة لك بعد إجابة . وسعديك : مساعدة وطاعة لك بعد طاعة ، وهما عبارة عن سرعة الإجابة والانقياد والطاعة .

(٩) من وافى القيامة : الموافاة : الحضور والمجىء . وإنما جعله زينا ؛ أى مزينا لأهلها ومن بها ،لأنه سيدهم وقائدهم ،والشفيع لهم. والعرب تقول :يازين القوم- لأشرفهم وأحسنهم.

قال : مَنْ تَعْبُدُ ؟ قال : الذى فى السماء عَرْشُه ، وفى الأرضِ سُلْطانُه ، وفى البحر سبيلُه[١] ، وفى الجنة رَحْمَتُه ، وفى النار عِقابُه .

قال : فمَنْ أنا ؟ قال : رسولُ ربِّ العالمين ، وخاتَم[٢] النبيِّين ، وقد أفلَح مَنْ صَدَّقَك ، وخابَ مَنْ كذَّبك .

فأسلم الأعرابىّ[٣] .

ومن ذلك[٤] قصةُ[٥] كلام الذّئب المشهورةُ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ :

بَيْنا راعٍ يَرْعَى غنماً له عرَضَ الذئبُ لشاةٍ منها ، فأخذها الرّاعى منه ، فأَقْعَى[٦] الذئبُ ، وقال للرّاعى : ألا تَتَّقِى اللهَ ! حُلْتَ بينى وبَيْنَ رِزْقِى !

قال الرّاعى : العَجَبُ من ذِئبٍ يَتَكلَّمُ بكلام الإنْس ! فقال الذّئبُ : ألا أُخْبرك بأعجَب من ذلك ؟ رسولُ اللهِ بين الحرّتَيْنِ[٧] يُحَدِّث الناسَ بأنباء[٨] ما قد سَبَق .

فأَتَى الرّاعى للنبىّ صلّى اللهَ عليه وسلم فأخبره ؛ فقال النبىُّ : قُمْ فحدِّثْهم ؛ ثم قال : صَدَق .

والحديث فيه قصةٌ ، وفى بعضه طُول .

ورُوِى حديثُ الذئبِ[٥] عن أبى هُرَيرةَ .

---

(١) سبيله : طريقه التى جعلها مسلوكة لعباده بتسخير الريح ونحوه مما لايقدر عليه غيره.

(٢) ضبطت التاء فى ا بالكسرة ، وفى ب : بالفتحة . وهو بالفتح بمعنى ختموا به ، وبكسرها بمعنى ختمهم .

(٣) هذا الحديث طويل رواه البيهقى .

(٤) من ذلك : من معجزاته فى تسخير الحيوانات وإنطاقها .

(٥) رواها أحمد ، والبزار ، والبيهقى ، وصححها . وهى فى طبقات ابن سعد :١-١١٤

(٦) فأقعى الذئب : قعد على عقبيه ناصبا يديه .

(٧) الحرة : ثنية مرتفعة ذات حجارة سود ، كأنها اسودت من الحر . والحرتان بالمدينة .

(٨) بأنباء ماسبق : الأنباء : الأخبار .

وفى بعضِ الطُّرُقِ عن أبى هُريرة رضى اللهُ عنه ، فقال الذِّئبُ : أنتَ أعجبُ ! واقفاً على غَنَمِك ، وتركْتَ نبيًّا لم يبعَث اللهُ نبيًّا قَطُّ أعظمَ منه عنــده [١١١] قَدْراً[١] ، قد فُتِحَت له أبوابُ الجنّةِ ، وأشرف[٢] أهلُها على أصحابِه ، ينظرون قِتالَهم[٣] ، وما بينكَ وبينه إلا هذا الشِّعْبُ[٤] ، فتَصِير من جنود الله .

قال الرّاعى : مَنْ لى بغَنَمى ؟ قال الذئبُ : أنا أرعاها حتى ترجِعَ .

فأسلم الرجلُ إليه غَنَمه ومضَى .

وذَكَرَ قصتَه وإسلامَه ووجودَه النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم يُقاتل ؛ فقال له النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم : عُدْ إلى غَنَمك تجدْها بوَفْرِها[٥] .

فوجدها كذلك ، وذبح للذئب شاةً منها .

وعن أُهْبان[٦] بن أوْسٍ : وأنه[٧] كان صاحبَ القصّة ، والمحدِّثَ بها ، ومكلِّمَ الذئبِ .

وعن سلمةَ بن عَمْرو بن الأكوع : وأنه[٨] كان صاحبَ [هذه][٩] القصة أيضا ، وسببَ إسلامِه بمِثْلِ حديث أبى سَعِيد .

وقد رَوَى ابنُ وَهْب مِثْلَ هذا أنه جرَى[١٠] لأبى سُفْيانَ بن حَرْب ، وصَفْوانَ

---

(١) قدرا : منزلة .

(٢) الإشراف : النظر من مكان عال .

(٣) ينظرون قتالهم : ينظرون إليهم وهم صفوف واقفون فى القتال كصفوف الملائكة .

(٤) الشعب : منفرج بين جبلين ؛ يعنى أنه قريب منك لاعذر لك فى التخلف عنه . يريد: فتخلفك منه هذا أعجب من نطقى الذى تعجبت منه .

(٥) بوفرها : بتمامها وكمالها ، لم ينقص منها شىء .

(٦) هذا الحديث رواه البيهقى والبخارى فى تاريخه .

(٧) وأنه ؛ أى أهبان بن أوس . (٨) وأنه ؛ أى سلمة .

(٩) ليس فى ب . (١٠) جرى : وقع واتفق .

ابنُ أُمَيَّة ، مع ذئبٍ وَجَدَاه أَخَذ ظَبْياً ، فدخل الظَّبْيُ الحَرَم ؛ فانصرفَ الذئبُ ؛ فعَجِبا من ذلك ، فقال الذئبُ : أَعجبُ من ذلك محمدُ بنُ عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجَنَّةِ وتدعونه إلى النار[١] .

فقال أبوسُفْيان : واللَّاتِ والعُزَّى، لئن ذكرتَ[٢] هذا بمكة لتتركنَّها خُلُوفا[٣].

وقد رُوِي مِثْلُ هذا الخبرِ ، وأنه جرَى لأبى جَهْل وأصحابه .

وعن عباس بن مِرْدَاس لمَّا تعجَّب من كلام ضِمَار صنَمِه[٤] ، وإنشادِه[٥] الشّعر الذى ذكر فيه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا طائرٌ سقطَ ، فقال : يا عباس ؛ أتعجبُ من كلام ضِمَار ، ولا تعجب من نَفْسِك ؟ إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم يَدْعُو إلى الإسلام وأنتَ جالسٌ ؛ فكان سببَ إسلامِه[٦] .

---

(١) يدعونه إلى النار بقولهم له : لم لا توافقنا وتعبد آلهتنا مما هو سبب للخلود فى النار .

(٢) لئن ذكرت : أبو سفيان يخاطب صفوان بن أمية .

(٣) خلوفا : المراد تركها خالية من أهلها بأن يسلموا جميعا ، ويرتحلوا إلى النبى بالمدينة ، لأن من سمع مثل هذا لايتردد فى صحة رسالته . أو المراد : يدعها وأهلها متغيرة فاسدة لما يقع بين أهلها من الفساد والفتن باختلاف الكلمة وفى شرح القارى (١ــ٦٣٥): خلوفا: بلا راع ولا حام؛ وكذلك فى النهاية . وفى هامش ب : الحى الخلوف: الذى رحل رجاله وبقى نساؤه .

(٤) الصنم : اسمه ضمار . وكان هذا الصنم يعبده مرداس ورهطه . وفى ب : ضماد ــ بالدال المهملة . وفى تاج العروس ــ ضمر : وضمار : صنم عبده العباس بن مرداس السلمى ورهطه . وفى التبصير (٨٥٧) : وضمار : اسم صنم عباس بن مرداس .

(٥) فى نسيم الرياض (٣ ــ ٨٥) : هذا الشعر هو :

أودى ضمار وكان يعبد مرة ... قبل البيان من النبى محمد

وهو الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتد

قل للقبائل من سليم كلها ... أودى ضمار وعاش أهل المسجد

وهذا الشعر أيضا فى شرح القارى (١ ــ ٦٣٥) . وفيه : كان يعبد مدة .

(٦) قال القارى (١ ــ ٦٣٥) : وهذا الحديث كما فى الطبرانى الكبير بسند لابأس به قريب مما هنا .

وعن جابر[1] بن عَبْد الله رضِيَ اللهُ عنهما ، عن رجل أَتَى النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم وآمنَ به وهو على بعض حصونِ خَيْبَر ، وكان فى غَنَمٍ يرعاها لهم[2] ؛ فقال : يارسول الله ، كيف بالغنم[3] ؟ قال : احْصِبْ وجُوهَها[4] ؛ فإنَّ الله سيؤدّى عنكَ أمانتَكَ ، ويردُّها إلى أهلها .

ففعلَ ، فسارَتْ كلُّ شاةٍ حتى دخلَتْ إلى أهلها .

وعن أَنَسٍ[5] رضى الله عنه : دخل النبيُّ صلّى الله عليه وسلم حائطَ[6] أنصاريٍّ وأبو بكر وعُمر ورجلٌ من الأنصار رضِيَ اللهُ عنهم ، وفى الحائط غَنَم فسجدَتْ له . فقال أبُو بكر : نحن أحقُّ بالسجود لكَ منها . . . الحديث .

وعن أبى هريرة[7] رضى اللهُ عنه : دخل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم حائطا ، فجاء بعيرٌ فسجد له ، وذكر مِثْلَه .

ومِثْلُه فى الجَمَلِ[8] — عن ثعلبة بن مالك ، وجابر بن عبد الله[9] — ويَعْلى ابن مُرّة[10] ، وعبد الله بن جعفر[11] ؛ قال : وكان لا يدخلُ أحدٌ الحائطَ إلّا شدَّ

---

(١) فى حديث رواه البيهقى . (٢) لهم : لأهل خيبر .

(٣) كيف بالغنم : كيف أفعل بالغنم إذا أسلمت ، وهى ملك لغيرى ، وأنا أجير .

(٤) احصب وجوهها : ارمها فى وجوهها بالحصباء ؛ وهى صغار الحجارة ودقاقها .

(٥) فى حديث صحيح مسند ، رواه أحمد ، والبزار .

(٦) حائط : المراد به بستان .

(٧) فى نسيم الرياض (٣ — ٨٧) : هذا الحديث رواه البزار بسند حسن . وكذلك قال القارى (١ — ٦٣٦) .

(٨) رواه أبو نعيم .

(٩) رواه أحمد ، والدارمى ، والبزار ، والبيهقى .

(١٠) رواه أحمد ، والحاكم ، والبيهقى .

(١١) رواه مسلم ، وأبو داود — الحديث فى مسند الطيالسى : ٢ — ١٣٤

عليه الجَمَلُ[١] ؛ فلما دخل عليه النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلّم دَعَاه ، فوضع مِشْفَرَه[٢] ، على الأَرض ، وبَرَكَ بين يديه ، فخطَمه[٣] ، وقال : ما بين السماء والأَرض شيء إلّا يَعْلَمُ أنى رسولُ الله إلّا[٤] عاصِي الجنّ والإنس[٥] .

ومِثْلُه[٦] عن عَبْد الله بن أبى أوْفى .

وفى خبر آخر فى حديثِ الجَمَل أنّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم سألهم عن شأْنِه ، فأخبروه أنهم أرادوا ذبْحَه .

وفى رواية أن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم قال لهم : إنه شَكَا كَثْرةَ العملِ ، وقلّةَ العلف من صِغَرِه ، فقالوا : نَعَمْ .

وقد رُوِى [١١٢] فى قصة العَضْبَاء[٧] وكلامِها النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وتعريفها له بنفسها ، ومبادرةِ العُشْبِ إليها فى الرَّعْيِ ، وتجنُّبِ الوحوشِ عنها[٨] ، وندائهم[٩] لها : إنكِ لمحمّد ، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حين ماتَتْ .

ذكره الإسْفَرَايني[١٠] .

---

(١) شد عليه الجمل : أسرع وحمل عليه . يعنى أن هذا الجمل كان عقورا هائجا .

(٢) المشفر فى الإبل كالشفة للإنسان .

(٣) خطمه : فوضع زمامه الذى يقاد به فى رأسه وعلى فمه ، وقد انقاد للنبي متذللا بعد أن كان لايطاق .

(٤) فى ا : لا يعلم .

(٥) أى إلا من عصى الله ورسوله وكفر ، فإنه ينكر معرفتى .

(٦) رواه أبو نعيم ، والبيهقى .

(٧) العضباء : اسم ناقة النبي صلى الله عليه وسلم . ومعناها المشقوقة الأذن .

(٨) أى عدم أذيتها وأكلها لها .

(٩) عليها علامة الصحة فى ا ، وفى هامشه : وقولهم .

(١٠) فى شرح القارى (١-٦٣٧) : قال الدلجى : وأما قصة العضباء فلم أدر من رواها ، ولا حديث حمام مكة .

وروى ابنُ وَهْبٍ[١]، أنّ حمامَ مكة أظلّت النبيّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ فَتْحِها، فدعا لها بالبركة .

ورُوى عن أنس[٢] ، وزيد بن أرْقَم ، والمغيرة بن شعبة ـ أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : ليلة الغارِ أمر اللهُ شجرةً[٣] ، فنبتت تُجاهَ النبيّ صلى الله عليه وسلم فسترته ، وأمر حمامتَيْنِ فوقفَتا بفَم ِ الغار .

وفي حديثٍ آخر[٤] : وأنّ العنكبوتَ نسجت على بابه ؛ فلما أتى الطالبون له ، ورأوا ذلكَ قالوا : لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتانِ ببابهْ ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يسمَعُ كلامَهم ؛ فانصرفوا .

وعن عبد الله بن قُرْط[٥] : قُرِّبَ إلى رســول[٦] الله صلى الله عليه وسلم بَدَناتٌ[٧] خَمس أو سِتٌّ أو سبع ، لِيَنْحَرَها يوم عيد ، فازْدَلفن[٨] إليه بِأيّهن يبدأُ.

وعن أمّ سلَمة[٩] : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم في صحراء ، فنادَتْه ظَبْيةٌ ،

---

(١) في نسيم الرياض (٣-٨٩) : وهذا الحديث لم يخرجوه .

(٢) رواه عنه ابن سعد ، والبزار ، والطبراني ، والبيهقي ، وأبو نعيم .

(٣) الغار هو غار ثور الذى اختفى فيه النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر .

(٤) رواه ابن سعد ، والبزار ، والطبراني ، والبيهقي ، وأبو نعيم .

(٥) هذا الحديث رواه الحاكم ، والطبراني ، وأبو نعيم مسندا .

(٦) في ا : إلى النبي . . .

(٧) بدنات : جمع بدنة ؛ وهي مايعد للنحر من الإبل خاصة . وقال ابن الأثير : إنها من الإبل والبقر ؛ وسميت بدنة لعظم بدنها .

(٨) ازدلفن إليه : تقدمت كل واحدة منهن إليه رغبة في أن يذبحها ، انقيادا له بإلهام من الله .

(٩) في حديث رواه الطبراني ، والبيهقي ، وصححه ابن حجر . وقال ابن كثير : إنه لا أصل له ، لأن في سنده مجاهيل .

يارسولَ الله . قال : ما حاجتُك ؟ قالت : صادَنى هذا الأعرابىّ ، ولى خِشْفَان(١) فى ذلك الجبَل ، فأَطْلِقْنى حتى أذهبَ فأُرْضِعهما وأَرْجِع .

قال : وتَفعلين ؟ قالت : نعم . فأطلقها ، فذهبت ورجعت ، فأَوثقها(٢) ، فانْتَبه الأعرابىُّ وقال : يارسولَ الله ؛ أَلكَ حاجةٌ ؟ قال : تُطلِق هــــذه الظَّبْيَة . فأطلقها فخرجَتْ تَعدُو(٣) فى الصحراء ، وتقول : أشهَدُ أن لا إلهَ إلا الله ، وأنك رسولُ الله.

ومِنْ هذا البــاب(٤) ما رُوِى(٥) مِنْ تسخِير الأَسَدِ لسفينةَ مولى رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم ؛ إذ وجَّههُ إلى مُعاذٍ باليَمن ، فلَقِىَ الأَسدَ فعرّفَهَ أنه مَوْلَى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، ومعه كِتَابُه ، فهَمْهَم(٦) وتنحّى(٧) عن الطريق ، وذكر فى مُنْصَرفه مِثْلَ ذلك .

وفى روايةٍ(٨) أُخرى عنــــه ـ أن سفينةَ تكسَّرَت به ، فخرج إلى جزيرةٍ فإذا الأَسدُ ؛ فقلتُ له : أنا مَوْلَى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فجعل يَغمِزنى(٩) بمَنْكِبه حتى أقامنى على الطريق(١٠) .

---

(١) الخشف : الظبى الصغير الذى ولدته أمه .

(٢) أوثقها : ربطها كما كانت . (٣) تعدو : تجرى .

(٤) من هذا الباب : من باب المعجزات بإطاعة الحيوانات .

(٥) فى نسيم الرياض (٣ ـ ٩٢) : قال السيوطى : لم أقف على هذا الحديث هكذا . وأخرج البيهقى أنه وقع لسفينة حين ضل عن الجيش بأرض الروم ، إلا أن البخارى ذكره فى تاريخه ، كما قال المصنف فلا اعتراض عليه .

(٦) الهمهمة : صوت لايفهم .

(٧) تنحى عن الطريق : تأخر عنه فى ناحية متباعدة عن الطريق إذهابا لخوفه .

(٨) وهذه الرواية هى التى رواها البيهقى والبزار وصححها السيوطى فى تخريجه .

(٩) يغمزنى : يدفعنى دفعا خفيفا . والمنكب : مابين الكتف والعنق .

(١٠) أقامنى على الطريق : دلنى على الطريق .

وأخذ ـ عليه السلام ـ بأُذُنِ شاةٍ لقومٍ من عبد القيس بين إصبَعيه ، ثم خلّاها[١] فصار لها مِيْسما[٢] ، وبقِيَ ذلك الأثرُ فيها وفى نَسلها بعْدُ[٣] .

ومارُوِىَ عن[٤] إبراهيم بن حَمّادٍ بسندَه من كلام الحمار الذى أصابه[٥] بخَيْبَر ، وقال له : اسمى يزيدُ بن شهاب .

فسمّاه النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم يَعْفُورا ، وأنه كان يوجِّهُه إلى دُور أصحابه ، فيضرب عليهم البابَ برأسِه ، ويَستَدْعِيهم ؛ وأنَّ النبيَّ صلى آللهُ عليه وسلم لما مات تردَّى[٦] فى بئرٍ جزَعاً وحُزْناً ، فمات .

وحديثُ الناقةِ[٧] التى شهِدتْ عندالنبيّ صلَّى اللهُ عليهوسلم لصاحِبها أنهماسرقها، وأنها مِلْكه .

وفى العَنز[٨] : التى أتَتْ رسولَ اللهِصلى اللهُ عليه وسلم فىعسكره ، وقد أصابهم عَطَش، ونزلوا علىغير ماء، وهم زُهاء[٩] ثلاثمائة، فحلبها رسولُ اللهِ صلىاللهعليهوسلم، فأرْوى الُجنْدَ ، ثم قال لرافع: أمْلِـكْها وما أُراكَ[١٠]. فربطها فوجدهاقد انطلقت .

---

(١) خلاها : نحى إصبعه عنها وتركها .

(٢) ميسما : علامة ؛ أى صار أثر إصبعيه لها علامة .

(٣) قال فى نسيم الرياض (٣ ـ ٩٣) : وهذا الحديث لا يعلم من رواه من المحدثين .

(٤) هذا الحديث رواه ابن حبان ، لـكنهم قالوا : إنه ضعيف : وقال ابن الجوزى : إنه كذب موضوع .

(٥) أصابه بخيبر : وجده بها لما فتحها . أو أصابه : كان فى سهمه .

(٦) تردى : ألقى نفسه وطرحها فى بئر .

(٧) رواه الطبرانى عن زيد بن ثابت بسند فيه مجاهيل ، والحاكم عن ابن عمر . وقال الذهبى : إنه موضوع .

(٨) أخرجه ابن سعد ، والبيهقى ، وابن عدى ، عن سعد مولى أبى بكر رضى الله عنه.

(٩) وهم زهاء : أى قريب عددهم من ذلك .

(١٠) أملـكها: خذها واتخذها ملـكا لك، لأنها لا صاحب لها ،إذوجدت بأرض العدو. ويحتمل أن يكون معناه : شدها وأوثقها ، واربطها . وما أراك : ماأظنك تملـكها وتحفظها .

راوه ابنُ قانع وغيْرُه [١] ؛ وفيه : فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إنّ الذى جاء بها هو الذى ذهب بها [٢] [١١٣] .

وقال لفرسه ـ عليه السلام ـ وقد قام إلى الصلاة فى بعضِ أسفاره : لا تَبْرح [٣] ، باركَ اللهُ فيك حتى نَفْرَغَ من صلاتنا ، وجعله قِبْلَتَه ، فما حرّكَ [٤] عُضْواً حتى صلى صلى اللهُ عليه وسلم .

[ويلتحقُ بهذا ما رواه الواقدى ـ أنّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم لما وجّهَ رسُلَه إلى الملوك ، خرج ستّةُ نفرٍ منهم فى يوم واحد ، فأصبح كلُّ رجلٍ منهم يتكلم بلسانِ القوم الذين بعثه إليهم] [٥] .

والحديثُ فى هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور، وماوقع فى كتُبِ الأئمة .

فصــــل

فى إحياء الموتى وكلامهم ، وكلام الصبيان والمراضع [٦]

وشهادتِهم له بالنبوة صلّى الله عليه وسلم

حدثنا أبو الوليد هِشَام [٧] بن أحمد الفقيه بقراءتى عليه ، والقاضى أبو الوليد محمد ابن رُشْد ، والقاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمى ، وغَيْرُ واحدٍ سماعا وإذْناً ؛

---

(١) رواه أيضا البيهقى ، وابن عدى ، عن جماعة من الصحابة .

(٢) يعنى الله ، أو الملك .

(٣) لاتبرح : لاتزل من مكانك الذى أوقفتك فيه ، ولا تفارقه .

(٤) قبلته : جعله فى جهة قبلته ساترا ومانعا لمن يمر بين يديه .

(٥) فى هامش ا ، ب : من الأم ، من غير الرواية .

(٦) الصبيان : الذين فى المهد ، الذين لم يصلوا إلى سن يتكلم فيه مثلهم . والمراضع : جمع مرضع اسم مفعول ؛ وهو الولد الصغير . وقال القارى (١ ـ ٦٦٢) : جمع راضع ، على خلاف القياس .

(٧) هذا الحديث أورده أبو داود مسندا عن أبى هريرة .

قالوا : حدثنا أبو على الحافظ ، [قال :][(١)] حدثنا أبو عُمر[(٢)] الحافظ ، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن يحيى ، حدثنا أحمد بن سَعِيد ، حدثنا ابنُ الأعرابى . . .

حدثنا أبو داود[(٣)] ، حدثنا وهْب بن بَقِيَّة ، عن خالد ـ هو الطّحان ، عن محمد ابن عَمْرو ، عن أبى سلَمة ، عن أبى هريرة رضىَ الله عنه ـ أنّ يهوديّةً أهْدت للنبى صلى الله عليه وسلم بخَيْبَر شاةً مَصْلِيَّة[(٤)] سَمَّتْهَا ، فأكل رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم منها ، وأكل القوْمُ ، فقال : ارفعُوا أيديَكم ، فإنها أخبرتنى أنها مسمومة .

فمات بِشْر بن البراء .

وقال لليهودية : ماحملكِ على ما صَنَعْتِ ؟ قالت : إنْ كنتَ نبيًّا لم يَضُرّكَ الذى صنعتُ ، وإنْ كنتَ ملكا أرحْتُ الناسَ منك .

قال : فأمر بها فقُتِلت .

وقد رَوى هذا الحديثَ أنس ، وفيه : قالت : أردتُ قَتْلَك . فقال : ما كان اللهُ لِيُسلِّطَكِ[(٥)] على ذلك . فقالوا : نقتلها ؟ قال : لا .

وكذلك رُوى عن أبى هريرة ـ من رواية غير وهب ، قال : فما عَرَضَ[(٦)] لها .

ورواه أيضا[(٧)] جابر بن عبد الله ، وفيه : أخبرتنى هذه الذّرَاعُ ـ قال : ولم يعاقِبْها .

---

(١) من ب . (٢) هو ابن عبد البر .

(٣) الإمام صاحب السنن . وحديث الشاة المسمومة فى سنن أبى داود : ٢ ـ ١٥٩ ، وصحيح البخارى : ٣ ـ ٢٠٢ ، وصحيح مسلم : ١٧٢١ ، وطبقات ابن سعد : ١ ـ ١١٣

(٤) مصلية : مشوية . سمتها : وضعت فيها السم . وفى النهاية : شاة مصلية بفتح الميم : مشوية ، يقال : صليت اللحم ـ بالتخفيف ؛ أى شويته ، فهو مصلى . وهذا الضبط فى ب . وفى ا ضبطت الميم بالضمة .

(٥) ليسلطك : يقدرك ويمكنك . (٦) فما عرض لها : أى إنه تركها .

(٧) كما فى سنن أبى داود ، والبيهقى .

[وفى رواية الحسن أنّ فَخِذَها تكلمنى أنها مسمومة .

وفى رواية أبى سلمة بن عبد الرحمن قالت : إنى مسمومة][1] .

وكذلك ذكر الخبرَ ابنُ إسحاق ، وقال فيه : فتجاوز[2] عنها .

وفى الحديث الآخر[3] ، عن أنس ، قال : فما زلْتُ أعرِفُها فى لَهَواتِ[4] رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم .

وفى حديث أبى هُريرةَ[5] ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم قال ـ فى وجَعِهِ الذى مات فيه : ما زالَتْ أُكْلَةَ[6] خَيْبَرَ تُعادُّنى[7] ؛ فالآن أوانَ قطعَتْ أبْهَرى[8] .

وحكى ابن إسحاق : إنْ كان المسلمون ليَرَوْنَ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مات شهيدا[9] مع ما أكرمَهُ اللهُ به من النبوّة .

وقال ابنُ سُحْنون : أجمع أهلُ الحديث أنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قتلَ اليهوديّة التى سمّتْهُ .

---

(١) فى هامش ا ، ب : من أصله بخطه من غير الرواية .

(٢) فى سيرته . وتجاوز عنها: عفا عنها ولم يقتلها فى أول الأمر . ثم لما مات بشر بن البراء قتلها به . وفى شروح البخارى اختلاف فى هذا .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) لهوات : جمع لهاة ، وهى لحمة فى أقصى سقف الفم تنطبق على آخر اللسان ، وأول الحلق . وكأنه يريد بها الفم ؛ أى كان لها أثر ظاهر فى فمه . وقيل المراد بهاأنها أثرت فى صوته تأثيرا قليلا يظهر لمن تأمله . والحديث فى البخارى كما تقدم .

(٥) رواه عنه ابن سعد بسند صحيح . (٦) أكلة : مايؤكل .

(٧) تعادنى : تعود إلى مرة بعد مرة فى أوقات معلومة . أو تعتادنى .

(٨) الأبهر : عرق كبير متصل بالقلب . وفى هامش ب : الأبهر : العرق الذى فى وسط الظهر إذا انقطع لايتصور معه حياة . وفى شرح القارى (١ ـ ٦٤٤) : الأبهر : عرق يكتنف الصلب والقلب إذا قطع لم تبق معه حياة .

(٩) مات شهيدا : أى بسم الشاة .

وقد ذكرنا اختلافَ الرِّواياتِ في ذلك عن أبي هريرة ، وأنس ، وجابر .

[وفي رواية ابنِ عباس (١) رضي الله عنهما ـ أنه دفعَها لأولياء بشْرِ بن البراء فقتلوها .

وكذلك قد اختلف في قَتْلِهِ للذي سحَره (٢) ؛ قال الواقدي : وعَفْوُهُ عنه أثبتُ عندنا .

ورُوِي عنه أنه قتله] (٣) .

وروَى الحديثَ (٤) البزّارُ ، عن أبي سَعيد ، فذكر مثْلَه ، إلا أنه قال في آخره : فبسط يدَه وقال : كلُوا بسم اللهِ ، فأكلنَا ، وذكر اسم الله ؛ فلم تضرّ منا أحدا (٥) .

قال القاضي أبو الفضل (٦) : وقد خرّج حديثَ الشاةِ المسمومة أهلُ الصحيح ، وخرّجه الأئمة ، وهو حديثٌ مَشْهُورٌ (٧) .

واختلف أئمةُ النّظَرِ في هذا الباب ؛ فمِنْ قائل يقول : هو كلامٌ يخلقُه اللهُ تعالى في الشاةِ [١١٤] الميّتة (٨) ، والحجر ، أو الشجَرِ ، وحروفٌ وأصواتٌ يُحْدِثُها اللهُ فيها ، ويُسمِعها منها دونَ تغيير أشكالها ، ونَقْلِها عن هيئتها .

---

(١) رواها ابن سعد .

(٢) الذي سحره يهودي من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم .

(٣) في هامش ا : من الأم ، من غير الرواية .

(٤) أي حديث الشاة المسمومة السابق .

(٥) في نسيم الرياض (٣ ـ ١٠٣) : قال السيوطي ؛ نقلا عن الشيخ ابن حجر : إن هذا الحديث منكر . وقال القاري (١ ـ ٦٤٥) : ولعل وجه الإنكار عموم نفي الإضرار، مع أنه ثبت في الصحيح موت البراء منه ، كما سبق به التصريح ؛ وكذلك تقدم أنه ـ صلى الله عليه وسلم تضرر منها حتى إنها كانت لتعاوده .

(٦) هو مصنف الكتاب . (٧) تقدم تخريجه .

(٨) في ا : في الشاة والميتة . والمثبت في ب .

وهو مَذْهَبُ الشيخ أبى الحسَنِ (١) ، والقاضى أبى بكر (٢) رحِمَهما اللهُ .

وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياةِ بها ، ثم الكلامِ بعده .

وحُكِي هذا أيضا عن شيخنا أبى الحسن (١) ؛ وكلٌّ محتمَل ، واللهُ أعلم ؛ إذ لم نجْعلِ الحياةَ شرطا لوجود الحروف والأصواتِ ؛ إذ لا يستحيلُ وجودُها مع عدم الحياة بمجرّدِها . فأمّا إذا كانت عبارةً عن الكلام النفسىّ فلا بُدّ من شرْط الحياة لها ؛ إذ لا يوجَدُ كلامُ النفْس إلا مِنْ حَىٍّ ، خلافا للجُبّائى (٣) من بين سائرِ متكلّمى الفِرَق فى إحالة (٤) وجودِ الكلامِ اللفظىّ والحروف والأصواتِ إلا مِنْ حىٍّ مركّبٍ على تركيبِ مَنْ يصِحُّ منه النطقُ بالحروف والأصوات .

والتزم ذلك فى الحصى ، والجِذْعِ ، والذّراع ؛ وقال : إنَّ اللهَ خلق فيها حياةً ، وخَرَقَ لها فماً — ولسانا ، وآلةً أمكنها بها من الكلام .

وهذا لو كان لكان نَقْلُه (٥) والتهمّمُ (٦) به آكدُ من التهمُّم بنَقْل تسبيحه أو حنينه ، ولم ينقُلْ أحدٌ من أهل السِّيَر والرِّوَاية شيئا من ذلك ؛ فدلَّ على سقوط دَعْوَاه ، مع أنه لا ضرورةَ إليه فى النَظر ؛ والموفّق الله .

ورَوَى وَكِيعٌ — رَفْعَه عن فَهْدٍ (٧) بن عطية — أنّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلم أُتِيَ بصبيٍّ قد شبّ (٨) لم يتكلّم قطُّ ؛ فقال : مَنْ أنا ؟ فقال : رسولُ الله .

---

(١) هو الأشعرى . (٢) هو الباقلانى . (٣) شيخ المعتزلة توفى سنة ثلاث وثلاثمائة.

(٤) إحالة : عده محالا عقلا وعادة . (٥) لكان نقله : لوجد نقله وسمع .

(٦) التهمم به : الاهتمام والاعتناء به .

(٧) هذا فى ا ، ب . وفى هامش ب : فهر . وقال القارى (١ — ٦٤٧) : فهد — بالدال فى آخره، وفى نسخة بالراء ، وكلاهما لا يعرف، على ما ذكره الدلجى . وفى المواهب : عن مهد — بالميم والدال ، ولعله تصحيف ؛ وإنما روى البيهقى عن سمر بن عطية — بكسر السين المهملة وسكون الميم ، فى آخره راء ، عن بعض أشياخه .

(٨) شب : كبر ، وصار شابا .

ورُوى عن مُعَرِّض[١] بن مُعَيْقيب : رأيتُ مِنَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم عَجَباً؛ جِئ بِصبيٍّ يوم وُلِد . . . فذكر مثلَه .

وهو حديثُ مُبارَكِ اليمامةِ ، ويُعرف بحديث شاصُونة : اسم رَاوِيه ، وفيه : فقال له النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم : صدقْتَ ، باركَ اللهُ فيك[٢] .

ثم إنّ الغلامَ لم يتكلّم بعدها حتى شبّ ، فكان يسمّى مُبارَكَ اليمامة .

وكانت هذه القصةُ بمكة في حجةِ الوداع .

وعن الحسنِ : أتى رجلٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذكر أنه طرحَ[٣] بُنَيَّة له في وادِي كذا ، فانطلق معه إلى الوَادِي ، وناداها باسمها : يافلانةُ ، أَجِيبِي بإذنِ الله؛ فخرجت وهي تقول : لَبّيْك وسَعْدَيْكَ[٤] ! فقال لها : إنّ أَبوَيْكِ قد أَسْلَما ؛ فإنْ أَحْبَبْتِ أن أردّكِ عليهما ؟ قالت : لاحاجةَ لي فيهما ؛ وَجَدْتُ اللهَ خيرا منهما[٥] .

وعن أنس[٦] أنّ شابًّا من الأنصار تُوفِّيَ وله أمٌّ عجوزٌ عَمْياء ، فسجَّيْناهُ[٧] ،

---

(١) في ب : ضبطت الراء المشددة بالفتحة والكسرة ، وكتب عليها « معا » . وقال القاري (١ — ٦٤٧) : وروى معرض — بكسر أوله ، كأنه آلة .

(٢) في نسيم الرياض (٣ — ١٠٦) : قال السيوطي : قد وقعت روايته من طرق ؛ فهو حديث حسن . وقد وقع في حجة الوداع ، وكانت سنة ست عشرة من الهجرة ، مع كثرة الناس ؛ فكان حقه أن يشتهر .

(٣) طرح بنية له : رماها فماتت . وقيل : إنه وأدها على عادة الجاهلية .

(٤) لبيك وسعديك : إجابة لك بعد إجابة ، وإسعادا لك بعد إسعاد . ومعناه سرعة الإجابة والانقياد .

(٥) قال في شرح القاري (١ — ٦٤٩) : والحديث عن الحسن لم يعلم من رواه .

(٦) في حديث رواه البيهقي ، وابن عدي، مسندا ورواه أيضا ابن أبي الدنيا، وأبو نعيم.

(٧) سجيناه : غطيناه .

وعزّ يناها، فقالت : مات ابني ؟ قُلْنا: نعم . قالت: اللهمّ إنْ كنت تعلمُ أني هاجرتُ إليك وإلى نبيّك رجاء أن تُعينَنِي على كل شدة فلا تَحْمِلَنّ عليّ هذه المصيبة .

فما برحْنا أنْ كشفَ الثوبَ عن وَجْهه ، فطَعِمَ وطَعِمْنا (١) .

ورُوِي (٢) عن عَبْد الله بن عُبيد الله الأنصاري: كنتُ فيمن دفَن ثابت بن قيس ابن شماس ، وكان قتِل باليمامة (٣) ؛ فسمِعْناهُ حين أدخلناهُ القَبْرَ يقول : محمدٌ رَسُولُ اللهِ ، أبو بكر الصدِّيقُ ، عُمَر الشهيدُ ، عثمانُ البرُّ (٤) الرحيمُ ؛ فنظَرْنا فإذا هو ميّت .

وذُكِر (٥) عن النُّعْمانِ بن بشير أن زَيْد بن خارجة خَرَّ ميّتاً (٦) في بعض أزِقّةِ المدينة (٧) ؛ فرُفِع وسجِّي (٨) إذ سمعوه بين العشاءَيْن (٩) والنساء يَصْرُخْنَ حوله يقول: أنصِتُوا ، أنصتوا ؛ فحَسر عن (١٠) وجْهِهِ ؛ فقال : محمدٌ [١١٥] رسولُ اللهِ ، النبيُّ الاميُّ ، وخاتَمُ النبيّين ؛ كان ذلك في الكتاب الأوّل ؛ ثم قال : صَدَّق ، صدِّق (١١) ؛ وذكَر أبا بكر ، وعُمر ، وعثمان ؛ ثم قال : السلام عليكَ يا رسولَ اللهِ ، ورحمة اللهِ وبركاتُه ؛ ثم عاد ميتا كما كان (١٢) .

---

(١) قال في شرح القاري (١ – ٦٤٩) : هذا ليس فيه صريح دلالة على إحيائه بعد إماتة ، لاحتمال إغمائه ، لكن زال الغم بدعاء الأم.

(٢) الراوي له هو البيهقي .

(٣) كانت وقعة اليمامة سنة ١٢ في خلافة الصديق أبي بكر .

(٤) البار لقومه عامة . وفي ا : وعثمان . . . .

(٥) وهذا مما رواه الطبراني ، وأبو نعيم ، وابن منده ؛ ورواه ابن أبي الدنيا عن أنس أيضا.

(٦) خر ميتا : سقط ميتا .

(٧) أزقة : جمع زقاق ؛ وهو الطريق .

(٨) سجى : غطى .

(٩) العشاءين : المغرب والعشاء .

(١٠) حسر عن وجهه : كشف غطاءه .

(١١) هذا الضبط في ا .

(١٢) ذكر صاحب الاستيعاب (٥٤٧) أن زيد بن خارجة بن زيد هو الذي تكلم بعد الموت ، لا يختلفون في ذلك . وقال في أسد الغابة (٢ – ٢٣٧) : وهو الذي تكلم بعد الموت في أكثر الروايات . وهو الصحيح .

فصل

فى إبراء المَرْضى وذَوِى العاهات (١)

أخبرنا أبو الحسَن علىّ بن مُشَرَّف فيما أجازَنيه وقرأتُه على غيره ؛ قال : حدثنا أبو إسحاق الحبّال ، [قال](٢) : حدثنا أبو محمد بن النحاس ، حدثنا ابن الوَرْد ، عن البَرْقىّ ، عن ابن هشام ، عن زيادٍ البَـكّائى ، عن محمد بن إسحاق ، حدثنا ابنُ شهاب ، وعاصمُ بن عُمر بن قتَادة وجماعةٌ ذكرهم بقضية أحُدٍ (٣) بطولها ؛ قال: وقالوا (٤) : قال سعد بن أبى وقاص : إنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَيُناوِلنى السَّهْمَ لا نَصْلَ (٥) له ، فيقول : ارْمِ به ؛ وقد رَمَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومئذٍ عن قَوْسه حتى اندقّت (٦) ، وأُصيب يومئذ عَيْنُ قَتَادةَ ـ يعنى ابن النعمان ـ حتى وقعَتْ على وجْنَتهِ (٧) ، فردّها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فـكانت أحسنَ عَيْنيه .

ورَوَى قصّةَ قَتادةَ عاصِمُ بنُ عُمَر بن قتادةَ ، ويزيد بن عيـاض بن (٨) عُمر ابن قتَادة .

ورَوَاها أبو سَعِيد الخُدْرىّ (٩) عن قتادة .

---

(١) إبراء المرضى : زوال مرضهم ، وحصول الشفاء لهم . والعاهات : جمع عاهة ، وهى الآفة . (٢) من ا (٣) يريد غزوة أحد .

(٤) فى ب : قالوا . وهذا الخبر فى سيرة ابن هشام : ٣ ـ ٣٠

(٥) النصل : حديدة فى طرف السهم والرمح .

(٦) عن قوسه : بقوسه . اندقت : انـكسرت .

(٧) الوجنة : أعلى الخد ، وما يلى العين من الوجه ، ويطلق على الخد كله .

(٨) هذا فى ا ، ب . وقال القارى (١ ـ ٦٥٢) : لم يعرف فى رواة الحديث ، بل ولا فى حملة العلم أحد يقال له يزيد بن عياض بن عمر بن قتادة . وقال الحلبي : الصواب يزيد ابن عياض ، عن ابن عمر بن قتادة .

(٩) روى ذلك البيهقى ؛ وهى في الاستيعاب : ١٢٧٦ ، والإصابة : ٥ ـ ٤١٧

وبَصَق[١] على أثَرِ سَهْمٍ في وَجْهِ أبي قَتَادة في يوم ذي قَرَد[٢] ؛ قال : فما ضَرب عليّ ولا قاح[٣] .

وروَى النّسائى[٤] ، عن عثمان بن حُنَيف ـ أنّ أعْمَى قال : يا رسُولَ الله ؛ ادْعُ اللهَ أن يكشفَ لى عن بَصَرى .

قال : فانطلِقْ فتوضّأْ : ثم صَلِّ ركعتين ؛ ثم قل : اللهم إنّى أسألكَ وأتوجّهُ إليك بنَبِيِّ محمدٍ نبيّ الرحمةِ ؛ يا محمدُ ؛ إنى أتوَجّهُ بكَ إلى ربّك أنْ يكشفَ عن بَصَرى ، اللهمّ شفِّعْهُ فىّ[٥] .

قال : فرجَعَ وقد كشَفَ اللهُ عن بصره .

ورُوِى[٦] أنّ ابنَ مُلَاعب الأسنّة أصابه استِسْقَاء[٧] ، فبعثَ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم[٨] ، فأخذ بيده حَثْوَةً[٩] من الأرض ، فتفَل عليها ؛ ثم أعطاها رسولَهُ ،

---

(١) على أثر سهم : أى جعل ريقه على جراحة فى وجه أبى قتادة .

(٢) ذى قرد : اسم ماء بينه وبين المدينة مسافة يوم وليلتين من جهة خيبر .

(٣) ما ضرب على : ما آلمنى ، ولا أوجعنى . ولا قاح : ماسال منه قيح ومدة . والقيح : الصديد ، وهو شىء كالماء أصفر يخالطه قليل دم .
قال فى نسيم الرياض (٣ ـ ١١٣) : وهو حديث حسن صحيح ، رواه الترمذى والبيهقى .

(٤) والترمذى ، والحاكم ، والبيهقى ، وصححوه .

(٥) اللهم شفعه فى : أى اقبل شفاعته فى .

(٦) الراوى هو الواقدى ، وأبو نعيم عن عروة . وملاعب الأسنة : هو عامر بن مالك . والخبر فى الواقدى : ١ ـ ٣٥٠

(٧) فى نسيم الرياض (٣ ـ ١١٥) : هو اسم مرض ، وهو أن يقع الماء الأصفر فى بطنه .

(٨) أى أرسل إليه من يلتمس له الدعاء ليشفيه الله ببركته .

(٩) حثوة : ملء يده أو يديه من التراب . وقد ضبطت بالضم فى ا ، وفى ب ضبطت بالضمة والفتحة ، وعليها « معا » . وفى الواقدى : حبوبة .

فأخذها متعجِّبا ؛ يَرَى أنْ قد هُزِئَ به ؛ فأتاه بها ، وهو على شفاً [١] ، فشربهَا ، فشفَاهُ اللهُ .

وذكر العُقَيْلي [٢] ، عن حَبيب بن فُدَيك ؛ ويقال فُرَيْك [٣] - أنَّ أباه ابيضَّتْ عيناه ؛ فكان لا يُبْصِر بهما شيئا ، فنفث [٤] رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في عَيْنَيْه ، فأبصر ، فرأيتُه يُدْخِلُ الخيْطَ في الإبْرَة ؛ وهو ابنُ ثمانين .

ورُمِيَ كُلثُوم بن الحُصَيْنَ يومَ أُحُدٍ في نَحْرِه [٥] ؛ فبصق رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فيه ، فبرأ [٦] .

وتَفَل [٧] على شَجَّةِ [٨] عَبْدِ الله بن أُنيس فلم تُمِدَّ [٩] .

وتَفَل في عينَيْ علي [١٠] يوم خَيْبَر ، وكان رَمِداً ، فأصبح بارئا .

ونفث على [١١] ضَرْبَةٍ بساقِ سلَمَةَ بن الأكْوَع يوم خَيْبَر فبرئت ؛ وفي رِجْل زَيْد بن مُعَاذ حين أصابها السيف إلى الكَعْب، حين قتل ابْنَ الأشرف، فبرئت. وعلى ساقِ علي [١٢] بن الحكَم يوم الخندق إذ انكسرت ، فبرِئَ مكانه ، وما نزل عن فرسه .

---

(١) وهو على شفا : أي قريب من الموت .

(٢) أخرج هذا الحديث البيهقي ، والطبراني ، وابن أبي شيبة ، في مسنده .

(٣) في ب : فويك .

(٤) نفث : تفل ريقه . وفي هامش ا : النفث بالفم : شبيه بالنفخ ، وأما التفل فلا يكون إلا ومعه شيء من الريق .

(٥) في نحره : في مقدم عنقه .

(٦) في شرح القاري (١ - ٦٥٤) : قال الدلجي : لا أدري من رواه .

(٧) رواه الطبراني .

(٨) الشجة : جراحة ضربة في الوجه أو الرأس .

(٩) لم تمد : أي لم يكن فيها مدة وقيح .

(١٠) في حديث رواه الشيخان: صحيح مسلم: ١٤٤١ ،وصحيح البخاري :٥ - ١٧١

(١١) في صحيح البخاري : ٥ - ١٧٠ ، ومسند الطيالسي : ٢ - ١٢٤

(١٢) هذا الحديث أخرجه البغوي في معجمه، كما قال السيوطي (نسيم الرياض:٣-١١٨).

واشتكى عليّ[1] بن أبي طالب، فجعل يَدْعو؛ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اشْفِه، أو عافِه؛ ثم ضرب بِرِجْله، فما اشتكى ذلك الوَجَع بعْدُ.

وقطع أبو جَهْل يوم بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذ بن عَفْراء [١١٦]، فجاء يحملُ يدَه، فبَصق عليها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وألْصقها فَلَصِقَتْ. رواه ابنُ وَهْب.

ومن روايته[2] أيضا أنّ خُبَيْب بن يَساف أُصيبَ يوم بَدْر مع رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم بضَرْبةٍ على عاتقِهِ[3] حتى مال شِقُّه؛ فردّه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ونَفَثَ عليه حتى صَحّ.

وأتَتْه[4] امرأةٌ مِنْ خَثْعم، معها صبيٌّ به بَلَاءٌ لا يتكلّم؛ فأُتي بماء فمَضْمَض فاهُ، وغسل يدَيْه، ثم أعطاها[5] إيّاه، وأمَرَها بسَقْيِه ومَسّه به، فبَرأ الغلام، وعَقَل عَقْلًا يفضلُ عقولَ الناس.

وعن[6] ابن عبّاس: جاءت امرأةٌ بابْنٍ لها به جُنُونٌ؛ فمسح صَدْرَه، فثَعّ[7] ثَعّةً فخرج من جَوْفِه مِثْلُ الجَرْوِ[8] الأسودِ؛ فشفِي[9].

وانكفأت[10] القِدْرُ على ذِراعِ محمد بن حاطب وهو طفلٌ، فمسح عليه ودعا له، وتَفَل فيه فبَرأ لحينه[11].

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل.

(٢) أي رواية ابن وهب التي رواها ابن إسحاق، والبيهقي عنه، كما نقله السيوطي.

(٣) عاتقة: كتفه. (٤) رواه ابن أبي شيبة.

(٥) أي أعطى المرأة ذلك الماء الذي رده في إنائه بعد المضمضة وغسل اليدين منه.

(٦) وهذا الحديث رواه أحمد في مسنده بسند متصل بابن عباس (المسند: ١ – ٢٥٤). وكذلك رواه البيهقي، وابن أبي شيبة. (٧) ثع ثعة: أي قاء مرة واحدة. وقيل ثع: سعل. قال في نسيم الرياض (٣ – ١٢١): وروى هذا الحديث من طرق متعددة.

(٨) الجرو: ولد الكلب والسبع. (٩) في ا: فسعى.

(١٠) في حديث رواه البيهقي، والنسائي، والطيالسي، مسندا مصححا فيه.

(١١) لحينه: من غير بطء.

وكانت فى كفّ شُرَحْبِيل الُجعْفىّ سلعَةٌ[1] تمنعُه القَبْض على السيفِ وعِنانِ الدابّةِ[2] ؛ فشكاها للنبيِّ صلّى اللهُ وسلم ، فما زال يَطْحَنها بكفّه حتى رفعها[3] ، ولم يبْقَ لها أثرٌ .

وسألتْهُ[4] جاريةٌ طعاماً ، وهو يأكلُ ، فناولها مِنْ بين يديه[5] ، وكانت قليلةَ الحياء ؛ فقالت : إنما أُريدُ من الذى فى فِيكَ ؛ فناوَلها مافى فِيهِ ؛ ولم يكن يُسْأَل شيئا فيَمْنَعَه .

فلما استقرَّ فى جَوْفِها أُلْقِيَ عليها من الحياء ما لم تكن امرأةٌ بالمدينةِ أشدَّ حياءً منها .

فصل

فى إجابة دعائه صلى اللهُ عليه وسلم

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا ؛ وإجابةُ دعوةِ[6] النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم لجماعةٍ بما دعا لهم وعليهم متواتِرٌ على الجملةِ ، معلومٌ ضرورةً .

وقد جاء فى حديث حُذَيفة[7] رضِيَ اللهُ عنه : كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا دعا لرجلٍ أدْرَكت[8] الدعوةُ ولدَه وولدَ ولدِه .

---

(١) سلعة : زيادة بين الجلد واللحم كالغدة . وتفتح سينه ؛ وتحرك لامه . وفى هامش ا : السلمة : الشجة ــ بفتح السين واللام .

(٢) عنان الدابة : ما تقاد به .

(٣) يطحنها : يدير كفه عليها بقوة كما تدور الرحا . حتى رفعها : حتى أزالها من كفه.

(٤) فى حديث رواه الطبرانى .

(٥) من بين يديه : أى من طعامه الذى كان بين يديه .

(٦) أى دعائه للناس وعليهم .

(٧) رواه أحمد بن حنبل .

(٨) أدركت : وصلت وأثرت .

حدثنا [١] أبو محمد العتّابى بقراءتى عليه ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن القابسى ، حدثنا أبو زَيْد المَرْوَزىّ ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن [٢] إسماعيل ، حدثنا عَبْدُ الله بن أبى الأسود ، حدثنا حَرَمِىّ ، حدثنا شُعْبة ، عن قتادةَ ، عن أنَس رضِىَ اللهُ عَنْه ؛ قال : قالت أُمِّى : يا رسولَ الله ، خادِمُك أنَس ؛ ادْعُ اللهَ له . قال : اللهمّ أكْثِر مالَه ووَلَده ، وبارِكْ له فيما آتَيْتَه [٣] .

ومِنْ رواية [٤] عِكرِمة : قال أنَس : فواللهِ ، إنَّ مالى لكثير ؛ وإنّ وَلَدِى وولدَ ولدى ليعادُّون [٥] اليومَ على نحو المائة .

وفى رواية [٦] : وما أعلمُ أحداً أصاب مِنْ رَخَاء العيش ما أصبْتُ ، ولقد دفنْتُ بِيدَىَّ هاتين مائةً من ولدى ، لا أقولُ سِقْطاً [٧] ولا وَلدَ ولدٍ .

ومنه دعاؤه [٨] لعبد الرحمن بن عَوْف بالبركة ؛ قال عبد الرحمن : فلو رفعتُ حجراً لرجَوْتُ أنْ أُصِيبَ تحته ذهبا ، وفتح اللهُ عليه ، ومات فحُفِرَ الذهبُ من تركته بالفئوس [٩] حتى مَجَلَت [١٠] فيه الأَيْدِى ، وأخذت كلُّ زوجةٍ ثمانين ألفا وكُنَّ أرْبعا .

---

(١) من حديث فى الصحيحين عن أنس . صحيح مسلم : ١٩٢٨

(٢) هو البخارى .

(٣) فيما آتيته : فيما أعطيته من المال والولد . والحديث فى الترمذى أيضا : ٥ — ٦٨٢

(٤) أخرجه مسلم (صحيح مسلم : ١٩٢٩) .

(٥) يعادون : يزيدون .

(٦) فى نسيم الرياض (٣ — ١٢٤) : قالوا : هذه الرواية لا يعرف من رواها .

(٧) سقطا : ماسقط من بطن أمه قبل مدة تمام حمله ، وأوان ولادته .

(٨) رواه البيهقى .

(٩) كان عنده من الذهب قطع كثيرة لما أريد قسمتها كسرت .

(١٠) مجلت : المجل : تغير يكون فى اليد من كثرة العمل . فيه : فى الحفر ؛ أى حتى خرج فى أيديهم نفاطات وجراحات من كثرة عملهم . وقد ضبطت الجيم بالفتحة والكسرة فى ا .

وقيل مائة ألف . وقيل : بل صُولحت إحداهنّ ؛ لأنه طلّقها فى مَرَضِه على نَيِّفٍ[١] وثمانين ألفا، وأوْصَى بخمسين ألفا بعد صدقاته الفاشية[٢] فى حياته، وعَوارِفِهِ[٣] العظيمة: أعتق يوما ثلاثين عَبْدًا ، وتصدّق مرةً بعير فيها سبعُمائة بَعِير[٤] ، وردَتْ عليه تَحْمِلُ من كل شىء [١١٧] ، فتصدّقَ بها وبما عليها ، وبأَقْتابِها وأَحْلَاسِها[٥] .

ودعا لمعاوية بالتمكين فى البلاد ، فنال الخلافةَ . ولسعد بن أبى وقّاص رضى الله عنه أنْ يجيبَ اللهُ دعوتَه ، فما دَعَا عَلَى أحدٍ إلّا استُجيبَ له .

ودعا[٦] بعِزِّ الإسلامِ بعُمر رضى الله عنه ، أو بأَبِى جَهْــل ، فاستُجِيب له فى عُمر .

قال ابنُ مسعود رضِيَ الله عنه : مازلنا أعزّةً منذ أسلم عُمر .

وأصاب الناسَ[٧] فى بعض مَغَازِيه عَطَشٌ ، فسأله عُمَرُ الدعاء ؛ فدعا ؛ فجاءت سحَابةٌ ، فسقتهم حاجتَهم ، ثم أَقْلَعَتْ[٨] .

ودعا[٩] فى الاستسقاء ، فسُقُوا ، ثم شَكَوْا إليه المطَرَ ؛ فدعا ، فصَحَوْا[١٠] .

---

(١) النيف : مازاد على العقد إلى أن يبلغ مافوقه من العقود .

(٢) الفاشية : الظاهرة المشهورة .

(٣) عوارفه : جمع عارفة ؛ وهى ما يعتاد الإنسان من الإحسان والعطايا .

(٤) العير : الجمال التى تحمل الميرة ، يعنى قافلة .

(٥) الأقتاب : جمع قتب ؛ وهو إكاف صغير يوضع على سنام البعير ليقيه من الأذى . والأحلاس : جمع حلس ؛ وهو كساء يوضع تحت الإكاف على ظهر البعير .

(٦) فى حديث رواه الترمذى عن ابن عمر (سنن الترمذى : ٥ – ٦١٧) .

(٧) رواه البيهقى ، والحاكم ، وصححه عن عمر .

(٨) أقلعت : انجلت وكفت عن المطر بعد قضاء حاجتهم من الماء الذى يزيل عطشهم .

(٩) فى حديث رواه الشيخان عن أنس رضى الله عنه . وأحاديث الاستسقاء فى صحيح مسلم : ٦١٢ – ٦١٥ ، وصحيح البخارى : ٢ – ٣٣

(١٠) فصحوا : أى صحت السماء وانكشف غيمها .

[وقال لأَبِي قَتَادة : أفْلَحَ وَجْهُك[١] ، اللهم بارِكْ له فى شَعره وبَشَره[٢] ، فمات وهو ابنُ سبعين سنةً ، وكأنه ابن خمس عشرة[٣] سنة][٤] .

وقال للنابغة[٥] : لا يَفْضُض الله فاك[٦] ؛ فما سقطت له سنّ .

وفى رِوَايةٍ : فكان أحسنَ الناسِ ثَغْرًا[٧] ؛ إذا سقطَتْ له سِنٌّ نَبَتَتْ له أُخرى ، وعاش عشرين ومائة سنة ؛ وقيل : أكثَر من هذا .

ودعا لابْن عبَّاسٍ[٨] : اللهم فقِّهْه[٩] فى الدين ، وعلِّمْه التأويل[١٠] . فسُمِّى بَعْدُ الحَبْرَ وتَرْجُمان القرآن[١١] .

ودَعَا لعبد الله[١٢] بن جعفر بالبَرَكةِ فى صَفْقَةِ يَمِينه[١٣] ، فما اشْتَرَى شيئًا إلّا رَبِح فيه . ودعا[١٤] للمقْدادِ بالبركة ؛ فكانت عنده غَرَائرُ المالِ[١٥] .

---

(١) الفلاح : الظفر وإدراك البغية .

(٢) البشر : ظاهر الجلد والبدن ، وكنى بذلك عن جملته ، وجميع بدنه ؛ فدعا له صلى الله عليه وسلم بأن يبقى معمرا على أحسن تقويم ، كاملا جميع أعضائه .

(٣) رواه البيهقى .

(٤) فى هامش ا : من الأم بخطه ، من غير الرواية . وفى هامش ب : المعلم عليه من الأم بخطه .

(٥) للنابغة الجعدى .

(٦) لايفضض الله فاك : تقول العرب فى الدعاء عليه : فض الله فاه . وفى الدعاء له : لايفضض الله فاه .

(٧) الثغر : ماتقدم من الأسنان ، ويطلق الثغر على الفم أيضا .

(٨) فى حديث صحيح رواه الشيخان: صحيح مسلم :١٩٢٧، صحيح البخارى:٥-٣٤

(٩) فقهه فى الدين : فهمه وعلمه .

(١٠) التأويل : التفسير .

(١١) الحبر — بكسر الحاء وفتحها : العالم المتقن الذى تبقى آثاره بعده .

والترجمان : من يفسر لسانا بلسان ، ويطلق الترجمان على من يبلغ الكلام .

(١٢) فى حديث رواه البيهقى .

(١٣) صفقة يمينه : فى بيعه وشرائه ومعاملته .

(١٤) فى حديث رواه البيهقى فى الدلائل ، وأبو نعيم .

(١٥) غرائر : جمع غرارة .

ودعا بمثله[١] لعُرْوة بن أبى الجَعْد ؛ فقال : فلقد كنتُ أقومُ بالـكُناسةِ[٢] ، فما أَرْجع حتى أربحَ أربعين ألفا .

وقال البخارى فى حديثه : فـكان لو اشترى الترابَ رَبِحَ فيه .

ورُوِى مِثْلُ هذا لفَرْقدة أيضا .

ونَدّت له ناقة[٣] ، فدعا فجاءهُ بها إعصارُ[٤] رِيحٍ ، حتى ردّها عليه .

ودعا[٥] لأُمِّ أبى هريرة فأَسلمت .

ودعا[٦] لعلىّ أن يُـكْفَى الحرَّ والقُرّ[٧] ؛ فـكان يلبسُ فى الشتاء ثيابَ الصيفِ ، وفى الصيف ثيابَ الشتاء ، ولا يصيبه حَرٌّ ولا بَرْد .

ودعا[٨] لفاطمة ابْنَتِه الله أَلّا يُجيعها ؛ قالت : فما جُعْتُ بعد .

وسأله[٩] الطُّفيل بن عَمْرو آيةً لقومه ؛ فقال : اللهمّ نوِّرْ له ؛ فسطَع نورٌ بين عَيْنَيْه ؛ فقال: أَخاف أَنْ يقولوا : مُثْلَةٌ[١٠] ؛ فتحوّل[١١] إلى طَرَفِ سَوْطِه ؛ فـكان يُضىء فى الليلة المظلمة ؛ فسمِّىَ ذا النُّور .

---

(١) فى حديث رواه البخارى ، والدارقطنى ، وأحمد فى مسنده .

(٢) الـكناسة : القمامة ، ثم صارت علما لسوق مشهور بالـكوفة . وقيل : يجوز أن يراد به حقيقته ؛ أى أقوم بمقام حقير يستبعد الـكسب فى مثله ، فما أعود . . .

(٣) ندت : نفرت وشردت حتى غابت عن نظره فلا يراها. له :للنبى صلى الله عليه وسلم.

(٤) الإعصار : ريح شديدة تثير غبارا يرتفع إلى السماء كأنها عمود .
قال فى نسيم الرياض : وهذا الحديث لم يخرجوه .

(٥) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ١٩٣٨ ، وهو حديث طويل .

(٦) فى حديث رواه البيهقى ، وابن ماجه ، بسند صحيح : سنن ابن ماجه : ٤٣

(٧) القر : البرد . (٨) فى حديث رواه البيهقى ، عن عمران بن حصين .

(٩) فى حديث رواه ابن إسحاق بلا سند، والبيهقى عنه،وابن جرير من طريق الـكلبى.

(١٠) المثلة : التنكيل والعقوبة ؛ أى خشى أن يعدوه عارا لتوهم أنه برص ونحوه .

(١١) فتحول ذلك النور .

ودَعَا[١] على مُضَر فأُقْحِطوا[٢] ، حتى استعْطَفَته قريش ، فدعا لهم فسُقُوا[٣] .

ودعا[٤] على كِسرى حين مزّق كتابَه أن يمزِّقَ اللهُ مُلْكَه ؛ فلم تَبْق له باقية، ولا بقِيَتْ لفارسَ رِيَاسةٌ فى أقطار الدنيا .

ودعا[٥] على صبيّ قطع عليه الصلاةَ أن يقطَعَ اللهُ أثره ، فأُقْعِد .

وقال[٦] لرجل رآه يأكل بشِماله : كُلْ بيمينكِ . فقال : لا أستطيعُ . فقال : لا استطَعْتَ . فلم يرفَعْها إلى فِيه[٧] .

وقال[٨] لعُتْبةَ بن أبى لهب: اللهمّ سلِّطْ عليه كَلْبا[٩] من كلابِك؛ فأكله الأسَد.

[وقال لامرأةٍ : أكَلكِ الأسد . فأكلها][١٠] .

وحديثُه المشهور[١١] ، من رواية عَبْـد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فى دعائه

---

(١) فى حديث صحيح رواه الشيخان والنسائى، عن ابن عباس، والبيهقى عن ابن مسعود.

(٢) أقحطوا : أصابهم القحط لاحتباس المطر عنهم حتى كادوا يهلـكون وتهلك دوابهم .

(٣) فسقوا : سقاهم الله تعالى وأمطر أرضهم ، فزال عنهم القحط بدعائه .

(٤) فى حديث رواه الشيخان عن ابن عباس. ونص الـكتاب فى نسيم الرياض (٣-١٣٦). وصحيح البخارى : ٦ — ١٠

(٥) فى حديث رواه أبو داود ، والبيهقى . وقال الذهبى : أظنه موضوعا ؛ لأنه أشكل عليه بأن الصغير غير مكلف فـكيف يدعو عليه صلى الله عليه وسلم مع رأفته به ؟ وقطع عليه صلاته : بمروره بين يديه . فأقعد : صار مقعدا لا يمكنه المشى .

(٦) فى حديث رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع . صحيح مسلم : ١٥٩٩

(٧) لأنها شلت وبطل عمله بها .

(٨) فى حديث رواه الحاكم ، والبيهقى ، وابن إسحاق من طرق صحيحة مسندة .
وكان عتبة هذا عنده ابنة للنبى صلى الله عليه وسلم فطلقها فآذاه فدعا عليه فافترسه الأسد بالزرقاء من أرض الشام .

(٩) الأسد يسمى كلبا ؛ لأنه يشبهه فى بعض أحواله .

(١٠) فى هامش ا : من الأم بخطه ، من غير الرواية .

(١١) الذى رواه مسلم ، والبخارى : صحيح البخارى : ٤ — ٥٣

على قُريش حين وضَعُوا السَّلا[١] على رقَبته وهو ساجدٌ مع الفَرْث[٢] والدم ، وسمّاهم. قال : فلقد رأيتُهم قُتِلُوا يوم بَدْر .

ودعا[٣] على الحكَم بن أبى العاص ، وكان يَختَلج بوجهه ، ويغمزُ[٤] عند النبي صلى اللهُ عليه وسلم ؛ أى لا ؛ فرآه ؛ فقال : كذلك كُنْ[٥] ، فلم يزَلْ يختلِجُ إلى أن مات .

ودعا على مُحَلِّم[٦] بن جَثّامة فمات لسَبْع ، فلفظَتْهُ الأرض[٧] ؛ ثم وُوري فلفظَتْه مرّاتٍ ، فألقَوه بين صُدّين[٨] ، ورضَمُوا[٩] عليه بالحجارة .

والصُّدّ : جانِبُ الوادى [١١٨] .

وجحده[١٠] رجلٌ بَيْع فرس - وهى التى شهِدَ فيها خُزَيمةُ للنبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فردّ الفرسَ بعدُ[١١] النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الرجل ، وقال : اللهم إنْ كان كاذبا فلا تبارِكْ له فيها . فأصبحَتْ شاصِيةً برِجْلِها ؛ أى رافعةً .

وهذا البابُ أكثَرُ مِنْ أن يُحاط به .

---

(١) السلا : جلد رقيق يخرج مع الولد من بطن أمه ملفوفا فيه .
(٢) الفرث : السرجين ما دام فى الكرش .
(٣) فى حديث رواه البيهقى مسندا من طرق صحيحة .
(٤) يختلج بوجهه : يحرك وجهه . ويغمز : يحرك عينيه مشيرا بهما وهو جالس .
(٥) دعا عليه بأن لايزال وجهه يختلج .
(٦) فى حديث رواه البيهقى ، وابن جرير .
(٧) لفظته الأرض : قذفته وطرحته وأخرجته من بطنها لعدم قبولها له .
(٨) صدين : مثنى صد ؛ وهو ناحية الوادى ، أو الشعب ، أو الجبل .
(٩) رضموا : الرضم : وضع الصخور بعضها فوق بعض كالبناء ، أى كوموا عليه .
(١٠) جحده رجل بيع فرس : أنكره : وكان النبى اشتراها منه .
(١١) بعد : بعد جحده .

فصل

في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره

أخبرنا أحمدُ بن محمد، حدثنا أبو ذَرّ الهرَوِي، إجازةً؛ حدثنا القاضي أبو عليّ سماعا، والقاضي أبو عَبْد الله محمد بن عبد الرحمن وغيرُهما؛ قالوا: حدثنا أبو الوليد القاضي، حدثنا أبو ذَرّ، حدثنا أبو إسحاق، وأبو الهَيْثَم؛ قالوا: حدثنا الفِرَبْرِي، حدثنا البخاري، حدثنا يزيد بن زُرَيع [١]، حدثنا سَعِيد، عن قتادة، عن أَنَس ابن مالك رضِي الله عنه ـ أن أهْلَ المدينةِ فَزِعُوا [٢] مرةً، فركبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرَسا لأَبي طَلْحَةَ كان يَقْطِف، أو به قِطَاف [٣]. وقال غيره: يُبطَّأ [٤]؛ فلما رجع قال: وجَدْنا فَرَسَك بَحْراً [٥]؛ فكان بَعْدُ لا يُجَارَى [٦].

ونَخَس [٧] جَمَلَ جابر، وكان قد أعْيَا [٨]، فَنَشِطَ حتى كان ما يُمْلَكُ [٩] زِمَامُه.

---

(١) في نسيم الرياض (٣ ـ ١٤٤): كذا في النسخ هنا؛ وصوابه: حدثنا البخاري، حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا يزيد بن زريع، وهكذا هو في صحيح البخاري؛ فسقط منه راو من قلم المصنف. وفي هامش ا: سقط بين البخاري ويزيد بن زريع رجل؛ وهو عبد الأعلى بن حماد النرسي، قاله يحيي بن علي القرشي، عفا الله عنه.

(٢) فزعوا: وقع بهم فزع. والفزع: أشد الخوف.

(٣) يقطف: يبطيء. أو هو الضيق المشي؛ وهو عيب في الخيل.

(٤) قال في نسيم الرياض (٣ ـ ١٤٥): الظاهر أن المراد به هنا أنه كان يوصف بالبطء وينسب إليه ذلك.

(٥) بحرا: كالبحر في شدة جريه وعدوه بسهولة.

(٦) لا يجارى: لايسبق. وهذا الحديث رواه البخاري: صحيح البخاري: ٤ ـ ٣٧

(٧) رواه الشيخان. والنخس: أن يطعنه في جنبه بعود أو نحوه. والحديث في صحيح مسلم: ١٢٢٣، وصحيح البخاري: ٧ ـ ٢٦

(٨) أعيا: تعب وقلت حركته.

(٩) معناه أنه لايقدر على ضبطه وحبسه لأنه لشدة نشاطه يجذبه من يده وينازعه.

وصنَع [١] مِثْلَ ذلك بفرس جُعَيْل الأشجعى ؛ خفقها بِمَخْفَقَة [٢] معه ، وبَرَّكَ [٣] عليها ، فلم يملك رأسها نشاطاً [٤] ؛ وباع من بطنها باثنى عشر ألفا .

[وركب [٥] حماراً قَطوفا لسعد بن عُبادة فردّه هِمْلاجا [٦] لا يُسايَر] [٧] .

وكانت [٨] شعرات من شعره فى قَلَنسوة خالد بن الوليد ، فلم يشهد بها قتالا إلا رُزِق النصْر .

وفى الصحيح [٩] — عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها — أنها أخرجت جُبّةَ [١٠] طَيالسةٍ ، وقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى يُستشفَى بها [١١] .

وحدثنا القاضى أبو على ، عن شيخه أبى القاسم بن المأمون : قال : وكانت عندنا قَصْعة من قِصاع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فكنّا نجعلُ فيها الماء للمرضى ، فيستشفون بها .

---

(١) وهذا الحديث رواه عنه عبد الله بن أبى الجعد . والخبر فى الاستيعاب : ٢٤٦

(٢) خفقها : ضربها . والمخفقة : الدرة ، أو العصا . وهذا رواه النسائى .

(٣) برك عليها : دعا مرارا بالبركة فيها .

(٤) أى لم يقدر على ضبط رأسها بلجامها لقوة سيرها ومجاذبتها له .

(٥) فى حديث رواه ابن سعد .

(٦) قطوفا : قليل السير متقارب الخطا . والهملاج من البراذين : مايسرع فى مشيه ويكثر نقله على هيئة مخصوصة ، والعامة يسمونه « الرهوان » .

(٧) فى هامش ا : مابين القوسين من الأم من غير الرواية . (٨) رواه البيهقى .

(٩) هذا الحديث رواه مسلم ، والنسائى ، وابن ماجه : صحيح مسلم : ١٦٤١

(١٠) الجبة : ثوب مخيط . طيالسة : جمع طيلسان . والطيالسة : نوع من الأكسية ، قيل: إنها ذات أعلام خضر . وقيل : الطيلسان : كساء أخضر . وقيل : رداء صوف تستعمله العجم.

(١١) بها : بمائها ، بأن يشرب منه ويمسح به الأبدان تيمنا بآثاره صلى الله عليه وسلم ، فيرزقهم الله الشفاء ببركته .

وأخذ جَهْجاهُ الغِفَارى القَضِيبَ [١] من يد عثمانَ رضِيَ اللهُ عنه ليَكْسِرَه على ركبته ؛ فصاح الناسُ به ، فأخَذَتْهُ فيها الآكِلةُ فقطعها [٢] ، ومات قبل [٣] الحَوْل .

وسكب [٤] مِنْ فَضْل وَضُوئه فى بئر قُباء فما نَزَفَتْ [٥] بعد .

وبزق [٦] فى بئر كانت فى دار أنس ، فلم يكن بالمدينة أعذب منها .

ومَرّ على ماء ، فسأل عنه ؛ فقيل له : اسْمُه بَيْسان [٧] ، وماؤه مِلْح ، فقال : بل هو نَعْمان [٨] وماؤه طيّب . فطاب .

وأُتِيَ [٩] بدَلْوٍ من ماء زمزم ، فمج فيه ، فصارت أطيبَ من المِسْك .

وأعطى [١٠] الحسنَ والحُسين لسانَه فمصّاه ، وكانا يبكيان عَطشا ، فسكتا .

وكان لأُم [١١] مالك عُكّةٌ [١٢] تُهْدِى فيها للنبى صلى اللهُ عليه وسلم سَمْناً ؛ فأَمرها النبى صلّى اللهُ عليه وسلم ألّا تَعْصرَها [١٣] ؛ ثم دفعها إليها ، فإذا هى مملوءةٌ سَمْناً ؛ فيأتيها

---

(١) القضيب : عصا قصيرة . وقال القارى (١ — ٦٦٨) : القضيب : عصا النبى التى كان الخلفاء يتداولونها .

(٢) الآكلة : داء يصيب بعض الأعضاء فيتآكل ؛ أى يتفتت ويتقطع . فقطعها ؛ أى ركبته .

(٣) هذا الخبر رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب : ٢٦٩

(٤) رواه البيهقى ، عن أنس بن مالك .

(٥) بئر قباء : قرب المدينة . فما نزفت البئر ؛ أى ما انقطع ماؤها .

(٦) رواه أبو نعيم فى دلائله .

(٧) بيسان : موضع بالحجاز .

(٨) نعمان : من النعمة — بكسر أولها ، أو بفتحه .

(٩) رواه ابن ماجه ، والبيهقى : سنن ابن ماجه ٢١٦

(١٠) رواه الطبرانى .

(١١) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ١٦١٢

(١٢) العكة : وعاء من جلد يوضع فيه السمن غالبا .

(١٣) العصر : الضغط للظرف ليخرج ما فيه مما قل .

بَنُوها يسألونها [١] الأُدْم ، وليس عندهم شيء ، فتَعْمِدُ [٢] إليها ، فتجدُ فيها سَمْناً ؛ فكانت تُقِيم أُدْمَها [٣] حتى عَصَرَتْها .

وكان يَتْفُلُ في [٤] أفواهِ الصبيبان المراضع فيجزئهم رِيقُه إلى الليل [٥] .

ومن ذلك بركةُ يده فيما لمسه وغرسَهُ ، ولسَلْمان رضِيَ اللهُ عنه حين [٦] كاتبَه مَوَاليه على ثلاثمائة [٧] وَدِيَّةٍ يَغرِسُها لهم ، كلُّها تَعْلَقُ وتُطْعِم [٨] . وعلى أربعين أُوقية من ذهب ؛ فقام صلى اللهُ عليه وسلم وغَرسها له بيده إلا واحدة [١١٩] غرسها غَيْرُه ؛ فأَخذت [٩] كلُّها إلا تلك الواحدة ، فقلعها النبيُّ صلى الله عليه وسلم وردَّها ، فأَخذت .

وفي كتاب البزّار : فأَطعم النخلُ مِنْ عامه إلا الواحدة ، فقلعها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم وغرسها فأَطعمت مِنْ عامها .

وأعطاه [١٠] مِثْلَ بَيْضَة الدَّجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه ، فوزَن منها لمواليه أربعين أوقية ، وبقِيَ عنده مِثْلُ ما أعطاهم .

---

(١) الأدم : جمع إدام ، وهو مايؤتدم به مع الخبز ، كالسمن والعسل .

(٢) فتعمد : فتقصد .

(٣) فكانت تقيم أدمها : أي تجعله قائما ، أي باقيا على حاله ، أي تديم ذلك الإدام .

(٤) في حديث رواه البيهقي .

(٥) فيجزئهم : أي يكفيهم عن الرضاعة النهار كله .

(٦) رواه البيهقي . (٧) الودية : صغار النخل .

(٨) تعلق : تنبت بعد غرسها ، ويتم غراسها . وتطعم : يوجد فيها ما يؤكل ؛ يعني تعطي الثمرة ، أو تدرك .

(٩) فأخذت كلها : أي طلعت وأدركت .

(١٠) وأعطاه : وأعطى سلمان .

وفى حديث حنَش بن عَقِيل [١] : سقانى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم شَرْبةً من سَوِيق [٢] شربَ أوّلَها وشربتُ آخِرها ، فما برحت أجِدُ شِبَعَها إذا جُعْتُ ، ورِيها إذا عطِشتُ ، وبَرْدَها إذا ظمِئتُ .

وأعطى [٣] قَتادةَ بن النعمان ، وصلَّى معه العشاءَ فى ليلة مُظْلمةٍ مَطِيرةٍ ـ عُرْجونا ، وقال : انطلق به ؛ فإنه سُيضِئ لك مِنْ بين يديْكَ عَشْرا [٤] ومن خَلْفِك عَشْرا ؛ فإذا دخَلْتَ بيتَك فسترى سواداً [٥] فاضْرِب به حتى يخرجَ ، فإنه الشيطانُ .

فانطلق فأضاء له العُرجونُ حتى دخل بيْتَه ، ووجد السَّوَاد فضرب به حتى خرج .

ومنها [٦] دَفْعُه لعُـكَّاشةَ جِذْل حطَبٍ [٧] ، وقال : اضْرِبْ به حين انـكسر سيفُهُ يوم بَدْر ، فعاد فى يده سيفاً صارِماً [٨] ، طويلَ القامة ، أبيضَ ، شديدَ المَتْنِ ، فقاتل به ، ثم لم يزَلْ عنده يشهَدُ به [٩] المواقِفَ إلى أن استُشهد فى قِتَالِ أهل الردّة [١٠] .

وكان هذا السيف يسمى « العَوْن » .

---

(١) هذا الحديث رواه قاسم بن ثابت فى الدلائل . وضبطت العين فى عقيل بالفتحة فى ا ، وبالضمة فى ب . وقال فى شرح القارى (١ ـ ٦٧١) : ولم أر له أثرا فى كتاب الصحابة لابن عبد البر ولا خبرا ، فعلى من رآه أن يرسمه هنا .

(٢) السويق : قمح يقلى ويطحن ثم يجمل فى ماء ونحوه من المائعات ويشرب ؛ فهو طعام وشراب .

(٣) فى حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده (المسند : ٣ ـ ٦٥) .

(٤) أى مقدار عشرة أذرع فى طريقك حتى تبصرها .

(٥) سوادا : المراد جسم أسود . (٦) من كراماته .

(٧) الجذل : عود غليظ ، أو أصل من أصول الشجر . والحطب : مايبس من أغصان الشجر .

(٨) صارما : قاطما . (٩) المواقف : قتال الـكفرة .

(١٠) رواه البيهقى . وهو فى الاستيعاب : ١٠٨٠

ودَفعُه[1] لعبد الله بن جَحْش يوم أُحُد ، وقد ذهب سيفُه ـ عَسِيبَ[2] نخْلٍ ؛ فرجع فى يده سيفا .

ومنه بركَتُه فى دُرُورِ الشِّيَاهِ الحوائل[3] باللبن الكثير ؛ كقصّةِ شاةِ أمّ معبد ، وأعْنُز معاوية[4] بن ثَوْر ، وشاةِ أنس[5] ، وغَنَم حليمة[6] مرضعتِه وشارِفِها[7] ، وشاةِ[8] عبد الله بن مسعود ؛ وكانت لم يَنْزُ عليها فَحْل[9] ؛ وشاةِ المِقْداد[10] .

ومن ذلك تَزْويدُه أصحابَه سقاءَ ماء بعد أَنْ أَوكاه[11] ، ودعا فيه ، فلما حضرتْهم الصلاةُ نزلوا فحلُّوه ، فإذا به لبَنٌ طيب وزُبدة فى فمه[12] ـ من رواية حمّاد بن سلمة .

ومسح على رَأْسِ عُمير بن سَعْد ، وبرّك ، فمات وهو ابنُ ثمانين ، فما شاب .

ورُوِى مِثْلُ هذه القِصص عن غير واحدٍ ؛ منهم السائبُ بن يزيد ، ومَدْلوك .

وكان[13] يوجَدُ لعُتبَة بن فَرْقَد طِيبٌ يغلبُ طِيبَ نسائه ؛ لأَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مسح بيده على بَطْنِه وظَهْرِه .

---

(١) أى من كراماته دفعه . . . والخبر فى الاستيعاب : ٨٧٩

(٢) عسيب نخل : قيل : هى جريدة النخل لاخوص عليها . وقيل : العسيب من السعف ما فوق الكرب لم ينبت عليه خوص .

(٣) درور الشياه الحوائل : درت الشاة : سال لبنها من ضرعها بكثرة . والدر : اللبن . والحوائل : جمع حائل ؛ وهى التى لم تحمل مطلقا .

(٤) وقصته رواها ابن سعد .

(٥) لم يذكرها السيوطى فى تخريجه لعدم الوقوف عليها .

(٦) رواها أبو يعلى ، والطبرانى ، وغيرهما بسند حسن .

(٧) الشارف : الناقة المسنة .

(٨) روى قصتها البيهقى ، وابن مسعود .

(٩) نزا الذكر على الأنثى إذا علاها . يريد لم تلقح ، ولم تلد .

(١٠) قصتها رواها مسلم ، والبيهقى .

(١١) أوكاه : شده بالوكاء ، وهو مايربط به القربة ونحوها . وقد رواه ابن سعد ، عن سالم بن أبى الجعد .

(١٢) فى فمه : فى فم ذلك السقاء .

(١٣) رواه الطبرانى ، والبيهقى . ورواه ابن عبد البر فى الاستيعاب : ١٠٢٩

وسلَتَ[١] الدَّمَ عن وَجْهِ عائذ بن عَمْرو ، وكان خرج يوم حُنَين ، ودعا له ، فكانت له غُرّةٌ[٢] كغُرّةِ الفرس .

ومَسح على رأس قَيْس بن زَيْد الُجذامى ، ودعا له ، فهلك وهو ابنُ مائة سنة ، ورأسُه أبيض ، وموضِعُ كفٍّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ومامَرّت يَدُه عليه من شعره أسودُ ؛ فكان يُدْعى الأغرّ[٣] .

ورُوِى[٤] مِثْلُ هذه الحكاية لعَمْرِو بن ثعلبة الُجهَنى .

ومسحَ وَجْه آخر ، فما زال على وجْهه نُور .

ومسحَ وَجْهَ قَتَادَةَ بن مِلْحان ، فكان لوجْهه بَرِيق حتى كان يُنظَرُ فى وجهه كما يُنظَرُ فى المرآة .

ووضع يدَه على رأس حنظلة بن حِذْيم[٥] ، وبرَّكَ عليه ؛ فكان حنظلة يُؤْتَى بالرجُل قد وَرِمَ وَجْهُه ، والشاةِ قد وَرِمَ ضَرْعُها ، فيوضَعُ[٦] [١٢٠] على موضع كفِّ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم فيذهبُ الوَرَم .

ونضح[٧] فى وَجْه زينب بنت أُمِّ سَلَمَة نَضْحة[٨] مِنْ ماء ، فما يُعرَف كان فى وَجْه امرأةٍ من الجمال مابها .

---

(١) سلت الدم : أى مسح النبى صلى الله عليه وسلم وجهه بيده متكئا عليه حتى أخرج ما عليه من الدم .
(٢) الغرة : بياض منتشر طولا وعرضا فى وجهه .
(٣) يدعى الأغر لما فى وجهه من البياض .
(٤) الذى رواه البيهقى . ورواه ابن عبد البر فى الاستيعاب : ١١٦٨
(٥) فى حديث رواه البيهقى .
(٦) فيوضع : أى محل الورم من الوجه والضرع . وفى ب : فيضع .
(٧) رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب : ١٨٥٥
(٨) نضح : رش بالماء ونحوه .

ومسح على رَأْس صبيّ به عاهة[١] ، فَبَرأ ، واستوى شعره[٢] ، وعلى غيرواحدٍ من الصِّبْيَان والمرضى والمجانين ، فبرءوا .

وأتاه[٣] رجل به أُدْرَةٌ[٤] ، فأمره أن ينْضَحَها[٥] بماء من عَيْنٍ مَجَّ فيها ، ففعل ؛ فَبَرأ .

وعن طاوس[٦] : لم يُؤتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم بأحدٍ به مَسٌّ ، فصكّ[٧] في صَدْرِه إلا ذهب .

والمَسُّ : الجنونُ .

ومَجَّ في دَلْوٍ من بئر ، ثم صبّ فيها[٨] ، ففاح منها ريحُ المِسْكِ .

وأخذ[٩] قَبْضَةً من تُرابٍ يوم حُنَين ، ورَمى بها في وجوه الكفّار ، وقال : شاهَتِ[١٠] الوجوهُ ، فانصرفُوا يمسحون القَذى[١١] عن أعْيُنِهم .

---

(١) عاهة : آفة ومرض ، والمراد أنه كان أقرع .

(٢) استوى شعره : نبت وتم وحسن .

قال في نسيم الرياض (٣ — ١٦٤) : وهذا الحديث لم يخرجه السيوطي ولا غيره .

وفي شرح القاري (١ — ٦٧٥) : هذا الحديث لايعرف من رواه بهذا اللفظ .

(٣) في حديث لم يخرجوه . وفي شرح القاري (١ — ٦٧٥) : قال الدلجي : لا أعلم من رواه .

(٤) الأدرة : انتفاخ في الخصيتين . (٥) ينضحها : يرشها .

(٦) روى عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وغيرهما .

(٧) صك في صدره : ضرب صدره بيده المباركة .

(٨) مج : صب من فيه . ثم صب فيها : أي في البئر الذي مج فيه ريقه . وقال القاري : رواه أحمد عن وائل بن حجر . (مسند أحمد : ٤ — ٣١٥) .

(٩) في حديث مشهور رواه مسلم : صحيح مسلم : ١٤٠٢

(١٠) شاهت الوجوه : جملة دعائية معناها قبحت وقبحها الله .

(١١) القذى : مايقع في العين من التراب .

[وشكا إليه أبو هريرة رضى اللهُ عنه النِّسيانَ ، فأمره ببَسْطِ(١) ثَوْبه ، وغَرف بيده فيه(٢) ؛ ثم أَمره بضَمّه ، ففعل ؛ فما نَسِيَ شيئا بعد .

وما يُرْوَى عنه فى هذا كثير .

وضرب صَدْرَ(٣) جَرِير بن عَبْدالله ، ودَعَا له ؛ وكان ذُكِرَ له أنه لايثبُتُ على الخيل ، فصار من أفرس(٤) العرب وأثبتهم .

ومسح على رَأْس عبد الرحمن(٥) بن زيد بن الخطاب وهو صغير ، وكان دَميما ، ودعاله بالبركة ، ففَرع الرجالَ(٦) ، طُولا وتمَاماً](٧) .

فصـــل

ومن ذلك(٨) ما أُطْلِعَ عليه من الغيوبِ وما يكون(٩) . والأحاديثُ فى هذا الباب بَحْرٌ لا يُدْرِكَ قَعْرُهُ(١٠) ، ولا يُنْزَفُ(١١) غَمْرُه .

وهذه المعجزَةُ من جملة معجزاتِهِ المعلومة على القَطْعِ الواصلِ إلينا خَبَرُهـا على التواتُر ، لـكثْرةِ رُواتِها ، واتفاق مَعَانيها على الاطلاع على الغيب :

حدثنا الإمامُ أبو بكر محمد بن الوليد الفِهرِى إجازةً ، وقرأتُه على غيره : قال

---

(١) ببسط ثوبه : أى بأن يضمه على الأرض ويفرشه .

(٢) أى فعل فعلا شبيها بمن يغرف من شىء مايضمه فى الآخر . وضمير « فيه » للثوب .

(٣) رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب : ٢٣٨

(٤) أفرس العرب : أقواهم . (٥) رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب : ٨٣٤

(٦) فرع الرجال : زاد عليهم فى الطول .

(٧) فى هامش ا ، ب ـ أمام مابين القوسين : من الأم من غير الرواية .

(٨) ومن ذلك : ومن خصائصه وكراماته .

(٩) وما يكون : وما يحصل فى المستقبل .

(١٠) لايدرك قعره : لا يصل أحد إلى نهايته . وقعره : قراره وأرضه .

(١١) لا ينزف : لايفنى ، ولا ينفد .

أبو بكر : حدثنا أبو على التُّسْتَرى ، حدثنا أبو عُمر الهاشمىّ ، حدثنا اللؤلؤى ، حدثنا أبو داود ، حدثنا عثمان بن أبى شَيْبة ، حدثنا جَرِير ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن حُذَيفة ، قال[١] : قام فينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مَقَاماً[٢] ؛ فما ترك شيئاً يكونُ فى مَقَامه ذلك إلى قيام الساعة إلا[٣] ، حدَّثه ؛ حفِظَه من حفظَه، ونَسِيَه مَنْ نَسِيَه، قد علمه أصحابى هؤلاء، وإنه ليكونُ منه الشىءُ[٤] فأعرِفُه فأذكُرُه كما يذكر الرجلُ وَجْهَ الرجل إذا غاب عنه ؛ ثم إذا رآهُ عرفه .

ثم قال حُذَيفة : ما أدرى ، أنسِىَ أصحابى أم تناسَوْه[٥] . واللهِ ما ترك رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ قائد فِتْنَة إلى أن تَنْقَضِى الدنيا يبلغ مَنْ معه ثلاثمائة فصاعِدًا إلا قد سمّاه لنا باسْمِه ، واسْمِ أبيه ، وقَبيلته[٦] .

وقال أبو ذَرّ[٧] : لقد تركَنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وما يحرِّك طائرٌ جناحَيْهِ فى السماء[٨] ، إلّا ذكَرنا منه عِلْماً[٩] .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم : ٢٢١٧ ، وسنن أبى داود : ٢ ـ ١٣٠

(٢) قام فينا مقاما : المراد أنه خطبهم يوما .

(٣) هذا فى ا ، ب . وفى صحيح مسلم : إلا حدث به . والمثبت فى سنن أبى داود .

(٤) ليكون منه الشىء : أى يوجد شىء مما حدثنا به فى ذلك المقام فى الخارج قد نسيته لطول العهد بحديثه ، فأراه بعينى بعد ما وجد .

(٥) تناسوه : أظهروا نسيانه . وفى سنن أبى داود : أم تناسوا .

(٦) وهذا الحديث روى من طريق آخر ذكره ابن الجوزى وغيره . وفى سنن أبى داود: واسم قبيلته .

(٧) فى حديث رواه أحمد (المسند : ٥ ـ ١٥٣) ، والطبرانى ، وغيرهما، بسند صحيح .

(٨) كناية عن بيان كل شىء .

(٩) أى تذكرنا وفهمنا من طيرانه علما يتعلق به ، فكيف بغيره مما يهمنا فى الأرض ؛ وهذا تمثيل لبيان كل شىء تفصيلا تارة وإجمالا أخرى . وفى المسند : أذكرنا .

وقد خرّج أهلُ الصحيحِ والأئمةُ ما أعلمَ به أصحابَه صلى اللهُ عليه وسلم ممّا وَعدهم به من الظهور على أعدائه، وفَتْحِ مكةَ، وبيتِ المَقْدس، واليمن، والشام، والعراقِ، وظهورِ الأَمْنِ، حتى تظْعَنَ المرأةُ من الحِيرة إلى مكّة[(١)]، لا تخـافُ إلا الله. وأنّ المدينةَ[(٢)] ستُغزَى، وتُفْتَح خَيْبر على يدى علىّ فى غَدِ يومِه[(٣)]، وما يفتحُ اللهُ على أمّته من الدنيا[(٤)]، ويُؤْتَوْن من زَهْرَتها، وقِسْمَتهم كنوزَ كسرى وقيصر، وما يَحْدُث بينهم من الفتُونِ[(٥)] والاختلاف والأهواء، وسلوكِ سبيلِ مَنْ قَبْلَهم، وافتراقِهم [١٢١] على ثلاثٍ وسبعين فرقةً؛ الناجيةُ منها واحدةٌ، وأنها ستكونُ لهم أنماطٌ[(٦)]؛ ويَغْدُو أحدُهم فى حُلّةٍ، ويروحُ فى أُخرى[(٧)]، وتُوضَع بين يديه

(١) تظعن: تسافر وحدها وترحل؛ وذكر المرأة للمبالغة فى الأمن؛ لأنها مع ضعفها وشدة خوفها إذا أمنت علم أمن غيرها بالطريق الأولى.

(٢) قال فى نسيم الرياض: هو إشارة إلى وقعة الحرة؛ فإنها وقعة عظيمة قتل بها المسلمون حتى تركت الصلاة فى الحرم، والحرة: أرض بظاهر المدينة ذات حجارة سود. والحديث فى صحيح مسلم (١٠٠٩). وفى شرح القاري (١ – ٦٧٨): ستغزى من الغزو، أى ستحارب وتقتل. وفى رواية بمهملتين؛ قال الحافظ المزى: الرواية فى الحديث بالعين المهملة والراء، يعنى من العرى، أى تصير عراء. والمعنى: ستخرب، ليس فيها أحد. فقد رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ: يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافى. وهذا لم يقع بعد كما اختاره النووى، وتفسيره: وإنما يقع قرب الساعة. صحيح مسلم: ١٠٠٩

(٣) لما كانت وقعة خيبر وتعسر فتحها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله تعالى على يديه، فدعا عليا... وفتحها الله على يديه: صحيح البخارى: ٥ – ١٧١

(٤) بكثرة المال والعزة.

(٥) الفتون: جمع فتنة؛ تطلق على كل مايقع بين الناس من النزاع والحروب. وفى ب: من الفتن.

(٦) أنماط جمع نمط، وهو البساط. يعنى أن أمته صلى الله عليه وسلم يتوسعون فى الدنيا حتى يتخذوا الفرش النفيسة لبسط الله لهم الرزق بعد ما كانوا فيه من الفقر وضيق المعيشة.

(٧) من حديث رواه الترمذى عن على وحسنه: سنن الترمذى: ٥ – ٥٢٦

صَحْفَةٌ[١] وتُرْفَعُ أخرى ، ويستُرون بيوتَهم كما تُستَرُ الكعبة[٢] .

ثم قال آخرَ الحديث[٣] : وأنتم اليومَ خيرٌ منكم يومئذ ، وأنهم إذا مشَوْا المُطَيْطاء[٤] وخدَمَتْهم بناتُ فارسَ والروم[٥] ردّ اللهُ بأسَهم[٦] بينهم ، وسلَّط شِرَارَهم على خِيارهم .

وقتالهم[٧] الفُرْس، والخَزَر[٨]، والرُّوم، وذَهابِ كسرى وفارس حتى لا كسْرى ولا فارس بعده ، وذهابِ قَيْصَر حتى لا قَيْصر بَعْدَه[٩] .

وذكر أنَّ الرومَ ذاتُ قُرونٍ إلى آخرِ الدّهر[١٠] .

---

(١) الصحفة : إناء الطعام .

(٢) وهذا كما تفعله الأمراء والعظماء الذين اتسعت دنياهم حتى كسوا الحجارة والجدران.

(٣) الحديث الذى رواه الترمذى وغيره .

(٤) ورد فى حديث رواه الترمذى عن ابن عمر ، إلا أن الذهبي قال فى ميزانه: إنه لم يصح . والمطيطاء : مشية فيها مد اليدين ، والمراد به التبختر .

(٥) أى اتخذوا الجوارى والخدم منهم .

(٦) البأس : الخوف الشديد ،والمراد به العداوة ووقوع القتال بينهم ؛لأن الله كان أعطى نبيه صلى الله عليه وسلم النصرة بإيقاع الرعب فى قلوب أعدائه الكفرة ، وبقى من ذلك أثر فيمن اقتدى به من الخلفاء ؛ فلما اشتغلوا بزخرف الدنيا نزع الخوف من قلوب الأعداء وصار بعضهم يعادى بعضا ويقاتله لما بينهم من التحاسد والتباغض وطلب كل منهم ما فى يد الآخر .

(٧) وأخبرهم بقتالهم الفرس . وجاء ذلك فى حديث رواه الشيخان .

(٨) قيل المراد بهم الأكراد . وقيل هم من الترك ،أو من العجم ،أو التتار . وقد ضبطت الزاى فى ا بالفتحة .

(٩) وهذا مما رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٢٢٣٧ ، وسنن الترمذى : ٥ — ٤٩٧

(١٠) قرون : جمع قرن ، وهو الجماعة فى عصر واحد . أى كلما مضى قرن خلفه قرن وقوم يملك ملكهم منهم . وقيل القرن : السيد ؛ أى كلما هلك ملك ملك بعده غيره . وقيل : المراد بهم قرون شعورهم التى كانوا يطولونها ويعرفون بها .

وبذهابِ الأمْثَلِ فالأمثل من الناس[١] ، وتقارُبِ الزمان[٢] ، وقَبْضِ[٣] العِلْم ، وظهورِ الفِتن ، والهَرْج[٤] .

وقال[٥] : ويلٌ للعرب مِنْ شرٍّ قد اقترب .

وأنه زُوِيَتْ[٦] له الأرضُ فأرِىَ مَشَارِقَها ومَغَارِبَها، وسيبلغُ مُلْكُ أُمّتهِ مازُوِىَ له منها .

وكذلك كان[٧]؛ امتدّت[٨] في المشارق والمغارب ممـا بين أرضِ الهند أقصى المَشرق إلى بَحْرِ طَنْجَة حيث لا عِمَارة ورَاءه ؛ وذلك ما لم تملِـكْهُ أُمّةٌ من الأمم ، ولم تمتدّ في الجنوب ولا في الشّمال مِثْلَ ذلك .

---

(١) الأمثل هنا : الأشرف ؛ لأنه أكثر مماثلة ومشابهة لأهل الحق ، والصدر الأول .

(٢) في حديث رواه الترمذى عن أنس: السنن: ٤ ــ ٥٦٧ ؛والمراد قصره وقلته . وقيل: المراد أنهم يوسع عليهم من الدنيا فيستلذون معيشتهم ، ويكونون مسرورين ، ومازال الناس يصفون الأيام الهنية بالقصر. أوالمراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان. وقال البيضاوى : المراد تسارع انقضاء الدول وانقراضها .

قال في نسيم الرياض (٣ ــ ١٧٥) : وهنا وجه قريب من الأول ؛ وهو أنه لـكثرة الظلم والأحزان والاشتغال بأمور الدنيا وكثرة الحرص على تحصيلها يغفلون عن أوقاتهم ولا يشعرون بها .

(٣) قبض العلم : أخذه ونزعه من الناس ، وذلك بموت العلماء حتى لايبقى إلا أناس جهلة إذا استفتوا أفتوا بغير علم . وحديثه في ابن ماجه : ٨٣

(٤) الهرج: القتل .أو اختلاط الناس بعضهم ببعض .وحديثه في مسلم:٢٢١٥،وصحيح البخارى : ٨ ــ ٦١ ، وسنن الترمذى : ٥ ــ ٤٨٩

(٥) في حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٢٢٠٧،وصحيح البخارى:٨ــ٦٠،٧٦

(٦) زويت : جمعت وضم بعضها لبعض حتى يطلع على جميعها : صحيح مسلم : ٢٢١٥

(٧) كان : وقع . وفي ا : فـكذلك .

(٨) امتدت ؛ أى مملـكتهم ، واتسعت .

وقوله[١] : لا يزال أهلُ الغَرْب ظاهرين على الحقّ حتى تقومَ الساعةُ ـ ذهب ابن المديني إلى أنهم العرَبُ ؛ لأنهم المختصّون بالسَّقي بالغَرْب ـ وهى الدّلو . وغَيْرُه يذهبُ إلى أنهم أهلُ المَغْرِب ؛ وقد ورد المغرب كذا فى الحديث بمعناه[٢] .

وفى حديثٍ آخر[٣] ، مِنْ رواية أبى أُمامَةَ : لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتى ظاهرين على الحق ، قاهرِين لِعدُوِّهم ، حتى يأتيَهم أمْرُ اللهِ وهم كذلك .

قيل : يا رسولَ الله ؛ وأين هم ؛ قال : ببيت المقدس .

وأخْبَرَ بمُلْكِ بنى أُمية[٤] ، ووِلاية مُعاوِية؛ ووصّاهُ[٥]؛ واتخاذِ بنى أُمّية مالَ اللهِ[٦] دُوَلا ، وخروج ولدِ العباسِ بالرايات السُّودِ[٧] ، ومُلْكِهم أضعافَ ما ملكوا ، وخروج[٨] المهدىّ ، وما ينالُ أهلَ بيتِهِ وتقْتيلهم وتَشْرِيدهم ؛ وقَتْلِ علىّ ، وأنّ[٩]

---

(١) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم ١٣٧

(٢) قال القارى (١ ـ ٦٨٢) : لكن فيه أنه لايعلم من رواه .

(٣) رواه الطبرانى ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل (المسند : ٥ ـ ٢٦٩) . ورواه أيضا الترمذى فى سننه : ٥ـ٥١٤ (٤) رواه البيهقى .

(٥) ووصاه : وصى معاوية ، إذا تملك ، بالعدل والرفق ، لما قال له : إذا ملكت فانصح .

(٦) فى حديث رواه الترمذى ، والحاكم ، والبيهقى .

دولا : يتداولونه ويأخذونه واحدا بعد واحد . والمراد أنهم استأثروا به ومنعوا حقوقه فأسرفوا وبذروا .

(٧) فى حديث رواه أحمد ، والبيهقى بسند فيه ضعف وانظر أيضا سنن الترمذى : ٥ـ٥٣١

(٨) خروج المهدى فى آخر الزمان ، كما ورد فى حديث رواه أصحاب السنن وغيرهم من طرق كثيرة إلا أنه قيل إن أسانيده لاتخلو من ضعف : سنن أبى داود : ٢ ـ ١٣٥ ، وسنن الترمذى : ٥ ـ ٥٠٦

(٩) أى مما أخبر به صلى الله عليه وسلم أن أشقاها ؛ أى أشقى الخلائق . أو الدنيا . . . و«هذه» الأولى إشارة إلى لحيته . و«من هذه» إشارة إلى رأسه؛ أى يضربه على رأسه ضربة يسيل بها دمه حتى يبل لحيته . والحديث فى مسند أحمد : ١ ـ ٩١

أشْقاها الذى يَخْضِبُ هذه من هذه؛ أى لحيتَه من رَأْسه؛ وأنّه قسيمُ النار[١]، يَدْخُل أولياؤه النار؛ فكان فيمَنْ عاداه الخوارجُ والناصِبَة[٢]؛ وطائفةٌ مِمّن يُنْسَبُ إليه من الروافِضِ كفَّروه[٣].

وقال: يُقْتَل عثمانُ وهو يقرأ فى المصحف؛ وأن الله عسى أنْ يُلْبِسَه قَميصا، وأنهم يُرِيدون خَلْعَه، وأنه سيَقْطُر دمُه على قوله: «فسيكفيكَهُم الله»[٤]؛ وأن الفِتَن لا تَظْهَر ما دامُ عُمَرُ حيّا[٥].

وبِمحاربة الزُّبَيْرِ لعلىّ[٦]؛ وبِنُبَاحِ كلاب الحَوْأَب على بعض أزواجِه[٧]،

(١) وأنه؛ أى على كرم الله وجهه. قسيم النار: معناه: على ومن معه قسيم لأهل النار؛ أى مقابل لهم؛ لأنه من أهل الجنة.

وقال الخفاجى (٣ — ١٨٢): ظاهر كلامه أن هذا مما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنهم قالوا: لم يروه أحد من المحدثين، إلا أن ابن الأثير قال فى النهاية: ألا إن عليا رضى الله عنه قال: أنا قسيم النار — يعنى أراد أن الناس فريقان: فريق معى؛ فهم على هدى، وفريق على؛ فهم على ضلال؛ فنصف معى فى الجنة، ونصف فى النار.

قلت: ابن الأثير ثقة.

(٢) الخوارج: الذين خرجوا على على عند التحكيم. والناصبة: قوم تدينوا ببغض على كرم الله وجهه؛ وهم من الخوارج أيضا.

(٣) الروافض: من الرفض، وهو الترك؛ سموا بذلك لتركهم السنة والجماعة. كفروه: نسبوه إلى الكفر.

(٤) وهذا رواه المحب الطبرى فى كتابه الرياض النضرة، ورواه الحاكم عن ابن عباس؛ وقال الذهبى: إنه موضوع، وتبعه السيوطى.

(٥) روى البيهقى هذا الحديث عن ابن عمر، والشيخان عن حذيفة.

(٦) فى حديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة، من طرق؛ وهو مما أخبر به من المغيبات.

(٧) الحوأب: موضع بين البصرة والكوفة، نزلته عائشة لما توجهت للصلح بين على ومعاوية فلم تقدر، فكانت وقعة الجمل. قال الخفاجى (٣ — ١٨٥): وهو حديث صحيح رواه البزار عن ابن عباس.

وأنه يُقْتَل حولَها[١] قتلى كثيرٌ ؛ وتنجُو بعد ما كادت[٢] ؛ فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البَصْرة . وأنَّ عمّارا تقتلُه الفئةُ الباغيةُ ، فقتله أصحابُ معاوية[٣] .

وقال لعبد الله بن الزُّبير[٤] : ويلٌ للناس منكَ، وويلٌ لكَ من الناسِ [١٢٢].

وقال فى قُزْمان[٥] — وقد أَبْلَى مع المسلمين : إنه من أهلِ النار ؛ فقتل نَفْسَه[٦] .

وقال[٧] — فى جماعة فيهم أبو هريرة ، وسَمُرَة بن جُنْدُب ، وحُذَيفة : آخركم موتا فى النار[٨] ؛ فكان بعضهم يسألُ عن بعض ؛ فكان سَمُرة آخرَهم موتا ؛ هَرِم وخَرِف ، فاصطلى بالنارِ فاحترقَ فيها .

[وقال فى حَنْظلة الغَسِيل[٩] : سلُوا زوجتَه عنه ؛ فإنى رأيتُ الملائكةَ تغسِّلُه ؛ فسألوها فقالت : إنه خرج جُنُباً ، وأعجلَه الحالُ عن الغُسْلِ .

قال أبو سَعِيد رضى الله عنه : ووجَدْنا رَأْسَه يَقْطُر ماءً][١٠] .

---

(١) حولها : حول بعض الأزواج ، وهى عائشة رضى الله عنها .

(٢) بعد ما كادت : بعد ما قاربت عدم النجاة .

(٣) عمار بن ياسر الصحابى المشهور . الباغية : من البغى ، وهو الخروج بغير حق على الإمام . والحديث فى صحيح مسلم : ٢٢٣٦ . فقتله أصحاب معاوية وهو مع على بصفين .

(٤) قال له هذا لما شرب دما من فضل دمه صلى الله عليه وسلم ؛ وكان النبى قد احتجم ، وأعطاه دمه ، وقال له : أرقه فى محل لا يرى ، فلما رجع قال له النبى : لعلك شربته ؟ فقال : نعم ، فقال له ذلك .

(٥) قزمان : مولى لبعض الأنصار ، وكان شجاعا ، لكنه منافق ، وكان قاتل قتالا شديدا أعجب الصحابة .

(٦) قال الخفاجى (٣ — ١٨٦) : هذا الحديث متفق على صحته لرواية الشيخين له عن أبى هريرة . وقد روى ذلك الواقدى فى المغازى: ١ — ٢٦٣ (٧) رواه الطبرانى ، والبيهقى.

(٨) رجح السيوطى أن المراد أنه يحترق فى الدنيا حريقا يموت به، لا أنه يدخل نار جهنم. وقال الشهاب : إن سمرة احترق من ماء حار كان يستدفئ به ، وسيأتى .

(٩) فى حديث رواه ابن إسحاق (سيرة ابن هشام : ٣ — ٢٠) . وسمى الغسيل ، لأن الملائكة غسلته لما استشهد بأحد . وهو حنظلة بن أبى عامر الأنصارى. ورواه الواقدى أيضا فى المغازى : ١—٢٧٤ (١٠) فى هامش ا ، ب : من الأم بخطه من غير الرواية .

وقال[١] : الخلافةُ فى قُريش .

ولن يزالَ هذا الأمْرُ فى قُرَيش ما أقاموا الدِّين[٢] .

وقال[٣] : يكون فى ثَقِيف كذّاب ومُبِير ؛ فرأوهما : الحجاجُ ، والمختارُ[٤] .

وأن مسيلمة[٥] يعقرهُ الله .

وإنّ فاطمة أولُ أهلِه لحوقاً[٦] به .

وأنْذَرَ[٧] بالردّة ، وبأنّ الخلافةَ بَعْده ثلاثون[٨] سنة ، ثم تـكون مُلْـكا ؛ فـكانت كذلك بمدّةِ الحَسَنِ بن علىّ .

وقال[٩] : إنَّ هذا الأمْرَ بدَا[١٠] نبوّةً ورحمةً ، ثم يكون رحمةً وخلافةً ،

---

(١) فى حديث رواه أحمد ، والترمذى . سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٠٣

(٢) فى حديث آخر رواه البخارى : صحيح البخارى : ٤ ـ ٢١٨

(٣) فى حديث رواه مسلم ، والبيهقى : صحيح مسلم : ١٩٧٢ ، وسنن الترمذى: ٥ـ ٤٩٩

(٤) مبير : مهلك ، يكثر القتل بغير حق . والحجاج : هو ابن يوسف ، وهو المبير . وأما الـكذاب فهو المختار بن أبى عبيد الثقفى بن مسعود ؛ وكان يزعم أن جبريل يأتيه ،وكان يظهر مدح ابن الزبير ، ومحمد بن الحنفية ، واستحوذ على الـكوفة ، وأظهر التشيع واجتمع عليه ناس كثيرون ،وطلب الأخذ بثأر الحسن ،فقتل كثيرا من قتلته، وعظم أمره . وكان يتـكهن ويزعم أنه يوحى إليه .

(٥) رواه الشيخان عن ابن عباس . وفى النهاية : أنه قال لمسيلمة الـكذاب؛ ولئن أدبرت ليعقرنك الله ؛ أى ليهلـكنك . والحديث فى صحيح مسلم : ١٧٨٠

(٦) أى أول من يموت بعده صلى الله عليه وسلم .

فماتت بعده بستة أشهر ، وقيل بثمانية ،وقيل مائة يوم .والحديث فى صحيح مسلم:١٩٠٥

(٧) وهو مما رواه الشيخان عن ابن عمر .

(٨) رواه أصحاب الـكتب الستة مسندا .

(٩) فى حديث رواه البزار ، والبيهقى .

(١٠) بدا : ظهر وبرز .

ثم يكون مُلْكاً عَضُوضاً[١]، ثم يكون عُتُوًّا وجَبَروتاً وفسادًا فى الأُمة[٢].

وأخبر بشأنِ[٣] أُوَيْسٍ القَرَنى؛ وبأمَرَاء يؤخّرون الصلاةَ عن وَقتها، وسيكونُ فى أمته ثلاثون كذَّابا فيهم أربعُ نسوةٍ.

وفى حديث آخر[٤]: ثلاثون دجّالا كذّابا، آخِرهم الدجّال الكذاب، كلُّهم يَكْذِبُ على اللهِ ورسوله.

وقال[٥]: يوشِكُ أن يكثُرَ فيكم العَجَم، يأكلون[٦] فيئكم، ويَضْربُون رِقابَكم.

ولا[٧] تقومُ الساعةُ حتى يسوقَ الناسَ بعصاهُ رجلٌ من قَحْطان.

وقال: خَيْرُكم قَرْنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. ثم يأتى بَعْد ذلك قومٌ يشهَدُون ولا يُسْتَشْهدون[٨]، ويخونون ولا يُؤتمنون، ويُنذِرون ولا يُوفُون، [ويظهر فيهم السِّمَنُ][٩].

وقال[١٠]: لا يأتى زمانٌ إلّا والذى بعده شرٌّ منه.

---

(١) عضوضا: سلطنة خالية عن الرحمة والشفقة على الرعية؛ فكأنهم يعضون بالنواجذ فيه عضا، حرصا على الملك، ويعض بعضهم بعضا بسببه.

(٢) عتوا: العتو: الخروج عن طاعة الله تعالى. والجبرية ـ بفتح الجيم والموحدة، وتسكن أيضا؛ من الجبر؛ وهو الإكراه والقهر.

(٣) فى حديث رواه مسلم: صحيح مسلم: ١٩٦٨. وأويس هذا خير التابعين مطلقا بشهادة النبي له. وكان أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره لاشتغاله ببر أمه.

(٤) رواه الشيخان عن أبى هريرة، صحيح البخارى: ٨ـ٧٤، وصحيح مسلم: ٢٢٤٠

(٥) فى حديث رواه البزار، والطبرانى بسند صحيح.

(٦) الفيء: أصله الغنيمة من الكفار بغير قتال، ويطلق على مطلق الغنيمة. والأكل فيه مجاز عن الاستيلاء عليه وأخذه قهرا ومنع المستحقين منه بغير وجه.

(٧) فى حديث رواه الشيخان: صحيح البخارى: ٨ ـ ٧٣، ٤ ـ ٢، وسنن الترمذى: ٥ ـ ٥٠١، وصحيح مسلم: ٢٢٣٢

(٨) أى يؤدون الشهادة قبل أن تطلب منهم.

(٩) ليس فى ا.

(١٠) فى حديث رواه البخارى: صحيح البخارى: ٨ ـ ٦٢

وقال : (١) هلاكُ أُمتي على يَدَى أُغَيْلِمَةٍ (٢) من قُرَيش .

قال أبو هريرة راويه (١) : لو شئتُ سَمَّيْتُهم لكم : بنُو فلان ، وبنو فلان .

وأَخبر (٣) بظهور القَدَرِيّة والرافِضَة (٤) ، وسَبِّ (٥) آخرِ هذه الأمةِ أولَها ، وقلّةِ الأنصارِ حتى يكونوا كالمِلْحِ في الطعام ، فلم يزَلْ أَمْرُهم يتبدَّدُ حتى لم يَبْقَ لهم جماعةٌ .

وأنهم سيلْقَوْن بعده أَثَرَةً (٦) .

وأخبر بشأن الخوارجِ (٧) وصِفَتِهم ، والمُخْدَج الذى فيهم ، وأن سِيماهم التحليق (٨) .

---

(١) فى حديث رواه الشيخان : صحيح البخارى : ٩ — ٦٠

(٢) أغيلمة : تصغير أغلمة ، وهو جمع قلة ، يجوز فيه التصغير على لفظه ، وهو فى حكم المفرد . وفى القاموس : جمع غلام غلمة وأغلمة وغلمان . والغلام : الشاب قد طر شاربه ، وهو المراد . قال الشهاب (٣ — ١٩٦) : والمراد بهلاكهم ضياع أمورهم وهلاك بعضهم .

(٣) فى حديث رواه الترمذى ، وأبو دواد ، والحاكم .

(٤) القدرية : قال الشهاب (٣ — ١٩٦) : سموا قدرية ، لإثباتهم للعبد قدرة ، لا لإنكار قدرة الله على أفعاله . وشبههم بالمجوس ؛ لأنهم أثبتوا خالقين : خالق الخير ، وهو النور . وخالق الشر ، وهو الظلمة .

والرافضة : التاركون لحب جل الصحابة (شرح القارى : ١ — ٦٩٤) .

(٥) فى حديث رواه البغوى .

(٦) أثرة : استبدادا . والحديث فى الصحيحين : صحيح البخارى : ٩ — ٥٩

(٧) الخوارج : الذى خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وحديثهم رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٧٥٠

(٨) مخدج اليد : ناقص اليد . التحليق : أى يحلقون شعور رءوسهم ؛ ولم يكن فى الصدر الأول حلق الرءوس إلا فى النسك . وقيل : المراد جلوسهم حلقا حلقا . قال الخفاجى : وليس بشىء .

ويُرَى رِعاء الغنم رءوسَ الناس[١] ، والعراةُ الحفاةُ يتبارَوْن فى البُنْيان .
وأنْ تلدَ الأَمَةُ رَبّتها[٢] .
وأنّ قريشا والأحزاب لا يَغزُونَه أبداً ؛ وأنه هو يغزوهم[٣] .
وأخبر[٤] بالمُوتان الذى يكونُ بعد فَتْحِ بيت المقدس[٥] .
وما وعَد[٦] من سُكْنَى البَصْرة ، وأنهم يَغزُونَ فى البحر كالملوكِ على الأَسِرّةِ[٧] . . .

(١) رءوس الناس : رؤساؤهم ، والحديث فى الصحيحين بمعناه وبعض ألفاظه . وهو فى صحيح مسلم : ٣٩

(٢) ربتها : سيدتها . وهو من حديث مشهور رواه الشيخان (صحيح مسلم : ٣٩) وغيرهما ؛ وهو من المغيبات ،وأشراط الساعة التىأخبر بها النبى صلى اللهعليه وسلم .وفى مسلم: ربها – بدل ربتها . وفى رواية أخرى له : بعلها .

(٣) رواه الشيخان: (صحيح البخارى : ٥ – ١٤١) وأنه هو الذى يغزوهم بعد إخباره بذلك فى الأحزاب ، وهى غزوة الخندق ، وبعد أحد والخندق لم تغزه قريش ، وهو صلى الله عليه وسلم غزاهم حين فتح مكة . قال الواقدى : إنه صلى الله عليه وسلم قال هذا لسبع بقين من ذى القعدة .

(٤) فى حديث رواه الشيخان أيضا . والموتان – بضم الميم ، بوزن بطلان . وبفتحها وسكون الواو ، وهو مصدر بمعنى الموت الكثير .

(٥) وكان ذلك فى خلافة عمر بعمواس : قرية بين الرملة وبيت المقدس ؛ إذ كان أول طاعون فى الإسلام . وكان ذلك سنة ست عشرة من الهجرة .

(٦) فى حديث رواه أبو داود . والحديث فى شرح الخفاجى أيضا : ٣ – ٢٠١

(٧) الأسرة: جمع سرير؛ وهو مقعد يعد للملوك يجلسون عليه ترفها وتعظما. قال الخفاجى (٣ – ٢٠١) : ومؤخر المراكب المعدة للغزو الذى يقعد عليه رئيسهم يعمل على هيئة سرير الملك بعينه ، كما يعرفه من شاهد ذلك ؛ فهو من الأعلام العجيبة ؛ لأنه لم يكن ذلك بديار العرب ، ولم يره أحد منهم ؛ فتوصيفه صلى الله عليه وسلم له كمن عرفه وجلس عليه مما تحار فيه العقول .

وأن الدِّين [١] لو كان مَنُوطاً بالثريّا لنالَهُ رجالٌ من أبناء فارِس .

وهاجَتْ [٢] ريح فى غَزَاةٍ ، فقال : هاجَتْ لموتِ منافقٍ [٣] ؛ فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك .

وقال [٤] لقوم من جلسائه : ضِرْسُ أحدِكم فى النار أعظمُ من أُحُد [٥] .

قال أبو هريرة [٦] : فذهب القومُ - يعنى ماتُوا ؛ وبقيتُ أنا ورجلٌ ، فقُتِل مرتَدًّا يوم اليمامة .

وأعلَمَ [٧] بالذى غَلّ خَرَزاً من خَرَزِ يَهُودَ ، فَوُجِدتْ فى رَحْله . وبالذى غلّ [٨] الشَّمْلَةَ ، وحيثُ هى [٩] .

وناقتهُ [١٠] حين ضلّتْ ، وكيف تعلقّت [١٢٣] بالشجرة بخِطَامها [١١] .

---

(١) من حديث رواه الشيخان أيضا . منوطا : معلقا ورواه الترمذى فى سنته : ٥-٣٨٤ ، وفيه لتناوله .

(٢) رواه مسلم ، عن جابر بن عبد الله : صحيح مسلم : ٢١٤٥

(٣) أى لرجل من المنافقين ؛ وهو رفاعة بن زيد . وقيل غيره .

(٤) فى حديث رواه الطبرانى بسند صحيح وجلساؤه هم : أبو هريرة الدوسى ، وفرات ابن حيان العجلى ، والرحال بن عنفوة اليمامى . وهو المراد بقوله : أحدكم .

(٥) وهو عبارة عن أن أحدهم يموت كافرا ؛ لحديث : ضرس الكافر فى النار مثل أحد (رواه مسلم : ٢١٨٩)

(٦) وقد كان من جلسائه كما تقدم ، وهو أبو هريرة الدوسى .

(٧) هذا الحديث رواه أبو داود ، والنسائى ، عن زيد بن خالد الجهنى . وغل : من الغلول ؛ أى السرقة خفية . سنن أبى داود : ١ - ٢٦٩

(٨) الشملة : كساء صغير يشتمل به الإنسان . وهذا بعض من حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة : صحيح مسلم : ١٠٨

(٩) وحيث هى : أى وبالمكان الذى هى فيه .

(١٠) رواه البيهقى .

(١١) الخطام : الزمام .

وبشأنِ كتاب حاطب إلى أهل مكة (١) .

وبقضيَّة عُمَيْر مع صَفْوَان حين سارّه وشارَطه (٢) على قَتْل النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم . فلما جاء عُمير للنبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم قاصدا لقَتْلِه ، وأطْلَعَهُ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم على الأمر والسرّ أسلم (٣) .

وأخبر (٤) بالمالِ الذى تركه عمُّه العباسُ رضىَ اللهُ عنه عند أم الفَضْل بعد أن كتمه ؛ فقال : ما عَلِمَه غيرى وغيرُها ، فأسلم .

وأعلم بأنه سيَقْتُل أُبَىّ بن خلف (٥) .

وفى عُتبة بن أبى لهب يَأكله كلب من كلاب الله (٦) .

وعن (٧) مَصارِع أهلِ بَدْر ، فكان كما قال .

وقال (٨) فى الحسَنِ : إن ابنى هذا سيّدٌ ، وسيُصْلِح اللهُ به بين فئتَيْن (٩) .

---

(١) هو حاطب بن أبى بلتعة . وكان حاطب كتب إليهم بمكة يخبرهم بأن النبى توجه إليهم بجيش . . . وأعطى الكتاب امرأة من مزينة ، وجعل لها جعلا على أن توصله قريشا . وخبر كتاب حاطب فى المغازى (١ - ١٩٧) . (٢) شارطه : جعل له جعلا .

(٣) والحديث رواه ابن إسحاق ، والبيهقى ، والطبرانى . والخبر فى مغازى الواقدى : ١٢٦ ، وروى أيضا فى سنن الترمذى : ٥ - ٤١٠

(٤) والحديث رواه أحمد ، عن ابن عباس ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن الزهرى . وأم الفضل : هى زوجة عمه العباس .

(٥) رواه البيهقى . وقد جرحه النبى بأحد فى عنقه ، فمات بسرف .

(٦) فأكله الأسد ، وهو ذاهب إلى الشام . والأسد يسمى كلبا . وفى ب : عتيبة .

(٧) وأصل هذا الحديث فى صحيح مسلم : ٢٢٠٣

(٨) فى حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما . صحيح البخارى : ٩ - ٧١

(٩) الفئة : الجماعة . والمراد بالفئتين : من كان معه ومن كان مع معاوية .

ونَسَعْدٍ [١] : لعلك تُخلَّفُ حتى ينتفِعَ بكَ أقوام ويستضرّ بك آخرون .

وأخبر [٢] بقَتْلِ أهل مُؤْتة [٣] يوم قُتِلُوا وبينهم مسيرةُ شهرٍ أو أزْيد .

وبموت [٤] النجاشيّ يوم مات بأرضه .

وأخبر [٥] فَيْرُوز إذ ورد عليه رَسُولًا من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم ، فلما حقّق فيروزُ القصةَ أسلم .

وأخبر [٦] أبا ذرّ رضِي اللهُ عنه بِتَطْرِيدِه [٧] كما كان ، ووجده في المسجد نائمًا ، فقال له : كيف بكَ إذا أُخرِجْتَ منه ؟ قال : أسكُن المسجدَ [٨] الحرام . قال : فإذا أُخرِجْتَ منه . . . الحديث .

وبعَيْشِهِ وَحْدَه ، ومَوْته وحْدَه .

وأخبر [٩] أنّ أسرعَ أزواجه به لحوقاً أطولُهنّ يداً [١٠] ؛ فكانت زينب لطُول يدها بالصدقة .

---

(١) في حديث رواه الشيخان (صحيح البخارى : ٥ـ ٨٧) وهو سعد بن أبي وقاص. وتخلف : تبقى بعد هذا الزمان . قال الخفاجى (٣ ـ ٢٠٩) : فكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه عاش بعد ذلك نحو خمسين سنة ونفع الله به المسلمين ، لما كان على يديه من الفتوح ، وهدى الله به أناسا أسلموا على يديه ، وغنموا معه ؛ وضر الله به ناسا من الكفار جاهدهم وقتل منهم ، وسبى .

(٢) في حديث صحيح رواه البخارى ، عن أنس . صحيح البخارى : ٥ ـ ١٨٢

(٣) مؤتة : اسم موضع بالشام كانت فيه غزوة مشهورة . وفي هامش ا : مؤتة ـ بالهمز : أرض بالشام . وموتة ـ بغير همز : شبه الجنون . وموتة ـ بفتح الميم : الواحدة من الموت .

(٤) رواه الشيخان ، عن أبي هريرة .

(٥) في حديث رواه البيهقى .

(٦) رواه أحمد في مسنده . والحديث في شرح الخفاجى (٣ ـ ٢١٢)

(٧) لتطريده : نفيه من المدينة .

(٨) يعني مكة .

(٩) فيما رواه مسلم . صحيح مسلم : ١٩٠٧

(١٠) قال الخفاجى (٣ ـ ٢١٣) : وهذا يحتمل أن يكون من الطول : ضد القصر ؛ وأن يكون من الطول ـ بالفتح ؛ وهو الجود والإنعام .

وأخبر[١] بقَتْل الُحسَين بالطَّفِّ[٢] ، وأخرج بيده تُرْبةً ، وقال: فيها مَضْجَعُه .

وقال [٣] فى زيد بن صُوحَان : يسبقُه عضوٌ منه إلى الجنـــة ؛ فقُطعت يَدُه فى الجهاد .

وقال [٤] فى الذين كانُوا معه على حِرَاء [٥] : اثبُتْ ، فإنما عليك نبىٌّ وصِدِّيق وشَهيد ؛ فقُتِل علىٌّ ، وعُمَر ، وعثمانُ ، وطلحةُ ، والزُّبيرُ ؛ وطُعِن سعدٌ .

وقال[٦] لسُرَاقةَ : كيف بكَ إذا أُلبستَ سُوَارَىْ كِسْرى ؟ فلما أُتِىَ بهما عُمَرُ ألبسهما إياه ، وقال : الحمدُ لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سُراقةَ .

وقال [٧] : تُبْنى مدينةٌ بين دِجْلَة ودُجَيْل وقُطْرُبلّ والصَّرَاةِ ، تُجْبَى إليها خزائنُ الأَرْضِ ، يُخْسَف بها - يعنى بغداد [٨] .

وقال[٩] : سيكونُ فى هذه الأمة رَجلٌ يقال له الوليدُ[١٠] ؛ هو شَرٌّ لهذه الأُمة من فرعونَ لقومه .

---

(١) فى حديث رواه البيهقى . (٢) الطف : مكان بناحية الكوفة .

(٣) فى حديث رواه ابن عدى ، والبيهقى مسندا . والخبر فى الاستيعاب : ٥٦٦، وقال: أصيبت يد زيد يوم جلولاء ، ثم قتل يوم الجمل مع على .

(٤) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ١٨٨٠

(٥) حراء : اسم جبل معروف بقرب مكة . قال فى صحيح مسلم : وعليه النبى ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص .

(٦) فى حديث رواه البيهقى . وسراقة : هو سراقة بن مالك . وهو الذى كان قد خرج فى طلب النبي صلى الله عليه وسلم فساخت به فرسه . وقد أسلم بعد ، وتوفى سنة أربع وعشرين .

(٧) فى حديث رواه أبو نعيم فى الدلائل ، والخطيب فى تاريخه .

(٨) قال القارى (١-٧٠٣): لكن قال أحمد بن حنبل: لم يحدث بحديث بغداد ثقة ، ومداره على عمار بن سيف . وقال الذهبى - فى ميزانه (٣ - ١٦٥) : له حديث منكر جدا ، وذكر حديث بغداد هذا. (٩) فى حديث رواه الإمام أحمد، والبيهقى ، عن سعيد بن المسيب .

(١٠) يقال : إنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك الجبار الذى كان مفتاح أبواب الفتن على هذه الأمة ، وكان ماجنا سفيها (شرح الخفاجى : ٣- ٢١٧) .

وقال [١] : لاتقومُ الساعةُ حتى تَقْتَتِلَ فئتان دَعْواهما واحدةٌ [٢] .

وقال [٣] لعُمَرَ فى سُهَيْل بْنِ عَمْرٍو : عسى أنْ يَقُومَ مقاماً يَسُرُّك يا عُمر! فكان كذلك ؛ قام بمكّة مقامَ أبى بكر [٤] يوم بلغَهم مَوْتُ النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، وخطب بنحو خُطْبَتِهِ ، وثبَّتَهم وقوّى بصائرهم .

وقال [٥] لخالد حين وجّهه لأُكَيْدِر : إنك تجدُه يَصِيد البقَر ؛ فوُجِدت هذه الأمورُ كلُّها فى حياته وبعد موته كما قال صلى الله عليه وسلم .

إلى ما أخــبر به جُلساءه من أسرارهم وبوَاطِنهم ، واطّلَع عليه من أسرار المنافقين وكُفْرِهم ، وقولهم فيه وفى المؤمنين ، حتى إنْ كان بعضُهم ليقولُ لصاحبه : اسكُتْ ، فوالله لو لم يكُنْ عنده مَنْ يُخْبِره لأخبرتْه حِجارةُ البَطْحاء [٦] .

وإعلامُه بصفة السِّحر الذى سَحره به لَبِيد [٧] بن الأَعْصَم ، وكونه فى مُشْطٍ ومُشَاقةٍ [٨] ، فى [١٢٤] جُفّ [٩] طَلْعِ نخلة ذَكَرٍ ، وأنه أُلقِىَ فى بئر ذَرْوَان [١٠] ؛ فكان كما قال ، ووُجِد على تلك الصِّفَة .

---

(١) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٢٢١٤

(٢) قال الخفاجى : وقد وقع هذا فى صفين فى وقعة على ومعاوية .

(٣) فى حديث رواه البيهقى ، والحاكم .

(٤) أى مثل مقام أبى بكر في المدينة ، وخطب خطبة مثل خطبته .

(٥) رواه ابن إسحاق ، والبيهقى .

(٦) البطحاء : أرض مستوية يسيل فيها الماء . والمراد بحجارتها ما فيها من الحصباء .

(٧) لبيد بن الأعصم : يهودى من بنى زريق . وقد سبق حديث سحره .

(٨) هذا فى ا ، ب . وفى هامشهما: ومشاطة . والصحيح . والمشاطة : الشعر الذى يسقط من اللحية عند التسريح . والحديث فىصحيح مسلم : ١٧٢٠ ،وفيه أيضا :ومشط ،ومشاطة.

(٩) الجف : وعاء الطلع الذى عليه كالغشاء .

(١٠) بئر بالمدينة . وفى صحيح مسلم : ذى أروان .

وإعلامُه(١) قُرَيشًا بأَكْلِ الأَرَضَةِ(٢) ما فى صحيفتهم التى تظاهَرُوا(٣) بها على بنى هاشم ، وقطعوا بها رَحِمَهُم ، وأنها أبقَتْ فيها كلَّ اسْمٍ لله ؛ فوجدوها كما قال .

ووصْفُه(٤) لكفارِ قريش بيتَ المقدس حين كذَّبوه فى خَبَرِ الإسراء ، ونَعْته إياه نَعْتَ مَنْ عرفَهُ .

وأعلمهم بِعِيرِهم(٥) التى مَرَّ عليها فى طريقه ؛ وأنْذَرهم بوقتِ وصولها ؛ فكان كلُّه كما قال .

إلى ما أخبر به من الحوادث التى تكون ولم يَأْتِ بعدُ(٦) ؛ منها ما ظهرَتْ مُقَدِّماتها(٧) ؛ كقوله(٨) : عُمْرانُ بيت المقدس خَرَابُ يَثْرِب(٩) ؛ وخَرابُ يَثْرِب خروجُ المَلْحمة(١٠) ، وخروجُ الملحمة فتْحُ القسطنطينية(١١) .

---

(١) رواه البيهقى ، عن الزهرى ، فى الدلائل .

(٢) الأرضة: دودة تأكل الورق، ومنها ما تأكل الخشب. (٣) تظاهروا بها : تعاونوا.

(٤) فى حديث الإسراء . وقد تقدم . (٥) بعيرهم : بقافلتهم .

(٦) أى لم يقع عقب إخباره ، بل بعده بأزمان متباعدة ،بعضها ظهرت مقدماتها وبعضها لما تظهر ؛ فإذا جاء الإبان تجىء ؛ فإن خبره صلى الله عليه وسلم لا يتخلف .

(٧) علاماتها المتقدمة عليها .

(٨) فى حديث رواه أبوداود فى سننه: سنن أبى داود: ٢-١٣٦ (٩) يثرب: اسم المدينة.

(١٠) خروج الملحمة : خروج: ظهور. والملحمة : موضع المعركة والقتال ، وتكون بمعنى الحرب . وفى الصحاح : الملحمة : الوقعة العظيمة فى الفتنة ؛ والمراد الفتن العظيمة ، والهرج الذى يكون فى آخر الزمان .

(١١) قال فى نسيم الرياض (٣ - ٢٢٣) : والمذكور فى هذا الحديث كله يكون إذا قرب نزول عيسى عليه السلام ، وكذا ما معه من الأشراط .

وبقية الحديث - كما فى سنن أبى داود : وفتح القسطنطينية خروج الدجال ، ثم ضرب بيده على فخذ الذى حدث أو منكبه . ثم قال : إن هذا لحق كما أنك هاهنا ، أو كما أنك قاعد - يعنى معاذ بن جبل .

ومِنْ أشراط[1] الساعة وآيات حلولِها ، وذِكْرِ النَّشْرِ[2] والحَشْرِ ، وأخبارِ الأبرار والفجّار ، والجنةِ والنار ، وعَرَصات[3] القيامة .

وبِحَسْب هــذا الفصل أن يكون ديوانا[4] مُفْرَدا يشتملُ على أجزاء وحْدَهُ ؛ وفيما أشَرْنا إليه من نُـكت[5] الأحاديث التى ذكرنا كفايةٌ ، وأكثرُها فى الصحيح، وعند الأئمة .

فصـــــل

فى عصمة[6] الله تعالى له من الناس وكفايتِه مَنْ آذَاه

قال اللهُ تعالى [7] : ﴿ واللهُ يَعْصِمكَ من الناس ﴾ .

وقال تعالى [8] : ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ ربِّك فإنّكَ بأَعْيُننا ﴾ .

وقال [9] : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَه ﴾ .

---

(١) الأشراط : العلامات والمقدمات .

(٢) النشر للميت أن يحيا فيقوم من قبره . والحشر : سوق الناس إلى المحشر للحساب .

(٣) عرصات : جمع عرصة : كل موضع واسع لابناء فيه ؛ أى مما أخبر به صلى الله عليه وسلم من الغيبيات ماورد فى الحديث من بيان مواقف القيامة وعرصاتها ووصفها بصفاتها .

(٤) ديوانا : كتابا مدونا مستقلا .

(٥) نـكت الأحاديث : لطائفها ودقائقها النفيسة .

(٦) العصمة : أصل معناها التمسك ، ثم صار حقيقة فى المنع عن ارتـكاب المعاصى وفى الحفظ عن نيل المضرة من الأعداء ؛ والمراد هنا المعنى الأخير .

(٧) سورة المائدة ، آية ٦٧

(٨) سورة الطور، آية ٤٨ ، أمره بالصبر على أعباء الرسالة ومشقة تبليغ ما أمر بتبليغه، ثم سلاه بأنه لايخاف من أحد ، فإنه محفوظ بعين العناية من الله . وإنك بأعيننا : أى بمرأى منا، ومرعى فى حفظنا .

(٩) سورة الزمر ، آية ٣٦

وقيل : بكاف محمداً صلّى اللهُ عليه وسلم أعداءه المشركين . وقيل غَيْر هذا [١] .

وقال [٢] : ﴿ إنّا كفَيْناكَ المستهزئين ﴾ .

وقال [٣] : ﴿ وإذ يَمْكُرُ بكَ الذين كفرُوا لِيُثْبِتُوكَ أو يقتلوكَ أو يُخرِجوكَ، ويَمْكُرُونَ ويمكرُ اللهُ ، واللهُ خَيْرُ الماكِرين ﴾ .

أخبرنا القاضي الشهيدُ أبو عليّ الصَّدَفي بقراءتي عليه ، والفقيهُ الحافظ أبُو بكر محمد عبد الله المَعَافِريّ [٤] ؛ قالا : حدثنا أبو الُحسين الصَّيْرفي ؛ قال : حدثنا أبو يَعْلَى البَغْدَادى ، حدثنا أبو عليّ السِّنْجيّ ، حدثنا أبو العباس المَرْوزى ، حدثنا أبُو عيسى الحافظ ، حدثنا عَبْد بن حُميد ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عُبيد ، عن سَعِيد الجُرَيْرى ، عن عَبْد الله بن شَقِيق ، عن عائشة رضِيَ الله عنها ؛ قالت : كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يُحْرس [٥] حتى نزلت هذه الآية [٦] : ﴿ والله يَعْصِمُكَ من الناس ﴾ ـ فأخرج رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رَأْسَه من القُبَّة [٧] ؛ فقال لهم : يأَيُّها الناس ، انصرفوا ؛ فقد عصمني رَبيّ عزّ وجلّ .

---

(١) قيل : المراد أنه تعالى تكفل بارزاق جميع عباده . أو غير هذا : غير القول بقصر الكفاية على محمد ؛ بل كافيه ، ولا كافي غيره ، فتكون الإضافة للجنس قال القارى (١ـ٧٠٨) : ويؤيده قراءة حمزة والكسائى : أليس الله بكاف عباده ـ بصيغة الجمع .

(٢) سورة الحجر ، آية ٩٥ . والهزؤ : السخرية والتهكم على سبيل التحقير . والمراد نفر من قريش كانوا يؤذونه صلى الله عليه وسلم ويهزءون به ، فأهلكهم الله لما اشتدت أذيتهم ، ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) سورة الأنفال آية ٣٠ والمكر : الحيلة والخداع ، ولا يوصف به الله سبحانه ـ إلا على طريق المشاكلة . وهو إشارة إلى ما كان منهم بدار الندوة .

(٤) هذا فى ا ، ب . وانفرد الشهاب بالنص على أنه بغين معجمة ، ولم نعثر على ما يؤيده فيما لدينا من المراجع . والمعافرى هذا هو ابن العربى . وقد توفى بفاس سنة ٥٤٣ هـ .

(٥) كان يحرسه الصحابة . (٦) سورة المائدة ، آية ٦٧

(٧) القبة : كل مرتفع من البناء أو الخيمة والخباء . والمراد هنا : خباء كان فيه النبي صلى =

وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل مَنْزلا اختار له أصحابُه شجرةً يَقِيلُ (١) تحتها ، فأتاهُ أعرابيٌّ فاخترط (٢) سيْفَه ثم قال : مَنْ يمنَعُك منّى ؟ فقال : اللهُ عزّ وجل ؛ فرُعِدَتْ (٣) يَدُ الأعرابيّ ، وسقط سيفُه ، وضرب برأسه الشجرة (٤) حتى سال دِماغُه ؛ فنزلت الآية (٥).

وقد رُوِيت هذه القصةُ فى الصحيح (٦) ، وأنْ غُورَثَ بن الحارث صاحبُ هذه القصة ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عَفا عنه ؛ فرجع إلى قومه ، وقال : جِئتُكم من عند خَيْرِ الناس .

وقد حُكِيت مِثْلُ هـذه الحكايةِ ، وأنها جرت له يوم بَدْر ؛ وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجتِه ، فتبعه رجلٌ من المنافقين . . . وذكر مِثْلَه .

= الله عليه وسلم فى بعض أسفاره . وقيل: إنه بيت صغير مستدير من الخيام وبيوت العرب . والحديث رواه الترمذى: ٥ – ٢٥١، وابن كثير : ٣ – ١٤٤ ، وقال :هذا حديث غريب فيه نكارة ، فإن هذه الآية مدنية ، وهذا الحديث يقتضى أنها مكية . وقال الترمذى فى سننه (٥ – ٢٥١) . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

(١) يقيل : ينزل وقت القائلة ، وهى الظهيرة وما قاربها للاستراحة ، سواء نام أم لا .

(٢) اخترط سيفه : سله وأخرجه من قرابه ليضربه به .

(٣) أصابتها رعدة ، وهى اهتزاز اليد واضطرابها من غير قصد لشدة الخوف . وفى ا: فأرعدت .

(٤) إنما فعل ذلك لما اعتراه من ذهاب عقله ، فلم يزل ينطحها .

(٥) قال فى نسيم الرياض (٣ – ٢٢٩) : وهذا الحديث بهذا اللفظ قالوا : لم يوجد فى الكتب المعتبرة عند أهل الأثر ، ولم يذكروه فى أسباب النزول . وقال القارى (١ – ٧١٠): وما رواه من الزيادة فغير معروف عند أرباب الدراية .

(٦) وهذا الحديث رواه البخارى : ٥ – ١٤٧ ، ٤ – ٧٤ . ورواه ابن إسحاق فى سيرة ابن هشام : ٣ – ٣١٦

وقد رُوِىَ (١) أنه وقَع له مِثْلُها فى غزوة غَطَفان بذى أَمَر (٢) ، مع رجل اسمه دُعْثُور بن الحارث ، وأن [١٢٥] الرجلَ أَسْلَمَ ؛ فلما رجع إلى قومه الذين أغْرَوْه ـ وكان سيِّدَهم وأشجَعهم ـ قالوا له : أين ما كنْتَ تقولُ ، وقد أمكنك (٣) ؟ فقال : إنّى نظرتُ إلى رجل أبيضَ طويلٍ دَفَع فى صَدْرِى ، فوقعتُ لظَهْرِى ، وسقط السيفُ ، فعرفتُ أنه مَلَك ، وأسلمتُ (٤) .

وفيه نزلت (٥) : ﴿ يأيّها الذين آمَنُوا اذْكُروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ هَمَّ قومٌ أنْ يَبْسُطوا إليكم أيديَهم ، فكفَّ أيديَهم عنكم ، واتقُوا اللهَ وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾ .

وفى رواية الخطَّابى أنَّ غَورثَ بن الحارث المُحَارِبى أراد أنْ يَفْتِكَ (٦) بالنبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فلم يَشْعُر به إلّا وهو قائم على رَأْسِه مُنْتَضِياً سيْفَه (٧) ، فقال : اللهم اكْفِنيه بما شئْتَ (٨) ، فانكبَّ (٩) مِنْ وَجْهِه من زُلَّخة (١٠) زُلِّخَها بين كتفيه ، وندَر سيْفُه (١١) من يده .

---

(١) رواه ابن إسحاق فى سيرته : سيرة ابن هشام : ٣ ـ ٢١٦

(٢) ذو أمر : موضع غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورويت هذه الحادثة فى الواقدى أيضا : ١ ـ ١٩٥

(٣) أمكنه الأمر : إذا لم يمنعه مانع ، فصار ممكنا له . أو المراد : تمكنت منه لمصادفته له وحده ، ومعه سيف مسلول فى يده .

(٤) أسلم لما شاهده مما يدل على نبوته .

(٥) سورة المائدة ، آية ١١ ، وانظر فى ذلك أيضا تفسير ابن كثير : ٢ ـ ٥٩

(٦) يريد أن يقتله .

(٧) منتضيا سيفه : جرد سيفه وسله ، ليضربه به .

(٨) بما شئت : بالأمر والسبب الذى شئته وأردته ، والمراد تفويض أمر كفايته إلى الله وتسليم أمره له .

(٩) انكب : سقط لوجهه : سقط على وجهه .

(١٠) زلخة : وجع فى الظهر لا يتحرك الإنسان من شدته (النهاية) . زلخها : أوجدها الله حين سل السيف .

(١١) ندر سيفه : سقط .

الزُّلَّخَة : وجع الظهر .

وقيل فى قصته غَيْرُ هذا، وذُكِر فيه(١) نزلت(٢): ﴿ يأيُّهَا الذين آمنوا اذْكُرُوا نِعْمةَ اللهِ عليكم إذْ همَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إليكم أيديَهم ، فكفَّ أيديَهم عنكم ، واتقوا الله وعلى اللهِ فَلْيتوكَّلِ المؤمنون ﴾ .

وقيل : كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يخافُ قريشا ، فلما نزلت هذه الآيةُ استَلْقَى(٣) ، ثم قال : مَنْ شاء فليَخْذُلْنِي(٤) .

وذكر عَبْد بن حُميد ، قال : كانت حَمَّالَة الحَطَب(٥) تضَعُ العِضَاهَ(٦) - وهى جَمْرٌ - على طريق رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فكأنما يَطَؤُها كَثِيبا أَهْيَل(٧) .

وذكر ابنُ إسحاق عنها أنها لمَّا بلغَها نزولُ(٨) : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ﴾ ، وذِكْرُها بما ذَكَرها اللهُ مع زَوْجها من الذم - أَتَتْ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، وفى يَدِها فِهْرٌ(٩) من الحجارة .

---

(١) فيه : فى غورث .

(٢) سورة المائدة ، آية ١١

(٣) استلقى : نام واضعا ظهره على الأرض ، لأمنه أعداءه واطمئنان قلبه .

(٤) الخذلان : ترك النصرة . يريد أنى غنى عن المعين والحرس ، لأن الله حمانى وضمن لى ألا يضرنى أحد يصل إلى. ولذلك استلقى على ظهره ، وأظهر هيئة الآمن ، والمتبرى من حوله وقوته اعتمادا على وعد الله .

(٥) حمالة الحطب : هى أم جميل زوجة أبى لهب .

(٦) العضاه : شجر له شوك إذا أوقد كان شديد الاحتراق .

(٧) كانت تقصد بذلك أن يمشى الرسول عليه فيؤذيه ويؤثر فى قدميه ، فكان النبى يضع قدمه على تلك العضاه فيجدها كثيبا - رملا مجتمعا - أهيل : سائلا . أى يجده سهلا لا يؤذيه .

(٨) سورة المسد ، آية ١

(٩) الفهر : حجر ملء الكف .

فلما وقفَتْ عليهما لم ترَ إلا أبا بَكْر ، وأخذ اللهُ تعالى ببصَرِها[١] عن نبية صلى ُالله عليه وسلم ؛ فقالت : يا أبا بكر ، أينَ صاحِبُكَ؟ فقد بلغنى أنه يَهْجُونى[٢] ، واللهِ لو وجدتُه لضربتُ بهذا الفِهْر فاه[٣].

وعن[٤] الحَكَم بن أبى العاصى : تواعَدْنا[٥] على النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى إذا رأيناه سمعنا صوتا خَلفَنَا ما ظننَّا أنه بَقِى بِتِهامةَ أحدٌ[٦] ؛ فوقَعْنا مَغْشيّا علينا ، فما أفقْنا حتى قضى صلاتَه ورجع إلى أهله .

ثم تواعَدْنا ليلةً أخرى ، فجئْنَا حتى إذا رأيناه جاءت[٧] الصَّفَا والمَرْوةُ ، فحالت بيننا وبينه .

وعن عُمر رضِىَ اللهُ عنــه : تواعَدْتُ[٨] أنا وأبو جَهْم بن حُذَيفة ليلةً قَتْلَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فجئْنَا منزلَه ، فسمعنا له ، فافتتح وقرأ[٩] : ﴿ الحاقّة. ما الحاقّة . . . ﴾ إلى : ﴿ فهل ترَى لهم مِنْ باقية ﴾ .

فضرب أبوجَهْم على عَضُد عُمر ، وقال : انجُ ؛ وفرّا هاربين ؛ فكانت من مقدّمات إسلام عُمر رَضِى اللهُ عنه .

---

(١) أخذ الله ببصرها : قبض وحبس نظرها . (٢) يهجونى : يذمنى .

(٣) خصت الفم ، لأنه محل النطق بذمها . وهذا رواه البيهقى ، كما رواه ابن إسحاق . وارجع إليه أيضا فى تفسير ابن كثير : ٨ — ٥٣٧

(٤) رواه أبو نعيم فى الدلائل ، والطبرانى ، بسند جيد .

(٥) أى تواعد هو وبعض الكفرة على قتله والفتك به فى بعض الليالى .

(٦) أى لم يبق بتهامة أحد إلا وقد هلك بتلك الصيحة . أو أراد أن جميع أهل تهامة صاحوا علينا صيحة واحدة وقد لحقونا ليقتلونا . فالمعنى أنا تيقنا وجودهم خلفنا .

(٧) المراد بمجىء الصفا والمروة تحركهما من مكانهما حتى كانا بينهم وبين النبي .

(٨) فى نسيم الرياض (٣ — ٢٣٥) : هذا الحديث لم يوجد بهذا اللفظ إلا فى مسند أحمد بما يقرب منه . (٩) سورة الحاقة ، الآيات من ١ — ٨

ومنه [١] العِبْرةُ المشهورة ، والكفاية التامة[٢] عندما أخافته قُريش، وأجمعت على قَتْله وبيَّتُوه [٣] ؛ فخرج عليهم من بيته ؛ فقام على رءوسهم ، وقد ضرب الله تعالى على أبصارهم [٤] ، وذَرّ الترابَ على رءوسهم ، وخلص [٥] منهم .

وحِمايتُه [٦] عن رؤيتهم فى الغار بما هيَّأ اللهُ له من الآيات، ومن العنكبوت الذى نسج عليه ، حتى قال أُميّةُ بن خَلَف ـ حين قالوا : ندخُل الغار : ماأَرَبُكم [٧] فيه، وعليه من نَسْج العنكبوتِ ما أُرى [٨] أنه قَبْل أنْ يولَد محمد .

ووقعت حَمامتان على فمِ الغارِ ، فقالت قريش : لوكان فيه أحدٌ لما كانت هناك الحَمَام .

وقصته [٩] مع سُراقَة بن مالك بن جُعْشُم حين الهجرة ، وقد [١٢٦] جعلت قُريش فيه وفى أبى بكر الجَعَائل [١٠] ، فأُنذِر به [١١] ، فركب فرسَه واتّبعه حتى إذا قرُب منه دعا عليه النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فساخت [١٢] قوائمُ فَرَسِه ، فخرّ عنها [١٣] ،

---

(١) ومنه : مما يشهد لأن الله تعالى عصمه من أعدائه .

(٢) العبرة : الأمر العجيب الذى يعتبر به ويتعظ . والكفاية التامة : أى كون الله تعالى عصمه وصانه صيانة تامة ليست ككفاية غيره .

(٣) بيتوه : قصدوا قتله ليلا فى خفية .

(٤) ضرب الله على أبصارهم : لم يحسوا به ويروه لاستغراقهم بالنوم وحجب عيونهم عنه ؛ وقد كانوا أحاطوا ببيته ليقتلوه .

(٥) ذر التراب : نثره . خلص منهم : نجا منهم . وفى ب : ذرأ .

(٦) حمايته : حفظه .

(٧) الأرب : الحاجة المطلوبة ؛ أى ليس لكم مطلوب ولا حاجة .

(٨) ما أرى : ما أظن وأعتقد .

(٩) القصة فى الصحيحين : صحيح مسلم : ١٥٩٢ ، وفى سيرة ابن هشام : ٢ ـ ١٠٢

(١٠) الجعائل : الجعل : الأجرة على الشىء فعلا أو قولا (النهاية) .

(١١) أنذر به : أعلم سراقة بالنبى .

(١٢) ساخت قوائم فرسه : غاصت فى الأرض ودخلت فيها حتى كادت تبتلعها وتنخسف من تحتها .

(١٣) خر عنها : سقط من فوق ، ورمى نفسه عنها خوفا من أن تخسف به الأرض فيهلك.

واستقسم[1] ، بالأزلام ؛ فخرج له ما يكره .

ثم ركب ودَنَا حتى سمع قراءةَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وهو لا يلتفتُ[2] ؛ وأبو بكر رضى الله عنه يلتفتُ ، فقال[3] للنبي صلى اللهُ عليه وسلم : أُتينا[4] . فقال : لا تَحزَنْ إنّ اللهَ معنا. فساخت ثانيةً[5] إلى رُكْبتها ، وخرَّ عنها ؛ فزجرها[6] فنهضَتْ ولقوائمها مِثْلُ الدُّخَانِ[7] ؛ فناداهم بالأمان[8] ؛ فكتب له النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم أماناً ؛ كتبه ابن فُهَيرة[9] ، وقيل أبو بكر ؛ وأخبرهم بالأخبار[10] ؛ وأمره النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ألا يتركَ أحدا يلحقُ بهم .

فانصرف يقولُ للناس : كُفِيتُم ما هاهنا[11] ،

(١) الأزلام : جمع زلم : وهى قداح ، أى سهام لا ريش لها ولا نصل ، كانوا فى الجاهلية يكتبون على بعضها أفعل ، وعلى بعضها لا أفعل ، ويضعونها فى متاعهم إذا سافروا ، فإذا عرض لهم مهم أخرجوا منها زلما يتفاءلون به فيفعلون أو يتركون . ومعنى الاستقسام : طلب ما قسم وقدر له . (٢) وهو لايلتفت : والنبي لايلتفت إليه لعدم مبالاته ولاعتماده على ربه .

(٣) القائل : هو أبو بكر وفى ا : وقال .

(٤) أتينا : أتانا العدو ، وأدركنا من يطلبنا .

(٥) فساخت ؛ أى قوائم فرس سراقة .

(٦) زجرها : صاح عليها .

(٧) ولقوائمها مثل الدخان : أى غبار مرتفع فى الجو كأنه دخان .

(٨) بالأمان : أى رفع صوته قائلا لهم : الأمان . الأمان . والمراد تأمينهم منه ، وأنه لايلحقهم منه ضرر وخوف بإخباره الأعداء . أو طلب منهم الأمان ؛ أى أن يعطوه أمانا فلا يلحقه ضرر لخوفه منه ــ صلى الله عليه وسلم ، ومن دعائه عليه .

(٩) ابن فهيرة : عامر بن فهيرة ؛ وكان يرعى غنما لأبى بكر رضى الله عنه ويجىء لهما كل ليلة فى الغار باللبن يتغذيانه .

(١٠) وأخبرهم : أى أخبر سراقة النبى وأبا بكر وابن فهيرة ــ بالأخبار . أى بأخبار قريش ، وما جرى منهم بعد خروجهم من مكة وجعلهم الجعائل . . .

(١١) كفيتم ما هاهنا : معناه ارجعوا كفيتم الطلب ؛ فإنى لم أجدهم .

وقيل : بل قال لهما[1] : أَرَاكُما دعوتما علىّ ، فادْعُوَا لى .

فنجا ، ووقع فى نَفْسه ظهورُ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم[2] .

وفى[3] خبر آخر : أنَّ راعياً عرفَ خَبَرهما ، فخرج يشتَدُّ[4] ، يُعلِمُ قريشا ؛ فلما ورد مكةَ ضُرِبَ[5] على قَلْبِه ، فما يَدْرى ما يَصْنع ؛ وأُنْسِىَ ما خرج له حتى رجع إلى موضعه .

وجاءه[6] — فيما ذَكر ابنُ إسحاقَ وغَيْرُه — أبو جهل ، بصَخْرةٍ وهو ساجدٌ ، وقريش ينظرون ، ليَطْرَحَها عليه ، فلزِقَتْ بيده ، ويَبِستْ يدَاهُ إلى عُنقه ، وأقبل يرجعُ القَهْقَرى إلى خَلْفِه ؛ ثم سـألَه أنْ يدعُوَ له ؛ ففعل ؛ فانطلقت يَدَاه ؛ وكان قد تواعد مع قُرَيش بذلك ، وحلف لئن رآهُ ليَدْمَغنَّه[7] ؛ فسألوه عن شـأنه ، فذكر أنه عرَض لى دونه فَحْلٌ[8] ، ما رأيتُ مِثْلَه قطّ ، همَّ بى أن يأكلنى .

فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : ذاكَ جِبْريل ، لو دَنَا لأَخَذَه[9] .

وذكر السَّمَرْقَنْدى أنَّ رجلا من بنى المُغِيرة أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم لِيَقْتُلَه ، فطَمَس اللهُ على بَصَرِه[10] ؛ فلم يرَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، وسمعَ قولَه ، فرجع إلى أصحابه فلم يَرهم حتى نادَوْه .

---

(١) لهما : للنبى وأبى بكر . (٢) سيرة ابن هشام : ٢ — ٩٩

(٣) قيل : إنه لايعرف من رواه (نسيم الرياض: ٣ — ٢٤١) . وقال القارى(١-٧١٥): غير معروف عند أهل الأثر .

(٤) يشتد : يسرع فى مشيه .

(٥) ضرب على قلبه : منع من الإدراك وذهل عما جاء له .

(٦) وهذا فى دلائل أبى نعيم عن ابن عباس .

(٧) ليدمغنه : ليضربنه بصخرة يكسر رأسه ويخرج دماغه ؛ يقال : دمغه ، إذا أصاب دماغه فقتله . (٨) فحل : جمل عظيم هائج .

(٩) لأخذه : لأهلكه . (١٠) طمس الله على بصره : غطاه وغشاه حتى لم يره .

وذكر أنَّ فى هاتين القصتين[١] ، نزلت[٢] : ﴿ إنَّا جعَلْنَا فى أعناقِهم أغلالا فهِىَ إلى الأذْقَانِ فهم مُقْمَحُونَ[٣] . وجعَلْنَا مِنْ بين أيدِيهم سَدًّا ومِنْ خَلْفِهم سَدًّا ، فأغشَيْناهم فهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ .

ومن ذلك ما ذكره ابنُ إسحاق[٤] ، وغيره فى قِصَّته ، إذْ خرج إلى بنى قُرَيظَة[٥] ، فى أصحابه ، فجلس إلى جِدارِ بَعْضِ آطامِهم[٦] ، فانبعث عَمْرُو[٧] بن جِحَاش أحدُهم ليَطْرَحَ عليه رَحًى ، فقام النبىُّ صلى الله عليه وسلم فانصرفَ إلى المدينة وأعلمهم بِقِصَّتِهم[٨] .

وقد قيل : إنّ قولَه تعالى[٩] : ﴿ يأيُّهَا الذين آمَنُوا اذْكُروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ هَمَّ قومٌ أنْ يَبْسُطُوا إليكم أيديَهم فكَفَّ أيْدِيَهم عنكم واتقوا اللهَ وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾ فى هذه القصة نزلت .

---

(١) القصتين : يريد قصة أبى جهل ، وقصة هذا الرجل . والخبران فى تفسير ابن كثير : ٦ — ٥٥٠

(٢) سورة يس ، آية ٨ ، ٩

(٣) الإقماح : رفع الرأس وغض البصر .

(٤) ذكره ابن إسحاق فى : سيرة ابن هشام : ٢ — ١٩٢

(٥) من يهود خيبر .

(٦) الآطام : جمع أطم ، وهو الحصن هنا .

(٧) انبعث : توجه ، أو أسرع واندفع ، وعمرو بن جحاش : من بنى قريظة .

(٨) أى أخبر بنى قريظة فى نبذ عهدهم .

قال فى نسيم الرياض (٣ — ٢٤٣) : وقد اعترض على المصنف بأن هذه القصة ليست مع بنى قريظة كما فى السير ، وسيأتى أيضا فى هذا الكتاب — وإنما هى مع بنى النضير ، وسبب غزوة بنى النضير .

وأما سبب غزوة بنى قريظة فهو وقعـــة الخندق وتظاهرهم مع قريش ونقضهم العهد . وهو الصواب .

(٩) سورة المائدة ، آية ١١

وحكى السَّمَرْقَنْدِي أنه خرج إلى بنى النَّضِير يستعينُ فى عَقْلِ الكِلَابِيَّيْنِ[١] اللَّذَيْنِ قتلهما عَمْرُو بن أمية؛ فقال له حُيَىّ بن أخْطَب : اجلس يا أبا القاسم حتى نُطْعِمَك ونُعْطِيك ما سألْتَنَا .

فجلس النبىُّ صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر وعُمر رضِىَ اللهُ عنهما ، وتَوامَر[٢] حُيَىّ معهم على قَتْلِهِ ، فأعلم جبريلُ عليه السلام النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم بذلك ؛ فقام كأنه يريدُ حاجتَه حتى دخل المدينة[٣] .

وذكر أهلُ التفسير والحديث[٤] ، عن أبى هريرة رضِىَ اللهُ عنه ـ أن أبا جَهْل وعَد قُريشا لئن رأى محمدا يصلِّى ليَطَأَنّ[٥] رقَبتَه .

فلما صلّى النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم أعْلَمُوه[٦] ؛ فأقبل ؛ فلما قَرُب منه وَلى هاربا ناكصا على [١٢٧] عقِبَيه ، متقِّيا بيدَيْه[٧] ؛ فسئل فقال : لما دنَوْتُ منه أشرَفْتُ[٨] على خَنْدق مملوء ناراً كِدْتُ أهْوِى فيه[٩] ، وأبصرتُ هَوْلا عظيما[١٠] ، وخفقَ أجنحةٍ[١١] قد ملأت الأرضَ .

---

(١) يستعين : يطلب أن يعينوه فى الدية . عقل الكلابيين : ديتهما .

(٢) توامر : تشاور .

(٣) ثم سار إليهم وحاصرهم ست ليال ، وهم داخل حصنهم فقطع نخيلهم وحرقها تنكيلا لهم .

(٤) رواه مسلم ، والنسائى صحيح مسلم : ٢١٥٤ . وفى ا : ومعنى الحديث . . .

(٥) ليطأن رقبته : أى يدوس على عنقه الشريف برجله . (٦) أى أعلموا أبا جهل .

(٧) ناكصا : متأخرا راجعا الخلف . والعقب : مؤخر القدم . ونكص على عقبيه : ولى يخاف العاقبة . متقيا بيديه : مادا يديه كمن يدفع أمرا يتقيه .

(٨) أشرفت : اطلعت قريبا منى .

(٩) أهوى : أقع وأسقط . (١٠) هولا عظيما : أمرا مخوفا عظيما لم أر مثله .

(١١) خفق أجنحة : أجنحة تضطرب لها أصوات هائلة .

فقال النبيُّ صلّى اللهَ عليه وسلم : تلك الملائكةُ ، لودنا لاختطفتْهُ عُضْواً عضوا[1] .

ثم أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم[2] : ﴿ كلّا إنّ الإنسانَ ليطْغَى[3] . أنْ رآه استغْنَى . إنّ إلى ربِّكَ الرُّجْعَى . أرأيْتَ الذى ينْهَى . عبداً إذا صلَّى . أرأيتَ إنْ كان على الهُدَى . أو أمر بالتقوى . أرأيت إنْ كذّب وتولّى . ألمْ يعلَمْ بأنَّ اللهَ يرى . كلا لئن لم ينْتهِ لنَسفعاً بالناصيةِ . ناصيةٍ كاذِبةٍ خاطئة . فليَدْعُ نادِيَه . سنَدْعُ الزَّبَانية . كلا لا تُطِعْهُ واسجُدْ واقترب ﴾ .

ورُوى[4] أنَّ شَيْبة بن عثمان الحَجَبى أدركه[5] يوم حُنَيْن ، وكان حمزةُ قد قتَل أباه وعَمّه ، فقال : اليومَ أدْركُ ثأرى من مُحَمد .

فلما اختلط الناسُ أتاهُ من خَلْفِهِ ، ورفع سيفَهُ ليَصُبّه عليه[6] ؛ قال : فلما دنوتُ منه ارتفع إلىّ شوَاظٌ[7] من نارٍ أسرعُ من البرقِ ، فولّيتُ هاربا ؛ وأحَسّ بى النبىُّ صلى الله عليه وسلم فدعانى ، فوضع يـدَهُ على صدْرى ، وهو أبغَضُ الخَلْق إلىّ ؛ فما رفعها إلّا وهو أحبُّ الخَلْقِ إلىّ ؛ [وقال لى : ادْنُ[8] فقاتِلْ ؛ فتقدمتُ أمامَه أضْربُ بسيفى وأُقيه بنفسى[9] ، ولو لقيتُ أبى تلكَ الساعةَ لأوقعتُ به[10] دونه][11] .

---

(١) عضوا عضوا : أى مزقته وفرقت أعضاءه . والأثر فى تفسير ابن كثير : ٨ – ٤٦١ ، وتفسير الطبرى : ٣٠ – ١٦٥

(٢) سورة العلق من آية ٦ إلى آخر السورة . (٣) ليطغى : طغيانه : تجاوز حده .

(٤) الراوى هو أبو نعيم فى الدلائل . (٥) أدركه : أدرك النبي ولحق به .

(٦) ليصبه عليه : ليضرب به ويقتله ويأخذ بثأره ويشفى غليله ممن كان سببا فى قتل أبيه وعمه . (٧) شواظ : لهب . (٨) ادن : من العدو أو منى .

(٩) أقيه بنفسى : أجعل نفسى وقاية له . (١٠) لأوقعت به سيفى وقتلته .

قال فى نسيم الرياض (٣ –٢٤٨) : والحديث مفصل فى سيرة ابن سيد الناس بسند صحيح .

(١١) ما بين القوسين كتب أمامه فى هامش ا : صح ، من الأم ، من غير الرواية .

وعن فَضَالة بن عَمْرو[١] : أردتُ قتْلَ النبيّ صلى الله عليه وسلم عامَ الفتح ، وهو يطوفُ بالبيت ؛ فلما دنـوتُ منه قال : أفَضَالة ؟ قلتُ : نعم . قال : ما كنتَ تحدِّثُ به نَفْسَك ؟ قلتُ : لا شيْء . فضَحِكَ واستغفر لى ، ووضع يدَه على صَدْرى ، فسكن قلبى ، فواللهِ مارفعها حتى ما خلق الله شيئا أحبَّ إلىّ منه .

ومن مشهورِ[٢] ذلك خَبَرُ عامر بن الطُّفَيل ، وأرْبد بن قيس ـ حـين وفَدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكان عامرٌ قال له : أنا أشغَلُ عنك وَجْه محمد[٣] فاضرِبه أنت . فلم يرَهُ فعل شيئا ؛ فلما كلَّمه فى ذلك قال له : واللهِ ما هَمَمْتُ أنْ أضربَه إلا وجدتُك بينى وبينه ؛ أفأضْرِبك !

ومن عصمته له تعالى أن كثيرا من اليهود والكَهنَة أنْذَروا به[٤] وعيّنوه لقُريش ، وأخبروهم بسطْوَتِه بهم[٥] ، وحضُّوهم على قتْله ؛ فعَصَمَهُ اللهَ تعالى حتى بلغ فيه أمْرَه[٦] .

ومن ذلك نَصْرُه بالرُّعْب[٧] أمامَهُ مَسيرةَ شَهْرٍ ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم[٨] .

---

(١) رواه ابن إسحاق ، وابن سيد الناس . وفى سيرة ابن هشام : فضالة بن عمير الليثى . والخبر فى سيرة ابن هشام : ٤ ـ ٣٧

(٢) رواه ابن إسحاق ، والبيهقى ، وأبو نعيم فى الدلائل : سيرة ابن هشام : ٤ ـ ٢٣٣

(٣) أشغل عنك وجه محمد : ألهيه حتى تبطش به .

(٤) أنذروا به : أخبروا وأعلموا .

(٥) بسطوته بهم : أى إنه يغزوهم ويقتلهم .

(٦) بلغ فيه أمره : حفظه ، ونصره ؛ وأظهر دينه على جميع الأديان .

(٧) بالرعب : بإلقاء الخوف منه فى قلوب أعدائه ، وفى قلوب من لم يتبعه .

(٨) هو فى الصحيحين ، وفى مسند أحمد : صحيح مسلم : ٣٧١ ، ٣٧٢

فصل

[من معجزاته الباهرة]

ومن معجزاته الباهرة [١] ماجمعه اللهُ له من المعارف والعلوم ، وخصّه به من الاطّلاع على جميع مصالح الدُّنيا والدِّين،ومعرفتُه بأمُور شرائعه [٢] ، وقوانين دِينه ، وسياسةِ عِبادِه ، ومصالِح أمته، وما كان فى الأمم قَبْلَه ،وقِصَصِ الأنبياء والرُّسُلِ والجبابرة [٣] والقرونِ الماضية من لَدُنْ آدم إلى زمَنِه ، وحِفْظ شرائعهم وكتبهم ، وَوَعِى [٤] سِيَرَهم ، وسَرْدِ أنبائهم،وأيام اللهِ [٥] فيهم، وصفاتِ أعيانِهم [٦]،واختلافِ آرائهم ، والمعـــرفةِ بمُدَدِهم وأعمارهم ، وحِـكَم حُـكمائهم ، ومُحاجَّةِ كلّ أمّةٍ من الـكَفَرة [٧] ، ومُعَارضة كلِّ فِرْقة [٨] من الـكِتابِيين بمـا فى كُتبهم ، وإعلامهم بأسرارها ومُخبّآت علومِها ، وإخبارهم بما كتَمُوا من ذلك وغيّرُوه .

إلى الاحتواء [٩] على لغات العَرب ، وغريبِ ألفاظِ فِرَقها ، والإحاطةِ بضروب فَصَاحاتها [١٠]، والحِفْظِ لأيّامِها وأمثالها، وحِكَمِها ومعانى أشعارها، والتخصيص [١١] بجَوامِع كَلِمِها .

---

(١) الباهرة : البالغة الظاهرة على غيرها .

(٢) شرائعه : التى شرعها الله له ولعباده على لسانه .

(٣) الجبابرة : الجبار — فى صفة الإنسان : الذى يجبر نقصه بادعاء منزلة من التعالى لايستحقها . ويقال للقاهر لغيره جبار .

(٤) الوعى : الحفظ ، والجمع .

(٥) أيام الله فيهم : أى وقائعهم التى قدرها الله لهم . والأيام تطلق على الوقائع والحروب كأيام العرب .

(٦) أعيانهم : كبارهم ورؤساؤهم . وقيل: ذواتهم .

(٧) محاجة كل أمة من الـكفرة : أى ذكر حجته وبرهانه ، وما حاج به غيره .

(٨) معارضته : مخالفته ورده .

(٩) الاحتواء : الاشتمال والحفظ .

(١٠) هذا فى ا ، ب .

(١١) والتخصيص: أى تخصيص الله إياه بنطقه بجوامع كلام العرب ؛ أى بالألفاظ الحسنة البليغة الجامعة للمعانى الـكثيرة فى ألفاظ قليلة .

إلى المعرفة بضَرْبِ الأمثالِ الصحيحة ، والحِكَم البيّنة لتقْريب التفهيم للغامض، والتّبيين المُشْكل ، إلى تَمْهيد[1] قواعدِ الشّرْعِ الذى لا تناقُضَ فيه ولا تخاذُل ، مع اشْتِمال شَريعته على محاسِن الأخلاقِ ومَحامِدِ الآداب [١٢٨] وكلّ شىء مُسْتَحْسن مُفَضّل ، لم يُنكِرْ منه مُلحِدٌ[2] ذو عَقْل سليم شيئا إلّا مِنْ جهة الخِذْلان[3] .

بل كلُّ جاحدٍ له وكافر من الجاهلية به إذا سَمِع ما يَدْعُو إليه صَوّبه[4] ، واستحسنه دونَ طلبِ إقامةِ بُرْهانٍ عليه .

ثم ما أُحِلّ لهم من الطيبات، وحُرِّمَ عليهم من الخَبائث[5] ، وصانَ به أنفُسَهم وأعراضَهم وأموالَهم من المُعَاقَبَاتِ والحدودِ[6] عاجلا ، والتخويفِ بالنار آجِلا [مّما لا يعلمُ عِلْمَه، ولا يقوم به ، إلا مَنْ مارس الدَّرْسَ[7] والعكوفَ على الكُتب، ومُثَافَنة[8] بعضِ هذا][9] .

إلى الاحتواء[10] على ضُروبِ العلوم ، وفُنُونِ المعارفِ ؛ كالطب ، والعِبَارة[11] ، والفرائض[12] ، والحِسَابِ ، والنّسَب ، وغير ذلك من العلوم مّما اتخذَ أهلُ هذه المعارفِ كلامَه صلى الله عليه وسلم فيها قُدْوةً وأُصولا فى عِلْمِهم ؛

---

(١) تمهيد : بسطه والتوطئة له . (٢) ملحد : مائل عن الحق زنديق .

(٣) أصل الخذلان : عدم النصر ، والمراد به عدم التوفيق .

(٤) صوبه : اعتقد أنه صواب .

(٥) الخبائث : كالميتة والدم ، ولحم الخنزير .

(٦) المعاقبات والحدود ؛ كالحد ، والتعزير، والحبس، وكحد الزنا والسرقة ، والقذف ، وشرب الخمر .

(٧) مارس الدرس : لازم دراسة الكتب واجتهد فيها . والعكوف : الإقبال على الشىء وملازمته . (٨) ومثافنة : ومتابعة . (٩) ما بين القوسين ساقط فى ا .

(١٠) إلى الاحتواء : أى مع اشتمالها أو مضموما إلى الاشتمال .

(١١) العبارة : أى تعبير الرؤيا .

(١٢) الفرائض : جمع فريضة ؛ وهو النصيب من الميراث .

كقوله صلى الله عليه وسلم[١] : الرُّؤيَا لأَول عَابِر[٢] . وهى[٣] على رِجْلِ طائر[٤] .

وقوله : الرؤيا ثلاث ؛ رُؤيا حقّ ، ورُؤيا يحدِّثُ بها الرجلُ نفسَه ، ورؤيا تَحْزِين من الشيطان[٥] .

وقوله[٦] : إذا تقارب الزمانُ لم تَكَدْ رُؤيَا المؤمن تَكْذِب .

---

(١) فى حديث رواه ابن ماجه (سنن ابن ماجه : ١٢٨٨) .

(٢) الرؤيا : ما يرى من المنام من الأحلام . لأول عابر : أى مصادفة وموافقة لأول تفسير تفسر به . والعابر : هو الذى يبين الرؤيا ويفسرها .

(٣) رواه أبو داود ، والترمذى ، وصححه (سنن الترمذى : ٤ ــ ٥٣٦) .
ومسند الطيالسى : ١ ــ ٣٤٩ .

(٤) رجل طائر : أى إنها على رجل قدر جار وقضاء ماض من خير أو شر ؛ وإن ذلك هو الذى قسمه الله لصاحبها . وكل حركة من كلمة أو شىء يجرى لك فهو طائر . والمراد أن الرؤيا التى يعبرها المعبر الأول فكأنها كانت على رجل طائر فسقطت ووقعت حيث عبرت كما يسقط الذى يكون على رجل الطائر بأدنى حركة (النهاية) . وفى هامش ا : قوله عليه السلام: على رجل طائر : على رجل قدر جار ، وقضاء ماض من خير أو شر (من الغريبين) . وقال ابن قتيبة : أرى أنها غير مستقرة . يقال للشىء إذا لم يستقر : هو على رجل طائر . وبين مخالب طائر ، وعلى قرن ظبى .

(٥) تحزين من الشيطان : بأن يلقى له ما يكره ويخاف بوسوسته .
قال السيوطى : هذا الحديث رواه الشيخان وغيرهما (صحيح مسلم : ١٧٧٣) .

(٦) فى حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة مسندا (صحيح مسلم : ١٧٧٣) .
تقارب الزمان : قال فى نسيم الرياض (٣ ــ ٢٥٩) : اختلف فى المراد به هنا ؛ فقيل: المراد به زمان الربيع وقرب الليل والنهار من التساوى، وهو زمان تدرك فيه الثمار، وتتفتح الأزهار ويرق النسيم ، فتعتدل الطباع البشرية فيه ، فتقوى على تلقى ما يفاض عليها . ولذا قال أهل التعبير : أصدق زمان لوقوع الرؤيا زمان الربيع .
وقيل : المراد به آخر الزمان إذا قربت الساعة ، وتقاربه قصره ، والقصر إما حقيقة كما فى الحديث : فى أيامه السنة كشهر ، والشهر كجمعة ، والجمعة كيوم ، واليوم كساعة .
وقيل : إنه لكثرة اشتغال الناس بالدنيا لسعتها عليهم أو لغير ذلك .

وقوله (١) : أَصْلُ كلِّ داء البَرَدَة .

وما رُوِى (٢) عنه فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه من قوله : المَعِدَةُ حَوْضُ البَدَن ، والعروقُ إليها وارِدةٌ . وإن كان هذا حديثا لا نصَحِّحُه لضعفه وكَوْنِهِ موضوعا تـكلّم (٣) عليه الدارَقُطْنى .

وقوله (٤) : خَيْرُ ما تداوَيـتُم به السَّعُوط واللَّدُود ، والحِجامة ، والمَشِىّ .

وخَيْرُ الحِجَامةِ يوم سبع عشرة ، وتسع عشرة ، وإحدى وعشرين (٥) .

وفى العُودِ الهِنْدِى سبعةُ أَشْفِية (٦) ، [منها ذاتُ الجَنْبِ] (٧) .

وقوله (٨) : ما ملأ ابْنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بَطْنٍ ، فإنْ كان لابُدّ فثُلث للطعام ، وثُلث للشراب ، وثلث للنَّفَس .

وقوله (٩) ـ وقد سُئل عن سبَأ : أرجل هو أم امرأة ؛ أم أرض ؟ فقال : رجل وَلَد عشرةً : تَيامَنَ (١٠) منهم ستةٌ ، وتشاءم أربعة . . . الحديث بطوله .

(١) فى حديث رواه الدارقطنى وضعفه .
والبردة : الإكثار من الطعام ، حتى لا تقدر المعدة على هضمه .
والمراد بكونه أصلا لذلك أنه منشؤه ومبدؤه فى الغالب .

(٢) الراوى له الطبرانى فى الأوسط. (٣) تـكلم عليه الدارقطنى ؛ أى مضعفا له .

(٤) فى حديث رواه الترمذى . (سنن الترمذى : ٤ ـ ٣٨٨) .
والسعوط : مايجعل فى الأنف ويستنشق به . واللدود : مايجعل فى أحد شقى الفم ويتغرغر به لدفع ورم به يعترى الصبيان غالبا والمشى : المسهل .

(٥) وهذا الحديث رواه الحاكم عن ابن عباس وصححه ، وأبو داود عن أبى هريرة (سنن أبى داود : ٢ ـ ٩٩) .

(٦) الأشفية : جمع شفاء . والحديث فى صحيح البخارى : ٧ ـ ١٦٥

(٧) ما بين القوسين ليس فى ا ، ب ، وهو فى صحيح البخارى .

(٨) رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم : سنن الترمذى ٤ ـ ٥٩٠

(٩) فى حديث رواه الترمذى : ٥ ـ ٣٦١، وفي اضبطت همزة « سبأ » بالفتحة منونا ، وبكسرتين ، وعليها « معا » . (١٠) تيامن : سكن اليمن . تشاءم : سكن الشام .

وكذلك [١] جوابه فى نَسب قُضَاعة ، وغير ذلك مما اضطرت العربُ على شُغْلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه [٢] من ذلك .

وقوله [٣] : حِمْير رأْسُ العَرب ونابُها [٣] . ومَذْحِج هامَتُها وغَلْصَمَتها [٤] . والأَزْد كاهِلُها وجُمْجُمَتها [٥] ، وهَمْدان غاربُها وذِرْوَتُها [٦] .

وقوله [٧] : إنَّ الزمانَ قد استدار كهيئته يومَ خَلق اللهُ السمواتِ والأَرضَ .

وقوله [٨] فى الحوض : زَوَاياه سَوَاء .

وقوله [٩] ـ فى حديث الذِّكْر : وإنَّ الحسنةَ بعشر أَمثالها ؛ فتلك مائةٌ وخمسون على اللسان ، وألفٌ وخمسمائة فى الميزان [١٠] .

---

(١) فى حديث رواه أحمد ، والطبرانى .

(٢) أى مشكل أنسابهم ومعرفة ما أشكل عليهم .

(٣) فى حديث رواه البزار . رأس العرب : منزلتهم من الشرف فى العرب بمنزلة الرأس من الجسد . ونابها : أى هم عمدتهم ، ومن أشدهم .

(٤) هامتها : رأسها . وغلصمتها : الغلصمة : لحمة بين الرأس والعنق . أو رأس الحلقوم .

(٥) الكاهل : ما يلى العنق من أعلى الظهر . والجمجمة : المراد بها الرأس .

(٦) الغارب : ما بين السنام والعنقَ . وذروتها : أعلاها وسنامها .

(٧) فى حديث رواه الشيخان . صحيح البخارى : ٦ ـ ٨٣ . استدار : عاد لما كان عليه .

(٨) فى حديث راه الشيخان : صحيح مسلم : ١٧٩٣
سواء : متساوية ؛ معناه طوله كعرضه .

(٩) فى حديث رواه أبو داود ، وابن ماجه ، سنن ابن ماجه : ٢٩٩ ، وسنن الترمذى : ٥ ـ ٤٧٨

(١٠) وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : خصلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة ، وهما يسير ، ومن يعمل بهما قليل : تسبح الله عز وجل دبر كل صلاة عشرا ، وتحمده عشرا ، وتكبره عشرا ؛ قال : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقدها بيده فذلك خمسون ؛ فهى مائة باللسان ، وألف وخمسمائة فى الميزان . فإذا أوى إلى فراشه سبح وحمد ، وكبر مائة؛ فتلك مائة باللسان وألف فى الميزان فأيكم يعمل فى اليوم ألفين وخمسمائة سيئة .

وقوله[١] وهو بموضعٍ : نِعْمَ موضِعُ الحَمّام هذا .

وقوله [٢] : ما بين المشرق والمغرب قِبْلَةٌ .

وقوله [٣] لعُيَيْنة ، أو الأقرع : أنا أفرسُ بالخَيْلِ مِنك .

وقوله لكاتبه[٤] : ضَعِ القلمَ على أُذُنك ، فإنه أذكر للمُمِلّ .

هذا مع أنه صلّى اللهُ عليه وسلم كان لا يكتب ؛ ولكنه أُوتى عِلْمَ كلِّ شىء، حتى قد وردَتْ آثارٌ بمعرفته حروفَ الخطّ وحُسْنَ تصويرها :

كقوله : لا تمــــدُّوا بسم[٥] الله الرحمن الرحيم ، رواهُ ابنُ شعبان من طريق ابن عباس [٦] .

وقوله فى الحديث الآخر الذى يُرْوَى عن مُعَاوية أنه كان يكتبُ بين يديه صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال له : أَلِقْ الدّوَاةَ ، وحَرِّف القلمَ ، وأَقِم الباء ، وفَرِّقِ السين ، ولا تُعَوِّر الميمَ [٧] ، وحَسِّن اللهَ ، ومُدّ الرحمن ، وجَوِّد الرحيم[٨] .

---

(١) فى حديث رواه الطبرانى .

(٢) فى حديث رواه الترمذى، وصححه. سنن الترمذى: ٢-١٧١ ، وابن ماجه: ١ - ٣٢٣

(٣) فى حديث ذكره ابن الأثير فى النهاية ، ولم يخرجه السيوطى لأنه لم يقف عليه .
أفرس بالخيل : أبصر ، وأعرف .

(٤) فى حديث رواه الترمذى (سنن الترمذى : ٥ - ٦٧) وفيه : أذكر للملى ، وهما بمعنى . (٥) لا تجعل السين مدة طويلة من غير بيان لأسنانها .

(٦) فى نسيم الرياض (٣ - ٢٦٧) : وضعفه ابن حزم . وقال السيوطى: حديث ابن عباس رضى الله عنه : لا تمد بسم الله الرحمن الرحيم - لم أجده .

(٧) ضبطت العين فى أ بالسكون والواو بالكسرة من غير تشديد .

(٨) ألق الدواة : اجعل لها ليقة ، وأصلح مدادها . وحرف القلم : اجعل قطه محرفا ، وطرف شقه الأيمن أزيد من الطرف الآخر قليلا ، فإنه أعون على تصوير السنات . وأقم الباء: اجعلها مستقيمة ، أو طولها قليلا ، لأنها عوض عن ألف اسم . وفرق السين : اجعل أسنانها منفصلا بعضها من بعض . ولا تعور الميم : لا تجعل دائرتها مطموسة . وحسن الله : أى كتابته وصورة لفظه تعظيما لمسماه . وجود الرحيم : حسن كتابته .

وهذا ، وإنْ لم تصحّ الروايةُ أنه صلى اللهُ عليه وسلم كتبَ فلا يبعد [١٢٩] أن يُرزقَ عِلْمَ هذا ويُمْنَعَ القراءةَ والكتابة .

وأمّا عِلْمُه صلى اللهُ عليه وسلم بلغاتِ العربِ ، وحِفْظُه معانِي أشعارها ، فأمْرٌ مشهورٌ ، قد نبّهْنا على بعضه أول الكتاب .

وكذلك حفظُه لكثيرٍ من لغاتِ الأُمم ؛ كقوله في الحديث (١) : سَنَهْ ، سَنَهْ . وهي حسَنَةٌ بالحبشيّة .

وقوله (٢) : ويكثر الهَرْجُ ، وهو القَتْل بها (٣) .

وقوله ـ في حديثِ أبي هريرة (٤) : أشْكَنتِ دَرْدْ ؛ أي وجَعُ البطْن بالفارسية .

إلى غير ذلك مما لا يعلمُ بَعْضَ هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا مَنْ مارَس الدّرْسَ والعُكوفَ على الكتُبِ ومشافنة أهلها عُمْرَه (٥) .

وهو رجلٌ كما قال (٦) الله تعالى ـ أُمّيٌّ ، لم يكتب ولم يقرأ ، ولا عُرِف بصُحْبة مَنْ هذه صِفَتُه ، ولا نشأ بين قَوْمٍ لهم عِلْمٌ ولا قراءةٌ لشيء من هذه الأمور ، ولا عُرِف

(١) الحديث رواه البخارى : صحيح البخارى : ٨ ـ ٨

(٢) فى حديث رواه الشيخان : صحيح البخارى : ٨ ـ ١٧ ، وفيه : قالوا: وما الهرج ؟ قال : القتل . القتل . وهو فى الترمذى أيضا : ٤ ـ ٤٨٩

(٣) بها : أى بلغة الحبشة .

(٤) رواه ابن ماجه. سنن ابن ماجه : ١١٤٤ ، وهو فيه : اشكمت درد . وقال فى شرحه: بالفارسية : اشكم ، أى بطن . درد ؛ أى وجع . والتاء للخطاب ، والهمزة همزة وصل . كذا حققه الدكتور حسين الهمدانى . ومعناه : أتشتكى بطنك ؟ ولكن جاء فى تكملة مجمع بحار الأنوار صفحة ٧ : اشكنب درم ، وفى رواية بسكون الباء ، وفى ا : اشكنب دردم ـ بضم الدالين ، وفى ب : بفتح الدالين .

(٥) العكوف على الكتب : ملازمة مطالعتها ومذاكرتها والنظر فيها . مشافنة أهلها : مجالستهم وملازمتهم . وفى ب : مثاقبة . والثاقبة : الباحثة .

(٦) فى قوله تعالى : فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى . . . (سورة الأعراف ، آية ١٥٨).

هو ـ قَبْلُ بشىء منها ؛ قال الله تعالى [1] : ﴿ وما كنتَ تتْلو مِنْ قَبْلِه مِنْ كتابٍ ولا تخُطّهُ بيمينك إذاً لارتاب[2] المُبْطلون ﴾ .

إنما كانت غايةُ معارفِ العربِ النسبَ وأخبارَ أوائلها ، والشعرَ ، والبيانَ ؛ وإنما حصل ذلكَ لهم بعد التفرُّغ لِعِلْمِ ذلك ، والاشتغالِ بطلابِه ، ومباحثة أهلِه عنه.

وهذا الفنّ[3] نُقْطةٌ من بَحْرِ عِلْمِه صلّى اللهُ عليه وسلم .

ولا سبيل إلى جحد المُلْحدِ لشىء مما ذكرناه [4] ، ولا وجدَ الكفَرةُ حِيلةً فى دَفْعِ مانصَصْناهُ [5] إلّا قولَهم : أساطِير الأولين: ﴿ إنما يعلّمُهُ بَشَر[6] ﴾ .

فردّ اللهُ قولَهم بقوله [7] : ﴿ لسانُ الذى يُلْحِدونَ إليه أعجمىّ ، وهذا لسانٌ عربىٌّ مبين ﴾ [8] .

ثم ما قالوه مكابرة العِيَان [9] ؛ فإنّ الذى نسبُوا تعليمَه إليه إمّا سَلْمان ، أو العبد الرُّومى [10] ؛ وسَلْمان إنما عرفه بعد الهِجْرة ؛ ونزولِ الكثير من القرآن ، وظهورِ ما لا يَنْعَدُّ من الآيات .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٤٨

(٢) ارتاب المبطلون : شكوا ، وقالوا تعلمه ممن قرأه وكتبه .

(٣) الفن : النوع من العلم الذى كانت العرب تعرفه وتعتنى به .

(٤) أى لا يمكن الكفرة المائلين عن الطريق المستقيم إنكاره .

(٥) نصصناه : حكيناه وبيناه . (٦) أى هى أحاديث مما سطره من قبله وأكاذيب .

(٧) سورة النحل ، آية ١٠٣

(٨) الذى يلحدون إليه : لسان من ادعوا أنه تعلم منه لسان عجمى فكيف يمكن تعليمه أو التعلم منه ؟ ومعنى يلحدون : يميلون عن الحق بمقالتهم هذه .

(٩) المكابرة : الإنكار من غير دليل . والعيان : المعاينة والمشاهدة .

(١٠) سلمان : هو سلمان الفارسى . والعبد الرومى : هو غلام حويطب بن عبد العزى ، أسلم وكان ذا كتب .

وأما الرُّومىّ فكان أسلم وكان يقرأُ على النبى صلى اللهُ عليه وسلم[١]، واختُلف فى اسمه .

وقيل : بل كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يجلسُ عنده عند المَرْوَة [٢] ، وكلاهما أعجمىُّ اللسان ؛ وهم الفصحاء اللُّدُّ [٣] ، والخطباء اللُّسْن [٤] ، قد عجزوا عن مُعارضةِ ما أتى به [٥] ، والإتيانِ بمثله ؛ بل عن فَهْم رَصْفِهِ ، وصُورَة تأليفه ونَظْمه ؛ فكيف بأعجمىّ ألْكن [٦] !

نَعَمْ ، وقد كان سَلْمانُ ، أو بَلْعَامُ الرومىُّ [٧] ، أو يَعِيش ، أو جَبْر، أو يَسار - على اختلافهم فى اسمه - بين أظْهُرِهم [٨] يكلِّمونه مَدَى أعمارهم ؛ فهل حُكِىَ عن واحدٍ منهم شىء مِنْ مِثْل ما كان يجىء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ؟ وهل عُرِف واحدٌ منهم بمعرفة شىء من ذلك ؟ وما منع العدوّ حينئذ على كثْرة عددِه، ودُءوب[٩] طلبه ، وقوةِ حَسَدِه - أن يجلسَ إلى هذا فيأخذ عليه أيضا ما يُعارِضُ به ويتعلَّمُ منه ما يحتجُّ به على شَغَبِه[١٠] ؛ كفِعْل النَّضْر بن الحارث بما كان يُخَرِّقُ[١١] به من أخبار كُتبه .

---

(١) أى ويتعلم منه . (٢) أى مع الناس فكيف قالوا إنه تعلم منه وهو لم يخل به ؟

(٣) اللد : جمع ألد ؛ وهو الشديد الخصومة .

(٤) اللسن : جمع لسن ؛ وهو الفصيح اللسان ، الطلق البيان .

(٥) معارضة ما أتى به : مقابلته بكلام يحكيه .

(٦) ألكن : من اللكنة ؛ وهى العجمة فى اللسان ، والعى فى النطق والبيان .

(٧) اسم الغلام الأعجمى . وقد سبق أنه مختلف فى اسمه ، فهذه هى الأسماء التى قيل إنه يسمى بها . (٨) بين أظهرهم : مقيما بينهم يعرفونه.

(٩) دءوب طلبه : من الدأب وهو الجد والتعب .

(١٠) شغبه : عناده فى خصومته . وفى ا : على شيعته .

(١١) يخرق : يكذب . والخرقة : افتعال الكذب يتلهى به . وقال القارى (١-٧٣٢): هى كلمة مولدة ، كما ذكره الجوهرى ؛ أى يزخرف .

ولا غاب النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم عن قَوْمِه ، ولا كثُرت اختلافاتُه[١] إلى بلادِ أهل الـكتابِ ؛ فيُقال : إنه استمد منهم ؛ بل لم يزَلْ بين أظهُرِهم يرْعَى فى صِغَرِه وشبَاَبِه ، على عادةِ أبنائهم ؛ ثم لم يخرج عن بِلَادِهِم إلا فى سَفْرَةٍ أو سَفْرَتين[٢] ، لم يَطُلْ فيهما مُـكْثُه مدّةً يُحْتَمل فيها تعليمُ القليل ، فـكيف الـكثير !

بل كان فى سفَرِه فى صُحْبة قـــومه ورَفَاقةِ[٣] عَشِيرتهِ ، لم يغِبْ عنهم ، ولاخالف[٤] حالَه [١٣٠] مدةَ مُقَامِهِ بمكة من تعليم واختلاف[٥] إلى حَبْرٍ أو قَس[٦] ، أو منجمٍ أو كاهن .

بل لو كان[٧] هذا بعدُ كلُّه لـكان مَجِيء ماأَتى به فى مُعْجِز القرآنِ قاطعاً لـكل عُذْر ، ومُدْحِضاً لـكل حجّةٍ ، ومُجْلياً[٨] لـكل أمر .

---

(١) اختلافاته : رواحه ومجيئه مرارا عديدة .

(٢) سافر مرة إلى بلاد الشام مع عمه أبى طالب، ورده من الطريق بإشارة بحير الراهب. ثم سافر مرة أخرى فى تجارة لأم المؤمنين خديجة رضى الله عنها مع غلامها ميسرة فلم ينفرد عن أهل بلدته أبدا سفرا وإقامة .

(٣) رفاقة : مرافقة .

(٤) ولا خالف حاله : أىَ حاله التى نشأ عليها وعرف بها .

(٥) واختلاف : أى مجىء وذهاب .

(٦) الحبر : العالم من علماء اليهود . والمنجم : العالم بالنجوم وأحكامها . والقس : رئيس علماء النصارى . والـكاهن من العرب : من يخبر عن المغيبات بواسطة جن ونحوه .
فاستوفى أقسام من يمـكن التعلم منه من أنواع الناس .

(٧) لوكان هذا : أى لو فرض خلاف ما ذكر من حاله بأن فرضنا أسفارا كثيرة له ومكثا مع أهل الـكتاب واختلافا للقسيسين والأحبار . . .

(٨) مدحضا : مزيلا ومبطلا . ومجليا : موضحا وكاشفا .

فصـــل

ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم ، وكراماته ، وباهر آياته أنباؤه[١] مع الملائكة والجنّ ، وإمْدَادُ[٢] اللهِ له بالملائكة ، وطاعةُ[٣] الجنِّ له ، ورؤيةُ كثير من أصحابهم لهم ؛ قال اللهُ تعالى[٤] : ﴿ وإنْ تظَاهَرَا عليه فإنَّ اللهَ هو موْلاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظَهِير ﴾ .

وقال[٥] : ﴿ إذْ يُوحِي ربُّك إلى الملائكة أنّى معكم ؛ فثبِّتوا الذين آمَنُوا ﴾ .

وقال[٦] : ﴿ إذْ تَسْتَغِيثُونَ ربَّكم فاستجابَ لكم أنى مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفين. وما جعلَهُ اللهُ إلَّا بُشْرَى ولتَطْمَئِنَّ به قلوبُكم وما النّصْرُ إلّا مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾ .

وقال[٧] : ﴿ وإذ صَرَفْنَا إليكَ نَفراً من الجنّ يستمعُونَ القرآنَ ، فلما حضروه قالوا : أنْصِتُوا فلما قُضِيَ ولّوْا إلى قومهم مُنْذِرِين ﴾ .

---

(١) أنباؤه : جمع نبأ ، وهو الخبر .

(٢) إمداد الله : إرسال الله الملائكة مددا له صلى الله عليه وسلم ، وإعانة .

(٣) طاعة الجن له : بانقيادهم وإسلامهم .

(٤) سورة التحريم ، آية ٤ . وإن تظاهرا : تتعاونا . هو مولاه : ناصره .

(٥) سورة الأنفال ، آية ١٢ ، فثبتوا الذين آمنوا بالقتال معهم وتقوية قلوبهم بوعدهم بالنصر وظهورهم على أعدائهم ، وهذا كان ببدر .

(٦) سورة الأنفال ، آية ٩ ، ١٠

تستغيثون ربكم : تطلبون غوثه وإعانته . فاستجاب لكم : أجاب دعاءكم وأنجز وعده لكم . مردفين : متتابعين .

(٧) سورة الأحقاف ، آية ٢٩

صرفنا إليك : أملناهم وأوصلناهم إليك. والنفر : مادون العشرة . وهؤلاء جن نصيبين، وهذا كان ببطن نخلة فى منصرفه صلى الله عليه وسلم من الطائف .

حدثنا سُفْيَان بن العاص الفقيه بسماعى عليه، حدثنا أبو الليْث السَّمرْقندى؛ قال: حدثنا عبد الغافر الفارسى، حدثنا أبو أحمد الُجلودى، حدثنا ابْنُ سفيان، حدثنا مُسلم، حدثنا عُبَيْدُ الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا شُعبة، عن سليمان الشَّيْبَانى، سمِع زِرّ بن حُبَيْش، عن عَبْد الله؛ قال: لقد رأى من آياتِ ربّه الكُبْرَى ـ قال[(١)]: رأى جبريلَ عليه السلام فى صورتِهِ، له ستّمائة جَنَاح.

والخبَرُ فى محادثتِهِ مع جِبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة، وما شاهده من كَثْرتهم وعِظَمِ صُورِ بعضِهم ليلةَ الإسراء مشهورٌ.

وقد رآهم بحَضْرَته[(٢)] جماعةٌ من أصحابه فى مَوَاطِن مختلفة؛ [فرأى أصحابُه جبريل عليه السلامُ فى صُورةِ رجُلٍ يسأله عن الإسلام والإيمانِ][(٣)].

ورأى ابنُ عباسٍ، وأُسامةُ بن زيد، وغيرُهما عنده جبريلَ فى صورة دِحْية[(٤)].

ورأى سعدٌ[(٥)] عن يمينه ويسارِه جبريلَ وميكائيل فى صورةِ رجُلين عليهما ثيابٌ بيض.

ومِثْلُه عن غَيْرِ واحد.

وسمِعَ بعضُهم زَجْرَ[(٦)] الملائكة خَيْلَهَا يوم بَدْرٍ.

وبعضُهم رأى تَطَايُر الرءوس[(٧)] من الكفار، ولا يرَوْن الضارب.

---

(١) قال: أى مسعود. والحديث فى البخارى: ٦ ـ ١٧٦

(٢) بحضرته: فى مجلسه.

(٣) ما بين القوسين أمامه فى ا: من غير الرواية.

(٤) هو دحية بن خليفة الكلبى الصحابى الجليل المشهور.

(٥) فى حديث رواه الشيخان: صحيح البخارى: ٥ ـ ١٢٤

(٦) زجر الملائكة: حسها خيلها على الجرى بصوت.

(٧) تطاير الرءوس: سرعة وقوعها بخفة كطائر طار عن مقره. وهذا رواه البيهقى.

ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذٍ[1] رجالا بِيضا على خَيْلٍ بُلْقٍ[2] بين السماء والأرض، مايقومُ لها[3] شيء.

وقد كانت الملائكةُ تصافِحُ عِمْران بن الحُصَيْن.

ورأى[4] النبيُّ صلى الله عليه وسلم لحمزَةَ جبريلَ في الكعبة، فخر مغشيًّا عليه.

ورأى[5] عبدُ الله بن مسعود الجِنّ ليلة الجن، وسمع كلامَهم، وشبَّههم برجال الزُّطّ[6].

وذكر ابنُ سعد[7] أنّ مُصْعَب بن عُمير لما قُتِل يوم أُحد أخذ الرايةَ مَلَكٌ على صورته، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول له: تقَدَّمْ يامُصْعَب؛ فقال له المَلَك: لستُ بمُصْعَب، فعلِم أنه ملك.

وقد ذكر غيرُ[8] واحدٍ من المصنّفين عن عُمر بن الخطاب رضى الله عنه — أنه قال: بينا نحن جلوسٌ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخٌ بيده عصا، فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فردّ عليه، وقال[9] — صلى الله عليه وسلم: نَغْمَةُ الجِنّ[10]!

---

(١) يومئذ: يوم بدر.

(٢) خيل بلق: فيها بياض ولون آخر. أو فيها سواد وبياض.

(٣) ما يقوم لها شيء: أى لا يمكن أن يقاوم شدتها وقتالها شيء غيرهم قل أو كثر لما رآه من بطشها وسرعتها.

(٤) فى حديث رواه البيهقى عن عمار بن ياسر.

(٥) فى حديث رواه البيهقى.

(٦) الزط: قوم من السودان طوال. وقيل: إنهم جيل بالهند.

(٧) الطبقات: ٢ — ٢٩

(٨) كالبيهقى، وابن ما كولا فى إكماله.

(٩) فى ب: فقال.

(١٠) نغمة الجن: أى هذه نغمة الجن. أو نغمتك نغمة الجن وصوتهم.

مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا هامةُ بن الهِيْم بن لاقِس بن إبليس ؛ فذكر أنه لَقِيَ نوحا ومَنْ بَعْدَه . . . . فى حديث طويل(١) ؛ وأنّ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم علّمه سُوَراً من القرآن (٢) .

وذكر (٣) الواقدى قَتْل خالدٍ عند هَدْمه العزّى للسوداء التى خرجَتْ له ناشِرةً شَعرها عُرْيانةً ، فجزَلها (٤) بسيفه ، وأعلم النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فقال له : تلك العُزّى .

وقال (٥) صلّى اللهُ عليه وسلم : إنّ شيطاناً [١٣١] تفلّتَ (٦) البارحةَ ليقطعَ علىّ صلاتى ؛ فأمْكننى اللهُ منـه ، فأخذتُه فأرَدْتُ أن أرْبطه إلى سارية (٧) من سَوَارِى المسجدِ حتى تنظروا إليه كلّكم ؛ فذكرتُ دعوةَ أخى سليمان(٨) : ﴿ ربّ

---

(١) فى شرح القارى (١ – ٧٣٧) : قال بعضهم إنه موضوع .

(٢) والحديث عن عمر .

قال فى نسيم الرياض (٣ – ٢٨٧) :واعلم أنهم اختلفوا فى هذا الحديث؛ فقال ابن الجوزى: إنه حديث موضوع لا أصل له . وخالفه فيه غيره ، وقال : إن تعدد أطرافه تدل على صحته . وابن الجوزى له مجازفة فى موضوعاته أكثرها مردودة . وقد روى هذا الحديث من يعتمد عليه كالبيهقى ، وابن عساكر وغيرهما .

(٣) وهذا حديث صحيح رواه البيهقى ، والنسائى وغيرهما ، وهو مذكور فى أكثر التفاسير . والخبر فى « المغازى » للواقدى : ٨٧٢ ،والبداية والنهاية: ٤ –٣١٦ ، والطبقات: ٢ – ١٠٥ . (٤) جزلها : جعلها جزلين ؛ أى قطعتين .

(٥) فى حديث صحيح رواه الشيخان عن أبى هريرة : صحيح البخارى : ٦ – ١٥٦

(٦) تفلت : وثب بسرعة بغتة . (٧) سارية : عمود ، أو أسطوانة من عمد المسجد .

(٨) سورة ص ، آية ٣٥ . لاينبغى لأحد من بعدى : لا يتيسر لأحد غيرى .

قال فى نسيم الرياض (٣ – ٢٨٨) : وليس هذا حرصا منه عليه الصلاة والسلام على الملك وسعة الدنيا ، وإنما طلب عظمة ينفرد بها لتكون خارقة للعادة ، دالة على نبوته ، مقدورة له على تنفيذ أوامر ربه وإظهار دينه .

اغْفِرْ لى وهَبْ لى مُلكا لا يَنْبَغِى لأَحدٍ من بَعْدِى ، إنكَ أنتَ الوهّابُ ﴾ . فردّه الله خاسئا [١] .

وهذا بابٌ واسع .

فصــــل

ومن دلائل نبوّته وعلاماتِ رسالته ما ترادفت [٢] به الأَخبارُ عن الرهبان والأحبار [٣] وعلماء أهلِ الكتاب ، من صفتِه وصفةِ أُمّته ، واسْمِه وعلاماته [٤] ، وذِكْرِ الخاتَم [٥] الذى بين كتفيه ، وماوُجِد من ذلك فى أشعار الموحّدين المتقدمين؛ من شِعْر تُبّع [٦] ، والأَوْسِ بن حارثة ، وكعب بن لؤَى، وسُفْيان بن مُجاشع ، وقُسّ ابن ساعدة .

---

(١) فرد الله ذلك الشيطان بإقدارى عليه ، وتمكنى منه خاسئا : خائبا حقيرا مطرودا . وفى صحيح البخارى : قال روح : فرده الله خاسئا .

(٢) ترادفت : تتابعت ، فجاء بعضها يتبع بعضه بعضا من غير انفصال .

(٣) الأحبار : جمع حبر : وهو العالم من أهل الكتاب ، واشتهر فى علماء اليهود .

(٤) ففى التوراة ـ عن كعب : محمد رسول الله عبدى المختار . . . وأمته الحمادون . وفى الزبور ـ عن وهب بن منبه : سيأتى من بعدك نبى يسمى أحمد أو محمدا ، أمته مرحومة ، أعطيتهم مثل ما أعطيت الأنبياء ، إلى غير ذلك مما نقله الثقات ؛ كقوله فى علامته فى الإنجيل : صاحب المدرعة والعمامة والهراوة ، الجعد الرأس ، الصلت الجبين . إلى آخر ما ذكره من حليته فيه .

(٥) الخاتم : يعنى خاتم النبوة .

(٦) تبع : اسم لملك اليمن . ومن الشعر :

شهدت على أحمد إنه ... نبى من الله بارئ النسم
فلو مد عمرى إلى عمره ... لكنت وزيرا له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجت عن صدره كل غم
له أمة سميت فى الزبور ... وأمته هى خير الأمم

وماذُكِر عن سَيف بن ذِي يَزَن(١) وغيرهم، وعَرَف به من أمْرِه زَيد بن عَمرو ابن نُفَيل، ووَرَقَة بن نَوْفل، وعَشْكَلانُ(٢) الحِمْيَرِى، وعلماء يَهُود، وشامُول عالِمُهم صاحب تُبَّع — مِنْ صِفَتِه وخَبَره.

وما أُلفِيَ(٣) مِنْ ذلك فى التوراةِ والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبَيَّنُوه، ونقله عنهما ثِقاةُ مَنْ أسْلَم منهم؛ مثل ابن سلَام، وابنى سَعْيَة؛ وابن(٤) يامِين؛ ومُخَيْرِيق؛ وكَعْب، وأشباههم ممّنْ أسلم من عُلماء يَهُود، وبَحِيرا، ونَسْطور الحبشةِ(٥)، وصاحبِ بُصْرى(٦)، وضَغَاطر(٧)، وأُسقُفّ الشام، والجارود، وسَلْمان، والنَّجَاشى، ونصارى الحبشة، وأساقف(٨) نَجْران، وغيرهم ممّن أسْلَم من علماء النصارى.

وقد اعترفَ بذلك(٩) هِرَقْل، وصاحبُ رُومَة عالِمَا النصارى، ورَئيساهم، ومُقَوْقِس(١٠) صاحب مِصْر، والشيخ(١١) صاحبُه، وابن صُورِيا(١٢)، وابن أَخْطب،

---

(١) سيف بن ذى يزن : من ملوك حمير.

(٢) قصة عشكلان رواها ابن عساكر. وانظر نسيم الرياض: ٣ـ ٢٩٦ إن شئت تجدها.

(٣) ما ألفى : ما وجد.

(٤) من بنى النضير. وفى شرح القارى (١ ـ ٧٤٤) : وبنيامين.

(٥) نسطور ـ بالسين والصاد.

(٦) بصرى : بلدة بالشام؛ وهى بين المدينة والشام؛ وقيل إنها حوران. وصاحب بصرى : ملكها الذى أرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم دحية بكتابه.

(٧) ضغاطر : أسقف من كبار الروم أسلم على يد دحية لما أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل.

(٨) أساقف : جمع أسقف؛ أى علمائهم ورؤسائهم.

(٩) بذلك : بيمثته، وأنه بشر به فى الكتب القديمة. هرقل : ملك الروم.

(١٠) صاحب مصر : ملكها.

(١١) صاحبه : أى صاحب المقوقس. قال القارى (١ ـ ٧٤٥) : وهذا لايعرف اسمه.

(١٢) يهودى لم يكن فى زمانه أعلم منه بالتوراة. وفى ا : صورياء ـ ممدودا. والمثبت فى ب. وهو يمد ويقصر.

وأخوه ، وكعب بن أسد ، والزَّبير بن باطِياَ ، وغيرهم مِنْ علماء اليهود ، ممَّنْ حمله الحسدُ والنَّفَاسَة[١] على البقاء على الشقاء[٢] .

والأخبارُ فى هذا كثيرة لا تَنْحصر .

وقد قَرَع[٣] أسماعَ اليهودِ والنصارى بما ذَكَر أنه فى كتبُهم من صفته وصفةِ أصحابه ، واحتجَّ عليهم بما انطَوَتْ عليه من ذلك صحُفُهم ، وذمَّهم بتحريفِ ذلكَ وكِتْمانِه ، ولَيِّهِم[٤] ألْسِنَتهم ببيانِ أمره ، ودعوتَهم إلى المُبَاهَلة[٥] على الـكاذب ؛ فما مِنْهم إلّا مَنْ نفرَ[٦] عن معارضته ، وإبداء ما ألزمهم مِنْ كتبُهم إظهارَه .

ولو وجدوا خلافَ قوله لـكان إظهارُه أهونَ عليهم من بَذْلِ النفوس والأموالِ وتخريب الدِّيَار[٧] ونَبْذِ القِتال[٨] ، وقد قال لهم[٩] : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بالتوراة فاتلُوهاَ إنْ كنْتم صادِقين ﴾ .

(١) النفاسة : المنافسة .

(٢) أى إصراره على كفره أو ارتداده عنادا .

(٣) القرع : الضرب والصدم بما يسمع له صوت . ويكون بمعنى التوبيخ والتعيير .

(٤) ليهم ألسنتهم : صرفها إلى غيرها حسدا وبغيا ، فتركوا بيانه وعدلوا عنه إلى غيره ويقال : لوى لسانه بكذا : أى كذب .

(٥) المباهلة : الملاعنة ؛ بأن يقول كل منهما : لعنة الله على الظالم والـكاذب منا .

(٦) نفر : أعرض وهرب . وفى ب : فر .

(٧) وتخريب الدار : كما وقع ليهود خيبر وبنى النضير .

(٨) نبذ القتال : تركه .

(٩) سورة آل عمران ، آية ٩٣ ، وقد قال لهم ذلك لما قرع أسماعهم بقوله تعالى: «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ؛وقوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر » ؛ فقالوا : لسنا بأول من حرمت عليه ، فقد حرم على إبراهيم ومن معه حتى انتهى الأمر إلينا ، فقال لهم : قل فأتوا بالتوراة . . . ليظهر أنها لم تحرم إلا عليهم لظلمهم وبغيهم .

إلى ما أنذَرَ به الكُهّان؛ مِثلُ شافع بن كُلَيب[١]، وشِقّ، وسَطِيح[٢]، وسَوَاد ابن قَارِب، وخُنَافِر، وأفعى نجْرَان[٣]، وجِذْل بن جِذْل الكِنْدى[٤]، وابن خَلَصة الدَّوْسى، وسُعْدَى بنت كُرَيز، وفاطمة بنت النعمان، ومَنْ لا يَنْعَدّ كَثْرَةً.

إلى ما ظهر على ألسنةِ الأصنام من نبوّته، وحُلُولِ وقتِ رسالتِهِ؛ وسُمِع مِنْ هواتفِ[٥] الجان، ومن ذبائح النُّصُب[٦]، وأجوافِ الصُّوَر[٧]؛ وما وُجد من اسْمِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم والشهادةِ له بالرسالة مكتوبا فى الحجارة والقبُورِ بالخطّ القديم ما أكثَرُهُ مشهورٌ؛ وإسلامُ مَنْ أسْلَمَ بسبب ذلك معلوم مذكور.

فصل

ومِنْ ذلك ما ظهر من الآيات [١٣٢] عند مَوْلِدِه، وما حكَتْه أمُّه ومَنْ حضره من العجائب، وكونُه رافعا رأسَه عند ما وضَعَتْه شاخصاً ببَصَره إلى السماء[٨]؛ وما رأتْهُ من النُّور الذى خرج معه عند ولادته[٩]، وما رأتْه إذ ذاكَ أمُّ

---

(١) شافع بن كليب: كاهن من كهان العرب، أخبر تبعا بخبر النبى صلى الله عليه وسلم، وبمهاجرته إلى المدينة. (٢) شق وسطيح: وسواد بن قارب، من كهان العرب.

(٣) أفعى نجران: ملك من ملوك نجران. (٤) جذل: ضبطت الجيم فى ا بالفتحة.

(٥) الهواتف: جمع هاتف، من الهتف؛ وهو الصوت العالى مطلقا، ثم خص بصوت يسمع ممن لا يرى شخصه؛ ولذا خص بالجن عند العرب.

(٦) ومن ذبائح النصب: ماسمع منها إذا قربت للذبح. والذبائح: جمع ذبيحة؛ وهى مايذبح من بقر ونحوه. والنصب: جمع نصب؛ وهو ماينصب من الحجارة والأصنام للعبادة. وذلك مثل ماسمع عمر رضى الله عنه من عجل قربه رجل ليذبحه قربانا لصنم؛ فقال: يا آل ذريح. أمر نجيح. رجل فصيح. يقول: لا إله إلا الله...

(٧) وأجواف الصور: أى ماسمع من الأصنام التى كانوا يصورونها والمراد أجواف التماثيل.

(٨) شاخصا ببصره إلى السماء: هذا إشارة إلى تعلقه صلى الله عليه وسلم بالملأ الأعلى وتوجهه لذلك من أول أمره. (٩) رواه أحمد، والبيهقى.

عثمان بن أبي العاص مِنْ تَدَلِّي النجوم[١]، وظهورِ النُّور عند ولادتِه، حتى ما تَنْظُرُ إلا النّور[٢].

وقولِ الشِّفَاء أمِّ عبد الرحمن بن عَوْف: لما سقَطَ صلَّى اللهُ عليه وسلم على يدىّ واستهلّ[٣] سمِعتُ قائلا يقول: رحِمَكَ اللهُ؛ وأضاءَ لى ما بين المَشْرِقِ والمغرب حتى نظرتُ إلى قُصورِ الرُّوم[٤].

وما تعرَّفتْ به حَلِيمةُ وزَوْجُها ظِئْراه[٥] مِنْ بركتِه، ودُرُورِ لَبَنِها له، وابنِ شارِفها[٦] وخِصْب غَنَمِها[٧]، وسُرْعةِ شَبَابه[٨]، وحُسْنِ نَشْأتِه؛. وما جرى من العجائب ليلةَ مولده؛ من ارْتجاج إيوان كسرى، وسقوطِ شُرُفاتِه[٩]، وغَيْضِ بحيرة طبريّة[١٠]، وخمودِ نارِ فارس، وكان لها[١١] ألفُ عام لم تَخْمُد.

---

(١) روى عنها أنها شهدت مولده، ورأت ماراته.

(٢) أى لاترى شيئا غير النور ورواه أيضا البيهقى والطبرانى، ودلائل النبوة لأبى نعيم: ١٦٨

(٣) لما سقط على يدى: لما وضعته أمه فنزل على يديها. واستهل: رفع صوته بأن عطس.

(٤) رواه أبو نعيم فى الدلائل: ١٦٩، وفيه: حتى نظرت إلى بعض قصور الشام، وكذلك فى طبقات ابن سعد: ١ – ٩٦

(٥) الظئر: المرضعة. وقد يطلق على أبى الرضاعة أيضا كما هنا.

(٦) الشارف: الناقة المسنة. وانظر فى ذلك دلائل النبوة لأبى نعيم: ١ – ١٩٨

(٧) كناية عن سمنها وكثرة لبنها. (٨) سرعة شبابه: سرعة نمو خلقه ونمو قامته.

(٩) شرفات: جمع شرفة: أعاليه. أو هى مايبنى على أعلى الحائط منفصلا بعضه من بعض: دلائل النبوة لأبى نعيم: ١٧٤

(١٠) غيض: مصدر غاض: إذا قل وذهب. وطبرية: بالشام معروفة من الأرض المقدسة: دلائل النبوة: ١٧٤

وفى نسيم الرياض (٣ – ٣١٤): قال البرهان: المعروف بالفيض بحيرة ساوة. ثم قال: أقول ما قاله غير صحيح، والعجب ممن تابعه على هذا مع ظهوره وساوة: بلدة أخرى بينها وبين الرى اثنان وعشرون فرسخا. والجواب الحق أن المراد بحيرة طبرية. وقد روى الحديث البيهقى، وابن أبى الدنيا، وابن السكن، كما نقله السيوطى وغيره. وكذلك رواه أبو نعيم فى الدلائل (١٧٤) وفيه: بحيرة ساوة. (١١) وكان لها: لتلك النار: دلائل أبى نعيم: ١٧٤

وأنه كان[١] إذا أكل مع عمّه أبى طالب وآلِهِ وهو صغير شبِعُوا ورَوُوْا ؛ فإذا غاب فأكلوا فى غَيْبَته لم يَشْبَعُوا .

وكان سائرُ وَلَدِ أبى طالب يُصبحونَ شُعْثًا[٢] ويُصْبح صلّى اللهُ عليه وسلم صَقِيلا دَهِينا كَحِيلا[٣] .

[قالت أمُّ أيمن حاضِنَتُه[٤] : ما رأيْتُهُ صلى اللهُ عليه وسلم شَكَا جُوعاً قطُّ ولا عطشا صغيرا ولا كبيرا][٥] .

ومن ذلك حراسةُ السماء بالشُّهُب[٦] ، وقَطْعُ رَصَدِ الشياطين[٧] ، ومنْعُهم اسْتِراقَ السَّمْعِ[٨] .

وما نشأ عليه مِن بُغْضِ[٩] الأصنام ، والعِفَّةِ عن أمور الجاهلية ؛ وما خصَّه اللهُ به مِنْ ذلك وَحَمَاهُ حتى فى سَتْرِه[١٠] فى الخبر المشهورِ عند بناء الكعبة ؛ إذ أخذ

---

(١) رواه ابن سعد وغيره عن ابن عباس : طبقات ابن سعد : ١ — ١١١

(٢) شعثا : جمع أشعث ، وهو المغبر المتغير لونه .

(٣) صقيلا : رائق اللون غير متغير البشرة . دهينا : أى كأن وجهه دهن بما جمل وجهه يبرق . كحيلا : مكحل العين . وهذا كله من غير صنع أحد .

(٤) حاضنته : هى التى كانت تربيه طفلا ، واسمها بركة .

(٥) فى هامش ا : من غير الرواية .

(٦) الشهب : شعل النار المرئية فى نجوم السماء . جمع شهاب .

(٧) رصد الشياطين : ترصدهم وترقبهم لسماع ماتقوله الملائكة فتحفظه وتلقيه للكهنة .

(٨) استراق السمع : أن يختفى أحد ليسمع كلام من لم يرد سماعه ، فكأنه يسرق الكلام الذى سمعه .

(٩) بغض : كره .

(١٠) فى ستره : أى ستر بدنه حتى لايرى أحد منه صلى الله عليه وسلم مالا ينبغى رؤيته كالعورة ؛ فكان لا يتعرى عند أحد .

إزارَه[١] ليجعَلَه على عاتِقِه[٢]، ليحملَ عليه الحجارةَ وتَعرَّى ؛ فسقط إلى الأرض حتى ردّ إزارَه عليه .

فقال له عمّه : ما بالُك[٣] ؟ فقال : إنى قد نُهيتُ عن التعرِّى .

ومن ذلك إظلاَلُ الله له بالغَمَام فى سفره[٤] .

وفى[٥] روايةٍ أنّ خديجةَ ونساءها رأَيْنَهُ لمّا قَدِم[٦]، ومَلَكَانِ يُظِلاّنه ؛ فذكرتْ ذلك لمَيْسَرة ؛ فأخبرها أنه رأى ذلك منذ خرج معه فى سفَره .

[وقد رُوِى[٧] أنّ حليمةَ رأتْ غمامةً تُظِلُّه ، وهو عندها .

ورُوِى ذلك عن أخيه من الرّضَاعةِ][٨] .

ومن ذلكَ أنه نزَلَ فى بعض أسفاره قبــل مَبْعَثِه تحت شجرةٍ يابسة ، فاعْشَوْشَبَ[٩] ما حولَها وأَيْنَعَتْ[١٠] هى فأشرقَتْ[١١] وتدلَّتْ عليه أغصانُها بمَحْضَر مَنْ رآه[١٢] .

---

(١) إزاره : ملحفته التى كان مؤتزرا بها . والحديث فى صحيح البخارى : ٥ ـ ٥١

(٢) عاتقه : مابين المنكب والعنق الذى يضع عليه الحجارة حتى لاتؤذيه .

(٣) ما بالك : ما شأنك ؛ وما حالك الذى عرض لك حتى سقطت ؟ وهذا الخبر فى الطبقات : ١ ـ ٩٣

(٤) كما رآه بحيرا لما سافر إلى الشام مع عمه ، ورآه ميسرة غلام خديجة لما سافر معه إلى الشام .

(٥) لابن سعد : فى الطبقات : ١ ـ ٨٣

(٦) لما قدم من سفره إلى الشام فى تجارة لها .

(٧) الذى رواه الواقدى ، وابن سعد ، وابن عساكر فى تاريخه .

(٨) فى هامش ا : من غير الرواية .

(٩) يابسة : ليست مخضرة ، وليس لها ورق . اعشوشب : ظهر به عشب لم يكن قبله .

(١٠) أينعت : ظهرت خضرة ورقها وزهرها ؛ أو ثمرها .

(١١) فأشرقت : نمت وعلت أغصانها .

(١٢) فى شرح القارى (١ ـ ٧٥٣) : قال الدلجى : لم أدر من رواه .

ومَيْلَ فَىْءِ[1] الشجرةِ إليه فى الخبرِ الآخر حتى أظلَّتْه .

وما ذُكِرَ مِنْ أنه كان لاظِلّ لشَخْصِه فى شمسٍ ولا قمر ؛ لأنه كان نُوراً .

وأنّ الذُّبابَ كان لا يَقَعُ على جَسدِه ولا ثيابه[2] .

ومن ذلك تَحْبِيبُ الخَلْوَةِ[3] إليه حتى أُوحِىَ إليه ؛ ثم إعلامُه بموته ودُنُوِّ[4] أجَلِه ، وأنّ قبْره فى المدينة وفى بَيْتِه ، وأنَّ بين بَيْتِه ومِنْبَره[5] رَوْضةٌ من رياض الجنّة[6] ؛ وتَخْيِيرِ الله له عند مَوْتِه[7] ؛ وما اشتمل عليه حديثُ الوفاةِ من كراماته ؛ وتشريفُه ، وصلاةُ الملائكةِ على جَسده على ما رَوَيْناهُ فى بعضها[8] .

واستِئْذَانُ مَلَكِ الموتِ عليه ، ولم يستأذِنْ على غيره قَبْلَه . ونداؤهم[9] الذى سمعوه ألاّ ينزعوا القميصَ عنه عند غُسْله .

وما رُوِى من تَعْزِية الخَضِر والملائكةِ[10] أهلَ بيتِه عند موته .

إلى ما ظهر على أصحابه من كرامتِه وبركتِه فى حياتِه وموتِه ، كاستِسْقاءِ عُمر بعمّه[11] ، وتبرُّكِ غيرِ واحدٍ بذرِّيته [١٣٣] .

---

(١) الفىء : الظل .

(٢) فى شرح القارى (١ — ٧٩٣) : قال الدلجى : لا علم لى بمن رواه . وفى شرح الخفاجى : وهذا رواه صاحب الوفا عن ابن عباس .

(٣) الخلوة : الوحدة والانفراد عن الناس للعبادة .

(٤) دنو : قرب . وهذا مما رواه الشيخان .

(٥) فى ا : وأن بين بيته وبين منبره ...   (٦) كما رواه أبو نعيم .

(٧) أى لما قرب موته خيره الله بين البقاء فى الدنيا والرحيل للآخرة . وقد رواه البيهقى فى دلائله .

(٨) فى بعضها : فى بعض طرق حديث الوفاة .

(٩) ونداؤهم : نداء الملائكة لهم .   (١٠) رواه البيهقى فى دلائله .

(١١) بعمه : أى العباس ؛ أى تقديمه فى دعاء الاستسقاء ، رواه البخارى (صحيح البخارى : ٢ — ٣٣) .

فصل

قال القاضي أبو الفضل[١] : قد أتينا في هذا الباب على نُكَتٍ مِنْ مُعجزاته واضحةٍ، وجُمَلٍ[٢] من علامات نبوَّته مُقْنِعَةٍ، في واحدٍ منها الكفاية والغُنْيَة[٣]، وتركنا الكثير سِوَى ما ذكَرْنا، واقتصَرْنا من الأحاديث الطوال على عَيْنِ الغَرَض وفَصّ[٤] المَقْصد، ومن كثير الأحاديث وغَرِيبها على ماصَحّ واشتهر إلا يسيرا من غَرِيبه[٥] مما ذكره مشاهيرُ الأئمة، وحذَفْنَا الإسناد في جُمهورها[٦]، طلبا للاختصار.

وبحَسْب هذا الباب لو تُقُصِّيَ[٧] أن يكونَ ديوانا جامعا[٨] يشتمل على مجلّدات عدة.

ومعجزاتُ نبيّنا صلى الله عليه وسلم أظهرُ من سائر معجزات الرسل بوَجْهين: أحدها — كَثْرتُها، وأنه لم يُؤْتَ نبيٌّ معجزةً إلا وعند نبيّنا مثلُها، أو ماهو أبلغُ[٩] منها.

وقد نبَّه الناسُ على ذلك؛ فإن أَرَدْتَه فتأمَّلْ فصولَ هذا الباب، ومعجزاتِ مَنْ تقدّم من الأنبياء — تقِفْ على ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو المصنف. وفي ب: قال المؤلف أبو الفضل رحمه الله.

(٢) النكت: جمع نكتة، وهي الأمر الدقيق الذي يحصل بفكر يقارنه. وجمل: جمع جملة، وهي الأمر المجمل.

(٣) الغنية: الاستغناء، والاكتفاء عن غيره؛ لأنه يدل دلالة قوية.

(٤) فص المقصد: الفص: الأصل، والمقصد: الأمر المقصود والمراد زبدة المقصود.

(٥) وغريبها: مما انفرد رواتها بها. من غريبه: أي ما يعد مستغربا غير معهود، أو غير مشهور.

(٦) جمهورها: في معظم الأحاديث وأكثرها.

(٧) تقصى: استوفى، واستقصى.

(٨) ديوانا جامعا: كتابا مستقلا مدونا.

(٩) أبلغ منها: أعظم وأقوى.

وأما كونُها كثيرة فهذا القرآن، وكلُّه مُعجزٌ؛ وأقلُّ ما يقعُ الإعجازُ فيه عند بعض أئمة المحقّقين سورةُ: ﴿إنَّا أعطيناكَ الكَوْثر﴾؛ أو آيةٌ[١] في قَدْرها.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ كلَّ آية منه كيف[٢] كانت معجزةً.

وزاد آخرون أنَّ كلَّ جملةٍ مُنْتظمةٍ[٣] منه معجزةٌ، وإن كانت من كلمة أو كلمتين.

والحقُّ ما ذكرناه أولا[٤]؛ لقوله تعالى[٥]: ﴿قل فَأْتُوا بِسُورةٍ مثلِهِ﴾؛ فهو أقلُّ ما تحدَّاهُمْ به، مع ما ينصُر[٦] هذا من نَظَر[٧] وتحقيقٍ يطولُ بسْطُه.

وإذا كان[٨] هذا ففي القرآنِ من الكلماتِ نحوٌ من سبعةٍ وسبعين ألفَ كلمة ونَيِّف[٩] على عددِ بعضهم، وعدَدُ كلماتِ: «إنَّا أعطيناكَ الكَوْثَر» - عَشْرُ كلماتٍ، فتجزَّؤُ[١٠] القرآنِ على نسبة عددِ «إنَّا أعطيناكَ الكوثر» أزيدُ من سبعة آلافِ جُزْء، كلُّ واحدٍ منها مُعجِزٌ في نفسه.

ثم إعجازُه - كما تقدّم - بوَجْهَين: طريقِ بلاغتِه، وطريقِ نَظْمِه[١١]؛ فصار

---

(١) آية في قدرها: أى مساوية لها فى الحروف والكلمات.

(٢) كيف كانت: طويلة بمقدار سورة أم لا. (٣) كل جملة منتظمة: مفيدة تامة.

(٤) ما ذكرناه أولا: من أن المعجز أقصر سورة أو مقدارها.

(٥) سورة يونس، آية ٣٨. والضمير فى «مثله» للقرآن.

(٦) ينصر هذا: يقويه ويؤيده. (٧) من نظر: أى من فكر وتدبر.

(٨) وإذا كان هذا: وإذا ثبت أن ماتحداهم به هو هذا المقدار الأقل.

(٩) ونيف: وزيادة. (١٠) هذا فى ا، ب.

(١١) طريق بلاغته: أى مافيه من مراعاة الوجوه التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال. وطريق نظمه: أى أسلوبه وكونه على نسق لايشبه غيره من الكلام نظما وسجعا ونثرا، وتناسب كلماته وجمله، وإيتاء كل كلمة منه مالستحقه، وتنزيلها فى محل لايليق بها غيره، كما يعرفه من ذاق طعم البلاغة؛ فقارئه لايمله وإن كرره كما لا يخفى على من تأمله حق التأمل، ونظر فيه بنور الإيمان.

فى كلّ جُزْء من هذا العدد مُعْجِزَتان ، فتضاعفَ العدَدُ من هذا الوَجْهِ .

ثم فيهِ وجوهُ إعجازٍ أُخَر من الإخبارِ بعلوم الغيب ؛ فقد يكونُ فى السورة الواحدة مِن هذه[١] التجزئةِ الخَبَرُ عن أشياء من الغيبِ ، كلُّ خَبَرٍ منها بنفسه معجزٌ ؛ فتضاعفَ العدَدُ كرّةً أخرى .

ثم وجوهُ الإعجازِ الأُخَر التى ذكرناها[٢] توجِبُ التضعيفَ ، هذا فى حقّ القرآنِ ، فلا يكادُ يأخذُ العدُّ[٣] معجزاتِه ، ولا يَحْوِى الحَصْرُ بَرَاهِينَه .

ثم الأحاديثُ الواردةُ ، والأخبارُ الصادرةُ عنه صلى الله عليه وسلم فى هذه الأبواب[٤] وعما دلّ على أمره[٥] مما أشرنا إلى إجْمالِه يبلغُ نحوا من هذا .

الوَجْه الثانى ـ وضوحُ معجزاته صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فإنّ معجزاتِ الرُّسلِ كانت بقَدْرِ هِمَم أهلِ زمانهم ، وبحسَب الفنّ الذى سما فيه قَرْنه[٦] .

فلما كان زمنَ موسى غايةُ عِلْمِ أهـلِه السِّحْرَ بُعث إليهم موسى بمعجزة تُشْبِه ما يدّعون قُدْرتَهم عليه ، فجاءهم منها ما خرق عادتَهم ، ولم يكن فى قُدْرتِهم[١٣٤] ، وأبْطَل سِحْرَهم .

وكذلك زمَنُ عيسى أَغْنَى[٧] ما كان الطبُّ ، وأوفر ما كان أهلُه[٨] ؛ فجاءهم

(١) من هذه التجزئة : أى الأجزاء المذكورة المضاعفة من جهة الإعجاز .
(٢) التى ذكرناها : وهى ذكر للغيبات . (٣) فى ا : العدد .
(٤) فى هذه الأبواب : أى أبواب إعجاز القرآن والتحدى به ، وأبواب معجزاته عليه السلام .
(٥) على أمره : على نبوته وعلو شأنه .
(٦) وبحسب الفن : بمقدار النوع . سما : اشتهر . قرنه : عصره . والمراد به أهله .
(٧) أغنى ما كان الطب : أى أوفى وأعظم ما كان فى عصره وعهد رسالته علم الطب .
(٨) وأوفر ما كان : أى أكثر ما كان فى زمانهم .

أمرٌ لايقدرون عليه ، وأتاهم مالم يحتسبوه(١) من إحياء الميّتَ ، وإبراء الأكْمه(٢) والأبرصِ دونَ معالجةٍ ولا طِبّ .

وهكذا سائرُ معجزاتِ الأنبياء .

ثم إنَّ الله تعالى بعثَ محمداً صلّى الله عليه وسلم ، وجملةُ معارفِ العرب وعلومها أربعة : البلاغةُ ، والشِّعرُ ، والخبرُ(٣) ، والكِهانة(٤) ؛ فأَنزل عليه القرآنُ الخارق لهذه الأربعة فصولٍ(٥) من الفصاحة ، والإيجاز ، والبلاغةِ الخارجة عن نَمَط(٦) كلامهم ؛ ومن النظم الغريب ، والأسلوب العجيب الذى لم يهتدُوا فى المنظوم إلى طَريقه ، ولا علموا فى أساليب الأوزان مَنْهَجه ؛ ومن الأخبار عن الكوائن(٧) والحوادثِ والأسرارِ والمخبّآت والضمائر(٨) ؛ فتوجَدُ على ما كانت ، ويعترفُ المُخْبَرُ عنها بصحةِ ذلك وصِدْقه ، وإن كان أَعْدَى العدوّ .

فأبطلَ الكِهانةَ التى تصدُقُ مرةً وتكذب عَشْرًا ؛ ثم اجتثّها(٩) من أصْلِها برَجْم الشُّهُب(١٠) ، ورَصْدِ النجوم .

---

(١) مالم يحتسبوه : ما لم يخطر ببالهم ، وقدرة حسابهم ، وما لم يترقبوه ، ويظنوه لديه .

(٢) الأكمه : الذى ولد أعمى مطموس العين .

(٣) والخبر : أى الخبر عما سلف ، ومالهم من الوقائع والأيام والأنساب والمنازل .

(٤) الكهانة : معاناة علم الغيب بتلقيها عن الجن . وتكسر الكاف ، وتفتح . وفى ا ، ب كتب عليها « معا » .

(٥) الخارق : المخالف . والأربعة فصول : هى المتقدمة ،وهى البلاغة ،والشعر ،والخبر، والكهانة .

(٦) النمط : الجنس والطريقة ؛ أى لا يعرفون مثل بلاغته لخروجها عن جنس بلاغتهم وما يعهدونه فى مخاطباتهم ومحاوراتهم .

(٧) الكوائن : جمع كائن ؛ أى عما سيكون فى المستقبل من المغيبات .

(٨) والضمائر : أى ما أضمروه فى أنفسهم كقصة مسجد الضرار .

(٩) اجتثها : اقتلعها بعد إبطالها ؛ أى أزالها بالكلية .

(١٠) برجم الشهب : أى برمى الشياطين بشهب تمنعهم من استراق السمع .

وجاء[١] من الأخبار عن القرون السالفة ، وأنباء الأنبياء ، والأُمم البائدة[٢] ، والحوادث الماضية ـ ما يُعْجِزُ مَنْ تفرَّغَ لهذا العِلم عن بعضه على الوجوه التي بسطناها وبيّنا المُعْجِزَ فيها .

ثم بقِيَتْ هذه المعجزَةُ[٣] الجامعةُ لهذه الوجوهِ إلى الفصول الأُخَرِ التي ذكرناها في معجزاتِ القرآن ثابتةً إلى يوم القيامة بيِّنَةَ الحجةِ لكل أُمة تأتي ، لا يَخْفى وجوهُ ذلك على مَنْ نظَرَ فيه ، وتأمَّل وجوهَ إعجازه .

إلى ما أخبر به[٤] من الغيوب على هذه[٥] السبيل ؛ فلا يمرّ عَصْر ولا زَمن إلا ويظهر فيه صِدْقُه بظهور مُخْبَره[٦] على ما أَخبر ؛ فيتجدَّدُ الإيمانُ ، ويتظاهر[٧] البُرْهان ؛ وليس الخبَر كالعِيان[٨] كما قيل .

وللمشاهدة زيادةٌ في اليقين ، والنفسُ أَشدُّ طمأْنينةً[٩] إلى عَيْن اليقين منها إلى علم اليقين ؛ وإن كان كلٌّ عندها حقًّا .

وسائر معجزاتِ الرسلِ انقرضت بانقراضهم ، وعُدِمت بعَدَم ذَوَاتها[١٠] ؛

---

(١) وجاء : أي في القرآن .

(٢) البائدة : الهالكة الفانية في الزمن السابق .

(٣) هذه المعجزة : أي القرآن . (٤) أي مع ما أخبر به من المغيبات .

(٥) في ا ، ب : هذه . والسبيل يذكر ويؤنث .

(٦) صدقه : أي صدق القرآن ، أو النبي . مخبره : ما أخبر به ، أو خبره .

(٧) ويتظاهر البرهان : ويقوى الدليل ويزيد قوة .

(٨) العيان ـ بكسر العين : المعاينة والمشاهدة .

(٩) النفس أشد طمأنينة إلى ما تتيقنه بالمعاينة والمشاهدة منها إلى العلم المتيقن بالبرهان القاطع .

(١٠) انقرضت : انقطعت ، وذهبت معهم بسبب ذهابهم . بعدم ذواتها : أي تلك المعجزات تعدم فتنقرض عند ذهاب الأنبياء من الدنيا .

ومعجزةُ نبيّنا صلى اللهُ عليه وسلم لاتَبِيد[1] ولا تنقطع، وآياتُه تتجدّدُ ولا تضمَحِلُّ؛ ولهذا أشار صلى اللهُ عليه وسلم بقوله فيما حدثنا القاضى الشهيد أبو علىّ، حدثنا القاضى أبو الوليد، حدثنا أبو ذرّ، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهَيْثَم؛ قالوا: حدثنا الفِرَبْرِى، حدثنا عبد العزيز بن عَبْد الله، حدثنا الليثُ، عن سَعِيد، عن أبيه، عن أبى هُرَيرة رضى الله عنه، عن النبى صلى اللهُ عليه وسلم؛ قال[2]: مامِن الأنبياء نبىٌّ إلا أُعْطِى من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البَشَر؛ وإنما كان الذى أُوتيتُ وَحْياً أوحاه[3] اللهُ إلىّ؛ فأرجو أنّى أكثرهم تابِعاً يوم القيامة.

هذا معنى الحديث عن بعضهم؛ وهو الظاهر والصحيحُ إن شاء الله.

وذهب غيرُ واحدٍ من العلماء فى تأويل هذا الحديث وظهور معجزة[4] نبيّنا صلى اللهُ عليه وسلم إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وَحْياً وكلاما لايمكن التخييلُ فيه، ولا التحيُّل عليه، ولا التشبيه[5]؛ فإنّ غيرها من معجزاتِ الرسل قد رَامَ[6] المعاندون لها بأشياء طمِعُوا فى التخييل بها على الضّعَفاء كإلقاء السَّحَرة حِبالَهم وعِصيّهم [١٣٥] وشِبْهُ هذا مما يخيِّلُه الساحرُ، أو يتحيَّل فيه.

---

(١) لاتبيد: لاتفنى.

(٢) فى حديث رواه البخارى، ومسلم، والنسائى. واللفظ للروى هنا للبخارى: صحيح البخارى: ٩ — ١١٣

(٣) أى ليس نبى منهم إلا أعطاه الله من المعجزات شيئا ألجأ من شاهده إلى الإيمان به.

(٤) يعنى القرآن المعجز.

(٥) التخييل: من الخيال. والتحيل: من الحيلة. أى لايمكن الواقف عليه أن يقول إنه تخييل وتمويه لا أصل له، ولا أن يعمل حيلة فى الإتيان بمثله، كما فعل سحرة موسى بحبالهم إذ جعلوها تتحرك كعصاه.

(٦) رام: قصد، وطلب.

والقرآنُ كلامٌ ليس للحيلةِ ولا للسِّحْر، ولا التخييل فيه عملٌ[١] ؛ فكان من هذا الوجه عندهم[٢] أظهرَ من غيره من المعجزات[٣] ، كما لا يتمُّ لشاعرٍ ولا لخطيب أن يكون شاعرا أو خطيبا بضَرْبٍ من الحِيَل والتَّمْوِيهِ[٤] .

والتأويلُ الأول أخلصُ وأرضى[٥] .

وفي هذا التأويل الثاني مايغمَّض عليه الجَفْنُ ، ويُغْضى[٦] .

ووَجْهٌ ثالث[٧] على مَذْهبِ مَنْ قال بالصَّرْفَة[٨] ، وأنَّ المعارضةَ[٩] كانت

---

(١) عمل : تأثير . فإن ساحرا لوأتى عاميا لا قدرة له على كلام حسن ، ثم سحره بجميع أنواع سحره ، لايمكنه أن يقوم في ناد منشدا أو خطيبا ؛ فذلك أمر لا يمكن إيجاده لغير خالق القوى ؛ فنجد الجلف الأعرابي يتكلم بكلام عند أعقل الناس وأظرفهم لايمكنه أن يأتي بشيء منه .

(٢) عندهم : عند المفسرين لهذا الحديث .

(٣) وذلك لعدم قبول التخييل والتمويه .

(٤) التمويه : مأخوذ من قولهم : موه النحاس بذهب أو فضة ليوهم من رآه أنه ذهب أو فضة .

(٥) الأول : الذي قال إنه الظاهر الصحيح . وأخلص: أصفى من الكدر، أي الإشكال. أو المراد : أجود ، وأكثر سلامة . وأرضى : أكثر رضا وقبولا عند العقول السليمة .

(٦) مايغمض : ضبطت في ا بفتح الميم، وفي ب بفتحها مشددة ، أي ينطبق. ويغضى : من أغضى الجفن ، إذا أطبقه ، أو بمعنى سكت .

(٧) ووجه ثالث : في إعجاز القرآن ، وأنه أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم . وفي هامش ا : رابع .

(٨) بالصرفة : أي إن إعجازه بصرف الله قدرتهم وتمكنهم من معارضته ، مع أنهم بحسب الجبلة قادرون على الإتيان بمثله لولا ما ذكر .

وإلى ذلك ذهب النظام ، وكثير من المعتزلة ، والشريف المرتضى من الشيعة .

(٩) المعارضة له : الإتيان بمثله .

فى مقدور البَشر ؛ فصُرِفوا عنها[1]، أو على أحدِ مذهبى أهلِ السنةِ من أنّ الإتيانَ بمثله مِنْ جنس مقدورهم ؛ ولـكن لم يكن ذلك قَبلُ ، ولا يكون بعدُ؛لأن الله تعالى لم يُقدِرهم ، ولا يُقدِرهم عليه .

وبين المذهبين فرقٌ بَيِّن[2] ، وعليهما جميعا[3] فترْكُ العرب الإتيانَ بما فى مقدورهم ، أو ماهو من جِنْس مقدورهم[4]،ورِضاهم بالبلاء والجلاء ،والسِّباء[5] والإذلال ، وتغيير الحال ، وسَلْبِ النفوسِ والأموالِ[6] ، والتقريع والتوبيخ ، والتعجيز والتهديد والوعيد أَبْيَنُ آيةٍ للعجْزِ عن الإتيان بمثله ، والنـكُولِ[7] عن معارضته ؛ وأنهم مُنِعوا عن شىء هو من جِنْس مقدورهم .

وإلى[8] هذا ذهب الإمامُ أبو المعالى الُجوينى[9] وغيره ؛ قال : وهذا عندنا

---

(١) فصرفوا عنها : إما بسلب قدرتهم ودواعيهم ، أو بسلب علمهم بتأليف كلام مثله وتمكنهم منه .

(٢) هذا الفرق ظاهر لتمكنهم على الأول من الإتيان بمثله ، لـكن صرفوا عنه . ولعدم تمكنهم منه على الثانى مع أنه من جنس مقدروهم ، ومثله فى الجملة .

(٣) وعليهما جميعا : على هذين القولين ، والمذهبين .

(٤) الإتيان بما فى مقدورهم على المذهب الأول ؛ وتركهم ما هو من جنس مقدورهم على المذهب الثانى .

(٥) البلاء : ماابتلوا به من المحن بسبب عنادهم ، والجلاء : إخراجهم من ديارهم وأوطانهم . والسباء : سبى أولادهم وأهلهم واسترقاقهم .

(٦) سلب النفوس : بالقتل والفتك بهم ، وأخذ الأموال فى الغنائم .

(٧) النـكول : النـكوص ، والرجوع ، والإعراض ، والامتناع .

(٨) وإلى هذا المذهب ؛ وهو أنهم قادرون على شىء من جنسه عاجزون عن مثله لا بالصرفة .

(٩) الإمام الجوينى : هو عبد الملك بن عبدالله بن يوسف النيسابورى الشافعى إمام الحرمين أعلم أئمة الشافعية ، وهو إمام أهل السنة عربا وعجما ، فرد الأمة . توفى سنة ٤٧٨هـ .

أبلغُ فى خَرْقِ العادةِ بالأفعال البديعة فى أنفسها[١] ، كقَلْبِ العصا حيَّةً ونحوها ، فإنه قد يسبِقُ إلى بالِ الناظرِ بِدَارًا[٢] أنَّ ذلك من اختصاصِ صاحبِ ذلك بمزيةِ معرفةٍ[٣] فى ذلك الفنّ ، وفَضْلِ علمٍ إلى أنْ يَرُدَّ ذلك صحيحُ[٤] النَّظَرِ .

وأما التحدِّى للخلائق مِئِين من السنين بكلامٍ مِنْ جِنْسِ كلامهم ليَأْتُوا بمثله فلم يَأْتُوا ، فلم يَبْقَ بعد توفُّر الدَّوَاعِى[٥] على المعارضة ثم عَدَمِها إلاّ مَنْعُ اللهِ الخَلْقَ[٦] عنها بمَثَابةِ[٧] ما لو قال نبىٌّ : آيتى أنْ يَمْنَعَ اللهُ القيامَ عن الناس مع مقدرتهم عليه ، وارتفاعِ الزَّمَانَةِ[٨] عنهم ؛ فكان ذلك ؛ وعَجَّزَهُم اللهُ تعالى عن القِيام — لكان ذلك من أَبْهَرِ[٩] آيةٍ ، وأظهر دلالةٍ . وبالله التوفيق .

وقد غاب عن بعضِ العلماء وَجْهُ ظهورِ آيتِه على سائر آياتِ الأنبياء ، حتى احتاج للعُذْرِ عن ذلكَ بدقَّةِ أفهامِ العَرَبِ ، وذكاء ألبابِها[١٠] ، ووُفُور عقولِها ، وأنهم أدركوا المُعْجِزَةَ فيه بفِطْنَتِهم[١١] ، وجاءهم[١٢] مِنْ ذلك بحسب إدْرَاكهم ، وغَيْرُهم

---

(١) البديعة : المبتدعة الغريبة . فى أنفسها : أى فى حد ذاتها .

(٢) بدارا : أول نظرة .

(٣) صاحب ذلك الأمر الذى ظهر على يديه . بمزية معرفة : بزيادة معرفة امتاز بها عمن لم يقدر عليه .

(٤) صحيح النظر : أى يرده بالتأمل والتدبر فيه حتى يعلم إعجازه .

(٥) توفر الدواعى : كثرة مايدعوهم إلى معارضته ويحثهم عليها، من الحمية الجاهلية . . .

(٦) منع الله الخلق عنها : بالصرفة ، أو بعدم القدرة على نوعه دون جنسه كما تقدم فى المذهبين .

(٧) بمثابة : بمنزلة .

(٨) ارتفاع الزمانة عنهم : ألا يكونوا مقعدين ؛ وهو بيان لقدرتهم على القيام .

(٩) أبهر آية : أقوى وأظهر معجزة .

(١٠) ألبابها : عقولها .

(١١) بفطنتهم : قوة ذكائهم .

(١٢) وجاءهم من ذلك : أى حصل فى نفوسهم من معرفة إعجازه وظهوره على غيره ، على مقدار إدراكهم وقوته .

مِنَ القِبْطِ وبنى إسرائيل وغيرهم لم يكونُوا بهذه السبيل ؛ بل كانوا من الغَبَاوَةِ وقِلَّةِ الفِطْنَة بحيث جَوَّزَ عليهم فرعونُ أنه ربُّهم ، وجوَّز عليهم السامرىُّ[١] ذلك فى العِجْل بعد إيمانهم ، وعبَدُوا المَسِيحَ مع إجماعهم على صَلْبه ؛ وما قتلوه وما صَلَبُوه ولـكن شُبِّهَ[٢] لهم ؛ لجاءتهم من الآيات الظاهرة البيِّنة للأبصار بقَدْرِ غِلَظ أفهامهم مالا يشكّون فيه ، ومع هذا[٣] فقالوا[٤] : « لن[٥] نؤمنَ لكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً[٦] » . ولم يصبروا على المنّ والسَّلْوَى[٧] ؛ واستبدلوا الذى هو أَدْنى[٨] بالذى هو خير .

والعربُ على جاهليتها أكثرها يعترفُ بالصانع[٩] ، وإنما كانت تتقرّب بالأصنام إلى الله زُلْفى[١٠] .

ومنهم مَنْ آمنَ[١١] بالله وَحْدَه من قَبْلِ الرسول صلى الله عليه وسلم [١٣٦] بدليل عَقْله وصفاء لُبِّه .

---

(١) السامرى : رجل من بنى إسرائيل . وقد أوهمهم أن العجل ربهم فعبدوه . قال القارى (١ — ٧٦٣) : واسمه موسى بن ظفر .

(٢) شبه لهم : ألقى شبهه على رجل إسرائيلى ، فظن اليهود أنه عيسى ؛ فصلبوه ؛ أى صلبوا من ألقى عليه الشبه .

(٣) ومع هذا : ومع هذا الظهور . (٤) هذا فى ا ، ب .

(٥) سورة البقرة ، آية ٥٥

(٦) جهرة : معاينة بأبصارنا ، لشكهم فيما أتاهم به .

(٧) المن : طل كالعسل ينزل على الأشجار فيجمع ويؤكل . والسلوى : طائر كالسمانى . وكانوا لما خرجوا من التيه قالوا لموسى : أخرجتنا من العمران للقفر ، فادع الله أن يرزقنا ، فرزقهم المن . ثم سألوه أن يطعمهم من اللحوم ، فأتاهم بالسلوى ، فكانوا يأخذونها بأيديهم ؛ ثم قالوا : لن نصبر على طعام واحد .

(٨) الذى هو أدنى : أى طلبوا بدلا أدنى مما عندهم ، وهو الفول والعدس والبصل .

(٩) بالصانع : أى بوجوده تعالى .

(١٠) زلفى : قربى ؛ أى لتتقرب إلى الله .

(١١) كزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت .

ولما جاءهم الرسولُ بكتاب الله فهِموا حكمَتَه ، وتبيَّنُوا بفَضْل إدراكهم لأول وهلةٍ[١] معجزتَه ؛ فآمَنُوا به ، وازدادوا كل يوم إيمانا ، ورفَضُوا الدُّنيا كلَّها فى صحبته[٢] ، وهجروا ديارَهم وأموالَهم ، وقتلوا آباءهم وأبناءهم فى نُصْرَته ، وأَنَّى[٣] فى معنى هذا بما يلوحُ له رَوْنَقٌ ، ويُعجِبُ منه زِبْرِج[٤] لو احتِيج إليه [وحُقِّق][٥] ؛ لكنَّا[٦] قدَّمْنَا مِنْ بيان معجزةِ[٧] نبينا صلى اللهُ عليه وسلم وظهورِها ما يُغْنِى عن ركوب بُطون هذه المسالِك وظُهورها[٨].

وبالله أستعين . [وهو حَسْبِى ، ونعم الوكيل][٩].

آخر القسم الأول ، ويليه القسم الثانى

---

(١) لأول وهلة : فى أول نظرة بالبديهة ؛ يقال: لقيته أول وهلة : أى أول شىء .

(٢) فى صحبته : أى لاختيار صحبته على كل شىء ، أو ببركة متابعته .

(٣) وأنى : أى هذا القائل الذى غاب عنه ماتقدم .

(٤) يلوح : يظهر . رونق : لفظ حسن . والزبرج : الزينة والوشى الذى هو كالطلاء . وفى هامش ا : الزبرج : الزينة . وهو أيضا الذهب .

(٥) حقق : بينت حقيقته . وليس مابين القوسين فى ب .

(٦) فى ب : ولكنا .

(٧) فى ب : معجزات .

(٨) يريد مايغنى عن ادعاء مثل هذه الأمور .

(٩) ليس فى ا .

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٩٦٦ / ١٩٧٧

الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض
أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي
٤٧٦ هـ - ٥٤٤ هـ

تحقيق
علي محمد البجاوي

الجزء الثاني

الناشر
دار الكتاب العربي
ص.ب: ٥٧٦٩-١١ بيروت

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت سنتر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢/٨٠٠٨١١/٨٠٥٤٧٨

تلكس: ٤٠١٣٩ .L.E كتاب برقيا: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني

فيما يجب على الأنام من حقوقه صلى الله عليه وسلم[1]

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله : وهذا قِسْمٌ لخّصْنَا فيه الكلامَ في أربعة أبواب على ما ذكَرْنَاهُ في أولِ الكتاب ، ومجموعها[2] في وجوب تصديقه واتِّبَاعِه [في سُنّتِه][3] وطاعتِه ، ومحبّتِه ومُنَاصحتِه[4] ، وتوقيرِه وبرِّه[5] ، وحُكْمِ الصلاةِ عليه والتسليم ، وزيارةِ قَبْرِهِ صلّى الله عليه وسلم :

الباب الأول

في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقرر بما قدّمْنَا ثبوتُ نبوّته وصحةُ رسالته ، وجب الإيمانُ به وتصديقُه فيما أتى به ؛ قال اللهُ تعالى[6] : ﴿ فآمِنُوا باللهِ ورسُولِه والنُّورِ الذي أَنْزَلْنَا ﴾ .

وقال[7] : ﴿ إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهداً ومبَشِّرًا ونَذِيرا . لتؤْمِنُوا باللهِ ورسوله ﴾ .

---

(١) الأنام: الخلق والناس . والحقوق : جمع حق ؛ وهو مايستحقه عليه الصلاة والسلام.

(٢) مجموعها : أى محصلها وإجمالها . (٣) ليس في ب .

(٤) ومحبته : بأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه وأهله وماله . ومناصحته : إرادة الخير له . وفي قبول نصحه له في أمره ونهيه ، ونصحه لرسوله ودينه .

(٥) توقيره : تعظيمه والتأدب معه . وبره : بذل مافي وسعه له من المال وغيره من أمور الدنيا . (٦) سورة التغابن ، آية ٨ . والنور الذي أنزلنا : أى ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم من الشريعة . وقيل: المراد به القرآن .

(٧) سورة الفتح ، آية ٨ ، ٩ . شاهدا على من صدق وكذب ليثاب أو يعاقب . ومبشرا لمن آمن بسعادة الدارين ، ونذيرا : منذرا ومخوفا لمن عصاك .

وقال[1] : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ ورسولِهِ النبيِّ الأُمِّيِّ الذى يُؤْمِنُ بِاللهِ وكلماتِه واتَّبِعُوهُ لعلكم تَهْتَدُون ﴾ .

فالإيمانُ بالنبيِّ محمد صلّى الله عليه وسلم واجبٌ مُتَعَيِّن[2] لا يتمُّ إيمانٌ[3] إلا به ، ولا يصحُّ إسلامٌ إلّا معه ؛ قال الله تعالى[4] : ﴿ ومَنْ لم يُؤْمِنْ بِاللهِ ورسُولِه فإنّا أَعْتَدْنا للكافرين سَعِيرا ﴾ .

حدثنا أبو محمدٍ الخُشَنِى الفقيه بقراءتى عليه ، حدثنا الإمام أبو على الطبرى ، حدثنا عبد الغافر الفارسى ، حدثنا ابن عَمْرَوَيه ، حدثنا ابنُ سُفْيان ، حدثنا أبو الحُسَين ، حدثنا أُمَيَّةُ بن بِسْطامَ[5] ، حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، حدثنا رَوْح ، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال[6] : أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ[7] الناسَ حتى يشهدوا أن لا إلهَ إلا الله ، ويُؤمنوا بى وبما جئتُ به ؛ فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا[8] منّى دِمَاءَهُم وأموالَهم إلّا بحقّها ، وحسابُهم على الله[9] .

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٥٨ . الأمى : المنسوب إلى أم القرى ، وهى مكة المكرمة . أو المنسوب إلى أمة العرب التى غالبها لم يقرأ أو يكتب . أو المنسوب إلى الأم ، يعنى على الوصف الذى خرج به من بطن أمه ؛ ما اكتسب شيئا من القراءة والكتابة ونحوهما (شرح القارى : ٢ — ٤) . وكلماته : أى بما أنزل عليه وعلى غيره من الرسل .

(٢) متعين : فرض عين ، لا يمكن التخلص من حكمه .

(٣) فى ب : الإيمان .

(٤) سورة الفتح : آية ١٣ . أعتدنا : أعددنا .

(٥) ضبطت الميم فى « بسطام » بالفتح والكسرة وفوقها « معا » .

(٦) حديث رواه مسلم ، والبخارى : صحيح مسلم : ٥٢ ، ٥٣ ، وصحيح البخارى : ١ — ١٤ .

(٧) أمرت : أمرنى الله ، إذ لا آمر له صلى الله عليه وسلم سواه . أن أقاتل الناس : أى بمقاتلة الكفار ؛ أى إلا من أقر بالجزية .

(٨) عصموا : صانوا ، وحفظوا ، ومنعوا .

(٩) إلا بحقها : إلا أن تستحق إباحة دمائهم بقتل نفس ظلما أو نحوه ؛ أو تستحق أموالهم بمنع الزكاة أو ثبوت حق عليهم .

=

قال القاضى أبو الفضل[١] :

والإيمانُ به — صلّى اللهُ عليه وسلم هو تصديقُ نبوّتِه ورسالةِ اللهِ له، وتصديقُه فى جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقةُ تصديقِ القَلْب بذلك شهادةُ اللسان[٢] بأنه رسولُ الله؛ فإذا اجتمع التصديقُ به بالقلب، والنطقُ بالشهادةِ بذلك باللسان، تمّ الإيمانُ به والتصديقُ له كما ورَدَ فى الحديث نَفْسِه[٣] مِنْ روايةِ عَبْــد الله ابن عُمَر رضى الله عنهما: أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إلهَ إلاّ الله، وأنّ محمداً رسولُ الله[٤].

وقد زادَهُ وُضوحا فى حديث جبريل[٥]؛ إذ قال[٦]: أَخْبِرْنى عن الإسلام، قال النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم: أَنْ تشهدَ أَنْ لا إلهَ إلا اللهَ، وأنّ محمداً رسولُ الله... وذكر أركانَ الإسلام.

فقد قرّر[٧] أنّ الإيمانَ به محتاجٌ إلى العَقْدِ بالجَنَان[٨]، والإسلامَ به مضطرٌّ إلى النطق باللسان[٩] [١٣٧].

وهذه الحالُ[١٠] المحمودةُ التامةُ.

= وحسابهم على الله؛ أى أمرهم ـ بعد ماذكر ـ موكول إلى الله تعالى إذا شاء حاسبهم على ما أسروه فى أنفسهم، وما لم يقف أحد عليه من الكفر والمعاصى؛ فيثيب من يشاء ويعاقب من يشاء.

(١) هو المؤلف. وفى ب: قال المؤلف رحمه الله.

(٢) شهادة اللسان: بنطقه واعترافه.

(٣) الحديث السابق الذى رواه المصنف عن أبى هريرة.

(٤) هذه رواية مسلم.

(٥) الذى رواه الشيخان: صحيح البخارى: ١ — ٢٠، وصحيح مسلم: ٣٩، ومسند أحمد: ١ — ٥٢

(٦) إذ قال له جبريل.

(٧) قرر: بين.

(٨) العقد: الاعتقاد الجازم. الجنان: القلب.

(٩) مضطر: محتاج إليه ضرورة، لأنه لا يظهر الانقياد بدونه إلى النطق باللسان: ليعلم مافى قلبه.

(١٠) وهذه الحالة: أى اعتقاد الجنان، والنطق باللسان.

وأما الحالُ المذمومةُ فالشهادةُ باللسانِ دونَ تصديقِ القلْب ، وهذا هو النِّفَاق[١] ؛ قال الله تعالى[٢] : ﴿ إذا جاءكَ المنافقُون قالوا : نَشْهَدُ إنَّكَ لرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لرَسُولُه ؛ واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المنافقين لـكاذِبُونَ ﴾ ؛ أى كاذبون فى قولهم ذلك[٣] عن اعتقادهم وتصديقهم ، وهم لا يَعْتَقدونه ؛ فلما لم تُصدِّق ذلك ضمائرُهم لم ينفَعْهم أنْ يقولوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ؛ فخرجوا عن اسْمِ الإيمان ، ولم يكن لهم فى الآخرة حُـكْمُه[٤] ؛ إذ لم يكن معهم إيمان ، ولحِقُوا بالـكافرين فى الدَّرْكِ الأسفَلِ[٥] من النار ، وبقى عليهم حكمُ الإسلام[٦] ، بإظهار شهادةِ اللسان، فى أحكام الدنيا المتعلقةِ بالأئمة وحكامِ المسلمين الذين أحكامُهم على الظواهرِ ، بما أظهرُوهُ من علامةِ الإسلام ؛ إذ لم يُجْعَل للبشَر سبيلٌ إلى السرائر ، ولا أُمِرُوا بالبَحْثِ عنها ؛ بل نَهَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم عن التحكمِّ عليها[٧] ؛ وذمَّ ذلك ، وقال : هلاَّ شققْتَ عن قَلْبِه[٨] .

وللفَرْقِ بين القول والعقْد[٩] ما جُعِلَ فى حديث جبريلَ[١٠] : الشَّهادةُ من الإسلام ، والتصديقُ من الإيمان .

---

(١) النفاق : إبطان الـكفر وإظهار الإيمان . (٢) سورة « المنافقون » ، آية ١

(٣) فى قولهم ذلك : أى قولهم : إنك لرسول الله عن اعتقاد وتصميم .

(٤) حكمه : وهو دخول الجنة ؛ فهم فى الدرك الأسفل من النار مع الـكفار .

(٥) الدرك الأسفل : الطبقة السفلى من دركاتها .

(٦) حكم الإسلام ؛ أى فى الدنيا ، فيعاملون معاملة المسلمين فيما لهم وما عليهم .

(٧) التحكم عليها : الحـكم على السرائر .

(٨) قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأسامة بن زيد فى حديث صحيح الأخبار ، حين قتل واحدا ممن اضطر أن يسلم من الـكفار ، لاعتقاده أن إسلامه بلسانه خوفا من القتل . فقال له : أقتلته بعد أن أسلم . والحديث فى صحيح مسلم : ٩٦ ، وهو نسيم الرياض (٣ — ٣٤٧) . (٩) أى مجرد التلفظ بالشهادة بلسانه والتصديق بقلبه واعتقاد جنانه .

(١٠) حديث جبريل : الذى تقدم فى سؤاله عن الإسلام والإيمان ، صفحة ٥٣٩

وبقيت حالتان أُخْرَيَان بين هذين :

إحداهما — أنْ يُصدِّقَ بقلبه ثم يُخْترمَ[١] — قَبلَ اتِّساعِ وَقْتٍ للشهادةِ بلسانه ؛ فاختُلف[٢] فيه ؛ فشَرَطَ بَعْضُهم مِنْ تمامِ الإيمان القولَ والشهادةَ به[٣] ؛ ورآه بعضُهم مُؤْمنا مستوجَباً[٤] للجنة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم[٥] : « يَخْرُج من النار مَنْ كان في قَلْبه مِثقالُ ذَرَّةٍ[٦] من إيمان » ؛ فلم يذكر سِوَى ما في القَلْبِ .

وهذا مُؤمنٌ بقَلْبِه ، غَيْرُ عاصٍ ولا مُفَرِّط بتَرْكِ غيره[٧] .

وهذا هو الصحيحُ في هذا الوَجْه .

الثانية : أنْ يصدِّقَ بقلبه ويُطَوِّل مَهْلَه[٨] ، وعَلِمَ ما يلزمُه من الشّهادة ؛ فلم ينطق بها جملة[٩] ولا استَشْهد في عُمْره[١٠] ولا مرةً ؛ فهذا اختُلف فيه أيضا ؛ فقيل : هو مُؤمن ؛ لأنه مصدِّقٌ ، والشهادةُ من جُمْلة الأعمال ؛ فهو عاصٍ بتَرْكها غَيْرُ مخلدٍ [في النار][١١] .

---

(١) يقال : اخترمته المنية والموت ، إذا أتاه بغتة بسرعة .

(٢) فاختلف فيه أمؤمن هو أم لا ؟

(٣) والشهادة به : أي باللسان .

(٤) هذا في ب ، وفي ا : ورواه : مستوجبا : مستحقا .

(٥) في حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٩٣ ، وصحيح البخاري : ١ — ١٣

(٦) مثقال ذرة : وزنها ومقدارها في الثقل . والذرة : صغار النمل ؛ والهباء ، وهو كناية عن غاية القلة .

(٧) بترك غيره : وهو التلفظ بالشهادة .

(٨) المهل ، بميم وهاء مفتوحتين ، ويجوز تسكين هائه مع فتح ميمه وضمها : التؤدة والتأني ، والمراد لازمه ، وهو طول الزمن ، والمراد زمان سكوته وعدم نطقه بالشهادة .

(٩) جملة : المراد به مجموعها بأن لم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره ...

(١٠) في عمره : مدة حياته .

(١١) من ب .

وقيل : ليس بمؤمن حتى يقارنَ عَقْدُه[1] شهادةَ اللسان ؛ إذ الشهادةُ إنشاء عَقْدٍ ، والتزامُ إيمان ؛ وهى مرتبطةٌ[2] مع العَقْد ، ولا يتمُّ التصديقُ مع المُهْـلة إلا[3] بها .

وهذا هو الصحيح .

وهذا نبذٌ[4] يُفضى إلى متَّسعٍ من الكلام فى الإسلام والإيمان وأبوابهما ، وفى الزيادة فيهما والنقصانِ ، وهل التجزّى مُمْتَنِـع على مجرّدِ التصديق لا يصحُّ فيـه جملةً ؛ وإنما يرجعُ إلى ما زَادَ عليه من عَمَلٍ ؛ وقد يعْرُضُ فيه[5] لاختلاف صفاته وتَبَايُن حالاتِه؛ من قُوَّةِ يَقين ، وتصميم اعتقاد[6] ، ووضُوح مَعْرفةٍ ، ودَوَام حالةٍ ، وحضور قَلْب .

وفى بَسْطِ هذا خروجٌ عن غرض التأليف ؛ وفيما ذكرنا غُنْية[7] فيما قصدْنا إن شاء الله.

فصـــل

[فى وجوب طاعته]

وأما وجوبُ طاعتِه ، فإذا وجب الإيمانُ به وتصديقُه فيما جاء به وجبت طاعتُه ؛ لأنَّ ذلك مما أتى به ؛ قال الله تعالى[8] : ﴿يَأَيُّها الذين آمَنُوا أطِيعوا اللهَ ورسولَه﴾.

---

(١) عقده : اعتقاد قلبه . وكلمة « شهادة » ضبطت فى ا بالضمة ، وفى ا بالفتحة .

(٢) مرتبطة مع العقد : ملازمة متصلة بالاعتقاد القلبي لاتفارقه ، فلا يكتفى بأحدها .

(٣) إلا بها : إلا بالشهادة والنطق بها . (٤) نبذ : شىء يسير . يفضى : يوصل .

(٥) وقد يعرض فيه: يطرأ على التصديق نفسه زيادة أو نقص أو تجزئة. وفى ب :يعرض– وضبط الراء بالفتحة والضمة وعليها « معا » . وفى هامشه : قوله : يعرض – هو بفتح الياء وضم الراء ، كذا قال الأصمعى . والجمهور بكسر الراء . والصحيح الأول (من شرح مسلم للنووى) . (٦) تصميم اعتقاد : الجزم به بحيث لايقبل الشك ، عن دليل قوى .

(٧) غنية : كفاية مغنية . (٨) سورة الأنفال ، آية ٢٠

وقال(١) : ﴿ قُلْ أَطِيعوا اللهَ والرَّسُولَ ﴾ .

وقال(٢) : ﴿ وأَطِيعوا اللهَ والرَّسُولَ لعلكم تُرْحَمُون ﴾ .

وقال(٣) : ﴿ وإنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ .

وقال(٤) : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ ﴾ .

وقال(٥) : ﴿ وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ وما نَهَاكم عنه فانْتَهُوا ﴾ .

وقال(٦) [١٣٨] : ﴿ ومَن يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأولئكَ معَ الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وَحَسُنَ أُولئكَ رفيقا ﴾ .

وقال(٧) : ﴿ وَما أرسلْنا من رسولٍ إلَّا لِيُطَاعَ بإذْنِ الله ﴾ ؛ فجعل تعالى طاعةَ رسولِه طاعتَه ، وقرَنَ طاعتَه بطاعَتِه ، ووَعَد على ذلك بجزيلِ الثَّواب ؛ وأوعد على مخالفتَه بسوءِ العِقَاب(٨) ، وأَوْجَب امتثالَ أمرِه ، واجتنابَ نَهْيِه .

قال المفسِّرونَ والأئمةُ : طاعةُ الرسولِ الْتِزَامُ سُنَّتِه والتسليم لما جاء به .

وقالوا : وما أرسلَ اللهُ مِنْ رَسُولٍ إلّا فرض طاعتَه على مَنْ أرسلَهُ إليه .

وقالوا : مَنْ يُطِعِ الرسولَ في سُنَّتِه(٩) يُطِعِ اللهَ في فرائضه .

وسُئل سَهْلُ بْنُ عَبْد الله عن شرائع الإسلام ؛ فقال(٥) : ﴿ وَما آتاكُمُ الرسولُ فَخُذُوه ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران ، ٣٢ (٢) سورة آل عمران ، آية ١٣٢

(٣) سورة النور ، آية ٥٤ . جعل هدايتهم متوقفة على طاعته .

(٤) سورة النساء ، آية ٨٠ ، جعل طاعته هي طاعة الله ؛ لأنه لا يأمر إلا بأمره ، ولا ينهى إلا بنهيه . (٥) سورة الحشر ، آية ٧ (٦) سورة النساء ، آية ٦٩

(٧) سورة النساء ، آية ٦٤

(٨) الجزيل : العظيم أو الكثير . وسوء العقاب : العقاب السيئ .

(٩) المراد بالسنة : طريقته وشريعته .

وقال السَّمرْقَنْدى : يقال : أَطِيعُوا اللهَ فى فرائضه، والرسولَ فى سُنَّتِهِ . وقيل : أطيعوا اللهَ فيما حرَّم عليكم، والرسول فيما بلَّغكم .

ويقال : أطِيعوا اللهَ بالشّهادةِ له بالرُّبوبيّةِ ، والنبيَّ بالشهادةِ له بالنبوّة .

حدثنا أبو محمد بن عتّاب بقراءتى عليه ، حدثنا حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسَن علىّ بن محمد بن خَلَف ، حدثنا محمد بن أحمد ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا البخارى، حدثنا عَبْدان ، أخبرنا عَبْد الله ، حدثنا يونس ، عن الزُّهرى ، أخبرنى أبو سَلَمة ابن عبد الرحمن ـ أنه سمع أبا هُرَيرة يقولُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهِ عليه وسلم قال: مَنْ أطاعنى فقد أطاعَ الله ، ومَنْ عصانى فقد عَصَى الله ، ومَنْ أطاع أَميرى[1] فقد أطاعنى ، ومَنْ عصى أميرى فقد عصانى .

فطاعةُ الرسُولِ من طاعة الله ؛ إذ اللهُ أمر بطاعته ؛ فطاعتُه امتثالٌ لما أمر اللهُ به ، وطاعةٌ له .

وقد حَكَى اللهُ عن الكفّار فى دَرَكاتِ[2] جهنّم : ﴿يوم[3] تُقَلَّبُ وُجُوهُهم فى النار يقولون يا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وأطَعْنَا الرسولا﴾ ؛ فتمنَّوا طاعتَه حيثُ لا ينفعهُم التمنى .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[4] : إذا نهيتُكم عن شيء فاجْتَنِبُوه ، وإذا أمرتكم بأمْرٍ فأْتُوا منه ما استطعتُمْ[5] .

(١) أميرى : من جعله هو أو خلفاؤه حاكما على أمته. والحديث فى صحيح مسلم: ١٤٦٦، وصحيح البخارى : ٤ ــ ٦٠

(٢) فى دركات جهنم : أى فى محلهم الأسفل منها .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٦٦

(٤) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٩٧٥ ، صحيح البخارى : ٩ ــ ١١٧

(٥) ما استطعتم : ما قدرتم عليه من غير ترك للواجب بغير عذر . والمراد افعلوا على قدر استطاعتكم . قال النووى : وهذا الحديث من جوامع الكلم وقواعد الإسلام ؛ يدخل فيه كثير من الأحكام ، كمن عجز عن ركن من أركان الصلاة ، أو شرط من شروطها ، يأتى بمقدوره ، ولا يسقط عنه مقدوره . ولذا قال الفقهاء : الميسور لا يسقط بالمعسور .

وفى حديث أبى هريرة(١) رضِىَ اللهُ عنه ، عنه صلّى الله عليه وسلم : كلُّ أُمتى يَدْخُلون الجنةَ إلّا مَنْ أَبى(٢) .

قالوا : [يا رسول الله](٣) ؛ ومَنْ يَأْبَى ؟ قال : مَنْ أطاعنى دخل الجنةَ ، ومَنْ عَصانى فقد أبى(٤) .

وفى الحديث الآخر الصحيح(٥) عنه صلّى اللهُ عليه وسلم : مَثَلى ومَثَلُ ما بعثنى اللهُ به كمَثَل رَجُل أتى قوما(٦) ، فقال : يا قومِ ؛ إنى رأيتُ الجيْشَ بعَينىَّ ، وإنى أنا النّذِير العُرْيان(٧) ، فالنّجاء(٨) ؛ فأطاعَه طائفةٌ من قومه ، فأَدْلَجُوا(٩) ، فانطلقوا

---

(١) رواه الحاكم .

(٢) أبى : امتنع ، وسيأتى تفسير ذلك بعد .

(٣) ليس فى ا .

(٤) أبى وامتنع من دخول الجنة ، لأنه بسبب تركه للطاعة باختياره كأنه دعى إلى الجنة فامتنع .

(٥) رواه البخارى، ومسلم : صحيح البخارى : ٨ - ١٢٦ ، وصحيح مسلم : ١٧٨٨

(٦) يحذرهم وينذرهم بعدو هم الذى قرب مجيئه لهلاكهم .

(٧) النذير : المنذر المعلم بما يحذر قبل وقوعه . العريان : المجرد من ثيابه المكشوف جميع بدنه؛ وهو مثل تمثل به صلى الله عليه وسلم، والمراد المبالغة فى إنذاره ، ووضوح ما أنذر به، وعدم احتمال خلافه. وأصله أن الرجل كان إذا رأى العدو قرب من قومه جدا ، وليس بينه وبينهم حجاب يمنعهم من رؤيته ، وخشى أن يسبق خبره ،وقف على مكان عال ونزع عنه ثوبه، ورفعه يلوح به ؛ أى بادروا إلى الحذر والفرار ؛ فقد جاءكم من العدو مالا تطيقونه . وقال القارى (٢ - ١٣) : النذير العريان : أى المخوف الذى ليس له غرض فى التحذير ؛ بل هو عار عن التلبيس والتدليس فى وصف النذير .

(٨) فالنجاء : أى انجوا نجاء بسرعة من غير لبث . أو الزموا النجاء .

(٩) أدلجوا : ساروا من أول الليل ، أو ساروا الليل كله هربا من عدوهم . وفى ب : فادلجوا — بتشديد الدال .

على مَهْلِهِم[١] فنَجَوْا ؛ وكذَّبَتْ طائفةٌ منهم فأصبحوا[٢] مكانهم ، فصبَّحهم[٣] الجيشُ فأهلكهم واجْتاحَهُم[٤] ؛ فذلك مَثَلُ مَنْ أطاعَنِي ، واتبع ما جِئْتُ به ، ومَثَل مَنْ عصَانى وكذَّب ما جئتُ به من الحقّ .

وفى الحديث[٥] الآخر فى مثله : كَمَثَلِ مَنْ بَنَى دَارًا وجعلَ فيها مأدُبة[٦] ، وبعث دَاعِياً ؛ فَمَنْ أجاب الداعِيَ دخل الدارَ ، وأكل من المأدُبة ؛ ومَنْ لم يُجب الداعيَ لم يدخل الدارَ ولم يأكُلْ من المَأْدُبة ؛ فالدارُ الجنة ، والداعى محمدٌ صلى الله عليه وسلم ؛ فمن أطاع محمدا فقد أطاعَ اللهَ ، ومَنْ عصى محمدا فقد عصى الله ؛ ومحمدٌ فَرْقٌ[٧] بين الناس .

فصـــل

[فى وجوب اتباعه ، وامتثال أمْرِه ، والاقتداء بهَدْيه]

وأما وجوبُ اتّباعِه وامتثالِ[٨] سُنّتِه والاقتداءِ[٨] بِهَدْيه؛ فقد قال تعالى[٩] : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكم اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنُوبَكم ﴾ .

(١) على مهلهم : متمهلين بتؤدة وتأن ، لسعة وقتهم .
(٢) أصبحوا مكانهم : مكثوا فى مكانهم الذى كانوا فيه حتى دخلوا فى الصباح .
(٣) صبحهم الجيش : أتاهم فى وقت الصباح .
(٤) اجتاحهم : أهلكهم جميعا واستأصلهم ؛ فلم تبق لهم باقية من الذرارى والأموال .
(٥) رواه الشيخان . صحيح البخارى : ٩ — ١١٤
(٦) مأدبة : أطعمة كثيرة نفيسة ، أعدت لإكرام الضيوف والأصحاب .
(٧) فرق بين الناس : فارق بين المؤمنين والكافرين بإطاعته وعصيانه ؛ فمن آمن به فهو مؤمن، ومن كذبه فهو كافر. وروى : فرق ـ بصيغة الماضى وتشديد الراء المهملة ؛ أى فرق بين مؤمنهم وكافرهم ،أو بين من دعى للجنة ومن لم يدع لها .قال فى نسيم الرياض (٣-٣٥٩): وهذا أنسب للسياق .
(٨) ضبطت اللام فى كلمة « امتثال » فى ا بالكسرة والضمة ، وفوقها « معا » . وكذلك الهمزة فى « الاقتداء » .
(٩) سورة آل عمران ، آية ٣١

وقال[١] : ﴿ فآمِنُوا باللهِ ورسُولِه النبيِّ الأُمّىِّ الذى يؤمِنُ باللهِ وكلماتِه وَاتَّبِعوه لعلكم تَهتَدُون ﴾ [١٣٩] .

وقال[٢] : ﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حتّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يَجِدُوا فى أنفُسِهم حرَجاً مما قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تسليما ﴾ ؛ أى ينقادون لحكمك ؛ يقال : سلّم ، واستسلم ، وأسلم ؛ إذا انقاد .

وقال[٣] : ﴿ لقد كان لكُمْ فى رسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسنةٌ لِمَنْ كان يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ومن يتولَّ فإنّ اللهَ هو الغنىُّ الحميدُ ﴾ .

قال محمد بن على التِّرمذى[٤] : الأُسوةُ فى الرسولِ الاقتداء به ، والاتّباعُ لسُنَّتِه ، وتركُ مُخالفتِه فى قولٍ أو فعل .

وقال غَيْرُ واحدٍ مِنَ المفسِّرين بمعناه .

وقيل : هو عِتَابٌ للمتخلِّفين[٥] عنه .

وقال سَهْل ـ فى قوله تعالى[٦] : ﴿ صِرَاطَ الذين أنعمتَ عليهم ﴾ ـ قال : بمتابعة السنةِ ؛ فأمرهم تعالى بذلك[٧] ، ووَعَدهم الاهتداء باتّباعِه ؛ لأنّ الله تعالى أرسله بالهُدى ودين الحق ليزَكِّيَهم ويعلِّمهم الكِتابَ والحِكْمَةَ[٨] ، ويَهديهم إلى صراطٍ

(١) سورة الأعراف ، آية ١٥٨ . وكلماته : التى نزل بها الوحى عليه ، وما أوحى إلى من قبله من الرسل من الكتب والشرائع .

(٢) سورة النساء ، آية ٦٥ . حتى يحكموك : يرجعوا لحكمك ويرضوا به . شجر بينهم : وقع بينهم من المشاجرة والمخاصمة . والحرج : ضيق الصدر ، أو الشك .

(٣) سورة الممتحنة ، آية ٦ . أسوة : قدوة . حسنة : من حقها أن يؤتسى بها ويقتدى .

(٤) هو الحكيم الترمذى الصوفى ، وليس صاحب السنن .

(٥) المتخلفين عنه : ممن لم يخرج معه لمحاربة أعدائه .

(٦) سورة الفاتحة ، آية ٧ (٧) بذلك : باتباع شريعته .

(٨) ليزكيهم : ليطهرهم من الشرك والمعاصى والحكمة : العلوم النافعة المحكمة ، والشريعة التى صيرتهم حكماء متقنين للعلم والعمل .

مستقيم ، ووعدهم محبّتَه تعالى فى الآية الأخرى ومَغْفِرته[١] إذا اتّبعوه ، وآثروه على أهوائهم[٢] ، وما تَجْنَحُ[٣] إليه نفوسُهم ؛ وأنّ صحّةَ إيمانهم بانقيادِهم له ، ورِضَاهم بحُكْمه ، وتَرْكِ الاعتراضِ عليه .

ورُوِى عن الحَسَنِ أن أقواماً قالوا : يارسولَ اللهِ ؛ إنّا نُحبّ اللهَ . فأنزل اللهُ تعالى[٤] : ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتّبِعونى يُحْبِبْكم اللهُ ويَغْفر لكم ذنوبَكم واللهُ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ .

ورُوِىَ أن الآيةَ نزلت فى كَعْب بن الأشرف وغيره ، وأنهم قالوا : نحن أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤُه ؛ ونحن أَشَدُّ حُبًّا لله ؛ فأنزل الله الآية .

وقال الزجاج[٥] : معناهُ إنْ كنْتُم تحبُّون الله[٦] أن تَقْصِدُوا طاعتَه ، فافعلوا ما أمركم به ؛ إذْ مَحَبَّةُ العَبْدِ للهِ والرسولِ طاعتُه لَهُما ، ورِضَاهُ بما أمرا ؛ ومحبَّةُ اللهِ لهم عَفْوُه عنهم ، وإنعامُه عليهم برَحْمَتِه .

ويُقال : الحبُّ من الله عصمةٌ[٧] وتوفيقٌ ؛ ومِنَ العِبَادِ طاعةٌ ؛ كما قال القائل[٨] :

---

(١) فى قوله تعالى : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم . . .
(٢) آثروه : قدموه واختاروه . أهوائهم : جمع هوى ، وهو ما تميل إليه النفس وتدعو إليه ، وهو إذا أطلق يراد به ما ليس بمحمود من الشهوات .
(٣) تجنح : تميل . (٤) سورة آل عمران ، آية ٣١
وفى أسباب النزول للواحدى (٥٧) : قال الحسن ، وابن جريج : زعم أقوام على عهد رسول الله أنهم يحبون الله ، فقالوا : يامحمد ؛ إنا نحب ربنا ، فأنزل الله هذه الآية . ثم روى سببين آخرين لنزولها ، وارجع إليهما إن شئت هناك .
(٥) وقال الزجاج فى تفسير هذه الآية .
(٦) هذا فى ا ، ب . وهو تفسير لمحبة العبد ، كما فى شرح القارى .
(٧) عصمة : أى حفظ الله لعبده من مخالفة أمره ونهيه .
(٨) زهر الآداب : ١ ــ ٩٨ ، ونسبه فيه إلى محمود بن الحسن الوراق . =

تَدَّعِى الإلهَ وأنتَ تُظْهِر حُبَّه[1] هــذا لعمرى فى القياسِ[2] بديعُ
لو كان حبُّك صادِقاً لأَطَعْتَه إنَّ المحبَّ لِمَنْ يحبُّ مُطِيعُ

ويقال : محبةُ العَبْدِ للهِ تعظيمُه له وهَيْبَتُه[3] منه ؛ ومحبّةُ اللهِ له رحمتُه له ، وإرادتُه الجميلَ له ؛ وتكون بمعنى مَدْحِه وثنائه عليه[4] .

قال القُشَيْرِى : فإذا كان[5] بمعنى الرحمةِ والإرادةِ والمَدْحِ كان من صفاتِ الذات .

وسيأتى بَعْدُ فى ذِكْرِ مَحَبَّة العَبْدِ غيْرُ هذا بحَوْلِ[6] الله تعالى .

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيهُ ؛ قال : حدثنا أبو الأَصْبَغ عيسى ابن سَهْل ، وحدثنا أبو الحَسَن يونس بن مُغِيث الفقيه بقراءتى عليه ؛ قالا : حدثنا حاتم بن محمد ؛ قال : حدثنا أبو حفص الجُهَنى ، حدثنا أبو بكر الآجُرِّى ، حدثنا إبراهيم بن موسى الجَوْزى ، حدثنا داود بن رُشَيْد ، حدثنا الوَلِيدُ بن مُسلم ، عن ثَوْر بن يزيد ، عن خالد بن مَعْدَان ، عن عبد الرحمن بن عَمْرِو الأسلمى[7] ، وحُجْر

= وقال فى نسيم الرياض (٣ ـ ٣٦٣) : وقيل إنه لمنصور الفقيه ، وقال القارى فى شرحه : قيل : القائل : رابعة العدوية . وفى الإحياء : إن قائله عبد الله بن المبارك . قال فى نسيم الرياض : ومعنى الشعر أنك تدعى محبة الله وأنت عاص له ، ولو كنت صادقا لم تعص ؛ لأن المحب لا يخالف حبيبه .

(١) فى شرح القارى : وأنت تزعم حبه .

(٢) فى القياس : فى الفعال (الخفاجى) .

(٣) هيبته : خوفه إذا تأمل عظمته .

(٤) عليه : على العبد . (٥) كان : أى الحب .

(٦) بحول الله : بإعانته وقوته .

(٧) هكذا فى ا ، ب . وفى نسيم الرياض (٣ ـ ٣٦٤) : كذا فى النسخ ، وصوابه ـ كما فى البرهان : السلمى ـ بضم السين المهملة وفتح اللام . وفى شرح القارى (٢ ـ ١٧) : بن عمرو السلمى ، كما صوبه الشهاب الخفاجى .

الكَلَاعِي ، عن العِرْبَاضِ بن سارِيَةَ فى حديثه فى موعظةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنه قال : فعليكم[1] بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاء الراشدين المَهْدِيِّين ؛ عضُّوا عليها بالنواجذ[2] ؛ وإياكم ومُحْدَثات[3] الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ[4] بِدْعَةٌ ، وكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ .

زاد فى[5] حديث جابر بمعناه : وكُلُّ ضَلَالَةٍ فى النار .

---

(١) عليكم : الزموا . والسنة : الطريقة . والخلفاء : جمع خليفة . والمراد بهم الخلفاء الأربعة، ومن كان على طريقتهم كعمر بن عبد العزيز ، وأئمة الإسلام المجتهدين فى إعلاء كلمة الله . والحديث فى ابن ماجه : ١٥

(٢) النواجذ : جمع ناجذ : أقصى الأضراس ، وهى أربعة. أو الأنياب. والمرادالاجتهاد فى التمسك بها .

وفى هامش ب : النواجذ : الأنياب . وقيل : الأضراس ؛ وهو بالذال المعجمة .

(٣) المحدثات : جمع محدثة : وهو ماأحدث مما خالف الكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

(٤) البدعة : مالم يعهد فى عصره صلى الله عليه وسلم .وقد خصها الشارع بما هو مذموم، لعدم دخوله تحت القواعد الشرعية .

قال فى نسيم الرياض (٣ - ٣٦٥) : هى- كما قال العز بن عبدالسلام: تنقسم إلى واجبة، ومحرمة ،ومندوبة ، ومباحة ؛ فالمندوبة كتدوين الكتب ، وعلم النحو ، واللغة ؛ والاشتغال بذلك ، وإحداث الربط والمدارس .

ومن المكروه تزويق المصاحف والمساجد ، وتكبير العمائم ، وتوسيع الملابس . ومن الواجب وفرض الكفاية تعلم علم العربية الذى يتوقف عليه فهم كلام الله وكلام رسوله .

قال : ولا ينافى هذا قوله : كل بدعة ضلالة ؛ لأن البدعة لها معنيان : كل ماحدث بعد العصر الأول ، وهو المقسم للأقسام المذكورة ؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، وإليه الإشارة بقوله : سنة الخلفاء ، وقد خصهاالشارع بما هو مذموم ، لعدم دخوله تحت القواعد الشرعية ؛ وهذا هو المراد بالبدعة عند الإطلاق ؛ وهو الذى جعل ضلالة .

وفى عوارف المعارف ، وإحياء الغزالى : البدعة المذمومة : ما زاحم السنة المأثورة ، أو كان يفضى إلى تغييرها .

(٥) رواه مسلم: صحيح مسلم :٥٩٢ ، وسنن ابن ماجه :١٨ ، وسنن أبىداود: ٢-١٦٩

وفى حديث أبى رافع[١] عنه صلَّى اللهُ عليه وسلم : لا أُلفِيَنَّ[٢] أحدَكم متَّكئًا على أرِيكتِه[٣]، يَأتيه الأَمرُ من أمرى ، مما أمرتُ به ، أو نهيتُ عنه ، فيقول:[١٤٠] لا أدرى ، ما وجَدْنَا فى كتابِ الله اتَّبعْنَاه[٤] .

وفى حديث عائشة[٥] رضِيَ اللهُ عنها : صنَع رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شيئًا ترخَّص[٦] فيه فتنزَّه[٧] عنه قومٌ ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؛ فحمد الله ، ثم قال : ما بالُ قومٍ[٨] يتنزَّهون عن الشىء أصنَعُه ؛ فواللهِ إنِّى لأَعْلَمُهم بالله ، وأشدُّهم له خَشْيَةً .

ورُوى[٩] عنه صلَّى اللهُ عليه وسلم أنه قال : القرآنُ صَعْبٌ مستَصْعَبٌ على مَنْ

(١) رواه أبو داود، والترمذى ، وابن ماجه : سنن أبىداود :٢-١٦٩، وابن ماجه :٦، والترمذى : ٥ - ٣٧

(٢) لا ألفين : لا أجدن .

(٣) الأريكة : سرير مزين يتخذ فى قبة أو بيت . وقيل : هو كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة ، أو مخدة ، مما يفعله المترفون .

(٤) لا أدرى : أى هذا الأمر نقلتموه لنا ، ولا أتبع ، ولا أعرف غير القرآن .
اتبعناه : دون غيره مما روى فى الأحاديث ، ولم يعرف أن مافى الحديث عن الله تعالى ، وأن الوحى وحيان : متلو ، وغير متلو ، وأن السنة لاتخالف الكتاب ؛ فهو تحذير عن ترك امتثال أمره واجتناب نهيه ، والعمل بها ، وسنة رسوله ككتابه يجب اتباعها .

(٥) للروى في الصحيحين . وهذا لفظ البخارى : صحيح البخارى : ٩ - ١٢٠

(٦) ترخص فيه : أخذ فيه بالرخصة، واختارها. والرخصة : الأمر المتخير من صعوبة إلى سهولة ؛ كقصر المسافر صلاته وإفطاره . قال القارى (٢ - ١٨) : والظاهر أن ماترخص فيه هو الإفطار فى السفر ، أو القصر ؛ وهو الأظهر .

(٧) تنزه عنه : تباعد .

(٨) ما بال قوم : ما شأنهم وحالهم ؟

(٩) رواه الديلمى ، وأبو نعيم ، وأبو الشيخ مسندا .

كَرِهه[1]، وهو الحَكَم[2]؛ فمن استمسكَ بحديثى وفَهِمه وحفِظَه جاء مع[3] القرآن؛ ومَنْ تهاوَنَ بالقرآن وحديثى خَسِر الدُّنيا والآخرة، أُمِرتْ أمتى[4] أن يأخذُوا بِقَوْلى، ويُطِيعُوا أمرى، ويتَّبِعُوا سُنَّتِي؛ فمن رَضِيَ بقولى فقد رضى بالقُرْآنِ؛ قال الله تعالى[5]: ﴿وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه، وما نَهاكُمْ عنه فانْتَهُوا[6] واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شديدُ العقاب﴾.

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلم: من اقتدَى بى فهو مِنِّى[7]، ومَنْ رَغِبَ[8] عن سُنَّتِي فليس منى.

وعن أبى هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم أنه قال[9]: إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ اللهِ، وخَيْرُ الهَدْى هَدْىُ محمدٍ[10]، وشَرُّ الأمور مُحْدَثاتها.

وعن عبد الله بن عَمْرو[11] بن العاص رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلى اللهُ

---

(١) قد صير الله القرآن صعبا على من كرهه، ولم يرد حفظه وتدبر آياته. وأما من أحبه وتلذذ بتلاوته، وداوم على مدارسته وتأمله فيسهله الله تعالى عليه.

(٢) الحكم: الذى يحكم بين الناس بما تضمنه من الأحكام.

(٣) جاء مع القرآن: أى يوم القيامة.

(٤) أمرت أمتى: أمر الله أمتى. وكلمة «أمتى» ليست فى ا.

(٥) سورة الحشر، آية ٧

(٦) أى ارضوا بما رضيه، واكرهوا ما كرهه؛ فإن سننه مبينة موضحة للقرآن؛ فمن خالفه فقد ضل.

(٧) فهو منى: أى من أتباعى وأشياعى الذين يحشرون معى ويتصلون بى كأنهم بعض منى لاينفصل عني.

(٨) ومن رغب عن سنتى: أى تركها وأعرض عنها.

(٩) الحديث رواه ابن ماجه: سنن ابن ماجه: ١٧

(١٠) الهدى: السيرة والطريقة.

(١١) فى حديث رواه أبو داود، وابن ماجه: سنن ابن ماجه: ٢١

عليه وسلم: العلم ثلاثة: فما سِوَى ذلك فهو فَضْل[١]: آية مُحْكَمَة[٢]، أو سنَّة قائمة[٣]، أو فريضة عادلة[٤].

وعن الحسن[٥] بن أَبِي الحَسَنِ رضِيَ الله عنه: قال صلى اللهُ عليه وسلم: عَمَلٌ قليلٌ فِي سُنَّةٍ[٦] خَيْرٌ من عمَلٍ كثير في بِدْعَةٍ.

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلم: إنَّ اللهَ تعالى يُدخِلُ العَبْدَ الجَنَّةَ بالسُنَّةِ تَمَسَّكَ بها[٧].

وعن أبي هريرة[٨] رضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم، قال: المُتَمَسِّكُ بسُنَّتي عند فسادِ أُمتي له أَجْرُ مائة شَهِيد.

وقال[٩] صلَّى اللهُ عليه وسلم: إنَّ بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين مِلَّةً[١٠]؛ وإنّ أُمتي تَفترقُ على ثلاثٍ وسبعين، كلُّها في النارِ إلا واحدةً. قالوا: ومَنْ هم يارسولَ الله؟ قال: الذي أَنا عليه اليومَ وأصحابي.

---

(١) فضل: زائد لا حاجة إليه ولا يفتقر إليه.

(٢) محكمة: غير متشابهة، أو غير منسوخة.

(٣) قائمة: دائمة مستمرة، يعني لم تنسخ لدوام العمل بها.

(٤) عادلة: لا جور فيها.

(٥) حديث رواه عبد الرزاق عن معمر مرسلا، والدارمي، متصلا عن ابن مسعود. والحسن: هو الحسن البصري.

(٦) في سنة: موافق للسنة ومصاحب لها.

(٧) تمسك بها: امتثلها وعمل بها مخلصا. وفي ب: يتمسك بها.

(٨) في حديث رواه الطبراني في الأوسط.

(٩) في حديث رواه الترمذي، وابن ماجه: سنن الترمذي: ٥ - ٢٥، وسنن ابن ماجه: ١٣٢٠

(١٠) ملة: مذهبا أو دينا.

وعن أنس[١] : قال صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ أَحْيا سُنَّتى فقد أحيانى[٢] ، ومَنْ أحيانى كان معى فى الجنّة[٣] .

وعن عَمْرو بن عَوْف المُزَنى أنّ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم قال لبلال بن الحارث: مَنْ أحْيا سنةً من سُنّتِي قد أُمِيتَتْ[٤] بَعْدِى ، فإنّ له من الأَجْر مِثْلَ مَنْ عمل بها من غير أنْ ينقُصَ من أجورِهم شيئًا؛ ومن ابتدع بِدْعةَ ضلالةٍ لاتُرْضِى اللهَ ورسولَه كان عليه مثْلُ آثامِ مَنْ عَمِلَ بها، لاينقُصُ ذلكَ من أوزارِ الناس شيئا[٥] .

فصـــل

[فيما ورد عن السَّلَف والأئمة من اتباع سُنّته والاقتداء بهَدْيه وسيرته]

وأما ما ورد عن السَّلَف والأئمة من اتّباع سُنّته والاقتداء بهَدْيِهِ وسيرته ، فحدّثنا الشيخُ أبو عِمْرَان موسى بن عبد الرحمن بن أبى تَلِيد الفقيـــهُ سماعاً عليه ؛ قال[٦] : حدثنا أبو عُمر الحافظُ ، حدثنا سَعِيد بن نَصْر ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، ووَهْب بن مَسَرّة ؛ قالا : حدّثنا محمد بن وضّاح ، حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا مالكٌ، عن ابْنِ شهابٍ ، عن رجلٍ من آل خالد بن أَسِيد — أنه سَأَل عبدَ الله بن عُمَرَ ، فقال : يا أَبا عبد الرحمن ؛ إنّا نَجِدُ صلاةَ الخَوْفِ ، وصلاةَ[٧] الحَضَر فى [١٤١]

---

(١) رواه الأصفهانى فى ترغيبه .

(٢) أحيا سنتى : أظهرها بالعمل بها والحث على اتباعها . فقد أحيانى : فقد أظهر ذكرى ورفع أمرى . (٣) المراد دخوله الجنة وعلو مرتبته لامساواته فيها .

(٤) أميتت : تركت وترك العمل بها .

(٥) قال فى نسيم الرياض (٣ — ٣٧١) : وهذا رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وحسنه . سنن الترمذى : ٥ — ٤٣ ، سنن ابن ماجه : ٧٤ ، ٧٥ .

(٦) هذا الحديث من أحاديث الموطأ ، ورواه النسائى ، وابن ماجه : الموطأ : ١٤٥ ، وسنن ابن ماجه : ٣٣٩ (٧) صلاة الحضر : أى الصلاة من غير قصر .

روى هذا الحديث أيضا الطبرى فى تفسيره : ٩— ١٣٣ ، وابن كثير فى تفسيره : ١-٣٥١

القرآن ، ولا نجدُ صلاةَ السفَر ؟ فقال ابْنُ عُمر : : يابْن أخى ، إنَّ اللهَ بعثَ إلينا محمداً صلى اللهُ عليه وسلم ، ولا نعلمُ شيئاً[١] ؛ فإنما نفعلُ كما رأيْناه يَفْعل[٢] .

وقال عُمر بن عبد العزيز : سنَّ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ووُلاةُ الأمرِ بعده سُنَناً ، الأَخْذُ[٣] بها تصديقٌ بكتابِ الله ، واستعمالٌ بطاعة اللهِ[٤] ، وقوةٌ على دِين الله ، ليس لأَحدٍ تغييرُها ولا تبديلُها[٥] ولا النَّظَرُ فى رَأْى مَنْ خالفها ؛ من اقتدى بها فهو مُهْتَدٍ ، ومن انتصر بها منصورٌ ، ومَنْ خالفها واتَّبعَ غَيْرَ سبيلِ المؤمنين[٦] ولاّه اللهُ ماتولَّى[٧] ، وأَصْلاهُ جَهَنَّم وساءتْ مَصيرًا .

وقال الحَسَنُ بن أبى الحسَن[٨] : عَمَلٌ قليل فى سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَملٍ كثير فى بِدْعة .

وقال ابْنُ شهاب : بلغَنَا عن رِجَالٍ من أهلِ العلم ، قالوا : الاعتصامُ[٩] بالسنَّةِ نجاةٌ .

---

(١) ولا نعلم شيئا من أمور الدين ، ومن حقيقة الأحكام .

(٢) أى نقتدى به فيما جاء به . وقصر الصلاة فى السفر قد ذكرت فى القرآن فى قوله تعالى: لا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة؛ لكنها مقيدة بقوله: إن خفتم... الآية، ولذا سألوا عنها. وإطلاقها مبين بالسنة ؛ فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصرها ، فقال : تلك صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته .

(٣) الأخذ بها : العمل بها واتباعها .

(٤) لأن طاعتهم طاعة له فى الحقيقة ؛ لأنهم لايقولون شيئا من عند أنفسهم ، وإنما يقولون ما رووه عنه صلى الله عليه وسلم ، أو ما استنبطوه من الكتاب والسنة .

(٥) تغييرها : تغيير تلك السنن بوجه من الوجوه ، ولا تبديلها ببدل لها يغايرها .

(٦) أى غير ماهم عليه من اعتقاد أو عمل .

(٧) ولاه الله ما تولى: جعله واليا لما تولى من الضلالة ، وخلى بينه وبين ما اختاره من الضلالة .

(٨) هو الحسن البصرى .

(٩) الاعتصام بالسنة : أى التمسك بها .

وكتب عُمَرُ بن الخطاب [إلى عُمَّالِهِ][1] بتعلُّمِ السنَّة والفرائض واللَّحْن ؛ أى اللغة ؛ وقال : إنَّ ناساً يجادِلُونَكم — يعنى بالقرآن ، فخذُوهم بالسُّنَنِ[2] ؛ فإنَّ أصحابَ السنن أعلمُ بكتابِ[3] الله .

وفى خبره[4] — حين صلَّى بذى الْحُلَيْفَةِ[5] رَكْعَتَيْن ، فقال : أصنعُ كما رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلم يصنعَ .

وعن علىّ — حين قَرَن[6] فقال له عُثْمان : تَرَى أنى أَنْهى الناسَ[7] عنه وتَفْعَلَه! قال : لم أَكُنْ أَدَعُ سُنَّةَ رسُولِ الله صلّى اللهُ عليه وسلم لقَوْلِ أحدٍ من الناس .

وعنه : أَلَا إنّى[8] لستُ بنبىّ ، ولا يُوحَى إلىّ ، ولكنى أَعْمَلُ بكتاب الله وسُنَّةِ محمد صلى اللهُ عليه وسلم ما استَطعْتُ .

وكان ابْنُ مسعود يقول[9] : القَصْدُ[10] فى السنَّة خير من الاجتهاد فى البِدْعة .

---

(١) ليس فى ب .

(٢) فخذوهم بالسنن : اغلبوهم وحاجوهم بها ، لأنها مبينة للأحكام .

(٣) أصحاب السنن : علماء الحديث ونقاده .

أعلم بكتاب الله ؛ أى بمعانى القرآن ممن يتمسك بظاهر القرآن لمعرفتهم بناسخه ومنسوخه ، ومخصصه ومؤوله ، فإن تفسير القرآن إنما يعلم من السنة .

(٤) خبر عمر رواه مسلم : ٤٨١ ، وفيه : إنما أفعل كما رأيت رسول الله يفعل .

(٥) ذو الحليفة : مكان على أميال من المدينة من جهة الشام ، وهو ميقات أهل المدينة والشام الذى يحرمون منه .

(٦) فى أثر رواه البخارى ، والنسائى صحيح البخارى: ٢ – ١٦٧ ، والنسائى : ٦–١١٥ حين قرن : أى جمع بين الحج والعمرة فى حجة حجها .

(٧) أنهى الناس عنه : عن القران .

(٨) قال القارى (٢ – ٢٥) : وهو غير معروف عنه .

(٩) رواه الدارمى ، والطبرانى ، عن أبى الدرداء .

(١٠) القصد : الاعتدال بين الإفراط والتفريط .

وقال ابنُ عُمر : صلاةُ السفَر ركعتان ؛ مَنْ خالف السنةَ كفَرَ[١] .

وقال أُبَىّ بن كَعْب : عليكم بالسبيل[٢] والسنّةِ ؛ فإنه ما على الأرْض من عَبْدٍ على السبيلِ والسنّةِ ذكَر اللهَ فى نَفْسِه ففاضت عَيْناه من خَشْيَةِ رَبّه ، فيعذّبَه اللهُ أبدا ؛ وما على الأرْض من عَبْدٍ على السبيلِ والسنّةِ ذَكَر اللهَ فى نَفْسه فاقشعرّ[٣] جِلْدُه من خشية الله إلا كان مَثَلُه كمَثَلِ شجرةٍ قد يَبِس وَرَقُها ؛ فهى كذلك إذْ أصَابتها رِيحٌ شديدةٌ ، فتحاتّ[٤] عنها وَرَقُها إلا حَطّ[٥] اللهُ خطَاياه كما تحَاتّ عن الشجرةِ ورَقُها ؛ فإنّ اقتصاداً[٦] فى سبيلٍ[٧] وسنّةٍ خير من اجتهادٍ[٨] فى خلافِ سبيلٍ وسنّةٍ ، وموافقةِ بدْعةٍ ؛ وانظروا[٩] أنْ يكونَ عمَلُكم إنْ كان اجتهادا واقتصادا أن يكون على مِنْهاج الأنبياء وسُنَّتِهم[١٠] .

وكتب بعضُ عُمّال عُمَرَ بن عبد العزيز إلى عُمر بحال بلدِه ، وكَثْرةِ لُصُوصِه ؛ هل يَأخُذهم بالظِّنّة أو يَحْمِلهم على البينة[١١] وما جَرَتْ عليه السنّة ؟

---

(١) كفر : صار كافرا ، وهذا إن قصد مخالفة فعله صلى الله عليه وسلم عنادا أو أنكر جواز فعله ، وإلا فهو بمجرد الإتمام مبتدع عند أبي حنيفة رحمه الله وبعض الفقهاء . وقيل : الكفر بمعنى كفران النعمة التى أنعم الله بها عليه من إحسانه عليه بتسهيل أمره .

(٢) السبيل : طريق طاعة الله وصراطه المستقيم ، وهو العمل الخالص تقربا إلى الله تعالى.

(٣) اقشعر جلده : أخذته قشعريرة ، وهى الرعدة ، فانقبض جلده واجتمع .

(٤) تحات : سقط .

(٥) المراد بالحط هنا المغفرة .

(٦) اقتصادا : اعتدالا ؛ وتوسطا .

(٧) فى ب : فى سبيل الله

(٨) من اجتهاد : أى زيادة وبذل جهد وطاقة .

(٩) المراد بالنظر هنا التدبر والتأمل .

(١٠) على منهاج الأنبياء : على طريقتهم . والنهاج والمنهج : الطريق الواضح .

(١١) بالظنة : أى بمجرد الظن بأنهم لصوص . يحملهم : يطلب منهم ويكلفهم .

فكتب إليه عُمر : خُذْهم[١] بالبيّنة وما جرَتْ عليه السنّةُ ؛ فإنْ لم يُصلحهم الحقُّ فلا أصْلَحهم اللهُ .

وعن عَطاء ـ في قوله[٢] : ﴿ فإنْ تنَازَعْتُم في شَيْء فرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسول ﴾ : أي إلى كتاب اللهِ وسُنّةِ رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وقال الشافعي : ليس في سُنّةِ رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلاّ اتّبَاعُها[٣] .

وقال عمر[٤] — ونظر إلى الحجَر الأسود : إنكَ حَجَرٌ لا تنفَع ولا تضرّ ؛ ولولا أني رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يُقبِّلُك ما قَبّلْتُك ؛ ثم قبّله. [١٤٢]

ورُئي عَبْدُ اللهِ[٥] بن عُمر يُدِيرُ ناقتَه في مكانٍ ، فسُئل عنه ، فقال : لا أدري إلا أني رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَعَله ، ففعلْتُه .

وقال أبو عثمان الحِيرى[٦] : مَنْ أمّرَ السنّةَ على نفسه قوْلاً وفِعْلًا نطق بالحِكمة[٧] ، ومَنْ أمّرَ الهَوَى على نَفْسه نطق بالبدْعة .

وقال سَهْل التُّسْتَرى : أُصولُ مَذْهبنا ثلاثة[٨] : الاقتداء بالنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم في الأخلاقِ والأفعال ، والأكلُ من الحلال ، وإخلاصُ النيّة في جميع الأعمال.

(١) خذهم : احكم عليهم .

(٢) سورة النساء ، آية ٥٩ . تنازعتم : اختلفتم . فردوه إلى الله والرسول : ارجعوا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله .

(٣) إلا اتباعها : أي اتباع السنة والعمل بها ؛ وكان يقول : إذا صح الحديث فهومذهبي ، وإذا خالف قولي الحديث فاضربوا به عرض الحائط .

(٤) رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٩٢٥ ، وصحيح البخاري : ٢ — ١٧٥

(٥) رواه عنه أحمد بن حنبل ، والبزار بسند صحيح .

(٦) في ا : الجنيدي والمثبت في ب . وأشار في هامشه إلى أنه في نسخة : الجنيدي .

(٧) الحكمة : القول الصواب النافع له في الدنيا والآخرة ؛ وكل كلام وافق الحق فهو حكمة ؛ ونطق بالحكمة ؛ لأنه تبع من لا ينطق عن الهوى ، واختار سبيل الهدى .

(٨) مذهبنا : أي التصوف ؛ أي قواعده التي يدور عليها .

وجاء فى تفسير قوله تعالى(١) : ﴿ والعملُ الصالحُ يرفَعُه ﴾ — أنه الاقتداء برسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم .

وحُكِيَ(٢) عن أحمد بن حَنبل ؛ قال : كُنتُ يوما مع جماعةٍ تجرّدوا(٣) ودخلوا الماء، فاستعملتُ الحَديثَ(٤) : مَنْ كان يُؤمِنُ بالله واليوم ِ الآخر فلا يدخلُ الحمّام إلا بمِئزَرٍ(٥) ، ولم أتجرّد ؛ فرأيتُ تلكَ الليلةَ قائلا لى : يا أحمدُ أبْشِر ؛ فإنَّ اللهَ قد غفر لكَ باستعمالك السنّةَ ، وجعلكَ إماماً يُقتدَى بك .

قلت : مَنْ أنتَ ؟ قال : جبريل .

فصل

[فى أنّ مخالفةَ أمره وتبديل سُنّتِه ضلال]

ومخالفةُ أمره وتبديلُ سُنَّتِه ضَلالٌ وبدْعةٌ متوعَّد من الله تعالى عليه بالخِذْلان(٦) والعذاب ، قال الله تعالى(٧) : ﴿ فلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخَالِفونَ عن أمره أن تُصيبَهم فتنةٌ أو يصيبَهم عذاب أليم .

وقال(٨) : ﴿ ومَنْ يُشاقِقِ الرسُولَ من بَعْدِ ما تَبيَّنَ له الهُدَى وَيتَّبِعْ غيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نوَلِّه ما توَلَّى وَنُصْلِه جهنّمَ وساءت مَصيراً ﴾ .

(١) سورة فاطر ، آية ١٠ (٢) فى ا : أن . (٣) تجردوا عن ثيابهم ، عريا .

(٤) استعملت الحديث : عملت به . وقيل المعنى : طلبت ذلك من نفسى ، وقلت :لاتوافق هؤلاء . والحديث رواه مسلم ، والترمذى : سنن الترمذى : ٥ ـ ١١٣

(٥) المئزر : الإزار ، وهو مايستر به نصف المرء الأسفل .

(٦) متوعد عليها : ورد الوعيد لفاعلها . والخذلان : عدم التوفيق ، وترك النصرة له .

(٧) سورة النور ، آية ٦٣ . يخالفون عن أمره : يعرضون عن أمر النبى. والفتنة : ما فى الدنيا من المصائب ، والمحن ، والبلايا .

(٨) سورة النساء ، آية ١١٥ . يشاقق : يخالف ، ويعادى ويخاصم . تبين له الهدى : ظهر له الحق . يتبع غير سبيل المؤمنين : يسلك طريقا غير طريقهم فى الاعتقاد والعمل نوله ما تولى : نجعله متوليا لما تولاه من الضلالة والبدع . ونصله جهنم : ندخله فيها ونحرقه بها .

حدثنا أبو محمد عبد الله بن أبى جَعْفر ، وعبد الرحمن بن عتّاب بقراءتى عليهما ؛ قالا : حدثنا أبو القاسم حاتِمُ بن محمد ، حدثنا أبو الحسَن القابِسىّ ، حدثنا أبو الحُسَين[(١)] بن مسرور الدبّاغ ، حدثنا أحمد بن أبى سليمان ، حدثنا سُحْنُون ابن سَعِيد ، حدثنا ابنُ القاسم ، حدثنا مالك ، عن العَلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ـ أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم خرج إلى المقبرة : . . وذكر الحديثَ[(٢)] فى صفةِ أُمّتِه ؛ وفيه : فَلَيُذَادَنّ[(٣)] رِجَالٌ عن حَوْضِى كما يُذَاد البعيرُ الضالُّ[(٣)] ، فأُنادِيهم : ألَا هَلُمّ ، ألَا هَلُمّ[(٤)] ؛ فيقال : إنهم قد بدّلُوا بعدَك[(٥)] . فأقول : فسُحْقاً ، فَسُحْقاً ، فَسُحْقاً[(٦)] .

وَرَوَى أنَس[(٧)] أن النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : من رَغِبَ[(٨)] عن سُنّتى فليس منى .

وقال[(٩)] : من أَدْخَل فى أمرنا ما ليس منه فهو ردّ[(١٠)] .

---

(١) فى ا : أبو الحسن .

(٢) حديث رواه مسلم والإمام مالك مسندا : صحيح مسلم : ٢١٨ ، وسنن ابن ماجه : ١٤٤٠ ، والموطأ : ٣٠

(٣) الذود هنا : الطرد والمنع . كما يذاد البعير الضال : كما يطرد البعير إذا ضل من صاحبه وأتى ليدخل فى إبل أخرى ليستقى فيطرد من بينها لئلا ينتقص شربها .

(٤) هلم : أقبلوا .

(٥) بدلوا بعدك : أى غيروا سنتك ، وارتكبوا ما لم تعهده فيهم .

(٦) فسحقا : جعلهم الله فى مكان سحيق ؛ أى بعيد .

(٧) فى حديث رواه الشيخان : صحيح البخارى : ٧ ـ ١ ، وصحيح مسلم : ١٠٢٠

(٨) رغب عن سنتى : تركها .

(٩) فى حديث رواه الشيخان: صحيح البخارى: ٩ ـ ١٣٢ ، وصحيح مسلم : ١٤٤٣

(١٠) من أدخل فى أمرنا : أى أحدث بدعة فى الدين . فهو رد : مردود .

ورَوَى ابن أبى رافع(١) ، عن أبيه ، عن النبى صلّى الله عليه وسلم ؛ قال : لا أُلفِيَنّ أحَدكم متّكِئاً على أرِيكَتِهِ يأتيه الأمرُ من أمرى مما أمَرْتُ به أو نَهَيْتُ عنه، فيقول : لا أدْرِى ، ما وجدنا فى كتابِ الله اتّبعْنَاه .

زاد فى حديث المِقْدام(٢) : ألَا وإنّ ما حَرّم رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم مثلُ ما حَرّم الله(٣) .

وقال(٤) صلى اللهُ عليه وسلم : وَجِىء بكتابٍ فى كَتِفٍ(٥) : كفى بقومٍ حُمْقاً — أو قال : ضَلالًا — أنْ يَرْغَبُوا عما جاء به نبيُّهم إلى غير نبيِّهم(٦) ، أو كتابٍ غيرِ كتابِهم ؛ فنزلت(٧) : ﴿ أوَلَمْ يَكْفِهم أنا أنزلْنا عليكَ الكتابَ(٨) يُتْلَى عليهم إنّ فى ذلكَ لرَحْمَةً وَذِكْرَى لقومٍ يُؤْمنون ﴾ .

وقال(٩) صلى الله عليه وسلم : هلك المتنطِّعون(١٠) .

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه كما تقدم . وقد تقدم شرحه وتخريجه صفحة ٥٥١ .

(٢) كما رواه الحاكم .

(٣) لأنه مبلغ عنه ؛ فيجب اجتناب ما حرمه .

(٤) فى حديث رواه الدارمى ، وابن المنذر ، وابن جرير ، وأبو داود مرسلا .

(٥) فى كتف : مكتوب فى عظم كتف ؛ لأنهم فى الصدر الأول كانوا يكتبون فيها وفى الجلود لقلة الورق إذ ذاك .

(٦) إلى غير نبيهم : أى ناظرين ، وملتفتين ومقبلين إلى ما جاء به غير نبيهم — يعنى ولو كان نبيا إلى غيرهم .

(٧) سورة العنكبوت ، آية ٥١ (٨) الكتاب ؛ هو القرآن .

(٩) فى حديث رواه مسلم عن ابن مسعود . صحيح مسلم : ٢٠٥٥

(١٠) هلك المتنطعون : أى وقعوا فى أمر يهلكهم يؤدى إلى غضب الله تعالى وعقابه ؛ من تنطع ؛ أى بالغ وغالى فى الأمور وتشدق بكلام لا حاجة إليه .

قال الخطابى : المتنطع : المتعمق المتكلف للبحث عن مذاهب أهل الكلام الخائض فيما لم يبلغه عقله .

وقال [١٤٣] [1] أبو بكر الصدِّيق رضى الله عنه : لستُ تارِكاً شيئاً كان رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَعْمَلُ به إلا عملْتُ به ؛ إنى أَخْشى إنْ تركْتُ شيئًا من أمره أنْ أَزِيغ [2] .

---

(١) رواه عنه أبو داود، والبخارى . صحيح مسلم : ١٣٨٢

(٢) أزيغ : أميل عن الحق والسنة .

الباب الثاني[٧]

في لزوم[١] محبته صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى[٢] : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعَشِيرتُكم[٣] وأموالٌ اقترفتُموها[٤] وتجارةٌ تخشَوْنَ كسادَها ، ومساكنُ ترضَوْنَها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِهِ وجهادٍ في سبيله ، فتربَّصُوا[٥] حتى يأتيَ اللهُ بأمره واللهُ لايَهْدِي القومَ الفاسقين ﴾ .

فكفى بهذا حضًّا وتنبيها ودَلالةً وحُجّةً على إلزام محبّته[٦]، ووجوب فَرْضِها، وعِظَم خَطَرِها[٧]، واستحقاقِهِ لها صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ إذ قرَّع تعالى[٨] مَنْ كان مالُه وأهلُه وولدُه أحبَّ إليه من اللهِ ورسولِهِ، وأوعدهم بقوله تعالى[٢]: ﴿ فتربَّصُوا حتى يأتيَ اللهُ بأمْرِه ﴾ .

ثم فسَّقهم[٩] بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممّن ضَلّ ولم يَهْدِه اللهُ .

حدثنا أبو عليّ الغسّاني الحافظ فيما أجازَنيه ، وهو مما قرأْتُه على غير واحد[١٠]؛ قال : حدثنا سِراجُ بن عبد الله القاضي ، حدثنا أبو محمد الأَصِيلي ، حدثنا المروزيّ ،

---

(١) لزوم محبته : وجوبها على كل مكلف من أمته .

(٢) سورة التوبة ، آية ٢٤ (٣) عشيرتكم : أقرباء النسب .

(٤) اقترفتموها : اكتسبتموها وملكتموها .

(٥) تربصوا : التربص : الانتظار . (٦) إلزام محبته : إثبات مودته .

(٧) خطرها : قدرها . (٨) قرع : وبخ .

(٩) فسقهم : وصفهم ونسبهم للفسق ، وهذا الوصف جاء في آخر الآية في قوله تعالى : والله لايهدى القوم الفاسقين . فجعلهم فاسقين .

(١٠) وقد رواه البخاري ، ومسلم، والنسائي: صحيح مسلم :٦٧ ، وصحيح البخاري: ١ – ١٢ ، وسنن النسائي : ٧ – ١٠٠

حدثنا أبو عبد الله محمد بن يُوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب ، عن أنس رضِيَ اللهُ عنه — أنَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم قال : لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِه ووالدِه والناس أجمعين .

وعن أبى هريرة نحوُه .

وعن[1] أنَسٍ ، عنه صلى الله عليه وسلم : ثلاثٌ مَنْ كُنَّ[2] فيه وَجَد حلاوةَ الإيمان : أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سِوَاهما . وأَنْ يحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا للهِ ، وأنْ يكرهَ أنْ يَعُودَ فى الكفر كما يكرهُ أن يُقذَفَ فى النار .

وعن[3] عُمر بن الخطاب رضىَ اللهُ عنه أنه قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : لأَنْتَ أحبُّ إلىَّ من كلِّ شيء إلاَّ نفسى التى بين جَنْبيَّ .

فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : لن يُؤْمِنَ أحَدُكم حتى أكونَ أحَبَّ إليه مِنْ نفسه .

فقال عمر : والذى أنزَلَ عليكَ الكتابَ لأَنْتَ أحبُّ إلىَّ من نفسى التى بين جَنْبيَّ .

فقال له النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم : الآن[4] يا عُمَر .

قال سَهل : مَنْ لم يَرَ[5] وِلاَيَةَ الرسول عليه فى جميع الأحوالِ ، ويرى نفْسَه فى مِلْكِه صلّى الله عليه وسلم لا يَذُوقُ حلاوةَ سُنَّتِه ؛ لأَنَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ أحبَّ إليه من نفسه . . .

(١) رواه الشيخان . صحيح البخارى : ١ — ١٢ ، صحيح مسلم : ٦٦

(٢) كن فيه : وجدن فيه . (٣) فى حديث رواه البخارى .

(٤) الآن : الآن نطقت بالحق ، أو ظهر اتصافك بكمال الإيمان .

(٥) من لم ير : من لم يعلم ويتحقق يقينا . ولاية الرسول : نفوذ حكمه وسلطانه ، حتى كأنه مملوك له .

فصل

فى ثواب محبّته صلى الله عليه وسلم

حدثنا(١) أبو محمد بن عَتّاب بقراءتى عليه ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحسن على بن خَلَف ، حدثنا أبو زَيْد المَرْوزىّ ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا عَبْد الله ، حدثنا أبِى ، حدثنا شُعْبَة ، عن عَمْرو بن مُرّة ، عن سالم بن أبى الجَعْد ، عن أنَس رضى اللهُ عنه — أنّ رجلا أتى النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال : متى الساعة(٢) يا رسولَ الله ؟ قال : ما أعْدَدْتَ لها(٣) ؟ قال : ما أعددتُ لها من كثير صلاةٍ ولا صَوْمٍ ولا صدقةٍ ، ولكنى أحبُّ اللهَ وَرسولَه .

قال : أنْتَ مع مَنْ أحبَبْتَ(٤) .

وعن صَفْوان بن قُدامة : هاجرتُ إلى النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم فأتَيتُه ، فقلت : يا رسولَ الله ، ناولِنى يدَكَ أبايِعك(٥) . فناوَلَنى يَدَهُ ، فقلتُ : يا رسولَ الله ؛ إنى أحبُّك . قال : المرء [١٤٤] مع مَنْ أحبّ(٦) .

ورَوَى هـذا اللفظَ عن النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم عبدُ الله بن مسعود ، وأبو موسى ، وأنس ؛ وعن أبى ذرّ بمعناه .

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى : صحيح البخارى:٥ ـ ١٤،وسنن الترمذى:٤ـ٥٩٥

(٢) سأله عن تعيين زمان وقوعها . والمراد بالساعة يوم القيامة .

(٣) ما أعددت لها : ما هيأت وأحضرت لها من الأعمال الصالحة التى تنفعك فيها إذا قامت. وفى ب : كبير ـ بالباء الموحدة .

(٤) أنت مع من أحببت : المراد أنه يدخل الجنة فى زمرة المؤمنين ، وإن كانت مراتبهم متفاوتة .

(٥) المبايعة : الإقرار بما جاء به واتباعه .

(٦) سنن الترمذى : ٤ ـ ٥٩٥ ، عن أنس ، وعن صفوان بن عسال . وصحيح البخارى : ٨ ـ ٤٨ ، ٤٩

وعن عليّ أنّ[١] النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ بيد حَسَن وحُسين ، فقال : مَنْ أحبّني وأحبّ هذين وأباهما وأمّهما[٢] كان معى فى درجتى يوم القيامة .

ورُوى[٣] أنّ رجلاً أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ؛ لأنتَ أحبُّ إلىّ مِنْ أهلى ومالى؛ وإنى لأذكرُكَ فما أصبر حتى أجيء فأنظرَ إليك ؛ وإنى ذكرتُ موتى وموتَك ، فعرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنةَ رُفِعْتَ مع النبيّين ، وإنْ دخلتُها لا أراك[٤] .

فأنزل اللهُ تعالى[٥] : ﴿ ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئكَ مع الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم من النبيّين والصدّيقينَ والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رَفيقاً ﴾ — فَدعا به فقرأها عليه[٦] .

وفى حديثٍ آخَرَ[٧] : كان رَجُلٌ عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم ينظرُ إليه لا يَطْرِفُ[٨] ، فقال : مَا بالُكَ[٩] ؛ قال : بأبى وأمى ! أتمتّعُ من النظَر إليكَ ، فإذا كان يومُ القيامةِ رفعك الله بتفضيله[١٠] ؛ فأنزل اللهُ الآية .

وفى حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه : مَنْ[١١] أحبّني كان معى فى الجنّةِ .

---

(١) رواه عنه الترمذى : سنن الترمذى : ٥ — ٦٤١

(٢) أبوهما : على . وأمهما : فاطمة الزهراء .

(٣) رواه الطبرانى وابن مردويه عن عائشة وابن عباس . ورواه ابن كثير فى تفسيره: ١ — ٣١٠

(٤) لا أراك : لا أراك بعد الدخول ، لأنك فى مقام أعلى لا يصل إليه غيرك .

(٥) سورة النساء ، آية ٦٩ (٦) قرأها عليه جوابا له وتبشيرا .

(٧) قال القارى (٢ — ٣٧) : لا يعرف مخرجه .

(٨) ينظر إليه : يديم النظر إلى وجهه الكريم . لا يطرف : لا يطبق أحد جفنيه على الآخر . ويغض بصره ، أو يصرفه عنه .

(٩) ما بالك : ماشأنك حتى تحد النظر إلى وتديمه .

(١٠) أى فى أعلى الدرجات . بتفضيله ؛ أى بسبب تفضيله سبحانه وتعالى إياك على من سواك ، وحينئذ لا أراك . (١١) فى ا : ومن . . .

فصــــل

فيما رُوِىَ عن السلَف والأئمة من محبّتهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم وشوْقهم له

حدثنا القاضي الشّهيد ، حدثنا العُذْرىّ ، حدثنا الرازىّ ، حدثنا الجُلُودى ، حدثنا ابن سُفْيان ، حدثنا مُسْلِم ، حدثنا قُتَيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن سُهَيل ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيرةَ رضِىَ اللهُ عنه[١] - أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : مِن أشدِّ أُمّتِى لى حُبًّا ناسٌ يكونونَ بَعْدِى؛ يوَدُّ أحَدُهم لو رآنى بأهله ومَالِه[٢] .

ومِثْلُه عن أبى ذَرّ .

وقد تقدمَ حديثُ عُمر رضِىَ اللهُ عنه ، وقولُه للنبىّ صلى اللهُ عليه وسلم : لأَنْتَ أحبُّ إلىّ من نفسى . وما تقدّم عن الصحابة فى مثْله .

وعن عَمْرو بن العاصِ رضِىَ اللهُ عنه : ما كان أحدٌ أحبَّ إلىّ من رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم[٣] .

وعن عَبْدةَ بنت خالد بن مَعْدَان[٤] ؛ قالت : ما كان خالدٌ[٥] يَأْوِى إلى فراشٍ إلاّ وهو يذْكُرُ من شوْقِهِ إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم وإلى أصحابه من

---

(١) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ٢١٧٨

(٢) أى يحب ويرغب ويتمنى لو بذل أهله وماله لأجل رؤيته . أو يتمنى لو رآنى بدلهما .

(٣) هذا من حديث طويل رواه مسلم .

(٤) قال القارى (٢ - ٣٨) : المعروف : عبدة بنت خالد بن صفوان ، روت عن أبيها ، ذكرها ابن حبان فى ثقاته .

(٥) تعنى أباها .

المهاجرين والأنصار يُسمِّيهم ويقول : هُم أصْلِي وفصْلى[١] ، وإليهم يحنُّ قلْبِي ، طالَ شوقى إليهم ، فعجِّل ربِّ قَبْضِى إليك[٢] حتى يغلِبَه النوْم .

ورُوِى[٣] عن أبى بكْر رضِيَ اللهُ عنه أنه قال للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلّم : والذى بعثكَ بالحق لَإسلامُ أبِى طالب[٤] كان أقَرَّ لعينى[٤] من إسلامِهِ - يعنى أباه أبا قُحافة ؛ وذلك أنَّ إسلامَ أبى طالب كان أقرَّ[٥] لعينكَ .

ونحوُه عن عُمر بن الخطّاب ؛ قاله للعباس[٦] رضِيَ اللهُ عنه: أنْ تُسْلمَ أحَبُّ إلىّ من أنْ يُسلمَ الخطّابُ ؛ لأنَّ ذلكَ أحبُّ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

وعن ابْن إسحاق[٧] أنَّ امرأةً من الأنصار قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجُها يوم أُحُدٍ مع رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، فقالت : ما فَعَل رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم[٨] ؟ قالوا: خيراً ، هو بحَمْدِ الله كما تُحبِّين. قالت: أرُونِيه حتى أنْظُرَ إليه. فلما رأتْه قالت : كلُّ مُصيبةٍ بَعْدَكَ جَلَل[٩] .

وسُئل علىُّ بن أبى طالب رضِىَ اللهُ عنه: كيف كان حُبُّكم لرسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه [١٤٥] وسلم ؟ قال : كان واللهِ أَحبَّ إلينا من أموالنا وأولادِنا وآبائنا وأمّهاتنا ، ومن الماء الباردِ على الظَّمأ .

---

(١) يعنى أنى أفتخر بهم وأنتسب إليهم دون آبائى وقبيلتى . والمراد أن عليهم عمدتى ، وبهم أفضل وأحكم . (٢) أى عجل موتى حتى ألقاهم .

(٣) فى شرح القارى (٢ - ٣٩) : رواه ابن عساكر فى تاريخه .

(٤) يعنى عم النبي . أقر لعينى : أسر وأحب عندى .

(٥) وهذا الحديث رواه أحمد ، وابن إسحاق ، وأبو حاتم .

(٦) عم النبي . (٧) ورواه البيهقى .

(٨) تريد السؤال عن سلامته وحياته .

(٩) جلل : شيء هين لا أبالى به ولا أحزن عليه .

وعن زيد بن أسلم : خرج عُمر رضِيَ اللهُ عنه ليلةً يحرُس الناسَ، فرأى مِصْبَاحاً في بيتٍ ، وإذا عجوزٌ تَنْفُش صُوفا ، وتقول :

على مُحَمّدٍ صلاةُ الأبرارْ[1] صلّى عليه الطيِّبُونَ الأخيارْ
قد كنتَ قوّاماً بُكاً بالأسحارْ[2] ياليتَ شِعْرى والمنايا أطوارْ
هل تجمعَنى وحَبِيبِى الدّارْ

تَعْنِى[3] النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم .

فجلس عُمر رَضِيَ اللهُ عنه يبْـكِى ؛ وفى الحـكاية طول .

ورُوِىَ أنّ عَبْدَ الله بن عُمر خَدِرتْ[4] رِجْلُه ، فقيل له: اذكُرْ أحبّ الناسِ إليك يَزُلْ عنك .

فصاحَ : يامُحَمّدَاه ! فانتشرَتْ[5] .

ولما احتُضِر[6] بلالٌ رضىَ اللهُ عنه نادت امرأتُه: واحُزْنَاه! فقال : واطَرَباهُ[7] ! غداً ألْقَى الأحِبّةَ . محمدا وحِزْبَه .

[ومثْله عن حُذَيفَة بن اليمان رضى الله عنهما][9] .

---

(١) الأبرار : جمع بر ، وبار ، وهو كل مطيع لربه ، متق ؛ أى أدعو له بكل ما تدعو به الأبرار .

(٢) قواما : متهجدا، أى كثير القيام للعبادة . والأسحار : جمع سحر ؛ وهو آخر الليل.

(٣) أى تعنى بقولها : حبيبى .

(٤) خدرت رجله : أصابها خدر ، وهو أمر يعترى الرجل فيمنع من تحريكها بسهولة ويزول سريعا ؛ أى فترت عن الحركة ، وضعفت .

(٥) فانتشرت : أى امتدت رجله لزوال خدرها .

(٦) احتضر : حضرته الوفاة ، وقاربه الممات .

(٧) الطرب : خفة تعترى المرء لحزن أو سرور . والمراد الثانى هنا .

(٨) وحزبه : الحزب : الجماعة ، والمراد بهم الصحابة .

(٩) ليس فى ا .

ويُروى أنّ امرأةً قالت لعائشة رَضِيَ اللهُ عنها : اكْشِفِى لى قَبْرَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ فكشفَتْه لها ، فبكَتْ حتى ماتت .

ولما أخرج[1] أهلُ مكة زَيْدَ بن الدَّثِنَة من الحَرَم ليقتلوه[2] قال أبو سفيان ابن حَرْب : أنشُدكَ بالله[3] يا زَيْدُ ، أتُحِبُّ أنّ مُحَمّداً الآنَ عندنا مكانَك تُضرَبُ عُنُقُه ، وإنك فى أهلك[4] ؟

فقال زَيْد : والله ما أُحبُّ أنّ محمدا الآنَ فى مكانه الذى هو فيه تُصِيبُه شَوْكةٌ وإنى جالس فى أهلى .

فقال أبو سفيان : ما رأيتُ من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً !

وعن ابن عباس[5] : كانت المرأةُ إذا أتَت[6] النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم حلَّفها بالله : ما خرجَتْ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ ، ولا رَغْبةٍ بأَرضٍ عن أرضٍ ؛ وما خرجَتْ إلا حبًّا للهِ[7] ورسوله .

ووقف[8] ابن عُمر على ابْنِ الزُّبير رَضِيَ اللهُ عنهما بعد قَتْلهِ ، فاستغفر له ، وقال : كنتَ والله ما علمتُ صوّاما قوّاماً تُحِبُّ اللهَ ورسوله[9] .

---

(١) رواه البيهقى .

(٢) وكان أسر يوم الرجيع ؛ وإنما أخرجوه منه لأنهم كانوا لايقتلون فيه لعظمها له .

(٣) أنشدك الله : أسألك بالله . (٤) وإنك فى أهلك : أى سالما مقيما .

(٥) رواه ابن جرير ، والبزار .

(٦) أتت النبى صلى الله عليه وسلم مهاجرة إلى المدينة .

(٧) ماخرجت : أى من أرضها وبلدها لشىء من بغض زوج ناشزة ، ولا رغبة فى أرض عن أرض ، وأنها ماخرجت من أرضها إلا حبا لله ورسوله ؛ فهى هجرة خالصة لله .

(٨) رواه ابن سعد .

(٩) صواما : كثير الصوم . قواما : كثير القيام والتهجد .

فصــل

فى علامة محبّته صلّى اللهُ عليه وسلم

اعلمْ أنّ مَنْ أحبّ شيئاً آثرَه وآثر مُوَافقَته[١]، وإلاّ لم يكُنْ صادقا فى حُبّه ، وكان مُدّعِياً . فالصادقُ فى حبّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم مَنْ تَظْهَرُ علامَةُ ذلكَ عليه ؛ وأوّلُها الاقتداء به ، واستعمالُ سُنّتِه، واتبَاعُ أقوالِه وأفعالِه، وامتثالُ أوامره، واجتنابُ نواهيه ، والتأدُّبُ بآدابِه فى عُسْرِه ويُسْرِه[٢] ، ومَنْشَطِه ومَكْرهِه[٣] ، وشاهدُ هذا قولُه تعالى[٤]: ﴿ قُلْ إنْ كُنْتُمْ تحبُّونَ اللهَ فاتّبِعُونى يُحْبِبْكُم اللهُ ﴾.

وإيثارُ ما شَرَعه[٥] وَحَضّ عليه على هَوَى نفسه ، وموافقةِ شهوتِه[٦] ؛ قال الله تعالى[٧] : ﴿ والذين تبوّءوا الدّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلهم يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يَجِدُونَ فى صُدُورهم حاجةً مما أُوتُوا ويُؤْثِرُون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصَةٌ ﴾ .

وإسْخَاطُ العبادِ فى رِضا اللهِ تعالى .

---

(١) آثره : اختاره وقدمه على غيره . وآثر موافقته فى أقواله وأفعاله .

(٢) فى عسره ويسره : فى الشدة والرخاء ، وفى المحنة والنعمة ، والجوع والشبع .

(٣) منشطه : فى نشاطه وخفته. ومكرهه : كراهته لأمر يتحمله من غيره . أى فى حال سعته وضيقه، أو حال رضاه وغضبه، أو وقت فرحه وحزنه ،أو زمن انشراح صدره وانقباض أمره.

(٤) سورة آل عمران ، آية ٣١ (٥) ماشرعه : من أحكامه الواجبة وغيرها .

(٦) هوى نفسه : ما تهواه وتميل إليه وموافقة شهوته :أى ماتشتهيه نفسه ويميل إليه طبعه.

(٧) سورة الحشر ، آية ٩

تبوءوا الدار: سكنوها واستقروا بها ، وهم الأنصار. والمراد بالدار: المدينة . والإيمان:أى وأخلصوا الإيمان . حاجة مما أوتوا : حاجة : حزازة . مما أوتوا : أى لايخطر ببالهم ولاتطمح نفوسهم إلى ما أعطى المهاجرون من فىء وغيره حسدا وطمعا. ويؤثرون على أنفسهم :يقدمون المهاجرين على أنفسهم . خصاصة : احتياج وفاقة .

حدثنا القاضي أبو عليّ الحافظ ، حدثنا أبو الْحُسَيْن الصَّيْرَفِيُّ ، وأبو الفضل ابن خَيْرون ؛ قالا : حدثنا أبو يَعْلَى البَغْدَادِيّ ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا مسلم بن حاتم، حدثنا محمد بن عَبْدالله الأَنصارى،عن أبيه [١٤٦] عن عليّ بن زَيْد ، عن سَعيد بن المسيَّب ؛ قال : قال أَنَس بن مالك رضِيَ اللهُ عنه : قال لي رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : يا بُنَيّ ؛ إنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وتُمْسِي ليس في قَلْبك غِشٌّ(١) لأحدٍ فافعَلْ .

ثم قال لي : يا بُنيّ ؛ وذلكَ مِنْ سُنَّتِي ، ومَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فقد أحبَّني ، ومَنْ أحبَّني كان معي في الجنَّة .

فمن اتَّصفَ بهذه الصفةِ(٢) فهو كاملُ المحبةِ لله ورسوله،ومَنْ خالَفَها في بعضِ هذه الأمور فهو ناقصُ المحبَّةِ ، ولا يخرج عن اسْمِها(٣) .

ودليلُه قَوْلُه(٤) صلَّى اللهُ عليه وسلم للذى حدَّهُ في الخَمْر فلعَنَه بعضُهم ، وقال : ما أكثر ما يُؤْتَى(٥) به ! فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم : لا تَلْعَنْه ، فإنَّه(٦) يحبُّ اللهَ ورسولَه .

ومن علاماتِ محبّةِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم كَثْرَةُ ذِكْرِه له؛ فمن أحبَّ شيئا أكثر ذِكْرَه .

---

(١) الغش : ضد النصح . والمراد به هنا : غل وحقد .

(٢) أي من اتصف بإحياء السنة واتباعها ، وتحلى بهذه الصفات التي هي علامات المحبة .

(٣) أي لا يخرج بارتكاب بعضها عن الاتصاف بها وتسميته محبا في الجملة .

(٤) في حديث رواه البخاري عن عمر رضي الله عنه : صحيح البخاري : ٨ – ١٩٧ ، وقال فيه : كان اسم هذا الرجل عبد الله ، وكان يلقب حمارا ، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الدمياطي : إن هذا وهم ؛ فإن صاحب القصة نعمان بن عمرو ، أتى به في شرب الخمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجلده أربعا أو خمسا، فقال رجل من القوم : اللهم العنه. وكان صاحب مزاح .

(٥) أي وهو سكران .

(٦) في صحيح البخاري : لا تلعنوه ، فوالله — ما علمت — إنه يحب الله ورسوله .

ومنها كثرةُ شَوْقِهِ إلى لِقَائه؛ فكلُّ حَبِيبٍ يحبُّ لِقاءَ حَبِيبِه.

وفى حديث الأشعريين[١] عند قدومهم المدينةَ أنهم كانوا يَرْتَجِزُون[٢]: غدًا نَلْقَى الأحبَّة. محمداً وصَحْبَه.

وتقدّم قولُ بلال[٣].

ومثْلُه قال عمار قبل قَتْلِهِ[٤]. وما ذكرْناه مِنْ قِصَّة[٥] خالد بن مَعْدان.

ومِنْ علاماته مع كَثْرة ذِكْرِه ـ تعظيمُه له وتَوْقيرُه عند ذِكْرِه، وإظهارُ الخشوع والانكسار[٦] مع سَمَاع اسْمِه.

قال إسحاق التُّجِيبي: كان أصحابُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم بعده[٧] لا يذكرونه إلاّ خَشَعوا واقشعرّتْ جلودُهم وبَكَوْا.

وكذلك كثير من التابعين منهم مَنْ يفعلُ ذلكَ محبةً له وشوقاً إليه؛ ومنهم مَن يفعله تَهَيُّباً وتوقيرا[٨].

ومنها محبّتُه لِمَنْ أحبَّ النبيُّ[٩] صلى اللهُ عليه وسلم، ومَنْ هو بِسَبَبِه[١٠] من آلِ بَيْته وصَحَابته من المهاجرين والأنصار؛ وعداوةُ مَنْ عادَاهم، وبُغْضُ مَنْ أبغضهم[١١] وسبّهم؛ فمَنْ أحبَّ شيئا أحبَّ من يحبُّه[١٢].

---

(١) هم أبو موسى الأشعرى وأصحابه، وكانوا قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع من الهجرة.

(٢) يرتجزون: ينشدون شعرا وكلاما موزونا. أو المراد يصيحون ويصوتون.

(٣) صفحة ٥٦٩ من هذا الكتاب؛ فقد سبق هناك أنه أنشد نحو هذا الرجز.

(٤) فى ب: وكما قال عمار قبل مقتله، وعليها علامة « صح ». والمثبت فى ا.

(٥) وقد تقدمت صفحة ٥٦٧

(٦) الخشوع: الخضوع. والانكسار: التذلل والتواضع. (٧) بعده: أى بعد وفاته.

(٨) وتوقيرا: أى لإجلاله وتكريمه. (٩) فى ا: النبي ـ بالنصب.

(١٠) من هو بسببه: من كان بينه وبينه قرابة أو صهر.

(١١) بغض من أبغضهم: أى كرههم. (١٢) فى ا: يحب.

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم فى الحَسَن والحُسَين : اللّهمَّ إنِّى أُحبّهما فأَحِبّهما(١) .

وفى(٢) رواية ـ فى الحَسَن : اللهم إنى أُحبُّه فأَحِبَّ مَنْ يُحبّه .

وقال : مَنْ أحبّهما(٢) فقد أحبَّنى ، ومَنْ أحبَّنى فقد أحبَّ الله ، ومَنْ أبغضهما فقد أبغَضَنِى ، ومَنْ أبغَضنى فقد أبغَضَ اللهَ .

وقال(٣) : اللهَ اللهَ فى أصحابى ، لاتتَّخِذوهم غرَضا(٤) بعْدِى ؛ فمن أحبَّهم فبحُبّى أحَبَّهم ، ومن أبغضهم فببُغْضِى أبغَضَهم ، ومَنْ آذاهم(٥) فقد آذانى ، ومَنْ آذانى فقد آذَى اللهَ ، ومَنْ آذى اللهَ يُوشِكُ أنْ يأخُذَه(٧) .

وقال(٨) ـ فى فاطمة رَضِىَ اللهُ عنها : إنها بَضْعَةٌ(٩) منى ، يُغضِبُنى ما أغضَبها .

وقال(١٠) لعائشة ـ فى أُسامة بن زيد : أَحِبِّيه فإنى أُحبُّه .

---

(١) رواه البخارى : ٥ ـ ٣٠ ، ٣٣. فأحبهما : أى أعطهما كل خير دنيوى وأخروى . وقد رواه الترمذى فى حديث قال: إنه حسن صحيح . وقد سبق أن الحديث فى سنن الترمذى: ٥ ـ ٦٥٧ ، ٦٦١

(٢) من أحبهما : أى الحسن والحسين .

(٣) فى حديث رواه الترمذى: ٥ ـ ٦٩٦. الله الله : اتقوا الله ، واحذروه ، واخشوه . وفى تكريره تحذير على وجه المبالغة .

(٤) غرضا : الغرض : الهدف الذى يرمى بالسهام . والمراد : لا تقصدوا ذكرهم بسوء ولا تبحثوا عما وقع منهم .

(٥) ومن آذاهم بذكر مايسوءهم . (٦) آذى الله ؛ أى عصاه وفعل مالا يرضاه .

(٧) يوشك أن يأخذه : أى يهلكه سريعا ولا يمهله فيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(٨) فى حديث رواه البخارى : صحيح البخارى : ٥ ـ ٣٦

(٩) بضعة : قطعة وجزء منى .

(١٠) فى حديث رواه الترمذى : سنن الترمذى : ٥ ـ ٦٧٧

وقال(١) : آيةُ الإيمانِ حبُّ الأنصار ؛ وآيةُ النفاقِ بُغضُهم .

وفى حديث(٢) ابن عُمر : مَنْ أحبَّ العربَ فبِحُبِّي أحبَّهم ، ومَنْ أبغضهم فببغضى أبغضهم ؛ فبالحقيقة(٣) مَنْ أحبَّ شيئًا أحبَّ كلَّ شىء يحبُّه .

وهذه سيرةُ السَّلَفِ حتى فى المُباحات وشهواتِ النفس .

وقد قال أنس حين رأى النبىَّ صلى الله عليه وسلم يتتبَّع الدُّبَّاء(٤) من حوالى القَصْعَة : فما زلتُ أُحبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يومئذ(٥) .

وهذا الحسنُ بنُ علىّ ، وعبدُ الله بن عبّاس ، وابنُ جعفر - أتَوْا سَلْمى وسألُوها أنْ تصنعَ لهم [١٤٧] طعاما مِمّا كان يُعْجِبُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم(٦) .

وكان ابنُ عُمر(٧) يلبَسُ النعَال السِّبتِيّة ، ويَصْبغُ بالصُّفْرةِ ؛ إذ رأى النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم يَفْعَلُ نحْوَ ذلك .

ومنها بُغْضُ مَنْ أبغضَ اللهَ ورسولَه ، ومعاداةُ مَنْ عاداهُ ، ومجانبَةُ مَنْ خالَفَ سُنّتَه وابتَدَعَ فى دِينه ، واستثقاله(٨) كلَّ أمرٍ يخالفُ شَريعتَه ؛ قال اللهُ تعالى(٩) :
﴿ لا تجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُون باللهِ واليوم الآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسُولَه ﴾ .

(١) فيما رواه الشيخان . صحيح البخارى : ١ - ١٢ . آية الإيمان : علامة تحققة وصدقه وكماله . (٢) أخرجه البيهقى فى دلائله .

(٣) فبالحقيقة : أى بسبب النظر للحقيقة ونفس الأمر المحقق عند العقول السليمة .

(٤) نوع من المأكول معروف عند الناس بالقرع ، ومعنى تتبعها أنه يأخذ قطع القرع من أى محل وجدت فيه . (٥) هذا الحديث أخرجه الشيخان: صحيح البخارى: ٧ - ٨٩

(٦) قال فى نسيم الرياض (٣ - ٤١٠): وإنما سألوها ذلك لأنها كانت تخدمه صلى الله عليه وسلم ، وتعرف مأكوله ومشروبه .

(٧) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٨٤٤ . السبتية : منسوبة إلى السبت ؛ وهو جلد دبغ وأزيل شعره ، فالنعال السبتية : هى التى ليس فيها شعر .

(٨) استثقاله : عده ثقيلا منفورا عنه ، غير مقبول . (٩) سورة المجادلة ، آية ٢٢ يوادون : يكون بينهم وبينهم مودة . حاد الله ورسوله : يخالفونه ويعارضونه .

وهؤلاء أصحابُه صلّى اللهُ عليه وسلم قد قتلوا أحِبّاءهم، وقاتَلوا آباءهم وأبناءهم في مَرْضَاتِه .

وقال له عبدُ اللهِ[١] بن عبدِ الله بن أُبَيّ : لو شئْتَ لأتيتُكَ برأسِه ـ يعنى أباه .

ومنها أَنْ يُحِبَّ القرآنَ الذى أتى به صلّى اللهُ عليه وسلم، وهَدَى[٢] به واهتدى، وتخلّق به حتى قالت عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها : كان خُلُقُه القرآن[٣] ، وحبُّه للقرآن تلاوتُه ، والعملُ به وتفهُّمه .

ويحبُّ[٤] سُنَّتَه ، ويقِفُ عند حدُودها .

قال سَهْل بن عَبْد الله : علامةُ حُبِّ اللهِ حبُّ القرآنِ ؛ وعلامةُ حُبِّ القرآنِ حبُّ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم، وعلامةُ حبِّ النبى صلى الله عليه وسلم حُبُّ السنَّةِ ، وعلامةُ حُبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرةِ[٥] ، وعلامةُ حبِّ الآخرةِ بُغْضُ الدُّنيا، وعلامةُ بُغضِ الدُّنيا ألّا يدَّخِرَ منها إلّا زاداً وبُلْغَةً إلى الآخرة[٦] .

وقال ابن مسعود[٧] : لا يَسألُ أحدٌ عن نفسه[٨] إلاّ القرآنَ ؛ فإنْ كان يحبُّ القرآنَ فهو يحبُّ اللهَ ورسُوله .

---

(١) كان عبد الله بن أبى رئيس أهل يثرب قبل الهجرة ، فلما هاجر النبى إلى المدينة وظهر الإسلام بطلت رياسته ، فكان لحرصه على الدنيا يكره الإسلام ويظهر النفاق ، وهو الذى نزل فى حقه سورة المنافقين . وأما ابنه عبد الله فكان من خيار الصحابة الصادقين .

(٢) وهدى به الخلق كلهم، واهتدى هو، وتخلق به : أى اتخذه خلقا له يعمل بكل مافيه.

(٣) كان خلقه القرآن : أى كان دأبه التمسك به ، والتأدب بآدابه، والعمل بما فيه من مكارم الأخلاق. وحديث عائشة فى سنن أبى داود : ١ ـ ١٣٤ ، ومسند أحمد: ٦ ـ ١١١ ، وتفسير ابن كثير : ٨ ـ ٢١٤

(٤) من علامات محبة الرسول .

(٥) لأن من أحب الرسول واتبعه أحب لقاءه ورغب فى الآخرة .

(٦) ألا يدخر : ألا يقتنى منها إلا مقدار ما يتزود ويتقوت، وما يبلغه إلى الدار الآخرة، كالمسافر يحمل من الزاد مايبلغه لقصده ومنزله ، فإنما الدنيا دار سفر ، لا دار مقر .

(٧) فى حديث رواه البيهقى فى الأدب ، وابن الضريس فى فضائل القرآن .

(٨) عن نفسه : عن أحوال نفسه فى محبتها لله ورسوله .

ومِنْ علامة حبِّهِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شفقَتُهُ على أمَّته، ونُصْحُه لهم، وسَعْيُهُ فى مَصَالِحِهم، ورَفْعُ المَضَارِّ عنهم؛ كما كان رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم بالمؤمنين رءوفاً رَحِيماً[١] .

ومن علامةِ تَمَامِ محبّته زُهْد مُدَّعِيها[٢] فى الدنيا، وإيثارُه الفَقْرَ[٣]، واتّصافُه به .

وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبى سَعِيد الخدْرىّ: إنَّ الفقْر إلى مَنْ يُحبّنى منكم أَسرعُ[٤] من السَّيْلِ من أعلى الوادى، أو الجبَل إلى أسْفَلِه .

وفى حديث عَبْد الله بن مُغَفَّل: قال رجلٌ للنبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم يارسولَ الله؛ إنى أُحبُّك . فقال: انظُر ما تقول[٥] . قال: واللهِ إنى أُحبّك ـ ثلاث مرات . قال: إنْ كنْتَ تُحبنى فأعِدَّ لِلفَقْر تِجْفَافاً[٦] .

ثم ذكر نَحْوَ حديثِ أبى سعيد بمعناه .

---

(١) رءوفا: الرأفة شدة الرحمة .

(٢) مدعيها: مدعى المحبة .

(٣) ايثاره: اختياره وتقديمه الفقر على الغنى وسعة الدنيا .

(٤) أى يصل إليكم بسرعة أقوى من سرعة السيل إذا انحدر من الوضع الذى يسيل فيه الماء .

(٥) انظر ماتقول: أى تفكر فيه وتأمل؛ فإن محبتى أمر عظيم من اختارها صادقا مخلصا ينبغى ألا يحب أمرا من أمور الدنيا، وهو أمر صعب .

(٦) تجفاف: التجفاف: شىء يوضع على الخيل ليقيها فى الحرب الأذى كالدرع للإنسان، وقد يلبسه الإنسان؛ أى أعدله عدة تقيك من أذى الفقر؛ فإن النفوس لاتتحمله؛ يعنى الصبر عليه ورياضة النفس فى تحمله . وفى هامش ا: التجفاف: مايلبسه الفرس مثل البرقع، والجمع تجافيف . ويروى: جلبابا؛ قال المتيى: معناه: ليرفض الدنيا ويزهد فيها وليصبر على الفقر والتقلل، وكنى بالتجفاف أو الجلباب عن الصبر، لأنه يستر الفقر كما يستر الجلباب البدن . والحديث فى سنن الترمذى: ٤ ـ ٣٧

فصل

فى معنى المحبة للنبىّ صلّى اللهُ عليه وحقيقتها

اختلف الناسُ فى تفسير محبّةِ الله ومحبّةِ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وكثُرت عباراتُهم فى ذلك ؛ وليست ترجعُ بالحقيقة إلى اختلافِ مَقَالٍ[١] ، ولكنها اختلافُ أحوال[٢] :

فقال سفيان : المحبةُ[٣] اتبَاعُ الرّسول صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ كأنه التفت إلى قوله تعالى[٤] : ﴿ قل إنْ كُنْتُم تُحِبُّون اللهَ فاتّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم ، واللهُ غَفورٌ رَحِيم ﴾ .

وقال بعضُهم : محبّةُ الرسولِ اعتقادُ نُصْرَتهِ[٥] ، والذّبّ عن سُنّتِه ، والانقياد لها ، وهيبة مخالفته .

وقال بعضهم : المحبةُ : دَوام الذِّكْر للمحبوب .

وقال آخر : إيثار المحبوب[٦] .

وقال بعضهم : المحبةُ الشّوْقُ إلى المحبوب .

---

(١) إلى اختلاف مقال : أى إلى اختلاف يتعلق باللفظ .

(٢) اختلاف أحوال : أى سبب اختلافهم اختلاف حال المحب ، وحال المحبة قوة وضعفا ؛ فكل نظر إلى حال من أحوالها وفسرها بتفسير يناسبه ، فليس اختلافا حقيقيا ولا لفظيا ، وإنما هو باعتبار المحبوب والمحب وحالاتها .

(٣) المحبة : أى محبة الله .　　(٤) سورة آل عمران ، آية ٣١

(٥) اعتقاد نصرته : لزوم نصرته بالمجاهدة لينصره ويعلى كلمته والذب :الطرد عن سنته وشريعته برد مايخالفها ودفع الشبهة الواردة عليها .

(٦) إيثار المحبوب : اختياره وتقديمه على ما سواه ؛ بأن يكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله .

وقال بعضهم : المحبةُ مُوَاطَأَةُ القلبِ(١) لِمُرادِ الربِّ ؛ يُحبُّ ما أحبَّ ، ويكرهُ ماكَرِهَ .

وقال آخر : المحبةُ مَيْلُ [١٤٨] القلبِ إلى مُوَافِقٍ له .

وأكثرُ العِبَاراتِ المتقدمة إشارةٌ إلى ثمراتِ المحبّة دُونَ حقيقتها .

وحقيقةُ المحبَّةِ الميلُ إلى مايُوافِقُ الإنسانَ ، وتكون موافقَتُهُ له إمّا لاستِلْذاذه بإدراكِهِ ؛ كحبِّ الصُّوَرِ الجميلةِ ، والأصْواتِ الحسنة ، والأطعمة والأشربة اللذيذة ، وأشباهِها مما كلُّ طَبْعٍ سليم مائلٌ إليها لموافقَتِها له ، أوْ لِاستلذاذه بإدراكه بحاسّةِ عَقْلِه وقَلْبِه مَعانِيَ باطنةً(٢) شريفةً ؛ كمحبّة الصالحين والعلماء وأهل المعروف ، والمأثور عنهم(٣) السِّيَرُ الجميلةُ والأفعالُ الحسنَة ؛ فإنْ طَبْعَ الإنسانِ مائلٌ إلى الشغَفِ(٤) بأمثال هؤلاء حتى يبلغَ التعصّبُ بقومٍ ، والتشيُّعُ(٥) من أمة فى آخرين ما يؤدّى إلى الجلاء(٦) عن الأوطان ، وهَتْكِ الحُرم(٧) ، واخترامِ النفوسِ(٨) ؛ أو يكونُ حبُّه إياه لموافقته له من جهة إحسانِه له وإنعامِه عليه ؛ فقد جُبِلت(٩) النفوسُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها .

---

(١) مواطأة القلب : موافقته لمراد الرب ، بألا يريد إلا ما أراده الله .

(٢) معانى باطنة : غير مدركة بالحواس الظاهرة .

(٣) المأثور : المنقول .   (٤) الشغف : المحبة الزائدة .

(٥) التعصب : إظهار الحمية والمبالغة فى الصيانة . والتشيع بمعناه أيضا .

(٦) أمة : طائفة . والجلاء : الخروج .

(٧) هتك الحرم : الهتك : كشف الستر بإزالته وتقطيعه . والحرم : جمع حرمة ؛ وهى كل مايصان ويمنع .

(٨) واخترام النفوس : إهلاك الذوات أو الارواح بسرعة .

(٩) جبلت النوس : طبعت وخلقت .

فإذا تقرَّرَ هذا نظرْتَ هذه الأَسبابَ كلَّها في حقِّهِ صلى الله عليه وسلم فعلمتَ أنه صلى اللهُ عليه وسلم جامِعٌ لهذه المعاني الثلاثة الموجِبةِ للمحبة :

أمّا جمالُ الصورةِ[١] والظاهرِ، وكمالُ الأخلاقِ والباطن، فقد قرّرْنا منها قبلُ فيما مرّ في الكتاب ما لايحتاجُ إلى زيادةٍ .

وأما إحسانُه[٢] وإنعامُه على أمّتِه فكذلك قد مرّ منه في أوصافِ اللهِ تعالى له من رأفتِهِ بهم، ورَحْمَته لهم، وهِدَايته إياهم، وشفقَتهِ عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رءوفٌ رحيم، ورحمةٌ للعالمين، ومُبشّرا ونَذِيرا، ودَاعِياً إلى الله بإذنِه وسِراجا مُنِيرا، ويتْلو عليهم آياتِه، ويُزَكّيهم، ويُعلّمهم الكِتابَ والحِكْمَةَ، ويَهْدِيهم إلى صراطٍ مُستقيم .

فأيُّ إحسانٍ أجلُّ قَدْرًا[٣]، وأعظمُ خَطَرا[٤] من إحسانه إلى جميع المؤمنين ؟ وأيُّ إفْضالٍ[٥] أعمُّ منفعةً وأكثرُ فائدةً من إنعامِه على كافّةِ المسلمين ؛ إذ كان ذَرِيعتَهم[٦] إلى الهداية، ومُنقِذهم من العَماية[٧]، وداعيَهم إلى الفَلاح[٨]، ووسيلتَهم إلى ربِّهم[٩]، وشفيعَهم والمتكلِّمَ عنهم، والشاهدَ لهم، والموجبَ لهمُ البقاء الدائم والنعيمَ السّرْمَد[١٠] .

---

(١) هو السبب الأول ؛ وهو حب الصورة الحسنة . والصورة : الهيئة .

(٢) هذا هو السبب الثاني .

(٣) أجل قدرا : أرفع رتبة .

(٤) خطرا : قدرا أو شرفا .

(٥) إفضال : إحسان وتفضل .

(٦) ذريعتهم : وسيلتهم، والسبب للوصل لهم .

(٧) العماية : الغواية والجهالة .

(٨) الفلاح : الفوز والظفر بسعادة الدارين .

(٩) وسيلتهم إلى ربهم : أي موصلهم ومقربهم إليه، وجاعل لهم منزلة عنده .

(١٠) والموجب لهم ؛ أي الذي يحقق لهم البقاء الدائم بالخلود في الجنة، والنعيم الدائم الذي لاينقطع في الجنة .

فقد استبان[١] لكَ أنه صلّى الله عليه وسلم مستوجبٌ للمحبّة الحقيقية شَرْعا بما قدّمناه من صحيح الآثار ، وعادةً وجِبلّةً[٢] بما ذكرناه آنِفا[٣] ، لإفاضتِه الإحسانَ ، وعُمومِهِ الإجمالَ[٤] ؛ فإذا كان الإنسانُ يحبُّ مَنْ مَنَحهُ فى دُنْياه مرّةً أو مرتين معروفا ، أو استنقذه من هَلَكَةٍ أو مَضَرّةٍ مدّة التأذِّى بها قليلٌ منقطع[٥] ـ فمَنْ منحه ما لا يَبيدُ[٦] من النعيم ، ووَقَاه ما لا يَفْنى من عذابِ الجحيم أوْلى بالحبّ .

وإذا كان يُحَبُّ بالطَّبْع ملكٌ لحُسْن سيرته، أو حاكِمٌ لما يؤثَر من قِوَام[٧] طريقته، أو قاصّ بعيدِ الدار لما يُشاد[٨] من عِلْمِه أو كرمِ شيمتِه[٩] ـ فمَنْ جمع هذه الخصالَ على غايةِ مراتب الكمالِ أحقُّ بالحبّ ، وأوْلَى بالميل .

وقد قال[١٠] علىّ رضِىَ اللهُ عنه فى صفته صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ رآه بَدِيهةً هابه ، ومَنْ خالطه معرفةً أحَبّه .

وذكرنا عن بَعْضِ الصحابة أنه كان لا يصرِفُ بصَرَهُ عنه محبةً فيه [١٤٩] .

---

(١) فى ب : فقد بان لك . واستبان : ظهر .

(٢) وجبلة : الجبلة بمعنى الطبيعة ، وإنما كان حبه جبلة لأن كل خير وإحسان وصل إلينا فهو منه صلى الله عليه وسلم ، والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها .

(٣) آنفا : قريبا .

(٤) إفاضته : إعطائه من بحر كرمه . وعمومه الإجمال : تعميم الجميل منه لكل أحد .

(٥) أى زائل فى زمن قليل . (٦) ما لا يبيد : ما لا يذهب ويفنى .

(٧) يؤثر : ينقل عنه . قوام طريقته : حسن سلوكه . وقوام ـ بكسر القاف : العماد والنظام، وبفتحها : الاعتدال .

(٨) قاص ـ بالصاد : واعظ . وفى ب : قاض . لما يشاد : لأجل مايشيع ويشتهر من ذكره بين الناس .

(٩) شيمته : سجيته وخلقه .

(١٠) من أحاديث الحلية، وهو فى سنن الترمذى: ٥٩٩ . بديهة: أى أبصره فى أول رؤيته.

فصل

فى وجوب مُنَاصحته صلى اللهُ عليه وسلم

قال اللهُ تعالى[١] : ﴿ ولا على الذين لا يَجِدُون ما يُنفقُون حَرَجٌ إذا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الُمحْسنين مِنْ سبيل واللهُ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ .

قال أهلُ التفسير : إذا نصحوا للهِ ورسوله : إذا كانوا مُخلصين مُسلمين فى السرِّ والعَلَانِيَة .

حدثنا القاضى الفقيه أبو الوليد بقراءتى عليه ، حدثنا حُسَين بن محمد ، حدثنا يوسف[٢] بن عبد الله ، حدثنا ابن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر التمّار ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زُهير ، حدثنا سُهَيل بن أبى صالح ، عن عطاء بن يزيد ، عن تَمِيم الدارى ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم[٣] : إنَّ الدِّينَ النَّصيحة . إنَّ الدِّين النصيحة . إنَّ الدِّين النصيحة . قالوا[٤] : لِمَنْ يا رسولَ الله ؟ قال : لِله ولِكتابه ولرسُولِه ، وأئمة المسلمين وعامّتهم واجبة .

قال أئمتُنا : النصيحةُ لله ولرسولِه وأئمة المسلمين وعامّتهم واجبةٌ[٥] .

قال الإمام أبو سليمان البُسْتى : النصيحةُ كلمةٌ يُعبَّرُ بها عن جُمْلَةِ إرادةِ الخير

---

(١) سورة التوبة ، آية ٩١ . حرج : إثم إذا تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لفقرهم المانع لهم . إذا نصحوا لله ورسوله : إذا أخلصوا الإيمان بهما والطاعة لهما ظاهرا وباطنا ما استطاعوا ، وأخلصوا لهما من قول أو فعل يعود على المسلمين بالصلاح . ما على المحسنين من سبيل : أى ليس عليهم جناح ، ولا إلى معاتبتهم سبيل .

(٢) هو أبو عمر — ابن عبد البر .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم : ٧٤ ، وسنن الترمذى : ٤ — ٣٢٤

(٤) قالوا : أى بعض الصحابة .

(٥) واجبة : أى فرض عين على كل مكلف . ونقل النووى أنها فرض كفاية ؛ فإن خشى أذى فهو فى سعة من الترك .

للمنصوحِ له ؛ وليس يمكنُ أنْ يعبَّرَ عنها بكلمةٍ واحدةٍ تحصُرُها . ومعناها فى اللغة الإخلاصُ ؛ من قولهم : نصحتُ العسلَ ، إذا خلَّصتَه من شمعه .

وقال أبو بكر بن أبى إسحاق الخفاف : النُّصْحُ فِعْلُ الشّىْء الذى به الصَّلَاحُ والملاءمة[1] ، مأخوذ من النِّصَاح ؛ وهو الخيطُ الذى يُخَاطُ به الثوبُ .

وقال أبو إسحاق الزجاجُ نحوه .

فنصيحةُ اللهِ تعالى صِحَّةُ الاعتقادِ له بالوَحْدَانية ، ووصْفُه بما هو أهلُه[2] ، وتَنْزِيهُهُ عما لايجوزُ عليه ، والرغبةُ فى مَحَابّه[3] ، والبُعْدُ من مساخِطِه[4] ، والإخلاص فى عبادته .

والنصيحةُ لكتابه الإيمانُ به ، والعملُ بما فيه ، وتحسينُ تلاوته ، والتخشّع[5] عنده ، والتعظيم له ، وتفهُّمه والتفقّه فيه ، والذبُّ[6] عنه من تأويل الغالين ، وطَعْنِ المُلْحِدِين .

والنصيحةُ لرسوله التصديقُ بنبوّته ، وبَذْلُ الطاعةِ له فيما أمَرَ به ونهى عنه ؛ قاله أبو سُليمان .

وقال أبو بكر : ومُؤازرتُه[7] ونُصْرتُه وحمايتُه حيًّا وميتا[8] ، وإحياء سُنَّته

---

(١) الملاءمة : الموافقة .

(٢) بما هو أهله : بما يستحق ويليق به .

(٣) فى محابه : أى يرغب فى كل ما يحبه ويرضاه .

(٤) مساخطه : كل ما يسخط الله ، ويورث غضبه من المعاصى .

(٥) والتخشع عنده : إظهار الخشوع . عنده : عند تلاوته .

(٦) والذب عنه : أى زجر من طعن فيه من الملحدين .

(٧) مؤازرته : معاضدته ومعاونته .

(٨) حمايته : دفع السوء عنه ، حيا بالمجاهدة معه وخدمته ، وميتا بتقوية دينه وتأييد شريعته .

بالطلب[١] ، والذَّبُّ عنها ، ونَشْرها ، والتخلُّق بأخلاقه الكريمة وآدابه الجميلة .

وقال أبو إبراهيم [إسحاق][٢] التُّجيبي: نصيحةُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم التصديقُ بما جاء به ، والاعتصامُ[٣] بسنَّتِه ، ونَشْرُها ، والحضُّ[٤] عليها ، والدعوةُ إلى اللهِ وإلى كتابِه وإلى رسولِه ، وإليها[٥] وإلى العمل بها .

وقال أحمد بن محمد[٦] : مِنْ مفروضات القلوبِ[٧] اعتقادُ النَّصيحةِ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

قال أبو بكر الآجُرِّى وغيره : النصحُ له يَقْتَضِى نُصْحَين : نُصْحًا فى حياته ، ونُصْحًا بعد مماته ؛ ففى حياته نُصْحُ أصحابِه له بالنَّصر والمُحَاماة[٨] عنه ، ومعاداة مَنْ عاداه ، والسَّمْعِ والطاعةِ له ، وبَذْلِ النفوسِ والأموالِ دونَه ؛ كما قال الله تعالى[٩] : ﴿ رجالٌ صدقُوا ماعاهَدُوا اللهَ عليه ، فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومنهم من يَنْتَظِرُ وما بدَّلُوا تبديلا ﴾ .

وقال[١٠] : ﴿ ويَنْصُرُون الله ورسوله أولئكَ هم الصادِقُون ﴾ .

وأمّا نصيحةُ المسلمين له بعد وَفَاتِه فالتزامُ التوقير والإجلال ، وشدةُ المحبة له ،

---

(١) بالطلب : بأن يسأل عنها ، ويجتهد فى معرفتها ، ويعمل بها .

(٢) ليس فى ا . (٣) الاعتصام بسنته : التمسك بها .

(٤) الحض عليها : حث الناس وتحريضهم على اتباعها .

(٥) وإليها : إلى السنة . (٦) هو ابن حنبل .

(٧) من مفروضات القلوب : أى مما فرض ووجب اعتقاده وجزم القلوب به . واعتقاد: وجوب .

(٨) والمحاماة عنه : بدفع السوء عنه وعمن يريده .

(٩) سورة الأحزاب ، آية ٢٣ . عاهدوا الله على بذل أرواحهم وأموالهم فى سبيل الله ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فوفوا بعهدهم . قضى نحبه : مات .

(١٠) سورة الحشر ، آية ٨

والمثابرةُ[١] على تعلُّم سُنَّتِه [١٥٠] ، والتفقُّهِ فى شَرِيعته[٢] ؛ ومحبَّةُ آلِ بيته وأصحابِه ، ومجانبةُ مَنْ رَغِبَ عن سُنَّته وانحرف عنها[٣] ، وبُغْضُه والتحذير منه ، والشفقةُ على أمته ، والبحثُ عن تعرُّف أخلاقِه وسِيَره وآدابه ، والصَّبرُ على ذلك .

فعلى ما ذكره تكونُ النصيحةُ إحدى ثمراتِ المحبّة ، وعلامةً من علاماتها كما قدمنا .

وحكى الإمام أبو القاسم القُشَيْرى أَنَّ عَمْرو بن الليث أحدَ ملوكِ خُراسان ومشاهير الثوّار[٤] المعروفَ بالصفَّار ـ رُئى فى النوم ، فقيل له : ما فعل اللهُ بك ؟ فقال: غُفِر لى ، فقيل : بماذا ؟ قال: صعدتُ ذِرْوَةَ[٥] جبلٍ يوماً ، فأشرفتُ[٦] على جنودى ، فأعجبتْنى كثرتُهم ، فتمنَّيتُ أنى حضرتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم فأَعَنْتُه ونَصَرْتُه ؛ فشكر اللهُ لى ذلك وغَفرَ لى .

وأمَّا النُّصْحُ لأئمةِ المسلمين فطاعَتُهم فى الحقّ ، ومَعُونتهم فيه ، وأَمْرُهم به ، وتذكيرهم إياه على أحْسَنِ وَجْهٍ[٧] وتَنْبِيهُهم على ما غَفَلوا عنه وكُتِم عنهم من أمورِ المسلمين ، وتَرْكُ الخروج عليهم[٨] ، وتضريبِ[٩] الناسِ وإفسادِ قلوبهم عليهم.

(١) المثابرة : المداومة .
(٢) التفقه فى شريعته : بفهم معانيها والعلم بأحكامها .
(٣) انحرف عنها : مال عنها ، ورغب فى غيرها .
(٤) الثوار : الأبطال الشجعان (شرح القارى : ٢ – ٦) .
(٥) ذرة : أعلى كل مرتفع .
(٦) أشرفت على جنودى : رأيتهم فى مكان عال واطلعت عليهم .
(٧) على أحسن وجه : برفق وتلطيف القول وتحسينه ؛ فإنه أدعى للامتثال .
(٨) وترك الخروج عليهم بمخالفتهم وعصيان أمرهم .
(٩) تضريب الناس : إغراؤهم وتحريكهم عليهم .

والنُّصْحُ لعامّة المسلمين إرشادُهم إلى مَصَالحهم ، ومعونَتُهم فى أَمْر دِينهم ودُنْياهم بالقول والفِعْل ، وتنبيهُ غافِلهم ، وتبصيرُ[1] جاهلهم ، ورَفْدُ[2] محتاجِهم ، وسَتْرُ عَوْراتهم[3] ، ودَفْعُ المضارّ عنهم ، وجَلْب المنافع إليهم .

---

(١) تبصير جاهلهم : تعريفه بما جهل ليكون ذا بصيرة فى أموره .

(٢) ورفد محتاجهم : إعانة المحتاج منهم .

(٣) ستر عوراتهم : أى يستر عليهم بعض معاصيهم إذا رآها فلا يذكرها حتى لايفتضح مرتكبها ؛ فإذا أرشد أحدا لترك معاصيه ذكر ذلك سرا ؛ فإن النصيحة بين الملأ تقريع .

الباب الثالث

فى تعظيم أمره ووجوب توقيره وبرّه

قال الله تعالى(١) : ﴿ يَاأَيُّها النبيُّ إنّا أرسلناكَ شاهداً ومبَشّرًا ونَذيرًا ﴾ .

﴿ لتؤمنوا(٢) بالله ورسُوله وتعزّروه وتوَقّروه ﴾ .

وقال(٣) : ﴿ يَاأَيها الذين آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بين يَدَيِ الله ورَسُوله ﴾ .

و : ﴿ يأيها(٤) الذين آمنوا لا ترفعُوا أصواتَكم فَوْقَ صوتِ النبيّ ولا تجْهَرُوا له بالقولِ كجَهْرِ بعضِكم لبعضٍ أن تحبَطَ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون . إنّ الذين يغُضُّون أصواتَهم عند رسولِ الله أولئك الذين امتحنَ اللهُ قلوبَهم للتقوى لهم مَغْفِرةٌ وأجرٌ عظيم . إنّ الذين يُنادونكَ مِنْ وَراء الْحجرات أكْثَرُهم لا يَعْقِلون ﴾ .

وقال تعالى(٥) : ﴿ لا تجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بينكم كدُعاءِ بعضِكم بَعْضًا ﴾ .

فأوجب اللهُ تعالى تَعزِيرَهُ وتوقيرَهُ(٦) ، وألْزَم إكرامَه وتعظيمه .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤٥

(٢) سورة الفتح ، آية ٩ ، قال فى شرح الخفاجى (٣ – ٤٢٧): واستشهاده بالآية بناء على ماذهب إليه الضحاك من أن الضمائر كلها له صلى الله عليه وسلم ، وشهادته لهم يوم القيامة بما عملوه من طاعة وغيرها ؛ وعلى هذا قالوقف على قوله : وتوقروه .

(٣) سورة الحجرات ، آية ١

(٤) سورة الحجرات ، آية ٢ – ٤ : أمرهم إذا خاطبوه صلى الله عليه وسلم الا يجهروا ، بل يخفضوا أصواتهم تأدبا لما فى الجهر من الاستخفاف المؤدى إلى الكفر المحبط للأعمال ، لما فيه من الإهانة وعدم الاعتناء بمقام النبوة ، ثم أثنى على من غض صوته عنده بأن الله تعالى بعد امتحانه وعده بأن له مغفرة وأجرا عظيما لارتضائه له .

(٥) سورة النور ، آية ٦٣ . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا : وذلك بأن تنادوه باسمه : يامحمد ونحوه . كما ينادى بعضكم بعضا .

(٦) تعزيره : إجلاله . وتوقيره : التأدب معه .

قال ابن عباس : تُعزِّرُوه : تُجِلُّوه . وقال المبرّد : تعزِّروه : تبالغوا فى تعظيمه .
وقال الأخفش : تَنْصرونه . وقال الطبرى : تُعينونه .
وقرئ : تُعَزِّزُوه — بزايين — من العزّ .

ونُهِى عن التقدُّم بين يديْهِ[1] بالقولِ؛ وسُوء الأدب بسَبْقِه بالـكلام ، على قول ابن عباس وغَيْره ؛ وهو اختيارُ ثعْلب .

قال سَهْل بن عبد الله : لا تَقُولوا قبل أنْ يَقُول ؛ وإذا قال فاستمِعُوا له وأنْصِتوا .

ونُهُوا عن التقدُّم والتعجُّلِ[2] بقَضَاء أمرٍ قبل قَضَائه فيه ؛ وأنْ يفتَاتُوا[3] بشيء فى ذلك مِنْ قِتَالٍ أو غيره من أمْرِ دِينهم إلاّ بأمره ، ولا يسبقوه به .

وإلى[4] هذا يرجعُ قولُ الحسَين ، ومجاهد ، والضحّاكِ ، والسدّىّ ، والثّورى .

ثم وعظَهم وحذَّرهم مخالفةَ ذلك ؛ فقال[5] : ﴿واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سميعٌ عليم﴾ ؛ قال المـاوَرْدىّ : اتَّقُوه — يعنى فى التقدُّم .

وقال السُّلَمى : اتَّقوا اللهَ فى إهمالِ حقِّه[6] وتَضْييعِ حُرْمَتِه ، إنّه سميعٌ لقَوْلكم، عَلِيم بِفِعْلـكم .

ثم نهاهم عن رَفْعِ الصوتِ فوقَ صَوْتِهِ ، والجَهْرِ له بالقول كما يجهرُ بعضُهم لبعض ويرفَعُ صوتَه .

وقيل : كما يُنَادِى بعضُهم [١٥١] بَعضًا باسمه .

---

(١) بين يديه : بحضرته . بالقول : بأن يسبقه أحد بالـكلام .
(٢) فى ا : والتعجيل .
(٣) وأن يفتاتوا : أى يستبدوا ويستقلوا . أو يختلقوا .
(٤) وإلى هذا : أى المذكور فى تفسير الآية .
(٥) سورة الحجرات ، آية ١ (٦) إهمال : ترك .

قال أبو محمد مَكّيّ : أىْ لا تُسابِقُوه بالكلام ، وتُغلِظُوا له بالخطاب[١] ، ولا تُنادُوه باسْمِه نِداءَ بعضِكم بعضا ؛ ولكن عظّموه ووَقِّروه ونادُوه بأشرفِ ما يحبّ أن يُنادَى به : يا رسولَ الله ، يا نبيّ الله .

وهذا كقوله فى الآية الأخرى[٢] : ﴿لا تجعلُوا دعاءَ الرسولِ بينكم كدُعاء بعضِكم بعْضًا﴾ على أحَدِ التأويلين[٢] .

وقال غيره : لا تخاطِبوه إلاّ مُستَفْهِمين .

ثم خوّفَهم اللهُ تعالى بحَبْطِ أعمالهم إن هم فعلوا ذلكَ ، وحذّرهم منه .

قيل : نزلت الآية فى وَفْدِ[٣] بنى تميم — وقيل : فى غيرهم ؛ أتَوا النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم فنادَوْه : يامحمدُ ، يامحمدُ ؛ اخرُجْ إلينا . فذمّهم الله تعالى بالجَهْل ، ووصفَهم بأنّ أكثرَهم لا يَعقِلون .

وقيل : نزلت الآيةُ فى محاوَرَةٍ[٤] كانت بين أبى بكر وعُمر بين يدى النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ، واختلافٍ جَرَى بينهما ، حتى ارتفعتْ أصواتُهما .

وقيل : نزلت فى ثابت بن قَيْس بن شَمّاس[٥] خَطِيب[٦] النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم

---

(١) وتغلظوا له بالخطاب : أى تخاطبوه بغلظة .

(٢) سورة النور ، آية ٦٣ ، والتأويلين : أى التفسيرين ؛ وهو أن الدعاء بمعنى النداء والتسمية ؛ أى لاتنادوه باسمه ، رافعين أصواتكم بأن تقولوا : يامحمد ، ياأبا القاسم ، كما ينادى بعضكم بعضا إذا طلب إقباله ؛ بل خاطبوه بأدب فقولوا : يا رسول الله ، يانبي الله ، ياخير خلق الله ، ونحوه .
والثانى أن يكون المراد بالدعاء الدعاء على أحد ؛ أى لاتظنوا أن دعاءه كدعائكم يحتمل الإجابة وعدمها كدعائكم ، سواء كان بخير أو شر ؛ فإن الله ضمن له إجابة دعائه ، ووعد بها وهو لايخاف الميعاد ؛ وهذا غير مراد هنا .

(٣) الوفد : جمع وافد ، وهو القادم على العظماء لأمر ما . وكان ذلك فى سنة تسع .

(٤) سنن الترمذى : ٥ — ٣٨٧ (٥) صحيح مسلم : ١١٠

(٦) خطيب النبي : من الخطباء الذين كانوا يخطبون عند قدوم الوفود على النبى . وارجع فى سبب نزول هذه الآيات إلى تفسير ابن كثير : ٤ — ٢٠٦ . وفى تفسير القرطبى (١٦—٣٠) ذكر ستة أقوال فى سبب نزولها . وانظر فى ذلك أيضا أسباب النزول للواحدى : ٢١٨

فى مفاخرة بَنِي تميم ، وكان فى أُذُنَيْه صَمَم ؛ فكان يَرْفَعُ صَوْتَه ؛. فلما نزلت هذه الآية أقام فى مَنْزِله ، وخَشِيَ أن يكونَ حَبِطَ عَمَلُه ؛ ثم أتى النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : يا نبيَّ اللهِ ؛ لقد خَشِيتُ أن أكونَ هلكتُ ؛ نهانا اللهُ أنْ نجْهَرَ بالقَوْلِ ، وأنا امرؤٌ جَهِيرُ[1] الصوت .

فقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : يا ثابتُ ؛ أمَا تَرْضَى أنْ تعيشَ حميدا[2] ، وتُقْتَلَ شَهِيدا ، وتدخلَ الجنةَ ! فقُتِل يومَ اليمامة[3] .

ورُوِى أنَّ أبا بكر لما نزلت هذه الآيةُ قال : واللهِ يا رسولَ اللهِ ، لا أُكَلِّمُكَ بعدها إلا كأخى السِّرَارِ[4] .

وأنَّ عُمر كان إذا حَدَّثَه حدَّثَهُ كأخِي السِّرَار ؛ ما كان يُسمِعُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَعدَ هذه الآية حتى يَسْتَفْهِمه ؛ فأنزل اللهُ تعالى فيهم[5] : ﴿ إنَّ الذين يغضُّون أصواتَهم عند رسولِ اللهِ أولئكَ الذين امتحنَ اللهُ قلوبَهم للتَّقْوَى لهم مَغْفِرةٌ وأجرٌ عظيمٌ ﴾ .

وقيل : نزلت[6] : ﴿ إنَّ الذين يُنَادونكَ مِنْ وَراءِ الحجرات . . . ﴾ - فى غير بنى تميم ؛ نادوه باسْمِه :

ورَوَى صَفْوانُ بن عَسّال[7] : بَيْنَا النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فى سَفر إذ ناداهُ

---

(١) جهير الصوت : عالى الصوت .

(٢) حميدا : محمودا عند الله والناس ؛ وهذا يدل على قبول عمله ، وأنه لا يحبط .

(٣) يوم اليمامة : فى وقعة اليمامة فى خلافة أبى بكر الصديق ، سنة اثنتى عشرة . وهى وقعة مسيلمة المشهورة .

(٤) إلا كأخى السرار : أى إلا كلاما خفيا كالمسارة ، وهى الكلام يخفيه حتى لا يسمعه من عنده . وقد أخرجه البزار من طريق طارق بن شهاب .

(٥) سورة الحجرات ، آية ٣ (٦) سورة الحجرات ، آية ٤

(٧) رواه الترمذى ، والنسائى : سنن الترمذى . ٥ - ٥٤٥

أعرابىٌّ بصوتٍ له جَهْوَرِى[1] : أيا محمد، أيا محمد. فقلنا له : اغْضُضْ من[2] صَوْتِك؛ فإنكَ قد نُهِيتَ عن رَفْع الصوت .

وقال اللهُ تعالى[3] : ﴿ يأيُّها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعِنَا[4] . . . ﴾ .

قال بعضُ المفسرين : هى لغةٌ كانت فى الأنصارِ ؛ نُهُوا عن قَوْلها تعظيما للنبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وتَبْجيلا[5] له ؛ لأنَّ معناها : ارْعَنا نَرْعك[6] ؛ فنُهوا عن قَوْلها ؛ إذ مُقْتضاها كأنهم لايرعَوْنه إلاّ بِرعايته لهم ؛ بل حقُّه أن يُرْعَى على كلّ حال .

وقيل : كانت اليهودُ تُعرِّضُ بها للنبىّ صلىاللهُ عليه وسلم بالرُّعُونة[7]؛ فَنُهِى المسلمون عن قَوْلها ؛ قَطْعاً للذَّرِيعة[8] ، ومَنْعا للتَّشْبيه بهم فى قولها ، لمشاركة اللفظة . وقيل غَيْرُ هذا .

فصـــل

في عادة الصحابة فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره [١٥٢] وإجلاله

حدثنا القاضى أبو على الصَّدَفى ، وأبو بَحْر الأَسَدِى بسماعى عليهما فى آخرين ؛ قالوا : حدثنا أحمد بن عُمَر ، حدثنا أحمدُ بن الحَسن[9]، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا

(١) هو جهورى الصوت وجهيره : أى رفيعه .

(٢) اغضض من صوتك : لاترفعه .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٠٤

(٤) كان المؤمنون يقولون ذلك للرسول إذا خاطبهم ؛ يريدون : تأن فى خطابك حتى نفهم كلامك ، فراع مقامنا ؛ فإنا لسنا مثلك فهما ، فانظر لحالنا .فانتهز اليهود الفرصةوقالوها، لأنها كانت كلمة يتسابون بها . أو قصدوا أن تـكون من الرعونة ، وسيأتى .

(٥) وتبجيلا : تفخيما له .

(٦) ارعنا نرعك : من المراعاة ، أى احفظنا نحفظك .

(٧) الرعونة : الخفة والحماقة .

(٨) الذريعة : الوسيلة والسبب . والمراد دفع كل مايؤدى إلى فساد فى أمر مشروع .

(٩) فى ب : الحسين . وفى هامشه : الحسن .

إبراهيم بن سُفْيان ، حدثنا مُسْلم ، حدثنا محمد بن مُثَنّى ، وأبو مَعْن الرقاشيّ ، وإسحاق بن منصور ؛ قالوا : حدثنا الضحّاك بن مَخْلَد ، أخبرنا حَيْوَة بن شُرَيح ، حدثنا يزيد بن أبي حَبِيب ، عن ابن شُمَاسَة[1] المَهْرِي ؛ قال : حَضَرْنا عَمْرو ابن العاص . . .

فذكر حديثا طَوِيلا فيه عن عَمْرو ، قال[2] : وما كان أحدٌ أحبَّ إليّ مِنْ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولا أجلَّ في عَيْني منه ، وما كنتُ أُطيقُ أنْ أملأ عَيْنِي منه إجلالًا له ؛ ولو سُئلتُ أنْ أصِفَه ما أطقْتُ ؛ لأني لم أكُنْ أملا عَيْني منه .

ورَوَى التِّرْمذيُّ ، عن أنس[3] ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان يخرجُ على أصحابه من المُهَاجرين والأنصار وهم جلوسٌ ، فيهم أبو بكر ، وعُمر ؛ فلا يرفَعُ أحدٌ منهم إليه بَصَرَه إلّا أبو بكر وعُمر ؛ فإنهما كانا ينظُرَانِ إليه وينظر إليهما ، ويتَبَسَّمان إليه ويتبسَّمُ إليهما[4] .

ورَوَى أُسامةُ بن شَرِيك[5] ؛ قال : أتيت النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم وأصحابُه حولَه كأنما على رُءوسِهم الطَّيْرُ[6] .

وفي حديث صِفَتِه : إذا تكلّمَ أطرق جلساؤه كأنما على رُءوسهم الطير .

وقال عُروة بن مسعود ـ حين وجّهَتْه قُرَيش عامَ القضيّة[7] إلى رسُولِ اللهِ

(١) ضبطت في ا ، ب بضم الشين وفتحها وعليها « معا » .

(٢) صحيح مسلم : ١١٢ (٣) سنن الترمذي : ٥ ـ ٦١٢

(٤) وذلك لما بينها من الألفة .

(٥) في ا : شريد ، وعليه علامة للصحة . وفي هامشه : خ شريك . والمثبت في ب .

(٦) المراد السكون . وهذا الحديث رواه الأربعة وصححه الترمذي : الشمائل : صفحة ٣ من نسختي المحققة .

(٧) عام القضية : المراد بها قصة الحديبية . وقيل : أراد السنة التي قضى فيها العمرة .

صلى عليه اللهُ وسلم ، ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتَدَرُوا وَضُوءه[١] ، وكادوا يَقْتَتِلون عليه، ولا يَبْصُق بُصاقا، ولا ينتخِّمُ نُخَامَةً[٢] إلا تلقَّوْها بأكفِّهم فدَلَكُوا بها وُجوهَهم وأجسادَهم ؛ ولا تسقُط منه شعرةٌ إلّا ابْتَدَرُوها ؛ وإذا أمرهم بأمْرٍ ابْتَدَروا أمْرَه[٣]؛ وإذا تكلّم خفَضُوا أصواتَهم عنده ، وما يُحِدُّون[٤] إليه النظَر تعظيما له .

فلما رجعَ إلى قُرَيش قال : يا مَعْشَر قُرَيش ؛ إنى جئتُ كِسْرَى فى مُلْكه ، وقَيْصَرَ فى مُلْكه ، والنَّجَاشىّ فى مُلْكه ؛ وإنى واللهِ ما رأيْتُ مَلِكا فى قومٍ قَطُّ مثل محمدٍ فى أصْحَابه .

وفى رواية : إنْ رأيتُ[٥] مَلِكا قطّ يُعظّمه أصحابُه ما يُعَظّمُ محمداً أصحابُه . وقد رأيتُ قوما لايُسْلِمُونه[٦] أبدا .

وعن أنَس[٧] : لقد رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والحلّاق يحلقُه ، وقد أطاف به أصحابُه ، فما يُرِيدون أن تَقَع شعرةٌ إلاّ فى يَدِ رَجُلٍ .

ومن[٨] هذا لمّا أذِنَتْ قُرَيش لعُثمان فى الطَّواف بالبيت حين وجّهه النبىُّ صلى الله

(١) ابتدروا : أسرعوا وأخذوا . وضوءه : بقية الماء الذى توضأ به ، وما تساقط منه قبل وصوله إلى الأرض .

(٢) النخامة : ما يخرج من أقصى الحلق .

(٣) ابتدروا أمره بالامتثال .

(٤) ولا يحدون إليه النظر : أى لاينظرون إليه صلى الله عليه وسلم نظرا حديدا ؛ أى قويا ، تأدبا . والحديث فى صحيح البخارى : ١ — ٦٧ ، والمغازى للواقدى : ٥٩٨

(٥) إن رأيت : ما رأيت .

(٦) أسلمه لعدوه : إذا أمكنه منه ، وخلى بينه وبينه .

(٧) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ١٨١٢

(٨) ومن هذا : من تعظيم الصحابة له .

عليه وسلم إليهم فى القَضِيَّة[١] أبَى ، وقال : ما كُنْتُ لأَفْعَلَ حتى يطوفَ به رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وفى حديث[٢] طلحة : إن أصحابَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم قالُوا لأعرابى جاهلٍ : سَلْهُ عمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ[٣] ـ وكانوا يَهَابونَه ويوقّرونه ؛ فسأله ، فأعرض عنه ، إذ طلع طَلْحةُ ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : هذا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَه .

وفى حديث قَيْلَة[٤] : فلما رأيتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم جالسا القُرْفُصاء[٥] أُرْعِدْتُ من الفَرَق[٦] . وذلك [١٥٣] هَيْبَةً له وتعظيما .

وفى[٧] حديث المغيرة : كان أصحابُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقْرَعُون بابَهُ بالأظافير[٨] .

وقال البَرَاء[٩] بن عازب : لقد كنتُ أُرِيدُ أن أسألَ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم عن الأمر فأُؤَخِّره[١٠] سِنِين مِنْ هَيْبتِه .

---

(١) حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة وهو بالحديبية ، وقد صدوهم عن البيت ، أرسله لإعلامهم بأنهم لم يأتوا لقتالهم ، فلا وجه لصدهم عن دخول الحرم ، فلم يرضوا بذلك ، ولكنهم أذنوا لعثمان فى الطواف .

(٢) رواه الترمذى وحسنه : سنن الترمذى : ٣٥٠

(٣) فى قوله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فمنهم من قضى نحبه... سورة الأحزاب ، آية ٢٣

(٤) رواه أبو داود ، والترمذى ؛ وحديثها فى الشمائل أيضا ؛ سنن أبى داود : ٢ – ١٩١

(٥) هو نوع من الجلوس محتبيا بيديه .

(٦) أرعدت : حصلت لى رعدة واضطراب . والفرق : شدة الخوف .

(٧) رواه الحاكم ، والبيهقى .

(٨) الأظافير : جمع ظفر . وفى ا : بالأظافر .

(٩) فى حديث رواه أبو يعلى ، وصححه .

(١٠) فى ب : فأؤخره .

فصل

فى تعظيم النبى بعد موته

واعلم أنَّ حُرْمةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعد موتِه، وتوقيرَه وتعظيمَه، لازمٌ كما كان حالَ حياتِه؛ وذلك عند ذِكْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلم، وذِكْرِ حديثه وسُنَّتِه، وسَماعِ اسْمِه وسيرته، ومُعامَلةِ آلِه وعِتْرَته[١]، وتعظيمِ أهل بيته وصحابته.

وقال أبو إبراهيم التُّجِيبى: واجبٌ على كل مُؤْمنٍ متى ذَكَرَه، أو ذُكِر عنده ـ أنْ يخضَعَ ويخْشَع، ويتوقَّر[٢] ويسكنَ مِنْ حركته، ويأخُذَ[٣] فى هَيْبَتِه وإجلالِه بما كان يأخُذ به نَفْسَه[٤] لو كان بين يدَيْه؛ ويتأدَّب بما أدَّبنَا اللهُ به[٥].

قال القاضى أبو الفضل[٦]: وهذه كانت سيرةَ سَلَفِنا الصالح وأئمتنا الماضين رضى الله عنهم.

حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعرى، وأبو القاسم أحمد ابن بَقِىّ الحاكم، وغيرُ واحد، فيما أجازُونيه؛ قالوا: أنبأنا أبو العباس أحمد بن عُمر ابن دِلْهاث[٧]؛ قال: حدثنا أبو الحَسَن علىّ بن فِهر، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد ابن الفرَج، حدثنا أبو الحَسَن عبد الله بن المُنْتَاب، حدثنا يعقوب بن إسحاق ابن أبى إسرائيل، حدثنا ابنُ حُمَيْد؛ قال ناظَرَ أبو جعفر[٨] أميرُ المؤمنين مالكا[٨]

(١) عترته: نسله ورهطه الأدنون. ومعاملتهم: أى مخالطتهم فى أمور دينية أو دنيوية.
(٢) يتوقر: يظهر الوقار والرزانة فى هيئته.
(٣) ويأخذ: ويشرع.
(٤) يأخذ به نفسه: يكلفها ويلزمها.
(٥) من وجوب تعظيمه وتكريمه وخفض الصوت ونحوه.
(٦) هو المؤلف. وفى ب: قال المؤلف رحمه الله.
(٧) هذا الضبط فى ب، وتاج العروس ـ دلهث، وشرح القارى، وشرح الخفاجى. وفى ا: ضبطت الدال بالفتحة.
(٨) ناظر: الناظرة: المباحثة فى أمر من الأمور. وأبو جعفر هو المنصور عبد الله بن محمد، ثانى خلفاء بنى العباس. ومالك: هو مالك بن أنس.

فى مسجدِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ؛ لا ترفع صَوْتَك فى هذا المسجد ، فإن اللهَ تعالى أدّب قوما فقال[١] : ﴿ لا ترفعُوا أصواتَكم فَوْقَ صوتِ النبىّ ، ولا تَجْهَروا له بالقول كجَهْرِ بَعْضِكم لبعض أن تَحْبَطَ أعمالُكم وأنتم لا تَشْعُرُونَ ﴾ .

ومدَح قوما فقال[٢] : ﴿ إنَّ الذين يَغُضُّون أصواتَهم عند رسولِ اللهِ أولئكَ الذين امتحَنَ اللهُ قلوبَهم للتَّقْوَى لهم مغفرةٌ وأجْرٌ عظيم ﴾ .

وذمّ قوما فقال[٣] : ﴿ إنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُراتِ أكثرُهم لا يَعْقِلُونَ ﴾ .

وإنّ حُرْمَتَه ميتا كحُرْمَتِه حيًّا .

فاستكان[٤] لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله ، أأستقبلُ القِبْلةَ وأدْعُو أم أستقبلُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم ؟ فقال : ولِمَ تصرفُ وجْهَك عنه وهو وَسيلتُك وَوَسيلةُ[٥] أبيكَ آدمَ عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟ بل استقبِلْهُ واستَشْفِعْ بهِ ، فيشفّعكَ[٦] الله ؛ قال الله تعالى[٧] : ﴿ ولو أنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهم جاءوكَ فاستغفروا اللهَ واستَغْفَرَ لهم الرسولُ لوجَدُوا اللهَ توّابًا رحيما ﴾ .

وقال مالك ـ وقد سُئِل عن أيوب السَّخْتِيَانى : ما حدثتُكم عن أحدٍ إلا وأيوب أفضل منه :

---

(١) سورة الحجرات ، آية ٢ (٢) سورة الحجرات ، آية ٣

(٣) سورة الحجرات ، آية ٤ (٤) فاستكان لها : خضع ، وخشع لمقالة مالك .

(٥) الوسيلة : ما يتوصل به إلى إجابة الدعاء . والمراد أنه الشفيع المشفع للتوسل به إلى الله يوم القيامة .

(٦) استشفع به : اطلب شفاعته ، وسل وسيلته فى قضاء حاجتك . فيشفعك : يقبل الله به شفاعتك لأمرك .

(٧) سورة النساء ، آية ٦٤

وقال : وحَجَّ حجَّتَيْن ، فـكنتُ أرْمُقُه(١) ولا أسمَعُ منه ، غير أنه كان إذا ذُكِرَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بكى حتى أرْحَمه(٢) .

فلما رأيتُ منه ما رأيتُ ، وإجلالَه للنبي صلى اللهُ عليه وسلم كتَبْتُ عنه(٣) .

وقال مُصْعَب بن عبد الله : كان مالك إذا ذُكر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم يتغيَّر لونُه ، وينْحَنِي حتى يَصْعُبَ(٤) ذلك على جُلسائه ؛ فقيل له يوما فى ذلك(٥) ، فقال : لو رأيتُم ما رأيت(٦) لما أنـكرتُم علىّ ما تَرَوْن ؛ ولقد كنت أرى محمد ابن المُنْـكَدِر(٧) ، وكان سيِّدَ القُرّاء لا نـكادُ نسألُه عن حديثٍ أبداً إلاَّ يَبْـكى حتى نَرْحَمَه .

ولقد كنتُ أَرَى جعفَر بن محمد [الصادق](٨) ، وكان كثيرَ الدُّعابةِ(٩) والتبسُّم ؛ فإذا ذُكر [١٥٤] عنده النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم اصْفَرّ . وما رأيتُه يحدّثُ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلا على طَهارةٍ .

وقد اختلفْتُ(١٠) إليه زَمانًا فما كنتُ أراه إلا على ثلاث خِصَال : إمّا مُصَلِّيًا، وإمّا صامتا ؛ وإمّا يقرأُ القُرآن ؛ ولا يتـكلّم فيما لا يَعْنيه ؛ وكان من العلماء والعُبّادِ الذين يخْشَوْنَ اللهَ عزّ وجَلّ .

(١) أرمقه : أنظر إليه .

(٢) أرحمه : يرق قلبي عليه رحمة له لما أراه منه .

(٣) كتبت عنه الحديث ورويته عنه . (٤) لخوفهم عليه ، ولشدة عنائه .

(٥) فقيل له فى ذلك : أى سئل عنه ، وعن سببه .

(٦) لو رأيتم ما رأيت مما كان من السلف من خشوعهم وإجلالهم، أو لو عرفتم ما عرفت من جلال مقامه .

(٧) حافظ يروى عن أبيه وعائشة وأبى هريرة . توفي سنة ١٣٠ هـ .

(٨) من ب . (٩) الدعابة : المزاح .

(١٠) أى ذهبت إليه مرارا كثيرة ، وترددت .

ولقد كان عَبْدُ الرحمن بن القاسم[1] يذكُرُ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم فيُنْظَرُ إلى لونه كأنه نُزِفَ[2] منه الدَّمُ ، وقد جفّ لسانُه في فَمِهِ هَيْبَةً لرسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلّم .

ولقد كنتُ آتي عامِر[3] بن عَبْد الله بن الزُّبَيْر فإذا ذُكِر عِنْده النبيُّ صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يَبْقَى في عينيْهِ دُموع .

ولقد رأيتُ الزُّهريّ - وكان من أهنأ[4] الناسِ وأقربِهم ، فإذا ذُكِر عنده النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فكأنه ما عَرَفك ولا[5] عرفْتَه .

ولقد كنتُ آتِي صَفْوَان بن سُلَيم ، وكان من المتعبّدِين المجتهدِين ؛ فإذا ذُكِرَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بكى ، فلا يزالُ يَبْكي حتى يقومَ الناسُ عنه ويتركوه .

ورُوِيَ عَنْ قتادة أنه كان إذا سَمِعَ الحديثَ أخذه العَوِيل والزَّوِيلُ[6] .

ولما كَثُر على مالك الناسُ قيل له : لو جَعَلْتَ مُسْتَمْلِياً يُسْمِعُهم[7] ؟ فقال :

---

(١) عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : ورع مكثر ، كان أفضل أهل زمانه. وقد توفي بالمدينة سنة ست وعشرين ومائة .

(٢) نزف منه الدم : المراد سال دمه فاصفر صفرة مفرطة ؛ لأن حمرة البشرة بما تحتها من الدم .

(٣) العابد الكبير القدر ، توفي بعد عشرين ومائة .

(٤) أهنأ الناس : أسهلهم وأحسنهم خلقا وألينهم عريكة . وهو محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن عبد الله بن شهاب ، وتوفي سنة ١٢٤ هـ .

(٥) وذلك لدهشته وإعراضه عمن عنده وذهوله عن معرفته لاشتغال قلبه وحواسه بالفكر؛ لإجلاله له وتعظيمه .

(٦) أخذه : عرض له واستولى عليه . العويل: صياح مع بكاء . الزويل : القلق والانزعاج لشدة الخوف .

(٧) مستمليا : أحدا يجلس قريبا منك وتملي عليه الحديث فيأخذه عنك فيبلغهم ويسمعهم حين يعيده لهم لكثرتهم وبعد بعضهم عنك ممن في آخر الحلقة .

قال الله تعالى[1] : ﴿ يأيُّها الذين آمَنُوا لا تَرفَعُوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبيِّ ﴾ ؛ وحُرْمتُه حيًّا وميتا سواء .

[2][وكان ابنُ سِيرِين ربما يَضْحَكُ ؛ فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم خَشَع][2] .

وكان عَبْدُ الرحمن بن مَهْدِى[3] إذا قرأ حديثَ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمرهم بالسكوت ؛ وقال : ﴿ لاَ تَرفَعُوا أصواتكم فَوْقَ صوتِ النبيّ ﴾ ، وَيَتأوّل[4] أنه يجبُ له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجبُ له عِنْدَ سَمَاعِ قوله .

فصل

فى سيرة السلف فى تعظيم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُنَنِه

حدثنا الُحسين[5] بن محمد الحافظ ، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون ، حدثنا أبو بكر البَرْقَانِى وغَيْرُه ، حدثنا أبو الحسن الدارَقُطنى ، حدثنا على بن مُبَشِّر[6] ، حدثنا أحمد ابن سِنَان القطّان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا المسعودى ، عن مُسلم البَطِين ، عن عَمرو بن مَيْمُون ؛ قال : اختلفتُ إلى ابْنِ مسعود[7] سَنَةً ؛ فما سمعتُه يقول : قال

(١) سورة الحجرات ، آية ٢

(٢) ليس فى ا ، وسيأتى بعد .

(٣) عبدالرحمن بن مهدى : أحد الأعلام فى الحديث ، روى عنه الإمام أحمد . قال ابن المدينى : أعلم الناس بالحديث هو عبد الرحمن بن مهدى ، ما رأيت فى يده كتابا ـ يعنى كان حافظا . مات سنة ثمان وتسعين (التقريب : ١ ـ ٤٩٩)

(٤) فقاس منع رفع الصوت فى مجلس قراءة الحديث على منعه فى مجلسه حال حياته .

(٥) فى ا : الحسن .

(٦) ضبطه فى شرح القارى بفتح الميم وسكون الموحدة وكسر المعجمة (٢ ـ ٧٤)

(٧) اختلفت إليه : ترددت عليه .

رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنه حدَّث يوما فجرى على لسانه : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، ثم عَلاَهُ كَرْبٌ[١] ، حتى رأيتُ العرَقَ يتحدَّرُ[٢] عن جَبهته، ثم قال : هكذا إنْ شاء الله ، أو فَوْق ذا ، أو ما دُونَ ذَا ، أو ما هو قريبٌ مِنْ ذَا[٣] .

وفى رواية : فتربَّدَ وَجْهه[٤] .

وفى رواية : وقد تغرْغرتْ عَيْناَه ، وانتفَخَتْ أوداجُه[٥] .

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قُرَيْم الأنصارى قاضى المدينة : مَرَّ مالكُ بن أنَس على أبى حازم[٦] ، وهو يحدِّثُ ، فجازَهُ[٧] ، وقال : إنى لم أجِدْ مَوْضِعاً أجلِسُ[٨] فيه ، فكرهتُ أنْ آخُذَ حديثَ رسول الله عليه وسلم وأنا قائم[٩] .

وقال مالك : جاء رجلٌ إلى ابْن المسيِّب ، فسأله عن حديثٍ وهو مُضْطَجِعٌ ، فجلس وحدَّثه ؛ فقال له الرجلُ : وَدِدْت [١٥٥] أنكَ لم تتَعَنَّ[١٠] ، فقال : إنى كرهتُ أنْ أحدِّثكَ عن رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم وأنا مُضْطجع[١١] .

---

(١) علاه كرب : ظهر عليه حزن وغم يؤدى لضيق نفس .

(٢) يتحدر . ينزل سائلا منه .

(٣) هذا احتياط منه .

(٤) تربد وجهه : تغير لونه لكموده من شدة الكرب .

(٥) تغرغرت عيناه : امتلأتا بدمع متردد ، كالماء فى فم من يتغرغر به . والأوداج: جمع ودج ، وهو عرق غليظ فى العنق ، والودجان : يقطعهما الذابح ؛ وانتفاخهما : كبرهما بغليان الدم بسبب الخوف .

(٦) أبو حازم : هو سلمة بن دينار أحد الأعلام . قال ابن خزيمة : ثقة، لم يكن فى زمانه مثله ، مات فى خلافة المنصور .

(٧) جازه : جاوز مجلسه ولم يقف .

(٨) لكثرة الناس .

(٩) صونا لحديثه عن الابتذال والامتهان واستماعه على حال يخل بتعظيمه .

(١٠) لم تتعن : لم تتعب ، ولم تتكلف العناء لنفسك بجلوسك .

(١١) تعظيما للحديث وتأدبا معه .

[ورُوِى عن محمدْ بن سيرين أنه قد يكونُ يضحكُ ، فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم خَشَعَ(١)] .

وقال أبو مُصْعب : كان مالكُ بن أَنَس لا يُحدِّثُ بحديثِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم إلاّ وهو على وُضوءٍ(٢) ، إجلالاً له .

وحكى مالكٌ ذلك عن جعفر بن محمد .

وقال مُصْعَب بن عبد الله : كان مالك بن أَنَس إذا حدّث عن رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلّم توضّأ وتَهَيّأ(٣) ، ولبِس ثيابَه ، ثم يحدِّث .

قال مُصْعب : فسُئل عن ذلكَ ، فقال : إنه حديثُ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم .

قال مُطَرِّف : كان إذا أَتى الناسُ مالكا خرجَتْ إليهم الجاريةُ فتقول لهم : يقولُ لكم الشيخُ : تُريدون الحديثَ أو المسائل(٤) ؟ فإنْ قالوا : المسائل خرج إليهم، وإن قالوا الحديث دخل مُغْتَسَله(٥) ، واغتسل وتطَيَّبَ ، ولبس ثياباً جُدُدا ، ولبس ساجَه(٦) وتعمّمَ ، ووضَع على رأسه رداءه ، وتُلْقى له مِنَصّةٌ(٧) ، فيخرج فيجلسُ

(١) خشع : أظهر الخشوع والاستكانة تأدبا ومهابة . وفى هامش ب : أثر ابن سيرين هنا موضعه كما أثبته المصنف هنا بخطه ، وأسقطه مما تقدم صفحة ٥٩٩

(٢) على وضوء : متوضئا متطهرا .

(٣) تهيأ : أصلح هيئته فى ثيابه وجلوسه .

(٤) أتريدون قراءة الحديث وسماعه ، أو تريدون مسائل الفقه ؟

(٥) مغتسله : الموضع المعد للاغتسال والطهارة فى بيته .

(٦) الساج: هو الطيلسان، أو الأخضر، أو الأسود منه ، وهو شىء كالبرنس. وفى هامش : الساج : الطيلسان الأخضر ، والجمع سيجان . والساج أيضا : ضرب من الشجر .

(٧) منصة : شىء عال كالكرسى والسرير .

عليها ، وعليه الخشوع ، ولا يزالُ يبخَّرُ بالعودِ حتى يَفرُغَ[١] مِنْ حديثِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم .

قال [غَيْرهُ][٢] : ولم يكن يجلسُ على تلك المِنصَّةِ إلا إذا حدَّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

قال ابنُ أبي أُوَيْس: فقيل لمالك فى ذلك، فقال: أُحِبُّ أنْ أُعظّمَ حديثَ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، ولا أُحدِّثُ به إلا عن طهارةٍ مُتمَكّنا[٣] .

قال : وكان يكرهُ أنْ يحدِّثَ فى الطريق ، أو وهو قائم ، أو مُسْتعْجل .

وقال[٤] : أُحِبُّ أن أُفهِّمَ حديثَ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم .

[قال ضِرَار بن مُرّة : كانوا[٥] يكرهون أنْ يحدِّثوا بحديثٍ على غير وُضوء[٦] .

ونَحْوُه عن قتَادة .

وكان الأعمشُ إذا حدّث[٧] وهو على غير وُضُوء تيَمَّم .

وكان قتَادةُ لا يحدّث إلا على طَهارةٍ ، ولا يقرأُ حديثَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وَسلم إلا على وُضُوء][٨] .

قال عبدُ الله بن المبارك : كنتُ عند مالك ، وهو يحدِّثنا ، فلدغَتْه عقربٌ[٩]

---

(١) يأمر بالعود الهندى فيوقد عنده ليعطر مجلسه به . قال فى نسيم الرياض (٣-٤٥٠): يفعل ذلك إجلالا له ، وتكريما ، وتطييبا ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يحب الرائحة الطيبة ؛ فجعل مجلس حديثه كمجلسه حيا .

(٢) ليس فى ا . غيره : غير مطرف .

(٣) متمكنا : جالسا فى مكان على هيئة مستقرة ، غير مستوفز .

(٤) وقال : أى مالك فى تعليل ذلك .

(٥) كانوا : أى السلف .

(٦) فى ب : الحديث .

(٧) فى ب : إذا أراد أن يحدث .

(٨) فى هامش ا ، ب : من الأم بخطه من غير الرواية .

(٩) فى حال قراءته .

ستّ عشرةَ مرّةً ، وهو يتغيَّرُ لونُه ويَصْفَرُّ ولا يقْطَعُ حديثَ[1] رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم .

فلما فرغ من المجلس ، وتفرّقَ الناسُ عنه قلتُ له : يا أبا عبد الله ؛ لقد رأيتُ اليومَ منكَ عجَباً . قال : نعَمْ ؛ لدغتْنِي عقرب ست عشرة مرة ، وأنا صابر في جميع ذلك ؛ وإنما صَبَرْتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

قال ابْنُ مهدى : مشيتُ يوما مع مالك إلى العَقِيق[2] ، فسألتُه عن حديثٍ ، فانتهرنى[3] وقال لى : كنتَ فى عينى أجلّ[4] من أنْ تسألَ عن حديثِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وَسلم ونحن نمشى .

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضى عن حديثٍ وهو قائم ، فأمر بحَبْسه ، فقيل له : إنه قاضٍ . قال : القاضى أحقُّ مَنْ أُدِّبَ[5] .

وذُكِر أن هشام بن هشام بن الغازى[6] سأل مالـكا عن حديثٍ وهو واقفٌ

---

(١) احتراما له وإجلالا . (٢) العقيق : موضع قريب من المدينة على نحو ميلين منها .

(٣) فانتهرنى : زجرنى . (٤) أجل : أعظم .

(٥) يعنى أن العلماء والأشراف أولى برعاية الأدب، فإذا تركوه كانوا أحق بالأدب من العوام.

(٦) قال فى نسيم الرياض (٣ – ٤٥٢) : قالوا: الحـكاية المذكورة إنما وقعت لمالك مع هشام بن عمار خطيب دمشق كما رواها مسندة البرهان الحلبى . وقيل: إنها تصحفت على الناسخ وصوابها القارى ـ بالقاف والراء المهملة . وقيل الأصل هو الصواب ؛ وهو هشام بن الغازى بن ربيعة الشامى . وفيه إن الحافظ الحلبى أسند رواية هذه القصة عن هشام بن عمار كما علمت .

وفى هامش ا ، ب : قوله : « هشام بن الغازى » فيه نظر ، لأنه لا يعلم لهشام بن الغازى رواية عن مالك ، والمشهور فى نحو هذه الحـكاية هشام بن عمار الدمشقى ، والله عز وجل أعلم. نقلته من خط يحيى بن على القرشى الحافظ شيخنا .

قال القارى (٢ – ٧٩) : هشام بن القارى يروى عن مكحول وعطاء ، وقد توفى سنة ست وخمسين ومائة ؛ فهو معاصر لمالك ، وقد توفى قبل مالك ؛ والله تعالى أعلم بذلك .

فضربه عشرين سَوْطا ، ثم أشفق عليه ، فحدَّثه عشرين حديثا ؛ فقال هشام : ودِدْتُ لو زادني سِيَاطا ويزيدني حديثا .

قال عَبْدُ الله بن صالح : كان مالكٌ والليثُ لا يكتبان الحديثَ إلّا وهما طاهِرَانِ[(١)] .

وكان قتادةُ يستحبُّ ألاَّ تُقْرَأ[(٢)] أحاديثُ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم [١٥٦] إلا على وضوء ، ولا يحدِّثُ إلّا على طَهَارةٍ .

وكان الأعمشُ إذا أراد أنْ يحدّثَ وهو على غير وضوء تَيمَّم[(٣)] .

فصل

[في توقيره ، وبر آله ، وذريته ، وأمهات المؤمنين أزواجه]

ومن تَوْقيره صلّى الله عليه وسلم وبِرِّه[(٤)] - بِرُّ آلِهِ وذُرِّيّته وأُمّهاتِ المؤمنين أزواجِه ، كما حضّ[(٥)] عليه صلى اللهُ عليه وسلم ، وسلكه السلفُ الصالحُ رضِيَ الله عنهم .

قال الله تعالى[(٦)] : ﴿ إنما يريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكم تطْهيرا ﴾ .

وقال تعالى[(٧)] : ﴿ وَأَزْوَاجُه أمهاتُهم ﴾ .

---

(١) أي على طهارة تامة . (٢) تقرأ - بالبناء للمجهول في ا ، والبناء للمعلوم في ب .

(٣) سبق هذا في صفحة ٦٠٢ (٤) توقيره: تعظيمه وتبجيله . وبره : صلته ورعاية جنابه.

(٥) حض : حث وحرض بطلبه من كل أحد .

(٦) أيد ذلك بدليل من القرآن ، والآية في سورة الأحزاب ، آية ٣٣ . والرجس : الإثم والذنب . وأراد بأهل البيت نساء النبي ، لأنهن في بيته .

(٧) سورة الأحزاب ، آية ٦ ، تشبيه أزاوجه بأمهاتهم في وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن بدليل قوله تعالى : « ولا أن تنكحوا أزاوجه من بعده أبداً » .

أخبرنا الشيخ أبو محمدٍ بن أحمد العَدْل مِنْ كتابِهِ ، وكتَبْتُ من أصله(١) : حدثنا أبو الحسن المقرئُ الفَرْغانى ، حدثتنى أمُّ القاسم بنت الشيخ أبى بكر الخفّاف ، قالت : حدثنى أبى ، حدثنا حاتم ـ هو ابن عقيل ، حدثنا يحيى ـ هو ابن إسماعيل ، حدثنا يحيى ـ هو الحِمّانى ، حدثنا وَكيع ، عن أبيه ، عن سَعِيد بن مسروق ، عن يزيد بن حَيّان ، عن زَيد بن أرْقَم ؛ قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : أنشدكم(٢) اللهَ أهلَ بيتى(٣) ... ثلاثا .

قلنا لزَيْد : مَنْ أهْلُ بيتِهِ ؟ قال : آل على ، وآل جعفر ، وآل عَقِيل ، وآلُ العباس(٤) .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم(٥) : إنى تارِكٌ فيكم ما إنْ أخذتُم به لم تضِلُّوا : كتاب الله ، وعِترتى أهلَ بيتى(٦) ؛ فانظُرُوا كيف تَخْلُفُونى فيهما(٧) .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم(٨) : معرفةُ آلِ محمدٍ صلّى اللهُ عليه وسلم براءةٌ

---

(١) المراد بأصله : نسخته التى قرأ منها ؛ أو المروى عن مشايخه .

(٢) أى أسألكم بالله وأقسم عليكم به .

(٣) أى : وأذكركم أهل بيتى ، فلا تنسوا حقوقهم ورعايتهم ؛ فإن رعايتهم رعاية لى . أو أسألكم الله فى حق أهل بيتى بالإحسان إليهم والشفقة عليهم. أو أقسم عليكم بالله أن تراعونى فى أهل بيتى (شرح القارى : ٢ ـ ٨١) .

(٤) وهذا كما رواه مسلم فى فضائل آل البيت : صحيح مسلم ١٨٧٣

(٥) فى حديث رواه الترمذى : سنن الترمذى : ٤ ـ ٦٦٢

(٦) أهل بيتى تفسير لعترتى .

(٧) أى بعد وفاتى انظروا فى عملكم بكتاب الله واتباعكم لأهل بيتى ورعايتهم وبرهم بعدى ؛ فإن مايسرهم يسرنى، وما يسوءهم يسوءنى .

(٨) فى شرح القارى (٢ ـ ٨٢) ؛ لايعرف راويه .

من النار[١]، وحُبُّ آلِ محمد جَوازٌ[٢] على الصِّرَاط، والولايةُ[٣] لآل محمدٍ أمانٌ من العذاب.

قال بعضُ العلماء: معرفتُهم هى معرفةُ مكانِهم من النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلم، وإذا عَرَفَهُمْ بذلك عرف وُجُوبَ حقّهم وحُرْمَتَهم بسببه.

وعن[٤] عُمر بن أبى سَلَمَةَ: لما نزلت[٥]: ﴿إنما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ ويُطَهِّرَكم تطهيرا﴾ - وذلك فى بيت أمّ سَلَمَة - دعا فاطمة وحَسَنا وحُسينا، فجلَّلهم[٦] بكساء، وعَلِىٌّ خَلْفَ ظهره [فجلّله بكسائه][٧]، ثم قال: اللهم هؤلاء أهلُ بيتى؛ فأذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ، وطَهِّرْهُم تطهيرا[٨].

وعن سعد بن أبى وقاص: لما نزلت آيةُ المُبَاهَلَة[٩] دعا النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم عَلِيّا وحَسَنًا والحُسين وفاطمة، وقال: اللهم هؤلاء أهلى.

وقال النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم فى علىّ: مَنْ كنتُ مَوْلاه فعلىٌّ مولاه؛ اللهم وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ.

---

(١) أى معرفة مقدارهم وحرمتهم ورعاية مايجب من حقوقهم؛ فإن محبتهم لأجله صلى الله عليه وسلم تدل على خلوص محبتهم له؛ وتلك مرتبة مستوجبة لذلك تفضلا من الله وكرامة لرسوله.

(٢) جواز على الصراط: أى مرور عليه بسرعة جوازا موصلا إلى الجنة؛ فإن المرء مع من أحب.

(٣) الولاية: الموالاة بالنصرة والمودة.

(٤) فى حديث رواه الترمذى: صحيح الترمذى: ٤ - ٦٦٣

(٥) سورة الأحزاب، آية ٣٣

(٦) جللهم: غطاهم، وسترهم.

(٧) من سنن الترمذى.

(٨) أى جنبهم الآثام والمعاصى وما يشينهم. وإدخالهم فى الكساء إشارة إلى قربهم منه صلى الله عليه وسلم، وأن الله سترهم كما سترهم الكساء، وأنه صانهم وأحرزهم، تفاؤلا بذلك.

(٩) رواه الترمذى فى سننه: ٥ - ٢٢٥. والمباهلة: الملاعنة. والآية هى قوله تعالى: «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (سورة آل عمران، آية ٦١).

وقال فيه(١) : لايحبُّكَ إلاّ مُؤمن ، ولا يُبغضُك إلا مُنافقٌ .

وقال للعبّاس(٢) : والذى نفسى بيده ، لايدخلُ قَلْبَ رجُلٍ الإيمانُ حتى يُحبَّكم لله ورسُولِه . ومَنْ آذَى عمّى فقد آذانى ؛ وإنما عَمُّ الرجلِ صِنْوُ(٣) أبيه .

وقال للعباس : اغدُ علىّ يا عم(٤) مع وَلدك ؛ فجمعهم وجَلَّلَهم(٥) بمُلاَءته ، وقال : هذا عمّى وصِنْوُ أبى ؛ وهؤلاء أهلُ بيتى ؛ فاسْتُرْهم من النار كسترِى إياهم ؛ فأمّنَتْ أُسكُفَّة الباب(٦) وحوائطُ البيت : آمين . آمين .

وكان(٧) يأخذ أُسامةَ بن زَيْد ، والحَسَن ؛ ويقول : اللهم إنى أُحبّهما فأحبّهما .

وقال أبو بكر : ارقبوا(٨) محمدا فى أهل بيته .

وقال أيضا : والذى نَفْسِى بيده لَقَرَابةُ [١٥٧] رسولِ الله صلّى اللهُ عليه وسلم أحبُّ إلىّ أنْ أصِلَ مِن قرابتى(٩) .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم(١٠) : أحَبَّ اللهَ مَنْ أحبّ حسناً وحُسينا .

---

(١) أى فى على .

(٢) فى حديث رواه الترمذى ، وابن ماجه : سنن الترمذى : ٥ ـ ٦٥٢

(٣) الصنو : المثل ؛ أى فى المعنى أبوه .

(٤) أغد على ياعم : ائتنى . والحديث فى سنن الترمذى : ٥ ـ ٦٥٣

(٥) جللهم : غطاهم ، وسترهم .

(٦) أسكفة الباب : العتبة التى فى أسفل الباب .

(٧) فى حديث رواه البخارى : صحيح البخارى : ٥ ـ ٣٠

(٨) الحديث فى صحيح البخارى : ٥ ـ ٢٦ ، ٣٣ والمراد احفظوا محمدا وحقه عليكم . فى أهل بيته : فى رعايتهم وإكرامهم وبرهم .

(٩) أى من صلة قرابتى . والحديث فى صحيح البخارى : ٥ ـ ٢٦

(١٠) فى حديث رواه ابن ماجه ، والترمذى : سنن الترمذى : ٥ ـ ٦٥٨

وقال : من أحبّني وأحبَّ هذين ـ وأشار إلى حَسَنٍ وحُسَين وأباهما وأمهما ـ كان معى فى دَرجتى[١] يوم القيامة .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[٢] : مَنْ أهان قُريشا أهانه اللهُ .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[٣] : قَدِّموا قُريشا ولا تَقَدَّموها[٤] .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم لأُم[٥] سلَمة : لاتؤذينى فى عائشة .

وعن عُقْبَة[٦] بن الحارث : رأيتُ أبا بكر رضى اللهُ عنه ، وجعل الحَسنَ على عنُقِه وهو يقول : بأَبى شَبِيهٌ بالنبى ، ليس شبيها بعلىّ ـ وعلىٌّ رضِيَ الله عنه يَضْحَكُ.

ورُوِى عن عَبْد الله بن الحَسن بن حُسَين ؛ قال : أتيتُ عُمر بن عبد العزيز فى حاجة ، فقال لى : إذا كانت لك حاجةٌ فأَرْسِلْ إلىّ أو اكتُبْ ؛ فإنى أستحيي من الله أن يراكَ على بابى[٧] .

وعن الشعبي[٨] : صلّى زَيْد بن ثابت على جنازة أمه،ثم قُرِّبَتْ له بَغْلَته ليركبها، فجاء ابْنُ عباس فأَخذ برِكَابِه ؛ فقال زَيْدٌ : خَلِّ عنه[٩] يابْنَ عمِّ رسولِ اللهِ . فقال: هكذا نَفْعَلُ بالعلماء . فقَبَّل زَيْد يَدَ ابْنِ عباس ؛ وقال : هكذا أُمرنا أنْ نَفْعلَ بأَهل بيتِ نبيِّنا .

---

(١) فى درجتى : فى منزلتى ورتبتى فى الجنة .

(٢) فى حديث رواه الترمذى ، وحسنه . سنن الترمذى : ٥ ــ ٧١٤ ، وفيه : من يرد هوان قريش . . .

(٣) فى حديث رواه البزار، وابن أبى شيبة . (٤) ولاتقدموها : ولا تتقدموا عليها .

(٥) فى حديث رواه البخارى . صحيح مسلم : ٥ ــ ٣٨ ، وبين للناس بذلك محبته لها وتقدمها عنده .

(٦) فى حديث رواه البخارى عنه : صحيح البخارى : ٥ ــ ٣٣

(٧) وهذا تعظيم منه لآل البيت لمحبة رسول الله وآله .

(٨) رواه الحاكم ، والبيهقى ، وصححه . (٩) خل عنه : دع الركاب وتباعد عنه .

ورأى ابنُ عُمر محمدَ بْنَ أسامةَ بن زَيْد ؛ فقال[١] : ليْتَ هذا عنْدى[٢] ؛ فقيل له : هو محمد بن أسامة . فطأطأ ابنُ عُمر رَأْسَه ، ونقَر بيده[٣] الأرْض ، وقال : لو رآه رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لأَحَبَّه .

وقال الأوْزَاعى[٤] : دخلَتْ بنْتُ أُسامةَ بن زَيْدٍ صاحبِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم على عُمر بن عبد العزيز ومعها مَوْلًى لها يُمْسِكُ بيدها[٥] ، فقام لها عُمر ، ومشَى إليها حتى جعل يدَها بين يَدَيْه ، ويدَاهُ فى ثِيَابه[٦] ، ومَشَى بها حتى أجْلسها على مجْلسه[٧] ، وجلس بين يديها ، وما تركَ لها حاجَةً إلَّا قضَاها .

ولما فَرض عُمَرُ بن الخطّاب لابنِه عبدِ اللهِ فى ثلاثةِ آلافٍ ، ولأُسامة بن زيد فى ثلاثة آلاف وخمسمائة ـ قال عبدُ الله لأبيه : لِمَ فضَّلْتَه ؛ فوالله ما سبقنى إلى مَشْهَد[٨] ؟ فقال له: لأنَّ زيدا كان أَحَبَّ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ أَبيك، وأُسامةُ أَحبُّ إليه منكَ ؛ فآثرتُ حُبَّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على حُبّى[٩] .

---

(١) هذا الحديث فى البخارى : صحيح البخارى : ٥ ـ ٣٠

(٢) تمنى ذلك ليعلمه وليؤدبه، ولم يكن عرفه حين رآه. وفى ا : عبدى. والمثبت فى البخارى. وقال القارى (٢ ـ ٨٥) : عبدى ـ بالباء ـ وهى رواية البيهقى . ثم قال : ورواية الكافة بكسر أوله وسكون النون . والأول أوجه . وقال المزى : بالنون هو المشهور . قال الحجازى: وهو الصحيح فى الشفا . وكذا فى البخارى .

(٣) يتفكر فيما قاله ندما عليه .

(٤) فى شرح القارى (٢ ـ ٨٥) : حكاه ابن عساكر فى تاريخ دمشق .

(٥) لكبرها وضعف بصرها .

(٦) ويداه فى ثيابه : أى مغطاة بكمه حتى لا يمس بدنه بدن أجنبية لتقواه .

(٧) على مجلسه : على فراشه الذى كان جالسا عليه .

(٨) إلى مشهد : إلى محل شهده الناس من الجهاد وخدمة الدين التى ترتب الوظائف بقدرها وبالتقدم فيها .

(٩) فآثرت : فقدمت . وقد ضبطت الحاء فى « حب » ، و « حبى » بالضمة والكسرة فى ب ؛ وهى بكسر الباء بمعنى المحبوب . وحديث البخارى فى الهجرة : ٥ ـ ٨٠ ،وفيه : فقال : إنما هاجر به أبواه . . .

وبلغ معاوية أنّ كابِس بن رَبيعة يُشَبَّه برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقّاه وقبّل بين عَيْنيه، وأقطعه المِرْغابَ[١] لِشَبهه صورةَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

ورُوِى أن مالـكا رحِمَه الله لمّا ضَربه جعفَرُ بن سليمان[٢] ، ونال منه ما نال ، وحُمِل مَغْشيًّا عليه دخل عليه الناسُ فأفاقَ ، فقال : أُشْهِدُكم أنّى جعلتُ ضاربى فى حِلّ[٣] .

فسُئل بعد ذلك ، فقال : خِفْتُ أن أموتَ ، فألْقَى النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأستحِى منه أنْ يدخُلَ بعْضُ آلهِ النارَ بِسَبَبِى .

وقيل : إنّ المنصور أَقاده من[٤] جعفر ، فقال له : أعوذُ بالله ! واللهِ ما ارتفعَ منها سوطٌ عن جسمى [١٥٨] إلا وقد جعلتُه فى حِلٍّ لقَرَابته من رسول الله صلى الله عليه وَسلم .

وقال أبوبكر بن عيّاش: لو أتانى أبو بكر وعُمر وعلىّ لبدأْتُ بحاجةِ علىٍّ قبْلهما؛ لقرابته[٥] مِنْ رسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم؛ ولَأن أخِرّ[٦] من السماء إلى الأرض أحبُّ إلىّ مِنْ أنْ أقدّمَه عليهما .

وقيل لابْن عباس[٧] : ماتت فلانة ـ لبعض أزواج النبى صلى اللهُ عليه وسلم ،

(١) المرغاب : اسم أرض بمرو الشاهجان ، أو قرية بهراة ، كانت ذات غلة كثيرة يرغب فيها. والإقطاع : أن يفوض إليه أرضا بتمليك ونحوه ويسوغه لمن هو أهل له. والضبط فى معجم ما استعجم : ١٢١٥

(٢) ضربه جعفر: بقول بعضهم: لأنه لايرى الأيمان لبيعته شيئا؛ لأن يمين المكره لاتلزم ؛ فغضب جعفر . . . (شرح القارى : ٢ ـ ٨٧) .

(٣) يقال : هو فى حل من كذا : إذا برأ ذمته من عهدته .

(٤) أقاده من جعفر : أى أمر أن يقتص لمالك من جعفر ، فيضرب كما ضربه .

(٥) فى هامش ا : لقرباه ، وعليها علامة الصحة .

(٦) أخر : أسقط .

(٧) رواه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه : سنن الترمذى : ٤ ـ ٧٠٨

فسجد؛ فقيل له: أتَسجدُ هذه الساعة؟ فقال: أليس قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: إذا رأيتم آيةً[1] فاسْجُدوا؛ وأيُّ آيةٍ أعظمُ[2] من ذهابِ أزواجِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم.

[وكان أبو بكر وعُمر يَزُوران أمَّ أيْمَنَ مولاةَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، ويقولان: كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَزُورُها[3].

ولمّا وردَتْ حليمةُ السعديّةُ على النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم بسط لها رداءَهُ وقَضَى حاجتَها؛ فلما تُوفِّيَ وفدت على أبى بكر وعُمر فصنعا بها مِثْلَ ذلك][4].

فصل

[من توقيره وبِرّه توقيرُ أصحابه وبِرّهم]

ومن توقيره وبِرّه صلَّى اللهُ عليه وسلم ـ توقيرُ أصْحابِهِ وَبِرُّهم ومعرفةُ حقِّهم، والاقتداء بهم، وحُسْنُ الثناء عليهم، والاستغفارُ لهم، والإمساكُ عما شَجَر[5] بينهم، ومعاداةُ مَنْ عادَاهُمْ، والإضرابُ عن أخبار المؤرّخين، وجهَلة الرُّوَاةِ، وضُلَّالِ الشِّيعَة[6] والمُبْتَدِعين القادحةِ[7] فى أحدٍ منهم؛ وأن يُلْتَمس لهم فيما نُقِل [عنهم][8] من مِثْل ذلك فيما كان بينهم مِنَ الفِتَن أحسنُ[9] التأويلات، ويُخرّج

(١) آية: أمر عظيم فيه عبرة، كالكسوف والخسوف.

(٢) وهى آية عظيمة تورث حزنا وأسفا.

(٣) فاقتديا به، وأحبا ما أحب.

(٤) مابين القوسين كتب أمامه فى هامش ا، ب: صح، من الأم، من غير الرواية.

(٥) الإمساك: السكوت. شجر بينهم: ما وقع من خلاف ونزاع بينهم.

(٦) ضلال: جمع ضال. والشيعة: كل فرقة تابعة لأحد؛ ثم خصت بفرقة مخصوصة شايعوا عليا، وبالغوا فيه.

(٧) والمبتدعين: الذى ابتدعوا العقائد الفاسدة. القادحة: من القدح؛ وهو الذم والتنقيص.

(٨) ليس فى ا، ب. (٩) ضبطت النون فى «أحسن» بالفتحة فى ا.

لهم أصوبُ المخارج[1] ؛ إذ هم أهلُ ذلك ، ولا يُذكَرُ أحدٌ منهم بسوء ، ولا يُغمَصُ[2] عليه أمرٌ ؛ بل تُذْكَر حسناتُهم وفضائلُهم ، وحَميدُ سِيرتهم ، ويُسكتُ عما وَرَاءَ ذلك ؛ كما قال صلى اللهُ عليه وسلّم[3] : إذا ذُكر أصحابى فأَمْسِكُوا .

قال الله تعالى[4] : ﴿محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أَشِدَّاءُ عَلَى الكفّار رُحَماءُ بينهم تراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوانا سِيمَاهُم فى وجُوههم من أَثَرِ السجودِ ، ذلكَ مَثَلُهم فى التوراةِ ومثَلُهم فى الإنجيل كزَرْعٍ أَخرجَ شَطْأَه فآزَرَهُ ، فاستَغْلَظَ فاستوى على سُوقه يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بهم الكُفّار وَعَدَ اللهُ الذين آمنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ منهم مغفرةً وأَجْراً عظيما﴾ .

وقال[5] : ﴿والسابقُونَ الأَوّلون من المهاجرينَ والأنصارِ والذين اتَّبعوهم

(١) أصوب المخارج : بأن يحمله على أمر محمود ، ويؤوله بما يخرجه عن عده من المعايب إلى إلحاقه بالمحاسن .

(٢) لا يغمص : لايعاب ولا ينقص فى أمر من أموره . وفى هامش ا : غمص الناس : احتقرهم وطعن فيهم . عليه : على أحد منهم .

(٣) فى حديث رواه الطبرانى . فأمسكوا : اسكتوا عن الطعن فيهم، وذكرهم بما يوهم قصافيهم.

(٤) سورة الفتح ، آية ٢٩ . شطأه : شطء الزرع : فروع الزرع ، وهو ماخرج منه وتفرع فى جانبيه . وقد تضمنت الآية الثناء عليهم كلهم ، وأن الله تعالى وعدهم بمغفرته وأجر عظيم منه ، وأنهم من ابتداء أمرهم إلى آخره نفع وخير كزرع تكامل شيئا فشيئا حتى نمت سنابله وعم نفعه .

(٥) سورة التوبة ، آية ١٠٠

قال فى نسيم الرياض (٣ — ٤٦٧) : وفى هذه الآية مدح عظيم أيضا لهم ووعد عظيم بمالهم فى العقبى ؛ وهم على طبقات ثلاث : الأولى السابقون الأولون الذى صلوا للقبلتين وشهدوا بدرا ، والذين أسلموا قبل الهجرة الثانية ، السابقون الأولون للبيعة وهم الأنصار أصحاب العقبة الأولى .

والثانية والثالثة الذين اتبعوا هؤلاء بإحسان ، وهم اللاحقون بالسابقين من أهل القبلتين ، وشمل هؤلاء كلهم الثناء والوعد .

بإحسان رضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ، وأَعَدّ لهم جنّاتٍ تجرى تحتَها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم ﴾ .

وقال الله تعالى[١] : ﴿ لقد رَضِىَ اللهُ عن المؤمنين إذْ يُبَايِعُونكَ تحت الشَّجَرَةِ ﴾ .

وقال[٢] : ﴿رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبه ومنهم مَنْ ينتظِرُ وما بدّلوا تبْدِيلًا﴾ .

حدثنا القاضى أبو علىّ ، حدثنا أبو الحُسَيْن ، وأبو الفَضْل ؛ قالا : حدثنا أَبو يَعْلى ، حدثنا أبو علىّ السِّنْجىّ ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا التِّرْمذى ، حدثنا الحَسَن بن الصبّاح ، حدثنا سُفْيان بن عُيَيْنة ، عن زائدة ، عَنْ عَبْد الملك بن عُمَيْر ، عن رِبْعىّ بن حِرَاش ، عن حُذَيفة رَضِىَ الله عنه ؛ قال: قال[٣] رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : اقْتَدُوا باللّذَين مِنْ بعدى : أبى بكر ، وعُمَر .

وقال[٤] : أصحابى كالنُّجوم ِ بأيِّهم اقْتَدَيتُم اهتديتُم .

وعن أنسٍ[٥] رضِىَ الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : مَثَلُ أَصحابى كمَثَلِ المِلْحِ فى الطعام ؛ لا يصلحُ الطعامُ إلا به[٦] .

---

(١) سورة الفتح ، آية ١٨ ، وهذه هى قصة الحديبية ، وما وقع فيها ، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان . (٢) سورة الأحزاب ، آية ٢٣

(٣) هذا الحديث أخرجه الحاكم ، وابن حبان ؛ وهو فى سنن الترمذى : ٥ ـ ٦٠٩

(٤) رواه الدارقطنى ، وابن عبدالبر فى العلم ، من طرق أسانيدها كلها ضعفية ، حتى قال ابن حزم : إنه موضوع . وقال الحافظ العراقى : كان ينبغى للمصنف رحمه الله ألا يورده بصيغة الجزم . (٥) رواه البزار ، وأبو يعلى .

(٦) فى نسيم الرياض (٣ ـ ٤٦٩) : قال الحسن البصرى : قد ذهب ملحنا فكيف نصلح . وإصلاحهم بإرشادهم وهدايتهم وحثهم على الطاعات ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وبيان الشريعة وأمور الدين ؛ فعلينا باتباعهم واقتفاء آثارهم .

وقال(١) : اللهَ اللهَ فى أصحابى ؛ لاتتخذوهم غرَضا بعدى ؛ فمن أحبّهم فبحبّى أحبّهم، ومن أبغضهم فببُغضِى أبغَضَهم،ومن آذاهم فقد آذانى،ومن آذانى فقد آذى الله(٢) ، ومَنْ آذى الله يوشكُ أنْ يأخذه(٣) .

وقال(٤) : لاتَسُبُّوا أصحابى ؛ فلو أنفق أحدُكم مِثْلَ أُحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدَّ(٥) أحَدِهم ولا نَصِيفَه .

وقال(٦) : [١٥٩] مَنْ سبَّ أصحابى فعليه لَعْنَةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين، لايقبلُ اللهُ منه صَرْفاً ولا عَدْلا(٧) .

وقال : إذا ذُكر أصحابى فأَمْسِكُوا(٨) .

---

(١) الله الله : اتقوا الله فيهم . والغرض : الهدف الذى يرمى به السهام ، والمعنى :لاتذموهم وتطعنوا فيهم بإسناد أمور قبيحة لهم .

(٢) آذى الله : فعل ما لايرضاه .

(٣) يوشك : يقرب ويسرع . يأخذه : يهلكه ويستأصله بعذابه .

(٤) فى حديث رواه مسلم وغيره : صحيح مسلم : ١٩٦٧

(٥) مابلغ : ماوصل ، وساوى ثوابه ثواب مد أحد ولا نصيفه ؛ أى الذى يتصدق به من تمر أو شعير أو قمح ونحوه . والمد : ربع صاع ، وهو أقل ما يتصدق به عادة . وروى : مد ـ بفتح الميم ؛ أى مداه وغايته. والنصيف : النصف .

والمراد إن أعلى صدقتكم وإنفاقكم لله لا يبلغ أجره وموقعه عند الله أقل صدقتهم لسبقهم فى الخير وخلوص نيتهم بدون رياء منهم ؛ وقد أنفقوا ـ رضى الله عنهم ـ وهم فى قلة وفاقة ، ومن بعدهم أنفقوا والدنيا واسعة دارة عليهم ، مع شدة الحاجة لما أنفقوه فى أول ظهور الإسلام، وقتال أعداء الدين ، مع بذلهم مع مالهم ، وأهلهم وأرواحهم فى سبيل الله .

(٦) رواه الديلمى ، وأبو نعيم فى الحلية .

(٧) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية .

(٨) أى إذا ذكروا بسوء وغيبة فاتركوا ذلك ولاتخوضوا مع الخائضين فيهم . وقد تقدم.

وقال[١] ـ فى حديثِ جابر : إنّ اللهَ اختارَ أصحابى على جميع[٢] العالَمين سِوَى النبيّين والمرسلين ، واختَار لى منهم أربعة : أبا بكر ، وعُمر ، وعُثمان ، وعليّاً ؛ فجعلهم خَيْرَ أصحابى ، وفى أصحابى كلِّهم خير[٣] .

وقال[٤] : مَنْ أحبَّ عُمر فقد أحبَّنى ، ومَنْ أبغضَ عُمر فقد أبغضنى .

وقال مالك بن أنس ، وغَيْرُه : مَنْ أبغَضَ الصحابةَ وسبَّهم فليس له فى فَىْء[٥] المسلمين حقٌّ ، ونَزَعَ بآيةِ الحشر[٦] : ﴿ وما أفاء اللهُ على رسُولِه منهم فما أوجفتُم عليه من خَيْل ولا رِكَاب ولكن اللهَ يُسَلِّط رسُلَه على مَنْ يشاء واللهُ عَلَى كل شىء قدير . ما أفاء الله عَلَى رسوله من أهل القُرَى فللهِ وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكونَ دُولةً بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللهَ إن الله شديد العقاب ﴾ . . . إلى قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا مِنْ بعدهم يقولون : ربَّنا اغفرْ لنا ولإخْوانِنا الذين سَبَقُونا بالإيمان ولا تجعَلْ فى قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا ربَّنا إنكَ رءوفٌ رحيم[٧] ﴾ .

---

(١) رواه البزار ، والديلمى .

(٢) أى فضلهم على الناس كلهم ، وجعلهم خيرة خلقه عدولا أتقياء كلهم .

(٣) خير : أى فضل وتقوى .

(٤) فى حديث رواه الطبرانى فى أوسطه بسند حسن .

(٥) الفىء : ما أخذ من غنيمة الكفار .

(٦) أصل معنى النزع القلع والخروج ، يريد بعد عن الفىء فلا حق له فيه .

(٧) فى نسيم الرياض (٣ ـ ٤٧٢) : وجه الاستدلال بالآية أنه جعل ما أفاء الله على رسوله حقا للفقراء والمهاجرين والفقراء الذين تبوءوا الدار ، والفقراء الذين جاءوا من بعدهم مهاجرين بعد ما قوى الإسلام ، والتابعين لهم بإحسان ممن آمن بعد المهاجرين والأنصار إلى آخر الزمان . والآيات المشار إليها فى سورة الحشر : من آية ٥ ـ ١٠

وقال : مَنْ غاظه أصحابُ محمدٍ فهو كافر ؛ قال الله تعـالى[1] : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ ﴾.

وقال عبدُ الله بن المُبَارك[2] : خَصْلتان مَنْ كانتا فيه نجا : الصدقُ ، وحُبّ أصحابِ محمد صلى اللهُ عليه وسلم .

قال أيوب السَّخْتِيانى : مَنْ أحب أبا بكر فقد أقام الدِّين ، ومَنْ أحبَّ عُمر فقد أَوْضَحَ السبيلَ[3] ، ومَنْ أحبَّ عثمان فقد استَضَاء بنُور الله ، ومَنْ أحبَّ عليا فقد أخذ بالعُرْوة الوُثْقى[4] ، ومَنْ أحسنَ الثناء على أصحاب محمد صلى اللهُ عليه وسلم فقد برئ من النِّفَاق ، ومن انتَقَصَ أحداً منهم فهو مُبْتَدِعٌ مخالف للسُّنَّةِ والسلفِ الصالح ؛ وأخافُ ألاّ يَصْعدَ له[5] عملٌ إلى السماء حتى يحبّهم جميعا ، ويكون قَلْبُه سليما[6] .

وفى حديث[7] خالد بن سَعِيد أنَّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « أيُّها الناس،

---

(١) سورة الفتح ، آية ٢٩

قال القارى : وعن مالك أيضا أنه قال — حين تلا قوله تعالى : ليغيظ بهم الكفار — من أصبح وفى قلبه غيظ على أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية .

(٢) فى نسيم الرياض (٣ — ٤٧٣) : ليس هذا من كلام ابن المبارك ؛ وإنما هو حديث رواه ابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم .

(٣) أوضح السبيل : بين طريق الحق لمن أراد سلوك الطريق المستقيم ، لأنه — بعده صلى الله عليه — أظهر الدين .

(٤) أخذ بالعروة الوثقى : تمسك بها ، لكونه عالما بالحقيقة ، وقائما بالذب عن حوزة الدين ، لايلحقه فى الله لومة لائم . وعلى باب العلم ، فمن أحبه فهو مستمسك بالعروة الوثقى — أى بالحق والرأى القويم الذى هو عروة لا تنفصم .

(٥) ألا يصعد له عمل : أى لايقبله الله تعالى منه ، ولا يثيبه عليه .

(٦) يكون قلبه سليما من بغضهم .

(٧) هـذا الحديث رواه الطبرانى ، وابن منده . وقال القارى (٢ — ٩٤) : هو خالد بن عمرو بن سعيد بن العاص القرشى .

إنى راضٍ عن أبى بكر فاعرِفُوا له ذلك . أيها الناسُ ؛ إنى راضٍ عن عُمر ، وعن عليّ ، وعن عثمان ، وطلحة ، والزُّبير ، وسَعدٍ ، وسعيدٍ[١] ، وعبد الرحمن بن عَوْف ؛ فاعرفُوا لهم[٢] ذلك .

أَيُّها الناسُ ؛ إنَّ اللهَ غفرَ لأَهل بَدْرٍ والحُدَيْبِيَة ؛ أَيها الناس ، احفظونى فى أَصحابى وأَصْهارى وأَخْتَانى[٣] ، لا يطالبنَّكم أَحدٌ منهم بمَظْلَمةٍ ؛ فإنها مظلمةٌ لا توهب فى القيامةِ غداً[٤] .

وقال رجلٌ للمُعَافَى بن عمران : أَين عُمر بن عبد العزيز مِنْ معاوية ؟ فغضب وقال : لا يُقاسُ بأَصحاب النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَحدٌ ، معاوية صاحبُه وصِهْرُه[٥] ، وكاتِبُه وأَمِينُه عَلَى وَحْى الله .

وأُتِى[٦] النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بجَنَازَةِ رَجُلٍ فلم يُصَلِّ عليه ، وقال : كان يُبْغض عُثمان ، فأَبْغَضه الله .

وقال صلى الله عليه وسلم فى الأنصار[٧] : « اعفُوا عن مُسِيئهم ، واقبَلُوا من مُحسِنهم » .

---

(١) وسعد : هو ابن أبى وقاص . وسعيد : هو ابن زيد بن عمرو بن نفيل .

(٢) المراد بمعرفتهم رعاية حقوقهم وتوقيرهم ومحبتهم .

(٣) احفظونى : احفظوا حقى وقدرى برعاية ما يجب . فى أصحابى: أى وحفظ حقى يتم ويتحقق بحفظ أصحابى ومحبتهم وتوقيرهم.والأصهار: جمع صهر: وهم أهل المرأة .والختن:واحد الأختان : وهو كل من كان من قبل المرأة . والمراد بها هنا : من بينه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبينه علاقة بتزويجه أو التزوج منه .

(٤) أى لايهبها الله ؛ لأنها حق العبد ، مالم يرض صاحبها لاتترك .

(٥) صهره : لأنه أخو زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان .

(٦) الحديث فى سنن الترمذى : ٥ ــ ٦٣٠

(٧) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ١٩٤٩ ، وصحيح البخارى : ٥ ــ ٤٣

وقال[١] : « احْفَظُونى فى أصحابى وأصهارى ؛ فإنه مَنْ حفظنى فيهم حَفظَه الله فى الدنيا والآخرة ، ومَنْ لم يحفَظْنى فيهم تخلَّى اللهُ منه[٢] ، ومَنْ تخلّى اللهُ منه يوشِكُ أن يأخذه[٣] » .

وعنه صلى اللهُ عليه وسلم: « مَنْ حَفِظنى[٤] فى أصحابى كنتُ له حافظا يوم القيامة » .

وقال[٥] : « مَنْ حَفِظنى فى أصحابى وردَ عَلَىَّ الحوضَ[٦] ، ومَنْ لم يحفظنى فى أصْحابى لم يَرِدْ علىّ الحوضَ ، ولم يَرَنى إلّا مِنْ بَعيد » .

قال مالك ـ رحمه الله : هذا النبىُّ مؤدِّب الْخَلْق الذى هدَانا اللهُ به ، وجعله رحمةً للعالمين ، يخرجُ فى جَوْفِ الليل إلى البَقِيع[٧] فيَدْعُو لهم ويستغفِرُ كالمُوَدِّع لهم ؛ وبذلك أمره الله ، وأُمِر النبىّ بحبّهم ، ومُوَالاتهم[٨] ، ومَعاداة مَنْ عادَاهم .

وروى عن كعب[٩] : ليس أحدٌ مِنْ أصْحابِ محمد صلى اللهُ عليه وسلم إلّا لَهُ شفاعةٌ يوم القيامة .

وطَلَبَ[١٠] من المُغيرة بن نَوْفَل أَنْ يشْفَعَ له يوم القيامة .

قال سَهْل بن عبد الله التُّسْتَرى : لم يُؤْمِن بالرسولِ مَنْ لم يُوقّر أصحابَه ، ولم يُعزّ أَوَامره[١١] .

---

(١) فى حديث رواه أبو نعيم ، والديلمى .

(٢) تخلى الله منه : أى أعرض عنه ، وتركه فى غيه استدراجا له .

(٣) أن يأخذه بأن يهلكه ويستأصله .

(٤) من حفظنى فى أصحابى : برعاية حقى فيهم . (٥) رواه الطبرانى بسند ضعيف .

(٦) ورد علىّ الحوض : أى وصل إليه وشرب منه حتى لايظمأ بعده .

(٧) البقيع : اسم موضع بظاهر المدينة ، صار مقبرة لأهل المدينة ؛ وإنما كان يخرج إليه النبي ليناجى ربه متخليا عن أهله . (٨) موالاتهم : معاونتهم ونصرتهم .

(٩) رواه ابن سعد . (١٠) وطلب : أى كعب .

(١١) يعز أوامره : ينصرها ويقويها ، ويبجلها ويعظمها .

فصـــل

[ومن إعظامه وإكباره]

ومن إعظامه وإكبارِه إعظامُ جميعِ أسبابِه[١]، وإكرامُ مشاهِدِه[٢] وأمكنتِه من مكة والمدينة[٣] ، وَمعاهده[٤] ، وما لَمَسَهُ ـ صلى الله عليه وسلم ، أو عُرِف به .

ورُوِى عن صَفِيّةَ بنت نَجْدَةَ ؛ قالت : كان لأَبى مَحْذورة قُصّةٌ[٥] فى مُقَدَّم رأسه إذا قعَدَ وأرسلها أصابت الأَرضَ . فَقيل له : أَلاَ تحلقُها ؟ فقال : لم أَكُنْ بالذى أحلِقُها ، وقد مَسَّها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيَدِهِ .

وكانت[٦] فى قَلَنْسُوة خالد بن الوليدِ شَعَراتٌ من شَعره صلّى اللهُ عليه وسلم ، فسقطت قلنسوتُه فى بَعْضِ حُروبِهِ ، فشدّ عليها شَدّةً[٧] أنكر عليه أَصحابُ النبىّ صلى الله عليه وسلم كَثْرةَ مَنْ قُتِل فيها ؛ فقال : لم أَفعَلْها بسبب القَلَنْسُوة ؛ بل لِمَا تضمَّنَتْه من شعَرِه صلى اللهُ عليه وسلم لئلا أُسْلَب[٨] بركتَهاَ وتقع فى أيدىالمشركين .

---

(١) الأسباب : المراد كل ماينسب إليه؛ من فراشه ولباسه ممن لا روح له ، أو له روح ؛ كعبده ودوابه . وقال الراغب : السبب :الحبل الذى يصعد به النخل، ويسمى كل ما يتوصل به سببا ، وتسمى العامة والخمار والثوب الطويل سببا لشبهها بالحبل فى الطول .

(٢) مشاهده : مشاهد : جمع مشهد ، وهو محل الشهود ؛ أى الحضور ؛ أى مواضعه التى حضرها أو نزل بها .

(٣) المراد به مساكنه ومحال إقامته .

(٤) معاهد : المحال التى عهد إلفه صلى الله عليه وسلم بها ؛ كالأساطين التى كان يصلى عندها، ومحل صلاته فى المسجد ، والأماكن المباركة ، ومنازله .

(٥) قصة : خصلة من شعر الرأس فى مقدم رأسه .

(٦) فى حديث رواه أبو يعلى .

(٧) شد عليها شدة : كر كرة قوية ، أى رجع لأخذها، وهو يعدو عدوا شديدا سريعا.

(٨) أسلب بركتها : تذهب منى بركتها .

[ورُئى ابْنُ عُمر واضعا يدَه على مَقْعَدِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم من المِنْبَر ، ثم وضعها على وَجْهه[١]][٢] .

ولهذا كَان مالك رحِمَه الله لايركبُ بالمدينة دابّةً ؛ وكَان يقول : أستَحِى من الله أنْ أطَأَ تُرْبةً[٣] فيها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بحافِرِ دابّة .

ورُوِى عنه أنه وهب للشّافعى كُراعا[٤] كثيرا كان عنده ؛ فقال له الشافعىُّ : أَمْسِكْ منها دابّةً . فأجابه بمثل هذا الجواب .

وقد حكى أبو عبد الرحمن السُّلَمى عن أحمد بن فَضْلُوَيه الزّاهد ـ وكان من الغُزاة الرُّماة[٥] ـ أنه قال : ما مَسَسْتُ القَوْسَ بيدى إلاّ على طَهارة منذ بلغنى أَنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم أخذ القوسَ بيده[٦] .

وقد أفتى مالكٌ فيمن قال : تُرْبَةُ المدينة رَدِيّةٌ[٧] ـ يُضْرَبُ ثلاثين دِرّةً[٨] ، وأمر بحَبْسه ، وكان له قَدر ؛ وقال : ما أَحْوَجَه إلى ضَرْبِ عُنُقه ! تُرْبةٌ دُفِنَ فيها النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يزعمُ أنها غير طيبة .

وفى الصحيح[٩] أنه قال صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة : مَنْ أَحدث فيها حَدَثا[١٠]

---

(١) وضعها على وجهه : مسحه بها تبركا .

(٢) أمام ما بين القوسين فى هامش ا ، ب : من غير الرواية .

(٣) تربة : أرضا ذات تراب .

(٤) كراعا : جمع من الخيل .

(٥) الرماة : الذين يجيدون رمى السهام .

(٦) أخذ القوس بيده : أمسكها ، ورمى بها .

(٧) ردية : غير طيبة ، ذات وباء متعفنة الهواء .

(٨) الدرة : آلة من جلد غليظ يضرب بها ؛ وهى آلة التعزير .

(٩) رواه الشيخان : صحيح البخارى : ٩ ـ ١٢٣ ، وصحيح مسلم : ٩٩٦

(١٠) من أحدث فيها حدثا : من فعل فيها أمرا قبيحا ابتدعه فيها كالمظالم . والمراد البدع المنكرة شرعا .

أو آوى مُحْدِثا[١] فعليه لَعْنَةُ اللهِ والملائـكةِ والناسِ أجمعين ؛ لا يقبلُ اللهُ منه صَرْفاً ولا عَدْلا[٢] .

وحُـكى أن جَهْجاهاً[٣] الغِفَارى أَخَذَ قضيبَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم من يد عثمان رضى اللهُ عنه ، وتناوله لِيكْسِره على رُكْبته ، فصاح به الناسُ ، فأخذته الأَكِلَة[٤] فى رُكْبته فقطعها ، ومات قبل الحَوْلِ .

وقال[٥] صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ حلف على مِنْبرى كاذِباً فليتبوَّأْ مَقْعَدَه من النار[٦] » .

وحُدِّثْتُ أنَّ أبا الفضل الجَوْهرى لمـا وردَ المدينةَ زائرا ، وقَرُب من بيوتِها تَرَجَّلَ ومشى باكيا مُنْشِداً[٧] :

ولمـا رأيْنا رَسْمَ مَنْ لم يَدَعْ لنَا ... فُؤَاداً لِعِرْفانِ الرُّسومِ ولا لُبّاً[٨]
نزلنا عن الأَكوارِ نَمْشِى كرامَةً ... لِمَنْ بانَ عنه أنْ نُلِمَّ به رَكْبَاً[٩]

وحكى عن بعض المُرِيدين أنه لمـا أشرف على مدينة الرسول أنشد يقول متمثِّلا[١٠] [١٦١] :

---

(١) آوى محدثا : أدخله وضمه لأهلها . (٢) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية .

(٣) الذى حكى هذا هو ابن عبد البر فى الاستيعاب : ١ ـ ٢٦٩ . وقال القارى (٢ـ٩٩) : جهجاها ـ بفتح أوله : وفى نسخة جهجاه ـ بلا تنوين .

(٤) الأكلة : مرض يفسد الأعضاء . وتمد همزته .

(٥) فى حديث رواه مالك ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة .

(٦) يتبوأ : يتخذه مباءة ؛ أى مقرا وسكنا : سنن الترمذى : ٤ ـ ٥٢٤ ، سنن ابن ماجه : ١٣ (٧) الشعر للمتنبى : ديوانه : ١ ـ ٥٦

(٨) الرسم : آثار الديار الدارسة ، والمراد آثاره صلى الله عليه وسلم فى معاهده ومساكنه. والفؤاد : القلب ، والعرفان : المعرفة . واللب : العقل .

(٩) الأكوار : جمع كور ؛ وهو للإبل بمنزلة السرج للفرس . بان : بعد . نلم : نأتيه لزيارته. والإلمام : الإتيان قليلا . (١٠) الشعر لأبى نواس فى مدح محمد الأمين : ديوانه : ٤٠٨

رُفِـع الحِجَابُ لنـا فلَاحَ لناظرٍ قَمرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ[١]
وإذا المطىُّ بنـا بَلَغْنَ محمـــداً فظهورهنّ على الرجال حَرَامُ[٢]
قَرَّبْنَنَا مِنْ خير مَنْ وطِئَ الثرى ولهـــا علينا حُرْمةٌ وذِمَامُ[٣]

وحُـكى عن بعض المشايخ أنه حجّ ماشياً ؛ فقيل[٤] له فى ذلك ؛ فقال : العَبْدُ الآبِقُ[٥] لا يأتى إلى بيت مولاه راكبا ! لو قدرت أنْ أمشِىَ على رأسى ما مشيتُ على قَدَمَىّ .

قال القاضى[٦] : وجديرٌ لِمَوَاطن[٧] عُمِّرت بالوَحْىِ والتنزيل ، وتردَّدَ بهـا جبريلُ وميكائيل ، وعرجَت[٨] منها الملائـكة والرُّوحُ ، وضَجَّت عَرَصَاتها[٩] بالتقديس والتسبيح ، واشتملت تُرْبَتُهَا على جَسدِ سيِّدِ البَشَر ، وانتشر[١٠] عنها مِنْ دين الله وسنّةِ رسوله ما انتشر ، مدارسُ آيات[١١] ، ومساجدُ وصلواتٌ ،

(١) المراد برفع الحجاب فى الشعر : رفع ستائر أبواب الملوك والعظام . وهو هنا بمعنى انقضاء المسافة والقرب من المدينة . والقمر : الممدوح . وتقطع : تضمحل .

(٢) المطى : جمع مطية : ناقة تمتطى ، وتركب . ولاح : بدا وظهر . دونه : قريبا منه . فظهورهن على الرجال حرام : أى إذا أوصلتهم لمقاصدهم كانت لها حرمة تقتضى رعايتها وراحتها فلا يركبها بعد ذلك رجل ، ولا يوضع على ظهرها شىء ؛ بل تترك سارحة منعمة فى مرعاها .

(٣) خير من وطئ الثرى : النبي ؛ فهو خير الناس . والحرمة : الحق الذى يلزم احترامه . والذمام : مايلزم احترامه . أو جمع ذمة ؛ وهى العهد ؛ ومايجب الوفاء به . وفى الديوان : من وطئ الحصى .

(٤) قيل له فى ذلك : سئل عن سبب ذلك ؛ لم فعله ؟

(٥) الآبق : الفار من سيده .

(٦) هو المؤلف .

(٧) لمواطن : أماكن ومساكن ، يريد مكة والمدينة .

(٨) عرجت : صعدت .

(٩) العرصات : جمع عرصة ؛ وهى الأرض ، والساحة الواسعة من غير بناء . والمراد هنا : الأرض مطلقا وضجت عرصاتها : ارتفعت فيها الأصوات بتوحيد الله وذكره .

(١٠) وانتشر : شاع وتفرق ، واشتهر فى الأرض منتقلا .

(١١) مدارس آيات : محال يدرس فيها القرآن .

ومشاهِدُ الفضائلِ والخيرات(١) ، ومعاهدُ البراهين والمعجزات(٢) ، ومَناسِكُ الدِّين، ومشاعِرُ المسلمين(٣) ، ومواقفُ سيد المرسلين ، ومُتبَوَّأُ خاتم النبيين(٤) ، حيث انفجرت النبوّة ، وأين فاضَ عُبَابُها(٥) ؛ ومَوَاطن مَهْبِط الرســالة(٦) ؛ وأول أرضٍ مَسَّ جِلْدَ المصطفى تُرَابُها ـ أنْ تُعَظَّمَ عَرصاتُها ، وتُتَنَسَّم نفحاتُها(٧) ، وتُقَبَّل رُبوعها(٨) وجُدْرانها :

يا دارَ(٩) خَيْرِ المرسَلِين ومَنْ به هُدِىَ الأَنامُ وخُصَّ بالآياتِ(١٠)
عنــدى لأجلكَ لوْعَةٌ وصَبَابَةٌ وتشوقٌ مُتَوَقِّد الجَمَــــرَاتِ(١١)
وعَلَىَّ عَهْدٌ إنْ ملأْتُ مَحَاجِرى من تلكمُ الْجُدرانِ والعَرَصاتِ(١٢)

(١) المشاهد : جمع مشهد ؛ وهو محل يشهده الناس ويجتمعون فيه .

(٢) معاهد البراهين والمعجزات : أى عهد فيها ظهور معجزاته ، وبراهين نبوته الدالة على صدقه .

(٣) مناسك : جمع منسك ، وهو محل العبادة والنسك . ومشاعر : محال معالمهم التى يجب القيام بها من الواجبات وغيرها .

(٤) متبوأ : مسكنه ، ومحل إقامته .

(٥) العباب : الماء الكثير كالسيل ، والماء الكثير المتدفق الفائض .

(٦) مواطن مهبط الرسالة : محال نزول الوحى برسالته وأمره بتبليغ الخلق ما أرسل به إليهم . والمراد مكة .

(٧) تتنسم نفحاتها : المراد مافى النسيم من رائحتها الطيبة . وفى ا : وتتسم .

(٨) الربوع : جمع ربع ، وهو المنزل فى الربيع ، ويطلق على المنزل مطلقا ، وهو المراد هنا .

(٩) هذا من شعر المؤلف ـ كما فى نسيم الرياض (٣ـ٤٨٨) . وقال القارى (٢ـ١٠٢) : قال الحلبى : الذى ظهر لى أن هذا الشعر من قول المصنف .

(١٠) الأنام : الخلق . خص بالآيات : القرآن ، أو جميع المعجزات .

(١١) اللوعة : شدة الحب وحرقته . والصبابة : رقة الشوق .

(١٢) ملأت محاجرى : يريد عينى . والمحاجر : جمع محجر ، وهو جوانب العين . وماؤها : النظر والإبصار .

لاعَفِّرَنَّ مَصُــونَ شَيْبِي بينها مِنْ كَثرةِ التقبيلِ والرَّشَفَاتِ[1]
لولا العَوَادِي والأعَادِي زُرْتُها أبدا ولو سَحْباً عَلَى الوَجَناتِ[2]
لـكن سأهدِي من حَفيل تحيتي لِقَطِينِ تلك الدارِ والحجــراتِ[3]
أَزْكى من المِسْكِ المُفَتقِ نفحةً تَغْشَاهُ بالآصالِ والبُـكراتِ[4]
وتخصُّه بزواكيَ الصَّــلَواتِ ونَوَامِيَ التسليمِ والبركاتِ[5]

(١) أراد بشيبه : لحيته المبيضة . بينها : بين ترابها وأرضها . والرشفات : جمع رشفة ؛ وهى مص الريق ونحوه ، والمراد به التقبيل أيضا .

(٢) العوادى : جمع عادية ، وهى الأمور التى تمنع من زيارتها ، والموائق ، أو الظلمة . والأعادى : جمع عدو . الوجنات : جمع وجنة ؛ وهى أعلى الخد ، وهو ما ارتفع منه وغلظ. أى أسحب وجهى على الأرض بذلة وخضوع .

(٣) الإهداء : الإرسال . والحفيل : الـكثير النفيس يحتفل به . والقطين : المقيم . والحجرات : إشارة إلى حجراته التى كان بها زوجاته أمهات المؤمنين . أى إن منعت عن زيارتها ، والإقامة بها ، والتضمخ بترابها تبركا فإنى أهدى لمن سكن بها — يعنى النبي وأصحابه الذين دفنوا بها . . .

(٤) أزكى : أكثر طيبا ورائحة طيبة . المفتق : من فتق المسك والطيب إذا خلط بغيره مما يزيد طيبه . نفحة : رائحة . تغشاه : تعرض له . أو تغطيه . والآصال : جمـع أصيل : ماقرب من الغروب . والبـكرات : جمع بكرة ؛ وهى أول النهار ؛ وخصهما لطيب النسيم ولطافة الهواء فيهما . أو المراد بهما الدوام .

(٥) الزواكى : جمع زاكية ، وهى الزائدة ، وبمعناه النوامى . قال القارى (٢—١٠٣) : ولو رويت : بشرائف الصلوات ولطائف التسليم — لـكان ألطف .

الباب الرابع

فى حكم الصلاة عليه والتسليم وفَرْضِ ذلك وفضيلته

قال الله تعالى[١] : ﴿ إنّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّون على النبيّ يأَيُّها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليما ﴾ .

قال ابنُ عباس : معناه : إنّ اللهَ وملائكتَه يُبارِكون[٢] على النبيّ .

وقيل : إنّ اللهَ يَتَرَحَّمُ[٣] على النبيّ ، وملائكتَه يَدْعُون له .

قال المبرد : وأصل الصَّلَاة الترحُّم ، فهى مِنَ الله رحمةٌ ، ومن الملائكة رِقّةٌ واستدعاء للرحمة[٤] من الله .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٥٦

وارجع فى هذا الموضوع إلى: تفسير ابن كثير : ٦ – ٤٤٧ وما بعدها ؛ وسنن النسائى: ٣ – ٣٧ وما بعدها، وسنن الترمذى: ٢ – ٣٥٢ وما بعدها، ٥ – ٥١٧ ، وسنن ابن ماجه : ١ – ٢٩٢ والمشهد مثله ؛ الموطأ : ١ – ١٦٥ ؛ وصحيح البخارى : ٦ – ١٥١ ، ٨ – ٨٩ ؛ وصحيح مسلم ٢٨٨ ، ٣٠٥ ، ١٩٧٨ ؛ وسنن أبى داود : ١ – ٩٨ ، ٢ – ١٩١ ؛ وتفسير القرطبى : ١٤ – ٢٣٢ ؛ وأحكام القرآن : ٣ – ١٥٧ ؛ ومسند الطيالسى : ١ – ١٠٣

قال فى نسيم الرياض (٣ – ٤٩١) : وهذه الآية مدنية أخبر الله عباده فيها بشرف منزلته صلى الله عليه وسلم عنده ، وأن الله وملائكته يثنون عليه فى الملأ الأعلى ؛ ثم أمر أهل العالم السفلى بأن يفعلوا كفعلهم .

(٢) يباركون : أى يدعون له بزيادة بركة لائقة بمقامه وشرف قدره . وقال القارى (٢-١٠٣) : أى إن الله يبارك له فى أمره ؛ ويزيد فى قدره ، وتدعو الملائكة ربه أن يرفع ذكره ، ويظهر أمره .

وقال البخارى (٦ – ١٥١) : قال أبو العالية : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة ، الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون .

(٣) يترحم على النبى : يدعوله بالرحمة ، أو يبالغ فى إنزال الرحمة عليه ، فكأنه يطلب من نفسه الرأفة إليه .

(٤) رقة : شفقة عليه ومحبة . واستدعاء للرحمة : طلب لها ودعاء بها .

وقد ورد[١] فى الحديث : صِفَةُ صلاةِ الملائـكة على مَنْ جَلس ينتظرُ الصَّلاة : اللهم اغفِرْ له ، اللهم ارحَمْه ؛ فهذا دُعاء .

وقال[٢] أبو بكر القُشيرى : الصلاةُ مِنَ اللهِ تعالى لِمَنْ دونَ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم رحمةٌ ، وللنبيّ صلى اللهُ عليه وسلم تشريفٌ وزِيادةُ تـكرمة .

وقال أبو العالية: صلاةُ اللهِ ثناؤه عليه عند الملائـكة،وصلاةُ الملائـكةِ الدعاء .

قال القاضى[٣] أبو الفضل : وقد فرّق النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم فى حديث تعليم الصلاة بين لفظ الصلاة ولفظ البركة ؛ فدلّ أنهما [١٦٢] بمعنَيَيْن[٤] .

وأما التسليمُ الذى أمر اللهُ تعالى به عبادَه[٥] فقال القاضى أبو بكر بن بُكير : نزلت هذه الآيةُ على النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، فأمر اللهُ أصحابَه أنْ يسلِّموا عليه ؛ وكذلك مَنْ بَعْدَهم أُمِرُوا أنْ يسلِّمُوا على النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم عند حضورهم قَبْره ، وعند ذِكْرِه .

وفى معنى السلامِ عليه ثلاثة وجوه :

أحدها : السلامةُ لكَ ومَعك[٦] ، ويكون السلام[٧] مَصْدراً كاللَّذاذ واللَّذَاذة[٨] .

الثانى ـ أى السلامُ على حِفْظك ورِعايتك مُتَوَلّ له ، وكَفِيل به[٩] ، ويكون هنا السلامُ اسْمَ الله .

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة : وهو فى مسند أحمد : ١ ـ ١٤٤، وأحكام القرآن : ٣ـ١٥٧٠، وانظر هامش رقم ١ فى الصفحة السابقة .

(٢) فى ا : قال بكر . (٣) هو المؤلف . (٤) بمعنيين : أى متغايرين .

(٥) فى الآية المتقدمة : إن الله وملائـكته . . . . سورة الأحزاب ، آية ٥٦

(٦) ومعك : أى مصاحبة وملازمة لك .

(٧) فى ا : وتـكون السلامة . (٨) بمعنى التلذذ باللذة .

(٩) أى إكرامك وعنايته بك ومراقبتك . متول له : قائم به بحيث لايكل أمرك لغيره . كفيل به : متكفل ملتزم له .

الثالث - أنّ السلامَ بمعنى المُسالمة له والانقياد[١] ؛ كما قال[٢] : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شجَرَ بينهم، ثم لا يَجِدُوا في أنْفُسِهِمْ حَرَجاً مما قضيتَ ويُسلِّموا تَسْلِيماً[٣] ﴾ .

فصـــل

[حُـكْم الصلاة على النبي]

اعلَمْ أنَّ الصلاةَ على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فَرْضٌ على الجملة[٤] ، غير محدّد بوقتٍ؛ لأمْرِ اللهِ تعالى بالصَّلَاةِ عليه ، وحَمَلَ الأئمةُ والعلماء له على الوجوب ، وأجمعوا عليه[٥] .

وحكى أبو جعفر الطَّبَرى أنّ مَحْمَلَ[٦] الآية عِنده على النَّدْب ؛ وادَّعى فيه الإجماعَ ؛ ولعلّه[٧] فيما زادَ على مرّةٍ ؛ والواجبُ منه الذى يَسْقُطُ به الحرَجُ ومأْثَمُ ترك الفَرْضِ - مرةٌ ؛ كالشهادةِ له بالنبوّة[٨] ؛ وما عدَا ذلك فمندوبٌ مُرَغَّبٌ[٩] فيه، من سُنَنِ الإسلام وشِعَارِ أهله .

(١) المسالمة : التسليم وعدم المخالفة . (٢) سورة النساء ، آية ٦٥

(٣) يحكموك : يفوضون الحكم إليك . شجر بينهم : وقع من المنازعات . حرجا : ضيقا لعدم رضاهم . ويسلموا تسليما : يذعنوا وينقادوا لأمرك منشرحة صدورهم لقبوله .

(٤) على الجملة : إجمالا ، من غير تعيين زمان أو محل .

(٥) فى نسيم الرياض (٣ - ٤٩٤) : والآية السابقة تدل على ذلك عند الجمهور ؛ لأنه الأصل فى الأمر وحقيقته عند الأكثر . ويعضده الأحاديث . قال القرطبى (١٤ - ٢٣٣) : ولا خلاف فى أن الصلاة عليه فرض فى العمر مرة . وقال الزمخشرى (الكشاف : ٢-٢٢٠) فإن قلت : الصلاة على رسول الله واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة .

(٦) محمل الآية : المراد منها . (٧) ولعله : أى ما ادعاه من الندب .

(٨) أى فإنها واجبة فى العمر مرة ، كما تقدم ، وكما سيأتى من كلام القاضى نفسه .

(٩) مرغب فيه بكثرة ثوابه وفوائده .

قال القاضى أبو الحسَن بن القصّار : المشهورُ عن أصحابنا أنّ ذلك واجبٌ(١) فى الجملة على الإنسان ، وفَرْضٌ عليه أنْ يأتِيَ بها مرّةً من دَهْره مع القُدْرَةِ على ذلك.

وقال القاضى أبو بكر بن بُكير : افترض اللهُ على خَلْقه أنْ يُصَلُّوا على نبيِّه ويسلّموا تسليما ، ولم يجْعَلْ ذلكَ لوقتٍ معلوم ؛ فالواجبُ(٢) أنْ يُكثِرَ المرء منها ، ولا يَغفُل عنها .

قال القاضى أبو محمد بن نَصْر : الصلاةُ على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم واجبةٌ فى الجملة .

قال القاضى أبو عبد الله محمد بن سَعِيد : ذهب مالك وأصحابُه وغَيْرُهم من أهل العلم أنّ الصلاةَ على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فرضٌ بالجملة بِعَقْدِ(٣) الأيمان ، لاتتعيّن فى الصلاة(٤) ، وأن مَنْ صلَّى عليه مرةً واحدةً من عُمره سقط الفَرْضُ عنه .

وقال أصحابُ الشافعى : الفَرْضُ منها الذى أمَر اللهُ تعالى به(٥) ورسُوله صلى اللهُ عليه وسلّم هو فى الصلاة(٥) .

وقالوا : وأما فى غيرها فلا خلافَ أنها غَيْرُ واجِبة .

وأما فى الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر الطبرى والطّحاوى(٦) وغيرُهما إجماعَ

---

(١) واجب فى الجملة : فرض غير موقت بوقت معين .

(٢) قال القاضى : المراد به الوجوب الذى دون الفرض .

(٣) بعقد الأيمان ـ بفتح الهمزة : أى بتصميمها واعتقادها . أو بكسر الهمزة : أى هى أول مايفرض بعد الإيمان بالله ورسوله . وقال القارى (٢ ـ ١٠٦) : بعقد الإيمان ـ بكسر الهمزة : أى بقيد الإيمان المذكور فى القرآن ؛ فلا تجب على أهل الكفر والكفران .

(٤) لاتتعين فى الصلاة : يعنى أنها لاتجب فيها ، ولا أنها لاتصح إلا بها ، كما قال الشافعى.

(٥) أى فى الآية المذكورة قبل . فى الصلاة : عقب التشهد .

(٦) أبو جعفر الطبرى من أكابر الشافعية . والطحاوى ـ محمد بن أحمد بن سلام ، من أكابر الحنفية .

جميع المتقدِّمين والمتأخِّرين من علماء الأُمة على أنّ الصلاةَ على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فى التشهُّد غيرُ وَاجِبةٍ .

وشذَّ الشافعىُّ فى ذلك ؛ فقال : مَنْ لم يُصَلِّ على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم من بعد التشهُّد الأخير[(١)] وقَبْلَ السلام فصَلَاتُه فاسدةٌ ، وإنْ صلّى عليه قَبْلَ ذلك لم تجزِه[(٢)] ؛ ولا سلَفَ له[(٣)] فى هذا القول ولا سنّةَ يَتّبِعها[(٤)] .

وقد بالغ فى إنكارِ هذه المسألةِ عليه لمخالفته فيها مَنْ تقدَّمَه ـ جماعةٌ ، وشنَّعوا عليه[(٥)] الخلافَ فيها ، منهم [١٦٣] الطّبرى ، والقُشَيْرى ، وغيرُ واحدٍ .

وقال أبو بكر بن المنذر : يستحبُّ ألّا يصلِّيَ أحدٌ صلاةً إلّا صلّى فيها على رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلّم ؛ فإنْ تركَ ذلكَ فصلاتُه مُجزِئة[(٦)] فى مَذْهب مالك ، وأهل المدينة ، وسفيان الثورى ، وأهلِ الكوفة من أصحاب الرّأى وغيرهم . وهو قولُ جُمَلِ أهْلِ[(٧)] العلم .

وحُكى عن مالك وسُفيان أنها فى التشهُّد الأخير مستحبّةٌ ، وأنّ تارِكَها فى التشهُّد مُسِىءٌ[(٨)] .

---

(١) فى ا : التشهد الآخر .

(٢) لم تجزه : أى صلاته ، أى لم تصح ، ولم يسقط عنه الفرض ، فيجب عليه إعادة الصلاة .

(٣) ولا سلف له فى هذا القول : أى لم يقل به أحد من السلف .

(٤) ولا سنة يتبعها : أى لم يثبت فى الأحاديث النبوية ما يكون دليلا على ماقاله الشافعى .

(٥) شنعوا : قبحوا وطعنوا ؛ أى عدوا ما قاله أمرا قبيحا ، وقولا مبتدعا منه .

(٦) مجزئة : كافية له .

(٧) جمل أهل العلم : أكثرهم وجمهورهم .

(٨) مسىء : غير محسن لارتكابه أمرا مكروها . وقال القارى (٢ ـ ١٠٨) : مسىء : أى ملام بترك السنة .

وشذ الشافعى فأوجب على تاركها[1] فى الصلاة الإعادة ؛ وأوجب إسحاق[2] الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان .

وحكى أبو محمد بن أبى زيد ، عن محمد بن المواز ـ أن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فريضة[3] .

قال أبو محمد : يريد ليست من فرائض الصلاة[4] ؛ وقاله محمد[5] بن عبد الحكم وغيره .

وحكى ابن القصار وعبد الوهاب ـ أن محمد بن المواز يراها فريضة فى الصلاة كقول الشافعى .

[وحكى أبو يعلى العبدى المالكى عن المذهب[6] فيها ثلاثة أقوال فى الصلاة][7] :

الوجوب ، والسنة ؛ والندب[8] .

---

(١) على تاركها عمدا أو سهوا .

(٢) هو إسحاق بن إبرهيم بن راهويه المروزى عالم خراسان ، روى عنه الجماعة ، خلا ابن ماجه ، توفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

(٣) أى فى مذهب المالكية ؛ وهذا يحتمل أن يريد مرة ، أو كلما ذكر ، أو فى تشهد الصلاة .

(٤) بل إنها فرض فى الجملة كما تقدم .

(٥) هو الفقيه المصرى صاحب الشافعى ، مات سنة ٢٦٨ هـ .

(٦) المذهب : مذهب مالك .

(٧) مابين القوسين ليس فى ا ، وأمامه فى ب : المعلم عليه ليس من الرواية .

(٨) الوجوب كما قال الشافعى وأشياعه . والسنة ، أى المؤكدة ، كما قال أبو حنيفة وأتباعه . والندب كما ذهب إليه مالك وبعضهم ؛ ولا فرق ـ عند أكثر الشافعية بين السنة والندب ، وأما عند غيرهم فتتغايرهما بأن السنة : ماواظب عليه صلى الله عليه وسلم . والندب : مالم يواظب عليه ، وبه قال بعض الشافعية (شرح القارى : ٢ ـ ١٠٩)

وقد خالف الخطّابىّ من أصحاب الشافعىّ وغيره ـ الشافعىّ فى هذه المسألة ؛ قال الخطابى : وليسَتْ بواجبةٍ فى الصلاة ؛ وهو قَوْلُ جماعةِ الفقهاء إلّا الشافعى ؛ ولا أعلمُ له فيها قدوةً .

والدليلُ على أنها ليست من فروضِ الصلاةِ عمَلُ السَّلَفِ الصالح قَبْل الشافعىّ ، وإجماعُهم عليه[1] .

وقد شنّع الناسُ عليه[2] فى هذه المسألة جدًّا .

وهذا تَشَهُّدُ ابْنِ مسعود الذى اختاره الشافعىُّ ، وهو الذى علّمه[3] له النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ليس فيه الصلاةُ على النبىّ صلّى الله عليه وسلم ؛ وكذلك كلُّ مَنْ رَوَى التشهُّدَ عن النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ، كأبى هُريرة ، وابن عباس ، وجابر وابن عُمر ، وأبى سَعِيد الخُدْرى ، وأبى موسى الأَشْعرى ، وعبدِ الله بن الزُّبيرِ ـ لم يذكروا فيه[4] صلاةً على النبى صلى الله عليه وسلّم .

وقد قال ابن عبَّاس ، وجابر[5] : كان النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورةَ من القرآن .

ونحوه عن أبى سعيد .

---

(١) وإجماعهم عليه : أى على أن ترك الصلاة عليه غير مفسد للصلاة .

(٢) عليه : على الشافعى . (٣) علمه : أى التشهد .

(٤) فى شرح القارى (٢ ـ ١١٠) : وفيه بحث لا يخفى ؛ إذ كل واحد منهما فرض على حدة ، ولا يلزم من ذكر أحدهما ذكر الآخر ، لاسيما وقد اختلف مقام التعليم ، مع أنه يمكن تأخير وجوب الصلاة بعد تقديم فرض التشهد .

(٥) رواية ابن عباس فى مسلم : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ؛ ورواية جابر رواها الحاكم ، وابن ماجه : ٢٩٢ والنسائى : ١ ـ ١٩٣

وقال ابنُ عُمر[١] : كان أبو بكر يُعَلِّمُنا التشهُّد على المِنْبَر كما يُعلّمون الصبيانَ في الكُتّاب[٢] .

وعلّمه[٣] أيضا على المِنبر عُمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عنه .

وفي الحديث[٤] : لا صلاةَ لِمَنْ لم يُصَلِّ عليَّ .

قال ابن القصّار : معناه : كاملةً ؛ أو لِمَنْ لمْ يُصَلِّ عليَّ مرّةً في عُمْره .

وضعّف أهلُ الحديثِ كلُّهم روايةَ هذا الحديث .

وفي حديث أبي جعفر ، عن ابن مسعود ، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم : مَنْ صلّى صلاةً لم يُصَلِّ فيها عليَّ وعلى أهلِ بَيْتِي لم تُقْبَلْ منه .

قال الدارقُطْني : الصوابُ أنه من قَوْلِ أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين : لو صليت صلاةً لم أُصَلِّ فيها على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ولا عَلَى أهلِ بيته لرأيتُ أنها لاتتم[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه .

(٢) الكتاب : موضع تعليم الكتاب . (٣) وعلمه : أي التشهد .

(٤) رواه ابن ماجه ، والحاكم في مستدركه ، والطبراني ، والدارقطني ، والبيهقي : سنن ابن ماجه : ١ — ١٤٠

قال في نسيم الرياض (٣ — ٥٠٠) : وهذا الحديث يظاهر دليلا للشافعي على أن الصلاة لاتصح بدونها .

(٥) في نسيم الرياض (٣ — ٥٠١) : واعلم أن الإمام الخيضري صنف في هذه المسألة كتابا سماه زهر الرياض في رد ما شنعه القاضي عياض ؛ طالعته بتمامه وقد قال فيه : ما قصدت به تنقيص مقداره ، فإنه طراز هذه العصابة . . . ثم ذكر ما قاله المصنف رحمه الله ، وقال : هذا قول لا ينبغي الاعتماد عليه ، ولا الاستناد إليه ، وقد لخص هذه المسألة في الصفحات من : ٥٠١ — ٥٠٥

فصـــل

في المواطِن التي يستحبُّ فيها الصلاةُ والسلامُ
على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ويُرْغب

من ذلك في تشهُّد الصَّلاةِ كما قدَّمناه ؛ وذلك بعد التشهُّد وقبل الدعاء :

[١٦٤] حدثنا القاضي أبو علي بقراءتي عليه ؛ قال : حدثنا الإمام أبو القاسم البَلْخي ؛ قال : حدثنا الفارسيُّ ، عن أبي القاسم الُخزَاعي ،عن الهَيْثم[١] بن كُليب، عن أبي عيسى[٢] الحافظ ، قال : حدثنا محمود بن غَيْلان ، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا حَيْوَةُ بن شُريح ، حدثني أبو هانئ الخَوْلاني ـ أنَّ عَمْرو بن مالك الجَنْبِيّ ، أخبره أنه سمع فَضَالَة بن عُبَيد يقول : سمع النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم رجلا يَدْعُو في صلاته[٣] ، فلم يُصَلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : عَجِلَ[٤] هذا ؛ ثم دعاه فقال له ولغيره : إذا صَلَّى أَحَدُكم فليَبْدَأْ بتحميد اللهِ والثناء عليه[٥] ، ثم ليُصَلِّ على النبيّ ؛ ثم لِيَدْعُ بَعْدُ بما شاء[٦] .

ويُروى من غَيْر هذا السنَد بتمجيد اللهِ ، وهو أَصَحُّ[٧] .

(١) في ب : عن أبي الهيثم . وقال القاري (٢ ـ ١١١) : وفي نسخة صحيحة : عن أبي سعيد الهيثم بن كليب .
وفي شرح القاري (٢ ـ ١١١) : وراوى هذا الحديث : جابر الجعفي ، وهو ضعيف .

(٢) هو الترمذي صاحب الشمائل والسنن . (٣) يدعو في صلاته بعد التشهد .

(٤) عجل هذا: أسرع بدعائه، وأتى به في غير محله قبل أن يصلى عليه صلى الله عليه وسلم؛ لأن الدعاء معلق حتى يصلى عليه . وفي ب: عجّل ـ بتشديد الجيم . والمثبت في سنن الترمذي .

(٥) المراد قوله : التحيات . . .

(٦) الحديث في سنن الترمذي : ٥ ـ ٥١٧ ، وسنن أبي داود : ١ ـ ١٤٨

(٧) التمجيد : التعظيم وهو أصح لقوة سنده ، لامن حيث المعنى ؛ فقد ذكر الخفاجي أنه رواه ابن ماجه .

وعن عُمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عنه، قال: الدُّعاء والصلاةُ معلقٌ[١] بين السماء والأرض؛ فلا يصعدُ إلى اللهِ منه شيء حتى يُصَلَّى على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم.

وعن[٢] عليّ، عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم بمعناه؛ وقال: وعلى آل محمَّد.

ورُوِيَ[٣] أنَّ الدُّعاء محجوبٌ[٤] حتى يُصَلِّي الداعِي على النبيّ صلَّى الله عليه وسلم.

وعن ابن مسعود[٥]: إذا أراد أحدُكم أن يسأل اللهَ شيئا فليبدأ بمَدْحِه والثناء عليه بما هو أهلُه[٦]؛ ثم يصلِّي على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم؛ ثم ليسْأَلْ؛ فإنه أجدرُ أن يُنْجِح[٧].

وعن[٨] جابر رضِيَ اللهُ عنه؛ قال: قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: لاتجعلوني كقَدَح[٩] الرَّاكب؛ فإنَّ الراكب يملأُ قَدَحَهُ ثم يضَعُهُ، ويرفع مَتَاعَه[١٠]؛ فإن احتاج إلى شراب شربه[١١] أو الوضوء توَضَّأ، وإلاّ هَرَاقه[١٢]؛ ولكن

(١) معلق: موقوف قبوله؛ أي كل واحد منهما معلق. والحديث فى سنن الترمذى: ٢-٣٥٦

(٢) رواه البيهقى، وابن عساكر، وغيره.

(٣) رواه عبد الرزاق، والطبرانى، بسند صحيح.

(٤) محجوب: أى عن السماء فلا تفتح له، ويلزم أنه لايقبل.

(٥) فى حديث رواه عبد الرزاق، والطبرانى، وابن أبى الدنيا بسند صحيح.

(٦) بما هو أهله: بما يستحقه ويليق به.

(٧) ينجح: من أنجح، إذا فاز وبلغ مقصوده ومطلوبه.

(٨) رواه البزار، وأبو يعلى، والبيهقى فى شعب الإيمان.

(٩) القدح: إناء صغير من خشب يشرب به، ونحوه؛ أى حيث يعلقه من ورائه، ويلتفت إليه عند حاجته. قال الهروى: معناه لاتؤخرونى فى الذكر كتأخير الراكب لعليق قدحه فى آخرة رحله بعد فراغه من التعبية ويجعله خلفه.

(١٠) يرفع متاعه الذى يريد حمله على راحلته.

(١١) شربه: شرب ماء قدحه الذى وضعه فيه.

(١٢) هراقه: صبه على الأرض لاستغنائه عنه. وفى ا: أهراقه.

اجعلونى فى أول الدعاء وأوْسطه وآخِره[١] .

وقال ابن عطاء : للدعاء أركان وأجنحةٌ وأسبابٌ وأوقاتٌ[٢] ؛ فإن وافق أركانَه قَوِى ، وإن وافَق أجنحتَه طار فى السماء ، وإنْ وافَق مواقيتَه[٣] فاز ، وإن وافق أسبابَه أنجح[٤] ؛ فأركانُه حضورُ القَلْب ، والرقّةُ ، والاستكانةُ والخشوعُ ، وتعلُّق القَلْب بالله ، وقطعهُ الأسباب[٥] .

وأجنحتُه الصِّدقُ ، ومواقيتُه الأسحار[٦] ؛ وأسبابُه[٧] الصـلاةُ على محمد صلَّى اللهُ عليه وسلم .

وفى الحديث : « الدعاء بين الصلاتين علىّ لا يُرَدُّ » .

وفى حديث آخر : « كلُّ دُعَاء محجوبٌ دونَ السماء ؛ فإذا جاءت[٨] الصلاةُ علىّ صعِدَ الدّعاء » .

وفى دُعاء ابْنِ عباس الذى روَاه عنه حَنَش[٩] ؛ فقال فى آخره : واستجِبْ دُعَائى ، ثم تبدأ بالصَّلاَة على النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم فتقول : اللهم إنى أسألكَ أن

(١) قال ابن الأثير : معناه لاتؤخرونى إذا صليتم علىّ فى الذكر وتجعلوا ذكرى تبعا لغيره؛ بل اعتنوا به فقدموه واذكروه فى وسطه واختموا به .

(٢) أركان : أى أمور مهمة لابد منها . وأجنحة : جناح الطير كاليد للإنسان يحصل بها ما يريد . شبه ما هو مقدمة لقبوله ورفعه إلى السماء بالأجنحة للطائر . وأسباب : وسائل الوصول إلى المطلب والفوز به . وأوقات مخصوصة يكون فيها أسرع إجابة كأوقات الصلاة .

(٣) أى وقع فى أوقاته .

(٤) أنجح : تم وكمل نجاحه وسعادته ، وظفر بطلبته .

(٥) حضور القلب : توجهه توجها تاما بجميع فكره وحواسه . والرقة : رقة القلب . والاستكانة : الخضوع والانقياد . وقطعه الأسباب : بألا يرجو غيره .

(٦) الأسحار : أواخر الليل .

(٧) وأسبابه : أسباب إجابته .

(٨) فإذا جاءت الصلاة علىّ : أى ذكرت معه .

(٩) هو حنش بن عبد الله ، وثقه أبو زرعة وغيره ، توفى سنة مائة .

تُصَلِّي على محمدٍ عَبْدِكَ ونَبِيِّك ورَسُولك أفضَلَ ما صلَّيْتَ على أحدٍ مِنْ خَلْقِكَ أجمعين آمين .

ومِنْ مواطنِ الصلاة عليه عند ذِكْرِهِ وسَمَاعِ اسْمِه ، أو كتابتِه[(١)] ، أو عند الأَذَان[(٢)] .

وقد قال صلّى اللهُ عليه وسلم[(٣)] : « رَغِمَ أَنْفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يصَلِّ عَلَيّ » .

وكَرِهَ ابْنُ حبيب ذِكْرَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلمَ عند الذَّبْح[(٤)] .

وكَرِهَ سُحْنُون الصلاةَ عليه عند التعجّب[(٥)] ؛ وقال : لا يصلَّى عليه [١٦٥] إلا على طريق الاحتساب[(٦)] وطَلَب الثواب .

قال أَصْبَغ ، عن ابن القاسم : مَوْطِنان لا يُذْكَر فيهما إلا الله : الذبيحةُ ، والعُطَاس ؛ فلا تقُلْ فيهما بعد ذِكْرِ اللهِ : محمدٌ رسولُ اللهِ . ولو قال بعد ذِكْرِ اللهِ: صلّى اللهُ على محمد لم يكن تسميةً[(٧)] له مع اللهِ .

---

(١) عند كتابة اسمه . وفى ا : أو كتابه .

(٢) عند الأذان : أى بعده . وهو مستحب للمؤذن وسامعه ؛ لما رواه مسلم أنه عليه السلام قال: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول، ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا . . .

(٣) فى حديث رواه مسلم ، والترمذى : ٥ ـ ٥٥٠ عن أبى هريرة . ورغم أنفه : ذل .

(٤) وهو مذهب مالك ؛ وإنما كرهه لئلا يكون مما أهل به لغير الله ، وإلى هذا ذهب الحنفية .

وخالفهم الشافعى ، فقال فى الأم : وتسن التسمية على الذبيحة عند الذبح باسم الله ، ولا أكره أن يقول : وصلى الله على رسول الله ؛ بل أحبه .

(٥) عند التعجب : لرؤية أمر عجيب . وهو مذهب مالك ؛ وإليه ذهب الشافعية .

(٦) على طريق الاحتساب : من غير سبب ، خالصا لوجه الله .

(٧) فى ا : تسميته .

وقاله أَشْهَبُ[١] ؛ قال : ولا ينبغى أَنْ تجعلَ الصلاةُ على النبى صلى الله عليه وسلم فيه استِنَانًا[٢] .

ورَوَى النَّسائى[٣] ، عن أوس بن أوس ، عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : الأَمْرَ بالإِكْثَارِ مِنَ الصلاةِ عليه يوم الجمعة[٤] .

ومن مَوَاطن الصلاةِ والسلام دخولُ المسجد :

قال أبو إسحاق بن شعبان : وينبغى لِمَنْ دخل المسجدَ أَنْ يُصَلِّيَ على النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وعلى آلهِ ، ويترحَّم عليه ، وعلى آله ، ويبارِكَ عليه وعلى آله ، ويسلِّمَ تسليما ؛ ويقول : اللهمَّ اغفِرْ لى ذُنُوبى ، وافتحْ لى أَبوابَ رَحْمَتك .

وإذا خرج فَعَل مِثْلَ ذلك ، وجعلَ موضعَ « رحمتك » ـ فَضْلك[٥] .

وقال عَمْرو بن دينار ـ فى قوله تعالى[٦] : ﴿ فإذا دَخَلْتُم بُيوتاً فسلِّموا عَلَى أنفُسكم ﴾ ـ قال : إنْ لم يكُنْ فى البيت أحدٌ فقل : السلامُ على النبيِّ ورحمةُ اللهِ وبركاته ، السلامُ علينا وعلى عِبَاد اللهِ الصالحين . السلام على أهل البيتِ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه .

---

(١) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود ، أبو عمر القيسى المصرى ، وهو أحد فقهاء مصر المالكية ، توفى بعد الشافعى بثمانية عشر يوما ، وله أربع وستون سنة (توفى سنة ثلاث أو أربع ومائتين) .

(٢) فيه : فيما ذكر من الذبيحة والعطاس . استنانا : سنة واستحسانا وطريقة ؛ لأنه تشريع فيما لم ينقل . وذلك خلافا للشافعى حيث قال : لا أكره مع التسمية على الذبيحة أن يقول : صلى الله تعالى عليه وسلم على محمد ، بل أحب ذلك .

(٣) وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وصححه .

(٤) لأنه أفضل الأوقات . وحديث إكثار الصلاة على النبي يوم الجمعة فى سنن النسائى ٣ــ٧٥

(٥) فى حديث رواه الترمذى وحسنه ، عن فاطمة رضى الله عنها ؛ وهو أيضا فى صحيح مسلم : ٤٩٤

(٦) سورة النور ، آية ٦١

قال ابن عباس : المرادُ بالبيوتِ هنا المساجد[١] .

وقال النَّخَعى : إذا لم يَكُن فى المسجد أحدٌ فقل : السلامُ عَلَى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم ؛ وإذا لم يكن فى البيتِ أحدٌ فقل : السلامُ علينا وعَلَى عبادِ اللهِ الصالحين.

وعن عَلْقمة : إذا دخلتُ المَسجدَ أقول : السلامُ عليك أيُّها النبىُّ ورحمةُ الله وبركاته ، صلّى اللهُ وملائكتُه على محمد[٢] .

ونَحْوُه عن كَعْب : إذا دخلَ ، وإذا خرج ، ولم يذكر الصلاة[٣] .

واحتجَّ ابنُ شَعْبان لما ذَكَرَه[٤] بحديث فاطمةَ بنتِ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ـ أنَّ النبىَّ صلّى اللهُ عليه وسلم كان يفعَلُه إذا دخل المسجدَ .

ومِثْلُه عن أبى بكر بن عَمْرِو بن حَزْم . وذَكَرَ السلامَ والرحمةَ .

وقد ذكرنا هذا الحديثَ[٥] آخِر القسم ، والاختلافَ فى ألفاظه .

ومنْ مواطن الصلاةِ عليه أيضا الصلاةُ عَلَى الجنائز[٦] .

وذكر عن أبى أُمامة أنها من السنّة .

---

(١) فى تفسير القرطبى (١٢ ـ ٣١٨) : بعد أن ذكر هذا الخبر كله عن عمرو بن دينار قال: إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقيل المراد بالبيوت: البيوت المسكونة ؛ أى فسلموا على أنفسكم ؛ ويسلم المرء على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن العربى : القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح ، ولا دليل على التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه . وارجع فى ذلك أيضا إلى أحكام القرآن : ٣ ـ ١٣٩٦ ، ١٣٩٧

(٢) أى أجمع بين الصلاة والسلام عليه .

(٣) ولم يذكر الصلاة على النبى .

(٤) ذكره فيما سبق صفحة ٦٣٧ من أنه ينبغى لمن دخل المسجد أن يصلى على النبى . . .

(٥) أى حديث فاطمة الزهراء .

(٦) وهى عند الشافعى من أركانها بعد التكبيرة الثانية .

ومن مَوَاطن الصلاةِ التى مضى عليها عملُ الأمة ، ولم تُنْكرها : الصلاةُ عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم وآله فى الرسائل ، وما يُكتب بَعْدَ البَسْمَلة ؛ ولم يكن هذا فى الصَّدْرِ الأوّل ؛ وأُحْدِثَ عند ولاية بنى هاشم ؛ فمضَى به عَمَلُ الناسِ فى أقطارِ الأرض .

ومنهم مَنْ يختِمُ به أيضا الكُتب .

وقال صلّى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ صلّى عَلَيَّ فى كِتَابٍ لم تزَل الملائكةُ تستغفِرُ له ما دامَ اسْمِى فى ذلكَ الكتاب(١) » .

ومِنْ مواطِن السلام عَلَى النبى صلى اللهُ عليه وسلم تشهُّدُ الصلاة :

حدثنا(٢) أبو القاسم خلف بن إبراهيم المقرئ الخطيب رَحمه الله ، وغيره قال : حدثتنى كريمة بنت محمد(٣) ؛ قالت : حدثنا أبو الهَيْثَم ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا أبو نُعيم ، حدثنا الأعمش ، عن شَقِيق بن سلَمة ، عن عَبْد الله بن مَسعود ، عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ قال : إذا صلَّى أحدُكم فليقل : التحياتُ للهِ والصلاةُ [١٦٦] والطيباتُ(٤) ، السلامُ عليكَ أيّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه . السلامُ علينا(٥) وعَلَى عِبادِ اللهِ الصالحين ؛ فإنكم إذا قلتموها أصابَتْ(٦) كلَّ عَبْدٍ صالح فى السماء والأرضِ .

---

(١) هذا الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، والخطيب فى شرف أصحاب الحديث ، والمستغفرى ، وصاحب الترغيب بسند ضعيف ، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات ، وقال ابن كثير : إنه لم يصح .

(٢) رواه البخارى : صحيح البخارى : ٦-٣٠١

(٣) هذا فى ب . وفى هامشه : أحمد . وفى ا : كريمة بنت أحمد ،وعليها علامة الصحة. وفى هامشه : بنت محمد .

(٤) التحيات : الإحياء والإبقاء والملك والبقاء ؛ أى كل تحية يحيي بها الملوك والعظماء ثابتة لله لا تليق بغيره . والطيبات : جميع كلمات الثناء الطيب لله لا لغيره .

(٥) السلام علينا ــ معاشر الأمة .

(٦) أصابت : أى نالت رحمتها وبركتها .

هذا أحَدُ مواطنِ التسليم عليه ؛ وسنَّتُهُ أول[١] التشهّد .

وقد رَوَى مالكٌ[٢] عن ابن عُمر أنه كان يقولُ ذلك إذا فرَغَ مِنْ تَشَهُّدِه وأراد أن يُسلِّمَ .

واستحبّ مالكٌ فى « المبسوط » أنْ يسلِّمَ بمثْلِ ذلك قبل السلام .

قال محمد بن مَسْلَمة : أراد ما جاء عن عائشة وابنِ عُمرَ أنهما كانا يقُولَانِ عند سَلَامهما[٣] : السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه . السلامُ علينا وعَلَى عبادِ اللهِ الصالحين . السلامُ عليكم .

واستحبّ أهلُ العِلمِ أنْ ينْوِى الإنسانُ حين سلامِه كلَّ عبدٍ صالح فى السماء والأرضِ من الملائكة وبنى آدم والجنّ .

قال مالكٌ فى « المجموعة » : وأُحِبُّ للمأموم إذا سلَّم إمامُه أن يقول : السلام عَلَى النبيِّ ورحمةُ اللهِ وبركَاته ، السلامُ علينا وعَلَى عبادِ الله الصالحين . السلام عليكم .

فصل

فى كيفية الصلاةِ عليه والتسليم

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جَعْفَر الفقيه بقراءتى عليه ، حدثنا القاضى أبو الأَصْبَغ ، حدثنا أبو عبد الله بن عَتّاب ، حدثنا أبو بكر بن واقد وغيره ، قالوا : حدثنا أبو عيسى ، حدثنا عُبَيْد اللهِ ، حدثنا يحيى ، حدثنا مالك ، عن عَبْد الله بن أبى بكر بن حَزْم ، عن أبيهِ ، عن عَمْرو بن سُلَيم الزُّرَقى ـ أنه قال : أخبرنى أبو حُمَيد الساعدىُّ ـ أنهم[٤] قالوا : يارسولَ اللهِ ، كيفَ نُصَلِّى عليكَ ؟ فقال :

---

(١) أول التشهد : أى قبل أن يقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وبعد التحيات لله .

(٢) الموطأ : ١ ـ ٩٠

(٣) عند سلامها : أى قبل سلام الخروج من الصلاة .

(٤) أنهم : أى الصحابة ، أو بعضهم .

قولوا : اللهمّ صَلِّ عَلَى محمدٍ وأزواجِه وذرِّيته ، كما صَلَّيْتَ عَلَى آل إبراهيم ، وبارِكْ عَلَى محمد وأزواجه وذُريّته كما باركْتَ عَلَى آل إبراهيم إنّك حَمِيد مَجِيد[1] .

وفى رواية مالك[2] ، عن أبى مسعود الأنصارى ؛ قال : قولوا : اللهمّ صَلِّ عَلَى محمد وعَلَى آلهِ كما صلّيتَ عَلَى آلِ إبراهيم ، وبارِكْ عَلَى محمد كما باركْتَ عَلَى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حَمِيدٌ مجيد . والسلام – كما قد عَلِمْتُم[3] .

وفى رواية كعب[4] بن عُجْرَةَ : اللهم صَلِّ عَلَى مُحمدٍ وآلِ محمد كما صليتَ عَلَى إبراهيم ، وبارِكْ عَلَى مُحمّدٍ وآلِ محمد كما باركْتَ عَلَى إبراهيم ، إنك حَمِيد مجيد .

وعن عقبةَ بن عَمْرٍو فى حديثه : اللهمّ صَلِّ عَلَى محمد النبىّ الأُمّىّ ، وعَلَى آل محمد .

وفى رواية أبى سَعِيد الخُدْرِى[5] : اللهمّ صلِّ عَلَى محمدٍ عَبْدِك ورسولِك . . . وذكر[6] معناه .

وحدثنا القاضى أبو عبد الله التميمى سماعاً عليه ، وأبو علىّ الحَسَنَ بن طَرِيف النحْوِى بقراءتى عليه ؛ قالا : حدثنا أبو عبد الله بن سَعْدُون الفقيهُ ، حدثنا أبو بكر المُطَوِّعى ، [حدثنا أبو عبد الله الحاكم ، عن أبى بكر بن أبى دارِم الحافظ ، عن علىّ ابن أحمد العِجْلى][7] ، عن حَرْب بن الحَسَن[8] ، عن يحيى بن المُساوِر ، عن عَمْرو

(١) صحيح مسلم : ٣٠٦

(٢) فى صحيح مسلم : ٣٠٥ ، وموطأ مالك : ١٦٥ ، وتفسير القرطبي : ١٤ – ٢٣٣

(٣) ضبطت اللام فى كلة « علمتم » بالكسرة وبالشدة المكسورة فى ا .

(٤) فى الترمذى : سنن الترمذى ٢ – ٣٥٢ ، وتفسير القرطبي : ١٤ – ٢٣٣ ، وتفسير ابن كثير : ٦ – ٤٤٩ ، وسنن النسائى : ٣ – ٣٩

(٥) أخرجها الحاكم فى المستدرك .

(٦) وذكر معناه : أى معنى الحديث السابق من قوله : كما صليت. . . إلى آخره ، ورواه البخارى أيضا : صحيح البخارى : ٦ – ١٥١

(٧) ما بين القوسين ساقط فى ب .

(٨) فى ميزان الاعتدال (١ – ٤٦٩) : ليس حديثه بذاك .

ابن خالد ، عن زَيْد بن علىّ بن الُحسين ، عن أبيه على ، عن أبيه الحسين ، عن أبيه علىّ بن أبى طالب ؛ قال : عَدَّهنّ[١] فى يَدِى رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وقال : عَدَّهُنّ فى يدى جبريلُ ، وقال : هكذا[٢] نزلَتْ من عند ربِّ العزّة ؛ اللهمّ صَلِّ [١٦٧] عَلَى محمد وعَلَى آلِ محمد كما صليتَ على إبراهيم وعَلَى آلِ إبراهيم ، إنكَ حَميدٌ مجيد[٣] ، اللهمّ وترحَّم عَلَى محمد وعَلَى آلِ محمدٍ كما ترحَّمتَ على إبراهيم إنكَ حَميد مجيد .

اللهمّ وتحنَّنْ عَلَى محمدٍ وعَلَى آل محمدٍ كما تحنَّنْتَ عَلَى إبراهيم وعَلَى آل إبراهيم إنك حَميد مَجِيد[٤] .

اللهمّ وسلِّم عَلَى محمّدٍ وعَلَى آلِ محمد كما سلّمتَ عَلَى إبراهيم وعَلَى آلِ إبراهيم ، إنك حميد مَجِيد .

وعن أبى هريرة[٥] ، عن النبى صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ سَرَّه أَنْ يَكْتَالَ بالمِكْيَال الأَوْفَى إذا صلَّى علينا أهلَ البيتِ فليقُلْ : اللهم صَلِّ على محمد النبىِّ ، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين ، وذرِّيَّتِه وأهلِ بيته ، كما صليتَ على إبراهيم[٦] ، إنك حَميد مَجيد[٧] .

---

(١) عدهن : أى عد كلمات تذكر فى التشهد أو صلوات ذكرها النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان فى حال ذكرها يعدها فى يدى .
(٢) هكذا : أى بهذا المدد .

(٣) قال القارى (٢ ـ ١٢٣) : وهذا المقدار تقدم أنه صحيح رواه أصحاب الكتب الستة عنه صلى الله عليه وسلم .

(٤) فى نسيم الرياض (٣ ـ ٥٢١) : قال السيوطى فى الجامع الكبير : قال الحاكم : بلغنا هذا الحديث وإسناده ضعيف . وأخرجه الديلمى ، وابن منده ، والترمذى ، وقال العراقى : ضعيف جدا . وعمرو بن خالد كذاب وضاع ، وكذا ابن مساور . وحرب بن الحسن أورده الأزدى فى الضعفاء . وقال : حديثه ليس بذاك . وقال ابن حجر فى أماليه : اعتقادى أنه موضوع .
(٥) فى حديث رواه أبوداود ، والطبرانى ، وغيرهما : سنن أبى داود : ١ ـ ٩٨

(٦) فى سنن أبى داود : على آل إبراهيم .

(٧) المكيال : آلة الكيل . والأوفى : الوافى التام ؛ أى من أحب أن يأتى بأحسن صلاة وأعظمها . أو من أراد أن ينال أجرا لا يساويه فيه غيره .

وفى رواية زَيْد(١) بن خارجة الأنصارى : سألتُ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم : كيف نُصَلِّى عليك ؟

فقال : صلُّوا واجتهدُوا فى الدعاء ، ثم قولوا : اللهمَّ بارِكْ على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم إنك حَميد مجيد .

وعن سلامة الكِنْدى(٢) : كان علىٌّ يعلِّمُنَا الصلاةَ على النبىّ صلى الله عليه وسلم: اللهم داحِىَ المَدْحُوَّات(٣)، وبارىءُ المسموكاتِ(٤) ، اجْعَلِ شرائفَ(٥) صَلَوَاتك ، ونَوَامِىَ(٦) بركاتك، ورَأْفَةَ تَحَنُّنِك(٧) على محمد عَبْدِك ورسولِك، الفاتِح لما أُغْلِق(٨)، والخاتِمِ لِمَا سبقَ(٩)، والمُعْلِن الحقَّ بالحقِّ(١٠)، والدامِغِ لجَيْشاتِ الأباطِيل(١١)،

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس ، وأبو نعيم ، والنسائى، والطحاوى ، والبغوى : سنن النسائى : ٣ – ٤١

(٢) تفسير ابن كثير : ٦ – ٤٥٢ ، وقبله قال : حديث آخر موقوف رويناه من طريق سعيد بن منصور ، وزيد بن الحباب ، ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن نوح بن قيس : حدثنا سلامة الكندى . (٣) داحى : دحا : بسط ومد . والمدحوات : الأراضى السبع .

(٤) بارىء : خالق على غير مثال . المسموكات : المرفوعات ، والمراد بها السموات .

(٥) شرائف : أفضل صلواتك ، وأعلاها . جمع شريفة ، بمعنى عالية رفيعة المقدار .

(٦) نوامى : ما زاد من خيراتك ؛ أى بركاتك النامية .

(٧) رأفة تحننك : لطفك ورحمتك وعنايتك نازلة متوالية . وفى ا : تحيتك .

(٨) المعنى أنه فتح ما كان غير مفتوح من الشرائع لإرساله بعد الفترة الجاهلية ، أو أنه فتح الله به لعباده أنواع الخيرات وأبواب السعادات الدنيوية والأخروية ؛ أو بين لأمته ما أوحى إليه بتفسيره وتيسيره وإيضاحه، وفك قيد إشكاله بإيضاح براهينه وحججه وتفسيره بأنه أول الناس خلقا وآخرهم بعثا .

(٩) الخاتم لما سبق : من النبوة والرسالة ؛ فإنه لا نبى ولا رسول يرسل بعده .

(١٠) المعلن: المظهر. بالحق: بالأمر الحق ؛ لا بالقوة والغلبة. والمراد بالحق: الدين والشرع.

(١١) الدامغ : الدافع والمزيل . جيشات : جمع جيشة ، وهى المرة من جاش : إذا فار وارتفع. والأباطيل : جمع أبطولة أو إبطيلة أو إبطالة .

كما حُمِّلَ ، فاضْطَلع بأَمْرِكَ لطاعتك[١] ،مستَوْفِزاً فى مَرْضَاتك[٢] ، واعِياً لِوَحْيك[٣] ، حافظا لِعَهْدِكَ ، ماضِيا[٤] على نَفاذِ أمرِكَ ، حتى أَوْرَى قَبَسا لقابسٍ[٥] ، آلاءُ[٦] اللهِ تَصِلُ بأَهله أَسبابُه[٧] ، بِهِ هُدِيَتِ القلوبُ بعد خَوْضَاتِ الفِتَنِ وَالإثمِ[٨] ، وأَنْهَجَ مُوضِحاتِ الأعلام ، ونائراتِ الأحكام[٩] ، ومنيراتِ الإسلامِ ؛ فهو أَمينُكَ المأمون ،

---

(١) اضطلع : قوى على حمله ، ونهض به ، لشدة تحمله وقيامه بأعبائه . بأمرك : المراد بأمره وتيسيره وإعانته . لطاعتك : لإطاعتك ، فامتثله وأدى ما كلفته به . وفى ا : بطاعتك .

(٢) مستوفزا : الاستيفاز : الوثوب ، والانتصاب من قعود ، والمراد به عدم الإهمال ؛ أى مسرعا مستعجلا فى الإتيان بما أمرته به جادا غير متوان .

(٣) واعيا : حافظا ضابطا . لوحيك : الذى أوحيته إليه ، لم يشغله عنه ما حمله من الأعباء ومالقيه من المشاق فى تبليغه الرسالة .

(٤) ماضيا : جاريا ومستمرا .

(٥) أورى : الإيراء : قدح الزناد لخروج النار شررا يوقد منه . والقبس : ما يتناول من الشعلة . والاقتباس : طلبه . والمراد إظهار الحق وما يهتدى به الناس . وقوله لقابس : أى قابل وطالب لنور الحق والهداية .

(٦) آلاء الله : نعمه الإلهية وسعادته الأبدية فى الدارين بواسطته صلى الله عليه وسلم.

(٧) السبب : أصل معناه الحبل ، ثم صار بمعنى كل واسطة موصلة ؛ أى ذلك القبس سبب موصل لمن طلبه من أهله الذين أهلهم الله تعالى ، ووفقهم لقبوله ، ونور بصائرهم بأنواره .

(٨) به : بذلك القبس . أو الضمير للنبى صلى الله عليه وسلم . هديت القلوب الضالة عن طريق الحق فى ظلمة الجهل خوضات: جمع خوضة، وهى المرة من الخوض، والمراد الشروع والدخول فى كل أمر يذم . والإثم : الذنب. والفتن : جمع فتنة ، وهى ما يفتتن به المرء ، ويطلق على الكفر ، وهو المراد هنا .

(٩) أنهج : أوضح ، وبين ،وسهل . أو هى أبهج : أى أنار وأشرق. موضحات الأعلام: الأعلام : جمع علم ، بمعنى علامة ، مايستدل به على الطريق . وموضحة : من الإيضاح وهو الكشف والبيان ، والأعلام موضحات الطرق؛ لأنها تبينها للناس وتكشفها . وفى ابن كثير: وأقام موضحات . . . نائرات الأحكام: نائرات : جمع نائرة ، ظاهرة واضحة .

وخازنُ عِلْمِكَ المَخْزُونِ ، وشَهِيدُكَ يوم الدِّين[١] ، وبَعِيثُك نِعمةً[٢] ، ورَسُولُك بالحقِّ رحمةً ؛ اللهمّ أفْسِحْ له فى عَدْنِكَ[٣] ، واجْزِه مضاعَفَاتِ الخير مِنْ فضلك[٤] ، مُهَنِّئَاتٍ له غير مُكَدَّرَات مِنْ فَوْزِ ثوابِكَ المَحلولِ[٥] ، وجزيل عَطائك المعلول[٦] .

اللهم أعْلِ على بناء الناس بِنَاءَه ، وأكْرِمْ مَثْوَاهُ لدَيْك ونُزُلَه[٧] ، وأتِمَّ له نورَه ، واجْزِه مِنَ ابتعاثك[٨] له مقبولَ الشهادةِ ، ومَرْضىّ المقالةِ ، ذا مَنْطِقٍ عَدْلٍ ، وخُطَّةٍ فَصْلٍ[٩] ، وبُرْهانٍ عظيم[١٠] .

وعنه[١١] أيضا فى الصلاة على النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم : إنَّ اللهَ وملائكته يُصَلُّونَ على النبيِّ يأيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسلِّموا تَسْلِيما .

---

(١) يوم الدين : يوم القيامة .

(٢) بعيثك : مبعوثك . نعمة : أى بعثته ليكون نعمة ورحمة للعالمين .

(٣) الفسحة : التوسعة . وعدن : اسم للجنة .

(٤) أعطه من إنعامك وفضلك ما تضاعفه له من الخيرات الأخروية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

(٥) مهنئات له : من الهنىء ؛ وهو السائغ ، وكل ما أتى من غير تنغيص وتعب . غير مكدرات : غير منغصات . والفوز : الظفر بنيل البغية . الثواب : العطاء فى مقابلة عمل . المحلول : الكائن فى الجنة . أو الذى أوصلته له فصار صفة حالة فيه . وقيل : معناه : الذى استوجبه واستحقه ؛ من حل إذا وجب .

(٦) المعلول : المضاعف ؛ والمراد أنه كثير لاينقطع .

(٧) مثواه : مقامه ومنزله . والنزل : المراد ثوابه وأجره .

(٨) ابتعاثك : بعثك له بالنبوة والرسالة . وفى ا : وأجره ـ بفتح الهمزة وسكون الجيم . وفى هامشه : واجزه ـ كما هنا .

(٩) فصل : فاصلة بين الحق والباطل .

(١٠) وبرهان عظيم : دليل نبوته ورسالته ، القوى القاطع من معجزاته الباهرة . وارجع إلى هذا الأثر فى تفسير ابن كثير (٦ ـ ٤٥٣) .

(١١) وعنه : عن على . . .

لَبَّيْكَ[١] اللهمَّ رَبِّي وسَعْدَيْك ، صلواتُ اللهِ البَرِّ الرَّحيم[٢] والملائكةِ المقرَّبين، والنبيّين والصِّدِّيقين ، والشُّهداءِ والصالحين ، وما سبَّح لكَ من شيء ياربَّ العالمين ، على محمد بن عَبْد الله، خاتم النبيّين ، وسيِّدِ المرسلين ، وإمامِ المتّقين ، ورسولِ ربِّ العالمين؛ الشاهِد البشير[٣]، الداعِي إليكَ[٤] بإذْنِكَ،السراجِ المُنير[٥]؛ وعليه السلام.

وعن عبد الله بن مسعود[٦] : اللهمَّ اجعَلْ صَلَوَاتِكَ وبركاتِكَ ورَحْمَتَكَ على سيِّدِ المرسلين [١٦٨] ، وإمامِ المتّقين ، وخاتَمِ النبيين ، محمد عَبْدِكَ ورسُولِك ؛ إمامِ الخير ، ورسُول الرحمةِ .

اللهمَّ ابعَثْهُ مَقاماً محموداً يَغْبِطُه[٧] فيه الأوّلون والآخِرُونَ .

اللهم صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمد كما صلَّيْتَ على إبراهيم ، إنك حَميد مجيد ؛ وبارِكْ[٨] على مُحمد وعلى آل محمدٍ كما بارَكْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حَميد مجيد .

وكان الحَسَنُ البَصْرى يقول : مَنْ أراد أنْ يشربَ بالكأسِ الأَوْفَى[٩] من حَوْضِ المصْطَفى فليَقُلْ : اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلي آله وأصحابِه وأولادِه وأزواجِه

---

(١) أى فيجب علينا أن نقول : لبيك : إجابة بعد إجابة . وسعديك : إسعاد بعد إسعاد فى طاعتك وامتثال أمرك . (٢) البر الرحيم : المنعم المتفضل بأنواع البر والرحمة .

(٣) الشاهد : للأنبياء بأنهم بلغوا أممهم ، وعلى أممهم بمابلغوهم يوم القيامة . البشيرللمؤمنين بسعادة الدارين . (٤) فى ا : الداعى إليه . وفى هامشه : خ : إليك .

(٥) شبهه بالسراج المنير ، لإزالته ظلمة الكفر ، وتنويره لقلوب المؤمنين بنور هدايته ، وتوضيحه لطرق الحق والحقيقة .

(٦) رواه ابن ماجه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ـ فى كيفية أخرى للصلاة عليه : سنن ابن ماجه : ٢٩٣ (٧) يغبطه : أى يتمنون نيل مثله من غير زوال له .

(٨) فى سنن ابن ماجه : اللهم بارك .

(٩) بالكأس الأوفى ؛ أى بالحظ الأعلى .

وذرِّيَّتِهِ وأهل بيتِه وأصهارِه وأنصارِه وأشياعِه[١] ومُحبِّيهِ وأمّتهِ ؛ وعلينا ، معهم أجمعين . يا أرحمَ الرّاحمين .

وعن طاوس ؛ عن ابْن عبّاس ـ أنه كان يقول : اللهمّ تقبّل شفاعةَ محمد الكبرى ، وارفعْ درَجَته العُليا ، وآتِه سُؤْلَه[٢] فى الآخرةِ والأُولَى ، كما آتيتَ إبراهيم وموسى .

وعن وُهَيب بن الوَرْد أنه كان يقول فى دُعَائه : اللهم أعْط محمداً أفضلَ ما سألكَ لنفسه ، وأعْطِ محمدا أفضلَ ما سألكَ له أحدٌ مِنْ خَلْقك . وأعْطِ محمداً أفضلَ ما أنتَ مسئول له إلى يوم القيامةِ .

وعن ابن مسعود[٣] رَضِيَ اللهُ عنه أنه كان يقولُ : إذا صلَّيْتُم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأَحْسِنُوا الصلاةَ عليه؛ فإنكم لاتَدْرُونَ، لعَلّ ذلك يُعْرَضُ عليه؛ وقولوا: اللهمّ اجْعَلْ صلواتِكَ ورَحْمَتَكَ وبركاتِك على سيّد المُرْسلين، وإمامِ المتقين، وخاتم النبيين ، محمدٍ عَبْدِكَ ورسولِك إمامِ الخير وقائد الخير ، ورَسُولِ الرحمة .

اللهم ابعثْه مقاماً محموداً يَغْبِطُه فيه الأوّلون والآخِرُون ؛ اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيْتَ على إبراهيم إنكَ حَميد مجيد .

اللهم بارِكْ على محمّد وعلى آلِ محمد كما باركْتَ على إبراهيم إنكَ حميد مجيد .

وما يُؤْثَر[٤] فى تطويل الصلاة وتكثير الثناء على أهل البيت وغيرهم ـ كثير .

---

(١) أشياعه : أتباعه .

(٢) وآته : وأعطه ، وأنعم عليه . سؤله : مطلوبه وما يحبه ويبتغيه .

(٣) رواه ابن ماجه، والبيهقى ، والديلمى ،والدارقطنى . سنن ابن ماجه : ٢٩٣، وتفسير ابن كثير : ٦ ـ ٤٥٣ .

(٤) يؤثر : ينقل ، ويروى .

وقولُه[١] : والسلامُ كما قد علمتُم : هو ما علَّمهم اللهُ فى التَّشهُّد من قَوْله : السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وبركاتُه ، السلام علينا وعلى عباد اللهِ الصالحين .

وفى تشهُّد علىّ[٢] : السلامُ على نبيِّ الله ، السلامُ على أنبياء الله ورُسُله ، السلامُ على رسول اللهِ ، السلامُ على محمد بن عبد الله، السلام علينا وعلى المؤمنين والمؤمنات ، مَنْ غاب منهم ومن شَهِد[٣] .

اللهم اغفِرْ لمحمدٍ ، وتقبَّلْ شفاعتَه ، واغفِرْ لأَهْلِ بَيْتِهِ ، واغفِرْ لى ولِوالدىّ وما وَلَدَا ، وارحمهما .

السلامُ علينا وعلى عِبَادِ اللهِ الصالِحين ، السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه .

جاء فى هذا الحديث عن على : الدعاءُ للنبىّ صلى اللهُ عليه وسلم بالغفران[٤] .

[وفى حديث الصلاةِ عليه [أيضا][٥] قَبْلُ : الدعاءُ له بالرحمة ؛ ولم يأتِ فى غيره من الأحاديثِ المرفوعة المعروفة .

وقد ذهب أبو عُمَر بنُ عبد البر وغيرُه إلى أنه لا يُدْعَى للنبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم بالرحمة ؛ وإنما يُدْعَى له بالصلاةِ والبركةِ التى تختصُّ به ، ويُدْعَى لغيره بالرحمة والمغفرة[٦] .

(١) وقوله : أى فى الحديث المتقدم فى التشهد .

(٢) فى نسيم الرياض (٣ — ٥٣٣) : هذا لم نر من رواه عن على . وفى شرح القارى (٢ — ١٣٢) : هذا غير معروف سنده .

(٣) من شهد : من حضر .

(٤) بالغفران : أى بالمغفرة ، وهى كما قال الراغب : إلباس الشىء مايصونه ؛ فهى من الله صون عبده عن مس العذاب ، والدعاء بها له صلى الله عليه وسلم من أمته لا ينبغى، لإيهامه القصور من المدعو له بالرحمة .

(٥) مابين القوسين ليس فى ا .

(٦) لأن غيره ليس بمعصوم، فهو محتاج لمغفرة الله ورحمته . أما الرسول فهو معصوم، وقد غفر الله له ما تقدم وما تأخر .

وقد ذكر أبو محمدِ بن أبى زَيْد فى الصلاة على النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم : اللهم ارْحَمْ محمداً وآلَ محمدٍ كما ترحّمْتَ على إبراهيم وآلِ إبراهيم .

ولم يأْتِ هذا فى حديث صحيح . وحجّتُه قوله فى السلام[1] : السلامُ عليكَ أيّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبرَكاته[1]][2] .

فصل

فى فضيلة[3] الصلاة على النبى والتسليم عليه والدعاء له

حدثنا أحمد بن محمد الشيخُ الصالح من كتابه ، حدثنا القاضى يونس بن مُغِيث، حدثنا أبو بكر بن مُعَاوِية ، حدثنا النَّسائى، أخبرنا سُوَيد بنُ نصر ، أخبرنا عبدالله، عن حَيْوَة بن شُرَيح ؛ قال: أخبرنا كَعْب بن عَلْقَمة ـ أنه سَمِع عبد الرحمن بن جُبير مَوْلى نافع ـ أنه سمع عبد الله بن عمرو[4] يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول[5] : إذا سمِعْتُم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول ، وصَلُّوا [١٦٩] علىَّ ؛ فإنه مَنْ صلَّى علىَّ مرةً واحدةً صلّى اللهُ عليه عَشْراً؛ ثم سَلُوا[6] لى الوسيلةَ فإنها منزلةٌ فى الجنة لا تَنْبغِى إلّا لعَبْدٍ مِنْ عِبادِ اللهِ، وأرجو أن أكونَ أنا هو ؛ فمن سألَ لى الوسيلةَ حلَّتْ عليه الشّفاعة .

---

(١) أى إن إطلاق الرحمة عليه هنا يدل على جواز الدعاء له صلى الله عليه وسلم بالرحمة ؛ إذ لا فرق بينهما.

(٢) ما بين القوسين كتب أمامه فى هامش ا ، ب : من الأم بخطه من غير الرواية .

(٣) أى ثوابها وفوائدها لمن قالها .

(٤) بالواو وبغير واو ، وهذا الضبط فى ا ، ب . وعليه فيهما « معا » .

(٥) صحيح مسلم : ٢٨٨

(٦) سلوا لى الوسيلة : الوسيلة : مايتقرب به إلى كل كبير ، وفسرت فى الحديث بقوله: فإنها منزلة فى الجنة من أعلى منازلها . والمراد أنه يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمد الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته . . . فإن من قال ذلك حلت له شفاعتى يوم القيامة .

وروَى أنس[١] بن مالك أنّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : مَنْ صلَّى علىّ صلاةً صلَّى اللهُ عليهِ عَشْرَ صَلَواتٍ ، وحطّ عنه عَشْرَ خَطِيئات ، ورفعَ لهُ عَشْرَ درجاتٍ .

وفى رواية : وكتب له عَشْرَ حَسَناتٍ .

وعن أَنَس[٢] ، عنه صلَّى اللهُ عليه وسلم : إنَّ جبريل نادَانى ، فقال : مَنْ صلَّى عليكَ صلاةً صلَّى اللهُ عليه عشرًا ، ورَفعه عَشْر درجاتٍ .

ومن رواية عبد الرحمن بن عَوْف[٣] ، عنه صلَّى اللهُ عليه وسلم : لقِيتُ جبريل فقال لى : إنى أُبشِّركَ أنَّ الله تعالى يقول : مَنْ سلَّمَ عليكَ سلَّمتُ عليه ، ومَنْ صَلَّى عليكَ صلَّيتُ عليه .

ونَحْوُه مِنْ روايةِ أبى هريرة ، ومالك بن أَوْس بن الحدَثان ، وعُبيد الله ابن أبى طَلْحة .

وعن زَيد بن الُحباب[٤] : سمعتُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم يقول : مَنْ قال : اللهم صَلِّ على محمدٍ وأنزِلْه المُنزَلَ المُقرَّب عندكَ يوم القيامة وجبَتْ له شفاعتى[٥] .

---

(١) فى شعب الإيمان للبيهقى . (٢) فى حديث رواه ابن أبى شيبة فى مسنده .

(٣) رواها الحاكم ، والبيهقى ، وصححها .

(٤) فى هامش ا ، ب : قال يحيي بن على القرشى عفا الله عنه : هذا وهم ظاهر ؛فإن زيد ابن الحباب هذا ليس من الصحابة ولا من التابعين ولا من أتباعهم ، إنما روى عن مالك بن أنس، والضحاك بن عثمان، وابن لهيعة وأمثالهم ، وليس له فى الصحابة نظير فى اسمه واسم أبيه معا . وهذا الحديث محفوظ من رواية رويفع بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد رواه زيد بن الحباب هذا عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن زياد بن نعيم عن وفاء بن شريح الحضرمى عن رويفع بن ثابت رضى الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والله عز وجل أعلم . نقلته من خطه كهيئته .

(٥) وجبت له شفاعتى : تعينت وتحققت .

وعن ابن مسعود[١] : أولى الناسِ[٢] بى يومَ القيامة أكثرُهم علىَّ صلاةً .

وعن أبى هُريرة ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ صَلَّى علىَّ فى كتابٍ[٣] لم تزَلِ الملائكةُ تستَغْفِرُ له ما بقى اسْمِى فى ذلكَ الكتاب[٤] .

وعن عامر بن ربيعة : سمعتُ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلّم يقول : مَنْ صلَّى علىَّ صلَاةً صلَّتْ عليه الملائكةُ ما صلَّى علىّ ، فلْيُقْلِل مِنْ ذلك عَبْدٌ أو ليُكْثِر .

وعن أُبىّ بن كعب[٥] : كان رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم إذا ذهب رُبع[٦] الليل قام فقال :

أيها الناسُ ؛ اذكُرُوا اللهَ ، جاءت الرَّاجفةُ تتبعُها الرادفة[٧] ، جاء الموتُ بما فيه .

فقال أُبىُّ بن كعب : يا رسولَ الله ؛ إنى أُكثِرُ الصلاةَ عليكَ ، فكم أجعلُ لكَ مِنْ صَلاتى[٨] ؟

---

(١) فى حديث صحيح رواه الترمذى ، وابن حبان : سنن الترمذى : ٢ — ٣٥٤ . وفى تعليق على الحديث فى الترمذى: قال ابن حبان عقب هذا الحديث : فى هذا الخبر بيان صحيح على أن أولى الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم فى القيامة أصحاب الحديث ؛ إذ ليس فى هذه الأمة أكثر صلاة عليه منهم .

وقال غيره : لأنهم يصلون عليه قولا وفعلا (سنن الترمذى : ٢ — ٣٥٤) .

(٢) أولى الناس بى : أحقهم بشفاعتى وعنايتى .

(٣) فى كتاب كتبه من تأليف ، ورسالة ، وغيره .

(٤) قال الطبرانى فى الأوسط : رواه أبو الشيخ فى الثواب ، والمستغفرى ، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : رووه بسند فيه ضعف . ومثله يعمل به فى فضائل الأعمال .

(٥) فى حديث رواه الترمذى وحسنه : سنن الترمذى : ٤ — ٦٣٦

(٦) فى الترمذى : إذا ذهب ثلثا الليل .

(٧) الراجفة — من الرجفة — وهى الحركة بشدة ، والرعدة معها صوت واضطراب . والمراد بالراجفة ما يكون بين يدى الساعة من الفتن والهرج والمرج والزلازل .

والرادفة : المراد بها الساعة ، أو الصيحة ، أو النفخة . والمراد إخبارهم بقرب الساعة .

(٨) أى ما مقدار الوقت الذى أصلى عليك فيه .

قال: ماشئتَ . قال : الرُّبع؟ قال : ماشئتَ ، وإنْ زِدْتَ فهو خَيْر . قال :الثلث؟ قال : ما شئتَ ، وإنْ زِدْتُ فهوَ خَير .

قال : النصف ؟ قال : ما شئتَ ، وإنْ زِدْتَ فهو خير .

قال: قال: الثلثين ؟ قال : ما شئتَ ، وإن زِدْتَ فهو خيرا. قال: يا رسولَ الله، فأَجْعَلُ صلاتى كلَّها لك ؟ قال : إذًا تُكْفَى [1] ويُغْفَر ذَنبُك [2] .

وعن أبى [3] طلحة : دخلتُ على النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم فرأيتُ من بِشْره وطَلاقَتِه [4] مالم أَرَهُ ، فسألته ، فقال : وما يمنعُنى وقد خرج جبريلُ آنِفاً [5] ، فأتانى ببشارة مِنْ رَبّى عزّ وجَلّ : إنّ الله بعثنى إليكَ أبشّرك أنه ليس أحدٌ من أمّتِكَ يصلّى عليكَ إلا صلَّى الله عليه وملائكتُه بها عَشْرا .

وعن جابر بن عبد الله [6] ؛ قال : قال النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ قال حين يسمعُ النداء [7] : اللهم ربَّ هذهِ الدعوةِ التامة والصلاةِ القائمة [8] آتِ محمداً الوَسِيلةَ والفَضِيلَة ، وابعَثْه مقاماً محموداً الذى وَعَدْتَه ـ حلَّتْ له الشفاعة [9] يوم القيامة .

---

(١) تُكفى : تغنيك عما عداها ، لأن فيها خير الدنيا والآخرة .

(٢) ويغفر ذنبك؛ لأنها مكفرة للذنوب .

قال فى نسيم الرياض (٣ ـ ٥٤١) : هذا الحديث يدل على أن صلاته على رسول الله تغنى عن دعائه لنفسه ، ولا يقتضى أنها أفضل من سائر العبادات ولا من قراءة القرآن وغيرها . قال : وهذا الحديث فى المعنى كالحديث القدسى : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين .

(٣) هذا الحديث أخرجه النسائى .

(٤) من بشره : مسرته وانشراحه . وطلاقته : بشاشته وسروره .

(٥) آنفا : قريبا من مجيئك .

(٦) فى حديث رواه البخارى : صحيح البخارى : ١ ـ ١٥١

(٧) يسمع النداء : المراد بالنداء الأذان .

(٨) القائمة : الدائمة .

(٩) فى صحيح البخارى : شفاعتى . والمثبت فى ا ، ب .

وعن سَعْد بن أبى وقّاص[١] مَنْ قال حين يسمعُ المُؤَذّنَ: وأنا أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحْدَهُ [١٧٠] لاشَرِيكَ له ، وأن محمدا عَبْدهُ ورسولُه ، رضيتُ باللهِ ربًّا وبمحمد رسولا ، وبالإسلام دِيناً ـ غُفِرَ لَهُ .

وروى ابْنُ وهْبٍ أَن النبيّ صلَّى الله عليه وسلم قال: مَنْ سلَّم علىّ عَشْرًا فكأنما أعتق رقَبةً[٢] .

وفى بَعْضِ الآثار : لَيَرِدَنَّ[٣] علىّ أقوامٌ ما أعرِفُهم إلا بكَثْرةِ صلاتهم علىّ[٤] .

وفى آخَر : إنَّ أنجاكم يَوْمَ القيامةِ مِنْ أهوالِها[٥] ومَوَاطنِها أكثَرُكم علىّ صلاةً .

وعن أبى بكر : الصلاةُ على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم أمْحَقُ[٦] للذنوب من الماء البارِدِ للنارِ ؛ والسلامُ عليه أفضلُ مِنْ عِتْقِ الرِّقَاب .

فصل

فى ذمّ مَنْ لم يُصَلّ على النبى صلى اللهُ عليه وسلم وإثْمِه

حدثنا القاضى الشهيد أبو على رَحِمه الله ، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرون ، وأبو الْحُسَين الصَّيْرفى ؛ قالا : حدثنا أبو يَعْلى ، [حدثنا][٧] السِّنْجِيّ ، حدثنا محمد ابن محبوب ، حدثنا أبو عيسى[٨] ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرقى ، حدثنا رِبْعىّ

---

(١) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ٢٩٠

(٢) رقبة : عبدا .

(٣) ليردن على أقوام : يأتونى على الحوض .

(٤) يعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم يرى فى وجوهم نورا وعلامة من آثار الصلاة عليه.

(٥) من أهوالها : من شدائدها .

(٦) أمحق للذنوب : أشد إبطالا وإذهابا .

(٧) ليس فى ا .

(٨) هو الترمذى صاحب السنن .

ابن إبراهيم ، عن عَبْد الرحمن بن إسحاق ، عن سَعِيد بن أبي سَعِيد ، عن أبي هُريرة؛ قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم[١] :

« رَغِمَ[٢] أَنْفُ رجُلٍ[٣] ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلّ عَلَيَّ ، ورَغِمَ أَنْفُ رجُلٍ دخل رمضانُ ثم انسلخَ[٤] قبل أنْ يُغْفَرَ له ، ورَغِمَ أَنْفُ رجل أدركَ عِنْدَه أَبَوَاهُ الكِبرَ فلم يُدْخلاه[٥] الجنةَ » .

قال عبد الرحمن : وأظنُّه قال : أو أحدهما .

وفي حديث آخَر[٦] : أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم صَعِد المِنْبر فقال : آمِين[٧] ؛ ثم صعد ، فقال : آمين . ثم صعد فقال : آمين ؛ فسأله معاذٌ عن ذلك ، فقال : إنّ جبريل أتاني فقال : يا محمد ؛ مَنْ سُمِّيتَ[٨] بين يدَيْه فلم يُصَلِّ عليكَ فمات فدخل النار ، فأبعده الله ؛ قل آمين ؛ فقلتُ آمين .

وقال فيمن أدركَ رمضانَ فلم يُقْبَل منه فمات مِثْلَ ذلك .

ومَنْ أدركَ أبويه أو أحدهما فلم يَبرّهما فمات مثله .

وعن عليّ بن[٩] أبي طالب : عنه صلّى اللهُ عليه وسلم أنه قال : « البخيلُ كلُّ البخيل الذي ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ » .

---

(١) الحديث في صحيح مسلم : ١٩٧٨ ، وسنن الترمذي : ٥ — ٥٥٠

(٢) ضبطت الغين في « رغم » بالكسرة والفتحة في ا ، وعليها « معا » .

(٣) رغم أنف رجل : أذله الله وأخزاه .

(٤) انسلخ : مضى .

(٥) أي لم يبرهما ويعاملهما بما يرضيهما فلم يدخلاه الجنة .

(٦) رواه الحاكم ، وصححه . (٧) آمين : استجب .

(٨) من سميت : أي ذكر اسمك .

(٩) من حديث صحيح رواه الترمذي وصححه ، والبيهقي ، والنسائي : سنن الترمذي : ٥ — ٥٥١

وعن جعفر بن محمد[١] ، عن أبيه ؛ قال : قال رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ أُخطِئَ به طريقُ الجنة[٢] » .

وعن عليّ بن أبى طالب[٣] : أنَّ رسولَ صلى اللهُ عليه وسلم قال: «إنَّ البخيلَ كُلَّ[٤] البخيلِ مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عَلَيَّ » .

وعن أبى هُريرة[٥] ، قال أبو القاسم صلى اللهُ عليه وسلم : « أَيُّما قومٍ جلسوا مَجْلِسا ثم تفرّقوا قَبْلَ أنْ يَذْكُرُوا اللهَ ويُصَلُّوا عَلى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم كانت عليهم من الله تِرَةٌ[٦] إنْ شاء عذّبهم وإنْ شاء غَفَر لهم » .

وعن أبى هريرة[٧] رَضِيَ اللهُ عنه : « مَنْ نَسِيَ الصلاةَ عَلَيَّ نَسِيَ طريقَ الجنّة[٨] » .

وعن قَتَادَة[٩] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : « مِنَ الجفاء[١٠] أنْ أُذْكَر عنــد الرجل فلا يُصَلِّى عَلَيّ » .

---

(١) الحديث فى شعب الإيمان للبيهقى ، ورواه الطبرانى فى الكبير متصلا عن الحسين بن على.

(٢) أخطئ به طريق الجنة : أى دخل النار ، لأنه أخطأ طريق الجنة ، فكان طريقه إلى النار ؛ لأنه قد أضله الله عن طريقها . وهذا رواه جماعة من طرق متعددة .

(٣) هذا الحديث أخرجه النسائى والبيهقى والبخارى فى تاريخه وهو سنن الترمذى:٥-٥٥١

(٤) ضبطت اللام فى « كل » بالفتحة والضمة فى ا ، وكتب فوقها « معا » .

(٥) رواه أبو داود ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه . سنن أبى داود : ٢-١٩١ وتفسير ابن كثير : ٦ - ٤٦٠

(٦) ترة : الترة لها معان: الظلم ، والذنب ، والنقص ،والتبعة. وقدفسرت أيضا بالحسرة. وقوله : إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم — يقتضى أنه بمعنى الذنب والخطيئة .

(٧) فى حديث رواه البيهقى فى الشعب .

(٨) فقد جعل الصلاة على النبى كأنها دليل يرشده لطريق الجنة ، أو مذكر يذكره بها .

(٩) فى حديث رواه عبد الرزاق عن معمر ، والحديث مرسل يستدل به فى الفضائل دون الأحكام كما قال الخفاجى .

(١٠) الجفاء : ترك الصلة والبر .

وعن جابر[١] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : « ما جلس قومٌ مَجْلِساً ثم تفرّقوا على غير صلاةٍ عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم إلّا تفرّقوا عَلَى أنْـتَن مِنْ ريح الجِيفَة[٢] » .

وعن أبي سَعِيد[٣] ، عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، قال : « لا يجلسُ قومٌ مَجْلِسا لا يصلُّونَ فيـه عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم [١٧١] إلا كان عليهم حسرةً وإنْ دخلوا الجنةَ لما يَرَوْن من الثواب[٤] » .

وحكى أبو عيسى الترمذى ، عن بَعْضِ أهل العلم ؛ قال : إذا صلَّى الرجلُ عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم مرّةً فى المجلس أجزأ عنه ما كان فى ذلك المجلس[٥] .

فصل

فى تخصيصه صلى اللهُ عليه وسلم بتبليغ صلاةِ مَنْ صلّى عليه وسلّم من الأنام

حدثنا القاضى عبد الله التميمىّ ،حدثنا الُحسين بن محمد ، حدثنا أبو عمر الحافظ[٦] ، حدثنا ابنُ عبد المؤمن ، حدثنا ابنُ داسةَ ، حدثنا أبو داود ، حدثنا ابن عَوْف ، حدثنا المقرئ[٧] ، حدثنا حَيْوَة ، عن أبى صَخْر حُمَيد بن زِياد ، عن يزيد بن عبد الله ابن عبد الله بن قُسَيْط ، عن أبى هُرَيرة رَضِىَ الله عنه ــ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ

(١) فى حديث رواه البيهقى . ورواه أيضا الطيالسى ، وأبو داود ، والنسائى . سنن أبى داود : ٢ ــ ١٩١

(٢) الجيفة : رمة الحيوان إذا انتفخت وتغيرت . قال فى نسيم الرياض (٣ ــ ٥٤٧) : وهذه الرائحة خبيثة يكرهها كل طبع . قال : وسبب ذلك أنهم أتوا بأمر مذموم، ولهذا تفرقوا تفوح منهم هذه الرائحة.

(٣) فى حديث رواه البيهقى .

(٤) حسرة : ندامة وتأسفا على ما فاتهم فيه . لما يرون من الثواب : أى لمن صلى عليه .

(٥) أى كفت المرة عن تـكريرها ما دام فى ذلك المجلس .

(٦) هو ابن عبد البر .

(٧) فى شرح القارى (٢ ــ ١٤٢) : هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن يزيد القصير مولى عمر بن الخطاب .

عليه وسلم قال : « ما مِنْ أحدٍ يُسَلِّمُ عَلَيّ إلا رَدّ اللهُ عليّ رُوحى حتى أردّ عليه السلام[١] » .

وذكر أبو بكر بن أبى شَيْبَة ، عن أبى هُريرة[٢] ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ صَلَّى عَلَى عنــد قَبْرِى سمعتُه ؛ ومَنْ صلَّى علىّ[٣] نائيا بُلّغتُه » .

وعن أبى[٤] مسعود : « إنَّ لِلهِ ملائـكةً سيّاحين[٥] فى الأرض يبلّغونى عن أُمّتى السلام » .

ونحوه عن أبى هُريرة .

وعن ابن عُمَر : « أكثِروا من السلام عَلَى نبيّـكم كُلّ جمعة ؛ فإنه يُؤتَى به منكم فى كل[٦] جمعة » .

وفى رواية : « فإنّ أحداً لا يصلّى عَلَيّ إلا عُرِضت صلاتُه عَلَيّ حين يَفرُغ منها » .

وعن الحسن[٧] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : « حيثما كُنتُم فصلُّوا عَلَيّ ؛ فإنّ صلاتـكم تبلُغُنى » .

---

(١) فى نسيم الرياض (٣-٥٢٩) : كلام المصنف فى تبليغ الصلاة له ، وهذا فى تبليغ السلام . ولهذا قيل : المراد بالسلام قولهم : الصلاة والسلام عليك يارسول الله . والحديث رواه أبو داود ، وأحمد ، والبيهقى ، وسنده حسن : سنن أبى داود : ١-٢٠٢ .

(٢) رواه البيهقى ، وأبو الشيخ .

(٣) نائيا : بعيدا عنى . (٤) هذا فى ا ، ب .

(٥) سياحين ، جمع سياح ــ بصيغة للبالغة ، من السياحة ، وهى الطواف فى الأرض والدوران فيها ، والذهاب إلى البلاد البعيدة .

(٦) فإنه : أى السلام . يؤتى به : يبلغه . قال فى شرح القارى (٢ ــ ١٤٣): لا يعرف من رواه .

(٧) فى حديث رواه ابن أبى شيبة ، والطبرانى ، وأبو يعلى ، بسند صحيح .

وعن ابن عباس[1] : « ليس أحدٌ مِنْ أمَّةِ محمد يسلّم عليه ويصلّى عليه إلّا بُلِّغَه » .

وذكر بعضهم أنَّ العَبْدَ إذا صلَّى عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم عُرِض عليه اسْمُه.

وعن الحسن بن[2] علىّ : إذا دخلْتَ المسجدَ فسلِّم على النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « لا تَتَّخِذُوا بيتى عِيدا[3] ، ولا تتخذُوا بُيوتَكم قُبُورا[4] ، وصلّوا علىّ حيث كُنْتم ؛ فإنَّ صلاتَكم تبلُغُنى حيث كُنْتُم ».

وفى حديث أوْس[5] : « أَكثِرُوا علىّ من الصلاةِ يوم الجمعة ؛ فإنَّ صلاتَكم مَعْرُوضَةٌ علىّ » .

وعن سُلَيمان[6] بن سُحَيم : رأيتُ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم فى النومِ ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ هؤلاء الذين يأتونَكَ فيسلِّمونَ عليكَ ، أتَفْقَهُ[7] سلامَهم ؟ قال : نعم ، وأرُدُّ عليهم .

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان . (٢) سنن أبى داود : ٢ ـ ٢٠٢

(٣) العيد : الموسم الذى يجتمع فيه . قال فى نسيم الرياض (٣ـ٥٥٢) : ونهيه صلى الله عليه وسلم عما كان يفعله اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم من الزينة واللهو والطرب . وقيل : النهى عن تعظيمها لما فيه من الفتنة بها ، حتى لا يتخذ وثنا يعبد . وقيل : المراد لا تتخذوها كالعيد تزورونها فى العام مرة ؛ بل أكثروا من زيارتها .

(٤) لا تتخذوا بيوتكم قبورا: لا تتركوا الصلاة والعبادة فيها فتكونوا فيها كأنكم أموات. وقيل : المراد لا تدفنوا فى البيوت ، بل فى الجبانة .

(٥) هذا الحديث رواه أبو داود ، والنسائى ، وأحمد فى مسنده ، والبيهقى ، وغيرهم ؛ وصححوه : سنن أبى داود : ١ ـ ١٥٢، وبقيته فيه : فقالوا : يارسول الله ؛ وكيف تعرض صلاتنا عليك ، وقد أرمت ؟ قال : يقولون : بليت . قال : إن الله تبارك وتعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء صلى الله عليهم وسلم .

(٦) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى حياة الأنبياء ، وفى شعب الإيمان .

(٧) أتفقه سلامهم : أتسمعه وتفهمه .

وعن ابْنِ شِهَاب : بلغنا أَنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم قالَ : أَكْثِرُوا من الصلاةِ علىّ في الليلة الزهراء ، واليوم الأَزْهر[١] ؛ فإنهما يؤدِّيان عنكم[٢] ، وإنَّ الأرضَ لا تأكل أجسادَ الأنبياء ؛ وما مِنْ مسلم يصلِّي علىّ إلا حملها مَلَك حتى يُؤدِّيها إلىّ ويُسمِّيه حتى إنه ليقولُ : إنّ فلانا يقول كذا وكذا .

فصل

في الاختلاف[٣] في الصلاة على غير النبي صلى اللهُ عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام

قال القاضي وفقّه اللهُ : عامّةُ أهلِ العِلْم متّفِقون عَلَى جوَازِ الصلاةِ عَلَى غَيْرِ[٤] النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم .

ورُوِي عن ابْنِ عبّاس[٥] أنه لاتجوزُ الصلاةُ عَلَى غَيْرِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم.

ورُوِي عنه : لا تَنْبَغِي الصلاةُ عَلَى أَحَدٍ إلا النبيّين[٦] .

---

(١) في الليلة الزهراء واليوم الأزهر : ليلة الجمعة ويومها .

(٢) يؤديان عنكم : يوصلان صلاتكم على ويبلغانها إلى .

(٣) أى الاختلاف الواقع بين العلماء في جواز الصلاة غير النبي من المؤمنين غير الأنبياء ، كالصحابة ونحوهم .

(٤) من الأنبياء والملائكة والمؤمنين . قال الخفاجي (٣ — ٥٥٥) : ودعواه الاتفاق مطلقا ليست بمسلمة . وقد قال النووي في الأذكار : أجمعوا على طلب الصلاة على نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك أجمع من يعتد به على استحبابها على سائر الأنبياء والملائكة استقلالا ؛ وأما على غيرهم ابتداء فالجمهور على أنه لا يصلى عليهم . واختلف هذا المنع ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه حرام ؛ والأكثر على أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ وذهب كثير إلى أنه خلاف الأولى ؛ وليس مكروها . والصحيح الذى عليه الأكثر كراهته تنزيها ؛ لأنه شعار أهل البدع ؛ فدعواه الاتفاق مخالفة للمنقول .

(٥) في شعب الإيمان للبيهقي .

(٦) فكأنه رجع عن قوله الأول ، أو مراده به الجمع بين الصلاة والسلام .

وقال سُفْيان : يُكْرَهُ أنْ يُصلّى إلاّ على نبيّ .

ووجدتُ بخطّ بَعْضِ شيوخي : مذهبُ مالك أنه لا يجوزُ أن يصلَّى على أحدٍ من الأنبياء سِوَى محمد صلّى اللهُ عليه وسلم ، وهذا [١٧٢] غَيْرُ معروفٍ من مذهبه ؛ وقد قال مالك فى «المبسوطة» ليحيي بن إسحاق : أَكْرَهُ الصلاةَ على غير الأنبياء ، وما ينبغى لنا أنْ نتعدّى ما أُمِرْنا به[١] .

وقال يحيي بن يحيي[٢] : لستُ آخُذ بقوله[٣] ؛ ولا بَأْسَ بالصلاةِ على الأنبياء كلِّهم وعلى غيرهم[٤] ؛ واحتجّ[٥] بحديث ابن عُمر ، وبما جاء فى حديث تعليم النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم الصلاةَ عليه ؛ وفيه[٦] : وعلى أزواجه ، وعلى آله .

[وقد جاء[٧] معلقًا[٨] عن أبى عِمْرَان القابسى : رُوِى عن ابن عبّاس رَضِىَ اللهُ عنهما كراهة الصلاةِ على غَيْرِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ قال : وبه نقول . ولم تكن[٩] تُستَعْمَلُ فيما مضَى .

وقد روى عبد الرزاق عن أبى هريرة رضِىَ الله عنه ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : صلُّوا على أنبياءِ اللهِ ورُسُلِه ؛ فإنّ اللهَ بَعَثهم كما بعثنى[١٠]][١١] .

---

(١) لأنه أمر تعبدى لا يعقل معناه بالرأى ، فيقتصر فيه على ماروى عنهم ، ولا نتجاوزه إلى غيره .

(٢) هو عالم الأندلس ، وروى الموطأ عن مالك .

(٣) بقوله : أى بقول مالك السابق .

(٤) وعلى غيرهم : من الملائكة والمؤمنين .

(٥) واحتج : أى يحيي . وسيأتى هذا الحديث .

(٦) وقد تقدم .

(٧) فى ب : وحدث .

(٨) معلقا : مكتوبا فى بعض الكتب .

(٩) ولم تكن : ولم تكن الصلاة على غير نبينا استقلالا تستعمل فيما مضى من عصر الصحابة فمن بعدهم . قال الخفاجى : وهو غير مسلم به كما تقدم .

(١٠) هذا الحديث رواه الطبرانى ، والقاضى إسماعيل ، والتيمى فى الترغيب ، وغيرهم ، بسند صحيح .

(١١) مابين القوسين ساقط فى ا .

قالوا : والأسانيدُ عن ابن عبَّاس ليِّنَة؛والصلاةُ فى لسان[١] العرب بمعنى الترحّم والدُّعاء[٢] ؛ وذلك على الإطلاق[٣] حتى يمنَعَ منهُ حديثٌ صحيح أو إجماع .

وقد قال تعالى[٤] : ﴿ هو الَّذى يُصَلِّى عليكم وملائـكته ليُخْرِجَكُم من الظُّلماتِ إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ .

وقال[٥] : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتزكّيهم بها ، وَصَلِّ عليهم ، إنَّ صلاتَكَ سكَنٌ لهم واللهُ سميعٌ عليم ﴾ .

وقال[٦] : ﴿ أولئكَ عليهم صلواتٌ من رَبِّهم وَرَحْمَةٌ ﴾ .

وقال النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم : اللهمّ صَلِّ على آلِ أَبِى أوْفَى[٧] ؛ وكان إذا أتاه قومٌ بِصدَقتهم ، قال : اللهم صَلِّ على آلِ[٨] فُلاَن .

وفى حديث الصلاةِ[٩] : اللهم صَلِّ على محمد ، وعلى أزواجه وذرِّيته .

---

(١) فى لسان العرب : فى لغتهم . (٢) والدعاء بالرحمة .

(٣) على الإطلاق : أى يجوز مطلقا على نبينا وعلى غيره .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٤٣

(٥) سورة التوبة ، آية ١٠٣

(٦) سورة البقرة ، آية ١٥٧

(٧) فى حديث رواه الشيخان : صحيح البخارى : ٨ — ٩٠

(٨) معنى صل عليهم : ارحمهم ، وطهرهم ، وزكّ أموالهم التى بذلوا فيها زكاتهم . وآله : أهله وأتباعه . وأبو أوفى : هو علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمى الصحابى ، وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة سنة سبع وثمانين ، قال الخفاجى : وهذا الحديث من أقوى ما استدل به على جواز الصلاة على غير الأنبياء ، استقلالا . والحديث فى الموطأ : ١٦٥

(٩) الصلاة : أى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى التشهد ، وقد تقدم .

وفى حديث آخر[١] : وعلى آل محمد : قيل[٢] أتباعه ، [وقيل : آل بيته][٣] .
وقيل : أُمّته . وقيل : الأتباع ، والرَّهْط ، والعشيرة . وقيل : آلُ الرجُلِ ولَدُه .
وقيل : قَوْمُه . وقيل : أَهلُه الذين حُرِّمت عليهم الصدقَةُ .

وفى رواية أَنَس[٤] : سُئل النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ آلُ محمدٍ ؟ قال :
كلُّ تَقِيّ .

ويَجِيءُ على مَذْهب الحَسَن[٥] أنّ المرادَ بآلِ محمد ـ مُحمدٌ نَفْسُهُ ؛ فإنه كان يَقُولُ فى صلاتِهِ على النبى : اللهم اجعل صَلَوَاتِك وبركاتِك على آلِ محمد ـ يريدُ نَفْسه ؛ لأنه كان لايُخِلُّ بالفَرْضِ ، ويأْتى بالنَّفْل ؛ لأَنّ الفَرْضَ الذى أَمر اللهُ تعالى به هو الصلاةُ على محمد نَفْسِه .

وهذا[٦] مِثْلُ قَوْلِهِ صلّى الله عليه وسلم[٧] : لقد أُوتِى مِزْمارا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ داود ؛ يريدُ مِنْ مزامير[٨] داود .

---

(١) روى فى صلاة التشهد .
(٢) تفسير لآله .
(٣) مابين القوسين ساقط في ب .
(٤) قال الخفاجي : وهذا حديث صحيح روى من طرق : رواه الطبرانى ، والديلمى ، وشيبان ، وغيرهم . قال الخفاجي : وهذا معنى مجازى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : سلمان منا آل البيت ؛ لأن الله طهر أهل البيت ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، فأطلق على كل تقى أكرمه الله تعالى وغفر سيئاته ، وهذا معروف فى لسانهم كما قيل : رب أخ لى لم تلده أمه .
(٥) الحسن : أى البصرى .
(٦) وهذا : أى ذكر الآل وإرادة الذات به .
(٧) قاله النبي فى حق أبى موسى الأشعرى لما سمعه يتلو القرآن بصوت حسن ، كما رواه الشيخان عنه : صحيح مسلم : ٥٤٦
(٨) فآله بمعنى نفسه ، لأنه لا يعرف أحد من آله أنه كان له مزمار . والمزامير : جمع مزمار ، وهو اسم آلة ؛ ويقال مزمور أيضا . والزمر: النفخ فى المزمار ، والصوت الحسن=

وفى حديث أبى حُمَيْد الساعدىّ فى الصلاة[١] : اللهمّ صلِّ على محمد وأزواجِه وذُرِّيّتِـهِ .

وفى حديث ابْنِ عُمَر أنه كان يُصَلِّى على النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وعلى أبى بكر وعُمر ـ ذكره مالك فى الموطّأ[٢] من رواية يحيى الأندلسى .

والصحيحُ من رواية غيره : ويَدْعُو لأبى بَكْرٍ وعُمر .

ورَوَى ابْنُ وَهْب ، عن أَنَس بن مالك : كنّا ندعو لأصحابنا بالغَيْب[٣] ؛ فنقول : اللهم اجعَلْ منكَ على فُلان صلواتِ قومٍ أبرارٍ الذين يقومونَ بالليل ويصومُون بالنهار .

قال القاضى أبو الفضل[٤] : والذى ذهب إليه المحقِّقون ، وأَمِيلُ إليه ما قاله مالك وسُفْيان رحمهما الله ، ورُوِى عن ابن عباس ؛ واختاره غَيْرُ واحدٍ من الفقهاء والمتكلّمين ـ أنّه لا يُصَلَّى على غير الأنبياء عند ذِكْرهم ؛ بل هو شىء يختصُّ به الأنبياء ، توقيراً لهم وتعزيزا[٥] ، كما يُخَصُّ اللهُ تعالى عند ذِكره بالتّنزيه والتقْدِيس والتعظيم ،

= بغير آلة ؛ فمزاميره بمعنى ترنماته . شبه حسن الصوت ، وحلاوة نغمته ، بصوت المزمار ، وداود : هو النبي . قال الخفاجي : وأول هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم مر هو وعائشة رضى الله عنها على بيت أبى موسى ، وهو يقرأ القرآن ليلة ، فوقفا يستمعان له ؛ وكان من أحسن الناس صوتا ؛ فلما أصبح أخبره صلى الله عليه وسلم بإنصاته له ، وقال له : لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود . فقال : لو علمت بذلك لحبرته تحبيرا ؛ أى لزدت فى تحسين صوتى لاستماعك لى .

(١) فى الصلاة : أى فى ألفاظها .

(٢) الموطأ : ١ — ١٦٦

(٣) بالغيب : أى فى حال غيبتهم عنا وعدم حضورهم معنا .

(٤) فى ب : قال المؤلف رحمه الله .

(٥) تعزيزا : تعظيما وتبجيلا بجعله شعارا لهم . وفى ب : تعزيرا . وفى هامشه : تعزيزا .

ولا يشارِكُه فيه غَيْرُه ، كذلك يجبُ تخصيص النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم وسائرِ الأنبياء بالصلاة والتسليم ، ولا[1] يشارِكُ فيه سِوَاهم ، كما أمرَ اللهُ به بقوله[2] : ﴿ صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تسليما ﴾ .

ويُذْكَرُ مَنْ سِوَاهم من الأئمةِ وغيرهم بالغفْرانِ والرِّضَا ؛ كما قال تعالى[3] : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِرْ لنا [١٧٣] ولإخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ .

وقال[4] : ﴿ والسابِقُون الأوَّلون من المهاجِرين والأَنْصارِ والذين اتَّبَعوهم بإحسانٍ رضِيَ الله عنهم ﴾ .

وأيضا فهو[5] أمْرٌ لم يَكُنْ معروفا فى الصَّدْرِ الأول[6] ؛ كما قَال أبو عِمْران؛ وإنما أَحدثته الرافضةُ والمتَشَيِّعة[7] فى بعض الأئمة ؛ فشارَكوهم عند الذِّكْرِ لهم بالصلاة ، وساوَوْهم بالنبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم فى ذلك .

---

(١) فى ب : ولا يشاركهم .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٥٦

(٣) سورة الحشر ، آية ١٠

(٤) سورة التوبة ، آية ١٠٠ ، وفى ا : وقال : والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم . بإحسان : بإيمان وإيقان ، وطاعة إلى يوم القيامة .

(٥) فهو : أى الصلاة على غير الأنبياء .

(٦) فى الصدر الأول ؛ أى فى عصر الصحابة ومن قرب منهم .

(٧) الرافضة والمتشيعة : طائفتان مِن أهل البدع والأهواء المخالفين لأهل السنة . والرافضة: اسم جمع لرافضى ؛ وسموا رافضة ؛ من الرفض، وهو الترك ؛ لأنهم رفضوا زيد بن على ابن الحسين لما طلبوا منه أن يتبرأ من الشيخين ، وأن يقول : إما متهما باطلة ، فأبى ، وقال : إن الخلافة فوضت لأبى بكر لمصلحة رأوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة ، فتركوه حتى قتل وصلب .

وأصل معنى الشيعة الجماعة مطلقا ؛ ثم خص هؤلاء الذين يقولون : إن الخلافة حق على . وكلاهما ممن اتفق عليٍ تفضيل على كرم الله وجهه ، وأن الخلافة حقه . (الخفاجى : ٣ — ٥٦١) .

وأيضا(١) فإنَّ التشبُّهَ بأَهْلِ البِدَعِ مَنْهِيٌّ عنه؛ فتَجِبُ مُخالَفَتهم فيما التزموه من ذلك .

وذِكْرُ الصلاةِ على الآلِ والأَزواج مع النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم بحُكْمِ التَّبَعِ والإضافة إليه لا على التخصيص .

[قالوا](٢) : وصلاةُ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم على مَنْ صَلَّى عليه مُجْراها مُجْرَى الدعاء والمُواجهةِ(٣) ، ليس فيها معنى التعظيم والتوقير .

قالوا : وقد قال تعالى(٤) : ﴿ لا تَجْعلوا دُعَاءَ الرَّسولِ بينكم كدُعاء بعضِكم بَعْضًا ﴾ ؛ فكذلك يجبُ أن يكونَ الدعاء له مُخالفا الدُعاء الناسِ بعضِهم لبعض .

وهذا اختيارُ الإمام أَبى المظفَّر الإسْفَرايني من شُيوخنا ، [وبه قال ابنُ عبد البر](٥) .

---

(١) أى ومما يدل أيضا على عدم الصلاة على غير الأنبياء . (٢) ليس فى ا .

(٣) أى المقصود بها الدعاء والرحمة لهم . والمواجهة : حسن المقابلة حال العشرة .

(٤) سورة النور ، آية ٦٣

(٥) ليس فى ب . وابن عبد البر هو صاحب الاستيعاب ، وهو حافظ المغرب .

وقال الخفاجى : واعلم أن التصلية والتسليم على نبينا صلى الله عليه وسلم مطلوبة ، أمرنا بالتعبد بها ، فهى واجبة له على اختلاف محل الوجوب كما تقدم ، والصلاة على غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيضا استقلالا مستحبة ، وما نقل عن مالك إنها منهى عنها مخالف للقول الصحيح . وقال القرطبى : إنه مجمع عليه ، والصلاة على غير الأنبياء تبعا لنبينا صلى الله عليه وسلم مستحبة أيضا ، كما فى التشهد ؛ فلا عبرة بمن خالف فيه أيضا ؛ فلم يبق محل الخلاف غير الصلاة على غير الأنبياء بانفرادهم ، فالصحيح أنه مكروه ، وأن كراهته كراهة تنزيه لا تحريم ؛ لأنه اختص به النبى صلى الله عليه وسلم كما اختص « عز وجل » بالله تعالى . هذا هو الصحيح ؛ فلا يعتد بخلافه . وقد قيل : إن السلام مثل الصلاة مخصوص بالأنبياء أيضا ؛ فلا يقال فى غيرهم : عليه السلام ، كما صرح به الفقهاء ؛ فهو مكروه تنزيها . (الخفاجى : ٣ — ٥٦٢) .

فصـــل

فى حكم زيارةِ قَبْرِه صلّى اللهُ عليه وسلم، وفضيلةِ مَنْ زاره وسَلم عليه وكيف يسلِّمُ ويَدْعُو له

وزيارةُ قَبْره صلَّى اللهُ عليه وسلّم سُنّةٌ من سُنَنِ المسلمين مُجْمَعٌ عليها، وفَضيلةٌ مُرَغَّبٌ(١) فيها: رُوِيَ عن ابْنِ عُمر رضِيَ اللهُ عنه(٢).

[حدثنا القاضى أبو علىّ؛ قال: حدثنا أبو الفَضْل بن خَيْرون؛ قال: حدثنا الحَسَن بن جَعْفَر؛ قال: حدثنا أبو الحَسَن على بن عُمَر الدارَقُطْنى؛ قال: حدثنا القاضى المحامِلىّ؛ قال: حدثنا محمد بن عبد الرزّاقِ؛ قال: حدثنا موسى بن هِلال، عن عَبد الله بن عُمر، عن نافع، عن ابن عمر رضِيَ الله عنهما؛ أنه قال](٣): قال النبىُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم: مَنْ زار قَبْرِى وجَبَتْ له شفاعتى(٤). ٦٦٦

---

(١) أى رغب السلف فيها، وحثوا عليها؛ وزيارة القبور إما ليتذكر بها الموت ويتعظ، وهذا يجرى فى جميعها، أو للدعاء لأهلها المسلمين، كما زار النبى صلى الله عليه وسلم البقيع؛ وهذا مستحب، أو للتبرك بمن فيها من الأنبياء والصالحين؛ فينتفع بزيارتهم؛ فذهب بعض المالكية إلى أنه مخصوص بالأنبياء وأنه فى غيرهم بدعة. وأما فى الأنبياء فهى مشروعة؛ وتوقف فيه السبكى.

وقد يقصد بالزيارة برهم وإكرامهم؛ كزيارة قبر الوالدين، ومن عليه حق لإكرامه؛ فإن الميت يكرم كالحى.

وقد يقصد بالزيارة تأنيس الميت ورحمته؛ وهو مستحب أيضا، لما روى عنه صلى الله عليه وسلم: إن الميت آنس مايكون إذا زاره من كان يحبه فى دار الدنيا.

وزيارته ـ صلى الله عليه وسلم ـ جامعة لهذه المعانى كلها؛ فلهذا كانت سنة، وإن كان غنيا عن الدعاء؛ وما عدا ذلك بدعة كتقبيل القبور وغيره مما يفعله العوام. (الخفاجى: ٣ ـ ٥٦٣). ١٦٦٦

(٢) رواه ابن خزيمة، والبزار، والطبرانى. (٣) ما بين القوسين ليس فى ا.

(٤) شفاعتى: أى سؤالى الله له أن يتجاوز عنه مكافأة له. ومعنى وجبت: تحققت وثبتت؛ فهى ثابتة له بالوعد الصادق لابد منها وليس المراد به الوجوب الشرعى. وروى: حلت له شفاعتى. =

وعن أَنَس بن مالك ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم : مَنْ زارنى فى المدينة مُحْتَسِبا[١] كان فى جِوارى[٢] ، وكنتُ له شَفِيعاً[٣] يوم القيامة[٤] .

وفى حديثٍ[٥] آخر : مَنْ زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى[٦] .

وكَرِه مالك أنْ يقَال : زُرْنا قبْرَ النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلم .

وقد اختُلف فى معنى ذلك ؛ فقيل : كراهة الاسم[٧] ؛ لِمَا وردَ من قَوْلهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : لعن اللهُ زَوَّارات القبور[٨] .

= ويخصه النبي بشفاعة تناسب عظيم عمله ؛ إما بزيادة النعيم ، وإما بتخفيف الأهوال عنه فى ذلك اليوم ؛ وإما بكونه من الذين يحشرون بلا حساب ؛ وإما برفع درجات فى الجنة ، وإما بزيادة شهود الحق والنظر إليه ؛ وإما بغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (الخفاجى : ٣ — ٥٦٤) .

(١) محتسبا : أى ناويا بزيارته وجه الله تعالى من غير غرض ، مخلصا فى نيته ، وقصد إكرامه ، لا ينوى غيره . والاحتساب : افتعال من الحساب ومعناه الاعتداد .

(٢) كان فى جوارى : أى له منزلة رفيعة فى الآخرة . أو المراد أنه يكون فى أمانه وعهده ، فلا يناله مكروه أصلا .

(٣) المراد به شفاعة خاصة غير الشفاعة العامة .

(٤) فى شرح القارى (٢ — ١٤٩) : قال الدلجى : لا أعرف من رواه . قلت : قد رواه العقيلى وغيره بلفظ : من زارنى متعمدا كان فى جوارى يوم القيامة . ورواه البيهقى ولفظه : من زارنى محتسبا إلى المدينة كان فى جوارى يوم القيامة . ورواه أبو عوانة : من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة .

(٥) رواه البيهقى ، والدارقطنى ، والطبرانى ، وسعيد بن منصور ، وابن عساكر ، عن ابن عمر .

(٦) وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم حى فى قبره ؛ يدرى بمن يزوره ، ويرد سلامه .

(٧) كراهة الاسم ؛ أى اسم الزيارة وإطلاقها .

(٨) فلعنهن من حيث إنهن زوارات يقتضى ذم الزيارة .

وهذا الحديث رواه أحمد ، والترمذى ، وابن حبان ، عن أبى هريرة . سنن الترمذى : ٣ — ٣٦٢ ، وابن ماجه : ١ — ٥٠٢

وهذا يردُّه قوله[١] : نُهِيتُم[٢] عن زِيارةِ القبور فزوروها[٣] .

وقوله[٤] : مَنْ زارَ قَبْرِى ؛ فقد أطلق اسْمَ الزيارة .

وقيل : لأن[٥] ذلك لِمَا قِيل إنَّ الزائرَ أفْضَلُ من المَزُور .

وهذا أيضا ليس بشىء ؛ إذ ليس كلُّ زائرٍ بهذه الصفة[٦] ، وليس عموما[٧] ؛ وقد وردَ فى حديثِ أهلِ الجنة : زيارَتُهم لربّهم ؛ ولم يُمْنَعْ هذ اللفظ فى حقه تعالى .

[وقال أبو عمران رحمه الله : إنما كَرِه مالكٌ أن يُقال : طواف الزيارة ، وزُرْنا قَبْرَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، لاستعمالِ الناسِ ذلكَ بينهم بعضهم لبعض ؛ فكرِهَ تسويةَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم مع الناس بهذا اللفظ ؛ وأحبّ أن يُخصّ بأن يُقالَ : سلَّمنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأيضا فإنَّ الزيارةَ مُبَاحةٌ بين الناسِ ، وواجبٌ شَدُّ الرحالِ إلى قبره صلى اللهُ عليه وسلم ؛ يريد بالوجُوب هنا وجوبَ نَدْبٍ وترغيبٍ وتأكيد ، لا وجوبَ فرضٍ][٨] .

---

(١) قوله : قول النبى صلى الله عليه وسلم : والحديث فى سنن ابن ماجه : ١ – ٥٠٣ ، وسنن الترمذى : ٣ – ٣٦١

(٢) قال الخفاجى : والرواية : كنت نهيتكم . . . وفى ب : فزوروها ولا تقولوا هجرا. وفى سنن ابن ماجه : فزوروها ، فإنها تزهد فى الدنيا، وتذكر الآخرة. وفى سنن الترمذى: فزوروها فإنها تذكر الآخرة .

(٣) قال الخفاجى: وهذا الدليل وجوابه أوهن من بيت العنكبوت؛ لأن الأول فى حق النساء المكثرات للزيارة ، وهذا لمطلق زيارة الرجال؛ ودخول النساء تغليبا لا يسلمه المعترض؛ ولكن عهدته على قائله لا على المصنف ؛ فإنه ناقل غير مرتض لما نقله .

(٤) فى الحديث المتقدم عن ابن عمر .

(٥) أى وجه كراهته .

(٦) بهذه الصفة ؛ وهى الأفضلية ؛ فقد يكون مساويا له ، أو أدنى منه .

(٧) وليس عاما فى كل زائر .

(٨) ما بين القوسين ليس فى ا . وهو فى ب بين علامتين ، وأمامه فى هامشه : المعلم عليه ليس من الرواية .

والأَوْلَى عندى أن مَنْعَهُ وكراهةَ مالكٍ له لإضافته إلى قَبْرِ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ؛ وأنه لو قال : زُرْت النبيّ لم يَكْرهه[1] ؛ لقوله صلى اللهُ عليه وسلم : اللهم لا تجعَلْ قبرى وَثَناً يُعْبَدُ بعدى[2] ، اشتدّ غضَبُ اللهِ على قومٍ اتّخذُوا قُبورَ أنبيائهم مساجدَ[3] .

فحمى إضافةَ هذا[4] اللفظِ إلى القبر ، والتشبّه بفعل أولئك[5] ؛ قطعا للذَّرِيعة وحَسْماً[6] للباب . والله أعلم[7] .

قال إسحاقُ بن إبراهيم الفقيه : ومما لم يَزَلْ مِنْ شأْن مَنْ حجَّ المرورُ[8] بالمدينة، والقَصْدُ إلى الصلاة فى مسجدِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، والتبرّكُ برُؤْيةِ

---

(١) قال الخفاجى : وحديث الزيارة روى على وجوه ؛ منها مارواه أبو نعيم عن على كرم الله وجهه : إذا سكن أهل الجنة الجنة أتاهم ملك يقول : إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه ، فيجتمعون ، ثم توضع لهم مائدة . . . الحديث .

ثم قال: قيل : وهو مناف لما قدمه من حديث ابن عمر :من زار قبرى وجبت له شفاعتى، إلا أن يقال : إنه ضعيف ، وإن الصحيح حديث أنس : من زارنى ــ بدون ذكر القبر ؛ إلا أنه غير مسلم ؛ لأن عبد الحق رواه فى الأحكام ولم يتعقبه .

(٢) وثنا : أى كالوثن ، وهو الصنم من الحجارة . بعدى : أى بعد موتى ووضعى فيه .

(٣) مساجد: أى يسجدون لها كما يسجدون للأوثان. والحديث فى الموطأ : ١٧٢، وبعد الحديث قال فى الموطأ : قال ابن عبد البر : لا خلاف عن مالك فى إرسال هذا الحديث .

(٤) حمى : صان . هذا اللفظ : لفظ الزيارة .

(٥) أولئك ؛ أى الكفرة، أو العامة الذين اتخذوا قبور الأنبياء مواطن للسجود .

(٦) وحسما للباب : قطعا وسدا لباب الذريعة .

(٧) قال القارى فى شرحه (٢ ــ ١٥٠) : وفيه أنه وقد ورد ــ بروايات متعددة ــ التصريح بهذه اللفظة، فلا يلتفت إلى هذه العلة؛ منها ما رواه أبو داود الطيالسى: من زار قبرى كنت له شفيعا . ومنها حديث على ــ مرفوعا :من زار قبرى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى. ومن لم يزر قبرى فقد جفانى .

(٨) فى ب : المزور !

رَوْضَتِهِ(١) ومِنبرِهِ وقَبرِهِ ، ومجلسه(٢) ، وملامِسِ(٣) يديه ، ومواطئ قدميه ، والعمودِ الذى كان يَستَنِدُ إليه ، وينزل جبريل بالوَحْى فيه عليه ، وبمَنْ عَمَرهُ(٤) وقصَدَه من الصحابة وأئمة المسلمين ، والاعتبار بذلك كله .

[١٧٤] وقال ابنُ أبى فُدَيك : سمعتُ(٥) بعضَ مَنْ أدْرَكتُ يقول : بلغنَا أنه مَنْ وقف عند قَبْر النبى صلى اللهُ عليه وسلم فتلاَ هــذه الآية(٦) : ﴿ إنَّ اللهَ وملائـكتَه يُصَلُّون على النبى ﴾ ـ ثم قال : صلى الله عليك يا محمدُ ـ مَنْ يَقُولُهَا سبعين مرةً ناداه ملَك : صلى اللهُ عليكَ يا فلان ؛ ولم(٧) تَسْقط له حاجة .

وعن يزيد بن أبى سَعِيد المَهْرِى : قدمْتُ على عُمر بن عبد العزيز ، فلما وَدَّعته قال لى : إليكَ(٨) حاجةٌ ؛ إذا أتيتَ المدينةَ سترى قَبْرَ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأقرِه(٩) منّى السلام .

وقال غيره : وكان يُبْرِد(١٠) إليه البريدَ من الشام .

(١) هى ما بين قبره الشريف ومنبره . وسميت روضة لقوله صلى الله عليه وسلم فيها : إنها روضة من رياض الجنة .

(٢) مجلسه : موضع جلوسه فى الروضة .

(٣) ملامس يديه : أى المحال التى لمسها بيده الشريفة .

(٤) عمره : سكنه . وقال القارى (٢ ـ ١٥١) : من عمره : أى عمر مسجده مبنى ومعنى . وقيل : من زاره .

(٥) هذا الحديث رواه البيهقى .

(٦) سورة الأحزاب ، آية ٥٦ (٧) أى لاترد ولا تخيب .

(٨) إليك حاجة : أى أقدم إليك حاجة أسألك قضاءها ، وهى . . .

(٩) أقره منى السلام : أى بلغه سلامى ، وأنى مسلم عليه . وفى ا : فأقرئه .

(١٠) وكان : أى عمر بن عبد العزيز . يبرد : يرسل ، والبريد : الرسول الذى يكون مستعجلا لتبليغ أمر الخلفاء ونحوهم . إليه : إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبلغه سلامه يقرئه السلام ، لا لقصد غير ذلك البتة . وفى ا : يبرد ـ بتشديد الراء .

قال بعضُهم : رأيتُ أنَس بن مالك أَتَى قَبْرَ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، فوقفَ فرفع يدَيْهِ[١] حتى ظننتُ أنه افتتح الصلاةَ ، فسلَّم على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ ثم انصرف .

وقال مالك ـ فى رواية ابنِ وهب : إذا سلَّم[٢] على النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلَّم ، وَدَعَا ، يقِفُ ووَجْهُه إلى القبر الشريف لا إلى القِبْلة ، ويَدْنُو[٣] ، ويُسَلِّمُ ، ولا يمسُّ القَبْرَ بيده .

وقال[٤] فى المبسوط : لا أَرَى أنْ يَقِفَ عند قَبْر النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم يَدْعو ، ولـكِنْ يسلِّمُ ويَمْضِى[٥] .

قال ابنُ أبى مُلَيْكَة[٦] : مَنْ أحبَّ أنْ يقومَ وِجَاهَ[٧] النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فليَجْعل القِنْديلِ الذى فى القِبْلةِ عند القَبْرِ على رأسه[٨] .

وقال نافع[٩] : كان ابنُ عُمر يُسلِّمُ على القَبْر ؛ رأيتُه مائةَ مرة وَأكثر يجىء إلى القبر فيقول : السلامُ عَلَى النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، السلامُ على أبى بكر ، السلام عَلَى أبى ، ثم ينصرف[١٠] .

---

(١) قال القارى (٢ ـ ١٥٢) : لا يعرف استحباب رفع اليدين فى ذلك المقام عن أحد من الأعلام ، ولعله دعا الله سبحانه وتشفع به عليه السلام .

(٢) إذا سلم : أى الزائر لقبره الشريف . (٣) ويدنو : أى يقرب من القبر .

(٤) القائل : هو مالك . والمبسوط : اسم كتاب لمالك .

(٥) ويمضى : ينصرف من عنده من غير وقوف . قال القارى (٢ ـ ١٥٢) : هذا بظاهره يناقض ماسبق عنه ، إلا أن يقال : هذا بيان الأكمل ، فتأمل .

(٦) ابن أبى مليكة : تابعى تيمى ، مؤذن ابن الزبير وقاضيه ؛ قال : بعثنى ابن الزبير على قضاء الطائف ، فكنت أسأل ابن عباس . وأما أبو مليكة ـ أبوه ـ فصحابى .

(٧) وجاه : فى مواجهته ومقابلته . وتكسر واوه وتضم . والضبط المثبت فى ا ، ب .

(٨) القنديل : مصباح من زجاج يعلق . على رأسه : محاذيا لها .

(٩) نافع : هو مولى ابن عمر ، من أئمة التابعين وأعلامهم . (١٠) رواه البيهقى .

[ورُئى ابنُ عُمر واضعاً يَدَهُ على مَقْعَد النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم من المنبر ، ثمّ وضعها على وجهه[١] .

وعن ابن قُسَيط والعُتْبى : كان أصحابُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم إذا خلا المسجد جَسُّوا[٢] رُمّانة المِنْبر التى تَلِي القَبْرَ بميَامنِهم[٣] ، ثم اسْتَقْبَلُوا القِبلةَ يَدْعُون][٤] .

وفى الموطأ[٥] - من رواية [١٧٦] يحيى بن يحيى اللَّيْثى - أنه كان يقفُ على قبْرِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فيصلّى على النبيّ ، وعلى أبى بكر ، وعُمر .

وعن ابن القاسم والقَعْنَبيّ : ويدْعُو لأبى بكر ، وعُمر .

قال مالك - فى رواية ابنِ وَهْب : يقولُ المسلِّمُ : السـلام عليكَ أيُّها النبيّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه .

قال فى المبسوط : ويُسَلِّم على أبى بكر ، وعُمر .

قال القاضى أبو الوليد الباجى : وعندى[٦] أنه يَدْعُو للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم بلَفْظِ الصلاةِ ، ولأبى بكر[٧] ، وعُمر ، كما فى حديثِ ابن عُمر من الخِلاَف[٨] .

وقال ابنُ حبيب : ويقولُ إذا دخل مسجد الرسول : بسم الله ، وسلام عَلَى رسولِ الله عليه السلام ، السلامُ علينا من ربّنا ، وصلّى اللهُ وملائكتُه عَلَى محمد .

---

(١) ورواه ابن سعد عن عبد الرحمن بن عبد القارى أنه رآه واضعا يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) جسوا: أى مسوا . ورمانة المنبر ؛ أى المقدة المشابهة للرمانة. وفى ب :جلسوا بزمانة.

(٣) فى ب : تيمنا .

(٤) ليس فى ا ؛ وهو فى ب ، وأمامه علامة الصحة .

(٥) الموطأ : ١ - ١٦٦

(٦) وعندى : أى الراجح عندى .

(٧) يدعو لأبى بكر وعمر بالسلامة من كل مكروه ، ولا يسلم عليهما .

(٨) من الخلاف : أى مخالفة الدعاء لهما للدعاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

اللّهُمَّ اغفِرْ لى ذُنوبى ، وافْتَحْ(١) لى أبوابَ رَحْمَتِك وجَنَّتك ، واحفَظْنى من الشيطان الرجيم ، ثم اقصِدْ إلى الرَّوْضة ؛ وهى ما بين القَبْر والمِنبر فارْكَعْ(٢) فيها ركعتين قبل وقوفك بالقَبْر تحْمَدَ اللهَ فيهما وتسأله تمامَ ما خرجْتَ إليه والعَوْنَ عليه .

وإنْ كانت رَكعَتَاكَ فى غير الروضة أجزأتاك ؛ وفى الروضة أفضلُ .

وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم : « ما بَيْنَ مِنْبَرِى وقَبْرِى رَوْضَةٌ(٣) من رِيَاض الجنَّةِ ؛ ومِنْبرى عَلَى تُرْعة من تُرَعِ الجنَّة(٤) » .

ثم تَقِف بالقَبْرِ مُتَوَاضِعاً متوقِّرا(٥) ، فتصلِّى عليه وتُثْنِى بما يَحْضُرُكَ ، وتسلِّم عَلَى أبى بكر وعُمر ، وتَدْعُو لهما .

وأَكْثِرْ من الصلاةِ فى مسجدِ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم بالليل والنهار ، ولاتَدَعْ(٦) أن تأتى مسجدَ قُبَاء وقبورَ الشهداء(٧) .

وقال مالك [١٧٥] ـ فى كتاب محمد(٨) : ويسلّم عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم إذا دخل وخرج(٩) ـ يعنى فى المدينة ـ وفيما بين ذلك(١٠) .

---

(١) أى يسرلى ما يوصلنى إليهما : الرحمة ، والجنة .

(٢) اركع فيها ركعتين ؛ تحية المسجد ؛ شكرا لهذه النعمة .

(٣) قال الخفاجى : معنى كونه روضة من رياض الجنة أنه يؤدى إلى دخولها ، فكأنه منها. وفى ا : ما بين بيتى ومنبرى .

(٤) الجزء الأول من الحديث فى سنن ابن ماجه: ١ ـ ١٩٧ ، وهو مسند أحمد: ٣ ـ ٦٤ وفى هامش ا : الترعة : الباب . والترعة أيضا: الروضة . والترعة : العتبة .

(٥) متواضعا متوقرا : أى بتواضع ووقار ؛ أى سكون؛ تأدبا بهيبة وإجلال وغض طرف.

(٦) ولاتدع: لاتترك. (٧) قباء: موضع قريب من المدينة وقبور الشهداء: شهداء أحد.

(٨) يعنى واحدا من أصحابه. قال القارى (٢ ـ ١٥٤): ولعله محمد بن الحسن، من أصحاب أبى حنيفة ، فإنه روى عنه الموطأ . وفى هامش ب . يعنى ابن المواز المصرى .

(٩) إذا دخل وخرج : أى دخل مسجد المدينة وخرج منه بالفعل ؛ لا عند إرادة ذلك .

(١٠) وفيما بين ذلك: أى فى أيام إقامته بالمدينة، وحين لايدخل المسجد، ويسلم عليه صلى الله عليه وسلم كلما دخل وخرج فيه .

وقال محمد : وإذا خرج جعل آخِرَ[١] عَهْدِهِ الوقوفَ بالقَبْر ، وكذلك من خَرج مسافرا .

وَرَوَى ابنُ وَهْب عن فاطِمَةَ بنتِ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم ـ أن النبيّ صلى اللهُ عليه وَسلم قال : « إذا دَخلْتَ المسجدَ[٢] فَصَلِّ عَلَى النبيِّ صلى اللهُ عليه وَسلم ، وقل: اللهُمَّ اغفِرْ لى ذُنوبى ، وافتح لى أبوابَ رحمتك . وإذا خرجْتَ فصَلِّ عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وَسلم ، وقل : اللهمّ اغفِرْ لى ذُنوبى ، وافْتَح[٣] لى أبوابَ فَضْلِكَ[٤] » .

وفى رواية أُخرى : فليسلِّم ـ مكانَ : فليصلّ فيه ، ويقول إذا خرج : اللهم إنى أسألكَ مِن فضلك .

وفى أُخرى : اللهم احفَظْنى من الشيطان [الرجيم][٥] .

وعن مُحمد بن سيرين : كان الناسُ يقولون إذا دخلوا المسجدَ: صلّى اللهُ وملائكتهُ عَلَى محمد . السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ وَرحمةُ اللهِ ، باسْمِ اللهِ دخلنا ، وباسْمِ اللهِ خرجنا، وعَلَى اللهِ[٦] توكّلنا .

وكانوا يقولون إذا خرجوا مِثْلَ ذلك[٧] .

---

(١) إذا خرج : أى أراد الزائر أن يخرج من المدينة .

(٢) فى شرح القارى (٢ ـ ١٥٥) :قال الدلجى: بفتح تاء الخطاب ،ولا أعلم من رواه. قلت : بل الصواب أن المراد به عموم الخطاب .

(٣) فتح الباب : كناية عن تسهيل أموره ، وتسهيل مسالكه وأسباب معاشه .

(٤) حديث فاطمة هذا رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والترمذى ـ وحسنه : وارجع إليه تاما فى سنن ابن ماجه : ٢٥٣ ، وسنن الترمذى: ٢ ـ ١٢٧، وروته فاطمة بنت الحسين عن فاطمة الكبرى . وقال : الترمذى بعد تخريج هذا الحديث ، أى حديث فاطمة : حديث صحيح ، وليس إسناده بمتصل . وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى، إنما عاشت فاطمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم أشهرا . والحديث فى مسلم أيضا : ٤٩٤

(٥) ليس فى ا .

(٦) على الله توكلنا : أى فوضنا له أمورنا كلها .

(٧) قال الخفاجى : وهذا ليس خاصا بمسجد المدينة ؛ بل هو مستحب فى كل مسجد .

وعن فاطمةَ أيضا[١] : كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم إذا دخل المسجدَ قال : صلى اللهُ عَلَى محمد وسلّم ؛ ثم[٢] ذكر مِثلَ حديثِ فاطمةَ قبْلَ هذا .

وفى روايةٍ : حمِدَ اللهَ وَسمّى[٣] ، وصَلّى عَلَى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وذكر مثله .

وفى روايةٍ : باسْمِ[٤] الله ، والسلامُ عَلَى رسولِ الله[٥] .

وعن غيرها[٦] : كان رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلم إذا دخل المسجدَ قال : « اللهمّ افتحْ لى أبوابَ رحمتك ، ويَسِّرْ لى[٧] أبوابَ رِزْقِك » .

وعن أبى هُريرة : « إذا دخل أحدُكم المسجدَ فليصلّ عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وَسلم ، وليَقُلْ : اللهمّ افتحْ لى[٨] » .

وقال مالك فى « المبسوط » : وليس يلزمُ مَنْ دخَلَ المسجدَ وَخرجَ منه من أهل المدينة[٩] الوقوفُ بالقبر ؛ وَإنما ذلك للغُرباء[١٠] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدعوات .

(٢) ثم ذكر : أى ابن سيرين .

(٣) وسمى : أى سمى الله تيمنا وتبركا ليتم ماشرع فيه . وهذه الرواية للترمذى :٣–١٢٨

(٤) أى يقول إذا دخل المسجد . . .

(٥) قال الخفاجى : فهذا صريح فى أن ما فعله الناس فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ؛ فهم مقتدون به .

(٦) عن غيرها : أى عن غير فاطمة .

(٧) يسر لى أبواب رزقك : سهل أسبابه .

(٨) قال الخفاجى (٣ – ٥٧٦) :حاصله أن هذه الأحاديث تدل على أن من دخل المسجد، أو خرج منه، أو مر به – أى مسجد كان – يستحب له أن يسمى الله ويسلم ويصلى على رسول الله ، ويدعو بخير من خيرى الدنيا والآخرة . والمأثور أفضل ؛وهذا مما اتفقوا عليه،ووردت فيه أحاديث صحيحة فى باب الدعوات .

(٩) من أهل المدينة : المقيمين بها . (١٠) للغرباء : الذين جاءوا المدينة للزيارة .

وقال فيه[١] أيضا : لا بَأْسَ لِمَنْ قدمَ مِنْ سَفَرٍ[٢] أن يقِفَ على قَبْرِ النبيّ صلى اللهُ عليه وَسلم ، فيصلّى عليه وَيَدْعُو له وَلأَبى بكر وَعُمرَ .

فقيل له[٣] : فإنَّ ناساً من أهل المدينة لا يَقْدَمون من سفَرٍ وَلا يريدونه[٤] ، يفعلون[٥] ذلك فى اليوم مرةً أوأ كثر ؛ وَربما وَقفوا فى الجمعة أو فى الأيام المرةَ وَالمرتين أو أ كثر عند القبر فيسلّمون وَيَدْعُونَ ساعةً[٦] !

فقال[٧] : لم يَبْلُغنى[٨] هذا عن أَحدٍ من أهل الفِقْه ببلدنا ، وَتَرْكُه وَاسع[٩] ، وَلا يُصْلِحُ آخر هذه الأمة إلا ما أَصلح أَوّلها ؛ ولم يَبْلغنِى عن أَول هذه الأمّة وَصَدْرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ، وَيُكره إلا لِمَنْ جاء من سفَرٍ أو أراده .

قال ابنُ القاسم : وَرأَيتُ أهلَ المدينةِ إذا خرجوا منها أو دخلوها أتَوا القَبْرَ فسلّموا ؛ قال : وَذلك رَأْيى[١٠] .

قال الباجىّ : ففَرّقَ بين أَهلالمدينة وَالغُرَباء ؛ لأَنَّ الغرباء قَصدوا لذلك[١١] ؛ وَأَهل المدينة مُقيمون بها لم يَقْصِدُوها من أَجل القبر وَالتسليم[١٢] .

---

(١) فيه : فى كتاب المبسوط . (٢) أى من أهل المدينة .

(٣) فقيل له : أى لمالك . (٤) أى هم مقيمون .

(٥) يفعلون ذلك : أى الوقوف عند القبر والصلاة عليه ، والدعاء لصاحبيه .

(٦) يسلمون على النبى ، ويدعون لأبى بكر وعمر . (٧) فقال : أى مالك .

(٨) لم يبلغنى هذا : أى وقوف المدنى من غير سفر عند القبر .

(٩) وتركه واسع : أى أكثر وأولى . وفى شرح القارى (٢ – ١٥٦) : وتركه واسع ؛ أى جائز ، ولوفعله فسائغ شائع .

(١٠) فى شرح الخفاجى : وذلك رأى : أى قول لمالك . قال فى نسيم الرياض: وفى نسخة: رأيى – بالإضافة ؛ أى إنه يقوله .

(١١) قصدوا لذلك : أى قصدوا المدينة للزيارة ، فينبغى لهم فعل ذلك فى كل حين .

(١٢) فى نسيم الرياض : قال السبكى فى كتابه «شفاء السقام» – بعد نقل ماهنا : مذهب مالك أن الزيارة قربة؛ لكنه كره الإكثار منهم للمقيم بالمدينة على قاعدته فى سد الذرائع. =

وَقال صلى اللهُ عليه وَسلم(١) : « اللهمّ لا تجعلْ قَبرِى وَثناً(٢) يُعْبَدُ ؛ اشتدّ غضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتخذُوا قبورَ أنبيائهم مَساجدَ(٣) » .

وَقال(٤) : « لا تجعلوا قَبرِى عيدا(٥) » .

ومن كتاب أحمد بن سعيد [١٧٦] الهندى ـ فيمن وَقف بالقَبرِ : لا يَلْصَقُ(٦) به ، وَلا يَمسُّهُ ، وَلا يقف عنده طَوِيلا(٧) .

وَفى العُتْبِيّة(٨) : يَبْدَأُ بالركوع قبل السلام(٩) فى مسجدِ النبيّ صلى اللهُ عليه وَسلم ؛ وَأحَبُّ مواضِـع التنفّل فيه مُصَلّى(١٠) النبيّ حيث العمودُ المُخَلّق(١١) .

= وغيره من أهل المذهب قالوا باستحباب الإكثار منها مطلقا، واتفقوا عليه، وهو الحق الذى لا شبهة فيه .

(١) فى حديث رواه عبد الرزاق ، ومالك فى الموطأ ، عن عطاء بن يسار : موطــأ مالك : ١٧٢ (٢) وثنا : أى كالوثن ، وهو الصنم . يعبد : أى يتخذ معبودا .

(٣) مساجد : أى يسجدون لها كما يسجدون لله .

(٤) فى حديث رواه ابن أبى شيبة وغيره بسند متصل .

(٥) عيدا: أى كالعيد باجتماع الناس عنده . (٦) لايلصق به : أى لايلصق صدره به .

(٧) فى نسيم الرياض : فلا يقبله ؛ فيكره مسه وتقبيله وإلصاق صدره ؛ لأنه ترك أدب ؛ وكذلك كل ضريح يكره فيه ذلك ؛ وهذا أمر غير مجمع عليه ؛ ولهذا قال أحمد ، والطبرى : لابأس بتقبيله والتزامه . وروى أن أبا أيوب الأنصارى كان يلتزم القبر الشريف ؛ قيل : وهذا لغير من لم يغلبه الشوق والمحبة . وهو كلام حسن .

(٨) العتبية : منسوبة إلى فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى القرطبى مصنفها، وهو من موالى عتبة بن أبى سفيان ، أخذ عن يحيى بن يحيى الليثى وطبقته .

(٩) يبدأ بالركوع : المراد الصلاة ؛ أى تحية المسجد إذا دخله . قبل السلام : قبل السلام على قبره ، وزيارته .

(١٠) مصلى النبى : أى محل صلاته المأثور ؛ وبين محله بقوله : حيث العمود .

(١١) المخلق : ماعليه الخلوق ، وهو نوع من الطيب أصفر، فيه زعفران ؛ وسمى العمود مخلقا ؛ لأنه كان يطيب بالخلوق تعظيما .

وَأمَّا فى الفريضة فالتقدُّمُ إلى الصفوف وَالتنفُّلُ فيــه للغرباء أحبُّ إلىَّ من التنفّل فى البيُوت[(١)] .

فصل

فيما يلزم مَنْ دخل مسجدَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم من الأدب سِوَى ما قدمناه ، وفَضْلِهِ وَفَضْلِ الصلاةِ فيه وَفى مسجد مكّة ، وَذِكْرِ قَبْرِهِ وَمِنبره ، وَفَضْل سُكْنَى المدينة وَمكّة

قال اللهُ تعــالى[(٢)] : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقْوَى مِنْ أوّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فيهِ ﴾ .

رُوِى[(٣)] أنَّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم سُئل : أىُّ مسجدٍ هو؟ قال: مَسجدى هذا. وهو قولُ ابْنِ المسيَّب ، وَزَيْد بن ثابت ، وَابن عمر ، وَمالك بن أنس ، وَغيرهم. وَعن ابن عبّاس أنه مسجدُ قُباء[(٤)] .

---

(١) هذا مستثنى مما قاله الفقهاء وأطلقوه : إن الأفضل فى الفرض الصلاة فى المساجد ، والنافلة الأفضل فيها أن تصلى فى المنازل . ووجه المخالفة أن الصلاة فى مسجد المدينة أفضل من ألف صلاة فى غيره . وهذا مبنى على أن المضاعفة تختص بمسجد المدينة .

وذهب بعضهم إلى أن الصلاة فى المدينة مطلقا مضاعفة، لافرق بين فرضها ونفلها، ومسجدها وغيره ؛ فعلى هذا نافلتها كثيرها، إلا أن الغريب يستحب له الإكثار من المكث في مسجدها والزيارة والتبرك بمواطن عبادته ؛ فله شأن يخصه ؛ وهو الظاهر .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٠٨

(٣) الحديث رواه مسلم : ١٠١٥ الترمذى : ٥ ـ ٢٨٠ أيضا .

(٤) قال الخفاجى : وهو الذى ارتضاه المفسرون ، وهو الظاهر . والأول مروى عن كبار الصحابة مسندا له صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم وأصحاب السنن ؛ ولذا قيل : كان ينبغى للمصنف أن يقول : صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاروى ـ بصيغة المجهول التى يغلب استعمالها فى الضعيف ، فكأنه إيماء إلى أن الأقوى ما قاله ابن عباس . وانظر أيضا : سنن النسائى : ٢ ـ ٣٠

حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقراءتى عليه ؛ قال : حدثنا الحُسَيْن بن محمد الحافظ، حدثنا أبو عُمر النَّمرى ، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن ، حدثنا أبو بكر بن دَاسَة ، حدثنا أبو داود ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سُفْيَان ، عن الزُّهرى ، عن سَعِيد بن المسيِّب ، عن أبى هُريرة رضِىَ الله عنه ، عن النبى صلى اللهُ عليه وسلّم ؛ قال : لاتُشَدُّ الرِّحال[١] إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى[٢] هذا ، والمسجد الأقْصَى .

وقد تقدّمت الآثارُ فى الصلاةِ والسلام على النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم عند دخول المسجد .

وعن عبد الله[٣] بن عَمْرو بنِ العاص ــ أن النبى صلّى الله عليه وسلم كان إذا دخل المسجدَ قال : أعوذُ[٤] بالله العظيم ، وبوَجْهه الكريم ، وسلطانه القديم[٥] ، من الشيطان الرَّجيم[٦] .

وقال مالك[٧] رحمه الله : سمع عُمر بن الخطاب رضِىَ اللهُ عنه صوتا فى المسجد ،

(١) الرحال : جمع رحل ، وهو للجمال كالسروج للخيل . وقوله : لاتشد الرحال : كناية عن منع السفر ؛ أى لاينبغى السفر وقطع المسافة .

(٢) المسجد الحرام : مسجد مكة . ومسجدى هذا : مسجد المدينة المعروف . والحديث فى صحيح مسلم : ١٠١٤ ، وسنن النسائى : ٢ ــ ٣١

(٣) فى حديث رواه أبو داود بإسناد جيد . سنن أبى داود : ١ ــ ٤٨

(٤) أعوذ : ألتجىء فى أمورى كلها ، وفى التوفيق للعبادة وإخلاصها ، إلى عظيم لايخاف من التجأ إليه .

(٥) سلطانه : قهره وغلبته . القديم : الثابت له فى الأزل والقدم .

(٦) الرجيم : المطرود عن رحمة الله وقربه .

قال الخفاجى : وتتمة الحديث : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم . وفى سنن أبى داود : تمامه : قال : أقط ؟ قلت : نعم . قال : فإذا قال ذلك . . .

(٧) فى حديث رواه البخارى ، والنسائى : صحيح البخارى : ١ ــ ١٢٠

فدعا بِصاحبه ؛ فقال : مِمّنْ أنتَ ؟ قال: رجل مِنْ ثَقِيف . قال: لو كنْتَ من هاتين القَرْيتين[١] لأدَّبْتُكَ ؛ إنّ مسجدَنا لا يُرفَع فيه الصوتُ .

قال محمد بن مَسْلَمَة : لا يَنْبَغى لأحدٍ أنْ يعتمدَ[٢] المسجدَ برَفْعِ الصوت ، ولا بشىء من الأذى ، وأن يُنزَّهَ[٣] عمّا يُكرَه .

قال القاضى[٤] : حكى ذلك كله القاضى إسماعيل فى مَبْسُوطِه[٥] ، فى باب فَضْل مسجدِ النبيِّ صلى عليه اللهُ وسلم . والعلماء كلُّهم مُتَّفِقُون [على][٦] أنَّ حُكْمَ سائر المساجدِ هذا الُحكْم .

قال القاضى إسماعيل : وقال محمد بن مَسْلَمَة : ويُكره فى مسجدِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم الَجهْرُ على المصلّين فيما يخلِّطُ عليهم صلواتِهم[٧] ، وليس مما تُخَصُّ به المساجدُ رَفْعُ الصوتِ[٨] ، قد كُرِهَ رَفْعُ الصوتِ بالتّلْبِيَةِ فى مساجدِ[٩] الجماعات إلاّ المسجدَ الحرامَ ومسجد مِنى[١٠] .

وقال أبو هُرَيرة ، عنه صلَّى اللهُ عليه وسلم : صلاةٌ فى مسجدى هذا خَيْرٌ مِنْ ألفِ صلاةٍ فيما سواه ، إلا المسجدَ الحرام[١١] .

---

(١) من هاتين القريتين : يعنى مكة والمدينة .

(٢) يعتمد المسجد : يقصده .   (٣) ينزه : يبعد .

(٤) هو المؤلف . وفى ب : قال المؤلف رحمه الله .

(٥) فى ا : فى المبسوطة .   (٦) ليس فى ا .

(٧) أى يشوش عليهم .   (٨) وليس : أى كراهة رفع الصوت .

(٩) مساجد الجماعات : أى التى يجتمع فيها لصلاة الجمعة ونحوها .

(١٠) فى ب : ومسجدنا : يعنى مسجد المدينة .

(١١) المسجد الحرام: مسجد مكة المشرفة. وسمى حراما لحرمة القتال فيه ،وكذا الصيد ، وقطع أشجاره . قال الخفاجى: وتتمة الحديث: وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى هذا . والحديث فى الموطأ : ١ ـ ١٩٦ ، وصحيح مسلم : ١٠١٢

قال القاضى[١] : اختلف الناسُ فى معنى هذا الاستثناء على اختلافهم فى المُفَاضَلة بين مكة والمدينة ؛ فذهب مالك فى رواية أشهب عنه، وقاله ابنُ نافع صاحبه، وجماعةُ أصحابه - إلى أنّ [١٧٧] معنى الحديث أن الصلاةَ فى مسجد الرسولِ أفضلُ من الصلاةِ فى سائرِ[٢] المساجد بألف صلاةٍ إلّا المسجدَ الحرام ؛ فإنَّ الصلاةَ فى مسجد النبى صلى اللهُ عليه وسلم أفضلُ من الصلاةِ فيه بدون الألف[٣] .

واحتجُّوا بما رُوِى[٤] عن عُمَر بن الخطاب رضى اللهُ عنه: صلاةٌ فى المسجد الحرام خَيْرٌ من مائة صلاةٍ فيما سواه؛ فتأتى فَضِيلةُ مسجدِ الرسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم بتِسْعمائة، وعلى غيره بألف .

وهذا مَبْنِيٌّ على تَفْضِيلِ المدينة على مَكَّة على ما قدّمناه ؛ وهو[٥] قولُ عُمر ابن الخطاب ، ومالك ، وأكثر المدنيين[٦] .

وذهب أهلُ مكّةَ والكوفَةِ إلى تفضيل مكةَ ؛ وهو قولُ عطاء ، وابنُ وهب ، وابنُ حَبِيب من أصحاب مالك ، وحكاه السَّاجى عن الشافعى ؛ وحملوا الاستثناء

(١) هو المؤلف . (٢) سائر المساجد : باقيها .

(٣) قال الخفاجى : أى أقل منه . وهو تأويل بعيد ، وممن استبعده من المالكية ابن عبدالبر ، وناهيك به ، لما ثبت فى مسند أحمد عن عبدالله بن الزبير - أنه صلى الله عليه وسلم قال : صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة فى مسجدى هذا ، وسيذكره المصنف قريبا ؛ وهو حديث حسن كما ذكره البيهقى. كيف لا وقد مدحه الله تعالى ، وأمر بالحج إليه وفى الحديث أيضا أنه صلى الله عليه وسلم وقف على راحلته بمكة ، وهو يقول : والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولو لاأنى أخرجت منك ما خرجت . كما رواه الترمذى والنسائى، وقال : إنه حديث حسن . وفى هامشه ب : الف - بدل الألف .

(٤) واحتجوا ؛ أى لما ذهبوا إليه من تفضيل المدينة .

(٥) وهو ؛ أى تفضيلها عليها .

(٦) وأكثر المدنيين : أى علماؤها .

فى الحديث المتقدِّم على ظاهره ، وأنَّ الصلاةَ فى المسجد الحرام أفضلُ ؛ واحتجُّوا بحديثِ [عَبْد الله](١) بن الزُّبَير ، عن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم(٢) بمثْلِ حديثِ أبى هريرة ؛ وفيه : وصلاةٌ فى المسجد الحرام أفضلُ من الصلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة .

ورَوى قتادة مِثْلَه ؛ فيأتِى فَضْلُ الصلاةِ فى المسجدِ الحرام على هذا على الصلاة فى سائر المساجد بمائة ألف .

ولا خِلَافَ(٣) أنَّ موضِعَ قَبْرِه أفضلُ بِقَاع الأرض .

قال القاضى أبو الوليد الباجىّ : الذى يقتَضِيه الحديثُ مخالفةُ حُـكْمِ مسجدِ مكّةَ لسائر المساجدِ(٤) ، ولا يُعْلَمَ منه حُـكْمُها مع المدينة(٥) .

وذهب الطَّحَاوى إلى أَنَّ هذا التفضيلَ إنما هو فى صلاةِ الفَرْض .

وذهب مُطَرِّف من أصحابنا إلى أَنَّ ذلك فى النافلة أيْضاً ؛ قال : وجمعةٌ خيرٌ من جمعةٍ ، ورمضان خَيْرٌ من(٦) رمضان .

وقد ذكر عبد الرزاق فى تفضيل رمضان بالمدينةِ وغيرها حديثا نحوه .

وقال صلّى اللهُ عليه وسلم(٧) : ما بين بَيْتِى ومِنْبَرى رَوْضَةٌ من رياض الجنة .

---

(١) ليس فى ا .

(٢) الذى أخرجه أحمد ، وابن حبان .

(٣) قال السبكى : الإجماع على أن قبره صلى الله عليه وسلم أفضل البقاع ؛ وهو مستثنى من تفضيل مكة على المدينة .

(٤) قال الخفاجى : حتى مسجد الرسول ؛ لأنه ذكر فيه التفاضل بين الصلاة فى المسجدين .

(٥) حكمها ؛ أى حـكم مكة فى التفاضل . مع المدينة : بالقياس إليها بالتفاضل .

(٦) وهو ما رواه الطبرانى وغيره عن بلال أنه صلى الله عليه وسلم قال : صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها .

(٧) الحديث فى الموطأ : ١ — ١٩٧ ، وصحيح مسلم : ١٠١٠

ومثلُه عن أبى هُريرة ، وأبى سعيد ؛ وزادا[١] : ومِنْبَرِى على حَوْضِى .

وفى حديث آخر : مِنْبَرِى على تُرْعةٍ من تُرَعِ الجنة .

قال الطبرى : فيه مَعْنَيان :

أحدهما ـ أن المراد بالبيت بيتُ سُكْنَاه على الظاهر، مع أنه رُوِى ما يبيّنه[٢] : بين حُجْرَتى ومنبرى .

والثانى ـ أنَّ البيتَ هنا القَبْرُ ؛ وهو قولُ زَيْد بن أسْلَمَ فى هذا الحديث ، كما رُوِىَ : بين قبرى ومِنبرى . قال الطَّبَرى : وإذا كان قَبْرُهُ فى بيتِه اتّفقت معانى الروايات ، ولم يكن بينها خِلَاف ؛ لأن قَبْره فى حجرته ، وهو بَيْتُه .

وقولُه : ومِنْبَرِى على حَوْضِى : قيل يحتمل أنه مِنْبره بعَيْنه الذى كان فى الدنيا؛ وهو أظهر .

والثانى ـ أن يكون له هناك منبر[٣] .

والثالث: أن قَصْدَ مِنْبره والحضورَ عنده لملازمةِ الأعمالِ الصالحة يُوردُ الحوض، ويوجبُ الشُّرْبَ منه ، قاله الباجى .

وقوله : رَوْضَة مِنْ رياضِ الجنة يحتمل معنيين :

أحدهما ـ أنه موجِبٌ[٤] لذلك، وأنَّ الدعاء والصلاةَ فيه يستحقُّ ذلك من الثواب؛ كما قيل[٥] : الجنّةُ تحت ظِلَالِ السيوف[٦] .

---

(١) فى ب : وزاد . صحيح مسلم : ١٠١١

(٢) مايبينه ويعين المراد منه ، وهو : مابين حجرتى . . .

(٣) هناك : أى فى المحشر عند الحوض . وما تقدم من قوله: «قيل يحتمل ... » هو الأول.

(٤) موجب لذلك : أى مقتض له اقتضاء محققا .

(٥) فى حديث صحيح فى الترغيب فى الجهاد والشهادة ـ رواه الحاكم فى مستدركه .

(٦) ظلال السيوف : كناية عن القتال بها .

والثانى ــ أنَّ تلكَ البُقْعَةَ قد ينقُلها اللهُ فتكون فى الجنةِ بعينها ؛ قاله الداودِى(١) .

ورَوَى [١٧٨] ابنُ عمر(٢) وجماعةٌ من الصحابة أنَّ النبىَّ صلّى اللهُ عليه وسلم قال فى المدينة: لايَصْبِرُ على لَأْوَائها(٣) وشِدَّتِها أحدٌ إلاَّ كنْتُ له شَهيدا أو شفِيعا يَوْمَ القيامة .

وقال فيمن تحمَّل(٤) عن المدينة : والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يَعلَمُون(٥) .

وقال(٦) : إنما المدينةُ كالكِير(٧) تَنْفِى خَبَثَها ، ويَنْصَعُ طَيِّبُها(٨) .

---

(١) قال ابن حجر : إن معنى قوله : روضة . . . أنه كروضة من رياض الجنة فى نزول الرحمة وحصول السعادة لمن يلازم حق ذكرها ؛ لاسيما فى عهده صلى الله عليه وسلم ؛ فهو تشبيه بليغ ؛ ومعناه أن العبادة فيه تؤدى إلى الجنة .

(٢) فى حديث رواه مسلم : صحيح مسلم : ٩٩٢

(٣) اللأْواء : الشدة والمشقة والضيق ، وجاءت بمعنى القحط .

(٤) تحمل عن المدينة : رحل عنها وفارقها مختارا لسكنى غيرها .

(٥) الحديث فى البخارى .

(٦) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ١٠٠٥ ، والموطأ : ٨٨٦ ، وسنن الترمذى : ٥ ــ ٧٢٠

(٧) الكير : آلة للحداد ينفخ بها النار لإيقادها على الحديد .

(٨) أى تخرج ماخبث منها ولاتقبله، كما ينفى الكير خبث الحديد ؛ لأن ما فيه من الصدأ والأجزاء التى ليست خالصة منه تطير عنه مع الشرر وتبقى خالصة ، فكذلك المدينة لا يخرج عنها ويختار غيرها من غير ضرورة إلا من خبثت طويته، فهو لايترك فيها من فى قلبه غل وعدم صدق ؛ فتميزه عن غيره كما يميز الحداد بكيره جيد الحديد من رديئه . والحديث فى سنن الترمذى : ٥ ــ ٥٢٠ ، ٥٢٢ .

وينصع : يخلص ويبقى خالصا فيها ماطاب .

وفى النهاية : وتبضع طيبها ، كذا ذكره الزمخشرى ، وقال : هو من أبضعته بضاعة إذا دفعتها إليه ، يعنى أن المدينة تعطى طيبها ساكنها . والمشهور بالنون والصاد المهملة . وقد روى بالضاد والخاء المعجمتين ، وبالحاء المهملة من الضخ والنضح ، وهو رش الماء .

وقال[١] : لايخرجُ أحدٌ من المدينة رَغْبةً عنها إلا أبْدَلَها اللهُ خيرا[٢] منه .

ورُوِى[٣] عنه صلّى اللهُ عليه وسلم: مَنْ ماتَ فى أَحَدِ الحرمَيْن حاجًّا أو مُعْتَمِرا بعثه اللهُ يومَ القيامة لاحِسابَ عليه ولا عذَابَ .

وفى طريق آخر[٤] : بُعِثَ من الآمنين[٥] يوم القيامة .

وعن ابن عمر[٦] مَن استطاعَ أنْ يموتَ بالمدينة فَلْيَمُتْ[٧] بها ؛ فإنى أشفَعُ لمن يَموتُ بها .

وقال تعالى[٨] : ﴿ إِنَّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس لَلَّذِى بِبَكَّةَ مباركا وهُدًى للعالَمِين . فِيهِ آياتٌ بيِّنَاتٌ مقامُ إبراهيم وَمَنْ دخله كان آمِناً ﴾ .

---

(١) رواه مسلم عن جابر. قال الخفاجى: رغب عنه إذا كرهه،فالمهى عنه ذلك ، فلا ينافى أن بعض الصحابة ارتحل عنها كبلال وغيره . والحديث فى الموطأ: ٨٨٧

(٢) عليها علامة الصحة فى ا ، وفى هامشه : خير .

(٣) رواه البيهقى ، والدارقطنى ، عن عائشة رضى الله عنها بسند ضعيف .

(٤) فى هذا الحديث للبيهقى ، والطبرانى .

(٥) أى من الآمنين من مناقشة الحساب والعذاب .

(٦) فى حديث رواه ابن ماجه ، وابن حبان ، والترمذى ، وصححه : سنن الترمذى : ٥ ـ ٧١٩ ، وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث أيوب السختيانى .

(٧) أن يموت بالمدينة: أى يقيم بها حتى يموت . فليمت بها: أى فليقم بها حتى يأتيه الموت. قال الخفاجى : والأمر للاستحباب .

(٨) سورة آل عمران ، آية ٩٦ . قال فى نسيم الرياض : وهذا شروع فى بيان فضل مكة . وضع للناس : جعل معبدا وقبلة لهم وبكة : هى مكة . مباركا: بركته : كثرة الخير، ومضاعفة ثواب العمل فيه وسئل صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع للناس . فقال : المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس . فقيل : كم بينهما ؟ فقال: أربعون سنة. قال الخفاجى : وهو حديث صحيح ، لكنه مشكل ، لأن وضع المسجد فى زمن إبراهيم ، ووضع بيت المقدس فى زمن داود وسليمان ، وبينهما زمان أطول من تلك الأربعين بأضعاف مضاعفة . وأجيب بأن داود عليه السلام لم يضعه ، وإنما عمره .

قال بعضُ المفسرين : آمِناً من النارِ . وقيل : كان يَأْمَنُ من الطلب مَنْ أحدث[1] حَدثا خارجا [عن الحرم][2]، ولجأ إليه فى الجاهلية[3]؛ وهذا مِثلُ قولِه[4]: ﴿ وإذ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً للناس وَأَمْناً ﴾ ـ على قول بعضهم .

وحُكى أنّ قوما أتَوْا سَعْدونَ[5] الخَوْلانى بالمُنَسْتِير[6] فأعلموه أن كُتَامَةَ قتلُوا رجُلًا وأضرموا[7] عليه النارَ طولَ الليل فلم تَعْمَل فيه شيئا ، وبَقِىَ أبيضَ اللونِ ، فقال: لعلّه حجّ ثلاثَ حِجَج ؟ قالوا: نعم . قال: حُدِّثْتَ أنّ مَنْ حَجّ حجّةً أدّى فَرْضَه ، وَمَنْ حجّ ثانيةً دايَنَ رَبّه[8]،وَمَنْ حجّ ثلاث حِجَج حَرّم اللهُ شَعره وبَشَرَه[9] على النار .

---

(١) من أحدث حدثا : فعل أمرا يستحق به العقوبة .

(٢) ما بين القوسين ليس فى ا .

(٣) فى الجاهلية : زمن الفترة بين عيسى ونبينا صلى الله عليه وسلم ؛ سمى بها لـكثرة الجهل فيه ؛ فـكان الرجل إذا جنى جناية ودخله لا يمسكه أحد حتى يخرج .

(٤) سورة البقرة ، آية ١٢٥ . مثابة : ملجأ لـكل مطلوب .

(٥) فى ا : سعدونا قال القارى (٢ ـ ١٦٧) : والقياس صرف سعدون وحمدون ، ولـكنهما وقعا غير مصروفين فى كتب الحديث من الأصول المعتمدة .

(٦) قال التلمسانى ، إنه بضم الميم والنون ، ويجوز كسر نونه ، والعامة تفتحها . وفى شرح القارى : بضم الميم وفتح نون وبكسر سين مهملة وفوقية مكسورة وتحتية ساكنة فراء : مكان بالقيروان وفى هامش ب : هو موضع رباط على ساحل البحر بين القيروان وتونس .

(٧) كتامة : قبيلة من البربر . أضرموا عليه النار : أوقدوها إيقادا شديدا .

(٨) داين ربه : أقرضه . قال الخفاجى : وتمام الحديث : فينادى غدا ملك من عندالله: من كان له عند الله دين فليقم ـ وفى هامش ا : فينادى . . . وبعده : من غير الرواية وفى هامش ب : فينادى . . . وبعده : هذه الزيادة ثبتت فى رواية أخرى ، وبها تم الحديث .

(٩) وبشره ؛ أى ظاهر جلده وبدنه ؛ أى لم يعذبه ولم يدخله نار جهنم . قال الخفاجى : وهذا الحديث لا يعرف من رواه .

ولما نظر رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى الكعبة قال: مَرْحباً بك مِنْ بيْتٍ؛ ما أعظمك وأعظم حُرْمتك!

وفى الحديث، عنه صلى اللهُ عليه وسلم: مامِنْ أحدٍ يَدْعُو اللهَ تعالى عند الرُّكن الأسودِ(١) إلاّ استجابَ الله له، وكذلك عند المِيزَاب(٢).

وعنه صلى اللهُ عليه وسلم: مَنْ صلّى خَلْفَ المَقَامِ(٣) ركعتَيْن غُفِر له ما تقدّم من ذَنْبِه وما تأخّر، وحُشِر يوم القيامة من الآمنين(٤).

قال الفقيه القاضى أبو الفضل: قرأتُ على القاضى الحافظ أبى علىّ رحمه الله، حدثك(٥) أبو العباس العُذْرىّ؛ قال: حدثنا أبو أسامةَ محمد بن أحمد الهَرَوىّ، حدثنا الحسَن بن رَشِيق، سمعتُ أبا الحَسَن محمد بن الحسن بن راشد، سمعتُ أبا بكر محمد بن إدريس، سمعتُ الحُمَيْدى؛ قال: سمعتُ سُفْيَان بن عُيَيْنة، قال: سمعتُ عَمْرُو بن دِينار قال: سمعتُ ابْنَ عباسٍ يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم يقول: ما دعا أحَدٌ بشىء فى هذا المُلتَزم(٦) إلا استُجيب له.

قال ابن عباس: وأنا فما دَعَوْتُ اللهَ بشىء فى هذا المُلتَزَم منذُ سمعتُ هذا مِنْ رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلاّ استُجِيبَ لى.

---

(١) المراد الركن الذى فيه الحجر الأسود.

(٢) الميزاب: هو المسمى ميزاب الرحمة؛ وهو مسيل ماء السطح، وهو معروف من جانب الحجر. وفى شرح القارى (٢ – ١٦٨): لايعرف مخرجه.

(٣) المقام: مقام إبراهيم الخليل الذى قام عليه لما بنى الكعبة.

(٤) رواه الديلمى؛ ولفظه: من طاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، وشرب من ماء زمزم غفر الله له ذنوبه كلها بالغة مابلغت. لكن قال السخاوى. لا يصح. ثم قال: وقد ذكره المنوفى فى مختصره، وقال فيه: إنه باطل لا أصل له، والله تعالى أعلم. ثم على تقدير صحته فهو محمول على تكفير الصغائر؛ لقوله تعالى: إن الحسنات يذهبن السيئات.

(٥) هذا فى ا، ب.

(٦) الملتزم: ما بين باب الكعبة والحجر الأسود.

وقال عَمْرو بن دِينار : وأنا فما دعوتُ الله تعالى بشيء فى هذا المُلْتَزَم منذ سمعتُ هذا من ابن عباس إلا استُجيبَ لى .

وقال سُفْيان : وأنا فما دعوتُ اللهَ بشيء فى هذا المُلْتزم منذ سمعتُ هذا من عَمْرو[1] إلاّ استُجِيبَ لى .

قال الُحميدى : وأنا فما دعوتُ اللهَ [١٧٩] بشيء فى هذا المُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا من سُفْيان إلا استُجيبَ لى .

وقال محمد بن إدريس: وأنا فما دَعَوْتُ اللهَ بشيء فى هذا المُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا من الُحميدى إلا استُجيب لى .

وقال أبو الحسن محمد بن الحسن : وأنا فما دعوتُ اللهَ بشيء فى هذا المُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا من محمد بن إدريس إلّا استُجيبَ لى[2] .

قال أبو أُسامةَ : وما أذكر الحَسَن بن رَشِيق قال فيه شيئا[3] ؛ وأنا فما دعوتُ اللهَ بشيء فى هذا المُلْتَزَم منذُ سِمعْتُ هذا من الحسن بن رَشِيق إلا استُجِيب لى من أمْرِ الدنيا ، وأنا أرجو أن يُسْتَجاب لى مِنْ أمر الآخرة .

قال العُذْرى[4] : وأنا فما دعوتُ اللهَ بشيء فى هذا المُلْتَزَم منذُ سمعتُ هذا من أبى أُسامة إلا استُجيبَ لى .

---

(١) عمرو : أى ابن دينار .

(٢) قال الخفاجى : وهذا الحديث مسلسل بالسماع ، رواه البيهقى ، وسعيد بن منصور ، وغيرهما .

(٣) أى مثل ماسبق عن بقية مشايخ السلسلة ؛ قال القارى : وعلى هـــذا فالمسلسل هنا منقطع .

(٤) العذرى : الراوى عن أبى أسامة .

قال أبو عليّ : وأنا فقد دعوتُ اللهَ فيه بأشياء كثيرة استُجيب لى بعضُها ، وأرجو من سَعَةِ فَضْله أنْ يستجيب لى بقيّتها .

قال القاضى أبو الفضل[١] : ذكرنا نُبَذًا[٢] من هذه النُّكت فى هذا الفَصْل وإنْ لم تكن من الباب[٣] ، لتعلقها[٤] بالفَصْل الذى قبله حِرْصًا على تمام الفائدة ؛ واللهُ الموفق للصواب برحمته .

---

(١) هو المؤلف .

(٢) نبذا ـ بفتح النون وسكون الموحدة وذال معجمة : أى شيئا قليلا . ويجوز ضم أوله وفتح ثانيه على أنه جمع نبذة .

(٣) من الباب : من المعانى التى عقدلها الباب ؛ فإنه معقود للصلاة على رسول الله وتعظيمه؛ فذكر فضائل مكة وحرمها ليس منه .

(٤) الفصل الذى قبله : الذى يذكر فيه مسجده صلى الله عليه وسلم وما يتعلق به .

القسم الثالث

فيما يجبُ للنبى صلى اللهُ عليه وسلم ، وما يستحيل فى حقّه أو يجوزُ عليه ، وما يمتنِـعُ أو يصحّ من الأحوال البشَرِيّة أنْ يضافَ إليه

قال اللهُ تعالى(١) : ﴿ وما محمدٌ إلّا رَسُولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُم عَلَى أعقابكم(٢) وَمن ينْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْه فلن يضُرَّ اللهَ شيئا ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشاكرين ﴾ .

وقال تعالى(٣) : ﴿ ما المسيحُ ابنُ مريم إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأمُّه صِدِّيقَةٌ(٤) كانا يأكلانِ الطعام انظُرْ كيف نُبيِّنُ لهم الآياتِ ثم انظر أنّى يؤفكون ﴾ .

وقال(٥) : ﴿ وما أرسلْنا قَبلَك من المُرْسَلين إلّا إنّهم لَيأكُلُونَ الطعامَ وَيمْشُون فى الأسواق ﴾(٦) .

وقال تعالى(٧) : ﴿ قُلْ إنّمَا أنَا بَشَرٌ مِثلُكُمْ يُوحَى إلىّ أنّما إلهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ ﴾(٨) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٤٤

(٢) الانقلاب على العقب كناية عن الرجوع عما كانوا عليه من الدين .

(٣) سورة المائدة ، آية ٧٥

(٤) أى ليس المسيح إلا رسولا كغيره من الرسل ، له آيات ومعجزات مثلهم ، وليس بإله . وأمه صديقة: أى صادقة فى أقوالها وأفعالها ، أو مصدقة للرسل. وهذا غاية أمرهما دون ما يزعمون .

(٥) سورة الفرقان ، آية ٢٠

(٦) فهو كغيره من البشر ، يصح له ما صح لهم .

(٧) سورة الكهف ، آية ١١٠

(٨) فلا يزيد على البشر إلا بما خصه الله به من الوحى والرسالة والتوحيد .

فمحمد صلى اللهُ عليه وسلم وسائر الأنبياء مِنَ البَشَر أُرسِلُوا إلى البَشَر ، ولولا ذلك لما أَطاقَ الناسُ مُقَاوَمتهم[١]، والقبولَ عنهم[٢] ، ومخاطبتهم .

قال الله تعالى[٣] : ﴿ ولو جعَلْنَاهُ مَلَكاً لجعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ ؛ أى لمَا كان إلّا فى صورةِ البَشَر الذين يمكنهم مخالطتُهم[٤] ؛ إذْ لا تُطِيقون مُقَاومةَ المَلَك ومخاطبته ورُؤيته إذا كان على صُورته[٥] .

وقال تعالى[٦] : ﴿ قل لو كانَ فى الأرضِ ملائكةٌ يمشُون مطمئنّين لنزّلْنا عليهم من السماء مَلَكا رسولًا ﴾ ؛ أى لا يمكنُ فى سنَّة اللهِ إرسالُ المَلَكِ إلاّ لِمَنْ هو مِنْ جنْسه[٧] ، أو مَنْ خَصَّه اللهُ تعالى واصطفاه وقَوّاه على مُقَاومته ، كالأنبياء والرسُلِ[٨] .

فالأنبياء والرسلُ عليهم السلام وسائطُ بين الله تعالى وبين خَلْقِه يُبَلّغُونَهم أَوَامِرَه ونواهيه ، وَوَعْدَه وَوَعِيدَه[٩] ، ويعرّفونَهم بما لم يَعلَمُوه مِنْ أَمْرِه وخَلْقه، وجَلالِهِ وسُلْطانِه[١٠]، وَجَبَرُوته ومَلَكوتهِ ؛ فظَوَاهِرُهُم وأجسادُهم وبِنْيتهم متّصِفةٌ

---

(١) لما أطاق الناس مقاومتهم ؛ أى مقابلتهم فى الأمور الدنيوية ؛ لقدرة الملائكة على مالا يقدر عليه غيرهم .

(٢) والقبول عنهم ؛ أى ما بلغوهم عن الله مما أرسلوا به. (٣) سورة الأنعام ، آية ٩

(٤) فى ب : مخاطبتهم . (٥) على صورته : أى الأصلية التى خلق عليها ابتداء .

(٦) سورة الإسراء ، آية ٩٥

(٧) فى سنة الله : فى طريقته وعادته المستمرة . إلا لمن هو من جنسه : حتى يمكنه مخالطته وتلقيه عنه .

(٨) فإنهم خلقهم الله بأبدان بشرية وأرواح ملكية ، فكانوا ـ دون غيرهم ـ مستعدين لمقاومة الملك ومخالطته ومخاطبته .

(٩) الوعد يستعمل فى الخير ، والوعيد فى الشر .

(١٠) سلطانه : قهره وغلبته، أو حجته الباهرة . جبروته : كونه جبارا قهارا . ملكوته : مالك الملك الذى لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه .

بأوصاف البشر ؛ طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام[١] ، والموتِ والفناء[٢] ، ونعوت الإنسانية ، وأرواحهم وبواطنهم متصفة بأعلى من أوصاف البشر ، متعلقة بالملأ الأعلى[٣] ، متشبهة بصفاتِ الملائكة ، سليمة من التغير والآفات[٤] ، لا يلحقها غالبا [١٨٠] عجزُ البشرية[٥] ، ولا ضعفُ الإنسانية ؛ إذ لو كانت بواطنهم خالصةً للبشرية كظواهرهم لما أطاقوا الأخذَ عن الملائكة ورؤيتهم ، ومخاطبتهم ومخالّتهم[٦] ، كما لا يطيقه غيرهم من البَشَر .

ولو كانت أجسامُهُمْ وظواهرُهم متّسِمَةً بنعوتِ الملائكة[٧] ، وبخلاف صفاتِ البَشَر ، لَمَا أطاق البَشَر ومَنْ أرسِلُوا[٨] إليهم مخالطتهم ، كما تقدم من قولِ الله تعالى[٩] ؛ فجُعِلوا من جهة الأجسام والظّواهر مع البَشَر[١٠] ، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم[١١] : « لو كنْتُ مُتّخِذاً مِنْ

(١) الأعراض : جمع عرض ؛ أى العوارض فى الأجسام ، والمراد به مطلق الآلام ، أو الأمراض .

(٢) الموت : ضد الحياة . والفناء : تفرق الأعضاء وتفتتها حتى تضمحل .

قال الخفاجى : وهذا لا يكون فى الأنبياء عليهم السلام ؛ لأن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

(٣) بأعلى : بأوصاف أعلى منها : من الفضائل الروحانية ، والتبرى من العلائق الجسمانية ؛ كحب المال والتنعم بالمآكل والمشارب ؛ فأرواحهم وبواطنهم متعلقة بالملأ الأعلى .

(٤) الآفات : النقائص (٥) عجز البشرية : كالجبن ، والخوف المفرط .

(٦) مخالتهم : اتخاذهم أخلاء وأصدقاء .

(٧) متسمة: موصوفة . ونعوت الملائكة : صفاتهم. (٨) ومن أرسلوا : هم الأنبياء .

(٩) هو قوله تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ؛ أى لما كان إلا فى صورة البشر — كما تقدم. و«قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا» .

(١٠) البشر : أى موافقين لهم فى صورتهم .

(١١) فى حديث رواه البخارى وغيره : صحيح مسلم : ١٨٥٥

أمّتي خَلِيلا لاتّخذْتُ أبا بكر خَلِيلا ؛ ولـكِنْ أُخوّة الإسلام ، لـكِنّ صاحبكم خليلُ الرحمن[١] » .

وكما قال : « تنامُ عَيْنايَ وَلا يَنَامُ قلبي[٢] » .

وقالَ[٣] : « إنّي لستُ كهيئتِـكم ؛ إنّي أظَلُّ يُطعمني رَبّي ويَسْقِيني[٤] » .

فبواطنُهم[٥] منزّهةٌ عن الآفاتِ ، مُطَهّرَةٌ من النقائص والاعتلالات .

وهذه جملةٌ لن يكتَفِيَ بمضمونها كلُّ ذي هِمّةٍ ؛ بل الأكثرُ يحتاجُ إلى بَسْطٍ وتفصيل على ما نَأْتِي به بَعْدَ هذا في البابين بعَوْن الله ؛ وهو حَسْبِي ونعم الوكيل :

---

(١) أخوة الإسلام : أي إن لم يكن خليلي فهو أخي في محبة الله وفي دين الإسلام لاشتراكه معي في محبة الله وطاعته واتباع دينه ، والإخلاص فيه . صاحبكم : يريد النبي نفسه .

(٢) قال الخفاجي : وهذا دليل على أن ظاهره — صلى الله عليه وسلم — بشرى ، وباطنه ملكي . والحديث في صحيح البخاري : ٢ — ٦٤

(٣) في حديث رواه الشيخان في النهي عن صوم الوصال : صحيح مسلم : ٧٧٤ ، ٧٧٦

(٤) أي يهبني قوة على ذلك ، حتى أكون كأني أكلت وشربت . وليس المراد أنه يطعمه ويسقيه حقيقة .

(٥) بواطنهم : بواطن الأنبياء .

الباب الأول

فيما يختص بالأمور الدينية والكلام في عصمة[1] نبينا وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم

قال القاضي[2] أبو الفضل رضي الله عنه : اعلم أن الطوارئ من التغيرات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه ، أو على حواسه[3] بغير قصد واختيار؛ كالأمراض والأسقام ، أو بقصد واختيار[4] ؛ وكله في الحقيقة عمل وفعل ؟ ولكن جرى رسم المشايخ[5] بتفصيله إلى ثلاثة أنواع : عقد[6] بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح .

وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها .

والنبي - صلى الله عليه وسلم ، وإن كان من البشر ، ويجوز على جبلته[7] ما يجوز على جبلة البشر ؛ فقد قامت البراهين القاطعة ، وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم ، وتنزيهه[8] عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار[9] ، كما سنبينه - إن شاء الله - فيما يأتي من التفاصيل .

---

(١) العصمة : تخصيص قدرته بالطاعة دون المعصية ، أو خلق مانع فيه عن المعصية،لكن لا بحيث أن يسلب اختياره ويجبره على الطاعة ؛ بل هي لطف من الله يحمله على الطاعة ويزجره عن المعصية ، مع بقاء الاختيار تحقيقا للابتلاء والتكليف. (٢) هو المؤلف القاضي عياض .

(٣) حواسه : جمع حاسة ، وهي مايدرك به : من البصر والسمع والشم واللمس والذوق .

(٤) كأفعال العبد وأعماله . (٥) جرى رسم المشايخ : أي دأبهم .

(٦) عقد بالقلب: نية وعزم صادق.وقد ضبطت الكلمات الثلاث :عقد ،وقول، وعمل - بالضمة والكسرة ، وعليها كلمة « معا » . (٧) الجبلة : الطبيعة والخلقة التي خلق عليها .

(٨) على خروجه عنهم : أي خروج النبي عن جنس البشر . وتنزيهه : أي بعده .

(٩) لتكريم الله له بالعصمة من أمثالها .

فصل

في حكم عَقْد[١] قَلْبِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ وَقْتِ نُبوّته

اعلم ، منَحَنَا اللهُ وإياكَ توفيقَه ، أنّ ما تعلّق منه[٢] بطريق التوحيدِ ، والعِلْمِ بالله وصفاتهِ ، والإيمانِ به ، وبما أُوحِيَ إليه ـ فعلى غايةِ المعرفةِ[٣] ، ووُضوحِ العِلْمِ واليَقِين ، والانتفاء عن الجَهْل بشيء مِنْ ذلك ، أو الشك أو الرّيب فيه ، والعصمةِ من كلّ ما يُضَادُّ المعرفة بذلك واليَقِين .

هذا ما وقع إجماعُ المسلمين عليه ، ولا يَصِحُّ بالبراهين الواضحةِ أن يكونَ في عقُودِ الأنبياء سِوَاه[٤] ؛ ولا يُعْتَرَضُ على هذا بقولِ إبراهيم عليه السلام[٥] : ﴿ قال : بلى ، وَلٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ؛ إذ لم يَشُكَّ إبراهيمُ في إخبار اللهِ تعالى له بإحياء المَوْتَى ، ولكِنْ أراد طُمَأْنِينة[٦] القَلْبِ ، وتَرْكَ المنَازعةِ[٧] لمشاهدة الإحياء ؛ فحصل له العِلْمُ الأوّلُ بوقوعه[٨] ، وأراد العِلْمَ الثاني بكيفيته ومشاهدته[٩] .

---

(١) المراد بعقد قلبه : ما انعقد عليه اعتقاده وجزم به مما ثبت عنه يقينا . فعقد القلب هو الاعتقاد الجازم الذى لا يحتمل النقيض أصلا .

(٢) منه : من عقد قلب النبي ، أى اعتقاده وعلمه الجازم الذى اتصف به بعد نبوته .

(٣) فعلى غاية المعرفة : يعنى أن علم الأنبياء المتعلق بأصول الدين والعقائد وصل إلى النهاية والغاية التى لا يصل إليها سواهم .

(٤) عقود الأنبياء : عقائدهم التى ارتبطت عليها قلوبهم .

(٥) سورة البقرة ، آية ٢٦٠

(٦) قال الخفاجي : قال الراغب : الاطمئنان : السكون بعد الانزعاج ، فطمأنينته زوال قلقه وانزعاجه من أمر ما .

(٧) وترك المنازعة : ترك القلق .

(٨) فحصل له العلم الأول : تيقن وقوعه من الله إجمالا من غير شبهة فيه .

(٩) ومشاهدته : أى مشاهدة صدوره عن الله تفصيلا ، ليزيد علمه واطمئنانه ؛ لا أنه شك فيه ؛ أى إنه لم يشك ولم يجهل ، وإنما أراد الانتقال من علم اليقين إلى عين اليقين .

الوجه الثانى[١] : أنَّ إبراهيم عليه السلامُ إنما أراد اختبارَ [١٨١] منزلتِه عند ربِّه ، وعِلْمَ إجابَته دعْوَته بسؤال ذلك مِنْ ربّه ؛ ويكون قولُه تعالى[٢] : ﴿أو لم تؤْمِنْ﴾ ؛ أى تُصَدّق بمنزلتك منى ، وخُلّتك[٣] ، واصطفائك ؟

الوجه الثالث - أنه سأل زيادةَ يقينٍ وقوةَ طمأنينة ، وإنْ لم يكن فى[٤] الأول شكٌّ ؛ إذ العلومُ الضروريةُ والنظرية[٥] قد تتفاضَلُ فى قُوّتها ، وطَرَيَان[٦] الشكوك على الضَّرُورياتِ مُمْتَنع ؛ ومجوّزٌ[٧] فى النظريات ؛ فأرادَ الانتقالَ مِنَ النظَر والخَبَرِ إلى المشاهدةِ وَالترقّى مِنْ علمِ اليقين إلى عَيْنِ اليقين[٨] ؛ فليس الخَبَر كالمعايَنَة ؛ ولهذا قال سهل بن عَبْد الله : سَأَلَ كَشْفَ غطَاء العِيَان ليزدادَ بنُورِ اليقين تمكّنا فى حالِه .

الوجه الرابع - أنه لما احتَجَّ على المشركين بأنَّ ربَّه يُحْيِي ويُميتُ طلبَ ذلك[٩] مِنْ ربّه ، ليَصِحَّ احتجاجُه عِياناً[١٠] .

---

(١) الوجه الثانى فى جواب الاعتراض على ماوقع من الخليل إبراهيم .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٠

(٣) وخلتك : أى اتخاذك خليلا . واصطفائك: واختيارك على غيرك تشريفا وتكريما لك.

(٤) فى الأول : فى علمه الأول الذى كان قبل المشاهدة .

(٥) العلوم الضرورية : التى تحصل من غير استدلال لظهورها . والعلوم النظرية : التى تتوقف على نظر واستدلال لكونها غير بديهية . (٦) وطريان : وحدوث ، ووقوع .

(٧) يعنى أن علم الخليل بذلك أولا كان نظريات يقينا لاشبهة فيه ، ولكن النظريات من شأنها أنها تحتمل الشكوك ؛ فأراد الانتقال إلى رتبة أعلى منها يكون علمه بقدرة الله على الإحياء ضروريا فيها لايحتمل خلافه أصلا ليطمئن قلبه بذلك فقط .

(٨) من النظر : من العلم الحاصل من البرهان القطعى اليقينى الذى لا يحتمل النقيض ، أو الخبر الصادق بالوحى إليه الذى لاشك فيه إلى المشاهدة والنظر بعينه . والترقى ؛ أى الصعود ، من علم اليقين الحاصل بالنظر أو الخبر ، إلى عين اليقين الحاصل بمشاهدته عيانا .

(٩) طلب ذلك : أى سأل ربه الإحياء وكيفيته .

(١٠) عيانا: مشاهدة، ليقطع عنادهم ، ويبطل شكوكهم ، وهو فى نفسه غير متردد فيه .

الوجه الخامس ـ قولُ بعضِهم: هو سُؤالٌ على طريقِ الادب؛ والمرادُ: أقْدِرْنى على إحياء(١) الموتى، وقوله: ﴿ليطمئنّ قلبى﴾ ـ عن هذه الأمنية.

الوجه السادس ـ أنه أرى من نفسه(٢) الشكّ، وما شكّ، لـكن ليُجاوَبَ فيزْدَاد قُرْبُهُ(٣).

وقولُ نبيِّنا: نحن أحقُّ بالشكّ من إبراهيم(٤) ـ نفْيٌ لأَنْ يكونَ إبراهيم شكَّ، وإبعادٌ للخواطر الضعيفة(٥) أن تَظُنّ هذا بإبراهيم؛ أى نحن موقِنُون بالبَعْثِ، وإحياء اللهِ الموتى؛ فلو شكَّ إبراهيمُ لَـكُنَّا أوْلى بالشكِّ منـه؛ إمّا عَلَى طريقِ الأَدب، أوْ أن يريدَ أُمّتَـــه الذين يجوزُ عليهم الشكُّ، أو على طريقِ التواضع والإشفاقِ(٦) إنْ حَمَلْتَ قِصةَ إبراهيم عَلَى اختبارِ حالِه، أو زيادةِ يقينه.

فإنْ قلْتَ: فما معنى قولِه(٧): ﴿فإنْ كُنْتَ فى شَكٍّ مِمّا أَنْزَلْنَا إليكَ فاسْأَلِ الذِين يَقْرَءُونَ الـكِتابَ من قبلك لقد جاءكَ الحقُّ من ربِّك فلا تـكونَنَّ منَ المُمْتَرِين. وَلا تـكونَنَّ من الذين كذَّبوا بآياتِ الله فتـكُونَ من الخاسرين﴾.

---

(١) ليكون معجزة له.

(٢) أرى من نفسه: أى أظهر لغيره من نفسه الشك.

(٣) فيزداد قربه من الله حال مناجاته له وتلذذه بخطابه وشرفه بقرب منزلته عنده لاعتنائه بإجابته.

(٤) فى صحيح مسلم (١٨٣٩): عن أبى هريرة أن رسول الله قال: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرنى كيف تحيي الموتى. قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولـكن ليطمئن قلبى.

(٥) قال الخفاجى: وحاصله أنه صلى الله عليه وسلم قصد نفي الشك عنه ببرهان قوى وقياس منطقى، تقريره: لو شك إبراهيم كنت أنا شاكا أيضا، بل أحق وأولى به، لأنه لا يجوز على غيرى من الأنبياء، وما كنت بدعا من الرسل، وقد علم أنى لم يقع منى شك، فـكذلك إبراهيم أيضا؛ فنفاه بنفى لازمه، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم.

(٦) والإشفاق: أى الخوف من أن يبتلى بما ابتلى به.

(٧) سورة يونس، آية ٩٤، ٩٥

فاحذَرْ ـ ثَبَّتَ اللهُ قَلْبَكَ ـ أَنْ يَخْطُر ببَالِكَ ما ذكره بعضُ المفسّرين ، عن ابن عباس أو غيره ـ مِنْ إثباتِ شَكٍّ للنبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فيما أُوحِيَ إليه ، وأنه مِن البشَر[1] ؛ فمثْلُ هذا لا يجوزُ عليه جملةً ؛ بل قد قال ابنُ عباس وغيره : لم يشكّ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولم يسأل[2] .

ونحوه عن ابن جُبَير ، والحَسَن[3] .

وحكى قَتَادةُ أَنَّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلّم قال : « ما أَشُكُّ ولا أَسألُ ، وعامّةُ المفسّرين على هذا[4] » .

واختلفوا فى معنى الآية : فقيل : المرادُ قُلْ يا محمد للشاكِّ[5] : ﴿ إنْ كنْتَ فى شَكٍّ . . . ﴾ الآية .

قالوا : وفى السورة نَفْسِها ما دلَّ على هذا التأويل قوله[6] : ﴿ قلْ يا أيُّها الناسُ إنْ كنْتُم فى شَكٍّ مِنْ دِينى فلا أَعْبُدُ الذين تعبدونَ من دُونِ اللهِ ، ولكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الذى يتوفَّاكم وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المؤمنين ﴾ .

وقيل : المرادُ بالخطاب العربُ وغيْرُ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، كما قال[7] : ﴿ لَئِن أَشْرَكْتَ ليَحْبَطَنَّ عَمَلُك ولتكونَنَّ من الخاسرين ﴾ ـ الخطاب له ، والمرادُ غَيْرُه .

---

(١) فيطرأ عليه صلى الله عليه وسلم ما يطرأ عليهم .

(٢) ولم يسأل أحدا من أهل الكتاب . وفى ا : ولم يسل .

(٣) هو الحسن البصرى .

(٤) على هذا : أى متفقون على أنه ليس المراد أنه شك أو سأل .

(٥) سورة يونس ، آية ٩٤ ، وقد تقدمت .

(٦) سورة يونس ، آية ١٠٤ (٧) سورة الزمر ، آية ٦٥

ومثلُه[١] : ﴿ فلا تَكُ فى مِرْيةٍ[٢] مما يعبدُ هؤلاء[٣] ﴾ ؛ ونظيره كثير .

قال بكر بن العَلَاء : ألَا تَراهُ يقول[٤] : ﴿ وَلا تَكونَنَّ من الذين كذَّبُوا بآياتِ اللهِ فتكونَ من الخاسرينَ ﴾ ؟ وهو صلى اللهُ عليه وسلم كان المكذَّب فيما يَدْعُو إليه ؛ فكيف يكون ممَّن كذَّب به ؟

فهذا كلُّه يَدُلُّ على أنَّ المرادَ بالخطاب غَيْرُه .

ومثلُ هذه الآية قوله[٥] : ﴿ الرحمٰنُ فاسأَلْ به خَبِيرا ﴾ ـ المأمورُ ها هنا غَيْرُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ليسأَلَ النبيَّ ، والنبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم هو [١٨٢] الخَبِيرُ المسئول ، لا المستَخْبِرُ السائلُ .

وقال[٦] : إن هذا الشكَّ الذى أُمر به غَيْرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم بسؤال الذين يقرءون الكتابَ إنما هو فيما قصَّهُ اللهُ من أخبار الأُمم ، لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة[٧] .

ومثلُ هذا قوله تعالى[٨] : ﴿ وَاسأَلْ مَنْ أرسلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلنا : أَجَعلْنَا من دونِ الرحمنِ آلهةً يُعْبَدون ﴾ ؟ المرادُ[٩] به المشركون ، والخِطَابُ مُواجهة[١٠] للنبى

(١) سورة هود ، آية ١٠٩ (٢) فى مرية : فى شك وريب .
(٣) مما يعبد هؤلاء : أى لا تشك فى أنه ضلال باطل مؤد إلى العذاب الشديد .
(٤) سورة يونس ، آية ٩٥ (٥) سورة الفرقان ، آية ٥٩
(٦) وقال : أى بكر بن العلاء . وقوله هذا فى آية : فإن كنت فى شك . . .
(٧) والشريعة : التى شرعها على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبلغها لهم ، وأمرهم باتباعها ؛ فإن هذا أمر لا تندفع شبهة المشركين فيه بسؤال أهل الكتاب ؛ وإنما تندفع بالبراهين والمعجزات الباهرة . (٨) سورة الزخرف ، آية ٤٥
(٩) المراد به ؛ أى بالسؤال . المشركون الموجودون من أممهم لاستحالة سؤاله من مضى منهم . والمعنى : اسأل من ألفيت من أممهم : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ـ بالاستفهام الإنكارى التكذيبى . (١٠) مواجهة للنبى : لأمره به ظاهرا ، والمقصود غيره من المشركين .

صلى اللهُ عليه وسلم ؛ قاله العُتْبى[(١)] .

وقيل معناه : سَلْنَا عمّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلك ؛ فحُذِف الخافِض[(٢)] ، وتمّ الكلامُ ؛ ثم ابتدأ : ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرّحمن . . . ﴾ إلى آخر الآية ، على طريقِ الإنكار ؛ أى ما جعلنا ؛ حكاه مكىّ .

وقيل : أُمِر النبيُّ صلى اللهُ عليه وَسلم أن يسأَلَ الأنبياء ليلةَ الإسراء عن ذلك ؛ فكان أشدَّ يقينا من أنْ يحتاجَ إلى السؤال .

فرُوِى أنه قال : لا أسأَلُ ؛ قد اكتفَيْتُ[(٣)] ؛ قاله ابن زَيْد .

وقيل : سَلْ أُمَمَ مَنْ أَرْسَلْنَا ؛ هل جاءوهم بغير التوحيد ؟ وهو معنى قول مجاهد ، والسُّدِّى ، والضحاك ، وقَتادة .

والمرادُ بهذا والذى قَبْلَه إعلامُه بما بُعِثَتْ به الرُّسلُ ، وأنه تعالى لم يأذَنْ فى عبادةِ غيره لأحدٍ ؛ ردًّا على مُشْركى العربِ وغيرهم ؛ فى قولهم[(٤)] : إنما نَعْبُدُهم ليُقرِّبونا إلى اللهِ زُلْفى[(٥)] .

وكذلك قولُه تعالى[(٦)] : ﴿ والذينَ آتَيْنَاهُم الكتابَ يَعْلَمُونَ أنّه مُنزّلٌ مِنْ ربِّكَ بالحق ، فلا تكونَنّ من المُمْتَرِين ﴾ ؛ أى فى عِلْمِهم بأنك رسولُ الله ، وإنْ لم يُقِرُّوا بذلك ؛ وليس المراد به شَكّهُ فيما ذكر فى أول الآية[(٧)] .

---

(١) هذا الضبط فى ا ، ب . وفى هامش ب: القتبى ـ بالقاف. (٢) الخافض: هو عن.

(٣) قال الخفاجى : وليس فيه مخالفة لأمر الله بالسؤال ؛ لأنه ليس أمر إيجاب ؛ بل إظهار لعلمه وشدة يقينه .

(٤) إشارة إلى مافى سورة الزمر ، آية ٣ ، والتلاوة فى الآية : مانعبدهم إلاليقربونا . . .

(٥) زلفى : قربى . (٦) سورة الأنعام ، آية ١١٤

(٧) أى آية : فإن كنت فى شك ؛ إذ المراد به هنا شكهم فى كونه رسول الله ، وهناك الشك فيما أنزل الله تعالى . ولم يقع شك منه صلى الله عليه وسلم . أو المعنى لايكن عندك شك ؛ فالمراد ظاهرا نهيه عن الشك ، والمراد نهى غيره ؛ كقوله تعالى : قل يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى . . .

وقد يكونُ[١] أيضا على مِثْلِ ما تقدّم[٢] ؛ أى قل يا محمد لِمَن آمْتَرَى فى ذلك : لا تَـكونَنَّ من الْمُمْترين ، بدليل قوله أول الآية : ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَـكَمًا[٣] ، وهو الذِى أنزل إليكم الـكتابَ مفصّلا والذينَ آتيناهم الـكتابَ يعلمون أنه مُنزّلٌ من ربك بالحق ، فلا تَـكونَنَّ من الْمُمْتَرِين﴾ ؛ وأن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم يخاطِبُ بذلك غَيْرَه .

وقيل : هو تقرير ؛ كقوله تعالى[٤] : ﴿أَأَنْتَ قلْتَ للنَّاسِ اتّخِذُونى وَأُمِّىَ إلَـٰهَيْنِ من دُون اللهِ﴾ ـ وقد عِلمَ أنّه لم يقُلْ .

وقيل: معناه ما كنتَ فى شكٍّ فاسأَلْ[٥] تَزْدَدْ طُمأنينةً وعِلْما إلى عِلْمك ويقينك.

وقيل : إن كنتَ تَشُكُّ فيما شرّفْناكَ وَفضّلناكَ به فسَلْهُمْ عن صِفَتك فى الـكتُب ونَشْرِ[٦] فضائلك .

وحُـكى عن أبى عُبيدة أنّ المرادَ : إن كنْتَ فى شكٍّ من غيرك فيما أنزلناه[٧] .

فإن قيل : فما معنى قوله[٨] : ﴿حتى إذا اسْتَيْـأَسَ الرســلُ وَظنُّوا أنهم قد كُذِبوا﴾ ـ على قراءة التخفيف ؟

---

(١) أى قوله تعالى : فلا تـكونن من الممترين .

(٢) على مثل ما تقدم ؛ أى على طريقته فى التأويل السابق بأن يكون الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمقصود غيره .

(٣) أى لا أريد حاكما غير الله يحكم بينى وبينـكم يميز الحق والمبطل ؛ فهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم مبرأ عن الشك والريب . (٤) سورة المائدة ، آية ١١٦

(٥) فى ا : فسل : أى اسأل الذين يقرءون الـكتاب لعلمهم بصحة ما أنزل إليك من ربك.

(٦) ونشر فضائلك: ماانتشر فيها وشاع من فضائلك التى فضلك الله بها على غيرك من الرسل.

(٧) من غيرك : من اعتقاد غيرك . فيما أنزلناه عليك من الحق المنقذ من الضلال فاسأل الذين يقرءون الـكتاب حتى يخبروك بما عندهم فيه. وأبو عبيدة : هو معمر بن المثنى من أكابر أئمة اللغة . توفى سنة عشر ومائتين . (٨) سورة يوسف آية ١١٠

قلنا : المعنى فى ذلك ما قالته عائشة رَضِىَ اللهُ عنها : معاذ اللهِ[١] أن تَظُنّ ذلك الرسلُ[٢] ربَّها ؛ وإنما معنى ذلك أنّ الرسلَ لما استَيْأسوا ظنّوا أنّ مَنْ وعدهم النّصْرَ مِنْ أتباعهم كذبوهم[٣] ؛ وعلى هذا أكثر المفسرين .

وقيل : إنّ الضمير فى « ظَنُّوا » عائد على الأتباع والأُمَمِ ، لا على الأنبياء والرسل ؛ وهو قولُ ابن عباس ، والنَّخَعى ، وابنُ جُبير ، وجماعة من العلماء .

وبهذا المعنى قرأ مجاهد « كَذَبُوا » ـ بالفتح ؛ فلا تَشْغَلْ بالَكَ من شاذّ[٤] التفسير بسواه مما[٥] لا يليق بمَنْصب العلماء ، فكيف بالأنبياء !

وكذلك[٦] ما وَرَد فى حديث السيرة، ومُبْتَدأ الوَحْى ؛ مِنْ قوله صلى اللهُ عليه وسلم لخديجة : « لقد خَشِيتُ على نَفْسى[٧] » ـ ليس معناه الشكّ فيما آتاهُ اللهُ بعد رُؤْية المَلَك ؛ ولكن لعله خَشِىَ ألّا تحتمِلَ قُوّتُه مقاومةَ الملك[٨] [١٨٣] وأعباء الوَحْى ، فينْخَلِع قلبُه ، أو تَزْهق[٩] نفسُه .

---

(١) معاذ الله : أنزه الله ، وأبرئه .

(٢) أى أن تظن أن الله أخلفهم ماوعدهم به .

(٣) كذبوهم : أخلفوا ماوعدوا رسلهم به من نصرهم على عدوهم ؛ فليس يأسهم وظنهم التكذيب معناه اليأس من نصر الله .

(٤) شاذ التفسير : غريبه مما لم يشتهر .

(٥) فى ا : بما . . .

(٦) وكذلك : أى مثل ماذكر مما ظاهره الشك فيما جاءه من الوحى وهو مؤول . أو مثل قوله : استيأس الرسل . . .

(٧) لقد خشيت على نفسى: خفت عليها ؛ فإن ظاهره أنه شك فى أنه وحى أتاه به الملك؛ لأن مثله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايخشى . والخبر فى صحيح مسلم : ١٤١

(٨) مقاومة الملك : مقابلته ، وألا يقوم بحقه ومكالمته .

(٩) تزهق نفسه : تخرج روحه من فزعه وخوفه .

وهذا على ما ورد فى الصحيح : أنه قاله بعد لِقَائه المَلَك ؛ أو يكون ذلك قبل لُقْيَاهُ(١) وإعْلَامَ اللهِ تعالى له بالنبوّة لأولِ ما عُرِضت عليه من العجائب(٢) ، وسلَّمَ عليه الحجَرُ والشجَرُ(٣) ، وبدأتْه المنامات والتباشير(٤) ؛ كما رُوى فى بعض طُرقِ هذا(٥) الحديث : إن ذلك كان أولا فى المنام ، ثم أُرِىَ فى اليَقَظة مِثْل ذلك ؛ تأنيسا له عليه السلام ؛ لئلاَّ يَفْجَأه الأمرُ مشاهدةً ومشافهةً ؛ فلا تَحْتَمِلُه لأوّلِ حالةٍ بِنْيَةُ البشرية(٦) .

وفى الصحيح عن عائشة رضِىَ اللهُ عنها: «أولُ ما بُدِئَ به رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلّم من الوَحْيِ الرؤيا الصادقة(٧) ؛ قالت : ثم حُبِّبَ إليه الخَلَاء(٨) ؛ وقالت :

(١) فى ا : لقائه الملك . والمثبت فى ب .

(٢) من العجائب : من الأمور الخارقة للعادة .

(٣) فى صحيح مسلم، من حديث جابر بن سمرة، قال : إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث، إنى لأعرفه الآن والحديث فى سنن الترمذى أيضا: ٥ ـ ٥٩٣ ، ورواه ابن إسحاق فى سيرة ابن هشام : ١ ـ ٢٥٣

(٤) المنامات : ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فى أول أمره فى النوم ، فكان لايرى مناما إلا جاء مثل فلق الصبح . ورؤيا الأنبياء قسم من الوحى . والتباشير : العلامات المبشرة له صلى الله عليه وسلم بالنبوة والمقدمات الدالة على النتائج .

(٥) أى حديث مبتدأ الوحى : وهو فى البخارى : ٦ ـ ٢١٤ ، وصحيح مسلم : ١٤١

(٦) بنية البشرية ؛ أى الإنسان ؛فإنه لايطيق رؤية الملائكة ابتداء.قال الخفاجى :وهذا إشارة إلى حديث البخارى من أنه صلى الله عليه وسلم كان فى أول أمره يجاور فى كل سنة شهرا فى غار حراء يتعبد فيه ، وكان ذلك عادة قريش ، فإذا انصرف صلى الله عليه وسلم منه طاف بالبيت ورجع لبيته ؛ فكان يرى فى منامه مايرى ، ثم جاءه جبريل . . .

(٧) فكان لايرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وهكذا رؤيا الأنبياء عليهم والسلام ، فإنها قسم من الوحى ـ كما تقدم . وحديث عائشة فى صحيح البخارى : ٦ ـ ٢١٤

(٨) أى الانفراد عن الناس ، ليفرغ قلبه مما سوى الله ليتمكن الوحى منه إذا أتاه فيصادف قلبا خاليا متمكنا .

إلى أنْ جاءهُ الحقّ(١) وهو فى غار حِراء(٢) » . . . الحديث .

وعن ابن عباس(٣) : « مكثَ النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم بمكة خمس عشرة سنةً يسمَعُ الصوتَ ، ويرى الضوءَ(٤) سبْعَ سنين ولا يَرَى شيئا ؛ وثمانَ سنين يُوحَى إليه .

وقد رَوَى ابْنُ إسحاق عن بعضهم أنَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال ـ وذَكَر جُواره(٥) بغار حِراء ؛ قال : « فجاءنى وأنا نائم فقال : اقْرَأْ ، فقلْتُ : ما أقْرَأُ ؟ وذكر نحو حديثِ عائشة فى غَطّه(٦) له وإقرائه [إياه](٧) : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ ربِّك . . . ﴾ السورة ـ [ثلاثا](٧) » .

قال : فانصرف عنى ، وهبَبْتُ(٨) من نومى كأنما صُوِّرَتْ(٩) فى قلبى ، ولم يكُنْ أبغَض إلىّ من شاعرٍ أو مجنون(١٠) .

---

(١) الحق : أى الوحى الذى تحققه ورآه عيانا .

(٢) غار حراء : بينه وبين مكة ثلاثة أميال على يسار السائر لمنى .

(٣) رواه ابن سعد عنه .

(٤) يسمع الصوت : يسمع صوت ملك يناديه ولا يراه . ويرى الضوء : أى نور الملك من غير رؤية ذاته ؛ لأن الملائكة أنوار مجردة .

(٥) جواره : مجاورته ، واعتكافه ، وإقامته متعبدا بغار حراء .

(٦) غطه له : شدة ضمه ليصرفه عن الدنيا ويوقظه لما يلقيه له .

(٧) مابين القوسين ليس فى ب . والخبر فى سيرة ابن هشام : ١ ـ ٢٥٥

(٨) هب من نومه : استيقظ .

(٩) صورت فى قلبه : مثلث السورة فى قلبه لحفظها .

(١٠) من شاعر أو مجنون : أى من أن يقال إنى شاعر أو مجنون.

قال الخفاجى: وإنما بغضهذا إليه ؛ لأنه إذا أخبر قريشا أنهجاءه ملك بوحى يتلوهعليهم ـ فنهم من يقول إنه شاعر ، ومنهم من يقول : إنه مجنون .

ثم قلت : لا تَحَدَّث عَنِّى قريش بهذا أبداً ؛ لأَعْمِدَنَّ إلى حالقِ هذا الجبل فلأطرحنَّ[١] نفسى منه ، فلأقتلنّها[١] .

فبينا أنا عامِدٌ[٢] لذلك إذ سمعتُ مُنَادِياً يُنَادِى من السماء : يا محمد ؛ أنتَ رسولُ اللهِ ، وأنا جبريل ؛ فرفعتُ رَأْسى فإذا جبريلُ على صورةِ رجل[٣] . . . وذكر الحديثَ .

فقد بيّن لك فى هذا أن قولَه لِمَا قال ، وقَصْدَه لِمَا قَصد ، إنما كان قَبْل لقاء جبريلَ عليهما السلام ، وقَبْل إعلامِ اللهِ تعالى له بالنُّبوّة ، وإظهارِه اصطفاءه له بالرسالة[٤] .

ومِثْله حديثُ عَمْرو بن شُرحبيل[٥] ـ أنه صلى اللهُ عليه وسلم قال لخديجة : «إنى إذا خلوْتُ وَحْدِي سمعتُ نداء ، وقد خَشِيتُ ـ والله ـ أن يكونَ هذا لأمرٍ[٦] » .

ومن رواية حمّاد بن سلمة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وَسلم قال لخديجة : « إنى لأَسمَعُ صَوْتاً ، وأرى ضَوْءا ، وأخْشى أَن يكونَ بى جُنون »[٧] .

---

(١) لأعمدن : لأقصدن . حالق الجبل : المكان المرتفع منه . وفى هامش ب : الحالق : الجبل المرتفع . فلأقتلنها برميها من الجبل حتى لايبلغنى مايتحدثون به من أنى شاعر أومجنون إذا بلغهم ماجرى لى .

(٢) عامد لذلك: قاصد لإلقاء نفسى من أعلى الجبل لأهلكها حتى لا أسمع ما قد يتحدثون به فى حقى .قال الخفاجى : وهذا كان هاجسا خطر على قلبه صلى الله عليه وسلم لشدة حميته وغيرته على عرضه .

(٣) متمثلا بصورة غير صورته الحقيقية حتى لا يهوله فى ابتداء أمره . والخبر فى سيرة ابن هشام : ١ ـ ٢٥٥

(٤) قال الخفاجى : أما بعد ذلك فلا ؛ فإنه حينئذ لا يخشى أحدا ، ولا يتوهم شيئا يضيق به صدره .

(٥) رواه البيهقى .

(٦) لأمر يصيبنى مما لم أحط به خبرا. قال الخفاجى: فقالت له : ما كان الله ليفعل بك ذلك، فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث ؛ فمثلك لا يخشى أمرا شيطانيا .

(٧) وهذا كله قبل ظهور الأمر له صلى الله عليه وسلم. ورواية حماد بن سلمة رواها الطبرانى.

وعلى هذا يُتأوّلُ لو صَحّ قولُه فى بعض هـذه الأحاديث : إنَّ الأَبْعَد شاعِرٌ أو مجنون ؛ وألفاظا يُفْهم منها معانِي الشكّ فى تصحيح ما رآه ؛ وأنه كان كلّه فى ابتداء أمره ، وقبل لقاء المَلَكِ له ، وإعلامِ اللهِ أنه رسولُه ؛ فكيف وبعضُ هذه الألفاظ لا تصِـحّ طُرُقُها[١] .

وأمّا بَعْدَ إعلامِ اللهِ تعالى لهُ ولقائه المَلَك فلا يصحّ فيه رَيْبٌ ، ولا يجوز عليه شكّ فيما أُلقِىَ إليه .

وقد رَوَى ابنُ إسحاق عن شُيوخِه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم كان يُرْقَى[٢] بمـكةَ من العَيْن قبل أن يُنَزَّلَ عليه ، فلما نزل عليه القرآن أصابَه نحوُ ما كان يُصِيبُه ؛ فقالت له خديجة : أُوَجِّهُ إليك من يَرْقيك ؟ قال : أمّا الآن فلا[٣] .

وحديثُ خديجة واختبارُها أَمْرَ جبريل بِكَشْفِ رَأْسِها[٤] . . . الحديث — إنما[٥] ذلك فى حق خديجة لِتتحقّق صِحّةَ نبوّةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وأنّ الذى يأتيه [١٨٤] مَلَك ، ويزولُ الشكُّ عنها ، لا أنها فعلَتْ ذلك للنبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولِيخْتَبِرَ هو حالَه بذلك .

---

(١) طرقها : أى أسانيدها .

(٢) من الرقية المعروفة ؛ أى صيانة له من إصابة العين .

(٣) أى إن أردت أن ترقينى الآن فلا تفعلى ذلك؛ أى لا حاجة لى بالرقى بعد نزول القرآن؛ فإنه شفاء من كل داء .

(٤) لأن الملك لا يدخل بيتا فيه عورة مكشوفة؛ والمرأة الحرة بدنها كله عورة. وكانت قد قالت له صلى الله عليه وسلم :إذا أتاك جبريل فأخبرنى به .فلما أتاه وأخبرها كشفت رأسها فرجع، فعلمت أنه ملك ؛ لأنه لو كان شيطانا دخل البيت . والخبر فى سيرة ابن هشام : ١ — ٢٥٧

(٥) إنما ذلك الاختبار والشك والتردد واقع فى حق خديجة ، وليس صادرا منه صلى الله عليه وسلم حتى يتوهم شك فى نزول الملك عليه .

بل قد وردَ فى حديث عَبْدِ الله بن محمد بن يحيى بن عُروَة ، عن هشامٍ ، عن أبيه ، عن عائشة ــ أنَّ ورقةَ أمر خديجة أن تَخْبُرَ الأمْرَ بذلك[١] .

وفى حديث إسماعيل بن أبى حَكِيم أنها قالت لرسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « يابْنَ عَمّ[٢] ؛ هل تستطيعُ أنْ تُخْبرنى بصاحبك إذا جاءكَ ؟ قال : نعم ؛ فلما جاءه جبريلُ أخبرها ، فقالت له : اجلس إلى شِقِّى[٣] . . . » وذكر الحديث إلى آخره ؛ وفيه : فقالت : ما هذا بشيطان ؛ هذا الملَك يابْنَ عمّ ؛ فاثبُتْ وأبْشِرْ ، وآمَنتْ بهِ .

فهذا يدلُّ على أنها مُسْتَثْبِتَةٌ بما فعلتهُ لنفسها ، ومستَظْهِرَةٌ لإيمانها ، لا للنبىّ صلى اللهُ عليه وسلم[٤] .

وقولُ[٥] مَعْمَر فى فَتْرَةِ[٦] الوَحْىِ : فَحَزِنَ النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم فيما بلَغنا حُزْنا غَدَا مِنه[٧] مِرَارا كاد يتردّى من شواهق الجبال[٨] ــ لا يَقْدَحُ فى هذا الأَصل[٩] ، لقول مَعْمَرٍ عنه فيما بلَغَنا ، ولم يُسنده ، ولا ذَكر رُوَاته[١٠] ، ولا مَنْ

(١) بذلك : بكشف رأسها إذا أتاه وهو عندها وفى ب : تختبر .

(٢) هو ابن عم خديجة لاجتماع نسبهما فى قصى . والخبر فى سيرة ابن هشام : ١ ــ ٢٥٧

(٣) إلى شقى : أى بجنبى ، ملاصقا لى . وفى سيرة ابن هشام : اجلس على فخذى اليمنى .

(٤) لأنه لاشبهة عنده ولا تردد أصلا .

(٥) أى ومما يوهم وقوع مانزهه عنه قول معمر . هو معمر بن راشد سكن اليمن . وقد روى هذا القول الإمام أحمد ، والبيهقى .

(٦) فترة الوحى : انقطاعه فى ابتداء أمره .

(٧) غدا منه : أى ذهب ومشى بسبب حزنه كى يتردى ويلقى نفسه .

(٨) شواهق الجبال : أعاليها .

(٩) لا يقدح : لا يطعن فيما قلناه ولا يضره . فى هذا الأصل : فى هذه القضية الكلية من أنه فى غاية اليقين لأمور الوحى والتوحيد .

(١٠) رواته ، رواية ، وعليها « مما » فى ب .

حدَّث به ، وَلا أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قاله ؛ وَلا يُعرَف مِثلُ هـذا إلاّ من جهة النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، مع أنه قد يُحْمَلُ على أنه كان أولَ الأمرِ[١] كما ذكَرْناه ؛ أو أنه فعلَ ذلك لِمَا أحْرجه[٢] مِنْ تـكذيبِ مَنْ بلَّغه ، كما قال تعالى[٣] : ﴿ فلعلَّكَ باخِـعٌ نفْسكَ على آثارِهم إنْ لم يُؤْمِنُوا بهذا الحديث أسَفاً ﴾ .

ويُصَحِّح معنى هذا التأويل حديثٌ رَوَاهُ شَرِيك ، عن محمد بن عَبْد الله بن عَقِيل[٤] ، عن جابر بن عبد الله ـ أنَّ المشركين لمّا اجتمعُوا بدارِ النَّدْوَةِ[٥] للتَّشَاوُرِ في شأنِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، واتفقَ رأْيُهم على أنْ يقولوا : إنه ساحِرٌ ـ اشتدَّ ذلكَ عليه ، وتزمَّل في ثيابه ، وتدثَّر فيها[٦] ؛ فأتاه جبريلُ فقال : ﴿ يأيُّها المُزَّمِّل ﴾ ﴿ يأيُّها المدَّثِّر ﴾ .

أو خاف أنَّ الفَتْرَةَ[٧] لأمرٍ أو سَبَبٍ منه ، فخَشِيَ أن تـكونَ عقوبةً مِنْ ربِّه ، ففعل ذلك بنفسه ، ولم يَرِدْ بَعْدُ شَرْعٌ بالنَّهْيِ عن ذلك ، فيُعْتَرض به[٨] .

---

(١) أول الأمر : في أول أمره من قبل أن يلقاه جبريل ، ويعلمه بأنه رسول الله ، وأنه أوحى إليه ، ويتمكن من حمل أعباء النبوة .

(٢) أحرجه : أوقعه في حرج وضيق صدر .

(٣) بسورة الـكهف ، آية ٦ . وباخع : قاتل . والأسف : الحزن على مافات . على آثارهم : بعدهم .

قال الخفاجي : فحزنه صلى الله عليه وسلم لم يكن لشك اعتراه ، وإنما كان لتكذيبهم له وعدم طاعتهم له ، وهو حريص على أن يهديهم الله رحمة منه ؛ لما فاتهم من سعادة الدارين .

(٤) ضبطت العين في ب بالفتحة والضمة وعليها « معا » ، وضبطه القاري (٢ — ١٨٨) بفتح العين وكسر القاف . والحديث رواه البزار ، وروى الطبراني نحوه عن ابن عباس .

(٥) دار الندوة : دار كانت بمـكة تجتمع فيها قريش للمشاورة والحـكومة ، بناها قصى ابن كلاب ، فـكانت ديوان رؤسائهم .

(٦) تزمل في ثيابه : تلفف فيها . وتدثر : تغطى بها فوق لباسه الذي على بدنه ويلي جسده .

(٧) الفترة : انقطاع الوحي مدة .

(٨) فيعترض به : أي يكون سببا لأن يعترض معترض به عليه ، ويعده شبهة في فعله .

ونحو هذا فِرارُ يونُس عليه السلام خشيةَ تكذيبِ قومه له ، لِمَا وَعَدهم به من العذاب ؛ وقولُ اللهِ تعالى فى يونس[(١)] : ﴿ فظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عليهِ ﴾ ـ معناه أنْ لَنْ نُضَيِّق عليه[(٢)] .

قال مكّيّ : طمِعَ فى رَحْمَةِ اللهِ وألّا يُضَيِّق عليه مَسْلَكه فى خروجه .

وقيل : حَسَّن ظَنَّه بمولاه أنه لا يَقْضِى عليه العقوبة[(٣)] .

وقيل : نُقَدِّرُ عليه ما أصابه[(٤)] .

وقد قرئَ : نُقَدِّر عليه ـ بالتشديد .

وقيل : نُؤَاخذه بغَضَبِه وذَهابه[(٥)] .

وقال أبو زيد : معناه : أفظنَّ أن لن نَقْدِرَ عليه ـ على الاستفهام .

ولا يليقُ أن يُظَنَّ بنبيّ أنه يَجْهلُ صفةً[(٦)] من صفاتِ ربّه .

وكذلك[(٧)] قوله[(٨)] : ﴿إذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ ـ الصحيح مُغَاضِبا لقَوْمِه لكُفْرِهم؛

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٨٧

(٢) أى ظن أن الله لايقضى عليه بعقوبة ويجازيه على ذهابه وعدم صبره . قال القارى (٢ ـ ١٨٩) : وليس مراده أنه سبحانه وتعالى غير قادر عليه ،لأن هذا لم يخطر ببال كافر فضلا عن مؤمن لاسيما نبيا ورسولا روى أن ابن عباس دخل على معاوية ،فقال: ياابن عباس، لقد ضربتنى أمواج البحر فغرقت ، فما أجد لنفسى خلاصاً إلا بك ، ثم قرأ الآية ثم قال :أو يظن نبي الله ألا يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس : هذا من القدر ـ بسكون الدال أوفتحها، لا من القدرة .

(٣) لما ورد فى الحديث القدسى : أنا عند ظن عبدى بى ، لكنه غفل عن أن حسنات الأبرار سيئات المقربين (شرح القارى : ٢ ـ ١٨٩) .

(٤) ما أصابه : من الابتلاء وابتلاع الحوت له .

(٥) وذهابه : مفارقا لهم ، ولم يصبر منتظرا لأمر الله ، فلن يقدر عليه بمعنى لن يؤاخذه بغضبه وذهابه .

(٦) الصفة هنا هى قدرته تعالى ، وتعلقها بكل شيء .

(٧) وكذلك : مثل ما تقدم فى أنه مصروف عن ظاهره .

(٨) سورة الأنبياء ، آية ٨٧

وهو قولُ ابن عباس، والضحّاك، وغيرها؛ لا لِرَبِّه عزّ وجلّ؛ إذْ مُغاضَبَةُ اللهِ مُعادَاةٌ له؛ ومُعاداةُ اللهِ كُفْرٌ لا يليقُ بالمُؤمنين، فكيف بالأنبياء!

وقيل: مُسْتَحْيِياً مِنْ قَوْمِهِ أن يَسِمُوه[1] بالكذب أو يقتلوه، كما ورد في الخبر.

وقيل: مُغاضِباً لبَعْضِ الملوكِ فيما أمَره به من التوجُّه إلى أمرٍ أمرَهُ اللهُ به على لسانِ نبيٍّ آخر؛ فقال له يونسُ: غيرى أقْوى عليه منّى؛ فعزم[2] عليه [١٨٥]، فخرج لذلك مُغَاضِباً[3].

وقد رُوى عن ابن عبّاس، أنّ إرسالَ يونس ونبوّته إنما كان بعد أنْ نَبَذَه[4] الحوتُ، واستدلّ من الآية بقوله[5]: ﴿ فنَبَذْناهُ بالعَرَاء وهو سَقِيم. وأنْبَتْنَا عليه شجرةً من يَقْطين. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون[6] ﴾.

ويُستدلُّ أيضاً بقوله[7]: ﴿ ولا تكُنْ كصاحبِ الحوت .. ﴾ وذكر القصة.

ثم قال[8]: ﴿ فاجْتَباهُ رَبُّه فجعله مِنَ الصَّالحين ﴾؛ فتكون هذه القصةُ إذاً قبل نُبوّته.

فإنْ قِيل: فما مَعْنَى قولِه صلّى اللهُ عليه وسلم[9]: « إنّه ليُغَانُ على قَلْبِى، فأَسْتَغْفِرُ اللهَ فى كلِّ يوم مائة مرةً ».

وفى طريقٍ: فى اليوم أكثر من سبعين مرةً.

---

(١) يسموه: يصفوه. (٢) عزم عليه: أقسم عليه أنه يفعل ما أمر به ولم يقبل عذره.
(٣) مغاضبا: أى للملك، لا لربه، كما توهم.
(٤) نبذه: قال الراغب: النبذ: إلقاء الشىء وطرحه. نبذه الحوت: ألقاه من بطنه.
(٥) سورة الصافات، آية ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
(٦) العراء: المكان المتسع الخالى من البناء والشجر. سقيم: ضعيف. يقطين: شجر تين. وقيل: القرع. (٧) سورة القلم، آية ٤٨ (٨) سورة القلم، آية ٥٠
(٩) رواه مسلم: صحيح مسلم: ٢٠٧٥

فاحْذَرْ أَنْ يقَعَ ببالكَ أَن يكونَ هذا الغَيْنُ[1] وَسْوَسَةً أو رَيْناً[2] وقع فى قلبه عليه السلام؛ بل أَصْلُ الغَيْن فى هذا : ما يتغشَّى القَلْبَ ويُغطِّيه؛ قاله أبو عُبيد؛ وأصلُه مِنْ غَيْنِ السماء؛ وهو إطْبَاقُ الغَيْمِ عليها .

وقال غيره: والغَيْنُ شىءٌ يُغشِّى القَلْبَ ولا يُغَطِّيه كلَّ التغْطِية؛ كالغَيْمِ الرقيق الذى يَعْرِضُ فى الهواء، فلا يَمْنَعُ ضوء الشمس .

وكذلك لا يُفهم من الحديث أنه يُغَانُ على قَلْبه مائةَ مرةٍ أو أكثر مِنْ سبعين مرة فى اليوم؛ إذْ ليس يقتضيه لَفْظُه الذى ذكرناه؛ وهو أكثر الرواياتِ؛ وإنما هذا عِددٌ للاستغفار لا للغَيْن؛ فيكون المرادُ بهذا الغَيْنِ إشارةً إلى غفَلات قَلْبه وفَتَراتِ نَفْسِه[3]، وسَهْوِها عن مداومةِ الذِّكْرِ ومشاهدة الحق[4] بما كان صلّى الله عليه وسلم دُفِعَ إليه مِنْ مُقَاساةِ البَشَر[5]، وسياسةِ الأُمة[6]، ومُعَاناة[7] الأَهلِ، ومُقَاوَمةِ الوَلىِّ والعدوِّ[8] ومصلحةِ النفس[9]؛ وكُلِّفَه من أعباء أداء الرسالةِ، وحَمْلِ الأمانة؛ وهو فى كلِّ هذا فى طاعةِ ربِّه وعبادةِ خالقه؛ ولكن لمّا كان صَلَّى الله عليه وسلم أرفعَ الخلْقِ عند اللهِ مكانةً، وأعلام دَرَجةً، وأَتَمَّهم به معرفةً؛

(١) الغين : الستر والتغطية؛ أى ترد على قلبه أمور تشغله .

(٢) هى بالباء : ريبا : شكا فى شىء من أموره المتعلقة بالوحى . أو بالنون. وريناً: أى حجاباً

(٣) فترات نفسه : فتورها وكسلها .

(٤) ومشاهدة الحق : إن أريد بالحق الله سبحانه وتعالى فالمراد مشاهدته فى مرايا مصنوعاته حتى كأنه يراه بعين عيانه . وإن أريد بالحق ما هو حق ثابت متيقن من العلوم الحقة والأمور اليقينية اللدنية فالأمر واضح . (٥) للمقاساة والمكابدة : مباشرة ما فيه مشقة .

(٦) سياسة الأمة : السياسة : الحكم والتدبير .

(٧) معاناة الأهل : الاعتناء بأمرهم والتقيد بما فيه معاشهم .

(٨) ومقاومة الولى؛ أى القيام بالأمر الذى يتعلق بالولى والعدو . والولى : من يواليه ويتبعه . (٩) ومصلحة النفس : أى مصلحة نفسه فى أمور معاشه .

وكانت حالُه عند خلوص قَلْبه ، وخُلوِّ همّته ، وتفرُّده بربّه ، وإقباله بكلّيّته عليه ، ومقامُه[١] هنالك أرفع حالَيْه[٢] رَأى صلى الله عليه وسلم حالَ فَتْرتِه عنها ، وشغْلِه[٣] بسوَاها ، غضًّا[٤] مِنْ عَلِيّ حالِه ، وخَفْضاً من رَفيعِ مقامِه ؛ فاستغفَرَ اللهَ من ذلكَ .

وهذا أولَى وُجُوهِ الحديث وأشهرُها .

وإلى معنى ما أشَرْنا به مالَ كثيرٌ من الناسِ ، وحام حَوْلَه ؛ فقارَبَ ولم يَرِدْ[٥] .

وقد قرَّبْنا غامِضَ معناهُ ، وكشَفْنا للمستفيد مُحيّاه[٦] ؛ وهو مبنيٌّ على جوازِ الفترات ، والغفَلات ، والسّهو في غير طريقِ البَلَاغ[٧] ، كما سيأتي .

وذهبت طائفةٌ من أرباب القلوب[٨] ، ومَشْيَخة المتصوِّفة ، ممَّن قال بتَنْزيه النبيِّ صلى الله عليه وسلم عن هذا جملةً ، وأجَلَّه أن يَجُوز عليه في حالِ سَهْوٌ أو فَتْرَة —

(١) مقامه : إقامته في حظيرة قدس قربه .
(٢) حاليه : حال اشتغاله بالظاهر ، وحال كونه مع الله عالم السرائر ، وكل منهما رفيع ، ولكن هذه الحالة أرفع .
(٣) شغله : اشتغاله .
(٤) غضا : نقصانا . وخفضا : حطا وتنزيلا .
(٥) ولم يرد : ولم يصل إليه . وفي ب : ولم يَزِد .
(٦) محياه : وجهه .
(٧) في غير طريق البلاغ : أي في غير ما أمر بتبليغه لأمته من الشرائع .
وقال الخفاجي : وفي كلامه نظر لا يخفى ؛ فإنه جعل الغفلة والفترة والسهو عبارة عن اشتغاله بأمر أمته وأهله ؛ ولا غفلة ولا فترة ولا سهو حقيقة ؛ فكيف بناه على غير أساسه ؛ فتأمله فإنه غريب .
(٨) من أرباب القلوب : أولياء الله الذين نور الله قلوبهم وطهرها حتى صاروا من أرباب الكشف .

إلى أنّ معنى الحديث : ما يُهِمُّ[1] خاطِرَهُ ، ويَغُمُّ فِكْرَهُ من أمْرِ أمّتِه صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ لاهتمامه بهم ، وكَثْرةِ شفقَتِه عليهم ؛ فيستغفِر لهم[2] .

قالوا: وقد يكونُ الغَيْنُ هنا على قَلْبِهِ السَّكِينة[3] التي تتَغَشَّاه ؛ لقوله تعالى[4] : ﴿ فأنزَلَ اللهُ سكينَتَه عليه ﴾ ، ويكونُ استغفارُه صلّى اللهُ عليه وسلم عندها إظهاراً للعبوديّة والافتقارِ[5] .

وقال ابنُ عطاء : استِغفَارُه وفِعلُه [١٨٦] هذا تَعريفٌ[6] للأُمة بِحَمْلِهم على الاستغفار .

وقال غيره : ويستَشْعِرونَ[7] الحذَرَ ، ولا يَرْكنُون[8] إلى الأَمْنِ .

وقد يُحتمل أن تكونَ هذه الإغَانَةُ[9] حالةَ خَشْيَةٍ وإعظامٍ تغشى قَلْبَه ، فيستغفِر حينئذ شُكْراً للهِ ، وملازَمةً لعبُودِيته ؛ كما قال في ملازمة العبادة[10] : أفلاَ أكونُ عَبْداً شَكُورًا .

---

(١) أهمه : أقلقه وأحزنه . وخاطره : قلبه وفكره .

(٢) يدعو لهم بالمغفرة لما صدر منهم ، أو لما سيصدر ؛ فالنبي خواطره فيما يتعلق بهم ؛ واستغفاره صلى الله عليه وسلم إنما هو لهم ؛ فلا إشكال في الحديث أصلا .

(٣) السكينة : الوقار ، والتأني والطمأنينة في الأمور . (٤) سورة التوبة ، آية ٤٠

(٥) قال الخفاجي : وهو ليس بذنب ، بل خضوع وخشوع .

(٦) تعريف للأمة : تعليم لها .

(٧) يستشعرون : يدركون ويعرفون . وفي هامش ب : الحصر . والحصر : الحبس لأنفسهم على الطاعة .

(٨) ولا يركنون : ولا يميلون ميلا ما. إلى الأمن ؛ أي من الوقوع في المعاصي والذنوب.

(٩) في قوله صلى الله عليه وسلم : إنه ليغان على قلبي .

(١٠) ورد في حديث رواه البخاري : ٦ — ١٦٩ أنه صلى الله عليه وسلم أكثر من قيام الليل حتى تورمت قدماه ؛ فقال له الصحابة : أتفعل هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا !

وعلى هذه الوجُوهِ الأخيرة يُحمل ما رُوِىَ فى بعض طُرُقِ هذا الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : إنَّه ليُغَانُ على قَلْبِى فى اليوم أكثر من سبعين مرةً[1] ، فأستغفرُ الله .

فإن قلتَ : فما معنى قولِه تعالى لمحمد صلى اللهُ عليه وسلم[2] : ﴿ ولو شاء اللهُ لجَمَعَهُم على الهُدَى[3] فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ .

وقوله لنُوحٍ عليه السلام[4] : ﴿ فلا تَسْأَلْنِ ما لَيْسَ لكَ به عِلْمٌ إنى أَعِظُكَ أنْ تكونَ من الجاهلين ﴾ .

فاعلم أنه لايُلتَفَت فى ذلكَ إلى قَوْلِ مَنْ قال فى آيةِ نبيِّنا صلى اللهُ عليه وَسلم: لاتكونَنَّ مِمَّنْ يَجْهَلُ أَنَّ اللهَ لو شاء لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى . وفى آية نوح : لاتكونَنَّ ممن يجهَلُ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ ؛ لقوله : ﴿ وَإنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ ؛ إذ فيه إثباتُ الْجَهْلِ بصفةٍ من صفاتِ الله ؛ وذلك لايجوزُ على الأنبياء .

والمقصودُ[5] وَعْظُهم ألَّا يَتَشَبَّهُوا فى أُمورهم بِسِماتِ[6] الجاهلين ، كما قال : ﴿ إنى أَعِظُكَ ﴾ . وليس فى آيةٍ منهما دَليلٌ على كَوْنِهم على تلك الصفةِ التى نهاهم عن الكَوْنِ عليها ؛ فكيف ؟ وآيةُ نوحٍ[7] قَبْلَها : ﴿ فلا تسأَلْنِ ما لَيْسَ لكَ به

(١) فيفسر الغين بغامر ، ويحمل الاستغفار له لغامر ؛ أو لأمته تعليما لهم . والعدد للاستغفار لاللغين ؛ لبعده لفظا ومعنى .

(٢) سورة الأنعام ، آية ٣٥

(٣) لجمعهم على الهدى : جعل الناس كلهم مجتمعين متفقين على الهدى : بهدايتهم للعقائد الحقة ؛ واتباع الشريعة اللازمة ؛ فلا يضل أحد منهم عن الطريق المستقيم .

(٤) سورة هود ، آية ٤٦

(٥) أى المعنى المراد من هاتين الآيتين .

(٦) بسمات الجاهلين : أى لايتصفون بصفاتهم ؛ من عدم الصبر ، والحرص على سرعة حصول المراد مما هو شأن الجهلة .

(٧) فى قوله : « إنى أعظك » .

عِلْمٌ ﴾[١] . فَحَمْلُ ما بعدها على ما قبلها أَوْلَى ؛ لأَنَّ مِثْلَ هذا قد يحتاجُ إلى إذْنٍ[٢] .

وقد يَجوزُ إباحَةُ السؤالِ فيه ابتداء ؛ فنهاهُ اللهُ أَنْ يسألَهُ عمّا طَوى عنه عِلْمَه ، وأَكَنَّه[٣] مِن غَيْبِه من السببِ المُوجِبِ لهلاكِ ابنه .

ثم أَكْمَلَ اللهُ تعالى نعمتَه عليه بإعلامِه ذلك بقوله[٤] : ﴿ إنّه ليس مِنْ أَهْلِكَ إنه عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ . حكى معناه مكيّ .

كذلك أُمِرَ نَبِيُّنا فى الآية الأخرى[٥] بالتزامِ الصَّبْر على إعراضِ قومه ؛ ولا يَحْرَجُ عند ذلك ؛ فيقارِبَ حالَ الجاهلِ بشدَّةِ التحسُّر[٦] . حكاه ابن فُورَكَ .

وقيل: معنى الخطاب لأمّة محمدٍ ؛ أى فلا تكونوا من الجاهلين[٧] . حكاه أبو محمد مكى ؛ وقال: مِثْلُه فى القرآن كثير .

فهذا الفصل[٨] أوجب القولَ بعِصْمَةِ الأنبياء منه بعد النبوة قَطْعًا .

---

(١) هى مؤذنة بأن المراد نهيه عن التشبه بالجهلة لنهيه عن السؤال عما لايحتاج إليه .

(٢) إلى إذن من الله .

(٣) طوى عنه : أخفى . وأكنه : ستره .

(٤) سورة هود ، آية ٤٦ ،وهو ليس من أهله؛لانقطاع الولاية بكفره وخروجه عن دينه.

(٥) هى قوله تعالى : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . . » . وقد تقدمت .

(٦) التحسر : التأسف والندم على عدم إطاعة قومه له .

(٧) فى قوله : « فلا تكونن من الجاهلين » .

(٨) فهذا الفصل الذى قرر فى حق الأنبياء عليهم السلام من تأويل ما يوهم نسبتهم مما لا يليق بعلى مقامهم . وفى هامش ب : فبهذا الفصل وجب . . .

قال الخفاجى : وحاصله أن معنى الآية الأولى أنه تعالى لما رأى اشتداد حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمانهم ، وشق عليه حتى كاد يهلك نفسه لم يرض تهالكه ؛ فقال له : إن كان عظم ذلك عليك فإن أمكنك أن تغوص فى الأرض لتطلع منها آية لهم أو تنصب سلما تصعد به =

فإنْ قلتَ : فإذا قرّرْتَ عِصْمَتَهم من هذا ، وأنه لايجوزُ عليهم شىء من ذلك ، فا معنى إذاً وَعِيدُ اللهِ[١] لنبيّنا صلّى اللهُ عليه وسلم على ذلك إن فَعَلَه ، وتحذيره منه؛ كقوله[٢] : ﴿لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولتكونَنّ من الخاسرين﴾[٣] .

وقولِه تعالى[٤] : ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا ينفَعُكَ ولا يضُرُّكَ فإنْ فعَلْتَ فإنكَ إذاً من الظالمين﴾ .

وقوله تعالى[٥] : ﴿ولولا أنْ ثبّتناكَ لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذَقْناكَ ضِعْفَ الحياةِ وَضِعْفَ المماتِ ثم لاتجدُ لكَ علينا نَصِيرا﴾ .

= إلى السماء لتأتيهم بآية منها حتى يؤمنوا ؛ أى وأنت لاتستطيع ذلك، فما فائدة هذا الحرص، ولو أراد الله هدى جميع الخلق ؛ فلا تحرص على ما لم يرده .

وقيل : كانوا يقترحون عليه آيات يود لو أجيبوا لها حرصا على إيمانهم ؛ فقيل له : إن استطعت أن تفعل هذا لتأتيهم بما اقترحوا فافعل ليؤمنوا .

وقيل : ابتغاء النفق والسلم هو الآية نفسها .

فهذه ثلاثة أوجه : الأول ـ بيان لشدة حرصه عليه الصلاة والسلام ، وأنه لو قدر على المحال فعله .

والثانى ـ بيان لحرصه على تثبيت مطلوبهم ومقترحهم .

والثالث ـ حرصه على جعل الصعود والهبوط آية لهم حتى يؤمنوا به .

وترك القاضى عياض الأخيرين ؛ لأن عادة الله أن من أجيب لما اقترح عجل هلاكه ، وهو مناف لحرصه على إيمانهم ؛ لأن المتبادر من الآية النفق والسلم غير الآية ، مع مافيه من النزعة الاعتزالية .

وقصة نوح وهلاك ابنه بعد ماسأل الله نجاته ، فقيل له : إنه سبق القول بهلاك الكفرة .

(١) وعيد الله : تخويفه بتقدير صدور شىء من ذلك منه وتهديده .

(٢) سورة الزمر ، آية ٦٥

(٣) حبوط العمل : بطلانه بالكلية بحيث لايثاب عليه ، ولايبقى له عمل .

(٤) سورة يونس ، آية ١٠٦ . والدعاء فى الآية بمعنى العبادة .

(٥) سورة الإسراء ، آية ٧٤ ، ٧٥ ، أى يضاعف له عذاب الدنيا والآخرة .

وقوله(١) : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ .

وقوله(٢) : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ .

وقوله(٣) : ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ .

وقوله(٤) : ﴿ وإنْ لم تَفْعَلْ فما بلَّغْتَ رِسالَتَه ﴾ .

وقوله(٥) : ﴿ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الكافرين والمُنَافقِينَ ﴾ .

فاعْلَمْ ـ وفَّقنَا اللهُ وإياكَ ـ أنه صَلّى اللهُ عليه وسلم لايَصحُّ ، ولا يجوزُ عليه ، أَلّا يُبَلِّغَ ، وأن يخالفَ أَمْرَ ربِّه ، ولا أن يُشْرِك به ، ولا يتَقَوَّل(٦) على الله[١٨٧] مالا يُحبّ ، أو يَفتَرِى عليه، أو يَضِلَّ أو يُخْتَمَ على قلبه(٧) ، أو يُطِيعَ الكافرين؛ لكن اللهَ يسَّرَ أَمْرَه بالمكاشفَةِ والبيان(٨) فى البلاغ للمخالفين ، وأنَّ إبلاغَه إنْ لم يكُنْ بهذه السبيل فكأنه مابلَّغ .

وطيَّبَ نَفْسَه ، وقوَّى قَلْبَه بقوله(٩) : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾ ؛ كما قال

---

(١) سورة الحاقة ، آية ٤٥

(٢) سورة الأنعام ، آية ١١٦ . والمراد بقوله : أكثر من فى الأرض ، الكفرة الجهلة، وإطاعتهم بموافقته ما هم عليه .

(٣) سورة الشورى ، آية ٢٤

(٤) سورة المائدة ، آية ٦٧ ، وفى ب : فإن لم تفعل . وهو خلاف التلاوة .

(٥) سورة الأحزاب ، آية ١ . اتق الله ، ولا تخف من أحـــد . ولا تطع الكافرين والمنافقين فيما يؤدى إلى التفريط فى شىء من أمر الدين .

(٦) أن يتقول على الله ما لايحب : يتقول على الله : يكذب عليه ويفترى . ما لايحب : مالم يرده . ولم يأذن له فيه . وفى ب : ما لا يجب .

(٧) يختم على قلبه : يطبع عليه ما يمنعه عن قبول الحق .

(٨) بالمكاشفة والبيان : بكشفه له وتبيينه .

(٩) سورة المائدة ، آية ٦٧ . « ويعصمك من الناس » : أى يحميك ويصونك عنهم حتى لايقدر أحد على شىء يضرك .

لموسى وهارون[١] : ﴿لا تَخَافَا إنني مَعَكُمَا﴾[٢] ؛ لِتَشْتَدَّ[٣] بصائرُهم فى الإبلاغ وإظهار دِينِ الله ، ويُذهِبَ عنهم خوفَ العدوِّ المُضعِفِ للنَّفْسِ .

وأما قولُه تعالى[٤] : ﴿ولو تَقَوَّلَ علَيْنَا بعضَ الأقاويل لأَخَذْنَا منه باليمين . ثم لَقَطَعْنَا منه الوَتِين﴾ .

وقولُه[٥] : ﴿إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ﴾ ـ فمعناه أن هذا جزاءُ مَنْ فَعَلَ هذا ، وجزاؤُكَ لو كنتَ مِمَّنْ يَفْعَلُه ، وهو لا يَفْعَلُه .

وكذلك قوله[٦] : ﴿وَإِنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ فى الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سبيلِ الله﴾ ؛ فالمرادُ غيره ؛ كما قال[٧] : ﴿إنْ تُطِيعوا الذينَ كفرُوا يَرُدُّوكم عَلَى أعقابِكم فتَنْقَلِبُوا خاسِرِين﴾ .

وقوله[٨] : ﴿فإنْ يشَأ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِك﴾ و﴿لئن[٩] أشْرَكْتَ ليَحْبَطَنَّ عَمَلُك﴾ ـ وما أشبهه ، فالمرادُ غَيْرُه ، وأنَّ هذه حالُ مَنْ أشْرَكَ ؛ والنبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم لا يجوزُ عليه هذا .

وقوله[١٠] : ﴿اتَّقِ اللهَ ولا تُطِعِ الكافرين﴾ ـ فليس فيه أنه أطاعَهم ، واللهُ ينهاهُ عما يشاء ويَأمرُه بما يشاء ؛ كما قال[١١] : ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يَدْعُون ربَّهم

---

(١) سورة طه ، آية ٤٦

(٢) إننى معكما : أى حافظكما وناصركما على أعدائكما .

(٣) تشتد : تقوى، وتزيد شدة . بصائرهم : موسى ، وهارون، ومحمد . أى يكونون على بصيرة ويقين فى أمورهم .

(٤) سورة الحاقة ، آية ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦

(٥) سورة الإسراء آية ٧٥

(٦) سورة الأنعام ، آية ١١٦

(٧) سورة آل عمران ، آية ١٤٩

(٨) سورة الشورى ، آية ٢٤

(٩) سورة الزمر ، آية ٦٥

(١٠) سورة الأحزاب ، آية ١

(١١) سورة الأنعام ، آية ٥٢

بالغداة والعَشِيّ يريدون وَجْهَه ما عليك مِنْ حسابِهم من شىء وما مِنْ حِسَابِكَ عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ .

وما كان طَرَدهم صلّى اللهُ عليه وسلم ، ولا كان مِنَ الظالمين .

فصل

[فى عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شىء من ذلك]

وأما عِصْمَتُهم من هذا الفن[١] قبل النبوة فللناسِ فيه خِلافٌ ؛ والصوابُ أنهم معصومون[٢] قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكّك فى شىء مِنْ ذلك .

وقد تعاضدت[٣] الأخبارُ والآثارُ عن الأنبياء بتَنْزِيههم عن هذه النَّقِيصة[٤] منذُ وُلِدُوا، ونَشْأَتِهم على التوحيد والإيمان ؛ بل على إشراقِ أنوارِ المعارفِ[٥] ، ونَفَحاتِ ألطافِ[٦] السعادةِ ، كما نبّهْنا عليه فى الباب الثانى من القسم الأول من كتابنا هذا .

ولم ينقُلْ أحدٌ من أهلِ الأخبارِ أنَّ أحدا نُبِّئ واصطُفِىَ مِمّن عُرِف بكُفْرٍ وإشراكٍ قبل ذلك . ومُسْتَنَدُ هذا الباب النقْل ؛ وقد استَدلّ بعضُهم بأنَّ القلوبَ تَنْفِرُ[٧] عمّن كانت هذه سبيله[٨] .

---

(١) من هذا الفن ؛ أى اعتقاد ما لا يليق فى التوحيد والعلم بالله وصفاته وبما أوحى إليه من أمور الدين كما تقدم . (٢) معصومون : محفوظون مصونون .

(٣) تعاضدت : تعاونت، وتقوت، وتواترت . (٤) النقيصة: الصفة المنقصة لمن اتصف بها.

(٥) المراد معرفة الله تعالى وصفاته وكل ما يتعلق به . وإشراقها : سطوع أنوارها منهم وشدة ظهورها فى أحوالهم وأقوالهم .

(٦) النفحة : الرائحة الطيبة التى تفوح . والسعادة : أى كونهم سعداء الدارين .

(٧) تنفر : تكره . (٨) سبيله : طريقه ، والمراد عادته ودأبه .

وأنا أقولُ إنَّ قُريشا قد رَمَتْ نَبِيَّنَا بكلّ ما افْتَرَتْه ، وعَيَّر كُفّارُ الامم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقَتْه[1] ، مما نَصَّ اللهُ تعالى عليه، أو نقَلَتْهُ إلينا الرُّوَاةُ ، ولم نجِدْ فى شىء من[2] ذلكَ تَعْيِيرًا لواحدٍ منهم برفضِهِ[3] آلهتَه ، وتقريعه[4] بذمّه بتَرْكِ ما كان قدْ جامَعَهم[5] عليه .

ولو كان هذا لكانوا بذلك[6] مُبادِرين ، وبتلوّنه فى معبوده محتجّين ، ولكان توبيخُهم له بنَهْيِهِم عما كانَ يعبدُ قبْلُ أفْظَعَ وأقطعَ فى الحجة مِنْ توبيخه بنَهْيِهِم عن تَرْكِهِم آلِهَتهم ، وما كان يعبدُ آباؤهم من قبل .

ففى إطْبَاقِهم[7] على الإعراضِ عنه دَليلٌ على أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه ؛ إذ لو كان لنُقِل ، وما سكَتُوا عنه ، كما لم يسكتُوا عند تحويل القِبْلة ، وقالوا : ﴿ ماوَلَّاهم عن قِبْلتهم التى كانوا عليها ﴾[8] ، كما حكاه الله عنهم .

وقد استدلّ القاضى القُشَيْرِى على تنزيههم عَنْ هذا بقوله تعالى[9] : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنا من النبيين مِيثاَقَهم وَمِنْكَ ومن نُوح وإبراهيم ومُوسَى وعيسى ابنِ مريم وأَخَذْنا منهم ميثاقًا[10] غَلِيظا ﴾ .

(١) واختلقته : كذبت عليهم بوصفهم بماليس فيهم ، يريد : اخترعته، من جميع المثالب .

(٢) فى شىء من ذلك : أى من الكتب الإلهية والأخبار المروية .

(٣) رفضه : تركه . (٤) التقريع : التوبيخ .

(٥) جامعهم : وافقهم واجتمع معهم عليه . (٦) بذلك : بتعييره .

(٧) إطباقهم: أى اتفاق كفار الأمم وإجماعهم . يقال: أطبق القوم على كذا : إذا اتفقوا .

(٨) عند تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ؛ فإنهم وبخوا به وشنعوا حين سفههم الله ، فقال: سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ــ فى أول أمرهم :سورة البقرة ، آية ١٤٢ (٩) سورة الأحزاب ، آية ٧

(١٠) الميثاق : العهد . والميثاق الذى أخذ عليهم هو تبليغ الرسالة ودعوة الخلق إلى دين الإسلام ، وأن يصدق بعضهم بعضا ويبشر به .

وبقوله تعالى[١] : ﴿ وإذ أخذ اللهُ ميثاقَ النبيين لما آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمِنُنّ به ولتنصرُنّه ﴾ .

قال : فطهّره[٢] اللهُ فى الميثاق .

وبَعِيدٌ أنْ يَأخُذَ منه الميثاقَ قَبْل خَلْقِه ، ثم يَأْخذ مِيثاق النبيّين [١٨٨] بالإيمان به ونَصْرِه قَبْل مولده بدُهور ، ويجوِّزُ عليه الشِّرْكَ أو غيره من الذنوب . هذا مالا يجوِّزُه إلا مُلْحِد[٣] .

هذا معنى كلامه .

وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريلُ عليه السلامُ ، وشقَّ قَلْبَه صغيرا ، واستخرج منه عَلَقَةً[٤] ، وقال : هذا حظُّ[٥] الشيطانِ منكَ ، ثم غسله وملأهُ حِكْمةً وإيمانا ، كما تظاهرت[٦] به أخبارُ المبدأ[٧] .

ولا يشَبِّهُ[٨] عليكَ بقولِ إبراهيم فى الكوكب والقمر والشمسِ[٩] : ﴿ هذا رَبِّى ﴾ ؛ فإنه قد قيل : كان هذا فى سِنّ الطفولية[١٠] ، وابتداء النظَرِ والاستدلال ؛ وقَبْلَ لزومِ التكليف .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٨١

(٢) فطهره الله : برأه ونزهه عما لا يليق بعلى قدره .

(٣) ملحد : فاسق العقيدة ، عادل عن طريق الحق ونهج الصواب .

(٤) علقة : قطعة صغيرة من دم متجمد يشبه العلقة المعروفة .

(٥) حظ الشيطان : نصيبه فى وسوسته لبنى آدم ، فبإخراجه لم يبق له عليه سبيل .

(٦) تظاهرت : اشتهرت وقويت .

(٧) أخبار المبدأ : الأحاديث الصحيحة الواردة فى ابتداء أمره ونبوته . وحديث شق صدر النبى صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم : ١٤٧

(٨) ولا يشبه عليك : لايشبه عليك ويوقعك فى شبهة .

(٩) سورة الأنعام ، آية ٧٦ – ٧٨

(١٠) سن الطفولية : إذ كان طفلا ، أى ولدا صغيرا .

وذهب معظَمُ الحذّاقِ[١] من العلماء والمفسّرين إلى أنه إنما قال ذلك مُبَكِّتاً[٢] لقومه، ومستدلّاً عليهم.

وقيل: معناه الاستفهامُ الواردُ مَوْرِدَ الإنكار؛ والمرادُ: فهذا رَبِّى[٣]؟

قال الزجّاج: قولُه: «هذا ربى» - أى على قولكم؛ كما قال: «أين شُرَكائى»؛ أى عندكم[٤].

ويدلُّ على أنه[٥] لم يَعْبُدْ شيئا مِنْ ذلك، ولا أَشْرَكَ قطُّ باللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ[٦]: قولُ الله عزّ وجلّ عنه[٧]: ﴿إذ قال لأبيهِ وقومهِ ما تَعْبُدُون﴾.

ثم قال[٨]: ﴿أفرأيتم ما كنتُم تَعْبدونَ. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنّهم عدوٌّ لى إلا ربَّ العالمين﴾.

وقال[٩]: ﴿إذْ جاء رَبَّهُ بقَلْبٍ سَليم﴾؛ أى من الشِّرْك.

وقوله[١٠]: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصنامَ﴾.

فإن قلتَ: فما معنى قوله[١١]: ﴿لئن لم يَهْدِنى رَبِّى لَأَكُونَنَّ من القَوْمِ الضالّينَ﴾؟

قيل: إنه إنْ لم يُؤَيِّدْنى اللهُ بمعونتِهِ أَكُنْ مِثْلَكم فى ضَلالتكم وعبادتكم،

---

(١) الحذاق: جمع حاذق، وهو من له ذكاء وفهم.

(٢) مبكتا لقومه، لأنهم كانوا يعبدون الكواكب والتبكيت: هو اللوم، والتقريع، والتوبيخ.

(٣) فهذا ربى: أى يليق بمثله أن يكون معبودا.

(٤) عندكم: أى كونهم شركاء على زعمهم. والآية فى سورة القصص: ٦٢، ٧٤، وغيرها.

(٥) أنه؛ أى الخليل إبراهيم.

(٦) طرفة عين: فى أقل الأزمنة.

(٧) سورة الشعراء، آية ٧٠

(٨) سورة الشعراء، آية ٧٥-٧٧

(٩) سورة الصافات، آية ٨٤

(١٠) سورة إبراهيم، آية ٣٥. واجنبنى: باعد بيننا جميعا وبين عبادتها؛ وهذا يدل على أنه هو وذريته لم يصدر منهم شىء من ذلك.

(١١) سورة الأنعام، آية ٧٧

على معنى الإشْفَاقِ والحذَر[١] ؛ وإلّا فهو معصومٌ فى الأزَلِ[٢] من الضلال .

فإنْ قُلْتَ : فما معنى قوله[٣] : ﴿ وقال الذين كفَرُوا لِرُسُلهم لَنُخْرِجَنَّكم من أرْضِنَا أو لتعودُنَّ فى مِلَّتنا ﴾ ؛ ثم قال بَعْدُ عن[٤] الرسل[٥] : ﴿ قد افْتَرَينا على اللهِ كذِبا إنْ عُدْنا فى مِلَّتِكم بعد إذْ نجّانا اللهُ منها ﴾ ؛ فلا تُشْكِلُ عليكَ لفظةُ العَوْدِ ، وأنها تقتضى أنهم إنما يعودون إلى ما كانوا فيه من مِلّتهم[٦] ؛ فقد تأْتِى هذه اللفظةُ فى كلام العربِ لغير ما ليس له ابتداء بمعنى[٧] الصيرورةِ ؛ كما جاء فى حديثِ الجهَنّميين[٨] : « عادُوا حُمَماً[٩] » ولم يكونوا قبل كذلك .

---

(١) الإشفاق على قومه ، ترحما لهم . والحذر ؛ أى الخوف من الله والاحتراز عما هم فيه.

(٢) فى الأزل : قديما فى قضاء الله بالسعادة وتطهير فطرته .

(٣) سورة إبراهيم ، آية ١٣ . فالعود يقتضى أنهم كانوا على دينهم وكفرهم، وهم معصومون من ذلك قبل البعثة وبعدها .

(٤) عن الرسل : حاكيا عنهم .

(٥) سورة الأعراف ، آية ٨٩ ، والآيتان ليستا متواليتين ، فكل واحدة منهما فى سورة كما تقدم ، وهما فى قصة واحدة ، وهى قصة شعيب (شرح الخفاجى : ٤ — ٩٤) . ومعنى : « قد افترينا على الله » التعجب ؛ أى ما أكذبنا على الله . ومعنى « نجانا الله منها » : عصمنا عن الميل إليها فضلا عن الدخول فيها .

(٦) من ملتهم : يعنى الكفر .

(٧) بمعنى الصيرورة ؛ وهى وجود الشىء بعد أن لم يكن .

(٨) أى الحديث الذى فى حق أهل جهنم المروى فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ؛ وأوله : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله تعالى : من كان فى قلبه حبة خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون وقد امتحشوا وعادوا حمما فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل . امتحشوا : احترقوا . والحديث فى صحيح مسلم : ١٧٢

(٩) حمما : سودا كالفحم . وعاد هنا بمعنى صار .

ومِثْلُه قولُ الشاعر(١) :

[تلكَ المـكارم لاقَعْبَانِ منْ لَبَنٍ شِيبَا بماء](٢) فعادَا بَعْدُ أبوالا

وما كانا قَبْلُ كذلك .

فإن قلتَ : فما معنى قوله(٣) : ﴿ وَوَجَدَكَ ضالًّا فَهَدَى(٤) ﴾ ؛ فليس هو من الضلال الذى هو الـكُفْر ؛ قيل : ضالًّا عن النُّبوَّةِ فهدَاكَ إليها(٥) ؛ قاله الطبرى .

وقيل : وجدكَ بَيْنَ أهلِ الضَّلالِ ، فعصمكَ مِنْ ذلك(٦) ، وهدَاكَ للإيمان ، وإلى إرشادهم .

ونحوه عن السُّدِّى وغَيْرِ واحدٍ .

وقيل : ضالًّا عن شَرِيعتك ؛ أى لاتعرِفُها(٧) فهَدَاكَ إليها .

---

(١) هو أمية بن أبى الصات من قصيدة يمدح بها سيف بن ذى يزن ملك اليمن لما ظفر بالحبشة؛ وذلك بعد مولد النبى بسنتين ، فأتته وفود العرب تهنئه وفيهم قريش وعبد المطلب — ديوانه :٥٢ وقيل : هو لأبى الصلت ربيعة الثقفى ، وقيل للنابغة الجعدى .

قال الخفاجى : وهذا مثل فى الفخر بمعالى الأمور وعدم التنزل لسفسافها . وشيبا : خلطا ومزجا . والقعب : إناء معروف ؛ يقول : إنك فى معال وقصور رفيعة تجود بالأموال ، لست كعرب البادية الذين جودهم سقى ضيفانهم لبنا بماء مزج به يعود فى يوم بولا مراقا ، وجودك بمكارم وأموال تبقى عند من أنعمت عليه ؛ فشتان بينك وبين غيرك .

(٢) ما بين القوسين ليس فى ا .

(٣) سورة الضحى ، آية ٧

(٤) وهذا يقتضى نسبته — صلى الله عليه وسلم — للضلال قبل البعثة ؛ والضلال شرعا إما بالكفر أو بارتكاب المعاصى ، وهو صلى الله عليه وسلم منزه عنهما وجوابه ما يأتى .

(٥) لأن الضلال معناه العدول عن الطريق المستقيم ، وضده الهداية ؛ فكل عدول ضلال سواء كان عمدا أم لا ؛ فمعناه غير مهتد لما سبق لك من النبوة .

(٦) من ذلك : أى من الضلال وموافقة أهله .

(٧) لا تعرفها ؛ أى قبل أن أوحى إليك .

والضلالُ هنا التَّحيُّر ؛ ولهذا كان صلَّى اللهُ عليه وسلم يخْلُو بغار حِرَاء فى طلب مايتوجّه به إلى ربّه[١] ، ويَتَشَرَّع[٢] به حتى هداهُ اللهُ إلى الإسلام[٣] ، حكى معناه القُشَيْرِى .

وقيل: لاتعرِفُ الحقّ[٤] ، فهداكَ إليه. وهذا مثلُ قوله تعالى[٥] : ﴿ وعلَّمكَ مالم تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ ؛ قاله علىّ بن عيسى .

قال ابن عباس : لم تكن له ضَلالةُ معصيةٍ .

وقيل : هَدَى ؛ أى بَيَّن أمْرَكَ بالبَرَاهين .

وقيل : وَجَدَكَ ضَالًّا بين مكةَ والمدينةَ ؛ [فهداكَ إلى المدينة][٦] .

وقيل : المعنى وَجَدكَ[٧] فهدَى بكَ ضالًّا .

وعن جعفر بن محمد : وَوجدكَ [١٨٩] ضالًّا عن محبّتى لكَ فى الأزَلِ[٨] ؛ أى لاتعرفها ، فمننْتُ عليكَ بمعرفتى[٩] .

---

(١) أى بسبب تصفية باطنه وإعمال فكره فى وسيلة توصله إلى الله .

(٢) يتشرع : يتخذه شريعته وعبادة تقربه لربه .

(٣) يعنى أنه صلى الله عليه وسلم كان موحداً فى أول أمره طالبا لإتمام النعمة عليه بهدايته لما يرضيه ويكمله فمن عليه بذلك .

(٤) الحق : الدين الحق ؛ لأنه لايعرف إلا بالوحى . فهداك إليه : بما أوحاه إليك .

(٥) سورة النساء ، آية ١١٣ . ومعناها علمك من الشرع وأحكامه مالم تكن تعلم ؛ أى مالم يكن فى قوتك وقدرتك علمه .

(٦) مابين القوسين ليس فى ا ؛ أى كان فى حيرة متردداً فى الإقامة بمكة والهجرة إلى المدينة يرجو أن يؤذن له فى الهجرة إليها حتى أذن الله تعالى له فى ذلك .

(٧) وجدك : أى قائما بأعباء الرسالة وتبليغها . وهو عالم بذلك قبل وقوعه ، ولكن هو تمثيل وتنويه بأمره وبمحبة الله تعالى له ؛ فكأنه أمر مطلوب لعظيم عثر عليه ؛ كما يقال : العلم ضالة المؤمن .

(٨) فى الأزل : أى فى القدم قبل خلقك .

(٩) قال الخفاجى : فعلى هذا لايتوهم فيه نقص ؛ لأن معناه : ليس أكرم علىّ منك .

وقرأ الحسنُ بن عليّ : ووَجدكَ ضالٌّ فهدَى ؛ أى اهتدى بك[١] .

وقال ابنُ عطاء : ووَجدكَ ضالًّا ؛ أى مُحِبًّا لمعرفتى . والضالُّ المُحِبُّ ؛ كما قال[٢] : ﴿ إنكَ لفى ضَلَالِكَ القديم ﴾ ؛ أى محبّتك القديمة ؛ ولم يريدوا ها هنا فى الدّين ؛ إذْ لَوْ قالوا ذلكَ فى نبيّ اللهِ لـكفَرُوا .

ومِثْلُه عند هذا[٣] قولُه[٤] : ﴿ إنّا لنَرَاها فى ضَلَالٍ مُبين ﴾؛ أى مَحبَّةٍ بيِّنة[٥] .

وقال الُجنَيْد[٦] : ووَجدكَ مُتَحيِّرًا فى بيانِ ما أُنْزِلَ إليكَ[٧] فهداكَ لِبيَانِه ؛ لقوله[٨]:﴿ وَأَنْزَلْنَا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ولعلهم يتفـكَّرُونَ﴾ .

وقيل: ووَجدكَ لم يعرفْكَ أحدٌ بالنبوّةِ حتى أظهركَ ، فهدى بك السعداء ، ولا أعلمُ أحدا قال من المفسرين فيها : ضالًّا عن الإيمان[٩] .

وكذلكَ[١٠] فى قصةِ موسى عليه السلام قوله[١١] :﴿فعَلْتُها إذاً وأنا من الضالِّين﴾؛

---

(١) على أن « ضال » فاعل : وجد . . .

(٢) سورة يوسف ، آية ٩٥

(٣) أى عند ابن عطاء .

(٤) سورة يوسف ، آية ٣٠

(٥) بينة : ظاهرة مكشوفة .

(٦) الجنيد : هو أبو القاسم القواريرى ، المشهور بسيد الطائفة وشيخ الطريقة ، أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق ، كان شيخ وقته وفريد عصره . توفى سنة سبع وتسعين ومائتين .

(٧) ما أنزل إليك من القرآن .

(٨) سورة النحل ، آية ٤٤ . والمراد بالذكر القرآن ، لما ذكر من التذكير والموعظة ؛ لتبين للناس ما نزل إليهم مما خفى عليهم ؛ فالضلال التحير فيما شق عليه فى ابتداء أمره ؛ ومثله لا ضير فيه .

(٩) لأنه صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها عن الكفر وكل ماتنفر عنه القلوب .

(١٠) أى مثل آية : ووجدك ضالا « فهدى » وتأويلها . . .

(١١) سورة الشعراء ، آية ٢٠

أى من المخطئين الفاعلين شيئا بغير قَصْد[1] ؛ قاله ابنُ عَرَفة .

وقال الأزهرى : معناه من النَّاسين .

وقد قيل ذلكَ فى قوله[2] : ﴿ ووجدكَ ضالًّا فهَدَى ﴾ ؛ أى ناسيا ؛ كما قال تعالى[3] : ﴿ أنْ تَضِلَّ إحداهما فتذكِّرَ إحداهما الأُخرى ﴾ .

فإنْ قلتَ : فما معنى قوله[4] : ﴿ وكذلك أوْحَيْنا إليكَ رُوحاً من أمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكتابُ ولا الإيمان[5] ﴾ ؟

فالجوابُ أنّ السمرقندى قال : معناه : ما كنْتَ تَدْرِى قبْل الوَحْىِ أنْ تقرأ القرآنَ[6] ، ولا كيف تدعو الْخلْق إلى الإيمان .

وقال بكر القاضى نحوه ؛ قال : ولا الإيمانُ الذى هو الفرائض والأحكام؛ قال: فكان صلى الله عليه وسلم قَبْلُ مؤمنا بتوحيده ؛ ثم نزلت الفرائضُ التى لم يكن يَدْرِيها قبْلُ ؛ فزاد بالتكليف إيمانًا ؛ [7]] وهو أحسَنُ وجوهِه[8] .

---

(١) بغير قصد وتعمد لقتل النفس التى قتلها ؛ وهذا معنى جائز قبل النبوة ؛ فلا يتوهم من هذه الآية أن فيها نقيصة لموسى عليه السلام ؛ لأن الضلال بمعنى الخطأ ، وضمير « فعلتها » للفعلة التى فعلها ، وهى قتله قبطيا من أتباع فرعون بمصر قبل نبوته ، وقد وبخه فرعون عليها ، وعدد نعمه عليه بقوله : ألم نربك فينا وليدا ... فأجابه بقوله : «فعلتها إذا وأنا من الضالين» ؛ فوصف نفسه بالضلال، فالضلال بمعنى الخطأ وعدم القصد لقتله؛ وإنما أراد دفعه فوكزه فمات من وكزه، ومثله لاضير فيه لأنه خطأ .

(٢) سورة الضحى ، آية ٧

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٨٢ . وتضل : تنسى .

(٤) سورة الشورى ، آية ٥٢

(٥) قال الخفاجى : ووجه السؤال أنه نفى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معرفته بالقرآن المنزل عليه، وبالإيمان. والأول صحيح لأن عدم معرفته بالقرآن قبل الوحى أمر مقرر. والمشكل إنما هو الثانى ؛ لأنه يقتضى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مؤمنا قبله ، وهو معصوم عن الكفر قبل النبوة وبعدها ؛ ولذا قيل : إن المراد به الإيمان بما يجب الإيمان به من أحكام الشريعة ، لا مجرد التوحيد والتصديق .

(٦) أى لا تعرف قراءته ولا دراسته .

(٧) من هنا ساقط فى ا

(٨) أى أحسن ما وجهت به الآية .

فإن قلتَ : فما معنى قولهِ[1] : ﴿ وإنْ كنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ؟ فاعلم أنه ليس[2] بمعنى قوله[3] : ﴿ والذين هم عن آياتنا غافِلُون ﴾ ؛ بل قد حكى أبو عُبَيْد[4] الهَرَوى أن معناه لمِنَ الغافلين عن قصةِ يوسف ؛ إذْ لم تَعْلَمْها إلّا بوَحْينا][5] .

وكذلك[6] الحديث الذي يرويه عثمان بن أبي شَيْبَةَ بسنده عن جابر رضي الله عنه - أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قد كان يشهدُ مع المشركين مشاهِدَهم[7] ، فسمِعَ مَلَكَيْن خَلْفَه ، أحدهما يقولُ لصاحبه : اذهَب حتى تقومَ خَلْفَه . فقال الآخر : كيف أقومُ خَلْفَه وعَهْدُه باستلامِ الأصنام ؛ فلم يشهدهم[8] بعد .

فهذا حديثٌ أنكره أحمد بن حَنْبَل جدًّا ، وقال : هو موضوع ، أو شبيهٌ بالموضوع .

وقال الدارقُطْني : يقال إن عثمان وَهِمَ في إسناده .

والحديثُ بالجملة مُنْكَرٌ غَيْرُ متفَقٍ على إسناده ؛ فلا يُلْتفَتُ إليه .

---

(١) سورة يوسف ، آية ٣

(٢) قال الخفاجي : فإن الغفلة في هذه الآية غفلة عن العلم بالله وصفاته ، وهو صلى الله عليه وسلم معصوم عن هذه الغفلة .

(٣) سورة يونس ، آية ٧ (٤) الضبط في ب . (٥) ما بين القوسين ساقط في ا .

(٦) ومثل ذلك الذي يوهم ما لا يليق بعصمته قبل النبوة .

(٧) يشهد : يحضر . ومشاهدهم : محال اجتماعهم عند أصنامهم . قال الخفاجي : وهذا هو محل الإنكار من هذا الحديث ، فإنه لم ينقل ذلك عنه إلا في رواية ذكرها السهيلي ، وقال : إنها مرة واحدة على ما فيها ، وكان ذلك بإلحاح عليه من عمه أبي طالب ، ثم لم يعد لها .

(٨) أي لم يشهد المشركين في مشاهدهم بعد ما سمع من الملكين ما قالاه .

قال الخفاجي : وهذا الحديث مشكل ؛ لما تقرر من أنه لم يكن على شيء مما كان عليه المشركون من ولادته إلى وفاته . وانظر ما يأتي من كلام المصنف. وانظر أيضا : ميزان الاعتدال: ٣ - ٣٥ ، في إنكاره .

والمعروفُ عن النبيّ صلّى اللهُ عليهِ وسلم خِلَافُه عند أهل العلم[١] من قَوْله : « بغِّضَتْ إليَّ الأصنام »[٢] .

وقوله فى الحديث الآخر الذى روَتْه أمُّ أيمن[٣] حين كلَّمه عَمُّه وآلُه فى حضُور بعض أعيادهم ، وعزَمُوا عليه فيه بعد كَرَاهته لذلك ؛ فخرج معهم ، ورجع مَرْعُوبًا ؛ فقال : كلّما دَنَوْتُ منها مِنْ صَنَمٍ تمثَّلَ[٤] لى شخْصٌ أبيضُ طويل يصيح بى : وَرَاءكَ[٥] ، لاتمسّه ؛ فما شَهِد بَعْدُ لهم عِيداً .

وقوله ـ فى قصّة بَحيرا[٦] حين استحلفَ[٧] النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلم باللّاتِ والعُزَى[٧] إذ لقِيَه بالشَّام فى سَفْرَته مع عمّه أبى طالب وهو صبيٌّ ، ورأى فيه علاماتِ النبوّة ، فاختبره بذلك ، فقال له النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم : لاتسألْنِى بهما[٨] ، فواللهِ ما أبغضتُ شيئا قطُّ بُغْضَهما .

فقال له بَحيرَا : فباللهِ إلّا ما أخبرتنى عما [١٩٠] أسألُكَ عنه . فقال : سَلْ عَمَّا بَدَا لك[٩] .

وكذلك[١٠] المعروف مِنْ سيرته صلّى اللهُ عليه وَسلم وتوفيق اللهِ له أنه كان قبل نبوّته يخالفُ المشركين فى وقوفهم بمُزْدَلفة فى الحج ؛ فكَان يقفُ هو بعرَفَة ، لأنه كان موقفَ إبراهيم عليه السلام .

---

(١) خلافه : ما يخالفه . عند أهل العلم بالحديث وبأحواله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أى جعلنى الله مجبولا على عدم حبها .

(٣) أم أيمن : حاضنته صلى الله عليه وسلم ؛ واسمها بركة . وحديثها هذا رواه ابن سعد عن ابن عباس ، فى الطبقات : ١ ـ ١٠٣ (٤) تمثل : ظهر وتصور . (٥) وراءك : ارجع .

(٦) بحيرا : الراهب . والقصة فى طبقات ابن سعد : ١ ـ ١٠٠ ، ١٠١ وغيرها .

(٧) استحلف : أقسم عليه ، أو طلب منه أن يحلف . واللات والعزى : اسم صنمين معروفين . (٨) لا تسألنى بهما : لاتقسم على بهما لما فيه من الشرك وتعظيم الأصنام .

(٩) عما بدالك : عن كل شىء خطر ببالك .

(١٠) وكذلك : أى مثل ماتقدم من نزاهته صلى الله عليه وسلم عما كان عليه أهل الجاهلية .

فصـــل

فى حكم عَقْد النبى فى التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية

قال القاضى[١] أبو الفضل رضى الله عنه : قد بان بما قدمناه عقودُ[٢] الأنبياء فى التوحيد والإيمانِ والوَحْيِ وعِصْمتهم فى ذلك على ما بيّنّاه .

فأما ما عَدَا هذا الباب من عقودِ[٣] قلوبهم فجِماَعُها أنها[٤] مملوءة عِلْماً ويقينا على الجُمْلَة ، وأنها قد احتَوَتْ من المعرفة والعـلمِ بأمور الدِّين والدنيا مالا شَيْء فَوْقَه[٥] .

ومَنْ طالعَ الأخبارَ ، واعتنى بالحديث ، وتأمّلَ ما قُلْناهُ وَجدَه .

وقد قدمنا منـه فى حقّ نبيِّنا فى الباب الرابع[٦] أول قسم من هذا الـكتاب ما يُنبِّه على ما وراءه ، إلا أنَّ أحوالهَم فى هذه المعارف تختلفُ .

فأمّا ماتعلّق منها[٧] بأمرِ الدنيا فلا يُشْتَرطُ فى حَقِّ الأنبياء العِصْمَةُ مِنْ عَدَمِ معرفة الأنبياء ببعضها أو اعتِقادِها على خلاف ما هِيَ عليه ، ولا وَصْمَ[٨] عليهم [فيه][٩] ؛ إذْ هِمَمُهم متعلِّقَةٌ بالآخرة وأنبائها ، وأمْرِ الشريعةِ وقوانينها .

---

(١) هو القاضى عياض ــ المؤلف .

(٢) عقود : جمع عقد ؛ وهو الجزم والتصميم وعدم الشرك .

(٣) عقود قلوبهم : جزمها .

(٤) أنها : أى قلوبهم .

(٥) ما لا شيء فوقه : أى يزيد عليه ويفضله .

(٦) فى الباب الرابع فيما أظهره الله على يديه من المعجزات ، وشرفه به من الخصائص والـكرامات فى القسم الأول صفحة ٣٤١

(٧) منها : أى العلوم والمعارف .

(٨) لا وصم : لا عيب ، ولا نقص ، ولا تقصير .

(٩) ليس فى ا .

وأمورُ الدنيا تضادُّها[١] ، بخلافِ غيرهم من أهْلِ الدنيا الذين يَعْلَمُون ظاهرا من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرةِ هم غافلون ، كما سنُبَيِّنُ هذا في الباب الثاني إنْ شاء الله ؛ ولكنَّه لا يُقال : إنهم لا يعلمونَ شيئا مِنْ أمْرِ الدنيا ؛ فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى الغَفْلَةِ والبَلَه[٢] ، وهم المنزَّهُون عنه[٣] ؛ بل قد أُرسِلُوا إلى أهل الدنيا ، وقُلِّدُوا سِيَاسَتَهم وهدايتَهم والنظرَ في مصالحِ دِينِهم ودُنياهم ؛ وهذا لا يكون مع عَدَمِ العِلْمِ بأمور الدنيا بالكليّة ؛ وأحوالُ الأنبياء وسِيَرُهم في هذا الباب معلومةٌ ، ومعرفتُهم بذلك كلّه مشهورةٌ .

وأمّا إن كان هذا العَقْدُ[٤] ممّا يتعلّقُ بالدِّين فلا يَصِحُّ من النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم إلاّ العِلْمُ به ، ولا يجوزُ عليه جَهْلُه جملةً ؛ لأنه لا يَخْلُو أن يكونَ حصل عِنْدَهُ ذلك عن وَحْيٍ مِنَ الله ، فهو لا يصِحُّ الشكُّ منه فيه على ما قدَّمناه ، فكيف الجَهْلُ ؛ بل حصل له العِلْمُ اليقين . أو يكون فَعَل ذلك[٥] باجتهاده فيما لم يَنْزِل عليه فيه شيء على القَوْل بتجويز وُقُوعِ الاجتهادِ منه في ذلك[٦] على قول المحقِّقين[٧] ؛ وعلى مقتضى حديث أمِّ سَلَمَة : إني إنما أقْضِي بينكم بِرَأْيِي فيما لم يُنَزَّل

---

(١) تضادها : تخالفها .

(٢) الغفلة والبله : أي شدة البلادة ، وعدم الإدراك .

(٣) قال الخفاجي : والحاصل أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم لابد لهم من العلم بالعقائد والشرائع والوحي يقينا من غير شك وشبهة ، وأما أمور الدنيا ، لبخسها ، فلا يلزم العلم بها ، لكنهم عليهم الصلاة والسلام لكونهم أكمل الناس فطنة وعقلا لا يكثر عدم علمهم بها ، وإنما يكون ذلك في النادر .

(٤) هذا العقد : أي عقد قلوبهم بالاعتقاد الجازم .

(٥) فعل ذلك الأمر المتعلق بالدين ببيان أحكامه حلا وحرمة ونحوه .

(٦) في ذلك : فيما لم ينزل عليه وحي فيه .

(٧) على قول المحققين : الذاهبين لجواز اجتهاده ؛ وهو القول الصحيح .

عَلَىَّ فيه شىء[١] . خرّجه الثقات[٢] .

وكقِصَّة أَسْرَى بَدْرٍ[٣] ، والإِذْنِ للمُتَخَلِّفين[٤] على رَأْىِ بعضهم ، فلا يكون أيضا ما يعتَقِدُه مما يُثْمِرُه اجتهادُه[٥] إلا حقًّا وصحيحا[٦] .

هذا هو الحقُّ الذى لا يُلْتَفَتُ إلى خلافِ مَنْ خالفَ فيه [مِمَّنْ أجاز عليه الخطأَ فى الاجتهاد][٧] ، لا على القولِ بتَصْوِيبِ المجتهدين الذى[٨] هو الحقُّ والصوابُ

---

(١) أى فيما لم ينزل من الله فيه شىء من وحيه .

(٢) الثقات : كأبى داود وغيره ، فهو حديث صحيح دال على صحة اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وهو فى سنن أبى داود : ٢ ـ ٢٧٥ ،وفى سنن أبى داود : برأى .

(٣) القصة فى صحيح مسلم ١٣٨٥ . وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر والصحابة ما ترون فى هؤلاء؟ فقال أبوبكر رضىالله عنه : بنو العم والعشيرة ؛ أرى أن تأخذ منهم فدية يكون لنا بها قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام . فقال رسولالله صلى اللهعليه وسلم : ما تقول يا عمر ؟ فقال : أرى أن تضرب أعناقهم ؛ فإنهمأئمة الكفر وصناديده ،فنزل: ما كان لنبى أن يكونله أسرى حتى يثخن فىالأرض . فجلس رسولالله هو وأبو بكر يبكيان؛ فقال لهما عمر : لم تبكيان ؟ أخبرانى ، فإن وجدت بكاء بكيت وإلاتباكيت. فقال صلى اللهعليه وسلم : أبكى لما عرض من الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة عنده . قال الخفاجى : فهذا دليل على وقوع الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم .

(٤) كان ذلك فى غزوة تبوك ؛ فإنه أذن لجماعة استأذنوه فى القعود عنها فأذن لهم باجتهاد منه ولم ينتظر الوحى ؛ فعاتبه الله على ذلك مع لطفه فى تقديم العفو عنه بقوله :« عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

(٥) أى يترتب عليه ويكون ثمرة له .

(٦) قال الخفاجى : وهذا بناء علىأنه صلىالله عليهوسلملايخطىء فى اجتهادهأصلا كما ارتضاه الغزالى ؛ وبنى عليه أنه يجوز القياس على ما اجتهد فيه ؛ وهو اللائق بمقام النبوة .

(٧) ما بين القوسين فى هامش ب ، وعليه علامة الصحة . وهو ليس فى ا .

(٨) أى ما اعتقده كل موافق للحق والصواب ؛ فكل مجتهد مصيب .

عندنا ؛ ولا على القولِ الآخَر[١] بأن الحقَّ فى طرَفٍ واحدٍ لعصمةِ النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلم من الخَطَأ فى الاجتهاد فى الشرعيات ؛ ولأنَّ القولَ فى تخطئةِ المجتهدين إنما هو بعْدَ استقرارِ الشَّرْعِ ؛ ونَظَرُ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم واجتهادُه إنما هو فيما لم يَنزِلْ عليه فيه [١٩١] شىءٌ ، ولم يُشْرَعْ لهُ قَبْلُ ؛ هذا فيما عَقَد[٢] عليه صلّى اللهُ عليه وسلم قَلْبَه ، فأمّا مالم يَعْقِدْ عليه قَلْبَه من أمْرِ النَّوَازِل[٣] الشرعية ؛ فقد كان لا يعلمُ منها أوّلا إلاَّ ما علَّمَهُ اللهُ شيئا شيئا حتى استقرّ[٤] عِلْمُ جميعها عِنْدَه ؛ إمّا بوَحْىٍ من اللهِ ، أو إذْنٍ له أنْ يَشْرَع فى ذلك[٥] ويَحْكُمُ بما أراه الله[٦] .

وقد كان ينتظِرُ الوَحْىَ فى كثير منها[٧] ؛ ولكنه لم يَمُتْ حتى استقرَّ عِلْمُ جَمِيعِها عنده صلى اللهُ عليه وسلم ، وتقرّرت معارفُها لدَيْهِ على التحقيق[٨] ، ورَفْعِ الشكّ والرَّيْب ، وانْتِفَاء الْجَهْل .

---

(١) الذى ذهب إليه الجمهور. قال الخفاجى : بأن الحق فى طرف واحد غير معين ؛ فالآخر خطأ إلا أنه لا إثم عليه فيه ؛ وهذا فى غير النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يخطىء أو لا يقر على الخطأ .

(٢) عقد : علمه علما جازما .

(٣) النوازل: جمع نازلة، وهى القضية التى تحدث له وتحتاج لبيان الحكم فيها . والنوازل الشرعية : التى يتعلق بها حكم شرعى من حل وحرمة .

(٤) فى ا : استفرغ .

(٥) يشرع فى ذلك : أى يأخذ فى بيانه ، أو يبين ما حكم الشرع فيه برأيه واجتهاده .

(٦) بما أراه الله : بما عرفه وعلمه بوحى منه أو إلهام ونظر فيما أنزل عليه ، كما قال تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب لتحكم بين الناس بما أراك الله » ـ والآية دالة على اجتهاده المأذون له فيه ، وأنه مصيب فيه .

(٧) منها : من النوازل الواقعة ليبين الله له الحكم فيها ، ويجتهد فى قليل منها أحيانا .

(٨) على التحقيق : أى متيقنة محققة بلا تردد .

وبالجملة فلا يَصِحُّ منه الجهلُ بشيء مِنْ تفاصيل الشَّرْعِ الذى أُمِرَ بالدعوة إليه ؛ إذ لا تَصِحُّ دَعْوَتُه إلى ما لا يَعْلَمُه[١] .

وأمَّا ما تعلَّقَ بعَقْدِهِ من مَلَكُوتِ السمواتِ والأرض ، وخَلْقِ الله[٢] تعالى ، وتَعْيين أسمائه الحسنى وآياته الكبرى[٣] ، وأمورِ الآخرةِ ، وأشْرَاطِ الساعةِ[٤] ، وأحْوَالِ السعداء والأشقياء ، وعِلْمِ ما كان وما يكونُ مما لم يعلَمْه إلا بوَحْيٍ ـ فعلى ما تقدّم من أنه معصوم فيه ، لا يَأْخُذُه فيما أُعلِمَ منه شَكٌّ[٥] ولا رَيْبٌ ؛ بل هو فيه على غايَةِ اليقين ؛ لكنه لا يشترطُ له العلمُ بجميع تَفَاصِيل ذلك ، وإنْ كان عنده مِنْ عِلْمِ ذلك ما ليس عند جَمِيع البَشَر ؛ لقوله[٦] : «إنّى لَا أعْلَمُ إلَّا ما علّمنى رَبّى». ولقوله[٧] : « وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ[٨] »، وَلا تعلمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهم مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ.

---

(١) قال الخفاجى : فكان صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بأحكام ربه ، وله الولاية العامة على جميع خلقه، والإمامة العظمى؛ فكان يحكم بالقضاء والسياسة والإفتاء ، ويحكم بالظاهر والباطن كالخضر عليه السلام .

(٢) بعقده : بجزم قلبه فيما بصره الله تعالى به من علمه صلى الله عليه وسلم بحقيقة الأجرام العلوية ، وأنها حادثة مستغنى عنها وما فيها من الملائكة الموكلين بها ، والكواكب التى خلقت فيها زينة لها وهداية لخلقه، وعلامات لحكم الهيئة ، وكذلك الأرض التى جعلها الله مقر العبادة وعلمه بما فيها علما اطلع به على حقيقتها وما أودعه فيها، ومخلوقات الله التى بثها فيها وأبدعها حكما تحار فيها العقلاء .

(٣) أسمائه الحسنى: الدالة على ذاته وبديع صفاته . قال الخفاجى : وتعيين ـ إشارة إلى أنها توقيفية، فلا يطلق عليه إلا ما ورد به إذن شرعى . (٤) أشراط الساعة : علاماتها الدالة عليها.

(٥) لا يأخذه : لا يعرض له ، ولا يطرأ عليه . فيما أعلم ـ أى فيما أعلمه الله به .

(٦) فى حديث رواه البيهقى .

(٧) فى حديث روى فى الصحيحين . صحيح مسلم : ١٧٦، وسنن الترمذى : ٥ ـ ٣٤٦، وصحيح البخارى : ٩ ـ ١٧٦ . قال الخفاجى : وهو حديث قدسى ، أوله : أعددت لعبادى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ بله ما اطلعتم عليه ، اقرءوا إن شئتم : «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون»، ففيه دليل على أن من أحوال السعداء ما لم يطلع عليه صلى الله عليه وسلم . (٨) ولا خطر : ولا طرأ علمه .

وقول موسى للخَضِر[١] : ﴿ هل أتبِعُكَ عَلَى أنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ .

وقولهِ صلى اللهُ عليه وسلم[٢] : « أسألُكَ بِأسمائك الْحُسْنى ، ما علمتُ منها وَما لم أعْلَمْ[٣] » .

وقوله : « أسألُكَ بكل اسْمٍ هُوَ لكَ سَمَّيْتَ به نَفْسَك ، واستأثرتَ[٤] به فى علم الغيب عندك » .

وقد قال الله تعالى[٥] : ﴿ وفوقَ كُلِّ ذى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ - قال زَيْدُ بن أسْلم وغيره : حتى ينتهىَ العلمُ إلى الله .

وهذا[٦] مالا خَفَاءَ به ؛ إذْ معلوماتُه تعالَى لا يُحاطُ بها ولا مُنْتَهى لها .

هذا حُكْمُ عَقْدِ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم فى التوحيد والشّرْع والمعارف والأمور الدينية .

فصل

[فى إجماع الأمة على عصمة النبى صلى اللهُ عليه وسلم من الشيطان]

واعلَمْ أنَّ الأمَّةَ مجمعةٌ على عِصْمَةِ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم من الشيطانِ وكفايتِه[٧] منه ، لا فى جسمه بأنواع الأذى ، ولا على خاطرِه بالوساوس[٨] .

(١) سورة الكهف ، آية ٦٦

(٢) فى حديث صحيح رواه الديلمى عن أنس رضى الله عنه .

(٣) قال الخفاجى : وهذا الحديث يدل على أن لله أسماء لم يعلمها النبى صلى الله عليه وسلم مما لا يعلمه إلا الله ؛ ولاضير فى مثله .

(٤) استأثرت به : انفردت بعلمه دون غيرك .

(٥) سورة يوسف ، آية ٧٦

(٦) وهذا : أى انتهاء العلم إليه تعالى .

(٧) وكفايته منه : وحمايته منه .

(٨) خاطره : فكره وقلبه . بالوساوس : وهو ما يلقيه الشيطان فى نفسه . وفي ب : بالوسواس .

وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو عليّ ـ رَحِمه الله ـ قال : حدثنا أبو الفَضْل بن خَيْرون العَدْل ، حدثنا أبو بكر البَرْقَاني وغَيْرُه ، حدثنا أبو الحَسَن الدارَقُطْني ، حدثنا إسماعيل الصفّارُ ، حدثنا عباس التَّرْقُفِي ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سُفْيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجَعْد ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ؛ قال[١] : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : « ما مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلّا وُكِّلَ[٢] به قرِينُهُ من الجِنّ ، وقَرِينُه من الملائكة[٣] » .

قالوا : وإيّاكَ[٤] يا رسولَ الله ؟ قال : وإيّاي ؛ ولكنَّ اللهَ تعالى أعانني عليه فأَسْلَمَ .

زاد غيرُهُ ـ عن مَنْصُور : فلا يأمرني إلّا بخير .

وعن عائشة بمعناه .

ورُوي[٥] : فأسلمُ ـ بضم الميم ؛ أي فأسلمُ أنا منه .

وصحّح بعضُهم هذه الروايةَ ورَجَّحها .

ورُوِي[٦] : فأسلَمَ[٧] ـ يعني ـ القَرِين ـ أنه انتقل من حالِ كفرِه إلى الإسلام ؛ فصار لا يَأْمرُ إلّا بخير ، كالملَك .

وهو ظاهر الحديث .

---

(١) في حديث رواه مسلم . صحيح مسلم : ٢١٦٧

(٢) وكل : عين لملازمته ، كالحفيظ الملازم لمن يحفظه . قرينه : الذي يكون مقارنا له . وفي ب : وقد وكل به .

(٣) قال الخفاجي : أما قرين الجن فإنه موكل بوسوسته وإغوائه . وأما قرينه من الملائكة فهو من الحفظة .

(٤) وإياك يارسول الله : يعني أو كل بك قرين من الجن كغيرك يارسول الله ؟

(٥) في ا : روى .

(٦) والرواية في صحيح مسلم : ٢١٦٨

(٧) بصيغة الماضي .

ورواه بعضُهم : فاستَسْلَمَ[1] .

قال القاضى أبو الفضل : فإذا [١٩٢] كان هذا حُكْمُ شَيْطانِه وقَرِينِه المُسلَّطِ على بنى آدم ، فكيف بمن بَعُدَ منه ، ولم يلزَمْ صُحْبتَه ، ولا أقْدِرَ عَلَى الدنوِّ منه .

وقد جاءت الآثارُ بتصَدِّى الشياطين لَهُ فى غيرِ مَوطنٍ[2] ؛ رغبةً فى إطفاء نُوره وإمَاتةِ نَفْسِه، وإدخالِ شُغْلٍ عليه؛إذ يئسُوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين[3] ، كتعرُّضِه[4] له فى صلاته ؛ فأخذه النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم وأَسَره[5] .

ففى الصِّحاح[6] : قال أبو هريرة ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّ الشيطانَ عَرَض لى » .

قال عبد الرزّاق : فى صورة هِرّ ، فشدَّ[7] علىَّ يقطَعُ علىَّ الصلاةَ فأَمْكننى اللهُ مِنْه، فذَعَتُّه[8] . ولقد هممتُ أنْ أُوثِقَه إلى سارِيَةٍ[9] حتى تُصْبِحُوا تنظرونَ إليه ،

(١) استسلم : انقاد وكف عن الوسوسة .

(٢) تصدى : تعرض . . . فى غير موطن : فى مواطن كثيرة .

(٣) فانقلبوا : رجعوا عما تصدوا له . خاسرين : خائبين ؛ لعدم قدرتهم عليه وعلى القرب منه .

(٤) كتعرضه : أى تعرض الشيطان له وهو مستغرق بالتوجه إلى الله .

(٥) أسره : أى أخذه وقهره باستيلائه عليه قهرا .

(٦) الصحاح: الأحاديث الصحيحة المروية فى البخارى ومسلم وغيرهما: والحديث فى صحيح مسلم : ٣٨٤ ، ومسند أحمد : ١ — ٢٩٧

(٧) شد على : حمل ، ووثب وثبة على .

(٨) ذعته : خنقته . والذعت ، والدعت — بالذال والدال: الدفع العنيف. والذعت أيضا: المعك فى التراب (النهاية) . وفى هامش ا : ذعته يذعته ذعتا : معكه ، كأنه يغطه فى الماء . وقيل : هو أشد الخنق (من المحكم لابن سيده) . وفى صحيح مسلم : وأما ابن أبى شيبة فقال فى روايته : فدعته . ودعته : دفعته دفعا شديدا .

(٩) أوثقه : أربطه . والسارية : العمود المنصوب ليوضع عليه سقف ونحوه .

فذكرتُ قولَ أخي سليمان [1] ﴿ ربِّ اغفرْ لي وهَبْ لي مُلْكا لا ينبغي لأَحَدٍ مِن بَعْدِي ﴾ ، فرده الله خاسئا [2] .

وفي حديث أبي الدَّرْدَاء عنه صلى اللهُ عليه وسلم [3] : « إنّ عدوّ اللهِ إبليسَ جاءني بِشهابٍ [4] من نار ليجعله في وَجْهِي ، والنبيُّ صلى اللهُ عليه وسلّم في الصلاةِ ، وذَكَر [5] تعوُّذَه بالله منه ، وَلَعْنَهُ له ؛ ثم أردتُ أخْذَه ، وذكر نَحْوَه ؛ وقال : لأَصبحَ مُوثَقاً [6] يتلاعَبُ به وِلْدَان أهْلِ المدينة [7] .

وكذلك في حديثه في الإسراء ، وطلبِ عِفْريتٍ له [8] بشُعلةِ نار ، فعلّمه جبريلُ ما يتعوّذُ به منه [9] - وذكره في الموطّأ ؛ ولمّا لم يَقْدر على أذاه بمباشرته تسبّب بالتوسُّط إلى عِدَاهُ [10] ؛ كقضيّته مع قُرَيش في الائتمار [11] بقَتْلِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم وتصوُّره في صورة الشّيْخ النَّجْدِي .

(١) سورة ص ، آية ٣٥ ، والملك الذي أعطاه الله له ملك الإنس والجن والدنيا كلها .

(٢) خاسئا : خائبا حقيرا ، لعدم ظفره بما أراد .

(٣) رواه البيهقي ، ومسلم : صحيح مسلم : ٣٨٥

(٤) شهاب : شعلة . ليجعله في وجهي ؛ ليلقيه علي ليقطع صلاتي .

(٥) الذي ذكر هو أبو الدرداء .

(٦) موثقا : مربوطا .

(٧) ولدان أهل المدينة : ولدان : جمع وليد ، وهو الصبي الصغير .

(٨) طلب عفريت : توجه عفريت نحوه ليرميه بشعلة من نار .

(٩) قال الخفاجي : وماعلمه له جبريل هو قوله : أعوذ بوجه الله الكريم ، وكلمات الله التامات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر من شر مايـنزل من السماء وشر مايعرج فيها ، وشر ماذرأ في الأرض ، وشر مايخرج منها ، وشر فتن الليل والنهار ، وشر طوارق الليل ، إلا طارقا يطرق بخير . وقال له : إذا قلتهن أطفأت ناره .

(١٠) أي جعل الأعداء سببا وواسطة لإيصال الأذى إليه بإغوائهم وتحريضهم على أذيته وإغرائهم عليه .

(١١) الائتمار : المشاورة في المهم . وقد كان ذلك حين اجتماعهم بدار الندوة بمكة حين بلغهم إسلام الأنصار ، فاجتمعوا للتشاور في أمر النبي الذي انتشرت دعوته . . .

ومَرّةً أخرى فى غَزْوةِ بَدْر فى صورة[١] سُرَاقة بن مالك ، وهو قوله[٢] :

﴿ وإذ زَيّن لهم الشيطانُ أعمالَهم وقال لا غالِبَ لكم اليومَ من الناسِ ﴾ .

ومرةً يُنْذِرُ بشأنه عند بَيْعَةِ العَقَبةِ[٣] .

وكلُّ هذا فقد كفاهُ اللهُ أمْرَه ، وعَصَمَهُ ضَرَّه[٤] وشرّه .

وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم[٥] : « إن عيسى عليه السلام كُفِيَ مِنْ لَمْسِه[٦] ، فجاء لِيَطْعَنَ بيده فى خاصِرَتِه حين وُلِدَ ، فطَعَنَ فى الحِجابِ[٧] » .

---

(١) فى نسيم الرياض ، وشرح القارى (٢ — ٢١٦) : وكان من أمره مارواه البيهقى فى دلائله : إن الشيطان تمثل لكفار قريش ببدر فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكنانى، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوا لهم من خلفهم ؛ لأنهم كانوا قتلوا رجلا منهم ، فقال لهم : ما أخبر الله به من إلقاء الشيطان لهم أنهم لاينهزمون وهم يقاتلون عن دين آبائهم ، وكان تمثل مع جنده لهم بصورة قوم من بنى مدلج فيهم سراقة أتوا لإمدادهم ، فقال الشيطان لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم ، فأمدهم الله بجنود من الملائكة ؛ فلما رآهم إبليس ولى عنهم فقالوا له : إنك جار لنا . فقال : إنى أرى مالا ترون ؛ إنى أخاف الله ؛ أى إهلاكه لى ولجندى ، وهو أحد الوجوه فى الآية . وانظر فى ذلك أيضا تفسير ابن كثير : ٣ — ١٦ ، وتفسير الطبرى : ١٤ — ٧

(٢) سورة الأنفال ، آية ٤٨

(٣) ينذر بشأنه : يخبر بحاله صلى الله عليه وسلم ، ليخوف الناس منه . وكان الأنصار قد بايعوه صلى الله عليه وسلم بها بمحل فيه الآن مسجد يسمى مسجد البيعة ، فلما رأى ذلك الشيطان صرخ بأعلى صوته: هذا محمد ومعه الصباة قد أجمعوا على حربكم . فقال صلى الله عليه وسلم لما سمعه : هذا أزب العقبة ؛ أى شيطانها .

وأصل الأزب : الكثير الشعر ؛ سمى به الشيطان .

(٤) ضره — بفتح الضاد ؛ أى ضرره .

(٥) فى حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة . صحيح مسلم: ١٨٣٨ ، وتفسير الطبرى: ٦—٣٣٨

(٦) لمسه : الضمير يعود على الشيطان .

(٧) أى فى شىء حجبه عن الوصول للمس جسده . وقيل : الحجاب : المشيمة ، وهى الغشاء الذى يكون الجنين فى داخله .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم حين لُدَّ[1] فى مَرَضِه ، وقيل له : خَشِينا أن يكونَ بكَ ذاتُ الجَنْب[2] ـ فقال : إنّها من الشيطان ، ولم يكن اللهُ ليُسلِّطَه علىَّ .

فإنْ قيل : فما معنى قوله تعالى[3] : ﴿ وإما يَنزَغَنَّكَ[4] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فاستَعِذْ باللهِ إنه سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ ـ فقد قال بعضُ المفسرين : إنها راجعةٌ إلى قوله[5] : ﴿ وأعرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ ؛ ثم قال : وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ؛ أى يستَخِفَنَّكَ غضبٌ يحملُكَ على تَرْكِ الإعْراض عنهم فاستعِذْ بالله تعالى .

وقيل : النَّزْغُ هاهنا الفسادُ ، كما قال تعالى[6] : ﴿ مِنْ بَعْدِ أن نَزَغَ الشيطانُ بينى وبين إخْوَتى ﴾ .

وقيل : ينزَغَنَّك : يغرينك[7] ويُحَرِّكَنَّكَ . والنَّزْغُ : أدنى الوَسْوَسَةِ ، فأمره اللهُ تعالى أنه متى تحرَّكَ[8] عليه غضبٌ على عدوّه ، أو رَامَ الشيطانُ من إغرائه به وخَوَاطر أدانى وَسَاوِسِه، لم يجْعَلْ له سبيلٌ إليه ـ أن يستعيذَ منه، فيُكْفَى أمْره، ويكون سببَ تمامِ عِصْمَته ، إذ لم يُسلَّط عليه بأكثر من التعرُّضِ له ، ولم يُجْعل له قدرةٌ عليه .

وقد قيل فى هذه الآية غَيْرُ هذا .

---

(١) لد : من اللدود : دواء يوضع فى أحد شقى الفم يتغرغر به ثم يشرب .

(٢) ذات الجنب : اسم لمرض يكون فى باطن الجنب .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٢٠٠

(٤) أصل معنى النزغ لغة إدخال شىء مفسد كالطعن . فأصل النزغ الطعن ، ثم شاع فى كل مفسد .

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٩٩

(٦) سورة يوسف ، آية ١٠٠ ، ونزغ الشيطان : أفسد .

(٧) يغرينك ؛ من الإغراء ، وهو الحث والتحريض على أمر ما .

(٨) تحرك : طرأ عليه وعرض عليه .

وكذلك لا يصحُّ أن يتصوَّرَ له الشيطانُ فى صُورةِ المَلَك ، ويُلْبِسَ[١] عليه ، لا فى أول الرسالة ولا بعدها .

والاعتمادُ فى ذلك[٢] دليلُ المعجزةِ ؛ بل لا يَشُكُّ [١٩٣] النبىُّ أن يأتيه من الله المَلَك ورسولُه حقيقة[٣] إمّا بعِلمٍ ضَرُورِىّ يخلقُه اللهُ له ، أو ببرهان يُظْهره لديه ، لِتَتِمّ كلمةُ ربّك صِدْقا وعَدْلا ، لا مُبَدّل لكلماته[٤] .

فإنْ قيل : فما معنى قوله تعالى[٥] : ﴿ وَما أَرْسلْنا مِنْ قَبْلك مِنْ رسولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنّى أَلْقَى الشيطان فى أمنيّته[٦] ، فينسخ اللهُ ما يُلْقِى الشيطانُ ثم يحكمُ اللهُ آياته واللهُ عليم حكيم ﴾ .

فاعْلَمْ أنّ للناس فى معنى هذه الآية أقاويلَ منها السَّهْلُ والوَعْثُ[٧] ، والسمينُ والغَثُّ[٨] ؛ وأولى[٩] ما يقالُ فيها ما عليه الجمهورُ من المفسّرين : أنّ التمنّى هاهنا التلاوةُ ، وإلقاء الشيطان فيها شَغْله[١٠] بخواطر وأذكارٍ مِنْ أمورِ الدُّنيا للتّالى حتى يُدْخلَ عليه الوَهْمَ والنسيانَ فيما تَلاَه ، أو يُدْخلَ غيرَ ذلك على أفهام السامعين من

(١) ويلبس عليه : يخلط عليه .
(٢) فى ذلك : أى فى عدم تلبيس الشيطان عليه وتصوره بصورة الملك .
(٣) حقيقة : لا تمويها ولا تلبيسا عليه .
(٤) لا مبدل لكلماته : أى لا يمكن تغييرها ، ولا تنسخ بعد ما بلغت غاية لا تقبل الزيادة عليها .
(٥) سورة الحج ، آية ٥٢
(٦) التمنى : بمعنى التلاوة ، والقراءة . والأمنية : الكلام المتلو .
(٧) أى ما هو ظاهر سهل فهمه ، ومنها ما هو خفى يعسر فهمه . وأصل الوعث : المكان الكثير الرمل الذى يشق المشى فيه ، ثم استعمل لمعنى المشاق .
(٨) السمين : مستعار من السمن ؛ وهو الممتلئ من اللحم والشحم . والغث ضده .
(٩) أولى : أحق ، أو أقرب .
(١٠) فى هامش ا أمامها : اشتغاله .

التحريف وسُوء التأويل ما يزيله اللهُ وينسخُه ، ويكشِفُ[1] لَبسه ، ويُحكم آياته .

وسيأتى الكلامُ على هذه الآية بأشبع من هذا إنْ شاء اللهُ .

وقد حكى السَّمرْقَندى إنكارَ قولِ مَنْ قال بتَسْليطِ الشيطانِ على مُلْكِ سليمان ، وغَلَبتِهِ عليه ، وأنَّ مِثْلَ هذا لا يَصِحُّ .

وقد ذَكَرْنا قصةَ سليمانَ مبيّنةً بَعْدَ هذا ، ومَنْ قال : إنَّ الجسدَ[2] هو الوَلَد الذى وُلِدَ لَهُ .

وقال أبو محمد مكىّ فى قصة أيوبَ وقولِهِ[3] : ﴿ أنى مَسَّنِي الشيطانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ ﴾ – إنه لا يجوز لأحد أن يتأوّلَ أنّ الشيطانَ هو الذى أمْرَضَه ، وألْقَى الضرَّ فى بَدَنِه ، ولا يكونُ ذلك إلا بفِعْلِ اللهِ وأمْرِه ، ليَبْتَليهم[4] ويُثيبَهم .

قال مكّىّ : وقيل : إنَّ الذى أصابه به الشيطانُ ما وَسْوسَ بِهِ إلى أهله .

فإن قُلْتَ : فما معنى قولِهِ تعالى – عن يُوشع[5] : ﴿وما أنسانيهُ إلّا الشيطانُ﴾ . وقولِهِ – عن يوسف[6] : ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ .

وقولِ نبيِّنا صلى اللهُ عليه وسلم ، حين نام عن الصلاة يوم الوادِى : « إنَّ هذا وَادٍ[7] به شَيْطَان » .

---

(١) يكشف : يزيل خلطه ، ويبين غلطه .
(٢) الجسد الذى ذكره الله تعالى فى قوله : « وألقينا على كرسيه جسدا » .
(٣) سورة ص ، آية ٤١ . بنصب وعذاب : تعب وألم ومشقة عظيمة .
(٤) ليبتليهم : يوقع بهم بلاء من مرض وغيره ؛ ليختبرهم .
(٥) سورة الكهف ، آية ٦٣ (٦) سورة يوسف ، آية ٤٢
(٧) هو واد بقرب مكة ؛ وكان صلى الله عليه وسلم لما نزل أمر بلالا أن ينبهه إذا طلع الفجر ، فغفل عنه ، فنام صلى الله عليه وسلم وسلم حتى أدركه حر الشمس .
وانظر فى ذلك الموطأ ، والبخارى : للموطأ : ١٤
قال فى نسيم الرياض : فإن قلت : كيف هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم : تنام عيناى ولا ينام قلبى ؟
=

وقول موسى عليه السلام فى وَكْزَتِهِ[1] : ﴿ هذا مِن عَمَلِ الشيطان ﴾ ؟

فاعلم أن هذا الكلامَ قد يَرِدُ فى جميع هذا على مَوْرِدٍ مستَمِرٍّ[2] كلامِ العرب فى وَصْفِهم كلَّ قبيحٍ ، من شَخْص أو فعلٍ بالشيطانِ أو فعلِه[3] ؛ كما قال تعالى[4] : ﴿ طَلْعُها كأنه رُءوسُ الشياطينِ ﴾ .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[5] : « فليُقَاتِلْه فإنما هو شَيْطَان » .

وأيضا فإنَّ قَوْلَ يُوشع[6] لا يَلْزَمنا الجوابُ عنه ؛ إذ لم يَثْبت لَهُ فى ذلك الوَقْتِ نبوَّة موسى ؛ قال الله تعالى[7] : ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ .

= قلت : أجاب عنه المصنف بأن القلب لايدرك ما تدركه الحواس الظاهرة كالعين والأذن ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان له حالان : فى أحدهما ـ وهو الأكثر ـ أن قلبه لا ينام ، وفى بعض الأحيان تنام عينه وقلبه لعارض كتعب سفر ونحوه .

ثم قال : والجواب الثانى هو الأولى ، وهذا الحديث له أصل أيضا فى مسلم عن أبى هريرة ، وله طرق أخرى .

(١) سورة القصص ، آية ١٥ . والوكز : الضرب والدفع بجمع الكف . ووكزه : المراد به وكز القبطى المذكور فى القرآن . (٢) أى على طريق معروف فى استعمال كلام العرب .

(٣) فإذا رأوا شخصا قبيحا قالوا : هذا شيطان بالتشبيه البليغ ؛ وإذا رأوا فعلا قبيحا قالوا : هذا فعل شيطان . (٤) سورة الصافات ، آية ٦٥ ، وطلعها : ثمرها .

(٥) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٢٦٣ ، وروايته عن أبى سعيد الخدرى ، وفيه : إذا صلى أحدكم إلى شىء يستره ، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفع فى نحره ، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان .

قال الخفاجى : والأمر للندب لا للوجوب ، فإنما يندب إذا كان بين يديه سترة ، وإنما يفعل ذلك إذا لم يرتد بأسهل الوجوه . وذكر المقاتلة مبالغة فى شدة الدفع ، وإلا فالمقاتلة أفعال كثيرة لاتجوز فى غير صلاة الخوف . وإنما كره ذلك لأنه شغله عن خدمة ربه وتوجهه إليه .

(٦) قوله هو : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » الذى حكاه الله عنه .

(٧) سورة الكهف ، آية ٦٠

والمَرْوِىُّ أنه إنما نُبِّئَ بعد مَوْتِ موسى ، وقيل : قُبَيْل موته[1] .

وقولُ موسى كان قَبْلَ نبوَّتِهِ بدليل القرآن[2] .

وقصةُ يوسف قد ذُكِر أنها كانت قَبْلَ نبوّته[3] .

وقد قال المفسّرون فى قوله تعالى[4] : ﴿فأنساهُ الشيطان﴾ - قولَيْن : أحدها : أنَّ الذى أنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ ربّه أَحَدُ صاحبى السِّجْن ، وربُّه الملك ؛ أى أنساهُ أنْ يَذْكرَ للملِكِ شأنَ يوسف عليه السلام .

وأيضا فإنَّ مِثْلَ هذا مِنْ فِعْلِ الشيطان ليس فيه تسلُّطٌ على يوسف ويُوشَعَ بوساوس ونَزْغٍ ؛ وإنما هو بشَغْلِ خَوَاطِرِهما بأُمُور أُخَر ، وتذكيرِهما من أمورهما ما يُنْسِيهما ما نَسِيَا .

وأمّا قولُه صلى اللهُ عليه وسلم : إنَّ هذا وادٍ به شَيْطَانٌ [١٩٤] فليس فيه ذِكْرُ تسلُّطه عليه ، ولاَ وَسْوَستِه له ؛ بل إنْ كان بمقتضى ظاهِرِه فقد بيَّن أمْرَ ذلك

(١) قال الخفاجى : وقيل الأصح أنه نبئ بعد موسى .

(٢) فإنه قص فيه القصة بما يدل على أنه نبئ بعد ذلك ، كما يعرفه من عرف الآية وتفسيرها فى سورة القصص ، فإنها قبل خروجه لمدين واستئجار شعيب له ومكثه عنده ، فإنه صرح فى الآية بأنه نبئ بعد ذلك .

(٣) أى قبل نبوة يوسف عليه السلام ، فلا يمتنع قبلها أن يخطر عليه خاطر ينسى ذكر ربه المشار إليه بقوله : فأنساه الشيطان ذكر ربه ؛ وهذا أحد القولين فيه . وقيل : إنه نبئ فى الجب ، وهو على حجر مرتفع ، بدليل قوله تعالى : وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا . وقيل : قبل مجيئه لمصر ؛ وهو قول الحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ـ وهو ابن ثمانى عشرة سنة ؛ فعلى هذا يجاب بأنه إنما كان استعان بمخلوق ، ومثله جائز وإن لم يلق بمنصب النبوة ، فأضاف ما هو خلاف الأولى إلى الشيطان تأدبا ، ولا ضير فيه . وهذا بناء على أن ضمير الشأن راجع ليوسف .

(٤) سورة يوسف ، آية ٤٢

الشيطانِ بقوله[١] : « إنَّ الشيطانَ أتى[٢] بِلالاً ، فلم يزَلْ يهدِّئه كما يهدَّأ الصبيُّ حتى نام[٣] » .

فاعلم أنَّ تسلُّطَ الشيطانِ في ذلك الوادي الذي عَرَّس به إنما كان على بلالٍ الموكَّل بِكلَاءَةِ[٤] الفَجْر .

هذا إنْ جعلنا قَوْلَه : إنَّ هذا وادٍ به شيطان ؛ تَنْبِيهاً على سبب النَّوْمِ عن الصـــلاة[٥] .

وأما إنْ جعلناه تنبيها على سبب الرَّحِيلِ عن الوادي ، وعلةً لتَرْكِ الصلاة به ، وهو دليلُ مساقِ حديثِ زَيْد بن أَسْلَمَ ـ فلا اعتراضَ به في هذا الباب[٦] ؛ لبيانه ، وارتفاعِ إشكاله .

فصـــــل

[في عصمة النبيّ عليه السلام في أقواله وأفعاله]

وأما أقواله صلّى اللهُ عليه وسلم فقامت الدلائل الواضحةُ بصحَّـــةِ المعجزةِ على

---

(١) بقوله صلى الله عليه وسلم في رواية مالك والبيهقي عن زيد بن أسلم . وقد تقدم .

(٢) أتى بلالا بعد أن أمره رسول الله أن ينتظر طلوع الفجر ، ويوقظه صلى الله عليه وسلم من نومه ، فلم يزل الشيطان . . . وقد تقدم هذا الحديث ، وتخريجه .

(٣) نام بلال فلم يستيقظ حتى أصابه صلى الله عليه وسلم حر الشمس فاستيقظ وقال : ماهذا يا بلال ! فقال : أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك يارسول الله . . . الحديث .

(٤) كلاءة : حراسة ، ومراقبة ؛ أي مراقبة طلوع الفجر ليوقظهم .

(٥) وذلك بناء على أن المراد أن الشيطان تسلط على من غفل عن الصلاة حتى فات وقتها بطريق من الطرق ، لكن ليس المسلط عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل بلال ، وإن الشيطان تحيل عليه في غلبة النوم كما تتحيل الأم على طفلها ليستغرق في نومه .

(٦) في هذا الباب الذي عقد لبيان أن الشياطين لا تسلط لهم على الأنبياء عليهم السلام بوسوسة ونحوها .

صِدْقه[1] ، وأجمعت الأُمةُ فيما كان طريقُه البلاغَ[2] أنه معصوم فيه من الإخبارِ عن[3] شيء منها بخلاف ما هو به ، لا قَصْداً وعَمْداً ، ولا سَهْوًا وغَلَطاً .

أَمَّا تعمُّدُ الخُلْف فى ذلك[4] فَمُنْتَفٍ ، بدليل المعجزةِ القائمة مقام[5] قَوْلِ الله فيما قال اتفاقا ، وبإطْبَاقِ أهل المِلّةِ إجماعا .

وأما وقوعُه على جهة الغلَطِ فى ذلك فبهذه السبيل[6] عند الأستاذ أبى إسحاق الإسْفَرايِنى ومَنْ قال بقوله[7] ؛ ومِنْ جهة الإجماع فقط[8] ، ووُرودِ الشَّرْعِ بانتفاء ذلك ، وعصمةِ النبى صلى الله عليه وسلم لَا من مقتضى المعجزة نَفْسِها عند القاضى أبى بكر الباقِلّانى ومَنْ وافَقَه لاختلافٍ بينهم فى مقتضى دليل المعجزة لا نطوِّل بذكره ، فنخرُج عن غرَض الكتاب ؛ فلنعتمد على ما وقع عليه إجماعُ المسلمين — أنه لا يجوز

(١) الواضحة : الظاهرة القاطعة ، العقلية والنقلية ، من الآيات والبراهين المتضدة بصحة معجزاته على صدقه .

(٢) البلاغ : التبليغ عن ربه ما أوحى إليه .

(٣) عن شيء منها : أى مما طريقه البلاغ .

(٤) فى ذلك : فى الإخبار عما طريقة البلاغ . والخلف : الكذب فى إخباره عن أمر مستقبل ؛ وهو منتف عنه ، لأنه غير لائق بمقامه .

(٥) مقام قول الله لمن بعث إليهم الرسول: صدق رسولى ونبيي فيما قال لكم وبلغكم عنى بدليل معجزته التى هى برهان قاطع على صدق مدعاه .

(٦) على طريق الغلط فى ذلك من غير تعمد وقصد منه؛ بل بسهو منه ونحوه . فبهذه السبيل: أى طريق انتفائه كطريق انتفاء العمد فيه ؛ فإن الدليل الدال عليه دال على انتفاء هذا أيضا ؛ إلا أن الأول متفق عليه ، وهذا مختلف فيه .

(٧) من قال بقوله ، واتبعه فى هذه المسألة ، يعنى أن المعجزة تدل على صدقه صلى الله عليه وسلم فيما قاله ، وأنه لا يصدر عنه ما يخالف الواقع لا قصدا ولا غلطا ولا سهوا بطريق من الطرق؛ فمعجزته — صلى الله عليه وسلم — كما دلت على نبوته دلت على صدقه . وهذا القول ارتضاه المصنف .

(٨) أى ومن جهة الإجماع الدال على أنه لم يصدر عنه صلى الله عليه وسلم الكذب لا قصدا ولا سهوا . ومن جهة الإجماع : معطوف على قوله : فبهذه السبيل ؛ أى الدال على ذلك إنما هو للمعجزة والإجماع لا دليل عقلى غيرهما .

عليه خُلْفٌ[١] فى القول فى إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربِّه، وما أَوْحاهُ إليه من وَحْيِه ، لا على وَجْهِ العَمْد ، ولا على غَيْر عَمْد[٢] ، ولا فى حالى الرِّضا والسخَط[٣] ، والصحةِ والمرض .

وفى حديث عبد الله بن عمرو[٤] : قلتُ يا رسولَ اللهِ ؛ أَ كتُب كلَّ ما أَسمَعُ منك ؟ قال : نعم . قلت : فى الرضا والغضَب ؟ قال : نعم ؛ فإنِّى لا أقولُ فى ذلك كلِّه[٥] إلا حقًّا .

ولنَزِدْ ما أَشَرْنا إليه من دَلِيل المعجزة[٦] عليه بيانا ؛ فنقول :

إذا قامت المعجزةُ على صِدْقِه ، وأنه لايقولُ إلّا حقًّا ، ولا يبلِّغُ عن اللهِ إلّا صِدْقا ، وأنَّ المعجزةَ قائمةٌ مقامَ قَوْلِ الله له : صدَقْتَ فيما تذْكُرُه عنى؛وهو يقول: إنى رسولُ الله إليكم لأُبلّغكم ما أُرسلْتُ به إليكم ، وأُبيّن لكم ما نُزِّلَ عليكم ، ﴿وما ينطقُ عنِ الهوَى. إنْ هو إلّا وَحْىٌ[٧] يُوحَى﴾. و﴿قد[٨] جاءكم الرسولُ بالحقِّ من ربِّكم﴾.﴿وَما[٩] آتاكُمُ الرسولُ فخذُوه وما نَهَاكُمْ عنه فانتَهُوا﴾ ؛ فلا يصحُّ أن يوجَد منه فى هذا الباب[١٠] خَبَرٌ بخلاف مُخْبَرِه[١١] على أىِّ وَجْه كان .

(١) خلف فى القول : أى ما يخالف الحق والواقع .

(٢) ولا غير عمد : من خطأ ونسيان . (٣) السخط : كراهة ذلك الأمر المخبر به .

(٤) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والحاكم ، وصححوه .

(٥) كله : من حالتى الرضا والغضب .

(٦) من دليل المعجزة عليه : أى دلالتها على ما ذكر .

(٧) سورة النجم ؛ آية ٣ ، ٤. ومانطق عن الهوى : أى لايصدر عنه أمر بمجرد هوى نفسه وتشهيه .

(٨) سورة النساء ، آية ١٧٠ . فلا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم ما يخالف الواقع .

(٩) سورة الحشر ، آية ٧ . فخذوه : تمسكوا به . وما نهاكم عنه فانتهوا عنه ولاتقربوه ؛ لأنه إنما يأمركم بما أمر الله تعالى ، وينهاكم عما نهى الله تعالى عنه .

(١٠) فى هذا الباب : وهو ما طريقه البلاغ عن الله تعالى .

(١١) أى لايصدر عنه خبر مخالف للواقع .

ولو جوّزنا عليه الغَلَط والسَّهْوَ لما تميّزَ لنا من غيره[١]، ولَا اخْتَلط الحقّ بالباطل؛ فالمعجزةُ مشتملةٌ على تصديقه جُمْلةً واحدةً من غير خصوصٍ[٢]؛ فتنزيهُ النبي عن ذلك كلّه واجبٌ برهانا وإجماعا[٣] كما قاله أبو إسحاق.

فصــل

وقد توجّهتْ هنا لبعض الطاعنين[٤] [١٩٥] سؤالات؛ منها:

ما رُوى من أنّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم لما قرأ «والنّجم»، وقال[٥]: ﴿أَفرأيتُم اللاتَ والعُزّى. وَمَنَاةَ الثالثةَ الأُخرى﴾ ـ قال[٦]: تلكَ الغرَانيق العلا، وإنّ شفاعتَها لتُرْتَجَى ـ ويروى: تُرْتضى[٧]. وفى رواية: إن شفاعتَها لتُرْتجَى، وإنها لمَعَ الغرَانيق[٨] العُلَا. وفى أخرى: والغرانقةُ العُلَا، تلك الشفاعة تُرْتجى.

(١) أى ما تميز صوابه الواجب اتباعه من غيره، أو خبره عن خبر غيره.

(٢) مشتملة على تصديقه: أى ثبوت صدقه فيما أخبر به عن ربه. جملة واحدة: أى فى جميع ماجاء به من جميع أخباره وما يبلغه عن الله تعالى. من غير خصوص: أى تخصيص لأمر دون أمر، إلا بدليل يقوم على التخصيص.

(٣) برهانا: بطريق البرهان العقلى المعلوم من المعجزة والتحدى بها. وإجماعا: من جميع أهل الملل الإسلامية وعلماء الدين.

(٤) الطاعنين: المعترضين.

(٥) قرأ؛ أى فى صلاته. سورة النجم، آية ١٩، ٢٠

واللات: صنم كان لقريش، أو ثقيف. والعزى، سمرة كانت لغطفان تعبدها. ومناة: صخرة كانت خزاعة وهذيل تعبدانها. والثالثة الأخرى؛ بمعنى المتأخرة. (الأصنام للـكلبى).

(٦) قال: أى قائل سمع ماقاله عند تلاوته صلى الله عليه وسلم. تلك: المذكورة من اللات وما بعدها. الغرانيق: جمع غرنوق أو غرنيق؛ وهو طير من طيور الماء كبير طويل العنق أبيض، وأصله الشاب الناعم ـ استعير للأصنام. والعلا: التى ترفع للسماء. وإن شفاعتهم لترتجى وتؤمل وتنتظر.

(٧) ترتضى: تقبل عند الله بزعمهم.

(٨) وإنها لمع الغرانيق العلا: يعنون الملائكة. وارجع فى هذا إلى صحيح البخارى: ٦ ـ ١٧٧، وتفسير ابن كثير: ٧ ـ ٤٤٤، وتفسير القرطبى: ٧ ـ ١٢٤، ١٢ ـ ٨٢، وقد نقل القرطبى كلام القاضى عياض بنصه هناك.

فلما ختم السورةَ سجد، وسجد معه المسلمون والكفّار لمّا سمعوه أثنى[١] على آلهتهم .

وما وقع فى بعض الروايات أنّ الشيطانَ ألقاها[٢] على لسانه، وأنّ النبى صلى اللهُ عليه وسلم كان تمنّى[٣] أنْ لو نزلَ عليه شىء يُقاربُ بينه وبين قومه .

وفى رواية أُخرى : ألّا ينزل عليه شىء ينفّرهم عنه؛ وذكر[٤] هذه القصةَ ، وأنّ جبريلَ عليه السلامُ جاء فعرض[٥] عليه السُّورةَ ، فلما بلغ الكلمتين قال له : ما جئتُك بهاتين[٦] . فحزنَ لذلك النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأنزل اللهُ تعالى تسليةً له[٧] : ﴿وما أرسلْنا مِن قبلكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نبىّ إلا إذا تمنّى ألْقَى الشيطانُ فى أُمنيّته فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِى الشيطانُ ، ثم يُحْكِمُ اللهُ آياته ، واللهُ عليم حكيم﴾[٨] .

وقوله[٩] : ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذى أوْحَيْنا إليكَ لِتَفْتَرِىَ علينا غَيْرَه وإذاً لاتّخذُوكَ خليلًا . ولولا أنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شَيْئاً قليلا﴾ .

---

(١) أثنى على آلهتهم بقوله المتقدم : تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتها لترتجى .

(٢) ألقاها : ألقى هذه الكلمات ، على لسانه : فسبق لسانه بها سهوا منه ، ثم تنبه ونبهه جبريل لها ، وكان ذلك ابتلاء من الله تعالى ليعلم من ثبت على ذلك أو تزلزل .

(٣) كان تمنى : لحرصه على إيمان قومه .

(٤) وذكر : أى صاحب تلك الرواية .

(٥) عرض عليه السورة : قرأها عليه .

(٦) ماجئتك : من الله .

(٧) التسلية : إذهاب حزنه بتطييب خاطره .

(٨) سورة الحج ، آية ٥٢

(٩) سورة الإسراء، آية ٧٣،٧٤ . كادوا: قاربوا أن يخدعوك عما أوحيناه إليك حتى تقول مالم تقله مما أرادته قريش حتى تركن إلى الكفرة لتستميل قلوبهم للإسلام ، فبين الله لك ذلك ، وثبتك على الحق ، وأغناك عن المداراة .

فاعلَمْ ـ أكرمك اللهُ أنّ لنا فى الكلام على مُشْكِل هذا الحديثِ مَأْخَذَيْنِ : أحدهما : فى توهين أصْلِه ، والثانى على تسليمه[١] .

أما المَأْخذُ الأول فيكفيكَ أنّ هذا حديثٌ لم يُخرجه أحَدٌ من أهل الصحة ، ولا رَوَاهُ ثِقَةٌ بسندٍ سليم[٢] متّصلٍ ؛ وإنما أُولِعَ[٣] به وبمثله المفسِّرُون والمؤرِّخون المولَعُون بكل غريب ، المتلقِّفون[٤] من الصحف كلّ صحيح وسَقِيم .

وصدق القاضى بَكْر بن العلاء المالكى حيث قال : لقد بُلِيَ[٥] الناسُ ببعض أهل الأَهْواء[٦] والتفسير ؛ وتعلّق بذلك المُلْحِدُون[٧] مع ضَعْف نَقَلته واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته ؛ فقائلٌ يقول : إنه فى الصلاة ؛ وآخر يقول : قالها فى نادِى قومِه حين أُنزلت عليه السورة ؛ وآخر يقول : قالها وقد أصابَتْه سِنَةٌ[٨] ؛ وآخر يقول : بل حَدَّثَ نَفْسَه فَسَها ؛ وآخر يقول : إنّ الشيطانَ قالها على لسانه ، وإنّ النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم لمّا عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقْرَأْتُك ؛ وآخر يقول : بل أعلمهم[٩] الشيطانُ أنّ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم قرأها ؛ فلما بلغ النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك قال : والله ما هكذا نَزَلَتْ ـ إلى غير ذلك من اختلاف الرُّوَاة .

(١) توهين أصله : تضعيف روايته . على تسليمه : أى التسليم بروايته ؛ تنزلا وإرخاء للعنان لمن أورده .

(٢) لم يخرجه : لم يروه بسنده . بسند سليم : بسند سالم من الطعن والعلة والجرح من نقاد السلف .

(٣) أولع به : يقال : أولع بكذا ، فهو مولع ، إذا لهج به وأكثر من ذكره .

(٤) تلقفه : إذا تناوله بسرعة .

(٥) بلى الناس : من الابتلاء ، وهو الامتحان ، أى صار لهم بلاء ومحنة .

(٦) الأهواء : أصحاب الآراء الفاسدة ، والمذاهب الباطلة .

(٧) الملحدون : جمع ملحد ، وهو من لم تكن عقيدته حقا ، والمائلون عن الحق .

(٨) سنة : السنة أول النوم ، وهو النعاس . (٩) أعلمهم الشيطان : أى وسوس لهم .

ومَنْ حكيَتْ هذه الحكايةُ عنه من المفسّرين والتابعين لم يسندها أحَدٌ منهم ، ولا رفعها إلى صاحب[١] ؛ وأكْثَرُ الطرق عنهم فيها ضعيفةٌ واهيةٌ[٢] ؛ والمرفوعُ فيه حديثُ شُعْبة : عن أبي بِشر ، عن سَعِيد بن جُبَير ، عن ابن عَبّاس قال فيما أحسبُ[٣] ـ الشكّ فى الحديث ـ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كان بمكةَ . . . وذكر القصة .

قال أبو بكر البزّار : هذا الحديثُ لا نعلمُه يُرْوَى عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم بإسنادٍ متّصل يجوزُ ذكْرُه إلّا هذا ، ولم يُسْنِدْه عن شُعْبَة إلّا أمَيَّة بن خالد ؛ وغيرُهُ يُرْسِلُه[٤] عن سعيد بن جُبَير ؛ وإنما يعرفُ عن الكَلْبي[٥] ، عن أبي صالح ، عن ابنِ عباس ؛ فقد بيَّن لكَ أبو بكر رحمه اللهُ أنه لا يُعْرَف من طريقٍ يجوز ذكره سِوَى[٦] هَذَا .

وفيه[٧] من [١٩٦] الضَّعْفِ ما نبّه عليه مع وقوع الشكّ[٨] فيه ، كما ذكرناه ، الذى لا يُوثَق به ، ولا حقيقة[٩] معه .

وأما حديثُ الكلبي فمِمّا لا تجوزُ الروايةُ عنه ولا ذِكْرُهُ لقوّةِ ضَعْفه وكَذِبه ، كما أشار إليه البزّار رحمه الله[١٠] .

---

(١) إلى صاحب : إلى صحابى من أصحاب الرسول ، أو إلى صاحب رواية .

(٢) واهية : ساقطة .

(٣) أحسب : أظن . الشك فى الحديث : أى فى متنه وأصله ، لا فى سنده .

(٤) يرسله : يرويه مرسلا ، والمرسل : ما سقط من سنده الصحابى .

(٥) الكلبي : هو محمد بن السائب المفسر الأخبارى النسابة . والأكثرون على أنه غير ثقة خصوصا إذا روى . (٦) سوى هذا : سوى هذا الطريق الذى رواه شعبة عنه بسند .

(٧) وفيه : فى حديث شعبة أيضا .

(٨) مع وقوع الشك فيه الذى أشار إليه بقوله المار : فيما أحسب .

(٩) ولا حقيقة معه : أى تحقق وتيقن .

(١٠) قال الخفاجى : فإنه أى البزار وغيره من المحدثين قالوا : إنه كذاب وضاع لا يوثق به ، وإن كان إماما فى اللغة والتفسير . وفى ميزان الاعتدال (٣ ـ ٥٥٨) : مذهبه فى الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق فى وصفه .

والذى منه[١] فى الصحيح أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قرأ : والنَّجم ـ وهو بمكة ؛ فسجد معهُ المسلمون والمشركون والجنّ والإنس[٢] .

هذا توهينُه من طريق النقْل[٣] فأمّا من جهة المعنى فقد قامت الحجةُ ، وأجمعت الأُمةُ على عصمته صلَّى اللهُ عليه وسلم ونزاهتِه[٤] عن مِثْلِ هذه الرذيلة[٥] ؛ إمّا من تَمَنّيه أن يُنزَلَ عليه مثْلُ هذا من مَدْح آلهةٍ غيرِ الله ، وهو كفر[٦] ؛ أو أن يتسوَّرَ عليه الشيطان ، ويُشبِّهُ[٧] عليه القرآن حتى يجعلَ فيه ما ليس منه ، ويعتقدَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلم أنَّ من القرآن ما ليس مِنْهُ حتى يُنَبِّهه[٨] جبريلُ عليه السلام ، وَذلك كلُّه مُمْتَنِـع[٩] فى حَقّه صلى اللهُ عليه وسلم ، أو يقول

---

(١) منه : من هذا الحديث .

(٢) قال الكرمانى : هى أول سورة نزلت فيها سجدة . وإنما سجد المشركون لآلهتهم معارضة للمسلمين ، أو وقع منهم ذلك بلا قصد ، أو خافوا من مخالفتهم فى ذلك المجلس ؛ وقد سبق أن هذا فى صحيح البخارى . وهو فى أحكام القرآن : ١٧٢٣

(٣) قال الخفاجى فى نسيم الرياض : وقد قال ابن حجر : قول أبى بكر بن العربى : إن طرق هذا الحديث كلها باطلة ، وقول عياض فى الشفاء: إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة وليس له سند متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته . . . . لا وجه له ؛ فإن له طرقا متعددة كثيرة متتابعة المخارج ؛ وكل ذلك يدل على أن له أصلا ؛ وقد ذكرنا له ثلاثة أسانيد منها ما هو على شرط الصحيح ؛ وهى وإن كانت مراسيل يحتج بها من يحتج بالمرسل لاعتضاد بعضها ببعض ؛ فتبين بهذا أن مبالغة المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ فى رد نقله غير مرضية (نسيم الرياض : ٤ ـ ١٠٠)

(٤) نزاهته : بعده .

(٥) الرذيلة : الخصلة القبيحة الدنية ، وهى ـ هنا ـ القول على الله بما لم يقله .

(٦) بقوله : تلك الغرانيق العلا . وهو كفر ؛ لأن الرضا بالكفر كفر .

(٧) يتسور : يتسلط . ويشبه عليه القرآن ؛ أى يلبسه ويخلط فيه ما ليس منه .

(٨) بقوله له : ليس هذا من الوحى الذى أتيت به إليك .

(٩) لنزاهته عن مثله وحفظ الله له .

ذلك النبيُّ صلى الله عليه وسلّم مِنْ قِبَلِ [١] نفسه عَمْدًا ، وذلك كُفْرٌ [٢] ؛ أو سَهْوًا ، وهو معصومٌ مِنْ هذا كله .

وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع عصمتَه صلّى اللهُ عليه وسلم من جَرَيانِ [٣] الكُفْرِ على قلبه أوْ لسانه ، لا عَمْداً ولا سَهْوا ، أو أنْ يُشَبَّه عليه ما يُلْقِيه المَلَكُ بما [٤] يُلْقِي الشيطانُ ، أو يكون للشيطانِ عليه سبيلٌ [٥] ، أو أن يتقوّل [٦] على اللهِ ، لا عَمْداً ولا سهوا ، مالم ينَزّلْ عليه ؛ وقد قال اللهُ تعالى [٧] : ﴿ ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل . لأخَذْنَا منه باليمين . ثم لَقَطَعْنَا منه الوَتين ﴾ .

وقال تعالى [٨] : ﴿ إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ ثم لاتجدُ لكَ علينا نَصِيرا ﴾ .

ووَجْهٌ ثانٍ ؛ وهو استحالةُ هذه القصة نظَرًا وعُرْفا [٩] ؛ وذلك أنَّ هذا الكلام

(١) أى من غير إلقاء الشيطان عليه ؛ وهو لاينطق عن الهوى .

(٢) هو كفر ، لأنه افتراء وتبديل لكلام الله تعالى بالزيادة فيه .

(٣) من جريان الكفر : وقوعه منه .

(٤) فى ا : أو أن يتشبه . . . مما يلقى . . .

(٥) سبيل : طريق يصل إليه منه مما حماه الله عنه .

(٦) يتقول على الله : يفترى عليه عمدا .

(٧) سورة الحاقة، آية ٤٤-٤٦ . لأخذنا منه باليمين: لامسكناه وأهلكناه كما نفعل بمن افترى علينا والوتين: عرق فى العنق إذا قطع مات صاحبه ، وهو الوريد ؛ وقطعه عبارة عن الذبح. وفيه دليل على أن الكذب على الله كفر ، وأنه لايقول على الله مالم يقله .

(٨) سورة الإسراء ، آية ٧٥ : أى لو قربت من الميل إلى الكفرة . قال الخفاجى : والآية دليل على عدم تمنيه السابق ، وأنه صلى الله عليه وسلم معصوم من مقارفة شىء من ذلك.

(٩) نظرا : من جهة النظر والفكر الصادر عن عقل مستقيم فى عصمة رسل الله عليهم السلام فيما طريقه البلاغ . وعرفا : أى من جهة ماعرف من أحواله وأحوال غيره من الأنبياء؛ أى أمرا متعارفا .

لو كان ـ كما رُوِى لكان بعيدَ الالتئام[١] ، لكونه متناقِضَ الأقسام ، مُمتزِجَ المَدْحِ بالذمِّ[٢] ، متخاذلَ التأليف والنّظم[٣] . ولَمّا كان النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم ولا مَنْ يَحْضُرته من المسلمين وصناديد[٤] المشركين ممن يَخْفَى عليه ذلك ؛ وهذا لا يَخْفَى على أدنى متأمّل ، فكيف بِمَنْ رَجَح حِلْمُهُ[٥] ، واتَّسع فى باب البَيَان ومعرفةِ فصيحِ الكلام عِلْمُهُ .

ووَجْهٌ ثالث أنه عُلِم مِنْ عادةِ المنافقين ، ومُعَانِدِى المشركين[٦] ، وضَعَفَةِ القُلوب ، والجهلة من المسلمين ـ نفورُهم لأول وَهْلَةٍ[٧] ؛ وتخليطُ[٨] العدوِّ على النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم لأقَلِّ فِتْنَةٍ ، وتعييرهم المسلمين ، والشُّمات بهم الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَة[٩] ،

(١) بعيد الالتئام : المراد أن مناسبته لما وقع فيه من كلام الله الذى هو فى أعلى طبقات البلاغة فى غاية البعد .

(٢) المدح لآلهتهم بجعلها علية مرجوة الشفاعة ؛ بالذم لها الذى دل عليه سياقه فى قوله : إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وأنها ليس لها عند الله شأن ولا منزلة ؛ وهذا يناقض علو منزلتها ورجاء شفاعتها .

(٣) متخاذل التأليف : متنافر النظم غير متلائم .

(٤) صناديد : جمع صنديد : السيد الشجاع ، والحليم ، والجواد ، والشريف ، والمراد خواص رؤسائهم وكبرائهم .

(٥) حلمه : عقله . ورجحانه : زيادته وقوته .

(٦) ومعاندى المشركين ؛ أى المشركين المعاندين .

(٧) لأول وهلة : عند أول شىء يقع فى آذانهم وأذهانهم ؛ أى قبل التفكر والتأمل فيما قرع أسماعهم ؛ لأنه ليس متسقا منتظما مع ماوقع فى أثنائه من نظم القرآن .

(٨) تخليط العدو من الكفرة والمنافقين بإدخالهم فى كلامه ما ليس منه لأقل فتنة يفتتن بها المسلمون ؛ لإدخالهم الشبهة عليهم فى دينهم .

(٩) والشمات ـ بضم الشين المعجمة ، وتشديد الميم : جمع شامت ، من الشماتة ، وهى فرح العدو بما يصيب عدوه من نوائب الدهر . الفينة بعد الفينة : حينا بعد حين مما امتحنهم الله تعالى من المصائب تعظيما لأجرهم بما امتحنهم به من ذلك . أو هى الشمات ـ كما فى ا ، وهم الحائنون بلا واحد (شرح القارى : ٢ ـ ٢٣٠) .

وارتدادُ مَنْ في قلبه مرَضٌ مِمّنْ أظهر الإسلام لأدْنَى شُبْهة، ولم يَحْكِ أحدٌ في هذه القِصّةِ شيئا سِوَى هذه الروايةِ الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدَتْ قريش بها على المسلمين الصَّوْلَةَ(١)، ولأقامت بها اليهودُ عليهم الحجة، كما فعلوا مكَابَرةً في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء رِدّة(٢)، وكذلك ما رُوى في قِصّةِ القضيّة(٣)؛ ولا فِتْنَةَ أعظمُ من هذه البيّنة لو وُجِدَتْ، ولا تَشْغيب(٤) للمُعَادِي حينئذ أشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت(٥)؛ فما رُوِيَ عَنْ معاندٍ فيها كَلمةٌ، ولا عن مسلم بسببها بنتُ شَفَة(٦)؛ فدَلّ على بُطْلِها واجتثاث أصلِها(٧).

ولا شكّ في إدخال بَعْضِ شياطين الإنْسِ أو [١٩٧] الجنّ هذا الحديثَ على بعض مغفّلى المحدّثين، ليُلَبِّسَ(٨) به على ضُعفاء المسلمين(٩).

(١) الصولة: الاستطالة والقهر، وتسلطوا بذلك على ترويج أمرهم وماهم عليه.

(٢) ردة: رجوع عن الإسلام؛ لإنكاره واستبعاده لها.

(٣) القضية: الواقعة التى وقع فيها القضاء بما وقع فى صلح الحديبية لما رأى عليه السلام أنه دخل هو وأصحابه مكة؛ فسار إليها، ثم رجع إلى المدينة فى الواقعة التى قصها الله تعالى فى قوله: «وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس». وهذه القضية مذكورة فى الصحيحين؛ وقد وقع بسببها فتنة للمسلمين لما صدهم الكفار عن دخول مكة، وصالحهم - صلى الله عليه وسلم، على أن يرجع ويأتى من العام القابل، وكتب لهم بذلك كتابا شرط فيه شروطا فيها شطط على المسلمين، حتى قال عمر: يارسول الله، ألست رسول الله حقا؟ قال: بلى. قال: ألست على الحق، وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال: فلم نعط الدنية فى ديننا...

(٤) التشغيب: تهييج الشر والفتنة.

(٥) لو أمكنت وقوعا.

(٦) كلمة تليق أن يلقى إليها السمع. بنت شفة: كلمة.

(٧) بطلها: بطلانها. واجتثاث: قلعها من أصلها.

(٨) يلبس: يوقعهم فى لبس واشتباه.

(٩) قال الخفاجى: هذه القصة لها أصل ثابت فى الجملة، لكنها ليس فيها ما ينقص مقامه صلى الله عليه وسلم؛ فإبطالها بالكلية - كما قال المصنف - لاينبغى كما قاله ابن حجر. وقد سبق قول ابن حجر صفحة ٧٥٢

ووَجْهٌ رابع : ذَكر الرُّوَاةُ لهذه القضية أنَّ فيها نزلت[١] : ﴿ وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَك عن الذى أَوْحَيْنا إليك لتَفْتَرِىَ علينا غيره وإذاً لاتّخَذُوك خليلا . ولولا أنْ ثَبَّتْناكَ لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلا ﴾ .

وهاتان الآيتان يَرُدَّان الخبرَ الذى رَوَوْه ؛ لأنَّ الله تعالى ذكر أنهم كادوا يَفْتِنُونه حتى يَفْتَرِى ، وأنه لولا أن ثبَّتَه[٢] لكاد يَرْكَنُ إليهم[٣] .

فضمون هذا ومفهومُه أنَّ اللهَ تعالى عصَمَه مِنْ أنْ يَفْتَرِى[٤] ، وثبَّتَه حتى لم يَرْكَنْ إليهم قليلا ؛ فكيف كثيرا ! وهم يَرْوون فى أخبارهم الواهية[٥] أنه زاد على الركون والافتراء بمَدْح آلِهَتِهم[٦] ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : افتريتُ على الله ، وقلت مالم[٧] يَقُلْ ؛ وهذا ضِدُّ مَفْهومِ الآيةِ[٨] ، وهى[٩] تُضْعِفُ الحديثَ لو صَحَّ ، فكيف ولا صحةَ له[١٠] .

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٧٣ ، ٧٤

(٢) وقد ثبته الله فلم يقرب أن يميل إليهم أدنى ميل ؛ فلم يتحقق شىء .

(٣) قال الخفاجى : قيل إن الآيتين لم ينزلا فى هذه القصة ،وإنما الذى نزل فيها قوله تعالى: « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ... » وهاتان الآيتان نزلتا فى ثقيف .

(٤) يفترى عليه ما لم يقله .

(٥) الواهية : الشديدة الضعف .

(٦) مدح آلهتهم بقوله : تلك الغرانيق العلا .

(٧) قال ذلك حين قال له جبريل : ماجئتك بهذا حين عرض عليه السورة ــ كما تقدم .

(٨) ضد مفهوم الآية التى ذكروا أن هذه القصة سبب نزولها ؛ لأن عدم ركونه إليهم قليلا ينافى تصريحه بمدح آلهتهم .

(٩) وهى : أى الآية ــ تضعف الحديث : تدل على شدة ضعفه لوصح نقله وروايته ؛لأنه إذا ورد فى الحديث ما ينافى القرآن ، ولم يمكن تأويله ولا الجمع بينه وبينه حكم بضعفه .

(١٠) قال الخفاجى : وقد علمت أن الحديث رواه مسلم .

وهذا مِثلُ قوله تعالى فى الآية الأخرى[١] : ﴿ ولولا فَضْلُ اللهِ عليكَ ورحمتُه لهَمَّتْ طائفةٌ منهم أن يُضِلُّوكَ ، وما يُضِلُّون إلّا أَنْفُسَهُم وما يضرُّونك مِنْ شىء ﴾ .

وقد رُوِىَ عن ابن عباس : كل ما فى القرآن « كاد » فهو مالا يكون[٢] ؛ قال الله تعالى[٣] : ﴿ يكَادُ سنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار ﴾ ؛ ولم يَذْهب . و[٤] ﴿ أَكَادُ أُخْفِيها ﴾ ؛ ولم يَفْعَلْ .

قال القُشَيْرِى القاضى : ولقد طالبَتْه قُرِيش وثَقِيف إذْ مرَّ بآلهتهم أَن يُقْبِلَ بوجهه إليها ، ووَعدوه الإيمانَ به إنْ فَعَل ، فما فعل ، ولا كان لِيَفْعَل .

قال ابْنُ الأنبارى : ما قاربَ الرسولُ ولا رَكَنَ[٥] .

---

(١) سوررة النساء ، آية ١١٣ . أن يضلوك : يصرفوك عن الحق . وما يضلون إلا أنفسهم: لا يقع ما أرادوه بك إلا بهم ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

(٢) ما لا يكون : أى لا يقع ، ولا يوجد ، وإنما يدل على أنه قاربه ولم يقع .

(٣) سورة النور ، آية ٤٣ . السنا : الضوء والنور . ولم يذهب ، أى لم يذهب بها .

(٤) سورة طه ، آية ١٥

قال فى شرح القارى (٢ ـ ١٣٢) : وفيه بحث ، إذ ما أظهرها الله لأحد ، كما يدل عليه سائر الآيات : إن الله عنده علم الساعة . وقوله : يسألونك عن الساعة أيان مرساها . . . إلى ربك منتهاها . وقوله : ويسألونك عن الساعة أيان مرساها . قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو . . .

نعم ، قيل فى الآية : أكاد أخفيها عن نفسى ، فيصح قوله : ولم يفعل ، لأنه لم يتصور ، وإنما ذكره للمبالغة ، فتدبر .

أو يقال : أكاد أخفى مجيئها ، فلا أقول هى آتية ؛ للمبالغة فى إرادة إخفائها ، فيصح قوله: ولم يفعل حينئذ أيضا .

وقد يقال : أخفيها بمعنى أظهرها ، لأنه من الأضداد . والله سبحانه وتعالى أعلم بما أراد . وقال فى القاموس : وقد يكون كاد بمعنى أراد ، ومنه قوله : أكاد أخفيها ، أى أريد إخفاءها عن غيرى .

(٥) أى لم يقرب من شىء مما كان عليه الكفرة وأهل الجاهلية ، ولا مال إلى شىء من =

وقد ذُكِرَتْ فى معنى هذه الآية تفاسير أُخر ما ذكرناه مِنْ نَصِّ اللهِ على عصمةِ رسوله يَرُدُّ سَفْسافَها[١]؛فلم يَبْقَ فى الآيةِ إلّا أنَّ الله تعالى امتَنَّ على رسولِه بعصمته وتثبيته مما كادَه به الكُفَّار،ورَامُوا من فِتْنَتِه؛ ومُرَادُنا من ذلك تنزيهُه وعِصْمَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلم؛ وهو مفهوم الآية.

وأما المأْخَذ الثانى فهو مبنىٌّ على تسليم الحديث لو صَحَّ؛ وقد أعاذَنا اللهُ من صِحَّته؛ ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمةُ المسلمين بأجوبةٍ؛منها الغَثُّ والسمين[٢]؛ فمنها ما رَوَى قتادةُ ومقاتل ـ أنَّ النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم أصابَتْه سِنَةٌ[٣] عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلامُ على لسانه بحُكْمِ النوم.

وهذا لا يَصِحُّ؛ إذ لا يجوزُ على النبىِّ مثلُه فى حالة من أحواله، ولا يخلقُه اللهُ على لسانه[٤]، ولا يستولى الشيطانُ عليه فى نَوْمٍ ولا يَقَظَةٍ لِعِصْمَتِه فى هذا الباب مِنْ جميع العَمْد والسهو.

وفى قَوْلِ الكلبى: إنَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم ـ حدَّث نَفْسَه؛ فقال ذلكَ الشيطانُ على لسانِه[٥].

= أمورهم وما كانوا عليه فضلا على التابس بها. وابن الأنبارى: هو أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار النحوى، كان من أعلم الناس بالأدب والنحو، ولد سنة إحدى وسبعين ومائتين وتوفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

(١) سفسافها: رديئها.

(٢) الغث: الضعيف الركيك. والسمين: القوى المقبول.

(٣) سنة: فتور مع أوائل النوم قبل الاستغراق فيه المانع عن الحس والإدراك قريبة من النعاس.

(٤) لا يخلقه: أى لا يوجد جريانه على لسانه.

(٥) حدث نفسه: خطر بباله من غير نطق به. فقال ذلك الشيطان: أى نطق به محاكيا لصوته ونطقه به فى أثناء قراءته، وهو لا يدرى؛ فتوهموا أنه صلى الله عليه وسلم قاله، وأنه أوحى به إليه.

وفى رواية ابن شِهاب ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن ؛ قال : وَسَهَا ؛ فلما أُخْبِرَ بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان .

وكلُّ هذا لا يَصِح أَنْ يقولَه النبىُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم لا سَهْوًا ولا قَصْداً[١] ، ولا يتقوَّله الشيطانُ على لسانه[٢] .

وقيل : لعلَّ النبىَّ صلَّى اللهُ عليه وسلم قاله فى أثناء تلاوته على تقدير التقرير[٣] والتوبيخ للكفار ؛ كقول إبراهيم عليه السلام[٤] : ﴿هذا رَبِّى﴾ — على أحد التأويلات.

وكقوله[٥] : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهم هذا﴾ بعد السَّكْتِ وبيان الفَصْلِ بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .

وهذا [١٩٨] مُمكِنٌ مع بيان الفصل وقرينةٍ تدلُّ على المراد ، وأنه ليس من المتلوّ ، وهو أَحَد ماذكره القاضى أبو بكر .

ولا يُعْتَرَضُ على هذا بما رُوِى أنه كان فى الصلاة ؛ فقد كان الكلامُ قَبْلُ فيها غَيْرَ[٦] ممنوع .

والذى يَظْهَرُ ويَتَرجَّح فى تأويله[٧] عنده وعند غيره من المحقِّقين على تسليمه[٨] أنّ النبىَّ صلَّى اللهُ عليه وسلم كان — كما أمره ربُّه — يُرَتِّلُ القرآنَ ترتيلا ، ويفصِّلُ

(١) لحفظ الله تعالى له عن مثله . (٢) لمنع الله تعالى له عن تسلطه عليه بمثله .

(٣) أى حملهم على الإقرار . والتوبيخ : أى توبيخهم بعد إقرارهم بعبادة الأصنام؛ فوصفها بالعلو ورجاء شفاعتها على هذا تهكم واستهزاء .

(٤) سورة الأنعام ، آية ٧٦ (٥) سورة الأنبياء ، آية ٦٣

(٦) قال الخفاجى : كان الكلام غير محرم لما فرضت الصلاة ، ثم حرم عليهم قبل الهجرة بثلاث سنين .

(٧) فى تأويله : فى تأويل هذا الحديث ؛ قال الخفاجى : وهذا ما اختاره العراقى .

(٨) على تسليمه : على فرض تسليم وقوعه ، وأنه نطق بذلك .

الآىَ تفْصِيلا فى قراءته ، كما رَوَاهُ الثقاتُ عنه[١] ، فيمكن تَرَصُّدُ[٢] الشيطانِ لتلك السكَتات ودَسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نَغْمة النبى صلى اللهُ عليه وسلم بحيث يسمَعُهُ مَنْ دنا إليه من الكفّار ، فظَنُّوها من قَوْلِ النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وأشاعوها[٣] ، ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين بحفْظِ السورةِ قَبْلَ ذلك على ما أنزلها اللهُ وتحقُّقِهم مِنْ حال النبى صلى الله عليه وسلم فى ذمّ الأَوثان وعَيْبِها على ما عُرِفَ منه .

[وقد حَكَى مُوسى[٤] بن عُقْبَة فى مَغَازِيه نحو هذا ، وقال : إنّ المسلمين لم يسمعوها ، وإنما أَلقَى الشيطانُ ذلكَ فى أسماع المشركين وقلوبهم][٥] ؛ ويكون ما رُوِى مِنْ حُزْنِ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهةِ ، وسبب هذه الفِتنة .

وقد قال اللهُ تعالى[٦] : ﴿ وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبىّ إلّا إذا تمنَّى أَلقَى الشيطانُ فى أُمنيته فَيَنْسَخ اللهُ ما يُلقِى الشيطان ثم يُحكِم اللهُ آياته واللهُ عليم حكيم ﴾ ، فمعنى تَمَنَّى : تلا ؛ قال اللهُ تعالى[٧] : ﴿ لا يَعْلَمُونَ الكتابَ إلا أَمَانِىّ ﴾ ؛ أى تلاوة .

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها ، وقد سئلت عن قراءته صلى الله عليه وسلم : لو أراد سامع أن يعد حروفه عدها لتأنيه فيها ، وتجويد حرفها ، وبيان حركاتها ومدها .

(٢) ترصد : ترقب وانتظار ؛ أى يترقب وقفه وسكته بين الآيات فى ترتيله القراءة .

(٣) وأشاعوها : أى أظهروها ، وقالوا : إنه مدح آلهتنا ، ووافق ولم يقدح .

(٤) فى ب : محمد بن عقبة . قال القارى (٢ — ٢٣٦) : والأول هو الصواب .

(٥) ما بين القوسين كتب أمامه فى ا : بخطه من غير الرواية . وهو فى هامش ب ، ولم يكتب أمامه أنه من غير الرواية .

(٦) سورة الحج ، آية ٥٢

(٧) سورة البقرة ، آية ٧٨ ، والمراد بالكتاب التوراة .

وقوله : فينسخ اللهُ ما يُلقِي الشيطانُ ؛ أى يذهبه ، ويزيل اللَّبْس به ، ويُحْكِم آياته .

وقيل : معنى الآية هو ما يقعُ للنبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم من السَّهْوِ إذا قرأ فَيَنْتَبِه لذلك ويَرْجِعُ عنه .

وهذا نحوُ قولِ الكلبي فى الآية : إنّه حدَّث نفْسَه ، وقال : إذا تمنَّى ؛ أى حدَّث نفْسه .

وفى رواية أبى بكر بن عبد الرحمن نَحْوه .

وهذا السَّهْوُ فى القراءةِ إنما يَصِحُّ فيما ليس طريقُه تغييرَ المعانى ، وتبديلَ الألفاظ ، وزيادةَ ما ليس من القرآن ؛ بل السَّهْو عن إسقاطِ آيةٍ منه أو كلمة ؛ ولكنه لا يُقَرّ على هذا السهو ؛ بل يُنَبَّه عليه ، ويذكَّر به لِلْحِين[1] على ما سنذكره فى حكم ما يجوزُ عليه من السهو وما لا يجوز .

ومما يظهر فى تأويله أيضا أنَّ مجاهدا روَى هذه القصة[2] : والغَرانِقة العُلَا ؛ فإنْ سَلَّمْنا القصةَ قلنا : لا يَبْعُد أنَّ هذا كان قُرْآنا[3] ، والمراد بالغرانقة العُلَا ، وأَنَّ شفاعتهنّ لتُرْتَجَى : الملائكة على هذه الرواية[4] .

وبهذا فسَّر الكَلْبيّ الغَرَانقةَ أنها الملائكة ؛ وذلك أنَّ الكفَّارَ كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله ، كما حكى اللهُ عنهم وردَّ عليهم فى هذه السورة بقوله[5] : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنْثَى ﴾ ؛ فأنكر اللهُ كل هذا من قولهم ؛

---

(١) للحين : أى يبادر به فى وقت سهوه من غير إمهال له .

(٢) بالعطف على اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .

(٣) أى كان قرآنا نزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم نسخت تلاوته .

(٤) قال فى نسيم الرياض : وفسرت الغرانيق بالأصنام أيضا ؛ وهى فى الأصل طير من طيور الماء .

(٥) سورة النجم ، آية ٢١

ورجاء الشفاعةِ من الملائـكة صحيح ، فلما تأوَّلَهُ المشركون على أنَّ المرادَ بهذا الذِّكر آلهتهم ، ولَبَّس[1] عليهم الشيطان ذلك ، وزيَّنَه فى قُلوبهم وألقاهُ، إليهم، نسخَ اللهُ ما أَلقَى الشيطانُ ، وأَحكم آياته ، ورفع تلاوةَ تلكَ اللَّفظَتَيْن اللتين[2] وجد الشيطانُ بهما[3] سبيلاالإلباس[4]، كما نُسخ كثير من القرآن ورُفعت تلاوته؛ وكان فى إنزال الله تعالى لذلك حكمةٌ ، وفى نَسْخِه حِكْمةٌ؛ لِيُضِلَّ به مَنْ يشاء ويَهْدِى من يشاء ؛ وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين، و ﴿ ليجعلَ ما يُلْقِى الشيطانُ فتنةً للذين فى قلوبهم [١٩٩] مرضٌ[5] والقاسيةِ قلوبُهم[6] ، وإنَّ الظالمين[7] لفى شِقاقٍ بَعِيد . وليعلمَ الذين أُوتُوا العِلْمَ أنه الحقُّ من ربِّك فيُؤمنُوا به فتُخْبِتَ[8] له قُلوبُهُمْ وإنَّ اللهَ لهادِى الذينَ آمنُوا إلى صِرَاطٍ مُستقيم[9] ﴾ .

وقيل : إنّ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ــ لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذِكْرَ اللّاتِ والعُزّى ومَنَاة الثالثة الأُخرى خاف الكفَّارُ أن يَأْتِىَ بشىء من ذَمِّها فسبقوا إلى مَدْحِها بتلك الـكلمتين ليُخَلِّطُوا فى تلاوةِ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ويشغَبُوا[10] عليه على عادتِهم وقَوْلِهم[11]: ﴿ لا تَسْمَعُوا لهذا القُرْآنِ والْغَوْا فيه لعلكم تَغْلِبون ﴾.

---

(١) خلط ، وشبه عليهم بوسوسته . (٢) فى ب : التى .

(٣) بهما : إذا ثبتا فى هذه السورة . (٤) فى ب : للتلبيس .

(٥) مرض : شك وريبة . (٦) والقاسية قلوبهم من المشركين .

(٧) الظالمون : الـكافرون ــ كما قال : « وإن الشرك لظلم عظيم » .

(٨) تخبت : تنقاد وتذعن وتخضع مطمئنة من غير شك وتزلزل .

(٩) سورة الحج ، آية ٥٣ ، ٥٤ (١٠) يشغبوا : يثيروا الشر ، ويهيجوا الفتنة .

(١١) سورة فصلت، آية ٢٦ . والغوا فيه : أظهروا اللغو برفع الأصوات تخليطا وتشويشا عليه بما يشغل الخواطر عنه . لعلـكم تغلبون : بأصوات لغوكم على قراءته ؛ من قولهم : هذا غالب هذا ؛ إذا كان زائدا ؛ فـكانوا يوصون بذلك من يحضره منهم ، كما قال أبو جهل لعنه الله : إذا قرأ محمد فصيحوا حتى لايدرى ما يقول . وقيل : كان ذلك بالصياح والتصفيق ، وأنهم فعلوا ذلك لمانظهر عجزهم عن معارضته .

ونُسِبَ هذا الفعل[١] إلى الشيطان لحمْله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه[٢]، وأن النبي ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ قاله؛ فحزِنَ لذلك مِنْ كذبهم وافترائهم عليه، فسلَّاهُ اللهُ تعالى بقوله: ﴿ وما أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ من رسُولٍ ولا نبي إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطانُ فى أمنيته ﴾، وبَيّنَ للناس الحقّ مِنْ ذلك من الباطل[٣]، وحَفِظَ القرآنَ[٤]، وأحْكَمَ آياتِه، ودفع ما لبّس به العَدُوُّ، كما ضَمِنَه تعالى من قوله[٥]: ﴿ إنّا نحن نزّلْنَا الذِّكْرَ[٥] وإنّا له لحافظون ﴾.

ومن ذلك[٦] ما رُوِىَ من قِصّةِ يونس عليه السلام ـ أنه وَعَدَ قَوْمَه بالعذاب عَنْ ربِّه، فلما تابوا كُشِفَ عنهم العذابُ، فقال[٧]: لا أرْجِعُ إليهم كذّابًا أبدا، فذهب مُغَاضِبا[٨].

فاعلم ـ أكرمَكَ اللهُ ـ أنْ لَيس فى خَبرٍ من الأخبارِ الواردةِ فى هذا الباب أن يُونُسَ ـ عليه السلام ـ قال لهم: إنّ اللهَ مُهْلِكُكم[٩]، وإنما فيه أنّهُ دَعَا عليهم بالهلاك؛ والدعاء ليس بخَبَرٍ يُطْلَب صِدْقُه من كَذِبه[١٠]، لكنه قال لهم: إن

(١) هذا الفعل: هذا الإلقاء فى قوله تعالى: « مايلقى الشيطان ».

(٢) وأشاعوا ذلك وأذاعوه: جعلوه مشهورا منتشرا.

(٣) الحق من ذلك من الباطل: أى من الوحى الذى أنزل على لسانه من الباطل الذى ألقاه الشيطان فيما تلاه.

(٤) وحفظ القرآن من التبديل والتغيير.

(٥) سورة الحجر، آية ٩. والذكر: القرآن. وإنا له لحافظون من التبديل، وأن يزاد فيه أو ينقص.

(٦) ومن ذلك: ومن جملة أسئلة الطاعنين على الرسل.

(٧) قال يونس: لما رأى تخلف الوعيد لهم بالعذاب.

(٨) مغاضبا: مغاضبا من أجل ربه؛ أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه. وقيل: إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم، فذهب فارا بنفسه، ولم يصبر على أذاهم (القرطبي: ١١ ـ ٣٣٠).

(٩) حتى يتأتى أن يقال: إنه صدر منه الكذب.

(١٠) أى يحتمل الصدق والكذب.

العذاب مُصَبِّحكم وقتَ كَذَا وكذا، فكان ذلك[١]، كما قال؛ ثم رفَعَ اللهُ تعالى عنهم العذابَ وتَدَارَكهم[٢]؛ قال الله تعالى[٣]: ﴿فلولا كانَتْ قريةٌ آمنَتْ فنفعها إيمانُها إلّا قَوْمَ يونُس لما آمنُوا كشفْنَا عنهم عذابَ الخِزْى فى الحياةِ الدُّنيا ومتّعْنَاهم إلى حين﴾.

ورُوِى فى الأَخبار أَنهم رأَوْا دَلاَئلَ العذاب ومَخَايله[٤]؛ قاله ابنُ مسعود.

وقال سَعِيد بن جُبَير: غَشّاهم العذابُ كما يُغَشّى الثوبُ القَبْر.

فإنْ قُلْتَ: فما معنى ما رُوِى من أنّ عبد الله بن أبى سَرْح كان يَكتُبُ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، ثم ارتدّ مُشْرِكاً، وصار إلى قريش[٥]، فقال لهم: إنى كنتُ أُصَرِّف محمدا حيثُ أُرِيد؛ كان يُمْلِى علىّ «عَزِيز حكيم» فأقول أو «عليم حكيم»؟ فيقولُ: نَعَمْ؛ كلٌّ صَوَاب.

وفى حديثٍ آخر: فيقول له النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم: اكتُبْ كذَا، فيقول: أَكتُب كذا؟ فيقول: اكتب كيف شِئْتَ. ويقول: اكتُبْ: عَلِيما حَكِيما، فيقول: أَكْتُبُ: سميعا بصيرا، فيقول له: اكتب كيف شِئْتَ.

وفى الصحيح[٦] — عن أَنَسٍ رضى اللهُ عنه — أَنّ نَصْرَانيًّا كان يكتبُ للنبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم بعد ما أَسلم ثم ارتدّ، وكان يقول: ما يَدْرِى محمدٌ إلاّ ما كتبتُ له.

---

(١) مصبحكم: يأتيكم فى وقت الصباح. فكان ذلك: أى وقع وتحقق مجيئه لهم فى الوقت المعين، ورأوا سحابة دنت منهم نحو ميل فيها عذاب ودخان أسود، فأخلصوا التوبة، وآمنوا، وتضرعوا إلى الله؛ فقبل توبتهم.

(٢) وتداركهم: أنعم عليهم بالخلاص مما خافوه.

(٣) سورة يونس، آية ٩٨ (٤) ومخايله: علاماته، ومظانه.

(٥) صار إلى قريش: رجع إليهم بمكة، ولحق بهم، ووافق على شركهم.

(٦) صحيح البخارى: ٤ — ٢٤٦

فاعلَمْ ـ ثبَّتَنَا اللهُ وإياكَ على الحق ، ولا جعل للشيطانِ وتَلْبِيسه[(١)] الحق بالباطل إلينا سبيلا ـ أنَّ مِثْلَ هذه الحكاية أولا لا تُوقِعُ فى قَلْبِ مُؤْمنٍ رَيْناً[(٢)] ؛ إذ هى حكايةٌ عمَّن ارتدَّ وكفرَ باللهِ ، ونحن لا نقبَلُ خَبَرَ المسلمِ المُتَّهم ، فكيف بكافرٍ افْتَرى هو ومِثْلُه على اللهِ ورسُلِه ما هو أعظَمُ مِنْ هذا !

والعجَبُ لسليم العَقْل يَشْغَل بمثل [٢٠٠] هذه الحكاية سِرَّه[(٣)] ، وقد صدرَتْ من عدوٍّ كافرٍ مُبْغِض للدين ، مُفْترٍ على اللهِ ورسوله ؛ ولم تَرِدْ عن أحدٍ من المسلمين ، ولا ذَكَر أحَدٌ من الصحابةِ أنه شاهد[(٤)] ماقالَهُ وافتراه على نبيِّ اللهِ ؛ وإنما يفترى الكذِبَ الذين لا يُؤْمِنونَ بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون .

[وما وقَعَ مِنْ ذِكْرِها[(٥)] فى حديث أَنَسٍ رضِيَ اللهُ عنه وظاهرِ حكايَتِها ؛ فليس فيه ما يدلُّ على أنه شاهَدَها ، ولعلّه حكى ماسَمِع[(٦)] .

وقد عَلَّل البزَّارُ حديثَه ذلك ، وقال : رَوَاهُ ثابتٌ عنه ، ولم يُتَابَع عليه[(٧)] ؛ ورَوَاه حُميد عن أنس ، قال : وأظنُّ حُميدا إنما سمعه من ثابت[(٨)] .

---

(١) تلبيسه : خلطه .

(٢) رينا : شكا وترددا فى حقيقة ماأوحى إلى النبى وأن الشيطان لايتسلط عليه .

(٣) سره : المراد فكره أو قلبه .

(٤) ما قاله : ماقاله رسول الله لهما ، أو ماقاله له واحد منهما له .

(٥) من ذكرها : أى ذكر هذه القصة .

(٦) حكى ماسمع من غير جزم به ، ولا قول بصحته .

(٧) ولم يتابع عليه ؛ أى لم يرو من طريق آخر يعضده .

(٨) أى لا من طريق آخر يعضده .

قال فى نسيم الرياض : ولا يخفى أن حديثه الذى رواه المصنف أخرجه البخارى ، فقال : إنه كان رجل نصرانى أسلم وقرأ البقرة وآل عمران ، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد فانطلق هاربا حتى لحق بأهل الكتاب فعجبوا به . . . وهو حديث صحيح ؛ فرد المصنف له غير صحيح ؛ والذى ينبغى له أن يقول : إن منقاله كذب وافترى ؛ ولايقدح فى أصل القصة وصحتها ، فإنها مروية فى الصحيحين كما تقدم .

قال القاضى أبو الفضل ـ وفَّقه اللهُ : ولهذا ، واللهُ أعلم ، لم يخرِّجْ أهلُ الصحيح حديثَ ثابت ولا حُميد . والصحيح حديث عبد العزيز بن رُفَيع عن أنَس رضِيَ اللهُ عَنْه(١) الذى خرّجه أهْلُ الصحة وذكَرْناه ، وليس فيه عن أنَس قولُ شىء من ذلك من قِبَل نفسه(٢) إلا مِنْ حكايته عن المُرْتَدّ النصرانىّ [(٣)] ، ولو كانت صحيحةً لما كان فيها قَدْحٌ ولا توهِيمٌ(٤) للنبىّ صلى اللهُ عليه وسلم فيما أُوحِىَ إليه ، ولا جَوَاز للنسيان والغَلَطِ عليه والتحريف فيما بلَّغه ، ولا طَعن فى نَظْم القرآنِ ، وأنه من عند الله ؛ إذ ليس فيه لو صَحّ ـ أكثرُ من أنّ الكاتبَ قال له : عليم حكيم ـ وكتبه ؛ فقال له النبىّ ـ صلى اللهُ عليه وسلم : كذلك هو ، فسبقه لسانه أو قلَمُه لِكلمةٍ أو كلمتين مما نُزِلَ عَلَى الرسول قبل إظهارِ الرسولِ لها ؛ إذ كان ما تقدّم ممّا أمْلاهُ الرسولُ يَدُلُّ عليها ويقتضى وقوعَها بقوةِ قُدْرَةِ الكاتب على الكلام ومعرفته به ، وجَوْدةِ حِسّه وفِطْنته ، كما يتّفِقُ ذلك للعارف(٥) إذا سَمِعَ البيت أن يَسْبِقَ إلى قافيته ، أو مُبْتَدَأ(٦) الكلام الحَسَنِ(٦) إلى ما يَتِمُّ به ؛ ولا يتّفِق ذلكَ فى جُمْلة الكلامِ ، كما لا يتّفِق ذلك فى آية ولا سورة(٧) .

---

(١) وهو مما رواه البخارى ومسلم ، وأخرجه البخارى فى علامات النبوة . صحيح البخارى : ٤ ـ ٢٤٦

(٢) من ذلك : أى الذى ذكره السائل عن الطاعن . من قبل نفسه : أى لم يرد فيه أنه صلى الله عليه وسلم قاله من قبل نفسه لم يوح به إليه .

(٣) مابين القوسين ساقط فى ا .

(٤) قدح : عيب ونقص فى مقام النبوة . ولا توهيم : أى نسبته إلى الوهم ، وهو الغلط .

(٥) للعارف بأساليب الكلام .

(٦) مبتدأ الكلام : أوله . والحسن : الفصيح المنسجم ؛ وقيده به ؛ لأنه هو الذى يرتبط بعضه ببعض ، وتتعانق كلماته وتتلازم بخلاف المتنافر كلماته .

(٧) فى جملة الكلام : أى لا يقع ذلك فى الكلام بتمامه بأن يسبق فهمه إلى خطبة أو قصيدة بتمامها ؛ فإن التوارد فى مثله بعيد جدا . كما لا يتفق ذلك فى آية ولا سورة ؛ أى بتمامها من الآيات والسور .

وكذلك قولُه صلّى اللهُ عليه وسلم : كلٌّ صَوَابٌ إن صح[١] ؛ فقد يكون هذا فيما كان فيه مِنْ مقاطِع الآيِ[٢] وَجْهَان وقراءتان أُنْزِلتا جميعا عَلَى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأملى إحداها ، وتوصّل الكاتِبُ بفِطْنَتِهِ ومعرفته بمقتضى الكلام إلى الأُخرى ، فذَكَرَهَا للنبيّ - صلى اللهُ عليه وسلم كما قدمناه ؛ فصوّبها[٣] له النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ ثم أحكَمَ اللهُ مِنْ ذلك ما أحكم ، ونَسَخَ ما نَسخَ[٤] كما قد وُجِدَ ذلك فى بعض مَقَاطِع الآى[٢] ؛ مثل قولِه تعالى[٥] : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُم فإنهم عِبَادُك ، وإِنْ تَغْفِرْ لهم فإنك أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ .

وهذه قراءة الجمهور ، وقد قرأ جماعةٌ : « فإنكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرّحيم » . وليست من المصحف .

وكذلك كلماتٌ جاءت على وَجْهين فى غير المقاطع ، قرأ بهما جميعا الجمهورُ ، وثبتتَا فى المصحف ، مثل : وَانظُرْ إلى العِظَام كيف نُنْشِرُها - ونُنْشِزُهَا[٦] . ويَقْضِى الحقّ - ويَقُصُّ الحقّ[٧] .

---

(١) فى قصة ابن أبى سرح .

(٢) مقاطع الآى : المقاطع : جمع مقطع ، وهو آخر الكلام وفواصله . والآى : جمع آية.

(٣) فصوبها له : قال له : إنها صواب ، لموافقتها لما أوحى إليه .

(٤) قال فى نسيم الرياض : وحاصله أن ما قاله ابن أبى سرح لا ضير فيه ؛ فإنه سبق النبى صلى الله عليه وسلم لكلمات وافق فيها لفظه لفظ القرآن ، فصوبه النبى صلى الله عليه وسلم وأقره عليها ، فلما ارتد وأضله الله قال ما قال ، ثم أسلم يوم الفتح ، وحسن بإسلامه حاله بعد ذلك ، ومحا الله تعالى عنه ما افتراه حال ردته ، سواء كان ما قاله موافقا لما أملاه عليه أو مخالفا له على أنه فى قراءة أخرى ؛ وقد تتخالف القراءات لفظا أو معنى ؛ وإنما الممنوع فيها التناقض .

(٥) سورة المائدة ، آية ١١٨

(٦) سورة البقرة ، آية ٢٥٩ . ننشرها : نحييها . وننشزها : نحركها ونرفع بعضها على بعض.

(٧) سورة الأنعام ، آية ٥٧ . يقضى الحق : يقضى القضاء الحق فى كل ما يقضيه . ويقص الحق : أى يتبع الحق فيما يحكم به ويقدره .

وكلُّ هذا لا يوجِبُ رَيْباً ، ولا يَنْسبُ للنبي - صلى اللهُ عليه وسلم - غَلَطةً ولا وَهْما .

وقد قيل : إن هذا يحتملُ أن يكونَ فيما يكتبهُ عن النبي - صلى اللهُ عليه وسلم - إلى الناس غَيْرِ القرآن ، فيصف اللهَ ويسمّيه فى ذلك[١] كيف يشاء .

فصــــل

[فيما يتصل بأمور الدنيا وأحوال نفسه]

هذا القولُ فيما طريقُه البَلَاغ ، وأمّا ما ليس سبيلُه سبيلَ البلاغ[٢] من الأخبار التى لا مُسْتَنَد لها إلى الأحكام ، ولا أخبار المعادِ[٣] ، ولا تُضافُ[٤] إلى وَحْيٍ ؛ بل فى أمورِ الدنيا وأحوال نَفْسِهِ - فالذى يجبُ اعْتِقَادُه تَنْزِيهُ النبيّ - صلّى اللهُ عليه وسلم - أنْ يَقعَ خَبَرُه فى شىء من ذلك بخلاف مُخْبَرِه[٥] ، لا عَمْدًا ولا سهوًا ولا غلطا ، وأنه معصوم مِنْ ذلك فى حالِ رِضَاه وفى سَخَطِه[٦] ، وجِدِّه ومَزْحِه ، وصِحّته ومرضِه .

ودليلُ ذلك اتفاقُ السلَفِ وإجماعُهم عليه ؛ وذلكَ أنا نعلمُ مِنْ دِين الصحابةِ وعادتِهم مُبَادرَتُهم إلى تصديق جميع أحوالِه ، والثِّقَة بجميع أخباره فى أى بابٍ كانت[٧] ، وعن أى شىء وقعَتْ ، وأنه لم يكن لهم توقُّف[٨] ولا ترَدُّد فى شىء منها ، ولا

---

(١) فى ذلك : أى فى ذلك الكتاب الذى يكتبه ؛ لأنه ليس قرآنا .

(٢) مما أمر ببيانه .

(٣) لامستند لها إلى الأحكام : لااستناد لها إلى الأحكام الشرعية التى يتعبد بها . وأخبار المعاد ؛ أى أحوال القيامة والآخرة التى لا تعلم إلا بالوحى .

(٤) تضاف : تسند وتنسب .

(٥) مخبره : ماأخبر به .

(٦) سخطه : كراهته وعدم رضاه .

(٧) كانت : أى أخباره .

(٨) توقف : المراد شك أو ريبة .

استثباتٌ[١] عن حالِه عند ذلك ؛ هل وقع فيها سَهْوٌ أم لا ؟

ولما [٢٠١] احتجّ ابنُ أبى الُحقَيْق اليهودى[٢] على عُمَر حين أجْلاهم من خَيْبر[٣] بإقرار رسولِ الله ــ صلى اللهُ عليه وسلم ، واحتجّ عليه عُمَرُ رَضِىَ اللهُ عنه بقوله ــ صلى اللهُ عليه وسلم : كيف بكَ إذا أُخرجْتَ مِنْ خَيْبَر[٤] ؟ فقال اليهودى: كانت هُزَيْلَةً من أبى القاسم[٥]. فقال عُمر : كذَبْتَ يا عدوَّ الله[٦] .

وأيضا فإنَّ أخبارَهُ وآثارَه وسِيَره وشمائلَه مُعْتَنًى بها مُسْتَقْصًى تفاصيلها[٧] ، ولم يَرِدْ فى شىء منها استدراكه صلَّى اللهُ عليه وسلم الغَلَطِ فى قولٍ قاله ، أو اعترافُه بوَهْم[٨] فى شىء أخبر به ، ولو كان ذلك لنُقِل كما نُقِل من قصّته[٩] عليه السلام فى رجوعه صلّى اللهُ عليه وسلم عما أشار به على الأنصار فى تلقيحِ[٩] النخل ــ وكان

---

(١) الاستثبات : طلب الثبوت بسؤال غيره .

(٢) رواه البخارى فى حديث إجلاء يهود خيبر : صحيح البخارى : ٣ ــ ٢٣٩

(٣) أجلاهم : أخرجهم وطردهم فى زمن خلافته عن خيبر . وهى بقرب المدينة . وكان صلى الله عليه وسلم أقرهم بها على أن تكون ثمارها بينه وبينهم، ثم أقرهم أبو بكر على ماأقرهم عليه رسول الله ، ثم أقرهم عمر فى أول خلافته على ذلك ؛ ثم لما ظهر له غدرهم أجلاهم منها ، وأعطاهم قيمة مالهم من الثمار والأموال ، وكانت محاجة اليهودى له عند ذلك .

(٤) كيف بك إذا أخرجت من بلادك خيبر . وهذا من كلام النبى يدل على عدم إقراره لهم كما ظن .

(٥) هزيلة : تصغير هزلة ، المرة من الهزل : ضد الجد . وأبو القاسم : كنية النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى إنما قال ذلك على طريق الهزل والمزح ؛ فلا دليل فيه .

(٦) كذبت ياعدو الله : أى لم يقل النبى ذلك هزلا ، ولو كان مزحا أيضا؛ فهو لايمزح إلا بحق .

(٧) شمائله : صفاته الذاتية . معتنى بها : نقلا وحفظا . مستقصى : مستوفاة متممة .

(٨) استدراكه : تداركه بالرجوع عما فرط منه للصواب . بوهم : بغلط .

(٩) رواه مسلم؛ وكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ مر بهم وهم يفعلون ذلك، فسألهم عنه فأخبروه؛ =

ذلك رأيا لا خَبَرا ؛ وغَيْرُ ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم[١] : واللهِ لا أَحلفُ على يمين[٢] ، فأَرى غَيْرَها خيرا منها إلَّا فعلتُ الذى حلَفْتُ عليه وكفَّرت عن يمينى .

وقوله[٣] : إنكم تختصمون إلىّ . . . الحديث .

وقوله[٤] : اسْقِ يا زُبَيْر حتى يبلغَ الماءُ الجَدْرَ ؛ كما سنُبَيِّن كلَّ ما فى هذا

= فقال لهم : دعوه . فتركوه امتثالا له صلى الله عليه وسلم فلم يثمر نخلهم فى ذلك العام . فلما أخبروه بذلك قال لهم : أنتم أعرف بدنياكم . والحديث فى صحيح مسلم : ١٨٣٥

فعدم معرفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمر من هذه الأمور لاينافى عصمته ، وأنه لا يخبر بما يخالف الواقع ؛ لأن جل همته صلى الله عليه وسلم أمور الآخرة ، والشرائع وقوانينها ، وغيره إنما جل قصده العلم بظاهر الحياة الدنيا .

(١) فى حديث رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى غزوة تبوك لما سأله صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة أن يحملهم ، فقال : والله ما عندى ما أحملكم عليه ، فأتى بعد ذلك بإبل فأعطاها السائل ، وقال ؛ ما أنا حملتكم ، ولكن الله تعالى حملكم ؛ ثم قال : والله إنى لا أحلف . . . صحيح البخارى : ٦ ـ ٢ ، وصحيح مسلم : ١٢٦٩

(٢) المراد باليمين هنا : القسم عليه من فعل أو ترك .

(٣) فى حديث رواه الشيخان، عن أم سلمة . . . وهو فى صحيح مسلم: ١٣٣٧، وتمامه: ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ـ أى أفصح ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن اقتطعت له من أخيه شيئا ـ أى ليس حقا له ـ فلا يأخذه ، فكأنما أقتطع له قطعة من النار فليحملها أو يذرها .

قال فى نسيم الرياض : وفيه تنبيه على بشريته صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يعلم الغيب ، وإنما يحكم بالظاهر . وهذا تعليم لأمته .

(٤) فى حديث روى فى الكتب الستة من أمره صلى الله عليه وسلم للزبير أن يسقى نخله ولا يستوعب الماء ، ثم يرسله لجار له من الأنصار ، فقال له الأنصارى : أن كان ابن عمتك ! فقال صلى الله وسلم: اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجدر ... والجدر: المسناة ، وهو ما رفع حول المزرعة كالجدار ، وقيل هو لغة فى الجدار . وقيل : هو أصل الجدار . وروى الجدر ـ جمع جدار ، ويروى بالذال الساكنة ؛ أى مبلغ تمام الشرب . =

مِنْ مُشْكِلِ مافى هذا الباب والذى بعده إن شاء الله ، مع أشباهها .

وأيضا فإنَّ الـكَذِبَ متى عُرِف من أحدٍ فى شىء من الأخبار بخلاف ماهُوَ على أىّ وجْه[١] كان استُرِيبَ[٢] بخبره ، واتُّهِمَ فى حديثِه ، ولم يقَعْ قولُه فى النفوس موقعا ؛ ولهذا ما تَرَكَ المُحدِّثون والعلماء الحديثَ عمَّن عُرِف بالوَهَمِ والغَفْلة وسوءِ الحِفْظِ ، وكَثْرَةِ الغَلَط ، مع ثقته .

وأيضا فإنَّ تعمُّدَ الـكذب فى أمور الدنيا معصيةٌ ، والإكثارُ منه كبيرةٌ بإجماع ، مُسْقِطٌ للمروءة .

وكلُّ هذا مما يُنَزَّهُ عنه مَنْصبُ النبوة ؛ والمرةُ الواحدةُ منه فيما يُسْتَبْشَعُ ويُسْتَشْنَعُ ويَشِيع[٣] مِمّا يُخِلُّ بصاحبها ، ويُزْرِى[٤] بقائلها لاحقةٌ[٥] بذلك .

= قال فى نسيم الرياض: وحاصل ما فى ذلك مايأتى : أنه كان رجل أنصارى خاصم الزبير ابن عمته صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة فى الماء الذى يسقى به النخل ، وقال له : أرسل الماء إلى ؛ فترافعا له صلى الله عليه وسلم ، فقال له : اسق يازبير ثم أرسل لجارك . فقال : أن كان ابن عمتك . فتلون وجهه صلى الله عليه وسلم ، فقال : اسق يازبير واحبس الماء حتى يبلغ الجدر، وفيه نزل: «فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم» . وإن الرجل المخاصم قيل هو حاطب بن بلتعة ، ولا يصح لأنه ليس أنصاريا . وقيل ثابت بن قيس . وقيل ثعلبة بن حاطب . وقيل حميد . وقيل: إنه بدرى ؛ ونقل ابن الملقن أنه منافق من الأنصار(٤ـ١٣٠).
والحديث فى صحيح مسلم: ١٨٣٠ ، وصحيح البخارى : ٦ ـ٥٨، ٣ـ١٣٨، ٣ـ٢٣٢ ومسند أحمد : ١ ـ ١٦٥ ، ١٦٦ ، وانظر فى ذلك أيضا تفسير ابن كثير : ٢ ـ٢٠٦

(١) على أى وجه كان : سواء كان جدا أو هزلا .

(٢) استريب بخبره : وقع الناس فى ريبة وشك فيما يخبر به حتى لوصدق .

(٣) يستبشع : يستقبح من البشاعة ، ويستشنع: من الشناعة. ويشيع :يشيعه الناس لشناعته.

(٤) ويزرى : يعيب وينقص ويحقر .

(٥) لاحقة بذلك : أى بما لا يليق بمنصب النبوة .

وأما فيما لايقعُ هذا الموقع[١] فإنْ عددْناها من الصغائر. فهل يجرى على حُكمها[٢] فى الخلاف فيها؟ مختلف[٣] فيه. والصوابُ تنزيهُ النبوّةِ عن قليله وكثيره، سهوه وعمده؛ إذ عُمدَةُ النبوةِ البلاغُ والإعلامُ والتّبْيين، وتصْديقُ ما جاء به النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم. وتجويزُ شيء من هذا قادِحٌ فى ذلك، ومُشكّكٌ فيه، مناقِضٌ للمعجزة؛ فلنقْطع عن يقينٍ بأنه لايجوز على الأنبياء خُلْف[٤] فى القول فى وَجْهٍ من الوجوه، لابقَصْدٍ ولا بغير قَصْدٍ، ولا تسامَح[٥] مع مَنْ سامَحَ فى تجويزِ ذلك عليهم حالَ السّهو مما ليس طريقُه[٦] البلاغَ؛ نعم، وبأنه لايجوزُ عليهم الكذِبُ قبل النبوّة، ولا الاتّسامُ[٧] به فى أمورهم وأحوال دُنْياهم؛ لأنّ ذلكَ كان يُزْرِى ويريبُ[٨]، وينفّر القلوبَ عن تصديقهم بعدُ.

وانظُرْ أحوالَ أهل عَصْر النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم من قُريش وغيرها من الأمم وسُؤالهم عن حالِه فى صِدْق لسانِه[٩]، وما عُرِفُوا به من ذلك واعترفوا به مما عُرِفَ، واتّفَق النّقْلُ على عِصْمة نبيّنا صلّى اللهُ عليه وسلم منه قَبْلُ وبَعْدُ؛ وقد ذكرنا من الآثار فيه فى الباب الثانى أولَ الكتابِ ما يبيِّن لك صحةَ ما أشرنا إليه[١٠].

---

(١) وأما الكذب فيما لايقع هذا الموقع، ولا يعد مما يستبشع.

(٢) فهل يجرى على حكمها: أى يوافق حكمها ويتحد.

(٣) وقع خلاف من أئمة الأصول؛ فمنهم من قال: اختلف فيها أيضا. ومنهم من قال: لا خلاف فى عدم وقوعها منه، لأنه مما ينفر القلوب عنه، والكذب حرام منه ماهوصغيرة وما هو كبيرة، وقد يقترن به مايصيره كفرا، وقديقترن بالصغيرةمايصيرها كبيرة لكونها تؤدى إلى القتل أو القتال كما قال الجوينى.

(٤) خلف: كذب. (٥) تتسامح: لا تتساهل وتتهاون.

(٦) البلاغ: عن الله تعالى لعصمة الله تعالى لهم عن وصمته كما تقدم.

(٧) الاتسام: الاتصاف.

(٨) يزرى: يعيب وينقص. ويريب: يوقع فى ريب وتهمة. (٩) لسانه: كلامه.

(١٠) قبل وبعد: قبل البعثة وبعدها. والمراد نقل علماء الملة، أو نقل الناس بعضهم عن=

فصـــل

فإن قلتَ : فما معنى قولِه صلى اللهُ عليه وسلم فى حديث(١) السَّهْوِ الذى حَدَّثنا به الفقيه أبو إسحاق [٢٠٢] إبراهيم بن جعفر ، حدثنا القاضى أبو الأَصْبَغ بنُ سهل ،

= بعض عصرا بعد عصر ، ثم لم يزالوا ينقلون خلفا عن سلف أنه لم يقع منه ذلك ، وعدم وقوعه يدل على عدم جوازه عليه ، فالتوقف فيه لايجوز .

قال الخفاجى : وتحقيقه — كما قال العلامة العلائى ، ومن خطه نقلت؛ وعبارته: اتفق جميع أهل الملل والشرائع على وجوب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن تعمد الكذب فيما دلت عليه المعجزة القاطعة على صدقهم فيه ؛ وذلك فيما طريقه البلاغ عن الله من دعـــوى الرسالة ، وما ينزل عليهم من الكتب الإلهية ؛ إذ لو جاز ذلك أدى إلى إبطال دلالة المعجزة ؛ وهـــو محال .

وأما السهو والنسيان فقال الآمدى : اختلف الناس فيه ؛ فذهب أبو إسحاق الإسفرائنى وكثير من الأئمة إلى امتناعه . وذهب القاضى أبو بكر إلى جوازه ، وادعى الفخر الرازى فى بعض كتبه الإجماع على امتناعه . ونقل الخلاف فيه فى بعضها .

وحاصل الخلاف يرجع إلى أن ذلك داخل تحت دلالة المعجزة على التصديق ؛ فمن جعله غير داخل فيها جوزه لعدم انتقاض الدلالة . وفى كلام إمام الحرمين أن ذلك فيما يتعلق ببيان الشرائع سواء كان قولا أو فعلا نازلا منزلة قوله فى اقتضاء البيان ؛ وميل كلامه إلى جواز السهو فيه .

وقال شيخنا الزملكانى : إن الذى يظهر أن ما طريقه البلاغ يقطع بدخوله تحت دلالة المعجزة على الصدق؛ فهذا لا نزاع فى أنه لا يجوز فيه التحريف ولا الكذب ولا السهو ؛ وما لا يكون كذلك ؛ وهو ما طريقه التبليغ وبيان الشرائع : فهل يجوز فيه النسيان ؟ وهذا محل الخلاف .

وقال الباقلانى فى كتاب الانتصار : المعجزة تدل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما يفكر فيه ، وهو عامد له . وذهول النفس وطريان النسيان ، وبوادر اللسان ، لا يدخل تحت الصدق الذى هو مدلول المعجزة . ومن زعم أنه فى تجويز ذلك القدح فى الثقة بتبليغ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فليس بشىء ؛ فإنما يكون ذلك لو جوز تقريرهم عليه وهو ممتنع وأما القاضى عياض فإنه نقل الإجماع على عدم جواز السهو والنسيان فى الأقوال البلاغية ؛ وخص الخلاف بالأفعال ، وهو يرجع إلى اندراجه تحت دلالة المعجزة كما ذكرنا (نسيم الرياض: ٤ —١٣٣).

(١) هذا الحديث رواه الشيخان ومالك والترمذى وغيرهم . صحيح مسلم : ٤٠٠ ، ٤٠٢

حدثنا حاتم بن محمد ، حدثنا أبو عبد الله بنُ الفَخَّار ، حدثنا أبو عيسى ، حدثنا عُبيد الله ، حدثنا يحيى ، عن مالك ، عن داود بن الحُصَين ، عن أبى سفيان مولى ابن أبى أحمد أنه قال : سمعتُ أبا هريرة رضى الله عنه يقول : صلّى رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم صلاةَ العصر ، فسلَّم فى ركعتين ، فقام ذُو اليَدَيْن[١] ، فقال : يا رسول اللهِ ؛ أقُصِرَت الصلاةُ أمْ نَسِيتَ ؟ فقال النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم : كلُّ ذلك لم يكن .

وفى الرواية الأخرى : ما قُصِرَتْ وما نسيت . . . الحديث بقصته ؛ فأخبره بنَفْى الحالتين ، وأنها لم تكُن ؛ وقد كان أحدُ ذلك كما قال ذو اليَدَيْن : قد كان بعضُ ذلك يا رسولَ الله . . .

فاعلَمْ ـ وفّقَنَا اللهُ وإياك ـ أنّ للعلماء فى ذلك[٢] أجوبةً ، بعضُها بصَدَدِ[٣] الإنصاف ؛ ومنها ما هو بنيّة[٤] التعسُّف والاعتساف ؛ وهأنا أقول :

أمّا على القول بتجويز الوَهْمِ والغَلَط فيما ليس طريقُه من القول[٥] البلاغَ ، وهو الذى زيّفناهُ[٦] من القَوْلَيْن ـ فلا اعتراضَ[٧] بهذا الحديث وشِبْهِه .

---

(١) ذو اليدين : رجل من العرب بالبادية ، وحديثه فى صحيح البخارى : ١-١٢٣، ١٧٣ ، وصحيح مسلم : ٤٠٣

(٢) فى ذلك : أى فى ذلك السهو الذى وقع له عليه السلام فى هذه القضية .

(٣) بصددالإنصاف: قريب من الإنصاف ، أو متمسك بطريق الإنصاف فى الرجوع إلى الحق . والإنصاف:العدل والاستقامة فى الأمور .

(٤) بنية : بقصد والتعسفوالاعتساف: الجور ، والخروجعن الجادة ، وركوب الأمر بالمشقة .

(٥) أى لايتعلق به حكم ، أو وحى ، أو خبر عن أمر المعاد .

(٦) زيفناه : رددناه ولم نرضه .

(٧) فلا اعتراض على ما تقرر فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وأمّا على مَذهب مَنْ يمنَعُ السَّهوَ والنسيانَ فى أفعاله جملةً[1] ، ويَرى أنه فى مِثل هذا عامِدٌ[2] لصورةِ النسيان لَيسُنّ[3] ، فهو صادقٌ فى خَبَره[4] ؛ لأنه لم يَنْسَ ولا قُصِرَتْ ، ولـكنه على هذا القول تعمَّد هذا الفِعْل فى هذه الصورة[5] لمن اعتراه مِثْلُه[6] ؛ وهو قولٌ مرغوبٌ عنه[7] ونَذْكُره فى مَوْضِعه .

وأمّا على إحالةِ السَّهو عليه فى الأقوالِ وتجويز السَّهو عليه فيما ليس طريقُه القول[8] — كما سنذكره — ففيه أجوبةٌ ؛ منها :

أنَّ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم أخبر[9] عن اعتقادِه وضميره ؛ أمّا إنـكارُ القَصْر فحقٌّ وصِدْقٌ باطنا وظاهرا[10] . وأمّا النِّسْيَانُ فأخبر — صلّى اللهُ عليه وسلم — عن اعتقاده ، وأنه لم يَنْسَ فى ظَنّه ؛ فـكأنه قصدَ الخبرَ بهذا عن ظنّه وإنْ لم يَنْطِق به ؛ وهذا صِدْقٌ أيضا[11] .

---

(١) جملة : جميعا . قال الخفاجى : وهذا القول ذهب إليه كثير من مشايخ الصوفية وبعض المتكلمين ، وخصه بعضهم بنبينا صلى الله عليه وسلم . (٢) عامد : قاصد .

(٣) ليسن : ليعلم الناس سنته فى السهو ؛ أى إنه نسى قصدا ، أى أتى بما هو فى صورة النسيان — ليبين حكمه . وقال الإسفرائنى : وهذا منحى غير سديد ؛ فإن السهو فى الأفعال غير مناقض للنبوة ، ولا قادح فيها، بخلاف الأقوال فى البلاغ . (٤) فى قوله : لم أنس ولم تقصر .

(٥) هذا الفعل : أى سلامه مقتصرا على ركعتين . فى هذه الصورة : صورة النسيان .

(٦) لمن اعتراه : لمن عرض له ووقع منه . مثله : مثل هذا الفعل؛ ليقتدى به .

(٧) قال فى نسيم الرياض : وقد قال العلامة الملائى : إن هذا القول خطأ ، لأنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن نفسه بوقوع النسيان منه فى حديث ابن مسعود المتفق عليه ، إنما أنا بشر أنسى كما تنسون . (٨) من الأفعال كسهوه فى الصلاة .

(٩) حين قال : كل ذلك لم يكن ، مع أن بعضه كان وحصل .

(١٠) وقع هذا الإنـكار ظاهرا لتصريحه به ، وباطنا لاعتقاده له ؛ إذ لم يوح إليه خلافه وما ينطق عن الهوى .

(١١) هذا صدق مطابق للواقع، لأنه فى نفس الأمر لم يظن أنه نسى، ولم يخطر ذلك بباله.

ووَجْهٌ ثانٍ : أنَّ قولَه : ولم أَنْسَ ـ راجعٌ إلى السلام ؛ أى إنى سلمتُ قَصْداً، وسهوتُ عن العَدَدِ ؛ أى لم أَسْهُ فى نَفْس السلام ؛ وهذا محتَملٌ ؛ وفيه بُعْدٌ .

ووَجْهٌ ثالث ـ وهو أَبعَدُها ـ ما ذهب إليه بعضهم ، وإن احتمله اللفظُ من قوله : كلُّ ذلك لم يكن : أى لم يجتمع القَصْرُ والنسيان ؛ بل كان أحدهما[(١)] .

ومفهومُ اللفظ خلافُه مع الرواية الأخرى الصحيحة ، وهو قولُه : ما قُصِرَت الصلاةُ وما نسيتُ .

هذا ما رأيتُ فيه[(٢)] لأئمتنا ؛ وكلٌّ مِنْ هذه الوجوه محتَمل للفظ على بُعْدِ بعضها وتعسُّف الآخر[(٣)] منها .

قال القاضى أبو الفضل رحمه الله : والذى أقولُ ـ ويظهرُ لى أنه أقربُ من هذه الوجوه كلِّها ـ أن قوله صلى اللهُ عليه وسلم : لم أَنْس إنكارٌ للَّفظِ الذى نفاهُ عن نَفْسِه ، وأنكرهُ على غيره بقوله : بئس ما لِأَحدكم أَنْ يقول : نَسيتُ آيةَ كذا وكذا، ولكنه نُسِّيَ[(٤)] .

وبقوله فى بعض روايات الحديثِ الآخر[(٥)] : لستُ أَنسى ، ولكن أُنَسَّى[(٦)] .

فلما قال له السائلُ : أَقُصِرت الصلاة أم نسيتَ ؟ أنكر قَصْرَها كما كان ، ونِسيانَه هو مِنْ قِبَلِ نَفْسه[(٧)] ، وإنه إنْ كان جرى شىء من ذلك فقَدْ نُسِّيَ حتى سأل

---

(١) أحدهما : هو النسيان . (٢) فيه : فى الحديث المتقدم .

(٣) تعسف الآخر منها : تكلفه وبعده عن الطريق المستقيم .

(٤) نسى : أنساه الله ، لأنه فعل الله لا فعله ؛ فلا ينبغى إضافته له،فأراد إرشادهم إلى نسبة الأفعال لخالقها وإقرارهم بالعبودية والاستسلام. والحديث فى مسلم ، والبخارى : صحيح مسلم : ٥٤٤ (٥) رواه مالك فى الموطأ : ١٠٠

(٦) أنسى ، ينسينى الله لحكمة ، كالتشريع وتعليم الأمة .

(٧) كما كان : تحقق فى الواقع . من قبل نفسه : أى إنه فعل ذلك بكسبه ، وتعاطى أسبابه من غير إيجاد الله تعالى فيه ، وخلقه لما لم يكن فى جبلته كغيره .

غَيْرَه[١]؛فتحقَّقَ أنه نُسِّىَ ، وأُجْرِى عليه ذلك [٢٠٣] لِيَسُنَّ ؛ فقوله على هذا : لم أَنسَ ولم تُقْصَر؛ وكلُّ ذلك لم يَكُنْ ـ صِدْقٌ وحَقٌّ ؛لم تُقْصر،ولم يَنْسَ حقيقةً[٢]، ولـكنه نُسِّىَ .

وَوَجْهٌ آخر استَثَرْتُه[٣] من كلامِ بعض المشايخ ؛ وذلكَ أنه قال[٤] : إنّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم كان يَسْهُو ولا يَنْسى[٥] ؛ ولذلك نَفَى عن نَفْسه النِّسْيان ؛ قال : لأَنَّ النّسْيان غَفْلَةٌ وآفة؛ والسّهْو إنما هو شُغْلُ بالٍ ؛ قال : فكان النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم يَسْهُو فى صلاته ولا يَغْفُل عنها ؛ وكان يَشْغَله عن حركات الصلاة ما فى الصلاة ، شُغْلاً بها لا غَفْلةً عنها .

فهذا إنْ تُحُقِّق على هذا المعنى لم يكُنْ فى قوله : ما قُصِرَتْ ولا نَسيتُ خُلْف[٦] فى قولٍ .

[وعندى أنَّ قولَه : ما قُصِرت الصلاةُ وما نَسِيت بمعنى التَّرْك الذى هو أَحَدُ وَجْهى[٧] النسيان،أراد ـ واللهُ أعلم ـ أَنى لم أُسَلِّم من رَكْعتين تاركا لإكمال الصلاة، ولـكنى نسيتُ[٨]، ولم يكن من تلقاء نَفْسى .

(١) سأل غيره من الصحابة الحاضرين عنه بقوله: أحق ما يقوله ذواليدين ؟ فقالوا : نعم.

(٢) لم تقصر الصلاة حقيقة فى نفس الأمر ، ولم أنس نسيانا صدر منى صدورا حقيقيا ، وأنا الفاعل له صورة ، وإنما الفاعل له حقيقةهو الله، وأنا آلة له نسبته إلى كنسبة القطع للسكين كما هو مذهب الأشعرى فى أفعال العباد المضافة إليهم .

(٣) استثرته : استخرجته بفهمى . (٤) القائل بعض المشايخ .

(٥) قال الخفاجى : لأن السهو ما يقع بأدنى غفلة،ويتنبه له بأدنى تنبيه ، والنسيان : مايزول عن الحافظة بالكلية حتى يحتاج لتذكير كثير .

(٦) قال الخفاجى : وهذا مخالف لما روى من قوله صلى الله عليه وسلم:« إنى أنسى كما تنسون» ـ كما تقدم . (٧) أحد وجهى النسيان : أحد معنييه .

(٨) نسيت : أى سهوت عن إتمامها ؛ والمنفى فى كلامه الترك عمدا ؛ ولم يكن ترك الإتمام من تلقاء نفسى .

والدليلُ على ذلك قوله فى الحديث الصحيح : إنّى لأنسَى أو أُنسَّى لأسُنَّ][1] .

وأما قصّةُ كلماتِ إبراهيم المذكورة فى الحديث[2] أنها كذِباتُه الثلاث المنصوصة[3] ، فى القرآن منها اثنتان : قوله[4] : ﴿ إنى سَقِيم ﴾ . وقوله[5] : ﴿ قالوا أأنتَ فعلْتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرُهم هذا ﴾ . وقوله الملك عن زَوْجته[6] : إنها أُختى – فاعلم – أكرمك اللهُ أنّ هذه كلَّها خارجةٌ عن الكذب؛ لا فى القَصْد ولا فى غيره[7] ؛ وهى داخلةٌ فى باب المعاريض[8] التى فيها مندوحة[9] عن الكذب .

أمّا قولُه : إنى سَقِيم – فقال الحسن[10] وغيره : معناه سأَسْقَم ؛ أى إنّ كلّ مخلوق معرّض لذلك ، فاعتذر لقومه من الخروج معهم إلى عِيدِهم بهذا .

وقيل : بل سَقِيم بما قُدِّر علىّ من الموت[11] .

---

(١) مابين القوسين ليس فى ا ، وهو هامش ب تحت كامة : نسخة .

(٢) الحديث رواه الشيخان عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : إنه لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . . . صحيح البخارى : ٦ – ١٠٦ ، وصحيح مسلم : ١٨٤٠

(٣) المنصوصة : المذكورة صريحا .

(٤) سورة الصافات ، آية ٨٩ (٥) سورة الأنبياء ، آية ٦٢، ٦٣

(٦) زوجته سارة . وهذه الثالثة واردة فى الحديث .

(٧) ولا فى غيره : من السهو والنسيان .

(٨) المعاريض : خلاف التصريح ، بأن يتكلم بما يوهم خلاف مراده ؛ كقوله أختى المحتمل لمعنيين : هما أنها أخته حقيقة ، أو أنها أخته فى الإسلام .

(٩) فيها مندوحة عن الكذب ؛ أى فى المعاريض سعة بها عن الكذب ، أى فى سعة القول مايغنى عن تعمد الكذب ؛ فهو صدق لا كذب فيه .

(١٠) الحسن : هو الحسن البصرى .

(١١) يعنى أنه أراد بسقيم أنه حزين مشغول الفكر بعلمه أنه لابد من الموت . والغم : مرض من الأمراض القلبية ، ومن كان كذلك لايليق به أن يفرح بالأعياد ، ولا يكون فى حال اللهو واللعب .

وقيل : سَقِيم القَلْبِ بما أشاهِدُه من كُفركم وعِنادِكم .

وقيل : بل كانت الُحمَّى تأخُذُه عند طلوع نَجْمٍ معلومٍ ؛ فلما رآه اعتذر بعادته[1] .

وكلُّ هذا ليس فيه كَذِبٌ ؛ بل هو خَبَرٌ صحيح صِدْق .

وقيل : بل عَرَّضَ بسقْمِ حجّته عليهم[2] ،وضَعْف ما أراد بيانَه لهم مِنْ جهة النجومِ التى كانوا يشتغِلون بها[3] ، وأنه أثناء نظره فى ذلك ، وقَبْل استقامةِ حجّته عليهم فى حال سَقَم ومَرَضِ حالٍ ، مع أنه لم يشكّ هو ولا ضَعُفَ إيمانُه ، ولكنه ضَعفَ فى استدلالِه عليهم وسقم نظَرُه[4] ، كما يُقال : حجّة سَقِيمةٌ ، ونَظرٌ معلول[5] ، حتى ألهمه اللهُ باستدلاله وصحةِ حجّتِه عليهم بالكواكب والشمس والقَمر - ما نَصَّه اللهُ تعالى؛وقد قدَّمْنا بيانَه .

وأما قولُه : ﴿ بل فعله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون[6] ﴾ - فإنّه علّق خَبَرَه بشَرْط نُطقه ، كأنه قال : إنْ كان ينطقُ فهو فَعَله على طريق التبكيت[7] لقومه . وهذا صدقٌ أيضا ، ولا خُلْف فيه .

وما قولُه : أُخْتى - فقد بيّن فى الحديث[8] ، وقال : فإنكِ أُختى فى الإسلام ؛

---

(١) بعادته : من السقم الذى يعرض له إذا طلع ذلك النجم .

(٢) بسقم حجته : بضعف دليله الذى أقامه عليهم .

(٣) يشتغلون بها : أى بعبادتها وتعظيمها وإسناد الأمور إليها .

(٤) نظره : ما ناظرهم به حتى لم يتم حجته التى أقامها عليهم .

(٥) ونظر معلول : وفكر ودليل ضعيف .

(٦) وكبير الأصنام لم يفعل ، ولا قدرة له على الفعل ، فهو مخالف للواقع .

(٧) فهو يوبخهم بأنهم يعبدون الجماد الذى لا ينطق ولا يقدر على شىء ، فلو قدروا دفعوا عن أنفسهم ، ففيه تجهيل لهم واستهزاء بهم ، لتعظيمهم ما لا يضر ولا ينفع .

(٨) الحديث رواه الشيخان عن أبى هريرة. صحيح مسلم: ١٨٤٠ ، وسنن الترمذى: ٥-٣٢١

وهو صِدْقٌ؛ والله تعالى يقول[1] : ﴿ إنما المؤمنون إخْوَةٌ ﴾ .

فإنْ قلتَ : فهذا النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم قد سمّاها كَذِبات ، وقال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . وقال ـ فى حديث الشفاعة[2] ؛ ويذكر كذباته ـ فمعناه[3] أنه لم يتكلّم بكلامٍ صورتُه صورةُ الكذِب وإنْ كان حقا فى الباطن إلّا هذه الكلمات .

ولمّا كان مفهومُ ظاهرِها خلافَ باطنها أشفق[4] إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مؤاخذته بها .

وأما الحديث[5] : كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم إذا أراد غَزْوَةً وَرَّى[6] بغيرها ـ فليس فيه خُلْفٌ[7] فى القَوْلِ ؛ إنما هو سَتْرُ مَقْصدهِ ، لئلا يأخُذَ عدوُّه حِذْرَه ؛ وكَتْمَ وَجْهَ ذهابه بذكر السؤال عن موضع آخر والبحثِ عن أخباره

(١) سورة الحجرات ، آية ١٠ ، أى إخوة فى الدين . وفى الحديث : المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يخذله .

(٢) يشير إلى مافي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام ويقولون له : أنت نبي الله وخليله اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ! فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب قبله ولا بعده مثله ؛ وإنى قد كنت كذبت ثلاث كذبات ـ ويذكرهن؛ اذهبوا إلى غيرى .. الحديث . فقد صرح الخليل نفسه بأن هذا وقع؛ كذبا منه . صحيح البخارى : ٦ ـ ١٠٦

(٣) فمعناه : معنى قوله صلى الله عليه وسلم : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات .

(٤) أشفق : خاف ـ وهذه العبارة جواب عما فى حديث الشفاعة .

قال فى نسيم الرياض : والحاصل أنه لم يصدر عنه كذب ؛ وإنما سمى كذبا باعتبار ظاهر العبارة قبل التأمل فيها من سامعها ، وإنما خاف إبراهيم ذلك لجلالة قدره، لالأنها معصية صدرت منه.

(٥) رواه الشيخان عن كعب بن مالك : صحيح مسلم : ٢١٢٨

(٦) التورية : أن يقول مايظهر منه خلاف مراده ، ويحتمله احتمالا بعيدا .

(٧) خلف فى القول : ليس فى قوله ذلك كذب .

والتعريض بذِكْرِه ، لا أنّه [٢٠٤] يقول : تجهَّزُوا إلى غزْوةِ كذا ، أوْ وجْهتُنا إلى موضع كذا خلافَ مَقْصدِهِ ؛ فهذا لم يَكُنْ ؛ والأولُ[١] ليس فيه خَبَر يَدْخُلُه الخلفُ.

فإن قلتَ : فما معنى قولِ موسى عليه السلامُ ـ وقد سُئل : أيُّ الناسِ أعلمُ ؟ فقال : أنا أَعْلَمُ[٢] ؛ فعتب اللهُ عليه ذلك[٣] ؛ إذْ لم يَرُدَّ العلم إليه ـ الحديثَ ؛ وفيه قال[٤] : بل عَبْدٌ لنا بمَجْمع البَحْرَينِ أَعْلَمُ منك .

وهذا خَبَرٌ قد أنبأنا اللهُ أنه[٥] ليس كذلك .

فاعلَمْ أنه قد وقع فى هذا الحديث من بعض طُرُقه الصحيحةِ ، عن ابن عباس : هل تعلمُ أحداً أعلمَ منك[٦] ؟

فإذا كان جوابُه على عِلْمه فهو خَبَرٌ حقٌّ وصِدْقٌ لا خُلْف فيه ولا شُبْهة .

وعلى الطريق الآخر[٧] فمَحْمَلُه على ظَنِّه ومُعْتَقَدِهِ ، كما لو صرَّحَ[٨] به ؛ لأنَّ

---

(١) الأول : هو سؤاله عن غير مقصده . ليس فيه خبر يدخله الخلف : أى يعرض له كذب ، لعدم مطابقته للواقع ، وإنما هو تعريض وإيهام بغير مقصده لا ضير فيه .

قال الخفاجى : وهذا هو الأغلب من أحواله ، وقد يقتضى الحال خلافه ، كما ورد فى الصحيحين : لم يكن صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فى حر شديد إلى مكان بعيد وعدو كثير فجلى للمسلمين أمرها ليتأهبوا لها ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد .

(٢) هذا الحديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ١٨٤٧. أنا أعلم : أى ممن على وجه الأرض جميعا . (٣) عتب عليه ذلك : لامه بسبب ذلك الذى قاله : أنا أعلم .

(٤) قال : القائل هو الله لموسى . والعبد : هو الخضر . والبحران : بحر الأردن ، وبحر القلزم . وقيل بحر المغرب وبحرا لزقاق . وقيل بحر الروم وفارس .

(٥) وهذا : أى قول موسى . ليس كذلك : فيكون خلفا منه ، وهو معصوم عن مثله .

(٦) فالسؤال عما يعلمه ، لا عما فى الواقع .

(٧) الطريق الآخر الذى فيه إطلاق أعلميته من غير تقييد بعلمه واعتقاده المفيد لنفى الأعلمية .

(٨) كأنه قال : أنا أعلم فى ظنى أو معتقدى ، لا فى نفس الأ ر ، وعلى هذا لا يرد عليه شىء .

حالَه فى النبوّة والاصطفاء يقتضى ذلك[١] ؛ فيكون إخبارُه بذلك أيضا عن اعتقادِه وحِسْبانه[٢] صِدْقاً لا خُلْفَ فيه .

وقد يُرِيدُ بقوله : أنا أعلم بما تَقْتَضِيه[٣] وظائفُ النبوة من علوم التوحيد ، وأمورِ الشريعة ، وسياسة الأُمة ، ويكون الخَضِر أعلمَ منه بأمورٍ[٤] أُخَر مما لا يعلمُه أحَدٌ إلّا بإعلامِ الله من علوم غَيْبِه ؛ كالقصص[٥] المذكورة فى خبرهما ، فكان موسى عليه السلام أَعْلَمَ على الجملة بما تقدَّمَ . وهذا[٦] أعلمُ على الخصوص بما أُعْلِم .

ويَدُلّ عليه قولُه تعالى[٧] : ﴿ وعلّمناهُ مِنْ لدُنّا عِلْما ﴾ .

وعتْبُ الله ذلكَ عليه ـ فيما قاله العلماء ـ إنـكار هذا القَوْلِ عليه ، لأنه لم يَرُدّ العِلْمَ إليه ، كما قالت الملائكةُ[٨] : ﴿ لا عِلْمَ لنا إلّا ما عَلَّمْتَنا ﴾ ، أو لأنه لم يَرْضَ قولَه شَرْعاً[٩] ، وذلك ـ والله أعلم ـ لئلا يَقْتَدِىَ به فيه مَنْ لم يَبْلُغْ كمَالَه فى تَزْكيةِ نَفْسِه وعُلُوّ دَرَجتِهِ من أُمتِه ؛ فيَهْلِك لِما تضمّنه مِنْ مَدْحِ الإنسانِ نَفْسَه ،

---

(١) أى إنما اختاره الله لأنه أعلم أهل عصره ، إذ لو لم يكن كذلك لم يختره لتبليغ رسالته وسياسة خلقه ورجوعهم إليه فى كل أمورهم ، وهو كليمه وأمين وحيه ، ومثله لايكون دون غيره أو مساويا فى العلم .

ويحتمل أن معناه أن نبوته واصطفاءه يقتضيان أى يستلزمان ألا يقول قولا غير مطابق للواقع ، فيحمل كلامه على مايطابقه ، وإن لم يكن فيه مايدل عليه .

(٢) حسبانه : ظنه . (٣) تقتضيه : تستلزمه .

(٤) بأمور أخر : غير الشريعة والسياسة . . .

(٥) قصة موسى والخضر فى سورة الـكهف . (٦) وهذا : أى الخضر .

(٧) ويدل عليه : أى على أنه أعلم بعلم اختص به . سورة الـكهف ، آية ٦٥

(٨) سورة البقرة ، آية ٣٢

(٩) لترك الأولى ، وإن كان صادقا فى مقاله هذا . والأولى أن يرد العلم إلى الله .

ويُورِثُه[١] ذلك مِن الكِبْرِ والعُجْب والتعاطى[٢] والدّعوى ؛ وإنْ نُزِّهَ عن هذه الرذائلِ[٣] الأنبياء فغيرُهم بمَدْرَجة سبيلها ودَرْكِ لَيْلِها[٤] إلّا مَنْ عَصمهُ اللهُ ؛ فالتحفُّظُ منها[٥] أوْلَى لنفسه ، وليُقْتدى به ؛ ولذا قال صلّى اللهُ عليه وسلم ـ تحفُّظا من مِثْل هذا مما قد أُعْلِمَ به : أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدم ولا فَخْرَ[٦] .

وهذا الحديث[٧] إحْدَى حُجَجِ القائلين بنُبُوّة الخضر ؛ لقوله فيه : أنا أعلمُ من موسى . ولا يكون الولىُّ أعلمَ من النبىّ .

وأما الأنبياء فيتفاضلونَ فى المعارف .

وبقولهِ[٨] : ﴿ وما فعلتهُ عن أمْرِى ﴾ ؛ فدلّ أنه بوَحْىٍ . ومَنْ قال : إنه ليس بنبىّ قال : يحتملُ أن يكونَ فعلَه بأَمْرِ نبىٍّ آخر .

وهذا[٩] يضعَّف ؛ لأنه ما عَلِمْنا أنه كان فى زمَنِ موسى نبىٌّ غيره إلا أخاه هارون ؛ وما نقَلَ أحدٌ من أهلِ الأخبار فى ذلك شيئا يُعَوّلُ عليه .

---

(١) ويورثه : يكسبه ويعقبه مايتصف به .

(٢) التعاطى : الأخذ فى تزكية نفسه .

(٣) هذه الرذائل : الصفات الذميمة .

(٤) فغيرهم بمدرجة سبيلها : أى غير الأنبياء يتصف بها ، ولا ينزه عنها ، لاستعداده لها وقبول طبعه لها. والسبيل: الطريق . والمدرجة : المدخل والمسلك . ودرك ليلها: شبه مايعرض له من الصفات الذميمة بظلمة الليل التى تغشاه ؛ والمراد ما لا بد من آثار تلك الصفات .

(٥) التحفظ : الاحتراز . منها : أى من هذه الصفات .

(٦) ولا فخر : أى لم أقل هذا افتخارا وعجبا ؛ وإنما هو تحدث بما أنعم الله به علىّ ؛ أو أنا لا أفخر بهذا فإن الله أنعم على بما هو أجل منه. والحديث فى سنن الترمذى : ٥ ـ ٥٨٥

(٧) وهذا الحديث المروى فى قصة موسى والخضر .

(٨) بقوله : أى الخضر . سورة الكهف ، آية ٨٣ . عن أمرى : أى بما أمرته نفسى ، فليس برأيى واجتهادى .

(٩) وهذا الجواب . يضعف : أى يحكم بضعفه .

وإذا جعلنا « أعلمَ منك » ليس على العموم ؛ وإنما هو على الخصوص ، وفى قَضَايا مُعَيَّنة ـ لم يحتَجْ إلى إثباتِ نُبوَّةِ الخضر ؛ ولهذا قال بعضُ الشيوخ : كان موسى أعلمَ مِنَ الخَضِر فيما أخذ عن اللهِ ، والخضرُ أعلمُ فيما رُفِـع[١] إليه من موسى .

وقال آخر : إنما أُلجئ موسى إلى الخَضِر للتّأديبِ[٢] لا لِلتّعليم .

فصـــل

وأمّا ما يتعلقُ بالجَوارِح من الأعمال[٣] ، ولا يخرجُ من جُملتها القولُ باللسانِ[٤] فيما عدا الخبرَ الذى[٥] وقع فيه الـكلامُ والاعتقادُ بالقَلْبِ فيما عَدَا التوحيد[٦] ، وما قدمناه مِنْ مَعَارفه المختصة به[٧] ـ فأجمع المسلمون على عِصْمَةِ الأنبياء من الفَوَاحشِ والـكبائر الموبقات[٨] . [٢٠٥] ومستند الجمهور فى ذلك الإجماعُ الذى ذكرناه .

---

(١) رفع إليه : أى فيما جعله الله تعالى منوطا به منتهيا إليه علمه مما غيب علمه عن غيره .

(٢) للتأديب : أى ليؤدبه الله تعالى حتى لا ينسب لنفسه الأعلمية ، وإن كان صادقا فى مقاله ومناسبا لمقامه .

(٣) الجوارح : الأعضاء التى يكسب بها الإنسان ويفعل مايريد ، أى ما يتعلق بعصمتهم فى أفعالهم من الأعمال الصادرة بواسطتها .

(٤) لأنه من الأعضاء .

(٥) فيما عدا الخبر : أى الإخبار بما سبيله البلاغ وغيره .

(٦) فيما عدا التوحيد والإيمان ومايتعلق بالوحى .

(٧) به : بالنبى صلى الله عليه وسلم .

(٨) الفواحش : الذنوب التى فحش قبحها، وحرم على هذه الأمة وغيرها (شرح القارى:٢ـ ٢٥٧). الموبقات : المهلـكات ؛ وإهلاكها : بإيقاعها فى العذاب فى الدنيا بالقتل ، وفى الآخرة بالعذاب الأليم .

قال الخفاجى : وحاصله عصمتهم فى أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم قبل النبوة وبعدها من الـكبائر المتوعد عليها .

وهو مذهبُ القاضى أبى بكر؛ ومَنَعها[١] غَيْرُه بدليلِ العَقْل مع الإجماع ؛ وهو قولُ الكافّة . واختاره الأستاذ أبو إسحاق[٢] .

وكذلك لا خِلَافَ أنهم معصومون مِنْ كِتْمانِ الرِّسالةِ والتقصيرِ فى التبليغ ؛ لأَنَّ كُلَّ ذلك تَقْتَضِى العصمةَ منه المعجزةُ[٣] ، مع الإجماعِ على ذلك من الكافة .

[والجمهورُ قائلون بأنهم معصومون[٤] من ذلك مِنْ قِبَلِ اللهِ[٥] ، معتصمون

---

(١) ومنعها : أى الكبائر .

(٢) قال الخفاجى : فمذهب الجمهور أن عصمتهم عن الكبائر بدليل سمعى . وذهبت طائفة إلى أنه بدليل سمعى وعقلى . والمشهور عن الأشاعرة أن العصمة - فيما وراء التبليغ - غير واجبة عقلا لدلالة المعجزة عليه . وأما ما طريقه التبليغ ودعوى الرسالة فالمعجزة دالة على عصمتهم فيه، وذهب المعتزلة إلى وجوب عصمتهم عن الكبائر عقلا بناء على قاعدتهم فى الحسن والقبح العقليين ووجوب رعاية الأصلح .

والدليل العقلى من وجوه ؛ منها أنا أمرنا باتباعهم ، فلو صدر عنهم ذلك وجب اتباعهم فيما فعلوه ، فيلزم اجتماع الحرمة والوجوب . وأيضا لو صدر عنهم ذلك كانوا معضبين أشد العذاب؛ لأن عليهم وزرهم ووزر من اقتدى بهم ، وكانت شهادتهم غير مقبولة ، وقد جعلهم الله شهداء على غيرهم . . .

(٣) أى تدل المعجزة على لزومه .

(٤) والجمهور . . . : أكثر الناس ومعظمهم على أنهم لا يكتمون شيئا من الوحى الذى أمروا بتبليغه . وهذا ورد فى حديث رواه مسلم عن عائشة قالت : من حدثكم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحى فقد كذب . والله يقول : «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . ولو كان كاتما شيئا من الوحى لكتم قوله : وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (سورة الأحزاب ، آية ٣٧) . وهذه الآية نزلت فى شأن زينب بنت جحش : سنن الترمذى : ٥ - ٣٥٤

(٥) من قبل الله : أى خلق فى جبتهم العصمة .

باختيارِهم وكَسْبِهم[١] ، إلا حُسينا النجار[٢]؛فإنه قال : لا قدرةَ لهم على المعاصى أصلا][٣] .

وأمّا الصغائر فجوّزَهَا جماعةٌ من السّلَف وغيرِهم على الأنبياء ؛ وهو مَذْهَبُ أبى جعفر الطبرى وغيرِه من الفقهاء والمُحَدّثين والمتـكلمين . وسنُورِدُ بَعْدَ هذا ما احتجُّوا به .

وذهبت طائفةٌ أخرى إلى الوقْفِ[٤]، وقالوا : العَقْلُ لايُحيل[٥] وقوعَها منهم؛ ولم يأتِ فى الشّرْعِ قاطِـعٌ بأحد الوجهين[٦] .

وذهبت طائفةٌ أُخرى من المحقِّقين والمتـكلّمين إلى عِصْمَتِهم من الصغائر كعِصْمَتِهم من الـكبائر ؛ قالوا : لاختلافِ الناسِ فى الصغائر وتَعْيِينها[٧] من الـكبائر وإشـكالِ ذلك ، وقولِ ابن عباس وغَيْرِه : إن كلَّ ما عُصِىَ اللهُ به فهو كبيرةٌ ، وإنه إنما سُمِّىَ منها الصغيرَ[٨] بالإضافة إلى ما هو أكْبَرُ منه ؛ ومخالفةُ البارى فى أىِّ أمْرٍ كان يجبُ كونه كبيرة .

---

(١) معتصمون : متمسكون . باختيارهم وكسبهم : لا أنهم مضطرون لعدم قدرتهم على خلافه .

(٢) تنسب إليه الطائفة النجارية ، وهم فرق من المبتدعة الضالة وافقوا أهل السنة فى بعض أصولهم ووافقوا القدرية فى نفس الرؤية ، ووافقوا المعتزلة فى بعض المسائل(نسيم الرياض : ٤ ـ ١٥٨) وفى ب : إلا حسنا .

(٣) مابين القوسين ليس فى ا .

(٤) الوقف : أى التوقف وعدم الجزم .

(٥) لايحيل وقوعها : لايعده محالا .

(٦) قاطع : نص صريح ودليل قطعى . بأحد الوجهين : الجـــواز وعدمه فى صدور الصغائر منهم .

(٧) وتعيينها : وتمييزها .

(٨) أى أطلق عليه صغيرة .

قال القاضى أبو محمد عبدالوهاب[1] : لا يمكنُ أن يُقال : إنّ فى معاصى الله صغيرةً إلا على معنى أنها تُغتَفَر باجتنابِ الكبائر ، ولا يكون لها حُكْمٌ[2] مع ذلك ، بخلاف الكبائر إذا لم يُتَبْ منها فلا يُحْبِطُها[3] شىء . والمشيئةُ فى العَفْو عنها إلى اللهِ تعالى ؛ وهو قولُ القاضى أبى بكر وجماعةِ أئمة الأشعرية وكثيرٍ من أئمة الفقهاء .

[قال القاضى رحمه الله :و][4] قال بعضُ أئمتنا : ولا يجبُ على القولين[5] أن يُخْتلفَ أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها؛إذ يُلحقها ذلك بالكبائر[6] ؛ ولا فى صغيرةٍ[7] أدّتْ إلى إزالةِ الحِشْمَةِ ، وأسقطت المروءة ، وأوجبت الإزراء والخساسة[8] ؛ فهذا أيضا مِمّا يُعْصَمُ عنه الأنبياء إجماعا ؛ لأن مِثْلَ هذا يَحُطُّ مَنْصِبَهُ المُتَّسِمِ به ، ويُزْرِى بصاحبه ، ويُنَفِّرُ القلوبَ عنه ؛ والأنبياء منزّهون عن ذلك . بل يُلْحَق[9] بهذا ما كان مِنْ قِبَل المُبَاح ؛ فأدّى إلى مِثْله ؛ لخروجه بما أدّى

---

(١) المالكى البغدادى ، وهو من شعراء اليتيمة . ارتحل إلى مصر ، وتوفى بها ، ودفن قريبا من الإمام الشافعى سنة ٤٠٢ هـ .

(٢) أى لايعتد بها ويؤاخذ فاعلها بعقابه عليها .

(٣) لايحبطها شىء : لايمحوها .

(٤) مابين القوسين ليس فى ا .

(٥) أئمتنا : يعنى المالكية . على القولين : العصمة عن الصغائر وعدمها .

(٦) ذلك : المراد الكثرة والتكرار . ويلحقها بالكبائر: لما فيه من عدم المبالاة بالمعاصى. قال الخفاجى : قيل إن المختار المفتى به أن من أكثر من فعل الصغائر سواء كانت من نوع واحد أو من أنواع لايكون فاسقا ولا مرتكبا للكبيرة إن غلبت طاعاته على معاصيه .

(٧) ولا فى صغيرة : أى لا ينبغى أن يختلف فى صغيرة . . . والحشمة : الحياء من الناس؛ لأنها مما يسترذل وتنقبض النفوس منه .

(٨) الإزراء : النقص . والخساسة : الدناءة .

(٩) بهذا : بالصغائر التى عصمهم الله منها .

إليه عن اسْمِ المباحِ إلى الحظر[١] .

وقد ذهب بعضُهم إلى عِصْمتهم من مُوَاقَعَة[٢] المكروه قَصْدا .

وقد استدلّ بعضُ الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمَصِير إلى امتثالِ أفعالهم[٣] ، واتِّباعِ آثارهم وسِيَرهم مطلقا[٤] .

وجمهورُ الفقهاء على ذلك[٥] من أصحابِ مالكٍ والشافعيّ وأبى حنيفة من غير التزامِ قرينةٍ[٦] ، بل مطلقا عند بعضهم ، وإن اختلفوا فى حُكْمِ ذلك[٧] .

وحكى ابنُ خُوَيْزْ مَنْدَا ذُو[٨] أبو الفرج[٨] ، عن مالك ، التزامَ[٩] ذلك

---

(١) الحظر : المنع ، يعنى الحرمة . قال الخفاجى : وفي الشرح الجديد أنه يؤدى إلى الإزراء بمرتكبه ، والإزراء بالأنبياء كفر ، ففعله يؤدى إلى أن يزرى بهم ، فيحرم عليهم لاحتمال أن يراهم من يجهل مقامهم فيزدرى بهم فيقع فى الشقاء الأبدى .

(٢) مواقعة المكروه : الوقوع فيه بأن يفعله .

(٣) بالمصير إلى امتثال أفعالهم : أى فعل مثلها اقتداء بهم ؛ فلو صدر ذلك منهم أو جاز فعله الناس وظنوه مشروعا ؛ فلذا منعوه منهم وإن كانت صغيرة ؛ لأن ذنب المعظم عظيم وإن قل .

(٤) مطلقا : سواء كانت ضرورية أو جبلية ، كالقيام والقعود والأكل والشرب ؛ فإنا نتأسى بهم فيه وإن كان مباحا ، لأن الأصل فى أفعالهم أنها حسنة شرعية فينبغى اتباعهم فى كل ما يصدر منهم .

قال الخفاجى : وقد اختلف الشافعية فى اتباعه صلى الله عليه وسلم فيما علمنا أنه ليس تشريعا : هل يستحب أم لا ؟ كنومه واضطجاعه بين سنة الفجر وفرضه .

(٥) على ذلك : على استحباب اتباع آثارهم مطلقا إن لم نعلم أنه خصوصية لهم .

(٦) التزام قرينة : قيام قرينة تدل على أنه فعله للتشريع والاقتداء به فيه .

(٧) فذهب الغزالى إلى أنه يستحب اتباعه فى الأمور الجبلية كغيرها ؛ وذهب إليه كثير من الفقهاء والمحدثين . وقال غيرهم : إنه مباح أحسن من غيره . وفى قول ضعيف : إنه واجب .

(٨) من أهل البصرة . وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله من أئمة المالكية ، توفى فى حدود الأربعمائة . قال القارى (٢ — ٢٥٩) : وهو ضعيف فى الرواية . وأبو الفرج هو عمر بن محمد بن عمر الليثى المالكى صاحب كتاب الحاوى فى فقه مالك ، توفى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين وثلاثمائة . وضبط خويز منداذ فى ا .

(٩) التزام ذلك : اتباع أفعاله وآثاره .

وجوبا ، وهو قولُ الأبهرى وابن القصار وأكثر أصحابنا .

وقولُ أكثرِ أهلِ العراقِ وابن سُرَيج، والإصْطَخرِىّ ، وابن خَيْران من الشافعية . وأكثرُ الشافعية على أن ذلك نَدْبٌ[١] .

وذهبت طائفةٌ إلى الإباحة .

وقيَّد بعضُهم الاتّباعَ[٢] فيما كان من الأمور الدينية وعُلِمَ به مَقْصِدُ القُرْبة .

ومَنْ قال بالإباحة فى أفعاله لم يُقَيِّدْ . قال : فلو جوَّزْنا عليهم الصغائرَ لم يمكن الاقتداء بهم فى أفعالهم ؛ إذ ليس كلُّ فِعْلٍ من أفعاله يتميَّزُ مَقْصِدُه [٢٠٦] من القُرْبَةِ[٣] أو الإباحةِ ،أو الحظْرِ ، أو المعصية[٤] . ولا يصحُّ أن يُؤْمَر المرء بامتثالِ أمْرٍ[٥] لعلَّه معصيةٌ ، لا سيّما على مَنْ يَرَى مِنَ الأصوليين تقديمَ الفعل على القولِ إذا تعارضَا[٦] .

ونَزِيدُ هذا حجّةً بأن نقول : مَنْ جوَّز الصغائرَ ومَنْ نفاها[٧] عن نبيِّنا صلى اللهُ عليه وسلم مُجْمِعون على أنه لا يُقِرُّ على مُنْكَر مِنْ قولٍ أو فِعْلٍ، وأنه متى رأى شيئاً فسكت عنه صلى الله عليه وسلم دَلّ على جوازِه ، فكيف يكون هذا حاله فى حقّ غيره ، ثم يُجَوِّزُ وقوعه منه فى نفسه[٨] .

---

(١) ندب : أى مستحب لا واجب ولا مباح .

(٢) أى اتباعه صلى الله عليه وسلم فى أفعاله وجوبا أو ندبا .

(٣) مقصده من القربة : قصده التقرب إلى الله بالعبادة .

(٤) الحظر : المنع شرعا ، لكونه مكروها أو خلاف الأولى . أو المعصية :أو الحرام .

(٥) بامتثال أمر من الأمور فعله النبى صلى الله عليه وسلم وصدر منه .

(٦) المعارضة : المخالفة ومنافاة أحدهما للآخر .

(٧) ومن نفاها : قال بعدم جوازها .

(٨) وذلك بأن يرضى لنفسه،مع شرفها وعصمتها،ما لا يرضاه لغيره من أتباعه .

وعلى هذا المَأخَذ[1] تجبُ عصمتُهم من مُواقعةِ المكروهِ ، كما قيل .
وإذِ الحظرُ أو النَّدبُ على الاقتداء بفعلِه يُنافِي الزَّجرَ والنَّهيَ عن فِعلِ المكروه[2] .

وأيضًا فقد عُلِم مِنْ دِينِ الصحابةِ قَطْعا[3] الاقتداء بأفعال النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم كيف توجَّهَتْ ، ومن كل فَنّ كالاقتداء بأقواله[4] ؛ فقد نَبَذُوا[5] خواتيمَهم حين نبذ خاتَمه[6] ، وخلعوا نِعَالَهم حين خَلَع[7] ؛ واحتجاجُهم برؤية ابْنِ عُمَر إياه

---

(١) وعلى هذا المأخذ الدال على أنهم لايقرون غيرهم على المعاصي فضلا عن أنفسهم . . . يجب عصمتهم .

(٢) قال الخفاجي : وتوضيحه بما يشفي الغليل : أنه يجب عصمته صلى الله عليه وسلم عن المكروه لما مر من أنه لايرضاه لغيره، فكيف يتصف به هو من غير مقتض ؛ وهذا معنى قوله: وعلى هذا المأخذ . . . ثم بين وجهه بوجه آخر أشار إليه بقوله : وإذ الحظر ؛ أى إذا رأينا النبي صلى الله عليه وسلم فعل فعلا لم ندر حكمه ؛ فقيل : تمتنع مخالفته ، وقيل : يندب اتباعه ، وإلى الأول أشار بالحظر ، وإلى الثانى بالندب ؛ وعلى كل منهما لايفعل مكروها فاعله مزجور .

(٣) دين الصحابة : عادتهم . قطعا : علما لا شك فيه .

(٤) فى كل فن : فى أى نوع كانت من أمور معاشه وحركاته وتكلمه وغير ذلك . بأقواله: فى أوامره ونواهيه ، فلا يفرقون بين قوله وفعله فى الاتباع ، فلو فعل مكروها لزم اتباعه فيه، وهو لايصح .

(٥) نبذوا : طرحوا ورموا .

(٦) هذا إشارة إلى حديث : وهو أنه صلى الله عليه وسلم لما كتب إلى الملوك يدعوهم للإسلام قيل له : إنهم لايقرءون كتابا غير مختوم ؛ فاتخذ خاتما من ذهب للختم ؛ نقشه « محمد رسول الله » ، ثم أوحى إليه بتحريم خواتم الذهب للرجال دون النساء ، فطرحه وهو على المنبر ، واتخذ آخر من فضة : والحديث فى صحيح مسلم : ١٦٥٥ ، ١٦٥٧

(٧) خلعوا نعالهم ، أى فى الصلاة . ورواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه ووضعهما عن يساره ، فلما رأوه ألقوا نعالهم ، فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على هذا ؟ قالوا : رأيناك خلعته فقال : إن جبريل أخبرنى أن بها قذرا . (سنن أبى داود : ١ - ٦٦) . =

جالسا لقضاء حاجته مستقبلا بيت المقدس[١] .

واحتجَّ غَيْرُ واحدٍ منهم فى غير شىء[٢] مما بابُه العبادةُ أو العادة بقوله[٣] : رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم يفعله ؛ وقال : هَلَّا خَبّرتيها أنّى أُقَبِّل وأنَا صائم[٤] ! وقالت عائشة ـ محتجَّة[٥] : كنت أفعلُه أنا ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وغضِبَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم على الذى أخبر بمثل هذا عنه[٦] ؛ وقال:

= قال الخفاجى : ومنه علم أن الصلاة بالنعل إذا علم طهارتها لاتكره .أما حديث :خالفوا اليهود ، فإنهم لايصلون فى نعالهم وخفافهم ـ فلا يدل على استحبابه إلا إذا قصد مخالفة اليهود (سنن أبى داود : ١ ـ ٦٧)

(١) ومما يدل على استحباب الاقتداء بما فعله صلى الله عليه وسلم استدلال الصحابة رضى الله عنهم الوارد فى حديث رواه الشيخان ، عن ابن عمر رضى الله عنه ؛ استدلوا به على أنه يجوز استقبال القبلة واستدبارها بالبول والغائط ؛ قال : رقيت يوما على بيت حفصة ،فرأيته صلى الله عليه وسلم مستقبلا بيت المقدس . واستدل بفعله هذا على جوازه.والحديث فى صحيح مسلم:٢٢٥

(٢) فى غير شىء : فى أشياء كثيرة .

(٣) مما بابه العبادة : أى مما يتعبد به . أو العادة : أى ما اعتادوا . بقوله : قول ابن عمر.

(٤) إشارة إلى حديث فى الموطأ (١ ـ ٢٩١) عن عطاء بن يسار ـ أن رجلا قبل امرأته وهو صائم فى رمضان ، فخاف وأرسل امرأته تسأل أمهات المؤمنين ، فسألت أم سلمة،فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله ؛ فأتته فأخبرته بما قالت . فقال : لسنا كرسول الله ، فأتتها وأخبرتها بما قال زوجها ، فوجدت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: ما لهذه المرأة ؟ فأخبرته أم سلمة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرتيها أنى أفعل ذلك ! فقالت أم سلمة : قد أخبرتها . فذهبت إلى زوجها فأخبرته، فزاده ذلك بشرا .

(٥) فقالت عائشة عندما سئلت عن تقبيل الصائم زوجته. محتجة لجوازه وعدم إفساده الصوم .

(٦) غضب رسول الله على الرجل الصحابى أن أخبرته زوجته بما أفتته به بعض أمهات المؤمنين ؛ فقال الصحابى المخبر بذلك: يحل الله لرسوله ما يشاء، فيجوز أن يكون هذا من خصائصه صلى الله عليه ، فلا يقاس أمر غيره عليه . (والحديث فى الموطأ : ١ ـ ٢٩١) .

يحلُّ اللهُ لرسوله ما يشاء ؛ إنى لأخْشاكم لله وأعلمكم بحدوده[1] .

والآثارُ فى هذا أكثرُ من أنْ نُحيط عليها ، لكنه يُعلم مِنْ مجموعها على القطع اتباعُهم أفعالَه واقتداؤُهم بها . ولو جوّزُوا عليه المخالفةَ فى شىء منها لما اتّسق هذا[2] ، ولنُقِلَ عنهم وظهر بَحْثُهم[3] عن ذلك ، ولمّا أنكَرَ صلّى اللهُ عليه وسلم على الآخَرِ قولَه واعتذارَه بما ذكرناه .

وأمّا المُباحات فجائزٌ وقوعُها منهم ؛ إذ ليس فيها قَدْحٌ[4] ، بل هى مأذون فيها ، وأيديهم كأيدى غيرهم مسلَّطةٌ عليها[5] ، إلا أنّهم بما خُصُّوا به من رَفيع المنزلةِ ، وشُرِحَتْ له صدورُهم من أنوار المعرفة ، واصْطُفُوا به مِنْ تَعلّق هممهم باللهِ والدارِ الآخرة لا يأخذونَ من المباحات إلا الضّرُورات مما يَتَقوَّوْن به على سُلوكِ طريقهم[6] ، وصلاحِ دِينهم ، وضرورةِ دُنياهم ، وما أُخِذَ على هذه السبيل التحق طاعةً ، وصار قُرْبَةً[7] ، كما بيّنّا منه أولَ الكتاب طَرَفا فى خصال نبيّنا صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ فبان لكَ عظيمُ فَضْلِ الله على نبيّنا وعلى سائر أنبيائه عليهم السلامُ بأَنْ جعل أفعالهم قُرُباتٍ وطاعاتٍ بعيدةً عن وَجْه المخالفة ورسْمِ المعصية[8] .

---

(١) فى نسيم الرياض : وهذا كله يدل على اقتدائهم بأفعاله صلى الله عليه وسلم .

(٢) اتسق : انتظم واطرد . هذا : أى اتباعهم أفعاله كلها

(٣) ولظهر بحثهم عن ذلك ؛ أى فتشوا أفعاله ليقتدوا ببعضها ويتركوا بعضها .

(٤) قدح : ذم ونقص حتى تمتنع عليهم .

(٥) أى هم كغيرهم من المكلفين ، لهم فعلها والاتصاف بها من غير حرج عليهم فى فعلها والتصرف فيها .

(٦) سلوك طريقهم : من تبليغ أمانة ربهم ، وما ينفع فى المعاش والمعاد . وصلاح دينهم مما يعين على العبادة .

(٧) أى الأمور المباحة كالأكل والشرب والملبس إذا أخذ منه مقدار الكفاية ومالابد للتقوى على السلوك للآخرة صار عبادة يثاب عليها. فالمباح بالنظر لذاته،ومن حيث هو لاثواب فيه ولا عقاب . أما بالنظر لما يقارنه فإنه يصير عبادة ، والأعمال بالنيات .

(٨) رسم المعصية : علامتها وأثرها .

فصـــل

[فى عصمتهم قبل النبوة]

وقد اختُلِف فى عِصْمَتِهم من المعاصى قبل النبوّةِ ؛ فمنعها قومٌ ، وجوّزها آخرون . والصحيحُ إن شاء الله تنزيهُهم من كل عَيْب ، وعِصْمَتُهم من كلّ ما يُوجِبُ الرّيْب[(١)] ؛ فكيف والمسألةُ[(٢)] تصوُّرُها كالمُمْتَنِـع ؛ فإنّ المعاصىَ والنواهِى إنما تـكون بعد تقرُّر الشَّرْع .

وقد اختلف الناسُ فى حال نبينا صلَّى الله عليه وسلم قَبْلَ أنْ يُوحَى إليه ؛ هل كان متَّبِعاً لِشَرْعٍ [٢٠٧] قَبلَه أم لا ؟ فقال جماعة : لم يكن متَّبِعًا لشىء[(٣)] ؛ وهذا قولُ الجمهور ؛ فالمعاصى على هذا القول غَيْرُ موجودةٍ ولا مُعْتَبرة فى حقّه حينئذ ؛ إذ الأحكامُ الشرعية إنما تتعلّق بالأوامر والنواهى وتَقَرُّرِ الشريعة[(٤)] .

ثم اختلفت حُجَجُ القائلين بهذه المَقَالة عليها ؛ فذهب سيفُ السّنّةِ ، ومُقْتَدَى فِرقِ الأُمّةِ القاضى[(٥)] أبو بكر إلى أنّ طريق العِلْمِ بذلك النّقْلُ وَمَوارد الخبر مِنْ طريق السمع[(٦)] ؛ وحجّتُه أنه لو كان ذلك لَنُقِل، ولما أمكن كَتْمُه وسَتْرُه فى العادة ؛

---

(١) قال الخفاجى : الريب فى الأصل الشك والشبهة ؛ وهو غير مناسب هنا؛ فكأنه أريد به مايحط مقدارهم ؛ لأن شأن النبوة الشرف والعلو ؛ فإذا ظهر خلافه ارتاب من عرفهم فى نبوتهم ، وحصلت له شبهة فيهم .

(٢) والمسألة : أى وقوع الذنب منهم قبل النبوة . (٣) لشىء : من الشرائع .

(٤) وتقرر الشريعة: أى تحققها وظهورها ؛ ولم تـكن بعد وجوده ، وقبل بعثته ، شريعة مقررة حتى يتبعها .

(٥) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلانى ، حامل لواء أهل السنة الثقة الذى يضرب المثل بسعة علمه وشدة ذكائه . وتوفى سنة ثلاث وأربعمائة .

(٦) طريق العلم بذلك : أى اتباعه صلى الله عليه وسلم لشرع نبي قبل نبوته . موارد الخبر من طريق السمع : أى يعلم من خبر ورد ونقل من طريق السمع .

إذْ كان مِنْ مُهِمّ أمْرِه(١) ؛ وأوْلَى ما اهتُبِل به مِنْ سيرته(٢) ، ولفَخَر به أهلُ تلك الشريعة ، ولاحْتَجُّوا به عليه ؛ ولم يُؤثَر شئ من ذلك جملةً .

وذهبت طائفةٌ إلى امتناع ذلك عَقْلا ؛ قالوا : لأنه يَبْعُد أنْ يكونَ متبوعا مَنْ عُرِف تابعا ؛ وبنوا هذا على التحسين والتقبيح(٣) ؛ وهى طريقةٌ غيرُ سديدةٍ ؛ واستنادُ ذلك إلى النَّقْلِ كما تقدمَ للقاضى أبى بكر أوْلَى وأظْهَرُ(٤) .

وقالت فرقةٌ أخرى بالوَقْفِ فى أمرِه(٥) صلى اللهُ عليه وسلم، وتَرْكِ قَطْعِ الحُكْمِ عليه بشىء فى ذلك ؛ إذ لم يُحِل(٦) أحد الوجهين منها العَقْلُ ، ولا استبانَ فى أحدهما طريقُ النقْلِ ؛ وهو مَذْهبُ أبى المعالى(٧) .

وقالت فرقةٌ ثالثة : إنه كان عاملا بِشَرْعِ مَنْ قَبْلَه ؛ ثم اختلفوا : هل يتعيَّنُ ذلكَ الشرعُ أم لا ؟ فوقف بعضُهم عن تَعْيينه ، وأحْجَم . وجَسَر(٨) بعضُهم على التعيين وصمَّم .

ثم اختلفَتْ هذه المعيِّنة فيمن كان يتَّبِعُ ؛ فقيل نوحٌ ، وقيل إبراهيم ، وقيل موسى ، وقيل عيسى صلوات الله عليهم . فهذه جملةُ المذاهب فى هذه المسألة .

والأظْهرُ فيها ما ذهبَ إليه القاضى أبو بكر ، وأبعدُها مذاهبُ المعيِّنين ؛

---

(١) أى تعبده بشرع غيره مهم عظيم عند أهل ذلك الدين .

(٢) وأولى ماهتبل به من سيرته : أولى : أحق . اهتبل به : اعتنى به .

(٣) أى بنوا هذا القول على أن حسن الشىء وقبحه يعرف بالعقل ويثبت به . وفى شرح القارى (٢ — ١٧٠) : وبنوا هذا على التحسين والتقبيح العقليين .

(٤) قال الخفاجى : وهو القول الصحيح المعول عليه .

(٥) فقالوا: لا نعلم حاله قبل البعث ؛ هل كان على شريعة من الشرائع السابقة أم لا ؟

(٦) لم يحل : لم يعده محالا ؛ لتساويها عنده فى الإمكان .

(٧) أبو المعالى : عبد الملك الجوينى المعروف بإمام الحرمين شيخ الإمام الغزالى .

(٨) جسر بعضهم : تجرأ وأقدم .

إذ لو كان شيء من ذلك لنُقِلَ كما قدّمنا ، ولم يَخْفَ جملةً ؛ ولا حجةَ لهم في أنّ عيسى آخِرَ الأنبياء ، فلزمت شريعتُه مَنْ جاء بعدها ؛ إذْ لم يثْبُتْ عمومُ دَعْوَةِ عيسى ؛ بل الصحيحُ أنه لم يكن لنبيّ دَعوةٌ عامةٌ إلا لنبيّنا صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ ولا حجةَ أيضا للآخر في قولِه[1] : ﴿أنِ اتّبِعْ مِلّةَ إبراهيم حنيفا﴾ ، ولا للآخرين في قوله تعالى[2] : ﴿شَرَعَ لكُمْ من الدِّين ما وَصّى به نُوحاً﴾ ، فتُحْمَل هذه الآية على اتبَاعهم في التّوْحيد[3] ؛ كقوله تعالى[4] : ﴿أولئك الذين هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ﴾ .

وقد سمّى اللهُ تعالى فيهم[5] مَنْ لم يُبْعَثْ ، ولم تكُنْ له شريعةٌ تَخُصُّهُ ؛ كيوسف بن يعقوب على قول مَنْ يقول : إنه ليس برسولٍ .

وقد سمّى اللهُ تعالى جماعةً منهم في هذه الآية شرائعُهم مختلفةٌ لا يمكنُ الجمْعُ بينها ؛ فدلّ[6] أن المرادَ ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادةِ اللهِ تعالى .

---

(١) سورة النحل ، آية ١٢٣ . والملة : الشريعة والدين . حنيفا : مستقيما .
قال الخفاجي : وإنما لم يكن فيه حجة ؛ لأن هذا الأمر بعد ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم ؛ والكلام فيما قبل البعثة ؛ وإنما أمر باتباعه في التوحيد وإقامة الحجة برفق على من خالفه لا في شريعته المتعلقة بالعبادة .

(٢) سورة الشورى ، آية ١٣

(٣) في التوحيد : أي الإيمان بالله وحده ، وما يتعلق بالعقائد الحقة مما يشترك فيه جميع الأنبياء ، وليس الكلام في هذا ؛ إنما الكلام فيما تعبد به صلى الله عليه وسلم من الأعمال الصالحة .

(٤) سورة الأنعام ، آية ٩٠ . قال الخفاجي : فالمراد بهداهم ما اتفقوا عليه من التوحيد دون فروع الشرائع ؛ وقد قال الله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، فلا دليل فيما ذكر يثبت مدعاهم .

(٥) فيهم : أي ذكر الله في جملة الأنبياء المذكورين في هذه الآية (أولئك الذين . . .)

(٦) فدل : دل اختلاف أحكام تلك الشرائع المأمور بالاقتداء بها على أن المراد ما اجتمعوا . . .

وبَعْدَ هذا[١] فهل يلزمُ مَنْ قَالَ بمَنْعِ الاتِّبَاعِ[٢] هذا القولُ في سائر الأنبياء غَيْرِ نبيِّنا صلى اللهُ عليه وسلم ، أو يخالفون نبيهم[٣] ؟

أمّا مَنْ مَنَعَ الاتِّبَاعَ عقلا فيطَّرِدُ أصْلُه في كلِّ رسولٍ بلا مِرْيَةٍ[٤] . وأمّا مَنْ مال إلى النَّقْل فأينما تُصوِّرُ له وتُقَرِّر اتَّبَعه[٥] .

ومن قال بالوقْفِ فعلَى أصْلِه[٦] . ومن قال بوجوب الاتِّبَاعِ لِمَنْ قَبله فيلتزمه بمَسَاقِ حُجَّتِه في كل[٧] نبيٍّ .

فصل

هذا[٨] حكْمُ ما يَكونُ المخالفةُ فيه من الأعمالِ عن قَصْدٍ[٨] ؛ وهو ما يسمّى مَعْصِيةً ، ويدخلُ تحت التكليف . وأمّا ما يكون بغير قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ [٢٠٨] ؛ كالسَّهْو والنِّسيان في الوظائف[٩] الشَّرْعِيَّة مما تَقَرَّرَ الشَّرْعُ بعدم تعلُّق الخطاب به ، وتَرْكِ المؤاخذة عليه؛ وأحوالُ الأنبياء في تَرْكِ المؤاخذة به ، وكونه ليس بمعصية لهم مع أممهم سواء[١٠] . ثم ذلك على نوعين[١١]: ما طريقُه البلاغُ ، وتقريرُ الشَّرْع ، وتعلُّق

(١) وبعد هذا القول بأن المراد ما اتفقوا عليه من العقائد .

(٢) بمنع الاتباع : أى نبينا صلى الله عليه وسلم لشرع من شرائع من قبله .

(٣) فيقول : إن نبينا لشرف قدره لايتبع في عبادته شريعة غيره ، أما غيره فيتبع من قبله .

(٤) بلا مرية : بلا شك وشبهة .

(٥) فأى شيء نقل من منع أو جواز اتبعه ولم يخالفه ، ولا داعى للخلاف فيه .

(٦) فعلى أصله : على مذهبه في عدم التعيين لتساويهما ، إذ لافارق .

(٧) في ب : في كل شيء .

(٨) هذا : ماتقدم من العصمة . المخالفة : مخالفة الشرع . عن قصد : عن تعمد .

(٩) الوظائف الشرعية : ماوظف وعين من الأعمال المؤقتة ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، ونحوها من العبادات .

(١٠) سواء : أى هم وأممهم مستوون في عدم المؤاخذة به ، لأنهم لم يكلفوا به لا قبل الشرع ولا بعده . (١١) ذلك : الذى لم يؤاخذ به من السهو والنسيان .

الأحكام[١] ، وتعليمُ الأمةِ بالفِعْل ، وأخذُهم[٢] باتّباعِه فيه وما هو خارجٌ عن هذا مما يختصُّ بنفسه[٣] .

أمّا الأوّل فحُكمه[٤] عِنْدَ جماعةٍ من العلماء حُكْمُ السَّهْوِ فى القَوْل فى هذا الباب[٥] .

وقد ذكرنا الاتفاقَ على امتناعِ ذلك فى حقِّ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وعِصْمتِه مِنْ جوازِه عليه قَصْداً أو سَهْوًا ؛ فكذلك[٦] قالوا : الأفعالُ فى هذا الباب لا يجوز طروءُ[٧] المخالفة فيها لا عمْدًا ولا سَهْوًا ؛ لأنها بمعنى القولِ مِنْ جهة التبليغ والأداء ، وطروّ[٧] هذه العوارض عليها يوجِبُ التشكيك ، وبسبِّبُ المطاعِنَ[٨] .

واعتذَرُوا عن أحاديثِ السَّهْوِ بتوجيهاتٍ نذكرُها بعد هذا . وإلى هذا مال أبو إسحاق[٩] .

---

(١) ولتعلق الأحكام به أمرا ونهيا .

(٢) وأخذهم : تكليفهم ومؤاخذتهم .

(٣) عن هذا : أى ماخرج عن طريق البلاغ لعدم صدقه عليه واندراجه تحت حكمته . مما يختص بنفسه : دون أمته ، مما يجب أو يمتنع ونحوه مما يختص بالرسل أنفسهم .

(٤) أما الأول : وهو ماطريقه البلاغ .

(٥) فى هذا الباب : أى باب العصمة وحكمها .

(٦) فكذلك : أى كما قالوا فى الأقوال البلاغية .

(٧) هذا فى ب . وفى ا : طروء ، وهما بمعنى .

(٨) يوجب التشكيك : يستلزم وقوع الشك فى بقية أفعاله ؛ هل فعلها بوحى من الله ، أو مخالفة للوحى ، أو سهوا ؟ ويسبب للطاعن : الطعن : القدح بما يورث نقصا فى أفعاله صلى الله عليه وسلم .

(٩) أبو إسحاق الإسفراينى : وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، الإمام المشهور ، توفى بنيسابور سنة ثمانى عشرة وأربعمائة .

وذهب الأكثرُ من الفقهاء والمتكلمين إلى أنّ المخالفةَ في الأفعال البلاغية[١] والأحكام الشرعية سهوًا وعَنْ غيرِ قَصْدٍ منه ـ جائزةٌ عليه ، كما تقرَّرَ من أحاديث السَّهوِ في الصلاةِ ؛ وفرَّقُوا بين[٢] ذلك وبين الأقوال البلاغية لقيامِ المعجزةِ على الصِّدْقِ في القَوْلِ . ومخالفَةُ ذلك يناقِضُها[٣] .

وأما السَّهْوُ في الأفعال فغيرُ مناقضٍ لها[٤] ، ولا قادحٍ في النبوة ، بل غلطاتُ الفِعْلِ وغفلاتُ القَلْبِ من سِمَاتِ البَشَرِ ، كما قال صلى اللهُ عليه وسلم[٥] : « إنما أنا بَشَرٌ ، أنْسَى كما تَنْسَوْن ، فإذا نسيتُ فذكِّرُوني » ، نعم ، بل حالةُ النسيانِ والسَّهْوِ هنا[٦] في حقِّه صلى اللهُ عليه وسلم سببُ إفادةِ عِلْمٍ وتقريرِ شَرْعٍ ، كما قال صلى اللهُ عليه وسلم[٧] : « إني لأَنْسَى أَوْ أُنَسَّى لأَسُنَّ[٨] » .

بل قد رُوِيَ : لستُ أَنسى ، ولكن أُنَسَّى .

وهذه الحالةُ زِيادةٌ في التبليغ[٩] ، وتمامٌ عليه في النعمة بعيدةٌ عن سِمَاتِ النَّقْصِ

---

(١) البلاغية : التي أمروا بتبليغها لأممهم .

(٢) بين ذلك في الأفعال .

(٣) لدلالة معجزة كل نبي من الأنبياء التي تحدى بها على صدقه فيما يقوله ويبلغه عن ربه، ومخالفة الصدق في القول سهوا من غير قصد تناقض معجزته وتنافيها ؛ فلا تجتمع المعجزة وعدم صدقه فيما يبلغ عن ربه لأمته ؛ لأن إجراء الله المعجزة على يده في قوة قوله : إنه صادق فيما يبلغكم عني ، ودلالتها على ذلك دلالة التزامية .

(٤) لها : للمعجزة .

(٥) في حديث رواه الشيخان في باب السهو في الصلاة : صحيح البخاري : ١ ـ ١٠٥

(٦) هنا : في حالته البلاغية . (٧) في حديث رواه الموطأ . وقد سبق .

(٨) لأسن : لأحدث لكم أمرا شرعيا يكون سنة لكم . والحديث في صحيح مسلم : ١٠٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣

(٩) وهذه الحالة ، أي ما يعرض له صلى الله عليه وسلم من النسيان ليس زيادة له مخصوصة به في التبليغ للناس ، ولما يحصل لهم من تعلم ما يفعله الساهي في العبادة من أمته .

واعتراض الطعن ؛ فإن القائلين بتجويز ذلك يشترطون أن الرسُلَ لا تُقَرُّ عَلَى السَّهْوِ والغَلَط ؛ بل يُنَبَّهُون عليه ، ويُعَرَّفون حُكْمه بالفَوْرِ على قولِ بعضِهم ، وهو الصحيح . وقَبْلَ انقراضِهم على قَوْلِ الآخرين .

وأمَّا ما ليس طريقُه البلاغَ ، ولا بيانَ الأحكامِ من أفعاله صلى اللهُ عليه وسلم ، وما يختصُّ به من أمور دِينه وأذْكارِ قَلْبِهِ مما لم يَفْعَلْه لِيُتَّبَعَ فيه — فالأكثَرُ من طبقاتِ علماء الأمةِ على جواز السَّهْوِ والغَلَط عليه فيها ، ولحوقِ الفَتَراتِ[1] والغفلات بقَلْبِه ؛ وذلك بما كلَّفَه من مقاساةِ الخَلْقِ[2] ، وسياسات الأمةِ ، ومعاناةِ الأهل[3] ، وملاحظةِ الأعداء ؛ ولكن ليس على سبيل التكرار ، ولا الاتصالِ ؛ بل على سبيل النُّدُور ، كما قال صلى اللهُ عليه وسلم : « إنه ليُغَانُ على قلبي[4] ، فأستَغْفِر اللهَ » .

وليس فى هذا شيء يَحُطُّ من رُتْبَتِه ويُنَاقِضُ معجزتَه .

وذهبت طائفة إلى مَنْعِ السَّهْوِ والنِّسيان والغفَلات و الفَتَرات فى حقه صلى اللهُ عليه وسلم جملةً .

---

(١) ولحوق الفترات : عروضها . والفترات : جمع فترة : وهى سكون بعد حدة ، ولين بعد شدة ، وضعف بعد قوة .

(٢) مقاساة الخلق : بنظره فى أحوالهم وتدبير أمورهم .

(٣) معاناة الأهل : الاشتغال بهم .

(٤) الغين : غيم رقيق . والمراد به ما يعرض له صلى الله عليه وسلم من الخواطر التى تشغله عما يهمه من أمور الآخرة .

وقال القارى (٢ — ٢٧٠) : المعنى قد يحجب قلبي عن مشاهدة ربى بالاشتغال بأمره ، والانتقال إلى إمضاء حكمه .

قال فى نسيم الرياض : وهو عبادة أيضا ؛ لأنه تفكر فى أمور أمته وتدبير أحوالهم ، وإنما استغفر منه ، لأنه شغله عن الأهم عنده ، فهو بالنسبة لعظيم مقامه كأنه ذنب ، لأنه اشتغال بالعالى عن الأعلى ، فهو حالة كمال لا نقص . والحديث فى صحيح مسلم : ٢٠٧٥ . وفيه : وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة .

وهو مذهبُ جماعة المتصوّفة وأصحابِ عِلْمِ القلوب والمقامات[١] ، ولهم فى هذه الأحاديث مذاهبُ نذكرها بعد هذا إن شاء الله .

فصل

فى الكلام على الأحاديث [٢٠٩] المذكور فيها السَّهْو منه صلى اللهُ عليه وسلم

قد قدّمْنا فى الفصول قبل هذا ما يجوزُ فيـه عليه السهْوُ صلى اللهُ عليه وسلم وما يمتنِـعُ ، وأَحَلْناهُ فى الأخبارِ جملةً[٢] ، وفى الأقوال الدينية قَطْعا ، وأجَزْنا وقوعَه فى الأفعالِ الدينية عَلَى الوَجْهِ الذى رتّبْناهُ ، وأشرنا إلى ما ورد فى ذلك ؛ ونحن نَبْسُط القولَ فيه[٣] ونقول : الصحيح من الأحاديثِ الواردةِ فى سَهْوِه صلى اللهُ عليه وسلم فى الصلاة ثلاثةُ أحاديث :

أوّلها : حديث ذى اليَدَيْن فى السلام من اثنتين[٤] .

الثانى : حديث ابن بُحَيْنَةَ[٥] فى القيام من اثنتين .

الثالث : حديث ابن مسعود رضِىَ اللهُ عنه : أنَّ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم صلَّى الظُّهْرَ خمسا[٦] .

---

(١) وأصحاب علم القلوب : الذين صفوا قلوبهم بالمجاهدة . والمقامات : المراتب التى يعرفها مشايخهم ويقطعونها فى سيرهم إلى الله .

(٢) أحلناه : جعلناه محالا فيما طريقه البلاغ . جملة : من غير استثناء .

(٣) فيه : فى هذا الفصل .

(٤) أى ركعتين من الظهر، أو العصر . وحديث ذى اليدين فى صحيح البخارى : ١ — ١٧٣ ، وصحيح مسلم : ٤٠٤

(٥) ابن بحينة : هو عبدالله بن بحينة ، وبحينة أمه ، ووالده اسمه مالك . وحديثه فى صحيح البخارى : ١ — ٨١ ، وصحيح مسلم : ٣٩٩

(٦) رواه الشيخان عنه . وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى الظهر خمسا فقيل له : أزيد فى الصلاة ؟ فقال : وما ذاك ؟ قالوا : صليت خمسا ؛ فسجد بعد ما سلم . وليس قوله « بعد ما سلم » فى رواية البخارى .

=

وهذه الأحاديثُ مبنيّةٌ على السَّهْوِ في الفِعْل الذى قرَّرْناهُ ، وحكمةُ اللهِ فيه ليُستَنَّ به[١] ؛ إذ البَلاغُ بالفعل أجْلَى منه[٢] بالقولِ ، وأرفَعُ للاحتمال ؛ وشرطُه ألّا يُقرّ عَلَى السَّهْوِ ؛ بل يُشْعَر به ليرتَفِعَ الالتباسُ ، وتظهرَ فائدةُ الحِكمةِ فيه كما قدمناه ؛ فإن النسيانَ والسهْوَ في الفِعْل في حقّه[٣] صلى اللهُ عليه وسلم غيْر مُضادّ المعجزة ، ولا قادحٍ في التصديق[٤] ؛ وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم : « إنما أنا بَشَرٌ أنْسَى كما تَنْسَوْنَ ؛ فإذا نسيتُ فذكِّرُونى[٥] » .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[٦] : « رحِمَ اللهُ فلانا[٧] ، لقد أذْكَرَنى كذا وكذا آيةً كنتُ أسقطتهنّ » ـ ويروى : أُنسِيتهنّ .

= وأخرج مسلم من حديث الأعمش ، ومنصور ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود ؛ قال إبراهيم : زاد أو نقص ـ الشك منى ؛ فلما سلم قيل له : يارسول الله أحدث فى الصلاة شىء؟ قالوا : صليت كذا وكذا ؛ فثنى رجليه ، واستقبل القبلة ، فسجد سجدتين ؛ ثم سلم ، وأقبل علينا بوجهه ، فقال : إنه لوحدث فى الصلاة شىء أنبأتكم به ، ولكن إنما أنا بشر أنسى كما تنسون؛ فإذا نسيت فذكرونى ؛ وإذا شك أحدكم فليتحر الصواب وليتم ثم ليسجد سجدتين.

قال الخفاجى : وفى الحديث دليل على تداخل سجود السهو . وأما كونه بعد السلام أو قبله فقد وقع فيه اختلاف بين الفقهاء كما اختلفت الرواية فيه وقيل سجود النقص قبل السلام ؛ وسجود الزيادة بعده .

وحديث ابن مسعود فى البخارى : ١ ـ ١٠٦ ، ٢ ـ ٨١ ، ٨٢ ، وصحيح مسلم : ٤٠٠

(١) ليستن به : ليتبين للأمة حكمه شرعا بسبب فعله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أجلى : أظهر .

(٣) فى حقه : أى بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم إذا صدر وتحقق منه . . . .

(٤) فى التصديق : فى تصديق من آمن به من أمته .

(٥) فذكرونى: نبهونى على سهوى أو نسيانى . والحديث فى صحيح البخارى : ١ ـ ١٠٥

(٦) فى حديث رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها .. صحيح البخارى : ٦ ـ ٢٣٩ ، وفيه : أنسيتها . وصحيح مسلم : ٥٤٣

(٧) فلانا : كناية عن علم ، وهذا الرجل هو عباد بن بشر الصحابى . وقيل : هو =

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[١] : « إنّى لَأَنْسَى ، أو أُنَسَّى ، لأسُنّ » .

قيل : هذا اللفظُ شَكٌّ من الراوى . وقد روى : « إنى لا أَنْسَى ، ولكن أُنَسَّى لأسُنّ » .

وذهب ابن نافع ، وعيسى بن دينار أنه ليس بشكّ ؛ فإنّ معناه التقسيم ؛ أى أَنْسَى أنا ، أو يُنسينى الله[٢] .

قال القاضى أبو الوليد الباجى : يحتمل ما قالاهُ أنْ يُريدَ أنى أَنْسَى فى اليَقظَة ، وأُنَسَّى فى النومِ ، أو أَنْسَى عَلَى سبيل عادةِ البَشَر من الذّهولِ عن الشىء والسَّهْو ؛ وأُنَسَّى مع إقبالى عليه وتفرُّغى له ؛ فأضاف أَحَدَ النِّسْيَانَيْن إلى نفسه ؛ إذ كان له بعضُ السبب فيه ، ونفى الآخَر عن نفسه ؛ إذ هو فيه كالمضطرّ .

وذهبت طائفةٌ من أصحابِ المعانى[٣] والكلامِ عَلَى الحديث إلى أنّ النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلم كان يسهو فى الصلاة ولا يَنْسَى ؛ لأنّ النسيانَ ذُهولٌ وغَفْلةٌ وآفة[٤] ؛ قال[٥] : والنبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم مُنَزَّهٌ[٦] عنها ؛ والسَّهْوُ شُغل[٧] ؛ فكان النبىّ

= عبد الله بن يزيد الأنصارى، قالت عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت قارىء يقرأ ، فقال : من هذا ؟ قالوا : عبدالله بن يزيد، فقال : رحمه الله لقد أذكرنى .. أسقطتهن: تركت تلاوتهن سهوا منى .

(١) فى حديث رواه الموطأ : ١ — ١٠٠

(٢) قال الخفاجى : المراد أنه قد يكون بسبب تعاطاه ، أو بدونه، لحكمة أرادها الله .

(٣) أصحاب المعانى : الذين تقيدوا ببيان معانى الحديث وشرحه .

(٤) آفة : مرض يصيب القوة المدركة بنقص فيها وفى صاحبها .

(٥) قال ؛ أى هذا البعض .

(٦) منزه عنها ، لأنها نقص بخلقه الله تعالى ، والأنبياء منزهون عنه .

(٧) والسهو شغل بأمر يمنعه عن ملاحظة ما هو فاعله ، وهو غير مذموم، بل قد يمدح كاشتغال المصلى بتجليات ربه .

صلى اللهُ عليه وسلم يَسْهُو[١] فى صلاته، وَيشغله عن حركات الصلاةِ ما فى الصلاة ، شُغْلا بها لا غَفْلةً عنها .

واحتجَّ[٢] بقوله فى الرواية الأخرى : إنى لا أَنْسَى .

وذهبَتْ طائفةٌ إلى مَنْعِ هذا كلِّه عنه[٣] ، وقالوا : إنَّ سَهْوَه عليه السلام كان عَمْدًا وقَصْداً لِيَسنَّ .

وهذا قولٌ مرغوبٌ عنه ، مُتَناقِضُ المقاصدِ،لا يُحْلَى منه بطائل[٤] ؛ لأنه كيف يكون متعمِّدا ساهيا فى حالٍ[٥] . ولا حجَّةَ لهم فى قولهم : إنه أُمِرَ بتعمُّدِ صورةِ النسيان ليَسُنَّ ؛ لقوله : إنى لأَنسى أو أُنَسَّى . وقد أثبتَ أحَدَ الوَصْفَيْن ، ونَفَى مُنَاقضَةَ التعمُّدِ والقَصْد ، وقال : إنما أنا بَشَرٌ مِثلُكم أَنْسَى كما تَنْسَوْن ، [فإذا نسيت فذكرونى][٦] .

وقد مَالَ إلى هذا عظيمٌ من المحقِّقين من أَئمتنا[٧]، وهو أبو المظفَّر الإسْفَرابنى، ولم يَرْتَضِه[٨] غَيْرُهُ منهم ، ولا أرتضيه ، ولا حجَّةَ لهاتَيْن الطائفتين[٩] فى قوله :

---

(١) يسهو فى صلاته ولاينساها ويذهل عنها .

(٢) واحتج : أى من منع النسيان عليه صلي الله عليه وسلم .

(٣) أى السهو والنسيان .

(٤) متناقض القصد.لأنه لوفعل فى صلاته مافعل عمدا بطلت وفسدت صلاته ؛ فكيف يسن بما لايجوز . لايحلى منه بطائل: ليس فيه فائدة وكبير أمر حتى ترتكب أموره المتخالفة المتناقضة له . يقال : ما حليت وما حلوت منه بطائل : ما ظفرت . الطائل : الفائدة .

(٥) أى فى حال واحد وزمان واحد .

(٦) مابين القوسين ساقط فى ا .

(٧) من أئمتنا : أى الأشعرية .

(٨) لم يرتضه غيره : لم يقل بهذا القول أحدغير أبى المظفر؛ لأنه كيف يؤمر بتعمدمايبطل الصلاة من غير ضرورة .

(٩) الطائفتين: القائلتين بأنه صلى الله عليه وسلم يسهو ولاينسى ، وبأنسهوه عمد وقصد.

إني لا أنْسَى [٢١٠] ، ولكن أنسَّى ، إذ ليس فيه نَفْيُ حُكْمِ النسيان بالجملة[١] ، وإنما فيه نَفْيُ لفظِه وكراهَةُ لقَبِه[٢] ، كقوله[٣] : بئسَ ما لِأحدكم أن يقولَ : نسيتُ آيَةَ كذا ، ولكنه نُسِّيَ ،أو نَفْيُ الغَفْلَةِ وقلةِ الاهتمامِ بأمْرِ الصلاةِ عن قَلْبِه ، لكِنْ شُغِلَ بها عنها[٤] ، ونَسِي بعضَها ببعضِها ، كما ترك الصلاةَ يوم الخَنْدق حتى خرج وقتُها ، وشُغِل بالتحرُّزِ من العدوّ عنها ؛ فشُغِل بطاعةٍ عن طاعةٍ[٥] .

وقيل[٦] : إنّ الذى تُرِكَ يوم الخَنْدقِ أربعُ صلواتٍ[٧] : الظهر ، والعَصْر ، والمغرب ، والعشاء ، وبه احتجّ مَنْ ذَهب إلى جوَازِ تأخير الصــلاةِ فى الخَوْف ،

---

(١) بالجملة : أى جميعه بألا يصدر منه صلى الله عليه وسلم نسيان لصلاة .

(٢) لقبه : المراد اسمه ولفظه .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه : ٦ — ٢٣٨ . ورواه مسلم (فى صحيحه :) ٥٤٤ : نسى — مخففا مع ضم النون . وروى من طرق بتشديد السين وتخفيفها ؛ فعلى التثقيل أنه تعالى خلق فيه النسيان . وعلى التخفيف معناه أن ناسى القرآن نسيه الله ؛ أى تركه لايلتفت له ؛ كقوله تعالى : « وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » ؛ فأشار إلى أنه لاينبغى أن ينسب فعلا لنفسه وينسبه لخالقه تأدبا وإن جار ؛ لأنه كسبه ؛ فالذم لهذا ؛ فهو عام فى كل فعل . أو هو لما فيه من عدم الاعتناء بالقرآن ؛ لأن نسيانه لتركه تعهد تلاوته ؛ فهو مخصوص بالقرآن . واختاره القرطبى (تفسير القرطبى : ١١ — ٢٥٩) .

(٤) بها عنها : بالصلاة وما فيها من التجليات عن بعض أعمالها وعدد ركعاتها .

(٥) بطاعة عن طاعة : شغل — بحفظ المدينة وأرواح المؤمنين من بغتة العدو — عن أداء الصلاة فى الوقت ؛ قال الخفاجى : وتلك أهم باعتبار حقوق العباد ؛ إذ لو فاتت لم يمكن تداركها ؛ بخلاف هذه .

وهذه واقعة حال قدم فيها الأهم ، ولم يكن ناسيا ؛ وإنما بدأ بدرء المفسدة الذى هو أهم من جلب المصلحة ؛ وكان هذا عذرا فى تأخير الصلاة قبل مشروعية صلاة الخوف .

(٦) القائل هو ابن مسعود ، كما رواه الترمذى والنسائى .

(٧) قال فى نسيم الرياض : والصحيح مافى الصحيحين من أنها صلاة العصر . وفى الموطأ أنه صلى الله عليه وسلم فاتته صلاتان : الظهر ، والعصر . وقال النووى : يجمع بين الروايات ، فالخندق كانت فى أيام ، وتعددتركه للصلاة فيها .

إذا لم يتمكن من أدائها إلى وقتِ الأمنِ ، وهو مذهبُ الشاميِّين[١]

والصحيحُ أنَّ حُكْمَ صلاةِ الخوفِ كان بعْدَ هذا ، فهو ناسخ له[٢] .

فإنْ قلتَ : فما تقولُ في نَوْمِهِ صلى اللهُ عليه وَسلم عن الصلاة يوم الوادي[٣] ، وقد قال : إن عينيّ تناماني ولا ينام[٤] قَلْبِي .

فاعلم أنَّ للعلماء في ذلك أجوبةً ، منها : أنَّ المرادَ بأنَّ هذا حُكْمُ قَلْبِه[٥] عند نومه وعينيه[٦] في غالب الأوقات ، وقد يَنْدُرُ[٧] منه غَيْرُ ذلك[٧] ، كما يندُرُ من غيره خلافُ عادتِه .

---

(١) أي بعض علماء الشام وفقهائها المجتهدين والمحدثين منهم الذين يرون أن صلاة الخوف كانت مشروعة قبل ذلك .

(٢) حكم صلاة الخوف : فرضيتها . بعد هذا : بعد غزوة الخندق ، فهو ناسخ له : أي الجواز بتأخير الصلاة عند الخوف ، وهو مذهب أبي حنيفة .

(٣) الصلاة : هي صلاة الصبح . والوادي : مكة . وقيل : بطن تبوك . وكان صلى الله عليه وسلم عرس فيه ، ووكل بلالا بأن يقوم عنده ليوقظه إن طلع الفجر ، فأسند ظهره لراحلته فغلبه النوم ، ولم يوقظ رسول الله حتى طلعت الشمس . . . .

ولفظ البخاري (١ — ١٤٥) :عن أبي قتادة عنه ، قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ، فقال بعض القوم : لوعرست بنا يارسول الله : فقال : أخاف أن تناموا عن الصلاة . فقال بلال: أنا أوقظكم ، فاضطجعوا؛وأسند بلال ظهره لراحلته،فغلبته عيناه،فاستيقظ النبي وقد طلع حاجب الشمس ؛ فقال: يا بلال ، أين ماقلت؟ قال :ماألقيت على نومة مثلها قط. فقال : إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء ؛ يا بلال ،قم فأذن الناس بالصلاة ، فتوضأ ، فلما ارتفعت الشمس وابيضت قام النبي فصلى . والحديث في الموطأ أيضا : ١ — ١٤

(٤) هذا الحديث في الصحيحين بطوله ، وفيه : إن عائشة رضي الله عنها قالت : تنام يارسول الله قبل أن توتر ؟ فقال : تنام عيني ولا ينام قلبي . والحديث في صحيح مسلم : ٥٠٩

(٥) هذا ، أي تيقظ قلبه في نومه . حكم قلبه : حاله وصفته .

(٦) وعينيه : أي وعند نوم عينيه . قال القاري (٢ — ٢٧٦) : أو المعنى : هذا حكم قلبه وعينيه حال اجتماعها . (٧) يندر : يقل . والندرة: القلة المفرطة جدا . غير ذلك : بأن تنام عينه وقلبه كنوم سائر الناس .

ويُصَحِّحُ هذا التأويلَ[(١)] قولُه صلى اللهُ عليه وسلم فى الحديث نَفْسِه[(٢)] : إنَّ اللهَ قَبَض أرواحنا .

وقولُ بلالٍ فيه : ما أُلْقِيَتْ عليَّ نومةٌ مِثلُها قطّ[(٣)] ، ولـكنْ مثلُ هذا إنما يكونُ منه لأمرٍ يريدُه اللهُ منْ إثبات حُـكمٍ ، وتأسيس سُنَّةٍ[(٤)] ، وإظهار شَرْعٍ ، كما قال فى الحديث الآخر : لو شاء اللهُ لأيقَظَنَا ، ولـكِنْ أراد أن يكونَ لمن بعدكم .

الثانى[(٥)] ـ أنَّ قَلْبَه لا يستَغْرِقُه[(٦)] النومُ حتى يكون منه الحدَثُ فيه[(٧)] ، لما رُوِى أنه كان محروسا[(٨)] ، وأنه كان ينام حتى ينفُخ ، وحتى يُسْمَعَ غَطِيطُه[(٩)] ، ثم يُصلّى ولا يتوضّأ[(١٠)] .

---

(١) هذا التأويل : أى جعله مقيدا بغالب أمره وما اعتاده .

(٢) فى الحديث : المراد حديث الوادى ، وهو فى الموطأ : ١ ـ ١٤ ، كما تقدم .

(٣) أى لم ينم نوما ثقيلا مثل نومته هذه .

قال الخفاجى : فهذا كله يدل على أنه استغرق فى نومه على خلاف معتاده ، لأن قبض الروح يدل على عدم يقظة القلب . وما وقع لبلال أيضا مخالف لمعتاده . والحاصل أنه صلى الله عليه وسلم لنومه حالان ، والأغلب الأول .

(٤) أراد الله بعدم إيقاظنا أن تـكون سنة لمن بعدكم من هذه الأمة يقتدون بها فيقضون مافاتهم من الصلاة ؛ وهذه حكمة أن الله قوى النوم عليه صلى الله عليه وسلم ، ونام قلبه على خلاف عادته لتظهر هذه السنة .

(٥) الثانى من الأجوبة عن هذا السؤال .

(٦) لا يستغرقه النوم : لا يستولى عليه ولا يغطيه عن الإدراك بحيث يغيب بالـكلية عن إحساسه . والاستغراق فى كل شىء : بلوغ نهايته .

(٧) أى يقع منه لشدة نومه حدث لا يشعر به من خروج شىء من أحد السبيلين ينقض وضوءه .

(٨) كان محروسا : محفوظا فى نومه من أن يصدر عنه مثله . وهذه الرواية فى سنن الترمذى : ١ ـ ١١١ ، والحديث فى صحيح مسلم أيضا : ٥٢٧ ، ١٨٧٥

(٩) الغطيط : ترديد النائم صوتا متواليا مع نفسه .

(١٠) قال الخفاجى : فهذا دليل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ محروس فى نومه عن الحدث الناقض للوضوء ، ولولا ذلك لزمه الوضوء فيه كغيره من الناس ؛ فعدم نوم قلبه عبارة عن عدم استغراقه فى نومه حتى لا يشعر بالحدث ؛ فليس يقظة حقيقية كما فى الجواب الأول .

وحديثُ ابن عباس[١] المذكور فيه وضوءه عند قيامِه من النّوم ، فيه نومُه مع أهْله ؛ فلا يمكن الاحتجاجُ به على وضوئه بمجرّدِ النّوْم ، إذ لعلّ ذلك لملامستِه الأهلَ أو لحدَثٍ آخر ، فكيف وفى آخرِ الحديث نَفْسِه : ثم نام حتى سمعتُ غَطِيطَه، ثم أقيمت الصلاةُ فصلّى ولم يتوضأ .

وقيل : لا ينامُ قَلْبُه مِنْ أجْلِ أنه يُوحَى إليه فى النّوْمِ[٢] ، وليس فى قصةِ الوادى إلاّ نومُ عَيْنيه عن رؤية الشمس . وليس هذا من فِعْل القَلْبِ ، وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم : إنّ اللهَ قبضَ أرواحَنا ولو شاء لردّها إلينا فى حينٍ غير هذا[٣] .

فإن قيل : فلولا عادَتُه من استِغْراقِ النومِ[٤] لما قال لِبلاَلٍ : اكْلَأْ لنا الصُّبْحَ[٥] .

فقيل فى الجواب: إنه كان مِنْ شأنِه ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ التغليسُ بالصُّبْح[٦]؛

---

(١) حديث ابن عباس مروى فى الصحيحين .

(٢) فإنه وسائر الأنبياء رؤياهم وحى بلا شبهة ؛ فمعنى قوله : لاينام قلبى أنه لاينقطع عنه بنومه الوحى وأمر النبوة . وهذا لاينافى استغراقه فى نومه وخروجه من هذا العالم .

(٣) قبض أرواحنا فى منامها . ولو شاء لردها إلينا بإيقاظنا من نومنا الذى كان قبل . فى حين غير هذا : فى وقت لم يوح إليه فيه شىء ، ولم يررؤياه التى هى وحى .

قال الخفاجى : والروح تقبض فى المنام والممات ، ولكنها ترد فى الأول ، كما قال تعالى : « فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » .

(٤) استغراق النوم : باستيلائه على حواسه وقلبه كغيره . اكلأ : من الكلاءة ، وهى المراقبة والحفظ . الصبح : أى وقت طلوعه لتوقظنا للصلاة فلا تفوتنا .

(٥) صحيح مسلم : ٤٧١

(٦) التغليس بالصبح : التبكير فيه ، فيصليه بغلس ؛ وهو ظلمة تخالط أفول ضوء الفجر فى آخر الليل .

ومراعاةُ أولِ الفَجْرِ لا تصحُّ[1] ممّنْ نامَتْ عينهُ؛ إذ هو ظاهرٌ يُدْرَكُ بالجوارح[2]؛ فوكَّلَ بلالا بمراعاةِ أولهِ[3] لِيُعْلِمَه بذلك ، كما لو شُغِلَ بشغلٍ غـــير النومِ عن مُراعاته .

فإنْ قيل : فما معنى نَهْيِه صلى اللهُ عليه وسلم عن القول[4] : نسيتُ ، وقد قال صلّى اللهُ عليه وسلم : إنى أَنْسَى كما تَنْسَوْنَ ، فإذَا نسيتُ فذكِّرُونى . ولقد أذكرنى كذا وكذا آيةً كنتُ أُنْسِيتُها .

فاعلَمْ ـ أكرمكَ اللهُ ـ أنه لا تَعارُضَ فى هذه الألفاظ ؛ أَمّا نَهْيُه عن أَنْ يُقال نسيتُ آيَةَ كذا فمحمول على ما نُسِخَ حفظُه من القرآن ، أى إنَّ الغَفْلَةَ فى هذا لم تـكُنْ منه ، ولـكن الله تعالى اضطرّه إليها ليَمْحُو ما يشاء ويثبت[5] ، وما كان مِنْ سَهْوٍ أو غَفْلةٍ مِنْ [٢١١] قِبَله تذكّرها صَلَح أن يُقَال فيه : أَنْسَى .

وقد قيل : إنَّ هذا مِنْهُ صلّى اللهُ عليه وســـلم على طريقِ الاستحباب أنْ يُضِيفَ الفِعْلَ إلى خالقه ، والآخَرَ[6] عَلَى طريقِ الجوازِ لاكتِساب العَبْدِ فيه ،

(١) لاتصح : لاتتيسر .

(٢) بالجوارح الظاهرة : أى لادخل للقلب والحواس الباطنة فيه .

(٣) بمراعاة أوله : بمراقبته والنظر إليه. ليعلمه بذلك : بطلوع الفجر .

(٤) فى حديث : لايقولن أحدكم نسيت آية كذا . . . وقد تقدمهذا الحديث وتخريجه.

(٥) قال الخفاجى: وعلىهذا فمعنى لايقل أحدكم نسيت:تقديره إنىنسيت ؛ أىإذا سمعتمونى تركت فى القرآن شيئا فلا تقولوا : النبى نسى آية كذا ؛ أى إن الغفلة فى هذا لم تـكن منهصلى الله عليه وسلم ، ولم يقع ذلك اختيارا ، ولـكن الله اضطره وألجأه إلى الغفلة ، ليمحو مايشاء ، وينسخ مايريد نسخه فينسيه له ، ويثبت ما لم يرد نسخه ، فلا ينساه . فعلى هذا هو مخصوص بالرسول صلى الله عليه وسلم وببعض آيات نسخها الله تعالى بإذهابها لا بكل ما نسيه .

(٦) هذا: نهيه عن أنيقول:نسيت. علىطريقة الاستحباب: أى التعليم والإرشاد . والنهى ليس نهى تحريم ؛ بل للـكراهة. والآخر : والحديث الآخر الذى أضيف فيه النسيان للعبد ، وقوله : نسيت كذا . . .

وَإِسْقَاطه ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ لما أسقط من هذه الآيات[١] جائزٌ عليه بعد بلاغِ ما أُمِرَ ببلاغِهِ، وتوصيله إلى عِبادِهِ، ثم يستذكِرُها مِنْ أُمَّتِه، أو مِنْ قِبَلِ نَفْسه، إلَّا ما قضى اللهُ نَسْخَه ومَحْوَه من القلوب وتَرْكَ استِذْكارِه[٢].

وقد يجوزُ أنْ يَنْسَى النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ما هذا سبيلُه كرةً[٣]؛ ويجوز أن يُنَسِّيَه منه[٤] قبل البلاغ مالا يغَيِّرُ نَظْما، ولا يخَلِّطُ حكما، مما لا يُدْخِلُ خَلَلاً في الخَبَر، ثم يُذَكِّرُهُ إيَّاه، ويستحيل دَوامُ نسيانِه لَهُ؛ لحفظِ اللهِ كتابَهُ، وتكليفه بلاغَهُ.

فصـــل

في الردّ على مَنْ أجاز عليهم[٥] الصغائر، والكلامِ على ما احتَجُّوا به في ذلك

اِعلَمْ أنَّ المجوِّزِينَ للصغائر عَلَى الأنبياء من الفقهاء والمحدثين ومَنْ شايَعَهم عَلَى ذلك من المتكلّمين احتجُّوا عَلَى ذلك بظواهِرَ كثيرةٍ من القرآنِ والحديث إن التزموا ظواهِرَها أفضَتْ بهم[٦] إلى تجويز الكبائر وخَرْقِ الإجماع[٧]، وهو ما لا يقولُ به مسلمٌ، فكيف وكلُّ ما احتجُّوا به مما اختلف المفسّرون في معناه،

---

(١) من هذه الآيات: التي قال فيها: أنسيت آية كذا وكذا.

(٢) فينسيه الله له ولا ينبه عليه فيعلم بذلك أنه نسخ لفظه وتلاوته.

(٣) ما هذا سبيله: من القرآن مما يراد نسخه. كرة: حينا.

(٤) منه: من القرآن.

(٥) عليهم: على الأنبياء.

(٦) إن التزموا ظواهرها: إن قالوا: يلزم اعتقاد الظاهر منها. وقال القاري: إن التزموا ظواهرها: من غير أن يؤولوا أكثرها، واتخذوها مذهبا وطريقة. أفضت بهم: أوصلتهم.

(٧) خرق الإجماع: مخالفة ما أجمع الناس عليه.

وتقابلت الاحتمالاتُ فى مُقْتَضاه[1] ، وجاءت أقاويلُ فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك ، فإذا لم يكن مذهبُهم إجماعاً ، وكان الخلافُ فيما احتجُّوا به قديما ، وقامت الدلالةُ على خطأ قولِهم ، وصحةِ غيرِه ، وجب تَرْكُه ، والمصيرُ إلى ما صَحّ .

وها نحن نأخذُ فى النظرِ فيها إنْ شاء اللهُ :

فمن ذلك قولُه تعالى لِنبيِّنا محمد صلى اللهُ عليه وسلم[2] : ﴿ لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَما تَأَخَّر ﴾ .

وقوله[3] : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ولِلمؤْمنين والمؤْمناتِ ﴾ .

وقوله[4] : ﴿ وَوَضَعْنَا عنكَ وِزْرَكَ الذى أنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

وقولُه[5] : ﴿ عفَا اللهُ عنكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ .

وقولُه[6] : ﴿ لولا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيما أَخَذْتُمْ عذابٌ عَظِيم ﴾ .

وقوله[7] : ﴿ عَبَس وتولّى أنْ جَاءَهُ الأَعْمى . . . ﴾ الآية .

---

(١) تقابلت الاحتمالات: تخالفت وتعارضت الوجوه المحتملة. فى مقتضاه: فى مقتضى ما احتجوا به من تجويز ماخرج به عن صلاحية الاحتجاج .

(٢) سورة الفتح ، آية ٢ . ووجه تمسك من جوز عليهم الصغائر بهذه الآية نسبة ذنب إليه مغفور لم يسمه ، فالظاهر أنه صغيرة .

(٣) سورة محمد ، آية ١٩

(٤) سورة الشرح، آية ٣. الوضع : الحط ، وهو بالعفو . والوتر : الحمل والثقل . والمراد الذنب . أنقض : أثقل .

(٥) سورة التوبة آية ٤٣. المعنى لأى شىء أذنت لهم فى القعود حين استأذنوك واعتلوا بأكاذيب، وهلا توقفت ، وذلك فى غزوة تبوك سنة تسع، وقد استأذنه من تخلف عنه، فأذن لهم لبعد الشقة وشدة الزمان ، فأذن لقوم منافقين اعتذروا له بأعذار سمجة ؛ وهو خلاف الأولى لا ذنب حقيقى .

(٦) سورة الأنفال ، آية ٦٨ ، وقد نزلت في غزوة بدر وأسراها .

(٧) سورة عبس ، آية ١ . عبس : قطب وجهه . تولى : أعرض . والأعمى هو عبد الله ابن أم مكتوم ، شهد القادسية ، ومعه اللواء فقتل ، وقد هاجر إلى المدينة ، وكان مؤذنه عليه الصلاة والسلام ، واستخلفه على المدينة ثلاث عشرة مرة . وقيل : مات بالمدينة .

وما قصَّ من قِصَص غيره من الأنبياء ؛ كقوله(١) :﴿وعَصى آدمُ رَبَّه فغَوى﴾.
وقوله(٢) : ﴿ فلما آتاهُما صـــالحا جَعَلاَ له شُركاء فيما آتاهُما ، فتعالَى اللهُ عما يُشرِكُون ﴾ .
وقوله(٣) : ﴿ ربَّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا وإنْ لَمْ تَغفِرْ لنا وَترحَمنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرِين ﴾ .
وقوله - عن يونس(٤) : ﴿ سبحانكَ إنى كنتُ من الظالمين ﴾ .
وما ذكر من قصته وقصةِ داود ؛ وقولِه(٥) : ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أنَّما فَتَنَّاهُ فاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وأنَاب . فغفَرْنا له ذلكَ وإنَّ له عِندنا لزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .
وقولِه(٦) : ﴿ ولقد همَّتْ به وهَمَّ بها ﴾ ؛ وما قَصَّ من قصَّتِه مع إخوته .
وقولِه - عن موسى(٧) : ﴿ فوكَزَهُ مُوسَى فقَضَى عليه ، قال : هـذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ .
وقولِ النبيّ - صلى اللهُ عليه وسلم فى دعائه(٨) : اغفِرْ لى ما قدَّمْتُ وَما أخَّرتُ ، وما أسْرَرْتُ وَما أعْلَنْتُ . ونحوه من أدْعيتِه صلّى اللهُ عليه وسلم .
وذِكرُ الأنبياء فى الموقفِ ذُنُوبَهم فى حديث الشفاعةِ(٩) .
وقوله(١٠) : إنه ليُغَانُ على قلبى فأستَغْفِر الله .

---

(١) سورة طه ، آية ١٢١
(٢) سورة الأعراف ، آية ١٩٠
(٣) سورة الأعراف ، آية ٢٣
(٤) سورة الأنبياء ، آية ٨٧
(٥) سورة ص ، آية ٢٤ ، ٢٥
(٦) سورة يوسف ، آية ٢٤
(٧) سورة القصص ، آية ١٥
(٨) رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٥٣٣ ، وهو سنن الترمذى : ٥ - ٤٨٢
(٩) فى الموقف : يوم القيامة . وحديث الشفاعة رواه مسلم عن أبى هريرة . وقد تقدم .
(١٠) قوله: القائل هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم أيضا.

وفى حديث أبى هُريرة : إنى لأستغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرةً .

وقولهِ تعالى — عن نوح[١] : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لى وتَرْحَمْنى أَكُنْ مِن الخاسرين ﴾ .

وقد كان [٢١٢] قال الله له[٢] : ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغْرَقُونَ ﴾ .

وقال — عن إبراهيم[٣] : ﴿ والذى أطمَعُ أَنْ يغفِرَ لى خطيئتى يوم الدين ﴾ .

وقولهِ — عن موسى[٤] : ﴿ تُبْتُ إليكَ ﴾ .

وقولِهِ[٥] : ﴿ ولقد فتنّا سليمان ﴾ . . . إلى ما أشْبَه هذه الظواهر[٦] .

قال القاضى رحمه الله[٧] : فأمّا احتجاجُهم بقوله : ﴿ ليَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تقدّم مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّر ﴾ : فهذا قد اختلفَ فيه المفسّرون ؛ فقيل : المرادُ ما كان قبل النبوةِ وبَعْدها[٨] .

وقيل : المراد ما وقع لكَ مِنْ ذَنْبٍ وما لم يَقَعْ — أعلمَهُ أنه مغفورٌ له[٩] .

وقيل : المتقدمُ ما كان قَبْلَ النبوّةِ ، والمتأخِّرُ عِصْمَتُك بَعْدَها ، حكاه أحمد بن نصر .

---

(١) سورة هود ، آية ٤٧ . فطلبه المغفرة يقتضى سبق ذنب منه .
(٢) سورة هود ، آية ٣٧
(٣) سورة الشعراء ، آية ٨٢ . يوم الدين : يوم الجزاء ، وخطيئته قوله : فعله كبيرهم .
(٤) سورة الأعراف ، آية ١٤٣
(٥) سورة ص ، آية ٣٤
(٦) أى ماذكرتهمن الأمور التىيدل ظاهرها على ماقالوه— لهأشباه ونظائر كثيرةتركت.
(٧) هو المؤلف .
(٨) المراد أنه لم يصدر منه ذنب قبل النبوة ؛ لأنه لا تكليف قبل النبوة أصلا ، والعقل لا يستقل بذلك . وقوله : مابعدها ذكر للتعميم ، كقولك : أعط من تراه ومن لم تره .
(٩) أنه مغفور له : غير مؤاخذ به لو وقع منه ، لكنه لم يقع منه ذنب لغيره .

وقيل[١] : المراد بذلك أمته .

وقيل : المرادُ ما كان عن سَهْوٍ وغَفْلَةٍ ، وتأويلٍ[٢] ؛ حكاه الطبرى ، واختاره القُشَيْرى .

وقيل : ما تقدّم لأبيك آدَم ، وما تأخّر من ذنوبِ أمّتك ؛ حكاه السمرقندى والسُّلَمىّ عن ابن عطاء .

وبِمِثْلِهِ والذى قبله يُتأوّلُ قولُه[٣] : ﴿ واسْتَغْفِرْ لذَنْبِك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ؛ قال مكىّ : مخاطبةُ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم هاهنا هى مخاطبةٌ لأُمته .

وقيل : إنّ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم لمّا أُمِر أنْ يقولَ[٤] : ﴿ وما أدْرِى ما يُفعَل بى ولا بكم ﴾ ـ سُرّ بذلك الكفّارُ[٥] ؛ فأنزل اللهُ تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأَخّر . . . ﴾[٦] الآية ؛ وبمآل المؤمنين فى الآية الأُخرى بعدها[٧] ؛ قاله ابن عباس ؛ فمقصِدُ الآية : إنك مغفور لكَ غَيْرُ مُؤاخَذٍ بِذَنْبٍ إنْ لو كان[٨] . قال بعضُهم : المغفرةُ هاهنا تَبْرِئةٌ من العيوب[٩] .

(١) فالمراد بخطابه خطاب أمته .

(٢) وتأويل : أى والمراد بما تأخر ما كان صادرا عن تـأويل ؛ أى بيان لمعنى يحتمله النص ، فيحمل عليه باجتهاد منه ، ثم يتبين له أن الصواب أو الأولى غيره .

(٣) سورة محمد ، آية ١٩ (٤) سورة الأحقاف ، آية ٩

(٥) فرح الكفار بذلك ، وقالوا : واللات والعزى ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد ، وماله علينا مزية ، ولولا أنه ابتدع مايقول من ذات نفسه لأخبره الذى بعثه بما يفعل .

(٦) قال الخفاجى : أنزل الله تعالى ردا عليهم : ليغفر لك الله . . . . فقال الصحابة رضى الله عنهم : هنيئا لك يارسول الله ؛ قد علمنا مايفعل الله بك ، فما يفعل بنا ؟

(٧) الآية التى بعدها هى قوله تعالى : ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات . . . . . وهى الآية الخامسة من السورة نفسها .

(٨) كان : وجد ؛ حقيقة أو حكما .

(٩) أى المراد منها تنزيه الله له ، وتبعيده عن الذنوب ، أو ما يؤدى إليها ؛ فالمغفرة كناية عما ذكر .

وأما قولُه : ﴿ وَوَضَعْنَا عنكَ وِزْرَكَ الذى أنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ؛ فقيل : ما سلف مِنْ ذَنبِكَ قبل النبوة ؛ وهو قولُ ابْنِ زَيْدٍ[1] ، والحسن ، ومعنى قولِ قتادة .

وقيل : معناه أنه حُفِظَ قَبْلَ نبوّته منها ، وعُصِمَ[2] ؛ ولولا ذلك لأثقلت ظَهْرَه[3] ؛ حكى معناه السمرقندى .

وقيل : المرادُ بذلك ما أثقلَ ظَهْرَه مِنْ أعْباء الرسالةِ حتى بلّغها ؛ حكاه الماوردى ، والسُّلَمىّ .

وقيل : حَطَطْنَا عَنْكَ ثِقَلَ أيّامِ الجاهلية[4] ؛ حكاه مكىّ .

وقيل: ثِقَلَ شُغْلِ سِرِّكَ وحَيْرَتِكَ وطلبِ شَرِيعتك حتى شَرَعْنَا ذلك لَكَ[5] ، حكى معناه القُشَيرى .

وقيل المعنى : خفَّفْنَا عليكَ ما حُمِّلْتَ بحِفْظِنَا لما استُحْفِظْتَ ، وحُفِظَ عليكَ[6] .

ومعنى أنقض ظَهْرَكَ ؛ أى كاد ينقُضه[7] ؛ فيكون المعنى[8] على مَنْ جعل ذلكَ

---

(١) ابن زيد: هوعبدالرحمن بن زيد بن أسلم المفسر الزاهد التقى المتقن. توفى سنة ١٨٢ هـ.

(٢) قال الخفاجى : عصم : حفظه الله تعالى عن الاتصاف به ابتداء ؛ وهو وجه حسن يتحمله اللفظ بلا تكلف .

(٣) أى لولا أنا حفظناك عنها أثقلت ظهرك وهدت قواك .

(٤) أيام الجاهلية كانت خالية من الدين والأمن ، أيام هرج ومرج ؛ فلما بعثه الله صلى الله عليه وسلم بالدين القويم سلم هو ومن تبعه ، وشرح الله صدورهم بالإسلام ، وصفاهم من الآثام ، خففت ظهورهم وسددت أمورهم .

(٥) سرك : قلبك . وحيرتك : تحيرك فى ابتداء أمرك . وطلب شريعتك : أى طلبك من الله شريعة تعمل بها . شرعنا ذلك له : بما أوحيناه فاطمأن قلبه وذهبت حيرته .

(٦) ماحملت : ماكلفت حمل أثقاله من دعوة الخلق ، وتبليغ أمانة الرسالة التى لم تطق حملها . بحفظنا لما استحفظت : أى نحن حفظنا ماأمرناك بحفظه .

(٧) ينقضه : يعيبه ويثقله .

(٨) فيكون المعنى : المراد معنى : ووضعنا عنك وزرك .

لما قبل النبوة ـ اهتمامَ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وَسلم بأُمُورٍ فعَلَها قبل نُبوَّتِه، وحُرِّمَتْ عليه بعد النبوّة؛ فعدّها أوزارا(١)، وثقلت عليه، وأَشْفَق(٢) منها.

أو يكون الوضْعُ عِصْمَةَ اللهِ له وكفايتَه من ذنوبٍ لو كانت(٣) لأَنْقَضَتْ ظَهْرَهُ.

أو يكون مِنْ ثقل الرسالة(٤)؛ أو ما ثَقُلَ عليه وشغل قَلْبَه من أُمور الجاهلية، وإعلامِ اللهِ تعالى له بحفْظِ ما استحفظه مِنْ وَحْيِه.

وأما قَوْلُه: ﴿ عفا اللهُ عنك، لِمَ أَذِنْتَ لهم ﴾ ـ فأَمْرٌ لم يتقدَّم للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فيه من اللهِ تعالى نَهْيٌ فيُعَدّ(٥) معصية، ولا عدّه اللهُ تعالى عليه معصيةً؛ بل لم يعدّهُ أهلُ العلمِ مُعَاتبة(٦). وغَلَّطوا مَنْ ذهب إلى ذلك؛ قال نِفْطَوَيْهِ [٢١٣]: وقد حاشاهُ(٧) الله تعالى من ذلك؛ بل كان مخيَّرًا في أَمْرَيْنِ(٨)؛ قالوا(٩): وقد كان له

---

(١) قبل نبوته، ونزول وحى فيها؛ أى اعتناؤه ببيان الله لحكمها حتى لايكون عنده هم وغم؛ ولكنها حرمت عليه بعد النبوة، ولم يكن مكلفا بها قبلها، فعدها أوزارا بعد ما حرمت عليه، وخشى المؤاخذة بها قبل ذلك.

(٢) أشفق منها: خاف من المؤاخذة بها لشدة مراقبته لله وخشيته له؛ فمعنى وضعها على هذا بيان أنه غير مؤاخذ بها، وأنها لم تكن وزرا عليه يخافه.

(٣) لو كانت: لو وجدت وصدرت عنه.

قال الخفاجى: فهو أمر على سبيل الفرض والتقدير لا التحقيق والتقرير.

(٤) من ثقل الرسالة عليه وما فى تبليغها من المشقة.

(٥) يعد: يجعله ويعتقده.

(٦) معاتبة: بفعل خلاف الأولى مما ليس معصية.

(٧) حاشاه الله: برأه ونزهه. ونفطويه هو إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى، إمام فى النحو، توفى سنة ٣٢٣ هـ.

(٨) فى أمرين: هما أنه إن شاء أذن لهم فى التخلف. وإن شاء لم يأذن قط.

(٩) قالوا: قال العلماء.

أنْ يَفْعَل ما شاء فيما لم يُنزَّلْ عليه فيه وَحْيٌ ، فكيف وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهم ﴾[١] . فلمّا أَذِنَ لهم أَعْلَمَه اللهُ بما لم يطَّلِعْ عليه مِنْ سِرِّهم أنه لو لم يأذَنْ لهم لقعدوا[٢] ، وأنه لا حرجَ عليه فيما فعَلَ ، وليس « عفا » هنا بمعنى غفر ؛ بل كما قال النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم[٣] : عفا اللهُ لكم عن صَدَقةِ الخيل والرقيق . ولم تجب عليهم قطُّ ؛ أى لم يُلزِمكم ذلك .

ونحوُه للقُشَيْرِىّ ؛ قال : وإنما يقولُ العَفْوُ : لا يكونُ إلّا عَنْ ذَنْبٍ ـ مَنْ لم يَعْرِفْ كلامَ العرب ؛ قال : ومعنى عفَا اللهُ عنك ـ أى لم يُلزِمْك ذَنباً .

قال الداودى : رُوِى أنها تكرمة[٤] .

وقال مكى : هو استفتاحُ كلامٍ[٥] ؛ مثل أصلحك اللهُ وأعزّك .

وحكى السمرقندى[٦] أنّ معناهُ عافاكَ الله .

وأما قولُه فى أسارى بَدْر : ﴿ ما كَان لنبيٍّ أنْ يَكُونَ له أَسْرَى حتى يُثْخِنَ

---

(١) قال الخفاجى : وهذا الأمر وتعلقه بالمشيئة صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم مخير . والآية من سورة النور : ٦٢

(٢) بما لم يطلع عليه من سرهم : أى مما خفى عليه من أمرهم ؛ أو بما أسروه واستتر من ضمائرهم ، وهو أنه لو لم يأذن لهم فى القعود والتخلف عنه لقعدوا ، ولو أمروا بخلافه .

(٣) فى حديث رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وصحيح مسلم : ٦٧٦

(٤) إنها : أى قوله تعالى: عفا الله عنك. كانت تكرمة من الله فى خطاب نبيه عليه الصلاة والسلام وتعظيما وتكريما يبدأ به الكلام .

(٥) استفتاح كلام : يوقعونه فى أول خطابهم ؛ أى هى جملة دعائية يبدءون بها الكلام إكراما لمن يخاطبونه ؛ وهو عادة أهل الترسل فى مكاتباتهم .

قال الخفاجى : وهو قريب مما قبله ، بل معناهما واحد ، وهو ملاطفة فى المحاورة تدعو لاستماعه حتى كأنه باستماعه مستحق للدعاء له . والقرآن جاء على أساليب العرب ، فهى جملة دعائية قصد بها إكرام المخاطب .

(٦) قال الخفاجى : قيل إنه أخر هذا الرأى لضعفه .

فى الأرض تُريدون عرَضَ الدنيا واللهُ يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ . فليس فيه إلزامُ ذَنْبٍ للنبىّ اللهُ عليه وسلم ؛ بل فيه بيَانُ ما خُصَّ به وفُضِّل مِنْ بين سائر الأنبياء ؛ فكأنه قال : ما كان هذا لنبىٍّ غيْرك[1] ؛ كما قال صلى اللهُ عليه وسلم[2] : أُحِلّتْ لى الغنائمُ ، ولم تحَلّ لنبىٍّ قَبْلِي[3] .

فإنْ قِيل : فما معنى قولِه تعالى[4] : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا ، واللهُ يريدُ الآخِرَةَ واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ .

قيل : المَعْنِىّ بالخطاب لِمَنْ أَرَادَ[5] ذلكَ منهم ، وتجرَّدَ غرَضُه لِعرَضِ الدنيا وَحْدَهُ ، والاستِكْثَارِ منها ؛ وليس المراد بهذا[6] النبىَّ صلى الله عليه وسلم، ولا عِلْيَةَ

(١) أى لم يقع هذا الذى خصصت به من أخذك الفدية ممن أسرته ـ لنبى من الأنبياء السابقين غيرك ؛ فإن الله أحل ذلك لك وخيرك فيه بين الفداء والقتل .

(٢) صحيح مسلم : ١٣٦٧ ، وسنن الترمذى : ٥ ـ ٢٧٢

(٣) قال فى نسيم الرياض : وفى المسائل الأربعين للرازى: العتاب وقع هنا على ترك الأولى، لأن الأفضل فى ذلك الوقت الإثخان وترك الفداء ؛ قطعا للأطماع ؛ ولولا أنه من باب الأولى مافوضه صلى الله عليه وسلم لأصحابه .

وقال العراقى : الصواب أنه فوض له الاجتهاد فى أمر الأسارى ؛ ففوضه لأصحابه ؛ فأفتى عمر بالقتل ؛ وكان هو المصلحة ، وهو من إحدى موافقاته؛ واجتهد الصحابة بما لم يؤد إلى المصلحة ، فخلص عمر ولم يؤاخذ النبى صلى الله عليه وسلم لبذل جهده فى اجتهاده ، فله أجر . ولذا قال : عرض على عذاب قومك ـ دون عذابى ، لخروجه من موجب العقاب ببذل جهده.

قال الخفاجى : وإلى هذا ذهب فحول العلم ، وجمع بين ظاهر الآية وما يجب لمقامه صلى الله عليه وسلم من العصمة . قال الخفاجى : وهو حسن جدا .

(٤) سورة الأنفال ، آية ٦٧ . والسؤال وارد على ما اختاره من أنه أمر اختص به صلى الله عليه وسلم، بأنه لوكان كذلك ماعوتب عليه بما ذكر، من أنهم رجحوا أخذ الفداء ،وهو مال غاد ورائح،وعرض فان ، لاينبغى النظر إليه .

(٥) المعنى : المقصود بالخطاب فى قوله: « تريدون » . أراد ذلك : أراد عرض الدنيا.

(٦) بهذا : بالخطاب .

أصحابه ؛ بل قد رُوِى عن الضحّاك أنها نزلتْ حين انهزم المشركون يومَ بدْرٍ [١] ، واشتغل الناسُ بالسَّلَبِ وجَمْع الغنائم عن القِتَال ، حتى خَشِيَ عُمر أنْ يَعْطِفَ عليهم العدوُّ [٢] .

ثم قال تعالى [٣] : ﴿ لولا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لمسَّكُمْ فيما أخذتُم عذابٌ عظيمٌ ﴾ ؛ فاختلف المفسِّرونَ فى معنى الآية ؛ فقيل : معناها لولا أنه سبق منى أنْ لا أعذِّبَ أحدًا إلا بعد النَّهْيِ لعذَّبْتُكم .

فهذا يَنْفِى أنْ يكونَ أمْرُ الأسْرَى معصيةً [٤] .

وقيل : المعنى لولا إيمانُكم بالقرآنِ ، وهو الكتابُ السابقُ [٥] فاستوجبْتم به الصَّفحَ — لعُوقِبْتُمْ على الغنائم .

ويُزَادُ هذا القولُ تفسيرا وبيانا بأنْ يُقَال : لولا ما كُنْتُم مؤمنين بالقرآنِ ، وكنتُم مِمَّنْ أُحِلَّت لهم الغنائمُ لعُوقِبْتُم ، كما عُوقِبَ مَنْ تَعَدَّى [٦] .

(١) أى أنها نزلت فى أمر آخر غير الفداء ، فلا يرد السؤال أصلا .

(٢) يعطف عليهم العدو : يرجع كارا عليهم .

(٣) سورة الأنفال ، آية ٦٨ ، وهذه الآية فى القصة نفسها .

والمراد بالكتاب حكم الله الذى كتبه وقدره . والمعنى : لولا أنه سبق من الله مما أوحاه لنبيه صلى الله عليه وسلم أنى لا أعذب أحدا إلا بعد النهى وتحريم أخذ الفداء لعذبتكم على مافعلتم من أخذ الفداء ؛ لأنه لو كان منهيا عنه محرما — استحق بمخالفته العذاب. وقيل: المراد بالكتاب : القرآن ، وسيأتى فى التفسير الثانى .

(٤) لأنه لم ينه الله عنه ولم يحرمه .

(٥) السابق فى قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق » .

(٦) والكتاب على هذا بمعنى القرآن ، وسبقه لقدمه فى الأزل ، أو حكم الله الذى كتبه وقدره .

قال الخفاجى: وحاصله أنه لولا أن الله أنزل القرآن وما فيه من الأحكام وأحل لكم فيه الغنائم لمسكم العذاب وحل بكم العقاب ، كما عوقب من قبلكم من الأمم لما تجاوزوا الحدود وتعدوا ما نهاهم الله عنه .

=

وقيل : لولا أنه سبق فى اللَّوْح المحفوظ أنَّها حلالٌ لكم لعُوقبتم .

فهذا كلُّه يَنْفِى الذَّنبَ والمعصيةَ ؛ لأنَّ مَنْ فعَلَ ما أُحِلَّ له لم يَعْصِ ؛ قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ .

وقيل : بل كان صلّى اللهُ عليه وسلم قد خُيِّرَ فى ذلك[2] ؛ وقد رُوِى عن علىّ رضِىَ اللهُ عنه ، قال[3] : جاء جبريلُ عليه السلام إلى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم يوم بَدْرٍ ، فقال: خَيِّرْ أصحابَك فى الأسارى ، إن شاءوا القَتْلَ ، وإنْ شاءوا الفداء ، على أن يُقْتَلَ منهم فى العام المُقْبلِ مِثْلُهم . فقالوا : الفداء ويُقْتَل[4] مِنّا .

وهذا دليلٌ على صحة ما قُلْناه ، وأنهم لم يفعلوا إلَّا ما أُذِنَ لهم فيه ؛ لكن بعضُهم مالَ إلى أضعف الوَجْهين مما كان الأصْلَحُ غَيْرَه من الإثخانِ والقَتْلِ ؛ فعُوتِبُوا على ذلك[5] ، وبُيِّن لهم ضَعْفُ اختيارِهم وتصويبُ اختيارِ غَيْرِهم[6] ؛ وكلُّهم غيْرُ عُصاةٍ ولا مُذْنبين[7] ؛ وإلى نحو هذا أشار الطبرىُّ .

وقولُه ـ صلى اللهُ عليه وَسلم فى هذه القضيّة[8] : لو نزل مِن السماء عَذابٌ ما نجا منه إلا عُمر [٢١٤] ـ إشارةٌ إلى هذا من تصويب رَأْيِه ورَأْيِ مَنْ أخذ بمَأْخذِه ، فى إعزازِ الدِّين ، وإظهار كلمته ، وإبادةِ عَدُوِّه ، وأنَّ هذه القضيّة[8] لو استوجبَتْ

= وهو إما تشريع وامتنان عليهم بما أحله لهم ، ولم يضيق عليهم كما ضيق على الأمم السابقة ؛ أو هو ردع لمن اشتغل بالغنائم والسلب .

(١) سورة الأنفال ، آية ٦٩ . كلوا : المراد انتفعوا به ، وليس المراد خصوص الأكل .

(٢) خير فى ذلك : أى فى أخذ الفدية من الأسرى وفى قتلهم ؛ فلما أخذها قيل له : كان الأولى خلافه .

(٣) سنن أبى داود : ١ ـ ٢٦٧

(٤) ويقتل منا : رغبة فى الفداء .

(٥) على ذلك : إذ اختاروا غير الأصلح .

(٦) اختيار غيرهم : وهو ما اختاره عمر رضى الله عنه .

(٧) لأن كلا منهم قال ما أداه إليه اجتهاده ظانا أن الخير فيه .

(٨) هذه القضية : قضية أسرى بدر .

عذابا نجا منه عمر ومِثْلُه[١] : وعَيَّنَ عُمَرَ[٢] لأنه أولُ من أشار بقَتْلِهم؛ولكنّ اللهَ لم يقَدِّرْ عليهم فى ذلك عذاباً لِحلِّه لهم[٣] فيما سبق .

وقال الداودىّ : والخَبَرُ بهذا لايثبُت[٤] ، ولو ثبتَ لما جاز أنْ يُظَنّ أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم حكَمَ بما لانَصّ فيه ولا دليل مِنْ نَصٍّ ، ولا جُعِل الأمْرُ فيه إليه ؛ وقد نزّهَهُ اللهُ تعالى عن ذلك[٥] .

وقال القاضى بَكْر بن العلاء[٦] : أخبر اللهُ تعالى نبيَّه فى هذه الآية أنّ[٧] تأويلَه وافَق ما كتبه له من إحلالِ الغنائم والفِداء ؛ وقد كان قَبْل هذا فادَوْا[٨] فى سَرِيّةِ عبد الله بن جَحْش التى قُتِلَ فيها ابنُ الحَضْرَمىّ بالحَكَم بن كَيْسَان

---

(١) مثله : أى نجــا من العذاب مثله ممن كان على رأيه كسعد بن أبى وقاص كما ورد فى الحديث .

(٢) عين عمر :خصه بالذكر مع أن جماعة منهم كانوا على رأيه،لأنه أول من أشار بقتلهم .

(٣) لحله لهم : لأن الله أحله لهم،وخيرهم بين أخذ الفداء والأسرى .

(٤) أى لم يثبت المنع من أخذ الفدية .

(٥) أى ولو ثبت المنع لما جاز أن يظن أن النبى صلى الله عليه وسلم حكم بما لانص فيه بوحى نازل عليه ، ولادليل يدل على ماحكم به مستنبط من نص سبق باجتهاده ، ولاجعل الأمر فيه من الله مفوض إليه ؛ فإنه وقع التفويض إليه صلى الله عليه وسلم فى أمور أذن له بالحكم فيها ، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله تعالى : وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى : والاجتهاد والتفويض بوحى يوحى .

(٦) إمام مذهب مالك .

(٧) فى هذه الآية : الآية التى نزلت فى أسارى بدر . أن تأويله: أن تأويل النبى صلى الله عليه وسلم الذى قبله من أبى بكر رضى الله عنه فى اختيار عدم القتل وافق ما كتب له؛أى حكم به وجوزه بقوله : لولا كتاب من الله سبق فى علمه وحكمه .

(٨) قبل هذا : قبل غزوة بدر . فادوا : أخذوا الفداء من المشركين . والسرية : ناس يرسلون للعدو ومن خمسة إلى ثلاثمائة أو أربعمائة وهذه السرية كانت فى رجب فى السنة الثانية،أو فى جمادى الآخرة ؛ وكانت السرية قبل بدر بشهر أو أكثر وانظر هامش رقم ١ فى الصفحة الآتية .

وصاحِبه ، فما عتبَ اللهُ ذاكَ عليهم ؛ وذلكَ قَبْلَ بَدْر بأزْيد من عام[(١)] .

فهذا كُلُّه يَدُلُّ على أنَّ فِعْلَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم في شأنِ الأسْرَى كانَ على تأويلٍ وبَصِيرةٍ[(٢)] ، وعلى ما تقدّم قَبْلُ مثْله[(٣)] ؛ فلم ينكِره اللهُ تعالى عليهم ، لكنِ اللهُ تعالى أرادَ ـ لعِظَم أمْرِ بَدْرٍ وكَثْرَةِ أسراها ، واللهُ أعلم ـ إظهارَ نعمتِه، وتأكيدَ مِنَّتِه[(٤)] بتعريفهم ما كتبه في اللَّوحِ المحفوظ[(٥)] مِنْ حِلٍّ ذلكَ لهم ، لا على وَجْهِ عِتَابٍ وإنكارٍ وتَذْنِيبٍ[(٦)] . هذا معنى كلامه .

وأما قولُه[(٧)] : ﴿ عَبَسَ وتولَّى أنْ جاءه الأعمى . . . ﴾ .

فليس فيه إثباتُ ذَنْبٍ له صلّى اللهُ عليه وسلم؛ بل إعلامُ اللهِ أنَّ ذلكَ المُتَصَدَّى له ممَّنْ لا يتزكّى[(٨)] ، وأنَّ الصَّوابَ والأَوْلَى ـ لو كُشِفَ لكَ حالُ الرَّجُلَيْن[(٩)] ـ الإقبالُ على الأعمى .

---

(١) قال الخفاجي : كذا في النسخ ؛ وهو سهو ، لأن بدرا الأولى وقعت في ربيع الأول بعد ثلاثة عشر شهرا من الهجرة ؛ فتكون هذه الوقعة في سنة اثنتين من الهجرة ؛ ثم في رجب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السرية ، ثم في رمضان من هذه السنة وقعت غزوة بدر الكبرى فبين هذه السرية وغزوة بدر نحو ثلاثة أشهر . وقال القارى : بل كانا في سنة واحدة .

(٢) كان على تأويل : باجتهاد منه ، وبصيرة بالنظر الصحيح في أنه فيه إعانة ورجاء لأن يهديهم الله في الآجل إلى الإسلام ؛ وكان كذلك .

(٣) قبل : قبل بدر . مثله : من أخذ الفدية في سرية عبد الله بن جحش ، ولم يعاتبوا عليه كما تقدم .

(٤) منته : نعمته عليهم .

(٥) ما كتبه في اللوح المحفوظ بقوله : لولا كتاب من الله سبق . . .

(٦) لا على وجه عتاب : أي لم يذكره للومهم ، بل لبيان شكره ونعمته . أو تذنيب : أي نسبتهم لذنب ارتكبوه بما فعلوه .

(٧) أي مايشعر به ظاهرها ؛ من أنه صدر عنه صلى الله عليه وسلم ما استحق عليه العتاب، واستدلال بعضهم بهذه الآية والقصة على تجويز الصغائر عليهم .

(٨) لا يتزكى : لا يسلم فيطهره الله من دنس الشرك .

(٩) حال الرجلين : أي ابن أم مكتوم ، ومن كان عنده من المشركين .

وفِعْلُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم لِمَا فَعَل ، وتَصَدِّيه لذاك الكافر ، كان طاعةً للهِ وتبليغاً عنه ، واستئلافاً[١] له ، كما شرعه اللهُ له ، لا معصية ، ولا مخالفةً له .

وما قصّه اللهُ عليه مِنْ ذلك إعلامٌ بحال الرَّجُلين وتوهين[٢] أمرِ الكافر عنده ، والإشارة إلى الإعراضِ عنه ، بقوله[٣] : ﴿ وما عَلَيْكَ أَلَّا يزَّكَّى ﴾ :

وقيل : أراد بـ « عبس » ، و « تَوَلَّى » ـ الكافر الذى كان مع النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ قاله أبو تمام[٤] .

وأمّا قصةُ آدمَ عليه السلامُ ، وقوله تعالى : ﴿ فأَكَلاَ منها ﴾ ـ بعد قوله[٥] : ﴿ ولا تَقْرَبَا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين ﴾ . وقوله[٦] ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عن

---

(١) أى استمالة للكافر وتأليفا له رجاء لإسلامه .

(٢) توهين : تضعيفه وبيان لحاله ؛ لأنه لامقدار له يعتد به .

(٣) لأن معناه : لابأس عليك من أمره ؛ فلا تلتفت إليه؛ أى لابأس عليك بعدم إسلامه؛ لحرصك على إسلامه الحامل لك على الإعراض عن غيره تطييبا لخاطره ـ الأولى تركه ؛ لأنه ماعليك إلا البلاغ ، وقد فعلت .

(٤) أبو تمام : قال البرهان: هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر المشهور وهو فى الطبقة العلية من المولدين ، متقدم العصر والرتبة على المتنبى ، لكن لم نر من عده من علماء الحديث والتفسير؛ فهو غلط من اشتراك الاسم .

وقد نقل المصنف فى هذا الكتاب كثيرا عن محمد الأبهرى من علماء المالكية من أهل طليطلة، وهو ملقب بأبى تمام ، وهو المراد هنا ؛ وما قاله الشراح هنا وأصحاب الحواشى من أنه أبو تمام الشاعر خطأ ؛ فإنا لم نسمع من نقل عن الشاعر شيئا مما يتعلق بالأمور الشرعية ؛ وإنما غرهم الاشتراك اللفظى ، وهذا مما لا شبهة فيه .

قال الخفاجى : وهو قول فى غاية الضعف ، بعيد عن السياق .

(٥) سورة البقرة ، آية ٣٥   (٦) سورة الأعراف ، آية ٢٢

تِلْكُمَا الشجرة ﴾ ؛ وتصريحُهُ تعالى عليه بالمعصية بقوله تعالى[١] ﴿ وعَصَى آدمُ ربَّه فغَوَى ﴾ ؛ أى جَهِلَ .

وقيل أخطأ ؛ فإنّ اللهَ تعالى قد أخبر بعُذْرِه بقوله[٢] :﴿ ولقد عَهِدْنَا إلى آدمَ من قبل فنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾[٣] ؛ قال ابنُ زيد : نَسِيَ عداوةَ إبليس له ، وما عَهِدَ اللهُ إليه من ذلك[٤] بقوله[٥] : ﴿إنّ هذا عدوٌّ لك ولزَوْجك . . .﴾الآية .

وقيل : نَسِيَ ذلك بما أظْهَر لهما[٦] .

وقال ابنُ عباس : إنما سُمِّيَ الإنسانُ إنساناً لأنه عُهِدَ إليه فنَسِيَ .

وقيل : لم يَقْصِدِ المخالفةَ استحلالا[٧] لها، ولكنهما اغترّا بِحَلِف إبليس لهما[٨] : ﴿ إنّي لكما لمِنَ الناصحين ﴾ ؛ وتوهّما أنّ أحداً لا يحلفُ بالله حانثا .

وقد رُوِيَ عُذْرُ آدَمَ بمِثْلِ هذا فى بَعْضِ الآثار .

وقال ابنُ جُبَيْر : حلف بالله لهما حتى غرّهما ؛ والمُؤْمِنُ يُخْدَعُ[٩] .

وقد قيل : نَسِيَ ، ولم يَنْوِ المخالفةَ ؛ فلذلك قال : ﴿ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾ ؛ أى قَصْدًا [٢١٥] للمخالفة .

---

(١) سورة طه ، آية ١٢١ (٢) سورة طه ، آية ١١٥

(٣) عهدنا إلى آدم : أخذنا عليه وبينا له مايلزمه فتركه . من قبل : قبل أكله من الشجرة . ولم نجد له عزما ثابتا على ماعهد إليه .

(٤) من ذلك : من كون إبليس عدوا له ولزوجه وولده .

(٥) سورة طه ، آية ١١٧

(٦) لهما : لآدم وزوجه من المخادعة .

(٧) استحلالا لها : لعدها حلالا ، حتى لا يكون ذلك معصية .

(٨) سورة الأعراف ، آية ٢١

(٩) قال الخفاجى : لأن المؤمن لا يفعل ذلك، فيعتقد أن غيره مثله لا ينافق ولا يخادع ولا يكذب .

وأكثرُ المفسرين على أنَّ العَزْمَ هنا الجَزْمُ والصَّبْر[(١)] .

وقيل : كان عند أكْله سكرانَ[(٢)] ؛ وهذا فيه ضَعْفٌ ؛ لأن اللهَ تعالى وصف خَمْرَ الجنةِ أنها لاتُسْكر ؛ فإذا كان ناسيا لم تكن معصية ؛ وكذلك إن كان مُلبَّسا[(٣)] عليه غالطا ؛ إذ الاتفاقُ على خروج النَّاسِي والسَّاهِي عن حُكم التكليف .

وقال الشيخ أبو بكر بن فُورَك[(٤)] وغيره : إنه يمكنُ أنْ يكونَ ذلك قبل النبوَّةِ ؛ ودليلُ ذلك قولُه تعالى : ﴿ وعَصَى آدَمُ ربَّه فغَوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهَدَى[(٥)] ﴾ ؛ فذكر أنَّ الاجتباء والهدايةَ كانا بعد العِصْيَانِ[(٦)] .

وقيل : بل أكلها متأوِّلا ، وهو لا يَعْلَمُ أنَّها الشجرةُ التي نُهِيَ عنها ؛ لأنَّه

---

(١) الجزم : الأخذ بما فيه سداد بعد النظر التام فيه ، والصبر حتى يتيسر له مراده من غير قلق واضطراب .

(٢) قال الخفاجي : ورد أن خمر الجنة ليس له سكر ولا خبال كخمور الدنيا ؛ ولا يخفى أن هذا الوجه في غاية الضعف، والأولى تركه .

(٣) ملبسا عليه : يعني تلبيس إبليس الذي غره به ، وقسمه له بأنه ناصح له ، وأنه يريد خلوده في الجنة ، وعدم زوال نعمته عنه ، وأن نهي الله ليس بتحريمي مؤاخذ به .
غالطا : أي وقع من آدم الغلط بقبوله تلبيسه وبغريزة له بأنه لا إثم عليه في أكله .

(٤) هو أبو محمد بن الحسين الأصبهاني إمام أهل السنة والكلام ، وكان في عصره أجل من تصدر للوعظ والتدريس والتأليف . توفي سنة ٤٠٦ هـ .

(٥) اجتباه ربه : اختاره لنبوته ؛ فتاب عليه مما صدر منه قبل النبوة . وهدى : وهداه الله إلى علمه .

(٦) قال الخفاجي : فالمعنى أن الله ارتضاه لنبوته ، وأنه لم يصدر عنه ذنب بعد ما نبئ .
وقد قيل : إنه في غاية البعد ؛ لأن ظاهر الحال من سجود الملائكة لآدم ، وإظهار فضله عليهم، ومخاطبته في حضرته، تمنع هذا الاحتمال ؛ إذ لا معنى للنبوة غير هذا ؛ فالاستدلال به على نبوته أولى مما استدل به المصنف رحمه الله .

تأوَّلَ نَهْىَ اللهِ عن شجرةٍ مخصوصةٍ لا على الجِنْس[١] ؛ ولهذا قيل : إنما كانت التوبةُ مِنْ تَرْكِ التحفُّظ[٢] ، لا مِنَ المخالفة .

وقيل : تأوَّلَ أنَّ اللهَ لم يَنْهَهُ عنها نَهْىَ تحريم .

فإنْ قِيل : فعلى كُلِّ حالٍ فقد قال اللهُ تعالى[٣] : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ ؛ وقال[٤] : ﴿ فتاب عليه وَهَدَى ﴾ . وقولُه فى حديث[٥] الشفاعة: ويذكرُ ذَنْبَه ، وقال : إنى نُهِيتُ عن أَكْلِ الشجرةِ فعصيت ؛ فسيأتى الجوابُ عنه وعن أشباهه مُجْملا آخِرَ الفَصْلِ إنْ شاء الله .

وأمَّا قِصَّةُ يونس فقد مضى الكلامُ على بعضها آنفًا ؛ وليس فى قصة يونس نَصٌّ على ذَنْبٍ ؛ وإنما فيها : أَبَقَ[٦] وذَهب مُغَاضِبًا[٧] وقد تكلمنا عليه .

وقيل : إنما نَقِمَ اللهُ عليه خروجَه عن قومه فارًّا من نزول العذاب[٨] .

وقيل : بل لمّا وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال : واللهِ لا ألقاهم بوجه كذّابٍ أبداً .

وقيل : بل كانوا يقتُلون مَنْ كذَب فخاف ذَلِكَ[٩] .

---

(١) لا على الجنس : الشامل لجميع أفرادها .

(٢) التحفظ : قلة الغفلة . والمراد ترك التيقظ والتنبه .

(٣) أى أثبت الله له المعصية .

(٤) والتوبة إنما تكون من ذنب .

(٥) وقوله : قول آدم المحكى عنه . وقد تقدم .

(٦) أبق : فر وهرب .

(٧) ذهب مغاضبا ؛ أى غضبان ، وغضبه على قومه لا على ربه : وقد سبق هذا . . . .

(٨) نقم الله عليه : عاب فعله ولامه عليه وكرهه . من نزول العذاب بهم ، وهو بين أظهرهم ؛ فكان ينبغى له الثبات اعتمادا على أن الله ينجيه كما نجى نوحا وغيره من الأنبياء حتى يوحى إليه مايريد .

(٩) أى كان من عادتهم أنهم يقتلون من كذب ، فخاف القتل لتخلف ماوعدهم به .

وقيل : ضَعُفَ عن حَمْلِ أعباء الرسالةِ[١] . وقد يقدم الـكلامُ أنه لم يَـكْذِبْهم[٢] .

وهذا كلُّه ليس فيه نصٌّ على معصية إلّا على قولٍ مرغوب[٣] عنه .

وقوله : ﴿ إذ أَبَقَ إلى الفُلْكِ المشحون ﴾[٤] ـ قال المفسرون تباعَدَ .

وأما قوله : ﴿إنّى كُنتُ من الظالمين﴾[٥] ؛ فالظُّلْمُ وَضْعُ الشىء فى غير موضعه؛ فهذا اعترافٌ منه عند بعضهم بذَنْبِه ؛ فإمّا أنْ يكونَ لخروجه عن قَوْمِه بغير إذْنِ ربّه ، أو لضَعْفِهِ عمّا حُمِّلَه ، أو لدعائه بالعذابِ على قَوْمِه[٦] وقد دعا نوحٌ بهلاكِ قومه[٧] فلم يؤاخَذْ .

وقال الواسطى فى معناه : نَزّه رَبَّه[٨] عن الظلم ، وأضافَ الظّلْمَ إلى نفسه اعترافا واستحقاقا[٩] . ومِثْلُ هذا قول آدم وحَوّاء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ ؛ إذ كانا السبَب فى وَضْعهما غير الموضع الذى أُنْزِلا فيه ، وإخْراجهما من الجنّةِ ، وإنزالهما إلى الأرض .

---

(١) قال فى نسيم الرياض : قال وهب : كان فى خلقه ضيق ؛ ولذا أخرجه الله عن أولى العزم بقوله : « فاصبر كما صبرأ ولو العزم من الرسل ، ولاتكن كصاحب الحوت » .

(٢) فما وعدهم به من العذاب نزل بهم حتى رأوا غمامة فيها دخان أظلتهم، ولـكنهم لما تضرعوا إلى الله كشفه عنهم .

(٣) مرغوب عنه : متروك لضعفه .

(٤) الفلك : السفينة . المشحون : المملوء .

(٥) فإنه يقتضى أنه صدر منه ذنب .

(٦) قال الخفاجى : وهـــو توجيه ضعيف ؛ لأن الدعاء على الغير إذا رأى منه مايسوءه لايعد ذنبا .

(٧) وذلك قوله :« رب لاتذر على الأرض من الـكافرين ديارا » .

(٨) نزه ربه عن الظلم إذ قال : سبحانك . . .

(٩) قال الخفاجى : والحاصل أنه ذكره هضما وبيانا لاستمداد البشر لمثله ؛ وإنما يحفظهم الله بلطفه .

وأما قصةُ داود عليه السلام فلا يجبُ أنْ يُلتَفتَ إلى ما سطَّرَهُ فيه الأخباريون[١] من أهل الكتاب الذين بدَّلوا وغيَّروا ؛ ونقله بعضُ المفسرين . ولم ينصّ اللهُ على شيء من ذلك ، ولا وردَ في حديث صحيح . والذي نصّ اللهُ عليه قوله[٢] : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أنما فَتَنَّاهُ فاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وأناب . فغفَرْنَا له ذلك وَإنَّ له عندنا لزُلْفَى وَحُسْنَ مآب ﴾ .

وقولُه فيه : ﴿ أوَّاب ﴾[٣] .

فمعنى فتنّاهُ : اختبرناه[٤] . وأوّاب : قال قتادة : مُطِيع[٥] .

وهذا التفسير أولى[٦] .

وقال ابن عباس ، وابن مسعود : ما زاد داودُ على أنْ قال للرجل : انْزِلْ لي عن امرأتك وأكْفِلْنيها[٧] ؛ فعاتَبَهُ اللهُ على ذلك ، ونبّهه عليه[٨] ، وأنكر عليه [٢١٦] شُغْلَه بالدنيا ، وهذا الذي ينبغي أنْ يعوّل عليه من أمره .

---

(١) الأخباريون : أصحاب القصص .
وما سطروه هو قولهم : إن داود كتب إلى قائد جيشه أن ابعث أوريا ــ زوج المرأة الحسناء التي رآها داود وهو يصلي في محرابه فتعلق بها قلبه ــ إلى وجه العدو قبل التابوت ، وكان من يتقدم مع التابوت لايجوز له أن يرجع حتى يفتح على يديه أو يستشهد ، فتقدم ففتح على يديه ، فكتب له ثانيا : ابعثه لموضع كذا مرة بعد مرة ، حتى قتل فتزوج امرأته .

(٢) سورة ص ، آية ٢٤ ، ٢٥ (٣) أواب : كثير الرجوع عما يفعل .

(٤) المراد فعلنا به فعل المتحن ليظهر حاله للناس ؛ من فتنت الذهب ؛ إذا صفيته من غشه ؛ فليست الفتنة هنا بإيقاعه فيما يضره من الآثام كما هو المعنى المتداول في عرف اللغة .

(٥) لكثرة رجوعه إلى ربه .

(٦) أولى من تفسيره بتواب عن الذنوب .

(٧) أكفلنيها : ضمها لي بالدخول تحت نكاحي قال القاري ؛ وكان أهل زمان داود يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها ، وكان ذلك متاحا لهم .

(٨) ونبه عليه : لما فيه من خلاف الأولى اللائق بمقامه .

وقيل : خطبها على خِطْبته .

وقيل : بل أحبَّ بقلبه أنْ يُسْتَشْهَدَ(١) .

وحكى السمرقندى أنَّ ذَنبَه الذى استغفر منه قولُه لأَحَدِ الخَصْمين(٢) : ﴿ لقد ظلمكَ ﴾ ، فظلَّمَه(٣) بقول خَصْمِه .

وقيل : بل لِمَا خشِىَ عَلَى نَفْسه ، وظَنَّ من الفِتْنَةِ بما بُسِطَ له من المُلْك والدُّنيا .

وإلى نَفْىِ ما أُضِيفَ فى الأَخبارِ إلى دَاود من ذلك ـ ذهب أحمد بن نصر ، وأبو تمام(٤) ، وغيرها من المحققين .

وقال الدَّاودىّ : ليس فى قصةِ داود وأوْريا خَبَرٌ يثبُتُ ؛ ولا يظنُّ بنبىّ محبَّةُ قَتْلِ مُسْلِمٍ .

[وقيل : إنَّ الخَصْمين اللذَيْن اختصما إليه رجلان(٥) فى نِعَاجِ غَنَمٍ ، على ظَاهر الآية(٦)] .

(١) أحب بقلبه أن يستشهد أوريا ليتزوج بامرأته ؛ لا أنه صرح به ، وباشر أسبابه ، وهو ميل قلبى لا يؤاخذ به ؛ لأنه خطر بقلبه أنه لو استشهد تزوجها ، لأنها أعجبته .

قال الخفاجى : وعلى هذه الوجوه لا معصية فيه : أما طلب النزول عن زوجته فكان جائزا عندهم كما كان فى أول الهجرة بين الأنصار والمهاجرين . وأما الخطبة على الخطبة فإنها وإن كانت حراما عندنا بغير رضا وفراغ فلعله كان جائزا عندهم ، أو لم يعلم بما أعلمه الله به فلا حرج عليه . وأما خطرات القلوب فلا يؤاخذ بها ؛ وما عداه لا يجوز نسبته لهم ولا التحدث به ؛ ولذا قال على رضى الله عنه : من حدث بقصة داود عليه السلام جلدته مائة وستين ، وهو حد الفرية على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٢) أحد الخصمين : أى الملكين اللذين أتياه فى صورة رجلين متخاصمين له .

(٣) لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . فظلمه : نسبه للظلم . يعنى أنه سمع قول المتظلم فاستعجل ، ولم يسأل عن ظلمه ؛ ولذا عاتبه ولم يرض فعله .

(٤) انظر ٢٧٢ فى تحقيق أبى تمام هذا

(٥) رجلان حقيقة ، لا ملكان فى صورة رجلين .

(٦) قال الخفاجى : والحاصل أن ما اشتهر بين القصاص وأهل الكتاب لم يثبت ؛ والذى =

وأما قصةُ يوسف وإخوتهِ فليس على يوسفَ فيها تعقّب[١]، وأمّا إخوتُه فلم تثبُتْ نبوّتُهم فيلزمَ الكلامُ على أفعالهم. وذِكْرُ الأسباطِ وعَدُّهم فى القرآنِ عند ذِكْرِ الأنبياء ليس صريحا فى كونهم من أهل الأنبياء.

قال المفسرون: يريدُ مَنْ نُبِّئَ مِنْ أبناء الأسباط[٢].

وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صِغارَ[٣] الأسنان؛ ولهذا لم يميِّزُوا يوسفَ حين اجتمعوا به؛ ولهذا قالوا: أَرْسِلْه معنا غداً نَرْتَعْ ونلعب[٤]، وإن ثبتت لهم نبوّةٌ فبَعْدَ هذا، والله[٥] أعلم.

وَأما قولُ الله تعالى فيه: ﴿ولقد همَّتْ بِهِ وَهَمَّ بها لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ - فعلى طَرِيقِ كثيرٍ من الفقهاء والمُحَدِّثين أنَّ هَمَّ النَّفْسِ لايؤاخَذُ به؛ وليس سيئةً[٦]؛ لقوله صلى اللهُ عليه وسلم - عن ربّه[٧]: «إذا هَمّ عبدى بسيئة

=قصه الله تعالى عنه ليس فيه مايأباه مقام النبوة. وما بين القوسين كتب أمامه فى هامش ا: من الأم من غير الرواية.

(١) تعقب: اعتراض، ممايدل على طعن فيه، أو نقص ينسب إليه مما لايناسب مقامه. وفى ب: تعتب.

(٢) لا أولاده لصلبه. وفى نسيم الرياض: قال ابن كثير: لم يقم دليل على نبوتهم، وظاهر القرآن يخالفه.

(٣) صغار الأسنان؛ أى غير مكلفين.

(٤) واللعب من شأن الصغار، ولا يليق بالرجال.

(٥) قال الخفاجى: هذه الدلالة بحسب الظاهر المتبادر، فإن الكبار قد يلعبون ويتسابقون؛ وكذا عدم معرفتهم له إنما يدل على صغرهم وبعد عهدهم به؛ لأن مدة مفارقتهم أربعون سنة أو ثمانون؛ إذ يجوز ألا يعرفوه لتغيير زيه، وكونه بهيئة الملوك ذوى الهيبة، ولعدم قربهم من مجلسه.

(٦) لايؤاخذ به؛ لأنه أمر اضطرارى. وليس سيئة: أى خطيئة ومعصية. وفى ا: وليست...

(٧) فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم فى صحيحه: ١١٧

فلم يعمَلْها كتِبَتْ له حسنة[١] »، فلا معصيةَ فى هَمّه إذاً .

وأما على مذهب المحقِّقين من الفقهاء والمتـكلّمين فإنّ الهَمّ إذا وُطِّنَت[٢] عليه النفسُ سيئةٌ . وأما مالم تُوَطَّن عليه النفسُ من هومها وخَوَاطرها فهو المعفوُّ عنه . وهذا هو الحقُّ ؛ فيكون ـ إنْ شاء الله ـ هَمُّ يوسف من هذا[٣] ؛ ويكون

(١) إذا هم عبدى بسيئة : أى عزم عليها وقصدها . كتبت له حسنة : لمجاهدته نفسه وصرفها عما تريده .

(٢) وطنت عليه النفس : صممت وجزمت عليه .

(٣) قال الخفاجى : والحاصل أنه ذهب كثير من العلماء إلى أن هم المرء وخاطر نفسه لايؤخذ به ؛ فلا معصية فى ذلك على هذا . وذهب بعض الفقهاء والمحدثين إلى أن الهم إذا لم توطن عليه النفس معفو عنه ؛ وإذا وطنت عليه النفس وصممت كتبت سيئة ، والنصوص فيه مختلفة ؛ فما تقدم فى حديث مسلم وأحاديث أخر فى معناه يدل على أنه لايؤاخذ به . وقوله تعالى :« وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » ؛ وقوله : « يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » ، ونحوه ، يدل على خلافه .

والتوفيق بينهما ماقاله الغزالى من أن أول مايرد على القلب كرؤية امرأة على الطريق مالت إليها النفس ، ويسمى حديث النفس وخاطرا .

الثانى : مايتولد منه من الرغبة وإعادة النظر ؛ وهو الميل الطبيعى .

والثالث : حكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل وينبغى إعادة النظر .

والرابع التصميم على ذلك وترك الصوارف عنه كالحياء .

والأول لايؤاخذ به ؛ لأنه لايدخل تحت الاختيار ؛ وكذا هيجان النفس والميل والشهوة ؛ لأنها ليست اختيارية ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه : عفى عن أمتى ماحدثت به نفوسها ؛ وهو الخواطر التى لايتبعها هم ولا عزم .

وأما الاعتقاد وحكم النفس بأنه ينبغى أن يفعل فيكون اضطراريا لايؤاخذ به ؛ واختياريا فيؤاخذ به : والرابع يؤاخذ به : فإن لم يفعل نظر فيه ؛ فإن تركه خوفا من الله وندما على همه كتبت له حسنة لمجاهدته لنفسه ؛ وإن تركه لعائق وعذر غير خوف من الله كتبت عليه وفى الحديث مايدل على هذا التفصيل .

قال الخفاجى: وهو كلام حسن ؛ وهم يوسف كان عزما وتصميما منعه منه خوف ربه فهو حسنة لاسيئة .

قوله : ﴿ وما أُبَرِّئُ نفسى إنّ النفس لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ ربى ، إنّ ربى غفورٌ رحيم ﴾ .

أى ما أُبَرِّئُها من هذا الهَمّ ؛ أو يكون ذلك[١] منه على طريق التواضُع والاعتراف بمخالفة النفس لِمَا زُكِّىَ قَبْلُ وبُرِّئَ[٢] ، فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبى عُبيدة ـ أنّ يوسف لم يهمّ[٣] ، وأن الكلامَ فيه تقديمٌ وتأخير ؛ أى: ولقد همّتْ به ؛ ولولا أن رأى برهانَ ربّه لهَمّ بها ؛ وقد قال اللهُ تعالى ـ عن المرأة[٤] : ﴿ ولقد راودْتُهُ عن نفسه فاستَعْصَم ﴾ . وقال تعالى[٥] : ﴿ كذلِكَ لنصْرِفَ عنه السوءَ والفَحْشاء ﴾ . وقال تعالى[٦] : ﴿ وَغَلَّقَت الأَبوابَ وقالت هَيْتَ لك . قال : معاذَ اللهِ ، إنه ربى أَحْسَنَ مَثْوَاى . . . ﴾ الآية .

قيل فى « ربى » : الله تعالى . وقيل : المَلِك .

وقيل : هَمَّ بها ؛ أى بزَجْرها وَوَعْظِها[٧] .

---

(١) ذلك : أى قوله : وما أبرئ نفسى . . . والآية فى سورة يوسف ، آية ٥٣

(٢) على طريق التواضع بإظهار أنه غير منزه عما يشين ؛ لأن الكمال لله ؛ لأنه صدر منه مثله حتى يتمسك به . والاعتراف بمخالفة النفس ؛ أى ما أبرئها من الهم بالمعاصى، وقد فعلت، ولكنى خالفتها وصرفتها عن همها ، وهو أمر حسن منه .

(٣) لم يهم : لم يقع منه هم يعد معصية .

(٤) سورة يوسف ، آية ٣٢ ، والمراودة : الطلب . واستعصم :امتنع لعصمة الله تعالى له.

(٥) سورة يوسف، آية ٢٤، والسوء: الزنا، أو الذكر القبيح، أو عقوبة الملك. والفحشاء: مواقعة المرأة ونحوه مما يقبح .

(٦) سورة يوسف آية ٢٣ . وغلق الباب : أقفله . هيت لك : هلم ، قد تهيأت لك .معاذ الله : أعوذ بالله منك ومما أردت ، ألتجئ إلى الله فى دفع ماهممت به . والمثوى: المقام .أحسن مثواى : أحسن القيام لى وتعهدنى بإكرامه لى وإنعامه .

(٧) فى نسيم الرياض : وقال المفسرون كابن عطية : إنه وجه ضعيف لمخالفته للظاهر .

وقيل : هَمَّ بها ، أى غَمَّها امتناعُه عنها[١] .

وقيل : هَمَّ بها : نظر إليها[٢] .

وقيل : هَمَّ بضَرْبها ودَفْعِها .

وقيل : هذا كلُّه كان قَبْلَ نبوَّته .

وقد ذَكَرَ بعضُهم: ما زال النساء يَمِلْنَ إلى يوسف مَيْلَ شَهْوَةٍ حتى نبَّأه الله، فألْقَى عليه هيبةَ النبوّةِ ؛ فشغَلَتْ هيبتُه كلَّ مَنْ رآه عن حُسْنِه .

وأمَّا خَبَر موسى صلى اللهُ عليه وسلم مع قَتِيلِه الذى وَكَزَهُ[٣] فقد نصَّ اللهُ تعالى أنه مِنْ عَدُوِّه[٤] ، قال[٥] : كان مِنَ القِبْطِ الذين على دِين فِرْعَون .

ودليلُ[٦] السُّورةِ فى هذا كلِّه أنه قَبْلَ نُبُوَّةِ موسى .

وقال قتادة : وَكزَه بالعصا ، ولم يتعمّدْ قَتْلَه ، فعلى هذا لامعصيةَ فى ذلك .

وقولُه[٧] : ﴿ هذا من عَمَلِ الشيطانِ ﴾ . وقوله[٨] : [٢١٧] ﴿ ظَلَمْتُ نفسي فاغْفِرْ لى ﴾ ـ قال ابن جُرَيج : قال ذلك من أَجْل أنه لاينبغى لنبيٍّ أَنْ يَقْتُلَ حتى يُؤْمَر .

---

(١) امتناعه عنها ، أى عن معاملتها بما أرادته ، فهو من الهم بمعنى الغم .
قال الخفاجى : وهو بعيد للتعقيد المعنوى فيه ، وقيل إنه بعيد من اللغة ، لأنه بهذا المعنى متعد بنفسه ، يقال همه الأمر ، إذا أحزنه .

(٢) قال الخفاجى : وهو فى غاية البعد . (٣) الوكز : الدفع .

(٤) عدوه : كان كافرا . والآية فى سورة القصص ، آية ١٥

(٥) قال : أراد . وفى ب : وقيل .

(٦) ودليل السورة : أى السورة تدل بمنطوقها فى هذا كله أنه قبل نبوة موسى، فإنه لما قتله فر خائفا ، فكان ما كان له مع شعيب ، وتزوج ابنته ، ثم تنبأ لما فارقه ، كما قصه الله تعالى .
أى إنه قبل النبوة لم يكن معصوما من الخطأ ، فصدر عنه مثل هذا ، وإن لم يكن معصية، لأنه لم يضربه بآلة حادة ، فهو خطأ شبه عمد ، ولم يكن هناك شرع .

(٧) سورة القصص ، آية ١٥ (٨) سورة القصص ، آية ١٦

وقال النقّاش : لم يَقْتُلْه عن عَمْدٍ مُرِيدا للقَتْل ، وإنما وَكَزَهُ وَكْزَةً يريدُ بها دَفْعَ ظُلْمه ، قال : وقد قيل : إنّ هذا كان قَبْلَ النبوة ؛ وهو مُقْتَضَى التِّلَاوة[١] .

وقولُه تعالى ـ فى قصّته[٢] : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ ، أى ابتليناكَ ابتلاءً بعد ابتلاء[٣] . قيل فى هذه القصة وما جرَى له مع فرعون . وقيل[٤] : إلقاؤه فى التابوت واليمّ ، وغير ذلك .

وقيل : معناهُ أَخْلَصْنَاكَ إخلاصا[٥] ؛ قاله ابنُ جُبَيْر ومجاهد ؛ مِنْ قولهم : فتنْتُ الفِضّةَ فى النار إذا خلّصتَها . وأَصْلُ الفتنةِ معنَى الاختبارُ ، وإظهارُ ما بَطَن[٦] ، إلا أنه استُعْمل فى عُرْف الشرع فى اختبارٍ أدّى إلى مايُكْرَه .

وكذلك ما رُوِى فى الخبر الصحيح[٧] ؛ من أنّ ملكَ الموتِ جاءه فلطم عينَه ففقأها . . . الحديث . .

ليس فيه ما يُحْكَمُ به على موسى بالتعدِّى وفِعْلِ مالا يجبُ له[٨] ، إذ هو ظاهِرُ الأَمْرِ ، بيّن الوَجْهِ ، جائز الفِعْل ، لأنّ موسى دَافَعَ عن نفسه مَنْ أتاهُ لإتْلَافها ،

---

(١) مقتضى التلاوة : مايدل عليه نص القرآن المتلو .

(٢) فى قصته : فى قصة موسى (سورة طه ، آية ٤٠)

(٣) الابتلاء : الاختبار .

(٤) هذا معنى آخر للفتون . والتابوت : الصندوق الذى اتخذته له أمه من خشب . واليم : البحر ، والمراد النيل .

(٥) أخلصناك إخلاصا : ابتليناك بأمور صرت بعدها خالصا من كل أمر لايليق برسله ، فقربك واصطفاك .

(٦) ما بطن : ما خفى عن العيان .

(٧) رواه الشيخان . لطم عينه : ضرب وجهه بيده ، ووقعت ضربته على عينه ، ففقأها ؛ فأخرج حدقته التى بها يبصر بلطمته .

والحديث فى صحيح مسلم : ١٨٤٣ ، وصحيح البخارى : ٢ ـ ١٠٨

(٨) ما لا يجب له : أى وبفعل شىء لا يجوز ، ولم يثبت شرعا .

وقد تصوَّرله (١) فى صورةِ آدَمِىّ ، ولا يمكنُ أنه علم حينئذ أنه ملك الموت ، فدافعه عن نَفْسه مدافعةً أدّت إلى ذهاب عَيْنِ تلك الصورة التى تَصَوَّرَ له فيها المَلَك امتحانا مِنَ اللهِ له ، فلما جاءه بَعْدُ ، وأعلمه اللهُ تعالى أنه رسولُهُ إليه استَسْلَمَ (٢) .

وللمتقدمين والمتأخّرين على هذا الحديثِ أجوبةٌ هذا أسَدُّها (٣) عندى ، وهو تأويلُ شيخنا الإمام أبى عبد الله المَازَرى (٤) .

وقد تأوّله قديما ابنُ عائشة وغَيْرُهُ على صَكِّهِ (٥) ولَطْمِهِ بالحجّة ، وفَقْءِ عَيْنِ حجّته ، وهو كلامٌ مستعملٌ فى هذا البابِ فى اللغة معروف (٦) .

(١) تصور له : تصور الملك لموسى .

(٢) استسلم : انقاد له ، وسلم له فيما أراده بعد ما كان دفعه عنه أشد دفع .

(٣) أسدها : من السداد ؛ وهو القوة .

(٤) هو الإمام الفقيه المحدث البارع فى سائر العلوم ، وهو مالـكى المذهب ، واسمه أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى شارح المحصول ، وله شرح مسلم ، وتآليف كثيرة . ومازر ـ بفتح الزاى المعجمة وتكسر : بلدة بجزيرة صقلية . توفى سنة ست وثلاثين وخمسمائة .

(٥) أصل الصك واللطم : الضرب بالراحة ؛ أو بشىء عريض .

وابن عائشة : هو عبيدالله بن محمد بن حفص بن عمر بن موسى بن عبدالله بن معمر القرشى التيمى البصرى . وهو أحد العلماء الأشراف المحدثين المحتشمين ؛ وهو ثقة ، روى عنه البغوى وخلق كثير . توفى سنة ٢٢٨ هـ . فهو متقدم على المازرى بزمان كثير ؛ فلذلك قال المصنف : قديما .

(٦) يقال فى اللغة : لطمه وصكه إذا غلبه فى المحاجة . وفقأ عينه وعورها ؛ إذا فضحه بحجته وألزمه إلزاما لايمكنه الجواب عنه .

قال الخفاجى : لـكن صريح الحديث يأباه ؛ فإن فيه مايقتضى أنه على ظاهره ؛ فإن البخارى روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أنه صلى الله عليه وسلم قال : أرسل الله ملك الموت إلى موسى ؛ فلما جاءه صكه ففقأ عينه ، فرجع إلى ربه وقال : يارب ؛ أرسلتنى إلى عبد لايريد الموت . فرد الله عينه ، وقال له : ارجع ، وقل له : يضع يده على متن ثور ، وله بكل ما غطت يده من الشعر بكل شعرة سنة . فقال له ذلك . فقال موسى : « ثم ماذا ؟ قال : الموت . فقال : الآن . وسأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة مقدار رمية حجر ، فقال صلى الله عليه وسلم : =

وأمّا قصةُ سليمان وما حكى فيها أهلُ التفاسير من ذَنْبِه وقوله[١] : ﴿ ولقد فَتَنّا سُليمان ﴾ ؛ فمعناه ابْتَلَيْنا[١] ، وابتلاؤه : ما حُكِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[٢] : لأَطُوفَنَّ الليلةَ على مائة امرأةٍ أو تسعٍ وتسعين كلُّهن يأْتين بفارسٍ يجاهِدُ فى سبيل الله . فقال له صاحِبُه[٣] : قل إن شاء الله ، فلم يقُلْ[٤] . فلم تحمِلْ منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشِقّ رجل[٥] .

قال النبي النبي صلّى اللهُ عليه وسلم: والذى نَفْسى بيده لو قال إنْ شاء الله لجاهَدُوا فى سبيل الله .

قال أصحابُ المعانى[٦] : والشقُّ هو الجسَدُ الذى أُلْقِيَ على كُرْسِيِّه[٧] حين عُرِضَ عليه ، وهى عقوبتُه ومِحْنَتَه .

= لو كنت ثمة لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر . ونحوه فى مسلم . وهو ينافى هذا التأويل .

قال الخفاجى : وارتضى القرطبي بأن الله تعالى أخبره بأنه لا يموت حتى يخبره الله ويخيره بين الموت والحياة ؛ فلما أتاه الملك بغتة ودخل عليه من غير استئذان شق عليه ذلك ، وكان موسى سريع الغضب ؛ ولذا لما رجع إليه وخيره بين الحياة والموت انقاد له واستسلم . . . قال: وهو أصح الوجوه .

(١) ابتليناه : عاملناه معاملة من يختبر حتى يظهر ما خفى من أمره على الناس . والآية فى سورة ص ، آية ٣٤ ، كما تقدم .

(٢) وهو حديث صحيح روى فى الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث : صحيح مسلم: ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، وسنن الترمذى : ٤ — ١٠٩

(٣) صاحبه : أى ملك كان معه ، أو قرينه ، أو رجل كان يصحبه . وقيل : هو خاطره ؛ وهو بعيد . (٤) فلم يقل ذلك : لم يقله بلسانه اكتفاء بما فى قلبه . أو جزم به ، لقوة رجائه واعتماده على كرم ربه ؛ فليس تركه المشيئة ذنبا يعد عليه .

(٥) شق رجل : برجل غير كامل . والشق بمعنى النصف أو البعض .

(٦) أصحاب المعانى : الذين يفسرون الأحاديث ويقفون على معانيها المرادة بها .

(٧) على كرسيه : أى الذى كان يجلس عليه لإجراء أحكام الملك . حين عرضته قابلته عليه ثم ألقته على كرسيه .

وقيل : بل مات فأُلقِيَ على كرسيِّه ميتًا .

وقيل : ذَنبُه حِرْصُه على ذلك وتمنّيه .

وقيل : لأنه لم يَسْتَثْنِ [(١)] لِمَا استغْرَقَهُ من الحِرْصِ ، وغلب عليه من التّمَنّي.

وقيل : عقوبته أَنْ سُلِبَ مُلْكُه ، وذَنبُه أَنْ أَحبَّ بقلبه أن يكونَ الحقُّ لأَختانِه [(٢)] على خصمهم .

وقيل : أُوخِذ بذَنْبٍ قارَفَهُ [(٣)] بعضُ نسائه . ولا يصحّ ما نقله الأَخباريّون مِنْ تَشَبُّهِ الشيطانِ به ، وتسلُّطه على مُلْكه ، وتصرّفِه في أمته بالجَوْرِ في حُكْمه [(٤)]؛ لأَنّ الشياطين لا يُسَلَّطون على مثْلِ هذا [(٥)] ؛ وقد عُصِم الأنبياءُ مِنْ مِثْله [٢١٨] .

وإنْ سُئل: لِمَ لَمْ يَقُلْ سليمانُ في القصةِ المذكورة : إنْ شاءَ اللهُ ـ فعَنْهُ أجوبةٌ :

أحدها ـ ما رُوِي في الحديث الصحيح أنه نَسِيَ أن يقولَها ، وذلك لِيَنْفُذَ مراد اللهِ تعالى .

والثاني ـ أنه لم يسمَعْ صاحِبَه [(٦)] وشُغِل عنه .

---

(١) لم يستثن : لم يقل إن شاء الله في كلامه .

(٢) الأختان : الأصهار ؛ أو كل مايكون من قبل المرأة ؛ كالأب والأخ .
وذلك ـ كما قيل : إنه كانت له امرأة يقال لها جرادة ، وكان مغرما بحبها ، فقالت له : إن فلانا من أهلي له حق عند آخر ، وأنا أحب أن تحكم له إذا جاءك . فأجابها لذلك ؛ ولكنه لم يفعل؛ فعاقبه الله تعالى على مجرد الميل ؛ فكان ما كان من وضع خاتمه عندها وأخذ الشيطان له.

(٣) قارفه : اكتسبه .

(٤) في نسيم الرياض : قال السيوطي رحمه الله: ماقال المصنف إنه من خرافات الأخباريين أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس موقوفا ، لكنه مأخوذ من الإسرائيليات كما بينته في التفسير .
قال الخفاجي : وفيه نظر ؛ لأن أول كلامه ينافي آخره .

(٥) لايسلطون على مثل هذا : لايقدرهم الله عليها لعصمته تعالى لأنبيائه منها .

(٦) لم يسمع صاحبه : الذي قال له : قل إن شاء الله .

وقولُه(١) : ﴿وَهَبْ لِى مُلْكاً لا يَنْبَغِى لأحَدٍ من بَعْدِى﴾ . لم يفعَلْ هذا سليمان غَيْرَةً على الدنيا ولا نفاسةً بها(٢) ؛ ولكن مَقْصِده فى ذلك ـ على ما ذكره المفسرون ـ ألا يسلَّطَ عليه أحَدٌ كما سُلِّط عليه الشيطانُ الذى سلبه إياه مُدّةَ امتحانه(٣) على قَوْلِ مَنْ قال ذلك(٤) .

وقيل : بل أراد أن يكونَ له من اللهِ فَضِيلةٌ وخاصةٌ يختصّ بها كاختصاص غيرِه من أنبياء اللهِ ورسله بخواصّ منه(٥) .

وقيل : ليكونَ ذلك دليلا وحجّةً على نبوّته ؛ كإلانةِ الحديدِ لأبيه ، وإحياء الموتى لعيسى ، واختصاصِ محمد صلى اللهُ عليه وسلم بالشفاعة ، ونحو هذا(٦) .

---

(١) قيل : إن هذا جواب سؤال تقديره :إنك قلت إن الأنبياء معصومون من سائر الذنوب، ومنهم سليمان عليه السلام ، فكيف هذا مع ما سأل الله أن يؤتيه ملكا لا يكون لغيره . وهذا يقتضى حبه للدنيا، ولتفرده بملك عظيم لا يتيسر لغيره ؛ وفيه حينئذ حرص لا يليق بزهد الأنبياء فى الدنيا ، وعدم رغبتهم فيها . فأجاب عنه : بأنه لم يفعل سليمان هذا . . . . والآية فى سورة ص ، آية ٣٥

(٢) ولا نفاسة بها : أى عدها نفيسة عظيمة يضن بها عن الغير .

(٣) سلبه إياه : سلبه ملكه . مدة امتحانه : مدة ابتلاء الله تعالى له بتسليط الشيطان لما أخذ خاتمه من زوجته وظهر بصورته ، وتصرف فى ملكه حتى أنكر الناس سليمان .

(٤) قال الخفاجى : وقد أخذه هؤلاء المفسرون من الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب ؛ وفى صحته كلام للمحدثين .

(٥) منه : من الله تعالى ، خصه بها دون غيره .

(٦) فى نسيم الرياض : فى شرح المواقف : طلب سليمان عليه السلام لملك لا يتيسر لغيره لم يكن حسدا منه وضنة بالملك ؛ بل لأن كل نبى كان له ما يفتخر به أهل زمانه ، وكانوا جبابرة يفتخرون بالملك وكثرة الجند والمال وقوة الأعيان؛ فأراد سليمان أن يكون له من ذلك ما لا يقدر عليه غيره ؛ فملكه الله ملكا عظيما . ولم يجعله شاغلا له عن زهده وعبادته ؛ ليعلم الناس أن زخارف الدنيا لا تلهى خلص عباده عن خدمته ؛ ولذا قدم الاستغفار على طلبه ؛ فقال : رب اغفرلى وهب لى ملكا . . . وليكون أدعى للإجابة .

وأما قصةُ نوحٍ عليه السلام فظاهرةُ العُذْرِ، وإنه أخذ فيها[١] بالتأويلِ وظاهِرِ اللَّفظ؛ لقوله تعالى: «وأَهْلَك»؛ فطلب مُقْتَضَى[٢] هذا اللفظِ، وأراد عِلْمَ ماطُوِىَ عليه[٣] مِنْ ذلك؛ لا أنه شَكَّ في وَعْدِ اللهِ تعالى[٤]؛ فبيَّنَ اللهُ عليه[٥] أنه ليس من أَهْلِه الذين وَعَدَه بنجاتهم لـكُفْرِه وعَمَلِه الذى هو غَيْرُ صالح؛ وقد أعلمه أنه مُغْرِقُ الذين ظلموا[٦]، ونهاهُ عن مخاطبته فيهم؛ فَوُخِذَ بهذا التأويل، وعُتِبَ عليه، وأَشْفَقَ[٧] هو من إقدامِه على ربه لسؤالِه مالم يؤذَن له فى السؤال فيه؛ وكان نوحٌ ـ فيما حكاهُ النقاش ـ لا يَعْلَمُ بكُفْرِ ابْنِه.

وقيل فى الآية غَيْرُ هذا؛ وكلُّ هذا لا يَقْضِى على نُوحٍ بمعصيةٍ سِوَى ماذكرنا من تَأْوِيله وإقدامِه بالسؤال فيما لم يُؤْذَنْ له فيه، ولا نُهِيَ عنه.

وما رُوى فى الصحيح[٨] من[٩] أنَّ نبيًّا قرصَتْه نَمْلَةٌ فحرَّقَ قَرْيَةَ النملِ، فأَوحى

(١) أخذ فيها: تمسك فيها، أى قصته بتأويل ما وعده ـ بأن يريد الله «بأهله» ما يشمل ابنه.

(٢) مقتضى هذا اللفظ: أى لفظ الأهل؛ وقال: إن ابنى من أهلى، وإن وعدك الحق.

(٣) ما طوى عليه: ماخفى عن علمه. من ذلك: من أمر ابنه. ومخالفته فى ركوب السفينة لاينافيه.

(٤) فى وعد الله: بنجاة أهله.

(٥) قال فى نسيم الرياض: بين لايتعدى بعلى؛ فكأنه ضمنه معنى نبه، أو بنى؛ أو هو تحريف من الناسخ.

(٦) أعلمه بقوله: «ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون».

(٧) أشفق: خاف.

(٨) رواه الشيخان عن أبى هريرة. وهذا النبى ـ قال الطبرى، والحكيم الترمذى: إنه موسى عليه السلام. وقال المنذرى: إنه عزير. وقال البرهان: إن فى أبى داود ـ مرفوعا: لاأدرى أعزير نبى أم لا؛ وصححه الحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة، لكن ثبت أنه نبى. والحديث أيضا فى سنن ابن ماجه: ١٠٧٥

(٩) فى ا: فيمن.

اللهُ إليه : أن قرصَتْكَ نملةٌ أحرقْتَ أُمةً[1] من الأُممِ تسبِّحُ . . . فليس فى هذا الحديث أنّ هذا الذى أَتَى معصيةً ؛ بل فعل ما رآه مصلحةً وصوابًا بقتلِ مَنْ يُؤذى جِنْسَه[2] ، ويمنعُ المنفعةَ مما أباحَ الله .

ألَا تَرَى أنّ هذا النبيّ كان نازِلًا تحتَ الشجرة ، فلما آذَتْهُ النملةُ تحوّل بِرِجْلِهِ عنها مخافةَ تـكرار الأذى عليه . وليس فيما أَوْحَى اللهُ إليه ما يوجِبُ معصيةً ؛ بل ندَبَهُ إلى احتمالِ الصَّبْرِ وتَرْكِ التَّشفى[3] ؛ كما قال تعالى[4] : ﴿ وَلَئِنْ صبرتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصابِرِين ﴾ ؛ إذ ظاهِرُ فِعْلِهِ إنما كان لأَجْلِ أنها آذَتْهُ هو فى خاصّته ؛ فـكان انتقامًا لنفسه ، وقَطْعَ مضَرّةٍ يتوقّعُها مِنْ بقيّةِ النملِ هناكَ ؛ ولم يأْتِ فى كلّ هذَا أمراً نُهِىَ عنه ، فيُعَصَّى به ، ولا نَصّ فيما أَوْحَى اللهُ إليه بذلك ، ولا بالتوبةِ والاستغفار منه . والله أعلم .

[فإنْ قيل : فما معنى قوله عليه السلام[5] : ما مِنْ أَحَدٍ إلّا أَلَمّ بذَنْبٍ أو كاد

(١) الأمة : الطائفة ، وجماعة من جنس واحد من المخلوقات .

قال الخفاجى : ففيه دليل لمن جوز على الأنبياء صدور المعاصى منهم لمعاتبة الله له فى ذلك .

قال: وسبب هذه القصة أن موسى عليه السلام مر على قرية أهلك الله أهلها بذنب لهم، فقال : يارب ، أهلـكتهم وفيهم صبيان ودواب لم تذنب ، وفيهم الطائع . فأراد الله أن ينبهه على ما خطر بباله ، فاشتد عليه الحر ، ونزل تحت شجرة ، فنام فى ظلها ، فسلط الله عليه نملة كبيرة من النمل الذى يقال له نمل سليمان ، ففعل بها ما فعل ؛ فأوحى الله إليه بما ظاهره العتاب إرشادا له صلى الله عليه وسلم .

(٢) جنسه : بنى آدم .

(٣) التشفى : الانتقام بما يشفى غيظه ويبرد صدره .

(٤) سورة النحل ، آية ١٢٦

(٥) هذا الحديث رواه الإمام أحمد ، عن ابن عباس . مرفوعا بلفظ : ما من أحد إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة. وسنده ضعيف . وأخرجه البزار عن ابن عمر ـ مرفوعا ـ كما قاله السيوطى فى مناهل الصفا .

إلا يحيى بن زكريا ، أو كما(١) قال النبي صلى اللهُ عليه وسلم .

فالجوابُ عنه ـ كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قَصْدٍ وعَنْ سَهوٍ وغَفْلةٍ(٢)] .

فصـــل

[معقود لدفع شُبَه نشأت مما قدّمه]

فإنْ قلتَ : فإذا نفيتَ عنهم صلواتُ اللهِ عليهم الذنوبَ والمعاصى بما ذكرتَه من اختلافِ المفسرين وَتأويل المحقِّقين ـ فما معنى قوله تعالى(٣) : ﴿ وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فغَوَى ﴾ ، وما تـكرّرَ فى القرآنِ والحديث الصحيح من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم [٢١٩]، وبُكائهم على ما سلَفَ منهم ، وإشفاقِهم(٤) . وهل يُشْفَقُ ويُتَابُ ويُسْتَغْفَر مِنْ لا شيء ؟

فاعلَمْ ـ وفّقَنا اللهُ وإيّاكَ ـ أنّ دَرجةَ الأنبياء فى الرِّفْعَةِ والعلوّ والمعرفة بالله ، وسنّتِه(٥) فى عباده ، وعِظَمِ سلطانِه ، وقُوّةِ بَطْشِه(٦) ، مِمّا يحملُهم على الخوف منه جلَّ جَلَالُه ، والإشفاقِ من المؤاخذةِ بما لا يؤاخَذُ به غَيْرُهم ، وأنهم ـ فى تصرّفهم(٧) بأمورٍ لم يُنْهَوْا عنها ، ولا أُمِرُوا بها(٨) ؛ ثم أوخِذوا عليها(٩) ، وعوتِبُوا بسببها ،

(١) أو كما قال . . . إشارة إلى أنه وقع فيه روايات مختلفة .

(٢) قال فى نسيم الرياض : ومثله لا يؤاخذ به ، ولا يلزم منه تفضيله على من عداه من الأنبياء . ومابين القوسين أمامه فى ا : من الأم بخطه ، من غير الرواية .

(٣) سورة طه ، آية ١٢١ (٤) وإشفاقهم : وخوفهم من الله تعالى .

(٥) سنته فى عباده : أى معرفتهم بعادة الله فى معاملة عباده فى سخطه ورضاه .

(٦) قوة بطشه : أخذه القوى الشديد إذا أخذ .

(٧) فى تصرفهم : بأفعالهم الصادرة منهم .

(٨) لم ينهوا عنها ولا أمروا بها : لأنها أمور مباحة جائزة .

(٩) أوخذوا عليها : أى لامهم الله عليها مع أنها مباحة جائزة .

أو حذروا مِنَ المؤاخذةِ بها[١] ، وأتَوْها[٢] على وَجْهِ التَّأْوِيل أو السَّهْوِ ، أو تزَيُّدٍ مِنْ أُمُورِ الدنيا المباحة[٣] ـ خائفون وَجِلُون ، وهى ذُنوبٌ بالإضافةِ إلى عَلِيِّ مَنْصبهم ، ومَعَاصٍ بالنسبة إلى كمالِ طاعتهم ، لا أنَّها كذنوب غيرهم ومَعَاصِيهم ؛ فإن الذنْبَ مأخوذ من الشيء الدنيّ الرَّذْل[٤] ، ومنه ذَنَب كل شيء ؛ أى آخره . وأذنابُ الناسِ رُذَالُهُم[٥] ، فكأن هذه أدْنى أفعالِهم ، وأسوأ ما يَجْرى من أحوالهم لتطهيرهم وتنزيههم ، وعمارةِ بواطِنِهم وظواهرهم بالعمل الصالح ، والكَلِم الطيب ، والذِّكْر الظاهر والخفيّ[٦] ، والخشية لله ، وإعظامه فى السرِّ والعَلَانِيَة ، وغَيْرُهم يتلوّثُ[٧] من الكبائر والقبائح والفواحش[٨] ما تكونُ بالإضافةِ إليه[٩] هذه الهَنَات فى حقه كالحسنات ، كما قيل : حسناتُ الأَبْرار سيئاتُ المُقَرَّبين[١٠] ، أى يَرَوْنها بالإضافةِ إلى عليّ أحوالِهم كالسيئات .

---

(١) من المؤاخذة بها : أى أن يجازيهم الله عليها ؛ كأخذه — صلى الله عليه وسلم — الفدية من أسرى بدر ، وإذنه لمن تخلف عن الغزو — وهو أمر جائز ، لكنه ترك فيه الأولى نظرا لما فيه من الفائدة ، للمسلمين والتيسير على الأمة . (٢) وأتوها : فعلوها .

(٣) أو تزيد من أمور الدنيا المباحة : زيادة من أمور الدنيا ، كطلب سليمان أن تحمل جميع نسائه بفرسان تجاهد فى سبيل الله . وطلب زيادة مباحة لاضرر فيه .

(٤) الدنى : الخسيس . الرذل : الردىء المحقر . (٥) رذالهم : أرذالهم .

(٦) والذكر الظاهر : أى ذكر الله جهرا . والخفى : بذكره سرا ، وجعله دائما مراقبا ملاحظا فى قلوبهم . (٧) يتلوث : يتدنس .

(٨) من الكبائر : أى كبائر الذنوب . والقبائح : مايقبح شرعا من الذنوب كبائرها وصغائرها. والفواحش : ماازداد قبحه . وقد يراد بالفاحشة : الزنا ونحوه .

(٩) هذه الأمور التى صدرت من الأنبياء عليهم السلام ؛ والهنات : جمع هنة ، وهى العثرات والزلات ؛ أى غير الأنبياء متلوث من أمور هى بالإضافة لما عد ذنبا منهم كالحسنة لغيرهم .

(١٠) الأبرار : أتقياء الأمة . المقربين إلى الله هم الأنبياء وخلص الأولياء . وهذا ليس حديثا وإنما هو من كلام أبى سعيد الخراز من كبار مشايخ الصوفية .

وكذلك العِصْيَان التركُ والمخالفة[١] ؛ فعلى مقتضى اللفظة كيفما كانت مِنْ سَهْوٍ أو تأويل فهي مخالفةٌ وتَرْكٌ[٢] .

وقوله تعالى : « غَوَى » ؛ أي جَهِلَ أنَّ تِلْكَ الشجرةَ هي التي نُهِيَ عنها ؛ والغيُّ : الجَهْل .

وقيل : أخطأ ما طلَبَ من الخلودِ[٣] ؛ إذ أَكلها وخابت أُمنيته .

وهذا يوسفُ عليه السلام قد أُوخِذ بقوله لأحد صاحِبَي السِّجْنِ : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ[٤] ، فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فلبث في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

قيل : أُنسِيَ يوسفُ ذِكْرَ اللهِ .

وقيل : أُنْسِيَ صاحبُه أن يذكُرَه لسيِّدِهِ الملك ؛ قال النبي صلى اللهُ عليه وسلم[٥] : لولا كلمةُ يوسف ما لبث في السِّجْنِ ما لَبِثَ .

قال ابن[٦] دينار : لمّا قال ذلك يوسفُ قيل له : اتَّخَذْتَ مِنْ دوني وَكِيلا[٧] ؛

---

(١) العصيان : الذى اتصف به بعض المقربين ، كما فى قوله تعالى : وعصى آدم ربه فغوى : الترك والمخالفة لأمر سواء كان واجبا أم لا .

(٢) مخالفة وترك : وإن لم تكن معصية شرعية مذمومة عقلا وشرعا ؛ لأنها معفوة مغفورة غير مؤاخذ بها كل أحد ؛ فليس كل عاص آثما ؛ وترك الطاعة أعم من فعل المعصية .

(٣) من الخلود : أى دوام البقاء .

(٤) اذكرنى عند ربك : صف له قصتى ، وأخبره بحالى فيخلصنى من هذه الورطة . والمراد بربه الملك . سورة يوسف ، آية ٤٢

(٥) فى حديث رواه ابن جرير ، والطبرانى ، عن ابن عباس ، وابن مردويه ، عن أبى هريرة ، وأبو الشيخ عن أبى الحسن مرسلا ، وكذا عن عكرمة ؛ فهو حديث صحيح . تفسير الطبرى : ١٦ — ١١٢

(٦) ابن دينار : اسمه محمد بن إبراهيم ، أبو يحيى البصرى ، أحد الأعلام ، الزاهد الثقة . وهذا رواه الإمام البغوى عنه فى تفسيره . وأخرجه ابن أبى حاتم عن أنس — مرفوعا .

(٧) وكيلا : من تكل إليه أمرك ، وتعتمد عليه فى خلاصك .

لأُطِيلَنَّ حَبْسك . فقال : يا رَبِّ ، أنسَى قَلْبى كثرةُ البَلْوَى[١] .

وقال بعضُهم : يؤاخِذُ الأَنبياء بمَثَاقيل الذَّرِّ[٢] ، لمكانَتِهم عنده ، ويجاوزُ عن سائر الخَلْقِ لقلة مُبَالاته بهم فى أضعافِ ما أَتَوْا به من سُوء الأدب[٣] .

وقد قال المحتجُّ للفرقة الأولى[٤] على سِيَاق ما قُلْنَاه : إذا كان الأنبياء يؤاخَذُون بهذا مِمَّا لا يُؤَاخَذُ به غيرُهم من السَّهْوِ والنِّسْيَان ، وما ذكرتُه[٥] ، وحالُهم أرْفَعُ فحالُهم إذاً فى هذا أسوأ حالا مِنْ غيرهم[٦] .

فاعلم ـ أكرمكَ اللهُ ـ أنَّا لا نُثْبِتُ لك المؤاخذة فى هذا على حَدِّ مُؤَاخذةِ غيرهم ؛ بل نقول: إنهم يؤاخَذُون بذلك فى الدنيا ، ليكون ذلكَ زيادةً فى دَرَجاتِهم؛

---

(١) قال فى نسيم الرياض : فهذا ذنب عد عليه ، وعوقب به ، مع أنه ليس بمعصية شرعية ، لكن على مقامه يقتضى ألا يذكر فى الشدة غير الله ، ولا يعول على مخلوق .

(٢) بمثاقيل الذر : المثاقيل : جمع مثقال ، وهو وزن كل شىء ومقداره . والذر : جمع ذرة ؛ وهى أصغر النمل ، ويقال للهباء الذى يرى فى شعاع الشمس . ولا وزن له أصلا ؛ فهو مبالغة فى الخفة والقلة .

(٣) من سوء الأدب فى حق خالقهم المتفضل عليهم بالنعم الجليلة التى حقها أن تقابل بطاعته وشكره ، فعصوه وارتكبوا مالا ينبغى من المعاصى .

(٤) للفرقة الأولى : القائلة بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من جميع الذنوب وأن السهو والنسيان لا يؤاخذون به كغيرهم .

(٥) وما ذكرته من الأمور المباحة لهم .

(٦) أسوأ من غيرهم عند الله تعالى ، لكثرة مؤاخذتهم به وتشديده عليهم فيما لم يشدد به على غيرهم .

وهذا من سوء الفهم؛ لتوهم قائله أن الأعظم عند ربه لا يؤاخذ بترك الأولى ؛ وليس كذلك ، فإن ذلك لحكمة ، وإلى جواب هذه الشبهة وبيان الحكمة فيها أشار بقوله : فاعلم أيها السائل ....

ويُبْتلون بذلك ، ليكون استشعارهم له سببا لِمَـناءَة[1] رُتَبِهم ، كما قال[2] : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ ربُّه فتابَ عليه وهَدَى ﴾ . وقال[٢٢٠] لداود[3] : ﴿ فغفَرْنا له ذالكَ وإنَّ لَهُ عندنا لَزُلْـفَى وَحُسْنَ مآبٍ ﴾ .

وقال – بعد قولِ موسى: ﴿تُبْتُ إليكَ[4]﴾ : ﴿إنِّى[5] اصْطَفَيْتُكَ عَلَى الناس﴾ .

وقال – بعد ذِكْرِ فتنَةِ سليمان وإنابتهِ[6]: ﴿ فسخَّرْنا له الرِّيحَ تَجْرِى بأَمْرِهِ رُخاءً حيث أصاب . والشياطِينَ كل بَنّاء وغوّاص . وآخَرِين مقرَّنين فى الأصفاد . هذا عَطَاؤُنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغير حساب . وإنَّ لَهُ عندنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مآب ﴾ .

وقال بعضُ المتكلمين : زَلّاتُ الأنبياء فى الظاهر زَلّاتٌ ، وفى الحقيقة كراماتٌ وزُلَفٌ[7] ؛ وأشار إلى نحوِ مما قدّمناهُ .

وأيضا فلِيُنَبِّهَ غيرهم مِنَ البشَر منهم[8] ، أو ممّنْ ليس فى درجتهم[9] بمؤاخذتهم

---

(١) ويبتلون بذلك : بالمؤاخذة به فى الدنيا على قدر مراتبهم عنده . والاستشعار : طلب الشعور ، والمراد به مقاساته . مناءة : نمو ، وزيادة .

(٢) سورة طه آية ١٢٢ . اجتباه . اصطفاه وقربه بإعلاء رتبته عنده . فتاب عليه وهدى: قبل توبته ، وأرشده إلى الاعتذار عما صدر منه .

(٣) سورة ص ، آية ٣٥ . ذلك : ماصدر منه فى خطبة امرأة أوريا .

(٤) سورة الأعراف ، آية ١٤٣ . تبت إليك : من سؤال رؤيتك فى الدنيا .

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٤٤

(٦) سورة ص ، آية ٣٦ — ٤٠

قال الخفاجى : فترتيبه على ذلك ما عدده من النعم يقتضى أن الفتنة التى أناب منها ليست معصية ، لأنها لو كانت كذلك لم يترتب عليها ذلك .

وقوله : « زلفى » ، أى قرب من الله تعالى . وحسن مآب : بمرجعه للجنة . وهذا كله زيادة فى درجاته ومناءة لرتبته عند ربه كما لا يخفى .

(٧) زلات : جمع زلة ؛ من زل ، إذا سقط ، أى ماعد زلة وذنبا وإن لم يكن كذلك . كرامات : أكرمهم الله تعالى بها ، لأنه ابتلاهم بها ليثيبهم عليها . وزلف : جمع زلفة ، أى قرب من الله بإعلاء مقاماتهم عنده .

(٨) منهم : من الأنبياء المذكورين .

(٩) ممن ليس فى درجتهم : من الأتقياء الذين ليسوا بأنبياء .

بذلك ، فيستشعروا الحذر ؛ ويعتقدوا المحاسبة[1] ليلتزموا الشكر على النعم ، ويعدّوا الصبر على المحن[2] بملاحظة ماوقع بأهل هذا النصاب الرفيع المعصوم[3] ؛ فكيف بمن سواهم[4] ؛ ولهذا قال صالح المرّى : ذكر داود بسطة للتوابين[5] .

قال ابن عطاء[6] : لم يكن ما نصّ الله تعالى عليه من قضية صاحب الحوت[7] نقصًا له ، ولكن استزادة من نبينا صلى الله عليه وسلم[8] .

وأيضا فيقال لهم[9] : فإنكم ومن وافقكم تقولون بغفران الصغائر باجتناب الكبائر[10] .

---

(١) ويعتقدوا المحاسبة على ذلك ؛ لأن مؤاخذة غير الأنبياء تقتضى مؤاخذتهم بالطريق الأولى ؛ وإن كان ما ارتكبوه مباحا ، لكنه خلاف الأولى .

(٢) ويعدوا : يحضروا ويهيئوا الصبر ؛ ليستعينوا به على المحن ؛ والمحن : جمع محنة ؛ وهى البلية التى يمتحن الله بها صبره ورضاه ؛ ويتذكر مافى الصبر من الثواب ؛ لقوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

(٣) النصاب : المقام الرفيع من الأنبياء . المعصوم : المحفوظ من الذنوب .

(٤) بمن سواهم : من الأنبياء ، فإذا وقع اللوم لهم فيه ؛ فغيرهم بالطريق الأولى ، لأنهم من خلص عباد الله الذين يعتد بهم .

(٥) بسطة للتوابين : توسعة لمن يتوب ويكثر التوبة والاستغفار ، لينبهوا على فضلها . أو تسلية وسبب انبساط للمذنبين ليتهيئوا للتوبة ، ولا ييأسوا من الرحمة .

(٦) ابن عطاء : هو أبو العباس محمد بن سهل بن عطاء الإربلى شيخ الصوفية ، وله فى فهم القرآن لسان اختص به . توفى سنة تسع أو إحدى عشرة وأربعمائة .

(٧) صاحب الحوت : يونس .

(٨) استزادة من نبينا : أى طلبا منه أن يزيد صبره على قومه .

(٩) فيقال لهم : فى الجواب عما ادعوه من تجويز الصغائر على الأنبياء .

(١٠) باجتناب الكبائر : أى بسبب تركها ، كما ذهب إليه كثير من أهل السنة تمسكا بظاهر قوله تعالى : إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم . وذهب كثيرون إلى أنها مقيدة بالمشيئة كغيرها ، لقوله تعالى : « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » .

ولا خِلَافَ فى عِصْمةِ الأنبياء من الكبائر ، فما جَوَّزْتُم من وقوع الصغائر عليهم هى مغفورة على هذا ، فما معنى المؤاخذة بها[1] إذاً عندكم وخوفِ الأنبياء وتَوْبَتهم منها ، وهى مغفورةٌ لو كانت ؟

فما أجابوا به فهو جوابُنَا عن المؤاخذةِ بأفعال السَّهْوِ والتأويل[2] .

وقد قيل : إنَّ كثرةَ استغفارِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وتَوْبَته وغيرِه من الأنبياء على وَجْه ملازمةِ الخضوعِ وَالعُبُوديّة[3] ، والاعتراف بالتقصير ، شُكراً لله عَلَى نِعَمه ؛ كما قال ـ صلّى اللهُ عليه وسلم ـ وقد أَمِنَ من المُؤَاخذة مما تقدَّم وتأخَّر : « أفَلَا أكونُ عبداً شكوراً[5] ! » وقال : « إنى أخشاكم لِلهِ ، وأعلمُكم بما أتَّقِى[6] » .

---

(١) بها : بالصغائر .

(٢) بأفعال السهو والتأويل؛أى بما فعلوه سهوا ونسيانا . والتأويل : أى بما فعلوه لتأويلهم الأوامر والنواهى الواردة فيه ، وارجع إلى شرح القارى (٢ — ٣١١) ، ففيه أحكام هامة فى هذا الموضوع .

(٣) ملازمة الخضوع والعبودية ، ولوازمهما من المسكنة والخشوع .

(٤) قال النبي ذلك فى الحديث المشهور الذى فيه أنه أكثر من قيام الليل حتى تورمت قدماه ، فقيل له : أتفعل هذا يارسول الله وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ! فقال : أفلا أكون عبدا شكورا .

والحديث فى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة .

(٥) عبدا شكورا : كثير الشكر مبالغا فيه ، لعظم نعمه وكثرتها على ؛ وهو من حديث فى صحيح البخارى : ٢ — ٦٠ .

(٦) فى حديث رواه البخارى ، والخشية : الخوف مع المهابة للعظمة . وصحيح مسلم : ٧٨١

قال الخفاجى : ومن علم مايتقى وجزاءه ، وعظمة من يخشاه ، كان أبعد منه وأحذر .

قال الحارثُ بن أَسَد[1] : خوفُ الملائـكة والأنبياء خوفُ إعظام وتعبُّد لله ؛ لأنهم آمنون[2] .

وقيل : فعلوا ذلك[3] ليُقْتَدَى بهم ، وتستَنَّ بهم أممُهم[4] ، كما قال صلى اللهُ عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعْلَمُ لضحكتُم قليلا ولبكيتم كثيرا[5] » .

وأيضا فإنَّ فى التوبة والاستغفارِ معنًى آخَرَ لطيفاً أشـار إليه بعضُ العلماء ، وهو استدعاء محبَّةِ اللهِ[6] ، قال الله تعالى[7] : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

فإحداثُ الرسلِ والأنبياء الاستغفارَ والتوبةَ والإنابةَ والأَوْبَةَ[8] فى كُلِّ

(١) هو المشهور بالمحاسبي ؛ لـكثرة ما كان يحاسب نفسه ، ولزهده . توفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

(٢) خوف إعظام: أى إجلالا وتعظيما لله . وتعبد لله: أى يقصدون به العبادة . آمنون : من الله لإخباره لهم برضاه عنهم ، وأنه يعطيهم فى الدنيا وفى الآخرة من نعمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

(٣) ذلك ؛ أى الاستغفار والتوبة .

(٤) وتستن بهم أممهم : يتخذون ذلك سنة وعادة .

(٥) قال فى نسيم الرياض : فمن علم أن الموت مورده ، والقيامة موعده ، والوقوف بين يدى الله مشهده ، لحقه أن يطول حزنه ويبكى على نفسه .

وهذا من حديث أخرجه الشيخان . وهو فى صحيح البخارى : ٦ — ٦٨ ، وصحيح مسلم : ١٨٣٢

(٦) استدعاء محبة الله : أى طلب أن تزيد الله رضاءه عنهم ومحبته لهم ؛ لما ورد فى الحديث : إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن . والفرح فى حقه بمعنى الرضا عنه وإنعامه عليه ، وتوبة الأنبياء عليهم السلام مما صدر منهم من ترك الأولى ، ولما يخطر بقلوبهم من أنهم لم يؤدوا عبادته حقها ، فإذا فعلوا ذلك مع ماهم عليه من المجاهدة زادت نعمه عليهم .

(٧) سورة البقرة ، آية ٢٢٢ . التوابين : المـكثرين من قولهم : أتوب إليك ؛ وإن لم يكن لهم ذنب ، هضما لأنفسهم ، لتوهمهم التقصير .

(٨) أى إرجاع أمورهم إلى الله تعالى .

حِين ـ استدعاء لمحبّة اللهِ ا والاستغفارُ فيه معنى التَّوْبة ، وقد قال اللهُ لنَبيّه ـ بعد أنْ غَفر له ما تقدّم من ذَنْبِه وما تأخّر[(١)] : ﴿ لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النبيّ وَالمهَاجِرِين وَالأنصار ﴾ .

وقال تعالى[(٢)] : ﴿ فسبِّح بحَمْدِ ربك وَاستَغفِرْهُ إنهُ كان توّاباً ﴾ .

فصـــــل

قد استبانَ لك أيُّها الناظِرُ بما قرّرْناه ، ما هو الحقُّ مِنْ عِصمته صلّى اللهُ عليه وَسلم عن الجهل بالله وصِفاته[(٣)] ، وكونهِ على حالةٍ تُنَافِي العِلْمَ بشيء من ذلك كلّه جملةً بعد النبوّة عَقْلاً وإجماعا[(٤)] ، وقَبْلها[(٥)] سمْعاً ونقْلا ، ولا بشيء ممّا قرّرَهُ مِنْ أُمور الشّرْع[(٦)] ، وأدّاه عَنْ ربِّه من الوحْي قَطْعاً عقْلا وشَرْعاً[(٧)] ، وعِصْمتِه عن الـكذب وخُلْفِ القَوْلِ منذُ نَبّأهُ اللهُ وأرسله قَصْداً أو غَيْرَ قَصْدٍ ، واستحالةُ ذلك عليه شَرْعا وإجماعا ، ونَظَراً وبرهانا ، وتنزيهِهِ[(٨)] عنه قَبْلَ النبوةِ قَطْعا ؛ وتنزيهِهِ [٢٢١] عن الـكبائر إجماعا ، وعن الصغائر تحقيقا[(٩)] ، وعن استدامةِ

(١) سورة التوبة ، آية ١١٧

(٢) سورة النصر ، آية ٣

(٣) فإن فطرته على التوحيد والعلم به وبصفاته والإقرار بذلك .

(٤) عقلا وإجماعا : عقلا ؛ لاقتضاء العقل السليم له . وإجماعا من كل المسلمين .

(٥) وقبلها : قبل النبوة . سمعا ونقلا ، لوروده فى الأحاديث الصحيحة ، ولاتفاق أئمة الدين على عصمته من ذلك قبلها .

(٦) من أمور الشرع الذى أوحى إليه بتبليغه .

(٧) عقلا وشرعا ، لأنه مناف لإرساله به وأمره بتبليغه ، فـكيف يجوز عليه جهل شىء منه ! لأن الأنبياء معصومون من ذلك ، لدلالة المعجزة على علمهم وصدقهم فيما بلغوه عن الله ، لأنه لو لم يكن كذلك كان افتراء على الله ، وهو باطل عقلا وشرعا .

(٨) وتنزيهه : تبرئته ، وبعده .

(٩) تحقيقا : أمرا محققا .

السَّهْوِ والغَفْلةِ ، واستمرارِ الغَلَطِ والنِّسيانِ عليه فيما شرعَهُ للأُمَّةِ ، وعصمتِه في كل حالاته ؛ مِنْ رِضاً وغَضب ، وجِدٍّ ومَزْحٍ ؛ فيجب عليكَ أن تتلقّاهُ باليمين ، وتشدَّ عليه يدَ الضَّنِينِ(١) ، وتَقْدِرَ هذه الفصولَ حقَّ قَدْرِها ، وتَعْلَمَ عظيمَ فائدتِها وخَطَرِها(٢) ؛ فإنَّ مَنْ يجهل مايجبُ للنبي صلى اللهُ عليه وسلم ، أو يجوز له ، أو يستحيل عليه ، ولا يعرفُ صُوَرَ أحكامِه(٣) ، لا يَأْمَنُ أن يعتقِدَ في بعضِها(٤) خِلَافَ ما هي عليه ، ولا يُنزِّهُهُ عمّا لا يجب أَنْ يُضَافَ إليه ، فيَهْلِكُ مِنْ حيثُ لايَدْرى ، ويسقُطُ في هُوّةِ الدَّرْكِ الأَسفلِ من النار(٥) ؛ إذْ ظَنَّ الباطِلَ به ؛ واعتقادُهُ ما لايجوزُ عليه يَحُلُّ بصاحبه دارَ البَوَار(٦) .

ولهذا(٧) ما احْتَاطَ عليه السلامُ على الرَّجُلَيْنِ اللذَيْن رأياهُ ليلا ، وهو معتَكِفٌ في المسجد مع صَفِيّة ، فقال لهما : إنها صَفيّة(٨) . ثم قال لهما : إنَّ الشيطانَ يَجْرِى من

(١) أن تتلقاه باليمين : تأخذ وتقبل ماصدر من مشكاة صدره ، في أى حالة كانت من أمره ، بالقبول واليمن والبركة ، باليمين لأنهم لا يأخذونها إلاما يمتنون به : والضنين : البخيل ، أى تحرص على حفظ ماذكر من تنزيه قدره كحرص البخيل على ما في يده لشدة بخله به وخوفه من ذهابه منه .

(٢) خطرها : شرفها ومزيتها ، وقدرها .

(٣) صور أحكامه ، أى الحكم المتصور في حقه من الوجوب والجواز والحرمة .

(٤) في بعضها : في بعض هذه الصور ، أو الأحكام .

(٥) الهوة : الوهدة العميقة . الدرك : ماينزل به إلى الأسفل من دركات النار .

(٦) يحل : ينزل . دار البوار : جهنم . والبوار : الهلاك .

(٧) ولهذا المذكور كله من عظيم قدره وخطره ووجوب اعتقاد تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عما ذكر ، وأن اعتقاد خلافه يهلك صاحبه ويخلده في الدرك الأسفل لما يؤدى إليه من الكفر إن أراد تنقيصه بما ذكر .

(٨) صفية : أم المؤمنين ، وكانت جالسة تتحدث معه صلى الله عليه وسلم ، ثم قامت فقام معها ليشيعها لبيتها ، فمرا به وأبصراه فأسرعا . =

ابْنِ آدمَ مَجْرى الدمِ [١] ؛ وإنى خشيت أنْ يَقْذِف فى قلوبِكما شيئا فتهلكا [٢] .

هذه ـ أكرمكَ اللهُ ـ إحدى فوائدِ ما تكلّمنا عليه فى هذه الفصول ؛ ولعلّ جاهلًا لايعلمُ بجَهْلِه إذا سمِعَ شيئاً منها يَرَى أنّ الكلامَ فيها جُمْلةٌ من فضُول العلم [٣] ، وأنّ السكوتَ أولى . وقد استبان لكَ أنه متعيِّنٌ للفائدة التى ذكرناها [٤] .

وفائدة ثانيةٌ يُضْطرّ إليها [٥] فى أُصولِ الفقْه ، وتبْنى عليها مسائلُ لا تنعدُّ من الفقْه ، يُتخلَّص بها مِنْ تَشْغيب [٦] مُخْتلفى الفقهاء فى عدّةٍ منها؛ وهى الحكمُ فى أقوالِ النبىّ صَلَّى الله عليه وسلم وأفعالِه ؛ وهو بابٌ عظيم ، وأَصْلٌ كبير من أُصولِ الفقْه ؛ ولا بُدّ من بنائه على صِدْقِ النبى صلى الله عليه وسلم فى إخباره وبلاغه [٧] ؛ وأنه

= والحديث فى الصحيحين ، عن صفية بنت حيي بن الأحطب ، وكانت تحت ابن أبي الحقيق اليهودى ، فلما قتله النبى صلى الله عليه وسلم وأسلمت تزوجها . صحيح البخارى : ٣ — ٦٢ ، وصحيح مسلم : ١٧١٢

وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لهما لما أسرعا : على رسلكما ، أى تمهلا ، إنها صفية . فقالا : سبحان الله! تعجبا من قول النبى صلى الله عليه وسلم ماذكر، لظنه أنهما ظنا به ما لا يليق بمقامه صلى الله عليه وسلم .

(١) المراد بابن آدم الجنس ؛ فيشمل النساء . وجريانه مجرى الدم : تمثيل لشدة اتصاله به ولزومه له .

(٢) يقذف : يلقى ويوقع الشيطان . فتهلكا : فتقعا فى إثم يهلككما الله به بما يحل بكما من العقوبة على ذلك الذنب .

فقد خشى النبى صلى الله عليه وسلم عليهما أن ينوبهما الشيطان فيلقى فى قلوبهما سوء الظن به ، وأنه يتكلم مع أجنبية فيؤديهما ذلك إلى تنقيصه صلى الله عليه وسلم ، وهو كفر يستحقان به دخول النار ، فيهلكان ، فبادر لإعلامهما بما ينقذها من الهلاك .

(٣) فضول العلم : زوائده .

(٤) التى ذكرناها ، وهى أن فيها النجاة من الهلاك ، كما يرشدك إليه حديث صفية .

(٥) يضطر إليها : تحتاج إليها احتياجا شديدا ، لأنها من ضرورات الدين .

(٦) تشغيب : أصل التشغيب تهييج الشر والصياح فى الخصومة .

(٧) وبلاغه : مايبلغه لأمته ، ومن بعث لهدايته وإرشاده .

لا يجوز عليه السَّهوُ فيه ، وعِصمتُه من المخالفةِ فى أفعالِه عَمْداً ؛ وبحسَبِ اختلافهم فى وُقوعِ الصَّغائر وَقَع خلافٌ فى امتثال الفِعْلِ ، بَسْطُ بيانِه فى كتُبِ ذلك[١] العلم ؛ فلا نطوِّل به .

وفائدةٌ ثالثة يحتاجُ إليها الحاكم والمُفْتى فيمن أضاف إلى النبىِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم شيئا مِنْ هذه الأمور ، ووصفَه بها ؛ فمَنْ لم يَعرِفْ مايجوزُ ومايمتَنِـعُ عليه، وماوقع الإجماعُ فيه والخلاف ، كيف يصمِّ فى الفُتْيا فى ذلك[٢]؛ ومِنْ أين يَدْرِى ؟ هل ماقاله فيه نَقْصٌ أو مَدْحٌ ؛ فإمَّا أَنْ يجْتَرِىءَ على سَفْكِ دَمِ مُسْلِمٍ حَرَامٍ ، أو يُسْقِطَ حقًّا ، أو يُضَيِّع حرمةً للنبى صلى اللهُ عليه وسلم[٣] .

ولسبيل هذا ما قد اختلف أربابُ الأصولِ وأئمـــةُ العلماء والمحققين فى عصمة الملائـكة[٤] .

فصـــل

فى القول فى عصمة الملائـكة

أجمع المسلمونَ على أنّ الملائـكة مؤمنون فُضَلاء[٥]؛ واتّفق أئمةُ المسلمين أنَّ حُـكْمَ

---

(١) فى كتب ذلك العلم : يعنى كتب الفقه وأصوله .

(٢) يصمم فى الفتيا : يجزم ، أو يعزم . فى ذلك : فى أمر الأنبياء عليهم السلام ، وفيما يجب لهم ، أو يجوز ويمتنع إذا رفع السؤال إليه .

(٣) قال الخفاجى : فلا يجوز لمسلم أن ينسب لنبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء أمرا ينافى عصمتهم عمدا وسهوا قبل النبوة وبعدها ؛ وهو الذى ارتضاه كثير من أئمة الدين وأهل الأصول .

(٤) فى عصمة الملائـكة ؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون إلا مايؤمرون به ؛ فهم مثلهم فى جريان الخلاف فيما هو لازم لهم ، والصحيح والصواب فيه .

(٥) مؤمنون بالله ورسله وشرائعهم . فضلاء : ذوو قدر معظم مبجل .

المرسلين [١] منهم حُكْمُ النبيين سواء فى العِصْمَةِ مما ذَكَرْنا عِصْمَتهم منه ، وأنهم فى حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع [٢] الأمم .

واختلفوا فى غير المُرْسَلين منهم ؛ فذهبَتْ طائفةٌ إلى عِصْمَةِ جميعِهم عن المعاصى ؛ واحتجُّوا بقوله تعالى [٣] : ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أمرهم ويَفْعَلون ما يُؤْمرون ﴾ . وبقوله [٤] : ﴿ وما مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ معلوم وإنا لنَحْنُ الصَّافُّونَ . وإنا لنَحْنُ المسبِّحونَ ﴾ . [٢٢٢] وبقوله [٥] : ﴿ ومَنْ عِنْدَهُ لا يستَكْبِرونَ عن عبادته ولا يَسْتَحْسِرُون . يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ والنهارَ لا يَفْتُرون ﴾ . وبقوله [٦] : ﴿ إنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن عِبادَتِهِ ويسبّحونه وله يَسْجُدونَ ﴾ . وبقوله [٧] : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَة ﴾ و [٨] ﴿ لا يَمَسُّهُ إلَّا المطهَّرونَ ﴾ ؛ ونحوه من السمعيات .

---

(١) فى نسيم الرياض : قال الواحدى : للملائكة منهم رسل كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل ، ومنهم غير رسل . وقال بعضهم : كلهم رسل ، أرسل بعضهم لبعض ، وبعضهم إلى الناس . والمصنف تبع ، فيما قاله ، الواحدى . وهو المشهور .

(٢) فى حقوق الأنبياء . . . : من حيث الواسطة بين الله تعالى وبينهم ، والتبليغ إليهم فيما أمرهم الله تعالى أن يبلغوه إليهم من الوحى ؛ فحالهم معهم كالأنبياء فى تبليغ الأحكام إليهم وبيان المصالح لهم حسبما أمرهم الله تعالى به . والمراد بعصمتهم أنهم لا يخالفون أمر ربهم .

(٣) سورة التحريم ، آية ٦

(٤) سورة الصافات ، آية ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ـ الصافون : الواقفون صفوفا كصفوف الصلاة فى المقام المعين لنا ، المسبحون : الملازمون لتقديس الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق بشأنه .

(٥) سورة الأنبياء ، آية ١٩ ، ٢٠ . ومن عنده : الملائكة المقربون مكانة لا مكانا . لا يستحسرون : لا يتعبون ولا يملون من العبادة التى أمروا بها .

(٦) سورة الأعراف ، آية ٢٠٦

(٧) سورة عبس ، آية ١٦ . وهم الكرام الكاتبون من الملائكة . والبررة : جمع بار ، وهو المطيع ربه .

(٨) سورة الواقعة ، آية ٧٩ . قال الخفاجى : وهذا على أن المراد به : لا يمس القرآن =

وذهبَتْ طائفةٌ إلى أنَّ هذا خصوصٌ للمُرْسَلين منهم والمُقَرَّبين . واحتجُّوا بأشياء ذكرها أهلُ الأخبارِ والتفاسير ، نحنُ نذكرُها إنْ شاء اللهُ بعدُ ؛ ونُبيِّنُ الوَجْهَ فيها إنْ شاء الله .

والصوابُ عِصْمَةُ جميعهم ، وتنزيهُ نِصَابِهم[1] الرفيع عن جميع ما يحطُّ من رُتْبتِهم ومنزلتهم عن جليل مِقْدَارِهم .

ورأيتُ بعضَ شيوخِنا أشار أنْ لاحاجةَ بالفقيه إلى الكلامِ في عِصْمتهم ؛ وأنا أقول : إنَّ للكلامِ في ذلك ما للكلامِ في عِصْمةِ الأنبياء من الفوائد التي ذكرناها، سِوَى فائدةِ الكلامِ في الأقوالِ والأفعالِ ، فهي ساقطةٌ هاهنا[2] .

فمما احتجَّ به مَنْ لم يُوجِبْ عِصْمةَ جميعهم قصةُ هاروتَ ومَارُوتَ[3]، وما ذَكَرَ فيها أهْلُ الأخبارِ ونَقَلَةُ المفسِّرين ؛ وما رُوِي عن عليّ وابْنِ عباسٍ في خَبَرِهما وابتلائهما[4] .

فاعْلَمْ ـ أكرمكَ الله ـ أنَّ هذه الأخبارَ لم يُرْوَ منها شيء لاسقيمٌ[5] ولاصحيحٌ

= في اللوح المحفوظ أو في غيره إلا الملائكة المطهرون من الأكدار الجسمانية والعلائق البشرية. وقد فسر أيضا بأنه لايجوز أن يمسه من الناس إلا من تطهر من الحدث .أو لايمسه الكفرة لنجاسة كفرهم . قال الخفاجي : ولا شاهد فيه على هذا .

(١) نصابهم : كمال مقامهم ؛ أي تبرئة ساحة منصبهم وقدرهم الرفيع عند ربهم .

(٢) ساقطة هنا : أي في حق الملائكة لعدم اطلاعنا على أقوالهم وأفعالهم ؛ ولسنا مكلفين باتباعهم فيها كالأنبياء .

(٣) علمان للملكين .

(٤) وابتلائهما : بمحبة المرأة وعقابها على ما فعلا ، وماوقع من السحر فتنة للناس. وارجع في شأن هذين إلى تفسير ابن كثير : ١ ـ ١٩٨ ، والمسند : ٩ ـ ٣٥ (بتحقيق الشيخ أحمد شاكر) ، وتفسير القرطبي : ٢ ـ ٥٤

(٥) سقيم : ضعيف .

عن رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وليس (١) هو شيئا يُؤْخذُ بقياسٍ .

والذي منه في القرآن (٢) اختلف المُفَسِّرونَ في معناه ؛ وأنكر ماقال بعضُهم فيه كثير من السلَفِ كما سنذكره . وهذه الأخبارُ من كُتبِ اليهودِ وافترائهم (٣) ، كما نصّه الله

(١) وليس هو؛ أى ماتضمنته قصتها. يؤخذ بقياس : يستنبط بقياس ؛ أى ليس ممايجرى فيه القياس على غيره ، مما ورد من الآيات والأحاديث الصحيحة ؛ فلا ينبغى الخوض فيه نفيا أو إثباتا .

قال فى نسيم الرياض : وهذا الذى ذكره من أنه لم يرد فيه حديث ضعيف ولا صحيح ردوه — كما نقله السيوطى فى مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا — بأنه ورد من طرق كثيرة؛ منها مافى مسند أحمد ، عن ابن عمر رضى الله عنهما — مرفوعا ؛ ورواه ابن حبان ، والبيهقى، وابن جرير ؛ وابن حميد فى مسنده ، وابن أبى الدنيا وغيرهم من طرق عديدة .

وقال ابن حجر فى شرح البخارى : إن له طرقا تفيد العلم بصحته . وكذا فى حواشى البرهان الحلبى ، وذكره مسندا عن ابن عمر رضى الله عنهما — أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول: لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ! وقالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم . فقال الله تعالى : هلما بملكين يهبطان الأرض . قالوا : ربنا هاروت وماروت . فأهبطا ، فتمثلت لهما الزهرة — امرأة حسنة من البشر ، فراوداها عن نفسها ، فقالت : لا ، والله ، حتى تتكلما بهذه الكلمة من الشرك ، فأبيا . فذهبت وأتت بابن جار لها تحمله ، فراوداها . فقالت : لا ، حتى تقتلا هذا الصبى ؛ فقالا : لا . ثم راوداها مرة أخرى، فأتت بقدح خمر، فقالت: لا ، حتى تشرباه. فشربا وسكرا ، فتكلما بكلمة الكفر، وقتلا الصبى ، فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ؛ فعلقا بين السماء والأرض . قال الخفاجى : وقد جمع السيوطى طرق هذا الحديث فى تأليف مستقل فبلغت نيفا وعشرين طريقا .

(٢) فى القرآن : قوله تعالى : « واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » — سورة البقرة ، آية ١٠٢

(٣) هذه الأخبار التى ذكرها بعض المفسرين منقولة من كتب اليهود فى الإسرائيليات وافترائهم وكذبهم على أنبياء الله تعالى وملائكته .

أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه [١] .

وقد انطوت القِصَّةُ على شُنَع [٢] عظيمة . وها نحن نُحَبِّرُ فى ذلك ما يكشف غطاء هذه الإشكالات إنْ شاء الله :

فاخْتُلِف أولا فى هاروت وماروت؛ هل هما مَلَكان أو إنسيّان ؟ وهل هما المرادُ بالملكين [٣] أم لا ؟ وهل القــراءة مَلَكين أو مَلِكَيْنِ [٤] ؟ وهل ما فى قوله : ﴿ وما أُنْزِل على الملكين ﴾ . ﴿ وما يعلِّمانِ من أحد ﴾ - نافية أو موجبة ؟

فأكثرُ المفسِّرين أن اللهَ تعالى امتحن الناسَ بالمَلَكين لتعليم السِّحْر وتبيينه ، وأنّ عمله كُفْرٌ ؛ فمَنْ تعلّمه كفر [٥] ، ومَنْ تركه آمن [٦] ؛ قال اللهُ تعالى [٧] : ﴿ إنما نحنُ

(١) الذى جاء فى قوله تعالى: وما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر . . . .

(٢) شنع : جمع شنعة ؛ أى قبيحة شائعة ، من شنع عليه ؛ إذا أشاع قبائحه .

(٣) وهل هما المراد بالملكين : يعنى فى قوله تعالى : وما أنزل على الملكين .

(٤) وملكين - بفتح اللام قراءة السبعة . وملكين - بكسر اللام قراءة شاذة منقولة عن الحسن البصرى وغيره .

قال فى نسيم الرياض : وكونهما ملكين - بفتح اللام - مذهب الجمهور ، وقراءته متواترة . وعلى قراءة الكسر يلزم كونهما إنسيين تصورا بصورتها الأصلية لأنــه المتبادر . وكونهما من الملائكة أمرهما الله تعالى بالهبوط للأرض ، والحكم بين الناس ، كما تقدم فى الحديث ، فتصورا بصورة البشر ، لقدرتهما على التشكل - بعيد من دلالة اللفظ ، والاحتمال البعيد لامعول عليه ، وإيراده هنا غير متجه . والقائل بأنهما ملكين - بالكسر - استدل بظاهر حديث روته عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : إنها رأتهما رجلين معلقين برجليهما . وفيه الاحتمال السابق أيضا ؛ فالاحتجاج به غير تام .

(٥) من تعلمه وعمل به معتقدا حله كفر ، لاعتقاد ماهو حرام إجماعا - حلالا .

(٦) آمن : أى دام وهو مؤمن على إيمانه؛ إذ الكافر بمجرد تركه السحر لايصير مؤمنا .

(٧) سورة البقرة ، آية ١٠٢

فِتْنَةٌ فلا تَـكْفُرْ﴾ . و تَعْلِيمُهما الناسَ له تعليمُ إِنْذَارٍ[١]؛أي يقولان لِمَنْ جاء يطلبُ تَعَلُّمَه: لاتفعلوا كذا: فإنه يُفَرِّقُ بينالمرء وزوجِه؛ ولاتَتَحَيَّلوا[٢] بـكذا ؛ فإنهسِحْرٌ، فلا تـكفروا .

فعَلَى هذا فِعْلُ المَلَكَيْنِ طاعةٌ[٣] ، وتصرُّفهما فيما أُمِرَا به ليس بمعصيةٍ[٤] ؛ وهى لغيرهما فِتْنَة .

ورَوَى ابنُ وَهْب،عن خالد بنأبى عِمْران[٥]ـأنه ذُكِر عنده هارُوتُ وماروتُ، وأنهما يعلّمان السِّحْرَ ، فقال : نحنُ نُنَزِّهُهما عن هذا .

فقرأ بعضُهم : ﴿ وما أُنزِلَ على المَلَـكين ﴾ . فقال خالد : لم يَنزِل عليهما[٦] .

فهذا خالدٌ على جَلَالته وعِلْمه نزَّههما عن تعليم السِّحْرِ الذى قد ذَكَر غيرُهُ أنهما مأذون لهما فى تعليمه بشريطةأن يُبَيِّنَا أنه كفر،وأنه امتحانٌ من اللهِ وابتلاء؛فكيف لا يُنَزِّههما عن كبائر المعاصى والكُفْرِ المذكورة فى تلك الأخبار .

وقولُ خالد : [٢٢٣] لم ينَزّل: يريد أنّ «ما»[٧] نافية؛ وهو قولُ ابنعباس؛ قال مكّيّ : وتقدير الـكلام : وما كفر سليمان — يريدُ بالسِّحْر الّذِى افتعلَتْه[٨]

---

(١) أى إنما علموهلهم ليعرفوه ويحذروا منه ؛ فهو إنذار وتخويف لهم من وباله .

(٢) لاتتحيلوا : من الحيلة ؛ أى لاتبا شرواحيل السحرة التى يفعلونها من التمويه والنفث فى العقد ونحوه. قال الشهاب : وروى : لاتتخيلوا — بالخاء المعجمة — من التخييل ، وهو ظن الشىء على خلاف ما هو عليه ؛ وأكثرهم على الأول .

(٣) طاعة : لما فيه من النهى عن المنكر .

(٤) ليس بمعصية يستدل بها على عدم عصمة بعض الملائـكة .

(٥) هو خالد بن أبىعمران التجيبى التونسى ، قاضىإفريقية ومحدثها. توفى سنة مائة وتسعة وثلاثين. أخرج له أصحاب السنن ووثقوه . وله تفسير .

(٦) يريد أن « ما » فى قوله تعالى : وما أنزل . . . » نافية كما سيأتى .

(٧) فى الآية : وما أنزل . . . وقد سبق فى الهامش السابق .

(٨) افتعلته : افترته ، وكذبت فى نسبته إليه .

الشياطينُ ، فاتّبعَتْهم فى ذلك اليهودُ ، وما أنزل على الملكين ؛ قال مكىّ : هما جبريلُ وميكائيل : ادّعَى اليهودُ عليهما المجىء به(١) ، كما ادّعَوْا على سليمان(٢) ، فأكذبهم اللهُ فى ذلك .

ولكنّ الشياطِينَ كفَرُوا يعلّمُونَ الناسَ السِّحْرَ ببابلَ هاروتَ وماروتَ قيل: هما رجُلانِ(٣) تعلّماهُ .

قال الحسن(٤) : هاروتُ وماروتُ عِلْجانِ(٥) من أهلِ بابل ؛ وقرأ : وما أُنزِلَ على الملِكَيْن — بكسر اللام ، وتكون « ما » إيجابا على هذا .

وكذلك قراءة عبد الرحمن بن أبْزَى(٦) — بكسر اللام ؛ ولكنه قال : الملِكان هنا داود وَسليمان ، وتكون « ما » نَفْياً على ما تقدّم .

وقيل : كانا مَلِكَيْنِ من بنى إسرائيل ، فمسخهما اللهُ ، حكاه السمرقندى .

والقراءةُ بكسر اللام شاذّةٌ ؛ فحَمْلُ الآية على تقدير أبى محمدٍ مكىّ حسَنٌ ينَزِّهُ الملائكةَ ويُذْهِبُ الرجْسَ(٧) عنهم ، ويطهّرهم تطهيرا .

وقد وصفهم اللهُ بأنهم مُطَهّرونَ ، وكِرَامٌ بَررة ، ولا يَعْصُونَ اللهَ ما أمرهم(٨) .

---

(١) به : بالسحر ، وتعليمه افتراء عليهما .

(٢) ادعوا على سليمان أنه ساحر اعتقد السحر وعمل به افتراء عليه .

(٣) قال الخفاجى : وهو مردود .

(٤) هو الحسن البصرى .

(٥) علجان : مفرده علج ؛ وهو الغليظ من كفار العجم . ويطلق على كل شديد من الكفار مطلقا .

(٦) قال الخفاجى : وعبد الرحمن هذا صحابى ، كما جزم به النووى .

(٧) الرجس : الإثم . ويطهرهم تطهيرا : يبرئهم عن المعاصى وأوساخها .

(٨) قال فى نسيم الرياض : واعلم أن ماذكره المصنف فى قصة هاروت وماروت من أنها لا أصل لها بحسب الرواية ولا من جهة الدراية على ماهو الأصح من ملكيتهم لأنهم معصومون ، والملك المعصوم لايليق أن ينسب إليه ماذكر من المعاصى ونحوها مما مر — مردود . =

ومما يذكرونه[١] قصةُ إبليس ، وأنه كان من الملائكةِ ورئيسا فيهم ، ومِن[٢] خُزّان الجنةِ . . . إلى آخر ما حَكَوْهُ ، وأنه استَثْناهُ من الملائكة بقـــوله[٣] : ﴿ فسجَدُوا إلّا إبليس ﴾ .

وهذا أيْضاً لم يُتفَّقْ عليه[٤] ؛ بل الأكثرُ يَنْفُون ذلك ، وأنه أبو الجنّ ، كما أنّ آدم أبو الإنس ؛ وهو قولُ الحسنِ ، وقَتَادة ، وابن زَيْد .

وقال شَهْر بن حَوْشَب : كان مِنْ الجنّ الذين طردَتْهم الملائكةُ في الأرضِ حين أفسدوا ؛ والاستثناء من غير الجنْس شائعٌ في كلام العرب سائغ ؛ وقد قال الله تعالى[٥] : ﴿ ما لَهُمْ به مِنْ عِلْمٍ إلّا اتبَاعَ الظنّ ﴾ .

= أما الأول فلما عرفته مما مر من أنه ورد في حديث من طرق كثيرة بأسانيد صحيحة، كما قاله الحافظ ابن حجر ، والسيوطي قال : وجمعت طرقه في جزء مستقل . . . فالتردد فيه لا ينبغي.

وأما ما أنكره من أنه نسب للملائكة مالا يليق بهم ، ولا يصح نسبته لهم فتحقيق الوجه فيه أن الله تعالى لما جعل آدم عليه السلام خليفة ، والخلافة في أولاده ، قالت الملائكة سؤال استفسار : أتجعلهم خلفاء يفسدون في الأرض ؟ فقال : لو جعلت فيكم ما فيهم من الشهوة كنتم مثلهم ؛ فتعجبوا من ذلك ، فأمرهم باختيار من يحكم في الأرض ، فاختاروا هذين الملكين، فأودع فيهما جبلة شهوة بشرية ، وتمثلا بصورتهم ، فلما أهبطهما ، ورأيا الزهرة فتنابها ، وكان ما كان مما قصصناه عليك .

فإذا عرفت هذا سقط الاعتراض ؛ لأنهما لما حولا عن الملكية ، وأودع فيهما شهوة البشر لا ينكر مثله منهما ؛ لأن المعصوم الملك مادام على أصل ملكيته ؛ فإذا خرج عنها التحقَ بالبشر، فلا ينكر أن يصدر منهما مايصدر منهم ؛ وهذا هو الحق الحقيق .

(١) يذكرونه : أي في الاستدلال على ماادعوه من أن الملائكة غير معصومين ، والمعصوم منهم الرسل فقط . وهذا على القول بأن آدم كان من الملائكة ، وفيه خلاف مشهور .

(٢) خزان : جمع خازن . والمراد بهم حفظتها وحراسها .

(٣) سورة البقرة ، آية ٣٤ (٤) لقوله في آية أخرى : كان من الجن .

(٥) سورة النساء ، آية ١٥٧ . والظن ليس من العلم ، وكذا اتباعه ، وقد أخرج منه، وليس من جنسه، أي لكنهم اتبعوا الظن فيما زعموه .

ومِمّا رَوَوْهُ من الأخبار(١) أنّ خَلْقاً من الملائكة عَصَوا اللهَ فحُرِّقوا (٢)، وأُمِروا أنْ يسجدوا لآدمَ فأَبَوْا، فحُرِّقوا، ثم آخرون كذلك، حتى سجدَ لهُ مَنْ ذكر اللهَ إلا إبليس، فى أخبارٍ لا أصل لها تردُّها صِحَاحُ الأخبارِ، فلا يُشْتَغَل بها . والله أعلم .

---

(١) كما رواه ابن جرير عن ابن عباس ، وابن أبى حاتم عن يحيى بن كثير .

(٢) قال الخفاجى : ضبطه بعضهم بالفاء ، من التحريف ؛أى طردوا وصرفوا عن مقامهم. وفى بعض الشروح أنه بالقاف ، من تحريق النار ، والراء المهملة مشددة فيهما مع بناء المجهول .

الباب الثاني

فيما يخصهم في الأمور الدنيوية ويطرأ عليهم من العوارض[1] البشرية

قد قدَّمْنَا أنه -صلّى الله عليه وسلم- وسائر الأنبياء والرسل مِنَ البشَر، وأنّ جِسْمَه وظاهِرَهُ خالصٌ للبَشَرِ[2]، يجوز عليه من الآفات والتغييراتِ، والآلامِ والأسقامِ، وتجرُّعِ كأْسِ الحِمَام[3] مايجوز على البَشَر؛ وهذا كلُّه ليس بنقيصةٍ فيه؛ لأَنَّ الشيْءَ إنما يسمَّى ناقصا بالإضافةِ إلى[4] ماهو أتمُّ منه وأكملُ من نوعِه؛ وقد كتب اللهُ تعالى على أهْلِ هذه الدار: فيها تَحْيَوْن، وفيها تموتون، ومنها تُخْرَجون؛ وخلق جميعَ البشَر بمَدْرجةِ الغِيَر[5]؛ فقد مرِضَ صلى اللهُ عليه وسلم، واشتكى[6]، وأصابه الحرُّ والقُرُّ[7]، وأدركه الجوعُ والعَطَش، ولحقه الغَضَب والضَّجَر، وناله الإعياء والتَّعب، ومسَّه الضَّعْفُ والكِبَر، وسقط فجُحِشَ شِقُّهُ[8]، وشَجَّه الكفّارُ، وكَسَروا رَبَاعِيَتَه[9]،

---

(١) أي يخص الأنبياء من الصفات والسمات التي تكون لهم في الدنيا، سواء كانت واجبة أو مندوبة أو مباحة. من العوارض: المراد مايعرض ويحدث من سقم وغيره.

(٢) يعني أنه صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق ببنيته متمحض للبشرية لا يخالف غيره في شيء منها.

(٣) الحمام: الموت. (٤) في ا: إلى من.

(٥) مدرجة: طريق. والغير: غير الدهر: حوادثه المتغيرة من حال إلى حال. والمراد أنهم مستعدون معرضون لها لا محالة.

(٦) اشتكى: مرض. وليس المراد به معناه المشهور، لما يؤثر من صبره صلى الله عليه وسلم والرضا بما يفعله الله به.

(٧) القر: شدة البرد.

(٨) جحش: خدش. شقه: جانبه.

وقد ورد هذا في حديث من أحاديث الصحيحين، وكان ذلك في ذي الحجة سنة خمس. وفي البخاري عن أنس — أنه صلى الله عليه وسلم سقط عن فرسه فجحشت ساقه أو كتفه. وهو — كذلك — في صحيح مسلم: ٣٠٨

(٩) رباعيته: السن التي بين الثنية والناب. وكان هذا في وقعة أحد ... والأثر في صحيح مسلم: ١٤١٦

وسُقِى السمّ(١) ، وسُحِــر(٢) ، [٢٢٤] وتَدَاوىَ ، واحتجم ، وتنشّر وتَعَوَّذَ(٣) ، ثم قضى نَحْبَه(٤) فتُوفِّى صلى اللهُ عليه وسلم ، ولَحِق بالرفيق الأعلى(٥) ، وتخلّص من دار الامتحان والبَلْوَى ؛ وهذه سِمَاتُ البشَرِ التى لامَحِيصَ عنها(٦) ؛ وأصاب غَيْرَه من الأنبياء ماهو أعظم منه ؛ فقُتِلوا(٧) قَتْلًا.

ورُموا فى النــــار(٨) ، وَوُشِرُوا بالمياشير(٩) . ومنهم مَنْ وقاهُ(١٠) اللهُ ذلك فى بعض الأوقات(١١). ومنهم مَنْ عَصَمَهُ كما عَصَم بَعْدُ نبيَّنا من الناس؛فإنْ لم يَـكْفِ

(١) بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية شاة مشوية ، وكانت سألت أى أعضاء الشاة أحب إليه ؟ فقالوا : الذراع ، فأكثرت من السم فيه . وقدمته إليه ، فلما مضغه صلى الله عليه وسلم لم يسغه . وأكل منه بشربن البراء ، فمات بعد ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أمسكوا فإنها مسمومة . وقال لها : ماحملك على هذا ؟ قالت : إن كنت نبيا سلمت منه فأسلم بك ، وإلا أراح الله الناس منك . فاحتجم النبى صلى الله عليه وسلم على كاهله. وقد تقدم الحديث وتخريجه .

(٢) كان ذلك فى مرجعه من الحديبية . والساحر له : لبيد بن الأعصم . وقد تقدم أيضا .

(٣) النشرة : الرقية . تعوذ ، من العوذة ، وهى الرقية بأعوذ بالله ونحوه ، ثم عمت .

(٤) قضى نحبه : مات .

(٥) بالرفيق الأعلى : بالأنبياء والملائكة . والرفيق بمعنى المرافق .

(٦) لا محيص عنها : لا يتخلص منها أحد من الخلق نبيا كان أو غيره .

(٧) كما وقع ليحيى بن زكريا .

(٨) كإبراهيم الخليل .

(٩) الذى نشر هو زكريا لما قتل الملك يحي فوقع به ماوقع من قتل بنيه ، إذ ساط الله عليه عدوا فهرب زكريا من الملك ، فأرسل خلفه من يطلبه ، وأدركه الطالب ، فانشقت له شجرة ، فدخل فيها، فأمسك الشيطان هدب إزاره خارجا من الشجرة ، فدلهم الشيطان عليه فنشروا الشجرة وزكريا . ووشر : نشر . والمياشير : المناشير .

(١٠) وقاه : صانه وحفظه . ذلك : أى القتل والحرق . . .

(١١) كما وقع فى يوسف عليه السلام . .

نبيَّنا ربُّه يَدَ ابْنِ قَمِيئةَ[1] يومَ أُحُد ، ولا حَجَبَه عن عُيُون عِدَاهُ عند دَعْوَتِه أَهْلَ الطائف[2] ؛ فلقد أَخذَ على عُيونِ قُرَيش عند خروجه إلى ثور[3] ، وأمسك عنه سيفَ غَوْرَث[4] ، وحَجَر أبي جَهْل ، وفَرَسَ سُراقة[4] ؛ ولئن لم يَقِه مِنْ سِحْرِ ابنِ الأَعصم[5]

(١) هو عبد الله بن قميئة الذى جرح وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم لما رماه فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، وقال له : خذها وأنا ابن قميئة . فقال له رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : أقمأك الله ؛ أى أذلك ؛ فرماه الله من شاهق جبل معروف لما انصرف فتقطع قطعا .

(٢) كان هذا سنة عشر من النبوة بعد موت أبى طالب ، وقد نالت منه قريش ؛ فخرج إلى الطائف وحده ــ أو معه زيد بن حارثة ــ يلتمس نصرة ثقيف له ، فقام على ناس من أشرافهم ، ودعاهم للإسلام فأبوا ، وأغروا به سفهاءهم ، فأطلوا عليه وحصبوه حتى أدموا ساقيه ؛ ثم كفهم الله عنه وحجبهم عنه ، فجلس عند حائط كرم . . .

(٣) ثور : جبل معروف على يمين مكة ؛ وكان ذلك حين تشاوروا فى أمره صلى الله عليه وسلم بدار الندوة ثم أجمعوا على قتله ، فأمر عليا كرم الله وجهه بالنوم على فراشه ، فخرج صلى الله عليه وسلم وهم عند داره ، وقد أخذ الله على عيونهم ، ونثر على رءوسهم ترابا . . .

(٤) غورث : هو غورث بن الحارث الأعرابى . وكان فى بعض غزواته أدركتهم القائلة ، فنزلوا بواد كثير العضا ، فأنزل صلى الله عليه وسلم بظل شجرة علق بها سيفه وتفرقوا عنه ، وناموا ، فبعد حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا ، فإذا أعرابى جالس عنده . فقال إن هذا أتانى وأنا نائم فاخترط سيفى واستيقظت وهو فى يده مصلتا ، فقال : من يمنعك منى؟ قلت : الله . . . وها هوذا جالس ، ولم يعاقبه ، وهو من المشركين . والغزوة هى غزوة ذات الرقاع . . . .

أما حجر أبى جهل فقد كان قال لقريش : لأرضخنه غدا بحجر أحمله لا أكاد أطيق حمله ، فامنعونى من بنى عبد مناف . وأخذ الحجر ومضى له . فلما أراد رميه به صلى الله عليه وسلم يبست عليه يده ، ثم عاد متغير اللون ، فسألوه ، فقال : عرض دونه فحل لم أر مثله عظما هم أن يأكلنى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك جبريل ، لو دنا لأخذه .

وفرس سراقة : كان سراقة قد ذهب خلف النبى لما خرج مستخفيا للهجرة ، فلما أدرك النبى وأبا بكر ساخت قوائم فرسه فى الأرض ، وكادت تبتلعه ، فطلب الأمان فأمنه ونجا . . .

(٥) هو يهودى وهو لبيد . واليهودية : هى زينب بنت الحارث ، كما تقدم .

فلقد وقاه ماهو أعظم ، من سمِّ اليهودِية .

وهكذا سائرُ أنبيائه مُبتَلًى ومُعافًى ؛ وذلك مِنْ تَمامِ حِكْمته ، ليُظْهِر شَرَفَهم فى هذه[1] المقامات، ويبيِّن أمرهم ، ويُتِمّ كلمتِهِ فيهم، وليحقِّق بامتحانهم بَشَرِيّتَهم، ويرتفعَ الالتباسُ عن أهلِ الضَّعْفِ فيهم[2] لئلا يضلُّوا بما يظهرُ من العجائب[3] على أيديهم ضَلَالَ النصارى بعيسى ابْنِ مريم،وليكونَ فى مِحَنِهم تسليةٌ لأممهم[4]،ووفور لأجورهم عند ربهم تماماً على الَّذِى أحْسَنَ إليهم[5] .

قال بعضُ المحققين : وهـــذه الطوارىء والتغييرات المذكورةُ[6] إنما تختصُّ بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومةُ البشَرِ ، ومعاناة بنىآدمَ لمشاكلةِ الجنْسِ[7] .

وأمّا بوَاطنُهم فمنزَّهةٌ غالبا عن ذلكَ معصومةٌ منه،متعلقةٌ بالملأ الأعلى والملائكةِ لأَخْذِها[8] عنهم ، وتَلَقِّيها الوَحْيَ منهم .

---

(١) يظهر شرفهم : بصبرهم على البليات . فى هذه المقامات : فى أحوالهم المتغيرة ، المتفاوتة فيها الحالات .

(٢) عن أهل الضعف فيهم: أى من ضعف عقله من العوام فى أنبياء الله ، لتوهمهم ـ لضعف عقولهم ـ أنهم ليسوا كغيرهم ممن يغشاه البلاء ، ويعرض له الموت والفناء ؛ فابتلاهم ليعرف الناس أنهم كغيرهم فى العوارض البشرية .

(٣) من العجائب : أى خوارق العادات، وبدائع المعجزات التى تظهر على أيديهم ،وتصدر منهم بأمر الله تعالى تأييدا كانشقاق القمر ، وإحياء الموتى ونحو ذلك ، فيقولون: من يقدر على هذا كيف يمرض أو يسحر ويعرض له مايعرض لضعفاء الخلق ؟

(٤) تسلية لأممهم ؛ فيقتدوا بهم إذا نزلت بهم المصائب ويصبروا كما صبروا .

(٥) تماما على الذى أحسن: أى يتم ذلك بإنمامه على الذى أحسن إليهم أولا بنعمة الوجود والصحة وغيرها من النعم الدنيوية ، فيزيدها بأعظم منها من النعم الأخروية التى لا يعادلها شىء مجازاة لصبرهم وشكرهم .

(٦) التغييرات المذكورة : من صحة لسقم ، ومن سعة لضيق . . .

(٧) مقاومة البشر : أن يكونوا بطباعهم مساوين لأممهم حتى يقدروا على القيام بأمورهم . ومعاناة بنى آدم بمباشرتهم ومخالطتهم لمشاكلة الجنس ؛ أى لمشابهتهم لهم فى الخلق والخلق .

(٨) لأخذها عنهم : لأخذ البواطن وتلقيها عن الملائكة .

قال : وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم [١] : إنَّ عينيّ تنامانِ ولا ينامُ قلبي.

وقال: إنّي لَسْتُ كهيئتكم ؛ إني أبيتُ يُطعمني ربّي ويَسْقِيني .

وقال : لستُ أَنْسَى ، ولكن أُنَسَّى ، ليُسْتَنَّ بي [٢] .

فأخبر أنَّ سِرَّه وباطنَه ورُوحَه بخلاف جِسمه وظاهِره [٣] ، وأنَّ الآفاتِ التي تحلُّ ظاهِرَه من ضَعْفٍ وجوع ، وسَهَرٍ ونَوْمٍ ، لا يَحُلُّ منها شيء باطنَه ، بخلاف غيره من البَشَر [٤] في حُكْم الباطن ؛ لأنّ غيره إذا نام استغرق النومُ جِسْمَه وقلْبه ؛ وهو صلى اللهُ عليه وسلم في نومه حاضِرُ القَلْبِ كما هو في يقظَتِه حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروسا من الحدَث [٥] في نومه لكَوْنِ قلبه يَقْظان كما ذكرناه .

وكذلك غيره إذا جاع ضَعُفَ لذلك جِسمُه ، وخارت [٦] قُوَّتُه ، فبطلت بالكلّيّة جملتُه ، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلم قد أخبر أنه لا يَعْتَريه ذلك ، وأنه بخلافهم؛ لقوله [٧] : لستُ كهَيْئتكم : إني أبيتُ يُطعمني رَبي ويَسْقِيني .

وكذلك أقولُ: إنه في هذه الأحوالِ كلّها؛ من وَصَبٍ [٨] ومرَضٍ، وسِحْرٍ وغَضَب، لم يجْرِ على باطِنه ما يُخِلُّ به ، ولا فاض منه على لسانه وجَوَارِحه مالا يليقُ به ، كما يَعتَرِي غيره من البَشَر مِمّا نأخذُ بعدُ في بيانه .

---

(١) صحيح البخارى : ٤ - ٢٣١ ، وقد تقدم .

(٢) أى إنما أدفع إلى النسيان لأسوق الناس بالهداية فى الطريق المستقيم ، وأبين لهم مايحتاجون أن يفعلوا إذا عرض لهم النسيان (النهاية) . وقد تقدم الحديثان ، كما سبق تخريجهما .

(٣) بخلاف جسمه وظاهره : كل منها مخالف لسره ، وباطنه وروحه فيما يعتريهما من التغييرات والآلام كغيره من سائر البشر .

(٤) فإنه يعرض له تغييرات فى الظاهر والباطن .

(٥) من الحدث : هو ما ينقض الوضوء وطهارته .

(٦) خارت : ارتخت وضعفت .

(٧) فى حديث رواه البخارى فى وصاله الصوم ، ونهى غيره عنه : صحيح البخارى : ٣ - ٤٦

(٨) الوصب : التعب .

فصــل

فإن قلتَ : فقدجاءت الأخبارُ الصحيحةُ أنه صلّى اللهُ عليه وسلم سُحِرَ كما حدثنا الشيخُ أبو محمدٍ العَتَّابى بقراءتى عليه ؛ قال : حدثنا حاتم بن محمد ، حدثنا أبو الحَسن علىّ بن خلف ، حدثنا محمد بن أحمد [٢٢٥] ، حدثنا محمد بن يوسف،حدثنا البخارى ، حدثنا عبيد بن إسماعيل ، قال : حدثنا أبو أسامةَ ، عن هشام بن عُرْوَةَ ، عن أبيه، عن عائشة رضِيَ اللهُ عنها ، قالت (١) : سُحِرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم (٢) حتى إنه ليُخَيَّل إليه أنه فعل الشيء وما فعله .

وفى رواية أخرى : حتى كان يخيَّل إليه أنه كان يأتى النساء ولا يأتيهن (٣) . . . الحديث .

وإذا كان هذا من التباسِ الأمْرِ على المسحور فكيف حالُ النبى صلى اللهُ عليه وسلم فى ذلك (٤) ؟ وكيف جاز عليه ـ وهو معصوم ؟

---

(١) فى حديث رواه البخارى : صحيح البخارى : ٧ ـ ١٧٧

(٢) الذى سحره هو لبيد بن الأعصم ؛ وهو يهودى، أو منافق كان حليفا لليهود .

(٣) قال فى نسيم الرياض (٤ ـ ٢٧٧) : وتمامه كما هو فى الصحيحين عن عائشة : كان صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندى دعا، ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه؟ أتانى رجلان، فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى، فقال أحدهما لصاحبه: ماوجعه؟ قال: مطبوب ـ أى مسحور قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر فى بئر ذروان .

فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه فدفنت ولم يستخرجها .

مشط ومشاطة : هى الشعر الذى يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط (النهاية).

جف طلعة : الجف : وعاء الطلع ، وهو الغشاء الذى يكون فوقه .

بئر ذروان . بئر فى منازل بنى زريق بالمدينة (ياقوت) . والحديث فى صحيح مسلم أيضا: ١٧٢٠

(٤) فى ذلك الالتباس . وعلى أى حالة وقع له ؟ وكيف جاز عليه ذلك الأمر الذى جاز على غيره من تأثير السحر فيه ؟

فاعْلَمْ ـ وفقّنا اللهُ وإياكَ ـ أنّ هذا الحديثَ صحيحٌ متّفَقٌ عليه ؛ وقد طعنَتْ[(١)] فيه المُلْحِدَةُ، وتذرّعَتْ[(٢)] به لسُخْفِ عقولِها وتَلْبيسِها على أمثالها[(٣)] إلى التشكيك في الشّرْعِ ؛ وقد نزّه اللهُ الشّرْعَ والنبيّ عما يُدْخِلُ في أمْرِه لَبْساً[(٤)] وإنما السّحْرُ مرَضٌ من الأمراضِ ، وعارِضٌ من العِلَل ، يجوزُ عليه كأنواعِ الأمراضِ مما لا يُنْكَرُ ولا يَقْدَحُ[(٥)] في نُبوّته .

وأمّا ما وَرَدَ أنه كان يُخَيّل إليه أنه فعل الشيء ولا يَفْعَلُه فليس في هذا ما يُدْخِلُ عليه داخلةً[(٦)] في شيء مِنْ تَبْليغِهِ أو شريعته، أو يَقْدَحُ[(٧)] في صِدْقِهِ ؛ لقيامِ الدّليلِ والإجماعِ على عِصْمته مِنْ هذا[(٨)] ؛ وإنما هذا فيما يجوزُ طروءه عليه في أمْرِ دُنياه التي لم يُبْعَثْ بسببها ، ولا فُضِّل من أجْلها ؛ وهو فيهــا[(٩)] عُرْضَةٌ للآفات كسائرِ البَشَر ؛ فغَيْرُ بَعيدٍ أنْ يُخَيّل إليه من أمورِها ما لا حقيقةَ له ، ثم يَنْجلي[(١٠)] عنه ، كما كان .

(١) أى طعنوا بسببه فى مقام النبوة .

(٢) تذرعت : تقوت به وظنته دليلا ينفعهم .

(٣) أمثالها : أى أشباهها من ضعفاء اليقين فى أمر الدين .

(٤) لبسا : شيئا يصير أمره ملتبسا بغيره مما لايليق به .

(٥) لايقدح فى نبوته : لايعد نقصا ولا عيبا فادحا .

(٦) داخلة : نقيصة وعيبا وفسادا . (٧) يقدح : يعيب .

(٨) قال الخفاجى : وهذا برمته من كلام المازرى فى « المعلم » ؛ قال : أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث ، وزعم أنه يحط من منصب النبوة ، وقالوا : كل ما أدى إلى ذلك فهو باطل ؛ وتجويزه بعد الثقة بما شرعوه من الشرائع ؛ إذ يحتمل على هذا أنه صلى الله عليه وسلم يرى جبريل وليس هو ، وأنه يوحى إليه بشىء ولم يوح إليه .

وهو مردود ؛ لأن الدليل قام على صدقه صلى الله عليه وسلم فيما بلغه عن الله عز وجل وعلى عصمته فى التبليغ ، والمعجزات شاهدة بصدقه ؛ فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل .

(٩) فيها : فى أمور الدنيا . (١٠) ينجلى عنه : يزول وينكشف .

وأيضا فقد فسَّر هذا الفَصْلَ الحديثُ الآخَرُ من قوله : حتى يُخَيَّل إليه أنه يأتى أهلَه ولا يأتيهن[(١)] .

وقد قال سفيان ـ وهذا أشدُّ ما يكونُ مِنَ السِّحْر ، ولم يَأْتِ فى خَبَرٍ منها أنه نُقِلَ عنه فى ذلك قولٌ بخلاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يَفْعَله ؛ وإنما كانت خواطِرُ وتخيلات .

وقد قيل : إنَّ المرادَ بالحديث أنه كان يتخيَّل الشىء أنه فعله ، وما فعله ، لكنه تخييل لا يَعْتَقِدُ صحتَه[(٢)] ، فتكون اعتقاداتُه كلها على السَّدَاد[(٣)] ، وأقوالُه على الصحة .

هذا ما وقفتُ عليه لأئمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث[(٤)] مع ما أوْضَحْنَاه من معنى كلامهم ، وزِدْناهُ بياناً من تلويحاتهم[(٥)] . وكُلُّ وَجْهٍ منها مُقْنِعٌ ؛ لكنه قد ظهر لى فى الحديث تأويلٌ أجْلَى[(٦)] وأبْعَدُ من مَطَاعن ذَوِى الأضَاليل يستفادُ من نَفْسِ الحديث ؛ وهو أنَّ عبد الرزّاق قد رَوَى هذا الحديثَ عن ابن المسيَّب ، وعُروة بن الزبير ، وقال فيه عنهما : سَحَرَ يَهُودُ بنى زُرَيق رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فجعلوه فى بئر حتى كاد رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أنْ يُنْكِرَ بَصَره[(٧)] ؛ ثمَّ دَلّه اللهُ على ما صنعوا فاستخرجه من البئر .

---

(١) فهو تصريح بأنه من الأمور الدنيوية لا الشرعية .

(٢) وذلك ليقظة قلبه ، وسلامة ذهنه التى لا يؤثر فيها مثل هذه التخيلات ، وهى سحابة صيف عن قريب تقشع .

(٣) السداد : الاستقامة ؛ أى إن أموره كلها مستقيمة كاملة وإدراكه كذلك .

(٤) هذا الحديث الذى روته عائشة ، وقد سبق .

(٥) تلويحاتهم : من إشاراتهم له من غير تصريح به .

(٦) أجلى : أظهر من غيره من التأويلات التى ذكروها .

(٧) ينكر بصره : أى ما أبصره . أو ينكر نفس رؤيته لتأثير السحر فيه .

[ورُوِى نحوه ، عن الواقدى ، وعن عبد الرحمن بن كعب ، وعُمر ابن الحَكَم][(١)] .

وذُكر عن عطاء الخُرَاسانى، عن يحيى بن يَعْمر : حُبِس رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن عائشة سنَةً ، فَبَيْنَا هو نائم أتاه ملـكان ، فقعد أحدُهما عند رأسه والآخَرُ عند رِجْليه . . . الحديث[(٢)] .

قال عبد الرزاق : حُبِس رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن عائشة خاصةً سنةً حتى أنكر بَصَره .

[وروى محمد بن سَعْد ، عن ابن عباس : مَرِض رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، فحُبِس عن النساء والطعام والشراب ، فهَبطَ عليه ملَكان . . . وذكر القصة][(٣)] .

فقد استبان لكَ مِنْ مضمون هذه الرواياتِ أنّ السِّحْرَ إنما تسلَّط[(٤)] على ظاهره وَجَوارحِه [٢٢٦] ، لا على قلبه واعتقادِه وعَقْلِه ، وأنه إنما أثّرَ فى بَصَرِه ، وحَبَسه عن وَطْء نسائه [وطعامه ، وأضْعَف جِسْمَه وأمرضه][(٥)] ؛ ويكون معنى قوله : يخيَّلُ

---

(١) ما بين القوسين ساقط فى ا .

(٢) صحيح البخارى : ٧ — ١٧٧ ، ١٧٨

(٣) القصة أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : إن الله أخبرنى بدائى ، ثم بعث علياوالزبير وعمار بن ياسر رضى الله تعالى عنهم ؛ فنزحوا ماء البئر ، فإذا هو مثل نقاعة الحناء ؛ ثم رفعوا الراعوثة — وهى صخرة فى قعر البئر ، فأخرجوا جفا ومشاطة — وهو شعر رأسه الشريف وأسنان مشط ، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة ، وتمثال صورته من شمع غرزفيه إبر؛ فنزل جبريل بالمعوذتين ؛ فكان كلما قرأ آية منهما انحلت عقدة ، وكلما نزع إبرة وجدلها ألما تعقبه راحة ، فاعترف لبيد بأنه وضعه ، فعفا عنه (نسيم الرياض : ٤ — ٢٨٢) ومابين القوسين كتب أمامه فى هامش ا : من الأم من غير الرواية .

(٤) تسلط : تمكن وأثر .

(٥) مابين القوسين كتب أمامه فى هامش ا : من غير الرواية .

إليه أنه يأتى أهلَه ولا يأتيهن ؛ أى يَظْهَرُ له من نشاطه[١] ومتقدِّم عادته القدرَة على النساء ؛ فإذا دَنَا مِنهنّ أصابَتْه أُخْذَةُ[٢] السِّحْرِ ، فلم يقدر على إتيانهنّ ، كما يعترى[٣] مَنْ أُخِّذَ واعْتُرِضَ[٤] .

ولعله لمثل هذا أشار سُفْيان بقوله : وهذا أشدُّ ما يكون من السِّحْر . ويكون قولُ عائشة فى الرواية الأخرى : إنه ليُخَيَّل إليه أنه فعل الشىء وما فعله ، مِنْ باب ما اختلّ مِنْ بَصره[٥] ، كما ذُكِر فى الحديث ؛ فيظنّ أنه رأى شخصا مِنْ بعض أزواجه ، أو شاهَد فِعْلاً من غيره ، ولم يكن على ما يُخَيَّلُ إليه لِمَا أصابه فى بصره وضَعْفِ نَظَرِه ، لا لشىء طَرَأَ عليه فى مَيْزِه[٦] .

وإذا كان هذا[٧] لم يكُنْ فيما ذُكِر من إصابةِ السِّحْرِ له وتأثيرِه فيه ما يُدْخِلُ لَبْسًا[٨] ولا يَجِدُ به الملحدُ المعترضُ أُنْسًا[٩] .

---

(١) فى نسيم الرياض (٤ — ٢٨٢) : هذا جواب سؤال تقديره : إذا قلت إن السحر لم يؤثر إلا فى ظاهر بدنه يرد عليك أنه تخيل ما لم يقع واقعا يقتضى خللا فى الذهن والإدراك ؛ فهو مناف لما قلته .

(٢) الأخذة، أمر يتخذه السحرة يحبس المرء عن انتشار آلة الجماع تسميه العامة رباطا ؛ وهو نوع من السحر ، ويقال : به أخذة من الجن أيضا ، كأنها أخذت قوته (النسيم) .

(٣) يعترض : يعرض .

(٤) من أخذ : من صنع له أخذة السحر . واعترض : عرض له عارض من مرض ونحوه .

(٥) ما اختل من بصره ؛ أى قوة نظره لانفس عينه .

(٦) فى ميزه : تمييزه ؛ والمراد قوة عقله المميز .

(٧) هذا : ما ذكر من حاله على ماقرره .

(٨) مايدخل لبسا : بأن يؤثر فى عقله وتمييزه ، أى يسرى لباطنه .

(٩) أنسا : أمرا يستأنس به أوهامه الفاسدة ؛ أى يحدث عنه علما ينقص به مقام النبوة ؛ من قولهم : آنست منه كذا ، إذا علمته أو أبصرته .

فصـــل

هذه حالُه في جِسْمِهِ، فأما أحوالُه في أمور الدنيا فنحن نَسْبُرها[١] على أسلوبنا[٢] المتقدم بالعَقْدِ والقولِ والفعل[٣].

أما العَقْد منها فقد يَعْتَقِدُ[٤] في أمور الدنيا الشيء على وَجْهٍ ويظهر خلافُه، أو يكون منه على شكٍّ أو ظن بخلاف أمورِ الشرع[٥]؛ كما حدثنا[٦] أبو بَحْر سُفيان بن العاصي وغَيْرُ واحدٍ سَماعًا وقراءةً؛ قالوا: حدثنا أبو العباس أحمد بن عُمَر، قال: حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد بن عَمْرويه، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا عَبْدُ الله بن الرُّومي، وعباس العَنْبَري، وأحمد المَعْقِري؛ قالوا: حدثنا النضر بن محمدٍ؛ قال: حدثني عِكرمة، حدثنا أبو النجاشيّ؛ قال: حدثنا رافع بن خَديج؛ قال: قدِمَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلّم المدينةَ وهم يَأْبُرون[٧] النَّخْلَ، فقال: ما تصنعونَ؟ قالوا: كنّا نَصْنَعُهُ. قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا؛ فتركوه، فنقَصَتْ[٨]؛ فذكروا ذلك له؛ فقال: إنما أنا بَشَرٌ، إذا أمرتُكم بشيء مِنْ دينكم فخذُوا به، وإذا أمرتُكُمْ بشيء من رَأْيي[٩] فإنما أنا بَشَرٌ.

(١) نسبرها: نخبرها، ونبينها.
(٢) في ا: أسلوبها.
(٣) العقد: الاعتقاد؛ أي نستوفي أقسامها النظرية واللفظية والعملية.
(٤) يعتقد النبي ...
(٥) فإنه صلى الله عليه وسلم لا يتردد فيها، لأنه معصوم عن الخطأ.
(٦) حديث رواه مسلم: صحيح مسلم: ١٨٣٥
(٧) تأبير النخل: أن يؤخذ من طلع النخلة الذكر ما يوضع في طلع غيرها حين ينشق فتلقح.
(٨) فنقصت ثمرتها. وفي صحيح مسلم: فنفضت، أو فنقصت.
(٩) في صحيح مسلم: من رأي؛ أي يكون رأيا في أمور الدنيا الصرفة فإنما أنا بشر مثلكم قد أرى رأيا والأمر بخلافه في أمور الدنيا فلا يجب اتباعه.

وفى رواية أنس : أنتم أعلمُ بأمْرِ دُنيا كم .

وفى حديث آخر[(١)] : إنما ظَنَنْتُ ظناً ، فلا تؤاخذونى بالظّنّ[(٢)] .

وفى حديث ابنِ عباس فى قصة الْخرْص[(٣)] ؛ فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم : إنما أنَا بشَرٌ فما حدثتكُمْ عن اللهِ فهو حَقٌّ ، وما قلتُ فيه مِن قِبَلِ نَفْسِى فإنما أنا بشَرٌ أُخْطِئُ وأُصِيب .

وهذا على ما قرّرْناهُ فيما قاله مِنْ قِبَلِ نفْسِهِ فى أمورِ الدنيا وظَنّه من أحْوالها ، لا ماقَالَهُ مِنْ قِبلِ نفْسِه واجتهاده فى شَرْعٍ شرعَهُ ؛ وسُنّةٍ سنّها .

وكما حكى ابنُ إسحاقٍ أنه صلّى اللهُ عليه وسلم لمّا نزل بأدْنى مياهِ بَدْرٍ[(٤)] قال له الُحباب بن المنذر : أهذا منزلٌ أنزلَكَهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدّمَه ، أم هو الرأىُ والحرب والمَكيدة[(٥)] ؟ قال : لا ، بل هو الرأى والحربُ والمَكِيدة . قال : فإنه ليس بمَنْزِلٍ[(٦)] ، انهَضْ حتى نَأْتِى أدنى ماءٍ من القوم ، فنَنْزِلَه ، ثم نُعَوِّرَ

---

(١) رواه مسلم عن طلحة فى هذه القصة : صحيح مسلم : ١٨٣٥

(٢) أى لاتجدوا على فى أنفسكم كدرا فيما ظننته خيرا لكم فتبين خلافه .

(٣) الخرص : الحزر والتخمين لما على الشجر من الرطب تمرا ، ومن العنب زبيبا . وقد رواه البزار بسند حسن. والقصة على ماروى عن أبى حميد؛ قال :خرجنا مع رسول الله فى غزوة تبوك ، فأتينا وادى القرى على حديقة لامرأة، فقال النبى : اخرصوها ، فخرصناها ، وخرص رسول الله عشرة أوسق ، وقال لها : احصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله . . . ... ثم أقبلنا حتى قدمنا وادى القرى ، فسأل رسول الله المرأة عن حديقتها : كم بلغ تمرها ؟ فقالت : عشرة أوسق ، فقال رسول الله . . .

(٤) فى غزوة بدر . أدنى مياه : أبعدها وأقلها ماء .

(٥) المكيدة : الكيد ، والمكر ؛ لأن الحرب خدعة .

(٦) ليس بمنزل لبعده عن الماء وكثرة رمله .

ما وَراءه من القُلُب[١] ؛ فنشربَ ولا يشربون. فقال : أشَرْتَ بالرأى ، وفعل ما قاله .

وقد قال له اللهُ [٢٢٧] تعالى[٢] : ﴿ وشاوِرْهم فى الأمر ﴾[٣] .

وَأراد مصالحةَ بَعْضِ عدوِّه على ثلث ثَمَرِ المدينة[٤] ، فاستشار الأنصارَ ، فلما أخبروه برأيهم[٥] رجع عنه .

فمِثْلُ هذا وأشباهُه من أمور الدنيا التى لا مَدْخَلَ فيها لِعِلْمِ دِيانةٍ ولا اعتقادِها[٦]

---

(١) نعور ما وراءه : نفسده عليهم . أو هى نغوره ، ومعناها نسده ونطمه وندفنه ، حتى يذهب ماؤه الذى ينتفع به الأعداء . والقلب : جمع قليب ؛ وهو البئر لم تطو ؛ أى لم تبن أطرافها بالحجارة . والخبر فى سيرة ابن هشام : ٢ — ٢٥٩

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٥٩

(٣) قال فى نسيم الرياض (٤ — ٢٨٧) : الأمر للندب لا للوجوب ؛ وإنما أمره بذلك تطييبا لخاطرهم ، ورفعا لمقدارهم ؛ لأن كبراء العرب كانوا إذا لم يشاوروا شق ذلك على نفوسهم ، فأمره بذلك رعاية لهم وتشريعا لمن بعدهم ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلا وأسدهم رأيا .

واختلف فى ذلك ، فقيل : كان فيما لم ينزل فيه وحى ليجتهد فيه ويجتهدوا معه ؛ فإن الاجتهاد بحضرته جائز أيضا . وقيل : إنه مخصوص بأمور الدنيا ومصالح الحرب ؛ فإنهم جربوها ، وقاسوا شدائدها . وكلام المصنف يومى لهذا .

(٤) وكان ذلك فى غزوة الخندق لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غطفان بأن يعطيهما ما ذكر .

(٥) وهو ماقاله سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ! مالنا بهذا من حاجة ؛ والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم بيننا وبينهم .

(٦) أى ليس مما أمر صلى الله عليه وسلم باعتقاده وتبليغه لأمته وتعليمه لهم .

ولا تعليمها ، يجوزُ عليه فيه ماذكرناه(١) ؛ إذ ليس في هذا كلِّه نَقيصةٌ ولا محطَّة(٢)؛ وإنما هى أمورٌ اعتياديةٌ يعرفُها مَنْ جرَّبَها ، وجعلها هَمَّهُ ، وشغَلَ نَفْسَه بها ، والنبيُّ — صلّى اللهُ عليه وسلّم — مشحون القَلْبِ بمعرفة الرّبوبية(٣) ملآنُ الجوانح بعلوم الشريعة، مقيَّد البالِ بمصالح الأُمةِ الدينية والدُّنيَوية، ولكنْ هذا(٤) إنما يكونُ فى بعض الأمور(٥)، ويجوز فى النادر(٦) فيما سبيلُه التدقيق فى حراسة الدنيا واستثمارها(٧)، لا فى الكثير المُؤذِنِ بالبَلَهِ(٨) والغَفْلَة .

وقد تواتَرَ بالنقْل عنه صلى اللهُ عليه وسلم من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها ، وسياسة فِرَق أهلها(٩) ما هو معجزٌ فى البشَر مما قد نبّهنا عليه فى باب « معجزاته » من هذا الكتاب(١٠) .

---

(١) ماذكرناه : من أن يعتقده على وجه فيظهر له خلافه ؛ لأنه ليس من مهمات الدين .

(٢) أى لايحط من مقامه ولا يعيبه .

(٣) مشحون : مملوء؛أى لم يبق فيه محل فارغ لغيرها حتى يخطر بباله .

(٤) هذا : أى مايعتقده ويظهر خلافه .

(٥) فى بعض الأمور : الدنيوية العادية التى تعرف بالتجربة وكثرة المزاولة .

(٦) فسلامة عقله صلى الله عليه وسلم وشدة حذقه تقتضى أنه أعلم الناس بأمور دنياهم أيضا ؛لأنه أوفر الناس عقلا ؛ وقد أطلعه الله تعالى على أسرار الوجود من مذموم ومحمود .

(٧) فيما سبيله التدقيق : أى طريق العلم به تدقيق النظر فيه بتكريره أو صرفه. فى حراسة الدنيا : أى فى حفظ أمور الدنيا وصونها . واستثمارها : أى طلب زيادتها ونمو ثمرتها ، وهو أمر ناشئ عن محبتها والحرص على تحصيلها ، وهو صلى الله عليه وسلم لايريد حرث الدنيا ، ولا يشغل بها خاطره ، ومع ذلك ما وقع منه عدم العلم بها إلا نادرا .

(٨) البله والبلاهة : نقص فى العقل . والغفلة : دون البله .

(٩) السياسة : حكم الناس وضبط أمورهم الجارية بينهم حتى لايتعدى بعضهم على بعض . فرق أهلها : عربا، وعجما على اختلاف عقولهم وطبائعهم وعاداتهم وألسنتهم .

(١٠) صفحة ٣٤١ وما بعدها .

فصـــل

وأمّا ما يُعْتَقد فى أمورِ أحكامِ البَشَرِ الجارية[1] على يَدَيْه وقَضَاياهم ، ومعرفةِ الحقّ من المُبْطل ، وعِلْمِ المُصْلِح من المُفْسِدِ ، فبهذه السَّبيلِ[2] ؛ لقوله صلَّى اللهُ عليه وسلم[3] : « إنما أنا بَشَرٌ ، وإنكم تختصمونَ إلىّ ، ولعلّ بعضَكم أن يكون أَلْحَنَ[4] بحُجّته من بعضٍ ؛ فأقضى له على نَحْوِ ممّا أَسْمعُ[5] ؛ فمَنْ قَضَيْتُ له مِنْ حقّ أَخيه بشىء فلا يأخذ منه شيئا[6] ، فإنما أَقْطَعُ له قطعةً من النار[7] » .

حدثنا الفقيه أبو الوَليد رحمه الله ؛ حدثنا الْحُسين بن محمد الحافظ ، حدثنا أبو عُمر ، حدثنا أبو محمد ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا محمد بن كَثِير ، أخبرنا سُفيان ، عن هشام بن عُرْوة ، عن أبيهِ ، عن زينب بنت أمّ سَلَمة ؛ قالت : قال رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم . . . الحديث .

وفى رواية الزُّهرى ، عن عُرْوَة : « فلعلّ بعضَكم أن يكونَ أَبلغَ من بعض ؛ فأَحْسِب أنه صادق فأَقْضِى له » .

---

(١) فى أمور أحكام البشر : أى مايحكم به عليهم فى أمورهم التى ترفع إليه .

(٢) فبهذه السبيل : أى جاء على هذه الطريقة السابقة فى أمور الدنيا التى قد يظهر له منها ما الأمر بخلافه أحيانا . وفى شرح القارى (٢ — ٣٤١) : أى ما ذكر هنا من معتقده ومعرفته على الوجه الجميل .

(٣) رواه الشيخان مسندا ، وأبو داود ، وعنه رواه المصنف . صحيح مسلم : ١٣٣٧

(٤) ألحن بحجته : أعرف بقيام الحجة وأفصح فى بيانها ممن يخاصمه .

(٥) بحسب الظاهر منه .

(٦) فلا يأخذ منه شيئا ليس من حقه .

(٧) فى نسيم الرياض (٤ — ٢٩١) : وحاصله أن حكم الحاكم بحسب الظاهر صحيح نافذ، ولكن إن خالف الواقع لايحل حراما ولا يحرم حلالا ؛ لأنا نحكم بالظاهر ، وعند الله علم السرائر .

وهذا فى الأموال والدماء وغيرهما ،فالحكم ينفذ بحسب الظاهر، ويبقى الباطن فى الآخرة.

وَتجْرِى أحكامُه صلَّى اللهُ عليه وسلم على الظاهر ومُوجَب[١] غَلَبات الظنِّ بشهادةِ الشاهد، وبِيمين الحالف، ومراعاةِ الأَشْبَهِ[٢]، ومعرفةِ العِفَاص والوِكَاء[٣]، مع مُقْتَضى حكمةِ اللهِ فى ذلك[٤]؛ فإنه تعالى لو شاء لأَطْلَعه على سرائرِ عِبَادِه، ومُخبَّآت ضمائر أمته؛ فتولَّى الحُكْمَ بينهم بمجرّدِ يَقِينِه وعِلْمه دونَ حاجةٍ إلى اعترافٍ أو بيّنَةٍ أو يمين أو شُبْهة[٥]؛ ولكنْ لمَّا أمر اللهُ أُمَّتَه باتّباعِه والاقتداء به فى أفعاله وأحوالِه وقضاياه وسِيَرِه؛ وكان هذا لو كان مِمّا يختصُّ بِعِلْمِه ويُؤْثِرُه[٦] اللهُ به، لم يكُنْ للأُمَّةِ سبيلٌ إلى الاقتداء به فى شىء من ذلك[٧]، ولا قامت حُجَّةٌ بقضيّةٍ من قضاياه لأَحَدٍ فى شريعتِه؛ لأنا لا نعلَمُ ما أُطْلِعَ عليه هو فى تلك القضيّةِ لِحُكْمِه هو إذاً فى ذلك بالمكنون[٨] من إعلام اللهِ له بما أَطْلَعه عليه من سرائرهم؛ وهذا مالا تعلمُه الأمة[٩]؛ فأَجْرَى اللهُ تعالى أحكامَه على ظَوَاهرهم التى يَسْتَوِى فى ذلك هو وغَيْرُه من البَشَر؛ ليَتِمَّ اقتداءُ أُمتِه به فى تعْيين

(١) موجب: مايقتضيه. غلبات الظن: مايغلب تحقيقه فى ظنه بحسب ظاهر الحال.

(٢) أى ماهو أكثر شبها بالحق بما فيه من القرائن.

(٣) ومعرفة العفاص والوكاء: المفاص: وعاء من جلد ونحوه يوجد فيه ماالتقط. والوكاء: مايربط به؛ فإذا عرفها وجاء طالبها يسأل عن أماراتها، فإذا بينها تدفع له لغلبة الظن بأنه صاحبها.

(٤) اقتضت حكمة الله تعالى لنبيه أن يحكم بالظاهر، ليقتدى به من بعده من حكام أمته؛ ولو أراد أن يطلعه الله تعالى فى كل قصة على حقيقتها فعل، ولكنه لايتيسر لمن بعده اتباعه فى أحكامه؛ وهذه الأحكام وإن خالفت الواقع لاخطأ فيها؛ لأنه مأمور بالحكم من قبيل اجتهاده حتى يقال: إنه لايخطىء فيه ولايقر على الخطأ فينا فى ماتقدم؛ وهو ظاهر جدا (الخفاجى: ٤-٢٩٢)

(٥) شبهة: مشابهة فى الأمر للحق.

(٦) يؤثره الله به: يخصه به دون أمته، لأنه وحى أو إلهام.

(٧) لأنه ممن آثره الله تعالى به.

(٨) بالمكنون: بالخفى.

(٩) لأنه تعالى لايظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول.

قضاياهُ ، وتنزيل أحكامِه[1] ، ويأتون ما أتَوْا مِنْ ذلك [٢٢٨] على عِلْمٍ ويقين من سُنَّته ، إذ البيانُ بالفِعْل أوقعُ منه بالقَوْلِ ، وأدْفَعُ[2] لاحتمالِ اللَّفْظِ وتأويل المتأوِّل؛ وكان حكمُه عَلَى الظاهِر أجْلَى[3] في البيان، وأوضَحَ في وجوهِ الأحكامِ ، وأكْثَرَ فائدةً لمُوجباتِ[4] التَّشاجُر والخِصَامِ[5] ، وليَقْتَدِي بذلك كلِّه حُكّامُ أمّته ، ويُستَوثَق بما يُؤْثَر عنه ، ويَنْضَبِط قانون شَرِيعته ، وطَيّ[6] ذلك عنه من عِلْمِ الغَيْبِ الذي استأثَر به عالِم الغَيْبِ فلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِه أحداً إلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسولٍ ، فيعلّمه منه بما شاء[7] ، ويستأثِر بما شاء ، ولا يَقْدح هذا في نبوّته ، ولا يَفْصِم عُرْوَةً[8] من عصمته .

فصـــل

وأما أقوالُه الدنيويّة من إخبارِه عن أحوالِه وأحوالِ غيره وما يفعلُه أو فَعَلَه ـ فقد قدّمْنا أنَّ الخُلْفَ فيها مُمْتَنِعٌ عليه[9] في كلِّ حالٍ ، وعلى أيِّ وَجْهٍ، من عَمْد أو سَهْو ، أو صحةٍ أو مرض ، أو رِضاً أو غَضَب ، وأنه معصومٌ منه صلى اللهُ عليه وسلم .

---

(١) في تعيين قضاياه التي وقعت في أحكامه بين الناس ، وتنزيل أحكامه على قواعدشرعه.

(٢) في ا : وأرفع . (٣) فكان حكمه : أي حكم الفعل . أجلى : أظهر .

(٤) موجبات التشاجر : أي مايقتضيه التشاجر والخصام .

(٥) قال في نسيم الرياض (٤ ـ ٢٩٤) : وإنما كان الفعل أظهر ؛ لأنه مشاهد محسوس . وفي الحديث : ليس الخبر كالمعاينة ؛ فإن الله أخبر موسى بما فعل قومه بعده فلم يلق الألواح ، فلما عاين ذلك ألقاها . (٦) طي ذلك : إخفاؤه .

(٧) بما شاء : من وحي ، أو إلهام ، أو فراسة ؛ ليكون معجزة له ، أو كرامة أكرمه الله بها .

(٨) ولا يقدح هذا ؛ أي عدم اطلاعه على بعض المغيبات . ولا يفصم : لا يحل .

(٩) أي لا يصدر عنه أمر يخالف مافي نفس الأمر ؛ لأنه معصوم في أقواله وأفعاله .

هذا فيما طريقُه الخبرَ المَحْضُ[١] مِمّا يدخلُه الصِّدْقُ والكَذِبُ ؛ فأمّا المعاريض[٢] الموهِمُ ظاهرُها خِلَافَ باطِنِها فجائزٌ ورودُها منه فى الأمور الدنيويّة لاسيّما لقَصْدِ المصلحة، كتَوْرِيتِه عن[٣] وَجْه مَغَازِيه لئلا يأْخذَ العدوُّ حِذْرَهُ .

وكما رُوِى مِنْ مُمَازحتِه ودُعَابَتِه لِبَسْطِ أُمّتِه[٤] وتَطْيِيب قلوب المؤمنين من صحابتِه ، وتأْكيـــدا فى تحبُّبِهم ومَسرّةِ نفوسهم ؛ كقولِه[٥] : لأَحمِلنَّكَ على ابْنِ النَّاقَة . وقوله للمرأة التى سأَلَتْهُ عن زَوْجِها[٦] : أَهو الذى بِعَيْنِه بَيَاضٌ .

(١) الخبر المحض : أى الصريح الذى ليس من قبيل المعاريض التى يراد بها التورية .

(٢) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض ، خلاف الصريح . والصريح : هو النص الذى لايحتمل التأويل من القول .

(٣) وجه مغازيه : جهته التى يتوجه إليها فى غزواته ، فإن فيها مصلحة . والتورية : أن يكون اللفظ له معنيان قريب وبعيد ، فيقصد البعيد . وقد تقدم .

(٤) لبسط أمته : ليسرهم ويشرح صدورهم .

(٥) فى حديث رواه أبو داود ، والترمذى، عن أنس رضى الله عنه ، وصححاه ، وروى عن أبى هريرة أيضا ؛ وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال له رجل كان فيه بله : يارسول الله ، احملنى . فباسطه صلى الله عليه وسلم بما عساه أن يكون ، ثم قال له : أنا أحملك على ابن الناقة . فسبق لخاطره من لفظ البنوة استصغاره ؛ فقال : يارسول الله ، ما يغنى عنى ابن الناقة ! فقال له صلى الله عليه وسلم : ويلك ! وهل يلد الجمل إلا الناقة .

وإنما كان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك معهم إذهابا لوحشتهم، ولما يعلمه صلى الله عليه وسلم من مهابته فى نفوسهم فيؤنسهم بذلك .

وما ورد من النهى عن المزح فإنما هو عن كثرته المفرطة،واستعماله مع كل أحد فى غير محله. والحديث فى سنن الترمذى : ٤ — ٣٥٧

(٦) فى حديث رواه ابن أبى حاتم وغيره ، كما أخرجه ابن أبى الدنيا عن زيد بن أسلم — أن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : زوجى يدعوك . فقال لها : من هو ؟ أهو . . . فقالت له : والله مابعينه بياض . فقال لها صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا بعينه بياض — يعنى به البياض المحيط بالحدقة ؛ وهى توهمته غشاوة على حدقته مضرة بالبصر . واللفظ يحتملهما .

وهذا كلُّه صِدْقٌ؛ لأنَّ كلَّ جَمَلٍ ابنُ ناقةٍ، وكُلَّ إنسانٍ بعينهِ بياضٌ وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلم[١]: إنى لأَمْزَحُ ولا أقولُ إلا حقًّا.

هذا كلُّه فيما بابُه الخبَر؛ فأما ما بابُه غَيْرُ الخبرِ مما صُورَتُه صورةُ الأَمْرِ والنَّهْيِ فى الأمورِ الدنيوية فلا يصحّ منه أيضا، ولايجوزُ عليه أن يأمُر أحداً بشىء أو يَنْهَى أحداً عن شىء وهو يُبْطِن خلافَه.

وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم: ما كان لنبيّ أن تكونَ له خائنةُ الأعين، فكيف أن تكونَ له خيانة قَلْبٍ[٢].

فإن قلتَ: فما معنى إذاً قوله تعالى فى قصة زَيْد[٣]: ﴿ وإذ تقولُ للذى أَنْعَمَ اللهُ عليه وأنعمْتَ عليه أَمْسِكْ عليكَ زَوْجَك واتّقِ اللهَ، وتُخْفِى فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه وتَخْشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تَخْشاه... ﴾.

فاعلَمْ ـ أكرمكَ اللهُ، ولا تَسْتَرِبْ[٤] فى تنزيهِ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن

---

(١) فى حديث رواه أحمد، والترمذى، والطبرانى: سنن الترمذى: ٤ ـ ٣٥٧

(٢) خائنة: خيانة. خائنة الأعين: ما تخون فيه بمسارقة النظر والغمز. وخائنة القلب: خيانته، قال في نسيم الرياض: وإذا لم يجزله أن يشير بطرفه لخلاف مافى قلبه فكيف بهذا؟

وهذا من حديث رواه الحاكم، والنسائى، وأبو داود: سنن أبى داود: ١ ـ ٢٦٦

(٣) سوة الأحزاب، آية ٣٧؛ وكانت زوجة زيد هى زينب بنت عمة النبي؛ وكانت من أجمل النساء وأشرفهن، فأتى صلى الله عليه وسلم زيدا لحاجة فلم يجده، فوقع نظره عليها فأعجبه حسنها، ووقعت فى قلبه أعظم موقع؛ فقال: سبحان مقلب القلوب. وانصرف.

فلما جاءها زيد أخبرته بذلك، ففطن زيد لوقوعها فى قلبه، وألقى الله تعالى فى نفسه كراهيتها، فقال: يارسول الله؛ إنى أريد مفارقة زوجتى فقال له: مارابك منها؟ قال: مارابنى منها شىء، ومارابنى منها إلا خير؛ ولكنها تتعظم على وتؤذينى بلسانها. فقال له رسول الله صلى عليه وسلم: أمسك عليك زوجك، واتق الله فى أمرها؛ فأبى وطلقها.

(٤) لاتسترب: لاتقع فى ريبة وشك فى أموره صلى الله عليه وسلم.

هذا الظاهِرِ(١) وأنْ يأمر زَيْداً بإِمساكها وهو يحبُّ تطليقَه إياها، كما ذُكِرعن جماعةٍ من المفسرين (٢).

وأَصَحُّ ما فى هذا ما حكاه أهلُ التفسير عن علىّ بن حُسين ـ أنّ اللهَ تعالى كان أعْلَمَ نَبيَّهُ أنَّ زَيْنَب ستكون من أزواجه، فلما شَكَاها إليه زيدٌ قال له: أَمْسِكْ عليكَ زَوْجَك، واتَّقِ الله (٣). وأَخْفَى فى نفسه ما أَعْلَمه اللهُ به من أنه سيتزوَّجُها مما اللهُ مُبْدِيه ومُظْهِره بتمام التَّزْوِيج وتَطْليقِ زَيْدٍ لها.

ورَوَى نحوه عَمْرو بن فائد، عن الزّهْرى؛ قال: نزل جبريلُ على النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم يُعْلِمه أنَّ اللهَ يزوّجُه زَيْنَب بنت جَحْش (٤)؛ فذلك الذى أَخْفَى فى نَفْسه.

ويصحّح هذا قولُ المفسّرين فى قوله تعالى بعد هذا: ﴿ وكان أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ﴾؛ أى لا بُدَّ لكَ [٢٢٩] أن تتزوّجها.

ويوضّحُ هذا أنَّ اللهَ لم يُبْدِ(٥) من أمرِهِ معها غَيْرَ زواجِه لها؛ فدلّ أنه(٦) الذى

(١) عن هذا الظاهر من الآية؛ أنه صلى الله عليه وسلم أخفى فى نفسه أمرا لخشية طمن الناس فيه بحبها وإرادة طلاقها وأمره بإمساكها، وهو يريد خلافه.

(٢) قال الخفاجى: وهو غير لائق بمقامه صلى الله عليه وسلم.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٣٧؛ لأنه فهم من شكايته أنه يستأذنه فى طلاقها. واتق الله: فلا تؤذها بوصفها بالتكبر وطلاقها بلا سبب.

(٤) فى نسيم الرياض (٤ ـ ٢٩٩): قال ابن العربى:

فإن قلت: فلم قال له: أمسك عليك ـ بعد ما أخبره الله تعالى بأنه سيزوجها له؟

قلت: ليعلمه مالم يعلمه من كراهة زيد لها ورغبته فى طلاقها، حتى لا يبقى فى نفسه شىء منها.

وعلى هذا التفسير لم يبق فى القصة إشكال أصلا. وانظر ـ فى هذه القصة ـ تفسير ابن كثير: ٦ ـ ٤٢٠، وتفسير القرطبى: ١٤ ـ ١٨٩، وأحكام القرآن: ٣ ـ ١٥٢٩، وما بعدها.

(٥) لم يبد: لم يظهر. (٦) أنه: أى تزويجها له بأمر هو الذى أخفاه فى نفسه.

أخْفَاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلم مِمّا كان أعلمه به تعالى .

وقولُه تعالى فى القصة (١) : ﴿ ما كان على النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فيما فرضَ اللهُ له سنَّةَ اللهِ فى الذين خَلَوْا من قَبْل وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

فدلَّ أنه لم يكُنْ عليه حَرَجٌ فى الأمر .

قال الطَّبَرِىُّ : ما كان اللهُ ليُؤْثِمَ نَبِيَّهُ (٢) فيما أحَلَّ مِثَالَ فِعْلِه لمن قَبْله من الرُّسل ؛ قال الله تعالى : (١) ﴿ سُنَّةَ اللهِ فى الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ ؛ أى من النبيِّين فيما أُحِلَّ لهم ؛ ولو كان على مارُوِىَ فى حديثِ قتادة من وقوعِها (٣) مِنْ قَلْبِ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم عندما أعجبَتْهُ ، ومحبّته طلاقَ زَيْدٍ لها لـكان فيه أعظمُ الحرَجِ ، وما لا يَليقُ به مِنْ مَدِّ عَيْنَيْه لِمَا نُهِىَ عنه مِنْ زَهْرَةِ الحياةِ الدنيا (٤) ، ولـكان هذا نَفْسَ الحسَدِ المذمومِ الذى لا يَرْضَاهُ ولا يتَّسِم (٥) به الأتقياء ، فـكيف سيِّدُ الأنبياء ؟

قال القُشَيْرِى : وهذا (٦) إقدامٌ عظيم مِنْ قائله ، وقِلَّةُ معرفةٍ بحقِّ النبى صلى اللهُ عليه وسلم وبفَضْلِه .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٣٨

والحرج فى الأصل : الضيق ، وأريد به الإثم ؛ أى لا إثم عليك فيما قدره لك ، ووسع عليك فى أمر النـكاح. سنة الله: أى سن ذلك سنة وطريقة شرعية كانت لمن قبلك من الأنبياء. وفرض : قضى وقدر .

(٢) يؤثم نبيه : يوقعه فى إثم وذنب .

(٣) وقوعها : أى زينب .

(٤) زهرة الحياة الدينا: زينتها وزخرفها وبهجتها، قال تعالى: ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا . سورة طه ، آية ١٣١

(٥) لا يتسم به : لا يتصف به .

(٦) وهذا المنقول عن قتادة من أنه صلى الله عليه وسلم رآها فأعجبته وأراد طلاقها إقدام: جرأة — على مقام النبوة .

وكيف يقال: رآها فأعجبَتْهُ وهى بِنْتُ عمّتــه، ولم يَزَلْ يَراها منذُ وُلِدتْ، ولا كان النساء يَحْتَجِبْنَ منه صلى اللهُ عليه وسلم،وهو زَوَّجها لزَيْد؛ وإنما جعل اللهُ طلاقَ زَيْدٍ لها،وتزويجَ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم إياها؛لإزالةِ حُرْمةِ التَّبَنِّى، وإبطالِ سُنَّتِه؛ كما قال[١]: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحَدٍ من رجالِكم﴾. وقال[٢]: ﴿لِكَيْلَا يكونَ على المُؤمنين حَرَجٌ فى أزواجِ أدْعِيائِهم﴾.

ونَحْوُه لابْنِ فُورَك.

وقال أبو الليث السمرقندى: فإنْ قِيل: فما الفائدةُ فى أمْرِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وَسلم لزيد بإمساكها؟ فهو[٣] أنّ اللهَ أعلمَ نبيَّه أنها زَوْجتُه، فنهاهُ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم عن طَلَاقِها؛ إذ لم تكُنْ بينهما أُلْفَةٌ؛ وأخفى فى نَفْسه ماأعلمهُ اللهُ به، فلماطلَّقها زيدٌ خَشِيَ قولَ[٤] الناسِ: يَتزوّجُ امرأةَ ابْنِه؛ فأمره اللهُ بزَوَاجِها ليُباحَ مِثْلُ ذلك لأُمّتِه، كما قال تعالى[٥]: ﴿لِكيلا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قَضَوا منهن وطراً﴾.

وقد قيل: كان أمْرُهُ لزيدٍ بإمساكها قَمْعاً للشّهْوَةِ[٦]، وردًّا للنفس عن

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٤٠، أى ليس أبا حقيقيا لأحد منهم.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٣٧. أى شرعنا لك ذلك توسيعا على الأمــة لاخاصية لك. والأدعياء: جمع دعى، بمعنى مدعو؛ وهو من يلصق نسبه بنسب غيره، وليس بينهما بنوة حقيقية.

(٣) فهو: أى فجوابه.

(٤) قال الخفاجى: وإنما خشيه ــ وهو لا إثم فيه ــ كراهة القيل لمن لايعرف حقيقة الحال.

(٥) سورة الأحزاب، آية ٣٧

(٦) يقال: قمعه فانقمع، إذا كفه وذلله؛ أى منعا للشهوة وزجرا لها.

هَوَاها[١]. وهذا إذا جوَّزْنا عليه أنه رَآها فجأةً واسْتَحْسنها. ومِثْلُ هذا لا نُـكْرَةَ[٢] فيه، لما طُبِـعَ عليه ابْنُ آدَمَ من استحسانه للحَسَن، ونَظْرَةُ الفُجَاءة[٣] مَعْفوٌّ عنها؛ ثم قمعَ نَفْسَه عنها، وأمر زَيْداً بإمساكها؛ وإنما تُنْـكَرُ تلك الزيادات التي في القِصَّة[٤].

والتعويلُ والأَوْلى ما ذكرناه عن عليّ بن حُسَين، وحكاهُ السَّمَرْقندي؛ وهو قولُ ابْنِ عطاء، وصحّحه واستحسنَه القاضي القُشَيْري، [وعليه عوَّل أبو بكر بن فُورَك، وقال: إنه[٥] معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير؛ قال: والنبيُّ صلى الله عليه وسلم مُنزَّهٌ عن استعمال النِّفَاق في ذلك، وإظهارِ خلافِ ما في نفسه؛ وقد نزَّهه اللهُ عن ذلك بقوله تعالى[٦]: ﴿ ما كان على النبيِّ مِنْ حَرَجٍ فيما فرض اللهُ له ﴾؛ قال: ومَنْ ظَنَّ ذلك[٧] بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فقد أخطأ.

قال: وليس معنى الخَشْيةِ[٨] هنا الخوف؛ وإنما معناه الاستحياء؛ أي يستحيي منهم[٩] أنْ يقولوا: تزوَّجَ زوجةَ ابنه][١٠].

---

(١) قال في نسيم الرياض (٤ – ٣٠٣) وحكاه بـ «قيل» إشارة إلى أنه غير مرضى عنده؛ فلا وجه لاستحسانه؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم – لم يكن في نفسه هوى، وحاشاه من مثله.

(٢) لا نـكرة فيه: لا ينـكر صحته في الجملة.

(٣) نظرة الفجاءة: أي النظر الذي وقع بغتة من غير قصد.

(٤) تلك الزيادات من أنه تعلق قلبه صلى الله عليه وسلم بها، وأراد أن يطلقها، وأخفى ذلك في نفسه؛ ونحوه مما لا يليق بنزاهته.

(٥) إنه: إن هذا القول الذي اعتمده.

(٦) سورة الأحزاب، آية ٣٨. وفرض: قدر وقضى من تزويجه صلى الله عليه وسلم زينب.

(٧) من ظن ذلك: أي ظن أنه وقع في قلبه محبتها، وأراد أن زيدا يفارقها وأخفى ذلك في نفسه.

(٨) في قوله تعالى: وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

(٩) منهم: من الناس.

(١٠) أمام مابين القوسين في هامش ا: ملحق في الأم بخطه من غير الرواية.

وأن خشيته صلى اللهُ عليه وسلم من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهودِ وتشغيبهم[1] على المسلمين بقولهم: تزوّجَ زوجةَ ابنِهِ بعد نَهْيِهِ عن نِكَاحِ حلائل الأبناء، كما كان[2]؛ فعتبهُ اللهُ على هذا، ونزّهَهُ عن الالتفات إليهم فيما أحلّه له، كما عتَبَه على مُرَاعاةِ رِضَا أزواجِهِ في سورة التحريم بقوله[3]: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لكَ تبتغى مرضاةَ أزواجِكَ، واللهُ غفورٌ رحيم﴾. وكذلك قوله له هاهنا[4]: ﴿وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أحقُّ أن تَخْشَاه﴾.

وقد رُوِي عن الحسن وعائشة[5]: لو كتم رسولُ الله ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ شيئا كتم هذه الآية، لما فيه من عَتْبِهِ [٢٣٠] وإبداء ما أخفاه.

فصـــــل

فإنْ قلت: قد تقررت عصمتُه صلى اللهُ عليه وسلم في أقوالِهِ في جميع أحواله، وأنه لا يصحُّ منه فيها خُلْفٌ ولا اضطرابٌ[6] في عَمْدٍ ولا سَهْو، ولا صحةٍ ولا مَرَضٍ، ولا جِدٍّ ولا هَزْل، ولا رِضاً ولا غضَب. ولكن ما معنى الحديث[7] في وصيته[8] صلى اللهُ عليه وسلم الذى حدثنا به القاضى الشهيد أبو علىّ رحمَه الله؛ قال: حدثنا القاضى أبو الوليد، حدثنا أبو ذرّ، حدثنا أبو محمد، وأبو الهَيْثَم، وأبو إسحاق؛ قالوا: حدثنا محمد ابن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا على بن عبد الله، حدثنا عبد الرزاق

---

(١) من إرجاف المنافقين: أى إشاعة ما هو مكروه بزعمهم، والتشغيب: ما يؤدى إلى الشر من الأكاذيب.

(٢) كما كان: كما وقع.

(٣) سورة التحريم، آية ١

(٤) سورة الأحزاب، آية ٣٧

(٥) وتفسير ابن كثير: ٦ ـ ٤٢٠

(٦) اضطراب: اختلاف وتناف.

(٧) الحديث الذى روى عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: صحيح مسلم: ١٢٥٨، وصحيح البخارى: ٦ ـ ١١

(٨) في وصيته لأصحابه رضى الله عنهم في مرض موته.

ابن همّام ، أنبأنا مَعْمَر ، عن الزّهرى ، عن عُبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ؛ قال : لما حُضِر[1] رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وفى البيت رجالٌ فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : هلُمُّوا أكتُبْ كِتاباً لن تضِلُّوا بعده .

فقال بعضُهم : إنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قد غلَبَهُ الوَجَعُ[2] ...... الحديث[3] .

وفى روايةٍ : ائتونى أكتب لكم كتابا لن تَضِلُّوا بعدى أبدا ؛ فتنازعوا ، فقالوا : مالَهُ أهْجَر[4] ا استَفْهِموه[5] ؛ فقال : دَعُونى ، فإنَّ الذى أنا فيه خَيْرٌ[6] .

وفى بعض طُرُقهِ : أن النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم يَهْجُر[7] .

وفى رواية : هَجَر . ويُرْوى : أهُجر . ويروى : أهُجْراً .

وفيه[8] : فقال عُمر : إنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قد اشتدَّ به الوَجَع ، وعندنا

---

(١) حضر : حضره الموت ، وظهرت علاماته ، ودنا موته .

(٢) غلبه الوجع : اشتد عليه ألم مرضه .

قال الخفاجى : وهذا محل الشبهة والسؤال ؛ لأنه يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم فى حال مرضه قد يصدر عنه مايخالف الواقع . وقد تقدم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معصوم فى مرضه وصحته وسائر أحواله .

(٣) والحديث رواه البخارى وغيره . وقد تقدم أنه فى صحيح مسلم، وصحيح البخارى.

(٤) أهجر : اختلف كلامه بسبب المرض .على سبيل الاستفهام؛أى هل تغير كلامه ،واختلط لأجل مابه من المرض

قال فى النهاية : وهذا أحسن ما يقال فيه ، ولا يجعل إخبارا ، فيكون إما من الفحش أو الهذيان . والقائل كان عمر ، ولايظن به ذلك .

(٥) استفهموه : أى قولهم أهجر ـ بهمزة الاستفهام الإنكارى .

(٦) الذى أنا فيه : من مراقبة الله والتأهب للقائه ، وانتظار رسله الداعين لى للرفيق الأعلى خير من الاشتغال بأموركم واستماع كلامكم .

(٧) يهجر : أى يأتى بهجر من القول ، وهو على تقدير الاستفهام الإنكارى أيضا .

(٨) وفيه : فى هذا الحديث .

كتابُ اللهِ حَسْبُنا[١] .

وكَثُر اللَّغَط ؛ فقال[٢] : قومُوا عنى .

وفى روايةٍ : واختلفَ أهلُ البيتِ واختصموا[٣] ؛ فمنهم مَنْ يقولُ : قَرِّبُوا يكتبْ لكم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كتابا .

ومنهم مَنْ يقول ما قال عُمر .

قال أئمتُنا فى هذا الحديث: النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم غَيْرُ معصومٍ من الأمراض[٤]، وما يكونُ مِنْ عَوارضها من شدّةِ وَجَع وغَشْيٍ[٥] ونحوه مما يطرأ على جِسمه، معصوم أَنْ يكونَ منه من القَوْل أثناء ذلك ما يَطْعَنُ فى مُعجزته، ويؤدّى إلى فسادٍ فى شريعته مِنْ هَذَيانٍ[٦] واختلالِ كلامٍ .

وعلى هذا لا يَصِحُّ ظاهِرُ رواية مَنْ رَوَى فى الحديث : هَجَر[٧] ؛ إذ معناه هَذَى[٨] ، يقال : هَجَر هجراً، إذا هَذى . وأهْجَرَ هُجْراً؛ إذا أفحش[٩] ؛ وأهْجَرَ

---

(١) حسبنا : كافينا عن غيره .

(٢) اللغط : ارتفاع الأصوات واختلاطها حتى لا تكاد تفهم . فقال : أى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) اختصموا : نازع بعضهم بعضا .

(٤) غير معصوم من الأمراض التى تطرأ عليه في ظاهر جسمه دون باطنه ، إذا لم تكن منفرة وما يعرض معها من الآلام والتغيرات . . .

(٥) غشى : إغماء خفيف .

(٦) هذيان : كلام غير مفيد. واختلال كلام : كتناقضه ، ومخالفته للواقع والعقل ؛ لنزاهته صلى الله عليه وسلم وعصمته وكماله فى جميع حالاته .

(٧) بدون استفهام .

(٨) هذى : تكلم بكلام كثير لا فائدة فيه .

(٩) أفحش : تكلم بكلام قبيح عن قصد .

تعدية هَجر[١]؛ وإنما الأَصحُّ والأَوْلَى أهْجَر ، على طريق الإنــكار[٢] على مَنْ قال: لا نــكْتبُ[٣] .

وهــكذا روايتُنا فيه فى صحيح البخارى[٤] من رواية جميع الرُّوَاة فى حديث الزّهرى المتقدم ، وفى حديث محمد بن سَلَام ، عن عُيَيْنَة ؛ وكذا ضبطه الأُصيلىّ بخطّه فى كتابه[٥] ، وغَيْرُه مِنْ هذه الطرق،وكذا روَيْناه عن مسلم فى حديث سُفْيان، وعن غيره .

وقد تُحْمَلُ عليه روايةُ مَنْ رَوَاهَ هَجَر على حذْفِ أَلِف الاستفهام ؛ والتقديرُ: أهَجَر ؛ أو أنْ يُحْمَلَ قولُ القائل هَجَر أو أهْجر دهشةً مِنْ قائل ذلك وحيرةً لعظيم ما شاهَدَ مِنْ حالِ الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلّم ، وشِدَّةِ وَجَعِه ؛ وهو المقام الذى اختُلِف فيه عليه،والأمْرُ الذى هَمَّ بالـكِتاب فيه،حتى لم يَضْبط هذا القائلُ لفْظَه[٦] ، وأجْرَى الهُجْرَ مُجْرَى شِدَّةِ الوَجع ؛ لا أنَّه اعتقد أنه يجوزُ عليه الهُجْر ، كما حملهم الإشفاقُ على حِرَاسته[٧] ؛ واللهُ تعالى يقول[٨]: ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، ونحو هذا .

---

(١) قال القارى (٢ – ٣٥٤) : هذا وهم من المصنف ، والصواب أنهما لغتان ، وفى معناهما متقاربان، وأنهما لازمان لا يتعديان .

(٢) على طريق الاستفهام الإنــكارى ، حتى لا ينسب له ما لا يليق به .

(٣) لا نــكتب ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابته .

(٤) أى ثبت عند البخارى روايته بهمزة الاستفهام : صحيح البخارى : ٦ – ١١

(٥) فى كتابه : يعنى فى صحيح البخارى الذى رواه وضبطه بقلمه .

(٦) حتى إن القائل لشدة دهشته لم يضبط لفظه بالتحرى ومراعاة حسن تعبيره .

(٧) حملهم : دعاهم وحركهم . على حراسته : حذرا عليه من أن يصيبه مكروه أو عدو .

(٨) سورة المائدة ، آية ٦٧ ، فمع هذا لا حاجة لحراستهم له ، لــكن شدة محبتهم دعتهم لذلك .

وأمّا على[٢٦١] رواية: أهُجْراً – وهي رواية أبي إسحاق المُستَمْلي في الصحيح[(١)] في حديث ابن جُبَيْر ، عن ابن عباس ، من رواية قُتَيبة – فقد يكون هذا[(٢)] راجعا إلى المختلفين عنده صلى اللهُ عليه وسلم[(٣)] ، ومخاطبةً لهم من بعضهم ؛ أي جئتم باختلافكم على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وبينَ يَدَيْه – هُجْرًا ومُنْكَراً من القول .

والهُجْرُ – بضم الهاء : الفُحْش[(٤)] في المَنْطق .

وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث ، وكيف اختلفوا بعد أمْرِه لهم – عليه السلام – أنْ يَأْتوه بالكتاب ، فقال بعضُهم ؛ أوَامِرُ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم يُفْهم إيجابُها مِنْ نَدْبِها مِنْ إباحتها[(٥)] بقرائنَ ، فلعلّه قد ظهر مِنْ قرائنِ قوله صلى اللهُ عليه وسلم لبعضهم ما فهمُوا أنه لم تَكُنْ منه عَزْمةٌ[(٦)] ، بل أمْرٌ ردَّهُ إلى اختيارهم[(٧)] ، وبعضُهم لم يَفْهم ذلك ، فقال : استَفْهِمُوه[(٨)] ، فلما اختلفوا كفّ[(٩)] عنه ، إذ لم يكن عَزْمةً[(١٠)] ، ولِمَا رأوْهُ مِنْ صوابِ رأي عُمَر ، ثم هؤلاء[(١١)] قالوا :

---

(١) أي صحيح البخاري ، لأنه أحد رواته .   (٢) هذا : أي الوصف بالهجر .

(٣) فيكون بعض الصحابة قاله لبعض منهم لما وقع بينهم نزاع بعد طلبه صلى الله عليه وسلم من يكتب .

(٤) الفحش في المنطق : أي التكلم بما يقبح ولا يليق بحضرة الرسول .

(٥) إيجابها : ما أريد به الإيجاب منها . من ندبها : أي مندوبها . من إباحتها : أي مباحها .   (٦) عزمة : أمر عزم عليه عزما مصمما فيجب امتثاله .

(٧) رده إلى اختيارهم ؛ أي فهو مشاورة مخيرا فيه ، ولذا اختلفوا فيه وراجعوه .

(٨) استفهموه : استخبروا النبي صلى الله عليه وسلم عما أراد بأمره .

(٩) كف عنه ، فقال : قوموا عني .

(١٠) لم يكن عزمة : واجبة الامتثال .

(١١) هؤلاء القائلون بهذا الوجه .

ويكون امتناعُ عُمر(١) إمَّا إشفاقاً على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ تـكليفه فى تلك الحال إملاءَ الـكتاب ، أو أن تدخُل عليــه مشقّةٌ من ذلك ، كما قال: إن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم اشتدَّ به الوَجَعُ(٢) .

وقيل : خَشِىَ عُمَرُ أنْ يكتبَ أُمورا يعجزون عنها فيحصلون فى الْحَرَج(٣) بالمخالفة ، ورأى أن آلأَرْفق بالأمةِ فى تلك الأمور سعَةُ الاجتهادِ ، وحكْمُ النظَرِ ، وطلبُ الصواب ؛ فيكونُ المصيبُ والمخطئُ مأْجورا(٤) .

وقد عَلِمَ عُمرُ تقرُّرَ الشَّرْعِ ، وتأْسيسَ المِلّةِ(٥) ، وأنَّ آللهَ تعالى قال(٦) : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لكم دِينَكُمْ ﴾ . وقوله صلَّى اللهُ عليه وسلم : « أُوصِيكم بكتَابِ اللهِ وعِتْرَتى(٧) » .

---

(١) امتناع عمر من كتابة ذلك الـكتاب .

(٢) فى نسيم الرياض (٤ - ٣١٢) : فهذا صريح فى شفقته عليه من التعب وتألمه ، مع علمه بأنه صلى الله عليه وسلم لم يدع شيئا إلا أعلمهم به بكتاب الله وسنته ، ولم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليؤخر بيان أمر من مهمات الدين ،وقد قال الله تعالى : اليوم أكملت لـكم دينكم.

(٣) يحصلون فى الحرج : يقعون فى الحرج والضيق .

(٤) مأجورا : مثابا .

قال فى نسيم الرياض (٤ — ٣١٣) : أما الأول فله أجران : أجر اجتهاده، وإصابته الحق . والثانى له أجر اجتهاده فقط،لبذله جهده فى طلب الصواب والحق .

(٥) تأسيس المـــلة : أى إحكام قواعدها ، وما ينبنى عليه أحكامها المحـكمة التى لم يهمل منها شىء .

(٦) سورة المائدة ، آية ٣

(٧) عترته : أهل بيته الأقربون . وفى النهاية : والمشهور المعروف أن عترته أهل بيته الذين حرمت عليهم الزكاة .

وهذا حديث صحيح رواه مسلم فى خطبة خطبها صلى الله عليه وسلم ، وسماهما فيه ثقلين ، تعظيما لشأنهما ، فقال : إنى تارك فيـكم الثقلين : كتاب الله ، وأهل بيتى ، لن يفترقا حتى يردا على الحوض : صحيح مسلم : ١٨٧٣

وقولُ عُمر: حَسبُنا كتابُ اللهِ ـ ردٌّ عَلَى من نازَعه ، لا عَلَى أمْرِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم .

وقد قيل : إنَّ عُمر خَشِيَ تطرُّقَ المنافقين[١] ومَنْ في قَلْبه مَرَضٌ لِمَا كُتِب في ذلك الكتاب في الخَلْوَةِ ، وأن يتقوّلوا في ذلك الأقاويل ، كادّعاء الرافضة الوصيةَ وغَيْرَ ذلك[٢] .

[وقيل : إنه[٣] كان من النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم لهم على طريق المَشُورة[٤] والاختيار . هل يتفقون على ذلك أم يختلفون ؟ فلما اختلفوا تركه][٥] .

وقالت طائفة أُخرى : إنَّ معنى الحديث أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم كان مُجيباً في هذا الكتاب لِمَا طُلِبَ منه[٦] ؛ لا أنّه ابتدأ بالأمْرِ به؛ بل اقتضاهُ[٧] منه بعْضُ أصحابِه ؛ فأجاب رَغْبَتَهم ، وكره ذلك غيرُهم لِلعِلَل التي ذكرناها .

واستُدِلّ في مثل هذه القصّةِ[٨] بقولِ العباسِ لعليّ[٩] : انْطَلِقْ بنا إلى رسولِ الله

---

(١) تطرق المنافقين : وصولهم من طريق النفاق .

(٢) أي إن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي كرم الله وجهه، وتسميتهم له الوصي لذلك، وإن بعض الصحابة كتب هذا ، وغير ذلك مما افتراه الرافضة على رسول الله ، وقد ادعوا أن الكتاب الذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم كتابته كان فيه الوصية بخلافة علي ؛ فلماذا منع منه عمر ؛ وهو كذب منهم عليه .

(٣) إنه ، أي أمره .

(٤) كان على طريق المشورة والتخيير لطيبيا لقلوبهم ، لا أمر إيجاب لا تجوز مخالفته .

(٥) في هامش ا : من غير الرواية .

(٦) أي كانوا سألوه أن يعهد إليهم بما يكتبونه عنه ، فأجابهم بقوله : هلموا . . .

(٧) اقتضاه : طلبه .

(٨) أي قصة الكتاب المذكور .

(٩) في حديث رواه البخاري (صحيح البخاري : ٨ — ٧٤) .

صلى الله عليه وسلم ؛ فإنْ كان الأمْرُ فينا عَلِمْنَاهُ ؛ وكراهةِ عليٍّ هذا ، وقولِه : واللهِ لا أفعل . . . الحديث[١] .

واستدلّ بقوله : دَعُونى ؛ فإنّ الذى أنا فيه خير ؛ أى الذى أنا فيه خيرٌ[٢] من إرسالِ الأَمْرِ وتَرْكِكم[٣] وكتابَ الله . وأنْ تَدْعونى مِمّا طلبْتم .

وذُكِر أنّ الذى طُلِبَ كتابُهُ أمْرِ الخلافةِ بَعْدَه ، وتعيينُ ذلك[٤] .

(١) فى هذا الحديث : إن عليا خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى توفى فيه ، فقال له العباس : كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: بحمد الله بارئا ؛ فأخذ بيده، وقال له: أنت بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى والله أراه متوفيا فى مرضه هذا ، وإنى لأعرف وجوه بنى عبدالمطلب عندالموت. اذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر بعده؛ فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا أوصاه بنا . فقال : أنا والله لا أسأله ، ولو كان فينا أعطيناه للناس بعده .

(٢) لأنه لو كان فيه أمر بواجب لم يقل إن تركه خير منه .

(٣) إرسال الأمر : إهماله وتركه ، وفى ا : تركهم — وتركـكم ، وعليها « مما » فى ا .

(٤) قال فى نسيم الرياض : واعلم أن هذا هو الصواب كما قاله ابن تيمية فى الرد على الروافض ، وأنه ورد مفسرا به فى الحديث المروى فى الصحيحين ، فى قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة : ادع لى أباك وأخاك . . .

ولا يجوز غيره ؛ لأنه لايخلو أن يكون أمرا واجبا أوحى إليه به قبل مرضه ، أو أوحى إليه به فى مرضه ؛ والأول لا يصح ، لأن فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وهو غير جائز . والثانى لو كان بلغه من غير طلب كتاب ونحوه .

وحينئذ فإنما قال عمر ماقاله ، لأنه علمه وعلمه غيره كعائشة رضى الله عنها وغيرها من كبار الصحابة ، ولو ذكره لذكر بعده عمر ، فربما اشمأزت منه بعض النفوس القاصرة ، وقد علم أن الله منجزه ، وأن إخفاءه فى حياته أولى ، وما سوى هذا القول لا وجه له ، فلذا ختم به هذا الفصل ، وكرر ذكره فيه ، والقول بأنه بعيد لا وجه له أيضا .

فصـــل

فإن قيل: فما وَجْه حديثه أيضا الذى حدثناه الفقيه أبو محمد الُخشَنى بقراءتى عليه، حدثنا أبو على الطَّبَرى ، حدثنا عبد الغافر الفارسى ، حدثنا أبو أحمد الُجلُودى ؛ قال: حدثنا إبراهيم بن سفيان ، حدثنا مسلم بن[١] الحجاج، حدثنا قُتَيبة، حدثنا ليث، عن سعيد بن أبى سَعِيد ، عن سالم مَوْلى النصريين ؛ قال : سمعتُ أبا هُرَيرة يقول : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول : اللّهُم إنما محمدٌ بَشَرٌ [٢٣٢]، يَغْضَبُ كما يغضَبُ البَشَر ، وإنى قد اتَّخَذْتُ عندكَ عَهْداً[٢] لن تُخْلِفَنيه ، فأيُّما مؤمن آذيتُه أو سبَبْتُه أو جَلَدْتُه فاجعلها كفّارة له،وقُرْبةً تُقَرِّبُه بها إليكَ يومَ القيامة[٣].

وفى رواية[٤] : فأيّما أحَدٍ دعوتُ عليه دَعْوَةً .

وفى روايةٍ : ليس لها بأَهْلٍ[٥] .

وفى رواية : فأَيُّما رُجلٍ من المسلمين سبَبْتُه أو لعَنْتُه[٦] أو جلدْتُه فاجعلها له زكاةً[٧] وصلاةً ورحمةً .

---

(١) رواه مسلم ، ورواه المصنف من طريقه مسندا : صحيح مسلم : ٢٠١٠

(٢) يعنى أنه صلى الله عليه وسلم عاهد الله عهدا فيما بينه وبينه . لن تخلفينه : يعنى أنك وعدتنى بإنجاز عهدى ، وإنك لا تخاف الميعاد .

(٣) تقربه بها إليك : تثيبه بها ثوابا ترفعه بها منزلة عندك .

(٤) قال فى نسيم الرياض : قال فى المقتفى : وفيه نظر ؛ لأن هذا ليس من حديث أبى هريرة؛ وإنما هو حديث آخر عن أنس رضى الله عنه . ثم قال : قلت : الأمر سهل ، وذكر الرواية وتنكيرها يقتضى مخالفتها لما قبلها سندا ومتنا ، وهو ظاهر فلا وجه لما قاله .

(٥) ليس لها بأهل : أى مستحق لها ؛ أى لهذه الفعلة .

قال الخفاجى : وهذا هو المشكل ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يفعل فعلا بأحد إلا ويستحقه . وسيأتى توجيهه .

(٦) لعنته : دعوت عليه دعوة باللعنة .

(٧) زكاة : طهارة من ذنوبه ، أو زيادة فى حسناته .

وكيفَ يصحُّ أنْ يَلعَنَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مَنْ لا يستحقُّ اللَّعْنَ ، ويَسبُّ مَنْ لا يستحقُّ السبَّ ، ويجلدُ مَنْ لا يستحقُّ الجَلْدَ ، أو يفعَلُ مثل ذلك عند الغضب، وهو معصومٌ عن هذا كلِّه ؟

فاعلَمْ ـ شرح اللهُ[1] صدْرك ـ أنَّ قوله صلى اللهُ عليه وسلم أولًا : ليس لها بأهْلٍ؛ أيْ عندك يارب ، في باطنِ أمرِه[2] ؛ فإنَّ حُكْمَه صلى اللهُ عليه وسلم على الظاهر ، كما قال[3] . وللحِكْمَةِ التي ذكَرْناها[4] ؛ فحَكَم صلّى اللهُ عليه وسلم بجَلْدِه ، أو أدَّبه بسبِّه أو لعْنِه بما اقتضاهُ عنده حالُ ظاهِره ؛ ثم دعا[5] صلَّى اللهُ عليه وسلم لشَفَقَتِه على أُمّته ، ورأفتِه ورحمتِه للمؤمنين ، التي وصفَهُ اللهُ بها[6] ، وحَذَرِه أن يتقبَّلَ اللهُ فيمَنْ دَعَا عليه دعْوَتَه ـ أنْ يجعلَ دعاءَه ولَعْنَهُ له رحمةً ؛ فهو معنى قوله : ليس لها[7] بأهلٍ ؛ لا أنه صلى اللهُ عليه وسلم يحمِلُه الغضَبُ ويستفزُّه الضّجر[8] لأَنْ يَفْعل مِثْلَ هذا بمَنْ لا يستحقُّه مِنْ مُسْلِمٍ .

وهذا معنى صحيح ، ولا يُفْهَم من قوله : أغْضَبُ كما يَغْضَبُ البَشَر ـ أنَّ الغَضبَ حمَلَه على مالا يجبُ فعْلُه ؛ بل يجوزُ أن يكونَ المرادُ بهذا أنَّ الغَضَبَ لله حَمَلَهُ

(١) شرح الله صدرك : فسح فيه ، ووسعه لقبول الحق فيما نحن فيه ، ونوره بمعرفته .

(٢) باطن أمره : حقيقته التي تخفى على غيره .

(٣) كما قال صلى الله عليه وسلم : إنه إنما يحكم بالظاهر .

(٤) وللحكمة التي ذكرناها من أنه لتقتدي به أمته ، ولو أوحى إليه مافي نفس الأمر ، وحكم به ، لم يمكن أمته الاقتداء به في أحكامه .

(٥) دعاؤه ؛ أي بقوله : اللهم اجعله كفارة له .

(٦) وصفه الله بها في قوله تعالى : بالمؤمنين رءوف رحيم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . ونحوه .

(٧) ليس لها بأهل ؛ أي ليس لها في علم الله أهلا مستحقا لما دعا به عليه .

(٨) الضجر : القلق ، وضيق الصدر . ويستفزه : يستخفه ويحركه بسرعة .

على معاقبتِه بلَعْنِه أو سبِّه [١] ؛ وأنه [٢] مما كان يحتمل ويجوز عفْوُه عنه ، أو كان مما خُيِّر [٣] بين المعاقبةِ فيه والعَفْوِ عنه .

وقد يُحْمل على [٤] أنه خرج مخْرَجَ الإشفاقِ [٥] وتعليم أُمتِه الخوفَ والحذَرَ مِن تَعَدِّى حُدُودِ الله تعالى .

وقد يُحْمَل ما وردَ من دُعائه هنا ، ومن دعواته على غير واحدٍ فى غير مَوْطنٍ ، على غير العَقْدِ والقَصْد [٦] ؛ بل بما جرت به عادةُ العرب [٧] ؛ وليس المراد بها الإجابة [٨] ؛ كقوله [٩] : تَرِبَتْ يمينُك . ولا أشْبَع [١٠] الله بَطْنَك .

---

(١) كما ورد فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله .

(٢) أنه ؛ أى الذنب الذى عاقبه عليه .

(٣) مما خير ؛ أى خيره الله تعالى .

(٤) وقد يحمل الدعاء الوارد فى هذا الحديث .

(٥) الإشفاق والخوف منه صلى الله عليه وسلم على أمته .

(٦) على غير العقد والقصد ؛ أى العزم وتصميم القلب .

(٧) كعادة العرب فى محاوراتهم ؛ يدعون على مخاطبهم بنحو : قاتله الله ، وويل أمه ؛ ولا أب له ، لمن قصدوا مدحه وتحسين فعله .

(٨) وليس المراد بهذه الدعوات الدعاء عليهم وطلب الاستجابة فيهم بوقوع مادعوا به .

(٩) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٢٥٠ ، وصحيح البخارى : ٧ — ٤٥ تربت يمينك : ترب الرجل إذا افتقر ، كأنه التصق بالتراب ، وليس المراد به الدعاء عليه . وقد صدر هذا منه صلى الله عليه وسلم مرارا . فمرة لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها — كما رواه البخارى — أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لا يستحى من الحق ؛ هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ فقال : نعم ، إذا رأت الماء . فغطت وجهها وقالت : أو تحتلم المرأة ؟ قال : نعم ، تربت يمينك ؛ فيم يشبهها ولدها !

(١٠) رواه مسلم عن ابن عباس ؛ قاله صلى الله عليه وسلم لمعاوية ، والذى رواه مسلم : لا أشبع الله بطنك . قال البيهقى : فما شبع بعدها أبدا . والحديث فى صحيح مسلم : ٢٠١٠ =

وعَقْرى (١) حَلْقَى . وغيرِها من دعواته (٢) .

وقد وَرَدَ فى صِفتِه فى غيرحديثٍ (٣) أنه صلّى اللهُ عليه وسلم لم يكُنْ فحّاشا (٤) .

وقال أنس (٥) لم يكن سبّاباً ، ولا فاحشا ، ولا لعّانا (٦) ؛ وكان يقول لأحدنا عند

= والحديث عن ابن عباس ، ولفظه ، قال : كنت مع الصبيان ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواريت خلف الباب ، فقال : اذهب فادع لى معوية ، قال : فجئته ، وقلت : هو يأكل . فقال ــ ثانيا ــ اذهب فادعه ، فجئته وقلت : هو يأكل ؛ فأمرنى فجئته وقلت : هو يأكل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا أشبع الله بطنه .

قال الخفاجى : فحينئذ فيما قاله المصنف شىء ؛ لأن الله تعالى استجاب دعاءه فيه ، فليس هذا من الباب الذى به العادة من غير قصد .

(١) قاله صلى الله عليه وسلم لصفية فى حديث رواه مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها ، وهو فى البخارى أيضا بسنده عن عائشة ، قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للحج ، فلما كانت ليلة النفر حاضت صفية ، فقال صلى الله عليه وسلم : ماأراها إلا حابستكم . . . صحيح البخارى : ٧ — ٤٦ ، وصحيح مسلم : ٨٧٨

قال فى نسيم الرياض : وهذا يقال للتعجب بدون قصد الدعاء . وأصله صفة للمرأة المؤذية المشئومة .

واختلف فى معناه : فقيل معنى حلقى : أصابها وجع فى حلقها ، وقيل معناه تحلقهم ؛ أى تستأصلهم ، كما يستأصل الحالق الشعر .

وعقرى من العقر ؛ وهو عرقبة الدواب ، أو من العقيرة ؛ أى رفع الصوت .

(٢) من دعواته التى لا يريد بها الدعاء على من خاطبه ، وإنما يريد بها المدح أو التعجب على عادة العرب فى مخاطباتهم .

(٣) فى غير حديث ؛ أى فى أحاديث كثيرة .

(٤) هو فى صحيح البخارى وغيره ، وقد تقدم . وفحاشا : من الفحش ، وهو القبح والوقاحة فى كلامه ومخاطباته .

(٥) رواه البخارى أيضا ، وقد تقدم .

(٦) سبابا : لا يقول ما هو سب وشتم . فحاشا : لا يتكلم بما يقبح التصريح به . لعانا : يقول اللعنة لأحد .

المَعْتَبَة (١) ؛ مالهُ ! تَرِبَ جَبِينهُ (٢) !

فيكون حَمْلُ الحديث على هذا المعنى (٣) ؛ ثم أَشْفَقَ صلَّى اللهُ عليه وسلم مِن مُوافَقَةِ أمثالها إجابةً ، فعاهد ربَّه ، كما قال فى الحديث،أنْ يجعلَ ذَلِكَ المقُولِ زَكَاةً ورَحْمَةً وقُرْبةً .

وقد يكون ذلك إشفاقاً على المدعُوِّ عليه ، وتَأْنيسا (٤) له؛لئلا يَلْحقَه من استشعارِ الخوف والحذَر من لعْنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وتقبُّل دعائه ، ما يحملُه على اليأْسِ والقُنوط .

وقد يكون ذلك سُؤَالًا مِنه لربّه (٥) لمَنْ جلَدَه ، أو سبَّه على حَقٍّ وبوجْهٍ صحيح أن يجعلَ ذلك (٦) لَهُ كفَّارةً لِمَا أَصابَه (٧) ، وتَمْحِيةً لما اجترم (٨) ، وأن تكون عقُوبَتُه له فى الدنيا سببَ العَفْوِ والغُفْران، كما جاء فى الحديث الآخر (٩) : ومَنْ أَصاب من ذلك شيئا فعُوقِبَ به فى الدنيا فهو له كفَّارة .

---

(١) المعتبة : العتاب ، من عتب عليه عند الغضب ، إذا لامه .

(٢) ماله : أى شىء اقتضى مافعله ؟ ترب جبينه : الجبين : واحد الجبينين ، وهما جانبا الجبهة . وهو دعاء فى الأصل بمعنى كبه الله على وجهه ، ولم يرد به الدعاء، كقولهم : تربت يداه .

(٣) على هذا المعنى : أى إنه جاء على عادة العرب فى ملاطفاتهم .

قال الخفاجى : قيل معنى ترب جبينه : كثر سجوده ، فلا يكون دعاء عليه ، وهذا يقتضى أن المراد به الجبهة صحيح البخارى : ٧ — ٧ ، ١٨

(٤) تأنيسا له : تأليفا له ، ليطمئن قلبه .

(٥) قد يكون قوله : اللهم اجعله رحمة . . .

(٦) ذلك : دعاءه عليه .

(٧) لما أصابه : أى فعله من الذنوب التى استحق بها السب .

(٨) تمحية : إزالة . اجترمه : فعله واكتسبه .

(٩) رواه الشيخان عن عبادة بن الصامت أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم =

فإنْ قلتَ : فما معنى حديث الزُّبير (١) وقولِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم [٢٣٣] حين تخاصُمِهِ مع الأنصاريّ في شِرَاجِ الحَرَّةِ (٢) : اسْقِ يازُبَيْر حتى يبلُغ (٣) الكعبين. فقال له الأنصاريُّ : أَنْ كان ابنَ عَمّتك (٤) يارسول الله ! فتلوَّن وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ ثم قال: اسْقِ يا زُبَيْر ؛ ثم احبِسْ حتى يبلُغَ الجدْرَ (٥) ... الحديث .

فالجوابُ أَنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم منزَّهٌ أن يقَعَ بنفْس مُسلمٍ منه في هذه

= ليلة العقبة للأنصار: بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى بذلك فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه . والحديث فى صحيح البخارى : ١ — ١٢

(١) حديثه هذا رواه البخارى : صحيح البخارى : ٦ — ٥٨

(٢) شراج الحرة : مكان معروف بطيبة كان فيها وقعة يزيد المشهورة .

(٣) حتى يبلغ الماء السائل .

وفى نسيم الرياض (٤ — ٣٢٢) : وقول المصنف : حتى يبلغ الماء السائل الكعبين سهو منه كما قيل : لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقله ابتداء ؛ وإنما قاله بعد غضبه من كلام الأنصارى ، وكان قال له أولا لما ترافعا له : اسق يازبير — فقط ؛ فأمره بمقدار من السقى من غير استيفاء لحقه بتمامه ، كما صرح به البخارى وقاله .

(٤) أن كان ابن عمتك : حكمت له لأنه ابن عمتك ، فهو ابن صفية بنت عبد المطلب .

(٥) الجدر — بفتح الجيم وسكون الدال، والراء المهملة: بمعنى الجدار . وروى بضم الجيم، جمع جدار . وروى بفتح الجيم وكسرها وذال معجمة، من جذر الحساب ، وجذر كل شىء: أصله ، والمراد به الحائط .

قال الخفاجى :

وحاصل السؤال أنه صلى الله عليه وسلم حكم أولا بحكم ثم رجع عنه ؛ وهو ينافى العصمة فى أقواله . . .

القصة أمْرٌ يُرِيب [١]؛ ولـكنه صَلّى اللهُ عليه وسلم ندبَ [٢] الزُّبَيْر أولا إلى الاقتصار على بعض حَقِّه على طريق التّوسط والصُّلْح، فلما لم يَرْضَ بذلك الآخَرُ، ولجَّ [٣] وقال مالا يجب [٤] استوفى النبيُّ صلى الله عليه وسلم الزُّبَيْر حقَّه.

ولهذا ترجَمَ البُخَارى على هذا الحديث: بابٌ. إذا أشار الإمامُ بالصُّلْح فأَبى حَـكَم عليه [٥] بالُحـكْمِ.

وذكر فى آخر الحديث: فاستَوْعى [٦] رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزُّبير حقَّه.

وقد جعل المسلمون هذا الحديثَ أصْلًا فى قضيّته [٧].

وفيه الاقتداء به صلى اللهُ عليه وسلم فى كلِّ ما فعـله فى حالِ غَضَبِه ورِضَاه، وأنه - وإن نَهَى أن يَقضِيَ القاضى وهو غَضْبَان، فإنه فى حكمه فى حال الغَضَب والرِّضَا [٨] سواء، لـكونه فيهما معصوما. وغضَبُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم فى هذا إنما كان لِله تعالى لا لِنفْسِه، كما جاء فى الحديث [٩].

---

(١) أمر يريب: يوقع سامعه فى ريب وشك فى أقواله، ويظن أنه - صلى الله عليه وسلم - يصدر منه قول من غير تأمل وتثبت ثم يرجع عنه.

(٢) ندب الزبير أولا: دعاه وطلب منه.

(٣) لج: أبدى اللجاج عنادا منه فى خصومته للزبير.

(٤) مالا يجب: مالا يجوز.

(٥) عليه: على من أبى الصلح. بالحـكم: أى بالحـكم الحق البين.

(٦) استوعى: استـكمله.

(٧) أصلا: قاعدة. فى قضيته: فى قضية الزبير فى منازعته مع الأنصارى.

(٨) قال الخفاجى: أما فى الرضا فظاهر. وأما فى الغضب فامصمته صلى الله عليه وسلم. ولأنه لم يكن يغضب لنفسه، وإنما يغضب لانتهاك حرمات الله تعالى، كما فى هذه القضية.

(٩) فى الحديث الصحيح أنه إنما كان يغضب لله وانتهاك حرماته.

وكذلك الحديث[١] فى إقادته عُـكَّاشَةَ من نَفْسه[٢] لم يكن لتَعَمُّدٍ حَمَلَهُ الغضبُ عليه[٣]؛ بل وقع فى الحديث نفسه أن عُـكَّاشَةَ قال له: وضَرَبْتَـنِى بالقَضِيب، فلا أَدْرِى

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية .

(٢) عكاشة: من الصحابة ، وهو عكاشة بن محصن، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر أن سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب : ادع الله لى أن يجعلنى منهم . فقال : أنت منهم . فقال آخر مثله . فقال له : سبقك بها عكاشة ، فضرب مثلا – كما فى الإصابة (٤ – ٥٣٣). وحديث عكاشة هذا فى صحيح البخارى : ٧ – ١٦٣، وصحيح مسلم : ١٩٧

وقصة عكاشة هذا وقعت قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم لما أمر بلالا أن ينادى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الصحابة فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، وصلى بالناس ، وصعد المنبر ، وخطب خطبة وجلت منها القلوب ؛ فقال : أيها الناس ، أى نبى كنت فيكم ؟ فقالوا : جزاك الله عنا خيرا ، لقد كنت لنا كالأب الرحيم ، والأخ الشفيق ؛ أديت رسالة الله ، وبلغت وحيه ؛ فجزاك الله عنا أفضل ماجزى نبيا . فقال : معاشر المسلمين ، أنشدكم بالله عز وجل من كانت له على مظلمة فليقم فليقتص منى – وكرره .

فقام شيخ يقال له عكاشة، فتخطى المسلمين حتى وقف بين يديه ، فقال: لولا أمرك ما كنت لأقدم على شىء، لما انصرفنا من الفتح حاذت ناقتى ناقتك ، فرفعت القضيب فضربت خاصرتى ، ولا أدرى أعمدا كان ذلك أم لا .

فطلب – صلى الله عليه وسلم – قضيبه ودفعه لعكاشة ، وقال له : اضرب إن كنت ضاربا . فقال : ضربتنى وأنا حاسر عن بطنى . فكشف له – صلى الله عليه وسلم – عن بطنه ، فقبله ، وقال له :فداك أبى وأمى ! من يطيق أن يقتص منك ؟ فقال له :إما أن تضرب أو تعفو ؟ فقال: عفوت رجاء أن يعفو الله عنى فى القيامة .

فقال صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى رفيق فى الجنة فلينظر لهذا .

فجعلوا يقبلون بين عينيه ، ويهنئونه بذلك .

قال فى نسيم الرياض – بعد أن ذكر القصة : وهو حديث طويل ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . وقال السيوطى : إنه أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، ولم يقل إنه موضوع . فهو تعقب له ، وعلى هذا اعتمد المصنف .

(٣) لم يكن ما صدر منه صلى الله عليه وسلم فى ضرب عكاشة عن عمد منه حمله الغضب على فعله بغير حق .

أعمدا ، أم أردتَ ضَرْبَ الناقة [١] ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أُعِيذُكَ بالله ياعُكَاشة [٢] أن يتعمدكَ رسول الله .

وكذلك فى حديثه الآخر مع الأعرابىّ [٣] حين طلب عليه السلام الاقتصاصَ منه ، فقال الأعرابىُّ : قد عفَوْتُ عنك . وكان النبى صلى اللهُ عليه وسلم قد ضربه بالسَّوْطِ لتَعلُّقِهِ بزمامِ ناقته مرةً بعد أُخرى [٤] ، والنبى صلى اللهُ عليه وسلم يَنْهاهُ ويقول له : تُدْرِكُ حاجتَك [٥] ، وهو يَأْبى ؛ فضربه بعد ثلاث مرات [٦] .

وهذا [٧] منه ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ لمَنْ لمْ يَقِفْ عند نَهْيِه صوابٌ [٨] وموضِعُ أدب [٩] ، لكنه عليه الصلاة والسلام أشفق إذ كان حقَّ نفْسه من الأمْرِ حتى عَفَا عنه .

وأمّا حديثُ سوَاد [١٠] بن عَمْرو : أتيتُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم وأنا متخلِّقٌ [١١] ؛

---

(١) أم أردت أن تضرب الناقة فأصابنى ذلك . (٢) أعيذك بالله ؛ أى أجعلك فى حفظه .

(٣) قال الخفاجى : وهذا الحديث لايعرف من رواه ، ويحتمل أنه حديث عكاشة بعينه. وقال القارى : قال الحلبى: وهذا الأعرابى لا أعرفه .

(٤) وفى هذا ترك أدب يستحق به الضرب تعزيرا ، فلم يكن ذلك إلا بحق ؛ فلا يستحق به الاقتصاص ، ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعله كرما منه، وتطييبا لقلبه من غير حق له مضى ؛ فكان تأديبا وتشريعا مستحقا للحمد لا للعفو .

(٥) تدرك صاحبك : أى أقضى لك حاجتك ، وتصل إليها ؛ فدع الزمام . . .

(٦) بعد ثلاث مرات : بعد نهيه ثلاث مرات .

(٧) هذا بيان الوجه فى ذلك ، وأنه غير مناف لما قرره من عصمته فى غضبه ورضاه .

(٨) صواب لاخطأ ولا جور يستحق به القود .

(٩) موضع أدب فى الحضور عنده يستحق من لم يتأدب فيه التأديب .

(١٠) رواه أبو القاسم فى معجم الصحابة ، وابن سعد ، وعبد الرزاق فى جامعه .

(١١) متخلق: متضمخ بالخلوق ؛ وهو نوع من الطيب يخلط بالزعفران، ولونه بين الحمرة والصفرة . وهذا مذكور فى الاستيعاب (٦٧٦) ، وقال :هو سوادة بن عمرو .ويقال سواد ابن عمرو الأنصارى

فقال عليه الصلاة والسلام : وَرْسْ ! وَرْسْ[١] ! حُطْ ، حُطْ ! وغَشِيَنِى[٢] بقَضِيبٍ فى يَدِه فى بَطْنِى فأوجعنى . قلت : القصاصَ يا رسولَ الله . فكشف لى عن بطْنِه .

وإنما ضربه صلى اللهُ عليه وسلم لمُنْكَرٍ رآهُ به[٣] ؛ ولعلّه لم يُرِدْ بضَرْبه بالقضيب إلّا تَنْبيهه[٤] ، فلما كان منه إيجـــاعٌ لم يقْصِدْهُ طلب التحلّل منه على ماقدمنا .

فصـــــل

وأمّا أفعالُه صلى اللهُ عليه وسلم الدُّنْيَوِيّة[٥] فحُكْمُه فيها مِنْ تَوَقِّى المَعَاصى والمكروهات ما قد قدمناه[٦] ، ومن جوازِ السَّهْوِ والغَلَطِ فى بعضها ماذكرناه .

وكلُّه غَيْرُ قادِحٍ فى النبوّة ؛ بلى، إن هذا فيها على النُّدور[٧] ؛ إذ عامّةُ أفعالِه

(١) فقال : ورس . ورس. الورس : نبت أصفر يصبغ به ويتمطر . حط : أمرله ، كرر تأكيدا . وقد ضبطت السين والطاء فى ا بالسكون . وضعف القارى فى شرحه : ٢ — ٣٦٥ سكون الطاء ، وقال : يجوز فى طاء « حط » الحركات الثلاث ، لأنه أمر مضعف .

(٢) غشينى : ضربنى .

(٣) لمنكر رآه منه ؛ وهو تطيبه ، لما فيه من تشبه بالنساء يستحق التعزير عليه . وقيل: إنه كان محرما فيمتنع عليه الطيب ؛ فما فعله — صلى الله عليه وسلم — أمر مشروع له ، زجرا لفاعله بالفعل بعد القول ، ولكنه أجابه للقود تواضعا ولطفا ورحمة منه كما تقدم .

(٤) أى إن النبى أراد الإشارة إليه بقضيب فى يده ، ولم يرد ضربه أولا فمسه بشدة ، ولم يقصد ضربه ، فلما وجد منه إيجاع مؤلم له ، وهولم يقصده بضربه إياه طلب التحلل منه بالقود حتى لايبقى عليه حق ؛ فدفع الشبهة بوجهين : أحدهما أنه تعزير مشروع له ، لكنه تكرم بإجابته لما علم أنه لم يقصد قوده ، وإنما قصد تقبيل جسده الشريف . والثانى أنه خطأ معفوعنه، وفعله صلى الله عليه وسلم تعليما لأمته .

(٥) الدنيوية : المتعلقة بأمور دنياه ، لا بالعبادة والعقائد .

(٦) توقى المعاصى : اجتناب المحرمات شرعا . والمكروهات: كراهة تنزيه . ماقدمناه:من من أنه صلى الله عليه وسلم معصوم منها .

(٧) فيها : فى أفعاله . على الندور : على قلتها وندرتها .

على السَدَّاد[١] والصواب ، بل أكثرُها أو كلُّها جارية مَجْرَى العبادات والقُرَب[٢] على ما بيَّنا ؛ إذ كان صلى اللهُ عليه وسلم لا يأخذُ منها[٣] لنَفْسِهِ إلا ضرورَته ، وما يُقيم رَمَق جسمِهِ[٤] ،وفيه مصلحة ذاتِه[٥] التي بها يَعبُدُ ربَّه ، ويُقيم شريعتَه ، ويَسُوسُ أمَّته ، وما كان فيما بينه وبين الناسِ من ذلك فبَيْنَ معروفٍ يصْنَعُه ،أو برٍّ [٢٣٤] يوسِّعُه ، أو كلامٍ حَسَنٍ يقولُه أو يَسْمَعُه ، أو تألُّف شاردٍ[٦] ، أو قَهْرِ مُعانِدٍ[٧] ، أو مُدَاراةِ حاسدٍ[٨] ؛ وكلُّ هذا لاحِقٌ بصالِحِ أعمالِه[٩] ، مُنتظِم في زَاكِي وظائفِ عِبَادَاته[١٠] ؛وقد كان يُخَالِفُ في أفعالِه الدنيوية بحسبِ اختلاف الأحوالِ ، ويُعِدّ للأمور أشباهها[١١] ، فيركبُ في تصرُّفه لِمَا قرُبَ[١٢] الحمارَ ،

(١) السداد : الاعتدال،والقصد ، والاستقامة .

(٢) القرب : جمع قربة ، وهى العمل الصالح الذى يتقرب به إلى الله تعالى .

(٣) منها : من الدنيا وأفعالها .

(٤) ما يقيم رمق جسمه : أى مابه قوام حياته . والرمق : بقية الروح والحياة .

(٥) مصلحة ذاته : مايصلحها .

(٦) شارد : نافر عن طاعة الله ورسوله ، كجفاة الأعراب المؤلفة قلوبهم بالعطاء ، حتى يذيقه الله حلاوة الإيمان ويهديه الله له .

(٧) أو قهر معاند،فيردعه ويزجره حتى يرجع لما يريد .

(٨) أو مداراة حاسد بملاطفته وتحمل أذاه والإغضاء عن قبائحه ،كما كان يفعله صلى الله عليه وسلم مع المنافقين وأهل الكتاب .

(٩) لاحق بصالح أعماله ؛ أى ملحق بعبادته وممدود منها، ويثاب عليه لما فيه من المنافع والمزايا الدينية .

(١٠) زاكى : نامى.منتظم في زاكى وظائف عباداته: معدودامن عباداته للوظفة اللازمة كالصلاة ؛ فهذا ، لشدة حسن منافعه ـ كأنه من نفائسها المعدودة منها . وفى سلكها .

(١١) أشباهها : ما يشابهها ويناسبها .

(١٢) فى تصرفه : فى حركته من مكان إلى آخر . لما قرب: لمكان آخر قريب لمحل إقامته. الحمار : لسهولة ركوبه ، مع مافيه من عدم التكبر .

وفى أسفاره الراحِلَةَ[١] ، ويركبُ البَغْلَةَ فى معاركِ الحرب دليلا على الثبات[٢] ، ويركبُ الخَيْلَ ويُعِدُّها ليوم الفَزَعِ وإجابة الصارخ .

وكذلك[٣] فى لباسِه وسائرِ أحوالِه بحسَبِ اعتبار مَصَالحِه ومصالح أُمَّتِه[٤] .

وكذلك يَفْعَلُ الفِعْلَ من أمورِ الدنيا مساعدةً لأُمَّتِه وسياسةً وكراهيةً لخِلَافِها وإن كان قد يرى غَيْرَه خيرا منه ، كما يَترُكُ الفِعْلَ لهذا ؛ وقد يرى فعلَه خيرا منه .

وقد يفعلُ[٥] هذا فى الأمور الدينية مما لهُ الخِيَرَةُ فى أحَدِ وَجْهيه ، كخروجه من المدينة لأُحُدٍ ، وكان مذهبُه[٦] التحصُّن بها ، وتَرْكه قَتْلَ المنافقين ، وهو على يقينٍ من أَمْرِهم[٧] مؤالَفَةً لغيرهم ، ورعايةً للمؤمنين من قَرَابتهم ، وكراهةَ لأَنْ يقول الناسُ[٨] : إنّ محمداً يقتلُ

(١) الراحلة من الإبل : ما يقوى على الحمل .

(٢) دليلا على الثبات ، وأنه لن يفر ، ولا يريد الفرار ؛ إذ لو أراده ركب الخيل ؛ فالبغل لا يصلح للكر والفر .

(٣) وكذلك : أى كما أن ما بينه وبين الناس كان على أحسن نظام كان حال لباسه . . .

(٤) كان يضع كل شىء فى محله .

(٥) يفعل هذا : أى يفعل ما يرى تركه خيرا من فعله .

(٦) مذهبه : أى كان رأيه المختار عنده التحصن بها وعدم الخروج منها ؛ وذلك لأن بعض الصحابة رضى الله عنهم الذين لم يحضروا غزوة بدر أحبوا خروجه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من المدينة للقتال ، وكان صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا تدل على قتل بعض أصحابه وأمور أخر ، فقصها عليهم ، وأولها لهم ، وأراد ترك الخروج ؛ فرغبوه فيه ، فدخل بيته فلبس درعه ولأمة حربه ، فندموا على مخالفته ؛ وقالوا له ــ لما خرج : الرأى لك ، فقال : ما كان لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، ومضى إلى أحد ، فكان ما كان من جراحته ، وقتل حمزة وغيره .

قال الخفاجى : فهذه قصة ترك فيها ما أحبه لما رآه أصحابه ؛ وكلاهما أمر جائز .

(٧) على يقين من أمرهم : بإخبار الله تعالى له ، وبما يظهر من أحوالهم ، وما يبلغه عنهم .

(٨) يقول الناس من أعدائه .

أصحابَه ؛ كما جاء فى الحديث [١] ؛ وتَرْكه بناء الـكعبةِ على قواعد إبراهيم مراعاةً لقلوب قُريش وتعظيمهم لتغييرها ، وحذَراً من نِفَارِ قلوبهم لذلك ، وتحريكِ متقدّم عَدَاوتهم للدِّين وأهْله ؛ فقال لعائشة فى الحديث الصحيح [٢] : لولا حِدْثانُ قومِكِ بالـكُفْرِ [٣] لأتممْتُ البيتَ على قواعدِ إبراهيم [٤] .

ويفعلُ الفِعْلَ ثم يتركه ؛ لـكونِ غيرِه خيرا مِنْهُ [٥] ؛ كانتقالِه من أَدْنى مِيَاهِ بدْرٍ إلى أقربها للعدوّ من قريش [٦] ؛ وقوله : لو استقبلْتُ من أمرى ما استدْبَرْتُ ماسُقْتُ الهَدْى [٧] .

---

(١) رواه البخارى فى عبد الله بن أبى بن سلول لما قال فى غزوة بنى قينقاع : ليخرجن الأعز منها الأذل ، وبلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك ، فقال بعض الصحابة : نقتله لنفاقه فقال صلى الله عليه وسلم : فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! صحيح البخارى : ٦ ـ ١٩٣

(٢) رواه الشيخان : صحيح البخارى : ٢ ـ ١٧١ ، وصحيح مسلم : ٩٦٩

(٣) حدثان : الحدوث ، ضد القدم ؛ أى تجدده وعدم رسوخه ؛ والمراد بههنا القرب ؛ أى لولا قرب عهدهم بالـكفر والشرك .

(٤) قال الخفاجى : وهذا من تركه أحد الجائزين ، تطييبا للخواطر . وكذلك ما يأتى بعده من هذا الباب .

(٥) وإن كانا جائزين .

(٦) كان نزل أولا على غير الماء ، فقال له الحباب بن المنذر : أبوحى هذا أم رأى ؟ قال : رأى ـ فأشار عليه بما ذكر .

(٧) قال ذلك فى حجة الوداع ؛ كما رواه الشيخان : فى صحيح البخارى : ٩ ـ ١٠٣ ، وصحيح مسلم: ٨٧٩ ، ٨٨٤ . والهدى : ماساق من الإبل لينحر فى الحرم ويتصدق بلحمه .
وكان صلى الله عليه وسلم أحرم بالحج مفردا ، وساق معه هديا ، فلم يحل له أن يلبس ويحل من إحرامه حتى يبلغ الهدى محله يوم النحر ، وكان أصحابه تمتعوا بالعمرة وفكوا إحرامهم ، فلما علموا أنه صلى الله عليه وسلم لم يتمتع كرهوا تمتعهم بلباسهم ونسائهم خلاف رسول الله ؛ فقال لهم صلى الله عليه وسلم: لو استقبلت ؛ أى وددت أنى مثلكم أتمتع لولم يمنعنى سوق الهدى وعقد النية ؛ وهذان أمران جائزان ، فعل أحدهما ، والآخر أحب إليه ؛ بيانا للجواز .

ويبسطُ وَجْهه للـكافر والعدوّ رجاءَ استئلافه[١] .

ويصبر للجاهل، ويقول[٢] : إنَّ مِنْ شِرَارِ الناسِ مَنِ اتَّقَاهُ الناس[٣] لِشَرِّهِ؛ ويبذلُ له الرغائبَ ليحبِّبَ[٤] إليه شريعتَه ودِينَ ربِّه .

ويتولّى فى مَنْزِله مايتولَّى الخادمُ مِنْ مَهْنَتِه[٥] ، ويتسمّتُ[٦] فى مَلَئه ، حتى لا يبدو شىء من أطرافه[٧] ، وحتى كأن على رءوس جُلسائه الطير[٨] ؛ ويتحدث مع جلسائه بحديث أوَّلِهم[٩] ، ويتعجّبُ مما يتعجبون منه ، ويضحكُ مما يضحكون منه ؛ قد وَسِعَ الناسَ

---

(١) استئلافه : أى أن يؤلف بينه وبينه لهدايته للإسلام، وعدم نفرته؛ لما يراه من لطف الله تعالى به ، وإظهاره له مايحبه .

(٢) فى حديث رواه الشيخان عن عائشة : صحيح البخارى : ٧ – ١٦ ، ٢١ ، ٣٨ ، وصحيح مسلم : ٢٠٠٢

(٣) اتقاه الناس : توقوا منه وتجنبوه وسالموه خوفا منه .

(٤) الرغائب : جمع رَغيبة ، وهى ما يرغب فيه .

(٥) مهنته : خدمته .

وفى نسيم الرياض : وعن عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته، ويقم بيته ، ويحلب شاته ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن ، ويحمل حاجته من السوق . كله للتواضع ، وتعليمه للأمة.

(٦) ويتسمت : من السمت ؛ وهو التلبس بالهيئة الحسنة . فى ملئه: الملأ : جماعة يملئون العيون مهابة وجلالة ؛ أى كان صلى الله عليه وسلم فى منزله على نهج الخادم فى خدمته ؛ فإذا برز للملأ من أصحابه وجلسائه من الأشراف برز على هيئة حسنة .

وفى ا : فى ملاءاته: قال القارى (٢ – ٣٦٩) : أى فى إزاره، كذا قالوا. والظاهر: فى ملابسه.

(٧) من أطرافه : كساقيه وقدميه .

(٨) على رءوس جلسائه الطير : أى لا يرفع أحد رأسه ، ولا يطيل نظره إليه توقيرا له وتكريما ، وذلك كناية عن كال سكونهم وسكوتهم ووقارهم .

(٩) بحديث أولهم: أى بما كان لمن قبله من أوائلهم، أو بحكاية ما كان قبل الإسلام من حروبهم كيوم بعاث وغيره . وقيل: المراد أنه يتكلم بحديث أول متكلم منهم، أى بما يناسبه، لأنه يعيده لهم .

بِشْرُهُ [1] وعَدْلُه ، لا يستفزُّهُ الغَضَبُ ، ولا يُقصِّر عن الحقّ ، ولا يُبْطِنُ [2] على جلسائه ؛ يقول : ما كانَ لنبيٍّ أن تَـكُونَ له خائنةُ الأعين [3] .

فإنْ قلتَ : فما معنى قوله لعائشة رضِيَ اللهُ عنها فى الداخل عليـــه [4] : بئس ابنُ العشيرةِ . فلما دخل أَلَانَ له القولَ وضحكَ معه ، فلما سألتُه عن ذلك قال : إنَّ مِنْ شرِّ الناس مَنِ اتقاهُ الناسُ لشرِّه .

وكيف جاز أنْ يُظْهِرَ له خلافَ ما يُبْطِن ، ويقول فى ظَهْرِه [5] ما قال ؟

فالجوابُ أنَّ فِعْلَه صلى اللهُ عليه وسلم كان استئلافا لِمثْلِه ، وتطييبا لنفسه ؛ ليتمـكّنَ إيمانُه ، ويدخلَ فى الإسلام بسببه أتباعُه ، ويراه مِثْــلُه فينجذب بذلك إلى الإسلام .

---

(١) البشر : طلاقة الوجه والبشاشة فى وجوههم ؛ والمراد أنه يعم جميع من عنده ، ويسوى بينهم فى ذلك .

(٢) لايبطن : لايخفى فى باطن أمره على جلسائه ممن هو عنده شيئا مما يريده .

(٣) لاينبغى ولا يليق ولا يصح لنبى أن يضمر ويشير بطرف عينيه لأحد أن يفعل شيئا أخفاه ولم يتـكلم به .

وفى النهاية : خائنة الأعين : أن يضمر فى نفسه مالا يظهره بلسانه ، فيومىء له بعينه وهو خائنة . والخائنة بمعنى الخيانة . وقد تقدم .

(٤) فى حديث رواه الشيخان عنها . والداخل عليه : هو عيينة بن حصن الفزارى . وقد تقدم هذا الحديث ، وتقدم تخريجه . (٥) فى ظهره : فى غيبته بعد ماذهب وولى ظهره .

قال الخفاجى : وقد كان عيينة هذا من المؤلفة قلوبهم ، وكان قبل إسلامه دخل بغير إذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة فقال له : بلا إذن ! فقال : ما استأذنت على أحد من مضر ؛ أى لأنه كان رئيسا فى قومه ، ويقال له الأحمق المطاع فى قومه ثم قال له : ما هذه الحميراء ! فقال : أم المؤمنين . فقال : ألا أنزل لك عن أجمل منها ! فقالت : يارسول الله ؛ من هذا ؟ قال : هو الأحمق المطاع فى قومه ، وهو على مارى سيد قومه . قال الخفاجى :

وفى الحديث دليل على غيبة الـكافر والفاسق المجاهر . وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مداراة لا مداهنة والفرق بينهما مشهور .

ومِثْلُ هذا (١) على هذا الوَجْهِ قد خرج مِنْ حَدِّ مُدارارةِ الدنيا إلى السياسة الدِّينية (٢) .

وقد كان النبيّ يستَأْلِفهم بأموال اللهِ العريضةِ (٣) فكيف بالكلمة الليِّنةَ ؟

قال صفوان (٤) : لقد أعطانى [٢٢٥] وهو أبْغَضُ الخلْقِ إلىّ (٥) ، فما زال يُعطينى حتى صار أحبَّ الخلْقِ إلىّ (٦) .

وقوله فيه (٧) : بئس ابنُ العشيرةِ ـ هو غَير غِيبةٍ ؛ بل هو تعريفُ ما علمه منه لمَنْ لم يَعْلَمْ ، لِيُحذَر حالُه ، ويُحْتَرَزَ مِنْهُ ، ولا يوثَق بجانبه كلَّ الثِّقَة ، ولا سيما وكان مُطاعاً مَتبُوعا (٨) .

ومِثْلُ هذا إذا كان لضرورة وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ لم يكن بِغيبةٍ (٩) ، بل كان

---

(١) مثل هذا: من قوله لأحد من الناس فى وجهه شيئا وذكره خلافه بعد ذهابه .

(٢) أى من المداراة التى هى لأجل أمور الدنيا . إلى السياسة الدينية : أى التدبير بتأليف القلوب الداعى لدخول الناس فى الإسلام من غير ضرر وتعب ؛ فهو فى جملة مصالح الدين ومهماته .

(٣) العريضة : الكثيرة جدا .

قال فى نسيم الرياض: وهذا نحو ما وقع له صلى الله عليه وسلم أنه أعطى بعضهم واديا مملوءا بالغنم ، فأسلم وأسلم قومه لما قال لهم : ياقوم ؛ إنه يعطى عطاء من لا يخاف الفقر .

(٤) هو صفوان بن أمية بن وهب الجمحى الصحابى ، أحد الأشراف الفصحاء الأجواد ، أسلم بعد حنين، وتوفى سنة اثنتين وأربعين .

(٥) لما كان فى قلبه من عداوته له .

(٦) لما رأى من إحسانه إليه من غير امتنان .

(٧) فى حق عيينة بن حصن الداخل عليه بغير إذن .

(٨) متبوعا : له أتباع كثيرون من العرب إذا أمرهم أطاعوه فيخشى من شره .

(٩) لم يكن ذلك غيبة منهيا عنها شرعا حتى يعترض ويقال : كيف يصدر مثله منه صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ؟

جائزا ، بل واجبا [١] فى بعض الأحيان كعادة المحدِّثين فى تجريح الرواة والمزكِّين فى الشُّهود [٢] .

فإن قيل : فما معنى المُعْضِل [٣] الوارِد فى حديث بَرِيرَة من قَوْله صلَّى اللهُ عليه وسلم لعائشة؛وقد أخبرته أنَّ مَوَالِيَ بَرِيرَةَ [٤] أبَوْا بَيْعها إلا أن يكونَ لهمُ الولاءُ [٥] ؛ فقال لها صلى اللهُ عليه وسلم : اشتريها واشْتَرِطى لهم الوَلَاء .

ففعلت،ثم قام خطيبا ، فقال : ما بالُ أقوامٍ يشترطونَ شروطاً ليْسَتْ فى كتابِ الله ؛ كل شَرْطٍ ليس فى كتاب اللهِ فهو باطلٌ والنبىُّ ـصلى اللهُ عليه وسلمـ قد أمرها بالشَّرْط [٦] لهم ، وعليه باعُوها ، ولولاه ـ واللهُ أعلم ـ لما باعُوها من عائشة، كما لم يَبيعوها قبْل [٧] حتى شرطُوا ذلك عليها؛ ثم أبطله صلى اللهَ عليه وسلم ، وهو قد حرَّمَ الغِشَّ والخديعة [٨] .

---

(١) كان جائزا منه لتعريف حاله من غير قصد ذمه . بل كان واجبا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبين بعض عيوبه لأمته .

(٢) تجريح الرواة : بذكر عيوبهم ، لئلا يعمل بما رووه . وكعادة المزكين فى تجريحهم للشهود إذا سألهم الحاكم عنهم ليقبل شهادتهم أولا ؛ فيجب عليهم ذكر ما يعلمون من حالهم خيرا أو شرا . وكان هذا واجبا لما فيه من دفع الفساد عن الأحكام الشرعية ، وصيانة حقوق الناس .

(٣) المعضل : المشكل المعي ـ وقد روى هذا الحديث الشيخان : صحيح البخارى : ٣ـ ٢٣٨،وصحيح مسلم:١١٤٤

(٤) موالى بريرة : المالكين لها .

(٥) الولاء : أى ولاء العتاقة .

(٦) بالشرط لهم : بشرط الولاء لهم إذا أعتقتها .

(٧) قبل : قبل شرط الولاء لهم .

(٨) فقال : من غشنا فليس منا . وقال:ولا خلابة ؛ أى لاخداع فى المعاملة .

قال الخفاجى : فكيف أمر صلى الله عليهوسلم عائشة بقول مالايجوز ،ولولاهماباعوها ؛ ففيه غش وخديعة ـ قد فهم بقوله: فاعلم . . .

فاعلم ـ أكرمكَ اللهُ ـ أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم مُنَزَّهٌ عمَّا يَقَعُ في بالِ الجاهلِ مِنْ هذا، ولتَنْزِيهِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم عن ذلك ما قد أنكر قومٌ هذه الزيادة: قولَه: اشترطى لهم الولاء؛ إذ ليست في أكثر طرقِ الحديث؛ ومع ثبَاتها فلا اعتراضَ بها؛ إذ يقَعُ «لهم» بمعنى «عليهم»؛ قال اللهُ تعالى[1]: ﴿أولئك لهم اللَّعْنةُ﴾. وقال[2]: ﴿وَإِنْ أسأْتُم فلها﴾.

فعلى هذا اشتَرِطى عليهم الولاء لكِ، ويكون قيامُ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ووَعْظُه لما سلف من شَرْطِ الولاء لأنفُسهم قَبْلَ ذلك[3].

ووَجْه ثانٍ: أنَّ قولَه صلّى اللهُ عليه وسلم: اشترطى لهم الوَلاَء، ليس على معنى الأمر، لكن على معنى التسوية والإعلام بأنَّ شَرْطَهُ لهم لا ينفَعُهم بعد بيانِ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم لهم قَبْلُ[4] أنَّ الولاء لِمَنْ أعتق؛ فكأنه قال: اشترطى أو لا تَشْتَرطى، فإنه شَرْطٌ غيرُ نافعٍ[5].

وإلى هذا ذهب[6] الدَّاوُدِيّ وغَيْرُه؛ وتوبيخ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم لهم؛

---

(١) سورة الرعد، آية ٢٥ (٢) سورة الإسراء، آية ٧

(٣) قال في نسيم الرياض: وهذا التوجيه منقول عن المزني، وأسنده البيهقي إلى الشافعي رضى الله عنه، وجزم به الخطابي وصححه؛ وأنكره غيره.

وقال النووى: إنه ضعيف؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أنكر اشتراطهم ذلك، ولو كانت اللام بمعنى «على» لم ينكره وقال ابن دقيق العيد: اللام تدل على اختصاص أمرما ضارا كان أو نافعا، كما تقول: العقاب لزيد، فلا حاجة لجعلها بمعنى على حيث لا لبس. وعلى كل حال فضعف هذا الجواب ظاهر.

(٤) لا ينفعهم ولا يفيدهم؛ لعدم ورود ما يجوزه. قبل: قبل وقوع هذه القصة.

(٥) فالاشتراط وعدمه سواء.

(٦) الداودى: هو الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن داود المعروف بالداودى. توفى سنة ٤٦٧ هـ (اللباب).

وتقريعُهم(١) على ذلك يَدُلُّ على عِلمِهم به قَبْلَ هذا .

الوَجْه الثالث : أَنَّ معنى قوله : اشترطى لهم الوَلاَءَ ؛ أى أظهرى لهم حُكْمَه ، وبيِّنى سُنَّتَه(٢) بأَنَّ الولاءَ إنما هو لمَنْ أعتَق . ثم بعد هذا قام هو صلّى اللهُ عليه وسلم مبيِّناً ذلك ومُوَبِّخًا على مخالفةِ ما تقدَّم مِنْهُ فيه(٣) .

فإنْ قيل : فما معنى فِعْلِ يوسفَ عليه السلام بأَخيه؛ إذْ جعل السِّقَايَةَ فى رَحْلِه(٤) وأَخْذِه باسم سَرِقتها ، وما جَرَى على إخوتِه فى ذلك ، وقولِه تعالى(٤) : ﴿ إنكم لسارقون ﴾ ؛ ولم يَسْرِقُوا(٥) .

فاعلم ـ أكرمك اللهُ ـ أنَّ الآيةَ تدلُّ على أنّ فعْلَ يوسفَ كان عَنْ أمرِ اللهِ؛ لقوله تعالى(٦) : ﴿ كذلك كِدْنا ليوسفَ ، ما كان ليأْخذَ أخاه فى دِين الملك

---

(١) تقريعهم : لومهم بين الناس .

(٢) سنته : طريقته وما شرعه الله .

(٣) قال فى نسيم الرياض : قال الشافعى فى الأم : إنهم لما عصوا الله باشتراط ماقضى بخلافه أمرها أن تشترط لهم بحسب الظاهر حتى يزجرهم ويردعهم ، لأن توبيخ من ارتكب المعصية بعد ارتكابها أقوى من زجره قبله وأعظم فى النهى عنه ، فقال لها : اشترطيه ليتأتى الردع .

(٤) السقاية : إناء جعل صاعا يكال به . فى رحله : بين أمتعة أخيه ليأخذه بها ، وكان من شرعهم أخذ من سرق . سورة يوسف ، آية ٧٠

(٥) فكيف يقول ما لا أصل له ، وهو نبى معصوم .

قال الخفاجى : ففيه إشكال يشبه مافى قصة بريرة . . .

(٦) سورة يوسف ، آية ٧٦

كدنا ليوسف : علمناه ما يكيد به إخوته حتى يأخذ أخاه منهم . والكيد : قريب من المكر ، وهو إظهار مايخالف الباطن للتحيل على أمر يريده . ودين الملك : طاعته بإبقائه بمصر . أو ما كان من دينه أن يأخذ من سرق .

وقوله : إلا أن يشاء الله يدل على أن فعله بإرادته ورضاه .

قال الخفاجى : وبهذا سقطت الشبهة المذكورة .

إِلَّا أَنْ يشاءَ اللهُ نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كلِّ ذِي عِلْمٍ عليم ﴾ .

فإذا كان كذلكَ فلا اعتراضَ به ، كان فيه مافيه[(١)] .

وأيضا فإنَّ يوسفَ كان أعْلَمَ أخاهُ بأنى أنا أخوك فلا تَبْتَئِس[(٢)] ؛ فكان ما جَرَى عليه بعد هذا من وفقه[(٣)] وَرغبَتِهِ ، وعلى يقينٍ من عُقْبَى الخيْرِ له به ، وإزاحةِ السُّوء والمضَرَّةِ [٢٣٦] عنه بذلك .

وأما قوله[(٤)] : ﴿ أيتها العِير إنكم لسارقون ﴾ ؛ فليس من قول يوسف[(٥)] .

فيلزم عليه جوابٌ لِحَلِّ شُبَهِه[(٦)] .

ولعلَّ قائلَه إنْ حُسِّنَ له التأويلُ كائنا مَنْ كان ظَنَّ على صورةِ الحالِ[(٧)] ذلك .

وقد قيل : قال ذلك لفِعْلِهم قَبْلُ بيوسفَ وبَيْعِهم له[(٨)] . وقيل غير هذا .

ولا يلزمُ أنْ نتَوَّل الأنبياء مالم يأتِ[(٩)] أنهم قالوه ، حتى يُطْلَبَ الخلاص منه ، ولا يلزمُ الاعتذارُ عن زَلَّات غيرهم .

---

(١) وإن كان فيه مافيه : وإن وقع فيه مايخالف ظاهره الواقع، ويقتضى الخديعة مما لا يليق بمقام النبوة .

(٢) لا تبتئس : لا تحزن ، فيكون عندك بؤس وشدة حين أسند إليك السرقة، وآخذك عندى ، وأمره ألا يعلمهم بما قاله له ، فرضى ، وقال : إذن لا أفارقك .

(٣) من وفقه : من اتفاق جرى بينهما سرا .

(٤) سورة يوسف، آية ٧٠ أيتها العير؛ أى أصحاب هذه الدواب والإبل الحاملة لكم . . .

(٥) ليس من قول يوسف ، وإنما قاله غيره ممن لم يقف على حقيقة الحال .

(٦) قال فى نسيم الرياض : ولكنه محتاج للجواب عن إقرار يوسف لقائله على أمر قبيح ، والإقرار على القبيح قبيح كفعله ؛ فإن كان يوسف لم يسمعه لم يحتج إلى ذلك .

(٧) أى رأى ظاهر حالهم كحال السارق لوجود ماليس لهم بين أمتعتهم ، فظن سرقتهم له ، وإن جاز أن يكون غفلة أو سهوا،أو وضعه فيها غيرهم .

(٨) فإنه فى معنى السرقة . (٩) مالم يأت أنهم قالوه : أى لم يرو، وهو غير لائق بمقامهم.

فصـل

فإن قيل : فما الحكمةُ فى إجْراء الأمراضِ وشدّتها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام[١] ؟ وما الوَجْهُ فيما ابتلاهمُ[٢] اللهُ به من البَلاَء ، وامتحانهم بما امتُحِنُوا به ؛ كأيوب ، ويعقوب ، ودانيال ، ويحيى ، وزكريا ، وعيسى ، وإبراهيم ، ويوسف[٣] ، وغيرهم[٤] . صلواتُ الله عليهم ، وهم خيرتُه من خَلْقِه وأحبّاؤه وأصفياؤه .

فاعلم ـ وفّقنا اللهُ وإياك ـ أنّ أفعالَ اللهِ تعالى كلّها عَدْلٌ[٥] ، وكلماتِه جميعُها صدقٌ ، لامُبَدِّل لـكلماته ، يَبتَلى عبادَه كما قال تعالى لهم ﴿ لِنَنْظُرَ كيف تعملون ﴾[٦] . ﴿ ولِيَبْلُوَكُمْ أيُّـكم أحسنُ عملا ﴾[٧] ـ وليَعْلَمَ اللهُ الذين آمنوا[٨] ـ ولمّا يَعْلَمِ اللهُ

(١) يبين فى هذا الفصل حكمة ابتلاء بعض الأنبياء بالأمراض ، بعد ماقرر عصمتهم ونزاهة ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وأقوالهم عن كل نقص ؛ لأنه ربما يتوهم جاهل أن الابتلاء بمثله غير لائق بهم أيضا . (٢) الوجه : الحكمة والسبب .

(٣) أيوب : ابتلاه الله بأمراض شديدة . ويعقوب : فى حزنه وشدة بكائه لفقد ولده حتى ضعف بصره . ويحيى : بقتله أو ذبحه . وزكريا : ابتلى بالقتل . وعيسى : ابتلاه الله باليهود وكيدهم . وإبراهيم ابتلى بإلقاء نمروذ له بالنار . ويوسف ابتلى بفراق أبيه وإلقائه فى السجن والجب. ودانيال : وهو نبى غير مرسل كان فى زمن بختنصر ، وكان من أعز الناس عنده ، فوشوا به له ، فألقاه وأصحابه فى الأخدود .

(٤) وغيرهم : كنوح . . .

(٥) أفعاله كلها عدل : فلا يظلم أحدا من خلقه ، وإن كان لايجب عليه شىء . وكلماته : أى أخباره ووعده صدق كلها ، لامبدل لـكلماته ، ولا يمكن أحدا أن يغير شيئا مما أخبر به .

(٦) سورة يونس ، آية ١٤ . أى ليظهر للناس أعمالكم فيعلموا استحقاقكم لما أنعم به عليكم ويجازيكم عليه أعظم الجزاء . (٧) سورة هود ، آية ٧ . يبلو : يختبر . أى أودع فيكم إذ أحياكم بالعقل والإحساس الذى صح فيه تكليف الأحكام ، وأن يعاملكم معاملة المختبر ، فيجازيكم بما تستحقونه .

(٨) سورة آل عمران ، آية ١٤٠

ٱلَّذين جاهَدُوا منكم ويعْلَمَ الصابرين﴾[١]. ﴿ولَنَبْلُوَنَّكم حتى نَعْلَمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم﴾[٢].

فامتحانُه إياهم[٣] بضروبِ المِحَن زيادةٌ فى مكانتهم، ورفعةٌ فى درجاتهم، وأسبابٌ لاستخراج[٤] حالاتِ الصبر والرضا، والشكرِ والتسليم، والتوكُّل [والتفويض، والدعاء، والتضرّع منهم، وتأكيدٌ لبصائرهم[٥] فى رَحْمَةِ المُمْتَحَنِين، والشفقةِ على المُبْتَلَين، وتذكرةٌ لغيرهم، وموعظة لسواهم ليتأسَّوْا[٦] فى البلاء بهم][٧]؛

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤١

(٢) سورة محمد، آية ٣١. ولنبلونكم بالجهاد والتكاليف.

قال فى نسيم الرياض: وقوله تعالى: لنعلم، ولننظر، وما فى معناه مع تقدم علمه القديم؛ وأفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض عند بعضهم ـ لبيان ماتعلق به علمه، وأنه الحكم تترتب عليه، كالأغراض الباعثة على الأفعال.

قال الخفاجى: والآيات دالة على أنه تعالى يبتلى بعض عباده ليظهروا صبرهم، فيجازيهم أعظم جزاء.

ففيه تسلية لهم، وحث على الرضا بما قدره لهم.

(٣) إياهم: الضمير لأنبيائه. بضروب: بأنواع من المحن، والمصائب التى ابتلاهم بها.

(٤) لاستخراج: لإظهار.

(٥) بصائرهم: جمع بصيرة، وهى القوة المدركة للمعانى، كالباصرة فى المحسوسات؛ فهم على بصيرة فيما ذكر، ولكن الابتلاء لينبههم لما ذكر مقو ومؤكد ومبين لبصائرهم.

(٦) ليتأسوا: ليقتدوا بهم ويكون لهم بهم أسوة فى البلاء الذى بهم، ويتسلوا؛ فتكون لهم سلوة تذهب حزنهم فى المحن والمصائب بما جرى عليهم، ووقع بهم، ويقتدوا بهم فى الصبر على ما أصابهم؛ فيقولون: إذا كان أنبياء الله وأحباؤه ابتلوا بمثل هذا فما بالنا نحن؟

(٧) مابين القوسين ليس فى ا

فيتسلَّوْا فى المِحَن بما جرَى عليهم، ويقتدوا بهم فى الصَّبر، ومَحْوٌ لِهَنَات[١] فرطَتْ منهم، أو غفَلاتٍ سلفتْ لهم، ليَلقَوا اللهَ طَيِّبين مُهَذَّبين[٢]؛ وليكون أجرُهم أكملَ، وثوابُهم أوفرَ وأجْزل[٣].

حدثنا[٤] القاضى أبو علىّ الحافظ، حدثنا أبو الحسين الصَّيْرفىّ وأبو الفضل ابن خَيْرون؛ قالا: حدثنا أبو يَعْلى البَغْدادىّ، حدثنا أبو على السِّنْجى، حدثنا محمد ابن محبوب، حدثنا أبو عيسى التِّرْمذى، حدثنا قُتَيبة، حدثنا حمّاد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن مُصْعب بن سَعْد، عن أبيه؛ قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ؛ أىُّ الناسِ أشدُّ بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَل[٥]، يُبْتَلَى الرَّجُل على حسَبِ دِينه[٦]، فما يبرحُ البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خَطِيئة.

---

(١) هذه حكمة أخرى لابتلائهم؛ والهنات: جمع هنة؛ وهى الهفوة اليسيرة. والمعنى أنها كفارة للصغائر، وما يصدر عنهم سهوا، ولأمور تعد سيئات بالنسبة لهم إذا وقعت منهم بسبب تفريط يسير منهم؛ تطهيرا لهم، ورفعا لهم عن مثلها.

أو غفلات: جمع غفلة. وغفلتهم لاشتغال قلوبهم بأمور أممهم. وفى ا: ومحوا...

(٢) مهذبين: مخلصين مما يشينهم.

(٣) أوفر: أكثر. وأجزل: أعظم.

(٤) هذا الحديث يستشهد به المؤلف على كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشد الناس بلاء. وقد رواه الترمذى والنسائى، وابن ماجه، والحاكم. سنن الترمذى: ٤ — ٦٠٢، وسنن ابن ماجه: ١٣٣٤

(٥) الأمثل: الأفضل. وقال الراغب: الأمثل يعبر به عن الأشبه بالأفضل والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم: خيارهم.

(٦) قال الخفاجى: الدين هنا الطاعة؛ أى بقدر طاعته وتقواه قوة وضعفا تكون بليته، فالأتقى أشد وأكثر بلاء.

وكما قال تعالى[١] : ﴿ وكأَيِّنْ مِنْ نبيٍّ قاتلَ معه رِبِّيُّون كثير فما وَهَنُوا لِما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفُوا وما اسْتَكانُوا واللهُ يحبُّ الصابرين . وما كان قولَهم إلا أنْ قالوا : ربنا اغفِرْ لنا ذنُوبَنا وإسرافَنا فى أمرنا وثبِّتْ أقدامَنا وانصُرْنا عَلَى القومِ الكافرين . فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرة والله يحبُّ المُحْسنِين ﴾ .

وعن أبى هريرة[٢] : ما يزالُ البلاء بالمُؤْمن [والمؤمنة][٣] فى نفسه وولَده وماله حتى يلْقَى اللهَ وما عليه خطيئة[٤] .

وعن أنس[٥] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : إذا أراد اللهُ بعَبْده الخير عجل له[٦] العقوبةَ فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسكَ عنه بذَنْبِه حتى يُوَافى به يوم القيامة[٧] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٤٦ — ١٤٨
وكأين بمعنى كم والربيون : جمع ربى، منسوب إلى الرب . وهنوا : جبنوا . استكانوا : ضعفوا .
قال الخفاجى : فى هذه الآيات مايدل على ابتلاء الأنبياء وصبرهم وكثرة ثوابهم عليه .
وقال : وهذا تعريض لما أصابهم من الإرجاف بقتل النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأنه لو كان حيا كان مثل ما وقع لغيرهم ، وأنهم مع شدة جهادهم وصبرهم مذعنون بمغفرة ربهم ، وإن لم يصدر منهم ذنب تواضعا وخشية .

(٢) فى حديث رواه الترمذى : سنن الترمذى : ٤ — ٦٠٢ ، وفيه : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) من سنن الترمذى .

(٤) لأن ما أصابه يكفر سيئاته .

(٥) فى حديث رواه الترمذى وحسنه : سنن الترمذى : ٤ — ٦٠١

(٦) عجل له العقوبة فى الدنيا بما يبتليه فيها مما يمحو عنه الذنوب .

(٧) أمسك عنه مصائب الدنيا استدراجا له ، فلا يعاقبه ويبتليه ، بل يتركه بذنبه حتى يوافى ربه ويلقاه بذنبه يوم القيامة ، فيجازيه عليه إن لم يرد العفو عنه .

وفى حديث[(١)] آخر : إذا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا ابْتَلاهَ لِيَسْمَعَ تضرُّعَه .

وحكى السمرقندى أنّ كلَّ مَنْ كان أَكرمَ على الله تعالى كان بلاؤه أشدَّ كَىْ يتبيَّن فَضْلُه ، ويستوجبَ الثواب[(٢)] ؛ كما رُوِى عن لُقْمانَ أنه قال : يابنىّ ؛ الذهبُ والفضة يُخْتَبَرانِ بالنار ، والمؤمنُ يُخْتَبر بالبلاء[(٣)] .

وقد حُكِى أنَّ ابتلاء يعقوبَ بيوسف كان سَبَبه التفاتَه فى صَلَواتِه إليه ، ويوسفُ نائمٌ محبّةً[(٤)] [٢٣٧] له .

وقيل : بل اجتمع يوما هو وابنُه يوسف على أَكْلِ حَمَلٍ مَشْوِىّ[(٥)] ، وهما يَضْحَكانِ ، وكان لهم جارٌ يتيم ، فشمّ رِيحَه واشتهاه وبكى ، وبكتْ له جدّةٌ له عجوز لبكائه ، وبينهما جِدَار ، ولا عِلْمَ عند يعقوب وابْنِه ؛ فعُوقبَ يعقوبُ بالبكاء أسَفًا على يوسف إلى أنْ سالَتْ حَدَقتاهُ ، وابيضَّتْ عيناهُ من الحُزْن . فلما علم بذلك كان بقيّةَ حياتِه يَأْمرُ مناديًا ينادى على سَطْحه : أَلَا مَنْ كان مُفْطِرًا[(٦)] فليتغدَّ عند آل يعقوب[(٧)] .

وعُوقِبَ يوسف بالمِحْنَةِ التى نصّ اللهُ[(٨)] عليها .

---

(١) رواه الديلمى عن أبى هريرة . تضرعه : دعاءه منه متذللا له لمحبته ومراجعته .

(٢) يتبين فضله فى الآخرة أو فى الدنيا لمن يصبر . ويستوجب الثواب : يستحقه تفضلا من الله بوعده به .

(٣) يختبر إيمانه وقوته بالبلاء ؛ أى بإصابته وصبره عليه ، أو تضجره منه .

(٤) فلما قطع التوجه إلى الله قطعه الله تعالى بفرقته .

وهذا رواه القرطبي في تفسيره غير مسند .

(٥) الحمل : الصغير من الضأن .

(٦) مفطرا : غير صائم .

(٧) فى نسيم الرياض : وفى هذا الخبر أيضا : ومن كان صائما فليفطر عندهم .

(٨) قال الخفاجى : حكى هذا عن المصنف الدميرى فى حياة الحيوان ، وقال : لاينبغى له =

ورُوِى عن الليث أنَّ سببَ بلاء أيوب أنه دخل مع أهل قريته على ملكهم، فكلّموه فى ظُلْمه، وأغلظوا له إلّا أيوب، فإنه رَفق به مخافةً على زَرْعِه[1]، فعاقبَهُ اللهُ ببلائه[2].

ومِحْنةُ سليمانَ لِمَا ذكرناهُ من نيتهِ فى كَوْنِ الحقّ فى جَنبةِ أصهاره[3]؛ أو للعمل بالمعصية فى دارِه، ولا عِلْمَ عنده[4].

= ذكره؛ فإنه لا صحة له، وإن رواه الطبرانى عن أنس، عن شيخه ابن جهم الباهلى؛ وهو ضعيف الرواية جدا. ورواه البيهقى فى الشعب.

ومما يدل على عدم صحته أن قوله سالت حدقتاه لاأصل له، وأنه — مع قوله: لاعلم لهما — كيف يصح أن يعاقبا على ما لم يعلما — كما أن قوله: ابيضت عيناه بعد قوله: سالت حدقتاه كلام متناقض.

والصحيح أنه لم يعم. وقال القارى (٢ — ٣٧٨): فيه إشكال؛ إذ هو كان صغيرا دون البلوغ حينئذ، لكن الله سبحانه وتعالى يفعل مايشاء، ولعل هذا من الحكم المجهولة عندنا.

(١) على زرعه: زرع يعقوب الذى فى مملكته.

(٢) قال الخفاجى: وهذا لاينبغى أن يقال فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فليت المصنف رحمه الله — تركه.

(٣) جنبة: جانب. والصهر: الختن. وأهل بيت المرأة يقال لهم أصهار.

(٤) من كون الحق فى جنبة أصهاره: ذلك أن جرادة التى تزوجها سليمان وأحبها تخاصم عنده ناس مع آخرين من أقارب امرأته؛ فحكم بالحق لغيرهم، وتمنى أن يكون الحق لهم؛ وهذا يعد ذنبا بالنسبة لمقامه.

ولا علم عنده بما صدر منهم من المعاصى بما اقترته اليهود من أنه عليه الصلاة والسلام قتل ملكا له بنت جميلة تسمى جرادة، فكانت عنده وأسلمت، ثم كانت تبكى على أبيها، فأمر الشياطين أن يمثلوا لها صورة ابنها، ففعلوا، فكسته وأعدت له بيتا، فكانت تذهب إليه، وتسجد لصورته وهو لايعلم، واستمر ذلك مدة أربعين يوما، فسلبه الله تعالى ملكه، وابتلاه بما ابتلاه به.

وهذه فائدةُ شدّةِ المرضِ والوَجَع بالنبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ قالت عائشة[١] : ما رأيتُ الوجعَ على أحدٍ أشدّ منه على رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم .

وعن عبد الله : رأيتُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فى مرضـــه ، يُوعَكُ وَعْـكا شديدا ، فقلت : إنك لتُوعَك وعْـكا شديداً ! قال : أجَلْ[٢] ، إنى أُوعَك كما يوعَك رَجُلاَن منـكم . قلت : ذلك أنَّ لك الأَجْرَ مرتين[٣]؛ قال : أجَلْ ، ذلك كذلك.

وفى حديث أبى سعيد[٤] أن رجُلا وضَع يدَهُ عَلَى النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : واللهِ ما أُطِيقُ أَضَعُ يدى عليكَ من شِدَّةِ حُمَّاكَ[٥] . فقال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : إنا مَعْشَرَ الأنْبياء يُضَاعفُ لنا البلاَء ، إنْ كان النبيُّ ليُبْتَلَى بالقَمْل حتى يَقْتُلَه ، وإنْ كان النبيُّ ليُبْتَلَى بالفقر ، وإنْ كانوا ليَفْرحُون بالبلاء كما تفرحون[٦] بالرخاء .

وعن أنس[٧] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّ عِظَمَ الجَزَاء مع عِظمِ البلاء[٨] ،

---

(١) فى حديث رواه الشيخان عنها : صحيح مسلم : ١٩٩٠ ،وسنن ابن ماجه:١-٥١٨، وصحيح البخارى : ٧ - ١٤٩

(٢) أجل : نعم . وعبد الله : هو ابن مسعود .والحديث فى صحيح البخارى :٧-١٤٩، وصحيح مسلم : ١٩٩١

(٣) أى ليضاعف لك الثواب .

(٤) رواه ابن ماجه ، والحاكم ، عن أبى سعيد الخدرى : سنن ابن ماجه : ٢ - ١٣٣٥

(٥) من شدة حماك ؛ أى حرارتها .

(٦) أى يسرون بمصائب الدنيا لما يعلمون من أنها رفعة لقدرهم وزيادة لأجرهم، كما تفرحون بالرخاء وسعة العيش وحسن الحال ، وذلك لشدة يقينهم بربهم ، وعلمهم بما ادخر لهم فى مقابلة ما نزل بهم.

(٧) فى حديث رواه الترمذى ، وحسنه : سنن الترمذى : ٤ - ٦٠١

(٨) أى من كان بلاؤه أعظم كان جزاؤه أعظم عند ربه .

وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قوما ابتلاهم ؛ فمن رضِىَ فلَهُ الرِّضا ، ومن سخِط فله السَّخَط[١] .

وقد قال المفسِّرون فى قوله تعالى[٢] : ﴿ مَنْ يعمَلْ سوءًا يُجزَ بِهِ ﴾ ؛ إنّ المُسْلِمَ يُجزَى بمصائب الدنيا ، فتكون له كفارة . ورُوِى هذا عن عائشة، وأُبىّ، ومجاهد .

وقال أبو هريرة[٣] ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُصِبْ منه[٤] » .

وقال فى رواية عائشة[٥] : « ما مِنْ مُصيبةٍ تصيبُ المسلم إلاّ يُكفِّرُ اللهُ بها عنه حتى الشوكةِ يُشاكُها[٦] » .

---

(١) له الرضا من الله بجزيل ثوابه ، ومن سخط وكره قضاء الله ولم يرض به فله السخط، وغضب الله تعالى، وعقابه له ؛ فإذا صبر ولم يجزع بما أصابه رضاء بقضائه كان ذلك مثوبة وأجرا.

(٢) سورة النساء ، آية ١٢٣ . فتكون كفارة لذنوبه إن كانت ، وزيادة فى ثوابه إن كان غير مذنب . (٣) فى حديث رواه البخارى : صحيح البخارى : ٧ - ١٤٩

(٤) يصب منه ؛ أى ينزل به مكروها ومصيبة فى الدنيا يثاب عليها .

(٥) فى حديث رواه الشيخان : صحيح البخارى ٧ - ١٤٩ ،وصحيح مسلم : ١٩٩٢

(٦) يشاكها : تدخل فى جلده .

وفى نسيم الرياض (٤ - ٣٥٢) : قال العز بن عبد السلام :ظن بعد الجهلة أن المرء يؤجر على نفس المصائب ؛ وليس كذلك ؛ فإن الثواب إنما يكون على مايفعله باختياره ، ولا دخل له فى ذلك ؛ فثوابه إنما هو على صبره ورضائه بما قدره الله تعالى ، وعدم شكايته .

ثم قال: وقال القرافى : وأنا أقول : ما قاله العز لاوجه له ، ولا يليق صدوره منه ؛ فإنه تعالى له أن يثيبه ابتداء ، وأن يجعل مااتفق له بغير فعله سببا لذلك .

قال : وفى كلام شيخ والدى ابن حجر الهيثمى نص الشافعى فى الأم بما يصرح بأن نفس المصيبة يثاب عليها .

والحاصل أن من أصيب وصبر حصل له ثوابان غير التكفير لنفس المصيبة ؛ وللصبر عليها ؛ ومن انتفى صبره ، فإن كان لعذر كجنون - فهو كذلك ، أو لنحو جزع لم يحصل له من ذينك الثوابين شىء .

قال الشهاب : وما قاله القرافى ليس بشىء أيضا، فإنه قد تقصد الدعاء بما هو حاصل لزيادته أو تنبيه سامعه وغيره ، ولو قيل بمثله لم تجز الصلاة على النبى والدعاء له بالوسيلة والدرجات الرفيعة، وهى محققة له ، وقد أمرنا بالدعاء بها كما تقرر فى محله .

وقال في رواية أبي سعيد[١] : « ما يصيبُ المؤمنَ من نَصَبٍ[٢] ولا وَصَبٍ ، ولا هَمٍّ ولا حَزَن ، ولا أذًى ولا غَمّ ، حتى الشوكةِ يُشَاكُها إلا كفَّرَ اللهُ بها مِنْ خطاياه » .

وفي حديث ابن[٣] مسعود : « ما مِنْ مُسلمٍ يُصيبه أذًى[٤] إلا حاتَّ اللهُ عنه خطاياهُ كما تحاتّ وَرَقُ الشَّجَرِ[٥] » .

وحكمةٌ أُخرى[٦] أودعها اللهُ في الأَمراضِ لأَجسامهم ، وتعاقُبِ الأوجاعِ عليها وشدّتها عند مماتهم، لتضْعُفَ قُوَى نفُوسهم ، فيسهلَ خروجُها عند قَبْضِهم ، وتخفَّ عليهم مؤنة النَّزْعِ ، وشدةُ السكراتِ[٧] بتقدُّمِ المرضِ[٨] ، وضعف الجسم والنفْس لذلك .

وهذا خلافُ موتِ الفجاءةِ وأَخْذِهِ[٩] ، كما يُشَاهَدُ من اختلافِ أحوالِ الموتى في الشدةِ واللِّين ، والصعوبة والسهولة . وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم[١٠] : « مَثَلُ

---

(١) في حديث رواه الشيخان : صحيح البخاري : ٧ – ١٤٩ ، وصحيح مسلم : ١٩٩٢

(٢) نصب: تعب يناله من سعيه في بعض أموره الجائزة له. ووصب : أي وجع ، أو لزومه ، أو فتور في بدنه .

(٣) رواه الشيخان : صحيح البخاري : ٧ – ١٤٩

(٤) أذى : أمر يؤذيه في بدنه أو نفسه .

(٥) حات : حت وأزال .

(٦) حكمة أخرى في ابتلاء الأنبياء بالأمراض والمصائب . أودعها الله : جعلها كالوديعة في الأمراض التي تصيب أجسامهم دون بواطنهم وحواسهم .

(٧) مؤنة النزع: إخراج الروح من البدن. وشدة السكرات؛ أي سكرات الموت، وغمرات شدائده وما يلحق الميت من الغشي الشبيه بالسكر في غيبة الحس .

(٨) بتقدم المرض على الموت والاحتضار. أو بشدة المرض .

(٩) موت الفجاءة : الموت بغتة من غير مرض ؛ وأخذه له دفعة واحدة ، لشدة قواه المانعة عن تسليم الروح بسهولة .

(١٠) في حديث رواه الشيخان عن كعب بن مالك وجابر رضي الله عنهما: صحيح البخاري: ٧ – ١٤٩

المؤمن مَثَلُ خامَةِ [٢٣٨] الزَّرْعِ تُفَيِّئُها الرِّيحُ هكذا وهكذا(١) .

وفى رواية أبى هريرة(٢) عنه : « من حيثُ أتتها الريحُ تكفؤُها(٣) ؛ فإذا سكنت اعتدلَتْ ؛ وكذلك المؤمنُ يُكَفَّأُ(٤) بالبلاء . ومَثَلُ الكافرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ(٥) صمّاء معتدلةً حتى يَقْصِمَهُ الله(٦) » .

معناه أنَّ المؤمنَ مُرَزَّأ(٧) ، مُصَابٌ بالبلاء والأمراض ، راضٍ بتصريفه(٨) بين أقدار الله تعالى ، مُنْطاعٌ(٩) لذلك ، ليّن الجانب برضاه وقلّةِ سَخَطه ، كطاعةِ خامةِ الزّرْعِ وانقيادِها للرياح ، وتمايلِها لهبوبها وترنّحها(١٠) من حيث ما أتتها ؛ فإذا أزاحَ اللهُ عن المؤمن رِياحَ البلايَا ، واعتدلَ صحيحاً كما اعتدلَتْ خامةُ الزَّرْع عند سكون رياحِ الجوِّ رجع إلى شُكر ربِّه ومعرفةِ نعمتِه عليه بِرَفْع بلائه ، منتظراً رحمتَه وثوابَه عليه(١١) .

---

(١) الخامة : العود اللين الذى ليس بغليظ، والقصبة الطرية . تفيئها الريح : تميلها .

(٢) فى صحيح مسلم : صحيح مسلم : ٢١٦٣

(٣) تكفؤها ؛ المراد تميلها . تعدلت : انتصبت لأنها لا تنكسر للينها وعدم غلظها .

(٤) يكفأ : ينقلب من صحته لمرضه كثيراً ثم يبرأ .

(٥) الأرزة : شجرة الأرز المعروف ، وقيل : هو الصنوبر . صماء: صعبة شديدة اليبس والقوة . معتدلة : قائمة ، منتصبة لاتميل لغلظهاويبسها .

(٦) حتى يقصمه الله : يأخذه بغتة من غير تقدم بلاء .

(٧) مرزأ : لاتزال تصيبه الرزايا .

(٨) بتصريفه : بتغيير أحواله . أو بتصريف الله فيه وله ، وتقلبه بين أقدار الله التى قدرها عليه من صحة ومرض وغيره .

(٩) منطاع لذلك : منقاد مذعن مطيع مسلم .

(١٠) وترنحها : وتمايلها .

(١١) وثوابه عليه ؛ أى على ما ابتلاه ووفقه لشكره وصبره .

فإذا كان بهذه السبيل[١] لم يصعُبْ عليه مَرَضُ الموتِ ، ولا نزولُه ، ولا اشتدّت عليه سكراتُه ونَزْعُه[٢] ، لعادته بما تقدّم من الآلامِ ومعرفةِ مالهُ فيها من الأَجْرِ ، وتَوْطِينِه نَفْسَه على المصائب ورِقَّتِها[٣] وضَعْفِها بتَوَالِي المرضِ أو شدّته ؛ والكافرُ بخلاف هذا : مُعَافًى فى غالبِ حالِه ، مُمَتَّع بصحة جِسْمه ، كالأَرْزَةِ الصَّمَّاءِ[٤] ، حتى إذا أراد اللهُ هلاكه قَصَمهُ لحينِه على[٥] غِرّةٍ ، وأخذه بَغْتةً من غير لُطْفٍ ولا رِفْقٍ[٦] ؛ فكان موتُه أشدَّ عليه حسرةً[٧] ، ومقاساةُ نَزْعِهِ مع قوةِ نَفْسه وصحةِ جِسْمِه أشدّ ألَماً وعذاباً ، ولَعَذابُ الآخرةِ أشدّ ، كانجعافِ الأَرْزَةِ[٨] . وكما قال تعالى[٩] : ﴿ فأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وهم لا يَشْعُرُون ﴾ .

وكذلك عادة اللهِ تعالى فى أعدائه ، كما قال تعالى[١٠] : ﴿ فكُلًّا أَخذنا بذَنْبِه ، فنهم مَنْ أَرسَلْنَا عليه حاصِباً[١١] ، ومنهم مَنْ أخذته الصيحةُ[١٢] ، ومنهم من خَسَفْنَا به الأرض ، ومنهم مَنْ أغرقنا . . . ﴾ ؛ ففجأَ جميعَهم بالموتِ على حالِ عُتُوٍّ[١٣] وغَفْلةٍ ، وصبّحهم به على غير استعدادٍ بَغْتةً ؛ ولهذا ما كرِهَ السلفُ مَوْتَ الفجاءة[١٤] .

---

(١) فإذا كان المؤمن بهذه السبيل ، وعلى هذه الحالة ، من إصابته بالبلايا والأمراض .
(٢) ونزعه : نزع الروح منه عند موته لضعف قوة نفسه الدافعة له .
(٣) ورقتها : ورقة نفسه وضعفها .
(٤) أى القوية غير المجوفة .
(٥) على غرة : على غفلة .
(٦) بل بشدة وعنف .
(٧) وذلك لعدم تأهبه له .
(٨) انجعاف الارزة : قلعها بشدة .
(٩) سورة الأعراف ، آية ٩٥
(١٠) سورة العنكبوت ، آية ٤٠
(١١) الحاصب : ريح تأتى بالحصباء ؛ وهى الحصى . وهؤلاء هم قوم لوط .
(١٢) الصيحة : أصوات هائلة وصواعق أهلكتهم . وهؤلاء هم قوم صالح وشعيب .
(١٣) عتو : تكبر ، وتمرد ، وتجبر منهم .
(١٤) لمجيئه على غير استعداد له ، أو لأنه يجيء من غير المرض المكفر للذنوب .

ومنه[١] فى حديث إبراهيم : كانوا يكرهون أَخْذَةً كأَخْذَةِ الأَسَفِ : أى الغَضَب ؛ يريدُ موتَ الفجاءة .

وحكمةٌ[٢] ثالثة أنَّ الأمراضَ نَذِيرِ المماتِ ، وبقَدْرِ شدّتها[٣] شـدةُ الخوفِ من نزول الموتِ ؛ فيستعدّ مَنْ أصابَتْه ، وعَلِم تعاهُدها[٤] له ، لِلقاءِ ربّه ، ويُعْرِضُ عن دَارِ الدنيا الـكثيرة الأنـكاد[٥] ، ويكون قلبُه معلّقا بالمعاد[٦] ، فيتنصّل مِنْ كُلّ ما يَخْشى تِباعته[٧] مِنْ قِبَل الله ، وقِبَلِ العباد[٨] ، ويُؤَدّى الحقوقَ إلى أهلها ، وينظر فيما يحتاج إليه من وَصِيّة فيمن يُخَلِّفه أو أَمْرٍ يَعْهده[٩] .

وهذا نبيُّنا صلى اللهُ عليه وسلم المغفورُ له ما تقدّم وما تأخّر ، قد طلب التنصُّل[١٠] فى مَرَضِه ممّن كان له عليه مالٌ أو حقٌّ فى بَدَنٍ ، وأَقاد[١١] من نَفْسـه ومالِه ،

---

(١) ومنه : ومما ذكر عن السلف .

(٢) حكمة ثالثة لمصائب الأنبياء والصالحين .

(٣) وبقدر شدتها ؛ أى شدة الأمراض .

(٤) تعاهدها له : مجيئها له مرة أخرى .

(٥) الأنـكاد : جمع نكد ، وهو مايغم المرء ويسوءه .

(٦) المعاد : الآخرة ، وما بعد الموت .

(٧) تباعته : تبعته وما يترتب على هذا الأمر ويعقبه من المؤاخذات والضرر .

(٨) من قبل الله ، أى حقوقه التى هى من جانبه . ومن قبل العباد ؛ أى حقوقهم ؛ فيخرج عن عهدتها بأدائها لئلا يعاقب عليها .

(٩) يعهده : يعرفه فيوصى به كالدين . أو يعاهد ورثته عليه .

(١٠) التنصل : التخلص والخروج من عهدة مافى ذمته .

(١١) أقاد من نفسه وماله : مكن من له حق فى بدنه من القود منه ، يفعل مثل ما فعل .

وأمكن من القِصاصِ منه ، على ما ورد فى حديث الفَضْل[١] ، وحديثِ الوفاةِ[٢] ، وأوْصَى بالثقَلين بعده : كتابِ الله ، وعِتْرَته[٣] ، وبالأنصار عَيْبته[٤] ؛ ودعا إلى كَتْبِ كتابٍ لئلا تضلَّ أُمته بعده ؛ إما فى النصِّ على الخلافة ، أو اللهُ أعلم بمراده . ثم رأى الإمساكَ عنه أفضَل وخيرا .

وهكذا سيرة عبادِ الله المؤمنين وأوليائه المتقين .

وهذا كلُّه يُحْرَمُه غالبا الكفارُ، لإملاء[٥] اللهِ لهم ؛ ليزدادوا إثما، وليستدرجهم[٦]

---

(١) هو الفضل بن العباس رضى الله عنهما ؛ من أنه صلى الله عليه وسلم ضرب أعرابيا بقضيب ؛ فلما خطب الناس وقال : من كان له على حق فليطالبه فقام الأعرابى وقال : يارسول الله ، القصاص . . . فلما كشف له عن بطنه الشريف التزمه وقبله ، وقال : إنما أردت هذا ، وقد تقدم .

(٢) حديث الوفاة : فإنهم رووا فيه أنه صلى الله عليه وسلم استحل الناس فيما لهم عليه من الحقوق .

وفى نسيم الرياض (٤ – ٣٥٩): والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لأمته عليه مايجب عليه التنصل منه ، ولوكان فهو مغفورله ؛ ومع ذلك تنصل منه رعاية لظاهر الحال، ورعاية للمؤمنين، وهذه أعلى المراتب .

(٣) والعترة : الأقارب الأدنون ، وأهل البيت .

قال الخفاجي : وحديث الوصية رواه مسلم فى صحيحه : ١٨٧٣ ؛ وفيه أنه صلى الله عليه وسلم خطبهم وقال : أيها الناس ، إنما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيبه ، وإنى تارك فيكم الثقلين : أولها كتاب الله فيه الهدى والنور ، فتمسكوا به – وحث على ذلك . ثم قال : وأهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى – ثلاثا .

(٤) العيبة : مايجعل المرء فيه نفيس متاعه .

(٥) لإملاء الله لهم : لإمهاله لهم .

(٦) استدراجهم : تقريبهم من الهلاك درجة درجة . من حيث لايعلمون، لغفلتهم عما هم مشغولون به من أمور الدنيا منهمكين فى غيهم، متقلبين فى نعم الله الدنيوية التى توهموا استحقاقها، وإنما هى لقطع معذرتهم ، ومزيد عذابهم بالكفر وكفران النعم، حتى يأخذهم بغتة على غرة .

من حيث لا يعلمون ؛ قال الله تعالى[١] : ﴿ما ينظرونَ إلاّ صيحةً وَاحدةً تأخذُهم وهم يخصِّمون . فلا يستطيعونَ [٢٣٩] توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجِعون﴾ .

ولذلك[٢] قال صلى اللهُ عليه وسلم فى رجل مات فجأةً[٣] : « سبحان الله ! كأنه على غَضَبٍ ، المحرومُ[٤] مَنْ حُرِمَ وصيّتَه » .

وقال[٥] : « موتُ الفُجاءةِ راحةٌ للمؤمن ، وأخْذَةُ أسَفٍ للكافر والفاجر[٦] » ؛ وذلك لأن الموتَ يأتى المؤمنَ ، وهو غالباً مستعدٌّ له مُنْتَظِر لحلوله ؛ فهان أَمْرُهُ عليه كيفما جاء ، وأفْضَى[٧] إلى راحتِه مِنْ نَصَبِ[٨] الدنيا وأذاها ؛ كما قال صلّى اللهُ عليه وسلم[٩] : مستريح ومُسْتَرَاح منه . وتأتى الكافرَ والفاجرَ منيّتُه على غير استعدادٍ ولا أُهْبَة ولا مقدّمات مُنْذِرةٍ مُزْعجةٍ[١٠] ؛ بل تأتيهم بغتةً فتَبْهَتُهم[١١] ، فلا يستطيعونَ ردَّها ولا هم يُنْظَرونَ[١٢] ؛ فكان الموتُ أشدَّ شىء عليه .

---

(١) سورة يس ، آية ٤٩، ٥٠

والصيحة : النفخة الأولى من الصور . والأخذ : الإهلاك بغتة . وهم يخصمون : يختصمون فى معاملاتهم .

(٢) ولذلك : ولكون عادة الأتقياء التنصل من الحقوق والوصية عند الموت .

(٣) فى حديث روى عن أنس .

(٤) سبحان الله : تعجب . كأنه على غضب : كأنه مات على غضب من الله . ثم أشار إلى أن المراد بالغضب عليه أنه محروم من الثواب ، ولطف العزيز الوهاب ،فقال: المحروم . . .

(٥) فى حديث رواه أحمد عن عائشة

(٦) فى نسيم الرياض: المراد بالفاجر المنافق .

(٧) أفضى : أوصل .

(٨) نصب : تعب .

(٩) فى حديث رواه الشيخان فى جنازة مرت به ، فقال — تقسيما للموتى عند موتهم : منهم مستريح من أذى الدنيا وتعبها ، ومنهم من هو مستراح منه ؛ أى يستريح من ظلمه وأذاه العباد والبلاد صحيح مسلم : ٦٥٦

(١٠) مزعجة : مقلقة محركة على تدارك مايلزمه .

(١١) تبهتهم : تدهشهم ، وتذهب عقولهم لحيرتهم .

(١٢) ولا هم ينظرون : لا يمهلون بعد مجيئها ، ولا يؤخرون ساعة .

وفراقُ الدُّنيا أفْظَعُ أمرٍ صدمه[١] ، وأكرهُ شىء له ؛ وإلى هذا المعنى أشار صلى اللهُ عليه وسلم بقوله[٢] : « مَنْ أحبَّ لقاء اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه ، ومَنْ كَرِه لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءهُ » .

(١) صدمه : أصابه بشدة وهو غافل عنه .

(٢) فى حـــديث رواه الشيخان عن عبادة بن الصامت : صحيح مسلم : ٢٠٦٥ ؛ ٢٠٦٦ ، ٢٠٦٧

القسم الرابع

فى تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقّصه أو سبّه[١] عليه الصلاة والسلام

قال القاضى أبو الفضل[٢] رضىَ الله عنه : قد تقدّم من الكتابِ والسُّنَّة وإجماع الأُمّة مايجِبُ من الحقوق للنبى صلّى الله عليه وسلم ، وما يتعيَّنُ له مِنْ بِرٍّ وتَوْقير[٣] ، وتعظيم وإكرام ؛ وبحَسبِ هذا حرّمَ اللهُ تعالى أَذاهُ فى كتابِهِ ، وأجمت الأُمةُ على قَتْلِ مُتَنقِّصِه من المسلمين وسابّه[٤] ؛ قال الله تعالى[٥] :

(١) المراد بيان وجوهها ، وسبب الاختلاف فيها الذى أوجب تغييرها من قول لآخر .
فيمن تنقصه : بذكر مافيه تحقير له ، وغض من على مقامه .

(٢) هو المصنف . وفى ب : رحمه الله .

(٣) بر : إحسان قول وفعل يتعلق به صلى الله عليه وسلم . وتوقير : تعظيم وتبجيل .

(٤) فى نسيم الرياض (٤ — ٣٦٢) : وقد قيل : إن فى دعواه الإجماع فى المسلم نظر ؛ لأن مذهب الشافعى أن من تنقصه صلى الله عليه وسلم ، بغير قذف من المسلمين ، وكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ يستتاب ؛ فإن تاب لم يقتل؛ ومن قذفه فيه خلاف أيضا ؛ فقيل : يقتل لأن حد قاذف الأنبياء القتل ، فلايستتاب . وقيل : إن تاب فورا وأسلم بعد الردة فيحد حد القذف ، ولا يقتل ، كما حكى عن كثير منهم .

فلا ينبغى دعوى الإجماع فيه ، إلا أن يريد إجماع أهل مذهبه من المالكية ، أو عدم الاعتداد بالمخالف فيه .

وأقول : إن مراده الإجماع على وجود موجب القتل فيه لكفره وردته ؛ فإن تاب وقبلت توبته خرج عما استوجبه الإجماع . ولو صرح به كان أظهر ؛ إلا أن هذه العبارة عبر بها السلف كلهم ، كما نقله السبكى فى كتابه « السيف المسلول على من سب الرسول » ، وأشار إلى أن الإجماع على كفره وردته الموجبة لقتله إجماعا وإن عرض مايمنعه بعده .

وقال : إنه لم يخالفه فيه أحد إلاابن حزم القائل بعدم كفر من استخف به صلى الله عليه وسلم ، ولم يتبعه أحد عليه ؛ ولا عبرة به .

(٥) سورة الأحزاب ، آية ٥٧

﴿ إن الذين يُؤْذُونَ اللهَ ورسولَه[1] لعنَهم اللهُ فى الدُّنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذابا مُهِينًا ﴾ .

وقال تعالى[2] : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رسولَ اللهِ لهم عَذَابٌ[3] أليم ﴾ .

وقال اللهُ تعالى[4]: ﴿ وما كان لكُمْ أنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أنْ تنكِحُوا أزْوَاجَه من بَعْدِه[5] أبدًا ، إنّ ذلكم كان عِنْدَ اللهِ عظيما[6] ﴾ .

وقال تعالى فى تحريم التعريض به[7] : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقُولُوا رَاعِنَا[8] وقولوا انظُرْنا واسمعوا ولِلْكافرين عذابٌ أليم ﴾ .

وذَلكَ أنَّ اليهودَ كانوا يقولون : رَاعِنا يا محمد؛ أى أَرْعِنا سَمْعَك ، واسْمَعْ منا ، ويعرِّضُونَ بالكلمة، يريدونَ الرُّعُونة[9] ؛ فنَهى اللهُ المؤمنين عن التشبُّه بهم[10] ،

---

(١) قرن أذيته صلى الله عليه وسلم بأذيته تعالى ، للدلالة على أن من آذى رسول الله فقد آذى الله .

قال الخفاجى : فما قيل من أنه لايدل على مدعاه من الإجماع كلام نشأ من عـــدم العلم بمراده .

(٢) سورة التوبة ، آية ٦١

(٣) لهم عذاب أليم : يعنى فى الدنيا بالقتل ، وفى الآخرة بخلود العذاب .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٥٣

(٥) لحرمتهن عليهم مؤبدة ؛ لأنهن أمهات المؤمنين .

(٦) كان عند الله عظيما ، لقبحه ومنعه شرعا ، واستحقاق فاعله الخزى فى الدنيا والآخرة .

(٧) سورة البقرة، آية ١٠٤ . ويريد بالتعريض له الإيهام والتورية بما يوهم ذلك من غير تصريح به .

(٨) أى ارع جانبنا بتوجهك إلينا ، وألق سمعك نحونا .

(٩) أى يقصدون بها الرعونة ، وهى خفة العقل .

(١٠) التشبه بهم : بقولهم مثل مقالتهم له . فأمروا بأن يقولوا مايؤدى معناها من غير إيهام ؛ وهو أنظرنا ، واسمع منا .

وقَطع الذريعة بنَهْىِ المؤمنين عنها[١] ، لئلا يتوصَّلَ بها الـكافِرُ والمنافِقُ إلى سَبِّه والاستهزاء به .

وقيل: بل لِمَا فيهامن مُشارَكةِ[٢] اللفظ؛لأنهاعنداليهودِ بمعنى اسمع لا سمعتَ[٣].

وقيل : بل لما فيها من قلّةِ الأدب ، وعدمِ توقير النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم وتعظيمه ؛ لأنها فى لغة الأنصار بمعنى ارْعَنَا نَرْعكَ[٤] ؛ فنُهوا عن ذَلكَ ؛ إذ مُضمَّنُه أنهم لايَرْعَوْنه إلا برعَايته[٥] لهم ، وهو ـ صلّى اللهُ عليه وسلم ـ واجبُ الرعايةِ بكل حالٍ ؛ وهذا هو صلى اللهُ عليه وسلم قد نَهى عن التـكَنّى بكُنْيَته[٦] ، فقال : تَسمّوا باسْمِى ، ولا تـكَنَّوا بكُنْيَتى ؛ صِيانةً لنفسه[٧] ، وحمايةً[٨] عن أذاه ؛ إذْ كان صلَّى اللهُ عليه وسلم استجاب لرجُلٍ نادى : يا أبا القاسم؛ فقال : لم أَعْنِكَ[٩] ، إنما دعوتُ هذا ؛ فنهى حينئذ عن التـكَنّى بكُنْيتِه لئلا يتأذَّى بإجابةِ دَعْوَةِ غَيْرِه لِمَنْ لم يَدْعُه،ويَجِدَ بذلك المنافِقون والمستهزئون ذَرِيعةً[١٠] إلى أذاهُ والإزراء به[١١]؛

(١) بنهى المؤمنين عنها : عن هذه الـكلمة الموهمة . وقطع الذريعة : سد بابها بهذا النهى. والذريعة : هى الوسيلة للوصلة لأمر غير محمود .

(٢) مشاركة اللفظ ، أى كونه مشتركا بين معنيين .

(٣) دعاء عليه . قال الراغب : كان ذلك قولا يقولونه للنبى على سبيل التهكم ، يقصدون به وصفه بالرعونة ، ويوهمون أنهم يقولون : راعنا ؛ أى احفظنا .

(٤) أى إن راعيتنا راعيناك ، لأنها صيغة مفاعلة من الجانبين . وسوء الأدب فيها ظاهر .

(٥) مضمنه : مدلوله عندهم أنهم لايرعون ويحفظون حقه . . .

(٦) الـكنية : ماصدرت بأب أو أم . واللقب : ما أشعر بمدح أو ذم .

(٧) صيانة لنفسه عن أن يشاركه غيره فى كنيته المنوهة برفعة قدره .

والحديث فى سنن الترمذى ٢ ـ ١٣٦ ،وصحيح مسلم : ١٦٨٢

(٨) وحماية عن أذاه : وحفظا من أن يؤذيه غيره .

(٩) لم أعنك : لم أقصدك بندائى هذا .

(١٠) ذريعة : وسيلة وطريقا .

(١١) الإزراء به : الاستخفاف به .

فينادونه ، فإذا التفتَ قالوا: إنما أُردنا هذا ـ لِسواهُ ـ تَعْنيتًا له ، واستخفافا بحقّه[١] على عادة المجّان[٢] والمستهزئين ، فحمَى صلى اللهُ عليه وسلّم حِمَى أَذَاهُ [٢٤٠] بكل وَجْهٍ[٣] ؛ فحمل محققُو العلماء نَهْيَهُ عن هذا على مدة حياته ، وأجازُوه بعد وفاته لارتفاعِ العِلّة .

وللناسِ في هذا الحديث[٤] مذاهبُ ليس هذا موضعها؛ وماذكرناه هو مذهبُ الجمهور، والصوابُ إن شاء اللهُ . وإنّ ذلك على طريقِ تعظيمه وتوقيره ، وعلى سبيل النّدْب والاستحباب ، لا على التحريم ؛ ولذلك لم يَنْهَ عن اسْمِه ؛ لأنه قد كان اللهُ مَنعَ مِنْ ندائه به بقوله[٥]: ﴿لاتجعلوا دعاءَ الرّسولِ بينكم كدعاءِ بعضِكم بعْضًا﴾؛ وإنما كان المسلمون يدعونه برسول الله ، وبنبيّ الله، وقد يَدْعُوه ـ بكُنْيته أبا القاسم ـ بعضُهم في بعض الأحوال[٦] .

وقد روَى[٧] أنس رضِيَ الله عنه ، عنه صلى اللهُ عليه وسلم، مايدلُّ على كراهةِ

---

(١) تعنيتا له : إيقاعا له في العنت : وهو الأمر الشاق . واستخفافا بحقه : تهاونا وتحقيرا بالعدول عن توقيره .

(٢) المجان : جمع ماجن ، من المجون ، وهو الهزل والسخرية .

(٣) حمى حمى أذاه : منع منه منعا تاما بكل وجه يفضى إليه .

(٤) يعنى حديث : تسموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى . وقد سبق تخريجه صفحة ٩٢٨

(٥) سورة النور ، آية ٦٣ ، أى كما ينادى أحدكم غيره باسمه .

ومنع من ندائه به لما فيه من ترك الأدب .

(٦) قال فى نسيم الرياض : نقل عن الشافعى أنه حرم نداؤه صلى الله عليه وسلم بكنيته ، كما حرم نداؤه باسمه ؛ فسوى بينهما ، لدخولهما تحت قوله تعالى : لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ؛ لأنهم كانوا يتداعون بينهم بالكنى .

(٧) فى حديث رواه الحاكم ، والبزار ، وأبو يعلى ، وحسنه . وقال الحافظ ابن حجر : إنه حديث ضعيف ، ولا دليل فيه للكراهة مطلقا .

التسمّي باسْمِه، وتنزيهه[١] عن ذاك؛ إذا لم يوقّر، فقال: تُسمُّون أولادكم محمدا ثم تلعنونهم.

ورُوِيَ أنّ عُمر رضِيَ اللهُ عنه كتب إلى أهل الكوفة: لا يُسمَّى أحَدٌ باسم النبيّ صلى اللهُ عليه وسلّم، حكاه أبو جعفر الطبرى[٢].

[وحكى محمد بن سعد أنه[٣] نظر إلى رجُل اسمُه محمد، ورجلٌ يسبُّه ويقول له: فعل اللهُ بك يا محمد وصنع. فقال عُمَر لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب: لا أرى محمداً صلى اللهُ عليه وسلم يُسَبُّ بِك؛ واللهِ لا تُدْعَى محمداً ما دمْتُ حيًّا؛ وسمّاهُ عبد الرحمن؛ وأراد أنْ يمنَعَ أنْ يُسمَّى أحَدٌ بأسماء الأنبياء إكراماً لهم بذلك[٤]، وغيَّر أسماءَ جماعةٍ تَسمَّوْا بأسماء الأنبياء، ثم أمْسَك][٥].

والصوابُ جوازُ هذا كلِّه بَعْدَه صلى اللهُ عليه وسلم، بدليل إطباقِ الصحابةِ على ذلك.

وقد سمّى جماعةٌ منهم ابنَه محمداً، وكنّاه بأبى القاسم[٦].

---

(١) وتنزيهه: تبعيد اسمه.

(٢) قال فى نسيم الرياض: إلا أنه رجع عنه لما روى له مايأتى، من أنه صلى الله عليه وسلم سمى ابن أبى طلحة محمدا وغيره؛ فقال: لا سبيل إليكم — يعنى فى المنع.

وروى سعيد بن المسيب: أحب الأسماء إلى الله تعالى أسماء الأنبياء، قال: وإنما كرهه عمر، لئلا يسب المسمى به.

(٣) أنه: أى عمر.

(٤) بذلك؛ أى بمنع التسمية بأسمائهم لئلا يسبوا بما يوهم ذلك.

(٥) فى هامش ا: صح، من الأم بخطه من غير الرواية وهو فى ب فى هامشه. وبجانبه: هذا المعلم عليه من الأم، وليس من الرواية.

(٦) فجمع بين الاسم والكنية، ولم ينكره أحد منهم، مع كثرة الصحابة إذ ذاك؛ فهذا كله يدل على أنه غير ممتنع شرعا.

ورُوِى أنَّ النبىّ صلى اللهُ عليه وَسلم أَذِنَ فى ذلك لعلىّ رضِىَ اللهُ عنه[(١)] .

وقد أخبر صلى اللهُ عليه وسلم أنَّ ذلكَ اسْمُ المهدى وكُنيته[(٢)] .

[وقد سَمّى به النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم محمد بن طلحة ، ومحمد بن عَمْرو بن حَزْم ، ومحمد بن ثابت بن قَيْس ، وَغَيْرَ واحد ؛ وقال : ما ضَرَّ أحَدَكم أن يكونَ فى بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة[(٣)]] .

وقد فصلتُ الـكلامَ فى هذا القسم على بابينِ كما قدمناه :

---

(١) فى حديث رواه أبوداود، والترمذى عن على رضى الله عنه . فى ذلك: فى الجمع بين الاسم والـكنية ، وذلك أنه قال له : يا رسول الله ، إن ولد لى ولد بعدك أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك ؟ فقال له : نعم . (سنن الترمذى : ٥ — ١٣٧) . فهذا دليل على أن المنع مخصوص بزمانه صلى الله عليه وسلم .

قال فى نسيم الرياض : وهذا الحديث رواه أصحاب السنن وصححوه كما قاله البرهان ، إلا أنه قال : حفظته عن مشايخى أنه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعلى رضى الله عنه : سيولد لك ولد بعدى ، وقد نحلته اسمى وكنيتى ، ولا يحل لأحد من أمتى بعده .

فعل هذا لا شاهد فيه ، إلا أن كبار الصحابة كأبى بكر ، وابن عوف ، فعلوا ذلك ، وناهيك به حجة .

(٢) وهذا فى حديث رواه أبو سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يصيب هذه الأمة بلاء حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم ، فيبعث الله رجلا من عترتى ـ وفى رواية : من أهل بيتى يوافق ـ اسمه اسمى . واسم أبيه اسم أبى ، وكنيته كنيتى ، فيملأُ الأرض عدلا وقسطا ، ويكثر المطر والنبات ، ويعيش سبع سنين أو ثمان أو تسع .

قال الخفاجى : والشاهد فيما ذكر أنه لو لم يكن جائزا بعده لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسمى به من هو أصلح الناس وأعلمهم وأعد لهم فى عصره .

(٣) مابين القوسين ليس فى ا . وهو فى هامش ب ، وكتب بجانبه : هذا المعلم عليه من الأم بخطه ، وليس من الرواية .

الباب الأول

في بيان ما هو ـ في حقه صلّى اللهُ عليه وسلم ـ سَبٌّ ، أو نَقْص ، من تعريض أو نصّ (١)

اعلَمْ ـ وفّقنا اللهُ وإياك ـ أنّ جميعَ مَنْ سبَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم ، أو عابَه ، أو ألْحَقَ به نَقْصاً في نَفْسه أو نَسَبِه أو دِينِه (٢) ، أو خَصْلَةٍ من خِصالِه ، أو عرَّضَ به (٣) ، أو شبَّهَهُ بشَيء على طريق السبِّ له ، أو الإزراء (٤) عليه ، أو التصغير لشأنِه ، أو الغَضّ منه ، والعَيْبِ له ؛ فهو سابٌّ له ؛ والحكْمُ فيه حكْمُ الساب ، يُقتَلُ كما نُبيِّنُه ؛ ولا نَستَثْنِي فصْلًا من فُصُول (٥) هذا الباب على هذا المَقْصِد ، ولا نَمْتَرِي فيه تصريحا كان أو تلويحا (٦) .

وكذلك مَنْ لعنه أو دَعَا عليه ، أو تمنّى مضَرّةً له ، أو نَسبَ إليه مالا يليقُ بمنصِبه (٧) على طريقِ الذّمِّ ، أو عَبِث (٨) في جهتِه العزيزةِ بسُخْفٍ من الكلام وهُجْر (٩) ، ومُنْكَر من القول وزُور ، أو عيّره (١٠) بشيء مِمَّا جرَى من البلاء والمِحْنَة عليه ، أو غَمَصَهُ ببعضِ العوارضِ البشرية الجائزةِ والمعهودةِ (١١) لَدَيْه .

---

(١) من تعريض : بطريق الكناية والإيماء . أو نص : أى صريح لايحتمل التأويل .

(٢) أو دينه : أو نقص شريعته .

(٣) أو عرض به : قال في حقه مالا يليق به تعريضا لا تصريحا .

(٤) الإزراء عليه : التنقيص له . (٥) فصلا : قسما وصورة .

(٦) ولا نمترى فيه : لانشك ولا نتردد . تصريحا كان السب أو تلويحا ، وكناية وتعريضا .

(٧) بمنصبه : بأصله وحسبه .

(٨) أو عبث : أو قاله على طريق الهزل والمجون . في جهته العزيزة : أى بشىء له تعلق بجانبه الشريف . (٩) هجر : فحش وقبيح .

(١٠) عيره : نسب له صلى الله عليه وسلم مافيه عار عليه .

(١١) غمصه : نقص من قدره . العوارض البشرية الجائزة عليه كالأمراض ونحوها . والمعهودة لديه ؛ أى المعتادة بينه وبين سائر الأنبياء عليهم السلام .

وهذا كلُّه إجماعٌ مِنَ العلماء وأئمةِ الفَتْوى مِنْ لَدُن الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم إلى هَلُمّ جَرًّا [١] .

وقال أبو بكر بن المنذر [٢] : أجمعَ عَوَامُّ [٣] أهْلِ العِلْمِ على أنّ مَنْ سبَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يُقْتَل ؛ ومِمَّن قال ذلكَ مالكُ بْنُ أنَس ، والليثُ، وأحمد، وإسحاق ؛ وهو مذهبُ الشافعيّ .

قال القاضي أبو الفضل [٤] : وهو مُقْتَضَى قولِ أبي بَكْرٍ الصدّيق رضِيَ اللهُ عنه ، ولا تُقْبَلُ توبتُه عند هؤلاء المذكورين .

وبمثْلِه قال أبو حَنِيفة، وأصحابُه ؛ والثَّوْرِيُّ [٥] وأهلُ الكوفة، والأَوْزَاعيُّ [٦] في المسلم ، لكنهم قالوا : هِيَ رِدَّةٌ [٧] .

روى مِثْلَه الوليدُ بن مُسْلم عن مالك .

وحكى الطبري مِثْلَه عن أبي حَنِيفة وأصحابِه فيمن تنقَّصَه [٨] صلى اللهُ عليه وسلم، أو بريءَ منه أو كذَّبَه .

---

(١) إلى هلم جرا : إلى آخر الزمان . (٢) هو محمد إبراهيم النيسابوري .

(٣) عوام أهل العلم : عوام : جمع عامة بمعنى جماعة كثيرة ؛ وليس المراد العامي ؛ فإنه غير صحيح ، إذ لا عبرة بهم وبإجماعهم ، والعامي لا يكون أهل علم .

(٤) هو المؤلف .

(٥) الثوري : سفيان بن سعيد الكوفي الفقيه سيد أهل عصره في الحديث والتقوى ، لم ير أحفظ منه ، ولا أجل وهو منسوب لثور ، وهي قبيلة، توفي سنة إحدى وستين ومائة .

(٦) الأوزاعي : عبد الرحمن بن عمرو ، الإمام الجليل في الحديث والفقه ، والزهد والعبادة، ونسبته للأوزاع ، لقب لأبي بطن من همدان .

(٧) هي ردة : أي يرتد صاحبها ، ويكفر بسببه ، وعلى هذا يستتاب كالمرتد . وقيل : إنه يمهل ثلاثة أيام ، ونقل هذا عن عمر رضي الله عنه . وإذا قتل يضرب .

وقال الماوردي : يضرب بالخشب ولا يحرق ولا يدفن في مقابر المسلمين ولا المشركين .

(٨) تنقصه : نسب له نقصا دون السب .

وقال سُحْنُون (١) فيمن سبّه : ذلك رِدّةٌ كالزّنْدَقة (٢) .

وعلى هذا وقع الخلافُ فى استِتابتِهِ وتـكفيره (٣) ؛ وهل قَتْلُه حَدٌّ أو كُفْر (٤) ، كما سنُبَيِّنُه فى الباب الثانى إنْ شاء اللهُ تعالى ، ولا نعلمُ خلافاً فى استباحةِ دَمِه (٥) بين علماء الأمصار وسلَفِ الأمةِ (٦) ؛ وقد ذكَر غَيْرُ واحدٍ الإجماعَ على قَتْلِهِ وتـكفيره ، وأشارَ بعضُ الظاهرية (٧) — وهو أبو محمد (٨) علىُّ بن أحمد الفارِسىُّ إلى الخلاف فى تـكفير المستخفّ به (٩) .

والمعروفُ ما قدّمناه ؛ قال محمد بن سَحْنُون : أجمع العلماء أنّ شاتِمَ النبىّ صلى

---

(١) هو عبد السلام بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى ، أبو سعيد ، الفقيه المالـكى ، غلب عليه لقبه ، اجتمع فيه من الخصال مالم يجتمع فى غيره من الفقه والورع ، والزهد ، والسماحة . ولد فى رمضان سنة ستين أو إحدى وستين ومائة ، وتوفى سنة أربعين ومائتين ، وهو ابن ثمانين سنة .

(٢) الزندقة : الزنديق : من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية . أو من يبطن الـكفر ويظهر الإيمان (القاموس) .

قال فى نسيم الرياض :

والفرق بين هذا القول وبين القول بأنه ردة عند أبى حنيفة أنه يؤخذ منه الجزية لأنه تقبل توبته قبل الأخذ . وعند الشافعى فيه قولان ، فقيل تقبل توبته ، وقيل لاتقبل .

(٣) وتـكفيره : أى الحـكم بكفره .

(٤) هل قتله حد ، لأنه لمن قذف الأنبياء وسبهم جزاء عليه كسائر الحدود ؛ أم كفر ، لأنه يقتل المرتد بردته .

(٥) لاستحقاقه القتل بسبه صلى الله عليه وسلم .

(٦) سلف الأمة : المتقدمون من الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان .

(٧) الظاهرية : قوم على مذهب داود الظاهرى الذى كان يرى وجوب الأخذ بظاهر الحديث والنصوص من غير تأويل .

(٨) هو الإمام العالم المتبحر الحافظ المعروف بابن حزم . ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة .

(٩) المستخف به : بتصغير شأنه ؛ أو بشىء متعلق به ، من غير سب صريح .

قال الخفاجى : وهو مردود عليه .

اللهُ عليه وسلم المُتَنَقِّصَ له كافِرٌ . والوعيدُ جارٍ عليه بعذابِ اللهِ ؛ وحُكْمُهُ عند الأمة القَتْلُ ؛ ومَنْ شكَّ في كُفْرِهِ وعذابِه كَفَرَ [(١)] .

واحتجَّ إبراهيمُ بن حسين بن خالد الفقيه في مِثْلِ هذا بقَتْلِ خالِد بن الوليد مالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ لقوله ـ عن النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم : صاحبكم [(٢)] .

وقال أبو سليمان الخطّابي[(٣)] : لا أعلمُ أحداً من المسلمين اختلف في وجوبِ قَتْلِه إذا كان مسلما .

وقال ابنُ القاسم[(٤)] ـ عن مالك في كتاب ابنِ سحنون ، والمبسوط ،

(١) قال الخفاجي : لأن الرضا بالكفر كفر .
وفي نسيم الرياض : قال ابن حجر : وما صرح به من كفر الساب والشاك في كفره هو ماعليه أئمتنا وغيرهم ، لكنه عندنا كالمرتد ، فيستتاب وجوبا فورا ، فإن أصر قتل ولو امرأة ؛ فإن أسلم صح إسلامه وترك .

(٢) صاحبكم : يعني به النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه تنقيص له بتعبيره عنه بـ« صاحبكم » دون رسول الله ونحوه ، وإضافته لهم دونه المشعر بالتبري من صحبته صلى الله عليه وسلم واتباعه ، واستنكافه .

ومالك بن نويرة هذا كان له وفادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شجاعا شاعرا سيدا مطاعا في قومه بني تميم ، فولاه الرسول عليهم وعلى أخذ زكاتهم ، فمنعوها بعده صلى الله عليه وسلم ، فأرسل أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد لطلبها ، فقال له مالك ابن نويرة : أنا آتي الصلاة دون الزكاة . فقال له : لاتقبل إحداهما بدون الأخرى . فقال : قد كان صاحبكم يقول ذلك . فقال خالد : أما تراه صاحبا لك ! لقد هممت بضرب عنقك ، فقال مالك : أبذلك أمر صاحبك ؟ فقال له : أهذه بعد تلك ! ينكر عليه خالد تكرير قوله : صاحبكم بعد ما أوعده عليه ، ثم أمر ضرار بن الأزور فضرب عنقه لإنكاره قوله : صاحبكم مرتين استصغارا له صلى الله عليه وسلم .

(٣) هو حميد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب ، إمام جليل ، له تصانيف جليلة ، كمعالم السنن وغيره توفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

(٤) ابن القاسم : الإمام عبد الرحمن المصري ، صاحب الإمام مالك رضى الله عنه .

والعُتْبِيّة[١] ؛ وحكاهُ مُطَرِّفٌ[٢] عن مالك فى كتاب ابن حبيب : مَنْ سبَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم من المسلمين قُتِلَ ، ولم يُسْتَتَب .

قال ابن القاسم فى العُتْبِيّة : مَنْ سبَّه أو شتَمه أوعابه أو تنقَّصَه[٣] فإنه يُقْتَل، وحُكْمُهُ عند الأمةِ القَتْل كالزِّنديق .

وقد فرضَ اللهُ تعالى توقيره وَبِرّه[٤] . وفى المبسوط — عن عثمان بن كِنانة[٥] : مَنْ شتَمَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مِن المسلمين قُتِل أو صُلبَ حيًّا ولم يُسْتَتَبْ[٦] . والإمامُ مُخيَّرٌ فى صَلْبِه حيًّا أوْ قَتْلِه[٧] .

ومن رواية أبى المُصْعَب[٨] ، وابن أبى أُوَيس[٩] : سمعْنَا مالكا يقولُ : مَنْ

---

(١) العتبية : اسم كتاب منسوب إلى محمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن عتبة الأموى القرطبى الفقيه، أحد أعلام أئمة الأندلس .

(٢) مطرف ابن أخت الإمام مالك .

(٣) قال الخفاجى : المراد بالسب ذكر ما فيه تحقير له من الأمور الذميمة . وشتمه : نسبة ما لايليق به صلى الله عليه وسلم فى ذاته مما لايحقره؛ ككونه جبارا قهارا . وتنقصه : أى ينسب له نقصا ، وإن لم يكن شتما ؛ كقوله : غيره أعلم منه أو أعقل .

(٤) توقيره : تعظيمه . وبره : رعاية حقه الواجب على أمته؛ فمن خالف مافرض الله تعالى عليه مما علم من الدين بالضرورة كان زنديقا يجب قتله ولا تقبل توبته .

(٥) عثمان بن كنانة : من أئمة المالكية،له كتاب اسمه المبسوط . توفى سنة ست وثمانين ومائة ، وهو أحد الرواة عن مالك .

(٦) يصلب حيا على جذع إلى أن يموت تشهيرا به . ولم يستتب : أى لم تقبل توبته .

(٧) أو قتله بضرب عنقه .

(٨) أبو مصعب : أحمد بن أبى بكر ، أبو مصعب الزهرى ، قاضى المدينة وعالمها الثقة المحدث ، روى عن مالك وغيره ، توفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، وله ترجمة فى ميزان الاعتدال (١ — ٨٤) .

(٩) ابن أبى أويس : إسماعيل بن عبد الله بن أبى أويس ابن أخت مالك .

سبَّ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ، أو شتَمه ، أو عابه ، أو تنقَّصَهُ ـ قُتِل مُسلما كان أو كافرا ، ولا يُستتاب (١) .

وفى كتاب محمد (٢) : أخبرنا أصحابُ مالك أنه قال : مَنْ سبَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أو غيره من النبيين مِنْ مسلم أو كافر قُتِل ولم يُستَتَبْ .

وقال أصْبَغُ (٣) : يُقْتَلُ على كل حالٍ أسرَّ ذلك أو أظهرهُ ؛ ولا يُستتابُ ؛ لأنَّ توبتَه لا تعرفُ (٤) .

وقال عبدُ الله بنُ الحكَم (٥) : مَنْ سبَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ مُسلم أو كافرٍ قُتِل ولم يُستَتَبْ .

وحكى الطبرىُّ مِثْلَه عن أشهب (٦) ، عن مالك .

وروَى ابنُ وَهْب (٧) ، عن مالك : مَنْ قال : إنَّ رداء النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ـ

---

(١) لا يستتاب ، لأنه حد لا يسقط بالتوبة عنده .

وقيل قوله : ولا يستتاب قيد للمسلم ؛ أما الكافر إذا تاب وتوبته إسلامه ، فتقبل توبته ولا يقتل ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، قال تعالى : قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف .

(٢) هو محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز ، من أئمة المالكية المشهورين .

(٣) هو أصبغ بن الفرج الطائى الأندلسى المالكى مفتى قرطبة ، الإمام المعروف ، توفى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة .

(٤) لا تعرف هل هى كائنة بإخلاص ، أو هى تقية لخوف القتل .

(٥) هو فقيه مصرى ، ثقة ، يروى عن مالك ، والليث وغيرهما ، توفى سنة أربع عشرة ومائتين .

(٦) أشهب : هو عبد العزيز بن داود بن إبراهيم ، أبو عمرو العبسى العامرى المصرى الفقيه . وأشهب لقبه . روى عن مالك والليث وغيرهما ، وهو ثقة ، توفى سنة أربع ومائتين .

(٧) ابن وهب : هو أبو محمد وهب بن مسلم الفهرى المصرى أحد الأعلام ، روى عن مالك والليث والسفيانين ، وعن كثير ؛ وطلب للقضاء فاختفى ، وانقطع فى بيته ، وكان من الزهد والعبادة وكثرة حفظ الحديث بمرتبة لم يبلغها غيره ، حتى بلغ حديثه ثمانين ألف حديث . له تصانيف كثيرة جليلة ، توفى سنة سبع وتسعين ومائة .

ويروى زِرّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ـ وسِخٌ ؛ أراد عَيْبَه ـ قُتِل (١) .

وقال بعضُ علمائنا (٢) : أجمع العلماء على أنّ مَنْ دَعَا على نبيٍّ من الأنبياء بالوَيْل (٣) ، أو بشيء من المكروه ـ أنه يُقتَل بلا استتابةٍ (٤) .

وأفتى أبو الحسن القابسيّ (٥) فيمن قال في النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم : الحمّالُ يتيمُ أبي طالب (٦) [٢٤٢] ـ بالقَتْل .

وأفتى أبو محمد (٧) بن أبي زَيْد بقَتْل رجُلٍ سَمِعَ قوماً يتذاكرونَ صفةَ النبيّ

---

(١) أراد به عيبه ؛ أي قصد تنقصه والإزراء به قتل ، فإن لم يقصد ذلك لم يقتل .

وفي نسيم الرياض (٤ ـ ٣٧٦) : قال ابن حجر الهيثمي ـ بعد سياقه قول المصنف : ويؤخذ منه أنه لو أطلق ذلك ، أو قصد الإخبار عن تواضعه صلى الله عليه وسلم لا يكفر ، وهو ظاهر في إرادة التواضع ، ومحتمل عند الإطلاق ؛ لأنه ليس صريحا في النقص . وإذا قلنا بعدم الكفر فظاهر أنه يعزر التعزير البليغ لذكره ما يوهم نقصا .

واختلفوا فيما لو قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم طويل الظفر . والذي يظهر أنه لو قال ذلك احتقارا له صلى الله عليه وسلم ، أو استهزاء به ، أو على جهة نسبة النقص إليه كفر ، وإلا فلا ؛ بل يعزر التعزير الشديد ، — (٢) بعض علمائنا من المالكية .

(٣) بالويل : فقال : ويل له : وهي كلمة يدعى بها ؛ ومعناها الهلاك أو البلاء والمصيبة والعذاب والمشقة .

(٤) بلا استتابة : لا تطلب توبته ولا تقبل .

(٥) هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني شيخ الحديث وفقه مالك ، الزاهد العابد صاحب التصانيف الجليلة في الفقه والأصول ، توفي سنة ثلاث وأربعمائة .

(٦) الحمال : وذلك لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا اشترى شيئا من السوق حمله بنفسه ، فإذا لقيه أحد وأراد أن يحمله قال : رب المتاع أولى بحمله ، كما ورد في كتب الحديث.

يتيم أبي طالب : لأنه رباه بعد موت أبيه وجده عبد المطلب .

بالقتل : لما فيه من الاستخفاف والتحقير ، وقصد قائله ذلك لقيام قرينة عليه .

(٧) أبو محمد بن أبي زيد : هو عبد الله القيرواني الذي انتهت إليه رياسة مذهب مالك بالمغرب ، ورحل إليه من الأقطار ، وكثر الآخذون عنه . وقال عنه المصنف : إنه حاز رياسة الدين والدنيا حتى سمي مالك الأصغر ، وتوفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة .

صلى الله عليه وسلم إذ مَرَّ بهم رجلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ واللِّحْيَةِ ؛ فقال لهم: تريدون تعرفونَ صِفَتَه ؛ هي في صِفَةِ هذا المارِّ في خَلْقِهِ ولحيتِهِ . قال : ولا تُقْبَلُ توبَتُه (١) .

وقد كَذَبَ ـ لعَنَهُ الله ؛ وليس يخرجُ من قَلْبٍ سليمِ الإيمان .

وقال أحمد بن أبي سليمان (٢) صاحب سُحْنون : مَنْ قال : إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان أسودَ يُقْتَل (٣) .

وقال (٤) في رَجُل قيل له : لا ، وحقِّ رسولِ (٥) الله . فقال : فعل اللهُ برسولِ الله كذا وكذا (٦) ـ وذكر كلاما قبيحا ؛ فقيل له: ما تقولُ ياعَدُوَّ الله ؟ فقال أشدَّ من كلامِهِ الأول ؛ ثم قال : إنما أردتُ برسولِ الله العَقْرب . فقال ابنُ أبي سليمان للذي سأله (٧) : اشْهَدْ عليه وأنا شريكُكَ ـ يُرِيدُ في قَتْله وثواب ذلك .

قال حبيبُ بن الربيع : لأنَّ ادِّعاءه التأويل في لفظٍ (٨) صُرَاح لا يُقْبَل ؛ لأنه امتهانٌ؛ وهو غَيْرُ مُعَزِّرٍ (٩) لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولا مُوَقِّرٍ له ؛ فوجب إباحةُ دَمِه .

---

(١) لا تقبل توبته : لكفره وعظم جرمه . قال ابن حجر : ومذهبنا قاض بذلك .

(٢) أحمد بن أبي سليمان : من علماء المالكية المعروفين عندهم .

(٣) قال في نسيم الرياض (٤ ـ ٣٧٧) : لأنه صلى الله عليه وسلم كان من الحسن وبياض الوجه بصفة لاتخفى ؛ فهذا القائل قد كذب وافترى ، ووصفه ـ صلى الله عليه وسلم بما ليس فيه، إشعارا بالتحقير .

(٤) وقال ؛ أي ابن أبي سليمان السابق .

(٥) وحق رسول الله ؛ أي عظمته وجلالة قدره عند الله ؛ وهو قسم مؤكد لما قبله .

(٦) كذا وكذا : كناية عن كلام قبيح وصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ تركه لاستهجانه .

قال في نسيم الرياض (٤ ـ ٣٧٨) : وهذا مما لاشك في معناه وإنكاره مكابرة ، لكنه لايقبل من قائله ادعاؤه أنه مراده ، لأن رسول الله صار في كلامهم لايراد به إلا أحد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولايخطر غيره ببال أحد ؛ فلهذا لم يقبل تأويله .

(٧) للذي سأله ؛ مستفتيا عنه .

(٨) صراح : صريح .

(٩) امتهان : ابتذال وتحقير . غير معزز : غير معظم .

وأفتى أبو عَبْد الله بن عتّاب في عَشَّار [١] ؛ قال لرجل : أَدِّ واشْكُ [٢] إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم ؛ وقال [٣] : إن سألْتُ أو جهلتُ فقد جَهِل وسأل النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم - بالقَتْل [٤] .

وأفتى فقهاء الاندلس بقَتْل ابن حاتم المُتَفَقِّه الطُّلَيْطِلِيّ وصَلْبه بما شُهِد عليه به من استخفافه بحق النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم [٥] وتسميته إياه أثناءَ مناظرته باليتيم [٦] ، وخَتَن حَيْدَرة [٧] ، وزعمِه أنَّ زُهْدَه لم يكن قَصْداً ؛ ولو قَدَر على الطيبات أكلها [٨] ، إلى أشْباه لهذا .

---

(١) من علماء المالكية . والعشار : من يأخذ العشر .

(٢) أد واشك ، أى أعط ماطلب منك واشك إلى النبي صلى الله عليه وسلم منى ومن ظلمى لك .

قال فى نسيم الرياض (٤ — ٣٧٩) : ومثل هذا تحقير للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ كأنه يقول : لا قدرة له على دفعه ولو كان حيا موجودا الآن ؛ فلهذا أفتى فيه بوجوب القتل .

(٣) وقال له ؛ أى العشار لذلك الرجل ، ويحتمل أن يكون القائل ابن عتاب ؛ فهو فتوى أخرى فيمن قال : إن سألت . . . .

(٤) إن سألت أو جهلت أنا أمرا أسأل عنه فقد جهل النبى بعض الأمور ؛ لأن علم جميع الأمور إنما هو لله ، وقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عما لم يعلمه ؛ فأفتى فى هذا أيضا بالقتل لما فيه من الاستخفاف برسول الله صلى الله عليه وسلم لتسويته بينه وبينه، وإسناده السؤال والجهل له .

قال الخفاجى : قال ابن حجر : ومذهبنا قاض بذلك أيضا ، بل الذى يظهر أن مجرد قوله : أد واشك إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يقصد عدم المبالاة ، كفر أيضا .

(٥) من استخفافه بحق النبى ؛ أى بتكلمه بكلام يشعر بتحقيره .

(٦) وتسميته ، أى تسمية ذلك الملعون النبى صلى الله عليه وسلم باليتيم ؛ أى قوله : إنه يتيم أبى طالب ، كما كان يقوله الكفرة استخفافا به وإزراء .

قال فى نسيم الرياض : ومثل هذا إذا سيق مشعرا بتحقير كان كفرا ؛ فإن لم يشعر به جاز .

(٧) الختن : كل قريب لامرأة ، والعامة تطلقه على زوج البنت . وحيدرة لقب على بن أبى طالب .

(٨) قال فى نسيم الرياض (٤ — ٣٨٠) : وهذا جهل منه بالله تعالى وقدرته وبالنبى صلى الله عليه وسلم وعزته ؛ ولو أراد صلى الله عليه وسلم أن تكون جبال مكة ذهبا كانت ، وقد عرض عليه ذلك فأباه .

وأفتى فقهاء القيْرُوانِ وأصحابُ سَحنون بقَتْل إبراهيم الفَزَارى ، وكان شاعراً مُتَفَنِّناً فى كثير من العلوم ، وكان مِمّن يحضُر مجلسَ القاضى أبى العباس بن طالب المناظرة[1] ، فرُفِعَتْ عليه[2] أُمورٌ منكَرَةٌ من هذا الباب فى الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبيِّنا صلى اللهُ عليه وسلمَ ؛ فأحْضَرَ له القاضى[3] يحيى بن عُمر وغيرُه من الفقهاء ، وأمر بقَتْلِه[4] وصَلْبِه ؛ فطُعِن بالسكين ، وَصُلِبَ مُنَكَّسا ؛ ثم أُنزل وأُحرِق بالنار .

وحكى بعضُ المؤرخين أنه لمّا رُفِعَتْ خشَبَتُهُ[5] ، وزالت عنها الأيدى استدارت ، وحوَّلتهُ عن القِبْلةِ ؛ فكان آيةً للجميع ، وكبَّر الناسُ ، وجاء كلْبٌ فولَغَ فى دَمِه[6] ؛ فقال يحيى بن عُمر : صدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر حديثاعنه صلى اللهُ عليه وسلم[7] أنه قال : لا يَلَغُ الكلْبُ فى دَمِ مسلم .

وقال القاضى أبو عبدالله بن المرابط[8] : مَنْ قال : إنّ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم هُزِمُ[9]

(١) للمناظرة : للمباحثة فى العلوم .

(٢) رفعت : نقلت عنه ، وضمنه معنى شنع ، فعداه بـ « على » .

(٣) هو قاضى القيروان .

(٤) وأمر بقتله بعد ماحكم بكفره بما ثبت عليه فى ملأ من الناس .

(٥) لما رفعت خشبته التى صلب عليها. (٦) فى دمه : الذى طار منه حين طعن بالسكين.

(٧) قال الخفاجى : إلا أنه قيل : لا يعرفه الحفاظ ، فالظاهر أنه لا أصل له ؛ لأنه لم ينقله الثقات ، ونقل عن ابن حجر أيضا أنه قال : لا أصل له .

(٨) ابن المرابط هذا هو أبو مصعب ، توفى بعد ثمانين وأربعمائة ؛ وهو من أجل أئمة المالكية بالمغرب .

(٩) هزم ، من الهزيمة : وهى الفرار من الزحف . يستتاب : يطلب عنه أن يتوب مما قاله ويرجع عنه .

وفى نسيم الرياض (٤ — ٣٨١) : وقضية مذهبنا أنه لا يكفر بذلك ؛ إلا إن قاله على قصد التنقيص ؛ لأنه ليس صريحا فيه ؛ لأن الهزيمة قد تكون من الجبلات البشرية ؛ فإن لم يقصد ذلك لم يكفر ؛ بل يعزر التعزير الشديد .

يُستتابُ، فإنْ تاب وإلا قُتِل؛ لأنه تنقُّص[١]؛ إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته[٢]، إذ هو على بَصِيرة من أمره، ويقين من عصمته[٣].

وقال حبيب بن ربيع القَرَوى[٤]: مذهبُ مالك وأصحابه أنَّ مَنْ قال فيه - صلّى اللهُ عليه وسلم: ما فيه نَقْص - قُتِل دُون استتابة[٥].

وقال ابنُ عتّاب: الكتابُ والسنةُ مُوجِبان أنَّ مَنْ قَصد النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بأذًى أو نَقْص، معرِّضاً أو مصرِّحا، وإنْ قلَّ - فقَتْلُه واجبٌ؛ فهذا البابُ كلُّه مما عده العلماء سبًّا أو تنقُّصا يجبُ قَتْـــلُ قائله، لم يختلِفْ في ذلك متقدِّمُهم ولا متأخِّرُهم، وإن اختلفوا في حكم قَتْله على ما أشرنا إليه [٢٤٣] ونبيِّنُه بعدُ.

وكذلك أقولُ حكْمُ مَنْ غمصَهُ أو عَيَّره[٦] برعاية الغَنم[٧] أو السَّهْوِ أو النسيان

(١) لأنه تنقيص للنبي صلى الله عليه وسلم واستهانة به، وهو كفر.

قال في نسيم الرياض (٤ — ٣٨٢): وهذا مخالف لما قدمه: من أن متنقصه صلى الله عليه وسلم يقتل ولا يستتاب.

(٢) في خاصته: أي إن الهزيمة منه ممتنعة لأمر خصه الله تعالى به، وجبله عليه؛ لإلقاء الرعب في قلوب أعدائه، وتثبيت الله تعالى له بقوة قلبه.

(٣) من عصمته؛ أي عصمة الله له بحفظه، لقوله تعالى: والله يعصمك من الناس.

قال الخفاجي: فلو انهزم كان شاكا فيما أخبره الله به. وقد كان صلى الله عليه وسلم في حرب هوازن وقد حمي الوطيس على بغلته البيضاء، وكان أبو سفيان بن الحارث آخذا بزمامها وهو يقول: أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب. كما في البخاري، فركب البغلة، وهي لا تصلح للكر والفر، ونادى باسمه إعلاما لأعدائه بمكانه ليقصد؛ فأي ثبات وشجاعة أقوى من هذا! وقد فر كثير من الصحابة لما نضحوهم بالسهام.

(٤) منسوب لقرية، أو للقيروان على خلاف القياس.

(٥) هذا تعقيب على ماقاله ابن المرابط لمخالفته لمذهبه.

(٦) غمصه: حقره وعابه بما لا يليق به. عيره: نسبه لما فيه عار.

(٧) في نسيم الرياض: قال السيوطي في كتابه «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء»، وهو كتاب جليل ينبغي الوقوف عليه: إن رجلا سب آخر بأنه راع؛ فقال له: مامن نبي إلا رعى =

أو السِّحْرِ [١]، أو ما أصابه من جُرْحٍ أو هزيمة لبعض جيوشه [٢]، أو أذًى مِنْ عدوِّه، أو شدةٍ من زَمَنِه [٣]، أو بالمَيْل إلى نسائه ؛ فحُكْمُ هذا كلِّه لمَنْ قصدَ به نَقْصه القَتْلُ.

وقد مضى مِنْ مَذَاهبِ العلماء فى ذلك ، ويأتى ما يَدُلُّ عليه [٤].

= الغنم بجمع من العامة . فقال قاضى القضاة المالـكى : لو رفع لى هذا ضربته بالسياط . فلما سئلت عنه أجبت بأنه يعزر أبلغ تعزير ، لأنه لاينبغى ضرب آحاد الناس مثلا لنفسه بالأنبياء .

والمستدل بمثله قد يكون فى مقام التدريس والإفتاء والتصنيف وبيان العلم لأهله لا ينـكر عليه ، أما فى مقام الخصام والتبرى عن معرة نقص نسب له أو لغيره فهو محل الإنـكار والتأديب لاسيما بحضرة العوام وفى الأسواق ، فهو سب وقذف ، ولـكل مقام يناسبه .

(١) قال الخفاجى : أما السحر فلأنه لا شبهة فى امتناعه واستحقاق قائله مامر . وأما الأولان فما صدر عنه صلى الله عليه وسلم نادرا ، ولـكنه لا يجوز وصفه بهما فى سياق يوهم تنقيصا لمقامه ، لأنه يصدر منه نادرا، للتشريع .

(٢) لايجوز ذكره ، وإن لم يكن فى ذاته ، لأن إهانة أصحابه إهانة له ، وذكرها يؤذيه.

(٣) أو شدة من زمنه تصيبه ، أو تصيب أصحابه ، كقـلة المعيشة ، وضيق الحال ، وخوف العدو .

(٤) فى نسيم الرياض (٤ — ٣٨٣) :

قال السبكى رحمه الله تعالى بعد ماذكر ماهنا فى هذا الفصل :

إن كان هذا عن سوء عقيدة فلا إشـكال فيه ؛ أما إذا صدر عن مؤمن ، وقلنا الإيمان هو التصديق فقط والـكفر الجحود ـ فـكيف يكون هذا كافرا ؟

وأجاب ـ نقلا عن إمام الحرمين : إن المسلمين أجمعوا على تـكفيره ، فـكأنه لأنه تعالى قضى بأنه لايصدر مثله إلا ممن قضى الله تعالى بانتزاع معرفة الله تعالى من قلبه؛ والعمل وإن لم يكن ركن الإيمان فالإقرار والانقياد والإذعان بترك الاستـكبار عن امتثال أوامره لابد منه ؛ ولذا كفر إبليس بالاستـكبار .

والحاصل أن الإيمان بمعنى التصديق لابد أن يقترن به أمر آخر ؛ هو طمأنينة القلب لقبول الأوامر والنواهى والانقياد لها بقلبه ، وهو معنى الطمأنينة ؛ فمن استخف واستهان به ضاد ذلك ، فانتفى تصديقه الموجود صورة بانتفاء أثره ؛ فصار ذلك كالعدم ؛ فالـكفر كفران : كفر جهل وجحود ؛ كـكفر النصارى ، وكفر مع التصديق والمعرفة ؛ بوجود مايعارضه ويصيره كالعدم ، كـكفر إبليس واليهود ؛ فإذا نفى عنه التصديق فهو نفى للمعتد به منه، وكفر =

فصــــل

فى الحجة فى إيجابِ قَتْلِ مَنْ سبَّه أو عابه صلى اللهُ عليه وسلم

فمن القرآن لَعْنُه تعالى لمُؤْذِيه فى الدنيا والآخرة ، وقِرانُه تعالى أذاهُ بأذاه[1] ، ولا خِلَاف فى قَتْلِ مَنْ سبَّ اللهَ[2] ، وأنَّ اللَّعْنَ إنما يستَوجِبُه[3] مَنْ هو كافِرٌ ، وحُكْمُ الكافر القَتْلُ ؛ فقال[4] : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ ورسولَهُ لعنهم اللهُ فى الدنيا والآخرة وأَعَدَّ لهم عَذَاباً مُهِينا ﴾ .

وقال ـ فى قاتلِ المُؤمن مِثْلَ[5] ذلك ؛ فمِنْ لَعْنَتِهِ فى الدُّنْيَا القَتْلُ ؛ قال اللهُ تعالى[6] : ﴿ لئن لم يَنْتَهِ المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ والمرجفون فى المدينة لنغرينَّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . مَلْعُونين أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تقتيلا ﴾ .

= الساب والمتنقص من هذا القبيل، فهو كفر جهل استحل أم لا ؛ فمن توقف فى التكفير من الفقهاء لمن لم يستحل خفى عليه مأخذه . انتهى .

ثم قال الخفاجى :وهو نفيس جدا ينبغى التنبيه له فى تكفير الفقهاء لبعض الناس. فتدبر.

(١) قرانه تعالى أذاه بأذاه؛ بجعل مايؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذيه .

(٢) فإنه كفر باتفاق .

(٣) يستوجبه : يستحقه وجوبا .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٥٧

قال فى نسيم الرياض (٤ — ٣٨٤) : وأذية الله تعالى لا تمكن ؛ لأنها إيصال مكروه له ، وهو لايتصور فى حقه ، فذكره تهويلا لأذية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن من يؤذيه كمن يؤذى الله .

واللعن : الطرد من رحمة الله ، وهو إنما يكون فى الدارين للكافرين .

(٥) قاتل المؤمن عمدا بغير حق .

(٦) سورة الأحزاب ، آية ٦٠، ٦١ . ثقفوا : وجدوا وقد ظفرتم بهم .

وقال ـ فى المحاربين [١] ، وذكر عقوبتهم [٢] : ﴿ إنما جزاء الذين يُحاربُون اللهَ ورسولَه ويَسْعَوْن فى الأرض فَسادا أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبوا أو تقَطَّع أيديهم وأرجلُهم مِنْ خِلَاف ، أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ﴾ .

وقد يقَعَ القَتْلُ [٣] بمعنى اللَّعْنِ ؛ قال الله تعالى [٤] : ﴿ قُتِلَ الخرّاصونَ ﴾ . و [٥] ﴿ قاتلهم اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُون ﴾ ؛ أى لعنهم الله ؛ ولأنه فرقَ بين أذاهما وأذى المؤمنين ؛ وفى أذى المؤمنين ما دُونَ [٦] القَتْلِ ؛ مِن الضَّرْب والنَّكالِ [٧] ؛ فكان حُكْمُ مُؤْذِى اللهِ و نَبيّه أشدَّ مِنْ ذلك ؛ وهو القَتْل . وقال تعالى [٨] : ﴿ فلا وربِّك لا يُؤْمِنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهم ثم لا يَجِدُوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضَيْتَ ويسلموا تسليما ﴾ .

---

(١) المحاربين : الذى حاربوا الله ورسوله .

(٢) سورة المائدة ، آية ٣٣

ويسعون فى الأرض فسادا : المراد بهم قطاع الطريق ، جعل محاربتهم للمسلمين محاربة لله ورسوله لخروجهم عن أمرهما .

وذلك : إشارة للقتل وما بعده . والخزى : الذل والفضيحة .

(٣) أى فى القرآن .

(٤) سورة الذاريات ، آية ١٠

الخراصون : الكذابون الذين يقولون مالا يصح تخمينا وتقديرا من أنفسهم ، فالقتل بمعنى الإهلاك ، جرى مجرى اللعن والقبح فى الدعاء وغيره .

(٥) سورة المنافقون ، آية ٤

يؤفكون : يصرفون عن الحق .

(٦) ما دون القتل : ماهو أقل منه .

(٧) النكال : العقوبة بغير قتل ، كقطع يد ونحوه .

(٨) سورة النساء ، آية ٦٥

شجر بينهم : وقع بينهم من الاختلاف والمخاصمة .

نفى الإيمان عمن لم يرض حكمه ، لما فيه من الأذية له صلى الله عليه وسلم .

فسلبَ اسْمَ الإيمانِ عمّن وجَد في صَدْرِه حرَجاً [١] من قضائه، ولم يسلِّمْ له؛ ومَن تنقّصَه فقد ناقض هذا [٢].

وقال اللهُ تعالى [٣]: ﴿ يأيُّها الذين آمنوا لا ترفَعُوا أصْوَاتَكم فَوْقَ صوتِ النبيّ ولا تَجْهَرُوا له بالْقَولِ كَجَهْرِ بعضِكم لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أعمالُكُم وأنتم لا تَشْعُرُون ﴾.

ولا يُحْبِطُ الْعَمَلَ إلا الكفرُ [٤]؛ والكافرُ يُقْتَل [٥].

---

(١) حرجا: ضيقا عن قبول كلمة، أو قلقا.

قال الخفاجي: المراد من لم يرض بحكمه صلى الله عليه وسلم، ولم ينقد لنهيه وأمره شاك في دينه غير متحصل بيقينه، ومثله مؤذ له مغضب له صلى الله عليه وسلم، وأذيته كفر حقيقة، أو مودية إليه، ففيها حث على اجتناب ما يكره، والخوف من عاقبته.

(٢) ناقض هذا المذكور في هذه الآية من الحرج وعدم التسليم بما يجر إلى نفي الإيمان.

(٣) سورة الحجرات، آية ٢

نهى الله المؤمنين عن رفع الصوت في مخاطبته، وأن يتأدبوا معه صلى الله عليه وسلم بخفض أصواتهم تعظيما له وتأدبا.

وحبوط الأعمال: سقوطها، فلا يثاب عليها.

(٤) قال الخفاجي: إنما تتقبل الأعمال من المؤمن، لأن العمل المقبول ثمرة الإيمان.

وهذا مذهب أهل السنة. والمعتزلة يقولون: يحبط بالكبائر.

(٥) الكافر يقتل: يستحق القتل شرعا. والمراد النهيُ عن المؤذى. ورفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم فيه أذية له.

وهذا مخصوص بمن قصد إهانته وتحقيره. صلى الله عليه وسلم. فإن لم يقصد كان خلاف الأولى.

وفي نسيم الرياض (٤ — ٣٨٧): قال ابن العربي: هذا كما هو في حياته صلى الله عليه وسلم متحتم بعد وفاته حتى لا ينبغي رفع الصوت عند قبره الشريف، ولا عند قراءة حديثه، ولا عند أحد من العلماء الذين ورثوا مقامه صلى الله عليه وسلم، فهذا كله مكروه أشد كراهة. ومع قصد الإهانة حرام.

وقال تعالى[١] : ﴿وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيِّك به الله ...﴾ ثم قال[١] : ﴿حسبهم جهنمُ يصلونها فبئس المصير﴾ .

وقال تعالى[٢] : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبيَّ ويقولون: هو أُذن﴾. ثم قال[٢] : ﴿والذين يؤذون رسولَ الله لهم عذابٌ أليم﴾ .

وقال تعالى[٣] : ﴿ولئن سألتهم ليقولُنّ إنما كنا نخوضُ ونلعبُ ، قلْ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إنْ نعفُ عن طائفةٍ منكم نُعذّبْ طائفةً بأنهم كانوا مجرمين﴾ .

قال أهلُ التفسير : كفرتُم بقولكم[٤] فى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وأمّا الإجماعُ فقد ذكرناه .

(١) سورة المجادلة ، آية ٨

وإذا جاءوك : يعنى اليهود . حيوك بما لم يحيك به الله : كانوا يقولون السام عليك ـ يعنون الدعاء عليه بالموت ، ويحرفون تحية الله التى هى السلام ، حسبهم جهنم يصلونها : يكفى فى جزائهم ما أعد الله لهم من عذاب الآخرة الذى يصير إليهم .

(٢) سورة التوبة ، آية ٦١

هو أذن ، أى يسمع كل مايقال له ، ويقبله من كل أحد . والقائلون : هم المنافقون .

(٣) سورة التوبة ، آية ٦٥ ، ٦٦

سألتهم : أى المنافقين الذى قالوا ـ وهو صلى الله عليه وسلم ذاهب إلى تبوك :

انظروا لهذا الرجل يريد فتح حصون الشام ! هيهات ! فأعلمه الله بذلك ؛ فلما أخبرهم بما قالوه قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب . . . . نخوض : أى نقطع السفر بالتلهى بالحديث . ونلعب تلهيا منا .

قد كفرتم : باستهزائكم ، أى لاتعتذروا بعذر غير مقبول لكذبكم . والقائل ذلك وديعة بن ثابت . وقوله : إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة : كانوا ثلاثة تكلم اثنان وضحك الثالث ، وهو المعفو عنه .

(٤) أى بقولهم : هو أذن ، فهو دليل على أن أذيته صلى الله عليه وسلم كفر . وهذا قول المفسرين فى كفره ، وسيأتى حكم الإجماع ، وحكمه فى الأحاديث .

وأمّا الآثارُ[(١)] فحدّثنا[(٢)] الشيخُ أبو عَبْدِ الله أحمدُ بن غَلْبُون[(٣)] ، عن الشيخ أبي ذَرّ[(٤)] الهَرَوى إجازةً ، قال : حدثنا أبو الحسن الدارَقُطْنى[(٥)] ، وأبو عُمر[(٦)] ابن حَيُّوَة ، حدثنا محمد بن نوح ، حدثنا عبد العزيز بن محمد بن الحَسَن بن زَبَالَة[(٧)] ، حدثنا عبد الله بن موسى بن جعفر[(٨)] ، عن علىّ بن موسى ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن محمد بن على بن الحُسين ، عن أبيه ، عن الحُسين بن على ، عن أبيه — أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : مَنْ سبّ نَبِيًّا فاقتُلُوه ، ومَنْ سبّ أصحابى فاضربوه[(٩)] .

---

(١) الآثار : الأحاديث المسندة للروية فيه .

(٢) رواه الطبرانى والدارقطنى عن على رضى الله عنه .

(٣) هو قرطبى إشبيلى زاهد ، علامة فى جميع الفنون ، ثقة عابد ، توفى سنة ثمان وخمسمائة .

(٤) أبو ذر الهروى: هو عبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصارى الهروى الحافظ الفقيه المالكى، نزيل مكة وله معجم كبير ، وهو ثقة عابد حافظ عارف بالفقه ، وأخذ الأصول عن الباقلانى ، توفى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة .

(٥) أبو الحسن الدارقطنى : على بن عمر بن أحمد البغدادى الحافظ . كان أوحد أهل عصره فى الحفظ والفهم والورع، وانتهت معرفة الحديث والعلل به . توفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة .

(٦) إمام حجة ، وهو محمد بن العباس بن محمد بن زكريا البغدادى ، وهو إمام ثقة ، توفى سنة اثنتين وثلاثمائة

(٧) من أئمة الحديث المشهورين . وفى ب : بن محمد بن على بن الحسين بن زبالة . وله ترجمة فى الميزان : ٢ — ٦٣٤

(٨) هو عبد الله بن موسى الهاشمى، وفيه كلام ؛ فقيل ضعيف، وقيل ثقة، توفى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة .

(٩) فاضربوه ؛ أى حد القذف .

قال الخفاجى : قالوا : إن سنده ضعيف ، ولم يرده أصحاب الكتب ؛ ولكنه اعتضد بالإجماع .

وفى الحديث الصحيح [(١)] : أمر النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بقَتْل كَعْب [(٢)] ابن الأشرف . وقولُه : مَنْ لكَعْب [(٢)] بن الأشرف ! فإنه يُؤْذِى اللهَ ورسولَه . ووجَّه إليه مَنْ قتله غِيلَةً دونَ دَعوةٍ ، بخِلاف غيره من المشركين [(٣)] ؛ وعلَّلَ قَتْلَه بأذاه له ؛ فدلَّ أنَّ قَتْلَه إيَّاهُ لغير الإشراكِ ؛ بل للأذى [(٤)] .

وكذلك قتل [(٥)] أبا رافع ؛ قال البراء : وكان يُؤْذِى رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ويُعِين عليه .

وكذلك أمْرُه يومَ الفَتْح [(٦)] بقَتْل ابْنِ خَطَل [٢٤٤] وجاريتَيْهِ اللَّتَيْن كانتا تُغَنِّيان بسبِّه صلى اللهُ عليه وسلم .

---

(١) رواه البخارى وغيره مسندا . صحيح البخارى : ٥ — ١١٥ ، ١١٦

(٢) وهو من يهود خيبر . وقول النبي صلى الله عليه وسلم معناه : من يقوم له ليقتله ، وهو حث وحض للأنصار على الانتقام .

وقد آذى الله ورسوله ، لأنه أعان بسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجاه ، ورثى قتلى المشركين ببدر ، وذهب إلى مكة ليحرض أهلها على حربه وأخذ الثأر ؛ فلما رجع وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مافعله قال : من لى بابن الأشرف .

(٣) غيلة : خفية ، من غير شعور أحد .

دون دعوة : للإسلام والرجوع عن الكفر ، بخلاف غيره من المشركين من مطاق الكفرة ؛ فإنه إنما يقتل بعد الدعوة والإنذار .

(٤) قال الخفاجى : فدلت هذه القصة على أن من سب النبى صلى الله عليه وسلم وآذاه من الكفار قتل .

(٥) رواها البخارى : صحيح البخارى : ٥ — ١١٧ . وأبو رافع : هو عبد الله بن أبى الحقيق .

(٦) يوم الفتح : يوم فتح مكة .

قال فى نسيم الرياض (٤ — ٣٩٢) : إن النبى صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة أمن الناس إلا أربعة رجال وامرأتين أمر بقتلهم ، ولو دخلوا تحت أستار الكعبة مستجيرين بها ؛ لأنهم كانوا أظهروا عداوته ، وأكثروا من ذمه ، وهجوه صلى الله عليه وسلم ؛ وكان لابن خطل هذا قينتان تغنيان بهجوه . وحديث قتل ابن خطل فى البخارى : ٥ — ١٨٨

وفى حديثٍ آخر [١] أنَّ رجلا كان يَسُبُّه ـ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال : مَنْ يَكْفِينى عَدُوِّى ؟ فقال خالدٌ : أنا . فبعثه صلى اللهُ عليه وسلم فقتَله .

وكذلكَ لم يُقِلْ [٢] جماعةً ممّن كان يُؤذِيه من الكفّار ويسُبُّه [٣] ، كالنّضْر بن الحارث [٤] ، وعُقْبة بن أبى مُعَيْط [٥] .

وعَهِد بقَتْلِ جَماعةٍ منهم قبل الفَتْح وَبعْدَه ، فقُتِلوا إلا مَنْ بادر بإسلامِهِ قبل القُدْرَة عليه [٦] .

وقد رَوَى البزّارُ ، عن ابن عباس ـ أنَّ عُقْبة بن أبى مُعَيط نادى : يا مَعْشَر قريش ، مالى أُقْتَل مِنْ بينكم صَبْراً [٧] ! فقال له النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم : بكُفْرِك وافترائك [٨] على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

---

(١) فى نسيم الرياض : لايعرف من رواه .

(٢) لم يقل : لم يترك . وفى ب : وكذلك أمر بقتل جماعة . والمثبت فى ا .

(٣) قال الخفاجى : فدل هذا على أنه لا فرق بين المسلم والكافر فى وجوب قتله بالسب ، لماروى عن أبى حنيفة وغيره ، من عدم قتل الكافر ؛ لأن كفره أشد منه ، كما يأتى .

(٤) النضر بن الحارث : كان شديد المداوة والإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتله صلى الله عليه وسلم فى بدر ؛ وهو الذى قالت أخته للنبى صلى الله عليه وسلم بعد قتله له أبياتا منها :

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

(٥) قال الخفاجى : كان عقبة بن أبى معيط قد أسر ببدر ، فقتله النبي صلى الله عليه وسلم منصرفه من بدر بعرق الظبية ، فقال : ياعاصم ، اضرب عنقه . فضرب عنقه .

ولما قدم للقتل قال : فلم تقتلنى يا محمد ؟ فقال : بمداوتك لله ولرسوله . فقال من للصبية ؟ قال: النار . فلما ضربت عنقه قال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى قتلك وأقر عينى منك .

(٦) بينكم؛من بين الكفار الذين كانوايؤذونه ويحضون على مقاتلته . قبل القدرة عليه : بأخذه وأسره كابن أبى سرح ، وكعب بن زهير .

(٧) صبرا : الصبر : أصل معناه الحبس ، ويقال لمن قتل فى غير حرب ودون غفلة منه بأن يقدم القتل : قتل فلان صبرا .

(٨) افتراؤك : تعمدك الكذب .

وذكر عبد الرزّاق (١) أنّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم سبّهُ رجلٌ ؛ فقال : مَنْ يكفيني عَدُوّى ؟ فقال الزبير : أنا ؛ فبارزه فقتله الزبير (٢) .

ورَوَى أيضا أن امرأةً كانت تَسُبُّه صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال : مَنْ يكفِينى عَدُوّى ؟ فخرج إليها خالد بن الوليد فقتَلَها (٣) .

=قال فى نسيم الرياض: من بنى أمية بن عبدشمس، وهو أحد المستهزئين ، وهو الذى ألقى سلاء الجزور عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلى ؛ فدعا عليهم ، فألقوا ـ بلعنة الله ـ فى قليب بدر .

(١) هو عبد الرزاق بن همام الحافظ ، أبو بكر الصنعانى .

(٢) المبارزة : أن يخرج رجل من طائفتين تقابلتا ، وينادى : من يبرز لى من الصف لقتاله ؟ فيعلم أينا أقوى وأشجع ، وأينا القاتل والمقتول . وهذا إنما يفعله من زادت قوة قلبه وشجاعته .

(٣) قال فى نسيم الرياض(٤ ـ ٣٩٥) : وقع بتونس أن رجلا قال لآخر : أنا عدوك وعدو نبيك ، فعقدله مجلس ، فأفتى بعض أئمة المالكية بأنه مرتد يستتاب . وأخذ كفره من قوله تعالى : من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين . (سورة البقرة ، آية ٩٨) .

وأفتى بعضهم بأن كفره كفر تنقيص، فلا يستتاب، وأخذ ذلك من كلام المصنف هنا فى هذه المرأة السابة ، ومن قضية خالد رضى الله عنه السابقة ، ومن إفتاء ابن عتاب رحمه الله السابق .

واعترضه بعض أئمتهم ممن مال إلى الأول بأنه نص فى أن كل ساب عدو ، ولا شك فيه ؛ وإنما الكلام فى عكس هذه القضية ؛ وهى لاتنعكس كنفسها ، بل قوله : أنا عدوك وعدو نبيك ربما أشعر بترفيع المقول له ، ذلك لأنا نجد الوضعاء يجعلون لأنفسهم منزلة بذلك ، يقول الواحد منهم : أنا عدو الأمير ، والأمير عدوى ؛ وقصده بذلك رفع نفسه ، لأنه فى نسبة من يعادى الأمير ، وبأن قتل خالد رضى الله عنه للمرأة المذكورة مذهب صحابى ، وإفتاء ابن عتاب إنما هو لأن ماذكر فى قصته صريح فى التنقيص .

فالتحقيق أن قائل مامر مرتد لامتنقص . هذا كله على قواعدهم من التفرقة بينهما ، أما على قواعدنا فالذى يظهر أنه ردة ، قاله ابن حجر فى الأعلام ملخصا .

ورَوَى (١) أن رجلا كذَب على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلّم، فبعث عَلِيًّا والزُّبير إليه ليقتُلاهُ.

ورَوَى ابنُ قانع (٢) أنّ رجلا جاء إلى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، سمعتُ أبى يقولُ فيك قولًا قبيحا فقتلْتُه! فلم يَشُقّ ذلك على النبي صلى اللهُ عليه وسلم (٣).

وبَلَغ المهاجرَ (٤) بن أبى أمية أميرَ اليمن لأبى بكر رضى اللهُ عنه أن امرأةً هناك فى الردّةِ (٥) غنّتْ بِسبِّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم، فقطع يدَها، ونزع ثَنِيّتها (٦)، فبلغ أبا بكر رضِى اللهعنه ذلك؛ فقال له: لولا مافعلْتَ لأمرتُك بقتْلها، لأنّ حَدّ الأنبياء ليس يشبهُ الحدودَ.

وعن ابن عباس: هجَت امرأةٌ من خَطْمَةَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم، فقال: مَنْ لى بها (٧)؟ فقال رجلٌ من قَوْمِها: أنا يا رسولَ الله. فنهض فقتلها، فأخبر النبي صلّى اللهُ عليه وسلم، فقال لا يَنْتَطِح فيها عَنْزَانِ (٨).

---

(١) رواه عبد الرزاق أيضا فى جامعه، عن سعيد بن جبير.
قال الخفاجى: المراد أنه أسند إليه افتراء فيه نقص له؛ ككونه ساحرا ونحوه، وإلا فمجرد الكذب عليه صلى الله عليه وسلم لايوجب القتل.

(٢) ابن قانع: هو الإمام الحافظ عبد الباقى بن قانع، أبو الحسين الأموى.

(٣) قال الخفاجى: ولو لم يكن قتله مشروعا كان أكبر كبيرة بعد الكفر، لما فيه من القتل والعقوق.

(٤) رواه ابن سعد، وابن عساكر. وفى ب: وبلغ — بتشديد اللام. والمهاجر — بضم الراء.

(٥) فى الردة: فى زمن ردة بعض أهل اليمن فى خلافة الصديق.

(٦) ثنيتها: هى السن المتقدمة.

(٧) من لى بها: من يقوم لأجل حق عليه بقتلها؟

(٨) لاينتطح فيها عنزان؛ أى ذهب دمها هدرا من غير مبالاة أحد به؛ وهو مثل ضربه =

وعن ابن عباس [١] أن أعمى كانَت له أمُّ وَلدٍ تَسُبُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فيزْجُرها [٢] فلا تَنزجِرْ ، فلما كانت ذات ليلةٍ جعلت تقَعُ فى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم وتَشْتمه ، فقتلها ، وأعْلَمَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بذلك ، فأهدرَ دَمَها [٣] .

وفى حديثِ أبى بَرْزةَ [٤] الأسلمى : كنتُ يوماً جالسا عند أبى بكر الصديق ، فغضِب على رجل من المسلمين ـ وحكى القاضى إسماعيلُ وغَيْرُ واحدٍ من الأئمة فى هذا الحديث أنه سبّ أبا بكر .

ورواه النَّسائى : أتيتُ أبا بكر ، وقد أغلظ لِرَجُلٍ فردّ عليه ؛ قال : فقلتُ : يا خليفةَ رسولِ الله ، دَعْنِى أضربْ عُنقَه . فقال : اجْلِسْ ، فليس ذلك لأحدٍ إلا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

= النبي صلى الله عليه وسلم للأمر الذى يقع من غير خاف فيه ولا نزاع ، لا ينتطحان ، وإنما يتشامان ويفترقان ، والنطاح إنما يكون بين التيوس والكباش . وأول من تكلم بهذا المثل هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذه المرأة هى عصماء بنت مروان، من بنى أمية . وكانت شاعرة تؤذى المسلمين ، وتهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحرض عليه .

والمثل فى النهاية ـ نطح . وجمهرة الأمثال : ٢ ـ ٤٠٣، والقصة كلها فى مغازى الواقدى: ١٣٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤

(١) فيما رواه أبو داود ، والحاكم ، والبيهقى ، وصححه .

(٢) يزجرها : يمنعها وينهاها .

(٣) فأهدر النبي دمها ؛ أى قال له : إنه هدر لا إثم فيه ولا عقوبة ، ولا شىء يخشى منه .

(٤) هو نضلة بن عبيد بن الحارث ، أسلم قديما ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ، وتوفى بالبصرة سنة أربع وستين .

وهذا الأثر رواه أبو داود ، والحاكم ، والبيهقى ، وصححوه .

قال القاضي أبو محمدِ بن نَصْر[١] : ولم يخالِفْ عليه أحد[٢] ؛ فاستدلَّ الأَئمةُ بهذا الحديث على قَتْل مَنْ أَغْضبَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بكلٍّ ما أغضبه[٣] أو آذاهُ أو سبَّه .

ومِنْ ذلك كتابُ عُمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة ، وقد استشاره فى قَتْلِ رجُل سبَّ عُمر رضِيَ اللهُ عنه ؛ فكتب إليه عُمر : إنه لا يَحِلُّ قَتْلُ امرئٍ مسلم بسَبِّ أحدٍ من الناس إلا رجلا سبَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ فمَنْ سبَّهُ [٢٤٥] فقد حَلَّ دَمُه .

وسأل الرشيدُ[٤] مالِكاً فى رَجُلٍ شتَم النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وذكر له أنَّ فقهاءَ العراقِ أفتَوْه بجَلْدِه[٥] ؛ فغَضِبَ مالك ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما بقاء الأُمةِ بعد شتم نَبيِّها ! مَنْ شتَم الأنبياء قُتِل ، ومَنْ شتَم أصحابَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم جُلِد[٦] .

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله تعالى : كذا وقع فى هذه الحكاية ،رواها غَيْرُ واحدٍ من أصحابِ مناقب مالك[٧] ومؤلِّفِى أخباره وغيرهم ؛ ولا أدرى مَنْ هؤلاء

(١) هو القاضي عبد الوهاب المالكى البغدادى الأديب ، وهو من شعراء اليتيمة .
(٢) ولم يخالف عليه أحد ، أى إن أبا بكر رضى الله عنه لما ذكر هذا بمحضر من الصحابة لم يخالفه فيه أحد منهم ؛ فدل على أن قتل من سب النبى صلى الله عليه وسلم اتفقت عليه الصحابة .
(٣) بكل ما أغضبه من قول أو فعل ، قل أو كثر .والحديث فى سنن النسائى : ٧-١٨٥، وفى مسند الطيالسى : ٣ ، ومسند أحمد : ٦٩ ، ٧٢
(٤) الرشيد : هارون الرشيد الخليفة العباسى .
(٥) بجلده ، أى بحد القذف .
(٦) قال فى نسيم الرياض (٤ ـ ٣٩٩) : وهذا مذهبه من غير فرق بين كافر ومسلم ، وبين التائب وغيره .
(٧) أى ممن اعتنوا بمناقبه ودونوها.

الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر[١] ! وقد ذكرنا مذهبَ العراقيين بقتلِه، ولعلَّهم مِمَّنْ لم يُشْهَرْ بعلمٍ، أو مَنْ لا يُوثق بفتواه، أو يميلُ به هواه[٢]، أو يكون ما قاله يُحْمَل عَلَى غير السبِّ؛ فيكون الخلافُ: هل هو سَبٌّ أو غير سَبّ؟ أو يكون[٣] رجع وتاب من سَبِّه، فلم يَقُلْه لمالك على أصله[٤]؛ وإلا فالإجماعُ على قتل مَنْ سبَّهُ كما قدَّمْناهُ.

ويدلُّ عَلَى قتلِه مِنْ جهة النَّظَر والاعتبار[٥] أنَّ مَنْ سَبَّهُ أو تنقَّصَه صلَّى اللهُ عليه وسلم فقد ظهرت علامةُ مَرضِ قلْبِه، وبُرهانُ سِرِّ طَوِيَّتِه[٦] وكفره؛ ولهذا ما حكمَ له كثيرٌ مِنَ العلماء[٧] بالردّة، وهى رواية الشاميين عن مالك والأوزاعى[٨]، وقولُ الثورى، وأبو حنيفة، والكوفيين.

والقولُ الآخَرُ أنه[٩] دليلٌ عَلَى الكُفْر، فيُقْتَل حَدًّا، وإنْ لم يحْكَمْ له

---

(١) بما ذكر من جلده وحده كحد غيره مما لم يذهب إليه أحد من أصحاب المذاهب، لاسيما إذا حمل على ظاهر إطلاقه.

(٢) الهوى: مايجىء من غير تحقيق ونظر للحق.

(٣) أو يكون؛ أى المستفق فيه.

(٤) على أصله: على الوجه الذى ورد، ووقع عليه، واستفق فيه، فأجيب بما قالوه.

(٥) من جهة النظر والاعتبار؛ أى التأمل فى موجبات القتل شرعا، ليعلم من تتبعها أن النظر والعقل السليم يدل عليه، والمراد به هنا القياس.

أردف به ماتقدم من الآيات والأحاديث وإجماع الأمة؛ ليفيد أنه ثابت بجميع الأدلة؛ والقياس يسمى اعتبارا فى القرآن، فى قوله تعالى: «فاعتبروا ياأولى الأبصار»؛ فإن الأصوليين اثبتوه بهذه الآية.

(٦) سر طويته: ما أخفاه فى نفسه، وأضمره فى قلبه.

(٧) له؛ أى على الساب والمتنقص. والردة: الخروج من الإسلام بقول أو فعل أواعتقاد قام عليه دليل، وهذا إذاكان مسلما لا كافرا أصليا.

(٨) الأوزاعى: عبد الرحمن، أبو عمرو. (٩) أنه؛ أى السب والتنقيص.

بالـكفْرِ إلاّ أنْ يكون متمادياً[1] عَلَى قوله ، غَيْرَ مُنْـكِرٍ له ، ولا مُقْلِعٍ[2] عنه ؛ فهذا كافر ؛ وقولُه : إمَّا صَرِيحُ كُفْرٍ كالتـكذيب[3] ونحوه ، أو من كلماتِ الاستهزاء والذمّ ، فاعترافُه بها وتَرْكُ تَوْبَتِه عنها دليلُ اسْتِحْلاَلِه لذلك ، وهو[4] كُفْرٌ أيضا ؛ فهذا كافر بلا خلاف[5] ؛ قال اللهُ تعالى فى مِثْلِه[6] : ﴿ يحلفون باللهِ ما قَالُوا ولقَدْ قالوا كلمةَ الـكفْرِ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ .

---

(١) إلا أن يكون الساب متماديا ، أى مستمرا فى مدى ومدة طويلة .

(٢) مقلع عنه : راجع عنه .

(٣) كالتكذيب له صلى الله عليه وسلم بإنـكار نبوته ، أو إنـكار ماجاء به للافتراء عليه .

(٤) وهو ؛ أى الاستحلال .

(٥) قال فى نسيم الرياض (٤ — ٤٠١) :

بلاخلاف ؛ أى بين المسلمين وأئمة الدين فى كفره . وهذا بناء على أنه فرق بين قتل المرتد وقتل الحد المذكور . وقد قال السبكى فى « السيف المسلول على من سب الرسول » : المرتد يقتل بالنص والإجماع؛ وتوبته مقبولة عند الأكثر إن لم يكن زنديقا ، وليس قتله كقتل الـكافر الأصلى كما فصله الفقهاء .

فعلم من هذا أن علة قتله ليس مطلق الـكفر ، بل خصوص مطلق الردة ؛ ولذا جعلها الغزالى من الجنايات الموجبة للعقوبة ؛ كالبغى والسرقة . وحكوه عن غيره ، وقالوا : قتل المرتد حد يسقط بإسلامه ؛ وهو التحقيق . ومن ظن أن من سماه حدا فهو عنده لايسقط بالإسلام فهو مخطىء .

والحد : هو العقوبة المقدرة من جهة الشارع ، وهل المعاقب عليه فى الردة خصوص الـكفر بعد الإسلام ، أو قطع الإسلام بالـكفر ؛ وهو معنى غـير الأول ؛ فالساب المسلم مرتد فقتله حد ، وكذا الـكافر ؛ فالخلاف فى قتله ؛ هل هو حد أو كفر — لفظى لم تظهر له فائدة .

(٦) سورة التوبة ، آية ٧٤ ، والذين يحلفون بالله هم المنافقون ، ما قالوا : الاستهزاء الذى قالوه فى غزوة تبوك من أن من يزعم أنه سيفتح قصورِ الشام وحصونه شر من الحمير ، هيهات ! هيهات !

قال أهل التفسير : هي قولهم : إنْ كان ما يَقُولُ محمد حقًّا لنَحْنُ شرٌّ من الحمير[١] .

وقيل : قولُ بعضِهم : ما مَثَلُنا ومثل محمدٍ إلا قول القائل[٢] : سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ ؛ ولَئِنْ رجَعْنَا إلى المدينة ليُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ[٣] .

وقد قيل : إنَّ قائل مثل هذا إنْ كان مُسْتَتِرًا[٤] به إنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الزِّنْدِيق يُقْتَل ، ولأنه قد غَيَّرَ دِينَه[٥] ، وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ غَيَّرَ

(١) شر من الحمير ؛ أي أجبن منها حقا وبلادتنا .

(٢) قول القائل في مثل قديم ، يضرب لمن يحسن لأحد فيسيء إليه . والمثل في جمهرة الأمثال : ١ — ٥٢٥

(٣) الأعز — يريد نفسه، والقائل هو رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول . والأذل : يعني بهم المؤمنين كلهم .

وكان سبب هذه المقالة أن رجلا من المهاجرين ورجلا من الأنصار جرى بينهما أمر ، فصاح الأنصاري : يا للأنصار ! والمهاجري : يا للمهاجرين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوها ، فإنها جاهلية مستقذرة . فقال ابن أبي : أو فعلوها ؟ ثم قال لقومه : ماذا فعلتم بأنفسكم ! أنزلتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم وطعامكم ! أما والله لو أمسكتم عنهم لم يركبوا رقابكم ، وأوشكوا أن يتحولوا عن محمد ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا عنه . . . .

فلما بلغ زيد رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاله أنكر ، وحلف لرسول الله ، فصدقه ، وحزن زيد حتى نزل القرآن بتصديقه .

فقال عمر : دعني أضرب عنقه . فأبى رسول الله ، وتكرم بكفه عنه لأجل ولده .

فلما أراد ابن أبي دخول المدينة منعه ابنه رضي الله عنه ، وقال : لا تدخلها حتى تقول : إنك الأذل ، ويأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا ضربت عنقك .

فقال : ويحك ! أفاعل أنت ؟ قال : نعم . فلما رأى الجد منه قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا .

(٤) مستترا به عن المسلمين بحيث لم يظهره لهم ولم يسمعوه منه .

(٥) يقتل، لأنه مثل الزنديق في إخفائه الكفر وإظهاره الإيمان بفيه ، فيقتل لذلك . ولأنه قد غير دينه فصار كالمرتد .

دِينَه فاضرِبوا عُنقه(١) » ؛ ولأنَّ لِحُكمِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فى الْحُرْمةِ(٢) مَزِيَّةً على أمتِه ؛ وسابُّ الحرِّ مِنْ أُمَّتِه يُحدُّ(٣) ، فكانت العقوبةُ لَمنْ سبَّه صلى اللهُ عليه وسلم القَتْلَ ، لعظيمِ قَدْرِهِ ، وشفوفِ مَنْزِلته على غَيْره(٤) .

فصل

فإنْ قلْتَ : فلِمَ لَمْ يَقْتُل النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم اليهوديَّ الذى قال له : السَّامُ عليكم ؛ وهذا دعاء عليه(٥) ؛ ولا قتلَ الآخرَ الذى قال له : إنَّ هذهِ لقسمةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ اللهِ(٦) ، وقد تأذَّى النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ ذلكَ ؛ وقال : قد أُوذِيَ موسى بأكثر من هذا فصبر ؛ ولا قتل المنافقين الذين كانوا يُؤْذُونَه فى أكثر الأحيان(٧) .

فاعلم — وَفَّقَنا اللهُ وإياك — أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وَسلم كان أولَ الإسلامِ يَسْتَأْلِفُ(٨) عليه الناسَ ، ويُميلُ قلوبَهم ، ويحبِّبُ إليهم الإيمانَ ، ويزيِّنه فى قلوبهم ،

(١) فاضربوا عنقه إن لم يتب . وقيل بقبول توبته برجوعه لدينه .
واستدل بهذا الحديث على قتل الزنديق من غير استتابة . وقال الشافعى : تقبل توبته مطلقا كالمرتد . وعن أبى حنيفة روايتان .

(٢) الحرمة ، أى احترامه وتوقيره وصيانة جانبه . مزية على أمته ، فلا يسوى بينه وبينهم فيما يخصه ؛ فيزاد فى جزاء من سبه على حد غيره لرفعة محله .

(٣) يحد حد قذف بشروطه إن استحقه ، وإلا يعزر .

(٤) شفوف منزلته : زيادة منزلته .

(٥) رواه البخارى وغيره : صحيح البخارى : ٨ — ١٥

(٦) الذى قال ذلك هو ذو الخويصرة التميمى الخارجى ، ويقال له حرقوص ، وكانت هذه القسمة يوم حنين . وهذا فى حديث رواه البخارى أيضا : صحيح البخارى : ١ — ٣١

(٧) قال الخفاجى : فكيف هذا مع ماتقدم من الأدلة والإجماع الذى حكاه المصنف ؟ وقوله : فاعلم — جواب عن هذا الإشكال .

(٨) يستألف : يتألف عليه الناس ؛ أى يطلب ألفتهم وتأنيسهم لقرب عهدهم بالإسلام ، وفيهم الأعراب الجفاة ، حتى يثبتهم على الإسلام ، فيداوى أمراض قلوبهم بعفوه وكرمه .

ويداريهم[١] ، ويقول لأصحابه : « إنما بُعثتم مبشِّرين ولم تُبعثوا منفرين[٢] » .

ويقول : « يَسِّروا وَلا تُعسِّروا ، وسكِّنوا[٣] ولا تنفِّروا » .

ويقول [٢٤٦] : « لايتحدّثُ الناسُ أنّ محمداً يقتلُ أصحابَه » .

وكان صلى اللهُ عليه وَسلم يُدَاري الكفّار[٤] وَالمنافقين، وَيُجمِلُ صُحْبَتَهم[٥] ، وَيُغضِي[٦] عنهم ، ويحتملُ مِنْ أذاهم ، وَيصبرُ عَلَى جفائهم[٧] ما لايجوزُ لنا اليوم الصَّبْرُ لهم عليه ؛ وكان يُرْفِقُهم[٨] بالعطاء وَالإحسانِ ؛ وَبذلك أمره اللهُ تعالى ؛ فقال تعالى[٩] : ﴿ وَلا تزَالُ تَطّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قَلِيلاً منهم ، فَاعْفُ عنهم وَاصْفَحْ ، إنّ اللهَ يحبُّ المُحْسنين[١٠] ﴾ .

---

(١) يداريهم : يعاملهم بملاطفته لهم ورفقه بهم .

(٢) ميسرين : مسهلين مساحين ، لا معسرين مشددين على من قرب عهده بالإسلام . منفرين للناس عن الإسلام ، أى بشدة وغلظة تحمل الناس على نفورهم عنكم بمفارقتهم وتشتتهم عنكم .

(٣) وسكنوا ، أى أقروا الناس على ماهم عليه ، ولا تكلفوهم بما لم يألفوه : صحيح البخارى : ٨ — ٣٦

(٤) يدارى الكفار ؛ بتلطفه بهم وإحسانه وعفوه عنهم . (٥) ويجمل : يحسن .

(٦) ويغضى عنهم : الإغضاء : العفو والتجاوز والسكوت .

(٧) على جفائهم : على غلظة طباعهم المقتضية لعدم الأدب فى الأقوال والأفعال .

(٨) يرفقهم : يصلهم وينفعهم .

(٩) سورة المائدة ، آية ١٣

(١٠) على خائنة منهم ؛ على طائفة خائنة ، أو خيانة تصدر منهم في حقك، أو فعلة خائنة ، أو نفس خائنة. إن الله يحب المحسنين: الذين يجزون السيئة بالحسنة ، ويتجاوزون عما سلف .

قال الخفاجى : وهذه الآية نزلت فى اليهود الذين كانوا فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم؛ بيانا لأنهم من شأنهم الخيانة ، وأنه موروث آبائهم ؛ وأمره بالعفو عنهم بشرط المعاهدة أو نحوها . أو هذه الآية منسوخة .

والقليل المستثنى من آمن به صلى الله عليه وسلم منهم كابن سلام .

وَقال تعالى[(١)] : ﴿ ادْفَعْ بالَّتِى هِىَ أَحْسَن فإذَا الّذِى بَينَكَ وَبَيْنَه عَدَاوَةٌ كأَنّه وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وذلك لحاجةِ النَّاسِ للتَّألُّف أولَ الإسلام ، وجَمْعِ الـكلمةِ عليه ؛ فلما استقرَّ وأظهرهُ اللهُ عَلَى الدِّين[(٢)] كلِّه قتَلَ مَنْ قَدَرَ عليه ، واشتهر أمْرُه ، كفِعْله بابْنِ خَطَل ، ومَنْ عَهِد بقَتْلِهِ يَوْمَ الفَتْحِ[(٣)] ، ومَنْ أمكنه قتْــلُه غِيْلَةً[(٤)] مِنْ يهودَ وغيرِهم؛أو غَلبةً[(٥)] مِمَّنْ لم[(٦)] يَنْظِمْه قَبْلُ سِلْكُ صُحْبته،والانخراط في جُمْلَة[(٧)] مُظْهِرِى الإيمانِ له مِمَّنْ كانَ يُؤْذِيه ؛ كابن الأشرفِ، وأبى رافع ، والنَّضرِ ، وعُقْبة[(٨)] .

وكذلك نَذَر[(٩)] دَمَ جماعةٍ سِوَاهم ؛ كَـكَعْب بن زهـــــير[(١٠)] ،

---

(١) سورة فصلت ، آية ٣٤

أى لايزال إحسانك إليه حتى يصيره كالصديق الذى بينك وبينه مصافاة وموالاة .

والحميم : الصديق المصافى .

(٢) على الدين كله ؛ أى على كل دين وملة .

(٣) وذلك يوم الفتح ؛ حين أمر بقتله يوم فتح مكة ، ولو وجد متعلقا بأستار الـكعبة ومن عهد بقتله : أى أوصى المسلمين بقتله يوم فتح مكة .

(٤) غيلة : خفية ومخادعة ، كابن الأشرف ، وابن أبى الحقيق .

(٥) أو غلبة ، أى وقتل أيضا من أمكنه قتله من غير إخفاء ، أى بطريق الغلبة والقهر ، كأبى عزة الجمحى .

(٦) لم ينظمه : لم يشمله .

(٧) سلك صحبته : بإسلامه ومتابعته له صلى الله عليه وسلم . والانخراط : الدخول .

(٨) النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط .

(٩) نذر : أوجب ، أو هى أهدر .

(١٠) كان كعب بن زهير قد قال بعد إسلام أخيه شعرا يعرض فيه بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فـكتب إليه أخوه كتابا يقول فيه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دماء قوم كهبيرة ابن أبى وهب ، وابن الزبعرى ؛ فإن كان لك حاجة فى نفسك فطر إليه ، فإنه — صلى الله عليه وسلم — يقبل من أتاه تائبا . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى =

وابن الزِّبَعْرَى(١) وغيرهما ممَّنْ آذاه حتى أَلْقَوْا بأيديهم(٢) ، ولَقُوه مسلمين .

وبَوَاطِنُ المنافقين مُسْتَتِرَةٌ ، وحُكْمُهُ صلّى اللهُ عليه وسلم على الظاهر(٣) ، وأكثَرُ تلك الكلمات(٤) إنما كان يَقُولُها القائلُ منهم خُفْيَةً ومع أمثاله ، ويحلفونَ عليها إذا نُميت(٥) ، وينكرونها ، ويحلفون بالله ما قالُوا ، ولقد قالوا كلمةَ الكُفْرِ(٦) ؛

= الصبح ، فلما فرغ جلس بين يديه ، ووضع يده فى يده ، وقال : يارسول الله ؛ إن كعبا جاء تائبا مسلما ، أتقبله ؟ قال : نعم — وهو لا يعرفه . فقال : أنا كعب ، فوثب عليه رجل من الأنصار ، وقال : يارسول الله ؛ دعنى أضرب عنقه ، فقال : دعه ، فإنه جاء تائبا . فغضب كعب على الأنصارى ، لأنه لم يقل فيه أحد من المهاجرين إلا خيرا ، وأنشده — صلى الله عليه وسلم — قصيدته المشهورة ، وألبسه بردته .

(١) ابن الزبعرى : هو عبدالله بن الزبعرى ، كان شاعرا مجيدا شجاعا ، من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطول لسانه وسفهه .

وكان قد فر هو وزوجته أم هانىء بنت أبى طالب إلى نجران ، فقالوا له : ماوراءك ؟ فقال : إن محمدا قتل قريشا ، وفتح مكة ، وأراه سائرا لكم .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، فلما رآه قال : هذا ابن الزبعرى فى وجهه نور الإسلام ، فوقف عنده ، فقال : السلام عليكم ؛ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والحمد لله الذى هدانا للإسلام ؛ وقد أجلبت على عداوتك حتى هربت إلى نجران ، وأنا أريد ألا أقرب الإسلام أبدا ؛ ثم أراد الله بى خيرا ؛ فألقاه فى قلبى ، وحببه إلى ، وكره ما كنت فيه من الضلالة واتباع مالا ينفع ولا يعقل ؛ من حجر يعبد ويذبح له .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام يجب ماقبله .

(٢) ألقوا بأيديهم : انقادوا له واستسلموا .

(٣) على الظاهر ، وهو الإسلام المانع من قتلهم ؛ وهذا لأجل التشريع لأمته بعده ، وإن أطلعه الله على أسرارهم .

(٤) وأكثر تلك الكلمات ؛ هى التى قصد المنافقون بها تنقيصه صلى الله عليه وسلم وذمه .

(٥) إذا نميت : نقلت وبلغت لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٦) كلمة الكفر ؛ أى الكلمة التى يكفر بها قائلها ، أو التى إنما تصدر عن الكفرة وأعداء الدين .

وكان مع هذا يَطْمَعُ فى فَيْئَتهم ، ورجوعهم إلى الإسلام ، وتَوْبَتِهم ؛ فيَصْبِرُ صلّى اللهُ عليه وسلم على هَنَاتهم[(١)] وجَفْوَتِهم ، كما صبر أُولو العَزْمِ[(٢)] من الرُّسلِ حتى فاء كثير منهم باطنا ، كما فاء ظاهراً[(٣)] ، وأخلص سِرًّا كما أظهر جَهْراً ، ونفع اللهُ بَعْدُ بكثير منهم ؛ وقام منهم للدِّين وُزَراء[(٤)] وأعوانٌ وحُماة وأنصار كما جاءت به الأخبار .

وبهذا أجاب بَعْضُ أئمتنا رَحِمَهم اللهُ عن هذا السؤال[(٥)] .

وقال : لعله لم يَثْبُتْ عنده صلّى اللهُ عليه وَسلم من أقوالهم ما رُفِع[(٦)] ؛ وإنما نقله الواحدُ ومَنْ لم يَصِلْ رُتْبَةَ الشهادةِ فى هذا الباب[(٧)] ؛ من صَبِىٍّ أوْ عَبْدٍ أو امرأةٍ ؛ والدماء لا تُسْتَبَاحُ إلّا بِعَدْلَيْنِ[(٨)] .

وعلى هذا يُحْمَلُ أمْرُ اليَهُود فى السلام ، وأنهم لوَوْا[(٩)] ألسِنَتَهم ، ولم يبيِّنُوه ؛

---

(١) هناتهم : يريد قبائحهم . وجفوتهم ؛ أى ماصدر عنهم من الأقوال والأفعال القبيحة لغلظ طباعهم وسوء أدبهم .

(٢) أولو العزم من الرسل : هم الذين كانوا ذوى عزيمة قوية وثبات فى دعوة الناس إلى الدين .

(٣) فاء : رجع عن نفاقه ، فخلص إيمانه فى قلبه .

(٤) وزراء : أعوان .

(٥) فى نسيم الرياض (٤ — ٤١٠) : والحاصل أنه كان لحكمة ؛ وهو أنه وقع والإسلام لم يقو القوة البالغة ، فصبر لعل الله يهديهم ويقوى بهم الدين ؛ وقد وقع ذلك للكثير منهم ، وكان الصبر عليهم والعفو عنهم جائزاً له — صلى الله عليه وسلم .

والجواب الثانى : أنهم كانوا يخفونه ويتكلمون به بعجلة وخفض أصوات ، ولا يطلع الناس عليه ، والعقاب على الكفر إنما يكون على الظاهر دون الخفى .

(٦) مارفع : ماوصل إليه وبلغه .

(٧) فى هذا الباب ؛ أى النوع المقتضى للقتل .

(٨) بعدلين : ذكرين حرين . وإعلام الله تعالى له بعد حكمه بالظاهر ونفوذ حكمه لا يخالفه .

(٩) اللى: فتل الألسنة وليها بسرعة حق يخفى ويظن أنهم قالوا : السلام . . . (صحيح البخارى : ٨ — ١٥)

أَلَا تَرَى كيف نَبَّهَتْ عليه(١) عائشةُ ؛ ولو كان صَرَّحَ بذلك لم تنفَرِدْ بعِلْمِه ؛ ولهذا نبَّه النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم أصحابه على فِعْلهم ، وقِلّةِ صِدْقِهم في سلامِهم، وخيانتِهم(٢) في ذلك ليًّا بألسنتهم،وطَعْنًا في الدِّين ؛ فقال: إنَّ اليهودَ إذا سلَّمَ أحدُهم فإنما يَقُولُ : السَّامُ عليكم ، فقولوا : عليكم .

وكذلك قال بعضُ أصحابنا البَغْدَاديين : إنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم لم يَقْتُل المنافقين بعِلْمِه فيهم(٣) ؛ ولم يَأْتِ أنه قامت بيِّنَةٌ على نِفَاقِهم ؛ فلذلكَ تركهم .

وأيضا فإنَّ الأَمْرَ كان سِرًّا وباطنا ، وظاهِرُهم الإسلامُ والإيمانُ ؛ وإنْ كان مِنْ أهلِ الذمّة بالعَهْدِ والجِوار(٤) ، والناسُ قَرِيبٌ عَهْدُهم بالإسلامِ ، ولم يتميَّزْ بَعْدُ الخبيثُ من الطيب(٥) .

وقد شاعَ عن المذكورين(٦) في العَرَبِ كَوْن مَنْ يُتَّهَم بالنِّفَاق(٧) من جملة

---

(١) نبهت عليه عائشة حيث ردته عليهم بقولها : عليكم السام والذم واللعنة ؛ ونهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرها بالرفق ، وقال : إنى أرد عليهم فيستجاب لى ولا يستجاب لهم . (٢) وخيانتهم فى ذلك لله ورسوله .

(٣) بعلمه فيهم وبما فى نفوسهم ، مع أنه عالم بهم،وأطلعه الله على سريرة نفاقهم ، وإن كان له صلى الله عليه وسلم أن يقضى بعلمه .

قال الخفاجى : وإنما المانع عنه أنه صلى الله عليه وسلم أمر بالعمل بالظاهر فى أكثر أحواله تشريعا لأمته،وكان ذلك فى ابتداء الإسلام ، تأليفا للقلوب حتى يهديهم الله ، ولا تنفر قلوب من يريد الدخول فى الإسلام وتكف ألسنة الطاعنين بقولهم : إنه صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه .

(٤) العهد : الميثاق بألا يغدر به . والجوار : الأمان .

(٥) لم يتميز بعد الخبيث من الطيب : أى لم يعلم من أخلص فى إسلامه فطابت سريرته ، أو لم يخلص فى إسلامه ، ففيه بقية من خبث الكفر لم تظهر لغيره .

(٦) المذكورين : ممن كان منافقا يظهر إسلامه .

(٧) يتهم بالنفاق : أى يتهمه خاص المؤمنين المهاجرين الذين نور الله بصائرهم .

المؤمنين وصَحابة سيِّد المُرسَلين ، وأنصار الدِّين بحُكمِ ظاهِرهم ؛ فلَوْ قتَلَهم النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم لنفاقهم وما يَبْدُرُ[1] منهم ، وعِلْمِه بما أسَرُّوا [٢٤٧] فى أنفسهم لوجَدَ المنفِّرُ[2] ما يقولُ ، ولارْتابَ الشاردُ[3] ، وأرْجفَ المعانِدُ[4] ، وارتاعَ[5] من صحبةِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، والدخولِ فى الإسلام غيرُ واحد ، ولزَعَمَ[6] الزاعِمُ ، وظنّ العدوّ الظالِمُ ـ أنّ القتْلَ إنما كان للعداوةِ وطلبِ أخْذِ التِّرَةِ[7] .

وقد رأيتُ معنى ما حرّرْتُه منسوبا إلى مالك بن أنَس رحِمَه الله ؛ ولهذا قال صلّى اللهُ عليه وسلم : لايتحدّثُ الناسُ أنّ محمداً يقْتُلُ أصحابَه . وقال : أولئك[8] الذين نَهانِى اللهُ عن قتْلهم .

وهذا بخلافِ إجراءِ الأحكام الظاهرةِ عليهم من حدُودِ الزِّنَا والقَتْلِ وشِبْهِهِ ، لظهورها واستواءِ الناسِ فى علمها .

وقد قال محمد بن المَوّاز[9] : لو أظهر المنافقون نِفاقَهم لقَتلهم النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ وقاله القاضى أبو الحسَن بن القَصّار .

---

(١) يبدر منهم : يخرج منهم بعجلة . وفى ب : ينذر .

(٢) المنفر : الذى يقصد تنفير الناس وصدهم عن الدخول فى الإسلام من المشركين وأعداء الدين .

(٣) ولارتاب الشارد : وقع فى ريبة لخوفه من القتل من كان شاردا عن الدين ضالا من الجاهلية والأعراب أباةالضيم .

(٤) أرجف المعاند : أتى بالأقوال الكاذبة التى يقصد بها التشنيع على الإسلام من كفر عنادا ، كبعض المشركين الذين كانوا يحبون إشاعة مثله .

(٥) وارتاع : خاف من يسمع الأراجيف وعلم بالقتل .

(٦) زعم الزاعم : وجد وصلة لكذبه من أراد الافتراء على الله ورسوله .

(٧) أخذ الترة : أخذ بثأر له عند العرب .

(٨) أولئك ، أى المنافقون الذين لم أقتلهم ، مع العلم بنفاقهم .

قال فى نسيم الرياض : (٤ — ٤١٥) : وهذا الحديث لم يخرجوه .

(٩) من أئمة المالكية .

وقال قتادةُ في تفسير قوله تعالى[١] : ﴿ لئِنْ لم يَنْتَهِ المنافقون والذينَ في قلوبهم مَرَضٌ والمُرْجِفُونَ في المدينة لنُغْرِينَّكَ بهم ثم لايجاورونكَ فيها إلا قليلا . مَلْعُونين أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تقتيلا . سنة اللهِ في الذين خلَوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[٢] .

قال : معناه إذا أظهروا النِّفَاقَ[٣] .

وحكى محمد بن مسلمة في المبسوط ، عن زيد بن أسلم ـ أنَّ قولَه تعالى[٤] : ﴿ يأيُّها النبيُّ جاهدِ الكفَّارَ والمنافقين واغْلُظ عليهم ﴾، نَسَخَها ما كان قَبْلها[٥] .

(١) سورة الأحزاب ، آية ٦٠ ـ ٦٢

(٢) الذين في قلوبهم مرض ، أي فساد . والمراد المنافقون . والمرجفــون في المدينة ، من الإرجاف؛ وهو إشاعة الافتراء والكذب وهم المنافقون؛ لأنهم كانوا يشيعون أخبارا تسوء المؤمنين ؛ كقوة عدوهم ، وإصابة بعض سراياهم. لنغرينك بهم ؛ أي نأمرك بقتلهم ونـكالهم . لايجاورونك فيها ؛ أي لايتيسر لهم الإقامة بها ، لقتلهم أو طردهم . إلا قليلا: إلا زمانا قليلا ، لوقوع ما أغرينا بهم من القتل أو الإجلاء . ملعونين : مطرودين مبعدين عن رحمة الله تعالى في الدنيا . ثقفوا : أخذوا وتمـكن منهم إذا وجدوا .

(٣) في نسيم الرياض (٤ ـ ٤١٦) : قيل : ماقاله قتادة مخالف للظاهر ؛ وإنما المراد نهيهم عن أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ؛ ولذا قال الثعالبي في تفسيره : إن ابن مسعود قال : جهاد المنافقين الإنـكار عليهم، والتعبيس في وجوههم، وترك الرفق بهم . وقيل : إنها نسخت.

(٤) سورة التوبة ، آية ٧٣

(٥) ما كان قبلها ؛ أي قبل نزولها من العفو والصفح عن أذيتهم له صلى الله عليه وسلم الذي كان قبل في قوله تعالى : فأعرض عنهم وتوكل على الله ؛ فإنه نهى أولا عن قتل المنافقين ، فنسخ بهذه الآية ، كما قاله الواحدي في سورة النساء .

قال في نسيم الرياض (٤ ـ ٤١٦) :

ومجاهدة المنافقين عند الحسن وقتادة إقامة الحدود عليهم ، وعند مجاهد بالوعيد وإفشاء أسرارهم .

ومن ذكر هذا وقال : لانسلم أنها منسوخة لم يصب ؛ لأنه منع للنقل وهو خط .

ويؤيد تأويل الجهاد في الآية قوله : واغلظ عليهم ، أي شدد وعيدهم ، وأنهم أجمعوا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل أحدا من المنافقين إلى أن توفاه الله تعالى .

وقال بعضُ مشايخنا: لعلّ القائلَ: هذه قسمةٌ ماأُرِيدَ بها وَجْهُ الله[١] ؛ وقولَه: اعْدِلْ ـ لم يَفْهَم النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلّم مِنْهُ الطّعْنَ عليه والتهمةَ له ؛ وإنما رآها مِنْ وَجْهِ الغَلَط فى الرّأى، وأمور الدنيا، والاجتهادِ فى مصالِح أهلها ؛ فلم يرَ ذلك سبًّا[٢]، ورأى أنه من الأذى الذى له العَفْوُ عنه والصّبْرُ عليه ؛ فلذلكَ لم يعاقِبْه .

وكذلك يُقَال فى اليهود إذا قالوا : السامُ عليكم ـ ليس فيه صريحُ سَبٍّ ولادعاء إلا بما لابُدَّ مِنْهُ من الموتِ الذى لابُدّ من لحاقِهِ جميعَ البَشَرِ[٣] .

وقيل : بل المرادُ[٤] تَسْأمون دِينَكم . والسأم والسآمةُ : المَلال .

وهذا دعاء على سآمةِ الدِّين ليس بِصَريحِ سَبٍّ ؛ ولهذا تَرْجَم البخارى على هذا الحديث : بابٌ ـ إذا عَرّض[٥] الذمّيُّ أو غَيْرُه بسبِّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم .

قال بعضُ علمائنا: وليس هذا بتعريضٍ بالسبِّ؛ وإنما هو تعريضٌ بالأذى[٦] .

قال القاضى أبو الفضل[٧] : قَدْ قَدّمْنا أنّ الأذى والسبّ فى حقّه صلى اللهُ عليه وسلم سواء .

وقال القاضى أبو محمد بن نَصْر مُجِيبًا عن هذا الحديث ببعضِ ماتقدّم ؛ ثم قال:

---

(١) صحيح البخارى : ٨ ـ ٣١

(٢) قال الخفاجى : ويبعد هذا أنه تغير وجهه الشريف ، وقال : يرحم الله أخى موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

(٣) فكل نفس ذائقة الموت .

(٤) المراد : المعنى الذى قصدوه . تسأمون دينكم : يضجرون من مشاقه فتملونه وتتركونه.

(٥) صحيح البخارى : ٩ ـ ٢٠ ، إذا عرض ، أى ذكر بطريق التعريض دون التصريح .

(٦) بالسب : لأنه الذم بصفات النقص التى لا تليق ، وإنما هو تعريض بالأذى ؛ أى بما يؤذى ويؤلم .

(٧) هو المؤلف : القاضى عياض .

ولم يذكُرْ فى الحديث: هل كان هذا اليهودىُّ[1] من أهلِ العَهْد والذمّةِ أو الحرب[2]، ولا يُتْرَكُ مُوجبُ الأدلّة للأمر المُحْتَمل .

والأولى فى ذلك كله والأظهرُ مِنْ هذه الوجوهِ مَقْصِدُ الاستئلافِ[3] والمدارة على الدين لعلهم يؤمنون .

ولذلك تَرْجَم البخارى على حديثِ القسمةِ والخوارج[4] : باب ـ مَنْ ترك قِتالَ الخوارج للتألُّف .

ولئلا يَنْفِرَ الناسُ عنه ، ولِمَا ذكَرْنا معناهُ عن مالك[5] ، وقرّرْناهُ قَبْلُ .

وقد صبر لهم صلّى اللهُ عليه وسلم على سِحْرِه وسَمّه[6] ، وهو أعظمُ مِنْ سبّه إلى أنْ نصَرَهُ اللهُ عليهم، وأذِنَ له فى قَتْلِ مَنْ حيَّنَه[7] منهم وإنزالِهم من صَيَاصِيهم[8]،

(١) هذا اليهودى : الذى صدر عنه ماذكر .

(٢) من أهل العهد ، أى ممن وقع بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد ؛ والذمة : الأمان . أو الحرب ؛ أى من المحاربين وأعداء الدين الذين لا عهد ولا ذمة لهم ، فينتقض عهده أو يهدر دمه .

(٣) مقصد الاستئلاف ، أى قصد تأنيسهم وتأليف قلوبهم .

(٤) حديث القسمة ، أى الحديث الذى ذكر فيه قسمة الغنائم ، وقد قال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض المنافقين : اعدل ، ماهذه قسمة أريد بها وجه الله .

وحديث الخوارج : كذى الخويصرة . وقد تقدم الحديث وتخريجه .

(٥) ذكرنا عن مالك ، من أنه تركه لئلا يرجف الناس ويرتاعوا ، ولئلا يجد الطاعن فى الدين طريقا لطعنه فيه .

(٦) أى قد صبر صلى الله عليه وسلم على أعظم من السب والأذى ، فصبر لهم على سحره الذى فعله اليهود . وسمه ؛ أى سم المرأة اليهوديه له ذراع شاة .

(٧) حينه : أهلكه ، من الحين وهو الهلاك .

(٨) وأنزلهم من صياصيهم : أخرجهم من حصونهم وقلاعهم ومساكنهم العالية بها . =

وقذفَ فى قلوبهم الرُّعْبَ، وكتب[1] [٢٤٨] على مَنْ شاء منهم الجَلَاء، وأخرجهم من دِيارِهم، وخرَّب بيوتَهم بأيديهم وأيدى المؤمنين وكاشفَهم[2] بالسَّبِّ؛ فقال: يا إخوةَ القِرَدةِ والخنازير[3]، وحَكَّم فيهم سيوفَ المسلمين، وأجلاهم مِنْ جُوَارِهم

= والذين أنزلهم من حصونهم هم بنو قريظة، كانوا عاهدوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه عدوا، فلما تجمعت الأحزاب نقضوا العهد، وكان ابن أخطب من بنى النضير أتى كعب بن أسد القرظى رئيس قريظة الذى عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما أتاه ابن أخطب أقفل باب حصنه، فناداه: افتح، فقال: اذهب فإنك مشئوم، وقد عاهدت محمدا عهدا لا أنقضه، وإنه يفى بعهده؛ فلم يزل يحتال عليه حتى أدخله حصنه، ولم يزل يفتل فى الذروة والغارب حتى نقض عهده.

فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل جماعة لينظروا هل نقضوا عهدهم أم لا.

فلما أتوهم، وقالوا لهم: نبذتم عهد رسول الله. قالوا: من رسول الله؛ وشاتموهم، فأتوه عليه الصلاة والسلام، فأخبروهم بخبر، وأنهم ظاهروا أبا سفيان؛ فأتاه جبريل وقال له: انهض إلى بنى قريظة؛ فإنى تركتهم فى زلزال وبلبال.

فأتاهم وناداهم: يا إخوة القردة والخنازير؛ فقالوا: يا أبا القاسم؛ ما كنت فحاشا.

ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه لحلف كان بينه وبينهم؛ فظنوه يتلطف بهم؛ فحكم فيهم بقتل المقاتلة منهم وسبى الذرية، وأن يعطى عقارهم المهاجرين دون الأنصار، لأنهم لا عقار لهم إذ ذاك.

فقال صلى الله عليه وسلم: قضى فيهم بحكم الله.

فأتى بهم سوق المدينة، وضرب أعناقهم، وهم قريب من تسعمائة.

(١) كتب: قدر. الجلاء: خروجهم من بلادهم. والذين أجلاهم بنو النضير لما نقضوا العهد إذهموا أن يلقوا على رسول الله حجرا، فأخبره جبريل بذلك، فقام من عندهم؛ ثم رجع لهم وحاصرهم أياما؛ ثم ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب، فسألوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجليهم ويبيح لهم مقدار ما يحملونه معهم؛ فأجابهم، وفيهم نزلت سورة الحشر، فكان أحدهم يخرب بيته بيده..

(٢) كاشفهم: واجههم.

(٣) أى الشابهين لهما فى الخسة وقبح المنظر.

[وأورثهم أرضَهم ودِيارَهم وأموالَهم ، لِتَـكونَ كلمةُ اللهِ هى العُلْيا وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى][١] .

فإن قلتَ : فقد جاء فى الحديث الصحيح[٢] ، عن عائشة رضى الله عنها ـ أنه صلَّى اللهُ عليه وسلم ما انتَقَمَ لِنَفْسه[٣] فى شَىْءٍ يُؤْتَى إليه قطُّ ، إلا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمةُ الله ، فينتقم لِلهِ[٤] .

فاعلَمْ أنَّ هذا لا يقْتَضِى أنه لم يَنْتَقِمْ ممَّنْ سبَّه أو آذاه أو كَذَّبه ؛ فإنَّ هذه[٥] من حُرماتِ اللهِ التى انتقم لها ؛ وإنما يكونُ مالا يَنْتَقِمُ له فيما تعلَّق بسوءِ أدبٍ أو معاملةٍ من القول أو الفعل بالنَّفْس والمال مما لم يقْصِدْ فاعِلُه به أذاهُ ، لـكن مما جُبِلَتْ عليه الأعرابُ من الجفاء ، والجهل[٦] ، أو جُبِل عليه البَشَر من الغفلة ، كجَبْذِ[٧] الأعرابىّ بإزاره حتى أثَّرَ فى عُنُقِه ، وكرَفْعِ صَوْتِ الآخر[٨] عنده ،

---

(١) كلمة الله هى العليا ؛ أى نافذة . وكلمة الذين كفروا السفلى ؛ أى ملغاة مهملة ، فكأنها مرمية على الأرض . وما بين القوسين ساقط فى ا .

(٢) رواه البخارى وغيره : صحيح البخارى : ٨ ـ ٣٧

(٣) لنفسه ؛ أى لأجل حق له صلى الله عليه وسلم فى نفسه .

(٤) قال الخفاجى : فهذا الحديث يقتضى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينتقم ممن آذاه أو سبه ؛ وهو مناف لما تقدم .

(٥) هذه : الأمور المذكورة ؛ من سبه وأذيته وتكذيبه .

(٦) الجفاء : غلظة الطباع والجهل بحقوق الله وحقوق رسوله ، وعدم معرفتهم بآداب الصحبة .

(٧) جبذ : جذب .

(٨) هو ثابت بن قيس بن شماس ، وكان جهير الصوت ؛ فلما نزل قوله تعالى : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ـ لزم منزله ، فافتقده ـ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال سعد بن معاذ : أنا أعلم علته ، وهو خوفه من الله لذلك .
=

وكجحْدِ الأعرابى شراءه منه فرَسَه التى شَهِدَ فيها خُزيمة[١] ؛ ولما كان مِنْ تظاهُر زَوْجَيْه[٢] عليه ، وأشباه هذا مما يَحْسُنُ الصَّفْحُ عنه .

[وقد قال بعض علمائنا : إن أذى النبى صلى اللهُ عليه وسلم حرام لايجوز بفعل مباح ولا غيره . وأما غيره فيجوز بفعل مباح مالا يجوز للإنسان فعله ، وإن تأذى به غيره . واحتج بعموم قوله تعالى[٣] : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله

= وقيل : إنما هى فى وفد بنى تميم لما نادوه من وراء حجراته ـ صلى الله عليه وسلم . وقيل الأقرع بن حابس، وقيل غير ذلك .

(١) جحد الأعرابى: إنكاره. والأعرابى هو سواد بن قيس المحاربى . كما قال الذهبى وقال الخطيب: إنه سواد بن الحارث . وخزيمة هو ابن ثابت الأنصارى .

وهذا الحديث رواه البخارى وغيره ؛ وفيه أنه تبعه ليقضى حقه وجعل الناس يساومونه فقال : إن كنت مبتاعا فاشتر ، وإلا بعته . فقال له صلى الله عليه وسلم : أو ليس قد ابتعته منك؟ فقال : هلم بشاهد . فقال خزيمة : أنا أشهد . فقال : بم تشهد ؟ قال : بتصديقك يا رسول الله . فجعل شهادته بشهادة رجلين .

(٢) هما عائشة وحفصة . والتظاهر : الاتفاق على معاونة كل منهما للأخرى بتصديقها فيما تقول .

وكان مكثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند زينب بنت جحش ، فسقته عسلا ، فاتفقا على أنه إذا جاء قالت له : أجد منك ريح مغافير ـ وهو بقل أو صمغ كريه الرائحة ـ وكان صلى الله عليه وسلم لايحب الرائحة الكريهة للقائه الملك ، فلما سمعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :لاأعود.

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٥٧

قال الخفاجى : استدل بإطلاق ما يؤذى ولعنة فاعله فى الدارين على أنه كبيرة . ومثل للمباح بقول بعض زوجاته له صلى الله عليه وسلم .

وقد كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم لاتؤذونى فى عائشة؛ فإن الوحى مانزل على فى لحاف امرأة غيرها . فلما علمن تأذيه تركن ذلك. فهو مقيد بمن لم يعلم تأذيه بالمباح ، فإن علم فهو حرام كغيره ، وهو ظاهر .

فى الدنيا والآخرة ﴾ ، وبقوله صلى اللهُ عليه وسلم فى حديث فاطمة: إنها بِضْعة[١] منى، يؤذينى ما يؤذيها ، ألا وإنى لا أحرم ما أحلّ الله ، ولكن لا تجتمع ابنةُ رسولِ الله وابنة عدو الله عند رجل أبدا][٢]. أو يكون هذا مما آذاه به كافرٌ وَجاء بعد ذلك إسلامه؛ كعَفْوِه عن اليهوديّ الذى سَحَره[٣]؛ وعن الأعرابى[٤] الذى أراد قَتْلَهُ، وعن اليهودية التى سَمّتْهُ؛ وقد قيل: قتلها .

ومِثْلُ هذا مِمّا يبلغُه مِنْ أذى أهْلِ الكتاب والمنافقين؛ فصفح عنهم رَجاء استئلافهم واستِئْلافِ غيرهم كما قرّرناهُ قبلُ، وبالله التوفيق .

فصــــل

تقدّم الكلامُ فى قَتْلِ القاصدِ لسبّه والإزراء به ، وغَمْصه[٥] بأى وَجْهٍ كان من مُمْكِنٍ أو محال[٦]؛ فهذا وَجْهٌ بيّن لا إشكال فيه .

الوَجْه الثانى لاحِقٌ به فى البَيان والجلَاء؛ وهو أنْ يكونَ القائلُ لما قال

---

(١) فى حديث البخارى ، لما أراد على رضى الله عنه أن يتزوج بنت أبى جهل على فاطمة الزهراء .

وبضعة : قطعة لحم منى كقطعة من بدنى . قال الخفاجى : والحديث يدل على أن أذية غيره إذا آذته تحرم أيضا كأذية فاطمة رضى الله عنها ، وكذا أذية أحد من أولادها .

(٢) مابين القوسين ساقط فى ا ، وهو فى ب .

(٣) هو لبيد بن الأعصم . وكان صلى الله عليه وسلم يرجو إسلامه . وقد تقدم .

(٤) الأعرابى الذى أراد قتله فهو غورث بن الحارث . وقيل إنه دعثور . واليهودية التى سمته هى زينب بنت الحارث .

(٥) الإزراء به : تنقيصه . وغمصه : عيبه .

(٦) من ممكن وجوده ، أو محال ممتنع عادة أو عقلا أوشرعا ، والأول كبعض العوارض البشرية ، والثانى كنسبة الكذب إليه ونحوه مما يمتنع شرعا بدلالة المعجزة على صدقه صلى الله عليه وسلم .

فى جِهَتِه[1] صلّى اللهُ عليه وسلّمَ غَيْرَ قاصدٍ للسَّبِّ والإزْراء[2]، ولا معتقدٍ له ؛ ولكنه تكلّمَ فى جهتِه صلى اللهُ عليه وسلم بكلمة الكُفْرِ[3] ؛ مِنْ لَعْنِه أو سبِّه أو تكذيبِه أو إضافةِ مالا يجوزُ عليه ، أو نَفْى ما يجبُ له مما هو فى حقِّه صلّى اللهُ عليه وسلم نقيصة ؛ مثل أنْ يَنْسُبَ إليه إتْيَانَ كبيرةٍ[4] ، أو مداهنةً فى تبليغ الرسالةِ[5] ، أو فى حُكْمٍ بين الناسِ ، أو يغُضُّ من مَرْتَبَتِه[6] ، أو شرفِ نسبِه، أو وُفورِ عِلْمِه أو زُهْدِه، أو يكذِّبَ بما اشتهر من أمورٍ أُخبر بها صلّى اللهُ عليه وسلم وتواتَرَ الخَبَرُ بها عنه عن قَصْدٍ لردِّ خَبَره ، أو يأتىَ بسفَهٍ[7] من القولِ ، وقبيحٍ من الكلام ، ونوعٍ من السبِّ فى جهتِه ، وإنْ ظهر بدليل حالِه أنه لم[8] يعتمدْ ذَمَّه ، ولم يَقْصِدْ سبَّه ، إمّا لجهالةٍ[9] حملَتْهُ على ماقاله ، أو لضَجَرٍ[10] أو سُكْرٍ اضطرّه إليه، أو قلّةِ مُرَاقبة[11] وَضَبْطٍ للسانه وَعَجْرَفةٍ وَتهوُّر فى كلامِه[12] ، فحُكْمُ هذا الوَجْهِ

(١) فى جهته : فى حقه .

(٢) والإزراء ؛ أى الانتقاص والاستخفاف .

(٣) بكلمة الكفر : الكلمة التى يكفر بها .

(٤) إتيان كبيرة ، وقد عصمه الله تعالى عنها وعن سائر النقائص .

(٥) مداهنة : مداراة الكفرة .

(٦) يغض : ينقص نقصا قليلا .

(٧) بسفه : بخفة عقل وسوء أدب .

(٨) لم يعتمد : لم يقصد .

(٩) جهالة : شدة جهل .

(١٠) ضجر : قلق ، أو ضيق صدر حمله على مقالته .

(١١) قلة مراقبة لله ، لكونه من أهل الخلاعة والفجور المعتاد لبذاءة اللسان .

(١٢) العجرفة : المجازفة ، والتكلم من غير تأمل . والتهور : الخروج عن الاعتدال بحدة لغضب ونحوه .

حُكْمُ الوَجْهِ الأول القَتْلُ دون تَلَعْثُم[١]؛ إذ لايُعذَرُ أحدٌ في الكُفْرِ بالجهالة[٢]، ولا بِدَعْوَى زَلَل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه[٣]، إذ كان عقلُه في فِطْرته سليما، إلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان[٤].

وبهذا أفتى الأندلسيّونَ على ابْنِ حاتمٍ في نَفْيِه الزُّهْدَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الذى قدمناه.

وقال محمد بن سَحْنون — في المَأْسور[٥] يَسُبُّ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وَسلم في أيدى العدو: يُقتَل إلّا أنْ يُعْلَمَ تنصُّره أو إكراهه.

وعن [٢٤٩] أبي محمد بن أبي زَيْد[٦]: لا يُعْذَرُ بدَعْوى زَلَلِ اللسانِ في مِثْلِ هذا.

وأفْتَى أبو الحسَن القابِسيّ — فيمن شَتَم النبيَّ صلى اللهُ عليه في سُكْره: يُقْتَل؛ لأنه يُظَنُّ به أنه يعتَقِدُ هذا وَيفْعَله في صَحْوِه[٧].

وأيضا فإنّه حدٌّ لايُسْقِطه السُّكْرُ؛ كالقَذْفِ، والقَتْلِ، وسائر الحدودِ؛ لأنه أدخله على نَفْسِه[٨]؛ لأنَّ مَنْ شربَ الخمْر على عِلْمٍ مِنْ زَوالِ عَقْلِه بها[٩]،

---

(١) دون تلعثم: دون توقف وتردد في وجوب قتله شرعا

(٢) لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة؛ فإنه يجب عليه علم أمور دينه وتعلمها.

(٣) ولا بشيء مما ذكرناه: من الضجر والتهور والسكر ونحوه.

(٤) الإكراه: حمل الغير على مالا يريد.

(٥) المأسور: الذى أسره الكفار بدار الحرب. يقتل، ولا يعذر بكونه أسيرا.
قال الخفاجي: يقتل؛ أي من غير أن يستتاب، فإن ارتد ثم سب لايقتل، بل يستتاب، فإن تاب ترك، وإلا قتل. وكذا لو علم إكراهه لم يقتل أيضا، فإن لم يعلم ذلك، وقال: كنت مكرها ففيه خلاف.

(٦) الإمام المالكي المشهور.

(٧) المراد أنه إذا سكر غاب، فلا يستر مايضمره ويخفيه عن غيره من خير أو شر.

(٨) لأنه أدخله على نفسه؛لأنه هو الذى شرب باختياره فسكر سكرا أوجبه؛ فلا يعذر كمن أغمى عليه أو جن.

(٩) بها: بالخمر.

وإتيانِ ما يُنْكَر منه ، فهو كالعامِدِ لما يكونُ بِسَبَبه .

وعلى هذا أَلْزَمْناهُ الطَّلاق والعِتَاقَ ، والقِصاصَ والحدودَ .

ولا يُعْتَرض على هذا بحديث[1] حمزة وقوله للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم : وهل أنتم إلا عَبِيد لأبى[2] !

قال : فعرف النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم أنه ثَمِلٌ[3] فانصرف ؛ لأن الخَمْرَ كانت حينئذٍ غَيْرَ محرَّمة ، فلم يكُنْ فى جناياتها[4] إثمٌ ، وكان حُكْمُ ما يحدثُ عنها مَعْفُوًّا عنه كما يحدثُ من النوم وشرب الدواء المأمون[5] .

---

(١) الحديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما . وقد قال هذا وهو سكران .

(٢) كان حمزة قد جلس يشرب ، وعند داره ناقتان لعلى يريد أن يحمل عليهما إذخرا لحاجة له، وعنده قينتان تغنيانه : ألا ياحمز بالشرف النواء . . فخرج ونحرهما وجب سنامهما ليأ كلوه على شرابهم . فأخبر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاءه ؛ فلما رآه حمزة رضى الله عنه صعد نظره إليه وقال له : هل أنتم معاشر قريش إلا عبيد لأبى : فكل مالكم يحل لى .

قال الخفاجى : وهذا فيه ماينكر فى حق النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) ثمل : سكران زائل العقل .

(٤) فى جناياتها : فيما يجنيه شاربها إثم ، لعدم تعمديه بتعاطى سبب محرم .

(٥) وشرب الدواء المزيل للعقل وما يحدث عنه من الجنايات . المأمون : الذى يأمن شاربه من ضرره وإزالة عقله إذا أزال عقله من غير علم بأنه يزيله ، فإنه إذا أزاله فوقع منه أمر من الأمور لم يترتب عليه مالم يكاف بالنهى عنه بخطاب الوضع ؛ فلا فرق بينه وبين النائم فى أنه غير مكاف بضمان وجناية أصلا .

قال الخفاجى : وقيده بالمأمون ،لأن مايعلم ضرره لايجوز تناوله ؛ فإن غاب به عقله فحكمه حكم السكران أصلا .

فصــل

الوجه الثالث[١] أنْ يَقْصِد إلى تـكذيبه فيما قاله وأتى به ، أو يَنْفِي نبوَّته أورسالته ، أو وُجوده ، أو يكفرُ به ؛ انتقل بقوله ذلكَ إلى دِينٍ آخرَ غَيْرِ مِلَّتِه أم لا ؛ فهذا كافرٌ بإجماعٍ[٢] ، يجبُ قتْلُه ، ثم يُنْظَرُ فإنَ كان مُصَرِّحاً بذلك[٣] كان حكْمُه أشْبَهَ بِحُـكْمِ المرتدّ[٤] ، وقوِيَ الخلافُ في استتابتِه[٥] .

وعلى القولِ الآخر[٦] لا يُسقطُ القتْلَ عنه توبتُه[٧] لحقِّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، إنْ كان ذكره بنقيصةٍ فيما قاله مِنْ كَذِبٍ أو غيره ؛ وإن كان مُسْتَتِراً بذلك فحُـكمُه حكمُ الزنديق لاتُسقِطُ قَتْلَه التوبةُ عندنا[٨] كما سنبينُه .

قال أبو حنيفة وأصحابُه : مَنْ بَرِئَ من محمد ، أو كذَّبَ به ، فهو مُرْتَدٌّ حلَالُ الدَّمِ إلا أنْ يرجع[٩] .

---

(١) الوجه الثالث فيما وقع من سبه صلى الله عليه وسلم أو أذيته وتنقيصه .

(٢) سواء انتقل بقوله ذلك الذى كفر به إلى دين آخر بأن تهود أو تنصر ، أم لم ينتقل لملة أخرى ؛ فهذا كافر بإجماع من المسلمين وأصحاب المذاهب .

(٣) بذلك : بذلك الأمر الذى كفر به .

(٤) قال الخفاجى : إنما جعله أشبه بالمرتد ، لأنه لم يتعين أمره .

(٥) فى استتابته ؛ أى فى أنه هل يستتاب وتقبل توبته أم لا ؟

(٦) القول الآخر هو أنه يستتاب .

(٧) لا يسقط القتل عنه بتوبته ؛ لأنه حد لا يسقط بالتوبة كالقذف والسرقة ، لـكنه يثبت له حكم المسلمين فى ميراثه ودفنه فى مقابر المسلمين .

وإنما لا يسقط القتل ؛ لأن حق العبد لا يسقط بالتوبة ، وإنما يسقط بها حق الله تعالى .

(٨) عندنا : فى مذهب مالك .

(٩) حلال الدم : حلال إراقة دمه ؛ أى لزم قتله شرعا . إلا أن يرجـع عمـا قاله فيتوب ويعترف بخلاف ما كان قاله أولا ، فهو عنده حكمه حكم المرتد فتقبل توبته ، لقوله تعالى : إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف . والحديث : إذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم .

وقال ابنُ القاسم[١] ـ في المسلم إذا قال : إنَّ محمداً ليس بنبيّ ، أو لم يُرسَل ، أو لم يُنزَلْ عليه قرآن ؛ وإنما هو شيء تَقَوَّلَهُ[٢] : يُقْتَل .

قال : ومَنْ كفَر برسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم وأنكره[٣] من المسلمين ، فهو بمنزلةِ المرتدّ[٤] ، وكذلك مَنْ أعلن بتكذيبِه أنه كالمرتدّ يُستتابُ[٥] .

وكذلك قال فيمن تنبّأ ، وزعم أنه يُوحى إليه[٦] ، وقاله سَحْنُون .

قال ابن القاسم : دعا إلى ذلك سِرًّا وجَهْراً .

قال أَصْبغ : وهو كالمُرْتَدّ ؛ لأنه قد كفر بكتابِ اللهِ مع الفِرْيةِ[٧] على الله .

وقال أَشْهَب ـ في يهوديّ تنبّأ أو زَعم أنه أُرسِلَ إلى الناس ، أو قال : بعد نبيّكم نبيٌّ ـ أنه يُستَتابُ إن كان مُعْلِنا[٨] بذلك ؛ فإن تاب وإلّا قُتِل ؛ وذلك لأنه مكذّبٌ للنبيّ صلى الله عليه وَسلّم في قوله : لا نبيّ بعدي[٩] ، مُفْتَرٍ على اللهِ[١٠] في دَعْواهُ عليه الرسالةَ والنبوّة .

وقال محمد بن سَحْنُون : مَنْ شَكَّ في حَرْفٍ مما جاء به النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم

---

(١) ابن القاسم : عبد الرحمن المصري الإمام المشهور ، صاحب مالك .

(٢) تقوله : افتراه على الله تعالى .

(٣) من كفر برسول الله ؛ أي أنكر نبوته ورسالته . وأنكره : أنكر وجوده .

(٤) بمنزلة المرتد : يقتل إن لم يتب .

(٥) من أعلن بتكذيبه ؛ أي أظهره جهرا . يستتاب : أي تقبل توبته، فإن لم يتب قتل .

(٦) قال في نسيم الرياض : (٤ — ٤٢٩) : ومحل ذلك إذا زعم أنه يوحى إليه بنزول الملك عليه ، وإلا فالذي ينبغي أنه لا يكفر ـ كما قاله ابن حجر .

(٧) الفرية : الكذب عليه .

(٨) معلنا بذلك : مظهرا له لا ، إذا أخفاه .

(٩) هذا الحديث رواه البخاري .

(١٠) مفتر : متعمد للكذب فيما زعمه .

عن الله فهو كافرٌ جاحِدٌ[١] .

وقال : مَنْ كذّبَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كان حُـكْمُه عند الأُمةِ القَتْلَ .

وقال أحمد بن أبى سليمان صاحبُ سَحْنُون : مَنْ قال : إنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم أسودُ ـ قُتِل ؛ لم يكن النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلّم بأَسْوَد[٢] .

وقال نحوه أبو عثمان[٣] الحدّاد ؛ قال : لو قال : إنه مات قَبْلَ أن يَلْتَحِيَ ، أو إنه كان بتاهَرْتَ[٤] ولم يكن بتِهَامة قُتِل ؛ لأنَّ هذا نَفْىٌ[٥] .

قال حبيب[٦] بن ربيع : تبديلُ صِفَتِه ومَوَاضِعه[٧] كفر[٨] ، والمظهِرُ [٢٥٠]

(١) الجحد : الإنـكار لما يعلمه عنادا وعتوا ، وهو كافر جاحد لشكه فى الوحى المتواتر .

(٢) فى نسيم الرياض (٤ — ٤٣١) : وقال بعض المتأخرين : كلامه هذا يوهم أن مجرد الـكذب عليه فى صفة من صفاته كفر يوجب القتل ، وليس كذلك ؛ بل لابد من ضميمة مايشعر بنقص فى ذلك ، كما فى مسألتنا .

(٣) اسمه سعيد .

(٤) تاهرت : اسم فلاة أو مدينة بنواحى تلمسان ، بالمغرب .

(٥) نفى لوجود النبى صلى الله عليه وسلم ، لنفيه صفته المعروفة .

قال ابن حجر : وما قاله متجه ، لـكن محله — كما يعلم من آخر كلامه ـ فيمن طالت صحبته للمسلمين حتى ظن به علم ذلك ؛ وبه يعلم رد مانقله العز بن عبد السلام عن أبى حنيفة وأقره ـ من أن من قال : أومن بالنبى وأشك فى أنه المدفون بالمدينة ، أو الذى نشأ بمكة ـ لا يكفر ؛ لأنه وإن كان معلوما بالضرورة ، إلا أنه ليس من الدين ؛ لأنا لم نتعبد به ؛ فيكون جاحده كجاحد بغداد ومصر .

قال الخفاجى : ووجه رده أن الشك فى ذلك من المخالط للمسلمين يستلزم تضليل الأمة وغير ذلك من العظائم فى الدين .

(٦) من أئمة المالـكية .

(٧) مواضعه التى كان مقره بها ، كتهامة ، ومكة ، والمدينة .

(٨) قال ابن حجر : وهذا يشمل إنـكار الهجرة ، وكونه كان أولا بمكة وآخرا بالمدينة ، وغير ذلك مما يشاكله .

=

له كافر ، وفيه الاستتابة[١] والمُسِرُّ له زِنْدِيق ، يُقتَل دُونَ استِتابةٍ .

فصـــل

الوَجه الرابع أنْ يأتِيَ من الـكلام بمُجْمَلٍ[٢] ، ويلفِظَ من القولِ بمُشْـكِلٍ[٣] يمكن حَمْلُه على النبيّ صلى الله عليه وسلم أو غيرِه ، أو يترددُ[٤] في المرادِ به مِنْ سلامته من المكروه أو شرِّه ؛ فهاهنا مُتَرَدَّدُ النظر وحَيْرَةُ العِبَر ، ومَظِنَّة اختلافِ المجتهدين[٥] ، ووَقْفَةُ استبْراء المقلّدين[٦] ، لِيَهْلِكَ مَنْ هلكَ عن بيِّنَةٍ ، ويَحْيَى مَنْ حَيَّ عن بيِّنَةٍ[٧] ؛ فمنهم[٨] مَنْ غلَّب حُرْمةَ[٩] النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وحَمَى

= قال الخفاجي : وهو متجه .

(١) أي إنه تقبل توبته .

(٢) بمجمل : بما لم تتضح دلالته على مراد من تـكلم به .

(٣) المشـكل : ماله أشـكال ؛ أي أشباه ونظائر ؛ وهو أيضا مالا يظهر معناه . والمراد مافيه التباس بغيره .

(٤) أو يتردد ويشك في المراد به ؛ أي ماقصده المتـكلم به .

(٥) متردد : محل التردد . وحيرة العبر : جمع عبرة ؛ وهو مايعتبر ليستدل به على غيره . ومظنة : محل الظن .

(٦) استبراء : طلب براءة . المقلدين لهؤلاء المجتهدين ؛ يعني أن المجتهدين يعملون النظر في استخراج حكمه ، ويتحيرون فيه لإشـكاله عليهم ، والمقلد لهم يقف حتى يعلم حال من قلده فيتبعه ويبرأ من عهدته .

(٧) ليـكون قتل من حـكم بكـفره بدليل واضح ؛ لأن إراقة الدماء لا يجازف فيها . وتـكون حياة من لم يقتل بدليل ظاهر ؛ لأنه لا ينبغي المسامحة فيما يتعلق بمقام النبوة وحمايتها من طعن الطاعنين .

(٨) فمنهم : من المجتهدين في مثل هذا .

(٩) حرمة النبي : احترامه وصيانته .

حِمَى عِرْضِه (١) ، فَجَسر (٢) على القَتْلِ ؛ ومنهم مَنْ عظَّم حُرْمةَ الدَّمِ ، ودَرَأ الحدَّ بالشُّبْهَةِ (٣) لا حتمالِ القَوْلِ .

وقد اختلف أئمتُنا فى رجُل أغضَبهُ غَرِيمُه (٤) ؛ فقال له : صَلِّ على النبى محمد (٥) ؛ فقال له الطالبُ : لا صَلَّى اللهُ على مَنْ صلَّى عليه ؛ فقيل لسَحْنُون : هل هو كَمَنْ شتَمَ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، أو شتَمَ الملائكةَ الذين يُصلُّونَ عليه ؛ قال : لا ، إذا كان على ما وصَفْتَ من الغضَبِ ؛ لأنه لم يكن مُضْمِرًا (٦) الشَّتْمَ .

وقال أبو إسحاق البَرْقى (٧) ، وأصبغُ بن الفَرَجِ : لا يُقْتَلُ ؛ لأنه إنما شتَمَ (٨) الناس ؛ وهذا نَحْوُ قولِ سَحْنُون : لأنه لم يَعْذِرْهُ بالغَضَب فى شَتْمِ النبيِّ صلى اللهُ

---

(١) وحمى حمى عرضه ؛ أى منع أن يهجم أحد على مقام النبوة ، ولو بالاحتمال ؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

(٢) جسر : أقدم من غير مبالاة .

(٣) درأ : منع — بالشبهة فيما قاله ، لاحتمال عدم قصده لما يوجبه ؛ لاحتمال القول الصادر منه لأمرين : أحدهما يقتضيه ، والآخر يمنعه ؛ فعمل بالثانى احتياطا .

(٤) غريمه : يعنى من له عليه حق طالبه به .

(٥) يريد بذلك دفع غضبه بذكره صلى الله عليه وسلم .

(٦) مضمرا : ناويا ومريدا ومسرا .

(٧) هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن عمرة بن أبى الفيـــاض . توفى سنة خمس وأربعين ومائة .

(٨) شتم الناس لا النبى ولا الملائكة ؛ لأن « من » وإن عم يخص باعتبار متعارف الناس فى قصد جنسهم دون غيرهم ممن لا يخطر بباله فى عرف التخاطب ؛ وليس ثمة قرينة تصرف الشتم له صلى الله عليه وسلم ولا إلى الملائكة الذين يصلون عليه .

قال الخفاجى : وقد يقال : إن المتبادر من قوله : « من صلى عليه » الآمر له ، أو نفسه إن صلى عليه لتسكين غضبه ، فكأنه قال : إن صليت أنا أو أنت لدفع الغضب فلا صلى الله عليك أو على ، وهو فى غاية الظهور .

عليه وسلم ، ولكنه لمّا احتملَ الكلامُ عنده ، ولم تكُنْ معه قرينةٌ على شَتْمِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، أو شَتْم الملائكةِ صلواتُ اللهِ عليهم ؛ ولا مُقدّمةٌ[1] يُحَمَلُ عليها كلاَمُه ؛ بل القرينةُ تدلُّ على أنّ مرادَه الناسُ غَيْرُ هؤلاء ، لأجْلِ قولِ الآخر له : صَلِّ على النبيّ ، فحمل قولُه وسبُّه لمن يُصَلِّي عليه الآنَ لأجْل أمْرِ الآخَر له بهذا عند غضَبه[2] .

هذا معنى قولِ سَحْنُون ؛ وهو مُطَابِقٌ لعلّةِ صاحبيه .

وذهب الحارثُ بن مِسكين[3] القاضى وغَيْرُه فى مِثْلِ هذا إلى القَتْل[4] .

وتوقّف أبو الحسن القابسىُّ فى قَتْلِ رَجُلٍ قال : كلُّ صاحبِ فُنْدُقٍ قَرْنان[5] ، ولو كان نَبِيًّا مُرْسَلا ؛ فأمر بشدِّه بالقيودِ والتضييق عليه حتى تُستَفْهم[6] البيّنة عن جملةِ ألفاظه ، وما يدلُّ على مَقْصِده ؛ هل أراد أصحابَ الفنادِق الآن ؛ فمعلومٌ أنه

---

(١) ولا مقدمة ؛ أى أمر مقدم على كلامه ؛ أى قرينة وأمر بأنه قصد النبي أو الملائكة .

(٢) فمن أين يخطر بباله عند المنصف النبي أو الملائكة ؛ وهو فى غاية الظهور فى عرف الناس .

(٣) الحارث بن مسكين المحدث المالكى الثقة الحجة ، أخرج له أصحاب السنن ، وحمل لبغداد فى محنة خلق القرآن فحبس إلى أن تولى المتوكل ، فأطلقه وولاه قضاء مصر ، فلم يزل قاضيا بها إلى أن توفى سنة مائتين وخمسين .

(٤) وذلك لشموله ذكر النبي والملائكة .

وفى نسيم الرياض (٤ — ٤٣٤) : قال ابن حجر : واللائق بقواعدنا الأول ؛ لأن اللفظ ليس صريحا فى شتم الملائكة ولا الذات المقدسة ، وإنما هو ظاهر فى شتم نفسه إن صلى هو أو غيره من الناس .

ومع عدم التكفير يعزر التعزير البليغ .

(٥) الفندق : الخان الذى ينزله أبناء السبيل ، والتجار ، والغرباء . له قرنان : بمعنى الديوث ؛ وهو الذى يجمع الرجال الأجانب مع زوجته أو بعض محارمه .

(٦) يستفهم البينة : يسأل عما قاله .

ليس فيهم نبيٌّ مرسَلٌ ؛ فيكون أمْرُه أخفَّ .

قال : وتكِنْ ظاهِرُ لفظِه العمومُ لكل صاحب فُنْدُق من المتقدمين والمتأخّرين. وقد كان فيمن تقدّم من الأنبياء والرُّسل مَن اكتسبَ المال(١) .

قال : ودمُ المسلِم لا يُقْدَمُ عليه إلا بأمر بَيّن . وما تردُّ إليه التأويلاتُ(٢) لا بُدّ مِنْ إنعام النظر فيه . هذا معنى كلامه(٣) .

وحُكِي عن أبي محمد بن أبي زَيْد رحمه الله ـ فيمن قال : لَعَن اللهُ العربَ ، ولعن اللهُ بني إسرائيل ، ولعن اللهُ بني آدمَ ، وذكر أنه لم يُرِد الأنبياء ، وإنما أردتُ الظالمين منهم ـ أن عليه الأَدَبَ بقَدْرِ اجتهادِ السلطان(٤) .

وكذلك أفتى ـ فيمن قال : لعن اللهُ مَنْ حرّم المُسْكِر ، وقال : لم أعلَمْ مَنْ حَرّمَه .

وفيمن لَعنَ حديث : لا يَبِع حاضِرٌ لبادٍ(٥) . ولعن مَنْ جاء به ـ أنه إن كان يُعذَرُ بالجهل(٦) وعَدَم معرفةِ السُّنَن فعليه الأدَب الوَجِيع ؛ وذلك أنّ هذا لم يَقْصِدْ بظاهِرِ حالِهِ سبَّ اللهِ ولا سبَّ رَسُولِه ؛ وإنما لعن مَنْ حَرّمَهُ مِنَ الناس على نَحْوِ

---

(١) ارجع إلى هامش رقم ٥ من الصفحة السابقة . ففيه أن صاحب الفندق كناية عمن له مال كثير كتسبه ، لأنه لا يبنيه ويملكه إلا من هو كذلك .

(٢) المراد تدقيق النظر وإطالة التدبر والتفكر .

(٣) في نسيم الرياض (٤ — ٤٣٥) : قال ابن حجر بعده : والظاهر أن لفظه ليس صريحا في ذم الأنبياء ولا سبهم ، فلا يكفر بمجرد هذا اللفظ ، بل يعزر التعزير الشديد .

(٤) أن عليه الأدب ، أو التعزير والزجر ، لما في كلامه من الإيهام .

بقدر اجتهاد السلطان : بقدر مايؤدى إليه اجتهاده من ضرب وغيره دون القتل .

(٥) الحاضر : المقيم . والبادى : من يأتي من البادية كالبدوى . والحديث في صحيح مسلم : ١١٥٥

(٦) يعذر بالجهل ، لقرب عهده بالإسلام .

فَتْوَي سَحْنُون وأصحابه فى المسألة المتقدمة[١] .

ومِثْلُ هذا ما يَجْرى فى كلامِ سُفَهاء الناسِ [٢٥١] فى قول بعضِهم لبعض : يابْنَ ألْفِ خِنْزِيرٍ[٢] ، وابنَ مائة كلب ، وشِبْهه من هُجْرِ[٣] القولِ .

ولا شكَّ أنه يدخلُ فى مِثْلِ هذا العدد من آبائه وأجدادِه جماعةٌ من الأنبياء ؛ ولعلّ بعضَ هذا العددِ مُنْقَطِعٌ[٤] إلى آدمَ عليه السلام ، فينبغى الزجْرُ عنـه[٥] ، وتَبْيِينُ ما جهله قائلُه منه[٦] وشدّةُ الأدبِ فيه .

ولو عُلِمَ أنه قَصد سَبَّ مَنْ فى آبائه من الأنبياء على علمٍ لقُتِل .

وقد يضيقُ القولُ فى نحو هذا[٧] لو قال لرجُلٍ هاشميٍّ : لعنَ اللهُ بنى هاشم — وقال : أردتُ الظالمين منهم ؛ أو قال لرجُلٍ من ذُرِّيّة النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم قولا قَبِيحا فى آبائه أو مِنْ نَسْلِه أو وَلدِه على عِلْمٍ منه أنه مِنْ ذُرِّيَةِ النبيّ صلّى اللهُ عليه

(١) المسألة المتقدمة فى قول القائل : لا صلى الله على من صلى عليه .

(٢) وأراد بالخنزير من تقدم من آبائه وأجداده .

(٣) هجر القول : فحش فى المنطق .

(٤) منقطع : منتهى أومتصل .

(٥) فينبغى لما ذكر من احتمال دخول بعض الأنبياء فيه ، وأن الحامل على ذكره سفاهة قائله .

(٦) وتبيين ماجهله قائلهمنه ، ليزول عذره ، فيقال له : إنه يدخل فى كلامك بعض الأنبياء عليهم السلام ، فتب عنه ولا تعد لمثله .

قال فى نسم الرياض : وحاصل ما ذكره أنه لا يكفر بهذا اللفظ ؛ وارجع فى هذا إلى صفحة ٤٣٧ من النسيم إن أردت .

(٧) يضيق القول فى مثل هذا ؛ أى يزاد فى التشديد على قائله فيما لو قال أحد من الناس لرجل من بنى هاشم — جد النبى : لعن الله . . .

وضيق فيه لدخول النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته فيه دخولا متبادرا صريحا ، فليس كالذى قبله ؛ ولذلك شدد على قائله .

وسلّم، ولم تَكن قرينةٌ فى المسألتين(١) تقتضِى تخصيصَ بعْضِ آبائه، وإخراجَ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم مِمّنْ سبَّهُ منهم(٢).

[وقد رأيتُ لأبى موسى عيسى بن مَنَاس(٣) ـ فيمن قال لرجل : لعنكَ اللهُ إلى آدم عليه السلام ـ أنه إنْ ثبتَ عليه ذلك قُتِل](٤).

وقد كان اختلاف شيوخُنا(٥) فيمن قال لشاهدٍ شهِدَ عليه بشىء ثم قال له : تَتّهِمُنِي(٦) ؟ قال له الآخَر : الأَنبياء يُتّهَمون، فكَيف أَنْتَ ؟ فكان شيخُنا أبو إسحاق بن جعفر يَرَى قَتْلَه، لِبَشَاعةِ ظاهِرِ اللّفْظِ.

وكان القاضى أبو محمد بن منصور(٧) يتوقّفُ عن القَتْلِ لاحتمالِ اللفظ عنده

---

(١) فى المسألتين : مسألة بنى هاشم، ومسألة الذرية.

(٢) فى نسيم الرياض (٤ ـ ٤٣٨) : قال ابن حجر : وظاهر كلامه أنه لا يقبل تخصيصه بإرادة غير النبى صلى الله عليه وسلم من غير قرينة ؛ وهو محتمل لعموم لفظه، لكن الأقرب إلى قواعدنا قبوله مطلقا ؛ لأن اللفظ بوضعه لا ينافى تلك الإرادة، لكن يبالغ فى التعزير.

(٣) هو من أصحاب سحنون، ومن أهل قيروان. ويقال : مياس ـ بمثناة تحتية.

(٤) قتل لدخول بعض الأنبياء، كنوح.

قال فى نسيم الرياض (٤ ـ ٤٣٨) : قيل الظاهر أنه يؤدب ولا يقتل، لاحتمال أن يريد أن اللعنة تستمر عليه إلى أن يلقى آدم، لاسيما ودخول الغاية غير متعين.

قال ابن حجر، بعد كلام المصنف : وقضية قواعدنا خلافه، لما قدمته من أن لفظه ليس صريحا فى سب نبى، لاحتماله إلى أن يلقى آدم فى يوم القيامة ؛ بل لو قال : لعنَ الله آباءه إلى آدم كان عدم التكفير أقرب أيضا إن ادعى إرادة غير الأنبياء منهم، لاحتمال ما ادعاه، وعدم صريح يدل على خلافه ؛ ولا يقال : كلام يتناول آدم، للخلاف المشهور فى دخول الغاية. وما بين القوسين ساقط فى ا.

(٥) شيوخنا : من علماء المغرب المالكية.

(٦) أتتهمنى : أتنسب لى سوءا وأمرا يقتضى عدم قبول شهادتى ؟

(٧) اسمه عبدالله بن محمد بن منصور، إمام محدث مالكى المذهب، توفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.

أنْ يكون خَبَرًا عمّن اتَّهمهم من الكفّار[١] .

وأفْتَى فيها قاضى قُرْطُبة أبو عبد الله ابن الحاجّ بنَحْوِ[٢] هذا .

وشدَّدَ القاضى أبو محمد تَصْفِيدَهُ[٣] ، وأطال سِجْنَه ، ثم استَحْلَفَه بَعْدُ على تكذيبِ ما شُهِدَ به عليه[٤] ؛ إذ دخَل فى شهادةِ بَعْضِ مَنْ شهد عليه وَهنٌ ، ثم أطلقه[٥] .

وشاهدتُ شيخَنا القاضى أبا عبد الله محمد بن عيسى[٦] أيامَ قَضَائه أُتِىَ برجُل هاتَرَ[٧] رجلًا ، ثم قَصَد إلى كَلْبٍ فضربَهُ برِجْلِهِ وقال له : قُمْ يا محمدُ[٨] ، فأنكر الرجلُ أن يكونَ قال ذلك ، وشَهِدَ عليه لفيفٌ من الناس[٩] ؛ فأمر به إلى السّجْنِ ،

---

(١) قال الخفاجى : وهذا مما وقع وقائله لا يعتقد ماقالوه .قال ابن حجر : وهذا الثانى هو الأوجه .

(٢) من التوقف فيه .

وهو محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى المالكى العلامة المحدث ، قتله مجنون وهو ساجد بجامع قرطبة .

(٣) تصفيده : جعله فى صفد ، وهو القيد .

(٤) أى أمره أن يحلف على أنه ما قال مانسب إليه .

(٥) وهن : ضعف ؛ فيحلفه ؛ وهذا احتياط فى حق النبوة ، وإلا فكونه إخبارا بما وقع من الكفرة من غير اعتقاد لما قالوه ـ وهو أمر واقع ـ يكفى فى عدم استحقاقه القتل . ثم أطلقه لحكمه ببراءته .

(٦) ولد سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وتوفى سنة خمسين وخمسمائة .

(٧) المهاترة : السفاهة فى القول ، يقال : تهاتر الفتيان إذا تفاحشا فى القول .

(٨) قصد بذلك تحقير خصمه المسمى بهذا الاسم ، لكن لمشاركته له صلى الله عليه وسلم فى الاسم لا ينبغى ذكره لإيهامه مالا يليق .

(٩) لفيف من الناس : جماعة اجتمعوا ليشهدوا عليه بما وقع منه .

وتقصّى[(١)] عن حالِه ، وهل يصحبُ مَنْ يُستَرابُ[(٢)] بدينه ؟ فلما لم يجدْ ما يُقوّى الرِّيبةَ باعتقادِه ضربه بالسَّوْط وأطلقه[(٣)] .

فصـــــل

الوَجْه الخامس ألَّا يَقصدَ نقْصا ، ولا يَذْكر عَيْبـــا ولا سبًّا ، لـكنه يَنْزعُ[(٤)] بذِكْرِ بعضِ أوصافِه ، أو يَستَشْهِدُ ببعضِ أحوالِه صلَّى اللهُ عليه وسلم الجائزةِ عليه فى الدنيا على طريقِ ضَرْب المَثَلِ ، والُحجَّة لنفسه أو لغيره[(٥)] ، أو على التشبّه به ، أو عند هَضِيمة[(٦)] نالته، أو غَضَاضةٍ[(٧)] لحِقَتْه ، ليس على طريق التأسّى[(٨)] وطريقِ التحقيق ؛ بل على مَقْصِدِ الترفيع لنفسه أو لغيره ، أو على سبيل التمثيل[(٩)] وعَدَمِ التَّوْقير لنبيّه صلى اللهُ عليه وسلم ، أو على قَصْد الهَزْل والتَّنْدير[(١٠)] بقوله ، كقولِ القائل : إنْ قيل فىّ السّوء فقد قيل فى النبى ، وإنْ كُذّبْتُ فقد كُذِّب

---

(١) التقصى : البحث والتفتيش الشديد .

(٢) من يستراب بدينه : هل يصحب من الناس من فى دينه ريبة وشك ، ومن يتهم بالإلحاد ، فإن المرء على دين خليله ، فإن كان كذلك يعلم أنه قصد بكلامه حقيقة ، فأكثر السؤال عنه وعمن يخالفه .

(٣) ضربه تعزيرا له وزجرا عن العود لمثله ، وأطلقه .

قال ابن حجر : وما دل عليه كلامه من عدم كفره بذلك هو الصواب .

(٤) ينزع : يميل .

(٥) ليتأسى به ، يقتدى .

(٦) هضيمة : مظلمة .

(٧) غضاضة : لنقيص .

(٨) التأسى : الاقتداء به فى مثله، ولا على طريق التحقيق ، لاتصاف النبى صلى الله عليه وسلم به على مقصد الترفيع والتعظيم لنفسه ، إن كان ذلك وقع منه .

(٩) على سبيل التمثيل به ، أى جعله مثلا فيما اتفق له .

(١٠) التندير : الإتيان بأمر نادر شاذ وقوعه ، فيذكره على سبيل الشذوذ ، لا التشهير والترفيع .

الأَنبياء [١]، أو إن أَذْنَبْتُ فقد أَذْنبوا [٢] ، أو أنا أسْلَمُ من أَلسنةِ الناسِ ولم يَسْلَمْ منهم أنبياء اللهِ ورُسُله ؛ أو قد صبرْتُ كما صَبر أُولُو العَزْم ، أو كَصَبْرِ أيوب ، أو قد صبر نَبِيُّ اللهِ عن عِدَاه ، وحَلُمَ [٣] على أكثَرَ مما صبرت؛ وكقول المتنبي [٤] :

أنا في أُمَّةٍ تداركها الـــلهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ [٥]

---

(١) وهذا فيه تسوية لنفسه بهم .

(٢) وهذا سوء أدب ، فإنهم عليهم السلام معصومون .

(٣) عاملهم — مع ماوقع منهم — بالحلم والعفو عنهم .

قال الخفاجي : فني كل هذا من ترك الأدب مالايخفى .

قال ابن حجر : فميل كلامه ، بل صريحه ، عدم الـكفر في هذه المسائل ، وهل يحرم ذلك الذي يظهر أنه إن قصد به الترفع ، وأنه شاركهم في أصل هذه الفضائل — كان حراما شديد التحريم ، وإن قصد هضم نفسه على طريق المبالغة ، بمعنى أنه لا نسبة لي باتباعهم ، وقد وقع لهم ذلك ، فوقوعه لي أولى — لم يكن حراما .

وعلى هذا يحمل ماوقع لبعض الأكابر من استشهادهم على ماحصل لهم بنحو هذه الـكلمات في خطب كتبهم وغيرها .

نعم ، قوله : إن أذنبت فقد أذنبوا — شديد التحريم ، لايجوز الاستشهاد به بحال .

وقال بعض المالـكية : من قال : إن كان قيل في حقي أو حق فلان ؟ أو إن جرى له كذا — فقد قيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،أو جرى لهم — حرم عليه إطلاق ذلك ، لأن ماانتقص به يضيفه للأنبياء فيؤدب .

وفهم بعضهم من كلام المصنف رحمه الله أنه يكفر بذلك ؛ وليس كما فهم ؛ وليس في مذهبنا مايوافق القول في التـكفير لا تصريحا ولا تلويحا ، وليس لمن قال به دليل ؛ وتعليله بأن القصد التشبيه والانتقاص فاسد ، إذ لا يقصد ذلك من في قلبه إسلام ، بل المراد كيف لايتكلم في حقير مثلي وقد تـكلم في الأكابر .

قال بعض المتأخرين : بل إطلاق التحريم في ذلك بحسب مذهبنا منظور فيه .

والوجه عدم التحريم حيث كان المراد ماذكر ، أو أطلق .

(٤) المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور .

(٥) البيت في ديوانه : ١ — ٣٢٤ =

ونحوه من أشعار المتمجرفين(١) فى القولِ ، المتساهلين فى الكلام ؛ كقول المعرّى(٢) :

كنتَ موسى وافتْهُ بنتُ شُعَيْب غير أن ليس فيكما من فقير

على أنّ آخِرَ البيت شديد ، وداخلٌ فى باب الإزراء والتحقير(٣) بالنبى [٢٥٢] صلى اللهُ عليه وسلم ، وتفضيلِ حال غيره عليه .

وكذلك قوله(٤) :

لولا انقطاعُ الوَحْيِ بعد مُحَمَّدٍ قُلْنا محمدُ من أبيه بديلُ

هو مِثْلُه فى الفَضْلِ إلا أنّه لم يَأْتِه بِرسالةِ جبريلُ

فصَدْرُ البيت الثانى مِنْ هذا الفصل شديدٌ ، لتشبيهه غَيْرَ النبىّ فى فَضْله بالنبىّ ،

= والأمة : أقوام فى أزمان نبى بعث إليهم . وتكون بمعنى الجماعة مطلقا ، ومعنى تداركها الله بلطفه أو بهلاكه ، فهو دعاء لهم أو عليهم . أى تداركها الله بالإصلاح ؛ أو تداركها بالانتقام والاستئصال حتى لا يبقى منهم أحد . وصالح : نبى الله — وثمود أمته . والغربة : الخروج عن الأهل والوطن ، والمراد عدم المناسبة والألفة .

قال ابن حجر : وكلامه محتمل لقصده تشبيه حاله فى الغربة بحال صالح عليه السلام ؛ فيكون من قصد الترفع ، أو تشبيه حال من هو فيهم بحال ثمود : من المشاقة وعدم الطواعية ؛ فيكون مستلزما للدفع وصريحا فى سبهم . وعلى كل فهو غير كافر .

وقيل : إنه لقب بالمتنبي لهذا البيت .

(١) المجرفة : تجاوز الحد والخروج عنه : وهى أيضا : ارتكاب مالا يليق من غير مبالاة به .

(٢) المعرى : أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى الشاعر المشهور . توفى سنة تسع وأربعمائة . والبيت فى ديوانه : ٣

(٣) لأنه لم يرض لممدوحه أن يكون مثل نبى الله ، إذ مراده : لولا هذا شبهتك به .

(٤) أى للمعرى . وهو فى ديوانه : ٩ ، ١٨٥

والعَجْز محتملٌ لوجهين : أحدها أنَّ هذه الفضيلةَ نقّصت الممدوح ، والآخر استغناؤه عنها . وهذه أشدُّ .

ونحوٌ منه قولُ الآخر[١] :

وإذا ما رُفِعَتْ راياتُه صفَّقَتْ بين جناحَيْ جبرينْ

وقول الآخر من أهل العصر :

فرَّ مِنَ الخلدِ وَاستجار بِنَا فصبَّر اللهُ قَلْبَ رضْوَانِ[٢]

وكقول حسّان المَصِّيصى[٣] من شعراء الأندلس فى محمد بن عباد المعروف بالمُعْتمِد وَوَزيره أبى بَكر بن زيدون[٤] :

كأنَّ أبا بَكْرٍ أبو بَكر الرِّضا وَحسّانُ حسّان وَأنتَ محمّدُ[٥]

إلى أمثالِ هذا[٦] .

---

(١) من قصيدة لزيد بن عبد الرحمن المغربى من شعراء الذخيرة .

وجبرين لغة فى جبريل .

قال الخفاجى : وفيه أنه ليس فيه ذكر له صلى الله عليه وسلم ؛ وما قيل من أن فيه اجتراء على ملك معظم فيه أيضا أنه قصد أنها رايات رفعت للجهاد ونصرة الدين ؛ فصحبة جبريل لها ليس فيه تحقير له .

(٢) قال الخفاجى : فيه مجرفة لجعله رضوان — وهو من الملائكة المقربين — كأنه يهوى هو الحورى بحيث لا يقدر على فراقه

(٣) وهو الوزير الكاتب حسان المصيصى رفيق الوزير بن عمار ، من عظماء الدولة العبادية ، وله أشعار بديعة ، أكثر قصائده فى مدائح المعتمد .

(٤) وابن زيدون : هو ذو الوزارتين ، والشاعر البليغ الأندلسى المعروف .

(٥) أى كأن وزيرك أبا بكر بن زيدون أيها الممدوح — أبو بكر الصديق . وكأن حسان المصيصى شاعرك حسان بن ثابت الأنصارى شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الخفاجى : وهذا من جهله بمقام النبوة ومجازفته ، وإن كان المشبه دون المشبه به ، لكن لا وجه للتشبيه بمن ليس له شبيه .

(٦) فى ا : إلى مثل هذا .

وإنما أكثرنا شاهدها[1] مع استثقالنا حكايتها لتعريفِ أمثلتها وَلتساهلِ كثيرٍ من الناسِ فى وُلوجِ هذا الباب الضَّنْك[2]، وَاستخفافهم فادحَ هذا العبْء، وقلةِ علمهم بعظيم ما فيه من الوِزْرِ[3]، وَكلامهم منه بما ليس لهم به عِلْمٌ، وَيَحْسَبُونه هيِّناً وهو عندَ اللهِ عظيم[4]؛ لاسيما الشعراء. وَأشدُّهم فيه تصريحا، وللسانه تسريحا ابنُ هانئ الأندلسى[5]، وَابن سليمان المعَرّى؛ بل قد خرج كثيرٌ مِنْ كلامهما إلى حَدِّ الاستخفاف وَالنَّقْصِ وَصَريحِ الـكُفْرِ[6].

وقد أَجَبْنَا عنه، وغرَضُنا الآن الـكلامُ فى هذا الفَصْـــل الذى سُقْنا أمثلته؛ فإنَّ[7] هذه كلّها وإنْ لم تَتَضَمَّنْ سبًّا، ولا أضافَتْ إلى الملائـكة والأنبياء نَقْصًا. ولستُ أَعنى عَجُزَى بيتى المعرى، ولا قصد قائلُها إزراءً وغَضًّا[8]؛ فما وقَّر النبوّة، ولاعظَّم الرسالة، ولاعَزَّرَ حُرْمة الاصطفاء[9]، ولاعزَّزَ حُظْوَةَ الـكرامةِ[10] حتى

---

(١) شاهدها: المراد بما يشهد لما ادعاه، من أن الناس يتساهلون فى أمثالها بما لا ينبغى.

(٢) ولوج: دخول. الضنك: الضيق الذى لا ينبغى دخوله لمن له دين.

(٣) الوزر: الإثم والخطيئة.

(٤) هينا: سهلا. وهو عند الله عظيم؛ لأنه من الـكبائر.

(٥) هو محمد بن هانىء الأندلسى الإشبيلى، كان يميل لمذهب الفلاسفة؛ ولد بمدينة إشبيلية، ونشأ بها، وارتحل إلى مصر، ثم عاد منها. فلما نزل ببرقة وجد ميتا لم يعرف من قتله، وكان ذلك لسبع بقين من رجب سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

(٦) لخوضهم فى حق الأنبياء ونحوهم.

(٧) فى ا: فى.

(٨) إزراء: ازدراء. غضا: نقصا؛ لأنه إنما ضرب به المثل بأمور ذكرها قبل هذا.

(٩) عزر: قوى حرمتها واحترامها. الاصطفاء: اختيار الله لهم لرسالته وأداء أمانته.

(١٠) عزز: جعلها عزيزة محترمة. والحظوة: القرب؛ أى قربهم من الله بسبب كونهم مكرمين عنده بالرسالة.

شبَّه مَنْ شبَّهَ فى كرامةٍ نالها ، أو معرَّة قَصَدَ الانتفاء منها[١] ، أو ضَرْب مثَلٍ لتطييب مجْلسه ، أو إغْلاء[٢] فى وصفٍ لتحسين كلامهِ بمن عظَّم اللهُ خَطَره[٣] ، وشرَّف قَدْره ، وألزم تَوْقِيرَه وبِرَّه ، ونَهَى عن جَهْرِ القولِ[٤] له ، وَرَفْع الصوتِ عنده .

فحقُّ هذا إنْ دُرِئ[٥] عنه القَتْلُ الأَدَبُ والسِّجْنُ وقوةُ تَعْزِيره بحَسَبِ شُنْعةِ[٦] مَقَاله ، ومقتضى قُبْحِ ما نَطق به ، ومألوف عادَته لِمثْلِه ، أو نُدوره[٧] ، وقرينةِ كلامهِ ، أو نَدمهِ على ما سبق منه ؛ ولم يَزَل المتقدِّمون يُنْكرونَ مِثْلَ هذا ممَّن جاءَ به ؛ وقد أنْكر الرشيدُ على أبى نُوَاس قوله[٨] :

فإنْ يكُ باقِى سِحْرِ فرعونَ فيكمُ ... فإنَّ عَصَا موسى بكفٍّ خَصِيبِ

(١) فى كرامة : بسبب كرامة . معرة : منقصة أو مشقة . قصد الانتفاء منها ، أى أراد التخلص والتبرى منها .

(٢) إغلاء : غلو ومبالغة .

(٣) خطره : الخطر : القدر والمنزلة .

(٤) بقوله تعالى : ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض .

(٥) درىء : دفع . . .

(٦) شنعة مقاله : قبحه .

(٧) أى إن ألفه واعتاده بتكرير صدوره منه ، أو وقع منه نادرا قليلا ، فكثرته تدل على سوء اعتقاده وعدم مبالاته به . وقلته تدل على أنه خطأ وغفلة من غير اعتقاد له .

(٨) هو الحسن بن هانىء الشاعر المعروف ، ولد بالبصرة ونشأ بها ، ثم ارتحل لبغداد ، واتصل بالخلفاء ومدحهم . وتوفى بعد تسعين ومائة سنة وخمس . والبيت فى ديوانه : ٤٨٤ ، وروايته فيه :

فإن يك فيكم إفك فرعون باقيا

وقال فى هامش الديوان : وكان البيت فى الأصل هكذا :

فإن يك باق إفك فرعون فيكم ... =

وقال له : يابْنَ الأَخْناء[١] ، أنت المستهزئُ بعصا موسَى ! وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته[٢] .

وذكر القُتَبِيّ[٣] أنّ مما أُخِذَ عليه أيضا ، وكُفِّرَ فيه ، أو قاربَ — قولَه فى محمد الأمينِ وتشبيهه إياهُ بالنبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، حيث قال[٤] :

تنازَعَ الأَحْمَدَانِ الشِّبْهَ فاشْتَبَها ... خَلْقاً وخُلْقاً كما قُدّ الشِّرا كانِ

[٢٥٣] وقد أنكروا عليه أيضا قولَه[٥] :

كيف لا يُدْنِيكَ من أَمَلٍ ... منْ رســولُ اللهِ من نَفَرِه

لأنّ حقّ الرسولِ وموجبَ تعظيمه وإنافة[٦] منزلتِه أنْ يُضَاف إليــه ،

= قال : ولا يخفى ما فى هذه الرواية من ضرورة لا يلجأ إليها شاعر مثل أبى نواس ، وعنده عنها متسع من الكلام .

قال الخفاجى : ومعنى البيت أنه خاطب أهل مصر لما تولى عليهم فقال : يأهل مصر، إن كان عندكم بقية من سحر فرعون فقد ولى عليكم أمير المؤمنين من يبطله ، فاستعار سحر فرعون لكيدهم وتجبرهم على حكامهم ، وعصا موسى لسياسة حاكمهم وقمع ظلمتهم .

قال : وهذا فيه تشبيه بديع ، لكن فيه سوء أدب لما فيه من جعل العصا التى هى معجزة لرسول بكف عبد من عبيد الخلفاء ، وجعل ذلك العبد كرسول من أولى العزم .

ورواية البيت فى الشعر والشعراء (٧٨٣) كرواية المؤلف .

(١) هذا مما تشتم به العرب .

(٢) قال الخفاجى : ولكن أبو نواس لم يقصد بما ذكر سبا وتنقيصا ، واتبع الناس فى قولهم لكل فرعون موسى .

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة . وفى هامش ب : القتيبى . والمثبت فى ا ، ب .

(٤) الشعر والشعراء : ٧٨٢ ، والصناعتين : ١١٦

(٥) ديوانه : ٤٣٠

(٦) إنافة منزلته : رفعها على غيرها .

ولا يُضاف[1] .

---

(١) أن يضاف إليه ، فيقال : هو من نفر رسول الله ، ولا يضاف هو إلى غيره .

قال الخفاجي : قال ابن عبد ربه في العقد: قالوا من حق رسول الله أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى غيره ، ولو اتسع متسع لكان له مجاز حسن ؛ وذلك لأنه كقول القائل من بني هاشم لغيره من أبناء قريش: منا رسول الله ؛ يريد أنه من القبيلة التي نحن منها، كقول حسان بن ثابت:

وما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم عز لا ترام ومفخر

فقال : من آل هاشم ، كما قال هذا : من نفره .

وقال شارح ديوان أبي نواس (٤٣) ، عابوا على النواسي هذا البيت؛ ويقول المبرد : وهو لعمري كلام مستهجن موضوع في غير موضعه ؛ لأن حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضاف إليه ولا يضاف إلى غيره . ولو اتسع متسع فأجراه في باب الحيلة لخرج على الاحتيال ، ولكنه غير موضوع في غير موضعه .

ثم تلطف المبرد في الدخول إلى باب الاحتيال الذي ذكره ، واعتذر عن أبي نواس ، فأورد من الشواهد ما يبرئ أبا نواس مما عابوه به ؛ قال حسان :

وما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم عز لا تنال ومفخر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه علي ، ومنهم أحمد المتخير

وقال جرير :

إن الذين ابتنوا مجدا ومكرمة تلكم قريش والأنصار أنصاري

قال في نسيم الرياض (١ – ٤٤٨) :

أقول: يعني أن اللوم إنما جاءه من قوله : من نفره ؛ لنفرة السمع عنها ، لكن من عرف نهج أبي نواس في إلباس كلامه ديباج كلام غيره من القدماء عرف أنه لا فرق بينه وبين قول حسان المذكور .

وقال أبو هلال العسكري في الصناعتين (١١٦) :

وقد تبع في هذا القول حسان بن ثابت في قوله :

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

وقال السهيلي في الروض الأنف :

قال علي بن الأصفر وكان من رواة أبي نواس : لما عمل أبو نواس هذه القصيدة وأتى بهذا البيت وقع لي أنه كلام مستهجن؛ إذ حق رسول الله أن يضاف إليه ولا يضاف إلى أحد ، فقلت =

فالحُكْمُ فى أمثالِ هذا ما بَسطْناهُ فى طريق الفُتْيَا[١] على هـذا المنهج جاءت فُتْيَا إمامِ مذهَبِنا مالكِ بن أنَس رحمه الله وأصحابه :

فى النوادرِ من رِوَاية ابنِ أبى مريم[٢] عنه فى رجُلٍ عَيَّرَ رَجُلا بالفَقْر ؛ فقال : تُعَيِّرنى بالفقْرِ وقد رَعَى النبىُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم الغَنَمَ ؟ فقال مالك : قد عَرَّض[٣] بذِكْرِ النبىِّ صلى الله عليه وسلم فى غير مَوْضِعه ؛ أرى أنْ يُؤَدَّب[٤] ؛ قال : ولا ينبغى لأهْل الذنوبِ[٥] إذا عُوتبوا أنْ يقولوا : قد أخطأتِ الأنبياء قَبْلنا[٦] .

وقال عمر بن عبد العزيز لرجُلٍ : انظُرْ لنا كاتبا يكون أبوهُ عَرَبيًّا . فقال

له : أعرفت هذا البيت ؟ فقال: مايعيبه إلا جاهل بـكلام العرب ؛ إنما أردت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من القبيل الذى هذا الممدوح منه ؛ أما سمعت قول حسان :

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم . . .

وليس هذا بعيب ؛ لأنها إضافة تشريف لاتعريف ؛ بخلاف قول أبى نواس ؛ لأنه ذكر واحدا وأضاف إليه .

(١) فى طريق الفتيا ؛ أى يفتى فيه بما يستحقه على قدر شناعة قوله .

(٢) النوادر : اسم كتاب فى فقه مالك .

وابن أبى مريم هو أبو بكر سعيد بن الحـكم بن أبى مريم الجمحى البصرى الحافظ الثقة ، روى عنه البخارى ، توفى سنة أربع وعشرين ومائتين .

(٣) عرض : نقص تعريضا .

(٤) يؤدب : يعزر لينزجر غيره عن مثله .

(٥) لأهل الذنوب ؛ أى من صدر منهم ذنب .

(٦) فى هذه العبارة تشبيه أنفسهم بالأنبياء ، ونسب الأنبياء لصدور الذنوب منهم؛ وكلاهما مما لايليق التـكلم به ، ومثله لايصدر ممن يعرف مقام الأنبياء الذين هم معصومون من الذنوب كبائرها وصغائرها .

كاتبٌ له : قد كان أبو النبيّ كافرا (١) ، فقال : جعلتَ هذا مَثلا ! فعزله ؛ وقال : لا تكتب لى أبدا (٢) .

وقد كَرِه سَحْنُون أنْ يصلّى عَلَى النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم عند التعجّبِ (٣) إلا على طريقِ الثوابِ والاحتسابِ ؛ توقيرا له وتعظيما (٤) ؛ كما أمرنا اللهُ .

وسُئل القابِسىُّ عن رجُلٍ قال لرجل قَبيحٍ كأنه وَجْهُ نَكِير ، ولرجُلٍ عَبُوسٍ كأنه وَجْهُ مالكٍ الغَضْبان (٥) ؛ فقال: أىّ شىء أراد بهذا ؛ ونَكِيرٌ أَحَدُ فتّانَى (٦) القَبْرِ ، وهما مَلَكان ، فما الذى أرادَ ! أَرَوْعٌ (٧) دخل عليه حين رآه من وَجْهه ، أم عافَ (٨) النظرَ إليه لدمامةِ خَلْقِه ؛ فإنْ كان هذا فهو شَدِيد ، لأنه جرَى مَجْرَى التحقير والتَّهْوِين ؛ فهو أشدُّ عقوبةً ؛ وليس فيه تصريحٌ بالسبِّ لِلْمَلَك ؛ وإنما السب وَاقِعٌ على المخاطَب . وفى الأدبِ بالسَّوْط والسجن نَكَالٌ للسفهاء (٩) ؛ قال:

---

(١) قال الخفاجى : إنما أجابه بهذا ، وهو لم يقل له : يكون أبوه مسلما ، لأن الكتبة فى العصر الأول كانوا من الروم ، والعجم نصارى وصابئة ؛ لمعرفتهم بالحساب .

(٢) وهذا تأديب له وتعزير حتى ينزجر أمثاله عن أمثال هذه المقالة .

(٣) عند التعجب من أمر مستحسن يتعجب منه، كما هو عادة العوام .

(٤) أى يقصد بصلاته عليه الثواب والاحتساب ، أى أن يقوله امتثالا لأمر الله بقوله تعالى: صلوا عليه ؛ فيفعله توقيرا للنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيما كما أمرنا الله تعالى، لا لقصد التعجب، ولا لدفع عين عما تعجب منه ؛ فإنه ليس محلا لذلك .

(٥) اسم ملك خازن النار ، ويوصف بالغضب ؛ لأنه موكل بمن غضب الله تعالى عليه ، فيتلقاهم بصورة الغضب .

(٦) الفتانان : هما ملكا السؤال ، سميا فتانين فى الحديث ؛ من الفتنة ، وأصل معناها الامتحان والاختبار ، لأنهما يختبران مافى قلب الميت من عقيدته وإيمانه .

(٧) الروع : الخوف والفزع .

(٨) عاف النظر : كرهه واستقذر منظره ، فكره النظر إليه .

(٩) وفى الأدب ، أى التأديب بالسوط : بالضرب به . والنكال العقوبة .

وأمّا ذاكِرُ مَالكٍ خازِنِ النارِ فقد جَفَا[١] الذى ذكره عند ما أنكر حالَه من عبوسِ الآخَرِ إلاّ أن يكونَ المعبِّس له يَدٌ[٢] فيُرْهِبُ بعَبْسَتِه ، فيشبّهه القائل على طريقِ الذمِّ لهذا[٣] فى فِعْله ، ولزومهِ فى ظُلْمه صفةَ مالكٍ المَلَكِ المُطِيعِ لربِّه فى فِعْله؛ فيقول كأنه لِلّهِ يَغْضَبُ غَضبَ مالكٍ ؛ فيكون أخفّ ؛ وما كان يَنْبَغِى له التعرُّضُ لمِثْلِ هذا ؛ ولو كان أثْنَى على العَبُوسِ بعبستِه[٤] ، واحتجّ بصفةِ مالكٍ كان أشدّ ، ويعاقَبُ المعاقبةَ الشديدةَ ؛ وليس فى هذا ذَمٌّ لِلْمَلَك ، ولو قصد ذَمَّهُ لقُتِلَ[٥] .

وقال أبو الحسن[٦] أيضا فى شابٍّ معروفٍ بالخير قال لرجلٍ شيئا ، فقال الرجلُ : اسكُتْ؛ فإنك أُمِّىٌّ[٧] . فقال الشاب : أليس كان النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم أُمِّيًّا ! فشنّع عليه مَقَالَه ، وكَفَّره الناسُ ؛ وأشْفَق الشابُّ ممّا قال ، وأظهر الندمَ عليه ؛ فقال

---

(١) جفا : غلظ طبعه ، وقل أدبه .

(٢) له يد : له قدرة وتسلط بالقهر كالسلطان .

(٣) لهذا ، أى لهذا الذى له يد ، أو لهذا الأمر ، شر الناس من يخاف الناس شره .

(٤) وهى عبوسه .

(٥) قال الخفاجى : هذا مذهب مالك . وعند غيره يؤدب ويستتاب ، فإن تاب وإلا قتل. ولا يخفى ما فى كلام المصنف هنا ، وأنه كلام مشوش محتاج للتنقيح والتهذيب بأن يقول : وعن القابسى فيمن قال لقبيح : كأنه وجه نكير ، ولعبوس : كأنه وجه مالك الغضبان : إنه لا يكفر ، إذ لا تصريح فيه بسب الملك ، وإنما السب فيه للمخاطب ، بل يعاقب العقاب الشديد ، فإن قصد ذم الملك قتل .

قال : ويؤخذ من كلامه هنا أن ذم بعض الملائكة وتنقيصه كذم الأنبياء وتنقيصهم؛ وصرح به فى آخر الكتاب .

(٦) هو القابسى السابق .

(٧) هو الذى لا يكتب ولا يقرأ الخط ، نسبة إلى أمة العرب لاشتهارهم بذلك . أو نسبة إلى الأم ، كأنه كما خرج من بطن أمه .

أبو الحسن : أمّا إطلاقُ الـكُفْرِ عليه(١) فخطأٌ ، لـكنه مُخْطِئٌ في استشهادِه(٢) بصفةِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ وكون النبي أُميًّا آيةٌ (٣) له ؛ وكونُ هذا أُميًّا نَقِيصةٌ فيه وجَهَالة .

ومن جهالته احتجاجُه (٤) بصفةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ؛ لـكنه إذا استغفر وتاب ، واعترف ولجأ إلى اللهِ فيُتْرَكُ (٥) ؛ لأنَّ قولَه لا ينتهى (٦) إلى حدّ القَتْل ؛ وما طريقُه الأدَب فطَوْعُ (٧) فاعلِه بالندمِ عليه يوجِبُ الـكفَّ عنه .

ونزلت (٨) أيضا مسألةٌ استفتى فيها بعضُ قضاةِ الأندلس شيخَنا القاضى أبا محمد ابن منصور رحمه الله في رجُل تنقَّصَه [٢٥٦] آخَرُ بشىء ؛ فقال له : إنما تُرِيدُ نَقْصِى بقولك ، وأنا بَشَرٌ ؛ وجميعُ البَشَرِ يَلْحقُهم النَّقْصُ حتى النبي صلى اللهُ عليه وسلم ؛

---

(١) خطأ ، لأن الله وصفه صلى الله عليه وسلم به في قوله تعالى : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي . وهو لم يقصد بذلك ذما ولا تقصيا .

(٢) في استشهاده ، في إتيانه بشاهد ونظير لحاله .

(٣) آية له : معجزة باهرة ، وفضيلة ظاهرة .

(٤) احتجاجه على حسن أميته، وعدم منافاتها للخوض في العلوم . وهذه الجهالة ظاهرة في استشهاده وتمثيله ، فكيف تستوى أميته بأمة غيره ، وقد أتى بعلوم لاتحصى ، وأخبر عما سلف من أحوال الأمم ، وعما هو آت ، وهو في أمة أمية ، ولم يخرج من بينهم، ولا تعلم من أحد ، ولذا كانت ذلك من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم .

قال الخفاجى : فإن استشهد بذلك فهو معذور لايكفر بقوله هذا .

(٥) فيترك ، ولايعاقب ويزجر .

(٦) لاينتهى : لا يصل .

(٧) طوع : تطوع فاعله بالندم عليه معترفا بخطئه . والتوبة والندامة توجب الـكف عنه وتركه من غير معاقبة له .

(٨) نزلت : وقعت .

فأفتاهُ بإطالةِ سِجْنِه ، وإيجاعِ أدبِه [١] ؛ إذ لم يقصد السبّ ، وكان بعضُ فقهاء الأندلس أفتى بقَتْله .

فصـــــل

الوَجْه السادس أن يقولَ القائلُ ذلك حاكياً عن غيره ، وآثِراً [٢] له عن سِوَاه ؛ فهذا يُنظَر فى صورة حكايتهِ وقرينةِ مَقَالتِه ؛ ويختلفُ الحُكْمُ باختلافِ ذلك على أربعة وجوه : الوجوبُ ، والندب ، والكراهة ، والتحريم ؛ فإن كان أخبر به على وَجْه الشهادةِ والتعريف بقائله ، والإنكارِ والإعلام بقولِه ، والتنفيرمنه ، والتجريح له ـ فهذا مما يَنْبَغى امتثالُه [٣] ، ويُحْمَد فاعلُه ؛ وكذلك إن حكاهُ فى كتابٍ أو فى مجلسٍ على طريقِ الردّ له والنقْضِ [٤] على قائله ، وللفُتْيا بما يلزمُه .

وهذا منه ما يجبُ ، ومنه ما يستحبّ بحسبِ حالاتِ الحاكى لذلك والمحكِىّ عنه ؛ فإن كان القائل لذلك ممّن تصدّى لأنْ يُؤخذَ عنه العِلْمُ أو رِوَايةُ الحديثِ ، أو يُقطَع بحُكْمِه أو شهادته ، أو فُتْيَاهُ فى الحقوقِ ـ وجب على سامعِه [٥] الإشادةُ بما سمع منه والتنفِيرُ للناسِ عنه ، والشهادةُ عليه بما قاله [٦] ، ووجب على مَنْ بلغَهُ

(١) بإطالة سجنه : زجرا له ولأمثاله . وإيجاع أدبه : إضافة الإيجاع وهو الإيلام بضربه تعزيرا له ـ إلى تأديبه .

(٢) آثرا : ناقلا له . وفى ا : وإنزاله .

(٣) على وجه الشهادة ، إثباتا أونفيا ، والتعريف بحال قائله وصفته ، والإنكار عليه فيما قاله ، والإعلام بقوله ، ليحكم عليه بما يقتضيه ، والتنفير منه حتى يجتنب ويطرد ، والتجريح له بالطعن فيه وبيان عيوبه ، فهذا النقل على هذه الوجوه مما ينبغى امتثاله والانقياد له وقبول نقله .

(٤) النقض على قائله ؛ أى الإبطال لمقاله بالحجج . وفى ا : والنقص ـ بالصاد .

(٥) المراد به الشهرة مطلقا .

(٦) والشهادة عليه بما قاله ليجتنب ، أو ليجرى عليه أحكامه .

ذلك من أئمة المسلمين إنكارُه ، وبيانُ كُفْرِه ، وفسادُ قَوْلِه ؛ لقَطْعِ ضَرَرِه عن المسلمين ، وقياماً بحقِّ سيِّدِ المرسلين ؛ وكذلكَ إنْ كانَ ممّنْ يَعِظُ العامَّةَ ، أو يؤدبُ الصبيان فإنَّ مَنْ هذه سريرته [١] لا يُؤْمَنُ على إلقاء ذلك فى قلوبهم [٢] ، فيتأكّد [٣] فى هؤلاء الإيجابُ لحقّ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، ولحقِّ شريعته [٤] .

وإن لم يكن القائلُ بهذه السبيلِ [٥] فالقيامُ بحقّ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وَاجبٌ ، وحمايةُ عِرْضِه مُتَعين [٦] ، ونَصْرَتُه عن الأَذَى حيًّا وميتا مسْتَحقٌّ [٧] على كل مؤمن ؛ لكنه إذا قام [٨] بهذا مَنْ ظهر به الحقّ ، وفُصلت به القضيةُ ، وبانَ به الأمرُ سقط عن الباقى الفَرْضُ ، وبَقِى الاستحبابُ فى تكثير الشهادةِ عليه ، وعَضْدِ [٩] التحذير منه .

وقد أجمع السّلَف [١٠] على بيانِ حالِ المتّهم فى الحديثِ ، فكيف بمثْلِ [١١] هذا ؟

وقد سُئل أبو محمد بن أبى زَيْد عن الشاهدِ يَسْمَعُ مِثْلَ هذا فى حقِّ اللهِ تعالى :

---

(١) سريرته : مايضمر فى نفسه .

(٢) فى قلوبهم ، أى قلوب من ذكر من العامة والصبيان الذين يقبلون مايلقى إليهم لعدم معرفتهم ونقد بصيرتهم .

(٣) الإيجاب : أى إيجاب إنكاره وإشاعة فساده .

(٤) لحق النبى على كل أحد، لاسيما الحكام ؛ ولحق شريعته التى يجب الذب عنها وحمايتها ما أمكن.

(٥) بهذا السبيل ؛ أى لم يكن مما يؤخذ عنه العلم والحديث والفتوى .

(٦) متعين : لايتهاون فيه مسلم .

(٧) مستحق : واجب .

(٨) قام بهذا المذكور من الحماية والذب عنه .

(٩) عضد : نصر وتقوية .

(١٠) السلف : المتقدمون من العلماء .

(١١) بمثل هذا المتهم بالغض من مقام النبوة وتنقيصها ، لا فاعتناء بذاته الشريفة ألزم منه بحديثه .

أَيَسَعُه أَلَّا يؤدِّيَ [١] شهادتَه ؟ قال : إنْ رَجَا نفاذ الْحُكْمِ بشهادته فليَشْهَدْ .

وكذلك إنْ عَلِمَ أنَّ الحاكِمَ لايَرَى القَتْلَ بمَا شَهِدَ به ، ويَرَى الاستتابةَ والأَدب فلْيَشْهَدْ ، ويلزمُهُ ذلك [٢] .

وأمَّا الإباحةُ لحِكاية قوله لغير هذَيْنِ المقصدين [٣] ، فلا أرى لها مَدْخلا فى هذا الباب [٤] ، فليس التفكُّه بعِرْضِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم ، والتمَضْمُضُ [٥] بسوء ذِكْرِه لأَحَدٍ [٦] ، لا ذاكِراً ولا آثِراً [٧] لغير غَرَضٍ شَرْعى بمُبَاح .

وأمَّا للأغراضِ المتقدمة [٨] فمتردِّدٌ بين الايجاب والاستحباب [٩] .

وقد حكى اللهُ تعالى مقالاتِ المُفْتَرِين عليه وعلى رُسُلِه فى كتابه على وَجْهِ الإنكار لقولهم ، والتحذيرِ من كُفرهم ، والوعيدِ عليه ، والردِّ عليهم بما تلاهُ اللهُ علينا فى مُحْكَمِ كتابِه .

وكذلك وقَعَ مِنْ أمثالِه فى أحاديث النبىِّ اللهُ صلى الله عليه وسلم الصحيحةِ على الوجوهِ المتقدِّمةِ ، وأجمع السَّلَف والخلَفُ من أئمةِ الهُدَى على حكاياتِ مقالاتِ

(١) أيسعه : أيحل له ويجوز ؟

(٢) قال الخفاجى : وهذا مذهب مالك . ومذهب غيره أنه يلزمه الشهادة مطلقا ، وإن لم يدع ، لأنه لايلزم طالب الشهادة فى حقوق الله ، وما ورد من الذم فى حق من شهد ولم يستشهد محمول على حقوق العباد .

(٣) لحكاية قوله الذى فيه سب وتحقير للأنبياء لغير هذين المقصدين ؛ من الإنكار والتنفير منه ، والتجريح والنقص والإفتاء .

(٤) مدخلا فى هذا الباب الذى يجب به صيانة مقام النبوة .

(٥) التفكه : التحدث على طريق التلهى به . والتمضمض ؛ أى إجراؤه على فمه ولسانه .

(٦) لأحد ؛ أى جائزا لأحد ؛ لأنه يجب تعظيمه واحترام مقامه .

(٧) لاذاكرا له بلفظه ، ولا ناقلا وراويا له عن غيره .

(٨) للأغراض المتقدمة ، من الشهادة عليه عند الحاكم ، أو الإنكار ونحوه مما تقدم بيانه .

(٩) بين الإيجاب والاستحباب : بين كونه واجبا عليه أو مستحبا .

الـكَفَرةِ والمُلْحِدين (١) فى كتُبهم ومجالسهم ليُبيِّنوها للنـاس ، وينقُضُوا شُبَهَهَا عليهم (٢) [٢٥٥] ، وإنْ كان وَرَدَ لأحمد بن حَنْبل إنـكارٌ لبعض هذا على الحارث ابن أَسَدٍ (٣) ؛ فقد صنع أحمدُ مِثْلَه فى رَدِّهِ على الجَهْمِيّة (٤) والقائلين بالمخلوق (٥) .

هذه الوجوهُ السائغة الحـكايةُ (٦) عنها ؛ فأما ذِكْرُها على غير هذا (٧) من حكاية سبِّه والإزراء بمَنْصِبِه على وَجْه الحـكاياتِ والأسمارِ والطُّرَف (٨) وأحاديث الناس ومقالاتهم فى الغَثِّ والسَّمين (٩) ، ومضاحك المُجّان (١٠) ، ونوادرِ السُّخَفاء ، والخوضِ فى قيلٍ وقالٍ ، ومالا يَعْنِى (١١) ـ فـكل هذا ممنوع ، وبَعْضُه أَشَدُّ فى المَنْع والعقوبةِ من بعض ، فما كان مِنْ قائله الحاكى له على غير قَصْدٍ أو معرفةٍ

---

(١) الملحدين : المائلين عن الحق من الزنادقة والمنافقين .

(٢) وينقضوا شبهها : ويبطلوا شبههم ويردوها .

(٣) هو المعروف بالمحاسبى .

(٤) الجهم بن صفوان وأصحابه من المبتدعة وأصحاب المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة . وهو سمرقندى ، وكان جبريا،يرى أن الإنسان لايقدرعلى شىء ولا استطاعة له ، ولا اختيار، أفعاله يخلقها الله فيه ، وتنسب إليه مجازا .

وجهم هذا هلك فى آخر عصر التابعين .

(٥) أى بالقرآن المخلوق،أوبالعمل المخلوق للإنسان ، أى هو يخلقه .

(٦) السائغة : الجائزة الحـكاية عنها .

(٧) على غير هذا الوجه ؛ من الرد والإبطال ونحوه .

(٨) الحـكايات:القصص التى يقصها عوام الناس . والأسمار :جمع سمر ؛ وهو الحديث ليلا للمنادمة والمحاورة . والطرف : جمع طرفة ؛ وهو الأمر المستطرف ؛ أى المستحسن المستجاد .

(٩) فى الغث والسمين ؛ أى المعتد به وغيره . وأصل الغث : المهزول ضد السمين .

(١٠) المجان : جمع ماجن ؛ وهو الذى يعتاد الهزل والسخرية من غير مبالاة .

(١١) مالايعنى : ما لايهم ويعتنى به .

بمقدار ما حكاهُ ، أو لم تكن عادتَه ، أو لم يكنِ الكلامُ من البَشَاعةِ حيثُ (١) هُوَ ، ولم يظهرْ على حاكِيه استحسانُه واستِصْوَابُه ـ زُجِرَ (٢) عن ذلك ، ونُهِيَ عن العودة إليه؛ وإن قُوِّمَ ببعضِ الأَدَب فهو مستوجبٌ له (٣) ، وإنْ كان لفظُه من البَشَاعة حيثُ هو كان الأدبُ أشدَّ .

وقد حُكِي أنَّ رجلا سأل مالكا عمّن يقولُ : القرآنُ مخلوقٌ . فقال مالك : كافر فاقتلوه . فقال : إنما حكيتُه عن غيري . فقال مالك : إنما سمعناهُ مِنْكَ .

وهذا مِنْ مالك على طريقِ الزَّجْرِ والتغليظ ، بدليل أنه لم ينفِّذْ قَتْلَه (٤) .

وإن اتُّهِم هذا الحاكى فيما حكاه أنه اختلقَهُ ، ونسبَه إلى غيره ، أو كانت تلك عادة له ، أو ظهر استِحْسانُه لذلك ، أو كان مُولَعا بمِثْلِه ، والاستِخْفاف (٥) له ، أو التحفَظ لمثله (٦) ، وطلبه ، وروايةِ أشعارِ هَجْوِه صلى اللهُ عليه وسلّم وسبِّهِ (٧) ؛ فحُكمُ

---

(١) حيث هو : حيث هو كريه ومستقبح .

(٢) زجر عن ذلك : وبخ عن حكايته له .

(٣) قوم : أرشد للاستقامة فيما يحكيه ببعض الأدب ؛ بتعزير خفيف يليق به غير الزجر.

(٤) قال الخفاجى : لم ينفذ قتله ؛ أى لم يحكم به حكما قطعيا ؛ فإن المذهب أنه لا يقتل مثله، وإنما يقتل من أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة .

ومن روى من حديث : من قال القرآن مخلوق ـ فهو كافر ـ لم يثبت مع أنه لو ثبت فهو مؤول عندهم .

(٥) الولع بالشىء : الإكثار منه مع إظهار الميل إليه وأنه يحبه ـ والاستخفاف له : أى عده هينا عنده لا محذور فيه .

(٦) أو التحفظ لمثله : أى حفظه كثيرا .

(٧) أى المقول عن المشركين من ذلك .

هذا حُكمُ السابِّ نفسِه، يؤاخذُ بقوله، ولا تنفعُه نِسْبتُه إلى غيره، فيُبادَرُ بقَتْلِه (١) ويعجّل إلى الهاوية أمّه (٢).

قال أبو عُبيدٍ القاسم بن سلّام ـ فيمن حفِظَ شطْرَ بيْت مِمّا هُجِيَ به النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فهو كُفْر (٣).

وقد ذكر بعضُ مَنْ ألَّفَ (٤) في الإجماع ـ إجماعَ المسلمين على تحريم رِوَايةِ ما هُجِيَ به النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم، وكتابتِه (٥) وقراءتِه، وترْكِه متى وُجِدَ دونَ مَحْوٍ (٦)؛ ورَحِمَ اللهُ أسلافَنَا المتّقين المتحرّزين (٧) لدينِهم؛ فقد أسقطوا مِنْ أحاديث المغَازِي والسِّيَر ما كان هذا سبيلَه، وتركوا روايته إلّا أشياء ذكروها يَسِيرةً وغيرَ مُسْتَبْشَعة (٨)، على نحو الوجوهِ الأُوَل، ليُرُوا (٩) نقمةَ الله من قائلها، وأخْذَه المُفترِي عليه بذَنْبه (١٠).

وهذا أبو عُبَيد القاسم بن سلّام رَحِمَه الله قد تحرّى فيما اضطُرّ إلى الاستشهاد به

(١) فى نسيم الرياض: قال ابن حجر: وماذكره من المبادرة بقتله؛ أى إن لم يتب.

(٢) الهاوية: من أسماء جهنم؛ أى مأواه ومصيره، كما أن الأم مأوى الولد ومفزعه.

(٣) قال فى نسيم الرياض: ما ذكره من الكفر ظاهر عند الرضا بذلك واستحسانه، إلا إن قصد به غير ذلك.

(٤) فى ا: اللف.

(٥) فى ا: وكتابه. والمثبت فى ب.

(٦) قال الخفاجى: ماذكر من الإجماع محله فى روايته لغير غرض مسوغ لذلك.

(٧) المتحرزين: الذى يحذرون مثله خوفا منه.

(٨) يسيرة: قليلة. غير مستبشعة: لا قبح فيها ولا سب ولا هضما لمقامه.

(٩) ليروا: ليظهروا بما ذكر معها انتقام الله من قائلها، كأصحاب القليب وغيرهم.

(١٠) فى نسيم الرياض: قال بعض المتأخرين: فخرج من كلامه أن ذكر الأحوال المدخولة حكاية كانت أو استشهادا ـ غير ممتنع إذا اقترن بالذكر قصد جميل كالتأسى، والتحقيق فى الاستشهاد، والرد، وتبيين ماالله عز وجل فى ذلك من الحكمة فى الحكاية.

من أهَاجِى أشعار العرَبِ فى كُتبه ، فكَنَّى عن اسْمِ المَهْجُوّ بوَزْن اسْمِه ؛ استِبْرَاءً لدِينِه [١]،وتحفُّظًا من المشاركة فى ذَمِّ أحَدٍ برِوَايتِه أو نَشْرِه ؛ فكيف بما يتطرّقُ إلى عِرْضِ سيدِ البَشَر صلى اللهُ عليه وسلم [٢].

فصل

الوجه السابع أنْ يَذْكُرَ ما يجوزُ على النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، أو يُختَلفُ فى جوازِه عليه ، وما يطرأُ من الأُمور البشَريّة به ، ويُمكِنُ إضافتُها إليه ، أو يَذْكر ما امْتُحِنَ به ، وصبر فى ذاتِ اللهِ [٣] على شدّته من مُقَاساةِ أعدائه [٤]، وأذاهم له ؛ ومعرفة؛ ابتداء حالِه وسيرتِه ، وما لَقِيَهُ من بُؤْسِ [٥] زَمَنِه ، ومَرّ عليه من مُعاناة [٦] عَيْشِه ؛ كلُّ ذلك على طريق الرواية ، ومُذَاكرةِ العِلْمِ ، ومَعْرِفَة ما صحّتْ منه العصمةُ الأنبياء ، وما يجوز عليهم [٧] ـ فهذا فنٌّ خارجٌ عن هذه الفنونِ الستّة [٨] ؛ إذ ليس فيه غَمْصٌ ولا نَقْص ، ولا إزراء ولا استِخْفافٌ [٩] ، لا فى ظاهرِ اللّفظ [٢٥٦] ولا فى مَقْصِدِ اللّافِظ ؛ لكن يجب أن يكونَ الكلام

---

(١) استبراء لدينه : طلبا لأن يكون دينه بريئا من تنقيص أحد والخوض فى عرضه .
(٢) فى نسيم الرياض : وهذا ـ كما يقال ـ سبك من بلغك ، والحاكى أحد الشاتمين .
(٣) فى ذات الله : لأجل الله ابتغاء لرضاه، لا عجزا منه،ولا لغرض آخر .
(٤) أى صبر على شدائد قاسية من أعداء الدين .
(٥) بؤس زمانه : شدائده .
(٦) معاناة : تعب .
(٧) أى يذكر ذلك لمعرفته لا للإزراء به عليهم .
(٨) الفنون : الأنواع الستة ، وهى الوجوه السابقة التى ذكرت قبل هذا الوجه السابع .
(٩) إزراء واستخفاف : إهانة وتحقير .

فيه مع أهل العلم وفُهماء طلبةِ الدِّين مِمَّنْ يَفْهَمُ مَقَاصِدَهُ، ويحققون فوائده[١]؛ ويجنَّبُ ذلك مَنْ عَسَاهُ لا يَفْقَه، أو يُخْشَى به فِتْنَتُهُ[٢]؛ فقد كَرِهَ بعضُ السلَفِ تعليمَ النساء سورة يوسف، لِمَا انطوَتْ عليه من تلك القِصَص[٣] لضَعْفِ معرفتهنَّ، ونَقْصِ عقولهنّ وإدراكهنّ؛ فقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلم - مُخْبِرًا عن نَفْسه باستيجاره[٤] لرعايةِ الغَنَم في ابتداء حالِه؛ وقال: ما مِنْ نَبِيّ إلّا وقد رعَى الغَنَم.

وأخبرنا اللهُ تعالى بذلك عَنْ مُوسى عليه السلام[٥]؛ وهذا لا غَضَاضَةَ فيه جملةً واحدةً[٦] لِمَنْ ذَكَرَهُ على وَجهِهِ[٧]، بخلافِ مَنْ قَصَد به الغَضَاضَةَ والتحقير؛ بل كانت عادةَ جميع العرب[٨].

---

(١) ويحقق فوائده: يتحققها، لأنه على بصيرة فى مقامات الأنبياء وجلالة قدرهم.

(٢) يجنب ذلك: يبعد ويقصى عن ذكر ذلك من أحوال الأنبياء.

وفى نسيم الرياض: قال ابن حجر: و ما اقتضاه كلامه من حرمة ذكر ما مر للعوام ظاهر إن ظن بقرينة حالهم تولد فتنة لهم منه، أو استخفاف، أو نحوها؛ وإلا فالذى ينبغى الكراهة.

(٣) من تلك القصص؛ أى مافيها من ذكر شغف النساء بالصور الجميلة ومراودتهن، والتحيل منهن للمواصلة لمن يحب.

(٤) باستيجاره: إيجاره نفسه لقريش فى صغره.

(٥) فى رعيه لشعيب عليه السلام فى قوله: إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج.

(٦) جملة واحدة: ليس فى شىء منه أصلا غضاضة.

(٧) على وجهه؛ من مذاكرة أهل العلم.

(٨) بل كانت عادة جميع العرب: بل كانت رعاية الغنم عادة جميع العرب، حتى أولاد أشرافهم.

نعم ، فى ذلك للأنبياء حكمةٌ بالغةٌ ، وتَدْرِيجٌ لله تعالى لهم إلى كرامته[١] ، وتدريبٌ برعايتها لسياسة أُممهم من خَلِيقتِه[٢] بما سبق لهم من الكرامةِ فى الأزَلِ ، ومتقدم العلم[٣] .

وكذلك قد ذكر اللهُ يُتْمَه وعَيْلَتَهُ على طريق المِنَّة[٤] عليه ، والتعريفِ بكرامتِهِ له ؛ فذِكْرُ الذاكِرِ لها على وَجْهِ تَعْرِيفِ حالِه ، والخبرِ عن مُبْتَدئه ، والتعجُّبِ مِنْ مِنَحِ اللهِ قِبَله ، وعظيمِ مِنَّتِه عنده ليس فيه غَضَاضةٌ ؛ بل فيه دلالةٌ على نبوّتِهِ وصحةِ دعوتِهِ ؛ إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديدِ[٥] العربِ ومَنْ ناوَأهُ[٦] من أشرافهم شيئا فشيئا ، ونَمَى أمْرُه[٧] حتى قهرهم ، وتمكّنَ من

---

(١) إلى كرامته ؛ أى إكرامهم بالنبوة والرسالة .

(٢) فيسوس الأمم كما يسوق الغنم ، ويضبط أمورها ويحفظها .

(٣) فى نسيم الرياض :

قال ابن حجر فى شرح البخارى : حصل لهم عليهم الصلاة السلام التمرن برعيها على مايكلفون به من القيام بأمر الأمة والشفقة عليها ، كما يصبر الراعى على سوق غنمه وجمعها إذا تفرقت وحفظها من سبع وذئب وسارق ، وسوقها لما فيه نفعها فى مرعاه ، وتفرده بأمورها منقطعا عن الناس غير مشارك فى أمره ، ولا متوان ؛ فيقيس أمور الناس بعد الرسالة على هذا المنوال ؛ ولذا قال : كلكم راع ومسئول عن رعيته ؛ مع مافيه من تواضعه وكسبه .

(٤) عيلته : كونه فى القيام على أهل وعائلته من قلة معيشته ، فى قوله تعالى : ألم يجدك يتيما فآورى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى . . . والمنة عليه : تعداد النعمة عليه ، لاتحقيرا له — صلى الله عليه وسلم .

(٥) صناديد : جمع صنديد ، وهو السيد الشريف فى قومه الجامع بين الشجاعة والحماسة والجود ، الغالب لمن عاداه وعارضه .

(٦) ناوأه : عاداه . وفى ا : ناواه . وهو بمعناه .

(٧) نمى أمره : زاد واشتهر شأن نبوته .

ملْكِ مَقَالِيدِهم(١) ، واستباحةِ ممالك كثيرٍ من الأُمم غيرِهم ؛ بإظهارِ اللهِ تعالى له ، وتأييدِه بنَصْرِه وبالمؤمنين ، وألّف(٢) بين قلوبهم ، وإمدادِه بالملائكة المسوّمين(٣) ؛ ولو كان ابْنَ مَلِكٍ أو ذَا أَشْياعٍ متقدّمين(٤) لَحسِبَ كثير من الجهّال أنَّ ذلِكَ مُوجِب ظهورِه ، ومُقْتَضى عُلُوّه ؛ ولهذا قال هِرَقْل(٥) ـ حين سأَلَ أبا سُفْيان عنه : هل في آبائه مِنْ مَلِك ؟ فقال : لا . ثم قال : ولو كان في آبائه مَلِك لقُلْنا : رجلٌ يطلبُ مُلْكَ أبيه ، وإذِ اليُتْمُ من صِفَتِه وإحدى علاماته في الكُتُب المتقدمة وأخبار الأمم السالفةِ .

وكذا وقع ذِكْرُه في كتاب أَرْمِيا ؛ وبهذا وصفَه ابنُ ذِي يَزَن لعبد المطلب(٦) ، وبَحِيرا لأَبي طالب(٧) .

وكذلك إذا وُصِفَ بأنه أُميٌّ كما وصَفَهُ اللهُ به(٨) ـ فهي مِدْحةٌ له وفضيلةٌ

(١) مقاليد : جمع مقلاد ؛ وهو المفتاح .

(٢) في ا : واللف . والمثبت في ب .

(٣) وإمداده : إرساله مددا يوم بدر وغيره. المسومين : الذين لهم سمة وعلامة تميزهم عن غيرهم .

(٤) ذا أشياع: صاحب جنود وأتباع ؛ جمع شيعة؛ وهي الفرقة العظيمة من الناس. متقدمين: على زمن ظهوره ؛ بأن كانوا أتباعه من أبيه وجده .

(٥) هرقل : ملك الروم ، سأل عنه ـ لما بلغه خبره ـ أبا سفيان ؛ وأبو سفيان هو صخر ابن حرب ، أسلم ليلة الفتح ، وشهد الطائف حنينا واليرموك ، وتوفى بالمدينة سنة إحدى أو أربع وثلاثين . والحديث في الصحيحين : صحيح البخارى : ١ ـ ٧

(٦) ابن ذى يزن : ملك اليمن . لعبد المطلب جد النبى حين ذهب إليه مع أشراف قريش ليهنئوه بأخذ ملكه من الحبشة ، فاختلى به وبشره بقدوم نبى عظيم ، وأنه لا أب له ، وإنما يكفله جده وعمه .

(٧) وبحيرا لأبى طالب حين ذهب معه للشام . وفي كلامه: يموت أبوه وأمه ويكفله جده.

(٨) أمي: لا يقرأ ولا يكتب، كما وصفه الله تعالى في قوله: فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ...

ثابتةٌ فيه ، وقاعدةُ مُعجزتِهِ (١)؛ إذ مُعجزتُه العظمى من القرآن العظيم إنما هى متعلقة بطريق المعارف والعلوم (٢) ، مع ما مُنِحَ صلى الله عليه وسلم ، وفُضِّل به من ذلك ، كما قدَّمناهُ فى القسم الأول (٣) .

ووجودُ مِثْلِ ذلك من رَجُلٍ لم يقرَأْ ولم يكتُبْ ولم يُدَارِس (٤) ولا لُقِّنَ — مُقْتَضى العجب، ومُنْتَهى العِبَر ، ومعجزةُ البَشَر (٥) .

وليس فى ذلك نَقِيصةٌ ؛ إذ المطلوبُ من الكتابة والقراءة المعرفةُ ؛ وإنما هى آلةٌ لها ، وواسطةٌ موصِّلةٌ إليها غَيْرُ مُرادةٍ فى نفسها ؛ فإذا حصلتِ الثمرةُ والمطلوبُ استُغْنِى عن الواسطةِ والسَّبَب .

والأُمِّيّة فى غيره نَقِيصةٌ (٦) ؛ لأنها سببُ الجهالةِ ، وعُنْوانُ الغَبَاوةِ ؛ فسبحانَ مَنْ بايَنَ أمْرَهُ من أمرِ غيره ، وجعل شرفَه فيما فيه محطّةُ سِوَاه (٧) ، وجعل حياته فيما فيه هلاكُ مَنْ عَدَاهُ ؛ هذا شَقُّ قَلْبِه ، وإخراجُ حُشْوَتِهِ (٨) ، كان تمامَ

(١) قاعدة معجزته : أساس معجزته .
(٢) بطريق المعارف والعلوم التى وصلت إليه مما لم يتفق ولا يمكن لغيره .
(٣) من الباب الرابع .
(٤) ولم يدارس : لم يقارن أحدا يدرس عنده ما يتعلمه من الأفواه .
(٥) ومعجزة البشر التى أعجزتهم عن مثله .
(٦) فى ا : وليس فيه ذاك نقيصة . والمثبت فى ب .
(٧) محطة : نقص وتنزيل . والمراد أن بعض ما زاد به شرفه صلى الله عليه وسلم فيه نقص وتنزيل لغيره .

قال فى نسيم الرياض (٤ — ٤٦٧) : وهو إشارة لما قدمه ؛ من يتمه الذى بين به أن ربه أدبه فأحسن تأديبه ، ورباه من غير منة لمخلوق عليه، فكان — صلى الله عليه وسلم — بهذا مباينا لغيره ممن تربى يتيما ؛ وجعله ذا عيلة ليعلم أنه غنى بالله ، وأنه لم يتبعه من تبعه لأمر دنيوى ؛ وجعله أميا ليعلم أن علمه لدنى ؛ وهذا غاية الشرف ؛ وهو فى غيره نقص وشين .

(٨) المراد ما كان فى داخله من العلقة السوداء .

حياتِه(١) ، وغايةَ قوةِ نَفْسِه ، وثباتَ رُوعِه(٢) ؛ وهو فيمن سِوَاه مُنتهى هَلَاكِه وحَتمُ مَوْتِه وفنائه ، وهلمّ جرًّا إلى سائر ما رُوِىَ من أخباره وسِيَرِه ، وتقلّله من الدنيا [٢٥٧] ومن المَلْبَسِ والمَطْعَمِ والمَرْكب ، وتواضُعه ومَهْنَته نَفْسَه(٣) فى أمورِه ، وخِدْمة بَيْته زُهْداً ورغبةً عن الدنيا ، وتسويةً بين حَقِيرها وخَطِيرها(٤) ؛ لسرعةِ فناء أمورها ، وتقلُّب أحوالها ؛ كلُّ هذا من فضائله ومآثره وشَرَفِه كما ذكرناه ؛ فمن أورد شيئا منها(٥) مَوْرِدَه وقَصَد بها مَقْصِدَه(٦) كان حسناً ، ومَنْ أورد ذلك على غير وَجْهِه(٧) ، وعُلِمَ منه بذلك سوءُ قَصْدِه لَحِق بالفصولِ التى قدمناها .

وكذلك ماوردَ من أخبارِه وأخبارِ سائر الأنبياء عليهم السلامُ فى الأحاديث مما فى ظاهِرِه إشكالٌ يقتضى أموراً لاتَليقُ بهم بحالٍ ، ويحتاج إلى تأويلٍ وتَرَدُّدِ(٨) احتمالٍ ؛ فلا يجبُ أنْ يُتَحدَّثَ منها إلا بالصحيح ، ولا يُرْوَى منها إلا المعلومُ الثابت .

ورَحِمَ اللهُ مالكا ؛ فلقد كَرِهَ التحدُّثَ بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة

---

(١) كان تمام حياته ؛ لأنه أخرج منه ما يتعلق به وسوسة الشيطان ، وملىء علما وحكمة ؛ ففيه تمام الخلقة الحقيقية .

(٢) روعه : قلبه .

قال الخفاجى : أريد بشقه أن يجعل فيه ما يثبته على تلقى الوحى وملاقاة الملائكة .

(٣) مهنته نفسه : خدمته نفسه .

(٤) الخطير : العظيم .

(٥) مورده : فى محله الذى ينبغى .

(٦) مقصده : الذى يليق بقدره وشرفه .

(٧) على غير وجهه اللائق به لإيهامه تحقيرا وتنقيصاله .

(٨) تردد احتمال : تردد سامعها ، لاحتمالها لوجوه أخر .

للتشبيه[١] والمشكلةِ المعنى ؛ وقال : ما يَدْعُو الناسَ إلى التحدُّث بمِثْلِ هذا ؟ فقيل له : إنَّ ابْنَ عَجْلان[٢] يحدِّثُ بها ؛ فقال : لم يكن من الفُقَهاء ، وليت الناس وافَقُوه على تَرْكِ الحديثِ بها ، وساعدوه على طَيِّها ؛ فأكثرُها ليس تحته عَمَل .

وقد حُكِيَ عن جماعةٍ من السَّلَف ، بل عنهم على الجملة ـ أنهم كانوا يكرهونَ الكلامَ فيما ليس تحته عَمَلٌ[٣] ، والنبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم أَوْردها على قومٍ عَرَبٍ يفهمون كلامَ العَرَب على وَجْهِه ، وتصرُّفاتِهم فى حقيقتهومَجَازِه ، واستعارتِه ، وبَلِيغه وإيجازِه ؛ فلم تكُنْ فى حَقِّهم مشكلةً ، ثم جاء مَنْ غلبَتْ عليه العُجْمة[٤] ، داخَلَتْهُ الأُمية[٥] ؛ فلا يكادُ يفهَمُ مِنْ مقاصدِ العربِ إلّا نَصَّها وصَرِيحَها ، ولا يتحقّق بإشاراتِها إلى غَرَضِ الإيجاز ، وَوَحْيِها[٦] وتبليغِها ، وتلويحِها[٧] ؛

---

(١) للتشبيه : أى تشبيه الله بغيره .

(٢) ابن عجلان : الإمام الثقه المحدث أبو عبد الله محمد بن عجلان الفقيه المدنى ، توفى سنة ثمان وأربعين ومائة .

قال الخفاجى : وكان مالك لايرى التكلم فى المتشابهات ؛ وهذا محمول على نقلها عند العوام الذين لايعرفون مثلها ؛ فلا وجه للإشكال بأنه كيف يجوز أن يكتم ماصح عنه صلى الله عليه وسلم من غير نهى عن نقله . ولوكان مما يجب تركه لم يحدث به أصحابه .

وقيل : إنه لم يوافقه عليه أحد ؛ فإنه لوكان كذلك لم يحدث بها النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ، ولم يقل : بلغوا عنى . وإنما هو ابتلاء الراسخين فى العلم ؛ ليتعبوا أفكارهم ويعملوا أنظارهم فيها حتى يطبقوها على المحكم . وقد فعلوا جزاهم الله كل خير .

(٣) مماليس تحته عمل : مما لايشتمل على الأحكام الشرعية .

(٤) العجمة : عدم الفصاحة .

(٥) الأمية : يريد الجهل بلسان العرب .

(٦) وحيها : رمزها .

(٧) التلويح : التعريض والإشارة .

فتفرّقوا من تأويلها [وحَمْلِها على ظاهِرِها] شذَرَ مَذَرَ[١] ؛ فمنهم مَنْ آمَنَ به ، ومنهم مَنْ كفر .

فأمَّا مالا يصحُّ مِنْ هذه الأحاديثِ فواجبٌ أَلّا يُذْكَرَ منها شيء فى حَقِّ اللهِ ولا فى حقِّ أنبيائه، ولا يُتَحَدَّثُ بها، ولا يُتَكَلَّفُ الكلامُ على معانيها. والصوابُ طَرْحُها[٢]، وتَرْكُ الشُّغْلِ بها إلّا أن تُذْكَرَ على وَجْهِ التعريف بأنها ضعيفةُ[٣] المَقَادِ واهيةُ الإسنادِ[٤] .

وقد أنكر الأشياخ على أبى بكر بن فُورك[٥] تكلُّفَه فى مُشْكِله[٦] الكلامَ على أحاديثَ ضعيفةٍ موضوعةٍ لا أَصْلَ لها ، أو منقولةٍ عن أهلِ الكتابِ الذين يلبِّسُونَ[٧] الحقَّ بالباطل كان يَكفيه طَرْحُها[٨] ، ويُغْنيه عن الكلامِ التنبيهُ على ضَعْفِها ؛ إذ المقصودُ بالكلام على مُشْكِلِ ما فيها إزالةُ اللَّبْس ، واجتثاثُها[٩] من أصلها ، وطَرْحُها أكشفُ لِلَّبْسِ وأشفى للنفس[١٠] .

---

(١) شذر مذر : ذهبوا فى المتشابه إلى مذاهب وجهات ؛ تفرقوا ، فمن قائل : نؤوله ، ومن قائل نبقيه على ظاهره ، ومن قائل : نؤمن به من غير تعرض لمعناه وكشف القناع عنه . وفى هامش ب: قوله شذر مذر معناه أخذ وافى كل وجه . ومابين القوسين فى هامش ب.

(٢) طرحها : تركها .

(٣) ضعيفة المقاد : ضعيفة طريق الرواية .

(٤) واهية الإسناد : إسنادها شديد الضعف ساقط عن درجة الاعتبار .

(٥) هو الإمام محمد الحسن بن فورك الشافعى المحدث الأصولى ، توفى سنة ست وأربعمائة.

(٦) فى مشكله : فى كتابه الذى سماه « مشكل الحديث » فى المتشابه .

(٧) يلبسون : يخلطون .

(٨) طرحها : ترك ذكرها .

(٩) اجتثاثها : قلعها وقطعها .

(١٠) قال الخفاجى : فإنها بعد شيوعها لابد من بيانها حتى لا يغتر بها الجهلة .
وفى كتاب ابن فورك فوائد جليلة ومعان بديعة يعرفها من وقف عليه ، مع أن فى كتابه أحاديث منها ما هو صحيح ، ومنها ما هو ضعيف نبه على ضعفه .

فصـــل

ومما يجبُ على المتـكلم فيما يجوزُ على النبيّ صلى اللهُ عليــه وسلم وما لايجوز ؛ والذّاكِرُ من حالاته مما قدّمناه فى الفصل قَبْلَ هذا على طريق المذاكرة والتعليم(١) ـ أنْ يلتزِمَ فى كلامِه ـ عند ذِكْرِه صلى اللهُ عليه وسلم ، وذِكْرِ تلكَ الأَحوالِ ـ الواجبَ من توْقيره وتعظيمِه ، ويراقبَ حالَ لسانِه ، ولا يُهْمِلَه(٢) ، وتَظْهر عليـه علاماتُ الأَدَبِ عند ذِكْرِه ؛ فإذا ذَكَر ما قاساهَ من الشدائد ظهر عليه الإشفاقُ والارتماضُ(٣) ، والغَيْظُ على عدوِّه ، وموَدّةُ الفِداء(٤) للنبى صلى اللهُ عليه وسلم لو قَدَر عليه ، والنُّصْرَةُ له لو أمكنَتْه .

وإذا أخذ(٥) فى أبوابِ العصمةِ ، وتـكلَّم على مجارى أعماله(٦) وأقواله صلى اللهُ عليه وسلم تحرّى أحْسَنَ [٢٥٨] اللّفْظِ وأدَبَ العبارةِ ما أمكنه ، واجْتَنَبَ بَشِيعَ ذلك(٧) ، وهَجَرَ(٨) من العبارةِ ما يَقْبُح ؛ كلَفْظَةِ الجَهْل والْـكَذِب والمَعْصِية ؛ فإذا تـكلَّم فى(٩) الأقوال قال : هل يجوزُ عليه الخُلْفُ(١٠) فى القَوْلِ والإخبارِ بخلاف

---

(١) المذاكرة مع أقرانه ، والتعليم لمن هو دونه .

(٢) يراقب حال لسانه بتعبيره بعبارة حسنة . ولا يهمله ؛ أى لا يترك توقيره .

(٣) الإشفاق ؛ بإظهار شفقته عليه مما أصابه . والارتماض ؛ أى احتراقه ولوعته ؛ من ارتمض الرجل من كذا ، إذا اشتد عليه وأقلقه .

(٤) مودة الفداء : تمنى أن يكون فدية له بنفسه وأهله وماله من جميع المـكاره ؛ أى أن يسلم النبى صلى الله عليه وسلم ويحل به هو ما حل بالنبى عوضا عنه .

(٥) إذا أخذ : شرع فى التـكلم .

(٦) على مجارى أعماله : على ما جرى من أعماله .

(٧) بشيع ذلك : ما فيه بشاعة وقباحة يمجها السمع .

(٨) هجر : ترك .

(٩) فى الأقوال : فيما يتعلق بأقواله صلى الله عليه وسلم .

(١٠) الخلف : المخالفة .

ماوقع سَهْوًا أو غَلَطا ، ونَحْوُه من العبارة ، ويتجنّب لَفْظَةَ الكَذِب جملةً(١) واحدةً.

وإذا تكلّمَ على العلم قال : هل يجوزُ ألّا يَعلَمَ إلا ما عُلِّمَ(٢) ؟ وهل يمكنَ ألّا يكونَ عنده عِلْمٌ من بعض الأشياء حتى يُوحَى إليه ؛ ولا يقول(٣) يَجْهَل ؛ لقُبْحِ اللفظِ وبَشَاعتِه(٤) .

وإذا تكلّمَ فى الأفعال(٥) قال : هل يجوزُ منــــه المخالفةُ فى بعض الأوامِرِ والنواهى(٦) ومواقعةُ بعض الصغائر ؟ فهو أوْلَى وآدبُ من قوله : هل يجوزُ أنْ يَعْصِيَ أو يُذْنِبَ أو يفعلَ كذا وكذا ، من أنواعِ المعاصى ؟ فهذا من حق توقيره صلى اللهُ عليه وسلم ، وما يجبُ له من تَعْزِيزٍ(٧) وإعظام .

وقد رأيتُ بعضَ العلماء لم يتحفّظْ من هذا ، فقُبِّحَ منه(٨) ، ولم أستَصْوِبْ(٩) عبارته فيه .

---

(١) جملة واحدة ؛ أى بجميع ألفاظه .

(٢) ما علم : ما علمه الله تعالى .

(٣) ولا يقول ــ فى التعبير عن هذا : « يجهل » ؛ وإن كان الجهل عدم العلم .

(٤) فى نسيم الرياض (٤ ــ ٤٧٢) : قال الباقلانى : يجوز عقلا كون النبى صلى الله عليه وسلم غير عالم ببعض شرائع من قبله ، وكونه غير عالم بلغات غير قومه ، وبعض أمور الدنيا كالحرف والصنائع .

(٥) فى الأفعال : فى أفعاله صلى الله عليه وسلم .

(٦) فى بعض الأوامر التى أمر الله بها . والنواهى : التى نهاه الله عنها .
ومواقعة : ووقوع .

(٧) تعزيز : تعظيم فى نفسه ، وإعظام عند غيره .

(٨) فى ا : فقبح ــ بالبناء للمعلوم .

(٩) لم أستصوب : لم أعده صوابا .

ووجدتُ بعضَ الجائرين قوَّلَه(١) لأَجْلِ تَرْكِ تحفُّظِه فى العبارة مالم يَقُلْه ؛ وشنَّع عليه بما يَأْباهُ ، ويُكفِّرُ(٢) قائلَه .

وإذا كان مِثْلُ هذا بين الناسِ مستَعْمَلاً فى آدابِهم وحُسْنِ مُعاشرتِهم وخِطابِهم؛ فاستعمالُه فى حقِّه صلّى اللهُ عليه وسلم أوْجبُ ، والتزامُه آكد .

فجودةُ العبارةِ تُقَبِّحُ الشَّىْء أو تُحَسِّنه(٣) ، وتحريرُها(٤) وتهذيبُها تُعظِّم الأمْرَ أو تهوِّنُه ؛ ولهذا قال صلى اللهُ عليه(٥) وسلّم : « إنَّ من البيانِ لسحْرًا »(٥) .

فأمّا ما أوْرده على جهةِ النَّفْى عنه والتنزيه فلا حَرَجَ فى تسريح(٦) العبارة وتصريحها فيه ؛ كقوله : لا يجوز عليه الكذِبُ جملةً ، ولا إتيان الكبائر بوَجْهٍ ،

---

(١) الجائرين : المائلين عن الإنصاف . قوله : من التقول ؛ وهو تكلف القول والافتراء عليه .

(٢) ويكفر قائله : هذا الضبط فى ا . وفى ب : ضبطت الفاء بالشدة والفتحة .

(٣) تقبح الشىء : تجعل الحسن قبيحا . أو تحسنه ؛ أى تجعله حسنا .

(٤) وتحريرها:أى جعل العبارة محررة منقحة وتهذيبها ؛ أى تخليصها مما لا يحسن قوله . يعظم الأمر : يصيره عظيما وإن كان هينا . أو يهونه : يجعله هينا وإن كان عظيما فى نفسه .

(٥) فى الحديث الصحيح : صحيح مسلم : ٥٩٤ ، وسنن الترمذى : ٤ — ٣٧٦،والبيان بمعنى الفصاحة واللسن ، بمن له ذكاء وفطنة . وقيل : هوالكلام المنقح القريب إلى الأفهام للمبين له أحسن تبيين وأقربه.لسحرا ، أى كالسحر فى صرف العقول ؛ أى يميل به القلوب ويرضى به الساخط ، ويستذل به الصعب . قال فى نسيم الرياض : واعلم أن ما ذكره المصنف باب عظيم من أبواب البلاغة ، وهو أن الكلام المتحد المعنى باختلاف العبارة ؛ كما حكى عن الرشيد أنه رأى فى منامه أن أسنانه كلها وقعت ، وتعبيره ذهاب الأعوان والأنصار ، فطلب معبرا يعبر رؤياه ، فأتى له برجل عابر ؛ فقال له : يموت أولادك وأحباؤك ، وترى مصيبتهم . فأمر بقلع أسنانه كلها . ثم أتى بآخر فقال:عمرك أطول من عمر أهلك وحواشيك وأحبائك . فأمر أن يحشى فؤاده درا .

(٦) تسريح العبارة : إطلاقها من غير احتراز .

ولا الجوْر فى الحُكم على حال ؛ ولكن مع هذا يجبُ ظهورُ توقيرِه وتعظيمه عند ذِكره مجرَّداً ؛ فكيف عند ذِكرِ مثلِ هذا .

وقد كان السلفُ تظهرُ عليهم حالاتٌ شديدةٌ عند مجرَّدِ ذِكرِه ، كما قدَّمناه فى القسم الثانى .

وقد كان بعضُهم يلتزمُ مِثلَ ذلك عند تلاوةِ آيِ من القرآن ، حكى اللهُ تعالى فيها مَقالَ عِدَاه ؛ ومَنْ كفرَ بآياته ، وافترى عليه الكذبَ ؛ فكان يخفِضُ بها صوتَه إعظاما لربّه ، وإجلالاً له ، وإشفاقاً من التشبُّه بمَنْ كفر به .

الباب الثاني

في حُكم سابِّه وشانئه (١) ومتنقّصه ومُؤذيه وعُقوبته وذِكْر استتابته ووراثته

قد قدّمنا ما هُوَ سبٌّ وأذًى في حقّه صلى اللهُ عليه وسلم ، وذكَرْنا إجماعَ العلماء على قَتْلِ فاعلِ ذلك وقائلِه (٢) ، أو تخيير الإمامِ في قتلِه أو صَلْبِه (٣) على ما ذكرناه، وقرّرْنا الحُجَجَ (٤) عليه .

وبعد فاعلم أنّ مشهورَ مَذْهَبِ مالك وأصحابِه ، وقولَ السَّلَف وجمهورِ العلماء قَتْلُه حدًّا لا كُفْرًا إنْ أظهرَ التوبةَ منه (٥) ؛ ولهذا لا تُقْبَل عندهم تَوْبَتُه (٦) ، ولا تنفَعُه استقالتُه ولا فيئَتُه (٧) كما قدّمناهُ قَبْلُ ، وحُكْمُه حُكْمُ الزِّنْدِيق ، ومُسِرّ الكفرِ في هذا القولِ ؛ وسواءٌ كانت توبتُه على هذا بعد القُدْرةِ عليه والشهادةِ على قوله ، أو جاء تائبا مِنْ قِبَل نَفْسه ؛ لأنه حَدٌّ وَجَب لا تُسْقِطُه التوبةُ كسائر الحدود (٨) .

---

(١) شانئه : مبغضه .

(٢) وقائله : من يقوله ويتكلم به .

(٣) في قتله بالسيف ، أو صلبه تشهيرا له بين الناس .

(٤) الحجج والبراهين من الكتاب والسنة .

(٥) حدا ؛ لأنه حد قذف مخصوص بالأنبياء لا كفرا ؛ أي لا يقتل بسبب كفره ، لأنه ردة — إن أظهر التوبة منه ؛ لأنه إن أصر عليه يكون كافرا .

(٦) لا تقبل توبته ؛ لأن الحدود لاتسقط بالتوبة ؛ وإنما تنفعه توبته في الآخرة إن أخلص فيها ولم تكن تقية .

(٧) فيئته : رجوعه عما صدر منه .

(٨) قال الخفاجي : وكون الحدود لاتسقط بالتوبة ليس على إطلاقه متفقا عليه ؛ وإنما هو فيما إذا كان محض حق الآدمي ؛ أما ما هو حق الله ففيه خلاف . وسيأتي تفصيل هذا الحكم .

قال الشيخ أبو الحسن القابسىّ رحمه الله : إذ أقرّ بالسبّ ، وتاب منهُ ، وأظهرَ التوبة ـ قُتِل بالسّبّ ؛ لأنه هو حَدُّه(١) .

[٢٥٩] وقال أبو محمد بن أبى زَيْد فى(٢) مِثْله ، وأما ما بَيْنه وبَيْنَ اللهِ فتوبتُه تَنفَعه(٣) .

وقال ابنُ سُحْنون : مَنْ شتَم النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم من الموحّدين(٤) ، ثمّ تاب عن ذلك لم تُزِل(٥) توبتُه عنه القَتْلَ .

وكذلكَ قد اختُلف فى الزنديق إذا جاء تائبا ؛ فحكى القاضى أبو الحسَن ابن القصّار فى ذلك قولين :

قال : من شيوخنا من قال : أقتُلُه بإقرارِه ؛ لأنّهُ كان يَقدِرُ على سَتْرِ نَفسه ، فلما اعترف خِفْنَا أنه خَشِى الظهورَ عليه فبادرَ(٦) لذلك .

ومنهم من قال : أقبَلُ توبتَه ؛ لأنى أستَدِلُّ على صِحّتِها(٧) بمجيئه ؛ فكأننا وقَفْنا على باطنه ، بخلاف مَنْ أسرَتْهُ البيّنة(٨) .

قال القاضى أبو الفضل(٩) : وهذا قولُ أصبغ ، ومسألةُ سابِّ النبىّ صلى الله

---

(١) حده : حد هذا السب الخاص بالأنبياء .
(٢) هذا فى ا ، ب . فى مثله : فى نظيره .
(٣) فتوبته تنفعه تفضلا منه ؛ فإنه يقبل التوبة من عباده .
(٤) من الموحدين : المراد من المسلمين ، فيخرج بهم أهل الكتاب .
(٥) لم تزل : لم ترفع .
(٦) بادر لذلك : أسرع قبل أخذه .
(٧) على صحتها : صحة توبته .
(٨) أسرته البينة : شهدت عليه وألزمته حتى كأنه أسير شد فى وثاق .
(٩) هو المؤلف .

عليه وسلم أقوى(١) ، لا يُتَصوَّرُ فيها الخلافُ على الأصل المتقدم ؛ لأنه حقٌّ متعلِّقٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولأمته بِسَبَبِه لا تسقِطُه التوبةُ كسائر حقوقِ الآدميين .

والزِّنْدِيقُ إذا تاب بعد القُدْرة عليه فعند مالك، والليثِ(٢)، وإسحاقَ، وأحمدَ، لا تُقْبَل توبتُه .

وعند الشافعي تُقْبَل .

واختُلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف .

وحكى ابنُ المنذر ، عن علي بن أبي طالب رضى اللهُ عنه : يُسْتَتَابُ(٣) .

قال محمد بن سُحْنون : ولم يَزُلِ القَتْلُ عن المسلم بالتّوبة مِنْ سبِّه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم ينتقِلْ مِنْ دِينٍ إلى غيره(٤) ، وإنما فعل شيئا حَدُّه عندنا القَتْلُ لا عَفْوَ فيه لأحدٍ ، كالزِّنديقِ ؛ لأنه لم ينتقِلْ من ظاهرٍ إلى ظاهرٍ .

وقال القاضي أبو محمد بن نصرٍ مُحْتجًّا لسقوطِ اعتبارِ تَوْبته : والفَرْقُ بينه وبين مَنْ سبَّ اللهَ تعالى على مشهورِ القولِ باستتابته(٥) ـ أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بَشَرٌ ، والبَشَر جنسٌ تلحقُه المعرّة إلَّا مَنْ أكرمَهُ اللهُ بنبوّته ، والبارِئ تعالى مُنَزَّهٌ عن جميع المعايب قطعا ، وليس من جنْسٍ تلحقُ المعرّةُ(٦) بجِنْسِه ، وليس سَبُّهُ

---

(١) أقوى فى حكم القتل من مسألة الزنديق ؛ لأنه حق الله ، وهذا ترجيح منه للقول الثانى .

(٢) الليث بن سعد ، وإسحاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل .

(٣) يستتاب : تقبل توبته إن تاب بعد القدرة عليه ، وإلا قتل .

(٤) فليس مرتدا ، وإنما هو على دين الإسلام ، لكنه صدر منه مايوجب الحد عليه .

(٥) باستتابته وقبول توبته .

(٦) المعرة : النقيصة التى يلحق صاحبها عار . وهى أيضا المساءة والإثم .

صلى اللهُ عليه وسلم كالارتدادِ المقبولِ فيه التوبةُ ؛ لأنّ الارتدادَ معنًى ينفردُ به (١) المرتدُّ ، لاحقَّ فيه لغيره من الآدميين ؛ فقُبلت توبتهُ (٢) . ومن سبَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم تعلّق فيه حقٌّ لآدمى ، فكان كالمُرتدّ يقتُلُ (٣) حين ارتداده أو يَقْذِف (٤) ؛ فإنّ توبتَه لا تُسْقِطُ عنه حَدَّ القَتْلِ والقَذْف .

وأيضا فإنّ تَوْبَةَ المرتدِّ إذا قُبِلَتْ لا تُسْقِطُ ذنوبَه من زِناً وسرقةٍ وغيرها ، ولم يُقْتَلْ سابُّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم لكُفْرِه ، لكن لمعنًى يرجِعُ إلى تعظيم حُرْمته وزوالِ المَعرَّةِ به ، وذلك لا تُسْقِطه التَّوْبة (٥) .

قال القاضى أبو الفضل (٦) : يريدُ ــ واللهُ أعلم : لأنَّ سبَّهُ لم يكن بكلمةٍ تقتضى (٧) الكفر ، ولكن بمعنى الإزراء والاستخفاف ؛ أو لأنَّ بتوبته وإظهار

---

(١) ينفرد به المرتد : يختص به فى نفسه .

(٢) توبته ، أى المرتد .

(٣) يقتل حين ارتداده ، أى يقتل المرتد رجلا آخر حال ارتداده ، فحينئذ يتعين قتله لحق الآدمى الذى قتله قصاصا .

(٤) أو يقذف المرتد حال ردته ، فلابد من إقامة حد القذف عليه لتعلق حق الآدمى به .

(٥) لأنه متعلق بعرضه ، فهو حق له كحقوق الآدميين .

قال الخفاجى : وهذا هو القول الصحيح عند أبى حنيفة والشافعى وغيرهما .

ثم قال : وفى قول إنها تسقط أيضا ، لقوله تعالى فى الزنا : «فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما» .

وفى السرقة : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » .

ولا خلاف فى سقوطها فيما بينه وبين الله بعدم مؤاخذته بها .

وقال النووى فى الروضة : سقوط الحدود بالتوبة قول ضعيف .

(٦) هو المؤلف .

(٧) كلمة تقتضى الكفر ، كإنكار نبوته ونحوه ، فهذا ليس محل خلاف .

إنابتِه ارتفع عنه اسم الـكُفْرِ ظاهرا ، واللهُ أعلم بسريرته ، وبَقِيَ حُـكْمُ السبِّ عليه (١) .

[وقال أبو عِمْران القابسىّ (٢) : مَنْ سبَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم ، ثم ارتدَّ عن الإسلام قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ ؛ لأن السبَّ من حُقُوقِ الآدميين التى لا تسقطُ (٣) عن المرتدّ] (٤). وكلامُ شيوخنا هؤلاء مبنىٌّ على القول بقَتْلِهِ ؛ حدًّا لا كُفْراً (٥) ؛ وهو يحتاج إلى تفصيل .

وأمّا على رواية الوليد بن مسلم عن مالك ومَنْ وافقه على ذلك مِمَّنْ ذكرناه وقال به من أهل العلم ـ فقد صرّحُوا أنه رِدّةٌ ؛ قالوا : ويُسْتَتَابُ منها ؛ فإنْ تاب نُـكِّلَ (٦) ، وإن أَبى قُتِلَ ، فحُـكم له بحُـكْمِ المرتدّ مطلقا فى هذا الوَجْه .

---

(١) بقى حكم السب عليه لم يرتفع ، فيقتل حدا ؛ فلو أصر فهو كافر .

قال الخفاجى : وفى قوله إزراء واستخفاف نظر ؛ لأن الإزراء به صلى الله عليه وسلم والاستخفاف به كفر ، بل من أعظم الـكفر ، فاستدراكه ليس فى محله .

ثم إنه قيل : إنه إذا كان حدا فـكيف يترك ، والحدود لايتسامح فيها ؟وقد ترك النبى صلى الله عليه وسلم قتل بعض من سبه وآذاه!إلا أن يقال : إنه من خصائصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جواز تركه إذا كان له فيه حق .

(٢) فى هامش ب : الفاسى .

(٣) لا تسقط عن المرتد وإن تاب ، لـكن توبته إن أظهرها وأخلص فيهـا نفعته فى الآخرة .

(٤) مابين القوسين ليس فى ا ، وهو فى هامش ب : وبجانبه : هذا المسلم عليه من الأم بخطه من الرواية .

(٥) حدا لا كفرا ؛ حدا لقذفه الأنبياء ، لا كفرا بردته .

(٦) نـكل : عوقب بتعزيره وضربه ونحوه .

والوجْهُ (١) الأوّل أشهر وأظهر لمـا قدمناهُ ، ونحن نَبْسُطُ الـكلامُ فيه ؛ فنقول [٢٦٠] :

مَنْ لم يَرَهُ رِدَّةً فهو يُوجِبُ القَتْلَ فيه حدًّا ؛ وإنما نَقُولُ ذلك مع فَصْلين (٢) : إمَّا مع إنـكاره ما شُهِدَ به عليه (٣) ، وإظهارِه الإقلاعَ (٤) والتوبةَ عنه ؛ فنَقْتُلُه حدًّا لثبَاتِ كلمةِ (٥) الـكُفْرِ عليه في حق النبي صلى اللهُ عليه وسلم (٦) ، وتَحْقِيرِه ما عظَّمَ اللهُ مِنْ حقِّه ؛ وأَجْرَينا (٧) حُـكْمَه في ميراثِه. وغَيْرُ ذلك (٨) حُـكْمُ الزِّنْديق إذا ظهرَ عليه وأنـكر أو تاب .

فإن قيل : فـكيف تُثْبِتُونَ عليه الـكُفْرَ ، ويُشْهَدُ عليه [بكلمة الـكُفْرِ] (٩) ولا تحـكُمُون عليه بحُـكْمِهِ من الاسْتِتَابةِ وتوابعها (٩) !

قلنا : نحن وإنْ أثبَتْنا لهُ حُـكْمَ الـكافرِ فلا نَقْطَع (١٠) عليه بذلك ؛ لإقرارِه

---

(١) الوجه الأول ؛ هو أنه يقتل حدا لا كفرا .

(٢) مع فصلين : في وجهين وصورتين مخصوصتين في كل منها فصل وتمييز عن غيره .

(٣) ماشهد به عليه ؛ من سبه صلى الله عليه وسلم ؛ ولأجل إنـكاره لم يحـكم بكفره ، لـكن قامت البينة العادلة عليه .

(٤) الإقلاع : الترك بالـكلية والرجوع عنه .

(٥) لثبات كلمة الـكفر بشهادة أمضاها الحاكم عليه .

(٦) في حق النبي صلى الله عليه وسلم : بسبه له ، فيحد حد قاذف الأنبياء ، وهو القتل .

(٧) وأجرينا حـكمه ؛ أي حـكم الساب المنـكر ذلك في ميراثه ؛ فورثنا ورثته منه لظاهر إسلامه .

(٨) وغير ذلك من حقوق المسلمين .

(٩) بحكمه : بحكم الـكافر المرتد . من الاستتابة وتوابعها : من ترك قتله إذا تاب ونحوه . ومابين القوسين ليس في ا .

(١٠) لانقطع عليه بذلك : لانجزم بهذا الحـكم .

بالتوحيدِ والنبوّة ، وإنكارِه ما شُهِد به عليه ، أو زَعْمِه(١) أنَّ ذلكَ كان منه وَهَلًا ومعصيةً(٢) ، وأنه مُقْلِعٌ عن ذلك نادِمٌ عليه ، ولا يَمْتَنِعُ إثباتُ بَعْضِ أحكام الكُفْرِ(٣) على بعض الأشخاصِ وإنْ لم تَثْبُتْ له خصائصه ؛ كقَتْل تاركِ الصلاة(٤).

وأمّا مَنْ عُلِمَ أنه سَبهُ مُعْتَقِداً اسْتِحْلَالَه(٥) فلا شَكَّ في كُفْرِه بذلك.

وكذلك إنْ كان سبّهُ في نفسه كُفَراً(٦) ، كتكذيبه أو تكفيره ونحوه ؛ فهذا

(١) زعمه : ادعاؤه .

(٢) وهلا : خطأ وذهولا . ومعصية ؛ أى زعمه أنه معصية لما سبق إليه وهمه من غير تعمد منه .

(٣) بعض أحكام الكفر ؛ كالقتل .

(٤) قال الخفاجى :

قتل تارك الصلاة عند القائل به ، كالشافعى رضى الله عنه ؛ وهذا إذا تركها كسلا وتهاونا، لاجحدا لها فإنه كفر بالاتفاق .

وعلى ماتقرر من مذهب الشافعى قال السبكى فى طبقاته : للمزنى فيه إشكال صعب ؛ فإن هذا لايتصور؛ لأنه إما أن يكون على ترك صلاة مضت أولم تأت ، والأول باطل ؛ لأن المقضية لايقتل تاركها ، والثانى كذلك ؛ لأن له التأخير مالم يخرج الوقت ؛ فعلام يقتل تاركها ؟

وقد أجيب عنه بوجوه :

الأول ـ أنه وارد فى التعزير والضرب ، فالجواب الجواب ؛ وهو جدلى .

الثانى ـ أنه على الماضية ؛ لأنه تركها بلا عذر .

ورد بأن القضاء لايجب على الفور ، وبأن الشافعى لايقتل بالمقضية مطلقا . ومذهب أصحابه أنه لايقتل بالامتناع عن القضاء .

الثالث ـ أنه يقتل بالمؤداة فى آخر وقتها ، ويلزمه أن المبادرة إلى القتل لتارك الصلاة أحق منها إلى المرتد ، إذ يستتاب ، وهذا لايستتاب ولا يمهل ؛ إذ لو أمهل صارت مقضية .

قال الخفاجى : أقول : قد يقال : مراده من اعتاد ذلك بقطع النظر عن كونها أداء أو قضاء لما فى تهاونه بما هو عماد الإسلام .

(٥) معتقدا استحلاله ؛ أى وهو يعتقد أن سبه يحل له مع حرمته إجماعا .

(٦) إن كان سبه فى نفسه : أى ماسبه به ، فإن أنواع السب متفاوتة .

مما لا إشكال فيه (١) ، ويُقتَلُ وإنْ تاب منه ؛ لِأَنّا لا نقبَلُ توبَتَه ، ونقتلُه بعد التوبةِ (٢) حدًّا ؛ لقولِه ، ومتقدّم كُفْرِه (٣) ؛ وأمْرُه بَعْدُ (٤) إلى اللهِ المطَّلِع على صحةِ إقلاعِه ، العالِمِ بسرِّه .

وكذلك مَنْ لم يُظهِر التوبةَ ، واعترفَ بما شُهِدَ به عليه ، وصمَّ عليه ـ فهذا كافرٌ بقوله وباستحلَالِه هَتْكَ حُرْمةِ (٥) اللهِ وحُرْمةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلم يُقتَل كافرا بلا خلاف .

فعلى هـــذه التفصيلات خُذْ كلامَ العلماء ، ونَزِّلْ (٦) مختلفَ عباراتِهم في الاحتجاج عليها (٧) ، وأجْرِ اختلافهم في الموارثةِ وغيرها على ترتيبها تتَّضِحْ لكَ مقاصِدُهم إن شاء الله تعالى .

---

(١) مما لا إشكال فيه : أى فى الحكم بكفره .

(٢) حدا ، لا كفرا لرجوعه عنه .

(٣) لقوله الذى صدر منه ، ومتقدم كفره قبل توبته ؛ صيانة لمقام النبوة .

قال الخفاجى :

وهذا أحد المذهبين فيه عند الشافعى . والآخر أنه إذا قبلت توبته وإقلاعه لا يقتل ، وهذا حكمه في الدنيا .

(٤) وأمره بعد : بعد قبول توبته مفوض إلى الله فى الآخرة .

(٥) الحرمة : ما يجب احترامه وتوقيره . وهتكها بتركها وإظهار ما يخالفها .

(٦) فى ب : واترك .

(٧) فعدم القتل ينزل ويحمل على بعض الصور ، ووجوبه ينزل على بعض آخر مما فصله .

فصـــل

إذا قُلْنا بالاستتابةِ حيثُ تَصِـحُّ (١) فالاختلاف فيها على الاختلاف في تَوْبة المرتدّ ؛ إذ لا فَرْقَ (٢) .

وقد اختلف السَّلف في وجوبها وصورتها ومُدَّتها (٣) ؛ فذهب جمهورُ أهلِ العلم إلى أنَّ المرتدَّ يُسْتَتَابُ (٤) .

وحكى ابن القَصَّارِ أنه إجماعٌ من الصحابةِ على تصويب قولِ عُمر في الاسْتِتابةِ (٥) ، ولم ينكِرْهُ واحدٌ منهم ؛ وهو قَوْلُ عثمان ، وعليّ ، وابن مسعود ؛ وبه قال عطاء ابن أبي رَبَاح ، والنَّخَعى ، والثَّوْرى ، ومالكٌ ، وأصحابُه ، والأوزاعىّ ، والشافعىّ ، وأحمدُ ، وإسحاقُ ، وأصحابُ الرأى .

وذهب طاوُس (٦) ، محمد بن الحسن ، وعُبيد بن عُمير ، والحسَن في إحدى الروايتين عنه — أنه لا يُسْتَتَابُ ؛ وقاله عبد العزيز بن أبي سَلَمَة (٧) ، وذكره عن مُعاذ ؛ وأنكره

---

(١) بالاستتابة ؛ أى لمن سب النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. حيث تصح : في محل حكم بصحتها فيه الفقهاء .

(٢) في توبة المرتد ، لاشتراكهما في الكفر بعد الإسلام . لا فرق بينهما عند مالك وأصحابه .

قال الخفاجي : ولو قال استتابة المرتد كان أحسن ؛ لأنه إذا جاء تائبا من نفسه لم يجر فيه هذا الخلاف .

(٣) صورتها ؛ أى كيفية الاستتابة على أى وجه تكون . ومدتها التي يمهل فيها .

(٤) يستتاب : تطلب منه التوبة عند ردته .

(٥) في الاستتابة حين حكم بها .

(٦) طاوس بن كيسان .

(٧) عبد العزيز بن أبي سلمة : المعروف بالماجشون . وهو إمام معظم مشهور ، توفى سنة أربع وعشرين ومائة .

سُحْنُون عن مُعاذ ؛ وحكاه الطحاوى عن أبى يوسف ؛ وهو قولُ أهْلِ الظاهِر [١] ؛ قالوا : و تَنفعهُ توبتهُ عندالله ؛ ولكن لا نَدْرَأ القتْلَ عنه [٢] ؛ لقولِه صلّى اللهُ عليه وسلم ، [٣] [مَنْ بدّل دِينَه] فاقْتُلوه .

وحكِىَ أيضاً عن عطاء : إنْ كان [٤] مِمّنْ وُلِدَ فى الإسلام لم يُستَتبْ ، ويُستتابُ الإسلامىّ [٥] .

وجمهورُ العلماء على أنَّ المرتدَّ والمرتدّة فى ذلك سواء .

ورُوِى عن علىّ رضِىَ اللهُ عنه : لا تُقتلُ المرتدّةُ ، وتسترقّ [٦] ؛ وقاله عطاء، وقتادة .

ورُوِى عن ابن عبّاس : لا تُقتلُ النساءُ فى الردة ؛ وبه قال أبو حنيفة .

قال مالك : والحرُّ والعبْدُ والذّكَرُ والأنثى فى ذلك سواء .

وأما مُدّتُها [٧] فمذهبُ الجمهور ، ورُوِىَ عن عُمر ، أنه يُستتابُ ثلاثةَ أيام

---

(١) أهل الظاهر : من مذهبهم الأخذ بظاهر الأدلة ؛ وهو مذهب داود بن محمد الظاهرى ومن تبعه كابن حزم .

(٢) تنفعه توبته — وإن لم يستتب — عندالله فى الآخرة ؛ لأنه ليس بكافر ؛ ولكن توبته لا تدفع عنه القتل عند الحاكمين بقتله حدا ، لقوله صلى الله عليه وسلم . . .

(٣) رواه الشيخان عن ابن عباس . وهو فى سنن الترمذى : ٤ — ٥٩ ، وصحيح البخارى : ٩ — ١٩ ، وما بين القوسين من البخارى .

(٤) إن كان المرتد والساب .

(٥) الإسلامى : من ولد كافرا ، ثم طرأ عليه الإسلام ، لقيام شبهة عنده بما كان فى طبعه من الكفر ، فيعذر ويتألف .

(٦) بما ورد فى الحديث عن النهى عن قتل النساء .

(٧) مدتها ؛ أى مدة الاستتابة عند القائلين بها .

يُحْبَس فيها (١) ؛ وقد [٢٦١] اختُلِفَ فيه عن عُمَر ؛ وهو أَحَدُ قَوْلَى الشافعىّ (٢)، وقولُ أحمد، وإسحاق ؛ واستَحْسَنَهُ مالكٌ ؛ وقال : لا يأتى الاستظهارُ (٣) إلّا بخير، وليس عليه (٤) جماعةُ الناس .

قال الشيخ أبو محمد بن أبى زَيْد : يريد فى الاستيناء (٥) ثلاثا .

وقال مالك أيضا : أخِذَ به فى المرتدّ قولُ عُمر : يُحْبَس ثلاثةَ أيام ، ويُعْرَضُ عليه كلّ يوم (٦) ؛ فإن تاب وإلّا قُتِل .

وقال أبو الحسن بن القصّار فى تأخيره ثلاثا روايتان عن مالك : هل ذلكَ واجبٌ أو مستحبٌ ؟ واستَحْسَنَ الاسْتِتابةَ والاستِيناء ثلاثا أصحابُ الرَّأى (٧) .

ورُوِى عن أبى بكر الصدّيق أنه استتاب امرأةً فلم تَتبْ فقتلها (٨) ؛ وقاله الشافعىّ مرةً (٩) ، فقال : إنْ لم يتبْ قُتِل مكانَه . واستحسنه المُزَنى (١٠) .

---

(١) فإن تاب أطلق ، وإلا قتل .

(٢) قال الخفاجى : والقول الآخر أنه يستتاب فى الحال ، فإن تاب وإلا قتل .

(٣) الاستظهار : الاحتياط بالتأخير والتثبت حتى يظهر الأولى ؛ أى التأنى وعدم العجلة خير فى مثل هذا .

(٤) عليه : على هذا القول بالتأخير والتأنى جماعة من الناس ، فالجمهور على خلاف هذا القول .

(٥) الاستيناء : التأخير .

(٦) ويعرض عليه كل يوم التوبة والرجوع بوعظه ونصيحته .

(٧) أصحاب الرأى : أهل القياس ؛ والمراد أبو حنيفة وأصحابه .

(٨) استياب امرأة : طلب توبة امرأة ارتدت ، واسمها أم قرفة ، من بنى فزارة . فقتلها؛ لأنه لا فرق عنده بين الذكر والأنثى .

(٩) مرة : يستتاب مرة واحدة .

(١٠) المزنى : من أئمة الشافعية ، وهو القول الأصح فى مذهبهم .

وقال الزّهرى (١) : يُدْعَى إلى الإسلام ثلاث مراتٍ ، فإنْ أَبى قُتِل .

ورُوِى عَنْ علىّ رضِىَ اللهُ عنه : يُستتابُ شَهْرَيْن .

وقال النَّخَعى : يُستتاب أبدا (٢) ، وبه أخذ الثورىّ مارُجيت تَوْبَتُه .

وحكى ابن القصّار عن أبى حنيفة ـ أنه يُستتاب ثلاث مراتٍ فى ثلاثة أيام أو ثلاث جُمَع كلّ يوم أو جمعة مرة .

وفى كتاب محمد (٣) ، عن القاسم : يُدْعَى المُرْتَدُّ إلى الإسلام ثلاث مرّاتٍ ؛ فإنْ أَبَى ضُرِبَتْ عنقُه .

واختُلِفَ على هذا هل يُهدَّدُ أو يُشدَّد عليه أيامَ الاستِتابة ليتوبَ (٤) أم لا ؟ فقال مالك : ما علمتُ فى الاستتابة تجويعا ولا تَعْطيشا ، ويُؤتَى من الطعام بما لا يضرّه (٥) .

وقال أصبغ : يخوَّفُ أيامَ الاستِتَابةِ بالقتْل ، ويُعْرَضُ عليه الإسلامُ .

وفى كتاب أبى الحسن الطابثى (٦) : يوعَظُ فى تلك الأيام ، ويذكَّرُ بالجنة ، ويخوَّف بالنار .

قال أصبغ : وأىُّ المواضِع حُبِس فيها من السجون مع الناس أو وَحْده

(١) الزهرى : هو الإمام أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب .

(٢) قال الخفاجى:أبدا : المراد به زمنا طويلا .

(٣) فى كتاب محمد المعروف بالمواز ، من المالكية .

(٤) هل يهدد بزجره ووعيده بالقتل ونحوه ، أو يشدد عليه بتضييق حبسه ووضعه فى الأغلال ونحوه فى مدة أيام الاستتابة . . .

(٥) ويؤتى من الطعام بما لا يضره ؛ فلا يؤتى بما هو شديد المرارة ، أو بما هو مستقذر يكرهه .

(٦) فى هامش ب : طابث : قرية على ساحل البحر . وقال الخفاجى : هى قرية قريبة من البصرة . وهذا من جملة العلماء المشهورين .

إذا استوثِق منه (١) سواء ، ويُوقَفُ مالُه(٢) إذا خِيفَ أنْ يُتلِفَه على المسلمين(٣) ، ويُطْعَم منه ، ويُسْقَى .

وكذلكَ يُستتابُ كلما رجع وارتدّ أبداً ، وقد استتابَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَبْهان الذى ارتدّ أربع مراتٍ أو خمسا .

وقال ابنُ وَهْب ، عن مالك : يُستَتابُ أبداً كلما رَجَع ؛ وهو قولُ الشافعى ، وأحمد ؛ وقاله ابن القاسم .

وقال إسحاق : يُقتلُ فى الرابعة(٤) .

وقال أصحابُ الرأى (٥) : إنْ لم يَتُبْ فى الرابعة قُتِلَ دون استتابةٍ (٦) ، وإنْ تابَ ضُرِبَ ضَرْبا وَجِيعا (٧) ، ولم يخرج من السجن حتى يَظْهرَ عليه خشوعُ التوبةِ .

قال ابن المنذر : ولا نَعلَمُ أحداً أوْجَب على المرتدّ فى المرة الأولى أدبا إذا رجع . وهو على مذهب مالكٍ والشافعىّ والكوفىّ (٨) .

---

(١) إذا استوثق منه : المراد حفظه حتى يتبين حاله ، فكل سجن فى حقه سواء .

(٢) فهو فىء لردته .

(٣) قال الخفاجى : يعنى أن ماله موقوف ، ولم يزل ملكه عنه ؛ فإن أسلم تبين أنه باق على ملكه ، وإلا كان فيئا كغيره من أموال الكفرة ، فيوضع فى بيت المال .

(٤) فى الرابعة : دون استتابة ؛ لأنه علم بها عدم ثبوته على الإسلام .

(٥) أصحاب الرأى : الحنفية ، كما تقدم .

(٦) دون استتابة ، أى لا تطلب توبته منه ، ولا تعرض عليه .

(٧) ضربا وجيعا : شديدا مؤلما زجرا له على تكرار ردته .

(٨) والكوفى : أبو حنيفة . وفى ب : والكوفيين .

فصـل

هذا حُـكمُ مَنْ ثبت عليه ذلك[١] بما يجبُ ثبوته من إقرارٍ أو عدول لم يُدْفَعْ فيهم[٢] ؛ فأمّا مَنْ لم تَتِمّ الشهادةُ عليه بما شَهِدَ عليه الواحِدُ أو اللَّفيفُ من الناس[٣] ؛ أو ثبتَ قولُه لـكن احتمِل ولم يكن صَرِيحاً .

وكذلكَ إنْ تابَ على القَوْلِ بقَبُولِ توبتِهِ فهذا يَدْرَأُ عنه القَتْلَ ، ويتسلّط عليه اجتهادُ الإمام بقَدْر شُهْرَةِ حالهِ ، وقوةِ الشهادةِ عليه ، وضَعْفِها[٤] ، وكثرةِ السَّمَاعِ عنه ، وصورةِ حاله من التهمةِ فى الدِّين والنَّبزِ بالسَّفهِ[٥] والمجُون ؛ فمَنْ قَوِى أمْرُه أذاقَه من شديد[٦] النَّـكَال من التضييقِ فى السِّجْن ، والشدّ فى القيودِ إلى الغاية التى [٢٦٢] هى مُنْتَهى طاقتِهِ بما لا يمنعه القيام لضرورته[٧] ، ولا يُقْعِدُه عن صَلاَته ، وهو حُـكْمُ كُلِّ مَنْ وَجب عليه القتْلُ ، لـكن وُقِفَ عن قَتْلِه لمعنًى

---

(١) ذلك ؛ أى السب والردة .

(٢) من إقرار ، واعتراف بما صدر منه.أو عدول . أى شهادة عدول . لم يدفع فيهم : لم يطعن بتهمة فى عدالتهم .

(٣) من لم تتم الشهادةعليه ، أى نصابها ، ولم تقبل بماشهد عليه الواحد فقط ،أو اللفيف والجماعة من الناس الذين لم تقبل شهادتهم .

(٤) اجتهاد الإمام ؛ فيفعل ما يقتضيه رأيه من زجر وضرب ونحوه بقدر شهرة حاله قبل ذلك، بشهرة ديانته،وحفظ لسانه ونحوه ، مما علم عنه ؛ وقوة الشهادة عليه ، كـكونهم غير معروفين بالـكذب والغفلة ونحوها . .

(٥) النبز : أى وصفه بين الناس وشهرة حاله بالسفه ، أى الخفة فى العقل والدين وكثرة لغطه بما لا يعنى .

(٦) من شديد النـكال : العقوبة الشديدة المانعة له عما فعله .

(٧) لضرورته : أى فعل أموره الضرورية التى لابد له منها فى وجوده .

أَوْجبَه ، وتُرُبِّصَ به لإشكالٍ(١) وعائق اقتضاهُ أمرُه ؛ وحالاتُ الشدةِ فى نَـكاله تختلف بحسب اختلافِ حاله .

وقد رَوَى الوليدُ عن مالك والأوزاعىّ أنها رِدَّةٌ ؛ فإذا تاب نُـكِّل(٢) .

ولمالك فى العُتْبِيّة وكتابِ محمدٍ ، من رواية أشْهب : إذا تاب المرتدُّ فلا عقوبةَ عليه . وقاله سُحْنون .

وأفتى أبو عبدالله بن عتّاب فيمن سبَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فشهِدَ عليه شاهِدَان عدِّلَ أحَدُهما ـ بالأدبِ(٣) المُوجِـع والتَّنْـكِيل والسِّجْنِ الطويل حتى تظهرَ توبتُه .

وقال القابسىُّ فى مِثل هذا : ومَنْ كان أقْصَى(٤) أمْرِه القَتْل فعاقَ عائقٌ أشْـكَل فى القتِل لم يَنْبغِ أنْ يُطلَقَ مِنَ السجن ؛ ويُسْتطالُ سجْنُه ، ولو كان فيه من المدةِ ما عسى أنْ يُقيمَ ، ويُحْمَل عليه من القَيْد مايُطِيق .

وقال(٥) فى مِثله مِمَّنْ أشْـكَلَ أمرُه(٦) : يُشَدُّ فى القيودِ شدًّا ، ويُضَيَّق عليه فى السجْنِ حتى يُنظَر فيما يجب عليه(٧) .

وقال(٧) فى مسألة أُخرى مِثْلِها : ولا تُهرَاقُ الدماء إلا بالأَمْرِ الواضِح ،

---

(١) لإشكال : لأمر أوجب التردد فيه .

(٢) أنها ؛ أى مقالته غير الصريحة . نـكل : عوقب .

(٣) أى أفتى بتأديبه .

(٤) أقصى أمره : غاية أمره فى الحـكم عليه القتل .

(٥) وقال ؛ أى القابسى .

(٦) ممن أشكل أمره ، ولم يظهر حاله .

(٧) فيما يجب عليه ؛ من تنكيل ، أو قتل ، أو إطلاق .

وفى الأدب بالسَّوْط والسّجْنِ نَـكَالٌ [١] للسفهاء ، ويعاقَبُ عقوبة شديدةً ؛ فأمّا إن لم يشْهَدْ عليه سِوَى شاهدين ، وَأثبتَ من عَدَاوَتِهما أوْ جُرْحتهما ماأسقطهما [٢] عنه ، ولم يُسْمَعْ ذلك من غيرها فأمْرُه أخَفُّ لسقوطِ الحُـكْمِ عنــه [٣] ، وكأنه لم يُشْهَدْ عليه، إلّا أنْ يكون مما لايليقُ به ذلك [٤] ، ويكون الشاهدان من أهل التّبْرِيز [٥] فأسْقَطهما بعداوة ؛ فهو وإن لم يَنفُذ الحُـكْمُ [عليه] [٦] بشهادتهما فلا يَدْفَعُ الظنُّ صِدْقَهما [٧] ؛ وللحاكم هنا فى تَنْـكيلِه موضِـعُ اجتهادٍ . واللهُ وَلِيُّ الإرشاد .

فصــل

هذا حُـكْمُ المُسْلِم [٨] ، فأَمّا الذِّمِّى [٩] إذا صَرّحَ بسبِّهِ أو عَرّض ، أو استخفّ بِقَدْرِه ، أو وصَفَه بغير الوَجْهِ الذى كفر [١٠] به ـ فلا خلافَ عندنا فى قَتْلِه إنْ

---

(١) نـكال للسفهاء ؛ رادع لهم عن التـكلم بما لايليق ، مغن عن إراقة الدماء ، والجرأة على الحدود المدرأة بالشبهات .

(٢) ما أسقطها عنه ؛ أى أسقط شهادتهما وعدم قبولها .

(٣) لسقوط الحـكم عنه ، بعدم قبول الشهادة عليه شرعا .

(٤) ممن لايليق به ذلك الأمر الذى نسبه الشهود إليه ؛ لأنه معروف بعدم الديانة والاستخفاف بالدين ؛ فيكون مظنة لما شهدوا به .

(٥) من أهل التبريز : أى يكونان معروفين بالعدالة والصدق ، ولم يعهد لهما إهانة أحد من الناس ولو كان عدوا لهما .

(٦) من ب .

(٧) صدقهما فيما شهدا عليه لظهور عدالتهما .

(٨) حكم المسلم إذا سب الأنبياء .

(٩) الذمى : الـكافر الذى ليس حربيا . ودمه وولده وماله محترم لأدائه الجزية .

(١٠) الوجه الذى كفر به ؛ أى غير الذى كان كافرا بسببه ؛ كإنـكار بعثته ، أو عموم دعوته ، بأن وصفه بشيء مما مر .

لم يُسْلِم ؛ لأنّا لم نُعطِه الذمّةَ أو العَهْد على هذا(١) ؛ وهو قولُ عامةِ الفقهاء ، إلا أبا حنيفة والثورىّ وأتباعَهما من أهل الكوفة ، فإنهم قالوا : لا يُقتَل ، ما هو عليه من الشِّرْك أعظمُ ، ولكن يُؤَدَّب ويعزَّر(٢) .

واستدلّ بعضُ شيوخِنا على قَتْلِه بقوله تعالى(٣) : ﴿ وإنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وطعنُوا فى دِينِكم فقاتِلُوا أئمةَ الكُفْرِ ، إنَّهُمْ لا أيْمانَ لهم لعلهم يَنْتَهُون ﴾.

ويُستدلُّ عليه أيضا بقَتْلِ النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم لابْنِ الأَشرفِ وأشباهِه(٤) ؛

(١) على هذا : أى لم نرخص له — حين عاهدناه — فى سب النبى صلى الله عليه ، أو الاستخفاف به .

(٢) قال فى نسيم الرياض (٤ — ٤٩٠) :

ما ذكره من مذهب أبى حنيفة هو المشهور ، وقد خالفه بعض المتأخرين . وقال ابن تيمية فى كتابه « السيف المسلول على من سب الرسول » : قال أبو حنيفة وأصحابه: لا ينتقض العهد بالسب . ولا يقتل الذمى به ، لكن يعزر وحكاه الطحاوى عن الثورى . ومن أصولهم أن مالا قتل فيه عندهم للإمام أن يقتل فاعله ، ويزيد على الحد المقدر إذا رأى المصلحة فى ذلك؛ ويحملون ماجاء من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من القتل فى مثله على ذلك ، ويسمون هذا القتل سياسة، كتغليظ الحد فى الجرائم إذا تكررت ، وشرعوا القتل من جنسها ، وبهذا أفتى أكثرهم ، فقالوا : يقتل من أكثر من سب النبى صلى الله عليه وسلم سياسة . وهو متجه على أصولهم . انتهى .

ثم قال : وهو كلام حسن .

(٣) سورة التوبة ، آية ١٢

نكثوا أيمانهم : نقضوا ما عاهدناهم عليه . وطعنوا فى دينكم: عابوه وذموه . أئمة الكفر: كبار الكفرة ورؤساءهم .

(٤) وأشباهه من الكفرة المعاهدين الذى قتلهم النبى صلى الله عليه وسلم لسبهم له .

قال الخفاجى : وفى الاستدلال بهذه القضية نظر ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم صالحه وغيره من اليهود ، فنقض ابن الأشرف عهده، ومضى لكفار مكة وحثهم على قتال الرسول ، =

ولأنّا لم نعاهِدْهم، ولم نُعطِهم الذِّمَّةَ على هذا؛ ولا يجوزُ لنا أنْ نَفْعلَ ذلك معهم؛ فإذا أتَوْا مالم يُعْطوا عليه العَهْدَ ولا الذمَّةَ فقد نقضُوا ذِمَّتَهم، وصاروا كُفارا [١] يُقتَلُون لِكُفْرِهم.

وأيضا فإنّ ذِمَّتَهُم لا تُسْقِطُ حدودَ الإسلامِ عنهم؛ من القَطْعِ في سَرِقةِ أموالِهم [٢]، والقتْلِ لمن قتلوه منهم، وإنْ كان ذلك حَلَالاً عندهم [٣] فكذلك سبُّهُمْ للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم يُقْتَلُون به.

ووردَتْ لأصحابنا ظواهِرُ [٤] تَقْتَضِي الخِلافَ إذا ذكره الذميّ بالوَجْه الذى كفر به [٤]، ستَقِفُ عليها من كلام ابْنِ القاسم وابن سَحْنون بعدُ.

[٢٦٣] وحكى أبو المُصْعَب الخلافَ فيها [٥] عن أصحابه المَدَنيين.

واختلفوا إذا سبَّهُ ثم أسْلم؛ فقيل: يُسْقِطُ إسلامُه قَتْلَه؛ لأن الإسلامَ يَجُبّ [٦] ما قبله، بخلاف المسلم إذا سبَّه ثم تاب [٧]؛ لأنّا نعلمُ باطِنَةَ الكافِرِ في بُغْضِه

= وهجا النبي، وآذى المسلمين أشد الأذى؛ فليس قتله بمجرد سبه.

(١) هذا في: ا. وفي ب: وصاروا أهل حرب.

(٢) أموالهم: أي أموال المسلمين.

(٣) عندهم: في اعتقادهم الباطل إباحة أموال المسلمين ودمائهم.

(٤) ظواهر: أمور تدل بحسب الظاهر على مايقتضى الخلاف في قتل الذمي بسبب سبه للنبي صلى الله عليه وسلم، إذا ذكره الذمي بالوجه الذى كفر به، كإنكار بعثته ونبوته.

(٥) الخلاف فيها: في مسألة القتل بما كفر به.

(٦) يجب: يقطع ويبطل حكم ما قبله من سائر المعاصي؛ وهذا ورد عنه صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح (المسند: ٤ — ١٩٩).

(٧) ثم تاب؛ فإن توبته لا تمنع قتله كإسلام الكافر.

قال الخفاجي: والخلاف مبنى على أن قتله حد، أو لنقض العهد، وفي سقوط بعض الحدود بالإسلام كالزنا خلاف لبعض الشافعية؛ وجب الإسلام ما قبله إنما هو في حقوق الله خاصة، كما مر.

له ، وتنقُّصِه بقَلْبه[١] ؛ لـكنّا منعناهُ من إظهاره ، فلم يَزِدْنا[٢] ما أظهرَهُ إلا مخالفة للأمْر ، ونَقْضاً للعهد ؛ فإذا رجع عن دِينه الأولِ إلى الإسلام سقط ما قبله ؛ قال اللهُ تعالى[٣] : ﴿ قُل للذين كفَروا إنْ يَنتَهوا يُغفَرْ لهم ما قد سَلَف ﴾ .

والمسلمُ بخِلافه؛ إذْ كان ظنُّنا بباطنه حُكْمَ ظاهره ، وخلافَ ما بَدَا منه الآن؛ فلم نَقْبَل[٤] بعْدُ رُجوعَه ، ولا استَنَمْنا إلى باطِنه[٥] ؛ إذ قد بَدَتْ سرائرُه ، وما ثبتَ عليه من الأحكَامِ باقيةٌ عليه لا يُسقِطها شيء .

وقيل : لا يُسقِط إسلامُ الذميّ السابِّ قَتْلَه ؛ لأنه حقٌّ للنبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم وَجَب عليه ؛ لانتهاكِه حُرْمتَه ، وقَصْده إلْحَاقَ النَّقيصةِ والمَعرّةِ[٦] به ؛ فلمْ يكُنْ رجوعُه إلى الإسلامِ بالذى يُسقِطُه ، كما وَجب عليه من حقوق المسلمين من قَبْل إسلامِه من قَتْلٍ وقَذْفٍ ؛ وإذا كنّا لا نَقْبل توبةَ المسلم فإنّا لا نَقْبَلُ توبةَ الـكافِرِ أولى[٧] .

(١) إنما منع الاسلام قتله، لأنا نعلم باطنة الـكافر وما فى قلبه من الـكفر فى بغضه وعداوته الدينية للنبى صلى الله عليه وسلم وتنقصه له بقلبه ، لأنه شأن كل كافر .

(٢) فلم يزدنا ما أظهره من كفره بسب ونحوه علما بحاله ، إلا مخالفة لأمرنا له حقيقة أو حكما بكتم كفره .

(٣) سورة الأنفال ، آية ٣٨

أمر الله نبيه أن يقول لهم هذه المقالة . وما قد سلف : من الـكفر ، وما وقع معه من المعاصى .

(٤) فلم نقبل بعد رجوعه بالتوبة .

(٥) استنمنا : اطمأننا ؛ أى لم نطمئن ونأنس ونركن .

(٦) المعرة : المذمة والعيب به .

(٧) قال الخفاجى : وما قاله غير متجه؛ لأن الإسلام يجب ماقبله بنص الحديث ؛ فالفرق بينه وبين توبة المسلم فى غاية الظهور .

بل قالوا : إنه يثاب على كل مافعله من الحسنات حال كفره إذا أسلم . وسبه للنبى صلى الله عليه وسلم فيه حق لله وللا دمى ، فيغلب الأول إذا اعتضد بإسلامه .

وقال مالك فى كتاب ابْن حَبِيب[١]، والمبسوط، وابن القاسم، وابن الماجِشُون[٢]، وابنُ[٣] عبد الحكم، وأصبغ - فيمَنْ شتَم نبيّنا من أهلِ الذِّمّةِ أو أحداً[٤] من الأنبياء عليهم السلام قُتِل إلا أن يُسلم؛ وقاله ابنُ القاسم فى العُتْبية[٥]، وعند محمد، وابنِ سُحنون.

وقال سُحْنون وأصبغ: لا يُقَل له أسْلِمْ، ولا لا تُسْلِم؛ ولكِنْ إنْ أسلم فذلك له تَوْبَة[٦].

وفى كتاب محمد: أخبرنا أصحابُ مالكٍ أنه قال: مَنْ سبّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أو غَيْرَه من الأنبياء مِنْ مسلم أو كافر قُتِل ولم يُستَتَبْ.

ورُوِى لنا عن مالك: إلاّ أنْ يُسلم الكافِرُ[٧].

وقد رَوَى ابْنُ وَهْب، عن ابن عُمَرَ - أنَّ راهباً[٨] تناوَل النبيّ صلى الله عليه وسلم! فقال ابْنُ عُمر: فهلّا قتلتموه!

ورَوى عيسى[٩] عن ابْن القاسم فى ذِمِّىٍّ قال: إنَّ محمدا لم يُرْسَلْ إلينا، إنما أُرْسِلَ إليكم؛ وإنما نبيُّنا مُوسى أو عيسى، ونحو هذا: لا شىء عليهم؛ لأنَّ اللهَ

(١) كتاب ابن حبيب يسمى الواضحة.

(٢) ابن الماجشون: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون التيمى الفقيه صاحب مالك، توفى سنة اثنتين أو أربع عشرة ومائتين. وأخرج له الستة.

(٣) وابن عبد الحكم: هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن عبدالله. توفى سنة ثمان أو تسع وستين ومائتين. وهو إمام جليل.

(٤) فى ا: واحدا. والمثبت فى ب.

(٥) كتاب فى فقه مالك.

(٦) توبة مقبولة تدرأ الحد عنه.

(٧) قال الخفاجى: وصحح بعضهم أن المسلم تقبل توبته. وقد تقدم.

(٨) الراهب: العابد المنقطع عن الناس من النصارى.

(٩) عيسى بن إبراهيم النافقى، الإمام الفقيه المحدث توفى سنة إحدى وستين ومائتين.

تعالى أقرَّهم على(١) مِثْله .

وأمّا إنْ سبَّه فقال : ليس بنَبِيّ ، أو لم يُرْسَلْ ، أوْ لم ينزَّل عليه قرآن ؛ وإنما هو شىء تَقَوَّله(٢) أو نحوُ هذا فيُقْتَل(٣) .

وقال ابن القاسم : وإذا قال النصْرانىّ : دِينُنَا خيرٌ مِنْ دِينكم ، وإنما دينُكم دينُ الحَمِير(٤)، ونحو هذا من القَبِيح ، أو سَمِعَ المؤذّنَ يقول : أَشْهَد أَنَّ محمداً رسولُ الله ، فقال : كذلك يُعطيكم الله(٥) ؛ ففى هذا الأدبُ المُوجِع والسجْن الطَّوِيل(٦) .

قال : وأمّا إنْ شَتَمَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم شَتْماً يُعْرَف(٧) فإنه يُقْتَلُ إلا أن يُسْلِم ؛ قاله مالكٌ غيرَ مَرَّةٍ ، ولم يقُلْ يُستتاب .

قال ابنُ القاسم : ومَحْمَلُ قولهِ عندى إنْ أسلم طائعا(٨) .

وقال ابن سُحْنون فى سؤالاتِ سليمان بن سالم فى اليهودىّ يقول للمؤذّن ، إذا تشهَّد(٩) : كَذبْتَ ـ يُعاقَبُ العقوبةَ الوجعةَ مع السِّجْن الطويل .

---

(١) أقرهم على مثله من الكفر ، بضرب الجزية إذا لم يحاربوا .

(٢) تقوله : اخترعه .

(٣) قال الخفاجى : لأن هذا اللعون كذب الله ورسوله .

(٤) يعنى بهذا أنه إنما يتبعه أحمق لا عقل له .

(٥) قال الخفاجى : يقول ذلك استهزاء منه بما من الله علينا به فى أن جعله رسولا لنا صلى الله عليه وسلم ، يعنى أنه مناسب لمثلكم .

(٦) الأدب : التأديب بالضرب الوجع ، والسجن الطويل مدته ، زجرا له ولأمثاله ؛ لأنه ليس صريحا فى الشتم .

(٧) يعرف أنه شتم صريح .

(٨) طائعا : من غير إكراه له .

(٩) إذا تشهد : قال فى أذانه : أشهد أن محمدا رسول الله .

وفى النوادر (١) من رواية سُحْنون عنه (٢) : مَنْ شَتَمَ الأنبيــاء من اليهود والنصارى بغير الوَجْه الذى به كفروا ضُرِبَتْ عنُقه إلّا أنْ يُسْلِم (٣) .

قال محمد بن سَحْنون : فإنْ قيل : لِمَ قتلتَه (٤) فى سبِّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومِنْ دينهِ سبُّه وتكذيبُه (٥) ؟ قيل : لأنّا لم نُعطِهم [٢٦٤] العَهْدَ على ذلك ، ولا على قَتْلِنا ، وأخْذِ أموالنا ، فإذا قَتل واحدا منا قَتَلْنَاه ، وإنْ كان من دِينــه استحلالُه (٦) ؛ فكذلك إظهارُه لسبِّ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم (٧) .

قال سُحْنون : كما لو بذلَ لنا أهلُ الحَرْبِ الجِزْيَةَ على إقرارهم على سبِّه لم يجُزْ لنا ذلك فى قول قائل (٨) .

كذلك ينتقِضُ عَهْدُ مَنْ سبَّ منهم (٩) ، ويحلّ لنـا دمُه ؛ فكما لم يُحصِّن الإسلامُ مَنْ سبَّه من القَتْل كذلك لا تُحصِّنه الذمةُ .

---

(١) النوادر : اسم كتاب لابن أبى زيد صاحب الرسالة المالكى .

(٢) عنه : عن مالك .

(٣) إلا أن يسلم فلا يقتل ؛ لأن إسلامه توبة مقبولة ، والإسلام يجب ماقبله .

(٤) لم قتلته ، أى الذمى .

(٥) ومن دينه ، أى اعتقاده ، وعادته سبه وتكذيبه بإنكار بعثته صلى الله عليه وسلم وهذا مما كفر به .

(٦) استحلاله ؛ أى استحلال قتلنا وأخذ أموالنا .

(٧) فكذلك ينقض عهده إظهاره لسب نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ فإنا شرطنا عليهم ألا يطعنوا فى الدين ، وألا يظهروا كفرهم ، لما فيه من نكاية أهل الإسلام ، وإن كان ذلك من اعتقادهم الباطل .

(٨) لم يجز لنا ذلك ؛ أى أخذ الجزية وتقريرهم على سبه . فى قول قائل ، أى لم يقل بهذا أحد من المسلمين وأئمة الدين ، وإن كانوا يستحلونه ؛ لكنا لانقرهم على إظهاره .

وهذا مما يوضح أننا لم نعطهم العهد على إظهار مثله .

(٩) منهم من أهل الذمة .

قال القاضى أبو الفضل(١) : ما ذكره ابن سُحْنون عن نَفْسه وعن أبيه(٢) مخالفٌ لقول ابنِ القاسم فيما خفَّفَ عقُوبتَهم فيه(٣) مما به كَفَرُوا ؛ فتأمَّلْه .

ويدلُّ(٤) على أنه خلافُ ما رُوِىَ عن المدنيّين فى ذلك ؛ فحكى أبو المُصْعب الزهرى ؛ قال : أُتيتُ بنصْرَانىّ قال : والذى اصطفى(٥) عيسى على محمّد ؛ فاختُلف علىّ(٦) فيه ، فضربتُهُ حتى قتلتُه ، أو عاش(٧) يوماً وليلةً ، وأمرتُ مَنْ جَرّ بِرِجْلِه ، وطُرِحَ على مَزْبلةٍ ، فأكلته الكلابُ(٨) .

وسُئل أبو المصعَب عن نصرانى قال : عيسى خلَق محمدا . فقال : يُقْتَل(٩) .

وقال ابنُ القاسم : سألْنا مالكا عن نَصْرَانىّ بمصر شُهِد عليه أنه قال : مسكين محمد ، يخبركم أنه فى الجنة ؛ ما له لم ينفَعْ نَفْسه ! إذ كانت الكلابُ تأكل ساقَيْه ، لو قتلوه استراح منه الناس .

---

(١) هو عياض المؤلف .

(٢) ماذكره : من أنه يقتل بمثل ماذكر ، مما كفر به واستحله فى دينه .

(٣) خفف عقوبتهم فيه ؛ أى أفتى فيه بعقوبة خفيفة غير القتل .

(٤) ويدل ماقاله سحنون وابنه .

(٥) اصطفى : اختار وفضل .

(٦) فاختلف على فيه ؛ أى اختلف كلام الناس فيه . أو اختلف رأيى فيه واضطرب ، ثم ظهر لى أمره وحكمه .

(٧) أو عاش ؛ أى بعد ضربه ومات .

(٨) فى نسيم الرياض (٤ — ٤٩٦) : لم يدفن حتى أكلته الكلاب كما تأكل سائر الجيف . وهذا مما كفر به ؛ فهو مخالف لما تقدم .

وعدم دفن من قتل من الكفرة مما لا يشرع ؛ فكأن هذا كله مما أدى إليه اجتهاده وتشدده فى دينه .

(٩) خلق محمدا ؛ لزعمه الفاسد فى ادعاء ألوهيته . يقتل ؛ لاختلاقه الكذب على الله ، وجعله عيسى عليه الصلاة والسلام أفضل من نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقصده تنقيصه ، وليس مما كفر به .

قال مالك : أَرَى أَنْ تُضْرَبَ عنُقه .

قال : ولقد كِدْتُ أَلَّا أتكلَّمَ فيها [بشيء][١] ؛ ثم رأيتُ أنه لا يسعنى الصَّمْتُ[١] .

قال ابن كنانة فى المبسوطة[٢] : مَنْ شتَم النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلمَ من اليهود والنصارى فأرى للإمام أنْ يُحَرِّقَه[٣] بالنار ، وإن شاء قتله ثم حَرَّقَ جُثَّتَه[٤] ، وإنْ شاء أحرقه بالنار حيًّا إذا تهافتُوا فى سَبِّه[٥] .

ولقد كُتِبَ إلى مالكٍ من مِصْرَ — وذكر[٦] مسألةَ ابْنِ القاسم المتقدمة ؛ قال : فأمرنى مَالِكٌ ، فكتَبْتُ بأَن يُقْتَلَ ، وأن يُضْرَب عنُقه ؛ فكتبتُ[٧] ، ثم قلت :

(١) ما بين القوسين ساقط فى ا . ولا يسعنى الصمت : لايجوز ولا يحل لى السكوت عن هذه المسألة وعدم التكلم فيها بالحق الذى يستحقه هذا الخبيث .

(٢) فى ب : المبسوط .

(٣) قال الخفاجى : وهذا مما لم يجزه علماء الشرع ، لما ورد فى الحديث إنه لا يعذب بالنار إلا الله أو خالقها .

(٤) وإن شاء ، أى الإمام قتله ، بضرب عنقه ، ثم حرقت جثته بعد موته .

(٥) تهافتوا فى سبه : وقعوا فيه ، والمراد أنهم أكثروا منه علنا .

قال الخفاجى : وهذا مذهب مالك فى جواز إحراق من استحق القتل .

وغيره من العلماء يأباه ، وهو مثلة .

ومذهب الشافعى أنه لايجوز إلا قصاصا، لحديث : من حرق حرقناه ، ومن غرق غرقناه .

واستدل مالك لما قاله بأن عليا كرم الله وجهه فعله، وبقوله عليه السلام فى حق من ارتد : إن وجدتموه فاحرقوه .

وغيره يقول : إنه منسوخ كما نسخت المثلة ، لقوله تعالى : « فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به » ، وهو مذهب أبى حنيفة .

(٦) وذكر ، أى ابن كنانة السابق.. مسألة ابن القاسم المتقدمة التى سئل عنها فى نصرانى شهد عليه أنه قال : مسكين محمد ...

(٧) فكتبت لأرسله للسائل .

يا أبا عَبْد الله ؛ وأكْتُب : ثم يُحَرّق بالنار ؟ فقال : إنه لَحقِيقٌ بذلك ، وما أولاه[١] به .

فكتبتُه بيدى بين يدَيه ، فما أنكره ولا عابَهُ ، ونُفِّذَت[٢] الصحفيةُ بذلك فقُتِل وحُرِّق[٣] .

وأفتى عُبيد الله بن يحيى وابْنُ لُبَابة[٤] فى جماعةِ سلَفِ أصحابنا الأَندلسيين بقَتْلِ نصرانيةٍ استهلّت[٥] بِنَفْى الربوبية وبُنُوّة عيسى لله ، وبتكذيب محمد فى النبوة ، وبقبولِ إسلامِها[٦] ودَرْأ القَتْل عنها به .

وبه قال غَيْرُ واحدٍ من المتأخرين منهم القابسىّ ، وابن الكاتب[٧] .

وقال أبو القاسم بن الجلّاب فى كتابه : مَنْ سبّ اللهَ ورسُولَه مِنْ مُسْلِم أو كافر قُتِل ولا يُستتاب[٨] .

وحكى القاضى أبو محمد فى الذمىّ يَسُبُّ ـ رِوَايتين فى دَرْء القَتْلِ عنه بإسلامه[٩] .

وقال ابن سُحْنون[١٠] : وحَدُّ القَذْفِ وشِبْهه[١١] من حقوقِ العبادِ لا يُسْقِطُه عن

(١) وما أولاه به : ما أحقه به . به ، أى بالإحراق .

(٢) نفذت : أرسلت .

(٣) قتل وحرق ، عملا بما قاله الإمام مالك .

(٤) ابن لبابة : هو محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة القرطبى ، توفى سنة أربع عشرة وثلاثمائة .

(٥) استهلت : صرخت رافعة صوتها ، والمراد أنها أعلنت وأظهرت .

(٦) وبقبول إسلامها إذا أسلمت بعد قولها هذا .

(٧) ابن الكاتب : هو أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن محمد الإمام المالكى الجليل .

(٨) ولا يستتاب : لا تطلب منه توبة ، ولا تقبل .

(٩) بإسلامه إذا أسلم .

(١٠) قال ابن سحنون فى وجه قتله : إنه حد ، وحد القذف . . .

(١١) وشبهه كحد السرقة والزنا .

الذمّيّ إسلامُه ؛ وإنما يسقُط عنه بإسلامه حدودُ الله .

فأمّا حدُّ القَذْفِ فحقٌّ للعبادِ ؛ كان ذلك لنبيٍّ[(١)] أو غيره؛فأوجب على الذمّيّ[(٢)] إذا قذفَ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم ثم أسلم حدّ القَذْف .

ولكن انظر ماذا يجبُ عليه[(٣)] ؟ هل حَدُّ القَذْفِ في حقّ النبي صلى اللهُ عليه وسلّم ، وهو القَتْلُ[(٤)] لزيادة حُرْمةِ النبيّ صلي اللهُ عليه وسلم على غيره[(٥)] ، أم هل يَسقُطُ القَتْلُ بإسلامه ، ويُحدّ ثمانين ، فتأَمّلْهُ[(٦)] .

فصـــل

في ميراثِ [٢٦٥] مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم وغَسْلِه والصلاةِ عليه

اختلف العلماء في ميراثِ مَنْ قُتِلَ بِسَبِّ النبي صلّى اللهُ عليه وسلم ؛ فذهب

(١) في ب : من نبي .

(٢) فأوجب على الذمي القذف ، ولم تسقطه عنه توبته وإسلامه ؛ وقذف الأنبياء حده القتل كما تقدم .

(٣) ماذا يجب عليه : على من قذف الأنبياء .

(٤) وهو القتل : لا الجلد كحد غيره .

(٥) على غيره : من أمته ،لاغيره من الأنبياء ؛ قال الخفاجي : وإليه ذهب بعض الشافعية؛ فإن الحدود قد تتفاوت ، كما قال تعالى — في أمهات المؤمنين : من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين .

(٦) في نسيم الرياض (٤ — ٤٩٩) : أمر بالتأمل لما فيه من الشبهة وقوة الخلاف فيه ؛ فمذهبه كمذهب الشافعية ثم قال: قال إمام الحرمين: قذف النبي صلى الله عليه وسلم كفر بالاتفاق وقال أبو بكر الفارسي : لو تاب لا يسقط عنه القتل ؛ لأن حد قذف النبي صلى الله عليه وسلم ، وحد القذف له لا يسقط بالتوبة . وحكى فيه الإجماع ، وخالفه الصيدلاني وغيره ،وقال : يحد ثمانين إذا أسلم ؛ وذكر فيه الإمام مباحث طويلة ، وقال : إن ماقاله الفارسي ، مع بعده ، حسن . وهذا ماجنح إليه المصنف .

سُحْنون إلى أنه لجماعةِ المسلمين مِنْ قِبَلِ[١] أنَّ شَتْمَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلّمَ كُفْرٌ يُشْبِه[٢] كُفْر الزَّنْدَقة .

وقال أصبغ : ميراثُه لورثتِهِ من المسلمين إنْ كان مُسْتَسِرًّا[٣] بذلك ، وإن كان مُظْهِرًا له مُسْتَهِلاً[٤] به فميراثُه لِلْمُسلمين ، ويُقْتَل على كل حالٍ ولا يُسْتَتَاب[٥] .

وقال أبو الحسَن القابسيّ : إنْ قُتِل وهو مُنْكِرٌ للشهادةِ عليه[٦] فالحُكْم في ميراثِه على ما أَظْهَرَ من إقراره - يعني لورثته[٧] ؛ والقَتْلُ حَدٌّ ثبت عليه ليس من الميراث في شيء .

وكذلك لو أقرّ بالسبِّ وأظهر التوبةَ لَقُتِلَ؛ إذ[٨] هو حَدُّه. وحكمُه في ميراثه ، وسائر أحكامه[٩] حُكْمُ الإسلام .

ولو أقرّ بالسبِّ ، وتمادَى[١٠] عليه ، وأَبَى التوبةَ منه ، فقُتِلَ على ذلك كان

(١) من قبل : من جهة .
(٢) في ا : شبه .
(٣) مستسرا : مخفيا لذلك ؛ أي لم يظهره علنا . والمراد أنه يقوله في خلوته لمن لا يفشي سره لعامة الناس ، حتى لا يطلع عليه الحكام ؛ وهذا كله في المسلم ، فمن توهمه عامله ولا كفرة فقد غفل .
(٤) مستهلا : معلنا .
(٥) على كل حال ؛ سواء تاب أم لا . ولا يستتاب ، لا تطلب منه توبة ، ولا تقبل .
(٦) للشهادة عليه ، أي لما شهدوا عليه من السب .
(٧) يعني أنه ، أي الميراث . لورثته : المسلمين ، لأن إنكاره لما شهدوا به عليه إقرار بأنه مسلم معظم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٨) إذ هو ، أي القتل .
(٩) وسائر أحكامه : من غسله والصلاة عليه . حكم الإسلام ؛ لأنه مسلم كسائر المسلمين .
(١٠) تمادى عليه : استمر .

كافراً ، وميراثُه للمسلمين(١) ؛ ولا يغسَّلُ ولا يصلَّى عليه ، ولا يكفَّن وتُستَرُ عَوْرَتُه ، ويُوارَى كما يُفعَلُ بالكفّار(٢) .

وقولُ الشيخ أبي الحسن(٣) في المُجَاهر المتمادِي بيِّنٌ لا يمكنُ الخلافُ فيه ؛ لأنه كافرٌ مرتدٌّ غيرُ تائبٍ ولا مُقلِعٍ(٤) .

وهو مِثْلُ قولِ أصبغ ؛ وكذلك في كتاب ابن سُحْنون في الزِّنْديق يتمادَى على قوْله .

ومثْلُه لابن القاسم في العُتْبِيّة ولجماعةٍ من أصحاب مالكٍ في كتاب ابنِ حبيبٍ فيمن أعلن كُفْرَه مثلُه .

قال ابنُ القاسم : وحكمُه حُكْمُ المرتدّ لا يرثُه وَرثتُه من المسلمين(٥) ، ولا من

---

(١) للمسلمين : كالفيء حق للمسلمين ، لا لورثته ، لأن الكفر من موانع الإرث .

(٢) كما يفعل بالكفار الأصليين ، فلا يدفن في مقابر المسلمين .

قال الخفاجي : وجوز الشافعية غسله وتكفينه ، كما روى أن رسول الله صلى الله عليه أمر عليا لما مات أبوه أبو طالب أن يغسله ويكفنه ويدفنه .

وقد ضعفه البيهقي .

ولا يصلى عليه إجماعا ، وأما صلاته ـ صلى الله عليه وسلم على ابن سلول فلأنه منافق، مع أنه نهى عن ذلك بعد ، بقوله تعالى : ولا تصل على أحد منهم مات أبدا .

(٣) هو القابسي . المجاهر : المعلن المظهر للسب . المتمادى : المستمر على إظهاره .

وقوله سبق ، وهو أن ميراثه فيء للمسلمين .

(٤) ولا مقلع : غير راجع عن كفره وردته .

(٥) لأنه كافر .

أهل الدين الذى ارتدّ إليه[(١)] ، ولا تجوزُ وَصَايَاهُ[(٢)] ولا عِتْقُهُ[(٣)] ؛ وقاله أصبغ[(٤)] ، قُتِل على ذلك أو مات عليه[(٥)] .

وقال أبو محمد بن أبى زيد : وإنما يُخْتَلَف فى ميراثِ الزِّنْديق الذى يستهلّ[(٦)] بالتوبة ، فلا تُقْبَل منه[(٧)] ؛ فأمّا المُتَمادِى فلا خِلَافَ أنه لا يورَث .

وقال أبو محمد فيمن سبّ اللهَ تعالى ثم مات ولم تُعَدَّل عليه[(٨)] بيِّنةٌ ، أو لم تُقْبَل : إنه يصلّى عليه .

ورَوَى أصبغ عن ابن القاسم فى كتاب ابن حبيب فيمن كَذَّبَ برسول اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وأعلنَ دِينا[(٩)] مما يُفارِقُ به الإسلامَ ـ أنّ ميراثَه للمسلمين .

وقال بقول مالك : إنّ ميراثَ المرتدّ لِلْمُسْلمين ، ولا تَرِثُه وَرَثَتُه ـ رَبيعةُ[(١٠)] ،

(١) لأنه فارقهم للدين الحق ، فتعلق به حق أهله ؛ فلا يعود إليهم بعوده ؛ لأنه لا يقر عليه ؛ وماله صار فيئا يستحقه المسلمون .

(٢) ولا تجوز وصاياه لأن ماله خرج من ملكه بردته .

(٣) قال الخفاجي : وكذا سائر تصرفاته ، كبيع وهبة ووقف وغيره ؛ فإنه محجور عليه لما ذكر . وهذا كله مذهب الإمام مالك .

(٤) وقاله أصبغ ؛ أى قال ما قاله ابن القاسم من أن حكمه حكم المرتد لا يورث .

(٥) عليه ؛ أى على إعلانه الكفر .

(٦) يستهل بالتوبة : يظهرها ويعلنها .

(٧) لا تقبل منه توبته ، لأن توبته لخوف القتل . قال الخفاجى : وهذا مذهب مالك . وذهب غيره إلى قبول توبته ، وأنه تجرى عليه أحكام الإسلام فى الميراث وغيره .

(٨) لم تعدل عليه بينة . لم تقم عليه بينة زكيت وعدلت . أو لم تقبل : أى أو أقيمت عليه بينة ولم تقبل ، أو ثبتت زندقته بإقراره لكنه لم يقبل ـ أنه يصلى عليه ، ويرثه المسلمون ، ويدفن فى مقابرهم ، فتجرى عليه أحكام المسلمين ، لأنه لم يحكم بكفره .

(٩) أعلن دينا : أظهر اعتقادا ونحلة . وفى ب : أو أعلن . . .

(١٠) هو ربيعة بن أبى عبدالرحمن بن فروخ ، فقيه المدينة ومحدثها الذى روى عنه مالك والليث وغيرهما ، وأخرج له الستة ، ووثقه أحمد وغيره . توفى سنة ست وثلاثين ومائة .

والشافعيُّ ،وأبو ثَوْر[١] ، وابن أبى ليلى[٢] ؛ واختُلِفَ فيه عن أحمد[٣] .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى اللهُ عنه ، وابنُ مسعود ، وابن المسيِّب ، والحسَنُ ، والشعبىّ ، وعُمر بن عبد العزيز ، والحكَمَ[٤] ، والأوزاعىّ ، والليثُ ، وإسحاق ، وأبو حَنيفة ـ تَرِثُه ورَثَتُه من المسلمين .

وقيل ذالك فيما كسبه قبل ارْتِدادِه ، وما يكسبُه فى الارتدادِ فللمُسلمين .

قال القاضى أبو الفضل[٥] : وتفصِيلُ أبى الحسَن فى باقِى جَوَابه[٦] حَسنٌ بيِّن ، وهو على رَأْيِ أصبغ[٧] ، وخلافِ قول سُحْنون[٨] ؛ واختلافُهما[٩] على قولَىْ مالك

---

(١) أبو ثور : هو إبراهيم بن خالد الكلبى البغدادى ، أحد المجتهدين الثقة المحدث ، روى عنه خلق كثير ، وأخرج له أصحاب السنن ، وتوفى سنة أربعين ومائتين .

(٢) ابن أبى ليلى : هو القاضى أبوعبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى الأنصارى ، أحد أعلام الدين فى الفقه والحديث ، وأخرج عنه أربعة من أصحاب السنن ووثقوه .

وقال بعضهم : إنه سيىء الحفظ. توفى سنة ثمان وأربعين ومائة .

وله ترجمة فى الميزان (٣ ـ ٦١٣) .

والمراد أنه وافق اجتهادهم اجتهاده ، لا أنهم قلدوه ، إذ المجتهد لا يقلد غيره .

(٣) عن أحمد بن حنبل ، فقيل : قال بهذا القول ، وقيل : لم يقل به .

(٤) الحكم بن عتيبة . وهو فقيه الكوفة ، الإمام العابد الزاهد ، توفى سنة خمس عشرة ومائة .

(٥) هو المؤلف .

(٦) يشير إلى قوله : إن قتل وهو منكر للشهادة فالحكم فى ميراثه على ما ظهر من إقراره . .

(٧) رأى أصبغ : ميراثه للمسلمين إن كان مسرا ، فإن أعلن فهو فىء .

(٨) وقول سحنون : إنه فىء للمسلمين كالزنديق .

(٩) واختلافهما ؛ أى اختلاف أصبغ وسحنون مبنى على قولى مالك فى ميراث الزنديق ، هل ينظر لظاهر حاله ، أو لباطنه ؟ لأن الله رداه برداء سريرته، فمرة . . . وفى ا : على قول . . . والمثبت فى ب .

فى ميراثِ الزِّنديق ؛ فمرّةً ورّثه ورثته من المسلمين قامت عليه بذلك بينةٌ فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة .

وقاله أَصْبَغ، ومحمد بن مَسْلَمَة، وغَيْرُ واحدٍ من أصحابه[(١)] ؛ لأنه مظهرٌ الإسلام بإنكارِه أو توبتِه[(٢)] ؛ وحكمُه حكمُ المنافقين الذين كانوا على عَهْدِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم[(٣)] .

ورَوَى ابنُ نافع[(٤)] عنه فى العُتْبِيّة، وكتابِ محمدٍ ـ أن ميراثَه لجماعةِ المسلمين ؛ لأنّ مالَه تبَعٌ لدمه[(٥)] .

وقال به أيضا جماعةٌ من أصحابه ؛ وقاله أشْهب، والمغيرةُ[(٦)]، وعبد الملك، ومحمد، وسُحْنون .

وذهب [٢٦٦] ابنُ القاسمِ فى العتبيّة إلى أنه[(٧)] إن اعترفَ بما شُهِد عليه به وتاب فقُتِل فلا يُورَث[(٨)] . وإنْ لم يُقرّ حتى قُتِلَ أو مات وُرِّث .

(١) من أصحابه : من أصحاب الإمام مالك .

(٢) ونحن إنما نحكم بالظاهر .

(٣) كان النبى صلى الله عليه وسلم يعامل المنافقين معاملة المسلمين فى ميراثهم وغيره ، تأليفا لقلوبهم وقلوب من قرب عهده بالإسلام ؛ لئلا يقول الأعداء : إنه يقتل أصحابه حتى أعلمه الله بذلك ، فكان لا يصلى على بعضهم ، لأن صلاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ شفاعة لهم .

(٤) هو عبد الله بن نافع الصائغ المدنى المحدث ، مولى بنى مخزوم ، وهو ثقة . وقيل: فى حفظه شىء . ووثقه ابن معين ، وهو صاحبه الذى كان يلازمه ، وروى عنه كثيرا . وأخرج له أصحاب السنن . وترجمته فى الميزان ٢ ـ ٥١٣، توفى سنة ست ومائتين .

(٥) قال الخفاجى : ودمه هدر ، فما له غنيمة وفىء .

(٦) هو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن عياش . توفى سنة ثمان وثمانين ومائة .

(٧) أنه ؛ أى المرتد، أو الزنديق .

(٨) وتاب ، أى ولم تقبل توبته . فلا يورث ، لأنه حكم بكفره ، وقتل ، فلا يبقى لتوبته حكم فى الدنيا .

قال : وكذلكَ كلُّ مَنْ أَسَرَّ كُفْرًا فإنهم يتوارَثُونَ بوراثة الإسلام[١] .

وسئل أبو القاسم ابنُ الكاتب عن النَّصْرانىّ يَسُبُّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم فيقتل ؛ هل يرثُهُ أهلُ دِينه أم المسلمون ؟

فأجاب بأنه[٢] للمسلمين ليس على جِهَةِ الميراثِ؛ لأنه لاتوارثَ بين أهل مِلّتَيْن ، ولكن لأنه مِنْ فَيْئهم ، لنَقْضِه العَهْد[٣] ، هذا معنى قولِه واختصارُه .

---

(١) يتوارثون بوراثة الإسلام ، فتجرى عليهم أحكام الإسلام ، نظراً لظاهر حالهم .

(٢) بأنه ، أى ميراثه فىء للمسلمين .

(٣) لنقضه العهد ، بسبه له صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه طعن فى الدين ، وليس مما كفر به .

الباب الثالث

في حُكم مَنْ سبَّ الله تعالى وملائكته وكتبه وأنبياءه وآلَ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلم وأزواجَه وصحبه

لا خلافَ أنَّ سابَّ اللهِ تعالى من المسلمين كافرٌ حلالُ الدم[١]. واختُلِفَ في استتابته[٢]؛ فقال ابن القاسم في المبسوط، وفي كتاب ابنِ سُحْنون، ومحمد؛ ورواهُ ابنُ القاسِم عن مالكٍ في كتاب إسحاق بن يحيى: مَنْ سبَّ اللهَ تعالى من المسلمين قُتِل ولم يُسْتَتَبْ[٣] إلا أنْ يكونَ افتراءً على اللهِ بارتدادِه إلى دِينٍ دانَ به وأظهرهُ فيستتابُ[٤]، وإنْ لم يُظْهِرْهُ لم يستَتَبْ[٥].

وقال في المبسوطة مُطرِّفٌ وعبد الملك مثلَه.

وقال المخزوميّ، ومحمد بن مسلمة، وابنُ أبي حازم[٦]: لا يُقْتَل المسلمُ بالسبِّ حتى يُستتاب[٧].

وكذلك اليهوديُّ والنَّصْرانيّ، فإنْ تابوا قُبِل منهم، وإنْ لم يتوبوا قُتِلوا،

---

(١) حلال الدم؛ أي مستحق للقتل شرعا.

(٢) استتابته، أي طلب التوبة منه وقبولها.

(٣) لم يستتب: لاتطلب منه توبة.

(٤) إلا أن يكون سبه افتراء على الله بارتداده إلى دين غير الإسلام دان به، واتخذه دينا أطاعه وأظهره ولم يخفه. فيستتاب، أي يؤمر بالتوبة ورجوعه إلى الإسلام.

(٥) وإن لم يظهره لم يستتب وقتل، لأنه زنديق لايوثق بتوبته.

(٦) ابن أبي حازم: عبد العزيز بن سلمة بن دينار بن أبي حازم. توفى سنة أربع، أو خمس، أو ست، وثمانين ومائة، وهو ساجد في مسجد رسول الله.

(٧) قال الخفاجي: فإن تاب، وإلا قتل، وإليه ذهب الشافعي وغيره.

ولا بُدّ من الاسْتِتَابَةِ[١] ، وذلك كلُّه كالرِّدّةِ ، وهو الذى حكاه القاضى بن نصر عن المذهب[٢] .

وأفْتَى أبو محمد بن أبى زَيْد فيما حُـكِى عنه فى رجل لعن رجُلاً ولَعَنَ اللهَ ؛ فقال : إنما أرَدْتُ أنْ ألْعن الشيطانَ فزلّ لسانى ؛ فقال : يُقتَلُ بظاهرِ كُفرِه ، ولا يُقبلُ عُذره .

وأمّا فيما بينَه وبين اللهِ تعالى فمعذور[٣] .

واختلف فقهاء قُرطبة فى مسألة هارون بن حبيب أخى عبد الملك[٤] الفقيـــه ، وكان ضيِّقَ الصَّدْر ، كثِيرَ التبرُّمِ[٥] ، وكان قد شُهِد عليه بشهاداتٍ ؛ منها أنه قال عند استقلاله[٦] مِنْ مَرَضٍ : لقيتُ فى مَرَضى هذا ما لو قتلتُ أبا بكر وعُمر لم أستَوْجِبْ هذا كلّه .

(١) ولابد من الاستتابة قبل قتلهم .

قال الخفاجى : وهذا حكمهم الآن ، إذ قويت شوكة الإسلام ، بخلاف زمنه صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يقتل اليهود الذين قالوا : يد الله مغلولة ـ لما نزل قوله تعالى : أقرضوا الله قرضا حسنا . فلم يستتبهم دفعا للفتنة .

(٢) عن المذهب : أى مذهب الإمام مالك .

(٣) فمعذور إن صدق .

قال الخفاجى : وترك هذا القيد لظهوره : فلا اعتراض عليه .

قال : وبهذا أفتى الشافعى ؛ لأن مخالفة الظاهر الصريح لاتعتبر بدون قرينة ، وهى قاعدة مقررة عند الفقهاء .

هذا ، وفى كلام ابن حجر ـ بعد قول المصنف : ولا يقبل عذره : وقضية مذهبنا قبوله .

(٤) قال الخفاجى : وأخوه هارون لايعد من العلماء ؛ بل من الأمراء .

(٥) التبرم : الضجر والقلق مما يصيبه .

(٦) استقلاله : أى فى زمن إفاقته وقيامه من مرض أصابه .

والمراد أنه برئ منه .

فَأَفْتَى إبراهيمُ بنُ حُسين[١] بن خالد بقَتلِهِ ؛ وأنَّ مُضمَّن قولِهِ تجويرٌ لله تعالى وتظلُّم منه ؛ والتعريض فيه كالتصريح [٢] .

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب ، وإبراهيم بن حسين بن عاصم ، وسَعِيد بن سليمان القاضي بطَرْحِ القَتْلِ[٣] عنه ؛ إلّا أنَّ القاضي رأى عليه التثقيل[٤] في الحَبْس ، والشدَّةَ في الأدب ، لاحتمالِ كلامِهِ ، وصَرْفِهِ إلى التشكى[٥] ؛ فَوَجْهُ مَنْ قال في سابٍّ

(١) إبراهيم بن حسين بن خالد : من أجلاء فقهاء المالكية بقرطبة ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين .

(٢) تجوير لله : أي نسبته للجور . والتظلم منه ؛ أي القول بأنه ظالمه عما فعله . والتعريض فيه ؛ أي في نسبة الله تعالى لما لا يليق به كالتصريح ؛ أي حكمه كحكمه في التكفير وإيجاب القتل .

(٣) بطرح القتل : بدفعه .

قال الخفاجي : في التعبير به إيماء إلى أن قتله جائز ، ولكنه درئ عنه .

(٤) التثقيل : أي بوضع القيود والأغلال .

(٥) لاحتمال كلامه لما ذكر ؛ من نسبة الله تعالى للجور والظلم . وصرفه إلى التشكى : من المرض ، لتألمه به ، لا الشكاية منه — ولهذا الاحتمال دفع عنه القتل .

قال في نسيم الرياض :

وذكر النووي القولين في الروضة من غير ترجيح . وقال شيخ الإسلام زكريا في شرح الروض : الذي رجحه المحب الطبري أنه لا يكفر . قال ابن حجر : والذي عندي أن يفصل؛ فيقال : إن أراد بذلك أن الله شدد عليه ذلك لذنوب سبقت له أو نحو ذلك لم يكفر . وإن أراد أنه لم يفعل معه الأصلح في حقه فإن كان مع اعتقاد أن ما فعله معه جور كفر ؛ أو أنه تعالى لا يجب عليه الأصلح ، أو أطلق ، لم يكفر .

قال الخفاجي :

وليس ما ذكر مبنيا على مسألة وجوب الأصلح على الله وعدم وجوبه على الخلاف المذكور في الأصل كما توهم .

واعلم أن ابن مفلح قال في كتاب الآداب الشرعية أن ابن عقيل رحمه الله — قال : الرضاء بقضاء الله في الأمراض ونحوها من المصائب واجب . وقال الشيخ تقي الدين : إنه ليس بواجب على الأصح ؛ وإنما الواجب الصبر ؛ وفيه كلام أطال فيه . =

آللهِ بالاستتابة ـ إنه كفرٌ وردّةٌ مَحْضَةٌ لم يتعلّق بها حقٌّ لغير اللهِ ؛ فأشْبَه[١] قَصْدَ الـكُفْرِ بغير سبٍّ لله، وإظهارَ الانتقالِ إلى دِينٍ آخر من الأَديان المخالفة للإسلام .

وَوَجْهُ تَرْكِ آسْتِتَابتِه أنه لمَّا ظهر مِنْهُ ذلك بعد إظهارِ الإسلام قَبْلُ اتَّهَمْنَاهُ وظننَّا أنَّ لسانَه لم يَنْطِق به إلَّا وهو مُعْتَقِدٌ له ؛ إذ لا يتساهَلُ في هــذا أَحَدٌ ؛ فحُـكِمَ لهُ بحُـكْمِ الزِّنديق ، ولم تُقْبَل توبتُه ، وإذا انتقل من دِينٍ إلى آخرَ ، وأظهر السبَّ بمعنى الارتدادِ[٢] فهذا قد أَعْلَمَ أنه خلَعَ رِبْقَةَ الإسلامِ من عُنقِه[٣] ، بخلاف الأوّل [٢٦٧] المتمسك به[٤]، وحُـكْمُ[٥] هذا حُـكْمُ المرتدّ: يُسْتَتَابُ[٦] على مشهورِ مذاهبِ أكثرِ أهل العلم[٧] ؛ وهو مذهبُ مالك وأصحابه على ما بيّنّاهُ قبلُ ، وذكَرْنَا الخلافَ في فُصُوله[٨] .

= والحاصل أن المصائب والأمراض ليست بذنب سبق من العبد ؛ وإنما هي ابتلاء من الله يثيب عبده عليه ، كما ورد في الأحاديث ، وقدتقدم شيء منه فيما يصيب الأنبياء . وقول هذا القائل يعتقد أنها تصيبه بذنوب سلفت منه . وهذا جهل منه .

(١) فأشبه السب قصد الـكفر بغيرسب الله في أن كلا منهما ردة .

(٢) بمعنى الارتداد ؛ أي بمعنى أنه صار مرتداً .

(٣) الربقة : عروة في حبل تربط بها البهائم وتشد،فإذاخلعتها أي رمتها من عنقها شردت وذهبت نافرة . خلع ربقة الإسلام من عنقه : خرج من الإسلام خروجا ظاهرا إلى الـكفر.

(٤) التمسك به ؛ أي بالإسلام .

(٥) وحكم هذا الذي انتقل من دين إلى آخر ، وأظهر السب .

(٦) يستتاب : فإن تاب قبلت توبته وإلا قتل .

(٧) أكثر أهـل العلم : من أكثر علماء الحنفية والشافعية والحنبلية : وفي ا : مذاهب أكثر العلماء .

(٨) في فصوله الآتية بعد .

فصـــل

وأمّا مَنْ أضافَ إلى اللهِ تعالى مالا يَليقُ به ليس على طَريقِ السبِّ ولا الرِّدَّةِ وقَصْدِ الـكُفْرِ ؛ ولـكن على طريقِ التّأْويلِ والاجتهادِ والخطأ المُفضى إلى الهوَى والبِدْعة[١] ؛ من تشبيهٍ[٢] أو نَعْتٍ بجارحةٍ[٣] أو نَفْى صِفة كمالٍ ، فهذا مما اختلَف السَّلَفُ ، والخَلَفُ[٤] فى تـكفير قائله ومعتقدِه .

واختلف قولُ مالك وأصحابِه فى ذلك ، ولم يختلفوا فى قِتالهم إذا تحيّزوا[٥] فئةً ، وأنهم يُستتابون ؛ فإنْ تابُوا وإلّا قُتِلوا . وإنما اختلفوا فى المنفردِ منهم[٦] ، وأكثَرُ قولِ مالك وأصْحابِه تَرْكُ القولِ بتـكفيرهم ، وتَرْكُ قَتْلهم ، والمبالغةُ فى عقوبتهم[٧] ؛ وإطالة سِجْنهم ، حتى يَظْهرَ إقلاعُهم ، وتَستَبِينَ توبتُهم ، كما فعل عُمر رضى اللهُ عنه بِصَبِيغ[٨] .

(١) المفضى إلى الهوى والبدعة : المؤدى إلى أمر من هـوى نفسه من غير نظر للحق وتحقيق له . والبدعة : اختراع أمر لم يسبق إليه ولم يرد فى الشرع قال فى نسيم الرياض (٤ — ٥٠٨) : والمراد البدعه التى هى ضلالة .

(٢) من تشبيه ؛ أى تشبيه الله تعالى بغيره ، كإثبات يد له وجسم ؛ وهذا بيان لما لا يليق .

(٣) أو نعت بجارحة ؛ أى وصف الله سبحانه وتعالى بإثبات جارحة له . والجارحه: العضو.

(٤) السلف : المتقدمون . والخلف : المتأخرون .

(٥) تحيزوا فئة : فارقوا أهل السنة وانفردوا بمكان مختص بهـم ؛ لإظهارهم المخالفة ؛ وخشية إضلال العامة والخروج إذا قويت شوكتهم .

(٦) فى المنفرد : الذى ليس معه جماعة يتحيز بها عن غيره .

(٧) والمبالغة فى عقوبتهم ؛ أى تشديد عقوبتهم .

(٨) قال الخفاجى : هو رجل من بنى يربوع اسمه صبيغ بن شريك بن عسل ؛ قال ابن ماكولا : كان يتتبع مشكل القرآن ومشاكله ، فأمر عمر رضى الله عنه بضربه ، ومنع الناس من مجالسته .

وهذا قولُ محمد بن الموّاز فى الخَوَارج[١] وعبد الملك بن الماجِشون ، وقولُ سُحْنون فى جميع أهلِ الأهواء[٢] ، وبه فُسِّر قولُ مالك فى الموطّأ ، وما رَوَاه عن عُمر بن عبد العزيز وجَدِّه وعَمِّه ، من قولهم فى القَدَرِيَّة[٣] يُسْتَتَابون ؛ فإن تابُوا وإلّا قُتِلوا .

وقال عيسى ، عن ابن القاسم ـ فى أهل الأهواء من الإبَاضِيّة[٤] والقَدَرية وشِبْههم ممّن خالف الجماعةَ من أهل البِدَع والتحريف ، لتأويلِ كتابِ الله : يُستتابون أظهروا ذلك أو أسَرُّوه . فإنْ تابوا وإلّا قُتِلوا ، وميراثهم لورثتهم[٥] .

وقال مِثْلَه أيضـــا ابنُ القاسم فى كتاب محمد فى أهل القَدَر وغيرهم ، قال : واستِتَابتهم أن يُقال لهم : اتركوا ما أنتم عليه .

---

(١) قال الخفاجى : هم جماعة كانوا مع على كرم الله وجهه فى صفين ، ثم خالفوه وخرجوا عليه لإنكارهم التحكيم ، وقولهم : لا حكم إلا لله . قال : ولهم عقائد مخالفة للسنة ، كتكفير مرتكب الكبيرة ، ووجوب الخروج على الإمام إذا خالف السنة ؛ ومع ذلك كان لهم من العبادة والشجاعة والتصلب فيما يعتقدون أمور عجيبة . وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بهم قبل ظهورهم ، وقصتهم مع على رضى الله عنه ، وقتالهم له فى التواريخ .

(٢) فى جميع الأهواء ؛ من الفرق الضالة المضلة ؛ فتشدد عقوبتهم ، ولا نقتلهم ، بل نطيل سجنهم حتى يتوبوا .

(٣) قال فى نسيم الرياض (٤ ـ ٥١٠) وهؤلاء طائفة قالوا بنفى القدر ، وهم أصحاب واصل بن عطاء . قال الخفاجى : وهم مجوس هذه الأمة ، شبههم بهم لإضافتهم الأمر لغير الله، من النور والظلمة . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(٤) الإباضية : جماعة من الخوارج أصحاب عبد الله بن إباض ، ظهروا فى خلافة مروان ابن محمد آخر بنى أمية ، زعموا أن من خالفهم كافر غير مشرك تجوز مناكحته .

(٥) لورثتهم من المسلمين ؛ لأنهم يقولون : إنهم على الإسلام ، ويتأولون النصوص الدالة على خلافهم ، وإنما قتلوا لإصرارهم على البدع المخالفة للحق ، كما يقتل تارك الصلاة ؛ لا للحكم بكفرهم .

ومِثْلُه له فى المبسوط فى الإباضيَّة والقَدَرية وسائرِ أهلِ البدع ؛ قال : وهم مسلمون ؛ وإنما قُتِلوا لرأيهم السَّوْء[١] ، وبهذا عمِلَ عُمر بن عبد العزيز .

قال ابن القاسم : مَنْ قال : إنَّ اللهَ لم يكلِّمْ موسى تكليما استُتيب ، فإنْ تاب وإلّا قُتِل .

وابنُ حبيب وغَيْرُهُ من أصحابنا يرى تكفيرهم وتكفيرَ أمثالِهم من الخوارج والقَدَرِيّة والمرجئة[٢] .

وقد رُوِى أيضا عن سُحنون مثلُه فيمن قال : ليس للهِ كَلَامٌ ، إنه كافر[٣] .

واختلفت الرِّوَاياتُ عن مالك ، فأطلق فى رواية الشاميين : أبى مُسْهِر ، ومروانَ ابن محمد الطَّاطَرِىّ[٤] الكُفْرَ عليهم ، وقد شووِرَ فى زَوَاجِ القَدَرىّ ، فقال : لا تزوِّجْه ؛ قال الله تعالى[٥] : ﴿ وَلَعَبْدٌ مؤمنٌ خَيْرٌ من مُشْرِك ولو أعجبكم ﴾ .

ورُوِى عنه أيضا : أهلُ الأهواء[٦] كلُّهم كُفَّار .

وقال : مَنْ وصفَ شيئاً مِنْ ذاتِ اللهِ تعالى ؛ وأشار إلى شَىْء من جَسَدِه :

---

(١) السوء : السيء ، المخالف لجماعة السنة وأهل الحق .

(٢) المرجئة : هم فرق خمس ذهبوا إلى أنه لا تضر معصية مع الإيمان ، كما لا تنفع طاعة مع الكفر .

قال الخفاجى : وتكفيرهم لإنكارهم النصوص المتواترة ، وما علم من الدين بالضرورة .

(٣) وذلك لإنكاره ما ثبت بالتواتر وما يلزمه من تكذيب الله ورسله .

(٤) إمام محدث ثقة، أخرج له مسلم وغيره . وله ترجمة فى الميزان (٤ — ٩٣) ، وهو من زهاد العلماء . توفى سنة ست عشرة ومائتين .

وأطلق الكفر عليهم : قال بكفرهم مطلقا .

(٥) سورة البقرة ، آية ٢٢١

أى العبد المؤمن وإن كان فقيرا خير من المشرك وإن كان غنيا .

(٦) الأهواء : البدع والعقائد المخالفة لأهل السنة كفار لعقائدهم الباطلة .

يَدٍ ، أو سَمْعٍ ، أو بَصَر ، قُطِـع[١] ذلِكَ مِنْهُ ؛ لأنه شبَّه اللهَ بنفسه[٢] .

وقال فيمن قال : القرآنُ مخلوق ـ كافِرٌ فاقْتلوه .

وقال أيضا ـ فى رواية ابن نافع ـ يُجْلَد ، ويُوجَع ضَرْبا ، ويُحْبَس حتى يَتُوب.

وفى رواية بِشْر بن بكر[٣] التِّنّيسى عنه : يُقْتَل ولا تُقْبَل توبته .

قال القاضى أبو عبد الله البَرْنَكَانى ، والقاضى أبو عبد الله التُّسْترى من أئمة العراقيين : جوابه مُخْتَلف ، يُقْتَل[٤] المستَبْصِرُ الداعية[٥] .

وعلى هذ الخلاف اختلف قولُه فى إعادة الصَّلاَةِ خَلْفهم[٦] .

وحكى ابنُ المُنْذِر ، عن الشافعى : لا [٢٦٨] يستتابُ القَدَرِىّ[٧] .

وأ كثَرُ أقوالِ السَّلَفِ تكفيرُهم ؛ وممن قال به الليثُ ، وابن عُيينة وابن لَهِيعة؛ ورُوِى عنهم ذلك[٨] فيمن قال بخَلْقِ القُرْآن ؛ وقاله ابنُ المبارَك ، والأَوْدِى[٩] ،

---

(١) قطع ذلك العضو منه .

(٢) قال فى نسيم الرياض (٤ ـ ٥١٢) : قيل إن مالكا قصد بكلامه هذا الزجر الشديد لا القطع حقيقة ، لأنه عقوبة لم ترد فى الشرع . أو أراد الدعاء عليه بذلك ؛ فإنه أجل من أن يقول مثله حقيقة .

ثم قال الخفاجى :

ولا يخفى أن ما قاله خلاف الظاهر ؛ وإذا كان عنده هذا كفرا ، وهو مستحق للقتل ؛ فأى مانع من عقوبته بمثل ماذكر ؟ وما وجه استبعاده ؟

(٣) بشر بن بكر : محدث جليل ثقة أخرج له أصحاب السنن ، وتوفى سنه خمس ومائتين، وله ترجمة فى الميزان : ١ ـ ٣١٤

(٤) أى من له بصيرة فى إقامه الأدلة على مراده .

(٥) الداعية : الذي يدعو الناس لمذهبه ويطلب ظهوره ؛ فهذا أشد فتنة ، فلهذا رأى مالك قتله دفعا لغائلته ، بخلاف غيره .

(٦) خلفهم ، أى إذا صليت خلفهم ، اقتداء بإمامهم ؛ فتارة قال : يعيد ، وتارة قال: لايعيد.

(٧) لايستتاب القدرى ؛ لكفره .

(٨) ذلك ؛ أى تكفيرهم .

(٩) الأودى : هو عثمان بن الحكم .

وَوَكيع ، وَحفْص بن غِياث[١] ، وأبو إسحاق الفزارى[٢] ، وهُشيم[٣] ، وعلىّ ابن عاصم فى آخرين ، وهو من قول أكثر المُحَدِّثين والفقَهاء والمتـكلمين فيهم[٤] وفى الخوارج والقَدَرِيّة وأهلِ الأهواء[٥] المضلّة وأصحاب البِدَع المتأوّلين ؛ وهو قولُ أحمد بن حنبل ؛ وكذلك قالوا فى الواقفة والشاكّة فى هذه الأصول[٦] .

ومِمَّنْ رُوِىَ عنه معنى القَوْلِ الآخرِ بتَرْكِ تـكفيرهم علىُّ بن أبى طالب ، وابن عُمر ، والحسن البصرى ؛ وهو رأىُ جماعةٍ من الفقهاء والنظّار[٧] والمتـكلمين ؛ واحتجُّوا بتوريث الصحابة والتابعين ورثةَ أهلِ حَرُوراء[٨] ، ومن عُرِف بالقَدَرِ مِمّن مات منهم ، ودفْنِهم فى مقابرِ المسلمين ، وجَرْىِ أحكام الإسلام عليهم .

قال إسماعيل[٩] القاضى : وإنما قال مالكٌ فى القَدَرِية وسائر أهلِ البِدَع :

---

(١) حفص بن غياث : قاضى الـكوفة الإمام الحافظ ، أخرج له الستة ، وترجمته فى الميزان (١ – ٥٦٧). توفى سنة أربع عشرة ومائة .

(٢) أبو إسحاق الفزارى : إبراهيم بن الحارث بن أسماء بن خارجة الفزارى ، أحد العلماء الأعلام ، أخرج له الستة ، وتوفى سنة ست أو ثمان وثمانين ومائة .

(٣) هشيم بن بشر السلمى الواسطى الحافظ الثقة ، توفى سنة ثلاث وثمانين ومائة . وله ترجمة فى الميزان : ٤ – ٣٠٦

(٤) فيهم : فى المبتدعة .

(٥) الأهواء ؛ أى المتبعين لهوى أنفسهم فى العقائد الفاسدة .

(٦) المراد بالواقفة قوم توقفوا فى اتباع البدعة أو السنة لجهلهم ، أو لتعارض الأدلة عليهم . والشاكّة : قوم شكوا فى ذلك .

وقال الخفاجى : ويجوز إرادة كل من شك ولم يتبع الحق ، ولم ينظر فى أصول السنة عنادا منه وإلحادا . وفى ا : الواقعة .

(٧) والنظار ؛ أى أصحاب النظر والمعرفة بالأدلة والقادرين على المناظرة .

(٨) حروراء : قرية على ميلين من الـكوفة ، اجتمع فيها الخوارج الذين اجتمعوا على حرب على رضى الله عنه ، وتعاقدوا على آرائهم الفاسدة وعلى قتاله ؛ فنسبوا لمحلهم .

(٩) هو إسماعيل بن إسحاق الحافظ .

يُسْتَتَابون ؛ فإنْ تابُوا وإلّا قُتلوا ؛ لأنه من الفساد فى الأرض(١) ، كما قاله فى المحارب(٢) : إنْ رأى الإمامُ قتلَه، وإنْ لم يَقتُل(٣)، قتَله ؛ وفسادُ المحاربِ إنما هو فى الأموالِ ومصالحِ الدنيا(٤) ، وإنْ كان قد يدخلُ أيضا فى أمْرِ الدّين مِنْ سبيلِ الحجّ والجهادِ ؛ وفسادُ أهلِ البِدَعِ مُعْظَمُه على الدين ؛ وقد يدخلُ فى أمْرِ الدنيا بما يُلقُون بين المسلمين من العَدَاوَةِ .

فصل

فى تحقيق القولِ فى إكفار المتأوّلين(٥)

قد ذكَرْنا مذاهبَ السَّلَف فى إكفار أهل البِدَعِ والأهواء المتأوّلين ممن قال قولًا يُؤَدّيه مَسَاقُه(٦) إلى كُفْر ، وهو إذا وَقَفَ عليه لا يَقُولُ بما يؤدّيه قولُه إليه .

وعلى اختلافهم اختلف الفقهاء والمتكلِّمُونَ فى ذلك ؛ فمنهم مَنْ صَوّب التكفيرَ الذى قال به الجمهورُ من السَّلَف ؛ ومنهم مَنْ أباهُ ولم يَرَ إخراجَهم من سَوَاد المؤمنين(٧) ؛

---

(١) أى إن حكمه بقتلهم ليس لكفرهم ؛ بل لاعتقادهم الباطل من الفساد فى الأرض، وهو مما يجب دفعه ، فإن لم يندفع إلا بالمقاتلة والقتل قتلوا لما يلزمه من إضلال الناس وإفساد عقائدهم.

(٢) فى المحارب : من البغاة الخارجين على السلطان .

(٣) وإن لم يقتل أحدا ، وليس قتله لكفره ، بل لدفع فساده .

(٤) فى الأموال التى يأخذها أو يفسدها . ومصالح الدنيا : أى بتغلبه على البلاد وأهلها .

(٥) المتأولون : هم أصحاب البدع والأهواء الذين أولوا عقائدهم الباطلة بما يجعلها صحيحة، وأولوا بعض النصوص المشكل ظاهرها .

(٦) يؤديه مساقه : يوصله سياقه .

(٧) سواد المؤمنين : جماعتهم .

وهم يعتمدون فى ذلك على بعض الأحاديث الواردة فى النهى عنه ، كحديث : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم . ونحوه من الأحاديث الصحيحة .

وهو قولُ أكثر الفقهاء والمتكلمين ؛ وقالوا : هم فُسّاقٌ عُصاةٌ ضُلّالٌ[١] ، ونُوارِثُهم[٢] من المسلمين ، ونحكم لهم بأحكامهم ، ولهذا قال سُحنون : لا إعادةَ على مَنْ صَلّى خَلفهم ؛ قال : وهو قولُ جميع أصحابِ مالك [كلهم][٣] : المُغيرة ، وابن كنانة ، وأشهب ؛ قال : لأنه[٤] مُسْلِم ؛ وذَنْبُه لم يخرجْه من الإسلام .

واضطرب آخرون فى ذلك ، ووقفوا عن القولِ بالتكفير وضِدّه[٥] .

واختلاف قولى مالك[٦] فى ذلك ، وتوقّفه عن إعادة الصلاةِ خَلْفَهم منه . وإلى نحوٍ من هذا ذهب القاضى أبو بكر إمامُ أهل التحقيق والحقّ ؛ وقال : إنها من المُعْوِصاتِ[٧] ؛ إذ القومُ لم يُصرّحوا بالكفر ؛ وإنما قالوا قولاً يُؤدّى إليه .

واضطرب قولُه[٨] فى المسألة على نحوِ اضطرابِ قولِ إمامِه مالكِ بنِ أنس حتى قال فى بعض كلامِه : إنهم على رَأْى مَنْ كفّرهم بالتأويل لا تَحِلُّ مُناكحتهم[٩] ، ولا أكْلُ ذَبائحهم ، ولا الصلاةُ على مَيّتِهم[١٠] .

ويُختَلَفُ فى موارثتهم على الخِلاف فى ميراث المُرْتَدّ .

---

(١) فساق : جمع فاسق . عصاة ؛ لارتكابهم كبائر من فساد العقائد والأعمال . ضلال : جمع ضال .

(٢) نوارثهم : نحكم بإرث المسلمين لهم ومنهم .

(٣) من ب .

(٤) لأنه ؛ أى المبتدع .

(٥) اضطرب : تردد . ضده : هو الإسلام .

(٦) لمالك قولان فى ذلك : قول بتكفيرهم ، وقول بخلافه ؛ فلذا اضطرب بعضهم ؛ وتوقف آخرون فيهم .

(٧) المعوصات : المسائل الصعبة المشكلة ، لقوة الآراء المتعارضة فيها .

(٨) قوله : أى قول القاضى أبى بكر .

(٩) مناكحتهم ؛ أى تزويجهم المسلمات .

(١٠) أى لأنهم كفرة عنده .

وقال أيضا : نورِّثُ مَيِّتَهم وَرَثَتهم من المسلمين ، ولا نورِّثهم هم من المسلمين؛ وأكثرُ مَيْلِه إلى تَرْكِ التكفير بالمآل[١] ؛ وكذلكَ اضطرب فيه قولُ شَيْخه أبى الحسن الأشعرى ، وأكثرُ قولِه تَرْكُ التكفير ، وأنَّ الكُفْرَ خَصلةٌ وَاحِدةٌ ، وهو الجهل [٢٦٩] بوجود البارى[٢] تعالى .

وقال مرةً : مَنِ اعتقد أنَّ الله جِسْمٌ ، أو المسيحُ ، أو بعضُ مَنْ يلقاهُ فى الطرقِ ، فليس بعارفٍ به وهو كافِرٌ .

ولِمِثْلِ هذا ذهبَ أبو المعالى[٣] رَحِمه اللهُ فى أجوبته لأَبى محمدٍ عبد الحق ، وكان سأله عن المسألة[٤] ، واعتذر له بأنَّ الغلطَ فيها يَصْعُب ، لأنَّ إدخالَ كافرٍ فى الملةِ ، أو إخراجَ مسلمٍ عنها عظيمٌ فى الدين .

وقال غيرهما[٥] من المحقِّقين: الذى يجبُ الاحترازُ من التكفير فى أهل التأْويلِ؛ فإن استباحةَ المُوَحِّدين خطأ ، والخطأ فى تَرْكِ أَلْفِ كافرٍ أهونُ من الخطأ فى سَفْك مِحْجمةٍ[٦] من دم مسلم واحد .

وقد قال صلى اللهُ عليه وسلم : فإذا[٧] قالوها ـ يعنى الشهادة ـ عصَمُوا[٨] منّى دماءهم وأموالَهم إلا بحقِّها ، وحسابُهم على الله .

---

(١) بالمآل : بما يؤول إليه كلامهم ؛ لأن لازم المذهب ليس بمذهب عندهم .

(٢) خصلة واحدة : صفة واحدة . الجهل بوجود البارى : لايعرف الله ، ولا يقر به ولا بوحدانيته .

(٣) أبو المعالى : عبد الملك بن يوسف إمام الحرمين .

(٤) عن المسألة المذكورة فى أهل البدع . فاعتذر له عن ترك الجواب له بأن الغلط فى هذه المسألة يصعب ويشكل على من خاف أن يقول فى الشرع ماليس منه ؛ لأن . . .

(٥) غيرهما : غير الأشعرى وأبى المعالى .

(٦) المحجمة : آلة يؤخذ بها دم الحجامة المعروفة .

(٧) فى حديث رواه البخارى وغيره: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا قالوها ـ يعنى كلة الشهادة . صحيح البخارى : ١ ـ ١٤ ، وصحيح مسلم : ١ ـ ٥٢

(٨) عصموا منى : حفظوا وصانوا .

فالعصمةُ مقطوعٌ بها من الشهادةِ ، ولا ترْتفِـعُ ويُسْتباحُ خِلَافُها إلا بقاطع ، ولا قاطِـعَ من شَرْعٍ ولا قياسٍ عليه .

وألفاظُ الأحاديثِ الواردةِ(١) فى الباب مُعرَّضةٌ للتأويل(٢) ؛ فما جاء منها فى التصريح بكُفْرِ القَدَرية(٣) ، وقولُه(٤) : لا سَهْمَ لهم فى الإسلامِ ، وتسميتُه الرافضةَ بالشِّرْك ، وإطلاقُ اللَّعْنةِ عليهم ، وكذلكَ فى الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء ، فقد يَحْتجُّ بها مَنْ يَقول بالتـكفير ، وقد يجيبُ الآخَرُ عنها(٥) بأنه قد وردَ فى الحديث مِثلُ هذه الألفاظِ فى غير الـكَفَرَةِ(٦) على طريقِ التغليظ(٧) ، وكفرٌ دون كُفرٍ ، وإشراكٌ دونَ إشراك .

وقد ورد مِثْله(٨) فى الرِّياء(٩) وعقوقِ الوالدين ، والزوج(١٠) ، والزُّورِ ، وغَيْرِ معصية(١١) .

---

(١) الدالة على تكفير أهل البدع والأهواء التى تمسك بها من ذهب لتكفيرهم .

(٢) معرضة للتأويل ، فلا تعارض الأدلة القاطعة بخلافه .

(٣) بكفر القدرية ، وأنهم مجوس هذه الأمة . . .

(٤) وقوله صلى الله عليه وسلم . ولاسم لهم : أى نصيب ، والمعنى لا إسلام لهم .

(٥) الآخر : الذاهب إلى عدم تـكفيرهم .

(٦) غير الـكفرة ؛ أى من عصاة المسلمين ، مع القطع بعدم كفرهم إجماعا .

(٧) التغليظ ؛ أى المبالغة ـ والتشديد فى الزجر تخويفا لهم .

(٨) مثله : مثل الحديث الوارد فى تكفير الرافضة وغيرهم من أهل البدع .

(٩) الرياء : ويقال له الشرك الخفى .

(١٠) والزوج ؛ يعنى ومخالفة المرأة زوجها: وفى الحديث : من بات زوجها ساخطا عليها لم ترح رائحة الجنة . وهذا من صفة الـكفار .

(١١) وغير معصية؛ أى جاء فى حق معاص كثيرة وصفها فى الحديث بأنها كفر وشرك، مع علم كل أحد بأن فاعلها لا يكفر ؛ فدل هذا على أن المراد تغليظ زجره ، لا أنه كفر حقيقة ، فاورد من تكفير المبتدعة وأهل الأهواء مثله.

وإذا كان محتملًا للأمرين فلا يُقطَع على أحدهما إلا بدليلٍ قاطعٍ .

وقولُه فى الخوارج : هم من شرِّ البريّة ، وهذه صِفَةُ الكفّار[١] .

وقال : شرُّ قَبِيلٍ تحتَ أديمِ السماء[٢] ، طُوبَى[٣] لمَنْ قتلهم أو قتلوه .

وقال[٤] : فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قَتْلَ عادٍ .

فظاهرُ هذا الكُفْرِ لاسيّما مع تشبيهِهِمْ بعادٍ؛ فيَحْتَجُّ به مَنْ يَرَى تكفيرهم[٥] ، فيقول له الآخَرُ : إنما ذالك مِنْ قَتْلِهم لخروجهم على المسلمين وبَغْيِهم عليهم ، بدليلٍ من الحديثِ نَفْسِه : يقْتُلون أهلَ الإسلامِ ؛ فقَتْلُهم ها هنا حَدٌّ لا كُفْر .

وذِكْرُ عادٍ تشبيهٌ للقَتْلِ وحِلِّه لا للمقتول ، وليس كلُّ مَنْ حُكِمَ بقَتْلِه يُحْكَمُ بكُفْرِه . ويعارضُه بقول خالدٍ فى الحديث: دَعْنى أضرب عُنقَه يا رسولَ الله. فقال : لعلّه يُصَلِّى[٦] .

فإن احتجُّوا بقوله صلى اللهُ عليه وسلّم : يَقْرَءون القرآنَ لايجاوزُ حناجِرَهم[٧] - فأخبر أنّ الإيمانَ لم يدخُلْ قلوبهم .

---

(١) البرية :الخلق . وهذه صفة الكفار ، وصفهم الله بها فى القرآن فىقوله تعالى: إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أولئك هم شر البرية . . . فوصفهم بصفة تقتضى كفرهم . وهذه العبارة فى حديث فى الصحيحين وغيرهما ، ورواه أحمد عن عائشة بلفظ : الخوارج شرار أمتى يقتلهم خيار أمتى . وفى مسلم : هم أبغض الخلق . . .

(٢) القبيل : الجماعة. تحت أديم السماء : أى تحت السماء ، يريد الأرض .

(٣) طوبى : كلمة مدح ، وقد يقصد بها التبشير بالجنة والسعادة .

(٤) فى حديث رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى . صحيح مسلم : ٧٤١

(٥) لأمره صلى الله عليه وسلم بقتلهم وتشبيههم بالكفرة .

(٦) فجعل الصلاة وإظهار شعائر الإسلام مانعة من التكفير والقتل . صحيح مسلم :٥٤٢

(٧) لايجاوز حناجرهم : لايتعداها ، والمراد أنه لايصل لقلوبهم ، لعدم العمل والعلم بما فيه من الإيمان والعقائد . والحديث فى ابن ماجه : ١ - ٦٠ ، وصحيح مسلم : ٧٤٢ ، ويفسره رواية مسلم : لا يجاوز إيمانهم حلاقيمهم ، فهم مؤمنون باللسان دون القلب . وهذه الرواية فى صحيح مسلم : ٧٥٠

وكذلك قوله : يَمْرُقُون [١] من الدِّين مُرُوقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّــة ، ثم لا يَعُودون إليه حتى يعودَ السَّهْمُ على فُوقِه [٢] .

وبقوله [٣] : سبق الفَرْثَ والدمَ ؛ يدلُّ على أنه [٤] لم يتعلَّقْ من الإسلام بِشَيء .

أجابه الآخرون [٥] : إنَّ معنى لا يجاوزُ حَنَاجِرَهم : لا يفهمون مَعَانيه بقلوبهم ، ولا تَنْشَرِحُ له صدورُهم ، ولا تعملُ به جَوَارِحُهم ، وعارَضوهم بقوله ، ويتمارَى فى الفُوق [٦] . وهذا يقتضى التشكّك فى حَالِه [٧] .

واحتجُّوا بِقَوْلِ أبى سَعِيد الخُدْرىّ فى هذا الحديث : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول : يخرجُ فى هذه الأُمَّةِ ـ ولم يقل : من [٨] هذه [٢٧٠] ؛ وتحرِيرُ أبى سَعِيد الروايةَ ، وإتقانُه اللفظَ [٨] .

---

(١) يمرقون : يخرجون . (٢) فوقه : الفوق : موضع السهم من الوتر . والحديث كما فى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يخرج ناس من قبل المشرق يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم لايعودون إليه حتى يعود السهم إلى الرمية . . .

(٣) فى حديث رواه الشيخان : صحيح مسلم : ٧٤٤ ، وصحيح البخارى : ٩ ـ ٢٢ سبق ؛ أى السهم . الفرث : مافى الكرش : يعنى أنه لاتعلق لهم بالإسلام ، إيماء لسرعة خروجهم ، كما أن السهم النافذ من حيوان رمى به يخرج قبل مافى بطنه من الفرث والدم فإنه يخرج بعده . (٤) على أنه ؛ أى الخارجى . (٥) الآخرون : القائلون بعدم كفرهم .

(٦) ويتمارى ؛ أى يتردد السهم فى موضعه من الوتر . وفى صحيح مسلم ٧٤٤ ، وصحيح البخارى : ٩ ـ ٢١ : ويتمارى فى الفوقة . والفوق والفوقة : هو الحز الذى يجعل فيه الوتر . والتمارى : تفاعل من المرية ، وهى الشك ، لا من المراء ، وهو الجدال ؛ أى فيشك . وفى ا ضبطت الياء فى « يتمارى » بالضم (٧) يقتضى التشكك فى حاله ، وأنه لايحكم بكفره .

(٨) إتقانه اللفظ بقوله : « فى » ، دون « من » ، وهو يدل على دقة نظره . ومعناه : يظهر فى هذه الأمة ، ولم يقل : يظهر من هذه الأمة ، فإنه يقتضى أنهم منهم ، لامفارقتهم بمخالفة دينهم . صحيح البخارى : ٩ ـ ٢١

أجابهم الآخرون بأنَّ العبارةَ بـ « فى » لا تَقْتَضِى تَصْرِيحًا بكونهم من غير الأُمَّة ، بخلاف لَفْظَة « مِنْ » التى هى للتّبعيض . وكونهم من الأُمَّة مع أنه قد رُوِىَ عن أبى ذَرّ ، وعَلِىّ ، وأبى أمامةَ وغيرهم فى هذا الحديث : يخرج من أُمتى [وسيكونُ من أُمّتى][1] ، وحروفُ المعانى مُشْتَرَكةٌ ؛ فلا تعويلَ على إخراجهم من الأُمة بـ « فى » ، ولا على إدخالهم فيها بـ « من » ؛ لـكنَّ أبا سَعِيد رضِىَ اللهُ عنه أجادَ ما شاء فى التنبيه الذى نبَّه عليه[2] . وهذا مما يدلُّ على سعَةِ فِقْهِ الصحابةِ وتحقيقهم للمعانى[3] واستنباطِها[4] من الألفاظ ، وتحريرهم لها ، وتوقّيهم[5] فى الرواية هذه المذاهبَ المعروفةَ لأهل السنّةِ .

ولغيرهم مِنَ الفِرَق فيها مقالاتٌ كثيرةٌ مُضْطربةٌ سَخِيفةٌ ؛ أقربُها قولُ جَهْمٍ ، ومحمد بن شَبيب[6] : إنَّ الـكُفْرَ بالله الجهلُ به ، لا يكفرُ أحدٌ بغير ذلك[7] .

وقال أبو[8] الهُـــذَيْل : إنَّ كلَّ متأوِّلٍ كان تأويلُه تَشْبِيها لله بخَلْقِهِ ، وتجويراً[9] له فى فِعْله ، وتـكذيبا لخبَرِه فهو كافرٌ .

وكلُّ مَنْ أثبتَ شيئاً قديما لا يُقَالُ له الله فهو كافر .

---

(١) من ب .
(٢) بإتيانه بـ « فى » الدالة على إخراجهم .
(٣) فى ب : المعانى .
(٤) استنباطها : استخراجها .
(٥) توقيهم : احترازهم واجتنابهم .
(٦) هو جهم بن صفوان من المعتزلة . ومحمد بن شبيب من المعتزلة أيضا .
(٧) قال الخفاجى : وهذا قول غير صحيح إن حمل على ظاهره ؛ لأنه يقتضى أن من عرف الله ووحده وأنـكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أنـكر شريعته وكتابه المنزل عليه لا يـكفر . فإن أراد الجهل بالله وما يستلزمه لم يكن مخالفا لغيره ؛ وكان مراد القائل إنه يلزمه تـكفير سائر الفرق الضالة ؛ فإن لم يرد هذا فلا وجه له .
(٨) أبو الهذيل بن أحمد بن العلاف شيخ المعتزلة ، أخذ عن عثمان بن خالد الطويل ، عن واصل بن عطاء ، وهو بصرى ، توفى سنة ست وعشرين ومائتين .
(٩) تجويرا له ؛ أى نسبة الجور إلى الله فى تأويله .

وقال بعضُ المتكلمين : إن كان مِمَّنْ عرف الأصْلَ وبنى عليه ، وكان فيما هو من أوصافِ الله فهو[١] كافر ، وإن لم يكُنْ من هذا الباب ففاسِقٌ[٢] ، إلا أنْ يكونَ ممَّنْ لم يَعْرِفْ الأَصْلَ فهو مخطئٌ غَيْرُ كافر .

وذهب عُبيد اللهِ[٣] بن الحَسَن العَنْبَرى إلى تصويب أقوال المجتهدين فى أصولِ الدِّين فيما كان عُرْضَةً للتَّأويل ، وفارقَ فى ذلك فِرَقَ الأُمة ؛ إذ أجمعوا سِوَاهُ على أنَّ الحقَّ فى أصولِ الدين فى وَاحدٍ[٤] ، والمخطىء فيه آثِمٌ عاصٍ فاسقٌ[٥] . وإنما الخلاف فى تكفيره[٦] .

---

(١) وبنى عليه تأويله . كفر ؛ لأنه قال ما قاله عن علم به .

(٢) فاسق : غير طائع لله ؛ لارتكابه كبيرة باعتقاد ما ليس بحق .

قال الخفاجى : وهذا كله من كلام المعتزلة ودسائسهم مما يوهم ظاهره الخير ، وهو شر محض .

(٣) عبيد الله هذا فقيه بصرى ، تولى قضاء البصرة بعد سوار بن عبد الله ، وكان عالما ثقة ، روى عنه غير واحد ، وأخرج له مسلم ، توفى سنة ثمان وستين ومائة .

قال الخفاجى : وكان يرى جواز التقليد فى العقائد والعقليات ، وخالف فى ذلك العلماء .

(٤) فى واحد لا يقبل التعدد لبراهينه القطعية ؛ فليس كالفروع التى هى محل الاجتهاد .

(٥) لعدوله عن الحق برأيه .

(٦) باجتهاده المخطىء فيما ليس محل الاجتهاد ، وإنما محله الفروع العملية ، فهو مثاب فى اجتهاده ، سواء قلنا : المصيب واحد أم لا على مااشتهر فى الأصول . أما فى أصول الدين فالمصيب واحد قطعا ، فلا وجه للاجتهاد فيها ، وإن بذل وسعه وجهده .

وذهب الجاحظ والعنبرى إلى جواز الاجتهاد فيها ، وأنه إذا أخطأ لا يأثم ؛ لكنه مقيد بالإسلام على الصحيح . قالوا : لأن قصدهم تعظيم الله وتنزيهه ؛ ولذا لم يبحث الصحابة عن الألفاظ الموهمة للتشبيه .

قال الخفاجى : وهو كله واه غير سديد .

وقد حكى القاضى أبو بكر الباقِلّانى مِثْلَ قول عُبيدالله عن دَاوُد الأصبهانى[(١)]؛ قال : وحَكى قومٌ عنهما[(٢)] أنهما قالا ذلك فى كلِّ مَنْ عَلِمَ اللهُ سبحانه من حاله استفراغَ الوُسْعِ[(٣)] فى طلب الحقِّ من أهل مِلّتِنا أو من غيرهم .

وقال نَحْوَ هذا القولِ الجاحظُ[(٤)]، وثُمَامةُ[(٥)]، فى أنَّ كثيرا من العامّة والنساء والبُلْهِ[(٦)] ومقلّدة النّصارى واليهود[(٧)] وغيرهم لا حُجَّةَ لِلهِ عليهم؛ إذ لم تكُنْ لهم طِبَاعٌ يمكنُ معها الاستدلالُ[(٨)] .

---

(١) هو داود بن على بن خلف ، أبو سليمان الأصفهانى البغدادى وطنا ، صاحب مذهب الظاهرية . توفى سنة سبعين ومائتين ، وكان إماما جليلا زاهدا ورعا ، قلد الشافعى رضى الله عنه أولا ، ثم صار صاحب مذهب مستقل . ومن أجل أتباعه ابن حزم .

(٢) عنهما : عن داود ، والعنبرى .

(٣) استفراغ الوسع ؛ أى بذل قدر جهده وطاقته .

(٤) هو عمرو بن بحر ، أبو عثمان الكنانى الليثى البصرى ، العالم المعروف . وهو معتزلى ، صاحب مذهب فى أصول الدين . وقد توفى سنة خمس وخمسين ومائتين .

(٥) هو ثمامة بن أشرس بن معن النميرى ، من كبار المعتزلة ، ورءوس الضلالة ، كما قال الذهبى (الميزان : ١ – ٣٧٢) .

(٦) البله : جمع أبله ؛ والمراد به من قل فهمه ، وغلب عليه الغفلة وقلة العلم .

قال الخفاجى : وما فى الحديث من أن أكثر أهل الجنة البله فالمراد بهم من غلب عليه سلامة الصدر وحسن الظن بالناس ، فأغفلوا أمر دنياهم وأقبلوا على آخرتهم .

(٧) ومقلدة النصارى واليهود : الذين كفروا تقليدا من غير معرفة دليل وحجة .

(٨) الاستدلال ؛ أى إقامة دليل وحجة توصلهم لمطلوبهم ؛ فإذن هم معذورون ولا حجة لله عليهم يعاقبهم بها .

قال الخفاجى : وهو قول باطل ؛ لأنهم مكلفون عقلا ، لاسيما من نشأ بدار الإسلام . وعلى كل حال فهم متمكنون من النظر ومعرفة الأدلة والتفكر فى خلق السموات والأرض ؛ وقد قرع أسماعهم ماتواتر من إرسال الله رسله ، وما ظهر من المعجزات الباهرة الظاهرة ظهور الشمس لمن له عينان ؛ فأى عذر لهم تدحض به حجة الله عليهم ؟

وقد نحا الغَزَالىُّ قريبا من هذا المَنْحَى فى كتاب التفرقة [١] .

وقائلُ هذا كلِّه كافرٌ بالإجماع على كُفْرِ مَنْ لَمْ يكفِّرْ أحداً من النصارى واليهودِ وكُلّ مَنْ فارقَ دِينَ المسلمين ، أو وقف [٢] فى تكفيرهم ، أو شكّ .

قال القاضى أبو بكر [٣] : لأنَّ التوقيفَ والإجماعَ [٤] على كُفْرهم ؛ فمَنْ وقف فى ذلك فقد كذَّب النصّ ، والتوقيفَ ، أوشكّ فيه . والتكذيبُ أو الشكُّ فيه لا يقَعُ إلّا من كافر [٥] .

فصـل

فى بيان ما هو من المقالات كفر ، وما يتوقّف أو يختلف فيه ، وما ليس بكفر

اعلَمْ أنَّ تحقيق هذا الفَصْل وكَشْفَ اللَّبْسِ [٦] فيه مَوْرِدُهُ الشَّرْعُ [٧] ، ولا مجالَ للعَقْل فيه [٨] ؛ والفَصْلُ البيِّنُ فى [٩] هذا أنّ كلّ مقالةٍ صرّحَتْ بنَفْىِ

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى صاحب المؤلفات الجليلة . توفى سنة خمس وخمسائة . وكتاب التفرقة كتاب له فى الأصول .

وفى نسيم الرياض : قال ابن حجر : وما نسبه المصنف للغزالى صرح الغزالى فى كتابه الاقتصاد بما يرده .

وارجع إلى نسيم الرياض (٤ — ٥٣١) ، ففيه آراء هامة هنا — إن أردت .

(٢) وقف فى تكفيرهم : أحجم عنه وتركه نفيا أو إثباتا .

(٣) هو الباقلانى .

(٤) لأن التوقيف فى كفرهم مع أن الإجماع منعقد على كفرهم لا يصح .

(٥) قال الخفاجى : وفى عبارته ركاكة وإغلاق يندفع بالتأمل .

(٦) كشف اللبس ، أى إزالة ما يلتبس على سامعه .

(٧) الشرع : ما شرعه الله تعالى لعباده وبينه من الاعتقاد والعمل .

(٨) أى لابد من تلقيه من الشارع .

(٩) الفصل البين : الفاصل المميزله عن غيره الظاهر الذى لا إشكال فيه ولا مجال لرده .

الرُّبوبيّة أو الوَحْدَانية أو عبادةِ أحَدٍ غير الله ، أو مع اللهِ ـ فهو كُفرٌ ، كمقالةِ الدَّهْرِية[١] ، وسائرِ فرقِ أصحاب الاثنين من الدِّيصانية[٢] أو المانَوِيّة[٣] وأشباهِهم من الصائبين[٤] والنصارى والمجوس[٥] [٢٧١] ، والذين أشركوا بعبادة الأوثان[٦] أو الملائكة ، أو الشياطين ، أو الشمس ، أو النجوم أو النار[٧] أو أحدٍ غَيْرِ اللهِ مِنْ مُشْرِكى العرب ، وأهلِ الهِنْد والصِّين والسُّودان وغَيْرِهم مِمَّنْ لايَرْجِعُ إلى كتابٍ .

وكذلك القرامِطَةُ[٨] وأصحابُ الحُلولِ والتناسُخ[٩] من الباطنيّة والطيّارة[١٠]

---

(١) الدهرية : طائفة من الملحدين ينسبون الأمور للدهر .

(٢) أصحاب الاثنين ، أى القائلين بإلهين اثنين . والديصانية نسبة إلى رجل من المجوس نسب له هذا المذهب . وقد ضبطت الدال فى ب بفتحة وكسرة .

(٣) المانوية: أصحاب مانى الذى ظهر فى زمن شابور بن أردشير بعد عيسى عليه السلام . وفى ا : والمانية .

(٤) الصابئ : من خرج من دين إلى آخر ، ثم خص بطائفة عبدوا الملائكة أو عبدوا الكواكب ، وهو المراد هنا .

(٥) المجوس : عبدة النار ، أو القائلون بالنور والظلمة .

(٦) الأوثان : جمع وثن ، وهو الصنم وحجارة تعبد . وقيل هناك فرق بين الوثن والصنم ؛ فالوثن ماله جثة من جنس الأرض ، أو من خشب ، أو من حجارة بصورة الآدمى ، بخلاف الوثن . ومنهم من لم يفرق بينهما .

(٧) عبدها قوم من المجوس .

(٨) القرامطة : هم الإسماعيلية المثبتون لإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، ورأسهم حمدان ابن قرمط من قرية من قرى واسط ؛ وكان ظهوره فى سنة سبعين ومائتين بقرية من سواد الكوفة .

(٩) أصحاب الحلول : من النصارى والباطنية وبعض جهلة المتصوفة ، يقولون : الله حل فى بعض الأجسام ، وهو أمر لا يعقل .

وأصحاب التناسخ : هم القائلون بأن الأرواح إذا فارقت الأبدان تحل فى غيرها .

(١٠) والباطنية : قوم من الملاحدة ذهبوا إلى أن القرآن له ظاهر وباطن ، وهو المراد منه ، وأن للشريعة مقاصد غير ما فهمه الناس . =

من الرافضة والجناحية والبيانية والغرابية[١] .

وكذلك من اعترفَ بالإلهيّة الله ووحدانيتِه ، ولـكنه اعتقد أنه غير حَيٍّ أو غَيْرُ قديمٍ ، وأنه مُحْدَثٌ أومصوَّرٌ[٢] ،أو ادَّعَى له وَلداً أوصاحبةً[٣] أو والداً[٤] ، أوْ أنه متولِّدٌ مِنْ شيء ، أو كائنٌ عنه[٥] ، أو أنَّ معه فى الأَزَل[٦] شيئا قديما غَيْرَهُ ؛ أو أنَّ ثَمَّ صانِعاً للعالَمِ سِوَاه ، أو مُدَبِّرًا غيره ؛ فذلك كلُّه كُفرٌ بإجماعِ المسلمين ؛ كقول الإلهيين من الفلاسفة والمنجّمين والطبائعيين[٧] . وكذلك من ادَّعَى مجالسةَ اللهِ ، والعُروجَ إليه ، ومكالمتَه ، أو حلُولَه فى أحدِ الأشخاصِ ؛ كقول بَعْضِ المتصوّفةِ والباطنيةِ ، والنصارى ، والقرامطة .

وكذلك نقطَعُ على كُفْرِ مَنْ قال بِقِدَم العالَمَ ، أو بَقائه، أو شَكٌّ فى ذلك[٨] على مذهب بعض الفلاسفة والدّهرية[٩] ، أو قال بتَناسخِ الأرْوَاحِ وانتقالها أبَدَ

= والطيارة : قوم من الغلاة نسبوا لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار ذى الجناحين . لقب بذلك لأنه لما أخذ الراية بمؤتة قطعت يداه واستشهد ؛ فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أبدله بها جناحين يطير بها فى الجنة .

(١) البيانية : نسبة لبيان بن سمعان اليمنى ، يقولون : روح الله حلت فى على كرم الله وجهه ثم فى ابنه محمد ابن الحنفية ، ثم فى ابنه هاشم ، ثم فى بيان .

والغرابية : قوم يقولون : إن جبريل عليه السلام نزل بالرسالة من عند الله لعلى ، فأعطاها لمحمد غلطا منه لأنه يشبهه ، كما يشبه الغراب الغراب .

(٢) مصور : جسم ذو صورة .

(٣) صاحبة : زوجة .

(٤) قال الخفاجى : هذا لم يقله بشر .

(٥) قال الخفاجى : هذه المقالة لا يعرف لها قائل .

(٦) الأزل : القدم ، وأنه لم يزل .

(٧) المنجمون : الباحثون عن النجوم وأحكامها القائلون بأنها مؤثرة فى الـكون .

والطبائعيون : القائلون بأن الطبيعة هى المؤثرة فى الإيجاد والتدبير .

(٨) فى ذلك البقاء والقدم .

(٩) الدهرية : الذين أسندوا الحوادث كلها للدهر ، وقالوا : ما يهلـكنا إلا الدهر ؛ وهم كفرة لإنـكارهم الحشر والنشر والآخرة .

الآبادِ فى الأشخاصِ ، وتعذيبها أو تنعيمها فيها بِحَسَبِ زكائها[١] وخُبْثِها . وكذلك من اعترف بالإلهية والوَحْدَانية ، ولكنه جَحدَ النبوّة من أصلها عموماً ، أو نبوّة نبيّنا صلّى اللهُ عليه وسلم خصوصا ، أو أحدٍ من الأنبياء الذين نصّ اللهُ عليهم بعد عِلْمِه بذلك؛ فهو كافر بلا رَيْبٍ ؛ كالبراهمة[٢] ، ومُعْظَمِ اليهودِ والأَرُوسيّة[٣] من النصارى ، والغُرَابية من الرّوَافِض الزّاعمين أنّ عليًّا كان المبعوثَ إليه جبريلُ ، وكالمعطّلة[٤] والقرامطةِ والإسماعيلية والعَنْبَرِيَّةِ[٥] من الرافضة، وإن كان بعضُ هؤلاء قد أشركوا فى كُفْرٍ آخر مع مَنْ قبلهم .

وكذلك مَنْ دَانَ بالوَحْدَانيّة وصِحّةِ النبوّة ، ونُبوّةِ نبيِّنا صلّى اللهُ عليه وسلم، ولكن جوّز على الأنبياء الكَذِبَ فيما أَتَوْا به ، ادّعى فى ذلك المصلحةَ بِزَعْمِه أو لم يَدّعها فهو كافِرٌ بإجماعٍ ؛ كالمتفلسفين ، وَبعض الباطنية ، والرّوَافض ، وغُلَاةِ المُتَصَوِّفةِ ، وأصحاب الإباحةِ[٦] ؛ فإنّ هؤلاء زَعَمُوا أنّ ظواهرَ[٧] الشّرْعِ ، وأَكْثَرَ ما جاءت به الرسُلُ من الأخبار عما كان ويكون مِنْ أُمورِ الآخرةِ

---

(١) زكائها : طيبها وطهارتها . وفى ا : تنعمها .

(٢) البراهمة : قوم من الكفرة ذهبوا إلى إبطال وجود النبوات عقلا لعدم عقلهم ؛ قالوا: لأن ما يجىء به النبي إما أن يقبله العقل أو لا؛ والأول النقل يدل عليه، فما الحاجة لغيره؟ والثانى مردود باطل ، وهو المدعى .

والبراهمة نسبة إلى رجل يقال له برهام ، وهو مؤسس فسادهم ومذهبهم .

(٣) الأروسية : قيل إنهم منسوبون لرجل اسمه أريس أو أروس ، ومعناه ملك أو عشار أو صاحب الزراعة . وهو صاحب مذهب فى النصرانية . وقال القارى (٢ – ٥١٥) : والأروسية بضمتين ، أو بفتح أوله . وفى آخره ياء النسبة .

(٤) المعطلة : الذين جحدوا الألوهية والرسالة والأحكام .

(٥) العنبرية : هم أتباع عبد الله بن الحسن العنبرى .

(٦) أصحاب الإباحة : الذين ذهبوا لإباحة المحرمات ، وأن من كمل نفسه وصل لمرتبة لاتضره المعاصى . (٧) ظواهر الشرع : المراد ما يدل عليه نصوصه فيما يتعلق بالمعاد وغيره .

والحَشْرِ والقيامة ، والجَنَّةِ والنار ، ليس منها شيء على مُقْتَضى لَفْظِها[١] ومفهومِ خطابها[٢] ؛ وإنما خاطبُوا بها الخَلْقَ على جِهَةِ المصلحة لهم[٣] ؛ إذ لم يمكنهم التصريحُ لقُصُورِ أفهامِهم[٤] ؛ فمُضَمَّنُ مَقَالاتهم إبطالُ الشرائع[٥] ، وتعطيل الأوامر والنواهى ، وتكذيبُ الرُّسُلِ ، والارتيابُ فيما أتَوْا به .

وكذلك مَنْ أضافَ[٦] إلى نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعَمُّدَ الكَذِب فيما بلّغه وأخبر به ، أو شكَّ فى صِدْقِه ، أو سبَّه ، أو قال : إنه لم يبلِّغْ ؛ أو استَخَفَّ[٧] به ، أو بأحدٍ من الأنبياء ، أو أزْرى عليهم[٨] ، أو آذاهُمْ ، أو قتَلَ نبيًّا ، أو حاربه ، فهو كافرٌ بإجماعٍ .

وكذلك نُكفِّرُ مَنْ ذهب مَذْهَبَ بَعْضِ القدماء فى أنَّ فى كلِّ جِنْسٍ من الحيوانِ نذيراً[٩] أو نبيًّا من القِرَدةِ والخنازير والدواب والدُّود . ويَحْتَجّ بقوله تعالى[١٠] : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فيها نذير ﴾ . إذْ ذلك يُؤَدِّى إلى أنْ يوصفَ أنبياء هذه

(١) على مقتضى لفظها : على ظاهر لفظها الذى بلغه الرسل عليهم السلام لأممهم .

(٢) مفهوم خطابها : ما يدل عليه معناها المتبادر منها .

(٣) على جهة المصلحة لهم ؛ أى ليتبعوهم ويكفوا عما لايليق بهم بما يكمل أنفسهم البشرية .

(٤) كقصور أفهامهم ؛ أى لم يستطع هؤلاء الرسل التصريح بكشف حقيقة الحال لهم لقصور أفهام الخلق عن إدراك حقيقة ما يريدونه .

قال فى نسيم الرياض (٤ — ٥٣٩) : وهذا الذى ادعاه هؤلاء الفلاسفة باطل .

(٥) مضمن مقالاتهم ؛ أى التى زعموا أنهم لم يريدوا بها ظاهره الدال عليه صراحة . إبطال الشرائع ، لأن ظاهرها غير مراد لهم .

(٦) أضاف : نسب .

(٧) استخف به : استهزأ .

(٨) الإزراء : الاحتقار ؛ أى ذكر ما فيه تحقير وإهانة لهم .

(٩) نذيرا : رسلا أرسلت إليهم من نوعهم لإنذارهم .

(١٠) سورة فاطر ، آية ٢٤ خلا : مضى . نذير : رسول . والأمة : الجماعة . فحملها على العموم لسائر الحيوانات .

الأجناسِ بصفاتهم المذمومة . وفيه من الإِزْرَاء على هذا المنْصِبِ [٢٧٢] المُنيف ما فيه[(١)] ، مع إجماع المسلمين على خلافه ، وتـكذيب[(٢)] قائله .

وكذلك نُـكَفِّرُ من اعترف من الأُصول الصحيحة بِمَا تقدم[(٣)] ، وبنبوّةِ نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ ولـكن قال : كان أسودَ ، أو مات قبل أن يَلْتَحِي[(٤)] ، وليس الذى كان بمكة والحجازِ ، أو ليس بقُرَشيّ ؛ لأنَّ وَصْفَه بغير صفاته المعلومة نَفْيٌ له وتـكذيبٌ به .

وكذلكَ مَن ادَّعَى نُبوّةَ أَحدٍ مع نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلم أو بعده ، كالعِيسَوِيّة من اليهود[(٥)] القائلين بتخصيص رسالته إلى العرَب[(٦)] ، وكالخُرَّمِيّة[(٧)] القائلين بتواتُر الرُّسُل ، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة عليّ فى الرِّسالة للنبى صلى اللهُ عليه وسلم وبَعْدَه؛ وكذلك كلُّ إمامٍ[(٨)] عند هؤلاء يقوم مقامَه فى النبوّة والحجّة؛ وكالبَزِيعيّة والبَيَانية منهم القائلين بنبوّة بَزِيع وبَيَانٍ وأشباه هؤلاء . أو من[(٩)]

---

(١) والمنصب : المقام . المنيف : العالى الشريف ، وهو مقام النبوة .

(٢) فإن كل أحد يعلم أنه لافائدة فى تـكليف غير العقلاء .

(٣) الأصول الصحيحة : الألوهية والوحدانية .

(٤) قبل أن يلتحى : قبل أن تنبت لحيته .

(٥) العيسوية : طائفة من اليهود نسبوا لعيسى بن إسحاق بن يعقوب الأصبهانى اليهودى، وكان فى زمن بنى مروان ، وادعى النبوة فى مروان الحمار ، وتبعه كثير من اليهود ، وكان من مذهبه تجويز حدوث النبوة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم .

(٦) فهو مع تجويز نبوة نبى بعده منكر لعموم رسالته .

(٧) هذا فى ا . وفى ب: الحرمية ــ بكسر الحاء المهملة ، وسكون الراء . وفى شرح القارى (٢ ــ ٥١٩) : الخرمية بضم الخاء المعجمة وتشديد الراء المفتوحة لأنهم تبعوا بابك الخرمى فنسبوا إليه . وفى نسخة : بجيم مفتوحة فراء ساكنة . قال التلمسانى : ويجوز كسر الحاء المهملة وسكون الراء ، لقولهم : ما حرم حلال ؛ لأنهم أباحوا المحرمات .

(٨) كل إمام : كل خليفة .   (٩) فى ا : ومن .

ادَّعَى النبوةَ لنفسه ، أو جوّزَ اكتسابَها والبلوغَ بصَفَاء القَلْب إلى مَرْتَبَتِها ؛ كالفلاسفة وغُلَاة المتصوِّفة .

وكذلك من ادَّعَى منهم أنه يُوحَى إليه وإنْ لم يدَّعِ النبوّةَ ، أو أنه يَصْعَدُ إلى السماء ويدخل إلى الجنة ، ويأكلُ من ثمارها ، ويعانِقُ الحورَ العِين ؛ فهؤلاء كلُّهم كفّارٌ مكذِّبون للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أخبر النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه خاتَمُ النبيين ، لا نبيّ بعده . وأخبر[١] عن الله تعالى أنه خاتَم النبيين[٢] ، وأنه أُرسل كافّةً للناس[٣] .

وأجمعت الأمةُ على حَمْل هذا الكلام على ظاهِره[٤] ، وأنَّ مفهومَه المراد منه دونَ تأْويل ولا تخصيص ؛ فلا شكّ في كُفْرِ هؤلاء الطوائف كلِّها قَطْعًا إجماعا وسَمْعاً .

وكذلك وقع الإجماعُ على تكفير كلِّ مَنْ دافَعَ نَصَّ الكتاب[٥] ، أو خصّ حديثا مُجْمَعا على نَقْله مقطوعاً به ، مُجْمَعاً على حَمْله على ظاهِرِه ؛ كتكفير الخوارج بإبطال الرَّجْم[٦] ؛ ولهذا نكفِّر مَنْ دانَ بغَيْر مِلَّةِ المسلمين من المِلَل ، أو وقف[٧] فيهم ، أو شكّ ، أو صَحّح مَذْهبَهم ، وإنْ أظْهرَ مع ذلك الإسلامَ ، واعتقده ، واعتقد إبطالَ كلِّ مذهبٍ سِوَاه ؛ فهو كافرٌ بإظهارِه ماأظْهر من خلاف[٨] ذلك .

(١) وأخبر ؛ أى النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى قوله تعالى : ولكن رسول الله وخاتم النبيين .

(٣) فى قوله تعالى : وما أرسلناك إلا كافة للناس؛أى رسالة عامةمحيطة بهم تكف عن أن يخرج منها أحد .

(٤) على ظاهره ، من نفى النبوة بعده وعموم الرسالة .

(٥) دافع نص الكتاب ، أى منع ونازع فيما جاء صريحا فى القرآن .

(٦) بإبطال الرجم للزانى والزانية المحصنين ، فإنه مجمع عليه ، وصار معلوما من الدين بالضرورة .

(٧) وقف فيهم : توقف وتردد .

(٨) من خلاف ذلك ، أى ما يخالف الإسلام ، لأنه طعن فى الدين وتكذيب .

وكذلك نَقْطَعُ بتكفير كلِّ قائل قال قولاً يُتوصَّلُ به إلى تضليل الأمة وتكفير جميع الصحابةِ ؛ كقول الكُمَيْلية من الرافضة بتكفير جميع الأُمة بعد النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ إذ لم تُقَدِّمْ عليًّا[١]. وكفرت عليًّا ، إذ لم يتقدّمْ ويطلب حقَّه في التقديم ؛ فهؤلاء قد كفروا من وجوهٍ ؛ لأنهم أبطلوا الشريعةَ بأسرها ؛ إذ قد انقطع نَقْلُها ونَقلُ القرآن ؛ إذ ناقِلُوه كفَرَةٌ على زعْمِهم ؛ وإلى هذا ـ واللهُ أعلم ـ أشار مالكٌ في أحدِ قوْلَيه بقَتْلِ مَنْ كفَّر الصحابةَ .

ثم كفروا مِنْ وَجْهٍ آخر بِسَبِّهم النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم على مُقْتضى قولهم وزَعْمِهم أنه عَهِدَ إلى عليّ رضِيَ اللهُ عنه وهو يَعْلَمُ أنه يكفُر بعده[٢] على قولهم ، لَعنَةُ اللهِ عليهم ، وصلى اللهُ على رسولِه وآله .

وكذلك نُكفِّر بكل فِعْلٍ أجْمعَ المسلمون أنه لا يَصْدُرُ مِنْ كافرٍ وإنْ كان صاحبُه مُصَرِّحا بالإسلامِ مع فِعْلِه ذلك الفِعْل ؛ كالسجودِ للصَّنَمِ ، وللشَّمْسِ والقمر ، والصليبِ والنارِ ، والسَّعْيِ إلى الكنائس والبِيَع[٣] مع أهلِها بزِيِّهم[٤] :

---

(١) إذ لم تقدم ، أي الأمة .

(٢) يكفر بعده ـ في زعمهم ؛ لترك حقه .

(٣) البيع : جمع بيعة ؛ قال الخفاجي : والكنيسة والبيعة يقالان لمعبد اليهود والنصارى . وقيل الأول لليهود والثاني للنصارى . وقيل الأول عام والثاني مخصوص بالنصارى ، وهو المشهور .

(٤) قال في نسيم الرياض (٤ ـ ٥٤٨) :
المراد أنه يذهب معهم في وقت ذهابهم للعبادة فيها كما يسعى المسلمون للصلاة في المساجد إذا نودي للصلاة على هيئة تدل على موافقته لهم . وإلا فمجرد الذهاب للكنيسة والدخول فيها ليس بكفر ، وإنما هو مكروه إن كان لغرض صحيح . وقيل : لا يجوز إذا كان ثمة صور ونحوها مما لا يقرون على إظهاره .

من شَدِّ الزنانير[(١)] ، وفَحْص[(٢)] الرءوس ؛ فقد أجمع المسلمون أنّ هذا [الفعل][(٣)] لا يوجدُ [٢٧٣] إلّا من كافر ، وأنّ هذه الأفعالَ علامةٌ على الكُفْرِ وإنْ صرّحَ فاعِلُها بالإسلام .

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كلِّ مَن استحلّ القَتْلَ أو شُرْبَ الخمر أو الزّنا مما حرّم الله بعد عِلْمِه بتحريمه ؛ كأصحابِ الإباحةِ من القرامطةِ وبعضِ غُلَاةِ المتصوِّفة .

وكذلك نقطَعُ بتكفيرِ كلِّ مَنْ كذّب وأنكر قاعدةً مِنْ قواعدِ[(٤)] الشّرْعِ ، وما عُرِف يَقينا بالنّقْل المُتَوَاتِرِ[(٥)] من فِعْلِ الرّسُولِ ، وَوَقَع الإجماعُ المتّصِل عليه ؛ كمن أنكر وجوبَ الخَمْس الصلوات أو عدَدَ رَكعاتِها وسجداتها ؛ ويقول : إنما أوجب اللهُ علينا فى كتابه الصلاةَ على الجملة[(٦)] ؛ وكونها خمسا ، وعلى

(١) الزنانير : جمع زنار ، أو زنارة ، وهو حزام للنصارى يشدونه فى أوساطهم .
قال فى نسيم الرياض (٤ — ٥٤٨) : فحيث لبس زى الكفار سواء داخل دار الحرب أولا بنية الرضا بدينهم أو الميل إليه ، أو تهاونا بالإسلام كفر ، وإلا فلا .
قال الخفاجى :
واعترض على ما ذكر فى مسألة زى الكفار بما نقل عن الشافعى رضى الله عنه : إنه لو سجد لصنم فى دار الحرب لم يحكم بردته ، وإن لبس زى الكفار فى دار الإسلام حكم بردته .
وأجيب بحمل هذا الإطلاق على التفصيل المذكور .
(٢) فحص رءوسهم : حلق أوساطها ، وهو من شعائرهم المعروفة .
(٣) ليس فى ا .
(٤) المراد بالقواعد ما بنى عليه الإسلام ؛ كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج .
(٥) النقل المتواتر : الذى يمتنع كذب قائله .
(٦) على الجملة ؛ أى إجمالا ، من غير بيان عدد .

هذه الصفاتِ والشروطِ لا أعلَمُه ؛ إذ لم يَرِدْ فيه فى القرآنِ نَصٌّ جَلِىٌّ ، والخَبَرُ به عن الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم خَبَرُ وَاحدٍ[١] .

وكذلك أجمعَ المسلمون على تكفير مَنْ قال من الخوارج : إن الصلاة طَرَفى النهار[٢] ؛ وعلى تكفير الباطنية فى قولهم : إن الفرائضَ أسماءُ رجالٍ أُمِرُوا بِوِلايتهم[٣] ، والخبائثَ والمحارِمَ أسماء رجالٍ أُمروا بالبراءة منهم[٤] .

وقولُ بعضِ المتصوّفة : إنّ العبادةَ وطولَ المُجاهدةِ[٥] إذا صفّتْ نُفُوسَهم أفضَتْ بهم إلى إسقاطِها[٦] وإباحةِ كل شىء لهم ، ورَفعِ عُهَدِ الشرائعِ عنهم[٧] .

وكذلك إنْ أنكر مُنْكِرٌ مكةَ ، أو البيتَ ، أو المسجد الحرام ، أو صفة الحج ، أو قال : الحجُّ وَاجبٌ[٨] فى القُرآن ، واستقبالُ القِبْلَةِ كذلك ؛ ولكن كونُه على هذه الهيئة المتعارَفَة ، وأنَّ تلكَ البُقْعة هى مكةُ والبيتُ والمسجدُ الحرام ، لا أدرى هى تِلْكَ أو غيرها ؛ ولعلَّ الناقلين أنَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلّم فسَّرها بهذه التفاسير غَلطوا وَوهِمُوا ،

---

(١) هو متواتر معنى ؛ وقد وجب علينا العمل به إجماعا ؛ لقوله تعالى : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقوله تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره » .

(٢) المراد بطرفى النهار أوله وآخره .

(٣) بولايتهم : بنصرهم واتباعهم .

(٤) بالبراءة منهم : بالتبرى منهم والبعد بعداوتهم ومخالفتهم .

(٥) المجاهدة : مخالفة النفس وملازمة الطاعة .

(٦) إسقاطها : إسقاط الفرائض .

(٧) عهد الشرائع عنهم : ماعهده الله من التكاليف .

(٨) الحج واجب فى القرآن بقوله تعالى : «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» . واستقبال القبلة جاء فى القرآن فى قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .

فهذا وَمِثْــلُه لا مِرْيةَ فى تــكفيره[١] إنْ كان ممّنْ يُظَنُّ به عِلْمُ ذلك ؛ وممّن يخالِطُ المسلمين[٢] ، [وامتدّت صحبتُه لهم ، إلّا أن يكونَ حَديثَ عَهْدٍ بإسلامٍ[٣] ؛ فيُقالُ له : سَبِيلُك[٤] أنْ تسألَ عن هذا الذى لم تَعلَمْه بَعْدُ كافّةَ المسلمين][٥] ، فلا تجد بينهم خلافا ، كافّةً عَنْ كافّةٍ ، إلى معاصرى الرّسُولِ صلَّى اللهُ عليه وسلم - أنَّ هذه الأمورَ كما قيل لكَ ، وأنَّ تلكَ البقعةَ هى مكةُ وَالبيتُ الذى فيها هو الكعبةُ ، والقبلةُ التى صلَّى لهـا الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم والمسلمون ، وَحَجُّوا إليها ، وَطافُوا بها ؛ وأن تلكَ الأفعالَ هى صفةُ عبادةِ الحجّ ، والمرادُ به ، وهى التى فعلها النبىّ صلى اللهُ عليه وَسلم وَالمسلمون ، وَأنّ صفاتِ الصلاةِ المذكورة هى التى فعل النبىُّ صلّى اللهُ عليه وَسلم ، وشرحَ مُرَادَ اللهِ بذلك ، وأبانَ حدودَها ؛ فيقَع[٦] لكَ العِلْمُ كما وَقعلهم ، ولا ترتابُ بذلك[٧] بعد ، والمُرْتابُ فى ذلك ، أوالمُنْكِرُ بعد البحثِ وصُحْبةِ المسلمين كافرٌ باتّفاقٍ ، لا يُعْذَر بقوله : لاأدْرى ، ولايُصَدَّق[٨] فيه ، بل ظاهِرُه التستُّر عن التــكذيب ، إذلا يمــكِنُ أنه لايَدْرِى[٩] .

(١) لا مرية : لاشك فى تــكفيره ؛ لإنــكاره ما عــلم من الدين بالضرورة ، وتــكذيبه لله ورسوله .

(٢) يخالط المسلمين فى دار الإسلام .

(٣) حديث عهد بإسلام ؛ أى قريب عهد بأن أسلم بعد كفره فى غير دار الإسلام ، فهو معذور لجهله بما ذكر .

(٤) سبيلك : طريقك الذى يجب عليك سلوكه .

(٥) مابين القوسين فى ب وحدها .

(٦) فيقع لك بسؤالك عما لم تعلمه العلم بما ذكر وصفته .

(٧) فى ب : ولا ترتب فى ذلك .

(٨) لايصدق فيه ؛ أى فى قوله : لا أدرى .

(٩) أنه لايدرى ذلك مع تواتره وثبوت صفاته .

وأيضا فإنه إذا جوّزَ على جميع الأمةِ الوَهْمَ والغَلَط فيما نقلوه من ذلك،وأجمعوا أنه قولُ الرسولِ وفِعْلُه وَتفسيرُ مُرادِ اللهِ بهـ أدخل الاستِرابة[١] فى جميع الشريعة ؛ إذ هم الناقلونَ لها وَللقُرْآن ، وَانحلّتْ عُرَا الدينِ كرّةً[٢] ، وَمن قال هذا كافر .

وكذلك مَنْ أنكر القرآنَ ، أو حَرْفا منه ، أو غيّر شيئا منه ، أو زاد فيه ، كفِعْل الباطنيّة وَالإسماعيلية[٣] ، أو زعم أنه ليس بحجّةٍ للنبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم [٢٧٤] ، أو ليس فيه حجةٌ ولا مُعْجِزةٌ ؛ كقول هشام الفُوَطيّ ، ومَعْمَر الضَّمْرِيّ[٤] : إنه لا يدلُّ على اللهِ ، ولا حجةَ فيه لرَسُوله ، ولا يَدُلّ على ثوَابٍ ولا عِقَاب ، ولا حُكم ؛ ولا محالةَ فى كفرهما بذلك القول .

وكذلك تكفيرهما بإنكارهما أَنْ يكونَ فى سائر معجزاتِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم حجّةٌ له ، أو فى خَلْقِ السمواتِ والأَرضِ دَليلٌ على اللهِ[٥] ، لمخالفتهم الإجماعَ والنَّقْلَ المتواتر عن النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم باحتجاجِه بهذا كلِّه وتصريح القرآن[٦] به .

---

(١) الاسترابة : الشك .

(٢) كرة : دفعة واحدة ، وجملة .

(٣) قال فى نسيم الرياض : هم فرقة واحدة ، سموا تارة باطنية لزعمهم أن للنصوص ظاهرا هو تكليف ومشقة ، وباطنا بخلافه فهو رحمة .

وسموا إسماعيلية لانتسابهم لإسماعيل بن جعفر بن محمد الباقر ؛ وقالوا : هو الإمام المعصوم المنصوص على إمامته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) هو هشام بن عمرو الفوطى من القدرية . ومعمر الضمرى ـ منسوب لضمرة : قبيلة. وهذا فى ا ، ب . وفى شرح الخفاجى والقارى : الصيمرى ،منسوب إلى صيمر موضع أوبلدة، وهو من المعتزلة . وقال الخفاجى (٤ ـ ٥٥٤) : وفى نسخة : الضمرى .

(٥) دليل على الله ؛ لدلالة مصنوعاته ـ سبحانه وتعالى ـ عليه من غير شك .

(٦) وتصريح القرآن به ، كقوله تعالى : فأتوا بسورة مثله .

وكذلك مَنْ أنكر شيئاً مما نصّ فيه القرآنُ ـ بعد عِلْمِه ـ أنه من القرآنِ الذى فى أيدى الناس ومصاحفِ المسلمين ، ولم يكن جاهلا به ، ولا قريبَ عَهْدٍ بالإسلام ؛ واحتجّ لإنكاره إمّا بأنه لم يصحّ النقلُ عنده ، ولا بلغه العلمُ به ؛ أو لتجويزه الوَهْم على ناقليه[١] ؛ فنكفّره بالطريقين المتقدمين[٢] ؛ لأنه مكذّبٌ [للقرآن ، مُكذّبٌ][٣] للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ لكنه تستّر بدَعْوَاه .

وكذلك مَنْ أنكر الجنّة أو النارَ ، أو البَعْثَ أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماعٍ للنصّ عليه[٤] ، وإجماعِ الامة على صحةِ نَقْلِه مُتواترا ؛ وكذلك من اعترف بذلك ، ولكنه قال : إنّ المرادَ بالجنّة والنار ، والحَشْر والنَّشْر[٥] ، والثوابِ والعقاب ـ معنى غَيْرَ ظاهرِه ، وإنها لذّاتٌ رُوحانية[٦] ، ومَعَانٍ باطنةٌ ؛ كقول النصارى والفلاسفة والباطنيةِ وبعض المتصوفة ، وزعْمِهم أنّ معنى القيامةِ الموتُ أو فناءٌ مَحْضٌ[٧] ، وانتقاضُ هيئة الأفلاك ، وتحليلُ العالم[٨] ؛ كقول بعض الفلاسفة .

---

(١) الوهم : الخطأ . وفى ا : أو لتجويزه الوهم عن ناقله .
(٢) بالطريقين المتقدمين ، أى مخالفة الإجماع والنقل الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم .
(٣) مابين القوسين ساقط فى ا .
(٤) نص عليه فى قوله تعالى : ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . وقوله تعالى : يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا . ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا . وقوله تعالى : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة . وقوله تعالى : يوم يقوم الحساب .
(٥) والنشر ، أى خروجهم من القبور منتشرين .
(٦) روحانية : المراد أنها أمر يتعلق بالروح من اللذة والألم .
(٧) فناء محض : فناء وعدم خالص .
(٨) انتقاض : تغيير . تحليل العالم : إبانة بعضه من بعض .

وكذلك نقطعُ بتكفير غُلاَةِ الرافضة فى قولهم : إنّ الأئمة أفضلُ من الأنبياء[١].

فأمّا مَنْ أنكر ماعُرِف بالتواتُر من الأَخبار والسِّيَر والبلاد التى لاترجع[٢] إلى إبطال شريعة ، ولا تُفضِى[٣] إلى إنكارِ قاعدةٍ من الدِّين ؛ كإنْكارِ غزْوَة تَبُوك أو مُؤْتة[٤] ، أو وجود أبى بكر[٥] وعُمر ، أو قتْلِ عثمان ؛ وخِلاَفة علىّ ، مِمّا عُلِمَ بالنّقْل ضرورةً ؛ وليس فى إنكاره جَحْدُ شريعةٍ ؛ فلا سبيلَ إلى تكفيره بجحْدِ ذلك ، وإنكارِهِ وقوعَ العلم له ؛ إذ ليس فى ذلك أكثرُ من المباهتة[٦] ؛ كإنكارِ هشامٍ[٧] وعبّاد وَقْعَةَ[٨] الجَمَلِ ، ومحاربةَ علىٍّ مَنْ[٩] خالَفَه .

فأمّا إنْ ضَعّفَ ذلِكَ من أجْلِ تُهْمَةِ الناقلين، وَوَهّمَ المسلمين[١٠] أجمع، فنُكفّره

---

(١) الأئمة عندهم على وأولاده رضى الله عنهم الذين يقولون : إن الإمامة حقهم . قال الخفاجى : وهؤلاء أشد كفرا من النصارى .

(٢) أى البلاد البعيدة كخراسان ، لايرجع إنكارها إلى إبطال شريعة مما شرعه الله لعباده .

(٣) لاتفضى : لا توصل .

(٤) قال فى نسيم الرياض (٤–٥٥٧) : وإنما لم يكفر منكرهما ؛ لأنه لايترتب على إنكاره أمر دينى .

(٥) أو وجود ؛ أى كما لا نكفر من أنكر وجود .

(٦) المباهتة : الافتراء والكذب ، ومثله لايعد كفرا .

(٧) هشام الفوطى: من غلاة الرافضة، وقد تقدم صفحة ١٠٧٦ وعباد الضمرى، أو الصيمرى، وقد تقدم أيضا صفحة ١٠٧٦ ، وقد سبق أنه معمر .

(٨) وقعة الجمل : كانت بالبصرة بين على ومعاوية ، وكانت سنة ست وثلاثين .

(٩) من خالفه : من الخوارج ..

(١٠) ووهم المسلمين أجمع ؛ أى قال : إن جميع المسلمين مخطئون فى نقلهم .

بذلك لِسَرَيانِهِ إلى إبطال الشريعة(١) .

فأمّا مَنْ أنـكر الإجماعَ المجرَّد الذى ليس طريقه النقْل المتواتر عن الشارع فأكثرُ المتكلّمين من الفقهاء والنظّار فى هذا الباب قالوا بتكفير كلٍّ مَنْ خالفَ الإجماعَ الصحيحَ الجامعَ لشروط الإجماع المتّفَق عليه عموما .

وحُجّتهم قوله تعالى(٢) : ﴿وَمَنْ يشاقِقِ الرسولَ مِنْ بَعْد ما تبيَّنَ له الهدى ويَتّبِـعْ غَيْرَ سبيلِ المؤمنين نُوَلّه ما تَوَلّى وَنُصْلِه جَهَنّمَ وَساءت مَصِيرًا﴾ .

وقوله صلى(٣) اللهُ عليه وسلم : مَنْ خالف الجماعةَ قِيْدَ(٤) شِبْرٍ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلامِ مِن عُنُقِه . وحكَوْا الإجماعَ(٥) على تكفير مَنْ خالف الإجماع .

وذهب آخرون إلى الوقوف عن(٦) القَطْع بتكفير مَنْ خالفَ الإجماعَ [الذى يختصُّ بنَقْلِه العلماء .

وذهب آخرون إلى التوقّف فى تكفير مَنْ خالفَ الإجماعَ](٧) الـكائنَ عن(٨)

---

(١) لأن الشريعة إنما تعلم بنقل المسلمين ؛ فإذا جوز اتفاقهم على الكذب لم يوثق بنقلهم فى شىء أصلا .

وتكفيره لإنكار إجماع المسلمين ، وهو كفر .

(٢) سورة النساء ، آية ١١٥

يشاقق الرسول : يخالفه ويعاديه فيكون فى شق ، والرسول فى شق آخر .

(٣) رواه أبو داود فى سننه وصححه .

(٤) قيد شبر : قدر شبر .

(٥) قال فى نسيم الرياض : وحكاية المصنف رحمه الله تعالى فى تكفير من جحد الإجماع مناف لما ذكره بعده من التوقف فيه بقوله : وذهب آخرون .

(٦) فى ب : على . والوقوف: التوقف فيه من غير قطع بتكفير وعدمه ، أى عدم الجزم.

(٧) ما بين القوسين فى ب وحدها .

(٨) عن نظر : كالقياس الحاصل باجتهاد لابد له من مستند .

نَظر ؛ كتكفير النظّام(١) بإنكاره الإجماع ؛ لأنه بقَوْلِه هذا مخالفٌ إجماعَ السلفِ على(٢) احتجاجِهم به ، خارقٌ للإجماع(٣) .

قال القاضى أبو بكر : القولُ عندى أن الكُفْرَ باللهِ هو الجَهْلُ بوُجوده ؛ والإيمان بالله[٢٧٥] هو العلمُ بوجودِه ، وأنه لا يكفُرُ أحَدٌ بقولٍ ولا رَأْيٍ إلا أَنْ يكون هو الجَهْلُ بالله ، فإن عصى بقَوْلٍ أو فِعْلٍ نصّ(٤) اللهُ ورَسُولُه ، أو أجمع المسلمون ، أنه لا يُوجَد إلا(٥) مِنْ كافر ، أو يقوم دَليلٌ على(٦) ذلك ، فقد كفر ، ليس لأَجْلِ قَوْلِه أو فِعْله ، لكن لما يُقارِنُه من الكُفْر ؛ فالكُفْرُ باللهِ لا يكونُ إلّا بأَحدِ ثلاثة أُمور : أَحدُها الجَهْلُ بالله تعالى . والثانى أَنْ يأتِيَ فِعْلا أو يقولَ قولا يُخْبِرُ اللهُ ورَسُولُه ، أو يُجْمِعُ المسلمون ، أَنَّ ذلكَ لا يكونُ إلا مِنْ كافر ؛ كالسجودِ للصَّنَمِ ، والمَشْيِ(٧) إلى الكنائس بالتزام الزُّنّار مع أصحابها فى أعيادهم ؛ أو أن يكون ذلك القول أو الفِعْلُ لا يمكنُ معه العِلْمُ بالله تعالى .

قال : فهذانِ الضَّرْبان ، وإن لم يكونا جَهْلاً بالله فهُمَا عَلَمٌ(٨) أَنّ فاعلَهما كافرٌ مُنْسلخٌ من الإيمان(٩) ؛ فأما مَنْ نَفَى صِفَةً من صِفَاتِ اللهِ تعالى الذاتيّة ، أو جَحَدها

(١) النظام : هو إبراهيم بن سيار ، أو ابن شيبان ، أبو إسحاق ، مولى بنى الحارث بن قيس ابن ثعلبة ، أحد فرسان المتكلمين من المعتزلة . كان فى دولة المعتصم توفى سنة ٢٢١ هـ .

(٢) فى ا : باحتجاجهم .

(٣) خارق للإجماع منهم ومن غيرهم على ذلك .

(٤) نص الله ورسوله : ذكره صريحا فى كتاب أو سنة .

(٥) لا يوجد : لا يصدر ؛ كإنكار الشرع ، أو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٦) على ذلك ؛ أى على أنه لا يصدر إلا من كافر .

(٧) المشى : الذهاب . والزنار : ما يشد بالوسط على هيئة مخصوصة بالكفرة .

(٨) علم : علامة وأمارة .

(٩) منسلخ : خارج من الإيمان بالله تعالى .

=

مُسْتَبْصِرًا[١] فى ذلك ، كقوله : ليس بعالمٍ ولا قادرٍ ولا مريدٍ ولا مُتَكلِّمٍ ، وشِبْه ذلك مِنْ صفاتِ الكمال الواجبةِ له تعالى ؛ فقد نصّ أئمتُنا على الإجماع على كُفْر مَنْ نَفَى عنه تعالى الوصْفَ بها ، وأعراه[٢] عنها .

وعلى هذا حُمِلَ قَوْلُ سُحْنُون : مَنْ قال : ليس للهِ كلامٌ ، فهو كافِرٌ ، وهو لا يُكفِّر المتأوّلين كما قدمناه .

فأمّا مَنْ جَهِلَ صِفَةً من هذه الصفاتِ فاختلف العلماء ها هنا[٣] ؛ فكفّرهُ بعضُهم[٤] ، وحُكِيَ ذلك عن أبى جعفر الطبرى[٥] وغيرِه ، وقال به أبو الحسن الأَشْعَرى[٦] مرةً .

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّ هذا[٧] لايخرجُه عن اسْمِ الإيمانِ ؛ وإليه رَجَع الأشعريّ ؛

= وفى نسيم الرياض (٤ — ٥٦١) :
الإيمان عند الأشاعرة تصديق النبي صلى الله عليه وسلم فيما علم مجيئه ضرورة ، ومما جاء به الإقرار بالله ورسله وكتبه ، فالكفر حينئذ جحد ذلك . وقد جعل الشرع بعض الأمور علامة على ذلك .

وقال ابن الهمام : الإيمان نقل شرعا من معناه اللغوى ، وهو التصديق — إلى مجموع أمور اعتبرت فى وضعه شرعا . والتصديق جزء منها ؛ وهو عند الباقلانى ثلاثة ، ثم فصلها كما فصل المصنف . . .

(١) جحدها : أنكرها مع العلم بها . مستبصرا فى ذلك ؛ أى وهو على بصيرة فى ذلك ، دون سهو أو سبق لسان .
(٢) أعراه عنها : جعل ذاته عارية عنها غير متصفة بها .
(٣) هاهنا ؛ أى فى تكفيره وعدمه لعذره بجهله .
(٤) كفره بعضهم ، ولم يجعل الجهل عذرا له ، لوجوب النظر عليه .
(٥) صاحب التفسير المعروف .
(٦) مرة ؛ أى أحد قولين له فى المسألة .
(٧) هذا ؛ أى جهله بصفة من صفاته تعالى الذاتية .

قال : لأنه لم يَعْتَقِد ذلك[١] اعتقادا يقطعُ بصوابِه ، ويراه دِينا وشَرْعا[٢] وإنما نـكفِّرُ مَنِ اعتقد أنَّ مَقَالَه حقٌّ .

واحتجّ هؤلاء بحديث السَّوْدَاء[٣] ، وأنَّ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم إنما طلب منها التوحيدَ[٤] لاغير ؛ وبحديث القائل : لئن قدَر اللهُ عليّ ـ وفى رِوَاية فيه : لَعَلِّي أَضِلُّ اللهَ[٥] . ثم قال : فغفر الله له .

---

(١) اعتقادا يقطع بصوابه : اعتقادا يقوم عليه دليل ؛ وإنما قاله لجهله ؛ فهو معذور .

(٢) ويراه دينا وشرعا : يعتقده برأيه كذلك ؛ وإنما قاله توهما وجهلا .

(٣) رواه أبو داود فى سننه ، وهو أن رجلا ظاهر من زوجته ولزمه عتق رقبة ، فأتى بجارية نوبية ، وقال : يارسول الله ، أعتق هذه ؟ فقال : لاتجزيك ، إلا أن تـكون مؤمنة . فقال : سلها يارسول الله . فقال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . وقال لهـا : من أنا ؟ فقالت : رسول الله . فقال له : اعتقها فإنها مؤمنة .

(٤) طلب منها التوحيد ، فاكتفى بإشارتها الدالة على معرفة ذات الله ، ولم يكلفها بشىء من الصفات ، فدل على أن الجهل بالصفات لاينافى الإيمان لعذرها بالخرس والجهل .

(٥) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

قال فى نسيم الرياض (٤ — ٥٦٤) :

وهذا القائل كان نباشا ، وكان أوصى بنيه فقال : أحرقونى ، وانظروا يوما شديدا الريح فذرونى فيه ؛ فوالله لئن قدر الله على ، وفى رواية : لعلى أضل الله .

قدر — بتخفيف الدال من القدرة ، وبتشديدها بمعنى ضيق على فى الحساب والعقاب . لعلى أضل : هو فعل مضارع ، من ضلنى فلان فلم أقدر عليه ؛ أى لم أجده وخنى على لذهابه عنى . وفى النهاية : لعلى أضل الله ؛ أى أفوته ويخنى عليه مكانى . وقيل معناه : لعلى أغيب عن عذابه .

قال الخفاجى : والحديث عن حذيفة بن اليمان ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن رجلا حضره الموت ، فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لى حطبا كثيرا وأوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوما راحا — شديد الريح — فذروها فى اليم . ففعلوا ، فجمعه الله عز وجل وقال له : لم فعلت ذلك ؟ فقال : من خشيتك ؛ ثم قال : فغفر الله له عز وجل . =

قالوا : ولو بُوحثَ أكثرُ الناس عن الصفاتِ وكوشِفُوا عنها[١] لَمَا وُجِدَ مَنْ يَعلَمُها إلا الأقلّ .

وقد أجاب الآخَرُ[٢] عن هذا الحديث بوجوه ؛ منها أنّ قَدَرَ بمعنى قَدَّرَ[٣] ، ولا يكونُ شَكُّهُ فى القُدْرَةِ على إحيائه ؛ بل فى نَفْس البَعْثِ الذى لا يُعْلَمُ إلا بشَرْعٍ[٤] ؛ ولعلّه لم يَكُنْ وَرَدَ عندهم به شَرْعٌ يَقْطَعُ عليه[٥] ؛ فيكون الشكُّ به حينئذ فيه كفرا .

فأمّا مالم يَرِدْ به شَرْعٌ فهو مِنْ مُجَوَّزاتِ[٦] العقولِ ؛ أو يكونُ قَدَر بمعنى ضَيَّق ، ويكون ما فعله بنفسه إزراءً عليها وغَضَباً لِعصْيانها[٧] .

وقيل : قال ما قالَهُ وهو غَيْرُ عاقِلٍ لِكلامِه ولا ضابِطٍ لِلَفْظِه مما استولى عليه من الجزَع[٨] والخَشْيَةِ التى أذهبَتْ لُبّه ، فلم يؤاخَذْ به .

= قال الخفاجى :

وهذا إنما قاله على سبيل الجزع وشدة الخوف ، وإلا فالله لايخفى عليه شىء .

(١) عن الصفات : عن معرفتهم صفات الله . وكوشفوا عنها ؛ أى طلب منهم كشف مافى قلوبهم بإظهاره لما وجد من يعلمها إلا القليل .

(٢) الآخر : الذاهب إلى تكفير من نفى صفة من صفات الله ولو جاهلا .

(٣) من تقدير الله ، لا من القدرة .

(٤) لا يعلم إلا بشرع بوحيه الله لرسله .

(٥) يقطع عليه : يقتضى علما يقينيا قطعيا .

(٦) مجوزات العقول ؛ أى ماهو جائز عقلا من غير سماع له من صاحب شريعة يجب اتباعه ؛ بل هو مما تجوزه العقول .

(٧) ما فعله بنفسه ؛ من توصية بنيه بإحراقه ... إزراء عليها : تنقيصا وتحقيرا وإهانة لها . وغضبا على نفسه العاصية ، لا شكا فى قدرة الله على إعادة ماتفرق من أجزائه ، فلا يحكم بكفره لذلك .

(٨) استولى عليه من الجزع : غلب عليه من الجزع ، أى من الموت على هذه الحالة .

[وقيل : كان هذا فى زَمَنِ الفَتْرةِ[١] ، وحيث ينفعُ مُجرَّد التوحيد[٢]] .

وقيل : بل هذا من مَجازِ كلامِ[٣] العَرَبِ الذى صورتُه الشكّ ، ومعناه التحقيق ؛ وهو يسمَّى تجاهُلَ العارفِ ؛ وله أمثلةٌ فى كلامهم ؛ كقوله تعالى[٤] : ﴿ لعلّه يتذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ . وقوله[٥] : ﴿ وَإنَّا أوْ إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أوْ فى ضَلَالٍ مُبِين ﴾ .

فأمّا مَنْ أثبتَ الوَصْفَ وَنَفَى الصِّفَةَ[٦] فقال : أقولُ عالمٌ ولكِنْ لا عِلْمَ له ، ومتكلِّمٌ ولكن لا كلامَ[٧] له . وهكذا فى سائر الصفاتِ على مَذْهب المعتزلة [٢٧٦] ؛ فَمَنْ قال بالمآل[٨] لِمَا يؤدِّيه إليه قَوْلُه ، ويسوقُه إليه مَذْهَبُه ـ كفَّره[٩] ؛ لأنه إذا نَفى العِلْم انتفى وَصْفُ عالمٍ ؛ إذ لا يوصَفُ بعالمٍ إلا مَنْ له عِلْمٌ ؛ فكأنهم صرَّحُوا عنده[١٠] بما أدّى إليه قولهُم .

---

(١) زمن الفترة : زمن انقطاع الوحى ، وطول الزمان الذى اندرست فيه الشرائع .

(٢) مجرد التوحيد : معرفة ذات الله دون غيرها من أمور الشرائع ، فإنهم معذورون بجهلهم ، وما بين القوسين فى ب وحدها .

(٣) من مجاز كلام العرب : المراد أنه من طرقهم فى الكلام التى يتوسعون فيها .

(٤) سورة طه ، آية ٤٤

(٥) سورة سبأ ، آية ٢٤

(٦) الوصف ؛ أى وصف الله بصفاته الذاتية ، ونفى الصفة القائمة بذاته ؛ وهم المعتزلة وبعض الفلاسفة القائلين بأن صفاته عين ذاته .

(٧) أقول إن الله عز وجل عالم بكل شىء ، ولكن لا علم له زائد على ذاته ، كعلم البشر ، فعلمه عين ذاته . ومتكلم بكلام ولكن لا كلام له خارج عن ذاته .

(٨) بالمآل : بما يؤول ويرجع إليه كلام المعتزلة ، والمراد لازم مذهبهم وكلامهم الذى قالوه .

(٩) كفره : كفر القائل بهذا المقال .

(١٠) عنده : عند المكفر لهم .

وهكذا عند هذا(١) سائِر فِرَقِ أَهْلِ التأويل من المُشَبِّهة(٢) والقَدَرِيّة وغيرهم. ومَنْ لم يَرَ(٣) أَخْذَهم بمآلِ قَوْلهم، ولا أَلزمهم مُوجِبَ مذهبهم، لم يَرَ إِكْفارَهُمْ؛ قال: لأنهم إذا وُقِّفُوا على هذا(٤) قالوا: لا نقولُ ليس بعالِمٍ، ونحن نَنْتَفِي(٥) من القَوْلِ بالمآل الذى أَلْزمتموه لنا، ونعتَقِدُ نحن وأنتم أنه كفرٌ؛ بل نقول: إنّ قولَنَا لا يؤُول إليه على ما أَصَّلْناهُ(٦).

فعلى هذين المَأْخَذَيْنِ(٧) اختلف الناسُ فى إِكفار أهلِ التأويل؛ وإذا فهِمْتَه اتّضح لكَ الموجبُ لاختلافِ الناس فى ذلك.

والصوابُ تَرْكُ إِكفارِهم والإعراضُ عن الحَتْمِ(٨) عليهم بالخُسْرانِ وإجراء حُكْمِ الإسلام(٩) عليهم فى قِصَاصِهم ووراثاتِهم، ومُنَاكحاتِهم، ودِيَاتِهم، والصلاةِ عليهم، ودَفْنِهم فى مقابر المسلمين، وسائرِ مُعَامَلاتهم؛ لكنهم يُغَلَّظُ عليهم

---

(١) هذا: المكفر.

(٢) المشبهة: المثبتين لله صفات تشبه صفات عباده. وغيرهم: من الفرق الضالة المبتدعة.

(٣) أخذهم: مؤخذاتهم. وفى ا: ومن لم يؤاخذهم.

(٤) وقفوا ـ بتخفيف القاف، فى ا، أى اطلعوا على ما لزم مذهبهم. أو وقفوا ـ بتشديد القاف، كما فى ب؛ أى أطلعهم من كفرهم على ما كفرهم به.

(٥) ننتفى: نتبرأ.

(٦) على ما أصلناه: على ما اتخذناه أصلا وقاعدة بنينا عليها النفى؛ فإنه لا محذور فيه؛ إذ المحذور فى القول بأنه لا علم له؛ ونحن لا نقول به، بل نقول بعلم هو عين ذاته، وهكذا سائر الصفات.

(٧) المأخذين: من النظر لمآل كلامهم، والنظر لما أصلوه من تأويلهم.

(٨) الحتم: القطع والجزم.

(٩) حكم الإسلام عليهم فى الدنيا.

بوَجِيعِ[١] الأدَب ، وشدِيدِ الزّجْر والهَجْر[٢] ، حتى يَرْجِعُوا عن بِدْعَتهم .

وهذه كانت سيرةُ الصَّدْرِ الأوّل فيهم[٣] ؛ فقد كان نشأ على زمان الصحابة وبَعْدَهم فى التابعين مَنْ قال بهذه الأقْوَالِ مِنَ القَدَر[٤] ورأى الخوارج والاعتزال، فما أزاحوا لهم قبْرًا ، ولا قطعوا لأحدٍ منهم ميراثا ؛ لكنهم هجروهم وأدَّبُوهم بالضَّرْب والنّفْى والقتْل على قَدْر أحوالهم ؛ لأنهم فُسّاقٌ ضُلّال[٥] عُصاة أصحاب كبائر عند المحققين[٦] وأهل السنّة ممَّنْ لم يقُلْ بكُفْرِهم منهم خلافا لِمَنْ رأى غَيْرَ ذلك . واللهُ الموفّقُ للصواب .

قال القاضى أبو بكر[٧] : وأما مسائلُ الوَعْد والوَعِيدِ ، والرُّؤْيةِ والمخلوقِ ، وخَلْقِ الأفعال، وبَقاء الأعراضِ ،والتولُّد[٨] وشِبْهها من الدقائق ـ فالمَنْعُ فى إكْفارِ

(١) بوجيع الأدب ؛ من القيد ، والضرب ، والحبس .

(٢) والهجر ؛ أى ترك مجالستهم ومعاشرتهم ونحوه مما يشق عليهم من أنواع الإهانة .

(٣) فيهم : فى معاملتهم والحكم عليهم .

(٤) القدر ؛ وهو رأى المعتزلة .

(٥) ضلال : أهل ضلال وبدعة .

(٦) عند المحققين الذين لا يكفرون أحدا من أهل القبلة .

(٧) هو الباقلانى .

(٨) مسائل الوعد والوعيد ، وأنه لا يجوز تخلفه عند المعتزلة ، لقولهم : إنه يجب على الله تعذيب العاصى وإثابة الطائع ـ على ماقرروه فى قواعدهم .

والرؤية : إنكار المعتزلة لرؤية الله فى الآخرة . والمخلوق : قول المعتزلة : إن العبد يخلق أفعاله . وخلق الأفعال ؛ أى قول المعتزلة : إن أفعال العباد مخلوقة لهم . والأعراض : جمع عرض ؛ وهو مالا يقوم بنفسه كالألوان ، وهذا على مذهب الأشعرى من أن الأعراض لا تبقى؛ وهو مما ذهب إلى خلافه كثير من أهل السنة . والتولد الذى ذهب إليه المعتزلة والحكماء ، كتولد العلم من الدليل وحصوله عقبه .

المتأوّلين فيها أوْضح(١) ؛ إذ ليس فى الجهل بشىء منها جَهْلٌ باللهِ تعالى ، ولا أجمع المسلمون على إكْفار مَنْ جهل شيئا منها .

وقد قدّمْنا فى الفَصْل قبله من الكلام وصورةِ الخلافِ فى هذا ما أغْنى عن إعادته بحَوْل الله تعالى .

فصـــل

هذا حُكْمُ المسلمِ السابِّ لِلّهِ تعالى. وأما الذمىّ(٢) فرُوِىَ عن عبد الله بن عُمر فى ذِمّىّ تناول مِنْ حُرْمةِ اللهِ تعالى(٣) غيْرَ ما هو عليه مِنْ دِينه ، وحاجّ فيه ، نخرج ابْنُ عُمر عليه بالسيف فطلبه فهرَب .

وقال مالك فى كتاب ابْن حبيب والمبسوطة(٤) ، وابن القاسم فى المبسوط(٤) ، وكتاب محمد وابن سُحْنون : مَنْ شتَمَ اللهَ مِنَ اليهودِ والنّصارى بغير الوَجْه الذى به كفروا(٥) قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ .

قال ابن القاسم : إلا أنْ يُسْلِم . قال فى المبسوطة : طوْعاً .

قال أصبغ : لأنّ الوجْهَ الذى به كفَرُوا هو دِينهُم ، وعليه عُوهِدُوا(٦) مِنْ دَعْوَى الصاحبةِ والشّريكِ والولدِ .

---

(١) أوضح من القول بإكفارهم ؛ لأنها لا يترتب عليها أمر دينى .

(٢) الذمى : الكافر الذى له ذمة وأمان .

(٣) تناول من حرمة الله تعالى ؛ أى تكلم فى حق الله بما لايجوز . والحرمة : ما يجب احترامه وترك الخوض فيه .

(٤) اسم كتاب .

(٥) بغير الوجه الذى كفروا به ؛ كادعاء الولد والشريك .

(٦) هو دينهم : هو عادتهم ومعتقدهم . وعليه عوهدوا ؛ أخذت عليهم العهود ، مع استقرارهم عليه .

وأمّا غيْرُ هذا من الفِرْيةِ[1] والشّتْم فلم يُعاهَدوا عليه؛ فهو نقْضٌ للعهد.

قال ابن القاسم فى كتاب محمد: ومَنْ شتَم من غير أهْلِ الأديانِ اللهَ تعالى بغير الوَجْه الذى ذُكِر فى كتابه قُتِل إلاّ أنْ يُسْلِم[2].

وقال المخزومى فى المبسوطة، ومحمد بن مسلمة، وابنُ أبى حازِمٍ: لا يُقْتَل حتى يُسْتَتَابَ مسلما كان أو كافرا، فإنْ تاب وإلّا قُتِلَ [٢٧٧].

وقال مُطَرِّف وعبدُ الملك مِثْلَ قَوْلِ مالك.

وقال أبو محمد بن أبى زَيْدٍ: مَنْ سبَّ اللهَ تعالى بغَيْرِ الوَجْهِ الذى به كفر قُتِل إلا أنْ يُسْلم.

وقد ذكرنا قَوْلَ ابن الجلّاب قَبْلُ، وذكَرْنَا قَوْلَ عُبيد الله، وابن لُبَابة، وشيوخ الأندلسيين[3] فى النَّصْرانية[4] وفُتْيَاهم بقَتْلِها لسبِّها؛ بالوَجْهِ الذى كفرَتْ به، لله وللنبىّ، وإجماعهم على ذلك[5]، وهو نَحْو القولِ الآخر فيمن سبَّ النبىَّ صلى اللهُ عليه وَسلم منهم[6] بالوَجْه الذى كفر[7] به، ولا فَرْق فى ذلك[8] بين سَبِّ اللهِ وسبِّ نَبِيّه؛ لأنّا عاهدناهم على ألّا يُظْهِروا لنا شيئا مِنْ كُفْرهم، وألاّ

---

(١) الفرية: الكذب والاختلاق على الله فى غير ما كفروا به.

(٢) إلا أن يسلم؛ فإن الإسلام يجب ماقبله.

قال الخفاجى: وهذا كله مذهب مالك. ومذهب الشافعى والحنفية فيه مايخالفه.

(٣) شيوخ الأندلسيين، من علماء المالكية.

(٤) فى النصرانية: فى المرأة النصرانية.

(٥) على ذلك: على قتل من سب بما كفر به.

(٦) منهم: من أهل الذمة.

(٧) بالوجه الذى كفر به: كإنكار نبوته، فيقتل، إلا أن يسلم طوعا.

(٨) فى ذلك، أى فى قتله بما كفر به.

يسمعونا شيئاً من ذلك[١] ، فمتى فعلوا شيئا معه فهو نَقْضٌ لعَهْدِهِم .

واختلف العلماء في الذِّمِّيِّ إذا تَزَنْدَق[٢] ، فقال مالك ، ومُطَرِّف ، وابن عبد الحكم ، وأصبغ : لا يُقْتَل ، لأنه خرج من كُفْرٍ إلى كفر .

وقال عبد الملك بن الماجِشُون : يُقْتَل ، لأنه دِينٌ[٣] لا يُقَرُّ عليه أحدٌ ، ولا تؤخذ عليه جِزْية .

قال ابن حبيب : وما أعلمُ مَنْ قاله غيْرَه .

فصل

هذا حكمُ مَنْ صَرَّحَ بسبِّهِ[٤] وإضافةِ مالا يليق بجلالهِ وإلاهِيّته؛ فأما مُفْتَرِي[٥] الكذب عليه تبارك وتعالى بادِّعاء الإلاهية أو الرسالة[٦] أو النافي أنْ يكون الله خالقَه أو رَبَّه ؛ أو قال : ليس رَبٌّ ، أو المتكلِّم بما لا يُعْقَل من ذلك في سُكْرِه أو غَمْرَةِ[٧] جنُونه فلاخلافَ في كُفْرِ قائلِ ذلك ومُدّعِيه مع سلامةِ عَقْلِه كما قدمنا ، لكنه تُقْبَل توبتُه على المشهور ، وتنفعه إنابتُه ، وتُنَجّيه من القتْل فَيْئَتُه[٨] ، لكنه لا يَسْلَمَ من عَظِيم النَّكال[٩] ، ولا يرفَّه[١٠] عن شَدِيدِ العِقَاب ؛ ليكون ذلك زجْراً لمثله عن قَوْلِهِ ؛ وله عن العودةِ لكُفْره أو جَهْله ، إلاّ مَنْ تكرَّرَ منه ذلك ، وعُرِف

---

(١) أي من ذلك الكفر الذي كفروا به بأي طريق كان .

(٢) إذا تزندق لظهور علامات تدل على أنه مبطن لما يخالف دينه ويخالف دين الإسلام ، فلم يبق على دين أصلا .

(٣) قال الخفاجي : وتسميته دينا تسامح ، فإنه لا دين له .

(٤) بسبه عز وجل . (٥) الافتراء : تعمد الكذب .

(٦) بادعاء الإلهية ، أي إنه إله ، كفرعون . أو الرسالة ؛ كمسيلمة الكذاب .

(٧) غمرة جنونه : شدة أذهبت عقله . (٨) إنابته وفيئته : رجوعه إلى الله .

(٩) النكال : العقوبة . (١٠) ولا يرفه : لا يخفف .

استهانتُه بما أتى به؛ فهو دليلٌ على سُوء طَوِيّتِه، وكَذِبِ توْبتِه، وصار كالزِّنْدِيق(١) الذى لا نأمَنُ باطنَه، ولا نَقْبَلُ رُجوعَه. وحُكْمُ السَّكْرانِ فى ذلك حكمُ الصَّاحِى(٢).

وأمّا المجنونُ والمَعْتُوه(٣) فما عُلِمَ أنه قاله مِنْ ذلك فى حالِ غَمْرَته وذَهابِ مَيْزِه(٤) بالكلية فلا نَظَر(٥) فيه، وما فعله من ذلك فى حال مَيْزِهِ وإنْ لم يكُنْ معه عَقْلُه وسقط تكليفُه أُدِّبَ على ذلك لينْزَجِرَ عنه، كما يؤدَّبُ على قبائح الأفعال، ويُوَالَى أدَبُه على ذلك حتى ينْكَفّ عنه، كما تؤدَّبُ البهيمة على سوء الخُلُق حتى(٦) تُراض.

وقدْ حَرَّق علىّ بن أبى طالب رضِىَ اللهُ عنه مَن ادَّعَى له الإلهية(٧)، وقد

---

(١) الزنديق : الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر .

(٢) حكم الصاحى فى مؤاخذته بما صدر منه لتعديه بسكره ، فيغلظ عليه .

(٣) المعتوه : من العته ، وهو اختلال فى العقل دون الجنون ، بحيث يكثر ذهوله ونسيانه ، ويختلط كلامه أحيانا حتى يشبه المجنون ، لكن يتنبه بتنبيه غيره له ، وتختل أفعال معاشه .

(٤) غمرته : أى ذهاب عقله بالكلية . وميزه : تمييزه وإدراكه .

(٥) لا نظر فيه : لا يتعرض له ، ولا يحكم عليه بكفر ولا غيره ، لأنه غير مكلف ، فلا يؤاخذ بما يصدر عنه .

(٦) تراض : تنقاد وتستقيم أفعالها .

(٧) ادعى الإلهية له : بأن قال له أنت إله ، أى أحرقه بالنار لكفره .

وفى نسيم الرياض (٤ — ٥٧٥) : ثم إن التحريق بالنار لا يجوز ؛ لحديث ابن عباس رضى الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم : إنه لا يعذب بالنار إلا خالقها .

وكان أمر بتحريق ناس ، ثم نهى عنه ، فهو منسوخ .

فإن كان قتلهم ثم أحرقهم تمثيلا بهم فهو مذهب له ، لأن الصحابة مجتهدون . ومن أحرق رجلا فى القصاص بمثل فعله : عن مالك روايتان .

قال الخفاجى : وما روى عن بعض الصحابة من التحريق فيه كلام ليس هذا محله ، فالصحيح المنع منه .

قَتَلَ عَبْدُ الملك بن مَرْوان الحارثَ[١] المتَنَبِّي وصلَبه ، وفعل ذلك غَيْرُ واحدٍ من الخلفاء والملوك بأشباههم .

وأجمعَ علماء وقتِهم على صَوَابِ فِعْلهم، والمخالفُ في ذلك مِنْ كُفرهم كافِرٌ[٢].

وأجمع فقهاء بَغْداد أيام المقتدر من المالكية وقاضي قُضَاتها أبو عمَر المالكي على قَتْل الحلاّج وصَلْبِهِ ؛ لِدَعْواهُ الإلهية ، والقولِ بالحلولِ[٣] ؛ وقولِهِ : أنا الحقُّ، مع تمسُّكِه في الظاهر بالشريعة ، ولم يقبلوا توبَتَه .

وكذلك حكموا في ابْنِ أبي الغرَاقيد[٤]، وكان على نحو مذهبِ الحلّاج بعد هذا أيام الراضي بالله، وقاضي قُضَاة بغداد يومئذ أبو الحُسين بن أبي عمر [٢٧٨] المالكي .

وقال ابنُ عبد الحكم في المبسوط : مَنْ تنبَّأ[٥] قُتِل .

وقال أبو حنيفة وأصحابُه : مَنْ جَحَد[٦] أنَّ الله تعالى خالقُه أو رَبُّه ؛ أو قال : ليس لي رَبٌّ ؛ فهو مُرْتَدٌّ .

---

(١) هو الحارث بن سعيد الكذاب .
قال الخفاجي : وعبد الملك ليس ممن يستدل بأقواله وأفعاله ، فلعله استأنس به ، لأنه في عصر السلف ، ولم ينكروا عليه ذلك .

(٢) من خالف مكفرهم في تكفيرهم ، فقال: لا يكفرون ـ هذا المخالف كافر، لأنه رضى بكفرهم وتكذيبهم لله ورسوله .

(٣) الحلول ، أي أن الله يحل في بعض الناس ، ويظهر بصورته .

(٤) هو محمد بن علي بن أبي الغراقيد ، شاع أمره ببغداد وادعى الألوهية،وأنه يحيي الموتى، وأحرقت جثته في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة . وهذا في ا ، ب . وفي هامش ب : صوابه ابن أبي العزاقر ـ وهو ما في شرح القاري (٢ ـ ٥٣٩) . وفي شرح الخفاجي: وروى: بزاي معجمة بدل الراء وبياء مثناة، وبدونها. وقيل إنه أصوب .وقال البرهان:إنه قيل إن صوابه ابن أبي العراقب. والصواب الأول، وأنه جمع غرقدة ، أو غرقد . ومنه بقيع الغرقد. والغرقد :شجر معروف.

(٥) تنبأ : ادعى النبوة .

(٦) جحد : نفى وأنكر .

وقال ابنُ القاسم فى كتاب ابْن حَبيب ، ومحمـــد فى العُتْبِيّة[١] فيمن تَنَبأ يُسْتَتَاب[٢] أَسَرَّ ذلكَ أو أعلنه ؛ وهو كالمُرْتَدّ .

وقاله سُحْنون وَغَيْرُه ، وقاله أشْهب فى يَهُودِيّ تنبّأ ، وادّعَى أنه رسولٌ إلينا إنْ كان مُعْلِناً بذلك اسْتُتِيب ؛ فإنْ تابَ وإلّا قُتِل[٣] .

وقال أبو محمد بن أبى زَيْد فيمن لعن بارِئَه[٤] ، وادعَى أنّ لسانَه زَلّ[٥] ؛ وإنما أرادَ لعْنَ الشيطانِ ـ يُقتَل بكُفرِه ، ولا يُقبَل عُذْرُه .

وهذا على القولِ الآخر[٦] من أنه لا تُقْبَل توبتُه .

وقال أبو الحسن القَابِسيّ فى سَكْران ؛ قال : أنا الله ، أنا الله ، إنْ تاب أُدِّب ؛ فإن عادَ إلى مِثْلِ قوله طُولِبَ مطالبةَ الزِّنْديق ؛ لأنّ هذا كُفْرُ المُتلاعبين[٧] .

فصـــل

وأمّا مَنْ تـكلّم مِنْ سقَطِ القَوْل وسُخْفِ اللفظِ[٨] ممّنْ لم يَضْبِط كلامَه وأهمل لسانه[٩] بما يقتضى الاستخفافَ بعظمةِ رَبِّه وجلالةِ مَوْلَاه ؛ أو تمثّل فى بعض

---

(١) فى ا : والعتبية .
(٢) يستتاب : تطلب توبته .
(٣) قتل ؛ لأنه أظهر أمرا غير ما كفر به .
(٤) بارئه : خالقه على غير مثال .
(٥) زل : أخطأ ، ولم يرد أن يقول ذلك .
(٦) على القول الآخر : من أحد القولين فى مذهب مالك .
(٧) قال فى نسيم الرياض (٤ — ٥٧٩) : وهذا مذهب مالك ، وعند غيره فيه خلاف مبسوط فى كتب الفقه .
(٨) السقط : الخطأ والأمر الذى لا يعتد به حتى ليستحق أن يسقط ويطرح . وسخف اللفظ : المراد به الألفاظ السخيفة الركيكة الدنيئة .
(٩) أهمل لسانه : أطلقه فى الكلام ؛ فيتكلم بغير تدبر وفكر . والمراد أنه لم يصن ولم يحفظ لسانه .

الأشياء ببعض ما عظّم اللهُ من مَلَكُوته[١] ، أو نَزَع[٢] من الكلام لمخلوقٍ بما لا يَلِيقُ[٣] إلا فى حق خالقه غيْرَ قاصدٍ للكفْرِ والاستخفاف ، ولا عامدٍ للإلحاد ، فإنْ تكرَّر هذا منه ، وعُرف به ، دلّ على تلاعُبه بدِينه ، وَاستِخْفَافِه بحُرْمةِ رَبِّه ، وجَهْله بعظيم عِزته وكِبْريائه . وهذا كفْرٌ لا مِرْيَةَ[٤] فيه .

وكذلك إنْ كان ما أوردَه يوجبُ الاستخفافَ والتنقُّصَ لربِّه .

وَقد أفتى ابنُ حبيب وأصبغ بن خليل من فُقَهاء قُرْطُبَة بقَتْلِ المعروفِ بابْنِ أخى عجَب[٥] ، وَكان خرج يوما ، فأخذَهُ المَطَر ، فقال: بدأ الخرّازُ يرش جلودَه .

وكان بعضُ الفقهاء بها[٦] : أبو زَيد صاحبُ الثمانية[٧] ، وعبْدُ الأَعْلَى بن وَهْب ، وأبَان بن عيسى ، قد توقَّفُوا عن سَفْكِ دَمِه ، وأشاروا إلى أنه عَبَثٌ من القولِ يكفى فيه الأَدب[٨] .

وأفتى بمثله القاضى حينئذ موسى بن زِياد ؛ فقال ابنُ حبيب : دَمُه فى عُنُقى[٩] ، أَيُشْتَمُ رَبٌّ عَبَدْناه ، ثم لانَنْتَصِر له ، إنّا إذاً لعَبِيدُ سَوْء ، وما نحن له بعابدين ؛

(١) أى جعله مثله، كأن يشبه ممدوحا له بجبريل ، أو عدوا له بملك الموت ،ونحوه ؛مما يدل على سخافة عقله ودينه ؛ أو يقول : قصر الملك كعبة يطوف بها .

(٢) نزع : أخذ وذهب فى وصفه .

(٣) فى ا : بمخلوق . . . ما لا يليق . وما لا يليق كأن يقول : ياذا الجلال والإكرام ، نحوه : كعز وجل .

(٤) لامرية فيه : لاشك فى كونه كفرا .

(٥) واسمه يحيى بن زكريا ، وقد تجبر وعتا .

(٦) بها : بقرطبة .

(٧) فى شرح القارى : لعلها بلدة أو قرية ، وكان أميرا عليها .

(٨) الأدب ، أى التأديب والتعزير دون القتل .

(٩) دمه فى عنق ، أى أنا أحكم بقتله وإراقة دمه ؛ فإن كان فيه وزر قتلته ، وعلى وزره وجزاؤه فى الدنيا والآخرة .

وبكى ، ورفع المجلس إلى الأمير بها عَبْدِ الرحمن بن الحَكَمَ الأُمَوى[١] .

وكانت عجَبُ عمّةَ هذا المطلوب مِنْ حظاياه[٢] ، وأُعْلِمِ باختلافِ الفقهاء ، فخرج الإذْنُ من عنده بالأخْذِ بقَوْلِ ابن حبيب وصاحبِه؛ وأمر بقتْله ، فقُتِل وصُلب بحضرة الفَقِيهين[٣] ، وعزَل القاضى لتُهْمتِه بالمداهنةِ[٤] فى هذه القصة ، ووبّخَ بقيةَ الفقهاء وسبّهم .

وأما مَنْ صدرَتْ عنه مِنْ ذلك الهَنَةُ الواحدةُ والفَلْتَةُ الشارِدَة ، ما لم تـكُنْ تنقصًا وإزراء ـ فيُعاقَبُ عليها ويُؤَدّب بِقَدْرِ مقتضاها وشُنْعَةِ معناها، وصورةِ حال قائلها ، وشَرْحِ سَبَبِها ومُقارِنِها .

وقد سُئل ابنُ القاسم رَحِمَه الله عن رَجُل نادى رجلا باسْمِه ، فأجابه : لبَّيْك ، اللهم[٥] لَبّيْك .

قال : إنْ كان جاهِلًا ، أو قاله على وَجْهِ سَفَهٍ[٦] فلا شَىء عليه .

قال القاضى أبو الفضل[٧] : وشَرْحُ قَوْلِه[٨] أنه لاقتْلَ عليه ، والجاهلُ يُزْجَر ويُعَلَّم، والسفيهُ يؤدَّبُ، ولو قالها على اعتقادِ إنزالِه مَنْزِلَةَ رَبِّه لـكفر[٩] [٢٧٩] .

---

(١) هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام صاحب الأندلس ؛ وكان عادلا تقيا مجاهدا ، توفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

(٢) من حظاياه : من زوجات عبد الرحمن أمير الأندلس ، وأقرب حلائله منه ، وأسعدهن به .

(٣) الفقيهين : ابن حبيب ، وأصبغ .

(٤) القاضى موسى بن زياد الذى قال يؤدب .

لتهمته بالمداهنة ؛ أى المسامحة فى حدود الله ، لقرب الرجل من حظية الأمير .

(٥) اللهم : يا ألله .

(٦) على وجه سفه ؛ أى خفة وطيش من غير تأمل وفـكر .

(٧) هو المؤلف .

(٨) يقصد قوله : لا شىء عليه .

(٩) قال : أى قال : لبيك اللهم . . .

هذا مُقْتَضَى قَوْلِهِ (١) .

وقد أسرفَ كثيرٌ من سُخفاء الشُّعَراء ومُتَّهميهم فى هذا الباب ، واستخفُّوا عظيمَ هذه الحرمة ، فأتَوْا من ذلك بما نُنَزِّهُ كِتابَنا ولسانَنا وأقلامنا عن ذِكْرِه ؛ ولولا أنَّا قصَدْنا نصَّ مسائل حكيناها ماذكرنا شيئا مما يثقل ذكره علينا مما حكيناه فى هذه الفصول .

فأمّا ما ورد فى هذا من أهلِ الجهالة وأغاليطِ اللسان ؛ كقول بعض الأعراب :

ربَّ العبادِ مالَنَا وَمَالَـكَا قد كنْتَ تَسْقِينا فما بَدَا لـكا

أنزِلْ علينا الغَيْثَ لا أَبَا لَـكَا

فى أشباهٍ لهذا مِنْ كلامِ الجُهّال (٢) .

ومَنْ لم يقَوِّمْه ثِقَافُ تأديبِ الشريعةِ والعِلْمِ (٣) فى هذا الباب (٤) ؛ فقل ما يصدُرُ إلا مِنْ جاهلٍ يجبُ تعليمهُ وزَجْرُه والإغلاظُ له عن العودةِ إلى مِثْلِه (٥) .

---

(١) مقتضى قوله ، أى قول ابن القاسم فى هذه المسألة .

قال الخفاجى : وهذا هو الحكم فيا ذكر عند المالكية . وغيرهم خالفهم فيها ، وقال : لايعذر إلا قريب عهد بإسلام أو جنون .

(٢) قال فى نسيم الرياض : كان قد قاله فى سنة مجدبة .

قال : وهذا الذى قاله الأعرابى على عادتهم فى مخاطباتهم من التعجب ، ولم يقصد ظاهره إن كان مسلما .

وقال : وقد روى أن سليمان بن عبد الملك لما سمع هذا حمله على محمل حسن ، فقال: أشهد أن الله لاأب له ، ولا صاحبة ، ولا والد ، ولا ولد .

(٣) الثقاف فى الأصل : تقويم الرماح ، والخشب المعوج ، بالنار ونحوه .وفى هامش ب: الثقاف : مايقوم به الرمح المعوج . تأديب الشريعة والعلم ؛ أى تأديبه بتعليمه وإرشاده لما يجب عليه .

(٤) فى هذا الباب ؛ أى باب السخافة والتهاون .

(٥) أى فيعذر بجهله وكونه من أهل البوادى الذين لم يخالطوا المسلمين . فيجب . . .

قال أبو سليمان الخطّابى : وهذا تهوُّر(١) من القول ، والله مُنَزَّه عن هذه الأمور .

وقد رَوَينا عن عَوْنِ بن عَبْدِ الله(٢) أنه قال : لِيُعَظِّمْ أحدُكم رَبَّه أنْ يذكرَ اسْمَه فى كلِّ شىء حتى يقول : أَخْزَى اللهُ الكَلْبَ ، وفَعل به كذا وكذا(٣) .

قال : وكان بَعْضُ مَنْ أَدْرَكْنا من مشايخنا قَلَّ ما يَذْكُرُ اسْمَ اللهِ تعالى إلّا فيما يتّصل بطاعته(٤) . وكان يقول للإنسان : جُزِيتَ خيرا . وقل ما يقول : جزاك اللهُ خيرا ؛ إعظاماً لِاسْمِه تعالى أنْ يُمْتَهَنَ(٥) فى غَيْرِ قُرْبَةٍ .

وحدثنا الثِّقَةُ أنَّ الإمامَ أبا بكر الشاشى(٦) كان يَعِيبُ على أهل الكلامِ كثرةَ خوضِهم فيه تعالى وفى ذِكْرِ صِفَاته ؛ إجلالا لاسْمِه تعالى ، ويقول : هؤلاء يتَمَنْدَلون(٧) بالله عزّ وجلّ .

ويَنزَّل الكلامَ فى هذا الباب تنزيلَه فى بابِ سَابِّ النبىِّ صلى الله عليه وسلم على الوجوهِ التى فَصَّلْنَاها . واللهُ الموفقُ .

---

(١) التهور : مجاوزة الحد بالوقوف بغير مبالاة فى منكر عظيم .

(٢) هو الزاهد الفقيه المحدث التابعى ، توفى فى حدود العشرين ومائة .

(٣) قال الخفاجى : فإن اقتران الاسم بهذه المحقرات لايليق ، وإن كان ذلك بحسب المعنى صحيحا . وكذا اسم النبي صلى الله عليه وسلم ، كقول العامة ذلك فى بيع أمور حقيرة، كما نبه عليه بعض الفقهاء .

(٤) قال فى نسيم الرياض (٤ — ٥٨٥) : ولذا لم يضيفوا له الشر والقبائح وخلق المحقرات تأدبا ، وإن كان خالقا وفاعلا لكل أمر .

(٥) يمتهن : من المهانة ، وهى الابتذال والحقارة .

(٦) هو الإمام أبو بكر محمد بن على بن إسماعيل القفال الشاشى ، وهو إمام عظيم له تأليفات جليلة ، وهو عمدة فى مذهبه ، توفى سنة ست وستين وثلاثمائة .

(٧) يتمندلون : من المنديل، وهو خرقة تمسح بها الأيدى، يريد الابتذال والامتهان. =

فصــل

وحُـكْمُ مَنْ سبَّ سائِرَ أنبياء اللهِ تعالى وملائـكته ، واستخفَّ[١] بهم أو كذّبهم فيما أتَوْا بِهِ ، أو أنـكرهم وجَحَدهم[٢] ، حُـكْمُ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلم على مَسَاقِ ما قدمناه[٣] ؛ قال الله تعالى[٤] : ﴿ إنَّ الَّذِين يَـكْفُرُونَ باللهِ وَرُسُلِهِ ويُرِيدونَ أنْ يُفَرِّقوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ويَقُولُونَ نُؤْمِنُ ببَعْضٍ ونَـكْفُرُ ببعض ويُرِيدونَ أنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أولئك هم الـكافرون حقًّا ﴾ .

وقال تعالى[٥] : ﴿ قولوا آمَنَّا باللهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأَسْبَاط ، وما أُوتى موسى وعيسى وما أُوتى النبيُّون مِنْ ربهم لانفرِّقُ بين أحدٍ منهم ، ونحن له مسلمون ﴾ .

وقال[٦] : ﴿ كلٌّ آمَنَ باللهِ ومَلَائـكتِه وكتُبه وَرُسُلِه لانفرِّقُ بين أحدٍ من رُسُله ﴾ .

قال مالك فى كتاب ابنِ حبيب ، ومحمد ، وقال ابن القاسم وابن الماجِشُونَ

= قال فى نسيم الرياض (٤ — ٥٨٦):

وقد يقال : إن مراده ذكر مالا حاجة إليه من المباحث الـكلامية ؛ وإلا فـكيف ينـكر علـم الـكلام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة ؛ فهذه الفرق الضالة لها اعتقادات باطلة قد يظهرونها ويذكرون لها أدلة ؛ فمقابلتهم وإبطال أدلتهم واجب؛ فـكيف يمنع منه مطلقا ! فـكلام المصنف ليس على إطلاقه .

(١) استخف بهم : ذكر مافيه تحقير وإهانة لهم .

(٢) جحدهم : أنـكر وجودهم عنادا مع علمه به .

(٣) على مساق ماقدمناه : على الحكم الذى سقناه وقدمناه .

(٤) سورة النساء ، آية ١٥٠ ، ١٥١

(٥) سورة البقرة ، آية ١٣٦

(٦) سورة البقرة ، آيه ٢٨٥

وابن عبد الحكم وأصبغ وسُحْنون فيمن شَتَمَ الأنبياء أو أحدا منهم أو تنقَّصه(١) قُتِلَ ولم يُسْتَتَبْ(٢) . ومَنْ سبَّهم من أهلِ الذمّةِ قُتِلَ إلا أنْ يُسْلِم .

وروَى سُحْنُون عن ابن القاسم : مَنْ سبَّ الأنبياء من اليهود والنَّصارى بغير الوَجْهِ الذى به كَفَر ضُرب عُنُقُه إلا أنْ يُسْلِم .

وقد تقدَّم الخلافُ فى هذا الأصل .

وقال القاضى بقُرْطُبة سَعِيد بن سُليمان فى بعض أجوبته : مَنْ سَبَّ الله وملائكته قُتِل(٣) .

وقال سُحنُون : مَنْ شتم مَلَكاً من الملائكة فعليه القَتْل(٤) .

وفى النوادر(٥) عن مالك فيمن قال : إنَّ جبريلَ أخطأ بالوَحْى ؛ وإنما كان النبىُّ علىُّ بن أبى طالب استُتِيبَ ؛ فإنْ تابَ وإلَّا قُتل(٦) .

ونحوه عن سُحْنُون [٢٨٠] . وهذا قولُ الغُرابية من الروافض ؛ سُمُّوا بذلك لقولهم : كان النبىُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم أشْبَهَ بعلىّ من الغُراب بالغراب .

وقال أبو حنيفة وأصحابُه على أصْلِهم(٧) : مَنْ كذَّبَ بأحدٍ من الأنبياء ، أو تنقَّص أحدا منهم ، أو برئ منه فهو مُرْتَدٌّ .

---

(١) تنقصه : نسب إلى أحد منهم النقص بما لايليق به .

(٢) ولم يستتب ، وإن تاب لم تنفعه توبته ، لأن حده القتل .

(٣) قتل ، لجرأته على الله وملائكته .

(٤) فعليه القتل ، لأنهم عباد مكرمون بررة مبرءون من النقائص .

(٥) كتاب « النوادر » لابن أبى زيد .

(٦) استتيب : عرضت عليه التوبة عما قاله . قتل : لكذبه على جبريل ونسبته للخطأ ، وهو لا يفعل إلا مايؤمر به .

(٧) على أصلهم : على قاعدة مذهبهم .

وقال أبو الحسن الْقَابِسِيّ فى الذى قال لآخر(١) ، كأنه وَجْه مالكٍ(٢) الغَضْبان ، لو عُرِف أنه قصد ذَمَّ المَلَكِ قُتِل(٣) .

قال القاضى أبو الفَضْل(٤) : وهذا كلُّه فيمن تكلَّم فيهم بما قُلْناه على جُمْلة الملائكة والنبيين ، أو على مُعَيَّنٍ مِمَّنْ حققْنَا كونَه من الملائكة والنبيِّين ممَّنْ نَصَّ اللهُ عليه فى كتابه ، أو حققْنَا عِلْمَه بالخبر المُتَواتِر ، والمشتهِر(٥) المتّفق عليه بالإجماع القاطع ؛ كجبريل وميكائيل ، ومالك ، وخَزَنة الجنة ، وجهنّم ، والزّبانية(٦) ، وحملةِ العَرْشِ المذكورين فى القرآن من الملائكة ، ومَنْ سُمِّيَ فيه(٧) من الأنبياء ؛ وكعزرائيل ، وإسرافيل ، ورضوانَ ، والحفَظة(٨) ، ومُنْكرٍ وَنَكِير(٩) من الملائكة المتّفقِ على قَبُولِ الخبرِ بهما ؛ فأمّا مَنْ لم تَثْبُت الأخبارُ بتَعْيِينِه ، ولا وقع الإجماعُ على كونِه من الملائكة أو الأنبياء ؛ كهَارُوت ومارُوت فى الملائكة ،

---

(١) لآخر ممن يكرهه .

(٢) يريد مالك خازن النار .

(٣) قتل : فإن لم يعلم ذلك لم يقتل لتصوره أن غضبه امتثالا لأمر ربه فى معاملة أهل جهنم بذلك ، كالسجان المشدد على من فى سجنه بأمر الملك .

قال الخفاجى : وهذا مذهب مالك وأبو حنيفة . وأما عند الشافعى ففيه خلاف فى كتبهم .

(٤) هو المؤلف .

(٥) الخبر المتواتر : الذى لا يقبل الكذب . والمشهور : وهو مارواه جمع كثير لم يبلغوا حد التواتر .

(٦) الزبانية : ملائكة العذاب .

(٧) سمى فيه : فى القرآن .

(٨) الحفظة : هم الكرام الكاتبون .

(٩) منكر ونكير : الملكان اللذان يأتيان الميت ليسألاه فى قبره .

والخَضِر، ولُقْمان[١]، وذى القَرْنَيْن[٢]، ومريم[٣]، وآسِيَة[٤]، وخالدِ بن سِنانٍ المذكور أنه نبيُّ أَهْلِ الرَّسِّ[٥]، وزَرَادُشْت[٦] الذى يَدَّعِى المجوسُ المُؤرخون نبوَّتَهُ، فليس الحُكْمُ فى سابِّهم والكافِر بهم كالحُكْمِ فيمن قَدَّمْناه[٧] إذ لم تَثْبُتْ لهم تلك الحُرْمة، ولكنْ يُزْجَرُ مَنْ تنقَّصَهُم وآذاهم، ويؤدَّبُ بقَدْر حال المَقُول فيهم، لاسيَّما مَنْ عُرِفَتْ صِدِّيقِيَّتُه[٨] وفَضْلُه منهم؛ وإنْ لم تثبت نبوَّتُه[٩].

وأمَّا إنكار نبوتهم[١٠] أو كون الآخر من الملائكة[١١] فإنْ كان المتكلِّمُ فى ذلك مِنْ أهلِ العِلْمِ فلا حَرَج لاختلاف العلماء فى ذلك؛ وإنْ كان مِنْ عَوَامٍّ

---

(١) لقمان الحكيم.

(٢) قال الخفاجي: واختلف فيه هل كان نبيا أم لا؟ والأكثر أنه رجل صالح على دين إبراهيم.

(٣) مريم ابنة عمران.

(٤) آسية: امرأة فرعون، وكانت امرأة مؤمنة صالحة، ولم تكن نبية على الصحيح.

(٥) هو من بنى عبس، وكان هو وقومه يسكنون عدن، ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم جاءته ابنته وأخبرته بأنها ابنته، فقال لها: مرحبا بابنة نبى ضيعه قومه.

وانظر فى ترجمته ــ نسيم الرياض: ٤ ــ ٥٩٢، والإصابة: ٢ ــ ٣٦٩

(٦) كان زرادشت حكيما.

قال فى نسيم الرياض (٤ ــ ٥٩٣): قال نجم الدين الطوفى: زرادشت: متفق على عدم نبوته. وقال الشهرستانى فى الملل والنحل: زرادشت حكيم مجوسى ظهر فى زمن موسى عليه السلام من أذربيجان، وهو ــ كما تزعم الصابئة ــ نبى مرسل.

(٧) فيمن قدمناه؛ ممن اتفق على أنه نبى أو ملك.

(٨) صديقيته: أى من عرف تصديقه بالله وآياته وشرائعه.

(٩) لم تثبت نبوته؛ أى كونه نبيا بنص معلوم، لكنه علم فضله وصديقيته فإنها كافية فى لزوم توقيره.

(١٠) فى ب: نبوته.

(١١) الآخر من الملائكة: كهاروت وماروت. من أهل العلم: العالمين بما قاله علماء السلف الثقات. فلا حرج: لا إثم ولا تضييق عليه بما يقوله نقلا عنهم؛ لاختلاف العلماء المجتهدين والمؤلفين المعول عليهم فى ذلك المذكور من كونهم أنبياء أو ملائكة.

النَّاسِ زُجِرَ عن الخَوْضِ فى مِثْلِ هذا[١] ؛ فإن عاد أُدِّبَ ؛ إذ ليس لهم الكلامُ فى مِثْلِ هذا .

وقد كَرِهَ السلفُ الكلامَ فى مِثْلِ هذا مما ليس تَحْتَهُ عَمَلٌ[٢] لأَهْلِ العِلْمِ ، فكيف للعامة .

فصل

اعلَمْ أن مَن استَخَفَّ بالقرآن أو المُصْحَف[٣] أو بشىء منه ، أو سبَّهُمَا ، أو جَحَدَهُ[٤] ، أو حرفا منه أو آيةً ، أو كَذَّبَ به[٥] أو بشىء منه ، أو كذَّب بشىء مِمَّا صُرِّحَ به فيه مِنْ حُكْمٍ أو خَبَرٍ ؛ أو أثبتَ مانَفَاهُ أو نَفَى ما أَثْبَتَه على عِلْمٍ منه بذلك ، أو شكَّ فى شَىْءٍ من ذلك فهو كافرٌ عند أهل العِلْم بإجماعٍ ؛ قال اللهُ تعالى[٦] : ﴿لا يَأْتيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

---

(١) عن الخوض فى مثل هذا ؛ أى التكلم والمحادثة به ؛ أى نهى ومنع عنه وعن المجادلة فيه والتكلم فيما لا يعنيه ، وهو الأمر الذى فيه خلاف من غير علم به ؛ لأنه ليس أهلا له ؛ فقد يقع فى ورطة تجره لما يصعب عليه الخلاص منه .

(٢) فى مثل هذا : الأمر الذى اختلف فيه . مما ليس تحته ؛ أى فى معناه وما يدل عليه ؛ فكأنه أمر يجب ستره . عمل ، أى من أعمال العبادة والطاعة ؛ فتركه لايفوت به شىء ، وذكره لا يترتب عليه أمر من الطاعة .

(٣) استخف بالقرآن : تهاون بتعظيمه وتوقيره . أو المصحف : قال الخفاجى : المراد بالمصحف صور ألفاظه المرسومة وما كتب فيه .

(٤) قال الخفاجى : الفرق بين التكذيب والجحد أن الأول مطلق الإنكار ، والثانى الإنكار لما يعلم حقيقته عنادا . (٥) كذب به ؛ أى بجزء منه ملفوظ أو مكتوب .

(٦) سورة فصلت ، آية ٤٢

قال الخفاجى : هذا مثل ضربه الله لنفى تعلق الإبطال ، وأنه لا يتوصل إليه ، فلا يجد طعن طاعن إليه سبيلا ؛ لأنه فى غاية الإحكام والرصانة ؛ فلا يتطرق الباطل له من جهة من الجهات ؛ فقوله : « من بين يديه ولا من خلفه » ـ كناية عن سائر الجهات .

حدثنا الفَقِيهُ أبو الوليد هشام بن أحمد رحمه الله ، حدثنا أبو على ، حدثنا ابْنُ عبد البر ، حدثنا ابنُ عبد المؤمن[١] ، حدثنا ابنُ دَاسَة ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو[٢]، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة ، عن النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ؛ قال[٣] : المِرَاءُ[٤] فى القرآنِ كُفْرٌ ؛ تؤُوِّلَ[٥] بمعنى الشكّ وبمعنى الجدال[٦] .

وعن ابن عباس ، عن النبى صلى اللهُ عليه وسلم[٧] : مَنْ جَحَد آيةً من كتابِ اللهِ من المسلمين فقد حلّ ضَرْبُ عُنُقه ؛ وكذلك إنْ جَحَد التَّوْرَاةَ والإنجيلَ وكتُبَ اللهِ المنزّلَةَ ، أو كفر بها ، أو لعنها ، أو سبّها ، أو استخفّ بها فهو كافرٌ[٨] .

وقد [٢٨١] أجمع المسلمون أنّ القرآنَ المَتْلُوّ فى جميع أقطارِ الأرض المكتوبَ فى المصحف بأيْدِى المسلمين ، مما جمعه الدَّفّتَانِ[٩] من أول : الحمد لله ربّ العالمين إلى آخر : قل أعوذُ بربّ الناس ـ أنه كلامُ اللهِ وَوَحْيُه المنزَّلُ على نبيّه محمدٍ

---

(١) هو عبدالله بن محمد بن عبد المؤمن القرطبى .

(٢) هو محمد بن عمرو بن علقمة بن أبى وقاص الليثى ، أخرج له الشيخان وغيرهما ، توفى سنة مائة وأربعة وأربعين .

(٣) فى حديث صحيح رواه أبو داود وأحمد فى مسنده : سنن أبى داود : ٢ ـ ١٦٩

(٤) المراء : من المرية ؛ وهى التردد فى الأمر ، وهى أخص من الشك .

(٥) تؤول : تأوله وفسره بعضهم .

(٦) قال الخفاجى : الشك معلوم . والجدال ، من الجدل ، وهو النزاع والمغالبة ، من جدلت الحبل ؛ إذا أحكمت فتله ، كأن كل واحد منهما يفتل صاحبه عن رأيه ، أى يصرفه .

(٧) فى حديث رواه ابن ماجه : سنن ابن ماجه : ٨٤٩

(٨) هو كافر ، لأنها كلها كلام الله تعالى .

(٩) الدفتان : مثنى دفة ـ بفتح الدال وضمها ، وهو جانب الشىء الذى يقيه من جلد وخشب ونحوه .

صلى اللهُ عليه وسلم ؛ وأن جميعَ ما فيه حقٌّ ،وأنَّ مَنْ نَقَص معه حرفا قاصِدًا لذلك ، أو بدّله بحرفٍ آخر مكانَه ، أو زاد فيه حرفا مما لم يشتمل عليه المُصْحَفُ الذى وقع الإجماعُ عليه ، وأُجْمِع على أنه ليس من القرآن عامدا لكل هذا ـ أنه كافر(١) .

ولهذا(٢) رأى مالك قَتْلَ مَنْ سَبَّ عائشةَ رضى الله عنها بالفِرْيةِ(٣) ؛ لأنه خالف القرآنَ ؛ ومَنْ خالفَ القرآنَ قُتِل ؛ لأنه كذَّب بما فيه .

وقال ابنُ القاسم : مَنْ قال إنَّ اللهَ تعالى لم يكلِّمْ مُوسى تكليما يُقْتَل(٤) ؛ وقاله عبد الرحمن بن مَهْدِىّ(٥) .

وقال محمد بن سُحْنُون فيمن قال : المعوِّذَتان(٦) ليستا من كتاب الله يُضْرَبُ عنقُه إلا أن يتوبَ .

وكذلك كل مَنْ كذَّبَ بحرف منه . قال : وكذلك إنْ شَهِد شاهدٌ على مَنْ قال : إنَّ اللهَ لم يُكلِّمْ مُوسى تكليما ؛ وشهد آخرُ عليه أنه قال : إنّ

---

(١) قال فى نسيم الرياض : (٤ ـ ٥٩٨) :

فإن قلت : مابين الدفتين يشمل البسملة فى أول كل سورة ، فإنها ثابتة فى المصحف العثمانى، وبها قرأ بعض القراء السبعة فصلا ووصلا ؛ فيلزم تكفير من قال : إنها ليست قرآنا فى أوائل السور .

قلت : المراد بما بين الدفتين ما أثبت فيه متفقا على قرآنيته، وهذا ليس كذلك ؛ فهو كأسماء السور ، وهذا معلوم من قوله : الذى وقع الإجماع عليه ؛ فخرج ماذكر .

(٢) ولهذا ؛ لأجل أن جميع مافى المصحف حق ، وأن من زاد فيه أو نقص ـ كافر .

(٣) الفرية : الافتراء والكذب عليها بما قاله المنافقون فى قصة الإفك المشهورة .

(٤) يقتل ؛ لأنه كذب الله فى قوله : وكلم الله موسى تكليما .

(٥) عبد الرحمن بن مهدى أحد الأعلام فى الحديث ؛ قال ابن المدينى : كان أعلم الناس بالحديث . ولد فى سنة خمس وثلاثين ومائة ، وتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة ، وأخرج له الستة .

(٦) المعوذتان : هما سورتا « قل أعوذ برب الفلق » ، و « قل أعوذ برب الناس » .

اللهَ ما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلا ؛ لأنهما اجتمعا على أنهُ كَذَّبَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم[١] .

وقال أبو عثمان بن الحدّاد[٢] : جميعُ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّوْحيد[٣] متَّفِقُون أنَّ الجَحْدَ لحرفٍ من التنزيل كُفْرٌ .

وكان أبو العالية إذا قرأ عنده رجلٌ لم يَقُلْ له ليس كما قرأْتَ ، ويقول : أما أنا فأقرأ كذا[٤] ، فبلغ ذلك إبراهيم ؛ فقال : أراه سَمِعَ أنه مَنْ كفر بِحَرْفٍ منه فقد كفَر به كلّه .

وقال أصبغ بن الفَرَج : مَنْ كذّب ببَعْض القرآنِ فقد كذّبَ به كلّه ، ومن كذّب به فقد كفر به ، ومَنْ كفَر به فقد كفر بالله .

وقد سئل القابسيُّ عمَّن خاصم يَهُودِيًّا فحلف له بالتَّوْرَاة ، فقال الآخر : لعن اللهُ التوراة ، فشَهِد عليه بذلك شاهدٌ ؛ ثمّ شهِدَ آخَرُ أنه سأله عن القضيّة[٥] فقال : إنما لعنْتُ تَوْرَاةَ اليَهُودِ ؛ فقال أبو الحسن : الشاهدُ الواحِدُ لا يُوجبُ القَتْل ، والثانى علّقَ الأمْرَ بصفةٍ تحتمِلُ التأويل ؛ إذ لعله لا يَرَى اليهودَ متمسّكين بشىء من عند الله لتبديلهم وتحْرِيفهم .

---

(١) كذب النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الوحى ؛ من ورود تكليمه ، واتخاذه خليلا فى القرآن مصرحا به .

(٢) أبو عثمان بن الحداد : القاضى المصرى الشافعى الكنانى صاحب التآليف البديعة ، والآثار العجيبة . توفى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة .

(٣) ينتحل التوحيد : يدعيه وينتسب إليه . قال الخفاجى : ويستعمل كثيرا بمعنى الزعم .

(٤) تفاديا عن الإنكار صريحا .

(٥) عن القضية التى جرت بينهما .

ولو اتفق الشَّاهِدَانِ عَلَى لَعْنِ التَّوْرَاةِ مجرَّداً لضاقَ التأويل(١) .

وقد اتَّفَقَ فقهاء بغداد على استتابة ابن شَنْبُوذ(٢) المُقْرِئ أحدِ أئمةِ المقرئين المتصدِّرين بها مع ابن مجاهد(٣) ؛ لقراءته وإقرائه بِشَوَاذّ من الحروف مما ليس في المُصْحف ، وعقدوا عليه بالرجوع عنه والتوبة عنه سِجِلًّا(٤) أشْهَد فيه بذلك على نَفْسه في مجلس الوزير أبى على بن مُقْلَة سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثمائة ؛ وكان فيمن أفْتَى عليه بذلك أبو بكر الأبْهَرِيّ وغَيْرُه .

وأفتى أبو محمد بن أبى زَيْد بالأدب(٥) فيمن قال لصبيّ : لعن اللهُ مُعَلِّمَك وما علّمَكَ. وقال(٦) : أردتُ سوء الأَدب ، ولم أُرِدِ القرآن .

قال أبو محمد : وأمّا مَنْ لعن المصحفَ فإنّه يُقْتَل(٧) .

---

(١) لعنا مجردا عما قاله ثانيا من تعليقه بأمر ، وتقييده بصفة يحتمل إضافتها لليهود . لضاق التأويل عن صرفه عن ظاهره لأمر آخر .

(٢) ابن شنبوذ : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب . وهو من مشاهير علماء القراءات ، وكان من أعيان العلماء الرؤساء مع غفلة فيه .

(٣) ابن مجاهد : أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمى رئيس القراء ، ولد سنة خمس وأربعين ومائتين .

(٤) السجل : اسم لما يكتب فيه .

(٥) بالأدب : بالتأديب والتعزير بما يليق به .

(٦) وقال : أى اللاعن . سوء الأدب فى حال قراءته ، وعدم تعظيم ماقرأه ووقوعه على حال غير مستحسنة ، فإن للقارئ آدابا ذكرها ، من خالفها ساء أدبه .

(٧) المراد أنه يكفر ويستحق القتل .

فصل

وسبُّ آلِ بَيْتِهِ[١] وأزْوَاجِهِ وأصحابه[٢] صلى اللهُ عليه وسلم وتنقُّصُهم حَرَام ملعونٌ[٣] فاعله .

حدثنا[٤] القاضي الشهيدُ أبو عليّ رَحِمه الله ، حدثنا أبو الحُسَين [٢٨٢] الصَّيْرفيّ وأبو الفَضْل العَدْل ، حدثنا أبو يَعْلَى ، حدثنا أبو عليّ السنجيّ ، حدثنا ابنُ محبوبٍ ، حدثنا الترمذى ، حدثنا محمد بن يَحْيَي[٥] ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم[٦] ، حدثنا عَبِيدة بن أبى رابطة[٧] ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن مُغَفّل ؛ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم : اللهَ ، اللهَ فى أصحابى[٨] ، لا تتّخِذُوهم غَرَضاً بعدى[٩] ؛ فَمَنْ أحبَّهم فبِحُبِّى أحبَّهم ، ومَنْ أبغضهم فبِبُغْضِى أبْغَضَهم ، ومن

(١) آل النبي صلى الله عليه وسلم للفقهاء فيهم اختلاف ؛ فذهب الشافعى إلى أنهم على وفاطمة وولدهما والعباس وجعفر ، وعقيل ، وآلهم ؛ وهم من لا تحل لهم الزكاة من بنى عبد المطلب ، لحديث : نحن وبنو عبدالمطلب شىء واحد لم نفترق فى جاهلية ولا إسلام ـ وشبك بين أصابعه . وفى ب : وسب آل النبى صلى الله عليه وسلم وآل بيته .

(٢) أصحابه : جمع صاحب ؛ وهو من لقيه صلى الله عليه وسلم مسلما .

(٣) ملعون : مطرود مبعد من رحمة الله .

(٤) رواه الترمذى : سنن الترمذى : ٥ — ٦٩٦

(٥) هو محمد بن يحيى بن عبدالله بن خالد بن فارس ، أبو عبدالله الذهلى ، توفى سنة خمس وخمسين ومائتين .

(٦) هو يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى ، توفى سنة مائتين وثمان ، وأخرج له الستة .

(٧) هو ثقة أخرج له أصحاب السنن .

(٨) الله الله : اتقوا الله . قال الخفاجى : كرره ووضع الظاهر موضع الضمير مبالغة فى التحذير وتأكيدا فى تفخيم أمرهم وشأنهم .

(٩) لا تتخذوهم غرضا بعدى :
الغرض : هو الهدف الذى ينصب ليرمى بالسهام ؛ وشبه به من يذم ويطعن فيه . بعدى : بعد موتى .

آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذَى اللهَ[١] ، ومَنْ آذى اللهَ يوشِكُ أنْ يأخذه[٢] .

وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : لا تسبُّوا أصحابى ، فَمَنْ سبّهم فعليه لعنةُ اللهِ والملائكة والناسِ أجمعين ، لا يقبلُ اللهُ منه صَرْفا ولا عَدْلا[٣] .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : لا تسبُّوا أصحابى ، فإنه يجىء قَوْمٌ فى آخر الزمانِ يسبُّونَ أصحابى فلا تُصَلُّوا عليهم ، ولا تُصَلُّوا معهم[٤] ، ولا تناكحوهم ، ولا تجالسوهم ؛ وإنْ مرضوا فلا تَعُودُوهم[٥] .

وعنه صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ سبَّ أصحابى فاضْرِبوه .

وقد أعْلَمَ النبىُّ صلى اللهُ عليه وَسلم أنَّ سبّهم وأذاهم يُؤْذِيه ؛ وأذى النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم حَرَامٌ ؛ فقال : لا تُؤذونى فى أصحابى ، ومن آذاهم فقد آذانى.

وقال : لا تُؤْذونى[٦] فى عائشة .

---

(١) آذى الله : الأذية : إيصال الضرر ؛ فالمراد أنه خالف أمره ونهيه ؛ إذ لا تتصور الأذية فى حقه عز وجل .

(٢) يوشك : يقرب . يأخذه : يهلكه .

قال الخفاجى : وفى هذا الحديث إشارة إلى شدة قربهم منه صلى الله عليه وسلم، وتنزيلهم منزلة نفسه، حتى كأن أذيتهم أذية له وواقعة عليه ؛ ثم أظهر ذلك على وجه أكده بقوله : فقد آذى الله ، إذ لا يضر الله شىء ، فهو إيماء لشدة قربه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الله .

(٣) صرفا : توبة أو طاعة تصرف وجهه لطاعة الله . ولا عدلا : العدل : الفدية. والحديث فى صحيح مسلم : ١٩٦٧

(٤) لا تصلوا عليهم ، أى بعد موتهم . ولا تصلوا معهم ، أى لا تقتدوا بهم .

(٥) قال فى نسيم الرياض : وظاهر هذا الحديث أن سب الصحابة كفر مطلقا ، وليس كذلك ، فإن فيه تفصيلا يأتى .

(٦) فى ا : لا تؤذينى .

وقال ـ فى فاطمة : بَضْعَة[١] منى يُؤذينى ما آذاها .

وقد اختلف العلماء فى هـذا ؛ فمشهورُ مَذْهب مالك فى ذلك الاجتهادُ[٢] والأدبُ الموجع ؛ قال مالك رحمهُ الله : مَنْ شَتَم النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم قُتِل ؛ ومَنْ شتَم أصحابَه أُدِّب .

وقال أيضا : مَنْ شتَم أحداً من أصحاب النبىّ صلى اللهُ عليه وسلم : أبا بكر، أو عُمر ، أو عثمان ، أو معاوية ، أو عَمْرو بن العاص ؛ فإنْ قال : كانوا على ضَلَالٍ وكُفْرٍ قُتِل[٣] ؛ وإن شتَمهم بغيرِ هذا من مُشاتَمةِ الناس نُكِّل نكالاً شَدِيدا[٤] .

وقال ابنُ حبيب : من غَلاَ من الشيعة إلى بُغْضِ عثمان والبراءة[٥] منه أُدِّبَ أدَباً شَدِيدا ؛ ومَنْ زاد إلى بُغْضِ أبى بكر وعُمر فالعقوبةُ عليه أشـدُّ ، ويكرَّر ضَرْبُه ، ويُطَالُ سِجْنُه حتى يموت ، ولا يُبْلَغ به القَتْلُ إلا فى سَبِّ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم .

وقال سُحْنون : مَنْ كفَّر أحداً من أصحاب النبىِّ صلى اللهُ عليه وَسلم : عليًّا، أو عثمان ، أو غَيْرَهما ـ يُوجَعُ ضَرْباً[٦] .

---

(١) البضعة ـ بفتح الباء ، وقد تكسر : القطعة من اللحم . وحديث فاطمة فى سنن الترمذى : ٥ — ٦٩٩

(٢) الاجتهاد للحاكم ، فيفوض لرأيه وما يقتضيه . . .

(٣) قتل، لأن فيه تكذيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولجميع الأمة. وهذا إذا لم يؤوله بأن قال : أردت : قبل إسلامهم . وهذا مذهب مالك .

(٤) نكل : عوقب . نكالا شديدا بما يوجعه من ضرب مؤلم ونحوه .

(٥) غلا : بالغ . من الشيعة : المفرطين فى محبة على واعتقاد أفضليته ، وانتهى فى غلوه إلى بغض عثمان بن عفان .

(٦) قال الخفاجى : وهذا المذكور عن مذهب مالك مخالف لما تقدم من أن من قال إنهم كانوا على ضلال وكفر قتل ، ولذا عقبه بقوله : وحكى أبو محمد . . .

وحكى أبو محمد بن أبى زَيْد ، عن سُحْنون : مَنْ قال فى أبى بكر وعُمر وعُثمان وعلىّ : إنهم كانوا على ضَلَالةٍ وكُفْرٍ قُتِل . ومَنْ شَتَم غَيْرَهم من الصحابة بمثْلِ ذلك نُكِّلَ النَّكَالَ الشديد(١) .

ورُوِىَ عن مالك(٢) : مَنْ سبَّ أبا بكر جُلِدَ ، ومَنْ سبَّ عائشةَ قُتِل . قيل له : لِمَ ؟ قال : مَنْ رَمَاها فقد خالف القرآن(٣) .

وقال ابنُ شعبان عنه : لأنَّ اللهَ يَقول(٤) : ﴿ يَعِظُكُم اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمثْلِه أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾ ؛ فمن عاد لِمثْلِه فقد كفر(٥) .

وحكى أبو الحَسَن الصِّقِلِّى أنَّ القاضى أبا بكر بن الطيِّب(٦) قال : إنَّ اللهَ تعالى إذا ذَكَر فى القرآنِ ما نسبه إليه المشركون سبَّح نَفْسَه لنَفْسِه(٧) ؛ كقوله(٨) : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانَه ﴾ ... فى آى كثيرة .

---

(١) بمثل ذلك : بنسبتهم للضلال والكفر . نكل النكال الشديد : عوقب العقاب الشديد بلا قتل ؛ للفرق بين كبار الصحابة وغيرهم .

(٢) فى قول آخر له .

(٣) من رماها : من سبها وافترى عليها بما برأها الله منه ، فقد خالف القرآن ، لأن الله برأها فيه من كل عيب فى قصة الإفك .

(٤) سورة النور ، آية ١٧

(٥) قال فى نسيم الرياض : وقد تقدم عن ابن العربى قريبا أنه قال : إن أصحاب الشافعى قالوا : إن من سب عائشة أدب كما فى سائر المؤمنين ، وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » لايقتضى أنه كفر ، لأنه تغليظ فى الزجر ، كقوله : لايزنى الزانى حين يزنى ، وهو مؤمن .

وأنه أجاب بأن مالكا سئل عمن رمى عائشة بالإفك ، فقال : ليس هو كرمى غيرها ، لأن الله برأها مما قالوه ، فراميها مكذب لله فيما أخبر به من براءتها .

(٦) هو الباقلانى .

(٧) سبح : نزه ، وبرأ . نفسه : ذاته المقدسة . لنفسه : أى قاله ابتداء من غير نسبه لغيره .

(٨) سورة الأنبياء ، آية ٢٦

وقد نزلت هذه الآية فى خزاعة ؛ إذ قالوا : الملائكة بنات الله .

وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة فقال[١] : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ ، هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ـ سَبَّحَ نَفْسَه فى تَبْرِئتها[٢] من السّوء ، كما سبّحَ نفسَه فى تَبرِئته من السّوء[٣] .

[٢٨٣] وهذا يشهَدُ لقولِ مالكٍ فى قتلِ مَنْ سبّ عائشةَ .

ومعنى هذا ، والله أعلم ، أنّ اللهَ ، لَمّا عظّم[٤] سبّها كما عظّم سبّه ، وكان سبُّها سبًّا لِنَبيّه ، وقَرَن سبّ نبيّه وأذاه بأذاه تعالى ؛ وكان حُكمُ مُؤذِيه تعالى القتلَ كان مُؤذِى نَبيّه كذلك كما قدمناه[٥] .

وشتَم رجلٌ عائشةَ بالكوفة ، فقُدّم إلى موسى بن عيسى العباسىّ[٦] ؛ فقال :

---

(١) سورة النور ، آية ١٦

هذا بهتان عظيم ، أى افتراء عظيم لا يليق بعاقل التكلم به .

(٢) سبح نفسه : برأها ونزهها مبالغة فى تنزيه عائشة .

(٣) قال فى نسيم الرياض (٤ – ٦١٠) : فيه تنويه بقدرها ورفعة مقامها حيث جعل ما لا يليق بالله لا يليق بها .

(٤) أى جعله عظيما فى قبحه .

(٥) قال فى نسيم الرياض (٤ – ٦١١) :

وأورد عليه أنه على ماقاله ليس قتله بسب عائشة رضى الله عنها ؛ بل للازمه من سبه النبى صلى الله عليه وسلم .

وأيضا لوسلم هذا لزم قتل أصحاب الإفك ، ولم يقع .

وأيضا قد تقدم الفرق بين من سب الله وسب رسوله صلى الله عليه وسلم على أقوال تقدمت .

وأيضا يلزمه ذلك فى سب الصحابة مطلقا ؛ لأنه يؤذيه صلى الله عليه وسلم .

وليس بشىء ؛ لما علمته من أن المراد به أذية عظيمة لما فيه من الشين الذى لا يرضاه أحد فى نسبة أهله للزنا والرضاء به .

وأما عدم قتل أهل الإفك المنافقين فى حياته صلى الله عليه وسلم فالحكمة اقتضته من إثارة الفتن وصد من ضعف إسلامه عنه بإشاعة أنه يقتل أصحابه .

(٦) قال الخفاجى : المعروف فى التواريخ أنه عيسى بن موسى بن على بن عبدالله بن العباس

من حضَر هذا ؟ فقال ابنُ أبى ليلى(١) : أنا ؛ فجلَدَه ثمانين ، وحلَق رَأْســه(٢) ، وأسْلمه إلى الحجّامين(٣) .

[وَرُوِىَ عن عُمر بن الخطّاب أنه نَذَرَ(٤) قَطْعَ لسان عُبَيد الله بن عُمر ؛ إذْ شتَمَ المِقْدَادَ بن الأسود ، فـكُلِّمَ فى ذلك ، فقال : دَعُونى أَقطعُ لسانَه حتى لا يَشْتُمَ أحَدٌ بَعْدُ أصحابَ النبىّ صلى اللهُ عليه وسلّم(٥)] .

ورَوَى أبو ذَرّ الهرَوِى(٦) أنّ عُمَر بن الخطاب أُتِى بأعرابىّ يَهْجُو الأنصار ، فقال : لولا أنّ له صحبةً لـكَفَيتموه(٧) .

قال مالك : مَنِ انتقص(٨) أحداً من أصحابِ النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم فليس

---

(١) ابن أبى ليلى : محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الفقيه المشهور ، وكان أفقه أهل عصره ، وأعلمهم بالسنة حتى وصل لمرتبة الاجتهاد .

والشتم : المراد به هنا القذف ، فـكأنه يذكر قصة الإفك ، بدليل قوله : فجلده ثمانين ، لأنه حد القذف .

(٢) حلق رأسه ؛ لأن هذا كان تعزيرا فى العصر الأول ؛ لأن العرب كانت لا تحلق الرءوس إلا فى نسك ، وكان الأسير إذا حلق رأسه عدوه عارا عليه .

قال الخفاجى : وجمع له بين الحد والتعزير ؛ لأنه لا يجوز الجمع بينهما عنـد الشافعى فى مسائل ذكروها .

(٣) أسلمه إلى الحجامين : قال الخفاجى : تسليمه لهم إما ليحبس عندهم ، أو ليخرجوا منه دما يضعفه ، أو ليكون معهم فى خطتهم ؛ فهو نفى له ، أو هو إهانة له ؛ يسقط قبول شهادته برذالة صنعته ، وهذا أظهر . وفى ا : فى الحجامين .

(٤) المراد بالنذر هنا : إلزام نفسه جزما بفعله .

(٥) وقطع اللسان من المذكور تعزير له لا حد ؛ فإنه لا تجوز الشفاعة فيه بخلاف التعزير . وما بين القوسين ساقط فى ب .

(٦) أبو ذر الهروى : هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروى الحافظ .

(٧) لـكفيتموه : لقتلته وكفيتـكم شره وهجوه ؛ ولـكن لشرف صحبته عفا عنه .

(٨) انتقص أحدا من أصحاب النبى : ذكرهم بما فيه نقص لهم .

له فى هذا الفَىْء حقٌ[١] ، قد قسم اللهُ الفَىْء فى ثلاثة أصناف ، فقال[٢] : ﴿ للفُقَرَاء المهاجِرِين الَّذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا مِنَ الله وَرِضْوَاناً وينْصُرونَ اللهَ وَرسولَه أولئك هم الصادقون ﴾ .

ثم قال[٣] : ﴿ والَّذينَ تبَوَّءوا الدَّار وَالإيمانَ مِنْ قَبْلهم يحِبُّون مَنْ هاجر إليهم ، ولا يَجِدُون فى صدورهم حاجةً مما أُوتُوا ويُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصَةٌ ﴾ .

وهؤلاء هم الأنصارُ .

ثم قال[٤] : ﴿ والَّذينَ جاءوا مِنْ بَعْدِهم يقُولُونَ : رَبَّنَا اغْفِرْ لنا ولإخْوَانِنا الذين سبقُونَا بالإيمان ولا تَجْعَلْ فى قُلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربّنا إنكَ رَءوف رَحِيمٌ ﴾ .

فَمَنْ تنقَّصَهُمْ فلا حقَّ لَهُ فى فَىْء المسلمين .

وفى كتاب ابن شَعْبان : مَنْ قال فى واحدٍ منهم إنه ابْنُ زَانيةٍ وأُمُّه مُسلمةٌ حُدَّ عند بعض أصحابنا حَدّين : حدًّا له ، وحَدًّا لأُمِّه ؛ ولا أجعلُه كقاذِفِ الجماعةِ فى كلمةٍ لفَضْل هذا[٥] على غيره ، ولقوله صلّى اللهُ عليه وَسلم : « مَنْ سبَّ أصحابِى فاجلدوه » ؛ قال : وَمَنْ قذفَ أُمَّ أحدِهم وهى كافرةٌ حُدَّ حَدَّ الفِرْيةِ[٦] ؛

(١) فليس له فى هذا الفئ حق ؛ لا نصيب له فى مال يؤخذ فيئا من الكفار . والفىء : ما أخذ من الكفار من غير قتال ، فيدخل فيه الخراج والعشر والغنيمة .

(٢) سورة الحشر ، آية ٨

أى الذين هاجروا من ديارهم للمدينة لنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وابتغاء فضل الله ورضوانه .

(٣) سورة الحشر ، آية ٩

(٤) سورة الحشر ، آية ١٠

فهؤلاء يدعون ويستغفرون لهم ويعظمونهم بسبقهم للسعادة فى الدارين .

(٥) لفضل هذا على غيره : لزيادة جرمه .

(٦) الفرية : الكذب .

لأنه سبٌّ له ؛ فإنْ كان أحَدٌ من وَلَدِ هذا الصحابىّ حيًّا قام[١] بما يجبُ له ، وإلاّ فمَنْ قام به من المسلمين كان على الإمامِ قبولُ قيامِه ؛ قال : وليس هذا كحقوقِ غَيْرِ الصحابةِ لِحُرْمةِ هؤلاء بِنَبِيِّهِمْ صلى اللهُ عليه وَسلم ، ولو سِمِعَه الإمامُ ، وأَشْهَد عليه ، كانَ وَلِيَّ القِيَامِ[٢] به ؛ قال : ومَنْ سبَّ غَيْرَ عائشة من أزواج النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ففيها قولان :

أحدهما ـ يُقْتَل ؛ لأنه سبَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بِسَبِّ حَلِيلَته[٣] .

والآخر أنها[٤] كسائر الصحابة ؛ يُجْلَد حدَّ المُفْتَرِي ؛ قال : وبالأول أقول .

وروى أبو مُصْعب[٥] ، عن مالك ـ فيمن انْتَسبَ[٦] إلى بيتِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم يُضْرَبُ ضَرْباً وَجِيعاً ، ويُشْهَر[٧] ويُحْبَس طويلا حتى تظهر توبتُه ؛ لأنه استخفافٌ بحقّ الرسولِ صلّى اللهُ عليه وسلم[٨] .

---

(١) قام مقام أبيه بما يجب له ؛ أى بطلب حقه الواجب لسبه؛ لأنه وارثه فى ماله وحقوقه؛ فليس لغيره حق فى هذه الدعوى .

(٢) كان ولى القيام به أى : يتولى الحد واستيفاءه .

(٣) حليلته : زوجته .

(٤) أنها ؛ أى حليلته .

(٥) أبو مصعب : أحمدبن أبى بكر القاسمبن الحارث بن زرارةبن مصعب بن عبدالرحمن الزهرى المدنى القاضى ، قاضى المدينة .

(٦) بقرابة ، أو ولاء ، قيل : أو صحبة .

(٧) يشهر : يطاف به فى الأسواق ليعلم الناس حاله ويشتهر ضلاله لئلا يقتدي به غيره .

(٨) فى نسيم الرياض (٤ ـ ٦١٥) : وحاصل قوله : من انتسب... إلى هنا ـ أن من ادعى أنه من أهل البيت وهو ليس منهم ، وأثبت له انتسابا لهم ، يستحق النكال والتشهير . وقد ورد فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : أيما رجل دعى إلى غير أبيه فقد كفر . وهذا يدل على عظم هذا ، وأنه يشدد فيه .

قال الخفاجي : وقد كثر هذا فى زماننا ، وتساهلوا فيه ، ودخلوا فى هذا النسب الطاهر وادعاه كثير من الأشرار ، وتسارع القضاة بذلك إلى إثبات الإنساب ، وجعلوا له علامة .

وأفتى أبو مُطَرِّف الشعبيّ فقيهُ مالقةَ(١) في رَجُلٍ أنكر تحليفَ امرأةٍ بالليل؛ وقال(٢) : لو كانتَ بنتَ أبي بكر الصدّيق ما حلفَت(٣) إلا بالنّهار ، وصوّب قولَه بعضُ المتّسمين بالفقْه ؛ فقال أبو المطرِّف : ذِكْرُ هذا لابنةِ أبي بكر في مِثْلِ هذا يُوجبُ عليه الضَّرْبَ الشديدَ والسجنَ الطويل(٤) .

والفقيهُ الذي صوّبَ قولَه أحقُّ باسم الفِسْقِ من اسْمِ الفِقْه ؛ فيُتقَدَّم(٥) له في ذلك ، ويُزْجَر(٦) ، ولا تُقْبَل فَتْواهُ ولا شهادتُه ، وهي جُرْحةٌ ثابتةٌ فيه ، ويُبْغَضُ في الله(٧) .

[وقال أبو عِمْرَانَ(٨) في رجل قال: لو(٩) شَهِد عليّ أبو بَكْرٍ الصِّدّيق :أنه إنْ كان في مِثْلِ(١٠) هذا لا يَجُوزُ فيه الشاهد الواحِد ، فلا شيء عليه ؛ وإنْ كان أرادَ غَيْرَ هذا فيُضْرَب ضَرْبا يُبْلَغُ به حدُّ الموت](١١) ؛ وذكروها رواية .

* * *

(١) مالقة : بلد بالمغرب . (٢) وقال هذا الذى أنكر تحليفها بالليل .

(٣) فى ا : ماحلفت ـ بالبناء للمعلوم .

(٤) لجرأته على بنت خليفة رسول الله وأم المؤمنين ؛ فإن المتبادر منها عند الإطلاق عائشة رضى الله عنها ، وإن كان له غيرها .

(٥) يتقدم له : يبرز لمخالفته وتفسيقه عما قاله فى ذلك المقال الذى قاله .

(٦) فى ا : ويؤخر .

(٧) جرحة ؛ من الجرح المسقط للعدالة ، فلا يقبل ماقاله . (٨) فى ا : ابن عمران .

(٩) فى نسيم الرياض (٤ ـ ٦١٦): قال السبكى: الغرض من هذا كله أنه فاسق مرتكب لكبيرة عظيمة لا مخلص له منها بسبيل إلى العدالة ، ومن كان بهذه الصفة لا تقبل له شهادة قطعا.

(١٠) إن كان مراده أن شهادة فى مثل هذا لا تجوز ولا تكفى وحدها بهذا الشاهد الواحد؛ لأن شهادة رجل واحد لا تقبل مطلقا فلا شىء عليه .

(١١) أمام مابين القوسين فى ا : صح من الأم بخطه من غير الرواية . وهو فى هامش(ب).

قال القاضى أبو الفضل : هنا انتهى القولُ بنا فيما حرّرْناهُ [٢٨٤] ، وانتجز الغرضُ الذى انتحيناهُ ، واستُوْفىَ الشَّرْطُ الذى شرطناه ، مما أرجو أنْ يكون فى كل قسمٍ منه لِلمُرِيد مَقْنَع ؛ وفى كلّ بابٍ مَنْهَجٌ إلى بُغْيته ومَنْزَع .

وقد سفَرْتُ[1] فيه عن نُكَتٍ تُسْتَغْرَبُ وتُسْتَبْدع[2] ، وكَرَعْتُ فى مَشَارِبَ من التحقيق لم يورَدْ لها قَبْلُ فى أكثرِ التصانيفِ مَشْرَع[3] ، وأودعْتُهُ غيْرَ مافَصْلٍ ، وَدِدْتُ لو وَجدتُ مَنْ بَسَطَ قَبْلِى الكلامَ فيه ، أو مُقْتَدًى يُفِيدُنِيه عن كتابه أو فيه[4] ، لأكتَفِىَ بما أرْوِيه عمّا أرَوِّيه .

وإلى اللهِ تعالى جزيلُ الضَّراعة فى المِنّة بقبولِ ما مِنْه لوجْهِه ، والعَفْوِ عما تَخلَّله مِنْ تزَيُّن وتَصَنُّع لغيره ، وأنْ يهبَ لنا ذلك بجميل كرمِه وعَفْوه لما أودعناه من شَرَفِ مُصْطَفاه[5] ، وأمين وَحْيِه ، وأسْهَرْنا به جفونَنا لِتَتَبُّع فضائله ، وأعمَلْنا فيه خواطِرَنا مِنْ إبرازِ خصائصه ووسائله ، ويحْمِي أعراضَنا عن نارِه المُوقَدةِ لحمايتنا كرِيمَ عِرْضِه ، ويجعلَنا مِمَّنْ لا يُذَادُ[6] إذا ذِيدَ المُبَدِّلُ عن حَوْضِه ؛ ويجعله لنا ولِمَنْ تهمَّمَ باكْتِتابه[7] واكتسابه سببا يَصِلُنا بأسبابه ، وذَخيرةً نجدُها يوم تجدُ كلُّ نفْسٍ ما عملَتْ من خَيْرٍ مُحْضَرًا[8] نحُوزُ بها رِضَاهُ ، وجزيلَ ثَوابه ؛ ويخصّنا

---

(١) سفرت : كشفت ، وبينت فى هذا الكتاب .

(٢) تستغرب وتستبدع : تعد غريبة نادرة ، وبديعة غير مسبوقة بالمثل فى جنسها .

(٣) مشرع : محل يستفاد منه مثلها .

(٤) يريد : أو أسمعه منه .

(٥) مصطفاه : رسوله الذى اختاره لرسالته وتبليغ أمانته .

(٦) لا يذاد : لا يطرد .

(٧) تهمم : اعتنى واهتم . باكتتابه : بكتابته .

(٨) محضر : حاضرا عندها .

بخصِّيصى[١] زُمْرَةِ نبيّنا وجماعته، ويحشُرَنا فى الرَّعيلِ الأول[٢]، وأهلِ الباب الأيمن[٣] من أهل شفاعته؛ ونحمده تعالى على ما هَدَى إليه من جَمْعِه وأَلْهَمَ، وفتح البصيرةَ لدَرْكِ[٤] حقائقِ ما أودعناهُ وفهم، ونستعيذه جلَّ اسمُه مِنْ دعاء لايُسْمَعُ، وعِلْمٍ لاينفع، وعملٍ لايُرْفَعُ؛ فهو الجَوَادُ[٥] الذى لايَخيبُ مَنْ أَمَّلَه، ولا يَنتصر مَنْ خَذَلَه، ولا يَرُدّ دعوةَ القاصدين، ولا يُصلِحُ عَمَلَ المفسدين؛ وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل؛ وصلاتُه على سيدنا ونبينا محمدٍ خاتَمِ النبيّين وعلى آله وَصَحْبه أجمعين، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه، وتتلوه الفهارس العامة

---

(١) خصيصى : اختصاص .

(٢) الرعيل الأول : السابقون من الفرسان . والمراد كل سابق للخير والفعل الحسن، ومن يبادر لفعل الخير ممن يكرمه الله بدخول الجنة قبل غيره . وهم بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام العلماء العاملون .

(٣) أهل الباب الأيمن : أصحاب اليمين ممن يؤتى كتابه بيمينه .

(٤) درك : إدراك .

(٥) الجواد : الكريم الكثير الجود ، أى الإعطاء .

الفهارس العامة للـكتاب

١ — فهرس الأبواب والفصول

الباب الثانى :

الباب الثالث :

الباب الرابع :

القسم الثالث

القسم الرابع

٢ ـ فهرس الآيات القرآنية*

سورة الفاتحة

سورة البقرة

* مرتبة فى سورها .

النساء

المائدة

الأنعام

هـــود

يوسف

الإسراء

الـكهف

الأنبيـــاء

الحج

سبأ

فاطر

يس

الصافات

---

٣ ـ فهرس موضوعات الكتاب مفصلة*

* حاولنا فى هذا الفهرس أن نبرز أهم المسائل ، وأحاديث الرسول الواردة فى الكتاب .

الحكمة فى إجراء الأمراض وشدتها عليه وعلى الأنبياء ٩١١ ـ ٩١٣ ، أى الناس أشد بلاء ٩١٣ ، حديث : ما يزال البلاء بالمؤمن ٩١٤ ، حديث : إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ٩١٤ ، سبب ابتلاء يعقوب بيوسف ٩١٥ ، سبب بلاء أيوب ومحنة سليمان ٩١٦ ، فائدة شدة المرض والوجع بالنبى ٩١٧ ـ ٩١٩ ، المؤمن مرزأ مصاب بالبلايا ٩٢٠ ، موت الفجاءة ٩٢٤

تصرف وجـــوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه ٩٢٦ ، الآيات الدالة على هذه الأحكام ٩٢٧ ، قول اليهود : راعنا ٩٢٧ ، قول الرسول : تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى ٩٢٨ ، للناس فى هذا الحديث مذاهب : ٩٢٩ ، من سمى باسم محمد ٩٣١

بيان ماهو سب أو نقص فى حقه ٩٣٢ ، جزاء من سب النبى : ٩٣٣-٩٣٨ ، من دعا على نبى من الأنبياء ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، تسمية النبى باليتيم ٩٤٠ ، جزاء الاستهزاء بالرسول ٩٤١ ، جزاء من قصد النبى بأذى أو نقص معرضا أو مصرحا ٩٤٢

الحجة فى إيجاب قتل من سبه أو عابه ٩٤٤ ، من القرآن ٩٤٤ ـ ٩٤٧ ، من الآثار ٩٤٨ ، قتل كعب بن الأشرف ، وعبد الله بن أبى الحقيق ٩٤٩ ، قتل ابن خطل وجاريتيه ٩٤٩ ، حوادث أخرى : ٩٥٠ ـ ٩٥٤ ، مالك يقول الرشيد : ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها ٩٥٤ ، سبب هذا الجزاء لسابه أو متنقصه ٩٥٥

لم يقتل النبى الذى قال له : السام عليكم ، وغيره ٩٥٨ ، أسباب ذلك ٩٥٨-٩٦٢ ، لم لم يقتل المنافقين : ٩٦٣ ـ ٩٦٥ ، القائل للرسول : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ٩٦٦ ، حديث : ما انتقم الرسول لنفسه ٩٦٩

وجه قتل القاصد لسبه ٩٧١ ، إذا كان القائل غير قاصد للسب والإزراء ٩٧٢ ، إذا قصد سابه تكذيبه ٩٧٥ ، من شك فى حرف مما جاء به ٩٧٦ ، إذا أتى من الكلام بمجمل أو بمشكل يمكن حمله على النبى وغيره ٩٧٨ ، دم المسلم لا يقدم عليه إلا بأمر بين ٩٨١ ، إذا لم يقصد سبا ، لكنه يقصد الترفيع لنفسه ٩٨٥ ، أمثلة لذلك : ٩٨٦ ـ ٩٩٦ ، حق أمثال هؤلاء ٩٩٠

٤ — فهرس الشعر

٥ — فهرس الأعلام

(ب)

(غ)

(ف)

(١) صحته الربيع بنت معوذ كما ورد فى هامش رقم ٧ فى الصفحة نفسها .

٦ — فهرس الأماكن والبلاد ونحوها

٧ - فهرس مراجع الشرح والتحقيق، والتعليق

أسباب النزول للواحدى	مكتبة الحلبى ١٣٧٩ ﻫ
الاستيعاب لابن عبد البر	مكتبة نهضة مصر
الإصابة لابن حجر	مكتبة نهضة مصر ١٩٧٠ م
أحكام القرآن لابن العربى	دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦ ﻫ
الإكمال لابن ماكولا	نسختى المخطوطة المحققة
البداية والنهاية لابن كثير	المطبعة السلفية
تاج العروس للزبيدى	دار ليبيا للنشر والتوزيع
تاريخ بغداد للخطيب	طبع القاهرة ١٣٤٩ ﻫ
تاريخ الطبرى	دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠ م
تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر	المؤسسة المصرية العامة للتأليف ١٣٨٣ﻫ
تفسير ابن كثير	دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة
تفسير الطبرى (جامع البيان)	دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت
تفسير القرطبى	طبع دار الكتب المصرية
تقريب التهذيب لابن حجر	المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ١٣٨٠ ﻫ
تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى	الهند ١٣٢٥ ﻫ
جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى	المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة ١٣٨٤ﻫ
دلائل النبوة لأبى نعيم	المكتبة العربية بحلب ١٣٩٠ ﻫ
ديوان أبى نواس	مطبعة مصر ١٩٥٣ م
ديوان حسان بن ثابت	المكتبة التجارية ١٣٤٧ ﻫ
ديوان المتنبى	مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة ١٣٥٥ ﻫ
الذخيرة لابن بسام	لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٤٢ م

زهر الآداب للحصرى — دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٣ م

سقط الزند (التنوير) — مطبعة بولاق ١٢٨٦ هـ

سنن ابن ماجه — دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٢ م

سنن أبى داود — المطبعة الكستلية ، بتصحيح نصر الهورينى ١٢٨٠ هـ

سنن الترمذى — مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة ١٩٣٧ م

سنن النسائى — مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٤ م

السيرة الحلبية — المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٩٣٢ م

سيرة ابن هشام — المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٣٧ م

شرح الشفا للقارى — المطبعة العثمانية بتركيا ١٣١٩ هـ

الشعر والشعراء لابن قتيبة — دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ

الشمائل المحمدية للترمذى — نسختى المخطوطة المحققة

الشمائل المحمدية (المواهب) — مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣٢ هـ

صحيح البخارى — طبعة محمد صبيح

صحيح مسلم — دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٥ م

الصناعتين لأبى هلال العسكرى — دار إحياء الكتب العربية

الطبقات الكبرى لابن سعد — دار التحرير بالقاهرة ١٩٦٨ م

الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى — دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٤٥م

القاموس المحيط للفيروزابادى — القاهرة ١٩٣٥ م

الكشاف للزمخشرى — المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ

لب اللباب فى تحرير الأنساب للسيوطى — طبعة مكتبة المثنى

اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير — مكتبة القدسى ١٣٥٦ هـ

لسان العرب لابن منظور — الطبعة الأميرية ١٣٠٠ هـ

مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع — دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ م

مسند أحمد   دار صادر بيروت
مسند الطيالسى   المطبعة المنيرية بالأزهر
المشتبه للذهبي   دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٦٢ م
الموطأ لمالك   دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥١ م
معترك الأقران فى إعجاز القرآن   دار الفكر بالقاهرة ١٩٦٩ م
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم   محمد فؤاد عبد الباقى ، دار الشعب
المعجم المفهرس لألفاظ الحديث   مطبعة بريل - ليدن ١٩٦٥ م
معجم البلدان لياقوت   مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ هـ
معجم مااستعجم للبكرى   لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٤٥ م
المغازى للواقدى   مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦ م
المفردات فى غريب القرآن   مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة ١٩٦١ م
مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا للسيوطى   طبع حجر بالقاهرة ١٢٧٦ هـ
ميزان الاعتدال للذهبي   دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٦٢ م
نسيم الرياض (شرح الشفا) للخفاجى   المطبعة العثمانية ١٣١٧ هـ
نهاية الأرب للنويرى   دار الكتب المصرية بالقاهرة
النهاية لابن الأثير   المطبعة العلمانية بالقاهرة ١٣١١ هـ

تصويبات

وقعت بعض الأخطاء فى أثناء الطبع نصوبها فيما يأتى :

الصفحة	السطر	الصواب
٨٥	١٠	فى
٢٧٣	١٠	بن
٣٣٣	٥	وأصلُ
٣٤٨	٤	٢
٤٣٢	١٧	فى سنن .
٤٨٤	١	أرقام الصفحتين
٤٨٥	١	
٤٩٠	٥	غَوْرث
٦٧٧	١٧	أبا أيوب
٧٣٣	١١	فالآخر
٧٨٥	٤	تقتضى
٧٨٥	١٣	معذبين
٧٨٥	٢٤	جبلتهم
٨٢٣	٩	الناصحين
٨٢٤	١٦	تلبيسه وتغريره
٨٣٠	٧	صممت
٩٠٧	٩	قَبْلُ
٩٠٨	٣	اشترطى
٩١١	٨	ليبلوكم
٩٣٠	٩	تسمَّوا
١٠٢٣	٩	ومحمد
١٠٤٠	١٣	القتل
١٠٤٢	٧	العتْبية
١١٠٦	١١	وولداهما